

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري

المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الثالث

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

بشار عواد معروف — محمود بشار عواد



تونس

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

المجلد الثالث



[ابتداءُ أمرِ اللَّمتُونيِّين][1][2]

[والـمُوجِبُ لخروجهم عن الصّحراءِ إلى وطن المغرب، أنّ أحدَ بني جدالةَ[3]، ويُعرَفُ بيحيى بن إبراهيمَ من جدالة، كان قد توجَّه لأداءِ فريضة الحجّ واجتاز في إيابه على مدينة القَيْروان، وذلك سنة أربعين وأربع مئة، فحضَر بها مجلسَ الفقيه المدرِّس أبي عِمرانَ الفاسيّ، فسأله عن قبيلتِه ووطَنِه، فذَكَر أنه من الصّحراءِ من قبيلة جدالة، إحدى قبائل صُنْهاجة، فقال له الفقيهُ: ما مذهبُكم؟ فقال له: ما لنا عِلمٌ من العلوم ولا مذهبٌ من المذاهب، لأننا في الصّحراءِ منقطِعين لا يصلُ إلينا إلّا بعضُ التُّجّار الجُهّال، حِرفتُهم الاشتغالُ بالبيع والشِّراء ولا عِلمَ عندَهم...][4].

... ويُشتَهرون، وفينا أقوامٌ على تعليم العلوم يحرِصون، وعلى التفقُّه في الدِّين من الله يرغَبون، فعَسى يا سيِّدَنا تنظُر في مَن يتوجَّهُ معي إلى بلادنا ليعلِّمَنا دينَنا، فقال له الفقيه: سوف أجتهدُ لك في ذلك إن شاء اللهُ تعالى؛ فعَرَضَ الفقيهُ الأمرَ على الطلَبة هنالك، فلم يجدْ أحدًا يوافقُه على ذلك، لأجْل مشقّة السَّفَر البعيد، والانقطاع في

---

(١) هذه القطعة التي تنتهي في أوائل حوادث سنة ٥٤١هـ كانت في أصلها أوراقًا عثر عليها الأستاذ ليفي بروفنسال، ونشر منها القسم الخاص باستيلاء السيد الكَنْبيطور على بلنسية. ثم قام الأستاذ هويسي ميراندا بنشر سائرها في مجلة «Hesperes» سنة ١٩٦٠م، ثم أعاد نشرها صديقنا العلامة الأستاذ إحسان عباس، يرحمه الله، في دار الثقافة استنادًا إلى نشرة ميراندا وعلق عليها بعض تعليقات مفيدة أفدنا منها، كما أصلحَ بعضَ أخطائها، وقد أصلحنا بعض ما فيه من غلط الطبع، ثم قيدناه بالشكل، فإن مثل هذه النصوص لا تُفهم ولا تُضبط إلا بذلك.

(٢) كل ما بين حاصرتين فهو من زيادات الناشرين للتوضيح حسبما يأتي التعليق عليه.

(٣) وتكتب «كدالة» فهي كاف أعجمية، وهي إحدى قبائل صنهاجة.

(٤) هذا النص من الحلل السندسية، وهو أيضًا باختلاف لفظي في الروض ٨٠، والبكري ٢/ ٨٥٨-٨٥٩، وترجمة أبي عمران الفاسي في عيون «الإمامة ونواظر السياسة» لأبي طالب المرواني، ص١٦٧ وفيه مصادر ترجمته واسمه موسى بن عيسى بن أبي حاج. والتاريخ المزعوم حول هذا اللقاء لا يصح البتة فإن أبا عمران الفاسي توفي سنة ٤٣٠هـ كما هو مشهور، فإن كان مثل هذا اللقاء قد تم فإنه قبل هذا التاريخ.

الصَّحارى، فدُلَّ الفقيهُ على رجُل من فقهاءِ الغَرْب الأقصى اسمُه واجاج[1]، فأعطاه كتابًا يوصلُه إليه يؤكِّدُ في الاجتهاد في ذلك عليه. فلمّا وصَل يحيى بنُ إبراهيمَ إلى أقصى المغرب وجَدَه في موضع يقال له: «ملكوس»، واجتَمع معَه فيه، وأعطاه كتابَ الفقيه أبي عمران، فرحَّب به وأكرَمَه، وكلَّمه يحيى بما أراد أن يُكلِّمَه، وأعلَمَه بوصيّة الفقيه أبي عِمرانَ إليه، وتوكيدِه عليه، فاختار له شخصًا يقال له: عبدُ الله بنُ ياسين، فسار معَه إلى قبيلة جدالة، فاجتَمع عليه عندَهم نحوُ سبعينَ شخصًا ما بينَ كبيرٍ وصغيرٍ من فقهائهم ليُعلِّمَهم ويُفقِّهَهم في دينِهم، فانقادوا له انقيادًا عظيمًا، ووالَوْه في ابتداءِ الأمر تكريمًا، وأقاموا معَه على ذلك مدةً كبيرة، واجتَمع عليه منهم أعدادٌ كثيرة، إلى أنْ أمَر عبدُ الله المذكورُ لقبائل جدالةَ بغَزْو قبائل لَـمْتُونة، فحارَبَهم جدالةُ حتّى غَلَبوهم ودخَلوا في دعوة عبد الله بن ياسين، وغزَوْا معَهم سائرَ قبائلِ الصّحراء وحارَبوهم، فقوِي أمرُ جدالةَ وظهورُهم إلى أن مات يحيى بنُ إبراهيم.

وبقيَ فيهم عبدُ الله بن ياسين يمتثلونَ كلَّ ما به يَأمُرُهم مُنقادِينَ لأمرِه ونهيِه، إلى أنْ نَقَضَ عليه شخصٌ منهم، اسمُه: الجوهرُ بن سُحَيْم[2]، شيئًا من أحكامِه وجَدَ فيها تناقضًا، فتوافَقَ معَ بعض رجالٍ من كُبرائهم فعزَلوه من الرأي والـمَشُورة، وقَطَعوا منه مالَهم، وانتَهَبوا دارَه وهدَموها، وأخَذوا ما كان فيها، وخَرج عبدُ الله بنُ ياسين عنهم خائفًا منهم.

وكان أميرَ لَـمْتُونةَ يومَئذٍ يحيى بنُ عُمرَ بن بولنكاينَ[3] اللَّمْتُونيُّ، فرحَل إليه عبدُ الله المذكور، فتلقَّاه يحيى بنُ عُمرَ بأحسنِ قَبول من إقباله، وأخَذ معَه في أمورِه وأحوالِه، فتوجَّه عبدُ الله بن ياسين إلى شيخِه واجاجَ الذي دخَل يحيى بنُ إبراهيمَ الجداليُّ عليه، وقيل: إنه كتَبَ ولم يتوجَّه بنفسِه إليه، فأعلَمَه بما جَرى في جدالَة، وبيَّنَ له

---

(١) ويكتب «واكاك» لأن الجيم فيه كاف أعجمية، وفي المسالك للبكري ٢/ ٨٥٩: «وجّاج بن زلوي».

(٢) في المسالك للبكري ٢/ ٨٥٩: «سكّم».

(٣) سماه البكري: «يحيى بن عمر بن تلاجاجين» (المسالك ٢/ ٨٥٩)، وسماه القلقشندي: «يحيى بن عمر بن واركوت بن ورتنطق بن منصور بن مرصالة (صبح الأعشى ٥/ ١٨٤).

أمرَه معهم وحالَه، فشَقّ على الشّيخ واجاجَ المذكور ما أعلَمَه من ذلك، فكتَبَ إلى بعض أشياخ جدالةَ يُعاتبُهم على ما صَدَر لعبد الله بن ياسين منهم وما بَلَغَه من فعل المشغِّبينَ عليه وهو مقيمٌ بينَهم، وأخَذ في ذلك أخْذًا كُلِّيًّا عليهم، وعاتَبَ عتابًا شافيًا إليهم، لكونهم كانوا قدِ انقادوا إليه، ثم انتَقَدوا ما شيَّعه عدوُّه عليه، فلمّا وصَل جوابُ الشّيخ واجاجَ من أشياخ الجداليِّينَ المذكورين، مستعذِرينَ له على تقصيرهم في حقِّ عبدِ الله بن ياسين، أمَرَه بالرّجوع إلى تلك القبائلِ الصَّحراوية، وكتَبَ لأشياخِهم يُعلمُهم أن مَن خالَفَه قد خالَفَ الجماعة.

بعضُ أخبارِ عبد الله بن ياسين معَ لَـمْتُونةَ في ابتداءِ أمرِهم

وذلك أنه لـمّا استقرَّ عبدُ الله بن ياسين عندَ لَـمْتُونة، انقادوا له وأطاعوه، واحتال على الذين شاغَبوا عليه في جدالةَ فقتَّلهم، وأمَرَ بقتل منِ استوجَب القتلَ عندَهم، فأجابتْه بعضُ القبائل الصَّحراوية ودخَلوا في دعوتِه والتَزَموا السُّنّةَ به، وكان أشدَّهم انقيادًا له أميرُ لَـمْتُونَةَ يحيى بنُ عمر، فكان يَخرُجُ معَه معَ قبائل لَـمْتُونة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يَخرُجوا تحتَ طاعتِه، إلى أن نَهَضوا إلى قبيلة لَـمطةَ فسألوهم ثُلُثَ أموالِـهم ليَطِيبَ لهم الثُّلُثانِ الباقيان ـ كذا سنَّ لهم عبدُ الله بنُ ياسين في الأموالِ المختلَطة ـ فأجابوه إلى ذلك ودخَلوا معَهم في دعوتِه مدةً كبيرة، وتقدَّم يحيى بنُ عُمرَ اللَّمْتُونيُّ على قبيلة مَسُوفةَ وغيرِها.

وكان عبدُ الله بنُ ياسين قد دخَل بلادَ الأندَلس في دولة ملوك الطوائف، فأقام بها سبعةَ أعوام، وحصَل فيها على علوم كثيرة، ثم رجَع إلى المغرب الأقصى فمرَّ بتامَسْنا فوجَد فيها أُممًا لا تُحصَى أكثرُهم تحتَ أُمراءِ البَرْغَواطة[1]، وكان عسكرُ أمراءِ بَرْغواطة أكثرَ من ثلاثةِ آلاف، وانضاف إليهم من سائر القبائل، ما بينَ فارس وراجِل، أزيدُ من عشرينَ ألفًا من جُراوةَ وزغاوةَ ومَطْغَرةَ والبَرانِس وركُونةَ وغيرِها.

وكان أهلُ المغرب يتولَّوْنَ أمورَ بلادِهم، وأمراؤهم يتولَّوْنَ الإمارةَ بينَهم، إلى أن تغلَّب كلُّ شخصٍ منهم على موضعِه، كما فعَل ملوكُ طوائفِ الأندَلس. فمرَّ عبدُ الله بنُ

(١) حول ضبط «برغواطة» ينظر تاريخ الإسلام ١٠/ ٥٤٤.

ياسين ببلاد الـمَصامِدة بعدَ مُنصَرَفِه من الأندَلس فوجَدهم يُغِيرونَ بعضُهم على بعض، يغنَمونَ الأموال ويقتُلونَ الرجال ويَسبُونَ الحَريم، ولا يرجِعونَ إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعضُ الإلهام أن قال لبعضِهم: ألا تعرِفونَ الله ربَّكم ومحمدًا رسُولَكم عليه أفضلُ الصّلاة وأزكى السلام؟ فقالوا له: نعَمْ، عرَفْنا اللهَ ربَّنا ومحمدًا نبيَّنا ﷺ، فقال لهم عبدُ الله: فما لكم بدَّلتُم وغيَّرتُم؟ هلّا قدَّمتُم عليكم إمامًا يَحكُمُ بينكم بشريعة الإسلام وبسُنّة النبيِّ عليه السلام؟ فقال له بعضُ أشياخ المصامدة: لا يرضى أحدٌ منّا ينقادُ إلى حُكم أحد من غير قبيلِه، فترَكَهم ورحَل عنهم إلى بلاد جُزولة، فكان من أمرِه معَ يحيى بن إبراهيم وجدالةَ ما تقدَّم ذكْرُه. ثُم رحَل من جدالةَ إلى لَـمْتُونة، فانقادوا له، وكان أميرُهم يحيى بنُ عُمر أشدَّ انقيادًا له كما تقدَّم ذكرُه. قال بعضُ المؤرِّخينَ في «المجموع المفترق» وفي كتُبِ غيرِ ذلك، إنّ بعدَ الأربعينَ والأربع مئة قامت قبائلُ في الصَّحراء من صُنْهاجةَ يُعرَفونَ ببني وارِث وخلفَهم لَـمْتُونةُ وجدالة، وهم يُجاورونَ البحرَ، ليس بينَهم وبينَه قَبيلٌ غيرُهم، وهذه الثلاثةُ قبائلَ في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوةِ الحقّ ورَدِّ المظالم وقَطْع الـمَغارم، وهم متمسِّكونَ بالسُّنة.

وكان الذي شَرِع فيهم ذلك، ودلَّهم على أرشدِ المسالك، عبدُ الله بنُ ياسين، وأولُ ما أخَذت لـمتُونةُ من البلاد بلادَ دَرْعة.

قال أبو عُبيد رحمه الله[1]: وكان للمتُونةَ في قتالهم في ابتداءِ أمرِهم شدّةٌ وجَلَد، وليس كذلك لغيرهم، وكانوا يختارونَ الموتَ على الانهزام ولا يُحفَظُ لهم فِرارٌ مِن زَحْف، وكان قتالُهم على النُّجُب أكثرَ من الخَيْل وأكثرُهم مترجِّلونَ على أقدامِهم صفوفًا صفًّا بعدَ صفّ، يكونُ بأيدي رجال الصفِّ الأول القَنا الطِّوال، وكانت لهم رايةٌ يقدِّمونَها أمامَ الصُّفوف، فهم يقِفونَ ما وقَفت منتصبة، وإن أمالَها إلى الأرض جَلَسوا، فكانوا في ذلك أثبتَ من الهضاب، فمَن فَرَّ أمامَهم سَلَبوه ولم يقتُلوه، ويقتُلونَ الكلاب، ولا يَستصحِبُونَ شيئًا منها في سَكَناتِهم ولا في حَرَكاتِهم، وكان يحيى بنُ عُمر يمتثلُ أمرَ عبد الله بن ياسين امتثالًا عظيمًا، ولقد أخبَر جماعةٌ عنهما أنّ عبدَ الله قال له في بعض الحروب: أيُّها الأمير، إنّ عليك أدبًا، فقال له يحيى: وما الذي أوجَبَه عليّ؟ فقال له

---

(١) هو أبو عبيد البكري صاحب كتاب المسالك، والخبر فيه ٢/ ٨٦٠.

عبدُ الله: لا أخبرُك حتى آخُذَ حقَّ الله بك، فحكَّمه في نفسِه وضَرَبه بالسّوط ضَرَباتٍ في رجلِه ثم قال له: إنّ الأميرَ لا يدخُل القتالَ بنفسِه؛ لأنّ حياتَه حياةُ عسكرِه وهلاكَه هو هلاكُهم.

بعضُ أخبارِ الأمير أبي زكريّا يحيى بن عُمر أمير اللَّمتُونيِّين وسببُ تسميتِهم بالـمُرابِطين وخروجِهم منَ الصَّحراء إلى سِجِلْماسة ودَرْعة

كان هذا أبو زكريّا مُنقادًا في جميع أمورِه لإمامة عبد الله بن ياسين، فقدَّمه بعسكرِه وعبدُ الله في مقدِّمته، وهو في الحقيقة الأميرُ الذي يَأمُرُ وينهى. وكان يَلي لَـمْتُونَةَ جبلٌ فيه قبائلُ من البربر على غيرِ دين الإسلام، فدَعاهم عبدُ الله بنُ ياسين إلى الدِّين فامتَنَعوا له، فأمَرَ يحيى بنَ عُمر بغَزْوِهم فغَزاهم لمتُونةُ، وسَبَوْهم وقسموا سبيَهم بينَهم، وأخَذ أميرُهم خُمسَهم، وهُو أولُ خُمس قسَمه اللَّمتونيونَ في صَحرائهم، وكان قد فُقِد في ذلك الوقت من عسكرِهم أكثرُ من نصفِ عددِهم، وكان إمامُهم عبدُ الله بنُ ياسين يُصبِّرُهم إلى أنْ ظَهَروا بأعدائهم، فسمّاهم عبدُ الله بالـمُرابِطين، وسمّى أميرَهم يحيى بنَ عُمر أميرَ الحق. ووَقَفْتُ على كتابٍ قديم... لـمّا بعَثَ الفقيهُ أبو محمد عبدُ الله بن ياسين لأهل هذا الجبل الـمُوالي لبلاد لَـمتُونَةَ يُدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد عليه السلام وأن يُؤدُّوا ما فَرَضَ اللهُ عليهم من الزّكاة فامتَنعوا وقَتلوا رسُلَه، فأمَرَ لمتُونةَ بغَزْوِهم، فخَرج إليهم وصَعِد عليهم الجبلَ وقاتَلَهم ثلاثةَ أيام قتالًا...[1] مات من لـمتُونةَ فيه عددٌ كثير، وصبرَ الفريقانِ صبرًا عظيمًا، فلمّا كان في اليوم الرابع جَمَعَ عبدُ الله بنُ ياسين أصحابَه لمتُونةَ وقال لهم: إذا احتسَبْنا أنفُسَنا في حقِّ الله وسُنّة نبيِّنا محمد ﷺ، وأراكم قد أعياكم حربُ هؤلاءِ المشركين ولم يأمُرْنا اللهُ أن نترُكَهم إذ...[2] فاستعينوا بالله ربِّكم ينصُرْكم عليهم، فخَرَجت لـمتُونةُ في اليوم الرابع، وكان...[3] أسبغ...[4]

(١) فراغ في الأصل.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

وعَزَم على الحرب، فحَمِي الوَطِيسُ بين الفريقَيْن، واشتدّت الحربُ إلى أنِ انهزَم أعداؤهم وقَتلوهم قتلًا ذَريعًا وسَلَبوا أموالَهم وسَبَوْا نساءَهم وأبناءهم...[1] وعادوا إلى بلادِهم، فأمَرَهم إمامُهم عبدُ الله بنُ ياسين بإعطاء الخُمس لأميرِهم يحيى بن عمر...[2] وأخَذوه.

ولـمّا ظَهَر لعبد الله بن ياسين استقامةُ لمتُونَة وجِدِّهم واجتهادُهم، أراد أن يُظهِرَهم ويملِّكَهم بلادَ المغرب، فقال لهم: إنّكم قد غزوتُم ونَصرتُم دينَ محمد ﷺ، وقد فتحتُم ما كان أمامَكم وستفتحونَ إن شاء اللهُ ما وراءكم، فأمَرَهم بالخروج من الصّحراءِ إلى سِجِلْماسة ودَرْعة وأهلِها يومَئذٍ تحتَ طاعة زَناتة الـمَغْراويِّين وأميرِهم مسعودِ بن وانُودين وذلك بعدَما خاطَبوهم فلم يُجيبوهم إلى ما طَلَبوا منهم، فغَزَوْهم في جيش كثيف وأكثرُهم على النُّجُب رُكبانًا[3] ومنهم رِجالًا وفُرسانًا، فقاتَلَهم لمتُونةُ إلى أن غَلَبوهم، فطَلَبوا العفوَ منهم وأدخَلوهم سِجِلْماسة، فقيل: إنّهم قَتلوا مسعودَ بن وانُودين أميرَهم، وقيل: بل فرّ أمامَهم وأقام بها الأميرُ يحيى بنُ عُمرَ مدةَ أشهرٍ معَ إخوانِه اللَّمتُونيِّين.

ثم تَخلَّف جماعةٌ منهم ورحَل منها معَ إخوانِه إلى الصّحراء لأجْل جدالةَ أعدائهم، وبعدَ ذلك زَحفت زَناتةُ الـمَغْراويّونَ على سِجِلْماسة، فدخَلوها وقَتلوا مَن كان بها من اللَّمتُونيِّين في المسجد الجامع، فقيل: إنّ ذلك كان في السنة ستٍّ وأربعين وأربع مئة[4]، وقيل: في سنة ثمان وأربعين.

ثم بعدَ ذلك نَدِم أهلُ سِجِلْماسةَ على ما فُعِل معَ لمتُونة، وتَواتَرت رُسُلُهم على عبد الله بن ياسين يَذكُرونَ أنّ زَناتةَ الـمَغْراويِّينَ [زحفت إليهم][5]، وأنهم هم الذين فَعلوا ما فَعلوا وقَتلوا مَن قَتلوا وطَلَبوا الوصُولَ إليهم والقدومَ عليهم ليأخُذوا ثأرَهم منهم، فنَدَب عبدُ الله بنُ ياسين اللَّمتُونيِّين وغيرَهم [إلى غزوِ زَناتةَ ثانيةً][6]، فخالَفَه

---

(١) فراغ في الأصل.

(٢) كذلك.

(٣) ذكر البكري أن عدد الجمال المستعملة في الجيش كانت (٣٠) ألف جمل (المسالك ٢/ ٨٦٠).

(٤) ينظر البكري ٢/ ٨٦٠.

(٥) ما بين الحاصرتين من المسالك للبكري ٢/ ٨٦١.

(٦) كذلك.

قبائلُ جدالة وذهبوا إلى الساحل، فأمَرَ عبدُ الله بنُ ياسين أميرَ لمتُونةَ يحيى أن يتحصَّن في جبلِهم، وهو جبَلٌ غزيرُ الماء والكلأ.

قال أبو عبيد رحمه الله[1]: كان في طُولِه مسيرةَ ستّة أيام، وفي عرضه مسيرةَ يوم واحد، وفيه حصنٌ يُسمّى أزكي[2]، حولَه نحوٌ من عشرينَ ألفَ نخلة، فصار يحيى بنُ عُمر في ذلك الحصن، قيل: بسببِ مَرَضٍ أصابه، وقيل غيرُ ذلك.

وكان أبو بكر بنُ عُمر قد ترَكَه أخوه يحيى بنُ عُمر أميرًا على بلاد دَرْعة، فاجتَمع لعبد الله بن ياسين جيشٌ كثيفٌ من لـمتُونة ومَسُوفة ولمطةَ ومزجَة[3]، وصار بهم إلى دَرعة. ثم بعدَ ذلك رجَعَت جيوشُ جدالةَ إلى يحيى بن عُمر، قيل: إنّهم كانوا نحوَ ثلاثينَ ألفًا وأقلَّ منهم رُكبانٌ على النُّجُب وبعضُهم على الخيل، وذلك في سنة ثمانٍ وأربعين، وقيل: سنةَ تسع؛ وكان التقاؤهم معَ لـمتُونةَ في موضع معروف عندَهم، قُتل فيه يحيى بنُ عُمر وقُتل فيه بشَرٌ كثير، وهم يَذكُرونَ بزَعْمهم أنّهم يسمَعونَ في ذلك الموضع أصواتَ المؤذِّنين عندَ أوقات الصَّلوات، والآنَ يحترمونَه ولا يدخُلُه أحدٌ منهم[4].

ذكرُ دولة الأميرِ أبي بكر بن عُمرَ اللَّمتُونيِّ رحمه الله

وذلك أنه لـمّا بلَغَ الخبرُ بوفاة أخيه أبي زكريّا ببلاد الصّحراء، قدَّمه أمامَه عبدُ الله بنُ ياسين في دَرْعة، وتوجَّه إلى سِجِلْماسةَ وأخَذ له البيعةَ من أهلِها، ثم وصَلَها الأميرُ أبو بكر فبويعَ بها في أوائل شهر محرَّم مفتتَح عام خمسينَ وأربع مئة، وقيل غيرُ ذلك، وبايَعَه فيها بعضُ الزَّناتيِّين عل يدَيْ عبدِ الله بن ياسين، وخَرج الأميرُ أبو بكر من سِجِلْماسة بعسكرِه في الثالثَ عشَرَ إلى دَرعة ليأخُذَ منهم ما أوجَبَ له عليهم من الزّكاة والفِطرة، وكان بدَرعةَ قومٌ من زَناتة فامتَنعوا له فقاتَلَهم الأميرُ أبو بكر وهزَمَهم وغَنِم إبِلَهم ومواشيَهم، ووَلّى الأميرُ أبو بكر على بلادِ دَرعةَ رجُلًا من خِيار لـمتُونة، وترَكَ معَه جَمْعًا

---

(١) المسالك ٢/ ٨٦١.

(٢) في مسالك البكري: «أركى» بالراء.

(٣) في مسالك البكري ٢/ ٨٦٢: «ترجة».

(٤) ينظر مسالك البكري ٢/ ٨٦٢.

كبيرًا وعاد إلى سِجِلْماسة، وانصَرف أبو محمد عبدُ الله بنُ ياسين عنه إلى بلاد الـمَصامدةِ وغيرِها حين تذَكَّر ما عايَنَه من تلك القبائل وأحوالِـهم، فخَرج من سِجِلْماسةَ قاصدًا إلى أغمات، فاجتَمع بوَرِيكةَ وهيلانةَ وهزميرةَ، وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامَسْنا فوجَدهم على ما كان ترَكَهم من الفتنة الفَهَّاء[1] فقال لهم: ألا تعرفونَ أنه مَن مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار؟ فوعَظَهم وقال لهم: اتَّقوا اللهَ وارتَدِعوا عمّا أنتم عليه من فتنتِكم وقدِّموا على أنفسِكم من يؤَلِّفُكم، فقالوا له: ما هو فينا، ولا في قبائلنا إلّا كلُّ قبيلة منّا ترى أن يكونَ الأميرُ منها، فقال لهم: إن أنتم سمِعتُم منّي أدُلُّكم على رأيٍ صالح يُصلحُ اللهُ به أحوالَكم: هذا أميرُ لَمتُونةِ الصَّحراء أهل الزُّهد والوَرَع، وقد كانوا سَمِعوا به، وما أصلحَ اللهُ من البلاد على يدَيْه، فأنعِموا له. وأَخَذ عليهمُ العهودَ والمواثيقَ بذلك.

ثم رحَل عنهم ورجَع إلى سِجِلْماسةَ فتلَقّاه الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر على مسيرةِ يوم منها، وسُرَّ بقدومِه عليه، فبشَّره عبدُ الله بنُ ياسين بما أفاء اللهُ له على يدَيْه، فشكَرَه الأميرُ أبو بكر على ذلك ودَعا له بامتدادِ عُمُرِه، فقال له أبو محمد عبدُ الله: تأَهَّب للحركة إليهم وقدومِك المباركِ إليهم، فأخَذ في غد ذلك اليوم في حرَكته ووَلّى على سِجِلْماسةَ أحدَ إخوانِه معَ جمعٍ وافر من لَـمتُونة، وخَرج من سِجِلْماسةَ في السابعَ عشَرَ لربيع الآخِر من السنة خمسينَ المذكورة، وذلك في عسكرٍ فيه أربعُ مئة فارس وثمان مئة راكب على النُّجُب وألف راجِل، وكان وصولُهم إلى أغماتِ وَرِيكةَ في الثاني لجُمادى الأولى من السنة، فتلقَّتهم بعضُ أشياخ قبائل المصامدة على مرحلتَيْن من أغمات، فاحتلّ الأميرُ أبو بكر مدينةَ أغماتَ واستوكن معَ إمامِه عبد الله بن ياسين فبايَعَه بعضُ القبائل بها.

ثم وفَدت عليه وفودُها فبايَعوه، وأقام بأغماتَ معَ إمامِه مدةً من ستة أشهر؛ فلمّا كان أولُ شهر ذي قَعْدةٍ من العام المؤرَّخ: انصَرف عنه إمامُه أبو محمد إلى بلاد تامَسْنا فقتَلَه بَرْغواطةُ في أوائل سنة إحدى وخمسينَ وأربع مئة، وقال بعضُ المؤرِّخينَ لدولتهم: إنه توجَّه في بلاد السُّوس ليُصلحَ بين إخوتِه جدولةَ في فتنة، فأصابَه مرَضٌ فقضَى نحبَه

---

(١) هكذا قرأناها، ولعل هذه القراءة هي الصواب، والفهاء: الجهلاء.

ووصَل نَعْيُه إلى أغمات، وأمّا ما صحَّ عنه فإنه قتَله بَرْغواطةُ كما تقدَّم ذكرُه[1]. ولم يُقتَلْ عبدُ الله بنُ ياسين حتى استوَلَى على سِجِلْماسة وأعمالِـها وأغماتَ وبلادِ السُّوس وغيرِها.

ومما يُذكَرُ من أحوال عبد الله بن ياسين[2] أنه سافَر معَ قوم كانوا معَه فعَطِش جميعُهم فشكَوْا ذلك إليه فقال: عسى اللهُ أن يجعلَ لنا من أمرِنا فَرَجًا ومخرجًا. ثم سار بهم ساعة وقال احفِروا، فحفَروا فوجَدوا الماءَ بأدنَى حَفْر، فعَدُّوا ذلك كرامةً له، فشربوا جميعًا وسَقَوْا دوابَّهم وانصَرفوا. وكانت لـمتُونةُ لا تقدِّمُ أحدًا منهم للصلاة إلّا من صلّى خلفَ عبد الله بن ياسين، وقيل: كان عبدُ الله نَكّاحًا للنِّساء يتزوَّجُ في الشهر عددًا منهنّ ثم يُطلِّقُهنّ، فكان لا يسمَعُ بامرأةٍ حسناءَ إلّا خَطَبها، ولا يُجاوزُ بصَداقِهنّ أربعةَ مثاقيل.

وأمّا ما شذّ فيه عبدُ الله من الأحكام[3] فأخْذُه الثُّلُثَ من الأموال المختلَطة، وزَعَم أنها بذلك تَطِيب، وأنّ الرجُلَ إذا دخَل في دعوتهم وتابَ عن سالِف ذنوبِه قالوا له: قد أذنَبْتَ ذنوبًا كثيرةً فيجبُ أن يُقامَ عليك حدودُها، فيضربوه حدَّ الزِّنا وحدَّ الافتراء، وإن عَلِموا أنه قتَل قَتلوه سواءً أتاهم تائبًا طائعًا أو غَلَبوا عليه. ومَن يتخلَّفْ من مشاهدةِ الصّلاة معَ الجماعة ضُرِب عشرينَ سوطًا، ومَن فاتَتْه ركعةٌ ضُرِب خمسةَ أسواط، فكان أكثرُهم يصلُّونَ بغير وضوءٍ إذا حان الوقتُ وأعجَلَهم الأمرُ من أجل الضّرب.

وممّا يُحفَظُ من جهل عبدِ الله بن ياسين أنّ رجُلًا اختَصم إليه معَ تاجر غريب، فقال له التاجرُ في جوابِه: حاشا لله أن يكونَ ذلك، فأمَرَ بضربِه.

ولـمّا مات ابنُ ياسين وقتَله بَرْغواطةُ كان الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر قد توَلّى أمرَ صُنْهاجةَ وغيرِها وطاعت له قبائلُ المصامدة بأسرِها، فقام معَهم لقتال بَرْغواطةَ حتّى أخَذ الثأرَ منهم. وفي ابتداءِ هذه الدّولة اللَّمتُونيّة اختلافٌ اختصَرْنا منه ما وقَع الاتفاقُ عليه.

---

(1) ذكر صاحب «روض القرطاس» حروبه مع برغواطة ومقتله في إحدى المعارك متأثرًا بجراحه يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤١، وذكر في أنه دفن في موضع يقال له كريفلت (ص٩٦).

(2) النقل من مسالك البكري ٢/ ٨٦٣.

(3) عنون البكري لهذا النص في كتابه ٢/ ٨٦٤.

ذكرُ نَسَب أُمراءِ الدّولة الـمُرابِطيّة

قال ذَوو العلم بأخبارِهم: إنّ الجَدَّ الذي ينتهي إليه نَسَبُ جميعِهم هو منصور، والجَدُّ الذي يفترقُ منه أفخاذُهم: ترجوت بنُ ورتاسن بن منصور بن مَصَالةَ بن أُميّةَ بن وانمالي الصُّنهاجيُّ ثم اللَّمتُونيّ. وكانت لترجوتَ ثلاثةُ بنين: محمدٌ وحُمَيْد وإبراهيم، فتفرَّقت منهم بُطونٌ كثيرة، وكان القائمَ بالـمُلك في الصّحراء بعدَ أبيه إبراهيم، وهو جَدُّ يحيى بن عُمرَ الأمير المتقدِّم ذكرُه، وكان يقال له: أميرُ الحقّ، وهو: يحيى بنُ عُمر بن إبراهيمَ بن ترجوت، وكان لأمير الحقِّ يحيى المذكور من الوَلَد أربعة بل ثلاثة: محمدٌ وعليٌّ وعيسى، وكان لأُمِّ محمد نبأٌ ظَريف يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

واستَصحَبَ يحيى بنُ عُمر الأمرَ بقيّةَ عمُرِه، فلمّا قضَى نحْبَه وَلِـي الأمرَ بعدَه أخوه أبو بكر بنُ عمر، وكان يَرى في منامِه بقرتَيْنِ يُخيّرُ فيهما فيضَعُ يدَه على إحداهما فيقال له: هذا الذي أخذتَ هُو الملك، والذي تركتَ هو الوَلَد وكان له ابنان: إبراهيمُ ويحيى، فأمّا يحيى فيُعرَفُ بابن عائشة، وهي بنتُ يارانَ بن تايغشت أُختُ إسحاقَ بن ياران، وأمّا إبراهيمُ فلم تَعرَفْ أُمُّه، وكان أسودَ الجِلدة، وهو إبراهيمُ ابنُ الأمير أبي بكر بن عُمر. وأمّا فخِذُ يوسُف بن تاشْفينَ ومن ذُكِر معَهم فهم بنو إبراهيم، فهو يوسُفُ بن تاشْفين بن إبراهيمَ بن تورجوت.

وفي سنة ستينَ وأربع مئة: استقامت الأمورُ للأمير أبي بكر بن عُمر وطاعَتْ له البلادُ ووَجَّه عُمّالَه إليها، وكان مستوطنًا بمدينة أغمات، وكانت بها امرأةٌ جميلةٌ تُعرَفُ بزَيْنبَ النَّفْزاويّة: قد شاع ذكرُها وأمرُها في قبائل المصامدة وغيرِها، فكان يخطُبُها أشياخُهم وأمراؤهم فتمتنعُ لهم وتقول: لا يتزوَّجُني إلا مَن يَحكُم المغربَ كلَّه، فكانوا يَرمُونَها بالحُمق، وكان لها أخبارٌ مُستطرَفةٌ غريبة كمِثل أخبارِ الكَهَنة، فبعضٌ يقولون: إنّ الجنَّ يُكلِّمُها، وبعضٌ يقولون: هي ساحرة، وبعضٌ يقولون: كاهنة، فأُعلِم بجمالها الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر فخَطَبَها وتزوَّجها فوعدَتْه بمالٍ كبير تُخرجُه له، ثم أدخلتْه في دار تحتَ الأرض معصَّبَ العينَيْن، ثم أزالتِ العِصابةَ ففتَح عينَيْه فرأى بيوتًا فيها ذهبٌ كثير وفضةٌ وجواهرُ ويواقيت، فعَجِب من ذلك أبو بكر بنُ عُمر كلَّ العَجَب لِـما عايَنَ من الذّخائر والذّهب والفضّة، فقالت له زوجُه زَيْنبُ: هذا كلُّه مالُك ومتاعُك أعطاك اللهُ

إياه على يدَيْ، فصرَفْتُه الآنَ عليك، وكان رؤيتُه له بضوءِ الشَّمع، ثم أخرجَتْه معصَّب العينَيْن من ذلك الموضع كما أدخلَتْه فيه، فلا عَلِم من أين دخَل ولا من أين خَرج، وكان دخولُه معرِّسًا بزَيْنبَ المذكورة في شهر ذي القَعْدة من عام ستينَ وأربع مئة. وكانت هذه المرأةُ موسومةً بالجمال والمال، وكان لها محاسنُ وخِصالٌ محمودة ورَوِيّة مُستطرَفة، فقيل ـ واللهُ أعلم ـ: إنّ الجِنَّ كانت تخدُمُها، وقيل غيرُ ذلك كما تقدَّم.

وفي سنة إحدى وستينَ وأربع مئة: بعَثَ الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر عسكرًا كبيرًا قدَّم عليه ابنَ عمِّه يوسُفَ بن تاشْفين، وبعَثَ معَه جُملةً كبيرة من أشياخ لـمتُونةَ ومن قبائل البَرْبر الـمَصامِدة وغيرِهم، وذلك برَسْم قتال رؤساءِ القبائل القاطنينَ بأرض المغرب، وكان أكبرُهم شوكةً بني يَفْرن الزَّناتيِّين المستوطنينَ في قلعة مَهْدي بن تبالا[1]. فحارَبَهم يوسُفُ بن تاشْفينَ بمن كان معَه من القبائل التي دخَلت في طاعة الأمير أبي بكر بن عُمر، وفرَّ مُعَنْصَرُ بن حمّاد إلى مدينة فاس، وقَتل منِ اتُّهم بالقيام بأمرِ لمتُونة، وقَتل يوسُفُ بن تاشْفين أناسًا من سِدْراتَة.

وفي هذه السنة: ضاق المجمَعُ بمدينة أغماتِ وَرِيكةَ عن الخَلْق فيها، فشكا أشياخُ وَرِيكةَ وهيلانةَ بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عُمر مرّةً بعدَ أخرى إلى أن قال لهم: عيِّنوا لنا موضعًا أبني فيه مدينةً إن شاء اللهُ تعالى، وكان سُكناهُ معَ إخوانِه في الأخْبِية، حتَى ابتَنَى بزَوْجِه زَيْنبَ النَّفْزاويّة في هذا العام؛ فزاد الخَلْقُ بأغماتَ من أجل... هيلانةَ وهزميرةَ على أن يُعيِّنوا موضعًا حيث يكونُ بناءُ المدينة، فوقَعَ التنازُعُ بينَ المذكورينَ في ذلك، وطلَب كلُّ واحد أن يكونَ بناءُ المدينة في بلادِهم ليُنسَبَ بناؤها إليهم، وذلك لأجْل ما تقدَّم بينَهما من الفتنة ومُداولة الإمارة إلى أنِ اجتَمعت أشياخُ قبائلِ الـمَصامدة وغيرِهم، فوقع تدبيرُهم أن يكونَ موضعُ تلك المدينة بينَ بلاد هيلانة وبينَ بلاد هزميرة، فعرَّفوا بذلك أميرَهم أبا بكر بنَ عُمرَ وقالوا له: قد نظَرْنا لك موضعَ صحراءَ لا أنيسَ به إلا الغِزلانُ والنَّعام ولا تُنبتُ إلا السِّدرَ والحنظل. ثم كان أراد بعضُهم أن تكونَ المدينةُ على وادي تانسيفت، فامتَنَع لهم من ذلك وقال: نحن من أهل الصَّحراء، ومَواشينا معَنا لا يَصلُح لنا السُّكنى على الوادي، فنَظَروا له ذلك الموضعَ لكي يكونَ وادي نفيس

---

(١) هي قلعة فازاز، وهذا الرجل سماه ابن خلدون: «مهدي بن توالى» (تاريخه ٦/ ٢٤٥).

جِنانَها، ودَكّالة فُدّانَها، وزِمامُ جَبَل دَرَنَ بيدِ أميرِها طولَ زمانِها، فركِبَ الأميرُ أبو بكر في عسكرِه معَ أشياخ القبائل فمشَوْا معَه إلى فَحْص مَرّاكُش وهو خَلاءٌ لا أنيسَ به فقالوا له: ابنِ هنا مدينةً تكونُ متوسِّطةً بينَ هيلانةَ وهزميرة.

وفي سنة اثنتَيْنِ وستينَ وأربع مئة في الثالث والعشرينَ لرجَب: ابتُدِئَ بأساس مَرّاكُش، وذلك قصرُ الحَجَر، وشَرَعَ الناسُ في بناءِ الدُّور دونَ سُور.

وفي ذلك اليوم بعينِه: كان ركوبُ الأمير أبي بكر بن عُمر وإخوتِه وجميع محلّتِه معَ أشياخ المصامدة والفَعَلة من البَنّائينَ وغيرِهم، فابتَدأ العمَلُ في الأساس بمشاركة الأشياخ وحسَبَ عَوْنِهم، فأعانوا على البناءِ بالمال والرِّجال، فقام سُورُ قصرِ الحَجَر في نحو ثلاثةِ أشهر على نحوِ ما ذكَرَه ذوو المعرفة والأخبار، واشتَغل الناسُ فيها ببناءِ الدِّيار كلٌّ واحدٍ على قَدْر جُهدِه واستطاعتِه. فذَكَروا أنّ أوّل دار بُنِيت بمَرّاكُش من ديارِ لمتُونةَ: دارُ تورزجين بن الحَسَن الكائنةُ بموضع أسدال، بناها بالطُّوب وجَدَّدها، وهي الآنَ ظاهرةٌ على المقرِّ بالموضع المذكور إلى وقتِنا هذا سنةَ ستٍّ وسبع مئة، وذَكَروا أنّ اللَّمتُونيِّينَ حين طلَبوا موضعًا صحراءَ يبنُونَ فيه مدينتَهم ليبعدوا من مواضع الوادي والغِيَاض على أنفسِهم ومواشيهم لعادتهم في بلادِهم فوقَع بحثُهم وجِدُّهم واجتهادُهم على موضع مدينة مَرّاكُش، واللهُ أعلم بذلك.

وفي سنة ثلاث وستينَ وأربع مئة: كان الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر قاعدًا على السُّور والفَعَلةُ أمامَه يعمَلونَ في السُّورِ وفي غيرِه، إلى أنْ وقَف عليه رجلٌ راكب على فَرَس أشعثُ الرأس فسَلَّم عليه وقال: أيّد اللهُ الأمير، إنّ جدالةَ أغارت على إخوتِك فقَتلوا الرجال وسَلَبوا الأموال وهزَموهم. فلمّا استوفَى كلامَه قال الأميرُ أبو بكر: إنّا لله وإنا إليه راجِعون، وبعَثَ إلى أشياخِ لـمتُونةَ وكُبَرائهم وعُظمائهم، وقال لهم: إنّ إخوانكم قد أغارت جدالةُ عليهم وقَتلوهم، وأنا مسافر إن شاء اللهُ إليهم لآخُذَ بثأرِهم، فانظُروا منكم رجُلًا أستخلِفُه عليكم. فأطرَقَ الجميعُ رؤوسَهم وصَمَتوا ثم رَفَعوا وبُهِتوا فلم يكنْ إجماعٌ على ذلك، فقال لهم: لا بدَّ أن تُدبِّروا مَن ترَوْنَه يَصلُحُ لذلك، ثم انصرفوا، فلمّا كان في... [1] أبو بكر صَلّى ودَعا اللهَ أن يُسمِّيَ له رجلًا صالحًا يَستخلِفُه، فهتَفَ به

(١) فراغ في الأصل.

هاتفٌ مرعوبًا فقال: مَن هو هذا الغائب؟ فأنساه اللهُ ذكْرَ يوسُفَ بن تاشْفين إلى أنْ وصَل من بلاد المغرب في تلك الأيام وحضَر بين يدَيْ أبي بكر بن عُمر وهُو يُعيدُ القولَ على إخوتِه، وهي الثالثةُ، فقال له يوسُفُ بن تاشْفين: أنا أكونُ خليفتَك إن شاء اللهُ عزَّ وجَلّ، فقال له الأميرُ أبو بكر: صدَقْتَ يا يوسُف، أنت والله خليفتي، وتذكَّر قولَ الهاتف له فوَلّاه الأمرَ بعدَه[1].

ذكرُ حركة الأمير أبي بكرٍ بن عُمر إلى الصَّحراء[2]

لـمّا أخَذ الأميرُ أبو بكر في الحركة إلى الصَّحراء وَلَّى يوسُفَ مكانَه وقَسَم الجيشَ بينَ يوسُف وبينَه، فقيل: إنّ الذي تَرَك مع يوسُفَ بنِ تاشْفين من اللَّمتُونيِّين الثُّلُثُ ورحَل معَه الثُّلُثان[3]، وذلك في غُرّة ربيع الآخِر من سنة ثلاث وستّين، فشَيَّعه يوسُفُ ووادَعَه، وأوصَاهُ أبو بكر فطاوَعَه. وكان أبو بكر بنُ عُمرَ لـمّا عزَم على حركتِه تلك قال لزوجِه زَيْنب: إنّي مسافرٌ منكِ برَسْم الفتن والحروب ولا يمكنُني أن أمشيَ عنكِ وأنتِ في عصمتي، فإنْ أنا مِتّ كنتُ مسؤولًا عنك، والرأيُ أن أُطلِّقَك، فقالت له: الرأيُ السَّديدُ ما تراه، فطلَّقها، فذَكَروا أنه قال لابن عمِّه يوسُفَ بن تاشْفين: تزوَّجها، فإنّها امرأةٌ مسعودة، وقيل: إنها هي التي طلَبتْ منه طلاقَها فأسعَفَها بذلك.

ذكرُ ولاية يوسُفَ بن تاشْفين ونُـبَذٍ من أخبارِه[4]

لـمّا توجَّه الأميرُ أبو بكر بنُ عُمر إلى الصَّحراء وَلّاه مكانَه وترَكَ معَه الثُّلُثَ من لمتُونةَ إخوانِه، فاشتَغل ببناءِ مَرّاكُشَ وتحصنِها، وحصَل منها تحتَ سُورٍ وأبواب في قَصْر الحَجَر، وأعانه القبائلُ في جميع أمورِه وأحوالِه، وحبَّب نفسَه إليهم، وأفاضَ إحسانَه

(١) هكذا جاء النص، وذهب ابن أبي زرع إلى أن أبا بكر بن عمر هو الذي استدعى يوسف وعقد له على المغرب، وأن أشياخ المرابطين اتفقوا على تقديمه لما علموا من دينه وفضله وشجاعته (الروض ٩٨).

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٠-٢١.

(٣) في الروض: «نصف الجيش».

(٤) ينظر وفيات الأعيان ٧/ ١١٢-١١٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥ فما بعد.

عليهم، وكان يُكاتبُ الأميرَ أبا بكر بكلِّ ما يصنَع، فيَشكُرُه على ذلك، وأبو بكرٍ بنُ عُمر في الصَّحراء يحاربُ جدالةَ حتى أخَذ ثأرَه منهم في خبرٍ طويل.

وتزوَّج يوسُفُ بن تاشْفينَ زَيْنبَ النَّفْزاويّةَ في شهر شعبانَ المكرَّم من سنة ثلاثٍ وستّين بعدَ تمام عِدّتِها، ودخَل بها، فسُرَّت به وسُرَّ بها، وأخبرتْه أنه يملِكُ المغربَ كلَّه فبَسَطت آمالَه وأصلَحت أحوالَه وأعطَتْه الأموالَ الغزيرة، فأركبَ الرّجالَ الكثيرة، وجمَعَ له القبائلُ أموالًا عظيمة، فجنَّد الأجناد وأخَذ في جَمْع الجيوش من البَرْبر والاحتشاد... بنفسِه، وبتدبير زَوْجِه زَيْنب في كلِّ يوم معَ أمسِه، حتى... سلَكَ أهلُ المغرب في قانونِ الضغط فتأتَّى من مُلكِه ما لم يتأتَّ...

وفي سنة أربع وستّينَ وأربع مئة: تحرَّك الأميرُ يوسُف بن تاشْفينَ بعسكر جَرّار إلى بلاد المغرب... ورجَع إلى وطاط إلى ملويّةَ[1] إلى ناحية جُراوةَ ودوَّخ ما مرَّ عليه من القبائل، ودخَلت كلُّها في طاعتِه، هكذا ذكَرَ ابنُ القَطّان في «نَظْم الجُمان».

وفي هذه السنة: صَنع الأميرُ يوسُفُ بن تاشْفينَ دارَ السِّكّة بمَرّاكُش، وضَرب فيها السِّكةَ بدراهمَ مدوَّرة زِنةُ الدِّرهم منها درهمٌ وربعٌ، سَكَّهُ من حساب عشرينَ درهمًا للأُوقيَة، وهو الدّرهم الجَوْهريُّ المعلوم في وقتِنا هذا، وضَرب الدينارَ الذّهبيّ باسم الأمير أبي بكر بن عُمر في هذا العام.

وفيها: ارتدَّت قبائلُ في القبلة في جهة سِجِلْماسةَ من زَناتة وغيرِهم، فجهَّز إليهم يوسُف بن تاشْفينَ عسكرًا قوَّد عليه محمدَ بن إبراهيم اللَّمتُونيَّ، فخَرج في شهر ربيعٍ الآخِر وغَنِم تلك القبائل وقَتل المرتدّينَ ورجَع بغنائمَ كثيرة.

فدوَّن يوسُفُ الدّواوينَ ورتَّب الأجناد وطاعَتْه البلاد، وكتَبَ إلى بعض إخوانِه في السرِّ من أبي بكر بن عُمر يحُضُّهم على الوصُولِ إليه، والقدوم عليه ويَعِدُهم بالخيرِ الجزيل الحَفيل، فوصَل منهم جماعةٌ كبيرة.

وفي هذه السنة: وُلد ليوسُفَ بن تاشْفين مولودٌ ذَكَر سمّاه الـمُعزَّ بالله من زَوْجه زَيْنب النَّفْزاويّة.

---

(١) نهر ملوية قرب طنجة (ينظر الروض المعطار ٥٤٥).

وفيها: قَوِي أمرُ الأمير يوسُف وعَظُمت شوكتُه، فاشتَرى جملةً من العبيد السُّودان وبعَثَ إلى الأندَلس فابتيعَ له بها جملةٌ من الأعلاج فأركَبَ الجميعَ وانتَهى عندَه منهم شراءَ مالِه مائتانِ وأربعونَ فارسًا، ومن العَبِيد شراءَ مالِه نحوُ الألفَيْن، وأركَبَ الجميعَ فغَلُظ حُجّابُه وعَظُم مُلكُه.

وفيها: افتَرضَ على اليهود فريضةً ثقيلة في جميع طاعتِه اجتَمع له فيها مئةُ ألف دينار عَشْريّة ونيِّفٌ على ثلاثةَ عشَرَ ألفَ دينار.

وفي هذه السنة: اتّصل الخبرُ بالأمير يوسُف أنّ ابنَ عمِّه الأميرَ أبا بكر بنَ عُمر قد أخَذ في الرُّجوع من الصَّحراء إلى بلاد المغرب، فاغتَمَّ لذلك غمًا شديدًا وحزِنَ حُزنًا عظيمًا، وصَعُب عليه مفارقةُ الـمُلك بعدَ أنْ ذاق حلاوتَه ورتَّب فيه ما رَتَّب من الأجنادِ والضَّخامة، فعرَفت زَيْنبُ ذلك في وجهِه فقالت له: أراك مهمومًا مكروبًا من وصُول ابن عمِّك إلى مُلكِه الذي وَلّاك عليه، والله لا ذاقَ أبو بكر طعمَها أبدًا، فطِبْ نَفْسًا وقَرَّ عَيْنًا، فقال لها: إنه... استخلافُه إليّ من بين كلِّ بَنيه ويثقُ عليَّ في هذه المملكة، ولو كان غيرَ ابن عمِّي لقاتلتُه، فقالت له: أنا أدُلُّك... الله، فقال: ما ذلك يا زَيْنب، فإنّي والله أعرِفُك ميمونة، قالت له: إذا قَدِم عليك وبعَثَ مقدِّماتِ رجالِه إليك فلا تخرُجْ إليه، ولكنْ بادِرْه بهديّة جليلة... فلا يُقاتِلْك على الدُّنيا، فإنّ الرجُلَ خيِّرٌ لا يستحِلُّ سفكَ دماء... على أمرِك وتفوزُ بمُلكِك إن شاء الله، فقال لها: والله لا خالَفتُكِ في أمرٍ تُشيرينَ به أبدًا[1].

وفي سنة خمس وستينَ وأربع مئة: كان وصُولُ الأمير أبي بكر بن عُمر من صَحرائه إلى مَرّاكُش، فوجَد يوسُفَ قدِ استبَدَّ بالمملكة وأعجبَتْه الإمرة وطاعت له جميعُ البلادِ الغَرْبية، فعَلِم أنه مغلوبٌ عليه، وعزَم على تسليم الأمرِ إليه.

ذكرُ خَلْع الأمير أبي بكرِ بن عُمر نفْسَه عن الـمُلك وإسلامِه ليوسُفَ بن تاشْفين

كان وصولُ أبي بكرِ بن عُمر من الصَّحراء إلى أغماتَ في الخامس لشهرِ ربيع الأوّل المبارَك في السّنة المؤرَّخة، قادمًا إلى مَرّاكُش، فنَزَل بخارج أغماتَ في مضاربِه، وتسابَقَ

---

(١) ينظر روض القرطاس ٩٨.

أكثرُ أصحابِه إلى مَرّاكُش برَسْم رؤيتِها ورؤيةِ بنائها والسلام على أميرِها يوسُف، وكانوا قد سَمِعوا عن ضخامةِ مُلكِه وجميل كرامتِه وجزيل إحسانِه وإنعامِه على إخوانِه وقَرابتِه، فاجتَمع إليه من القادمينَ عليه خَلْقٌ كثير، فوصَلَهم على قَدْر منازلِـهم ومَراتبِهم، وأمَرَ لهم بالكُسَى الفاخرة والخُيول العتيقة وغير ذلك من الـمَبرّة والمكرُمة؛ فلمّا عايَنَ الأميرُ أبو بكر أحوالَ يوسُف وما هو عليه من الـمَيْل إلى نَخْوة الـمُلك وعزِّ السُّلطان، عزَم على تسليم الأمرِ له، وعَلِم أيضًا يوسُفُ أحوالَ الأمير أبي بكر من اللِّين في أمرِه لتَقْواه وديانتِه، [كما أنّ يوسُفَ][1] استمالَ نفوسَ إخوانِه بإحسانِه وإنعامِه، وزاد طمعُه في الانفرادِ والاستبداد.

وانقَطع رجاءُ الأمير أبي بكر من الـمُلك، فبعَثَ إلى يوسُفَ يُعلِمُه بوصُولِه إليه، وعيَّن له يومًا معلومًا يكونُ فيه اجتماعُه به، فخَرج يوسُفُ من مَرّاكُش في جُندِه وعبيدِه، وتلقَّاه في نصف الطّريق، فسَلَّم عليه راكبًا على دابّتِه ولم تكنْ قبلُ عادتَه، ثم نزَلَ إلى الأرض وقَعَدا على بُرنُس بُسِط لهما في ذلك المكان، فسُمِّي ذلك الموضعُ فَحْصَ البُرنُس إلى الآن، وأبو بكر معَ ذلك متعجِّبٌ من كثرة عساكرِه واحتفال هيئتِه، يُطيلُ النَّظَر في ذلك كلِّه، فتكلَّم الأميرُ أبو بكر معَ يوسُفَ في مصالح المسلمينَ ثم قال له: يا يوسُف، أنت ابنُ عمِّي ومحَلَّ أخي، وأنا لا غِنى لي عن معاونةِ إخوانِنا بالصَّحراء، ولم أرَ مَن يقومُ بأمر المغربِ غيرُك، ولا أحقَّ به منك، وقد خَلعتُ نَفْسي لك ووَلَّيتُك عليه، فاستمِرَّ على تدبيرِ مُلكِك وأنت حقيقٌ به وخَليقٌ له، وما وصَلتُ إليك إلا لأأمرك[2] في بلادك وأُسلِّمَ لك [وأعودَ][3] في مقرِّ إخوانِنا وموضع استيطانِنا. فدَعَا له الأميرُ يوسُفُ وشكر [وقال له: لك عليّ][4] ألا أقطَعَ أمرًا دونَك، ولا أستأثرَ إن شاء اللهُ بشيءٍ عليك، وأحضَر [أشياخَ لـمتُونةَ][5] الصَّحراويِّين، وخَلَع له أبو بكر نفْسَه، وشَهِد بذلك بعضُ

(١) ما بين الحاصرتين زيادة لتوضيح المعنى.

(٢) في الحلل: «لأهدّنك» وهي بمعنى.

(٣) زيادة متعينة.

(٤) كذلك.

(٥) كذلك.

العدول وأعيان القبائل، وعاد الأميرُ أبو بكر إلى أغماتَ موضع نزولِه ورجَع يوسُفُ إلى مَرّاكُش دارِ مملكتِه، فكان هذا التدبيرُ برأي زَيْنبَ النَّفزاوية زوجتِه، فهي التي جَسَّرتْه على ذلك كلِّه حتى ملَكَ المغربَ أسعدَ مُلكٍ وأتمَّه نَصْرًا على العدوّ، ولم يُهزَمْ له قطُّ جيشٌ ولا رُدَّت له رايةٌ بمُلك، واللهُ يؤتي مُلكَه من يشاء.

ذكرُ الهديّة التي أهداها الأميرُ يوسُف بنُ تاشْفين إلى ابن عمِّه أبي بكرِ بن عُمر[1]

لـمّا وصَل الأميرُ أبو يعقوبَ إلى مَرّاكُش بعدَ اجتماعِه بالأمير أبي بكر بن عُمر وخَلْعتِه له نفْسَه وتقديمِه ليوسُفَ وبيعتِه، شَرع يوسُفُ في توجيهِ الهديّةَ المذكورة، وذلك خمسةٌ وعشرونَ ألفَ دينار من الذّهب، وسبعونَ فرسًا منها خمسةٌ وعشرونَ مجهَّزةٌ بفاخر الجِهازات، وسبعونَ سيفًا مُـحَلّاة، وعشرونَ من الأشابر[2] المذهَّبة، ومئة وخمسونَ من البِغال والذّكور والإناث، وخدورٌ كثيرةٌ بنفيس الأمتعة والكُسَى الفاخرة، وبعَثَ له عشرينَ جاريةً أبكارًا وجُملةً من خَدَم الخِدمة ووجَّه له بمئتين من البقر وخمس مئة رأس من الغنم وألفِ رُبع من دقيق الدّرْمَق واثنَيْ عشَرَ ألفَ خُبزة وسبع مئة مُدّ من الشّعير، وبعَث إليه وزنًا صالحًا من العُودِ والعَنْبر والمِسك.

وكتَبَ يعتذرُ له من ذلك ويَحلِفُ أنه ما بقيَ له شيءٌ ممّا ادَّخره واقتَناه، فطابَتْ نفْسُ الأمير أبي بكر وقال: خيرٌ كثيرٌ هذا من يوسُف. ثم انصَرف بهديّتِه بعدَما أعطَى منها بعضَ إخوانِه وخاصّتِه؛ وأقام بصَحرائه ثلاثةَ أعوام والأميرُ أبو يعقوبَ يُمدُّه بالتُّحَف والهدايا إلى أنْ قتَلَه السُّودانُ الـمُجاورونَ للمتُونةَ في الصّحراء لأنه كان يُحاربُهم، حتى قضَى اللهُ بوفاتِه بسَهْم أصابه كان فيه مَنِيّتُه، وذلك في سنة ثمانٍ وستينَ وأربع مئة.

وفي سنة ستٍّ وستينَ وأربع مئة: بعَثَ الأميرُ أبو يعقوبَ مَزْدَلي بنَ بانلونكا بعسكرٍ ضَخْم إلى ناحية سَلَا، ففتَتَح تلك القبائلَ من غير قتال ولا نزال، فأمَّنَهم وانصَرف

---

(١) ينظر الحلل الموشية ١٦-١٧ وفيه تفصيل أكثر.

(٢) الأشابر: المهامز.

عنهم في الخامس والعشرينَ لشهر ربيع الآخِر، وكان خروجُه من مَرّاكُش في الثاني لشهر صَفَر، فكانت غَيْبتُه هذه نحوَ ثلاثةِ أشهر.

وفيها: بعَثَ أيضًا يوسُفُ بنُ تاشْفين عسكرًا إلى الغرب قَوَّد عليه يطيَّ بنَ إسماعيل، ولـمّا وصَل إلى وادي بهت بعَثَ رَقّاصًا إلى أميرِ مِكْناسةَ الخيِّر بن خَزَر الزَّناتيِّ بأنه قد عَفَا عنه، وبعَثَ كتابَه إليه بذلك، فقرأ كتابَه على زَناتةَ وشاوَرَهم في أمرِه فقالوا: نُقاتلُه بأجمعِنا حتّى نُخرجَه من بلادِنا، فقال لهم: لا سبيلَ لذلك ولا أفعلُه حتّى أبعثَ له فبعَثَ إليه منخفاد بنَ عبد العزيز الزَّناتيَّ، فلمّا وصَل إلى يطيِّ بن إسماعيلَ رحَّب به وأكرَمَه ولمن كان معَه فقال له منخفاد: نحن رجالُ الأمير أبي يعقوبَ، وبلادُنا بلادُه، غيرَ أنّا لا بدَّ لنا منَ الاجتماع به وشروطٍ نشترطُها عليه، وحينَئذٍ نُسلِّمُ البلادَ إليه ونَخرُجُ له عنها، وضمِنَ له اللَّمتُونيُّ ابنُ إسماعيل تلك الشروطَ عنه وتعاهَدَ على ذلك معَه، ودخَل مِكْناسةَ وخَرج الخيرُ منها أميرُها ومَن كان معَه من زَناتةَ إلى موضع القَناطير، ووَلِـيَ مِكْناسةَ بعدَ الخيِّر بن خَزَر الزَّناتيِّ الأفضالُ اللَّمتُوني، ورحَل ابنُ إسماعيلَ بعسكرِه معَ الخيِّر المذكورِ إلى مَرّاكُش، وأنعَمَ عليه الأميرُ يوسُف بكلِّ ما أراد، ثم صَرفَه، فبقي الخيِّرُ مستوطنًا بخارج مِكْناسةَ إلى أن مات رحمه الله.

ذكرُ تسمية يوسُفَ بن تاشْفينَ رحمه الله بأميرِ المسلمين

وفي هذه السنة: اجتَمع أشياخُ القبائل على الأمير أبي يعقوبَ يوسُفَ بن تاشفين وقالوا له: أنت خليفةُ الله في المغرب، وحقُّك أكبرُ من أن تُدعى بالأمير إلّا بأميرِ المؤمنين، فقال لهم: حاشا لله أن أتسمَّى بهذا الاسم، إنما يتَسمَّى به الخلفاءُ، وأنا راجل[1] الخليفة العباسي والقائم بدعوتِه في بلاد الغرب، فقالوا له: لا بدَّ منَ اسم تمتازُ به فقال لهم: يكونُ أميرَ المسلمين، فقيل: إنه هو الذي اختاره لنفسِه، فأمَرَ الكُتّابَ أن يَكتُبوا بهذا الاسم إذا كتبَوا عنه أو إليه.

وفي سنة سبع وستّينَ وأربع مئة: افتَتح أميرُ المسلمينَ يوسُفُ مدينةَ فاس، وذلك لـمّا افتَتح مدينةَ مِكْناسة، ووصَلَه أميرُها الخيِّر وأحسَنَ إليه وأكرَمَه وخيَّرَه حيث يريدُ

---

(١) هكذا في الأصل، وهي كذلك في الحلل، والوجه: «رجل».

السُّكْنى وأسعَفَه في كلِّ مطلب، جهَّز أميرُ المسلمينَ عسكرًا جرّارًا وقدَّم عليه ابنَ عمِّه يحيى بنَ واسينوا اللَّمتُونيَّ، وأمَرَه بمنازلة فاس فكان وصُولُه إليها عَقِبَ رجَب الفَرْد من هذه السنة. وكان أمراء فاسَ يومَئذٍ أبناءَ حَمامة، فقاتَلَهم يحيى قتالًا شديدًا سبعةَ أيام، وفي الثامن دخَلها عَنْوة، ماتَ فيها من أهل فاسَ بشَرٌ كثير وسُلِبت ديارُهم ثم عَفَا عنهم وانحصَر ابنا حَمامةَ: الفتوحُ ودوناسُ في قَصْرِهما، ثم طَلَبوا[1] الأمانَ فعُفِي عنهما في نَفْسيْهما، فكتَبَ بفتح فاس وبأخبارِ الفتوح بن حَمامة وأخيه إلى الأمير يوسُفَ بن تاشْفين، فأمَرَ بتوجيهِهما حيث شاؤوا[2]، فاستوصَى الفتوحُ مَغِيلة[3]، واستولَتْ لـمتُونةُ على مدينة فاسَ حرَسَها الله.

وفي هذه السنة: وصَل الخبرُ إلى يوسُفَ بن تاشْفين بوفاة الخليفة العباسيِّ القائم بأمرِ الله وبَيْعة الخليفة المقتدِر بالله في الثالثَ عشَرَ لشعبان[4].

فتحُ مدينة تِلِمْسان

وفي سنة ثمانٍ وستّين وأربع مئة: جهَّز أميرُ المسلمينَ يوسُف بن تاشْفين عسكرًا ضخمًا وقَدَّم عليه ابنَ عمِّه مَزْدَلي اللَّمتُونيّ، وبعثَه إلى مدينة تِلِمْسان[5]، وكان أميرها يومَئذ العباسُ بن يحيى أميرُ زَناتة، فكتَبَ أميرُ المسلمينَ إليه كتابًا بالعفوِ عنه إن نَزلَ دونَ قتال فخَرج هذا العسكرُ من مَرّاكُش في أوائل شهر محرَّم ووصَل إلى مدينة تِلِمْسانَ عقِبَ شهر صَفَر، فقدَّم مَزْدَلي الكَتْبَ إلى العباس بكتابِ أمير المسلمينَ، فعندَ وصُول الرّقّاصِ بالكتاب إليه وقَف عليه، فخَرج من تِلِمْسانَ، فأنعَمَ عليه الأميرُ مَزْدَلي بمطلَبه ووافَقَه في مذهبِه، ورحَل الأميرُ مَزْدَلي إلى تِلِمْسان ودخَلَها في مُهلةٍ وحالِ هُدنة، ثم وَلّى عليها ابنَه يحيى بنَ مَزْدَلي ورجَع إلى مَرّاكُش، فكان وصُولُه إليها في نصف ربيع الآخِر

(١) هكذا في الأصل، وهو جائز، والأحسن: «طلبا».

(٢) هكذا في الأصل، وهو جائز، والأحسن: «شاءا».

(٣) كأن المراد: فطلب فتوح الذهاب إلى مغيلة.

(٤) ينظر تاريخ الإسلام ١٠/ ١٤٩-١٥٠، ٢٤٨.

(٥) جعل ابن خلدون هذه الحركة سنة ٤٧٢هـ (تاريخه ٦/ ٢٤٧).

من هذه السنة ومعَه العباسُ صاحبُ تِلِمْسان، فأنعَمَ عليه أميرُ المسلمينَ بكلّ خير، وأمَرَ له بظهائرَ كريمة وانصَرف إلى وطنه.

وفي سنة تسع وستّينَ وأربع مئة: وصَل إبراهيمُ بن أبي بكر بن عُمرَ من الصَّحراء يَطلُب مُلكَ أبيه، فنزَل بخارج أغماتَ في خَلْق كثير من إخوانِه لـمتُونة، فسَمِع بذلك أميرُ المسملين، فبعَثَ إليه الأميرَ مَزْدَلي فقال له: ما الذي تريدُ يا إبراهيم؟ قال: أطالبُ مُلكَ أبي الذي غَصَبَنا فيه عمِّي يوسُف، قال مَزْدَلي: إنّ الـمُلكَ بيد الله يؤتيه من يشاء، واللهُ تعالى قد خَصّ هذا الرجُلَ بالـمُلك دونَنا، فإن كنتَ عاقلًا فاطلُب منه أن يُعينَك بمال وخَيْل ترجعُ بهما إلى بلدِك، وإن طلبتَ غيرَ هذا أخافُ أن يَجعَلَ على رجلِك قيدًا ويحبِسَك عندَه عبدًا، وما قلتُ لك ذلك إلا بوَجْه الشَّفقة عليك، فقال له: يا عمِّي مَزْدَلي رضي اللهُ عنك، عسى أن تجتمعَ معَه في أمري وتُبيِّنَ له حالي، وكان الأميرُ مَزْدَلي حسَنَ السِّياسة صحيحَ المذهب عارفًا بخدمةِ الملوك، فهَدَّن إبراهيمَ المذكورَ وقال له: أقم في موضعِك حتّى آتيَك بكلِّ ما يُرضيك، فانصَرف عنه ووصَل إلى الأمير يوسُفَ بن تاشْفين فحَسَّن كلامَه إليه، وأنعَم الأميرُ يوسُفُ عليه بمال وخَيْل وكُسًى وغيرِ ذلك بعدَما بولغَ في كرامتِه وضيافتِه، واحتَمل له ذلك مَزْدَلي، فشَكَره الولَدُ على ذلك وانصَرف عنه من هنالك، ولم يجتمعْ بالأميرِ يوسُف ولا رَآه، وانصَرف إلى الصَّحراء وبقيَ بها إلى أن مات.

وجَرَت لأمير المسلمينَ معَ أمير تازَا في هذه السنة ـ وقيل: في سنة سبع وستّين ـ حروبٌ شديدةٌ بفَحْص الوادي هزَمَه أميرُ تازَى، وهو: أبو يَعْلَى، وكان معَه القاسمُ بنُ عبد الرحمن بن أبي العافية على لـمتُونة، وذلك بموضع (أجرسيف)[1].

وفي هذه السنة: وُلد للأمير يوسُف بن تاشْفين ولَدُه الفضلُ من زوجِه زَيْنبَ النَّفْزاويّة، وكانت أحبَّ ما لديه، امرأةً غالبةً عليه، ليس... ولا كان أمرٌ إلّا أمرَها، وكان يقولُ لبني عمِّه إذا خلا بهم وورَدَ ذكرُها: إنّما فتحَ البلادَ برأيها...

(١) ينظر الروض المعطار ١٢.

الكَبْيَطُورُ في بَلَنْسِيَة

وكان الطاغيةُ لُذْريقُ النَّصراني، الملقَّبُ بالكَبْيَطُور، قد أخَذ بمُخنَّق بَلَنْسِية وألقَى زوْرَه عليها، يجبي رعّيتَها ويَستغلُّها حاضرةً وبادية. وقد استَضعَفَ حفيدَ ابن ذي النّون، مَلِكَها المشئوم، وكان اجتَلَبه ليُحتَرَمَ به فرَمى بسَهْمِه إلى نحرِه، فخَلَعه اللّعينُ وبقي حتى أراد الله بها أراد من حتفِه، وكان أيضًا صاحبُ سَرَقُسطةَ ابنُ هُود يَمِيرُ لُذْريق وأصحابَه النّصارى، ويَعضُدُه بالسلفة، ويوجِّه المغيرةَ يَمْنة ويَسْرة، فكان ما يأتي به الذِّكرُ.

قال محمدُ بن علقَمة: وفي شعبانَ من العام خمسٍ وثمانين وأربع مئة: انتقل الكَبْيَطُورُ إلى سَرَقُسطة، واستَخْلَف على أطعمتِه المختزَنة وضرائبِه المفترَضة ببَلَنْسِيَة، فتنفَّس مُخَنَّقُ أهلِها، وانفرَجت الضِّيقةُ عنها.

ثورةُ القاضي ابن جَحّاف ببَلَنْسِيَة[1]

ولـمّا ظَهر ابنُ عائشةَ بمُرْسِيَة، وتَوالى ظفَرُه بها وبذواتِها، وقَعَ الإصفاقُ من القاضي أبي أحمدَ جعفر بن عبد الله بن جَحّاف، وصاحبِ الأحكام ابن واجب، وأهل العَقْد والحَلّ من أهل بَلَنْسِيَة، على استدعاءِ محمد بن عائشة، فانفَذَ إليهم لـمّةً من المرابطين تحتَ نظَر ابن نَصْر، واتّصل النظَرُ بمَن ببَلَنْسِيَة، فنظَر أحبّاءُ سُلطانِهم ابنِ ذي النُّون في إنفاذ عِيالِـهم وذخائرِهم وأموالِـهم إلى المعاقل والقِلاع، وأخرَجَ حفيدُ ابن ذي النُّون بعضَ عيالِه إلى ابن ياسين قائدِه على حِصن شُبرُب، وإلى ابن حُدَيْدة بحصن العِقاب، وفَرّ على وجهِه مَن فيها منَ الرّوم من رجال لُذْريق. وخَرج القاضي والفقهاءُ لتلقِّي ابن نصر، رسُولِ ابن عائشةَ وإدخالِه البلد، وفَرَّ القادرُ عن البلد إلى دار هجينة، ففَحَص ابنُ جَحّافٍ عنه إلى أن ظَفِر عليه ليلةَ الـجُمُعة لسبع بقِينَ من رمضان.

نقل القادرِ حفيدِ ابن ذي النُّون

لـمّا حصَل بيد ابن جَحّاف، أمَرَ بقتلِه، فتَولَّى ذلك فتى من بني الحَدِيدي[2] زعيم طُلَيطُلة، فقتَلَه بيده كفعلِه بوَليِّه أبي بكر ابن الحَدِيدي، وحُمل رأسُه على عصًا يُطافُ به

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٨-٢٤٩.

(٢) الضبط من خطّ الذهبي في تاريخ الإسلام ٩/ ٤٤٨.

الأسواقُ والسِّكك. واحتَوى ابنُ جَحّاف على ما كان معَه، وطُرِحت جثّتُه في سَبْخة، فواراه رجلٌ من التجّار: اجتاز به على بابٍ مُغطًّى بحصير خَلِق، ودفنَه دون كفَن.

وتبوّأ ابنُ جحّاف تبوُّؤَ الرِّياسة، ورتَّب أرزاقَ الجُند والخِدمة، واستشعرَ غِلْظَة الرؤساء، وأظهرَ أُبَّهَةَ الـمُلك، وطَمِح بصَرُه إلى قضيّة القاضي محمد بن إسماعيلَ بن عَبّاد، فما حَسَّن النظَر، ولا ساعدَه القَدَر، فكان يجلسُ مكتنفًا بالوُزراءِ والفقهاءِ والزُّعماء، والغَلَمةُ أمامَه، ويركبُ فيتقدَّمُه العبيدُ والطُّرُد، ويتأخَّر عنه الجُند، وتستقبلُه الـمُصانِعةُ بالدّعاءِ والثناء.

وكتَب لُذْريقُ الكَبْيَطُورُ إلى ابن جَحّاف المذكور يهنِّـئُه على تلك الأمور، ويـ... بالحَسَنة التي اكتَسَبها في رمضانِه بقَتْل سُلطانِه، ويَطلُب منه أطعمتَه المختزنَة عندَه ببَلَنْسِيَة. فراجَعَه الكَبْيَطُور، يُقسم بمغلَّظات الأيمان ألا يبرَحَ من بَلَنْسِيَة حتى يظفَرَ به، ويأخُذ ثأرَ ابن ذي النُّون منه، وأنفَذَ إلى الحصون المجاورة يستمِدُّ الأقواتَ، فأمَدَّه منِ اتَّقى شرَّه، وأقبَلَت المِيرةُ إلى محلّتِه، واتّصل الضّربُ منها إلى بَلَنْسِيَة، فأضرَّ بها، وقَتَل مَن ظفِرَ به من أهلها. وكان معَه جملةٌ من رجال ابن ذي النُّون.

وفي خلال ذلك، ألحَقَ ابنُ جَحّاف من الجُند عددًا، وأنفَذَ إليه ابنَ عائشةَ بعدَ ذلك المددِ مدَدًا، واجتَمع له ببَلَنْسية زُهاءُ ثلاث مئة فارس، وابنُ جَحّاف يزدادُ غِلظةً وحَجَبةً، وجيشُ الروم يُراوحُهم ويُغاديهم، والحربُ تَدورُ عليهم، فمنهمُ القتلى والجرحى. وأمَّل الكَبْيَطُورُ إزعاجَ الـمُرابِطين من بَلَنْسِية، وكان ابنُ جَحّاف قد استثقَلَهم، لكنه يستعملُهم، واستشعَروا ذلك منه. وداخَل الكَبْيَطُورُ ابنَ جَحّاف في إخراجِهم واستبدادِه بالـمُلك لنفسِه ليُقيمَه معَه مقامَ ابن ذي النُّون، يَحمي حَوْزتَه، ويُقاتلُ عنه، فطمِعَ في ذلك.

وفي سنة ست وثمانينَ وأربع مئة: عَظُم بلاءُ الطاغية على بَلَنْسِية، واشتدَّ حالُهم، وعظمُ أمرُهم. فاستَصْرَخوا أميرَ المسلمينَ يوسُف، وبَسَطوا عندَه القولَ فيما نزَلَ بهم. فجَدّ في أمرِهم، وأمَرَ قُوّادَه وعُمّالَه على بلاد الأندَلس بنَصْرِهم، فتلاحَقَت جموعُ المسلمينَ بشاطبة، واتّصل النبأُ بالعدوّ، فما بَرِحَ، ولا تَزَحْزَحَ. فوصَلت الجيوشُ ومعَها من المطَّوِّعة خَلْق كثيرٌ خيلًا ورَجْلًا، فاستقبَلَت بَلَنْسِية سيرًا حثيثًا حتى أشرَفَت عليها، واستشرَفَ أهلُها عليهم، واستبشَروا بنَصْرهم والانتقام من عدوِّهم، واستنشَقُوا رِيحَ

الحياة. وخَرج العدوُّ إلى طرف محلّتِه؛ فعبَّأ الجيشَ فرقتَيْن وأمَرَ كلَّ فرقة، فلزِمَت مَصافَّها. وأوقَعَ اللهُ لِما قضاهُ في قلوب المسلمينَ النُّكولَ عنهم؛ فرجَعوا عَوْدَهم فبُهِت أهلُ المدينة، وسُقِط في أيديهم ويَئسوا من الحياة. واستأسَدَ العدوُّ، واشتدَّ كَلَبُه، وأقام يَجْبي الرَّعيةَ ويوجِّهُ الـمُغِيرة، ويمنَعُ الدّخولَ إلى المدينة، ويَعِيثُ في فَلِّ الفارِّ عنها، ومَن تحرَّكَ من قريتِه، أو شُعِر بحركتِه، يُستبعَدُ أهلُه ووَلَدُه. فلم يُقدِمْ أحدٌ على التحرُّك ولا حدَّث نفسَه بالتحوُّل. ولـمّا صَدَرت جيوشُ المسلمينَ إلى شاطبة، بادَرَ الأميرُ أبو بكر بنُ إبراهيم إعلامَ أميرِ المسلمين.

وفي سنة سبع وثمانين وأربع مئة: لـمّا انصَرف جيشُ الأمير أبي بكر بن إبراهيم اللَّمتُونيِّ يُحكم القَدَر السابق عن بَلَنْسِية، أيقَنَ مَن فيها بالـهَلَكة، وغَلَب على الناس اليأس، وضاقَت النفوس، وزاد حِقدُ العدوّ، وقَسا قلبُه، وهلَكَ أكثرُ الناس جوعًا، وأكَلَت الجُلودَ والدوابَّ وغيرَ ذلك، ومَن فَرَّ إلى الـمَحلّة فُقئت عيناه، أو قُطِعت يداه، أو دُقَّت ساقاه، أو قُتل. فرضِيَ الناسُ بالموت في المدينة، وزادت هذه الأزمةُ على أزمةِ طُلَيْطُلة أضعافًا لانفساح مدّةِ الحصار، وتضاعَفَ حِقدُ العدوِّ لصبرِهم وطلبِهم النُّصرة.

ذكرُ تغلُّب العدوِّ على بَلَنْسِيةَ في هذه السنة

لـمّا بلَغَ بأهل بَلَنْسية الماءُ الزُّبَى، وانتهَوْا من الصّبر إلى الغاية القُصوى، ولا نصرَ ولا غَوْث، ألجَأتْهم الحالُ إلى دخول العدوِّ بحُكم الاضطرار، لا بحُكم الاختيار. فتجمَّعوا إلى قاضيهم أبي الـمُطرِّف ابن جَحّاف، وسَفَروا إلى الطاغية الكَبْيَطُور لعنَه الله مَن يتوسَّطُ لهم معَه أخْذَ الأمان. فأجابَ في هذا الشأن، وعقَدَ نيّتَه على الخَتْر، ونَقْض العهد، وإعطاءِ أمانٍ مثلِه من الأنجاس. فخَرج إليه القاضي، وعقَد عليه العقود، وأخَذ المواثيقَ والعهود، وحزَم في كلِّ ذلك، وبلَغَ الغايةَ التي ما بعدَها غاية، ولا وراءها لمجتهد نهاية، فلمّا كمُل الأمرُ فُتحت له الأبواب، ودخَل المدينةَ بجُملته، وذلك في جُمادى الأولى من هذه السنة، فلم يعمَلْ هو وأصحابُه لعنَهم اللهُ ما يَسُوءُ المدينةَ وأهلَها بحال من الأحوال، فانتَشَطت الأنفُس من عِقال، وانبَسَطت الآمال، وأمِنَ الناس. وهو معَ ذلك يُراعي أمرَهم ويمنَعُهم من الخروج من المدينة، وحصَل لعنَه اللهُ على هذه الحضرة، ورَمَى على ما هي عليه من النِّعمة والنَّضرة والحُسن والبهجة.

واشتدَّ جزَعُ المسلمينَ بدانِيةَ وما اتّصل بها من ذلك الصُّقع من القلاع والقواعد، وكثُر شرُّ الغارات من بَلَنْسيةَ عليها، وتَوالى الضّربُ وعَظُم الضَّرَر، وانقَطَعت السابِلة، وخافت الطُّرق، وصار أهلُ تلك الجهات في أضيقَ منَ العزق، وقد حَمِيت الفتنة. فخاطَبَ الناسُ أميرَ المسلمين مُستصرِخينَ مُعلِمين بفساد الشّرق، وإشرافِ الأُمّة على الـهَلَكة. فتحرَّكَ إلى مدينة سَبْتة، وتقدَّم أمرُه إلى القبائل باللَّحاق بها، وأقام هنالك يُجَنِّدُ الأجناد، ويُسَرِّبُ الأمداد، وجعَلَ تلك الجيوشَ وأمرَها إلى نَظَر ابن أخيه الأمير أبي عبد الله ابن أخي يوسُفَ لأُمِّه، والأميرُ أبو بكر هو أيضًا ابنُ أخي يوسُفَ بن تاشْفين لأُمِّه وابنُ عمِّه. وأوعَزَ أميرُ المسلمينَ إلى صاحبِ غَرْناطةَ وما والاها أن يُمدُّوه بأنفُسِهم ورجالهم، وكتَبَ إلى صاحب شَنْت برية ابن رَزِين الملقَّب بالحاجب، وإلى الشَّنياطي ـ وكان من أنجادِ الفُرسان ودُهاة الحرب ـ ليجتمِعوا معَ ابن أخيه لاجتماع الكلمة واتّصال الـمُعاضَدة والـمُظاهرة على منازلة العدوِّ ببَلَنْسية.

ولحِقَ الجيشَ بالأندَلس عَقِبَ شعبانَ المكرَّم ما يَنيفُ على أربعةِ آلاف فارس، وأضعافِها مرّات من الرّجال. وتحرَّكَ من أُمِرَ بالحركة إلى الاجتماع به. وأقبَلَت دوابُّ المِيرة من كلِّ صُقْع، ونزَلَت المحلاتُ على فرسَخ من بَلَنْسية. فصارت مِصرًا عظيمًا. ورأى الرّومُ بحرًا محيطًا، وهَمُّوا بالفِرار وإخلاءِ بَلَنْسيةَ إلّا اللّعينَ زعيمَهم الكَنْبِيطُور، فلم يَرُعْه في ظاهر الأمر ذلك الجَمْع ولا عبِئَ به، وكانت له في الطّير عِيافةٌ وزَجْر، يُضيفُ إلى ذلك مَخْرقةً من كذبِه، يقوّي بها نفوسَ أصحابِه، وفي ذلك يقولُ أحدُ أهل بَلَنْسية [من البسيط]:

قولـوا للُـذْريقَ إنّ الحـقَّ قـد ظَهَـرا ... أو نقِّـدوه إذا مـا طـيرُهُ زَجَـرا

سـيوفُ صُـنْهاجةٍ في كـلِّ معـتركٍ ... تـأبَى لأطيـارِه أن تـصدُقَ الخـبرا

وعمَدَ اللّعينُ، عندَ نزولِ المحلّات عليه، إلى الضَّعَفة من النّساء والوِلْدان من المسلمين فأزعَجَهم إلى المحَلّة، وقال: الحقوا بأهل ملّتِكم! فوقَعْن إلى أيدي السُّودان وخَدَمة الدّوابِّ والسِّفلة من الباعة فغلَبوا عليهنّ وفَسَقوا بهنّ، ولم يُرفَعْ ذلك إلى صاحب الجيش، فيقَعَ التغييرُ والنهيُ عن المنكر.

ثم رحَلت المحَلّةُ إلى دانِيَةَ وغيرِها، فضاعَ الحَزْم وانتقَضَ العزم، وظهَر العَجْز، واختَلّ الجيش، وصاحبُه في غفلة عنه، مغترٌّ بكثرتِه، يقدِّرُ أنّ الجيشَ بوفره، ويتهاونُ بعدوِّه، ويحسَبُ أنه مثلُه على مثلِه. فبَدَت العورة، وأمكَنَت الفُرصة. وكان الكَنْبَيْطُورُ قد ضاقت نفسُه من مقاومةِ هذا الجمع؛ فاستجاشَ الأذْفُونْش، وشاع ذلك في محلّاتِ المسلمين، فتوجَّست النفوس، وأُشرِبَت خوفَه القلوب، وكانت هذه الأمور، دواعيَ لِـما جرَّه المقدور.

ذكرُ غَدْر لُذْريقَ اللَّعين لمحَلّة المسلمين

ولـمّا رأى لُذْريقُ ـ لعنَه الله ـ ضياعَ المحَلّة، وتفرُّقَ الناس عنها في كلِّ وِجهة، اعتبَر الغِرّة وأعملَ الحِيلة ولم ينتظرِ النُّصرة. فركِبَ في بعض خِيْله، وكمَنَ البعضَ ليلًا على مقرُبة من المحَلّة، وخَرج صُبحَ تلك اللّيلة بمن معَه في أُهبة وعلى تعبئة، والناسُ في طُمأنينة وعلى غفلة. فلمّا اشتُهر مَن في المحَلّة، وقَعَت الرجّة وعَلَت الصَّيحة. وركِبَ مَن بقيَ من الـمُرتزِقة والمطَّوِّعة، ولم يبقَ في المحَلّة إلا الغِلمة ومَن لا يَدفَعُ عن نفسِه. وصمَّمت الخيلُ إلى لُذْريقَ المذكور، فاستَطرَدَ لهم إلى المدينة، ونشِطوا في أثرِه، فاستدرَأَ بالسُّور، ولازمته الجيوشُ تُصيبُ منه وتَظهَرُ عليه فخَرجت كائنةٌ إلى المحَلّة، فدوَّختها. وكان الأميرُ محمدٌ ابنُ أخي أميرِ المسلمين شاكيًا متخلِّفًا بها، فبادَرَ بالخروج عنها. واتّصلت بالمسلمينَ الصَّيحةُ بدخول المحَلّة، فبُهت الناس، ولم يشُكّوا، لِـما كان في أنفسِهم، أنّ الأذفُونْشَ طرَقَها. فهامَ كلٌّ على وجهه، وأخذوا في غير طريق، ومَن صمَدَ إلى المحَلّة، فرأى النَّهبَ فيها، والخيلَ تخترقُها، تنكَّب عنها، فلم يرجعْ أحدٌ إليها. وأقبَلَ العدوُّ على النَّهب، ولم يَتْبَع الفَلّ، ورَفَّه عن الخَيْل لسقوطِها من عندِه بالضَّيعة لِـما لحِقَها ببَلَنْسِية. فلم يُعمَلْ سيفٌ، ولا أُريقَ دمٌ إلّا أفذاذ رَزَقَهم اللهُ الشهادة.

واتّصل النبأ بإذفُونْش وَقَمه الله وقد تجاوَزَ في نصف طريقِه لنُصرة لُذْرِيق، وبلَغتْه هديّتُه من نَهْب المحَلّة، فكَرِه أن يُفرِّق جمْعَه ويخفقَ جيشَه، فقصَدَ أرضَ وادي آش مِن نَظَر غَرْناطة، فتردَّد في جهاتِها، واكتَسح ما ألفاه بها، وحمَل جُملةً من رعيّتِها الـمُعاهِدة لعِمارة أرضِ طُلَيطُلَة.

واتّصل النبأُ أيضًا بأميرِ المسلمينَ يوسُف، فبلَغَ منه كلَّ مبلغ، واشتدَّ غضَبُه على ابن أخيه لتضييع الحَزْم وإسلام المحَلّة دونَ حربٍ يقومُ به عُذر، وانتقَلَت جيوشُ المسلمينَ إلى دانِيَة، ثم إلى شاطِبة، فابتَدَروا بمخاطبة أمير المسلمينَ مُعتذِرين، فأعرَضَ عن كَتْبِهم وأضرَبَ عن جوابِهم. ولـمّا طال إعراضُ أمير المسلمينَ عن ابن أخيه ومن معَه، استَلطَفَه ورجَع في أمرِه إلى القضاء والقَدَر، فسَلَّم الأمرَ لله فيما قضَى، وعاد من العَتْب والسَّخَط إلى الرِّضى، وخاطَبَه بلزوم شاطِبةَ لتشميرِ العادية، عن تلك الناحية، وقَطْع الطُّرقِ إلى بَلَنْسية، وحضَّه على الضّرب عليها. فبلَغَ من ذلك ما في وُسعِه وبَذَل غايةَ جُهدِه. ولم يزَلْ أميرُ المسلمين يُمِدُّ ابنَ أخيه بالأموال والرّجال إلى أنْ عَظُم الجيشُ وكثُف، وضَخُم أيضًا أمرُ الفتنة والتَّعب. وبعدَ ذلك كتَبَ إليه، يَأمُرُه بالقدوم عليه. وبعَث عِوَضَه أبا الحَسَن عليَّ بن الحاجّ، فلَحِق بشاطِبة وانضمَّت الجيوشُ عليه. وكانت هُدنةً على دَخَن!

ذكرُ حَرْق القاضي أبي أحمدَ ابن جَحّاف ومحنةِ أهلِه وقَرابتِه ومحنةِ أهل بَلَنْسِيَة[1]

ولـمّا تمهَّدت بَلَنْسيةُ للكَنْبَيطُور لعنَه الله بدَأ بثِقاف قاضيها ابن جَحّاف وثقافِ أهلِه وقَرابتِه، فعمَّهم الثِّقاف، وبلَغَتهم المِحنة، وجعَل يَطلُبُهم بمال حفيد ابن ذي النّون. ولم يزَلْ يَستخرجُ ما عندَهم حتى استصفَى أموالَهم واستنفَدَ أحوالَهم. فلمّا لم يترُكْ لهم ظاهرًا ولا باطنًا، أمَرَ بإضرام النار، وسيق القاضي أبو المطرِّف، يَرسُفُ في قيودِه، وأهلُه وبنوه حولَه، وقد حُشِر الناس من المسلمينَ والرّوم. ثم قال للملإ من المسلمين: ما جزاءُ من قتَل أميرَه عندَكم في شَرْعِكم؟ فصَمَتوا، فقال لهم: جزاؤه عندَنا الإحراقُ بالنار! وأمَرَ به وبجُملتِه إلى ذلك الضّرم، وقد لَفَح الوجوهَ على المسافة البعيدة. فضَجَّ المسلمونَ والرُّوم، وتَضرَّعوا إليه في تَرْك الأطفالِ والعِيال، إذْ لا ذنبَ لهم، ولا عِلمَ بتلك الأمورِ عندَهم، فأسعَفَ الرعيّةَ في رغبتِهم بعدَ جَهْدٍ ومدّة، وترَكَ النّساءَ والصِّبية.

---

(١) تنظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ١٢٥-١٢٦، والتكملة له أيضًا ١/ ٣٧٥، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٥٩٤، وتنظر الذخيرة ٣/ ٧٣ فما بعدها.

وحُفِر للقاضي حُفرة، وأُدخل فيها إلى حُجْزتِه، وسُوّي الترابُ حولَه، وضُمّت النارُ إليه. فلمّا دنَتْ منه، ولفَحَت وجهَه، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ثم ضمَّها إلى جسَدِه. فاحترَق رحمه اللهُ تعالى.

ولم يُكَفَّ غضَبُ الطاغية عليه إلّا لشدة صبرِه على تلك الأزمة، واجتهادِه في طلبِ النُّصرة، ودَفْعِه إياه بالمطاولة، رجاءً في استمساكِ البلدة وإبقاءِ الكلمة.

وعَمَد الطّاغيةُ لعنَه اللهُ بعدَ إحراق القاضي رحمه الله إلى الجِلّة من أهل بَلَنْسية، فثَقَّفَهم وأغْرَمَهم حتى استأصَل جميعَ ما عندَهم وجعَل الناسَ في المحنة أُسوة، يأخُذُهم على طبقاتهم، حتى عمَّتهم المحنة، وهلَكَ في ذلك الثِّقات كثيرٌ منهم رحمهم الله وجعَلَها كفّارةً لهم.

وممّا امتُحن به أهلُ بلَنْسِيَة في هذه السَّنة المؤرَّخة: الغلاءُ، قال محمدُ بن علقَمة: بلَغَ رَطلُ القمح في ربيع الأوّل بمثقالٍ ونصف، ورطلُ الشّعير بمثقال، ورَطلُ زَرِّيعة الكَتّان ستةَ أثمان مثقال، وأوقيةُ الجُبْن ثلاثةَ دراهم، وأُوقيَةُ البصَل بدرهم، ورَطلُ البَقْل بخمسة دراهم، وبيضةُ دجاجةٍ بثلاثةِ دراهم، ورَطلُ اللُّحم البَغْليِّ بستة دنانير، ورَطلُ الجِلد البقَريِّ بخمسة دراهم.

وفي ربيع الثاني: عَظُم البلاء، وتَضاعَفَ الغلاء، واستَوى في عُدْم القوتِ الفقراءُ والأغنياء. فأمَرَ ابنُ جَحّاف اقتحامَ الدُّور فحصًا عن القُوت. وأعاد ابنُ جَحّاف استصراخَ ابن هُود ورغَّبه في المالِ والبلد، معَ الأجر في استنقاذِ المسلمينَ من القتل والأسر.

وانسَلَخ هذا الشّهر، ورطلُ القمح بثلاثة مثاقيلَ غيرَ رُبع، وما سواه تابعٌ له. ولا يصلُ إلى إدراك شيءٍ من الموجود إلّا أهلُ الجاه، وترَمَّق سائرُ الناسِ بالجلودِ والأصماغ وعروق السُّوس، ومن دونَ هؤلاءِ بالفِئَرة والقِطَط وجِيَف بني آدم. وهُجِم على نَصْرانيٍّ وقَع في الحَفِير، فأُخِذ باليد، ووُزِّع لحمه.

وجَدّ الطاغيةُ في حَرْق مَن خَرج من المدينة إلى المحَلّة، لئلّا يَخرُجَ الضُّعفاء ويتوفَّر القوتُ على الأغنياء. فهانَ على الناس الإحراقُ بالنار، فعَبَث فيهم بالقَتْل، وعُلِّقت جثثُهم في صوامعِ الأرباض وبَواسق الأشجار.

ودخَل جمادى الأُولى، وعُدِمت الأقواتُ بالجُملة، وهلَكَ الناس. ولم يبقَ من ذلك الجَمِّ إلّا نَزْرٌ يسير. وتَوالَى اليَبَس، واستَحكَم الوباء، وبينَما الرجلُ يمشي، سَقطَ ميّتًا. ولم يبقَ ما يَدِبُّ على أربع إلا اثنانِ لابن جَحّاف وابنِه، واثنان لابن رُتْبَيْر. وباعَ ابنُ رُتْبَيْر فرسَه من الجزّارينَ بمئتي مثقال، واستَثنى منه عشَرةَ أرطال، فبيعَ الرطلُ منه أولُه بعشَرة دنانير، وآخرُه باثنَيْ عشَرَ دينارًا، ورأسُه بخمسةَ عشَرَ مثقالًا.

ولـمّا بلَغَ الأمرُ إلى هذا القَدْر، وابنُ هود يُخاطِبُ بالتسويف والـمَطْل، اجتَمع الناسُ إلى الفقيه ابن الوليد الوَقَّشيِّ في التكلُّم لابن جَحّاف. فأخَذوا الأمانَ بشرطِ التوقُّف ريْثَما يُستصرَخُ مَن بمُرسِيَة وصاحبُ سَرَقُسطة، وعلى بقاء ابن جَحّاف على حالِه آمنًا في نفسِه ومالِه وجميع أهلِه، ويُخَلِّي اللّعينُ عن المدينة بعدَما قدَّم عليها ابنَ عُدَيس مُشرِفًا، وتكونُ الأبوابُ بأيدي الرّوم البَلَدِيِّينَ إلى آخِر الشّهر المؤجَّل. وخَرج الأرسالُ في منتصَفِه، وهو جُمادى الأُولى.

وفي هذا اليوم: وصَل القمحُ ثلاثةَ مثاقيلَ للرَّطل، ورطلُ الشّعير مثقالَيْنِ ونصفًا، وأُوقيَةُ الجُبن بعشَرة دراهم، وبيضةُ دجاجة بثمانيةِ دراهم. وبعدَما نفَذَتِ الأرسال، ارتَفَعت الحرب، ولان السِّعرُ، والحمدُ لله. وذلك لـمّا انصَرم الأجَل، خَرج القاضي إلى الكَبْيطُور يومَ الخميس منسَلَخ الشّهر المذكور. ثم صار وفُتح الباب، ودخَل اللّعينُ إلى المدينة معَ جُملة من رجالِه. وصَعِد جماعةٌ منهم، فمَلَكوا الأبراجَ والأبواب، وتسابَقَ الباعَةُ من موضع المحَلّة بالخُبز والفواكه إلى المدينة. وخَرج أهلُ البلد إليها لابتياع القُوت منها، فتهلَّلت الوجوه، وانبَسَطت النفوس، إلا أهلَ العقولِ والنظَرِ في العواقب.

واستمرَّت المحنةُ عليهم إلى أنْ دخَل شهرُ شعبان، فاتّصلتِ الأنباءُ أنّ عساكرَ المسلمينَ بمُرْسِيَة. فأشاع الرّوم: أنه متى نزَلَت علينا محَلّةُ المسلمين، أمضَيْنا السَّيفَ على أهل بَلَنْسِيَة، ومشَى بريحِه: مَن وُجِد عندَه شيءٌ من آلاتِ الحديد، فمالُه ودمُه حلال. فبَرِئ الناسُ منه حتّى من الإبَر والمسامير، ووضَعوا ذلك بباب القَصْر، وقد تضاعَفَ الجَزَعُ والخوف. ثم مشَى بريحِه منَ الغَدِ بالخروج إلى البحر لجرِّ القِطع التي فيه إلى البَرِّ، فلمّا تكامَلَ الناسُ، لحِقَ بهم الـمُترجِمُ معَ زعماءِ الرُّوم، فميَّزهم، فمَن كان من أهل اليسار صُرِفَ إلى المدينة، ومَن كان من أهلِ النّجدة جُرِّد ونُفِي، وغَلَب على الظنِّ أنهم قُتلوا،

فكان الحُزنُ في دورِهم. واستمرَّتِ الحالُ على ذلك شهرَ رمضان ومحلّةُ الأمير محمدِ بن تاشْفين ابن أخي أميرِ المسلمين بقُرب المدينة، واجتَمع على الأميرِ محمد جميعُ عساكرِ الـمُرابِطينَ المغربيّة والصَّحراوية، وجميعُ عساكر الأندَلس. فلَحِق به تأييدُ الدّولة صاحبُ لارِدة، وسيِّدُ الدّولة من طَرْطُوشة، وحسامُ الدّولة من شَنْت برية، ونظامُ الدّولة من البُونْت، فكانت أفعالُهم ضدَّ ألقابِهم، ولحِقَ الشَّنياطيُّ من الثّغر، وابنُ ياسين صاحبُ شبرب، وابنُ يَمْلُول صاحبُ حصن الأشرف، وغيرُ هؤلاءِ المذكورين.

واستَهلَّ هلالُ شوّال، وصَلّى الناسُ بمنزِل عطاءٍ على ساقية هَوّارة، ومَن كان بالمدينة من النّصارى الـمُعاهِدين يتصنَّعُ لـمَن بها من المسلمين، ولا شكَّ عندَهم في غَلَبتِهم لهم.

وفي الثامن من شوّال: أشاع اللَّعينُ أنّ ابنَ رُدْمير ملِكَ أرغُون لحِقَ بجُملتِه لنُصرته، فأعمَلَ الحِيلةَ وأخرَجَ جمعًا من الرّوم، وأمَرَهم أن يشغَلوا المسلمينَ بالتناوش ليظُنُّوا أنّه الكَبِيطُورُ، وخَرج هو من حَوْمة أخرى، فأجْفَلوا أمامَه، فأُخِذ إلى المحَلّة، فدوَّخَتْها خيلُه، واتّصل الصُّراخُ بالأمير محمد، فكَرَّ إليها، ومتى انفَضّ الناسُ عنه والمحلةُ تُنهَب، فتوقَّف العدوُّ عن الاتّباع وأقبَلَ على النَّهب. ثم رجَعَ إلى المدينة، فمشَى بريحِه باجتماع المسلمينَ إلى القصر، ثم خَرج عليهم ونَظَر إليهم وعرَّضَ بذكْرِ الـمُرابِطين وكثرتِهم وأنّ ذلك ما أغنَى عنهم، وجعَلَ يَنظُر في عِطفِه، ويشمَخُ بأنفِه. ثم قال: انظُروا إليّ في سبع مئة ألف مثقال، وإلّا هَلَكتُم، وأحَلْتُ السّيوفَ عليكم، ثم خَرج وبقيَ المسلمونَ في القصر، وأُغلِق عليهم الباب، فصاروا في سِجن، والرومُ تحُفُّهم بالأسلحة، فرأَوا الموتَ، ووَقَع البَهْت، وخَرِست الألسنة. ثم رجَع اليهوديُّ وزيرُه إليهم، وقال لهم: لم أزلْ أُلاطفُه حتى قاطعتُه عليكم بمئتي ألف مثقال، فبادِروا بتوزيعِها، وافدُوا أنفُسَكم منه، فتوزَّعَ العددُ على الأحوال واشتَدّ ثِقافُ الأغنياء.

وبلَغَ اليهوديُّ لعنَه اللهُ من المسلمينَ مبلغَ الغاية في العذاب وسَلَّط اليهودَ على الإسلام، فبَلَغوا النّهايـةَ في النَّكالِ والنِّكاية، ومنهم الأُمناءُ الموكَّلون، والمتصرِّفون، وأصحابُ الرّسوم، وخُدّامُ البَرِّ والبحر. وجلس اليهوديُّ للقَبْض بصاحبِ المدينة من

الضّرب بالعَصَا والسَّوط، وقَيَّض لكلٍّ منهم شيطانًا يخرُج معَه كلُّ عدوّ، فإن جاء بشيءٍ وإلّا أُخِذ بالسَّوط والعذاب، وتمادَت هذه المحنةُ مدّة، فلا قوّةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

... رجلَيْن من أجنادِ رجالِه وبقيَ المستعينُ بنُ هود المذكورُ في مُحاربة معَ الرُّوم، إلى أن وصَل ابنه... ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ فتح بَلَنْسِية وعَوْدِها للمسلمين

قال أبو بكر يحيى بنُ محمد الأنصاري: أخبرني أبو عبد الله البُونيُّ قال: لـمّا لحِقَ الأميرُ مَزْدَلي... صدرَ ذي القَعْدة من السنة الفارِطة نزَلَ بمقرُبة منها، كما تقدَّم ذكرُه، وكان الرّومُ الذين بالمدينة قدِ استَصرَخوا مَلِكَهم الأكبر أذفُونْش فتحرَّك إليها بجيش أخشَنَ، فلمّا كان على فرسخَيْن منها أفرَجَ الأميرُ مَزْدَلي عنها وصار بمحَلّتِه إلى قَلبيرة[1]، فأقام الأذفُونْشُ ببَلَنْسية نحوَ شهر والروم تَرومُه على التمسُّك بها ويُرغِّبونَه فيها ويهوِّنونَ عليه أمرَ جيوش المسلمين، فلمّا ألحُّوا عليه خَرج بجيوشِه لقَصْد قلبيرةَ وهو يُظهِرُ القَصْدَ لأكل الزَّرع وفسادِه يَستُر استطلاعَ جيش الأمير مَزْدلي في باطن أمرِه، فتحرَّك الأميرُ مَزْدَلي لـمّا اتّصل به ذلك من هنالك وكتَّبَ الكتائبَ وعبَّأَ المواكبَ في وَجْه الأذفُونْش، فظَهَر لأَذْفُونْش من عَزْمِه وصَرامتِه وقوّة جأشِه ما ظَهَر. فكانت بين الفريقَيْن مُكافحةٌ عظيمة عامّةَ النّهار، [وعندَ] المغرب [أخذ] الأذفُونْش في الصَّدرِ إلى بَلَنْسيةَ وجَدَّ في إخلائها وخَرَج بجميع مَن كان فيها من الرّوم، وأُضرِمت النارُ في الجامع والقَصْر وبعض الدُور، وصَدَر الأميرُ مَزْدَلي إلى بَلَنْسِية في شهر رجَب، فأنقَذَ اللهُ بلَنْسِيَةَ من يدِ الشِّرك ومَلَكة الرّوم وطهَّرها وصَرف إليها نورَ الإسلام ودينَ محمد عليه السلام بعدَ ثمانية أعوام وشهرٍ ونصف وبعدَ نفوذِ القَدَر السابق في عِلم الله تعالى... وهَلَك مَن هَلَك بها، جعَلَ اللهُ ذلك تمحيصًا لهم وتطهيرًا بعزّتِه[2].

ووَلِيَها في هلّ ذي الحجة القائدُ أبو محمد عبدُ الله ابن فاطمة، ثم استَناب فيها ونهَض إلى سَرَقُسْطة فَوافاها ثانيَ عيد النَّحر معَ ألفٍ وخمس مئة فارس، وذلك لـمّا وصَل

---

(١) هي: Cullera، مدينة تقع إلى الجنوب من بلنسية.

(٢) ذكر ابن بسام في الذخيرة ٥/ ١٠١ أنّ استرداد بلنسية كان في شهر رمضان سنة ٤٩٥هـ.

وَلَدُ ابن هُود من العُدوة بكتابٍ من أميرِ المسلمين، وبعدَ وصُول هذا الكتاب توجَّه القائدُ أبو محمد عبدُ الله ابنُ فاطمةَ إليها بجيش كثيف من ألف وخمس مئة فارس فوَفّاه ثانيَ عيد النَّحر من السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: أخَذ أميرُ المسلمينَ في الحركة من حضرتِه مَرّاكُش برَسْم الجَواز إلى الأندَلس... المرسوم بالأنوار الجليلة، فلمّا جاز... ثم صَدَرَ إلى غَرْناطة [وعقَدَ عليها] للقائد عليِّ بن الحاجّ، وجَمَع أعلامَ الـمُرابِطينَ والرّؤساءِ الأندَلسيِّين في حال البيعة [لابنِه عليّ]. ووَجَّه أحمدُ بنُ هود الـمُقتدرُ بالله[1] ابنَه عبدَ الملِك المدعوَّ عمادَ الدّولة من رُوْطةَ[2] إلى قُرطبة بهديّة جَليلة منها: أربعةَ عشَرَ رُبعًا من آنِية الفضّة مطرَّزةٌ باسم المقتدِر بن هود، فأمَرَ يوسُفُ بنُ تاشْفين بضَرْبها قَراريطَ وفرَّقها ليلةَ عيد النَّحر في طبقاتِ الـمُرابطين، [وفي ذلك الوقت: عقَدَ البيعةَ لوَلَدِه عليِّ بن يوسُف][3] وحضَر العهدَ عبدُ الملك ابنُ المستعين بن هود، وكتبَه أبو بكر ابنُ القصيرة[4].

وفي هذه السنة: توفِّي ملِكُ شَنْتَمَريّة من ثغرِ الأندَلس الملقَّبُ بذي الرِّياستَيْن حسامُ الدّولة[5]، وكانت رياستُهم في هذا القُطر من سنة إحدى وأربعينَ وأربع مئة، أولُهم: مؤيِّدُ الدّولة هُذَيْل بن خَلَف بن أزحن، ثار بها ودام مُلكُه فيها إلى أن مات، ثم قام بعدَه أخوه عبدُ الملِك إلى أن مات، [ثم وَلِـي ابنُه هُذَيْل][6]، ثم ثار بعدَه ابنُه ذو الرِّياستَيْن هذا حسامُ الدّولة، وتَمادَى مُلكُه بها إلى أن مات في هذه السَّنة، ووَلِـي بعدَه ابنُه[7] مدةً يسيرةً وصار أمرُه إلى أمرِ الأمير يوسُف.

---

(١) الصواب: المستعين بالله، وهو حفيد المقتدر بالله، وينظر أعمال الأعلام (١٧٤)، والحلة السيراء ٢/ ٢٤٨.

(٢) Rueda، وهي من مدن الثغر الأعلى كانت تابعة لسرقسطة، ينظر معجم البلدان ٣/ ٩٦.

(٣) زيادة من أعمال الأعلام (١٧٤).

(٤) نص هذا العهد في «الحلل الموشية» ص٦٣، وفيه أن الذي كتبه هو الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور.

(٥) هو عبد الملك بن هذيل بن رزين أبو مروان، تنظر ترجمته في الحلة السيراء ٢/ ١٠٨-١١٥.

(٦) زيادة من الحلة السيراء لا يصحّ النص بدونها.

(٧) سمّاه ابن الأبار يحيى، وقال: «وعليه انقرض ملكهم» (الحلة السيراء ٢/ ١٠٩).

وفي سنة سبع وتسعينَ وأربع مئة: أخَذ يوسُفُ بن تاشْفين في الحركة إلى حضرة مَرّاكُش من بلاد الأندلس لـمّا كمّل أمرَ البيعة لابنِه عليٍّ وضَبَطَ أحوالَها وتقديمَ عُمّال للنّظر في أشغال التحرّك، صار إلى العُدوة، وأوعَزَ إلى أبي الحَسَن عليّ بن الحاجّ عاملِه على غَرْناطةَ في النّهوض إلى شرق الأندَلس، واستحَثَّه في السَّير، فلَحِق به كتابُه وهُو على مقرُبة من الجزيرة الخضراء... بامتثال أمرِه، ووصَل عليُّ بنُ الحاجِّ إلى بَلَنْسِية في شهر صَفَر... الأمير يوسُف في... كتَبَ إليه جوابَه في محلّة مضاربِه، وأقام عليٌّ ابن الحاجِّ ببَلَنْسِية إلى شهر رمضان فورَدَه... الخبرُ عن منازلة أذْفُونْش بن فرذلند مدينةَ سالم، فتوجَّه بجُملةٍ وافرة من الخَيْل والرّجال... فلمّا احتلَّ بقلعة أيوبَ استمَدَّ القائدَ الأعلى أبا محمد عبدَ الله ابنَ فاطمةَ فبادَرَ إليه... تَفاوَض فاجتَمع الرأيُ على غزوِ بلاد العدوّ، فلحِقَا مدينةَ طُلَيطُلَةَ من... سَرَقُسْطة... المحَلّة، واتّصل بالحِلِّ والتَّرحال، فوافَوْا مدينةَ طَلَبِيرة، فخَرج منها... والحربُ تدورُ على الدّوام وبأخَرةٍ أحَلّت... الأمير عليّ بن الحاجّ رحمه الله... فيه طرفُ المعترَك ميّتًا بدِرعِه وسلاحِه... ولا ضربة... إلى تُطِيلة فدُفن في قِبْلي جامعِها وانصَرف... قاهرًا ومالًا وافرًا، فاقتفَى أثرَ أبيه وسلَكَ سبيلَه في عَضُد الحقِّ وإنصاف المظلوم... الظالم وأمْن الخائف وسدِّ الثُّغور ونِكاية العدوّ، فلم يَرُم السَّدادَ في أعمالِه، والتوفيقَ في حُسن أفعالِه، وكان أخصَّ الناس به أبو محمد عبدُ الله بن أسباط، فجعَلَه المترجمَ عن بيانِه، وأقامَه في الأوصية مقامَ لسانِه، وناطَ به الآمال، وأوطَأَ عَقِبَه جماهيرَ الرّجال.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين: شاع الخبرُ بالأندَلس بمرَض الأمير يوسُفَ واستيلاءِ الآلام عليه، وخاضَ فيه أهلُ الدّولة الذين يَستنبِطونَ الغوائل، ويُشعلونَ نيرانَ الشِّقاق والنِّفاق، واتّصلت الأخبارُ بالطاغية أذْفُونْش على غيرِ صورتِها، وجُلِبت لدَيْه في غير معرِضِها، وصوِّرَ عندَه أنّ بلادَ المسلمين من الرّجال قد خَلَت، ومن الحُماة وذوي النّجدة قد تفرَّغت، وظنَّ أنه من هذا الحادث قدِ اضطَرَبت الأمور، وانحَلّ نظامُ التدبير، فخَرج الأعداءُ في زُهاءِ ثلاثة آلاف وخمس مئة، فتوغَّلوا في نَظَر إشبيلِيَةَ حتى وصَلوا إلى موضع يُعرَفُ بمقاطع، فغَنِم من تلك القرى الغنائمَ الموفورة والأسلابَ الكثيرة، وخَرج أبو محمد سير مِن إشبيلِيَة وتحصَّن في حصن هنالك، وتلاحَقَت به أجنادُه وأمدادُه،

وبقيَ هناك مُرتقبًا لورود أبي عبد الله ابن الحاجّ بعسكرِ غَرْناطةَ إلى أن استوفَتِ العساكر، فهَرَب جميعُ الكفَرة وولَّوْا أمامَهم فارِّين مهزومين، وبلَغَ المسلمونَ الشِّفاءَ من القتل فيهم، وكاد السّيفُ يَستأصلُهم ويُفنيهم، وصَحَّ بعدَ هذا الفتح الجليل أنّ الذي قُتل منهم ألفٌ وخمس مئة.

وفي هذه السنة: تَناهَى القَحْطُ في بلاد الأندَلس والعُدوة، حتى أيقَنَ الناسُ بالهلاك.

وفي سنة تسع وتسعين: تزيَّدت بالأمير يوسُف عِلّتُه التي قُبض منها.

وفيها: صَدَر الأميرُ تميمٌ عائدًا من شَرْق الأندَلس ووصَل مَرّاكُش بسبب ذلك.

وفيها: عُزِل موسى ابنُ الحاجّ عن غَرْناطة، ووَلِيَها أبو بكر بن إبراهيم اللَّمتُونيّ.

وفيها: قُرئ بإشبيلِيَة كتابٌ نفَذَ من وليِّ العهد بتأخير القاضي ابن [منظور].

وفي هذه السَّنة: خَرجت سبعونَ قطعةً من البحر الغَرْبيِّ وقَصَدت بيتَ المقدس، فلمّا توسَّطتِ البحرَ [هبَّت] عليها ريحٌ فرَّقتها وأغرقَتْها فلم يرجِعْ شيءٌ منها وكفَى اللهُ المسلمينَ شرَّها.

وفيها: ظَهَر نجمٌ منظورُ الضَّوء طويلُ الذُّؤابة... كأنها طيرةُ المجرّة تَمادى نحو ثلاثةِ أشهر.

وفي سنة خمس مئة: استأْثَر اللهُ أميرَ المسلمين يوسُفَ بنَ تاشْفين رحمه اللهُ تعالى، وذلك يومَ الاثنين مستهلَّ شهر المحرَّم من السنة[1].

بعضُ أخبارِه على الـجُملة

... كان خائفًا لربِّه كتومًا لسرِّه، كثيرَ الدُّعاءِ والاستخارة، مُقبلًا على الصّلاة، [يأكُلُ من عمل][2] يدِه... أكثرُ عقابِه كان الاعتقالَ الطّويل إلّا من انتَزَى وشقَّ العَصَا فالسّيفُ أحسمُ لانتشارِ الداء.

---

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ١٠/ ٤١٧) وابن خلكان (وفيات ٧/ ١٢٥) والذهبي في تاريخ الإسلام (١٠/ ٨٣٨) أنه توفي في ثالث المحرّم، وفي الحلل الموشية (٦٧) أنه مات في شهر ربيع الآخر من السنة.

(٢) زيادة من الحلل الموشية.

كُنْيتُه: أبو يعقوب.

دينارُه: تِبرٌ في إحدى صَفْحتَيْه: «لا إلهَ إلّا الله محمدٌ رسُولُ الله» وتحتَ ذلك: «أميرُ المسلمين يوسُفُ بن تاشْفين». وفي الدائر: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية [آل عمران: ٨٥]. وفي الصّفحة الأخرى اسمُ أمير المؤمنينَ العبّاسيّ.

عُنوانُ كتُبه: من أميرِ المسلمين وناصِر الدِّين إلى فلان.

وكان يُفضِّلُ الفقهاء ويُعظِّمُ العلماء ويَصرِفُ الأمورَ إليهم، ويأخُذُ فيها برأيهم، ويَقضي على نفسِه بفُتْياهم، ووَلِع بالاختصار في ملبَسِه، وما زال إلى أنْ لقيَ اللهَ مجِدًّا في الأمور، مُلقَّنًا للصواب فيها، مستصحِبًا حالَ الجَدّ، مؤدِّيًا إلى الرّعيّة حقَّها من الذّبِّ عنها والغِلظة على عدوِّها، وإفاضةٍ للأمن والعدل فيها، ويَرى صُوَرَ الأمور على حقيقتِها، وكان معظمًا مَهُوبًا لا يَخلُد إلى راتبة، ولا يَسكُنُ إلى دَعَة.

نسَبُه: هو يوسُفُ بن تاشْفينَ بن ترجوتَ بن ورتانطنَ بن منصُور بن مَصالةَ بن أمينةَ بن وانمالي الصُّنْهاجيّ، وقد ذكَرَ الهَمْدانيُّ في كتاب «الإكليل» أنّ صُنهاجةَ من وَلَد عبدِ شمس بن وائل بن حِمْيَر، واجتَمعت الرّواياتُ أنّ صُنهاجةَ من حِمْيَر.

وطَوى الدّهرُ أميرَ المسلمين يوسُف، فاسترجَعَ ما وَهَبَ وقَبَض، وهُو على أوّلِه في الحَزْم والعَزْم لنَصْر الدِّين وإظهار الكلمة وعَضُد الإسلام، وقد امتَدَحَه الشّعراءُ في حرَكاته وغَزَواتِه، وصُدورِه وورودِه، فأجْزَلَ لهم العطاء، ورَثاه جماعةٌ، منهم: أبو بكر بن سِوَار[1] من جُملة مَراثيه وأنشَدَها على قبرِه [من الكامل]:

مَلِكَ الملوكِ وما تركْتَ لعاملٍ ... عملًا من التّقوى يشاركُ فيهِ

يا يوسفُ ما أنتَ إلا يوسفٌ ... والكلُّ يعقوبٌ بما نَطويهِ

اسمَعْ أميرَ المؤمنينَ وناصرَ الـ ... ـدِّين الذي بنفوسِنا نفديهِ

جُوزيتَ خيرًا عن رعيّتِك التي ... لم تَرْضَ فيها غيرَ ما يُرضيهِ

---

(١) ترجمته في المغرب لابن سعيد ١/ ٤١١، وهو محمد بن سوار الأُشبوني، والقصيدة مذكورة في الذخيرة لابن بسام ٤/ ٨٣١.

أمّــا مــساعيك الكــرامُ فإنّهــا ... خرَجَتْ عن التكييفِ[1] والتشبيهِ

في كــلِّ عــام غــزوةٌ مــبرورةٌ ... تُــردي عديــدَ الــرّوم أو تُفنيــهِ

تــصلُ الجهــادَ إلى الجهــادِ موفّقًــا ... حَــتمُ القــضاءِ بكــلِّ مــا تقــضيهِ

ونَجــيُّ مــا دبّرتَــه كنجيِّــهِ ... فكــأنَّ كــلَّ مُغيَّــبٍ تَدريــهِ

متواضِــعًا لله تُظهِــرُ دينَــهُ ... في كــلِّ مــا تُبديــه أو تُخفيــهِ

ولقد ملَكْـتَ بحقِّـك الـدّنيا وكـم ... مَلَـك الملـوكُ الأمـرَ بالتمويـهِ

لو رامـتِ الأيـامُ أن تحـصي الـذي ... فعلَـت سيوفُكَ لم تكـنْ تُحـصيهِ

إنـا لَــمفجوعونَ منـك بواحـدٍ ... جُمِعت خِـصالُ الخَلْق أجمَعَ فيـهِ

وإذا سَـمِعتَ حمامــةً في أيكــةٍ ... تَبكــي الهــديلَ فإنهــا تَرثيــهِ

ومضَى قدِ استرعَى رعيَّــتَه ابنَـهُ ... فأقــام فــيهم حــقَّ مُــسترعيهِ

وإذا هِزَبْـرُ الغـاب صَرَّى شِـبلَهُ ... في الغاب كان الـشِّبلُ شبلَ أبيـهِ

وإذا عــليٌّ كــان وارثَ مُلكِــهِ ... فالــسهمُ ملقًــى في يَــدَيْ باريــهِ

ذكرُ دولة أميرِ المسلمينَ عليِّ بن يوسُف

ولـمّا استأثَرَ اللهُ بأمير المسلمين يوسُفَ بن تاشْفين وَصّى الأمرَ إلى وَلَدِه وليِّ عهدِه عليٍّ أمير المسلمين، فاضْطَلَع أبرَعَ اضْطلاع، وقام أحمدَ مقام، وألبَسَه اللهُ الـمَهابة، وقَذَف له في القلوبِ المحبّة، فاجتَمَعت عليه الأُمّة، واتَّفقَت الكلمة، وبعدَ مُواراة أبيه خَرج ويدُه في يدِ أخيه أبي الطاهر تَميم [على] قبائل الـمُرابطين والـمَصْموديِّينَ وغيرِهم من زُعماءِ القبائل ورؤسائهم، فنَعَياه إليهم، وجدَّد أبو الطاهر بيعةَ أخيه وأخَذ الحاضرينَ بذلك فاستتَبَّ الأمر، وبادَرَ الأميرُ أبو الطاهر إلى مِكْناسةَ بالجيش والأميرُ يحيى ابنُ أبي بكر بفاس والأميرُ مَزْدَلي بتِلِمْسان، وكان الأميرُ سَيْر ابنُ أبي بكر في طاعة إشبيليَة،

---

(١) في الذخيرة: «التحديد».

ولحِقَ الأميرُ أبو بكر بنُ إبراهيم بغَرْناطةَ في ربيع الأول من هذه السنة. وقصَده زُعماءُ الأقطار مهنِّئةً وامتَدَحتْه الشّعراءُ فوَهَب الهباتِ لهم؛ وكان خروجُه من غَرْناطةَ في رجَبِ العام المذكور.

ذكرُ حركة أميرِ المسلمينَ عليٍّ بن يوسُف من مَرّاكُشَ إلى الأندَلس

وتحرَّك أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من حضرة مَرّاكُش معَ جيوش الـمُرابطين والـمَصْموديِّين والجنودِ والحشود يومَ الجَواز إلى بلاد الأندَلس لتفقُّد أهلِها وسدِّ خَلَلِها، وأغذَّ السَّيرَ إلى أنْ وصَل إلى مدينة سَبْتة وجاز البحرَ منها إلى الجزيرة الخضراء، فبادَرَ إليه قضاةُ الأندلس وفقهاؤها وزُعماؤها ورؤساؤها، وأدباؤها وشُعراؤها، فامتَدَحَتْه الشّعراءُ فأجزَلَ لهمُ العطاء، وقضَى لمن كان ذا أرَبٍ أرَبَه، وسنَّى لكلِّ ذي مطلبٍ مطلبَه، فوَلَّى أخاه أبا الطاهر تميمًا غَرْناطة، ووَلَّى أبا عبد الله محمدَ بن أبي بكر اللَّمتُونيَّ قُرطُبة، وبقيَ محمدُ بنُ الحاجِّ تحتَ الخمول[1] إلى أن وَلّاه بعدَ ذلك مدينةَ فاسَ ثم نقَلَه إلى بَلَنْسِية في سنة ثلاث.

قال ابنُ الصَّيرفي: وجَرت في هذا العام أحداث، ذَكَر في كتاب «تقَصّي الأنباء في سياسةِ الرؤساء»: وفي هذا العام: انبَرى أبو العلاء بن زُهْر[2] إلى مطالبة القاضي ابن منظور بإشبيلِيَة، وخبرُ ذلك أنّ ابنَ زُهْر اعتَلَّ، فذُكِر ذلك للقاضي فقال: وطبيبٌ ماهر يمرَض! فنُهِيَ ذلك إلى الوزير أبي العلاء ابن زُهر فحرَّك منه وقال [من الكامل]:

إنّ ابــنَ منظــورٍ تعجَّــب هــازلًا ... لـمّا مرِضتُ فقلت: يَعثُر مَن مشى

قـد كـان جـالينوسُ يمـرَضُ دائـمًا ... فمـن الفقيـه المرتـضَى أكـل الرَّشـا

فأنفَذَ أميرُ المسلمينَ عليٌّ إليه كتابَ عَزلتِه.

ولـمّا كمُلت أشغالٌ حاز بها للأندلس... أمورَها وعمَّت البيعةُ دانيَها وقاصيَها، صَدَر الأميرُ عليُّ بن يوسُف إلى سَبْتة، وأدّى مشيُه في... إلى حضرتِه مَرّاكش.

---

(١) ينظر المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ص١٧٥-١٧٦، بتحقيقنا.

(٢) هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك الطبيب المشهور، ترجمته في تاريخ الإسلام ١١/ ٤٣١.

وفي سنة إحدى وخمس مئة: ورَدَ الأميرُ أبو الطاهر تميمُ بن يوسُف بغَرْناطةَ واليًا عليها، فاطمأنّتِ النفوس وهَجَدتِ العيون... بمملكتِه، وظَهَر به جَمالُ دولتِه، ونظرَ الأميرُ أبو الطاهر في أسبابِ الغَزْو وأحسَنَ إلى الجُند، وخَرج منسلَخَ شعبانَ المكرَّم من العام، فلمّا احتلَّ الجيشُ مدينةَ جَيّان تلوَّم بها الأميرُ أبو الطاهرِ أيامًا حتى وَفَدت عليه الجيوشُ والعساكر من قُرطُبَةَ وغيرِها، واستقبَلَ على حصن أُقليش[1]، فاضْطَرَبت المحَلّاتُ بإزائه وانتشَرَت الحروبُ عليه إلى أن دخَله عَنْوة وامتَنع أهلُه في قَصَبته والحروبُ مُحدِقةٌ به، وفي خلال ذلك وصَل إليه وَلَدُ أذفُونْش شانْجُه من زَوْج المأمون التي كانت تنَصَّرت بنحو سبعة آلاف فارس، فكانت بينَه وبينَ جيوش المسلمينَ حروبٌ يَطُولُ ذكرُها كانت الدائرةُ فيها على الرُّوم، مات فيها شانْجُه بن ألفُنْش أخزاهما الله، ورجَع الأميرُ أبو الطاهر إلى غَرْناطة.

قال ابنُ الصَّيْرفي: فكان ذلك دليلَ اليُمن والبركة بولاية عليٍّ بن يوسُف في أوّل دولتِه، وكانت الوقعةُ على الرُّوم وموتُ شانْجُه المذكورِ في... شوّال.

وفي آخِر هذا العام: مات أذْفُونْشُ لعنَه اللهُ تعالى.

بعضُ أخبارِ الأذْفُونْش مِلِك قَشْتالةَ أخزاه الله

قال الراوية: هلَكَ طاغيةُ الرُّوم الأعظمُ أذْفُونْش بنُ فرذلند بطُلَيطُلة في شهر ذي الحجة من عام اثنين وخمس مئة، وكان مُلكُه نيِّفًا على خمسينَ سنةً بأشهر. وهو: أذْفُونْش بنُ فرذلند بن غَرسيّةَ بن شانْجُه بَرْكَه[2]، وكان لغَرْسيّة بن شانْجُه بَرْكَه ثلاثةُ أولاد: غَرْسيّة، وفرذلند، وردمير.

قال أبو بكر بنُ عبد الرحمن: كان غَرْسيّةُ أشجعَ إخوتِه وقتَله أخوه فرذلندُ في حرب كان بينَهما وترَكَ ابنَيْنِ قام أحدُهما بالـمُلك، وهو شانْجُه، وخَرج الآخَرُ إلى بلاد الإسلام، وهو إلفَنْتُ[3] الذي أحرَقَ جامعَ إلبيرة وقُتل لعنَه اللهُ بروطةَ بسببٍ يَطُولُ

---

(1) معجم البلدان ١/ ٢٣٧.

(2) Abarca.

(3) Infante.

شرحُه هنا، ويقولونَ في اسم إلفَنْت: إلـهَنْت يَصرِفونَ الفاءَ هاءً في النُّطق، ومعناه عندَهم: ابنُ الملِك، كما عندَ الفرس: سابور، وهلَكَ غَرْسيّةُ بن شانْجُه بركه وقد قَسَم البلادَ بينَ بَنيه واختَصَّ فرذلند ورُدْميرُ بمَلكِه مناصَفةً، ولم يكنْ لرُدميرَ من الوَلَد إلّا شانْجُه، فلمّا قَتَلَه المقتدرُ بالله بن هود في الحربِ التي كانت بينَهما، قام بالـمُلك بعدَه شانْجُه وحدَه، فلمّا هلَكَ ترَكَ ابنَيْن: بطرةُ وأذفُونْش المصروعُ على أفراغه بها أفضَى إلى هُلكِه.

ولـمّا أشرف فرذلندُ على الـهُلْك أيضًا قَسَم بلادَه بينَ أولادِه شانْجُه وأذْفُونْش وغَرْسيّة[1]، فخَصَّ شانْجُه بمُلك بُرْغُوش[2] وقَشْتالةَ وما حولَها من الـمُدن، وخَصَّ أذْفُونْش بليونَ وما حولَها من الـمُدُن، وخصَّ غَرْسيّةَ بغليسيةَ وبُرتغال، ففَسَد ما بين شانْجُه وأذْفُونْش، وكانت بينَهما حربٌ أتت على أكبرِ رجالهما، ثم ظَفِر شانجُه بأخيه أذْفُونْش فأسَرَه وحبَسَه مصفَّدًا عندَه في قَشْتالةَ مدّة، ثم حَلَّ اعتقالَه ونَفاه عن بلادِه فلحِقَ بالمأمون بن ذي النُّون بطُلَيطُلة وبقيَ عندَه مدّةً كانت سببًا لتطلُّعِه على أحوالِـها حتّى استَولَى بعدَ ذلك عليها، وقد تقدَّم ذكرُه فيه.

وكانت لشانْجُه وأذْفُونْش أختٌ يقال لها: أُرَّاكة[3] تميلُ إلى أخيها أذْفُونْش، فداخَلَت بعضَ رجال أخيها شانْجُه على قتلِه، وخَرج شانْجُه يتصيَّدُ في [لـمّةٍ] من خيلِه وفي جُملتِه الداخلُ في قَتْلِه، وتسابَقَت تلك الخيلُ الجَرْيَ، فأجرى ذلك الفارسُ وبيدِه رُمحٌ مُعَدّة، فلمّا قَرُب من شانْجُه طَعَنَه فقَتَله، ومرَّ على غَلوائه إلى حصن سَمّورة[4] وبه أُرَّاكةُ أُختُهما فاعتَصَم بها... الدّعوة بالأذْفُونْش وأنفَذَ فيه، فلحِقَ للحين، وانفَرد بالملك. فلمّا استَوْسَق أمرُه قَتل قاتلَ أخيه وقال بلغتِه: «عملٌ جيِّد وعادةُ سُوء». ويُذكَر أنّ أذْفُونْش بن فرذلند لعنَه الله زنَى بأُختِه أُرَّاكة فجمَع بين النَّصرانية والـمَجُوسيّة، ثم طلَبَ إلى أحبار دينِه المغفرة ممّا واقَعَه، فحَمَلوه على قصدِ الكنائس الفاضلةِ والتعبُّد أخزاهم اللهُ ولعنَهم؛ ثم فَسَد ما بينَ أذْفُونْش وغَرْسِيّة، فكانت بينَهما حربٌ أُسِر فيها

---

(١) ينظر في ذلك أعمال الأعلام (٣٢٩).

(٢) Burgos.

(٣) Urraca.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٢٥٥.

أذْفُونْش لأخيه غَرْسِيّة فحبَسَه ثم دَسَّ عليه مَن قَتَله... في محبِسِه وانفرَد في مملكتِه إلى أن توفِّي هذه السنةَ المؤرَّخة.

وفي هذه السّنة: فَسَد صُلحُ المستعينِ بالله أحمدَ بن هود معَ الرّوم، وعادت الفتنةُ بينَه وبينَهم على ما أذكُرُ بعضَه.

وفي سنة ثلاث وخمس مئة: تحرَّكَ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من مَرّاكُش إلى الأندلس برَسْم الغَزْو والجهاد وفَتْح مدينة طَلَبيرة، وذلك أنه لـمّا تمهَّدت المملكةُ لعليِّ بن يوسُف ببلاد المغرب تحرَّكَ إلى الأندَلس فأجاز البحرَ ويمَّم غَرْناطةَ وتَلوّم بها ريْثما أجازت العساكرُ العُدْويّة والحشودُ والـمُطَّوِّعةُ وتأهَّبتِ الجيوشُ الأندَلسيّة، ثم تحرَّكَ إلى قُرطُبة وأقام بها أيامًا ومشَى البريحُ باعياد، ولحِقتْه الجيوشُ والأجناد، وتحرَّكَ منها إلى مدينة طَلَبيرة فنزَلَ عليها ثم دخَلها، ووقَع النَّهبُ والسَّبيُ فيها، واعتَصم الرّومُ في قَصَبتها، وأجارَهم اللّيلُ فرَمَوْا بأنفسِهم في النّهر وتسَرَّبوا بينَ الـمَحلات فأفْلَتوا، وامتلأت أيدي المسلمين بالسَّقْطِ والثّياب والماشية والأسلحة، وطُهِّر الجامع ورُدّ على الهيئة الـمُسلِمة ورجَع به حَرامُه وإقامةُ الصّلوات ومَحا اللهُ منه الكُفر، ونَدَب لها أميرُ المسلمينَ الخيلَ والرِّجالَ والرُّماة، وقوّد عليهم أحدَ الـمُرابِطين[1]، ورحَل الأميرُ عليٌّ عن طَلَبيرة، فاستقبَلَ طُلَيطُلة فأناخَت محلّتُه عليها ثلاثةَ أيام... الضِّيقة... وساءت ظُنونُ أهلها معَ ما هي عليه طُليطُلة منَ الحصانة والـمَنَعة، ودامَت عليها الحربُ يومَ الخميس والجُمُعةِ والسّبت، وأخَذت الجيوشُ في القُفول يومَ الجُمُعة، وانقضَى أمرُ هذه الحركة في أربعينَ يومًا، فصَدَرَ عليُّ بن يوسُف وقد دوَّخ تلك البلاد، ولم يُعهَدْ في ذلك الوقت مثلُ هذه الغزوة قوّةً وظهورًا وعُدّة ووفورًا ونِكايةً في العدوّ، وبقي رُعبُه في الرّوم.

ومن أخبارِ المستعينِ ابن هُود في هذه السنة

قال الراوية: نزَلَ المستعينُ أحمدُ بن هود حِصنَ روطةَ إلى مدينة سَرَقُسْطة، فجدَّد البيعةَ عن أهلِها لنفسِه ولابنِه بولاية عهدِه، فلمّا كمُل له من تجديد البيعة أملُه، عَزَم على الغزوِ على بلاد الرُّوم المجاوِرينَ له، فجَمَع وحَشَد وسار في جيش دَهْمٍ، وتحرَّكَ في

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان، ص١٣-١٤.

شهر جُمادى الآخِرة فاجتاز بمدينة تُطِيلةَ ودخَل منها على أرنية[1] فغَلَب على أرباضِها، واعتَصم أهلُها منه بكنيسةٍ منيعة، ثم صالَحَ على مال يؤدّونَ إليه أخَذ به رهائنَ منهم، ثم انصَرف قافلًا عنهم، وشَنَّ في صَدَرِه الغارات على مَن بذلك الصُّقع من الرُّوم وهَدَم وحرَّق وقتَل وسَبَى وعاد إلى بلادِه، فلمّا شارَفَ بلادَ الإسلام لحِقتْه خيلُ الرّوم المتألِّفة من البلاد في أول يوم من رَجَبٍ الفَرْد فاجتَلدوا أحرَّ جَلَد، وصبَر الفريقان وطال الضّرب، واستُشهِد المستعينُ بن هود وانفَضَّ الجَمْعُ وألحَمَ السّيف... على كثير منَ المسلمين، كرمَهم اللهُ بالشّهادة أجمعين.

ووَلِـي عبدُ الملِك الملقَّب عمادَ الدّولة بعدَ استشهادِ أبيه، وبايَعَه الناسُ بسَرَقُسطةَ بعدَما اشتَرطوا عليه ألّا يَستخدمَ الرّوم ولا يتلبَّسَ بشيء من أمرِهم، واتّصل بعبد الله ابن فاطمةَ موتُ المستعين، فطَمِع في سَرَقُسْطة وتحرَّك إليها، وذلك على نحو شهرٍ واحد من الوقعة، فلمّا انتهى إلى مقرُبة منها وجَّه إليه أهلُها أن ينصرفَ عنهم ولا يبدأَ الفتنةَ معَ الـمُبايَع له خَشْيةَ استصراخِه بالرُّوم فيعودَ الحَربُ على الأول، ثم بعدَ ذلك لم يَفِ عمادُ الدّولة ابنُ المستعين بالشَّرط الذي ألزَمَه نفسَه من طَرْح الروم وتَرْكِهم، فعزَم على مُداخلِتهم، وفَهِم منه ذلك أهلُ سَرَقُسطة، فاستدعَوا الأميرَ محمدَ بن الحاجِّ صاحبَ بَلَنْسية من قِبَل أمير الـمُرابِطين معوَّضًا به من الأمير عبد الله ابن فاطمة الوالي على غَرْناطة، فوافاها صَبيحةَ يوم السّبت العاشر من ذي القَعْدة ففُتحت له الأبواب، ففَتَحها، واضْطَربت المحَلّة في الشّريعة منها، ودخَل الـمُرابِطونَ سَرَقُسطة، وتقدَّم أهلُها لمحمد بن الحاجّ، فدخَل الجَعْفريّة، وصار القصرُ المذكور في مُلكِه تحتَ ثِقافِه، فجَرى ابنُ المستعين على سيرةِ أبيه وصانَعَ أذْفُونْش ابن رُذْميرَ فاستجابَه ووافاه بحصن تُطِيلة، ومحمدُ بن الحاجّ بالجيش في تلك الناحية. ثم انصَرف إلى سَرَقُسطة، وتقدَّم ابنُ رُذْمير حتى كان منها على فَرْسخَيْن، فابتَدر ابنُ الحاجِّ إلى حَرَمِه وأمَرَ الناسَ بالخروج إليه للمَحْرَبة، ورتَّب الناسَ على هيئة الأُهْبة والرُّتبة عامةَ يومهم، وبآخِره أخلَوْا مراكزَهم وتسَلَّلوا إلى المدينة، فظَهَر الخَلَلُ والتسلُّل، وانتَهز ابنُ رُذْميرَ الفُرصة وقَسَم جيشَه فرقتَيْن وصَدَمت

---

(١) في أعمال الأعلام: «أرنيط».

إحداهما ابنَ الحاجّ وصَدَمت الأخرى ابنَه أبا يحيى، فتفرّق الناسُ عنه واستُشهد هناك[١]، وفُقد في تلك الواقعة جُملةٌ منَ المسلمين، وذلك عشِيّةَ يوم الأحد منتصَف شهرِ ذي الحجة من السنة المؤرَّخة.

تلخيصُ التعريف بتاريخ مَن مَلَك سَرَقُسطة وبعضُ أخبارِ البلاد الشَّرقية من بني هُود رحمهم اللهُ إلى هذه السنة

كان استيلاءُ المستعينِ سُليمانَ بن هُود الجُذاميِّ على طاعة مُنذِر بن يحيى وتغلّبُه على شَرْق الأندَلس في ذي الحجة من سنة ستٍّ وثلاثينَ وأربع مئة، وكان هذا المستعينُ صاحبَ مدينة لارِدةَ وبَلَغي[٢]، واجتَمع [له] ذلك الثّغرُ كلُّه: سَرَقُسطة وتُطِيلة وقلعةُ أيّوب ودَرَوْقة[٣] ووَشْقة وبَرْبُشْتَر ولارِدة وبَلغي ومدينةُ سالم ووادي الحجارة إلى أن توفِّي في سنة ثمانٍ وثلاثينَ وأربع مئة، فوَلِـيَ ابنُه الـمُقتدرُ بالله أحمدُ بن سُليمانَ بن هُود في سنة ثمانٍ المذكورة، وتوفِّي سنة أربع وسبعين وأربع مئة وكانت مدةُ ولايتِه ستًا وثلاثينَ سنة، ووَلِـيَ ابنُه المؤتمِن سنةَ أربع المذكورة، وتوفِّي سنةَ ثمان وسبعينَ وأربع مئة، وكانت مدّتُه أربعةَ أعوام. ووَلِـي بعدَه المستعينُ بن هُود المقتولُ في ملحمة يوم الاثنين مستهَلِّ رَجَب من السنة ثلاث وخمس مئة المؤرَّخة. ووَلِـيَ عمادُ الدّولة أحمدُ بن أحمدَ المستعين ابن المؤتمِن ابن أحمدَ المقتدِر ابن سُليمان المستعينِ بالله ابن هُود الجُذَاميُّ في غُرّة رَجَب من هذه السنة، وأخرَجَه أهلُ سَرَقُسْطة كما تقدَّم ذكرُه في يوم السّبت العاشرِ من ذي القَعدة، ودخَلها عاملُ عليٍّ بن يوسُف.

وفي سنة أربع وخمس مئة: استقرَّ محمدُ ابنُ الحاجِّ بسَرَقُسطةَ وابنُ رُدْميرَ يُساجلُه الحربَ والظهورَ عليه، وعبدُ الملك ابنُ المستعين معَه في جيوش تعضلُ بها الأرض، فنزَلَ على نحو فرسخ من المدينة ومحمدُ ابنُ الحاجِّ يُناوشُه الحربَ صباحًا ومساءً إلى أن لحِقَ أبو عبد الله بن عائشةَ الوالي على مُرْسِيَة من قِبَل أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف بعسكريّةِ

---

(١) المقصود أبو يحيى.

(٢) Balaguer، وينظر معجم البلدان ١/ ٤٨٨.

(٣) الضبط من معجم البلدان ٢/ ٤٥٣.

مُرْسِيَة والطاغيةُ ابنُ رُدمير صادرٌ إلى بلادِه والعساكرُ المسلمةُ في أثَرِه، ولم تزَلْ بعدَ ذلك الحربُ متّصلة والمضاربُ متردِّدة وغَزَواتُ محمد بن الحاجِّ متواليةً إلى أن توجَّه عليُّ بن كنفاطَ اللّمتُونيُّ بعسكرٍ منَ الـمُرابطينَ في جِهة قلعة أيّوب، فنازَلَ حِصنًا من حُصون ابن المستعين وضَيَّق عليه وأخذ بمُخَنَّقِه، فلمّا نال منه الضَّغطةَ استَصْرخَ أهلُه بابن المستعين صاحبِهم، فوجَّه إليه مدَدًا منَ الرّوم شَفَى أمرَه حتى دخَل الحصنَ وخرج منه ليلًا على المحَلّة والناسُ على طُمَأْنينة، فتغلَّب العدوُّ على المحَلّة وأسَرَ أميرَهم ابنَ كنفاط، وصَدَر المدَدُ الرُّوميُّ به إلى روطةَ، فبقي في اعتقال ابن المستعين مدةً ثم خَلَّى سبيلَه، فكان مُهادنةٌ ثم كانت حرب، والحربُ سِجال والنفوسُ آجال.

وفي هذه السنة: خَرج الأميرُ أبو الطاهر تميمُ بن يوسُف بن تاشْفين عن غَرْناطةَ، ووَلِـي مدينةَ تِلِمْسان واستقرَّ بها.

وفي سنة خمس وخمس مئة: وَلّى أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف الأميرَ مَزْدَلي على مدينة قُرطُبة وغَرْناطةَ والـمَرية وما انتَظم معَها من الحصُون والقُرى.

وفي شهر صَفَرٍ منها: قام المنصورُ بن سَيْر بن مَسْلمةَ، الشّهيرُ بابن الأفطَس، من أرض النَّصرانية إلى مدينة إشبيلِيَة فصمَّم منها إلى حضرة أمير المسلمين، فكانت له منزلةٌ لطيفة ومكانةٌ رفيعة.

وفيها: خَرج عمادُ الدّولة من مدينة روطةَ برَسْم محاربة سَرَقُسْطة، فخَرج إليه وإليها محمدُ بن الحاجّ بعسكرِها فحارَبَه ثم بَعُدَ منه.

وفي سنة ستٍّ وخمس مئة: غَزا الأميرُ مَزْدَلي بعساكرِه ومنِ انضافَ إليه قاعدةَ وادي الحجارة بأرض الرُّوم واكتَسح ما حولَها وضيَّق عليها ثم صَدَر إلى قُرطُبة بغنائِمه.

وفيها: أُغري بالأمير مَزْدَلي عندَ أمير المسلمين فاقتضَى نظَرُه إيفادَ مشيختِه من الـمُرابطين لثِقاف... ما إلى نَظَر الأمير مَزْدَلي من بلاد الأندَلس، وكان لأبي عليّ بن... حثيثُ المسعَى والقِدحُ الـمُعلَّى، واتّصل النبأُ به فبادَرَ إلى أمير المسلمين، ولما اجتَمع به جَلا عن نفسِه فارتفَع الظنُّ وحَصْحَص الحق... إلى طاعته على أكرمِ حال وأتمِّ آمال.

وفي سنة سبع وخمس مئة: توفِّي الأميرُ سَيْرُ بن أبي بكر الوالي على مدينة إشبيلِيَة بتقديم أميرِ المسلمينَ يوسُفَ بن تاشْفين، وذلك في شهر رجَب من عام أربعةٍ وثمانين، وكانت وفاتُه في شهر جُمادى الأولى من هذه السنة بموضع يُعرَفُ باغرناتَ على مقرُبة من إشبيلِيَة، خَرج زافًّا لنفسِه فاطمةَ إلى أميرِ المسلمين عليِّ بن يوسُف ومشيِّعًا لزوجِه حواءَ بنتِ تاشفين، وكان هذا تاشْفينُ أخا يوسُف بن تاشفين لأُمِّه وابنَ عمِّه؛ لأنه لـمّا مات تاشْفينُ والدُ يوسُف دخَل مكانَه أخوه عليّ. فخَرجت حوّاءُ وأختُها من إشبيلِيَة فلم يُعهَدْ مثلُ ذلك اليوم لهوًا وكثرةً ونِعَمًا، خَرج فيه الجمُّ الغفيرُ إلى مَضاربِ المحَلّة بعين العلُوّ، فلما جَنّ اللّيلُ نزَلَ بالأمير سَيْرِ بن أبي بكر بن تاشْفين مَغصٌ تزيَّد عليه حتى قضَى رحمه اللهُ عندَ انصداع الفجر فشهِدَ جنازتَه بشَرٌ عظيم.

وكانت هذه الحُرّةُ حواءُ[1] أديبةً شاعرة جَليلةً ماهرة: أخبر أبو عبد الله محمدُ بن سَعيد الخَزْرَجيُّ في كتابِه، قال: حدّثني أبو محمد بن جَلّون، عن شيخِه أبي عبد الله بن زَرْقون، وكان شيخَه مالكُ بنُ وُهَيْب، قال: أمَرَت الحُرّةُ حواءُ اللَّمتُونيّة بمَرّاكُش بمجلس الكَتَبَة والشُّعراء كانت تُحاضرُهم فيه وكانت ذاتَ نباهة وخَطَر، فاجتَمع يومًا في ذلك المجلس جماعةٌ منهم: ابنُ القَصِيرة وابن الـمَرْخِي، وهذا لقبٌ له لأنه يقال: كان له فُتورٌ على فصاحتِه، وحضَر غيرُهما، فلما غُصَّ المجلسُ أقبَلت الحُرّةُ تُريدُهم وهم يتحادثونَ ويأخُذون في الشِّعر، وكان ابنُ الـمَرْخيِّ قد قال صدرَ بيت وهو: «أنا للبدرِ أخُ» ولم يجُزْه أحدٌ منهم، إذْ أقبَلَت الحُرّةُ فسلَّمت عليهم، وبادَرَها ابنُ الـمَرْخيِّ وقال لها: حيّاكِ الله يا قمري ويا زَهَري، فقالت: وصَفْتَني والله بآفِلٍ وذابِل، ففرِح بفطنتِها، فقالت له: فيمَ كنتُم؟ قال لها: كنّا قد قُلنا صدرَ بيت ولم يَقدِرْ أحدٌ على عجُزِه، فقالت: أنشِدنيه، فقال: «أنا للبدرِ أخُ»، فقالت على البديهة: «على ذا سَنِخُ»، فتعجَّب الحاضرونَ من بَراعتِها.

وفي هذه السنة: خَرج الأميرُ مَزْدَلي من حضرة مَرّاكُش إلى الأندَلس ووَلّاه عليُّ بن يوسُف على مدينة قُرطُبة وغَرناطة، فأجاز البحرَ للأندَلس إلى مدينة إشبيلِيَة فاستمدَّ... الأميرَ سَيْرَ ابنَ أبي بكر اللَّمتُونيَّ فأمَدَّه بعسكر ضَخْم من الـمُرابِطين والحَشَم وغيرِهم، وانضَمّ إليهم عسكرُ قُرطُبة وغَرْناطة ولمةٌ من العُدوة ولفيفٌ من الـمُطَّوِّعة خيلًا ورَجْلًا،

---

(١) ترجمتها في الذيل والتكملة لابن عبد الملك ٥/ ٤٢٩، بتحقيقنا.

فعظُم الجيش، وأمَّ به الأميرُ مَزْدَلي أرضَ طُلَيطُلة فدوَّخها واكتَسح به أوديتَها وأبلَغَ في نِكايتها، وصَدَر إلى قُرطُبة ظافرًا ظاهرًا على عدوِّه.

وفي هذه السنة: خَرج لروم الأرض الكبيرة نحوُ خمس مئة قطعةٍ تحمِلُ مئةَ ألف مقاتل فيهم ألفٌ وخمس مئة فارس وخمسونَ ألفًا من الرُّماة، فأرسَلَ اللهُ عليهم ريحًا صَرْصَرًا عاتيةً أغرقَتْهم فلم تُبقِ منهم باقية وأتَتْ معَ ذلك مراكبُ الحاجِّ وجُملةٌ مشحونةٌ بالأطعمة.

وفي هذه السنة: صُرِف القاضي أبو مروانَ الباجِيُّ عن قضاءِ إشبيلِيَة، وقُدِّم أبو عبد الله بن داود، ثم نُقل إلى فاس، ووَلِـيَ القضاءَ أبو مروان الباجيُّ ثم صُرِف، ووَلِـيَ أبو محمد عبدُ الله بن سَمَجُون فنُقل إلى غَرْناطة، ووَلِـيَ بعدَه أبو القاسم بنُ وَرْد ثم صُرِف، ووَلِـي بعدَه الفقيهُ الخطيبُ الـمُقرئ أبو الحَسَن شُرَيْح بن شُرَيْح ثم صُرِف، ووَلِـيَ الفقيهُ أبو بكر ابنُ العَربيّ رحمهم اللهُ أجمعين، وكانت ولايةُ ابن العربيِّ المتأخِّر منهم في سنة ثمانٍ وعشرينَ وخمس مئة.

قال ابن حماده: وكان يوسُفُ بن تاشْفينَ أمَرَ القاضيَ محمدَ بن عيسى ببُنْيان جامع سَبْتة، وزادَ فيه حتى أشرَفَ على البحر، وكان بُنيانُه عامَ أحد وتسعين، وقبلَ بناء الجامع بأعوام أمَرَ يوسُف بن تاشْفينَ ببناءِ سُور الميناء السُّفْليِّ بسَبْتة على يدِ القاضي إبراهيمَ بن أحمد.

وقام على يوسُف بن تاشْفينَ في هذه السنة رجُلٌ يُعرَفُ بابن الزّنر بحارى وادَّعى أنه ابنُ مُعَنْصر الزَّناتيُّ الذي كان صاحبَ فاسَ ببلاد غُمارة، فتوجَّه إليه يوسُف وقَتل خَلْقًا من أصحابِه، ثم أعطى غُمارةَ مالًا فغَدَروه وأتَوْا إليه برأسِه. وقام عليه أيضًا ماخوخٌ الزَّناتيّ بناحية تِلِمْسان، واختطَّ بلدًا لنفسِه فخَرج إليه يوسُف وفَرَّ أمامَه وخَرج من بلادِه.

ذكرُ حرق «الإحياء» وما قال أبو حامدٍ حين بلَغَه ذلك

قال ابنُ القَطّان في «نَظْم الجُمان»[1]: أمَرَ عليُّ بن يوسُف بإجماع قاضي قُرطُبة ابن حَمْدين وفُقهائها على حَرْق كتاب «الإحياء» فأُحرِق على الباب الغَرْبيّ من رحبةِ المسجد بجلودِه بعدَ إشباعِه زيتًا بمحضَر جماعة من أعيان الناس، ووَجَّه إلى جميع بلادِه يأمُر

---

(١) نظم الجمان، ص١٤ فما بعدها.

بإحراقه، وتَوالى الإحراقُ على ما اشتُري منه ببلاد الغَرْب في ذلك الوقت، فكان إحراقُه له سببًا لزَوال مُلكِهم وانتشار سِلكِهم، وكان المتلقِّبُ بالـمَهْديِّ في بلاد المشرِق يومَئذٍ، فذَكَر ابنُ القَطّان في السِّفر الثالثَ عشَرَ من كتابِ «نَظْم الجُمان»: ورحَل المهديُّ من بلاد أقصى المغرب إلى الأندَلس في سنة خمس مئة فدخَل قُرطُبة ثم وصَل إلى المرِية فدخل في مركَب إلى الشرق، فغاب فيه إلى أن وصَل مَرّاكُش سنةَ أربعَ عشْرة. وذَكَر ابنُ القَطّان أيضًا عن عبد الله بن عبد الرّحمن العراقيِّ، شيخٌ مُسنٌّ من سُكّان فاس، مَن أُثبِت في مدرسة أبي حامد، فجاء رجُلٌ كثُّ اللِّحية على رأسِه كرزيةُ صُوف ودخَل للمدرسة وحيّاها بالركعتَيْن، ثم دخَل إلى الشّيخ أبي حامد فسلَّم عليه فقال: ممّن الرجُل؟ فقال: من أهل المغربِ الأقصى، فقال له: دخَلتَ قُرطُبة؟ قال: نعم، قال: فما فعَل فقهاؤها؟ قال: في خير، قال: هل انتهى إليهم كتابُ الإحياء؟ قال: نعم، قال: فماذا قالوا فيه؟ فلزِم الرجُلُ الصَّمتَ حياءً منه فعزَم عليه ليَقولَنَّ ما طرَأ، فأخبَره بإحراقِه وبالقصّة كما جرَت. قال: فتغيَّر وجهُ الشّيخ أبي حامد ومَدَّ يدَه إلى الدّعاءِ والطّلبةُ يؤمِّنونَ، فقال: اللهم مزِّقْ مُلكَهم كما مزَّقوه، وأذهِبْ دعوتَهم كما حَرَّقوه، فقام المهديُّ فقال: أيُّها الإمام، ادعُ اللهَ تعالى أن يجعلَ ذلك على يديّ، فتغافَلَ عنه أبو حامد، فلما كان بعدَ وقت إذا بشيخ آخَرَ على شكل الأول فقال له أبو حامد فأخبَرَه بالخبر المتقدِّم، فتغيَّر ودَعا بمثل دُعائه الأول فقال له المهديّ: على يدَيّ، فقال له: على يديك، فقَبِل اللهُ دعاءه.

وفي سنة ثمان وخمس مئة: توفِّي الأميرُ مَزْدَلي الوالي على قُرطُبة في شوّال غازيًا على مقرُبة من حصن مسطاسةَ صُرِف به إلى قُرطُبة فوصَل به يومَ الأربعاء ثاني يوم وفاتِه وصَلّى عليه إثْرَ صلاةِ العصر الفقيهُ القاضي أبو القاسم بنُ حَمْدين.

نسَبُه: هو مَزْدَلي بن بوبلنكانَ بن حَسَن بن محمد بن تورجوت، قال ابنُ الصَّيرَفي: لم أزَلْ أطلُبُ نسَبَ لـمتُونةَ حتى لم أجدْ منه إلا أنّ الجَدَّ الذي تفترقُ منه أفخاذُهم ترجوت.

وفي هذه السنة: توفِّي الكاتبُ الجليل أبو بكر ابنُ القَصيرة، الذي اشتَمَلت عليه الدُّولُ الثلاث: العَبّاديةُ الـمُعتمِدية، والدّولةُ اليُوسُفيّة، وهذه الدّولةُ العَلَويّة، بعدَ خُطوب أصارَتْه طَريدًا وقَطَعت منهُ وَريدًا[1].

---

(١) العبارة بنصّها في قلائد العقيان لابن خاقان، ص١٠٤.

وفي هذه السنة: اتّصل الخبرُ بأميرِ المسلمين عليِّ بن يوسُف وهو بحضرتِه مَرّاكُش عن وفاة الأمير مَزْدَلي، فسَدَّ خَلَلًا من مُصابِه ودَفَع رُزْءَ فَقْدِه بابنَيْه، فولّى الأميرَ عبدَ الله بنَ مَزْدَلي من مَرّاكُش، ووَرَد غَرْناطة آخِر ذي القَعدة، وتحرَّك الأميرُ محمدٌ فاحتَلّ أيضًا بقُرطُبَة واستقرَّ بها وضبَطَ أمورَها وأحوالَها.

وفي سنة تسع وخمس مئة: ضَرب العدوُّ على نَظَر قُرطُبة، فخَرج إليه محمدُ بن مَزْدَلي بعسكرِه، وبادَرَ في الاستعجالِ لأثَرِه، فلحِقَ بالعدوِّ، ونشِبَت الحربُ، وصبَرَ المسلمون، فاستُشهِد محمدُ بن مَزْدَلي والأميرُ محمدُ بنُ الحاجّ والأميرُ أبو إسحاقَ بن دانِيَة والأميرُ أبو بكر بن واسينو، ومات من الأمراء نحوُ الثمانينَ من وجوهِ الـمُرابِطين وجملةٌ كبيرةٌ من الحَشَم وأهلِ الأندَلس، وذلك يومَ الخميس مستهلِّ صَفَر من السنة المؤرَّخة، فكان مصابًا عظيمًا وخَطْبًا جسيمًا. واتّصل الخبرُ بأمير المسلمينَ عليّ، فوَلّى قُرطُبَةَ الأميرَ أبا بكر يحيى بنَ تاشْفين، وهو ابنُ عمِّه شقيق أبيه لأُمِّه، فنفَذَ إليها وقَدِم عليها، ولأيامٍ من وصُوله اكتَسحَ العدوُّ الأولُ صاحبُ الجَوْلة على قُرطُبة، فلحِقَه بجهة بَيّاسة، ولَحِقَ الصّريخُ بالأمير عبد الله بن مَزْدَلي صاحبِ غَرْناطة، فبادَرَ في أثَره وتتابَعَ الجيشُ مُغِذًّا، فلحِقَ به على مقرُبة، فكانت للرُّوم أيضًا، واستُشهِد خَلْقٌ من المسلمين كرَّمهم اللهُ بالشّهادة في أعلى عِلِّيِّين، وذلك يومَ الأربعاء الثامن والعشرينَ من جُمادى الآخِرة من هذه السنة.

وفي هذه السنة: توفِّي محمدُ ابنُ الحاجِّ صاحبُ سَرَقُسطةَ شهيدًا، واتّصل الخبرُ بأميرِ المسلمين، فأنفَذ ولايةَ سَرَقُسطة للأمير أبي بكر ابن أبي يحيى إبراهيم[1] وكان مقيمًا بها، فتولَّى الأمرَ فيه وأخَذ بالعَزْم والحَزْم، وثَقِفَ أمورَ المملكة ونَظَر في مصالح الرعية.

وفي هذه السنة: عُوِّض عبدُ الله ابنُ فاطمةَ عن ولاية فاسَ بولاية مدينة إشبيلِيَة فاستقرَّ بها في أول السّنة المؤرَّخة.

وفي سنة عَشْر وخمس مئة: تحرَّك الأميرُ أبو بكر صاحبُ سَرَقُسطةَ إلى الغَزْو فقصَدَ حِصنَ روطةَ فأحرَقَ وبالَغَ في النّكاية، ثم تحرَّك إلى برجة، وبها عمادُ الدّولة ابنُ المستعين بن هُود، فضيَّق عليها وبالَغَ في نِكايتها حتّى صالحَه أهلُها ورجَع عنها إلى مدينة سَرَقُسطة.

---

(١) هو المعروف بابن تيفوليت، تزوج بأخت علي بن يوسف وولاه غرناطة ثم سرقسطة، وتوفي سنة ٥١٠هـ (الإحاطة ١/ ٤١٢-٤١٧).

وفي هذه السنة: قدَّم أميرُ المسلمين محمدَ بنَ ميمون قائدَ الأسطولِ البحريّ، فكان له غَزَواتٌ مشهورة وأمورٌ مذكورة.

وفي هذه السنة: أمَرَ صاحبُ الـمَهْديّة عليُّ بن يَحيى بن تميم بإعدادِ الأساطيل وعِمارتِها إلى جزيرةِ جَرْبَةَ، فساروا في جُمادى الأولى وحاصَرها وأخَذوا بمُخنَّق أهلِها إلى أنْ أقَرُّوا بالطّاعة له وسَلَّموا لأمرِه ونزَلوا على حُكمِه، فانصَرف الأُسطولُ عنها وصَلَح أمرُ البحر في هذه السنة[1].

وفيها: أرجَفَ العوامُّ بأنه سيكونُ في شهر رمضانَ خَطْبٌ عظيم وحادثٌ كبير، وقَطْعٌ على الدّولة شديد، وأنّ السُّلطان سيموتُ فيه، وفشَا القولُ بذلك فيهم وانتشَر، فأكذَبَ اللهُ قولَهم وعطَّل إرجافَهم، وعمِلت الشّعراءُ في ذلك، وقد تكونُ أصابَتْهم فيها أيضًا كما حدَّثنا أبو الصَّلت، قال: حدّثني أبو محمد عبدُ العزيز ابنُ الإمام أحد خَواصِّ الأمير أبي القاسم محمد بن عَبّاد، قال: كنتُ في عسكر الأمير أبي القاسم عندَ وَجْهِه معَ أميرِ المسلمين يوسُف بن تاشْفين ملِك المغرب الأقصى إلى لقاءِ أذْفُونْش بن فرذلند ملِك جِلِّيقيّةَ أولَ غزوةٍ غَزاها الـمُرابِطونَ بالأندَلس، وكان الناسُ ينزِلونَ بنزولِه ويرحَلونَ برحيلِه تقريبًا ورَعْيًا لمكانِه من السِّن وعِظَم القَدْر ووفور العدَد وجَوْدة الرأي، قال: فسَمِعنا طبولَه تُضرَب وقيل: أميرُ المسلمين يتقدَّم إلى العدوّ، فأمَرَ الأميرُ أبو القاسم منجِّمَه بتحقيق طالع الوقت والنظرِ فيه، قال: فوجَده بحسَب ما تقتضيه أصُولُ هذه الصِّناعة دالًا على أنّ الدائرةَ تكونُ على المسلمين وأنّ النّصر والغَلَب للمشركين، قال: فأشفَقَ من ذلك وكرِهَ إعلامَ يوسُفَ لنِفارِه من الاستدلال بالنجوم والعمل بها، ولم يُمكنْه غيرُ مساعدته والانتقال معَه، فبينَما هو يحاولُ ذلك إذْ خَفَتت الأصوات وهدَأت الضَّجّة وجاء مَن أخبَرَ أنّ يوسُفَ قد بَدَا له في الانتقال مِن هنا، فلمّا كان بعدَ ساعات من ذلك اليوم بعينِه عادت الأصواتُ وضُرِبت الطُّبول، فأمَرَ الأميرُ أبو القاسم منجِّمَه بأخْذِ طالع الوقت والنّظر فيه فوجَده أوفقَ طالع وأسعدَ نَصْبة وأدلَّها على أنّ الظّفَرَ للمسلمينَ والدائرةَ للمشركين حسَبَ ما جَرى الأمرُ عليه، قال: فتعجَّب من ذلك ومن قوّة سعادةِ

(١) انظر رحلة التجاني (١٢٥).

يوسُف، وقال: وهذا من المصنوع لهم الـمُعتَنى بأمرِهم الملثَّمين إلى رُشدهم الذين... لهم التوفيق، ويَخدُمُهم السَّعد، وذلك كلُّه بمشيئة الله تعالى وسابقِ علمِه ونافذِ حُكمِه.

وكتَبَ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من مَرّاكُش في هذه السنة إلى أبي محمد ابن فاطمةَ كتابًا يحضُّه فيه على إقامة الحق، أذكُرُ الآنَ منه بعضَ فصول: وقد رأينا واللهُ وليُّ التوفيق، والهادي إلى سَواء الطريق، أن نجدِّد عهدَنا إلى عُمّالنا بالتزام أحكام الحقّ وإيثار أسباب الرِّفق، لِـما نَرجوه في ذلك من الصّلاح الشامل والخير العاجِل، واللهُ تعالى يُيسِّرُنا لما يُرضيه في قول وعمل بقوّته. وأنتَ، أعزّك الله، ممّن يَستغني بإشارة التذكِرة، ويكتفي بلمحتِها التبصِرة، لِـما تَأوي إليه من السِّياسة والتجرِبة، فاتّخِذ الحقَّ إمامَك، وملِّكْ يدَه زمامَك، وأجْرِ عليه في القويِّ والضّعيف أحكامَك، وارفَعْ لدعوة المظلوم حجابَك، ولا تسُدَّ في وجهِ الـمُضطرِّ المظلوم بابَك، ووطِّئ للرعيّة ـ حاطَها الله ـ أكنافَك، وابذُلْ لها إنصافَك، واستعمِلْ عليها من يَرفُق بها ويعدِلُ فيها، واطرَحْ كلَّ من يَحيفُ عليها ويؤذيها، ومن تَثبُت عليه من عُمّالِك زيادة، أو خَرْقٌ في أمرِها عادة، أو غيَّر رَسْمًا، أو بدَّل حُكمًا، أو أخَذ لنفسِه درهمًا ظلمًا، فاعزلْه عن عملِه، وعاقِبْه في بدنِه، وألزِمْه ردَّ ما أخَذ تعدِّيًا إلى أهلِه، واجعَلْه نكالًا لغيرِه، حتّى لا يُقدِمَ أحدٌ منهم على مثل فعلِه، إن شاء اللهُ تعالى، وهو وليُّ تسديدِك، والمليُّ بعَضُدِك وتأييدِك، لا إلهَ إلّا هو عليه توكَّلت. وهو من إنشاءِ ابن الجدّ رحمه الله.

وفي سنة إحدى عشْرةَ وخمس مئة: تحرَّك أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف من حضرتِه مَرّاكُش إلى بلاد الأندَلس، فأجاز البحرَ في أواخِر محرَّم ويمَّم إشبيلِيَةَ رَيْثَما استتَبَّ أمرُ الغزوِ ولحِقَت العساكرُ العُدْويّة، وتأهّبت العساكرُ الأندَلُسيّة ولحِقَت من قُرطُبَةَ لمةٌ من الفقهاءِ والعُلَماء ولَفيفٌ من المجاهِدينَ الزُّعماء خَيْلًا ورَجْلًا، وتأهَّب فقهاءُ إشبيلِيَة ومجاهدوها، واستوفَت مطَّوِّعةُ غَرْناطةَ ومرتَّبوها، ثم تحرَّك أميرُ المسلمينَ بجميع العساكر من إشبيلِيَة لغزوِ قُلُمرية[1]، فحاصَرها عشرينَ يومًا وضيَّق بها ثم انصَرف عنها إلى إشبيلِيَة، ومشَى عبدُ الله ابنُ فاطمةَ والمنصورُ ابن الأفطس فقابَلا أرْوامًا في بلاد الرُّوم، ثم وَرَدا إلى إشبيلِيَة واستاقَا غنيمةً عظيمة وأسرى كثيرةً، وانصَرف الناسُ إلى بلادهم.

---

(١) ويقال فيها: «قُلُمْريّة»، كما في معجم البلدان ٤/ ٣٩١.

وأنفَذ أميرُ المسلمينَ عليٌّ بولاية أبي الوليد بن رُشْد خُطةَ القضاء بقُرطُبة.

ومَدَح الشّعراءُ لأمير المسلمين، فمن ذلك لأبي العبّاس التُّطيلي[1] من قصيدة طويلة، [من الرجز]:

اركَبْ إذا دارَت رَحاها وانزِلِ	وقُل إذا صَمَّ صداها وافعَلِ
واقتصَّ واستوفِ وهب فاحتفِلِ	وابلُغْ بأدنى السَّعي أقصى الأملِ
في عُمُرِ الشِّعر وسَيْر المَثَلِ	ورُتبة الوُسطى من العِقد العَلي
وجهُك بالإحسان والحُسن مَلِي	وأنت للدّنيا وللدِّين وَلي
نِيطت بكَ الآمالُ فاقطَعْ وصِلِ	وهذه الدّنيا فوَلِّ واعزِلِ

وفي هذه السنة: ورَدَ كتابُ عليِّ بن يوسُف بولاية موسى بن حمّاد قضاءَ غَرْناطة.

وفيها: قُدِّم بإشبيلِيَة لخُطّة القضاء أبو الحَسَن شُرَيْح بن محمد بن شُرَيح الرُّعَيْني عن إصفاق من أهل بلدِه.

وفيها: وَلي محمدُ بن سعيد قضاءَ المَرية.

وفيها: فسَد ما بينَ الزُّهريِّ وابنِ زُهر، منَ الصداقة والصِّهر، ورَمَى كلُّ واحدٍ صاحبَه بقاصِمة الظّهر، وبادَرَ ابنُ زُهر بمخاطبة عليِّ بن يوسُف، فبادر إليه الزُّهريُّ إثْرَ ذلك بنفسِه، فتكلَّم في ابن زُهر ملءَ فيه، فأمَرَ الزُّهريَّ بسُكنى مَرّاكُش، ثم ورَدَ ابنُ زُهر بعدَ ذلك إليها وقد أظلَم له النيِّرِ وصَعُب عليه الليِّن، فتلقّى من أمرِه ما أصدَرَه... ولم يسمَحْ له بالوصُول، وكان قبلُ في غاية الجاه والعزّة والتمكين من الدّولة، يُولَّى من قِبَلِه حاكمٌ يحكُم من حاشيته، وصاحبُ المدينة من توليته، وشهودُ البلد بحُكمِه، وأمرُ المستخلص وأملاكُ السُّلطان جاريةٌ على نَهْيه وأمرِه بمدينة إشبيلِيَة، والزُّهريُّ في كلِّ ذلك تِلوُه ومُقتدٍ به، فما راعوا حق الحُرمة، ولا أدَّوا شُكرَ النعمة[2].

---

(١) ينظر ديوانه ١٤٧.

(٢) ينظر الذيل والتكملة لابن عبد الملك ٣/ ١٣، بتحقيقنا.

ذكرُ ولاية أبي حفص عُمرَ بن يوسُف بن تاشْفين

وفي هذه السنة: صَرف عليُّ بن يوسُف أميرُ المسلمينَ الأميرَ أبا زكريّا يحيى بنَ عليّ عن إشبيلِيَة، وقدَّم أخاه أبا حَفْص واليًا عليها، ولـمّا وصَل الأميرُ أبو حفص إلى إشبيلِيَة برَزَ إليه أهلُها وخَرج الأميرُ أبو مروان بن أبي العلاء زُهر، وكان أبوه أبو العلاء مستوطِنًا بفاسَ بالأمر، فلمّا رآه أصغَرَه وقصَّر به، وترجَّل صاحبُ المدينة خالصةُ ابن زهُر فأخَذ بيدِه مُسلِّمًا عليه، فلمّا أُعلِم به أمَرَ عليه فأُلقِيت عِمامتُه في عنُقِه وجُرَّ إلى السِّجن، فتقَلْقَت نفوسُ الحاشية واستشعَروا الشّرّ. وجلسَ الأميرُ أبو حفص عشيّةَ ذلك اليوم في رَحْبة القصر فاستحضَر من حاشية ابن زُهر رجلَيْن متلبِّسيْنِ بأمرِه، فأمَرَ بضَرب أعناقِهما وطِيفَ برُمحِه على أسواق المدينة، وذَهب أدبُ ابن نُهيّةَ العتاد وأقبَلَ أدبُ... الحجّاج...؛ فتثقَّف البلدُ وتمهَّد وسكَن الإرجاف وفَرّ الـمُريب وجاء البَرِيء، وأقبَل الأميرُ أبو حفص على تتبُّع هذه الحاشية وجعَلَ غرضَه الانتقامَ فيهم والتشريدَ لهم.

وفي هذه السنة: نفَذَ عهدُ أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف إلى... محمد بن مَيْمون قائد الأسطول بتعمير جُملتِه وغَزْو بلاد الرُّوم بها فعمر خمسةً وعشرين... الدُّربة والنَّجدة فاستفتَحَ مدينةَ قطرون، وهي على مسافة يوم من مدينة... فيها، وامتنَعت جُملةٌ من أهلِها بقَصَبتها وهي وَعِرة المرتقَى باسقةُ الذُّرى فتعلقت...، وأشرَفوا على استفتاحِها فحَماها اللّيل... دونَها وصدَرَ المسلمونَ إلى الأسطول وعدّها... وخمسونَ رأسًا من السَّبي وكثير... وانصَرف عنها القائدُ إلى الـمَرِية.

قال... أبو بكر: ونهَض عليُّ بن يوسُف إلى مدينة إشبيلِيَة... في الإقبال، وأثبَتَ ابنَ روّادةَ ريْثَما يلحَقُ بقُرطُبة، فلمّا تمهَّدت مدينةُ قُرطُبة واستتبَّ أمرُه أخَذ في الصَّدَر منها، فلقي أبا الطاهر بجزيرة طَرِيف مقبِلًا وصادرًا، ولحِقَ أبو الطاهر غَرْناطةَ في رمضانَ المعظَّم(١).

وفي هذه السنة: وَلِـي مُرْسِيَةَ أبو زكريّا يحيى ابنُ غانِيةَ اللَّمتُونيّ.

وفيها: وَلِـي قضاءَ الـمَرِية أبو الحَسَن بنُ أضحى.

---

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ٣٢، والحلل الموشية ٧٠-٧١.

وفيها: نهَض ينالُه إلى شرق الأندلس فلم يزَلْ به إلى جُمادى الأولى من العام المقبل.

وفي سنة ستَّ عشْرةَ وخمس مئة: أغزَى أبو عبد الله محمدُ بن مَيْمون قائدَ الأسطول عليَّ بن يوسُف مدينةَ نقوطَرة من عمل رُجّار، صاحبِ صِقِلِّيّة، ففتَحَها وسَبَى نساءها وأطفالَهَا... فيها، وكان عليُّ بن يحيى صاحبُ المهديّة كتَبَ كتابًا إلى رُجّارَ عندَما وقَع بينَهما وَحْشة يضمِّنُ تهديدَه فيه بإدخال الملثَّمينَ والعرَب إلى صِقِلِّيّة، فلمّا كان من غَزْو أبي عبد الله ما كان لم يشكَّ رُجّارُ صاحبُ صِقِلِّيّة أنّ السببَ الباعثَ على ذلك والمحرِّكَ له صاحبُ الـمَهْدية، فاستنفَرَ أهلَ بلاد الروم قاطبةً وأكثرَ الاستنصار واستجاشَ وحشَد، كأنّما في ذلك كلِّه لأمرِه، فمنَع السَّفَر إلى سواحل المسلمين، والتأَمَ له ما لم يُعهَدْ مثلُه.

وفي هذه السنة: وَلِـي الأميرُ تميمُ بن يوسُف إشبيلِيَة من بعدِ ولايتِه غَرْناطة، فورَدَها في جُمادى الثانية.

وفي سنة سبعَ عشْرةَ وخمس مئة: صُرِف الأميرُ تميمٌ عن ولاية إشبيلِيَةَ ووَلِيَها أبو بكر بنُ عليِّ بن يوسُف.

وفيها: حاصَر أسطولُ صاحبِ صِقِلِّية مدينةَ الـمَهْديّة ونزَلَ عليها في جُمادى الأولى في نحو ثلاث مئة مركَب حمَلَ على ظهورِها ثلاثينَ ألفَ راكب وزُهاءَ ألف فارس، فأرسَل اللهُ عليهم ريحًا صَيَّرت جميعَهم إلى الانتشار، وأصْلَتْهم معَ بَرْد الماء حرَّ النار، فلمّا عايَنوا ما نزَل بهم أنزَلوا عن ظهورِ مَراكبِهم ما كان أنجاه الغَرَقُ من أفراسِهم فصَدَموا بها جيوشَ المسلمين، فخيَّب اللهُ آمالَهم وجعَلَ الدائرةَ عليهم لا لهم، وأقلَعَ جميعُ الأُسطول خاسِرينَ إلى بلادِهم، وبعدَ ذلك لم تجلِبْ صقِلِّيّةُ بخيل على الـمَهْديّة، إلى أنِ استَولَى عليها بعدَ ذلك وأخرَج الرومَ منها الموحِّدونَ على ما يأتي[1].

وفي سنة ثمانِ عشْرةَ وخمس مئة: تسَمَّى محمدُ بن تومَرت السُّوسيُّ بالـمَهْديّ، وكان لـمّا اشتُهر صِيتُه في قبائل الجبال ووصَلوا إليه رحَل معَهم إلى جبل إيجليز لهرغةَ، فلمّا صار في منَعة الجبل وحماية عشيرتِه خاطَب القبائلَ ومدَّ يدَه للبَيْعة، وذلك في سنة ستَّ عشْرةَ على ما أذكُرُه في موضعه.

---

(١) تنظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير ١٠/ ٦١١-٦١٣.

قال اليَسَعُ بن عيسى الغافقيُّ[1]: ولـمّا صَعِد الإمامُ بالجبل أمَرَ بتحصين موضعِه لأنه ما كان له إلّا طريقٌ واحد، وذلك الطريقُ لا يمشي فيه إلا راكبٌ بعدَ راكب من كثرة توعُّره، وأخَذ يحرِّضُ أصحابَه على قتال الملثَّمين ويقولُ لهم: اقتُلوا المجسِّمينَ والبَرابرَ المفسدين والفقهاءَ الـمَكّارِين.

قال ابنُ القَطّان[2]: ولـمّا ارتقى جبَلَ إيجليز أقام فيه ثلاثةَ أعوام: من سنة خمسَ عشْرةَ إلى هذه السنة المؤرَّخة.

وفي سنة تسعَ عشْرةَ وخمس مئة: أمَر الـمَهْديُّ بتمييز الموحِّدين، ونُوديَ في جبل الـمَصامِدة من هرغةَ وجنفيسةَ: من كان مُطيعًا لله ولرسُوله وللمَهْديّ فلْيصل، وكانوا يُعرِّضونَ إلى أبي محمد البشير فيُخرجُ قومًا على يمينِه وقومًا على يسارِه، فكلُّ مَن أخرجَه على يمينه يَزعُم أنه من أهل الجنّة، وكلُّ مَن أخرجَه على يسارِه يزعُم أنه من أهل النّار، ولا يَخرُج على اليسار إلّا من كان شاكًّا في أنّ الإمامَ هو الـمَهْديُّ المعلوم... الله ممّن خَرج على اليسارِ آلافًا، ذكَرَ ذلك ابنُ القَطّان وغيرُه[3].

وأخبَرني أبو علي صَالحٌ قال: لـمّا قتَل محمدُ بن تومَرت هزميرةَ تينمَل، قال له الفقيهُ الإفريقيُّ أحَدُ عشيرتِه: كيف تقتُلُ أقوامًا بايَعوك ودخَلوا في طاعتِك وتقسِمُ أموالَهم؟ فأمَرَ به فقُتل وصُلب لأنه كان شكَّ في عصمتِه، وكان قَتْله لهزميرةَ تينمَل سنةَ ثمانِ عشْرةَ، جَمَع الـمَهْديُّ عليهم أهل تلك الجبال فقام بهم وقَتل منهم فيما ذَكَروا خمسةَ عشَرَ ألفًا، فلمّا استأصَلَهم وسبَى أموالَهم بنَى حصنَ تينمَل، فلمّا ملَكَ الـمَهْديُّ تلك الجبالَ وما حولَها ضاقَ الأمرُ على عليِّ بن يوسُف فبعَثَ إليها عسكرًا فهُزِم.

وفي هذه السنة[4]: خاطَبَ أهلُ نَظَر غَرْناطةَ من جبل دور... والبِشارات لابن رُدْمير، وتَوالَت عليه كتُبُهم وتَواتَرت رسُلُهم مُلِحّةً عليه في الاستدعاءِ مُطمِعةً له بدخُول غَرْناطة، ووَجَّهوا له زِمامًا يشتملُ على اثنَيْ عشَرَ ألفًا من مُقاتلتِهم، وأعلَموه أنّ هؤلاءِ ممّن

---

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ٧٥.

(٢) نظم الجمان ٢٣.

(٣) نظم الجمان، ص١٠٢-١٠٤.

(٤) تنظر الإحاطة ١/ ١١٤، والحلل الموشية ص٧٥-٨٠.

شهِدت أعيُنُهم لقُرب مواضعِهم وبالبُعد مَن يَخفَى أمرُه، ويَظهَرُ عندَ ورودِك شخصُه، وهذه الجملةُ كافية، وعَوَراتُ البلاد بادية، وعندَنا رُتَب ونُظُر نَخرُجُ لك عنها بالمسانية. فاستزادَ طمَعُه وابتَعثَ جشَعُه واستفَزُّوه بأوصافِ غَرْناطةَ وما لها من الفضل على سائرِ البلاد بتحصينها وكثرة عيونِها وأنهارِها ومنَعة قَصَبتها وانطباع رعيّتِها وأنها المبارَكةُ التي يَملِكُ منها غيرَها، وهي الـمُسمّاةُ سنامَ الأندلس عندَ الملوك في تواريخِها، وأشْخَصوا بكتابِهم وزِمامهم كهولًا منهم تكلَّموا بين يدَيْه ملءَ أفواهِهم ورمَوْا على ذلك الغَرَض حتّى عزَم وجَدَّ في الحَشْد وانتَخَب من مُحتشَدِه خمسةَ آلاف فارس وخمسةَ عشَرَ ألفَ راجل.

وتحرَّك بهم أولَ شعبان وقد أخفَى مذهبَه وكتَمَ أَرَبَه إلى أن وصَل بَلَنْسِية في يوم الثلاثاء الموفي عشرينَ من رمضانَ، فأمَرَ بضَرْب محلّتِه، ومشَى في أُهبة، فمرَّ عليها وزاحَمَها ثم رحَل عنها من موضع إلى موضع إلى أن وصَل مدينةَ وادي آش، فاضْطرَبَ محلّتُه بموضع يُعرَفُ بالقَصْر من باديتِها على فَرْسَخ منها، وذلك لعَشْر بقِينَ من شوّال، فبَدا نجيثُ المعاهدة[1] في استدعائه، وافتُضح سِرُّهم في اجتلابِه، وهمَّ الأميرُ أبو الطاهر بجَمْعِهم وثِقافهم، فأعياه ذلك بكثرتِهم وبُعد أقطارِهم، وأقبَلوا يتسلَّلونَ إلى ابن رُدْمير على كلِّ طريق ومن كلِّ فجٍّ عميق... فكثُرت رَجْلتُه وضَخُمت جُملتُه وضايَقَ مدينةَ وادي آش بالحربِ من جهة القِبلة، فرأى... فجَدَّ في حربِها من الغد، فأتَت عليها السُّهم وفَقَد جُملةً من... أقام بمُضْطَرَب محلّتِه نحوَ النّهر وأهلُ وادي آش في حصارٍ صَعْب قد أخَذوا المنازلَ وسَكَنوا... أرباضَ... المتجلِّدة من السُّترة تنتقلُ إليها الأحجار، وكانت تَبرُزُ المخدَّرةُ من خِدرِها ومنهتكٌ من سِترِها.

ولـمّا اتّصل بأمير المسلمينَ نبأُ ابن رُدْميرَ اللَّعين، أنفذَ أمرَه إلى أقطارِ العُدوة بتسريب الجيوش إلى الأندلس، فأجازَتِ البحرَ وجَدَّت في السَّير حتى أحدَقَت بغَرْناطة، وأقبَلَت عسكريّةُ مُرْسِيَة وبَلَنْسية، وتحرَّك ابنُ رُدْميرَ من وادي آش، وأخَذ على بربيطةَ[2] يومَ

(١) يعني: ظهر ما كان مكتومًا في أنفسهم.

(٢) في الإحاطة والحلل: «وتحرّك من وادي آش فنزل بقرية دجمة»، وقرية دجمة هذه تقع غربيّ وادي آش في منتصف الطريق بينها وبين غرناطة. (ينظر التعليق على الإحاطة).

النّحر، فصَلّى الناسُ بالـمُصلّى صلاةَ الخوف وهم في الأسلحة، وتحرَّكَ الأميرُ أبو الطاهر من غَرْناطةَ بالجيوش للقاءِ العدوّ، فمشَى مسافةَ أميال ثم صَدَر إلى المدينة، وظَهرت أخبيةُ العدوّ في غدِ صدورِه إليها على فرسخَيْنِ منها، وجاءت الطلائعُ مُنبئةً بها فعَمِيت... وانقَطعت السابلةُ والواردة وقَلَّت الـمَرافق وتَزاحَم الناسُ في المدينة وسَكَنت المساجدُ والـمَصاطبُ والرِّحاب والخَراب، وكثُر الجَزَعُ والإرجاف والـمَوَجانُ بالنّهار واللّيل... والأسوارُ معمورةٌ بأهل البلدة وما نُسِي في الدّور غيرُ الصِّبية والنِّسوة، وتَوالت الأمطار وسالت الطُّرق وضاقت النفوسُ أشدَّ ضِيقة.

وأقام ابن رُذْميرَ بمُضطَرَب محَلّتِه بضعَ عشْرةَ ليلةً لم تَسرَحْ له سارحةٌ ولا شُنَّت غزوةٌ ولا انفَصَل بعضُ جيشِه عن بعض، والمعاهِدةُ تَجتلِبُ إليه الأقواتَ والعُلوفات، وخيلُ المسلمينَ تُراوحُه وتُغاديه دونَ مُناوشة، وفي خلال ذلك سَفَر إلى رأس من رؤوس الـمُعاهِدة بالحضرة يُعرَف بابن القَلّاس يوبِّخُه على استدعائه ويَلُومُه على تضمُّنِه بما لا يَفي به ولا يقدِرُ عليه، فاحتجَّ له بتلوُّمه وتباطُؤِه في إقبالِه حتّى أقبلَت الجيوشُ من الشّرقِ والغرب والعُدوة، وقال له: قد أوبَقْتَنا وأوقَعْتَنا في الهَلَكة إلى المسلمين، وساق نفسَه إلى الخِزي، فلمّا انصَرف السّفيرُ بهذا المقالة تحرَّكَ ابنُ رُذْميرَ بمحَلّتِه من موضع إلى موضع إلى الجبل الذي بجَوْفيّ... قَبْرة[1]، فبَدَت للمسلمينَ جملةُ محَلّتِه، وكانت قبلُ مُكْمِنةً بالجبال والشَّعْراء.

وبعدَ حركتِه من خارج غَرْناطةَ لِحَقَ الأميرُ أبو بكر أميرُ المسلمين بمحَلّتِه من إشبيلِيَة، فأقام يومًا، ثم تحرَّكت الجيوشُ في أثَر العدوّ، وأقام ابنُ رُذْمير بجبل قَبْرةَ أيامًا ثم تحرَّكَ منه، وعساكرُ المسلمينَ تتبَعُه وتنتقلُ بانتقالِه... عن يمينِه وشمالِه، إلى حصن أرنيسول[2]، فصبَّحته الجيوشُ يومَ الأربعاء الثالثَ عشَرَ من صَفَر، فكانت عامّةُ النّهار مُكافحة وفي أثنائها مُناوشة والظهورُ عليه. فلمّا طَفَلَت الشّمسُ أمَرَ الأميرُ تميمٌ برَفْع خِبائه من وَهْدةٍ كان فيها إلى رَبْوة عالية...، فاختلّ الأمرُ وانتُكِثت تعبئةُ الجيوش وساء به الظُّنون،

---

(١) Cabra، وهي في الشمال الغربي من غرناطة، وينظر معجم البلدان ٤/ ٣٠٥.

(٢) حصن يقع في الجنوب من غرناطة. (ينظر التعليق على الإحاطة، والكامل لابن الأثير ١٠/ ٦٣١).

وأخَذ الناسُ في الفِرار وجعَلوا أوجهَهم إلى الساقة، وتَهيَّب العدوُّ الأمرَ فلم يَدخُل المحَلّةَ إلا بعدَ هَدْأةٍ من الليل، ثم أخَذ إلى جهة السّاحل، ثم عاد إلى غَرْناطة فضَرب محلّتَه على ثلاثةِ فَراسخَ منها، فأقام بها ثلاثةَ أيام، وفي الرابع... العساكر وسَرَعان خَيْلِه بقُربٍ من الزّاوية صمَدَ أبو حفص بن تُوزْجين بجيش مِكْناسة... ووقَع الضّربُ والحَرْب فأخْرَجَهم عنها، وصار المسلمونَ إلى المدينة وانْجَلَت الجيوشُ عن هذا الفَحْص... استشهاد رجالٍ من الموحِّدين... وانتقَل ابنُ رُدْميرَ إلى الـمَرْج مضيَّقًا عليه والخيلُ تُحرِجُه، فاضْطَربَ محلّتُه مضْطَرًّا ثم رحَل منه ورجَع إلى وادي آش وقد بادرَه ينالُه اللَّمتُونيُّ بعسكر فاس، فحارَبَه من جهة واديها، ففَقَد عددًا كثيرًا في ذلك اليوم وأصيبَ له زعيمٌ كبير، فرُفِع أخزَى رَفْع، ودُفع شرَّ دَفْع، فأخَذ الجيوشُ تُضيِّقُ عليه إلى فَحْص قَرَباقةَ[1] من أنظار مُرْسِيَة، فاجتازَ بجيوشِه وأخَذ على حصُون شاطِبةَ والعساكرُ في كلِّ ذلك تطَأُ أذيالَه وتُناوشُه وتصيبُ منه، فكان يَترُكُ في كلِّ منزل هَلْكَى ومرضَى لا تُرجَى، حتّى لحِق بلادَه مختَرَم الجَمْع مفلولًا بلا حَرْب، ومن خَلَص من حَمْلتِه إلى موضعِه استَولت عليه الأمراض... الأغراض فكاد الحَيْنُ والموت يُواصلُهم. وصَدَرت العساكرُ... واستقرَّ المختصُّ منها بالأندَلس في مواضع أرزاقِها، وأخَذ المدَدُ في الإجازة إلى العُدوة.

وفي هذه السنة: احتُسِب الفقيهُ القاضي أبو الوليد بنُ رُشد آجَرَه الله، وتجشَّم النهوضَ إلى حضرة مَرّاكش، فتلقّاه أميرُ المسلمينَ بالمكرُمة والمبَرّة، وبيَّن له القاضي أمرَ الأندلس وما بُلِيت به من مُعاهِدتها وما جَرُّوه إليها وجنَوْه عليها منَ استدعاءِ ابن رُدْمير، وما في ذلك من نَقْض العهد والخروج عن الذِّمة، وأصغَى إليه الأميرُ عليٌّ وتلَقَّى قولَه بالقَبول، فوقَع نظَرُه على تغريبِهم وإجلائهم من أوطانِهم، وهُو أخفُّ ما يؤخَذُ به من عقابِهم، ونفَذَ عهدُه إلى جميع بلاد الأندَلس بإجلاء الـمُعاهِدين إلى العُدوة، فنُفِي منهم في رمضانَ عددٌ جَمٌّ أنكرَتْهم الأهواء وأكلتْهم الطُّرق ونَسَفتْهم الأسفار ونزَل فيهم الوباء، وفرَّقهم اللهُ شذَرَ مَذَر، وأحلَّ بهم عاقبةَ مكرِهم وأذاقَهم وَبالَ أمرِهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) Caravaca، وتقع شمالي مرسية. (ينظر معجم البلدان ٤/ ٣١٩).

ونبَّه القاضي على بناءِ الأسوار، فشَرع الأميرُ عليُّ بن يوسُف في بناءِ سُور مُحدِقٍ بمَرّاكُش في هذه السنة، فكمُل في أقرب وقت وأعجَلِه، وورَدَ كتابُ الأمير عليِّ بن يوسُف إلى الأندلس بالنّظر في الأسوار بجميع البلاد، فتلوَّم ذلك النَّظرُ فيه، حتّى صُرِف الأميرُ أبو الطاهر عن غَرْناطةَ وقُرطُبة في رمضان ونَهَض إلى مَرّاكُش، وقدَّم أبا عُمر ينالُه على غَرْناطة، وقدَّم أبا حفص عُمَر بنَ سَيْر على قُرطُبة، وخرَجَ ينالُه من غَرْناطةَ بالجيش متحمِّلًا مِيرةَ أُقْليش، فلمّا احتَلّ... اعترضَه جُملةٌ وافرةٌ من الرُّوم ووقَعَ الضّربُ بينَهم، وثَبَت المسلمونَ فهزَم اللهُ الكَفَرة، وأورَد ينالُه المِيرةَ وصَدَر ظافرًا. ولـمّا استقرَّ ينالُه بغَرْناطة بعدَ انفصال المِيرة وقد تُهيِّب أمرُه وانتُهج أمرُ السُّور. ثم أغزَى الأميرُ أبو... ابن يوسُف بن تاشْفين أرضَ طُلَيطُلة في جيشِه وجيش قُرطُبة فغنَّمهما وصَدَر منها غانمًا ظافرًا إلى غَرْناطة.

ذكرُ التعتيب بالأندَلس وبناءِ الأسوار في هذه السنة

فلمّا صدَرَ حَدٌّ في تعتيبِ البلد وقُلِّد ذلك مَن وقَع الاتّفاقُ عليه من قاضي القُطر أبي القاسم بن وَرْد وصاحبِ الـمُستخلَص أبي عليّ بن هُذْبة، وقَدِم لقَبْض الـمُعتَّب رجلٌ من بني نَجَبة، لم يكنْ من الحَزَمةِ ولا من الخَدَمة، فمزَّق المالَ كلَّ ممزَّق، وعاثَ فيه كلَّ ممخرَق، وذمَّ ينالُه جميعَ البنّائين، وشدَّ على الناس في دَفْع المال، فكانت الآلاتُ متمكِّنة والموردةُ متّصلة، وتُهُيِّبَ ينالُه، فكان الناسُ يخافونَه لضغطِه وشدّتِه، وكمُل السُّور في أقرب وقت، وكان حاطبَ ليل، وبعضُ البنّائين غُثاءَ سَيْل، لا وفَوا التأسيس ولا قوَّموا الترصيص، ولأقرب مدّة وَهَى وسَقَط كثيرٌ منه على المجاورة بجهة بابِ الرَّملة وبابِ إلبِيرة، فأهلَكَ جُملةً لا تُحصَى، وكثُر الدّعاءُ على بانيهِ ومُموِّنيه.

وتَولَّى النّظرَ في أسوار الـمَرِية رجلٌ منهم يُعرَفُ بابن العَجَميّ من أصحاب ابن مَيْمون، فأخَذ بالحَزْم، واستكثَر بالسِّياسة والعَزْم، ولم ينفقْ شيئًا من المال إلا في موضعِه، ولا استعانَ إلا بمَن جدَّ في نُصحِه، ورأى الناسُ ذلك فتساهَلوا في الأداء وتواصَلوا حمَلَ تلك الأعباء، فكمُل السُّورُ على واجبِه من التحصين والتحسين، بيسير من الـمُؤنة دونَ ضَرْب ولا سَجْن. وتَولّى أهلُ قُرطُبَةَ رمَّ أسوارِها على سالفِ عادتِهم، فعزَم أهلُ

كلِّ مسجد إقامةَ ما يَليهم فكمَّلَ الأمر دونَ تشعيبٍ ولا تعتيب، وكذلك أهلُ إشبيلِيَة بوَسَط الحال دون إسرافٍ ولا إجحاف.

وفي ليلة الأحد الحاديَ عشَرَ لذي القَعْدة: توفِّي بقُرطُبة الفقيهُ القاضي أبو الوليد ابنُ رُشد[1] رحمه الله، وهو: محمدُ بن أحمد بن رُشد، وله «شَرْحُ المستخرَجة» تأليفٌ لم يسبِقْ أحدٌ من العلماءِ إلى مثلِه يَنيفُ على المئة جُزء[2]، هكذا ذكَرَ صاحبُ كتاب «الأنوار الجليلة في محاسن الدّولةِ الـمُرابطية»[3]، وله مقدِّماتٌ في الفقه فسَّر فيها مذهبَ مالكٍ رحمه اللهُ بأبلغ حُجّة وأوضح معنى، إلى غير ذلك من التواليف. وصَلّى عليه ابنُه ودُفِن بمقبُرة بني العبّاس فلم يُعهَدْ مثلُ ذلك اليوم في الحَفْل وكثرةِ المخلوقِ فيه.

وفي سنة عشرينَ وخمس مئة: قال ابنُ حماده: قام رجلٌ في ريفِ سَبْتَةَ في كركالَ وادَّعى أنه الخَضِر، فقُبِض عليه في العَشْر الأُوَل من جُمادى الآخِرة ووصَل إلى سَبْتَةَ يومَ الثلاثاء لثلاثَ عشْرةَ من الشهرِ المذكور فحُمل منها إلى حضرة مَرّاكُش فقُتل وصُلب.

وفي هذه السنة: تَواتَرت أخبارُ الـمَهْديِّ بمَرّاكُش وطاعَتْ له الجبالُ كلُّها... فأكمَلَ البشيرُ الوَنْشَريسيُّ الـمَيْزَ في العام الفارِط، أمَرَه المهديُّ بالتقديم على الباقين... فغَزَا بهم في هذه السّنة كبك، ووصَل إلى أغماتَ وحَوْز مَرّاكُش ورجَع إلى الجبل، فأخذ الأميرُ عليُّ بن يوسُف يَبني المراصِد بقُرب مَرّاكُش ويسُدُّ الطُّرق التي يَنزلُ منها أتباعُ الـمَهْديِّ إلى الأوطئة.

وذكَروا أنه في هذه السنة: كان وصُولُ ابن رُشد إلى مَرّاكُش ووفاتُه بقُرطُبة، واللهُ أعلم.

وفي هذه السنة: نَهَض ينالُه اللَّمتُونيُّ الوالي على غَرْناطةَ إلى شرق الأندَلس، فلم يزَلْ به إلى أن عُزِل عن غَرْناطةَ في جُمادى الأولى من عام اثنين وعشرين، فكانت ولايتُه

---

(١) ترجمته مشهورة وسيرته مذكورة، وقد ترجمه الجمّ الغفير من المؤرّخين، فتنظر الصلة البشكوالية ٢/ ٢١١ (١٢٧٠)، وتعليقنا عليها.

(٢) هو المسمّى بـ«البيان والتحصيل، والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل العتبية» طبعته دار الغرب الإسلامي، وهو منتشر مشهور.

(٣) لأبي بكر الصيرفي.

سنةً وتسعةَ أشهر، وكان أبو عُمر يَنالُه استدعَى فقهاءَ وعلماءَ من أهل جَيّان، فلمّا حضَروه أمَرَ بسَجْنِهم ظُلمًا واعتداءً، ثم نَهَض للغزوِ إلى الشّرق فلم يزَلْ في تلك الوِجهة وهم في العُقْلة إلى أن عُزِل بالأمير أبي حفص عُمرَ ابن أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف، فلمّا ورَدَ غَرْناطةَ بادَرَ بإخراجِهم وإصدارِهم إلى بلدهم على غايةِ المَبَرَّة والكرامة، وفرَّج اللهُ بعَزْلة ينالُه عن المسلمينَ الغُمّة وانفرَجَت الضِّيقةُ بالأندلس.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمس مئة: قال ابنُ القَطّان[1]: وجَمَع الإمامُ الـمَهْديُّ في هذه السنة نحوَ أربعينَ ألفًا من الرّجال ونحوَ أربع مئة فارس، فنزَلوا على مَرّاكُش، فخَرج إليهم لَمتُونةُ في أكثرَ من عددِهم معَ أميرهم عليِّ بن يوسُف فهزَموه، ومات عسكرُ عليِّ بن يوسُف على باب أغمات، وطال حصارُ مَرّاكُش نحوَ أربعينَ يومًا يلتقونَ فيه ويتقاتلون، وخَرج عليُّ بن يوسُفَ أيضًا بعساكرِه وانهزَم، وماتَ من عسكرِه خَلْقٌ كثير بالزِّحام عندَ بابِ دَكّالة، وفَرّ أقوامٌ من عسكرِه حين لم يَجِدوا مِن أين يَدخُلون إلى مَرّاكش حتى وصَلوا إلى وادي أمِّ ربيع، فلمّا رجَعوا بعدَ ذلك إلى المدينة أمَر عليُّ بن يوسُف بحَلْق لِحاهم ومثَّل بهم. ولـمّا مكَثَ أصحابُ الـمَهْديِّ بحشودِهم في البُحيرة المدّةَ المذكورة، وصَلت الحشودُ والعساكر من كلِّ مكان إلى عليِّ بن يوسُف، فخَرج بهم إليهم فهزَمَهم وقَتَلهم قتلًا ذَريعًا، وفُقِد في هذه الهزيمة أبو محمد البشيرُ ولم يجِدْه الموحِّدونَ ولا الـمُرابِطون لا حيًّا ولا ميّتًا[2]. وذَكَروا أنه كان لطائفةِ الـمَهْديِّ على عليٍّ بمَرّاكُش أربعونَ هزيمة، وعليهم هذه الهزيمةُ المعروفةُ بهزيمة البُحيرة قُتِلوا فيها أجمعين حتّى لم يبقَ منهم إلا نفَرٌ يسيرٌ معَ عبدِ المؤمن، وقَدِم عبدُ المؤمن مرةً أخرى وباتَ على هيلانَةَ فحشَدَهم ورجَع بهم إلى مَرّاكُش فهُزِموا أيضًا، فمات في تلك الهزيمة نحوُ اثنَيْ عشَرَ ألفًا، وتوجَّه عبدُ المؤمن معَ خمسينَ رجُلًا إلى تينمَل ووجَد الـمَهْديَّ فقال لهم: بقي الأمر[3].

---

(1) سقط هذا النص من المطبوع من نظم الجمان لابن القطان.

(2) ينظر البيذق ٢٨.

(3) تفاصيل وقعة البحيرة في البيذق ٧٨-٨١، ومعنى: «بقي الأمر» أي بقي عبد المؤمن حيًا، يقول راوي الخبر: «فأسرعت حتى وصلت المعصوم (أي المهدي) فأعلمته فقال لي: عبد المؤمن في الحياة؟ قلت: نعم. قال لي: الحمد لله رب العالمين قد بقي أمركم».

وفي سنة اثنتَيْن وعشرينَ وخمس مئة: وَلّى أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف وَلَدَه عُمرَ في مدينة غَرْناطةَ واحتلّها في شهر جُمادى الأولى، وكان في جُملته رجلٌ زِيُّه التلثيم نشَأ بمدينة طَنْجة وتأدَّب بإشبيلِيَة يُعرَفُ بموسى بن مَفْروح له خَطٌّ بارع وأدَبٌ صالح ونفوذٌ في الحساب، وكانت له نفسٌ ذكيّة وهمّةٌ عالية، ألقَى إليه الأميرُ أبو حفص جميعَ الأعمال وأوطَأَه عَقِبَ الرّجال، فاستبدّ بالأمرِ واستقلّ... فدُسّ إليه يهوديٌّ يَنتحِلُ الطبَّ سقاه يومَ أربعاءَ ودُفن يومَ جُمُعة.

ولحِقَ الأميرُ أبو بكر والي إشبيلِيَةَ بغَرْناطة متوجِّهًا إلى شرق الأندلس فسار إليه الأميرُ أبو حفص أخوه، فدخَلوا المدينةَ في أجمل هيئة وأتقن زينة... فاجتَمع بأخيه وأقبَلا مقترنَيْنِ والجيوشُ تحفُّهما، وكان مضطربُ محلّةِ الأمير أبي بكر بالـمُصلّى، فتلوَّم أيامًا ثم تحرَّك إلى وِجهتِه فقصَدَ حِصنًا كان للروم قد تملّكوه غَدْرًا فنصَب عليه الحربَ ودخَله عَنْوة، وامتلأت أيدي المسلمينَ بكثير من الأسلحة والآلات والزّي والمتاع، وثَقَّفَ الأميرُ أبو بكر الحِصنَ بالرّجال والرُّماة وصَدَر، فبُرِّزَ له بغَرناطة أحفلُ تبريز، ثم أغذَّ السَّيرَ إلى إشبيلِيَة.

وقد نفَذ كتابُ أمير المسلمينَ إلى وَلَدِه صاحبِ غَرْناطةَ بوصُوله إليه، وأقام واجدى[1] بنُ سَيْر معَ أخيه عُمرَ والي إشبيلِيَة وعبدِ الرحمن بن أبي بكر والي قُرطُبة، وصَدَر أبو عُمرَ ينالُه عن الشّرق إلى غَرْناطة ثم توجَّه إلى الجزيرة وجاوَزَ البحر، فلمّا وصَل إلى حضرة أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف أشار بذكرِه إليه مُعاهِدةَ غَرْناطة، فأمَرَ بمحضَرِه معَهم في مجلس نَظَرِه، فأَدْلَوا بحُجَج في ظُلمِه فسَجَنه لهم حتى أنصَفَهم من ظُلامتِهم، ثم بعدَ ذلك أصابه طاعونٌ كان سبَب حَتْفِه، وكان هذا ينالُه إذا عاقَبَ الجانيَ اعتَدى عليه، وإذا أُتي بالبريء لم يَسمَعْ منه، وكان له كاتبٌ يهوديُّ الأعراق والأخلاق يُبغِضُ الناسَ ويُبغِضونَه، أشأمُ قسمةً على نفسِه ورئيسِه ومنِ اتّصل به، فبَدَا بشؤمِه أميرَه ينالُه، فجَرَّ إليه العَزْلَ وأورَدَه السِّجن وأدّاه إلى الهَلَكة، وغدا شُؤمُه عليه فاستُؤصل مالُه ونُهبت دارُه وطُلب ليوقَعَ به ففَرَّ وهَلَك بعدَ ذلك، وكان أشقرَ أزرق دميمَ الخَلْقَ في وجهِه خال.

---

(١) هو المعروف باسم «أجداي» عند ابن القطان ١٠٦ (وينظر تعليق الدكتور محمود مكي عليه).

وفي رمضانَ المعظَّم من هذه السنة: صُرِفَ الأميرُ أبو حفص عُمرُ ابنُ أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف عن غَرْناطةَ، وكانت ولايتُه بها أربعةَ أشهر، ووَلِيَها عبدُ الله بن أبي بكر اللَّمتُونيُّ، وكان في شَرْق الأندلس بجيش العُدوة، فلمّا وصَلتْه الولايةُ أورَدَ كتابًا على أبي يحيى بن روَّادَة يَستنيبُه في الأمور المختصّة فتَولّى ذلك.

وفي هذه السنة: استمرَّت عَزْمةُ عليِّ بن يوسُف اقتداءً بأبيه في إشارتِهم إلى مَن يقومُ بالأمر من بعدِه، فاستَدعَى مِن نُوّاب القبائل مَن وَثِق بدينِه ونَظَرِه، وفاوَضَهم في مذهبِه، فكلُّ شيخ ورَدَ على تهمُّمِه، وأشار بالأمير أبي محمد سَيْرٍ ابنِه، فأمَرَ كتبَتَه بإنشاء البيعةِ له، فنزَع كلّ سهمَه إلى غَرَض طبعِه وعلمِه، فلمّا وقَف عليه أعرَضَ عنه وأمَرَ بنَقْل البيعة المتعهَّدة في قُرطُبَةَ باسمِه، فألزَم نفسَه ما التزَم وقلّده ما تقَلَّده، وأنفذَ الكتُبَ إلى عُمّالِه وقُضاته بالأندَلس حتى أَخَذ البيعةَ في كلِّ بلدة، فانعَقَدت في كلِّ قاعدة بيعة يومَ الجُمُعة الرابعَ عشَرَ من جُمادى الأولى... أميرِ أبي حفص، ثم دَنَا بهما واستَدعَى الزّعماءَ والأعيان من جميع جهات غَرْناطة، فلمّا... فيها أنفَذَ إلى أمير المسلمينَ بها وتَساجَل في هذا الشأن أهلُ البلاد، هكذا ذكَرَ الصَّيرفيُّ في كتابه.

قال الورّاقُ في «المِقْباس»: لـمّا عزَم عليُّ بن يوسُف على أن يخلَعَ عهدَه على ابنِه سَيْر الذي مِن أمَتِه قَمَر[1]، وجَّه إلى عقدِ ذلك... أهلَ العَقْد والحَلّ من الفقهاءِ والقُضاة، وجَمَع لذلك بني عمِّه وأخوَيْه: الأميرَ تميمًا كبيرَه وأخاه إبراهيمَ صغيرَه المشتَهر بابن تاغيشت، وهي أمَةٌ سوداء، فسَلَّم الأمرَ لابنِه سَيْر وشهَّد الشّهودَ عليه بذلك، وكمُلت البيعةُ له وأرسَل بها إلى سائر الأقطار والأنظار، فاستقرَّت البيعةُ للمذكور والتزَم قَبولَها، واستقَلّ بالأمر ونَظَر في سائرِ ما تَدْعوه الضّرورةُ من أمور الجيوش والأحكام والولايات والعَزْل وردِّ المظالم، وقَعَد للناس قُعودًا فَخْمًا، وكان تامَّ الخِلقة حَسَنَ الخُلُق كاملَ الأدوات من الفُروسيّة وغيرِها جميلَ الهيئة، ولم يكنْ له وَلَد؛ لأنه كان عقيمًا، ولم تَطُلْ مدّتُه، فهلَكَ في حِجر أبيه، وتكلَّم الناسُ في سببِ موتِه بأحاديثَ شنيعة.

---

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٥٥.

ذكرُ ولاية تاشْفينَ بن عليّ بن يوسُف الأندَلس ونُـبَذٍ من أخبارِه

لـمّا وَلّى عليُّ بن يوسُف ابنَه سَيْرًا ولايةَ عهدِه، وجعَلَ له الأمرَ من بعدِه، رأى أنْ يُولِّي ابنَه تاشْفينَ الأندَلس فوَلّاه إمارةَ غَرْناطةَ والـمَرية، إلى أن عَزَل عن قُرطُبة ابنَ عمِّه عبدَ الله بن جنونة، فوَلّاه مدينةَ قُرطُبَةَ مضافةً إلى ما بيدِه لـمّا حَسُن مَنابُه، وذلك بعدَ سنتينِ من ولايته، فدخَل قُرطُبة سنةَ أربع وعشرينَ واستقرَّ بها ونَظَر في مصالح أمورِها. وكان بطلًا شُجاعًا حسَنَ الرَّكبة والهيئة لولا بُخلٌ أخَلَّ به، وكان يَسلُكُ طريقَ ناموس الشّريعة ويَميلُ إلى طريقةِ المستقيمينَ وقراءة كتُب الـمُريدين، وقيل: إنه لم يشرَبْ قطُّ مُسكِرًا ولا استَمع إلى قَيْنة ولا اشتَغل بلَذّةِ صَيْد ولا غيرِ ذلك ممّا يلهو به الملوكُ من سائر اللَّهو، وظَهَرت له بارقةٌ في النَّصر على النّصارى الضّارِّين ببلاد الأندَلس، فإنه كان يؤثّر فيهم ويَهزِمُهم في أكثرِ الأوقات، فأحبَّه أهلُ قُرطُبة خواصُّها وعوامُّها، فبَعُد صِيتُه وعلا ذكرُه، وساسَ أهلَ الأندَلس سياسةً طار بها ذكرُه من الاستقامة واتّباع لأمورِ الشّريعة(١).

ولـمّا بَعُد صِيتُ تاشْفين في أمر الغزوِ والجهاد، وشاعَ ذكرُه في سائر البلاد، كبُر ذلك على أخيه وَلِـيِّ عهد أبيه سَيْر، وفاوَض أباه في ذلك وقال له: إنّ الأمرَ الذي أهّلتَني له لا يَحسُنُ لي معَ تاشْفين، فإنه قد حَمَل الذِّكرَ والثناءَ دوني وغَطّى على اسمي وأمال إليه جميعَ المملكة، فليس ليَ اسمٌ معَه ولا ذكر، فحينَئذٍ عزَلَه أبوه عن الأندَلس وأمَرَه بالوصُول إلى حضرتِه، فوصَل تاشْفينُ مَرّاكُش وصار في جُملة مَن يتصرَّفُ بينَ يدَيْ أخيه سَيْر، فكان يحضُر مجلسَه في جُملة كبارِ لـمتُونة ويقِفُ على بابِه، ولم تَطُل الـمُدّةُ إلى أنْ جَرى من أمر سَيْر ما جرى، ومات حسبَما أذكُر في موضعِه، وذلك في سنة ثلاثٍ وثلاثين، هكذا ذكَرَ الورّاق.

وكانت ولايتُه بالأندَلس سنةَ ثلاث وعشرينَ وخمس مئة، قال أبو بكر الأنصاري: وَلِـي غَرْناطةَ الأميرُ تاشْفين فوَافاها في السابع والعشرين لذي حِجّة سنة ثلاث وعشرين،

---

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٥٦.

فقوَّى الحصُونَ وسدَّ الثُّغور وأذكى العيُونَ على العدوّ وآثَرَ الجُند، ولم يُكبِرْ إلّا الجَدّ، ولم تُنَلْ عندَه الحُظوة إلا بالغَناء والنَّجدة، ولذلك حَمَل على الخيل وقلّد الأسلحةَ وأوسَع الأرزاق واستكثَر من الرُّماة وأركَبَهم وأقام هِمَمَهم، وعُني بالغَزْو ومباشرة الحرب، فهزَم الجيوشَ وفتَح الحصُون، وتهيَّبه العدوّ، ولم ينهَضْ إلا ظاهراً ولا صَدَر إلا ظافراً، ومهّد المُلك بالحَزْم وتملَّك نفوسَ الرّعية بالمَعدَلة وقلوبَ الجُند بالنَّصَفة. قال: ولولا الاختصار لأورَدْنا من خلالِه السَّنيّة ما يَضيقُ عنه الرَّحبُ ولا يسَعه الكَتْب.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ثلاث وعشرين: أغزَى واجدى[1] بنُ عُمر بن سَيْر اللَّمتُونيُّ على طَلَبيرة بجيش إشبيليَةَ، فاكتَسَح ما بها وبالَغَ في النِّكاية، وصَدَر بالسيقة، فتَبِعه زُهاءُ خمسينَ فارسًا للعدوّ فحُضَّ على صَرْف عدَد يُصيبُ منهم أو يُشرِّدُهم، فتهاوَنَ بهم، فلحِقَه عددٌ آخَر؛ فقيل له: بدِّدْهُم قبلَ تجمُّعِهم، فأعَرَض عن ذلك حتّى تكامَلَ للعدوِّ زهاءُ ثلاث مئة فارس حَمَلَ على جيش المسلمين فانهزَم لهم وأصابوا من المُرابِطينَ جُملةً وافرة وأسَروا عِدّة، ورُفِع الأمرُ إلى عليِّ بن يوسُف فألزَمَ واجدى فِديةَ مَن أُسِر وأنفَذَ عَزْلَته وولايةَ الأمير أبي زكريّا يحيى بن عليّ ابن الحاجّ ومُجُوز[2]، وكانت ولايةُ عبد الله بن تينغمرَ مدينةَ قُرطُبة في السنة الفارِطة عن هذه، وهو ابنُ أُخت عليِّ بن يوسُف.

وفي سنة أربع وعشرينَ وخمس مئة: استَصْرخَ صاحبُ قُرطُبَةَ الأميرَ تاشْفين، والعدوُّ مصمِّم نحوَها، فبادَرَ إليها فارتَدع العدوُّ عنها ورجَع عَوْدَه على بَدْئه، فلم تكنْ له نِكاية، فثَنَى الأميرُ تاشْفينُ أعِنّتَه إلى مدينة جَيّان وأقام يَستطلعُ الأنباء ثم صَدَر إلى غَرْناطة.

وفي هذه السنة: توفِّي صاحبُ بَلَنْسِية محمدُ بن يوسُف يَدَّر وتَولّاها يَنْتان بن عليّ اللَّمتُوني[3]، فقَرَن اللهُ بذلك... وظَهَر بالرّوم وسِيق رأسُ زعيمِهم غَشْتونَ إلى غَرْناطة

---

(١) قد تقدم أن واجدى هذا هو ابن سير، فهل هذا قد سمّي على اسم عمه؟

(٢) هو لقب لابن الحاجّ، ويكتب: «مقور» بالقاف والجيم والكاف هما بدل من الكاف الأعجمية.

(٣) هو أصغر أبناء علي بن يوسف.

في شهر جُمادى الآخِرة، فنُصِب على ذَروة رُمح وطِيف به الأسواقُ والسِّكَك وشُهِر بضَرْب الطّبول[1]، وأغذَّ به البشيرُ إلى أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف وهو بمَرّاكُش؛ فأنشَدَ الأميرَ تاشْفين أبو بكر محمدُ بن يوسُف شعرًا ارتجالًا، وهو [من الطويل]:

بِسَعْدِكَ شبَّتْ في الأعادي لظى الحربِ ... فجاءك ما تَهوى من الشرقِ والغربِ
وقد كنتَ بشَّرْتَ الأميرَ بأنّها ... بَعيدُ مسَرّاتٍ تجيءُ على قُربِ
فقد أنجَزَ الرّحمنُ بالنّصرِ وعدَهُ ... وسهَّلَ أمرًا كان في غابةِ الصّعبِ
فخَيلُك قد ألقَت بإيلانَ بَرْكَها ... وأمضتْ على غشْتُونَ بالطّعن والضّربِ
وجاءك منها رأسُ غشْتُونَ مُخبِرًا ... على جسَدٍ للرُّمح كفًّا على...
صوتًا احر المسى في لسانِه... ... ولكنه في الحال من أفصح العُربِ
وما هذه من تلك أعظمُ نعمةً ... ولكنّه تِربٌ أُضيف إلى تِربِ
.... على البرى وقرب إلى الحبِّ

وقيل في ذلك [من البسيط]:

يا تاشَفينُ وقطبُ الحربِ عاطشةٌ ... وليس إلا دمُ الأعداءِ يُرويها
قد راسلَتْكَ ملوكُ الرّوم صاغرةً ... في السِّلم إذ كادت الهيجاءُ تُفنِّيها
فخيلُها الكُمْتُ مُلقَى البِيد وادعةٌ ... وكُمْتُك الخيلُ تعدو في مغانيها
تَخشى عقابَك في أقصى منازِلها ... وتطلُبُ العفوَ من أعلى صياصيها
إذا أتَتْ رُسْلُها جاءتك مُقبلةً ... والسيفُ من غِمدِه سرًّا يُناجيها
تخافُ بحرَ نَداك الغمْرَ يُغرِقُها ... وتتّقي الشَّزْرَ من مَرآكَ يَعشيها

---

(١) ينظر نظم الجمان لابن القطان ١٨١، وفيه الإشارة إلى أن رأسه حمل إلى مراكش وطيف به هناك، لا في غرناطة كما ذكر هنا.

لا تَــسمعُ القــولَ إلّا أن يُحرِّكَهــا ... ولا تــرى الــشخصَ إلا أنْ يُناديهــا

تملَّــكَ الرُّعــبُ منهــا كــلَّ جارحــةٍ ... فــما لأعــضائها فعــلٌ يُواتيهــا

فاهنَــأْ فــإنّ بــلادَ الله أجمعَهــا ... إليــك تكفُــلُ مَــن فيهــا وتَكفيهــا

ولـمّا ورَدَت رسُلُ الرّوم راغبةً في السِّلم أحسَنَ إليهم وصَرَفَهم إلى مَلكِهم، وأمَر بتشييعِهم إلى مأمنِهم، ثم أخَذ في الحَزْم والعَزْم، ونظَر في حَسْم العِلَل، وحَدَّ لهمُ التأهُّب، وأمَرَ الأدِلّة بالفَحْص عن الأنباءِ وأخْذِ الألسنة.

وبأثَرِ ذلك ورَدَ النبأُ الصّادق أنّ القُمطَ احتفَل في الحَشْد وخَرج إلى بلاد الإسلام، وعزَم الأمير تاشْفينُ على الخروج إلى طَرَف نظَرِه فتَواترت الأنباءُ بتعريج العدوِّ إلى طريق إشبيلِيَة يومَ النِّصْف من رَجَب، وكان واليَها أبو حفص عُمرُ بن الحاجّ اللَّمتُونيّ الملقَّب ومُجوز[١]، فلم يَشعُرْ إلّا والخيلُ جائلة بالشَّرَف[٢]، فخَرج بمَن كان معَه فوقَف على ضفَّة الوادي ببعض خيلِه ورَجْلِه، وأجاز البعضَ ليَكُفَّ عاديةَ الخيل الغادية عليهم، فظَفِروا ببعض الرّوم وكَرُّوا بهم إلى الأمير عُمر، فاستَخبَرَهم وأمَرَ بضَرْبِ أعناقِهم، ومَن بالضّفة الأخرى مِن خَيْل الروم ينظُرونَ إليهم، فاحتلَّتهم الحَمِيّة، واقتَحموا النّهر فحاصَ المسلمونَ حَيْصةً أجْلَت عن الأمير عُمر صاحبِ إشبيلِيَة قرب المسلمينَ كرم... بشهادة، فقيل: إنّ حَجَرًا كان يُلقى على الظَّهر، فلمّا أَهَبَ الفَرَسَ بالجَرْي سَقَط وأثقَلَه عن القيام الدِّرع، فداسَتْه الخيلُ وبُطَّت بطنُه بالطَّعن. وفي صَبيحة تلك اللّيلة اضْطَربَ الرّومُ بالمحَلّة على فرسخَيْن من مدينة إشبيلِيَة، فقَتلوا عظيمًا وسَبَوا عظيمًا بمرأى عَيْن ومسمَع أُذُن، واستاقوا من الأسرى والمواشي والآراب ما لا يُحصيه عَدّ ولا يَحصُرُه حَدّ، فلم... عن إحراق الزَّرع وقَطْع الشّجر، وأسرَعوا في الصَّدَر، ولـمّا عَلِم تاشفينُ بأخْذ العدوِّ إلى جهة إشبيلِيَة خَرَج بالجيش إلى سَمْت قُرطُبة، فتلقّاه كتابُ

(١) هذا لقب ابن الحاج، كما تقدم، وأبو حفص عمر هذا هو أخو يحيى بن علي ابن الحاج مجور المتقدم قبل قليل.

(٢) هي منطقة التلال المحيطة بإشبيلية.

القاضي بها محمد بن أصبَغ مُعلِمًا له باكتساح العدوِّ مدينةَ إشبيلِيّة، وعَرَّفه باستشهادِ صاحبِها، فجَدَّ السَّيرَ في الوصُول إليها وقد قُتل رئيسُها وفُضّ جمعُها[1]... من أهل الحاضِر المتصرِّفينَ أسعارها، وكثُر... والتأدّب من إشبيلِيّة وأمَرَ بتنكيلِه وسَوْقِه إلى جزيرة...

وكان تميمُ بن يوسُف بن تاشفينَ واليًا على فاسَ فيها، فعَزَله أخوه في سنة ثلاث وعشرينَ بعدَ ولاية العَهْد لسَيْر بن عليَ، فوَلَّى بعدَه محمدَ بن يَزُول.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ أربع وعشرينَ: عُزِل يزولُ عن المغرب ووَلِـي حازمُ بن داود بن عَمْرو بن يحيى.

وفي هذه السنة: هبَطَ الموحِّدونَ إلى مَرّاكُش وحَصَروها وبَقِيت أيامًا لا يَدخُلُها أحد، ثم وقَعت الـمُلاقاةُ، فحصَل من اللَّمتُونيِّين خَلْقٌ كثير لم يُحصَ لهم عدد، وهَرَب باقيهم إلى مَرّاكُش، واتَّبَعهم الموحِّدونَ إلى بابِها فترامَوْا في الحَفِير وطَلَع فيه الناسُ على الناس حتّى امتلأ منهم، ثم رجَع الموحِّدونَ عنهم إلى محلّتِهم وبقُوا عليهم أيامًا، فوقَعت بينَهم وقعةٌ مات فيها من الموحِّدينَ مَن قضَى اللهُ له بذلك. انتهى كلامُ ابن حماده.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ أربع وعشرينَ المذكورة: نزَلَت طائفةٌ من قبائل الموحِّدينَ إلى كيك، فهزَموا عسكرًا لعليِّ بن يوسُف وأخَذوا أموالَهم وسلاحَهم وأخبِيتَهم[2].

ثم نزَل بهم عبدُ المؤمن بن عليّ إلى أغماتَ فحصَروها وقَتلوا في يوم واحد نحوَ ثلاثة آلاف أكثرُهم سُودان، فاتّصلت الهزيمةُ بموضع أفراك، وفي اليوم الثاني أصبحوا على باب الشّريعة فخَرج إليهم عليُّ بن يوسُف من مَرّاكُش فهزَموه حتّى دخَل بابَ المخزن[3].

---

(١) ذكر ابن القطان هذه الحادثة ومنها استشهاد أمير إشبيلِيَةَ عمر بن مجور في سنة ٥٢٦هـ. (نظم الجمان ١٩٧)، وذكر أن عبد الملك في ترجمة سليمان بن جعفر بن سليمان الحضرمي أنه هو الذي خاطب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين عن أهل إشبيلِيَةَ يعلمه باستشهاد أميرها عمر بن مقور بقتل الروم إياه في رجب ست وعشرين وخمس مئة. (الذيل والتكملة ٢/ ٦٠، بتحقيقنا). أما ابن الخطيب فذكر هذه الحادثة في رجب من سنة ٥٢٥هـ. (الإحاطة ١/ ٤٥١-٤٥٢).

(٢) ينظر نظم الجمان لابن القطان ١١٤.

(٣) نظم الجمان لابن القطان ١١٦-١١٧.

وفي هذه السنة: توفِّي الـمَهْديُّ، لـمّا رجَع عبدُ المؤمن من حركتِه وجَده مريضًا فخَرج إلى الناس فوَعَدَهم وكلَّمهم، ثم رجَع إلى دارِه فتوفِّي، وكتَمَ أصحابُه وفاتَه، وكان عُمُرُ الـمَهْديِّ نحوًا من خمسينَ سنة. هكذا ذكَر ابنُ القَطّان رحمه الله[1].

وفي سنة خمس وعشرينَ وخمس مئة: ورَدَ كتابُ عليِّ بن يوسُف على الأمير أبي محمد عبد الله بن أبي بكر بولاية قُرطُبة، فلمّا استقرَّ بها أمَرَ بالنّظر في المِيرة إلى أرنيه[2] وقد انتَدَبت النّصرانيةُ لهذا الحِصن خَيْلًا ورَجْلًا وأحدَقَت به لتمنَعَ وصُولَ المِيرة إليه وقد نفَذَت الأموالُ عليه وطَمِعوا به لكونِه شَجًى في حلوقِهم وقَذًى في عينِهم، فاستمدَّ الأميرُ عبدُ الله الأميرَ تاشفينَ من غَرْناطةَ فأمَدَّه بنفسِه، واجتَمع بهما في سَمْت مُرْسِيَة واليها ورئيسُها يحيى بنُ عليّ ابن غانِية، وتَسامَعَت الرّومُ بذلك، فأرسَلت أمدادَها من البلاد النازِحة والأقطار الشاسعة، فأحدَقَت بالحِصن، وأمدَّ المِيرَةَ، فحال بينَ اتّصال الروم، وأمَرَ الأميرُ تاشْفين يحيى بنَ عليّ ابن غانِية بأخْذِ مَخاضَة النّهر على مَن بتلك الضّفة من الـمَدَد، فلمّا رأى الرومُ ذلك استمرُّوا إلى سَفْح الجبل فقَلّ الطَّمعُ فيهم، وأمَرَ الأميرُ تاشْفينُ بضَرْب المحَلّة، فلمّا حَلّ بالمغرب صَدَر الناسُ إلى الأخبِية وترَكَ يحيى ابنُ غانِية الـمَخاضةَ التي وقَفَ عليها، فبادَرَ الرومُ الخَوْضَ منها رَجْلًا وخيلًا... فأخَذهم الطَّعنُ في النّهر، وذَهب المسلمونَ أكثرُهم غَرَقًا وطَعْنًا وفي... أمَدَّ الأميرُ تاشْفينُ الحصنَ بالرُّماة والرّجلة وصَدَر... أظهَرَ اللهُ المسلمين... وأخَذ تاشْفينُ في... من هناك الـمَرِيّة، ثم وصَل غَرْناطةَ في ربيع الأول سنةَ ستٍّ وعشرينَ وخمس مئة.

وفي هذه السنة، أعني سنةَ خمس وعشرين: توفِّي بمدينة قُرطُبة أبو العلاء زُهر بن عبد المِلك بن زُهر رحمه الله.

ولم يزَلْ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف يُوالي الحروبَ من قِبَلِه على الموحِّدين ويَأمُرُ عساكرَه بمُلازمةِ السُّكنى حيث بَقِيت لهمُ الطاعة من أهل الجبال... مطاولة الحَرْب والنِّزال، ووَجَّه إليهم أخاه إبراهيمَ الشهيرَ بابن تاغيشت، فانكسَرت محلّته من غيرِ قتال،

---

(١) نظم الجمان لابن القطان ١٢٦ فما بعدها.

(٢) تقدم ذكرها، وهي «أرنيط».

فأَخَذ الموحِّدونَ أخبِيتَهم وأسلحتَهم وألويتَهم، فلمّا جَرَت هذه الكائنة وشاعَ ذكرُ هذه الهزيمة ببلاد الـمَصامِدة كثُرَ الوافدونَ إليهم، وقامت الفتنةُ بينَ قبائل الـمَصامِدة يقاتلُ الرجلُ أباه وأخاه في دارِه إذا تخلَّف عن اتّباع الـمَهْدي ويُكفِّرُ بعضُهم بعضًا، أمّا مَصامدةُ الجَبَل فاتّبعوه أجمعين، وأمّا مصامدةُ الفَحْص فقليل.

وفي سنة ستٍّ وعشرينَ وخمس مئة[1]: اتّصل الخبرُ بالأمير تاشْفين بن عليّ بن يوسُف أنّ العدوَّ خَرج من طُلَيطُلَةَ إلى جهة قُرطُبة، فاستمدَّ الأمداد واستعَدَّ غايةَ الاستعداد، وخَرج إلى الجهاد، فدارت الحربُ على الرّوم، وأخَذ السّيفُ مأخَذَه منهم، وقُبِض على قائدِهم وعلى عشرينَ من زُعمائهم، وامتَلأت أيدي المسلمينَ من أسلحتِهم وزِيِّهم ودوابِّهم. فأمَرَ الأميرُ تاشفين بثِقافِ الأسرى والغنائم، ونَهَض بهم إلى قلعة رَباح لقُربِها من المعتَرك، فألفَى أحوالَهم مختلّة، وأمورَهم معتلّة، فأصلَح ما فَسَد، وسدَّ ما اختَلّ، وترَكَ الأسرى عندَهم ليُفادوا بها مَن في دار الحرب من أسراهم، وصَدَر إلى غَرْناطةَ ظاهرًا وظافرًا، فأنشَدَه الشّعراء، فمِن ذلك ما قيل فيه من قصيدة [من الخفيف]:

ركبتْ رَدْعَها جيوشُ الضلالِ ... وسَرَتْ من رماحِها بذُبالِ

مُلقياتٍ دروعَها لا لوقتٍ ... فيه تقض... الجلود وغشى الصلالِ

حثّ في إثْرِها الأميرُ بعُقْبا ... نِ جِيادٍ هوَتْ بأُسْدِ رجالِ

ومنها:

أنتَ يا تاشَفينُ والله واقٍ ... لكَ نفْسُ العُلى وشخصُ الكمالِ

ليس آمالُ مَن على الأرضِ إلّا ... أن تُرى أنتَ غايةَ الأعمالِ

وهنيئًا بأنْ نهَضْتَ وأقبلْـ ... ـتَ حميدَ النّهوض والإقبالِ

ومنها:

رُبَّ أشياءَ ليس يُبلَغُ منها ... كُنْهُ ما في النفوس بالأقوالِ

غيرَ أنّ الكلامَ أنْ جَلَّ قَدْرًا ... ... وعاينت فوقَه بالفِعالِ

---

(١) خبر هذه الغزوة في الإحاطة ١/ ٤٥٢.

وفي هذه السنة: خاطَب الأميرُ تاشفينُ رذْريقَ صاحبَ طُليطُلة أخزاه الله، وكان معروفًا عندَهم بالماء الحدة فوّلاه... السُّلَيْطينُ[1] بنُ رُدمير حفيدُ أذْفونْش ملكِ قَشتالة... من الأمير تاشفين... ونَظَر من خلال ذلك في... بها إلى أنِ استبشَرَ أهلُها بقدوم تاشفينَ عليها، فقَويت أنفُسُهم برؤيتِه وتأنَّسوا به وانضَمَّ إلى جيشِه بقيّةُ جيشِها، وتألَّف إليه عددٌ جَمّ من مُطَّوِّعتِهم وأذمّاء أهل باديتِها، فأخَذ بهم في أثَرِ العدوّ حتى يسيرَ من لحَاقِه لحلولِه ببلاده فكَرَّ راجعًا إلى قُرطُبة.

وفي هذه السنة: انضافَت ولايةُ قُرطُبَةَ إلى تاشفين، وكتَبَ له بذلك ابنُ أبي الخِصال عن أبيه:

من أمير المسلمين وناصِر الدِّين عليِّ بن يوسُف بن تاشفين، أعزَّه اللهُ بتقواه، وأمَدَّه بتوفيقِه وهُداه، كتابُنا، كتَبَ اللهُ لك معانيَ ومَبانيَ الخيرات، ومهَّد لك مَراقي الأعمال الصّالحات، من مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى، لعشَرة بقِينَ من رَجَب الفَرْد سنةَ ستٍّ وعشرينَ وخمس مئة، وقد رأينا واللهَ نسألُه الخِيَرة فيما نُرتِّبُه والتوفيقَ في كلِّ ما نصنَعُه، أن نجمَعَ لك قُرطُبَة وأعمالَها إلى ذلك العمل الذي أنت فيه. فإذا وقَفْتَ على كتابِنا هذا، فانهَضْ بنفسِك على بركة الله إلى هناك. واجعَلْ قُرطُبَةَ دارَ سُكناك وقرارةَ مَثْواك. وعلى مقدارِ ما زِدناك من العمَل فازدَدْ من التيقُّظ لاتّساع ذَرْعِك وامتداد مَسْعاك. واستعِنْ بالله في إعلانِك وإسرارِك. وخُذْ من أوقاتِ ليلِك لأوقات نهارِك، واجعَلْ لنَظَرِك حظًّا من سَهَرِك ولفِكرِك مستمنَحًا من تدبُّرِك، واستظهِرْ بحُسن الـمَشُورة في مَواطن الاشتباه، فإنّ اللهَ سبحانه يقول لرسُوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. واستَخْلِفْ على غَرْناطة عندَ انفصالِك عنها أبا محمد الزُّبيرَ بن عُمر، أعزّه الله بتقواه، وألزِمْه منَ استشعارِك مراقبةَ الله تعالى من الذي نُلزِمُك إياه، واعهَدْ إليه بشاكِلة ما نعهَدُ إليك والمستعانُ الله لا ربَّ سواه.

ومنها: وأولُ ما نوصيكَ به تقوى الله، فاجعَلْها بُردةَ شعارك وعُقدة إضمارِك، وعُهدةَ إيرادِك وإصدارِك، ثم اعتمد الـمَعْدَلة في عباد الله، فإنّما أنت واحدٌ منهم وكلُّنا

---

(١) السليطين: تصغير السلطان، وهو المعروف عندهم Emperador، وهو ابن أراكة بنت ألفونسو السادس، فهو ألفونسو السابع الذي حكم بين ٥٢٠ و٥٣١هـ.

عبيدُ الله إلى تراب انتسابِنا وإلى الحساب مآبِنا، والناسُ كلُّهم سَواءٌ في أولِ النّشأة والحال، وإنّما يتميَّزونَ بالمساعي والأعمال، فهي التي رَفَع اللهُ منها بعضَهم فوق بعضٍ درجات... على مجازاة المحسن بإحسانِه والـمُسيء بإساءتِه بحُكم باتّ، وحُقَّ على مَن آتاه الله حظًّا من ولاية لأدائه وقلّده قسطًا من وقاية عبادِه، أن يقومَ بينَهم بالقِسط كما أمَرَه الله ويخشَى يومًا حُقّ لمن يوصي، اليوم الآخِر أن يخشاه، وإنّ مِن عَزْم الأمور وحزامة التدبير أن يلحظَوا بعَيْن الكلاءة... بكلِّ سُوءٍ ومساءة واللهُ المستعان وعليه التُّكلان لا ربَّ غيرُه.

وفي سنة سبع وعشرينَ وخمس مئة: وصَل العدوُّ دمَّره الله إلى حَوْمة مدينة شَرِيش والبحيرة، ولم يلقَه أحد من المسلمين وصَدَر إلى بلاده، هكذا ذكر ابنُ حماده[1].

وفي سنة ثمانٍ وعشرين: غَزا تاشفينُ بن عليِّ بن يوسُف الرُّومَ وهزَمَهم وأخَذ الأسرى من...، وذلك أنه اتّصل بالأمير تاشفينَ أنّ عُظماءَ الروم وزعماءَهم تألَّف لهم جيش... يحتوي على الآلاف من زُعمائهم ومشهوري أبطالِـهم، وقَصَدوا ناحيةَ بَطَلْيَوْس وباجةَ ويابُرةَ وما بذلك الصُّقع من بلاد الإسلام، فشَنُّوا الغارةَ عليها واستحوَذوا جميعَ ما ألْفَوْا بها، وانتهَوا إلى مواضعَ كانت لا تُروَّعُ بعدو، لبُعدِها ومنَعتها وتعذُّر الوصُول إليها، فجاسُوا خلالَها ودوَّخوا أرضَها واختَرقوا طولَها وعرضَها، فاجتَمع من المسلمين ضِعفُ شيعة العدوّ الـمُجحِف بإشبيلِيَة، وانثنَوا على مَهْل لِثِقَل السِّيقة وثقتِهم ببُعد الصّارخ منهم، فثَنى الأميرُ تاشفينُ الأعِنّة وأمَرَ الأدِلةَ أن يتجشَّموا به كلَّ ذَرْوة وثَنِيّة، رجاءً في لَحاقِهم، فأفضَى الإغذاذُ به إلى فدّانٍ بقُرب زَلّاقة موضع المعترَك الذي أوقع فيه جَدُّه بالطاغية أذفُونْش بن فرذلند أخزاه الله، ولم يكنْ إلّا كلا ولا حتّى أقبلَت الطلائعُ مُنذِرةً بهم، فلمّا تَراءى الجَمْعان اضطَربتِ المحَلّتان وترتَّبت المواكب، فأخَذت مصافَّها،

---

(١) أرّخ ابن القطان لهذه الغزوة في سنة ٥٢٧هـ أيضًا، وقال بأن السليطين صاحب قشتالة وابن هود قد اشتركا فيها. (نظم الجمان ٢٠٠). على أن الأستاذ محمود مكي أشار في تعليق له إلى أن المراجع المسيحية والمراجع العربية الأخرى غير ابن القطان لم تذكر اشتراك ألفونسو السابع بنفسه في تلك الغزوة. (ينظر تعليقه على نظم الجمان).

ولزمت الرّجالُ مراكزَها، فكان في القلبِ معَ الأمير تاشفينَ وجوهُ الـمُرابِطين وأصحاب الطاعات، وعليه البنودُ البِيض الباسِقاتُ مكتّبَةً بالآيات، وفي الجانبَيْنِ كُفاةُ الدّولة وحُماة الدّعوة، من أبطال الأندَلس عليهم الرايات بالصُّور الهائلات، وفي الجناحَيْن من أهل الثّغر وذَوي الجَلادة والصّبر، وفي المقدِّمة مشاهيرُ زَناتة ولفيفُ الحَشَم أهل العزائم الماضية والبصائر الثابتة بالرايات المصنَّفة والأعلام الـمُنيفة، فأنقَذَ الأسرى من أيدي الطاغية، وأخَذ الغنيمةَ وقَتل جُملةً كبيرة، وصَدَر إلى قُرطُبة ثم إلى غَرْناطة، وذلك في جُمادى الأولى من سنة ثمان وعشرين، فأنشَده الشعراءُ مهنِّئةً بقدومِه من غزوِه ووصَفَت هزيمتَه للروم، فمن ذلك من قصيدة طويلة، نُبذةٌ اقتصرتُ عليها [من الكامل]:

أمّـا وبـيضُ الهنـدِ عنـك خـصومُ	فـالرومُ تبـذُل مـا ظُبـاك تَـرومُ
تمـضي سـيوفُك في العِـدى ويرُدُّهـا	عن نفسِه حيث الكلامُ رحيمُ[1]
دارٌ جعلـتَ بيوتَهـا قُطبًـا لهـا	أبـدًا عـلى قِمـم الملـوكِ تحـومُ
وكـأنّما الفُرسـانُ قـد عرِقـت بهـا	فطَفَـت وغاصَـت أرؤسٌ وجسـومُ
جاسَـتْ خـلال ديـارِهمْ وحُماتُهـا	في كـلِّ واد بـالفرارِ تَهـيمُ
لله يـا يـومَ العروبـة إنـه	يـومٌ عـلى الـدِّين الكـريم كـريمُ
فـتحٌ عظـيمُ القَـدْر يُمـنٌ بِـشرُهُ	فـتحٌ يقِـلُّ لقـدره التعظـيمُ
يـستفتح البلـدان سَـعْدُك طالعًـا	مـن بعـدِ إقلـيم عنـا إقلـيمُ
خـضَعت ملـوكُ الـروم في بلـدانِها	لأغـرَّ قـام بتاجِـه التعمـيمُ
... الكتائـب بعـدَ سـيرٍ والتـي	فَنِيـت بـصارم تاشَـفينَ الـرّومُ
هـذي سـماءُ الـمُلك الجمـه	.... النفـاق ......
وأنت أميرَ المسلمين	....

---

(١) هكذا في الأصل، وفي الإحاطة ١/ ٤٥٣: «وخيمُ». وقد اقتصر ابن الخطيب من القصيدة على هذين البيتين.

وفي هذا الشِّعر طولُ اقتصرتُ منه على هذا، وقد ورَدَ في كتابِ «الإنباء في سياسة الرؤساء»، وإنما هذه نُبَذٌ مقتصَرٌ عليها.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ثمان وعشرين: أغْزَى تاشَفينُ الرّوم، وهي غزوةُ البَكار[1]، كانت على المسلمينَ، قال أبو بكر يحيى بنُ محمد الأنصاري: خَرج الأميرُ تاشفينُ في إثْر عيد النّحر بجيش غَرْناطةَ وقُرطُبة ولَفيف من المجاهدين خَيْلًا ورَجْلًا ليَقطعَ بالعدوِّ المغزوِّ وقد اكتَسح ما بتلك الجهة، وأوعَزَ تاشفينُ إلى أبي يعقوبَ يَنْتان بن عليّ فخَرج بجيش تلك الجهة، أعني إشبيلِيَة، فاجتَمع به بفَحْص الرَّيحانة في شهر ذي الحجة، فنَهضَت الحَمْلتانِ إلى موضع يُعرَفُ بالبكار طريقَ العدوِّ التي لا مَحيصَ له عنها، فلمّا اشتَدّوا في طلبه تمكَّن العدوُّ من رؤيتهم، واستشعَر أنّ الأميرَ تاشفينَ في طلبِه، فخامَرَهم الجَزَع، فصَدَر المسلمونَ إلى البكار، فاضْطَربت المحَلّة وانبثّت الأدِلّة، ولـمّا تحقَّق العدوُّ صَدَرَ الأميرُ تاشَفين إلى البكار حَملوا الحملةَ في انتهاز الفُرصة فانتَدب مِن أنجادِهم ألفانِ وأردَفوا عددَهم من الرّجلة وصمَدوا صَمْدَ المحَلّة، وقد تهوَّر اللّيل وضيّع الحَزْم، فاقتَحموها من فُرَج كثيرة فثار الصِّياحُ وعَلا الصَّهيل واختَلَطت الأصواتُ ونَفَرت الدّوابّ وقطَعت مَقاودَها وقيودَها فوَقَعت على الأخبِيَة فوقَع النّهب، وفَرّ الناسُ وتُسلِّمت المحَلّة وقصَد العدوُّ مضرِبَ خباءِ الأمير تاشَفين وقد قرّب فرسَه لينجوَ عليه، فانتَهز ناصيتَه ونَجا من حظِّه وقال: لا أَسْلَم وأُسلِّمُ الأُمّة ولا أبرَحُ أو تُنجليَ عمّا انجلَت عليه هذه الكَرّة، فأحدَقَ به رجالٌ من أهل الأندَلس وأفذاذٌ من الـمُرابِطين، لم يلتئم الجمعُ أربعينَ، فاعتَرضوا بينَه وبينَ الروم فوقَع الضّرب واشتدّت الحرب وعَظُم الخَطْب، والأميرُ تاشَفينُ في دِرعِه متّشحًا بسيفِه، ودُرقتُه بيدِه، يشُدُّ حملتَه، ويُبدي صفحتَه، فلم يُرَ أربطُ جأشًا ولا أشهمُ نَفْسًا ولا تحدَّث عن أحد قبلَه بما ظَهَر منه في مطلع ذلك الهول، وتَفاقَم الأمر وقد هُتِكت خِباؤه بالطّعن، وجُذَّت أواخيها بالضّربِ فعانَقَت الأرض، وبأخَرةٍ طَعَن أحدُ العبيد قومِسَ الرّوم فأخرَجَ

---

(١) Albacar، شمال قرطبة، إذ لا يبعد عنها سوى ٢٠كم، وهو قائم إلى يوم الناس هذا بالاسم نفسه. (نظم الجمان ٢١٥).

الرُّمحَ من وراءِ ظهرِه؛ فكانت الـمُحاجَزة، وانصَدع الفجرُ فانجَلَت الظُّلمةُ والحربُ على أفذاذِ قتلى وأعدادِ جَرحى... مبطوحة ودماءٍ مسفوحة، ولولا قَدَرُ الله السابق بثبوت الأمير الأجلّ تاشَفين لحَلّت الفضيحة، والآزِفةُ التي ليست لها كاذبة. ورجَع العدوُّ في أُخْرَيات اللّيل إلى مضرِب محلّته، فأقام إلى الضُّحى معَ أخْذِ آل بلدِه وركِبَ الأميرُ تاشَفين في الصُّبح إلى قشرش[1]... طبله، وكرَّ إلى حصن قشرشَ بالمحَلّة، ثم رحَل صَدَرًا إلى قُرطُبة.

ولـمّا استقرَّ الأمير تاشَفين بقُرطُبة أنشَده الشّعراءُ، فقال الفقيهُ أبو بكر يحيى بن يوسُف الأنصاري من قصيدة طويلة يمدَحُه ويُعظِّمُه ويذكُرُ بلاءه في الحروب وفعلَه بما يَجني في ذلك [من الرجز]:

.... كـم يبكـي الـهُمامُ الأروعُ

وأخَذوا كلَّ طريق. ولـمّا سكَنت الثائرة عاد إلى إقامة رَسْمِه، والتزام حُكمِه، وجاء رجُلٌ يَستعديه، ويَذكُرُ موضعًا سُلِب فيه، فقال له: وأنا أيضًا سُلِبت أنا وذَهب مالي ومالُك... وصار أيدي سَبَأ.

قال أبو بكر يحيى بنُ محمد الأنصاريّ: وفي هذه السنة: خَرج يحيى بن عليٍّ ابن غانِية عاملُ بَلَنْسِية ومُرْسِيَة إلى حماية الزّرع بالثّغر وبثِّ الطلائع أثناءَ ذلك، فانتَهى إليه تقدُّم عسكر العدوّ يَرومُ الضّربَ على بلادِ الإسلام، فأخَذ في أثَرِهم حتى لحِقَهم، فاستأصَلَهم اللهُ واستنقذَ الأسرى وصَرف السِّيقة.

وفي هذه السنة: هلَكَ الطاغيةُ أذفُونْش، ولـمّا هلَك أخزاه الله أفضَت القومسةُ إلى رُدميرَ أخيه باجتماع الرّوم عليه بعدَ أمور مشتَّتة وشؤون مضْطَرِبة، فأقرَّ كلَّ عامل على عملِه ببلاد شرق الأندَلس من بلادِه، وانصَرف إلى قَشتالة حضرةِ مُلكِهم عجَّل اللهُ بهُلْكِهم، فاتّفقت الـمُوادعة في حين ذلك بينَ أبي بكر يحيى بن عليّ ابن غانِية عامل بَلَنْسِية ومُرْسِية وبينَ رُدميرَ بن رُدْمير لعنهما الله، إلى انقضاء عام ثلاثينَ الآتي بعدَ هذه السنة المؤرَّخة.

---

(١) في نظم الجمان ٢١٦: «قصرش»، وهي Caceres.

وبعدَ ذلك قطَع أهلُ أرغُون برِفقةٍ خَرَجت من افراغُه ناهضةً إلى وَشْقة، فبادَرَ صاحبُ افراغُه سعدُ بن مُرْدنيشَ إعلامَ رُدمير، فأحضَر الملأَ من القسِّيسينَ والرُّهبان وزعماءِ الروم وقال لهم: ما منزلةُ آبائي ومَن درَج من أجدادي عندَكم وما تعتقدونَه في أنفسِكم؟ قالوا: على سواء، واجتماعُ ملوكٍ وأبناءِ ملوك، لهم السمعُ والطاعة وعندَهم العزّةُ والقوّة على قَدَم الدّهر كابـرًا عن كابر وأورَثـه الأولُ للآخِر. قال: فأين أنا منهم؟ قالوا: أنت أحدُهم والـمُفضي إليه مُلكُهم وشأنُك شأنُهم ومكانُك مكانُهم. قال: فما جزاءُ مَن حلَّ أمرًا أبرَمتُه، وفَسَخ ما كنتُ أحكمتُه، وهم: فلانٌ وفلان؟ وعدّ سبعةً من عظمائهم وزُعمائهم، قالوا: حُكمُك ولا اعتراضَ عليك، فأمَرَ أولئك إحضارَ سَلَب الرُّفقة، فلمّا كمُل أمَرَ بضربِ أعناقِهم وصَرَف ذلك السَّلَب إلى أربابِهم.

وفي هذه السنة: تيمَّم فاسَ القاضي ابنُ الملجوم، كتَبَ أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف إلى أهل مدينة فاس يُنبئُهم بذمِّ قاضيهم ابن الملجوم وعَزْلِه عنهم.

فصولٌ منه[1]: أبقاكم الله وأكرَمَكم بتقواه ويسَّركم لما يَرضاه، وقد أُنهي إلينا وتحقَّق لدينا أنّ الجَهُولَ ابنَ الملجوم، أجهلُ بأحكام القضاءِ من الملجوم. وأنه أظهرَ فيكم أحكامًا يُترحَّمُ من مثلِها على سَدوم، فقد ولَّيناه خُطّة الـمَلُوم. ونبَذْناه بالعراءِ وهُو مذموم. وجعَلْنا شُهُب العُزلة لشياطينِه كالرُّجوم. ولعل متعسِّفًا يتعسَّف أو متكلِّفًا يتكلَّف... يَلومُنا في تقديمِه وينالُنا من العَتْب بأليمِه ولا قَدْح... فقد اختار رسُولُ الله عليه السلام لوَحْي الله... لِعِينَ بني سَرْح، وقد اغترَّ عثمانُ بحُمْران... إلخ.

وفي هذه السنة: ولِـيَ قضاءَ إشبيليَة القاضي أبو بكر ابنُ العَرَبيّ رحمه الله، ووصَل كتابُ ولايتِه من مَرّاكُش إلى إشبيلِيَة عن عليِّ بن يوسُف رحمه اللهُ بتاريخ يوم الخميس منسَلَخ جُمادى الآخِرة سنة ثمانٍ وعشرينَ وخمس مئة.

---

(١) أورد السلفي في ترجمة أبي الخطاب عمر بن محمد بن يعمر المريّي هذه الرسالة في «معجم السفر» (ص٢٢٨ من ط. زمان) باختلاف لفظي، ولكنه ذكر أنها في مناسبة عزل أبي الحسن بن أضحى، لا ابن الملجوم.

وفي هذه السنة: خَرج العدوُّ ابنُ رُدمير بشرق الأندَلس فكَسَره جيشُ ابن غانِيَةَ صاحبِ مُرْسِية ولم يَسلَمْ منه إلّا بشَرٌّ يسير، وصدَرَ ابنُ غانِيَةَ ظافرًا بالغنائم، وأمّا الطاغيةُ فبقي أيامًا ومات من مَرَض أصابه.

وفي سنة تسع وعشرينَ وخمس مئة: قال أبو بكر يحيى بن محمد الأنصاريّ: وقُتل في هذه السنة قاضي قُرطُبة أحمدُ بن خَلَف التُّجِيبيُّ رحمه الله، أكبَّ رجلٌ عليه وهو في المسجد الجامع وهو في السَّجدة الأولى من ركعتَي الجُمُعة فضَرَبه بخِنجر فصَرَخ وقُطِعت الصّلاة وبُطِش بالضارب وحُزَّ رأسُه فرُفِع في عَصًا وشَهَر رجلٌ آخرُ سيفًا فقُتل به وأُلحِق بصاحبِه، وهَرَج الناسُ في الجامع لا يَعلَمُ أكثرُهم ما حدَث فيه، ثم انزَعجوا إلى المقصورة فسُدَّت أبوابُها ومُنِعوا منها، وشَهَرَ الـمُرابِطونَ أسلحتَهم وأخرَجوا أميرَهم تاشَفينَ على بابِ الساباط، وحُمل القاضي في نَعْش فقضَى عندَ العصر، والتَطَخت قُرطُبة بما لم يشتملْ عليه ديوان، ولا بَدَر في زمان، منَ اغتيال قاضٍ عَدْل فقيه خيِّر جامع لأعمال البرّ، قُتل مظلومًا ساجدًا في صلاة الجُمُعة، وقد تقدَّم ما كان من تحذيرِ الوالي خَشيتَه على ابن رُشد، فكان الأمرُ الذي أصيبَ هذا به.

وثارت العامةُ أيضًا بقُرطُبة في هذه السنة في رجَب على اليهود لعَنَهم الله بسبب قَتْل وُجِد بين أظهُرِهم، ففُتحت منازلُهم وانتُهِبت أموالُهم وقُتل نفرٌ منهم.

وثارت السِّفلةُ أيضًا بإشبيلِيَة على قاضيهم أبي بكر ابن العَرَبي، وذلك أنه كان له في عِقاب الجُناة اختراعاتٌ مُهلِكاتٌ ومُضحِكات، فانتَدَب أنفُسًا جمّة صَلْبًا وضربًا، وسيق إليه أحدُ الزَّمرةِ فأمر بضَرْب يدَيْه وثَقْب شِدْقَيْه فانبطَلَت الحِكمةُ عليه، وعثَر أعوانُه على حامل خمر لم تُنَمَّ عليه، فباغَتَه وتحفَّى بسؤاله وتلمَّس طريقًا يُخرجُه إلى ثقاتِه، فطَمَس ذلك الرجُلَ وأبهَم الأمر، وقال: عندي خادمٌ روميّة... والخمرُ قِوامُ شرعِها، فابتعتُها وحملتُه لها، ثم عثَر عليَّ هؤلاء، فأطرَقَ ابنُ العَرَبيّ وقال: «لعَنَ اللهُ بائعَها ومُبتاعَها وعاصِرَها وحاملَها»،... اللعنُ عليها. فأمَرَ بلعنِه وعَرْضِه على الحامل ثم خلَّى سبيلَه، فانطلق عليه اللّعنُ في كلِّ مكان ومن كلِّ إنسان ولا... ذلك أمرٌ من العقاب وأشدّ من العذاب، فلمّا طال على الرجُل الأمر انتَقل عن البلد، وظَلّ ابنُ العَرَبيّ يُوالي التشدُّد والتسلُّط حتى ثَقُل على الفُسّاق والأشرارِ فهاجوا.

... عبد المؤمن بخليفتِه، وتحرَّك عبدُ المؤمن لتاوررتَ فدَخَلَها واستَولَى على بلاد السُّوس كلِّها وقَتل مَن لم يَتْبَعْه من أهلِها وهزَم قائدَها عليَّ بنَ يوسُف وعسكرَه وحصَل بعسكرِه في تيونوين. هكذا ذَكَر ابنُ القَطّان[1].

وفي هذه السنة: هلَكَ الطاغيةُ أذْفُونْش أخزاه اللهُ تعالى.

وفي سنة ثلاثينَ وخمس مئة[2]: أغْزَى تاشَفينُ بنُ عليّ بن يوسُف الرُّومَ في شعبانَ المكرَّم بعدَما استَحضَر زعماءَ الـمُرابِطين ونَظَر ما عندَهم في لقاءِ عدوِّهم قالوا: الدّولةُ لنا فإمّا تَرْكُها أو حمايتُها لا يتقدَّمنا أحدٌ إلى لقاء عدوِّنا، فإذِ استُشهِدنا فالأمرُ لـمَن شاء اللهُ بعدَنا، ثم دَعَا العربَ فقالوا: ارْمِ العدوَّ بنا ولا تُشرِكْ أحدًا معَنا، وسيَرى اللهُ عملَنا. ثم استَدعى زَناتةَ والحشَم فقالوا: لا جوابَ إلا الفعل، وشَرْطُنا أن تَعُولَ أيتامَنا، فجَزَى كلًّا خيرًا وأجابَهم بما أطاب أنفسَهم وقوَّى عَزْمَهم. وكرَّ إلى الأمير تاشَفين مَن أعلَمَه أنّ الرومَ مالت إلى التحصُّن في جبل القَصْر، فأخَذ إلى الجبل، فتعلَّقت الخيلُ به تُرهِقُه وتُصيبُ منه، وقد شَرع القتلَ في الروم، فهالَهم الأمر وتردَّوْا أخذًا في غير طريق، وأخَذ الرّومَ الضّربُ إلى عدّة أميال، فأتَى على جُلِّهم القَتْل وأفلَتَ النَّزرُ وامتَلأت أيدي المسلمين من دوابِّهم وأسلحتِهم، وفُكَّت أغلالُ الأُسارى وصُرِفت الأغنام إلى البلاد النازِحة والأقطارِ الشّاسعة، وكاد هذا يُرْبي على ما تقدَّم من نُظرائه لاستئصالِ هذه الشّوكة المؤلَّفة والحيّة القاتلة، وصدَر تاشَفينُ إلى قُرطُبة وقد صنَع اللهُ له كأفضلِ ما عوَّده.

وأقبَلَ عيدُ الفطر، فأنشدَتْه الشّعراء، فقال الفقيهُ أبو بكر يحيى بنُ محمد بن يوسُف من قصيدةٍ طويلة [من البسيط]:

عرَفتُ واللّيلُ مُزوَرٌّ على الأُفُقِ ... خَفيَّ مَسْراكِ في الظَّلماءِ والغَسَقِ

يا بانةً كلّما افتَرَّ الصّباحُ لنا ... ألقى النّسيمُ عليها نفَسَ مُعتبِقِ

ومنها:

لا تعدِلنْ تاشَفينَ... ملكًا ... طِعانُه وعطاياه على نَسَقِ

(١) نظم الجمان ٢١٠.

(٢) تنظر الحلل الموشية ١٠١.

ومنها:

يا أكـرمَ النـاس عفـوًا عنـدَ مقـدرةٍ ... وأجمـلَ النـاس في خَلْـق وفي خُلُـقِ
قد نافَسَ العيدُ أعيادًا لـك اطّـردت ... على الفتوح اطّـرادَ الخيـل في الطَّلَـقِ
فاهنَـأْ بعيـدِك مـن أعيـادِ ذي ظَفَـرٍ ... لـــه نظــائرُ تــأتي بعـــدُ في نَـــسَقِ
لا زال مُلكُـــك يعلـــو كعبُـــهُ أبـــدًا ... هامَ الملـوك كـما تعلـو عـلى الـسُّوَقِ

وكانت في هذه السنة أحداثٌ أعرَضْنا عنها لئلّا يطولَ الكتابُ بها.

وفي هذه السنة: أغْزَى الرّومَ سعدُ بن مُرْدنيش صاحبُ افراغه وابنُ غانِيَةَ صاحبُ بَلَنْسِية ومُرْسِيَة، وذلكَ أنه أحسَّ بنفادِ القُوت في مِكْناسة أحدِ حصون شرق الأندَلس، استَدعى مِن طَرْطُوشة ولارِدةَ والحصون المجاورة لهم، فنازَلَ مِكْناسةَ وصار بذلك إلى يحيى بن عليٍّ بن غانِية، ونَظَر رومُ سَرَقُسطة في توصيل المِيرة إلى مِكْناسة، فلمّا شارَفُوها دبَّ الرُّعب في قلوبِهم فتَركوا المِيرةَ وفَرّوا بأنفسِهم، ولحِقَ أبو زكريّا يحيى بنُ عليّ ابن غانِيةَ ففرَّق مَن بمِكْناسة وتشَوَّف صاحبُها لنبهته وحماية الأمان فنَزَل عنها، فوَفَى لهم أبو زكريّا وأصحَبَهم شيعةً إلى مأمنِهم، وانتقَل من فَوْرِه إلى تلك الحصُون المجاورة لمِكْناسة فافتَتَحها بفعل أهلِ مِكناسة وانقَضَت غَزْوتُه بفتح عدّة حصُون منيعةِ المعاقل.

وفي سنة إحدى وثلاثين: أخَذ الأميرُ تاشَفين في الحركة عن الأندَلس إلى حضرة أبيه، وذلك بعدَما ما وصَلَه خطابُ والده مستأذِنًا له في تجديد العَهْد به، وكان عليُّ بن يوسُف اعتَلَّ في السنة الفارِطة وارتَبَك في مَرَضِه حتى أُرجِف به فساءت الظُّنون وتمكَّن الجَزَعُ ببلاد الأندَلس، فلمّا وصَلَه الخطابُ المذكور تلقَّى ذلك بالقَبول ونَزَع في القُفول إلى مَرّاكُش، فكان من أمرِه ما يُذكَر في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى؛ هكذا ذكَر أبو بكر بن محمد. وقال ابنُ حماده: أغْزَى تاشَفينُ الرومَ في ربيع من عام أحد وثلاثين، وفتَح حصُونًا للروم.

وفي سنة اثنتينِ وثلاثينَ وخمس مئة، قال ابنُ حماده: كان السَّيلُ العظيم بطَنْجة، حَمَلَ الدّيارَ والجُدُر، ومات فيه خَلْقٌ عظيمٌ من الناس والدّوابّ.

وفي سنة ثلاث وثلاثينَ وخمس مئة: اجتَمع عسكرُ الـمُرابِطين معَ أميرهم تاشَفين بن عليٍّ معَ عسكرِ عبد المؤمن بن عليّ ببلد منانةَ بموضع بني مَلُول، فكانت بينَهم محاربةٌ عظيمة شهرًا كاملًا وثلاثةَ أيام انجَلَت عن هزيمةِ تاشَفين فاتَّبعه عبدُ المؤمن إلى ايمى تانورت وأخَذ عبدُ المؤمن بلادَ منانة، وكان تاشَفينُ قد أرسَل إلى جُزولةَ ليُغيثوه، فلمّا وصَلوا إليه وجَدوا الهزيمةَ عليه فضَرَبت جُزولةُ على آخِر عسكرِ عبد المؤمن طَمَعًا أن تكونَ له، فكرَّت عليهم عساكرُ عبد المؤمن فقتَلت جُزولةَ عن آخِرهم وأُخِذ دوابُّهم وأسلحتُهم، وكانوا آلافًا من الفُرسان والرَّجالة، ولم يبقَ منهم إلا الأقل[1].

ذكرُ وفاة سَيْر

وفي هذه السنة: توفِّي الأميرُ أبو محمد سَيْرٌ ابن أمير المسلمينَ عليِّ بن يوسُف وليُّ عهد أبيه. وقد تقدَّم القولُ في ولاية تاشَفين الأندَلسَ أنه لـمّا شاع ذكرُه فيها كبُر ذلك على أخيه سَيْر فتسبَّب في عُزْلتِه عنها، فوصَل تاشَفينُ مَرّاكُش وصار يتصرَّفُ بأمر أخيه ويقفُ على بابِه كأحدِ حُجّابِه. وكان سَيْرٌ يركَنُ للراحة ويَصطحبُ أهلَ الفُكاهة، فاقتَحم ليلًا على أخيه عُمرَ[2] في دارِه فضَرَبه وقضَى عليه فمات رحمه الله، وقيل غيرُ هذا، واللهُ أعلمُ بذلك.

وذَكَروا أنّ والدةَ سَيْر هي التي غارت بأخيه تاشَفين لئلّا يَكبُر على ابنِها ويتملَّك في بلاد الأندَلس، فكانت سببَ عَزْلتِه ووصُولِه.

قال الورّاق في «المقباس»: فكان الذي خافَت... من تاشَفين... ولـمّا مات سَيْرُ ابن عليّ فاوَضَت أُمُّه قمرُ أباه فيمَن يُولِّيه عهدَه دون تاشَفين، فقالت له: ابنُكَ إسحاق، وكانت أُمُّه قد ماتت وتركَتْه صغيرًا فرَبَّته قمرُ أُمُّ سَيْر، فكان لها كابنها، فقال عليُّ بن يوسُف: هو صغيرُ السِّن لم يبلُغِ الحُلُم ولكنّي أجمعُ الناسَ في المسجد الجامع من أهل مَرّاكُش خاصّةً وعامّة وأُخبرُهم في ذلك. فإنْ صَرَفوا الخيارَ إليَّ فعَلْتُ ما أشرتِ إليه.

---

(١) نظم الجمان ٢٤١.

(٢) كانت في الأصل: تاشفين، وقد أصلحه العلّامة إحسان عباس يرحمه الله وقال: «وهو خطأ واضح، وقد صرّح ابن القطان بالحادثة على نحو أوضح فقال: ودخل متسوّرًا على أخيه عمر يريد زوجته، فجرح جراحة عجّلت منيّته». (نظم الجمان ٢٤٥).

ذكرُ ولاية العَهْد لتاشَفين ابن أميرِ المسلمينَ
عليِّ بن يوسُف بن تاشَفين

ولـمّا مات سَيْرُ بن عليّ وليُّ عهد أبيه، طلَبَ أشياخُ الـمُرابِطين من عليِّ بن يوسُف في أن يُولِّي وليَّ عهد، فقال لهم: اجتمِعوا واختاروا لأنفسِكم واتّفقوا على مَن ترضَوْنه، وقَصَد بذلك التوثيقَ في أمر تاشَفين، فلمّا اجتَمع الناسُ في المسجد الجامع الكبير بالسَّقّاية بمَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى خاصّةً وعامّة، وتشاوَروا في مَن يختارونَ ومَن عليه يجتمعون، فقالوا كلُّهم بصوت واحد: تاشَفين. تاشَفين، فلم تُعطِ السّياسةُ لأبيه مخالفتَهم فيه، فعَقَد له الولايَة بعهدِه، ونقَشَ اسمَه في الدّنانير والدّراهم معَ اسمِه، وقلَّده النظَرَ في الأمور السُّلطانية فاستقَلّ بذلك، وكتَبَ إلى العُدوة والأندَلس وبلاد المغرب في بيعتِه فبايَعوه، ووصَلت البَيْعات من كلِّ الجهات مؤرَّخةً برجَبٍ الفَرد عامَ ثلاثة وثلاثينَ وخمس مئة.

وفي سنة أربع وثلاثينَ وخمس مئة: خَرج تاشَفينُ بعسكرٍ كبير من لمَتُونةَ والحشَم وزَناتة لقتالِ الموحِّدين ومعَه جمعٌ من النّصارى معَ قائدهم الربرتير[1]، فبقي يُحاربُهم نحوَ شهرَيْن ثم رجَع إلى مَرّاكُش ورجَع الموحِّدونَ إلى تينمَل وانجلَت الحربُ على قَتْلى من الفريقَيْن، وقال ابن حماده: يومَ الأربعاء لثمانِ خلَوْنَ من شوّال التقَى تاشَفينُ معَ الموحِّدين وقُتل له خَلْقٌ كثير وحينئذٍ رجَع إلى مَرّاكُش.

وفي سنة خمس وثلاثينَ وخمس مئة: خَرج جيشُ اللَّمتُونيِّين من مَرّاكُش معَ الحشَم والرُّوم فالتقَى معَ الموحِّدين بجبَل جذميرةَ فهزَمَهم واتّبعهم حتى وصَل فَجَّ طرودنتَ، فالتقَى الجَمْعانِ وتحارب الفريقان، فكانت للموحِّدينَ على اللَّمتُونيِّين، ورجَعوا إلى مَرّاكُش خاسِرين وقائدُ الروم اللّعين مجروحٌ، ورجَع الموحِّدونَ مع عبد المؤمن إلى تينمَل. ثُم خَرج جيشُ اللَّمتُونيِّين معَ قائد الروم المذكور فالتقَى معَ الموحِّدين فحارَبَهم، ودخَل الموحِّدونَ إلى السُّوس فبنَوْا إسنجرو بالحَجَر والطِّين، ورجَع عنه جيشُ اللَّمتُونيِّين، وغَنِم الموحِّدون بعضَ بلاد السُّوس ورجَعوا إلى تينمَل.

---

(١) هو قائد الفرقة الرومية في جيش المرابطين.

وفي هذه السنة: انجَلى أهلُ المغرب انجلاءً عظيمًا إلى الأندلس، ذَكَر ذلك ابنُ حماده. وذَكروا أيضًا أنّ محاربةَ اللَّمتُونيِّين معَ الموحِّدين إنما كانت في سنة أربع وثلاثين.

وفيها: تحرَّكَ عبدُ المؤمن من بلاد الـمَصامِدة إلى الغرب، وطالت غَيْبتُه إلى سنة إحدى وأربعينَ على ما نَذكُر إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ وخمس مئة: قال ابن حماده: وصَل الموحِّدونَ إلى رِيف سَبْتة، ثم إلى تيطاونَ، ثم رجَعوا إلى غُمارة.

وفي هذه السنة: خَرج تاشَفينُ بعساكرِه لتتبُّع الموحِّدين.

قال البيذَقُ[1] وغيرُه: رحَل عبدُ المؤمن بن عليّ بن تينمَل برَسْم التوجُّه إلى بلاد الغرب سنةَ خمس وثلاثين، وقيل: في أواخر أربع، فما زال يرحَلُ من موضع إلى موضع والقومُ تَرِدُ عليه والقبائلُ من كلِّ جهة تَصلُ إليه إلى أن وصَل تاجررت بني وابوط، فصُرف الإمامُ... ابنُ زجو بجيش فغَنِم صفروي في منتصف محرَّم من سنة ستٍّ وثلاثين.

قال: وفي هذه السنة[2]: أكَلَ وادي فاس بابَ السِّلسلة وفُتِقت جزيرةُ مليلة، وأكَلَ البحرُ طَنْجةَ إلى الجامع الكبير، وأكَلَ وادي سَبو أخبِيَةَ لمتُونة، وكان عبدُ المؤمن إذ ذاك في غيّاته، وبلَغَ الشّعيرُ في ذلك الوقت ثلاثةَ دنانير للسَّطل، وكان تاشَفينُ بمحَلّته على فاس.

قال أبو مروانَ الورّاق[3]: وقد كان أميرُ المسلمينَ عليُّ بن يوسُف أمَّل في ابنه تاشَفين ما لم تكن الأقدارُ تُساعدُه. وجاءت الأيامُ بخلاف ما أمَّل فيه، فتشاءَمَ به وعزَم على خَلْعِه وصَرْفِ عهدِه إلى ولده الأصغر إسحاق، ووجَّه إلى عاملِه على إشبيلِيَة عُمرَ[4] أن يصِلَ إليه ليجعَلَه شيخَ ابنه ومدبِّرَ أمرِه، وأخَذ في العَزْم على ذلك إلى أن وافاه خبرٌ أمضَّه وأقلَقَه ولم يُمهلْه إلى أن يستتمَّ تدبيرُه، فأمَرَ عند ذلك تاشَفينَ أن ينزعجَ لذلك

---

(١) البيذق ٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ينظر هذا النص في الإحاطة ١/ ٤٤٧.

(٤) في المطبوع من الإحاطة: «أغماو»، والتحريف والتصحيف في هذه الطبعة قد تجاوز الحد من كثرته.

فانزَعَج على غير أُهبة للضّرورة وأتبعه والدُه بمدَدِه وما لم يمكن الخروجُ به من عَجَلتِه، وذلك في هذه السنة المؤرَّخة.

ولـمّا وصَل تاشَفينُ في حركته هذه إلى فاس ضَرَب محلّتَه بظاهرِها، وكان وصُولُه إليها في أول زمن المشتَى، فرَوَت الأرضُ بنزول الغَيْث وتَوالت الأمطارُ والغيوم وحَمَلت الوديان، واشتدَّ البردُ إلى أن هلَكَ كثيرٌ من عساكرِ تاشَفين بردًا وجُوعًا لانقطاع الطُّرق عنهم. وكان إقامةُ تاشَفين بظاهر فاسَ أيامًا، ثم رحَل عنها ونزَل بالنّواظر: من ناحية تازا، وانتهى حالُ عسكر تاشَفينَ حتّى أحرَقوا السُّرُجَ وصِحافَ العُود، ولم تتمسَّكْ أوتادُ الأخبِية لرَخاوة الأرض، وغَرِقت الدّوابُّ في مَرابِطها، إلى بطنِها، وكثُر الموتَى في الضّعفاء، فكانت شَرائطُ الأخبِية مربوطةً في جِيَفِ الموتى، وتَوالى عليها المطرُ نحو خمسةَ عشَرَ يومًا بلياليها، ثم رفَعَ اللهُ ذلك عنهم بعدَ يأس من الدّنيا، ولم يزَلْ تاشَفينُ يتنقلُ في أرض المغرب من موضع إلى موضع إلى آخِر هذه السنة.

وقال البَيْذَق: دخَل عبدُ المؤمن مدينةَ المزمّة فأخَذه بها المطرُ ثمانيةَ أيام فسمّاها ناغروت ان والوط[١]، فقلَعْنا منها إلى جبل تمسامان[٢]. فخَرج ابنُ زَجّو بالعسكر فغَنِم مليلةَ وأخَذ فيها مئةَ بِكر فقَسَمها عبدُ المؤمن على الموحِّدين نفَعَهم اللهُ بذلك، وكانت فيهم بنتُ ماكْسِن بن المعزِّ صاحبِ مليلة وفاطمةُ بنتُ يوسُف، فأخَذ عبدُ المؤمن بنتَ ماكْسِن وأخَذ أبو إبراهيمَ فاطمةَ، فعَمِلوا آسماس[٣] ورحَلوا إلى ندرومةَ بلاد كوميّة، ورحَل إلى موضع تاجرا وميَّز بها عسكرَه وهو قد تقوّى أمرُه وعَظُم شأنُه وذكرُه، فبعَثَ ابنُ زَجّو إلى جهة الساحل فأتَى بغنائمِ وهران، وتَرادَفَت الفتوحاتُ من كلِّ مكان، ووصَل إلى عبد المؤمن زِيري ابن ماخُوخ الزَّناتيُّ مطيعًا، فبعَثَه إلى غيّاته فقَبَضوا عليه بَنو مكّود وقَتلوه وحَزُّوا رأسَه وحملوه إلى فاس وعُلِّق على باب السِّلسلة.

---

(١) كذلك عند البيذق ٩٧.

(٢) في البيذق: «تمس آمان»، وينظر المسالك والممالك للبكري ٢/ ٧٦٣، ٧٦٥، وهو اختلاف في الرسم حسب، واللفظ واحد.

(٣) نوع من الطعام، إذ عبارة البيذق: «فأكلنا آسماس».

وفي سنة سبع وثلاثين وخمس مئة: توفِّي أميرُ المسلمين عليُّ بن يوسُف بن تاشَفين رحمه الله باتّفاق، قيل: توفِّي لسبع خَلَوْن من رجَب ولا شُهِر موتُه إلّا لخمس خلَوْن من شوّال، فكانت مُدّتُه من حينَ قدَّمه أبوه سبعًا وثلاثينَ سنة وسبعةَ أشهر، وقيل: وتسعةَ أشهر بتقريب على خلاف في ذلك. وأمّا حقيقةُ مُدّته بعدَ وفاة أبيه فستٌّ وثلاثونَ سنة والأشهرُ المذكورة. وكان مولدُه يومَ الخميس لأربع خلَوْنَ من شهر ربيع الأوّل سنةَ ستٍّ وسبعينَ وأربع مئة: فكان عمُرُه إحدى وستينَ سنةً تقريبًا.

أُمُّه: رُوميّة، وهي فاضَ الحُسن، وقيل: قمر.

صفتُه: معتدلُ القامة أسِيلُ الوجه.

وقال أبو مروانَ الوَرّاق: كان مهلِكُ عليِّ بن يوسُف بمَرّاكشَ سنةَ سبع وثلاثينَ بعدَما بلَغَتْه أخبارٌ أمرضَتْه وأورثَتْه همًّا وغَمًّا أثَّر في جسمه فالتزَم فراشَه، ولـمّا يئسَ من نفسِه، أمَرَ عندَ ذلك بإخراج ابنِه أبي بكر من مَرّاكُش وحَمْلِه إلى الجزيرة الخضراء ليُسجَنَ بها؛ لأنه خاف من خوضِه في أمور، فأصاب أبا بكر في سَفَرِه مرَضٌ، فكان الرّجالُ يحمِلونَه على أعناقِهم، ووصَل المذكورُ إلى الجزيرة فسُجن بهاولم تَطُلْ مُدّتُه في محبِسِه هذا إلى أن هلَك[1].

ولـمّا اشتدَّ ألـمُ عليِّ بن يوسُف وزادَت عِلّتُه عُهِد أن يُدفَن معَ قُبور عامّة المسلمين فدُفن بها في جُملتهم، وجُدِّدت البيعاتُ لوليِّ عهدِه تاشَفين، وهو في أمرِه المتقدِّم ذكرُه ومتابعتِه لعبد المؤمن.

حكايةٌ طريفة[2]

واستَوْزَر عليُّ بن يوسُف في آخِر أيامِه إسحاقَ بن يَنْتان بن عُمر بن يَنْتان وما بلَغَ عمُرُه ثمانيةَ عشَرَ عامًا، وكان يتوقَّدُ ذكاءً وعقلًا وفَهْمًا، فأُعجبَ به إعجابًا كثيرًا وجعَلَ إليه النّظرَ في المظالم والشّكايا، فاتَّبع الناسَ في أمورِهم وكافة شؤونِهم، وكان معَ ذلك في

---

(١) كان أبو بكر هذا هو أكبر أبناء علي بن يوسف، وقد حقد بسبب تحويل ولاية العهد إلى غيره من إخوته فاضطرب أمره.

(٢) تنظر الحلل الموشية ٦٨-٦٩.

طبعِه ومولدِه مثلَ كاهن: يأتي بغرائبَ من الأخبار، ومما يُؤْثَرُ عن هذا الفتى أنّ تاشَفين بنَ عليّ بن يوسُف قال له: يا إسحاق، إنّ الناسَ تكلّموا في أمرِك وخاضُوا في حديثِك وفي الذي يؤْثَرُ من الـمُغيَّبات، فمنهم مَن صدَّقك، ومنهم من كذَّبك، فقال الفتى: اختبِرْني واسألْني عمّا شئتَ مما صنعتُه. قال تاشَفين: قد غِبتَ من أمسِك، أخبِرْني بما فعلتُهُ أمسِ بعدَما قمتُ من مجلسي هذا وفارقتُك ودخَلتُ داري؟ قال له: دَخلْت دارَك وجلستَ في مجلسِك فقدِّم لك طبقٌ فيه خَوْخ فتناولتَ واحدةً وأكلتَها حتى انتهَيْتَ على آخِرها، ثم تناولتَ أخرى فعضَضْتَ فيها عضّةً وصرفتَها إلى الطّبق، ثم قمتَ، أفتحبُّ أن أُخبِرَك بما فعلتَ؟ قال له تاشَفين: اقطع الكلامَ ها هنا.

وجَرى ذكرُه يومًا في مجلس عليٍّ بن يوسُف فقال لهم: قد عزمتُ على أن أختبِرَه، ولم يكن حاضرًا في ذلك الخبر، ثم قام عليُّ بن يوسُف ودخَل... فأخبَرَه القومُ اليومَ تُفتَضَحُ فيما تدَّعيه من علمِك معَ أميرِ المسلمين. فقال لأهل...: أخبرُكم؟ فقالوا: أخبرْنا، فقال لهم: قام بنفسِه يريدُ أن يَكتُبَ بطائقَ فيها اسمي واسمُ أُمِّي فكتبَها ووضَعَها في ثَنْي الوِسادة إلى أن يحينَ خروجُه، فإذا حان ويريدُ أن يَخرُج خَرج... فيجعلُها... ويسألُني عما خَبَّأ لي فينساها عندَ خروجِه ويَخرُج إليكم دونَها، فإذا رآني تذكَّر فيدعو بأحدِ عَبيده ويُسارُّهُ في أُذُنِه أن يُخرجَها إليه ويُناولَه إياها مِن كمِّه لئلا يُطَّلَعَ على ذلك، فما لبِثَ أنْ خَرج عليُّ بن يوسُف من د ارِه ودخَل مجلسَه، فلمّا وقعَتْ عينُه عليه دَعَا بالغلام فسارَّه في الأُذُن ودخَل الغلامُ الدارَ ثم خَرج مُسرِعًا بالبِطاقة فناوَلَه إياها من كمِّه إلى كمِّه، فابتَدر القومُ وقالوا لعليِّ بن يوسُف: يا أميرَ المسلمين! قد أعلَمَنا بجميع ما أردتَ، وقَصُّوا عليه الحديثَ كما كان حدَّثهم، وقالوا له: قد علِمْنا صدقَه في كلِّ ما يدَّعيه ويؤْثَرُ عنه، فعجِبَ عليُّ بن يوسُف من ذلك.

وكان عليُّ بن يوسُف في آخِر أمرِه امتَنع الإعطاءَ لأجنادِه حتّى رجَع أكثرُهم يُكْرُونَ دوابَّهم، وهو أولُ من استعمَل الرومَ وأركَبهم في المغرب وجعَلَهم يحقِدونَ على المسلمين في مُغامرتِهم، ويأخُذونَ منهم في نفقاتِهم، وأكثرَ ما يجبُ عليهم، واضْطَربت عليه الأمور مِن لدُن ظهورِ المهدي فلم يستقمْ له حالٌ حتى مات، رحمه الله، في هذه السنة.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين: وصَلت قَراقرُ الـمَجُوس في مئة وخمسينَ مركَبًا بينَ كبارٍ وصِغار إلى سَبْتَةَ، فخَرجت إليه أجفانُها، فتقاتلوا فقُتل من الفريقَيْنِ خَلْقٌ كثير.

وفيها: دخَل الموحِّدونَ وَجْدة.

وفيها: ظَهر ليلةً نجمٌ عظيم في أقصى المغرب في ليلة سادسَ عشَرَ لرمضان.

وانتَقل تاشَفينُ بمحَلّتِه إلى تِلِمْسان ونزَل عبدُ المؤمن بمحَلّتِه بينَ الصَّخرتَيْن بمقرُبة منه، وكانت بينَهم حروبٌ كثيرة يطولُ ذكرُها.

وبعَثَ عبدُ المؤمن يوسُف بن وانُودين بعسكرٍ إلى مديونةَ، فتلاقَى معَ جيش لمتُونة، خَرج عليه من تِلِمْسان أبو بكر بنُ الجوهر ومحمدُ بن يحيى بن فانو فتلاقَى العسكرانِ بوادي الزّيتون، وتقابَلَ الجَمْعان، فقُتل من الفريقَيْن خَلْقٌ كثير، وفي أثناءِ ذلك وصَلت محلّةٌ من بِجَاية لنَصْر تاشَفين، وذلك في سنة تسع وثلاثينَ، برَسْم قتال الموحِّدين وقائدُها ميمونُ بن الـمُنتصر، فهزَمهم الموحِّدونَ من الصَّخرتَيْن إلى باب تِلِمْسان وبعَثَ القائدُ المذكور إلى عبد المؤمن يُعلِمُه بتوحيدِه سرًّا ويُعلِمُه بفتح إفريقيّةَ إذا فتَح المغرب، فكان ذلك كذلك على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى[1].

وفي سنة تسع وثلاثين: خَرج قائدُ الرّوم الربرتيرُ بعسكرِه ومعَه عسكرُ لمتُونةَ والحشَم، فهزَمَهم الموحِّدون، وقُتل القائدُ المذكور وتبدَّد عسكرُه[2]. وكان تاشَفينُ في سطسيف بمحَلّته، فزادت الحربُ بينَه وبينَ الموحِّدين مدةً من شهرَيْن إلى أنْ وصَل ابنُ المنتصِر مِن بِجَاية كما ذكَرْنا، وهزَمَه الموحِّدونَ ووَحَّد سِرًّا ووَعَد بفَتْح بجاية.

وفي هذه السنة: قُتل ابنُ زجو، ورحَل تاشَفينُ من سطسيف، ونزَلَ على وَهْران، فهرَبَ ينجمارُ[3] اللَّمتُونيُّ بجَمْع إلى الصّحراء، وهَرَب ابنُ زَنْجي[4] إلى الغرب وبقي تاشَفينُ بعسكرٍ مشتَّت، والقائدُ ابنُ ميمون في الأسطول في البحر برَسْم أن يطَّلعَ تاشَفينُ

---

(١) البيذق ٩٤، ٩٧.

(٢) البيذق ٩٦.

(٣) في البيذق: «أنكمار»، والجيم والكاف في اللفظين كاف أعجمية، والهمزة فيها مسهّلة إلى ياء، فكلا اللفظين عندئذ صحيح.

(٤) في البيذق: «ونكي»، والجيم والكاف كاف أعجمية.

فيها إن رأى ما لا طاقةَ له من قتال الموحِّدين فلم يُقدِّر الله. وخرج عسكرٌ من الموحِّدين وأتباعِهم لقتال تاشَفين، قوَّد عليه عبدُ المؤمن أبا حفص، فهزَم عسكرَ تاشَفين وتَبِعه وأحاط به وحصَرَه، فخَرج تاشَفينُ فارًّا بنفسِه يريدُ الدُّخولَ في القطائع، فبينَما هو سائرٌ على فرسِه في اللّيل إذ صادفَ حافَةً خاف منها ومات[١]، رحمه الله، فلمّا أصبحَ وجَدَه الموحِّدونَ ميّتًا في تلك الحافَة، فقطَعوا رأسَه وبعَثوا به إلى عبد المؤمن فصيَّره ووَجَّهه إلى تينمَل. وقُتل من أصحابِ تاشَفين خَلْقٌ كثير، وفَرّ منهم جَمْعٌ كبير، ولم يبقَ منهم بعدَ ذلك إلّا سيدُ الملوك السّدراتي... تقدَّم له فعفَا عنه.

وذكَر ابنُ حماده في مقتَل تاشَفين أيضًا قال: إنه لـمّا كان ليلةُ سبع وعشرينَ من رمضان من سنة تسع وثلاثينَ المذكورة وصَل تاشَفينُ بن عليٍّ من تِلِمْسانَ إلى قُرب وَهْران، فاتّبعه عسكرُ الموحِّدين وحصَروه وضيَّقوا عليه وأطلَقوا النِّيرانَ في محلّتِه، فلمّا رأى ما لا طاقةَ له به وعَلِم أنه مأخوذ، خَرج هو وبعضُ أصحابِه على فرسِه ففَرّ كلُّ واحدٍ منهم على طريقِه، فمنهم مَن قُتل ومنهم مَن حصَل في القطائع، وخاف تاشَفينُ من حافَةٍ عظيمة وهلَك، ووُجِد ميّتًا، وذلك ليلةَ سبع وعشرينَ المذكورة.

ثم وَلِـي إسحاقُ بن عليٍّ بن يوسُف، وذلك أنه لـمّا مات تاشَفينُ على ما ذَكَر بعضُ المؤرِّخين بُويع لابنِه إبراهيمَ بن تاشَفين، فطَلَع عليه إسحاق إلى مَرّاكُش فنقَضَ بيعتَه ودَعا لنفسِه ووقَع الخلافُ والتدابرُ بينَهم إلى انقطاع دولتِهم ودخول الموحِّدينَ عليهم على ما أذكُرُه إن شاء اللهُ ملخَّصًا في موضعِه[٢].

وفي هذه السنة: ظهَرت في الأندَلس دعوةُ الموحِّدين، فأولُ مَن قام بدعوتهم فيها أهلُ مارتُلة[٣] في السابعَ عشَرَ من ربيع الأول، ثم خالَفت بعدَ ذلك طَلْياطةُ[٤] على الـمُرابِطين ودخَلت في دعوة الموحِّدين.

---

(١) في البيذق: «فبينما هو سائر على فرسه إذا بحافة فتركته فرسه في تلك الحافة»، وتنظر الحلل الموشية ١١٠.

(٢) الحلل الموشية ١١٠-١١٥.

(٣) Mertola، وهي على نهر وادي آنا من كورة باجة في البرتغال الحالية، وينظر الروض المعطار ٥٢١.

(٤) Tejada، تبعد عن إشبيلِيَة إلى الشمال الغربي منها مسافة ٣٠كم، وينظر معجم البلدان ٤/ ٣٩.

تلخيصُ التعريف بتواريخِ مَن وَلِـيَ إشبيلِيَة من مشاهيرِ اللَّمتُونيِّين الـمُرابِطين مِن حينِ استيلائهم عليها إلى انقراض دولتِهم[1]

فأولُ مَن وَلِيَها بعدَ خَلْع المعتمِد بن عَبّاد عنها بتقديم أمير المسلمينَ يوسُفَ بن تاشَفين: الأميرُ سَيْرٌ رحمه الله، فوَلِيها سَيْرٌ المذكورُ في رجَب الفَرْد من سنة أربع وثمانينَ وأربع مئة، وتوفِّي على مقرُبة من إشبيلِيَة وهو زافًّا بنتَه فاطمةَ ومُشيِّعًا لزوجِه حوّاءَ بنت تاشَفين، وقد تقدَّم خبرُها في السنة المذكورة، فكانت وفاتُه فُجاءة في ذي القَعْدة من سنة سبع وخمس مئة، فكانت مدةُ ولايتِه بها ثلاثًا وعشرينَ سنة.

ثم وِلِيَها يحيى بنُ سَيْر بن أبي بكر في ذي الحجة من عام سبعة وخمس مئة، وعُزِل عنها في ذي الحجة أيضًا عامَ ثمانية وخمس مئة، فكانت ولايتُه سنةً واحدة.

ثم وَلِيَها عبدُ الله ابن فاطمةَ الشّهيرُ بالنيولان في محرَّم سنة تسع وخمس مئة، وتوفِّي بها في رمضانَ المعظَّم من عام أحد عشَرَ وخمس مئة، فكانت ولايتُه [عامين وتسعةَ أشهر][2].

ثم وَلِيَها إبراهيمُ بن يوسُف بن تاشَفين بعدَ ولايتِه سَبْتة ووَلِيَها في شوّال عام أحدَ عشَرَ وخمس مئة، وعُزل عنها في جمادى الأولى عام ستةَ عشَرَ وخمس مئة، فكانت ولايتُه لها أربعةَ أعوام وتسعةَ أشهر.

ثم وَلِيَها تميمُ بن يوسُف بن تاشَفين، فوَلِيَها الأميرُ تميمٌ بعدَ ولايتِه غَرْناطةَ في جُمادى الثانية عامَ ستةَ عشَرَ وخمس مئة، وعُزِل عنها في ذي الحجة عام سبعةَ عشَرَ وخمس مئة، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل سنةً واحدةً وأربعةَ أشهر.

ثم وَلِيَها أبو بكر بن عليِّ بن يوسُف، فكانت ولايتُه إلى أن عُزِل أربعةَ أعوام وخمسةَ أشهر أولُها محرَّمٌ عامَ ثمانيةَ عشَرَ وخمس مئة وآخرُها رجَبٌ عامَ اثنينِ وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها عمرُ بن سَيْر، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل خمسةَ أشهر أوّلُها شعبانُ وآخِرُها ذو الحجة عامَ اثنينِ وعشرينَ وخمس مئة.

---

(1) ينظر كتاب «مفاخر البربر» ص٨١، حيث أورد أسماء الولاة، وبين ما أورده وما هنا اختلاف واضح.

(2) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين مستفاد من بدء ولايته إلى حين وفاته.

ثم وَلِيَها يحيى بنُ مُقور، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزل عامًا واحدًا وشهرَيْنِ اثنين أولُها محرَّم عامَ ثلاثة وعشرين وخمس مئة وآخرُها صَفَرٌ عامَ أربعة وعشرين وخمس مئة.

ثم وَلِيَها عمرُ بن مُقور، فكانت ولايتُه إلى أن قُتل عامَيْنِ وثلاثةَ أشهر أولُها ربيعٌ الأول عامَ أربعةٍ وعشرينَ وخمس مئة وآخرُها رجَبٌ عامَ ستة وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها عبدُ الله بن أبي بكر بن تاشَفين، فكانت ولايتُه إلى أن قُبِض عليه وحُبِس في القَصْر شهرَيْنِ اثنينِ أولُها شعبانُ المكرَّم وآخرُها شوّالٌ المعظَّم، وكلاهما في عام ستة وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها الأميرُ تاشَفينُ بن عليّ بن يوسُف، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل سنةً واحدة أوّلُها شوّالٌ عامَ ستةٍ وعشرينَ وخمس مئة وآخِرُها رمضانُ عامَ سبعة وعشرين وخمس مئة.

ثم وَلِيَها يَنْتانُ بن عليّ الذي كان واليَ بَلَنْسِية، فكانت ولايتُه إلى أنْ عُزِل سنةً واحدةً وستةَ أشهر أولُها شوّالٌ عامَ سبعة وعشرينَ وخمس مئة وآخرُها صَفَرٌ عامَ تسعة وعشرينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها أبو زكريّا يحيى بنُ إسحاق، فكانت ولايتُه إلى أن عُزل تسعةَ أعوام وعشَرةَ أشهر أولُها ربيعٌ الأول عامَ تسعةٍ وعشرينَ وخمس مئة وآخرُها ذو حجة عامَ ثمانية وثلاثينَ وخمس مئة.

ثم وَلِيَها أبو بكر بن مَرْدَلي في شهر محرَّم عام تسعةٍ وثلاثينَ وخمس مئة، فظَهَرت في الأندَلس دعوةُ الموحِّدينَ بالعام المذكور، وقام أهلُ مارتُلة بدعوة الـمَهْديِّ في السابعَ عشَرَ لربيع الأول عامَ تسعة وثلاثينَ وخمس مئة، وخالَفَت بعدَ ذلك طلياطةُ على الـمُرابِطين، وكذلك جميعُ الغَرْب، إلى أن صارت أكثرُ بلاد الأندَلس في طاعة الموحِّدين.

وفي سنة أربعينَ وخمس مئة: تغلَّب الموحِّدون على اللَّمتُونيِّين الـمُرابِطين وأخرَجوهم من بعض البلاد الـمَغْربيّة على ما أذكُر في دولتِهم إن شاء اللهُ تعالى.

ثم في سنة إحدى وأربعينَ: وصَل أبو محمد عبدُ المؤمن... ودخَل أغماتَ دونَ قتال.

وفي سنة إحدى وأربعينَ وخمس مئة: دخَل الموحِّدونَ مَرّاكُش وقُتل إسحاقُ بن عليّ بن يوسُف ومَن كان معَه[1].

---

(١) إلى هنا تنتهي القطعة التي نشرها ميرندا ثم إحسان عباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى اللهُ على سيّدِنا ومولانا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم تسليمًا

اختصارُ الخبر بحركة تاشْفِين إلى الجبل برَسْم قتال الموحِّدين

فخَرجَ تاشْفينُ[1] من مَرّاكُش في جُمادى الأُولى من عام ثلاثة وثلاثين وخمس مئة في جمع كثير من الفرسان والرّجال فيهم جُملةٌ وافرة من قبائل جُزُولةَ وهو يعتقد أنه يهزِمُ كلَّ من ناهضه ويغلِبُ كلَّ من عارضه، فوصَل بجَمْعه المجموع، وعسكره المسموع، إلى مقرُبة من جمع الموحِّدين، فخَرج إليه عبد المؤمن، واجتمعا بين مضائقَ وجبال لا يكاد الفارسُ يتصرَّف فيها بقتال، فكثُرت الحربُ بينَهم في تلك المضائق، وبين تلك الجبال الشواهق، ثم أمَرَ تاشْفينُ بالرّحيل فانصَرفوا مُبادرينَ، ورغِب إليه جُزولةُ في الرجوع إلى بلادهم فأذِنَ لهم في ذلك وقال لهم تاشْفين: لا تسلُكوا تلك المسالك. وكان عبدُ المؤمن قد علم أنّ جُزُولةَ لا بدّ لهم من تلك الأوعار والمضائق الكبار، فأرصَد لهم عسكرًا من الموحِّدين في تلك المضائق كامنين، ثم إنّ جُزُولةَ لم يسمعوا وصيةَ تاشْفين فسلكوا بينَ تلك الأوعار والجبال[2]، فخَرج عليهم عسكرُ الموحِّدينَ بأعداد من الفرسان والرّجال فهزَموهم وقتلوهم واستاقوا خيلَهم ونساءهم إلى تِينْمَل[3]، ولم يلقَ حربًا معَ تاشْفين، وبعد ذلك رغب أشياخُ جُزولةَ في التوبة والدخول في طاعة الموحِّدين، فكتَب لهم بذلك ظهيرًا حسنًا.

---

(١) هو تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، انظر ترجمته في الإحاطة ١/ ٤٦٦، والاستقصا ٢/ ٦٨.

(٢) في م: «والأجبال»، وما أثبتناه من النسخ الخطية.

(٣) قيّدها ياقوت بفتح الميم واللام وتشديدها ولام أخرى «تِينْملّل»، معجم البلدان ٢/ ٦٩.

اختصارُ الخبر بحركة عبد المؤمن[1] الطويلةِ الأعوام، ومقتل تاشْفين أمير أهل اللِّثام من سنة أربع وثلاثينَ إلى سنة أربعين

ولـمّا رجَع عبدُ المؤمن من محاربة تاشْفين عزَم أن يخرُجَ بجَمْعه إلى جهة فاسَ وتِلِمْسان لِـما قدَّر اللهُ له من فتح البُلدان، فحشَد أهلَ طاعته وجلَبَهم من كلِّ مكان فانجَلبُوا من كلِّ قَبِيل موحِّد، واستركَبوا كلَّ[2] صعبٍ وذلولٍ منجرّ[3]، وقَدِم على تِينْمَلَ نائبًا عنه صهرُه موسى بنُ سليمان، وتحرَّك على طُرُقات الجبل بخيل كثيرة العدد ورجال.

ولـمّا وصَل خبرُه إلى تاشْفين بمَرّاكُش جنَّد جنودَه وحشَد حشودَه وخرَج في طلبه، فكان آخرَ عهدِه بأبيه على ما يأتي ذكره.

فمشى عبدُ المؤمن في تلك الجبال، وعدّةُ عسكرِه آلافُ الرجال، يغزو بهم يمينًا وشمالًا، ويُقبلُ عليه أهلُها بالطاعة إقبالًا، فكان الموحِّدونَ يمشُون في الجبال المانعة حيثُ الأرزاقُ الواسعة، وكان تاشْفينُ ينزلُ البسائط بعساكره، فما يجدُ من البرابر مَن يُداخلُه ولا من يَستعينُ به فيواصلُه، وذلك بسبب إدباره، إلى أن استقرَّ عبدُ المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاسَ المعروفة بكراندة، ونزَلَ تاشْفينُ بحصن الموضع المذكور فأقام فيه شهورًا دونَ حَطَب ولا فَحْم، حتى ألجَأتْهم الضّرورةُ لحرق أوتاد أخبِيتِهم وخشَب أبنيتِهم، والمطرُ معَ ذلك مستصحَبٌ دائم.

ولقد أخبر ابنُ صاحب الصلاة بسَنَد ذكَرَه عمّن أخبره، أن امرأةً بعثَت لتاشْفينَ بطبق كبير عليه سبنية، فظنّ أنه بفاكهة[4] وإذا فيه فحم، فسُرَّ به، وانتقَل عبدُ المؤمن إلى جبل غُمارةَ فتبِعه تاشْفين، ثم انتقَل من جبل غُمارةَ إلى جهة تِلِمْسان

---

(١) المعجب ٢٦٢ فما بعد، ونهاية الأرب ٢٤/ ٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٥، والاستقصا ٢/ ٩٩.

(٢) سقطت من م.

(٣) في م: «منجرد» ولا معنى لها، وقوله: منجرّ، أي: جرّار.

(٤) في م: «فاكهة».

فانتقَل تاشْفينُ بمحَلّتِه إليها، ونزَل عبدُ المؤمن بين الصَّخرتَيْن على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى[١].

وفي أثناء هذه الحركة الطويلةِ الأعوام[٢] اتّصلت الحروبُ ببلاد أهل اللِّثام وغَلَت الأسعارُ بمَرّاكُش حتى وصَل فيها الرُّبُع من الدَّقيق بمثقال حشميّ ذهبي، وتَوالى هذا[٣] الجَدْبُ حتى جَفّت في الأرض مذانبُها واغبرَّتْ جوانبُها، وقَلَّت الـمَجابي بهذه الفتن وكثُرت اللّوازمُ على الرعايا بالعُدْوتَيْن. وألَحَّ العدوُّ النَّصْرانيُّ بالضَّرَبات على جميع جهات الأندَلس حين علموا عَجْزَ الإمارة بالمغرب واشتغالَها بحرب الثائرينَ المهيِّجينَ للفتن أخَذ اللهُ الحقَّ منهم. واستولى الرُّومُ في هذا الوقت على كثير من البلاد والحُصون وكثيرُ الجدب بالثَّغر[٤].

ثم تُوفِّي عليُّ بن يوسُف في سنة سبع وثلاثين[٥]، وقد تقدَّم ذكرُه.

وفي خلال ذلك حدَثَت الشَّحناءُ والمقاطعةُ بين قَبيل لَـمْتُونَةَ ومسوفة، فخاف على نفسِه يحيى بنُ تاكغت وبَرّان[٦] بنُ محمد، فوصَلا إلى عبد المؤمن، ثم تَبِعَهما يحيى بنُ إسحاق، وهو ابنُ عمِّهما المعروفُ بأنجمار، الذي كان صاحبَ تِلِمْسان، بجميع إخوانِه ورجالِه، فزاد الخَلَل في أمر تاشْفين وفَسَدت نيّاتُ اللَّمتُونيِّين لقَبيل مسوفة[٧]، وترقَّبوا لهم الوقائعَ الـمَخُوفة[٨]، وتَباغضوا بُغضًا وقَتلَ بعضُهم بعضًا، وضَرب يحيى بنُ تاكغتَ المسوفيُّ على موضع مِن نَظَر تِلِمسان فخَرج إليه منها محمدُ بن زجو اللَّمْتُوني فقَتل يحيى

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٢.
(٢) في ك: «وفي أثناء هذه المدة الحركة»، وفي م: «وفي أثناء مدة هذه الحركة...»، وما أثبتناه من ر٣.
(٣) في م: «وتوالاها الجدب».
(٤) في ر٣: «وكثير الجهر الثغر» ولا معنى لها، وفي م: «وكثير من الثّغر» ولا معنى لها أيضًا وهو تصرّف من الناشرين عجيب، وما أثبتناه من ك، وهو الصواب، فقوله: «وكثير»: مبتدأ، والعطف هنا ممتنع.
(٥) انظر خبر وفاة علي بن يوسف في المعجب ٢٧١، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥١.
(٦) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢، ٣١٤، ووقع فيه: «براز» وبه أخذ ناشرو (م).
(٧) في ك: «لمتونة».
(٨) في ر٣: «المخافة».

وابنَه واحتزَّ رأسَيْهما ووَجَّه بهما إلى تاشْفين، فأمَرَ بحملِهما إلى سِجِلْماسةَ حيث كانت أختُ يحيى المذكور، فقالت: إن كان لنا رجالٌ فسيأخُذونَ بثأرِنا إن شاء اللهُ تعالى، فبَلَغ الكلامُ عبدَ المؤمن فانتصَر لها ووافَقَها على رأس تاشْفين، فكان ذلك كذلك.

قال الكاتبُ أبو عليٍّ ابنُ الأشِيريِّ التِّلِمسانيُّ[1]: لـمّا كان الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن نازلًا على تِلِمْسانَ بالجبل المعروف بالصَّخرتَيْن في شهر المحرَّم مفتتَح عام تسعة وثلاثين، كان أولَ افتتاحِه على أيدي الموحِّدين فتحًا عظيمًا بشرقيِّ تِلِمسان، هزَمَ فيه الموحِّدون عساكرَ من عساكرِ تاشْفين كان خرَجت لبلاد زَناتة، فكانت الوقيعةُ فيهم من أكبر الوقائع استَأصَلت أكثرَهم، فضَرب عبدُ المؤمن الطُّبولَ في مجلسِه بأعلى الجبل، وكان الواليَ على تِلِمْسان أبو بكر ابنُ مَزْدَلي[2] اللَّمْتُونيُّ.

قال أبو عليٍّ الأشِيري: ووصَلت إلى تاشْفينَ محَلّةُ صُنْهاجة من بِجَاية، وكان المقدَّمَ عليها طاهرُ بن كباب الصُّنهاجيّ، وكانوا عندما قَدِموا عليها برَزَ لهم بجموعِه وملأَ فَحْصَ تِلِمْسانَ خيلًا ورجالًا إلا أنّ الإدبارَ كان لهم مُحاديًا، وبانقضاءِ دولتهم مُناديًا، فنزَلَ الصُّنهاجيّونَ بمحَلّتِهم فأكرَمهم تاشْفينُ وأحسَن إليهم ولقائدِهم، والموحِّدون عند ذلك ينظُرون ما يصنَعون من بروزٍ واحتفال وكثرةِ خيل[3] ورجال، فما هالَهم أمرُهم ولا هابَهم كثرتُهم.

ولـمّا استقرَّ الصُّنهاجيّونَ ورأَوا سكونَ تاشْفينَ على قتال الموحِّدين، خَرجوا في بعض الأيام وطلَعوا من جهة العباد مُقْدِمينَ غيرَ مهيبين، فهبط عليهم الموحِّدونَ فهزَموهم وقَتلوهم.

قال البيذَقُ في كتابِه: لـمّا وصَلت محَلّةُ بِجَاية هزَمهم الموحِّدونَ من الصَّخرتَيْن إلى باب المدينة، وبعَث قائدُهم لعبد المؤمن يُعلمُه بتوحيدِه سرًّا ويعِدُه بفتح بِجَايةَ وغيرِها، فكان كذلك[4].

---

(١) هو أبو علي حسن بن عبد الله الأشيري صاحب كتاب «نظم اللآلي في فتوح الأمر العالي» انظر الحلة السيراء ٢/ ٩٢.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٢، ٣٠٨.

(٣) في ك: «خيلهم»، ولا يصحّ.

(٤) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٧-٣٠٨.

وقال ابنُ بُجَيْر: لـمّا صَحّ موتُ عليٍّ بن يوسُف عند أشياخ لَـمْتُونَة ومُسوفةَ الذين كانوا معَ تاشْفين مثل: بَرَّان وأنجمار قبل ذلك والي تِلِمسان ووصَلَ إلى[1] الموحِّدينَ بَرَّان اللَّمْتُونيُّ ويحيى بن تاكغت، ثم وصَل أنجمارُ بعدَ ذلك عند حصار فاس، وكان الموحِّدونَ في سنة سبع وثلاثينَ حين مات عليُّ بن يوسُف اقتسموا على ثلاث فِرق: فرقةٌ منهم بجبل غياثة، وفرقةٌ بجبل الريف بطويةَ ومليلة وغُمارة، وفرقةٌ معَ يوسُف بن وانودين وابن زجو وابن يومور، وتوجَّهوا إلى جبل مديونةَ وجهه تِلِمْسان، فخَرج إليهم الوالي على تِلِمسانَ حينَئذٍ محمدُ بن يحيى بن فانو بعسكر من زَناتة وغيرِهم، فالتقى معَهم، وقُتل محمدُ بن يحيى المذكورُ في (وادٍ)[2] هنالك وانهزَم عسكرُه وافترقت زَناتةُ إلى بلادِها، ووَلّى تاشْفينُ أبا بكر ابنَ مزدلي، وطاع بنو ومانو[3] من زَناتة لعبد المؤمن ووصل[4] إليه أشياخُهم[5] بالريف منهم بنو ماخوخ ويوسُف بن يَدّر وغيرُهم، فأرسَلَهم معَ بعض الموحِّدينَ إلى ابن يومور وابن زجو فتوجَّهوا بعسكرٍ إلى بلادِهم فطاع جميعُ إخوانِهم.

ولـمّا اتّصل بتاشْفينَ خلافُ بني ومانو وَجَّه عسكرًا إليهم ومعهم قائدُ الروم المسمَّى بالربرتير، واتّصل ذلك بالموحِّدين فأَدْلَجوا إلى غياثِهم فأدلَجَ سيرَه القائدُ المذكور بالعسكر إلى موضع بني ومانو، فوجَدهم قد تحصَّنوا بجبلٍ عندَهم، ونزَلَ عسكرُ اللَّمْتُونيِّين بموضعِهم فهدَموه وحرقوه وطلَعوا إليهم بالجبل في يوم ريحٍ عاصف، فهبَطَ عليهم بنو ومانو فهزَموهم، وكان معَهم بعضُ قبائل زَناتة، وبعدَ تلك الهزيمة أغار ابنُ وانودين وابن زجو وابن يومورَ ومَن كان معَهم من الموحِّدينَ وبني ومانو على بلاد بني عبد الواد وبني يلومي فقَتلوا وغَنِموا ووَجَّهوا بالغنائم إلى الأمير عبد المؤمن، فخَرج عليهم الزَّناتيّونَ وأخَذوا الغنائمَ المتوجِّهةَ إلى الأمير عبد المؤمن

---

(١) سقطت من م.

(٢) بياض في الأصول، وما بين الحاصرتين منّا.

(٣) رسمها في النسخ: «لقرو ماتو»، وستأتي على الوجه بعد قليل.

(٤) في ر٣، م: «ووصلوا».

(٥) سقطت من م.

وقَتلوا كلَّ من كان معَهما[1]، وكانوا نحوَ ست مئة رجل من بني ومانو وغيرِهم وفيهم أبو بكرٍ بنُ ماخوخ من بني ومانو، وتحصّن ابنُ وانودينَ معَ من كان معَه من الموحِّدينَ بجبل هنالك، ورحَلَ عسكرُ اللَّمْتُونيِّينَ إلى موضع منداس: بلد بني يلومي من زَناتة، فاجتمعت عليهم قبائلُ بني يلومي برحائلهم معَ حمامةَ بن مطهّر وبني ينجاسن وبني ورسيفن وبني توجين، وجميعُهم دونَ رحائلَ معَهم.

ولـمّا قُتل مَن قُتل من بني ومانو وصَل الأميرُ عبدُ المؤمن إلى جهة تِلِمْسانَ فنزَلَ بين الصَّخرتَيْن، وهناك وصَلَه بنو ومانو فأقلَع معَهم إلى سيرت، فاجتَمع عليه بنو ومانو أجمعونَ ومعَهم تاشْفين بن ماخوخ، وفي ذلك المنزل اجتمع عبدُ المؤمن بابن زجو وابن يومور ومَن كان معَهم، وهناك وصَلتْه هديّةُ بني ومانو فصَرفها عليهم.

ثم رحَل عبدُ المؤمن من موضع سيرتَ إلى بلاد بني يلومي من زَناتة، فلمّا حقَّق الأميرُ تاشْفينُ وصُولَ عبد المؤمن إلى تلك الجِهات واجتماعَه بزَناتة دخَل تِلِمْسان وجنَّد فيها عسكرًا وبعَثَه إليه، فاجتمع معَه بموضع منداس، فتوجَّه عبدُ المؤمن بعسكره قاصدًا محَلّةَ الربرتير قائدِ الروم ومَن كان معَهم من الجنود والحشود، فقاتَلَهم ثلاثةَ أيام، وفي اليوم الرابع هزَمَهم واحتوى على محَلّتِهم وعلى مَن كان معهم من زَناتة بني يلومي وغيرِهم.

ثم رحَل الأميرُ عبدُ المؤمن عازمًا على النزول بينَ الصَّخرتَيْن، فرحَل معَ بني ومانو، وكانت الغنائمُ التي استاقوها كثيرةً زَعَموا أنها كانت نحوَ ثلاثينَ ألفًا من الغنم واثنَيْ عشَرَ ألفًا من البقر، فاعترَضَهم قائدُ الروم الربرتيرُ المذكورُ بالعسكر فاستنقَذَ من الغنائم أكثرَها وقَتل من كومية نحوَ أربع مئة رجل، ووصَل العسكرُ معَ قائد الروم لتِلِمسان فاجتمع معَ الأمير تاشْفينَ فيها.

وكتَب تاشْفينُ منها إلى البلاد يستدعيهم لنُصرته، فوصَلَه عسكرُ سِجِلْماسَةَ وعسكرُ بِجَاية صحبةَ طاهر بن كباب، وهو قائدٌ من قُوّاد صُنْهاجةِ بني حماد، فاجتمعت تلك العساكرُ بتِلِمسان، ووصَل من[2] الأندَلُس إبراهيمُ[3] بن تاشْفين بعسكر فولّاه

---

(1) في م: «معها».

(2) ليست في ك.

(3) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٢، ٣٠٨.

أبوه عقدَه[1]، وقد كان وصَلَه قبلَ ذلك بموضع كراندُه حين مات جَدُّه، فبعَثَه والدُه إلى قُرطُبَةَ برسم القراءة فيها، ثم استدعاه منها، ووصَلَه إلى تِلِمسانَ في آخر سنة ثمانٍ وثلاثين وخمس مئة.

ولـمّا وصَل إبراهيمُ بن تاشْفينَ من الأندَلس وأبوه يَمِيزُ العساكرَ من الحشود والجنود والوفود فميزوا وبَرَزوا، وعجِبَ الناسُ من كثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم واحتفالهم بالزّينة، حتى زَعَموا أنهم لم يرَوْا مثلَ تلك الجموع حُسنًا وجمالًا وعُدّةً وكمالًا، وما من شيءٍ كمُل إلّا ودَنا نقصُه. واصطُفَّت العساكرُ من باب القرماديِّينَ إلى الجهة المتّصلة بأصل الجبل، وذلك كان آخرَ كمالِه.

ذكرُ مقتل الربرتيرِ وأكثرِ أصحابِه[2]

قال ابنُ صاحب الصّلاة: كان هذا الروميُّ الربرتيرُ من أكبر الطُّغاة بالأندَلس نَجْدةً وظهورًا متّصلة فتردَّى من حافَةٍ عظيمة... وتغلَّب الموحِّدونَ على... من قدَّر الله بوفاتِه من اللَّمْتُونيِّين، فلمّا أصبح اللهُ بالصباح هَبَطوا في الحافَةِ المذكورة، فوجَدوا تاشْفينَ بها على تلك الصّورة في ليلة سبع وعشرينَ لرمضان من عام تسعة وثلاثينَ وخمس مئة، فقَطَعوا رأسَه، ووجَّهه الأميرُ عبدُ المؤمن إلى تينمل فعُلِّق في غُصن الشجرة التي عندَ مسجد المهديّ.

وقال ابنُ بُجَير: كان تاشْفينُ قد ضاقت حالُه، وكثُرت بخارج وَهْرانَ أوجالُه، حتى بقي عسكرُه أيامًا دونَ عَلَف في الحصن الذي بناه من أجل الحصار، وكان عبدُ المؤمن وجَّه أبا حفص[3] عمرَ بن يحيى الـهَنْتاتيَّ معَ بني ومانو الزّناتيّينَ إلى بلاد بني ومانو وبني توجينَ وبني ورسيفن، فحشَدوا، وغَنِموا غنائمَ كثيرةً ورجَعوا بها إلى جهة وَهْرانَ، فاجتمعوا ذاتَ يوم في الجبل الـمُطلِّ على وَهْران فصاحوا صَيْحةً عظيمة بلسان واحد: «أصبح والحمدُ لله»، ولم يكن اللَّمْتُونيونَ يصيحونَ بذلك، فلمّا سَمِعهم

(١) في م: «عهده».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٨ وقد ذكر أن اسمه الزبرتير في أكثر من موضع.

(٣) له ذكر في سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٤٦، وتاريخ ابن خلدون ٧/ ٥٠٦.

أهلُ عسكر تاشْفينَ وقَعت رَهْجةٌ[1] عظيمة، فأمَرَ ألا يُخرَج إليهم خيفةَ الكمين، وأقام الموحِّدونَ على مضاربِهم إلى الظهر ثم توجَّهوا إلى جهة عين الماء الذي يشرب منه أهلُ وَهْران فسقَوْا دوابَّهم فيه ورجَعوا دَفْعة واحدة حتى وصَلوا إلى خِباء تاشْفين، وكانت خباؤه بإزاء الحصن الذي بناه، فترامى فيه معَ من كان معه، منهم ابنُ مزدلي وبشيرٌ الرّوميّ، ووقَع القتلُ في أهل العسكر فلجأوا إلى حِمى سور وَهْران، فأخَذ الموحِّدونَ النوائلَ التي كانت في محَلّة تاشْفينَ والحَطَبَ وغيرَه وقرَّبوها إلى باب الحصن وشَعَلوا فيها النارَ فاحترقت أبوابُه وهو على أعلى ذلك الحصن إلى العَتَمة ولهيبُ النار في الزّيادة، فلمّا رأى تاشْفينُ ذلك أيقَن بالهلاك، فخَرج معَ ابن مزدلي والعِلج بشير وصَنْدلٍ الفتى، أمّا بشيرٌ فاحترقت لحيتُه وعَرْفُ فرسِه وذيلُه، وأمّا صَنْدلٌ الفتى فسقَط في النار وصار فحمةً، وأمّا ابنُ مزدلي فدخَل بين الأموات حولَ الحصن ثم تسلَّل خُفْيةً حتى لحِق بسُور وَهْران مبهوتَ العقل، فبقي مبهوتًا ثلاثةَ أيام ومات.

ومشى تاشْفينُ والعِلجُ بشيرٌ إلى الرَّحى التي على الوادي هناك، فعارضَه أهلُ الرَّحى فعرَّجا إلى سِبَاخ ورحَلا فنَجا بشيرٌ وزَهَقت رِجلُ فرس تاشْفينَ التي كان يسمِّيها رَيْحانةَ وسقَطت في حافَةٍ عظيمة فاندقّ عُنق الفرس ومات تاشفينُ من ذلك في ليلة سبعٍ وعشرين لشعبانَ عامَ التاريخ.

وأمّا أهلُ دار تاشْفين التي سمَّوها حصنًا فتحصَّنوا فيه، وكانوا نحوَ ثلاث مئة رجل من حَشَم وحشد وروم فقُتلوا أجمعينَ إلا سبعةً منهم فيهم ابنا مزدلي[2]، وطُلِب تاشفينُ فوجد ميتًا، وصُلبت جثّتُه على حصنِه ووجِّه رأسُه إلى تينمَل[3].

وقال الكاتبُ الأَشِيريُّ التِّلِمْسانيّ: لـمّا انحصَر تاشْفينُ في الحصن الذي بناه معَ نفَر من أعيان لَـمْتُونَةَ، يئس من الحياة؛ لأنه عايَنَ عَزْم الموحِّدينَ عليه وما جَلَبوه من الحَطَب لإشعال النيران من كلِّ جانب إليه، فكان يأخُذ ذخائرَه وأثوابَه ويرمي

(١) في ر٣، م: «رجفة».

(٢) سقطت من م.

(٣) تنظر وفاة تاشفين في الكامل ١١/ ١٠٢، والمعجب ٢٧١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٢٩٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٨.

بها في النار بيدِه، وودَّع أصحابَه واقتَحم الخروجَ على النار من بابِه واللّيلُ قد أرخَى سُدولَه، والجيشُ قد شمَّر للقتال ذيولَه، فوُجِد في صبيحة تلك الليلة ميتًا لم يوجَدْ فيه أثرُ طعنة ولا ضربة، فقيل: إنّ فرسَه صرَعَه في أحد تلك الأجراف، وسيق إلى الموحِّدينَ فأصعَدوه الصَّدع[1]، وتَمّ لله فيه الصُّنع، وذلك الليلةَ[2] المتقدِّم ذكرُها.

اختصارُ الخبر عن فتح وَهْران وما فتَحَ اللهُ للموحِّدين بعدَ قتال تاشْفين

ولـمّا قُتل تاشْفينُ لـجَأَ في تلك الليلة مَن سَلِم من تلك الوقعة إلى حصن وَهْران، فانحصَروا فيه، وقد كان لأهلِه[3] في الحصار[4] نحوَ شهرين، فقُطع عنهم الماء، فلمّا رأَوْا أنهم عاطشونَ[5] طلَبوا التأمينَ من الموحِّدينَ فلم يُجيبوهم إلى ذلك إلا على حُكم الأمير فامتَنعوا من ذلك حتى أجهَدَهم العطشُ فنزَلوا بعدَ قَتْل تاشْفينَ بثلاثة أيام.

قال الكاتبُ الأَشِيري: أخبرني أبو الحَسن الطّرازُ، وكان ممّن حُصِر بوَهْران، أنّ العطشَ انتهى بالناس إلى[6] أن مات في اليوم الواحد الثلاثونَ والأربعون بين نساءٍ ورجال، ولـمّا خَرجوا انطَرحوا على الماء حتى مات بعضُهم لـمّا رَوِي، وبعد ذلك حَكَم عبدُ المؤمن قبَّحه اللهُ بقتلهم فاستُؤصلوا عن آخرِهم.

وقال ابنُ بُجَير: لـمّا اشتدَّ القتالُ على أهل وَهْران مات أكثرُهم بالعطش، إلى أنْ خَرجوا على حُكم البرابرِ الذين يسمَّون بالموحِّدينَ فقَتلوهم أجمعين كبارًا وصغارًا بعدَ ثلاثة أيام من قَتْل تاشْفين، وذلك يومَ عيد الفطر من سنة تسع وثلاثينَ وخمس مئة.

---

(١) هكذا في النسخ، وفي م: «المصرع»، ولا تستقيم سجعًا مع اللفظة الآتية بعدها.

(٢) في م: «للّيلة».

(٣) في م: «أهلُه».

(٤) في م: «انحصار».

(٥) في م: «عطشوا».

(٦) ليست في ك.

ذكرُ مُنازلة تِلِمْسانَ وفتح تاجررتَ منها وما اتّصل بذلك[1]

وذلك أنه لـمّا قُتل تاشْفينُ ووصَلَ خبرُه إلى[2] تِلِمسانَ، خَرج مَن كان بها من لَـمْتُونة، وخلت تاجررتُ[3] منهم، وبقي فيها العامةُ من الحَضَر والسُّوقة، فلمّا بلَغَهم خبرُ وَهْران خرج جماعةٌ من أهل تِلِمْسانَ للقاءِ أبي محمد عبد المؤمن، وكانوا في نحو ستينَ رجلًا من أعيانهم، فقدَّر اللهُ عليهم أنْ لقِيَهم يصلاتن الزَّناتيُّ بجَمْع عند وادي تافنا فأفناهم فيه وقَتلهم عن آخرِهم، ووصَل إلى تِلِمسان ما كان من قَتْلهم فزاد خوفُ أهل تِلِمْسان من عبد المؤمن؛ لأنّ يصلاتنَ كان تحتَ طاعتِه بجملتِه وجماعتِه.

قال الأَشِيري: وكان قدومُ أبي محمد عبد المؤمن على تِلِمْسانَ بعدَ فتح وَهْران يومَ الجُمعة الموفي ثلاثينَ لرمضانَ المعظَّم من عام تسعة وثلاثين، فنزَل بالـمُنْية، ونفَذَ حُكمُ الله في أهل تاجررت، وذلك غُدوةَ يوم الفطر، ودخَلها الموحِّدونَ فرتَّبوا مروسَها وقَسَموا دورَها، ثم وافاهم فتحُ سِجِلماسةَ والقلعةِ وغيرِها.

وقال ابنُ بُجَير: لـمّا وصَل إلى أهل تِلِمسانَ ما جرى لأهل وَهْران خافوا خوفًا شديدًا، وفَرَّ جميعُ مَن كان فيها من لَـمْتُونة وخُدّامُهم معَ الصّحراويِّ إلى فاس، وذلك قبلَ وصول عبد المؤمن إلى تِلِمْسان؛ لأن الصَّحراويَّ كان قد نزَلَ بخارجِها عازمًا أن يَلحَقَ تاشْفينَ، فبَلغَه خبرُه، فتوجَّه إلى فاسَ، فوقعت في أهل البلد ضجّةٌ عظيمة وضَجُّوا خائفينَ على أنفسِهم، فلمّا سمعوا بإقبال عبد المؤمن إليهم تخيَّروا من أعيانِهم ستينَ رجلًا كما تقدَّم ذكرُه، وبعَثوا بهم يَطلُبونَ العفوَ منهم، فوقعوا في جَمْع كبير فقَتلوهم أجمعينَ ولم يَنْجُ منهم إلا اثنان، فزاد خوفُهم وعَظُم أمرُهم، فلمّا قرُبَ عبدُ المؤمن من تِلِمسان خَرج إليه الطلبةُ والأعيانُ والألواح والصِّبيانُ يرغَبونَ في العفو عنهم، فجرَّدهم الموحِّدونَ من أثوابِهم وقَتل يصلاتنُ جماعةً منهم يومَئذٍ والأميرُ عبدُ المؤمن واقفٌ ومعَه أبو إبراهيمَ من أصحاب مَهْديِّهم، ودخَل عبدُ المؤمن تِلِمسانَ

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، والاستقصا ٢/ ١٠٦.

(٢) سقطت من م.

(٣) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، والاستقصا ٢/ ١٠٦: تاكرارت.

وقَتل فيها خَلْقًا في فندق كليلا، وأقام سبعةَ أشهر، ثم وَلَّى عليها سُليمانَ بن محمد بن وانودين الـهَنْتَاتِيَّ، ورحَل إلى مُنازلة فاسَ في ربيع الآخر[1] من عام أربعين.

وقال ابنُ صاحب الصلاة: لـمّا استقرَّ عبدُ المؤمن بتِلِمْسانَ بعد استشهادِ منِ استُشهد امتَنعت قصَبتُها عنه[2] بمَن فيها ممّن خاف على نفسِه، فأقام مدةً عليها ثم رحَل إلى فاسَ وترَكَ عسكرًا يُحاصرُها.

ذكرُ فتح مدينة فاسَ حرَسَها اللهُ تعالى[3]

ولـمّا رحَل عبدُ المؤمن والموحِّدونَ من تِلِمْسان اجتمعت عليه الوفودُ والحشود من كلِّ جهةٍ ومكان، فتوجَّه إلى مدينة فاسَ في ربيع الآخر[4] من السنة المذكورة، فقدَّم بين يديه إليها[5] جَمْعًا من الرجال للحربِ والنِّزال ليَعلمَ ما عندَ الصَّحراويِّ صاحبِها من خيل ورجال، فصَعِدوا ليلًا في الجبل، فخَرجَ إليه منها نحوُ ألف وخمس مئة فارس فرجَعوا إلى عبد المؤمن وقد نزَل بمحَلّتِه عقبةِ البقر وعساكرُه قد ملأت السهلَ والوعر، فميَّزهم هنالك، وكانوا في ثمانينَ ساقةً على عدد القبائل والوفود، فنَشَروا ما معَهم من البنود وجازوا الواديَ ساقةً بعدَ ساقة، والصَّحراويُّ بجبل العرض ينظرُ إليهم. ثم رحَل عبدُ المؤمن من ذلك المنزل ونزَل بالجبل المذكور، فنشَر عليه علَمَه المنصور، وقطع بعضَ الأشجار وعمل بها الزُّروبَ على الدوابِّ احتياطًا على أهل محلّتِه واتقاءً من الحرب وخُدعتِه، ثم بعَثَ عسكرًا منها لحصار مِكْناسة، فخَرج لهم منها ابنُ وجلوط اللَّمْتُونيُّ فهزَمهم، وكان بمِكناسةَ نحوُ ثلاثة آلاف فارس من الحَشَم والروم وغيرِهم، وانضاف لهم خَلْقٌ من القبائل القريبة منها، فتوجَّه الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن لها برَسْم إغاثة عسكرِه، وترَكَ على حصار مدينة فاسَ أبا بكر بنَ الخيِّر معَ جُملة[6] من الموحِّدين،

---

(١) في م: «الأخير»، خطأ.

(٢) في م: «منه».

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، والاستقصا ٢/ ١٠٧.

(٤) في م: «الأخير»، خطأ.

(٥) سقطت من م.

(٦) في ر٣، م: «جماعة».

فيهم أبو إبراهيمَ وغيرُه، ولـمّا وصَل إلى مِكْناسة برَزَ عليها وجَدَّ في حصارِها، ثم وجَّه منها أبا حفص عمرَ بنَ يحيى الـهَنْتاتيَّ ليكونَ معَ أبي إبراهيمَ على حصار فاسَ ومحاولتها، إلى أنْ جَرى ما جَرى بين الصَّحراويِّ صاحبِها وبين الجَيّانيِّ مُشرِفِها، وذلك أنه طلبه بمال وضيَّق عليه، فلم يكنْ في وُسْعِه إعطاؤه إليه، فكتَب إلى أحد قوّاد الموحِّدين ووَعَده أن يُمكِّنَه من البلد، فإنّ مَفاتحَها كانت تَبيتُ عنده، ودبَّر[1] وجْهَ الحيلة في ذلك فلم يشعُر الصَّحراويُّ حتى عايَنَ رجالَ الموحِّدينَ على السُّور فكسَرَ قُفْل باب الفتوح وخَرج منه، واستولى الموحِّدونَ على مدينة فاسَ بعدَ حصارِها سبعةَ أشهر، وذلك في شهر ذي القَعْدة من عام أربعينَ، فأقام بها عبدُ المؤمن أربعةَ أيام ثم رحَل عنها وتُرِكَ واليًا عليها أبو[2] إسحاق بنُ جامع ومُشرفُها أبو[3] محمد عبد الله بن خِيار الجَيّانيُّ المذكور، وتُرِكَ على حصار مِكْناسةَ أبو زكريا بن يومور وتوجَّه إلى سَلا.

وذكَر ابنُ صاحب الصّلاة أنّ الصَّحراويَّ كان تعَرَّس بامرأةٍ من قبيلة في ليلة الثانيَ عشَرَ لذي قَعْدة، فتمكَّن الجَيّانيُّ من مالِه وبعَث إليه بطعام وشراب ليشغَلَه به تلك الليلة، فلمّا كان صبيحةُ اليوم المذكور أدخَل الموحِّدين المدينةَ، وفرَّ الصَّحراويُّ إلى طَنْجة، ثم جاز إلى الأندَلس، واتّصل فتحُ فاس بالأمير عبد المؤمن وهو بمِكناسة، فوصَل إليها، وأقرَّ أهلُها إبقاءَ الجَيّاني على إشرافِها، وذلك في[4] سنةِ أربعين.

وفي هذه السنة: وصَلت كتُب أهل سَبْتَةَ بالسمع والطاعة والدُّخول في حزب الجماعة، ووصَل لعبد المؤمن يحيى بنُ أنجمار في جُملةٍ من إخوانِه مَسُوفة، وكلُّهم مُلثَّمونَ، ثم أزالوه بظاهر فاسَ وصاروا في زِيِّ الموحِّدين، ثم وصَلَه عمرُ بن ينتان فارًّا من أمير لَـمْتُونَةَ إسحاقَ[5] بن عليِّ بن يوسُف من مَرّاكُش، فلقي من الكرامة ما لا مزيدَ عليه، ثم ارتدَّ ودخَل فاس، فلمّا يسَّرَ اللهُ فتحَها حصَل في يد الموحِّدينَ معَ جُملة من الناس، فأمَرَ بقتلِهم وبقي هو مَعْفوًّا عنه لِـما تقدَّم من وصيّة الـمَهْديّ على ذُرِّية ينتان.

---

(١) في ك: «ودبَّروا».

(٢) هكذا في الأصول، وفي م: «أبا» على المفعولية.

(٣) هكذا في الأصول، وفي م: «أبا» على المفعولية.

(٤) سقط من م.

(٥) الوافي بالوفيات ٨/ ٤١٨.

ذكرُ مُنازلة الأمير أبي محمدٍ عبدِ المؤمن مدينةَ مَرّاكُش وفتح مدينة سَلا في طريقِه[1]

ولـمّا فَرَغ أبو محمد عبدُ المؤمن من أشغال فاسَ وترتيبِها ورتَّب على حصار مِكْناسةَ عسكرًا يقيمُ عليها، أخَذ في الحركة على تؤدةٍ[2] واستعداد وعُدّة إلى مُنازلة مَرّاكُش، فلمّا وصَل مدينةَ سَلا امتنَع أهلُها منه، وحين وقَف على مجازِ هذا[3] الوادي ألفاه بسَعْدِه في آخر مَدِّه، فأمَرَ عسكرَه أن يعبُروه بأجمَعِهم، وتغَلَّب على سَلا من ساعته وفتَحَها قبلَ إراحتِه، وأمَّنَ أهلَها ورتَّب أحوالَها وانضافت قصَبتُها التي كان تاشْفينُ بناها في الرِّباط، وكان دخولُه لها في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين، ونزَل بها بدار ابن عشَرةَ وأقام بها أربعةَ أيام، وتوجَّه في الحاديَ عشَرَ من الشهر المذكور إلى مُنازلة مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى.

وقال ابنُ بُجَيْر: كان فتْحُها على يد رجُل يسمَّى يبورك وابنَيْه: محمد وعليّ، وذلك أنهم أرسَلوا إلى الموحِّدينَ فوصَلوهم ليلًا وصنَعوا السلاليمَ فصَعِدوا بها على السُّور وقَتلوا كلَّ مَن وجَدوه على السُّور، ودخَلوا سَلا ووجَدوا فيها أُناسًا وهرَبَ آخَرون في حَلْق الوادي فرجَع عليهم البحرُ فغرِقوا، فعيَّدَ فيها عبدُ المؤمن عيدَ الأضحى، وولّى عليها عبدَ الواحد الشرقيَّ، وأقامت سَلا على طاعة الموحِّدينَ إلى أنْ ظهر الماسي المعروفُ بابن هُود ببلاد السُّوس فقَتل أهلُ سَلا عاملَهم وقَدَّموا وَلَدَه هودًا، فبقي بها إلى أن قُتل أبوهُ[4]، ودخَلت البلدُ وعادت إلى طاعة الموحِّدينَ إلى انقضاء دولتهم[5].

---

(١) نهاية الأرب ٢٤/ ٢٩٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٠، والاستقصا ٢/ ١٠٨.

(٢) في م: «تودية».

(٣) ليس في ك.

(٤) غيّر ناشرو (م) العبارة إلى: «وقدّموا والده هودًا فبقي بها إلى أن قتل ابنه...»، وهو غلط محض سببه أنهم ظنوا أن ابن هود هو اسمه في حين أن المقصود اسم القبيل بني هود، وما أثبتناه في النسخ كافة وهو الصواب الذي ليس فيه ارتياب.

(٥) في م: «دولهم»، وهو تحريف.

وكان الصَّحراويُّ لـمّا فَرَّ من فاسَ توجَّه إلى طَنْجةَ معَ مَن كان معَه من[1] لَـمْتُونةَ وغيرِهم، قيل: إنهم كانوا في ثلاث مئة رجل فأقاموا بها خمسةَ أشهر في أسوإ حال من شدّة الضِّيق وغلاءِ السِّعر، ثم إنّ قائدَ الأُسطول عليّ[2] بن عيسى وصَل إلى طَنْجَةَ بالقطائع من باديس[3] فاجتَمع معَ الصَّحراويِّ وأظهر له النُّصحَ ولأصحابه وأن يُجوِّزَهم إلى الأندَلس برَسْم يحيى[4] بن غانيةَ، فتعاقَدوا معَه على ذلك، فقَذَف بهم إلى مَرْسَى شريشَ وغدَرَهم، فكان من أمرِ الصَّحراويِّ ما يُذكرُ إن شاء اللهُ تعالى.

قال: وكان وَلِـي سَبْتَةَ حينَئذٍ يوسُفُ[5] بن مخلوف التينمليُّ من قِبَل عبد المؤمن؛ لأنّ أهلَها بايَعوا عبدَ المؤمن من قَبلِ فَتْح سَلا، ثم إنّ الجنودَ الذين ترَكَ الصَّحراويُّ بطَنْجة بادَروا إلى ابن الجَبْر بمصْمُودة[6]، فزَحَف بهم إلى طَنْجة فدخَلها وقَتل قاضيَها في جُملةِ مَن قَتل فيها، ولـمّا وصَل الخبرُ إلى سَبْتَةَ صَرَخ صارخٌ أنّ واليَهم عزَم على قَتْل قاضيهم، وكان قاضيهِم الإمامُ العالِمُ أبا[7] الفضل عِيَاضًا[8] رحمه الله، فقَتلوا واليَهم ومَن كان معَه.

قال: وكان الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن قد بعَث أبا حفص عمرَ بنَ يحيى الـهَنْتاتيَّ بعسكرٍ إلى بَرَغْواطَةَ، فغَزاهم ثم غَنِمهم ثم عاد إلى عبد المؤمن، فتلاقى[9] معه[10] على إيجليز[11]، فقَسَم الغنائمَ على الموحِّدينَ ورحَل بعساكرِه حتّى وصَل قريبًا من مَرّاكُش، فخَرج إليه جَمْعٌ كبيرٌ من لَـمْتُونة، لكنْ قَذَف اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم ومَرُّوا

---

(١) في م: «في»، وهو تحريف.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

(٣) في م: «بادس».

(٤) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٠، ٥/ ٣٣٦، ٦/ ٢٩، ٣٢، ٣٧، ٤٥، ٢٢٤.

(٥) له ذكر في المغرب لابن سعيد ٢/ ١٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩، ٣١١، ٣١٢.

(٦) في م: «بقصر مصمودة»، وليست في الأصول.

(٧) في م: «أبو... عياض».

(٨) في ر٣، م: «عياض».

(٩) في م: «فتلاقيا».

(١٠) سقط من م.

(١١) جبل له ذكر في الروض المعطار ٥٤٠، وتحرّفت العبارة في م إلى: «فتلاقيا على الخيل»! وهي قراءة عجيبة.

لائذينَ بسُورِهم بعدَما قُتل منهم خلقٌ كثير. واتّصلت بعبد المؤمن الأخبارُ أنّ لَـمطةَ في فُحوص مَرّاكُش بحشودِهم قد أمَرَهم أميرُهم إسحاقُ أن يَقرُبوا إلى المدينة، فتَبِعهم الموحِّدونَ فأدركوهم وقَتلوهم قتلًا ذريعًا وغَنِموا لهم من الجِمال عددًا كثيرًا قيل: ثمانينَ ألفًا، ذكَرَه الأشِيري، ووصَل إثْرَ هذا الفتح كتابٌ من أبي عبد الله الجَيَّانيّ وأدرَجَ فيه شعرًا أولُه [من الطويل]:

أضاءت لنـا الأيـامُ واتّـصل الـنُّجْحُ ... وكانت وجوهُ الـدّهرِ مُـسْودَّةً كُلْـحُ

فأجابه عبدُ المؤمن بنُ عليّ رحمه الله:

هُو الفتحُ لا يَـجْلو غرائبَـهُ الـشَّرحُ ... أصاب بني التجسيم من يأسِـه تَـرْحُ

أَتَتْنـا بـه البُـشرى عـلى حـينِ غفلـةٍ ... بمهلِك قـوم كـان وَعْـدُهمُ الـصُّبحُ

وفي سنة إحدى وأربعينَ وخمس مئة: كان نزولُ عبد المؤمن بجبل إيجليز، ولازَمَ حصارَ مَرّاكُشَ في أوّل يوم المحرَّم من سنة إحدى وأربعينَ وخمس مئة، فأقام عليها تسعةَ أشهر وثمانيةَ عشَرَ يومًا، وكثُرتِ العساكرُ لديه، ووَفَد كبارُ الرجال من البلاد عليه مثلَ: أبي الغَمْر[1] ابن غَرُّون الثائر بشَريش وابن حَمْدِين[2] وغيرِهما، وكان اللَّمْتُونيّونَ بداخل مَرّاكُشَ في عِدّة من كبارِهم وبقيةٍ من أحشادِهم وأميرُهم إسحاقُ بن عليِّ بن يوسُف، وكان صَبِيًّا صغيرًا، فأمَرَهم بالخروج إلى حرب النازِلينَ عليهم، فعزَموا على قتالِـهم وخَرجوا إليهم بخَيْلِهم ورَجْلِهم في نحو خمسة آلاف وخمس مئة من الفرسان ومن الرجال ما لا يُحصَى عددُهم كثرةً، ووصَلوا بجَمْعهم إلى محلّة الموحِّدين، وكان عبدُ المؤمن أمَرَ أصحابَه أن يَكمُنوا لهم ولا يظهرَ أحدٌ منهم، فلمّا استحَرَّ النهار وعَمّ عسكرَ اللَّمتُونيِّينَ الاغترار، خَرَجت عليهم الكمائنُ فانهزَموا في الحين وولَّوْا أدبارَهم والسَّيفُ يصفَحُ رقابَهم ويمحو آثارَهم، واتَّبعهم عسكرُ الموحِّدينَ إلى باب دكالةَ، وأَخَذوا من خَيْلِهم نحوَ ثلاثة آلاف، وقَتلوا من فُرسانِهم ورِجالِهم ما لا يُحصَى كثرةً، هكذا ذكَرَ ابنُ صاحبِ الصلاة.

---

(١) له ذكر في ابن خلدون ٦/ ٣١٧.

(٢) بغية الملتمس (٦٨٥)، وتاريخ الإسلام ١١/ ٩٢٦، والوافي ١٣/ ١٦٧، المرقبة العليا ١٠٣.

قال: فلمّا طال عليهم الحصارُ تسعةَ أشهر وثمانيةَ عشَرَ يومًا هلَكوا جوعًا طولَ هذه المدّة وضاقوا حتى أكَلوا الجِيَفَ وأكَل أهلُ السِّجن بعضُهم بعضًا وعُدِمت الحيَواناتُ كلُّها وعُدِمت الحِنطة بأسرِها، وطلَبَ إسحاقُ مخازنَ أبيه فلم يجدْ فيها شيئًا، قال أبو عبد الله بنُ عُبَيدة كاتبُ إسحاقَ المذكور: فعجَزت عساكرُ اللَّمتُونيِّينَ عن الدِّفاع والامتناع بضَعْف العدَد والعُدّة وكثرة الضِّيق والشِّدة، وفُتحت مَرّاكُش حينئذٍ.

ذكرُ فَتْح مَرّاكُش حرَسَها الله ودخولِ الموحِّدينَ إليها واستيلائهم عليها وقتلِ إسحاقَ أمير لَـمْتُونةَ، وغيرِ ذلك[1]

وفي يوم السبت الثامنَ عشَرَ لشوّال من عام أحدٍ وأربعينَ وخمس مئة أمَرَ عبدُ المؤمن بالدّنوِّ من المدينة فأحْدَقوا حوالَيْها ورفَعوا سلاليمَهم إلى السُّور وطَلَعوا عليها فدخَلوا المدينةَ عَنْوةً من باب إيلان، وقَتلوا جميعَ من أدرَكوا من اللَّمتُونيِّين، وانحصَر إسحاقُ أميرُهم معَ أشياخِهم، منهم: سيرُ[2] بنُ الحاجّ وسيرُ بن ينتان وجُملةٌ من أعيانِهم بداخِل قصَبتِهم المعروفة بقصر الحَجَر، ومَلَكَها أبو محمد عبدُ المؤمن في ذلك اليوم، ثم استولى بالغَلَبة على قَصَبتِها وعلى مَن تحصَّن بها، فامتَنعَ الباقي منهم في غرفةٍ كانت على بابِ دار عليِّ بن يوسُف وطلَبوا العَفْوَ والأمانَ فلم يُسعَفوا، ونزَلوا على حُكم الأمير والموحِّدين، فقَتل منهم من حضَر أجَلُه واستَحْيا منهم مَن أراد الله بحياتِه، وسَلِم من القتل أولادُ ينتانَ لأنه كان قد قال خيرًا في الـمَهْديّ فأوصَى عليه وعلى بَنيهِ خيرًا، وأمّا أميرُهم إسحاقُ البائس فوُجِد مُستَخْفيًا في كدس فحم في إحدى غرف الدار المذكورة، فسيقَ إلى الأمير عبد المؤمن فأشفق عليه وحَنَّ لصِغَر سنِّه وهو ابنُ ستةَ عشَرَ عامًا وهمَّ أن يعفوَ عنه ويسجنَه، لكنّ بعضَ أشياخ الموحِّدينَ عزَموا عليه في قَتْلِه فضَربوا رقبتَه رحمه اللهُ تعالى، وباد أمرُ أُمراءِ اللِّثام، وأُبيحت مَرّاكُش لقَتْل من وُجِد فيها من اللَّمتُونيِّينَ ثلاثةَ أيام، ثم عَفَا عنهم أبو محمد عبدُ المؤمن واشتراهم من الموحِّدينَ وأعتَقَهم ومَنّ عليهم وأطلَقَهم، واستولى عبدُ المؤمن على

---

(١) ينظر نهاية الأرب ٢٤/ ٢٩٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٠، والاستقصا ٢/ ١٠٨.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٤/ ٢٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٠٩.

ذخائرِ عليٍّ بن يوسُف وعلى ذخائر[1] تاشْفينَ وجميع أُمراءِ لَـمْتُونة ممّا يقصُر عن شرحه اللِّسان، ولا يأتي على وَصْفِه مُبِينُ البيان.

وذكَرَ ابنُ الأَشِيريِّ هذا الفتحَ المذكورَ مختصرًا عنه، قال: وكان في صدر مُحاصَرة مَرّاكُش فتحُ أغْمات، وإنّ الحُثالَة الباقيةَ بعدَ[2] إسحاقَ بمَرّاكُش بعدَ أيام من النزول عليهم اغترّوا وخَرجوا معَ أهل مَرّاكُش، ورَتَّبوا ساقتَهم بفَحْص باب دكالةَ، فدفَعَ عليهم الموحِّدون مِن كلِّ جهة فقَتلوهم وهزَموهم، وأمَرَ الأميرُ عبدُ المؤمن بقطع رؤوس القَتْلى منهم، وبعَدِّ الخَيْل التي غُنِمت لهم، فكانت ثمان مئة فرس، ومن الدّروع والسِّلاح ما لا يُحصيه أحد، فذَلّ لذلك أهلُ مَرّاكُش وأيقَنوا بالهلاك، وانتقَلت الـمَحلةُ الموحِّديةُ إلى دار الفتح وسَط البُحيرة في صدر شوّال من سنة إحدى وأربعين، فلم تزَلْ هنالك، وأمرُ المدينة في كلِّ يوم يزيدُ ضعفًا وأحوالُها ترِق، إلى أن كان يومُ السبت السابعَ عشَرَ من شوّال ففُتِحت مَرّاكُش ودخَلَها الموحِّدون.

وقال البَيْذق: وأمَرَ أبو محمد عبدُ المؤمن بعمل السَّلالم للسُّور وقَسَمَها على القبائل فدخَلت هَنْتاتةُ وتينملُ من جهة باب دَكّالة ودخَلت صُنْهاجةُ وعَبِيدُ المخزن من باب الدَّبّاغين، ودخَلت هسكُورةُ معَ القبائل من جهة باب ينتان، فدخَلوا البلدَ بالسيف، وبقيَ القتالُ على قصر الحَجَر من بُكرةٍ إلى وقت الزوال. ولم يدخُل القصرَ حتى ماتت فانو بنتُ عمر بن ينتان؛ لأنها كانت تَخرُج للقتال في هيئة رجل، وكان الموحِّدونَ يتعجَّبون من قتالها، وكانت بِكْرًا عذراء، فلمّا دخَل القصرَ أُخرج أولادُ السَّلاطين الذين كانوا به من ذُرِّية عليٍّ بن يوسُف إلى موضع المحَلّة بجبل إيجليز وهم معَ جُملة من قَراباتِهم وخَدَمتِهم وأهل دِخْلتِهم، فقَتلهم ابن واجاج[3] عن آخرِهم ولم يبقَ منهم إلا إسحاقُ بن عليٍّ بن يوسُف السلطان... وبعض الأصاغر، فكان إسحاقُ يتضرَّعُ لأبي محمد عبد المؤمن فيقول له: ما لي في الرأي شيء، فيقول له غلامُه: اصمُت، أرأيتَ مَلِكًا يتضرَّعُ لملكٍ غيرِه؟ فأراد عبدُ المؤمن ترْكَه وتركَ الأصاغر منهم فاغتاظ

(١) «علي بن يوسف وعلى ذخائر» سقطت من م.

(٢) في م: «مع».

(٣) له ذكر في الاستقصا ٢/ ١٠٩.

ابنُ واجاج وصاح بالموحِّدين وقال لهم: ارتَدَّ عبدُ المؤمن علينا؛ لأنه يريدُ أن يربِّيَ أفراخَ السَّبُع[١] إلينا، فغضِب عبدُ المؤمن لقوله وقام من مجلسِه فتبَعه الموحِّدونَ إلا أبا الحَسَن بنَ واجاج وأبا حفص، فأخَذ ابنُ واجاج إسحاقَ وضَرَب عُنقَه، ثم جَبَذَ طلحةَ ليقتلَه، فكانت بيده سكّين، فضَرب بها ابنَ واجاج ضربةً قتلَه بها، ثم قُتل طلحةُ من بعده في الحين، فأُخِذ أبو بكر ابن تيزمت وحُمِل إلى عبد المؤمن فقال له: ألم تعلَمْ أنّي خصمٌ لعليِّ بن يوسُف؟ فقال له: أعلمُ ذلك، فقال له: فلأيِّ شيء تقتُلُني؟ فقال له: لأنك رمَيْتَ يدَك في الإمام المهديِّ وحمَلْتَه إلى السِّجن فقتلَتْك السُّنةُ لأجل ذلك، فقال لهم: إذا[٢] عزَمتُم على قتلي فأُخبِرُكم أنّ عندي بَرْمتَيْنِ ثِنتَيْنِ[٣] مملوّتَيْنِ ذهبًا أخافُ أن أُحاسَبَ عليها إن تركتُها، فاختار له عبدُ المؤمن أُمناءَ يمشُونَ معَه، وذلك اثنانِ من كلِّ قبيل الموحِّدين، فسار معَهم إلى دارِه فأدخَلَهم إليها وأغلَقَها على نفسِه وعليهم، وكان بيده عُكّازٌ فيه سكّينُ غَدْر، فلمّا استأمَنوا له وظَنّوا أنه يُخرِجُ لهم ما ارتَهَن فيه أخرجَ سِكّينَ الغَدْر من عُكّازِه فغَدَرهم به وقتَلَهم فلم يَخرُجْ منهم إلا رجلٌ واحد، وقَتل أحدَ عشَرَ رجلًا، فدُخِلت عليه الدارُ وهو قد تحصَّن في غرفة فحارَبَهم حتى هَدَموا عليه وقَتلوه وجَرُّوه إلى جبل إيجليز، وبقيت مَرّاكُش ثلاثةَ أيام لا يدخُلُها داخِل ولا يَخرُج منها خارج، وتأبّى الموحِّدونَ دخولَها؛ لأنّ المهديَّ كان يقول: حتى تُطهِّروها، فسُئل الفقهاءُ عن ذلك فقالوا لهم: تَبْنونَ مساجدَ أنتم وتجدِّدونَ أُخَر، ففَعَلوا ذلك.

وكان لعليِّ بن يوسُف جماعةٌ من الولد، منهم أبو بكر، وهو أوّل وَلَد وُلد[٤] له وهو ابنُ ستَّ عشْرةَ سنة، وأبو بكر هذا يُعرَفُ ببكور، وكان ذا مِرّة ونَجْدة، وهو الذي أكْبلَه أبوه وسَجَنه بالجزيرة إلى أن مات، وعمرُ الكبير، وسير، كان وليَّ عهدِه، مات في حياته، وتاشْفين، وتميم، وإبراهيمُ الذي حجَّ، وإسحاقُ الذي قُتل حين دخولِ عبد المؤمن مَرّاكُش، ومحمدٌ، وباران، وداود، وعمرُ الصغير، ومَزْدَلي، وينتان، وهو أصغرُهم.

---

(١) في م: «فراخ السُّبوعة».

(٢) في م: «وإذ».

(٣) سقطت من م.

(٤) في م: «نُخلق».

رَجْع الخبر؛ قال ابنُ صاحب الصّلاة: لـمّا كان فتحُ مَرّاكُش ودخَلَها أبو محمد عبدُ المؤمن رجَع منها إلى محلّتِه وجعَل الأمناءَ على أبوابها مدةَ شهرينِ اثنين، فاجتمع فَيْؤها ومالُها، ثم قَسَم ديارَها على الموحِّدين، وتوالت الفتوحُ إثْرَ ذلك من كلِّ مكان، منها: دخولُ قصَبة تِلِمْسان، وذلك في الخامسَ عشَرَ لشوّال من السنة المؤرَّخة في الشّهر الذي دُخِلت فيه مَرّاكُش، كان بينَهما ثلاثة أيام، وحضَر في المحَلّة معَ جماعة الموحِّدينَ يحيى بنُ إسحاق الـمَسُوفيُّ المعروف بأنجمار، وكان قد وحّد وهاجر معَ إخوانه من تِلِمسان أيامَ كونِه أميرَها، فاحتُرمت زوجُه زينبُ بنتُ عليِّ بن يوسُف عن البيع وجميعُ عيال أصحابِه وأخَواتُه، واحتُرمت دارُه عن الفَيْء، فلمّا استوطَن عبدُ المؤمن بمَرّاكُش جمَعَت زينبُ المذكورةُ جميعَ مالِـها وذخائرِها ورفَعت ذلك إلى[1] الخليفة أبي محمد عبد المؤمن، فشكر الخليفةُ[2] فعلَها ونفّذوا[3] أمرَه ألا يُباعَ من بنات عليِّ بن يوسف واحدة[4]، لكنّ أخوَي المهديِّ: عيسى وعبدَ العزيز أخَذا منهنّ ابنتَيْن كُرهًا على الخليفة. ولـمّا تَوالى هذا الفتحُ العظيم واستَوْسَق الأمرُ العزيزُ الكريم، قام ثائرٌ ببلاد السُّوس اختصَرْنا خبرَه بحول الله تعالى.

وفي هذه السّنة: ثار الدَّعيُّ الماسِيُّ ببلاد السُّوس وتَسمَّى بالهادي[5] وهو محمدُ بن عبد الله بن هود، قام في الشهر الذي دُخِلت فيه مَرّاكُش. وكان هذا الدعيُّ الشَّقيُّ قَصّارًا على ضفة بحر سَلا، وكان أبوه دلّالًا بالسوق فادَّعى الهدايةَ وسمَّى نفسَه بالهادي، واستقَرَّ برِباط ماسةَ في غُرّة شوّال من السنة المؤرَّخة، فأقبَلَ الناسُ الـمُغترُّونَ به من كلِّ مكان وقَبِيل إليه، فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعًا طار له الذِّكر في الآفاق وتحدّثت به الرِّفاق، وكثُروا عندَه واشتدّوا[6] له، فقامت بدعوتِه جموعٌ لا تُحصَى أبادَهم

---

(١) سقط من م.

(٢) قوله: «أبي محمد عبد المؤمن فشكر الخليفة» سقط من م، والسقط في هذه المطبوعة والتحريف كثير.

(٣) في م: «ونفذ».

(٤) قوله: «علي بن يوسف واحدة» سقط من م.

(٥) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٠، والاستقصا ٢/ ٣١٠.

(٦) في م: «واستندوا».

سيفُ الحقّ وسبَقَ لهم الحَتْفُ بغاية السَّبْق، وأتتْه دعوتُه الكاذبة الغارّة في جميع العُدْوة، حتّى لم يبقَ منها إلا مَرّاكُشُ وفاس، وارتدّت سائرُ البلاد كلِّها، فوجَّه الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن إليه عسكرًا قوَّد عليهم أبا زكريا المعروفَ بأنجمار، فهزَمه الشّقيُّ الدَّعيُّ الماسِيُّ المذكور، و[1]رجَع إلى الخليفة خاسرًا، ثم خرَج إليه[2] الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى وأشياخُ الموحِّدينَ معَ طائفة من الروم والرُّماة وغيرِهم من الأجناد واستعَدّوا غايةَ الاستعداد، وخَرج في هذا العسكر المذكور مُستخفِيًا في جُملة الرُّماة الكاتبُ الجليلُ أبو جعفرِ بن عَطِيّة، وقد كان كاتبًا لإسحاقَ بن عليٍّ بن يوسُف، فالتفَّ في جُملة الناس لا يعلَمُه أحدٌ منهم، واتّصل سَيْرُ الموحِّدينَ حتى وصَلوا رِباطَ ماسَةَ حيث القائمُ الدَّعي، وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان جملةُ عسكر الموحِّدين نحوَ ستة آلاف فارس ومن الرَّجّالة مثلُ ذلك، وكان جمعُ الدَّعيِّ الشّقيِّ سبعَ مئة فارس ومن الرَّجّالة نحوُ الستينَ ألفًا، فالتقَيا يومَ الخميس السادسَ عشَرَ من الشهر المذكور، فهُزِم الدّعيُّ المذكورُ وعسكرُه المغرور وقُتل في المعركة هو وأكثرُ عسكرِه.

ذكرُ السبب في تقريبِ ابن عَطِيّة[3]

وطلَب الشّيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى كاتبًا يكتُب عنه بهذا الفتح إلى عبد المؤمن، إذ لم يكنْ عندَه كاتب، فعُرِّف بابن عَطِيّةَ فأمَرَ بحضورِه فحضَر وكتَبَ عنه فأجاد، وأتقنَ ما أراد، فقرَّبَه أبو حفص وأحسن إليه وحصَلَ في جُملته. وبعَثَ الرسالةَ بالفتح إلى الخليفة عبد المؤمن، فلمّا وصَلت هذه الرسالةُ وقُرئت في مجلس الخليفة استغرَبَها الحاضرونَ من الطَّلَبة والفقهاءِ والكُتّاب والنُّبهاءِ والشّعراء، واستحسَنَها الخليفةُ لِما فيها من وَصْف الحال بغاية الإبداع وأنها أخَذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماع، وأجمَعَ البُلغاءُ على إبداعِها غايةَ الإبداع، فكانت سببًا

(١) سقطت الواو من م.

(٢) سقط من م.

(٣) تنظر الإحاطة ١/ ٢٦٣.

لسَعْدِه ورِفعة قَدْرِه وجَدِّه، فاستكتبَه عبدُ المؤمن إثْر ذلك. ثم علا قَدْرُه وذكرُه... وحُسن التوسُّط للموحِّدين وبالرعايا والجنودِ على ما لم يَسْبقْه فيه... ولا أدرك خالدٌ ولا جعفرٌ من الفضائل[1] ما أدرك. ثم إنّ الدهرَ عَدا عليه بعُدوانِه، وطولِبَ عند الخليفة فأمضَى عليه حُكمَ ما رَآه من الرأي في سُلطانِه، بحيثُ لم يُجب استغاثتَه إلا عُواءُ الذئاب أو صدًى تتسعَّرُ عليه نارُ الاكتئاب، فرَوِيَت الأرضُ من دمِه، وبعدَه لم يُرتسَمْ برسمِه بل وُجِد فَقْدُ قَدَمِه وفَقْدُ الناسِ حُسنَ وَساطتِه، ويُمْنَ مُلاطفتِه. وسأذكُر سببَ موته في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة الشّيخ أبي حفص الـهَنْتاتيِّ من حضرة عبد المؤمن لمحاربة المنافقينَ والقبائل الذين قاموا بدعوة الماسِيِّ المعروف بابن هُود بعدَ ظفَرِه به وقَتْلِه[2]

لـمّا انصَرف الشّيخُ أبو حفص من غَزْوة الماسِيِّ وأراح بمَرّاكُش أيامًا، خَرج غازيًا إلى أهل نفيس فغَلَب عليهم وعلى هيلانةَ وقَتَل كثيرًا منهم حتى أذعَنوا بالطاعة، فانصَرف إلى مَرّاكُش فأراح بها، وخَرج إلى هسكورةَ وفتَحَها، ثم نهَضَ إلى سِجِلْماسةَ فدخَلها واستولى عليها وأمَّن أهلَها، ثم انصَرف إلى مَرّاكُش ظافرًا غانمًا، ثم أراح بمَرّاكُش، وخَرج غازيًا إلى بَرْغَواطة فنهَضَ إليهم فقاتَلوه مُدافعينَ لأهل عبد المؤمن متمسِّكينَ بطاعة الماسيّ، فدام على قتالهم مدةً، ثم عزَموا على مقاتلته، فدارت بينَهم دفاعٌ وحروبٌ ومُدافعاتٌ وحَمَلات، فانهزَم مَن كان معَه وانصَرف خائبًا عنهم، ودامتِ الفتنةُ منهم وممّن يُجاورُهم. وفي أثناء هذه الفتن قام مِن أهل سَبْتَةَ قومٌ على مَن بالقَصَبة حتى غَلَبوهم، وأوقَدوا النارَ عليهم بالبُرج الذي احتصنوا[3] فيه حتى قَتَلوهم وصَلَبوهم، وجازَ البحرَ عياضٌ القاضي إلى يحيى بن عليٍّ ابن غانِيةَ وهو بالخَضْراء، وطلَبَ منه واليًا، فأرسَل معَه يحيى بنَ أبي بكر الصَّحراوي، فأجازَه البحرَ

(١) المقصود: خالد البرمكي وابنه جعفر.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١١، والاستقصا ٢/ ١١٣.

(٣) في م: «تحصَّنوا».

إلى سَبْتة، فاستَوْلى عليها وخَلعوا طاعةَ عبد المؤمن. وقام أهلُ المدينة على الموحِّدينَ فيها وقَتَلوا الحافظَ بها يوسُفَ بن مخلوف، وكان قد غزا معَ القاضي عِيَاض الرُّومَ في البحر.

ولـمّا فتَح الموحِّدونَ مدينةَ فاس واستقَرُّوا بها، فرَّ يحيى الصَّحراويُّ صاحبُها واستقرَّ بطَنْجة، ثم جاز البحرَ إلى الأندَلُس برغبته إلى قائد البحر عليِّ بن عيسى بجزيرة قادِس، فأجازَه القائدُ المذكور وأجاز أصحابَه اللَّمْتُونيِّينَ والرومَ الذين كانوا معَه إلى جزيرة قادِس، فاشترَطَ القائدُ عليٌّ[1] على يحيى هذا أنه إذا وصَل قُرطُبَةَ إلى ابن غانِيَة أن يشفَعَ عندَه[2] في عيسى والدِه ويُخرجَه من سِجنِه بقَرْمُونة ويسرِّحَه إليه، فضَمِن له ابنُ الصَّحراويِّ ذلك. فلمّا أجازه عليٌّ عزَم على أن يأخُذَ خيلَهم وما بقي عندَهم من مالٍ ورجال، وقد كان أعطاه مالًا كثيرًا، ففهِمَ يحيى عنه ذلك، ففَرَّ إلى ابن غانِيَةَ بقُرطُبة فاستقَرَّ عندَه، وأطلَق والدَ عليٍّ المذكور، ووَفَى له. ثم إنّ ابنَ الصّحراويِّ لـمّا حصَل بسَبْتةَ تحيَّلَ على القائد عليِّ بن عيسى المذكور واستدعاه إليها وخَدَعه وقَتَله، ثم إنّ ابنَ الصحراويِّ أيضًا كثُرت فتنتُه، ودام تخليطُه، ورام أن يُحيِيَ ما مضَى من أيام آبائه، فلم تُعِنْه الأيام... أخذًا في العفو عندَ بُعدِ وصولِه إلى بَرْغَواطةَ حسبَما أذكُره.

ذكرُ الوَفْد الناهض مِن إشبيليَةَ إلى عبد المؤمن وهُو أوّلُ وفد نَهَضَ من الأندَلس إليه في أواخِر سنة إحدى وأربعين[3]

أمّا فتحُ إشبيليَةَ وطاعةُ أهلِها فكان ذلك في الثانيَ عشَرَ من شعبانَ من هذه السنة. وكان وصُولُ هذا الوَفْد بالبيعة إلى عبد المؤمن ودخولُهم مَرّاكُش في شهر ذي الحِجة من العام المؤرَّخ. فأوّلُهم: القاضي أبو بكرٍ[4] ابنُ العَرَبي، والخطيبُ أبو عَمْرو بن

---

(١) سقط من م.

(٢) سقط من م.

(٣) الاستقصا ٢/ ١١٧.

(٤) المرقبة العليا ١٠٥.

حَجّاج، وأبو[1] بكر بن الجدّ، وأبو[2] الحَسَن الزُّهْري، وأبو الحَسَن ابنُ صاحب الصّلاة، وأبو بكر بنُ شَجَرة، ووَلَدُ الباجِيّ، والهَوْزنيُّ، ومحمدٌ ابنُ الزاهد، ومحمدٌ[3] ابنُ القاضي شُرَيْح، وعبدُ العزيز الصَّدَفي، وعليُّ بن طالب، وعليُّ بن سيّد، وغيرُ هؤلاء. فلمّا كان عيدُ الأضحى أذِنَ لهم في السلام، وجاوَبَهم بالتأمين والتسكين، والوَعْد الجميل المؤْذِن بالفتح المبين، ثم بعدَ ذلك أذِنَ لهم بالدّخول عليه في مجلسِه العالي[4] بقصر الحَجَر، فتقدَّم القاضي أبو بكر ابنُ العَرَبيِّ بالكلام، وخطَبَ خُطبةً بليغةً استحسَنَها الخليفة، ثم تَلاه أبو بكر بن الجدّ بخُطبة ثانية فأحسَنَها وأجاد، ودفَعوا له بيعةَ أهل إشبيلِيَةَ بخطوطِ أيديهم فيها، فأمَرَ بقَبولها منهم. ثم إنّ الخليفةَ سأل ابنَ العَرَبي عن الـمَهْديّ: هل رآه ولقِيَه في مجلس أبي حامدٍ الغزّاليِّ أم لا؟ فقال له: لم ألقَهُ، وإنّما سمِعتُ به، وأنه كان يقول: لا بدَّ من ظهورِه، ثم انفَصَلوا من عندِه بخيرٍ كثير وإنعام كبير.

قال أبو العباس بنُ مِقْدام: لـمّا وصَلَ هذا الوفدُ مَرّاكُش وارتدَّت القبائلُ بسبب قيام الماسِيّ، وَشَى واشٍ إلى الخليفة أنّ إشبيلِيَةَ ارتدَّت بمَن فيها، وشاع الخبرُ بذلك ولا عِلمَ عند الوفدِ بهم، فلم يَشعُروا إلا والموحِّدونَ قد أحاطوا بالدار التي كانوا بها على الأسقاف بالرّماح والسُّيوف، فمنهم من غُشِي عليه، ومنهم من بُهِت وظَهَر الموتُ لديه، ورقبَ عليهم الرُّقباءُ ليلًا ونهارًا، ورأوا الموتَ عِيانًا وجِهارًا، ودام ذلك ثلاثةَ أيام إلى أنْ وصَل الحقُّ ببراءةِ أهل إشبيلِيَةَ بكتاب الشّيخ أبي يعقوبَ بن سُليمان من إشبيلِيَة، فاستَدْركَ الأميرُ أرواحَهم، وعجَّل سَراحَهم، فوجَّه إليهم أبا إسحاقَ بنَ جامع وعبدَ الله بن سليمانَ مؤنسَيْنِ[5] لهم، فقالا لهم: إنّما وَجَّه لكم الرّجالَ

---

(١) بغية الملتمس (١٨١).

(٢) التكملة لابن الأبار (٢٧٥٣)، والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (٢٦٨)، والذيل لابن عبد الملك ٥/ ١٦٢، وصلة الصلة لابن الزبير ٤/ الترجمة ٢١٦، والمستملح للذهبي (٦٦٥)، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٣٧٥.

(٣) التكملة لابن الأبار (١٤٠٥)، والذيل لابن عبد الملك ٦/ ٢٢٩، و المستملح (١٢٥).

(٤) في م: «العام»، وهو تحريف.

(٥) في م: «معتذرين».

إشفاقًا عليكم ونظرًا حسَنًا إليكم؛ لأنّ الأميرَ رضي اللهُ عنه قال: إنْ وصَلَهم خبرُ ارتدادِهم يفِرُّونَ على وجوهِهم فتأكلُهم الطريقُ[1] بمن فيها من الثائرين، فثابَتْ إليهم نفوسُهم، وكان لهم بعدَ ذلك السَّراحُ والإنعام، وأمَرَ لهم بالزاد الوافر على أوفَى الكمال والتّمام، فأُمِرَ للقاضي ابن العَرَبيِّ بمئة مثقال ذهبيّةٍ حَشَميّة، ولابن حَجّاج الخطيب بمثل ذلك، ولسائر الوفد[2] على قَدْر منازلهم، وانصَرفوا بظهائرِهم من كُتب ابن عَطِيّةَ بالإنعام عليهم بصَرْف أموالهم وضِيَاعهم إليهم. وكان انصرافُهم من مَرّاكُش في جُمادى الآخِرة من سنة اثنتين وأربعينَ وخمس مئة. وتوفِّي القاضي ابنُ العَرَبيّ وهو على دابّتِه في الشهر المذكور عندَ وصُوله إلى مدينة فاس، ودَفَنوه في رَوْضة الجَيَّانيِّ وعمُرُه خمسٌ وسبعونَ سنة. وسببُ وصُولهم إلى فاسَ أنّهم أخَذوا على طريق الجبل بسبب فتنة القبائل.

تلخيصُ دخول الموحِّدينَ للأندَلسِ أوّلًا[3]

لـمّا اتّصَل بالأندَلُس موتُ عليِّ بن يوسُف ومَقْتلُ تاشْفينَ بن عليّ وليِّ عهدِه [واستيلاءُ الموحِّدينَ على][4] مدينة فاس، طاع عليُّ بن عيسى بن مَيْمون قائدُ البحر الـمُنتزي على الملثَّمينَ بقادِس، [وقصَد عبدَ][5] المؤمن، فوصَل إليه وهو بجبل العرض، فأمَرَ عبدُ المؤمن القائدَ المذكور أن يتوجَّه إلى الجزيرة المذكورة وأن يهدِمَ الصَّنمَ الذي فيها، فانصَرف. وشاع خبَرُه بجزيرة الأندَلس، وخطَبَ له عليٌّ المذكورُ بجامع قادِس، وهي أولُ خُطبة خُطبت له بجزيرة الأندَلس، وذلك في أوّل عام أربعينَ وخمس مئة. ثم طاع أحمدُ[6] بن قسِيّ من موضع قيامِه من حِصن مَرْتُلةَ عندَ غَلَبة سِدْراي[7] بن وزيرٍ

---

(١) في م: «الطرق»، وهو تحريف.

(٢) في م: «الوفد»، وهو تحريف.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

(٤) ما بين الحاصرتين فراغ في النسخ.

(٥) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ.

(٦) الوافي بالوفيات ٧/ ٢٩٧.

(٧) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

عليه، وكانت طاعتُه على يد عليٍّ بن عيسى المذكور، أجازَهُ في غراب هو وأصحابُه المختصُّونَ به من مَرْتُلةَ إلى سَبْتة، وكانت سبتةُ إذ ذاك في طاعة الموحِّدينَ تحت نَظَر الشّيخ أبي يعقوبَ يوسُفَ بن مخلوف، فأعان ابنُ مَخْلوف ابن قِسِيّ في الـمَشْي لعبد المؤمن حتّى وصَله بجبل العرض في شعبانَ من العام المذكور، ثم بعَثَه صُحبةَ الشّيخ أبي إسحاقَ بَرَّان بن محمد الـمَسُوفيّ إلى الأندلس لحرب مَن فيها من الثوّار الملثَّمينَ بعسكرٍ من الموحِّدينَ تنويهًا به، وبعَثَ معَه أبا عِمران موسى[1] بنَ سعيد من جبل العرضِ أيضًا، وعُمرَ[2] بن صالح بعسكر آخر.

وقد ذكَرَ ابنُ صاحب الصّلاة إجازةَ أبي إسحاقَ بَرَّان بن محمد الـمَسُوفيّ، وعُمرَ بن صالح الصُّنْهاجيِّ، وأحمدَ بن قِسِيّ معَ البعوث معَهم إلى الأندلس في تاريخ المرتدّينَ[3] الثوّارِ بها، فقال من جُملة كلامِه: لـمّا جاز العسكرانِ إلى الأندَلس قَصَدا مدينةَ شَرِيشَ أوّلًا، وكانت تحت الطاعة، ثم جازوا واديَ إشبيلِيَةَ وساروا إلى لَبْلة، ثم تحرَّكوا منها إلى مَرْتُلة وهي تحتَ الطاعة، ثم تحرَّكوا منها إلى شِلْب ونزَلوا على أنظارِها ثم فتَحوها ونهَضُوا منها إلى باجَة، فأطاع سِدْرَاي بنُ وزير وخَرج إلى الموحِّدينَ فأدخَلهم باجَةَ إلى أيمن حال، وطاع جميعُ أهل الغرب والجَوْف من الأندَلس. ثم رحَل أبو إسحاقَ بَرَّان من باجةَ إلى مَرْتُلة، وأقام بها زمنَ الشتاء، ثم أمَرَ سِدْراي بنَ وزير أن يصلَ إليه إلى مَرْتُلةَ بجميع العسكر الذي إلى نَظَره، فوصَلَه بجميع ذلك من الفُرسان والرِّجال، وتحرَّكوا منها إلى لَبْلة، فتلقَّاهم يوسُفُ[4] بن أحمدَ البِطْرَوْجيُّ صاحبُها، ومشَى الجميعُ بعدَما طاعَ أهلُ طلياطةَ[5] وحِصن القصر، ووصَل الجميعُ إلى إشبيلِيَةَ فحصَروها بَرًّا وبحرًا ففتَحَها اللهُ تعالى.

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٢.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢.

(٣) في م: «المريدين» وهو تصحيف ظاهر.

(٤) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤.

(٥) في ر٣: «طليطلة» وهو خطأ، وطلياطة قريبة من إشبيلِيَةَ تبعد عنها عشرين ميلًا (الروض المعطار: ٣٩٥).

ذكرُ ما حدَث على أهل إشبيلِيَةَ من الحوادثِ عندَ فتح الموحِّدينَ لها على جهة الإيجاز[1] والاختصار[2]

كان[3] فَتْحُها يومَ الأربعاء الثانيَ عشَرَ من شعبانَ المكرَّم من سنة إحدى وأربعين، ذكَرَ ذلك ابنُ صاحب الصّلاة في كتابِه فقال: فُتحت عند أوانِ العصر، وفَرَّ لَـمْتُونةُ منها إلى قَرْمُونة، وقُتل من أُدرِكَ منهم ومن أتباعِهم، وقُتل أبو عمرَ اليَناقيُّ الفقيه، وعبدُ الله[4] ابنُ القاضي أبي بكرٍ ابن العَرَبيّ عن غير قَصْد في بابِ المسجد، وملَكَ الموحِّدونَ المدينةَ وقصَبَتَها التي كانت قَصْرَ ابن عَبّاد.

وكان شَيْخُ الموحِّدين الذي يرجِعونَ إليه أبا إسحاقَ بنَ محمد الـمَسُوفيّ. وحضَر هذا الفتحَ من رُؤساءِ الأندَلس وثُوّارِها أبو محمد سِدْرَاي بن وزير شيخُ أهلِ الغرب بالأندَلس، ويوسُفُ بن محمد البِطْرَوجيُّ الثائرُ بلَبْلة، ولَبِيدُ بن عبد الله قائدُ شَنْتَرين، وجميعُ أهلِ الغرب بعسكرهم ورجالهم، ودخَلَ أبو إسحاق[5] الـمَسُوفي، ووحَّدَ أهلَ طلياطةَ[6] وحصنِ القَصْر وأهلَ الشَّرَف، وحين... إشبيلِيَةَ أعلَمَ بذلك عبدَ المؤمن فسُرَّ به، وأمَرَ بوصُول الشّيخ أبي يحيى بن الجَبْر إليها مُعينًا لمن فيها من الموحِّدين، فوصَلَها، وسَدَّ خلَلَها، وثَقِفَ أعمالَها. واجتمع معَ أبي إسحاق بَرَّان، عن رأي واحد، وسَعْدِ مُساعد، ناظرًا في الـمَجَابي، شريكًا في التدبير والنظر للموحِّدين، ناصحًا لهم، ثم وَفَد عليه وَفْد أهل الغَرْب طائعينَ مُنيبين، ثم ترادَفَت الفتوحُ من قِبَل الخليفة بمَرّاكُش، فتوجَّه وفدُ إشبيلِيَةَ إليه كما تقدَّم، فأمَرَ لهم بصَرْف أموالهم وضِياعهم، وبعدَ ذلك اعترَضَهم أبو إسحاقَ في رجوعِهم، فرجَعوا إلى عبد المؤمن شاكِينَ به وبفِعْلِه، فأمَرَ بإطلاق أيديهم، وأمَرَ أن يَشتغلَ يوسُف بن أحمدَ بالاحتسابِ بها،

---

(١) في ر٣: «الإنجاز»، وهو تصحيف.

(٢) ينظر ابن خلدون ٦/ ٣١٣.

(٣) في ر٣: «لـمّا كان» وليس بشيء.

(٤) التكملة لابن الأبار (٢٠٧٣)، والمستملح (٤٣٣).

(٥) سقطت الكنية من م.

(٦) في ر٣: «طليطلة»، وهو تحريف.

ودامَت الحالُ شهورًا على خيراتٍ وبرَكات إلى أن وصَل عبدُ العزيز وعيسى أخَوا الـمَهْديّ ومعَهما يَصْلاتنُ ابنُ عمِّهما.

قال أبو عبد الله محمدُ بن عبد الملك[1]: لـمّا وصَلَ عبدُ العزيز وعيسى إلى إشبيلِيَةَ معَ عسكر من الموحِّدينَ الغازِين، نَظَر الناسُ حيث يُنزلونَهم للسُّكنى، فاتّفق الرأيُ على حَوْمة الجَبّانة من داخِل إشبيلِيَةَ ليكونوا قريبًا من قَصْر ابن عَبّادٍ حيث سكنُ[2] أشياخ الموحِّدينَ: أبي يحيى بن الجَبْر وأبي إسحاقَ بَرّان الناظرِ في المخزَن بالأمر العالي ليتوصّلَ[3] الموحِّدونَ بعضُهم ببعض. فنزَلوا فيها، فلم يحفَظوا سُكْناها، وابتدروا[4] بحَرْق سُقُفها، وعَمَل أصاطبَ من بيوتِها لدوابِّهم، وكانوا قومَ سَوْء، ففَسَدت الدِّيارُ في أقربِ مدة، واستطالت أيدي أتباعِهم على الأندَلسيِّينَ المجاوِرينَ لهم، ففَرُّوا أمامَهم، وساءت حالُ أهل إشبيلِيَةَ بهم، وعبدُ المؤمن لا يعلَمُ ذلك حتى رُفِع له به، فأمَرَ بالكَتْب لبلاد الأندَلس كلِّها التي كانت تحتَ طاعة الموحِّدينَ بتمشِية العَدْل، ورَفْع المظالم والجَوْر.

وفي سنة اثنتين وأربعينَ وخمس مئة: خَرج أميرُ المؤمنينَ أبو محمد عبدُ المؤمن بنُ عليّ لغَزْو القبائل الثائرين[5]، وذلك لـمّا تفاقَمَ نفاقُ بَرْغَواطةَ ودكالةَ ويحيى الصَّحراويُّ عندَهم، فدوَّخَ عبدُ المؤمن أرضَهم وبلادَهم، واستأْصَل طُغاتَهم، وهزَمَهم في كلِّ موقف، وسَباهم وفرَّقهم أياديَ سَبا، وصيَّرهم أحاديثَ وأنْبا، حتى أذعَنوا بالطاعة ودخَلوا في حِزب الجماعة، وفَرّ يحيى الصَّحراويُّ عنهم، وتبرَّأَ من الشّيطان ومنهم، وانتلَفَ[6] بحيثُ لا يُعلم، وجعَلَ يتضرَّعُ إلى الأمير[7] في أن يُعفَى عنه ويَسلَم. فرجَع

---

(١) هذا في القسم المفقود من الذيل.

(٢) في م: «سكنه».

(٣) في م: «ليتّصل».

(٤) في م: «وابتدأوا»، وهو تحريف.

(٥) في م: «الثائرة».

(٦) في م: «واختفى».

(٧) في م: «الأمر»، وهو تحريف.

أميرُ المؤمنينَ إلى حضرة مَرّاكُش منصورًا ظافرًا بعدَ ستة أشهر من خروجِه منها. وبعدَ انصرافه توسَّط الأشياخُ إليه في يحيى الصَّحراويّ، فعَفَا عنه. وبعدَ هذه الحركة المباركة كان الخيرُ إليه من كلِّ جهةٍ يصِل، والوُدُّ بطاعتِه يتّصل، وأَتَتْه الـمُخاطَبَاتُ في السنة بعدَها من الأندَلس بالرّغبة في الدخول إلى الطاعة، وطاعت سَبْتة، ووصَل وَفْدُها، وكذلك وصَل إليه أهلُ سَلا، فأمَرَهم بهَدْم سُورِها، فهُدِم، وصَفَح عن دمائهم.

وفي سنة ثلاث وأربعينَ وخمس مئة: أمَرَ أبو محمد عبدُ المؤمن بالكَتْب للبلدان لـمّا استقرَّ بمَرّاكُش مُرِيحًا للنّظر في مصالح المسلمين، وقِوَام أمر الموحِّدين. وكان رُفِع له أنّ المظالـمَ قد ظَهَرت، والقِبالاتِ في الأسواق اشتُهرت، فكتَبَ أبو جعفرٍ بخطِّه عنه كتابًا إلى الطلبة والأشياخ... يأمُرُهم فيه بالمعروف ويَنْهى عن المنكرِ... عن سَفْك الدّماء، فأجاد فيه، وكانت... في معانيه، وذلك بتاريخ الخامسَ عشَرَ من ربيع الأوّل من هذه السنةِ المذكورة، ووَجَّه منها نُسخًا كثيرةً لبلاد الأندَلس والعُدوة، فجَمَعت هذه الرسالةُ قوانينَ العدل والفَضْل، والسياسة والرِّياسة، فكانت حُجّةً بأيدي الناس، ومؤمِّنةً لهم من الباس. ولـمّا وصلت هذه الرسالةُ إلى إشبيلِيَةَ بحَثوا على أهل الأشغال، المتصرِّفينَ في الأعمال، وأخَذوهم بالإقرار والاعتراف، وبالَغوا في البحث عليهم والإنصاف، فقَتلوا منهم رجُلَيْن ظهَرَ عليهما الفسقُ[1] والظلم، والفسادُ والإثمُ والجُرم، فوُجِد أحدُهما غيرَ مختون، والآخرُ استرابَتْ فيه[2] الظُّنون، وكانا يشتغلانِ بقَبْض الفِطرة، فظَهَر منهما الغِشُّ للخلافة والإمرة[3].

ذكرُ سبب كَتْب هذه الرسالة إلى البلدان وبقيّةِ ما جَرى بإشبيلِيَةَ وغيرِها من الحوادثِ والأكوان

وذلك أنه لـمّا رُفِع إلى عبد المؤمن ما فَعَل عبدُ العزيز وعيسى أخوا الـمَهْديِّ بإشبيلِيَةَ منَ استطالةِ أيديهما على أهلِها وعلى الأندَلسيِّينَ الـمُجاوِرينَ لها، وظَهَر من

---

(١) في م: «الفسوق».

(٢) في م: «عليه».

(٣) في م: «والإمارة».

أخوَي الـمَهْديِّ بإشبيلِيَةَ مذهبٌ في قَتْل الناس وإباحة الدّماء، وأخْذ الأموال واتّصال الاعتداء، ثم تَغيَّرا على البِطْرَوْجيِّ صاحبِ لَبْلَةَ وعَزَما على الإيقاع به، ففَهِم ذلك منهما، ففَرَّ بنفسِه عنهما، فخَرج من إشبيلِيَةَ عندَ مغيبِ الشمس من اليوم الذي عَزَم على الفِرار فيه، فسَرى ليلتَه وحصَل في لَبْلَةَ معَ جملة[1] من أصحابه، فثار بها وأمَّن مَن كان بها من الموحِّدينَ وأخرَجَهم منها، ووَجَّه في الحين إلى طلياطةَ وحصن القَصْر مَن ثَقِفهما وملَكَهما، وأعلن بنفاقِه، وأعاد بين لَبْلَةَ وإشبيلِيَة قبيحَ فتنتِه. واتّصلت الفتنةُ منه ومن لَـمْتُونةَ أهلِ قُرطُبَةَ على إشبيلِيَةَ أعظمَ اتصال، على تكرير الأيام بالغُدوِّ والآصال، مدةَ سنةِ اثنتين وثلاثٍ وأربعينَ إلى سنة أربع، واتّصلت الفتنُ بالعُدوة والأندَلس. ثم خالَفَ ابنُ قِسِيٍّ في مدينة شِلْب، ونشأت الفتنةُ بين محمد بن عليّ بن الحَجّام وبين أمير الغرب بمدينة بَطليوس، بسبب تغلُّب ابن الحَجّام على ابن وزيرٍ وإخراجِه من مدينة بَطليوس، ثم تغلَّب ابنُ غانِيةَ على الجزيرة الخَضْراء، وقام أهلُ سَبْتَةَ على الموحِّدينَ فقَتلوا واليَهم وأخرَجوهم، وثَبَتَ أبو الغَمْر بن غَرُّون بشَرِيشَ ورُنْدة على طاعة الموحِّدين، وارتفَع السعرُ بإشبيلِيَة[2] وعَظُمت المجاعةُ بها، باتّصال الفتن والتحامِها. وامتَنع عليُّ بن عيسى بن مَيْمون القائد من توصيل الأطعمة والأقواتِ إلى إشبيلِيَةَ في البحر، إذ كان قائدُ البحر مالكًا له، لا تَجري جاريةٌ فيه خوفًا منه، لاستباحتِه أموالَ التُّجار ودماءهم الذين يسوقونَ الأقواتَ ويتصرَّفون في مصالح المسلمين، فقَتَلهم[3] بسيفِه، وسقاهم[4] الموتَ من خوفِه. وبقِيت إشبيلِيَةُ محصورةً برًّا وبحرًا والناسُ بها في شدّة عظيمة من عَدَم القُوت حتى بِيعت خبزةٌ بدرهم ونصف، وبيع قَدَحُ القمح بستةٍ وثلاثينَ درهمًا، وباع الناسُ أموالَـهم بإشبيلِيَةَ بأيسرِ يسير[5]، واستوى الغنيُّ بها والفقير، وبِيع أصلُ زيتونٍ بالشَّرف بنصف درهم، ودارٌ تساوي مئة دينار بعشَرة دراهم.

---

(١) في م: «جماعة»، وهو تحريف.

(٢) في م: «بها».

(٣) في م: «يقتلهم».

(٤) في م: «ويسقيهم».

(٥) في م: «بالأيسر اليسير».

ولـمّا اتّصلت هذه الأحوالُ القبيحات، واشتدّت الكربات... المجرمونَ عيسى وعبدُ العزيز ويَصْلاتنُ ابنُ عمِّهما بمَن كان معَهما من إشبيلِيَةَ... وجميع بلاده بما عندَه من الفرسان والرجال، مُعينًا لهم... على جهةِ مالَقة... جرير ضرًا ولازَموها شهورًا، ووصَلَهم في البحر بالقطائع أبو محمد عبدُ الله بن سليمانَ مُعينًا لهم، حتّى فتَحَ اللهُ الجزيرةَ على يد أبي الغَمْر بن غَرُّون المذكور، وأخرَج لَـمْتُونَةَ عنها، وقتَل أتباعَهم، واستأْصَل أشياعَهم، واتّصل حالُ أهل إشبيلِيَة على ما ذكرتُه من الشِّدة.
ثم رجَع أخوا الـمَهْديِّ ويَصْلاتنُ إلى مَرّاكُش، فبَعثَ عبدُ المؤمن واليًا على إشبيلِيَةَ أبا يعقوبَ يوسُفَ بن سليمان بعسكرٍ من الموحِّدين، وبقي أبو إسحاق بَرّانُ على شُغل المخزن، فألفاها في غايةٍ من الشِّدة في كلِّ نوع، وقد اجتمعت عليها الفتنُ بكلِّ جمع. فسكَّن روعةَ أهلِها بعَدْلِه، وساسَ أعاديَه بدهائه وعقلِه، واجتمع ببَرّانَ الناظر في المخزن، ففَتَح عليه أبوابَ السياسة، وأعانه اللهُ على نُصْح الخليفة في الرِّياسة، واتّفق رأيُهم على بِناء قَصَبةٍ بإشبيلِيَةَ، وعلى ترحيل الموحِّدينَ الساكنينَ بالجَبّانة إلى القَصَبة بسبب تشكّي الناس من ضُرِّهم[1]، فعزَموا على ذلك، وحازوا موضعَها الذي هي الآنَ فيه، وأخرَجوا أهلَها عن ديارِهم، وعوَّضُوهم في المدينة أعواضًا من ديار المخزن مما لا يُرضيهم، وكان هذا على الناس أشدَّ من قَتْل نفوسِهم، وزيادةً في كثرة همومهم وبوسِهم، وهَدَموا سُورَ ابن عَبّاد وبَنَوْا بأحجارِه هذه القَصَبة، ولم يزَل الناسُ يتشكَّوْنَ من هذا العِوَض مدةَ الخليفة الأوّل والثاني والثالث وهم ينظرونَ لهم، إلى أنْ طال الزّمان، وأرضاهمُ الإحسان.

وخَرج أبو يعقوبَ بنُ سليمانَ المذكورُ إلى لَبْلة، ففَرَّ البِطْرَوْجيُّ من الغربِ وِجهةِ شِلْب، مقرِّ ابن قِسِيّ، فعسكَرَ الموحِّدونَ ومن تَبِعهم من الرؤساءِ الأندَلسيِّينَ في فَصْل الشتاء والبرد، فدوَّخ نظرَ يوسُفَ البِطْرَوْجيِّ بطلياطةَ[2] ونظرِها، ثم انتَقل إلى لَبْلة وأقطارِها، ثم انتَقل إلى جهة الغرب وأغار على طبيرةَ[3] ونظَرِها، وتلقَّاهُ أهلُ

---

(١) في م: «ضررهم».

(٢) في م: «بألياطة».

(٣) معجم البلدان ٤/ ٢١.

مدينة العَلْياءِ بالتوحيد، وكان بمدينة شَنْتَمَرِيّةَ القائدُ عيسى بنُ مَيْمون والدُ القائد عليٍّ المذكور قبلَ هذا واليًا عليها، فاتّصل بعسكرِ الموحِّدين وغَزَا معهم جهةَ شِلْب، فتعرَّضت لهم جماعةٌ من أصحاب يوسُفَ البِطْرَوْجيِّ ليدافعوهم عن جهة شِلْب، فهزَموهم واستأْصَلوهم.

وتَمادى غَزْوُ الموحِّدينَ تلك الجهةَ حتى أنكَروا بلادَ العدوِّ غربَ الأندَلس، وألزَموهم عظيمَ الحربِ والكَرْب، وألحَّ المطرُ عليهم فلم يُمكنْهم الرجوعُ على[1] الطريق الأول لامتلاءِ الأودية وحَمْلِها، وثِقَل الأرض ووَحْلِها. فانصَرف الموحِّدونَ على جهة بَطليوس.

ولـمّا فهِم[2] محمدُ بن عليّ بن الحَجّام صاحبُ بَطليوسَ في تلك الأيام، وأوصَلَهم بالقواربِ وأجازَهم على الوادي، وحيّاهم بالتضييفِ الحافل من كلِّ جانب، فرُعِيَ له ذلك، وعُدَّ له أنه عهد، وسالَـموهُ في طريقِهم، ولم يُروِّعوا له سِربًا لأجْل توفِية حقوقِهم، ووصَلوا إشبيلِيَةَ موفورينَ منصورين.

ووصَل كتابٌ من الخليفة عبد المؤمن لأبي يعقوب، يَشكُرُه على غَزْوته هذه، جوابًا على خطابِه، يَذكُر له فيه: وَصَل كتابُكم الأَثِيل مضمَّنًا من الإعلانِ بما شاء[3] اللهُ للموحِّدينَ من الفَتْح الجليل، والصُّنع الجميل، في الجملةِ أتى، فكانت شلبُ عجّل اللهُ الفتح إليهم و... وفي أثناءِ هذا الحال... أذْفُونْش خزاه الله...[4] قُرطُبة، فتغَلَّب على يحيى بن عليّ بن غانِيةَ حربتِه[5] وشوكتِه حتى أعطاه بَيّاسةَ وأُبَّدة، وبعَثَ الرُّومُ على مدينة أَشْبُونَةَ وطَرْطُوشةَ ولارِدةَ وافراغةَ وشَنْتَمَرِيّة، واستولَوْا على جملة من بلاد الأندَلس، فداخَلَ ابنُ غانِية صاحبُ قُرطُبة بَرّان بنَ محمد صاحبَ إشبيلِيَةَ أعادها اللهُ للإسلام.

---

(١) في م: «إلى».

(٢) في م: «وعلم بهم» مكان: «ولـمّا فهم».

(٣) في م: «بما سنّى»، وهو تحريف.

(٤) قوله: «أتى فكانت شلب عجّل الله الفتح إليهم، و... وفي أثناء هذا الحال... أذْفُونْش خزاه الله...» سقط كله من م.

(٥) في م: «بقوته»، وهو تحريف.

ذِكْرُ دخول الموحِّدين قُرطُبَةَ وقَرْمُونة
وخروج ابن غانِيةَ عنهما ووفاتِه في هذه السَّنة[1]

لـمّا وقَعَت الـمُداخلةُ والـمُواصَلةُ بين الموحِّدينَ وبين يحيى بن غانِية برأي أبي إسحاق بَرّان بن محمد ونُصْحِه واجتماعِه معَه بإستِجَة، وذلك أنه لـمّا تَسلَّط أذْفُونْش على ابن غانِية ولم يرْضَ منه بما اتّفق معَه من الإتاوة التي كان يعطيه كلَّ عام، طلَبَ منه قُرطُبَةَ أن يُعطيَها له، وقال له: إنّما أنت عاملي عليها وأنا ملَّكتُك إياها يومَ إخراجي ابنَ حَمْدينَ عنها، فأنِفَ من ذلك ابنُ غانِيةَ أنفَةَ المؤمن وراجَعَ نفسَه إلى حماية الدِّين[2]، فوَجَّه إلى أبي إسحاق بَرّان بن محمد[3] أن يجتمعَ معَه، فحين وَصَل الخبرُ إلى بَرّانَ المذكور، سار إليه واجتَمع معَه بإستِجَة، وانفَردا في المناجاة بينَهما مدةَ يومِهما، فبيَّنَ عليه أبو إسحاقَ فَضْلَ الخليفة عبدِ المؤمن ومذهبَه في نَصْر الدِّين بهذه الجزيرة الـمُنقطعة وقَمْع الكفّار عنها، واتّفق الصُّلحُ بينَهما، وضَمِن له أبو إسحاقَ بَرّانُ أنه يوجِدُ له عساكرَ تَحمي بلادَه ويكونوا أعوانَه وأجنادَه على أن يُمكِّنَ أبو زكريّا المذكورُ الموحِّدينَ من قُرطُبة وقَرْمُونة ويَسكُنَ ابنُ غانِيةَ مدينةَ جَيّانَ عِوَضًا عن قُرطُبَةَ وقَرْمُونة. فاتّفقا على ذلك، وانفَصَلا على هذا الصُّلح والعهد، والرَّبْطِ على الوفاءِ والعَقْد. وعندَ انفصالِـهما خاطَبَ أبو إسحاقَ بَرّان عبدَ المؤمن بوَصْف الحال، وبتأدِّي أبي زكريا ابن غانِيةَ إلى الطاعة، وصفاءِ مذهبِه في الدُّخول في هذا الأمرِ السعيد، واستأذَنَ أبو إسحاقَ في الـمَشْي إلى الحضرة ليشرحَ[4] الحالَ مُشافهةً، فأذِنَ له في الوصول، فوَصَل مستعجِلًا، ثم صرَفَه عبدُ المؤمن مُعجَّلًا، وخاطَبَ معه أبا زكريّا المذكورَ مُستَدْنِيًا ومُواصِلًا، ومُنجِزًا له من العِدات والخَيْراتِ فوقَ ما كان آمِلًا.

---

(١) انظر بعض هذه الأخبار في ترجمة يحيى بن علي بن غانية في الإحاطة ٤/ ٣٤٣-٣٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٤-٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٨.

(٢) في م: «الموحّدين»، وهو غلط محض.

(٣) في ر٣: «فوجّه أبا إسحاق وبَرّان بن محمد»، وهو تحريف بيّن.

(٤) في ك: «بشرح»، وفي م: «يشرح» وما أثبتناه من ر٣ وهو الأولى.

ولـمّا وصَلَ كتابُ أبي محمد عبد المؤمن إلى ابن غانِيةَ الـمَسُوفيِّ صاحبِ قُرطُبَةَ وما يَليها من البُلدان، ابتَهجَ وزاد سرورُه، وقَوِي في ذات الله عَزْمُه وظهورُه، فتخَلَّى له الموحِّدونَ عن مدينة جَيّان، وشاع الخبرُ عند أذْفُونْش والنَّصارى بذلك، فجَمَع عسكرَه الذَّميمَ وخرَجَ به محُارِبًا لأبي زكريّا المذكور، وطلَبَ منه أن يُعطيَه جَيّان، وإلّا أغار عليه فيها ونازَلَـها بأعدادِه، فلم يمكن ابنَ غانِيةَ إلا أن يُنعِمَ له بها وهو يُظهِرُ خلافَ ما يُبطِن، ولم يطَّلعْ أحدٌ على سرِّ الله عزّ وجل، فاستعجَلَ أذْفُونْشُ بجَمْعِه الذَّميم ونزَل على ستة أميال من جَيّان، وطلَبَه بإنجازِ وعدِه، فعزَمَ يحيى رحمةُ الله عليه على الوفاءِ لله تعالى في الذَّبِّ عن حريمِه وحُرَمِه، فرتَّبَ[(١)] الفرسانَ والرجالَ والحماةَ[(٢)] الأبطال على أبوابِ المدينة وحصن القَصَبة بالثِّقات[(٣)] وأكمل عزمَه... أذفُونْش أن يوجِّهَ... وبعدَ ذلك يصلُ هو بعده... مئة من... وقَصَدوا الموضعَ الذي كان فيه ابنُ غانِيةَ واقفًا بباب القَصَبة، فقَبَضَ على جميعِهم حينَ[(٤)] تقبُّضَ ملِكٍ مِقدام، فارس شَهْم همُام، وقيَّد جميعَهم في الحديدِ والكُبول، واحتُملوا إلى سجن القَصَبة المانعة على أسوإ محمول، وجاهَدَ في الله جهادًا مبرورًا، ولقيَ بذلك من ربِّه نَضْرةً وسُرورًا.

واتّصل خبرُ هذه البَطْشة في الحين، بأذْفُونْشَ اللَّعين، فأقلَعَ مُرتاعًا فَزِعًا، وانصَرف على طريق بَيّاسةَ ومنها إلى بلادِه بقَشْتالة[(٥)]، وانتقَضَ بينَه وبينَ ابن غانِيةَ العهدُ[(٦)]، ولم يكنْ بينَهما اجتماعٌ أبدًا بعدُ.

ولـمّا كَمُل له بعَوْن الله مرادُه، ورجَح[(٧)] له عندَ الله جِهادُه، احتَمَلَهم مكبولينَ

---

(١) في م: «فوثب»، وهو تحريف لا معنى له.

(٢) في م: «والمشاة»، وهو تحريف.

(٣) في م: «بالثقاب»، وهو تصحيف.

(٤) سقطت من ر٣، م.

(٥) في م: «قشتالة».

(٦) العبارة في م: «وانتقض ما بينه وبين ابن غانية من عهد»، ولا ندري من أين أتوا بها، فضلًا عن أن الأسلوب يقتضي رفع العهد.

(٧) في م: «ورجع» بالعين المهملة، ولا معنى لها، وهي قراءة سيئة.

إلى قلعة ابن[1] سَعيد وفي نيّتِه ما ارتَبط عليه من الوفاءِ للموحِّدين، وطاعةِ أمير المؤمنين، وسار منها إلى غَرْناطَةَ ليجتمعَ معَ مَن بها من اللَّمْتُونيِّين، ويَربِطَهم لِـما[2] ارتَبط، ويَشترطَ عليهم ما اشتَرط، فأقام بغَرْناطةَ نحوَ شهرَيْن، وتوفِّي بها عصرَ يوم الجُمُعة الرابعَ عشَرَ من شعبانَ المكرَّم من سنة ثلاث وأربعينَ وخمس مئة، ودُفن بالمسجد الصّغير المتّصل بقَصْر بادِيس، وأُلْصِقَ قبرُه بقبر بادِيسَ بن حَبُّوس.

ولـمّا وَصَلَ خبرُ موتِه لصاحبِ[3] القلعة أبي مروانَ بن سعيد قائدِ ابن غانِيةَ وأمينِه، دخَلَ إلى الأقماطِ المسجونينَ عندَه، وأعلَمَهم بموتِ ابن غانِية، وارتَبط معَهم على أنه إنْ حَلَّهم تكونُ القلعةُ بيدِه كإحدى بلادِ النَّصارى، فضَمِنوا له ذلك.

وخاطَبَ أبو إسحاقَ بَرّان بن محمد الأميرَ عبدَ المؤمن بما كان من هذه الحوادث، فجاوَبَه على ذلك.

ولـمّا عَلِم أذْفُونْش بموتِ ابن غانِيةَ، زاد طمَعُه في قُرطُبَةَ وأنظارِها، فحشَدَ جميعَ الكفّار ببلادِه لـمُنازلتِها، وأعلَمَ الموحِّدونَ حضرةَ أميرِهم بذلك واستغاثوا بالله تعالى وبه، فوَجَّه لهم عسكرًا معَ أبي محمد عبد الله بن أبي بكرٍ رحمه اللهُ تعالى، ثم والَى نظَرُه بعدَ هذا بتوجيه عسكرٍ في[4] إثرِ عسكر، واجتمع رأيُ الموحِّدينَ بإشبيلِيَةَ لـمّا تحقَّقوا احتشادَ الطاغية أذْفُونْش لـمُنازلة قُرطُبَةَ أن يوجِّهوا إليها أبا الغَمْر بنَ غَزُّون لعلمِهم بنَجْدتِه وشهامتِه[5]، فتوَجَّه إليها.

ولـمّا عَلِم بهذه الشِّدة يوسُفُ بن أحمد البِطْرَوْجيُّ بلَبْلة، رغَّبَ إلى الموحِّدينَ أن يُعينَهم بجُملة من فُرسانِه يمشُونَ معَ ابن غَزُّون إلى قُرطُبة لحرب الرّوم ومدافعتِهم، فقُبِل ذلك منه، فوجَّه أربع مئة فارس من أنجاد أصحابِه، فكان له ذلك عُنوانَ قَبول، في رجعتِه إلى الطاعة ومأمول.

---

(١) في م: «بني».

(٢) في م: «بها».

(٣) في م: «إلى صاحب».

(٤) سقط من م.

(٥) في م: «وشجاعته».

وأعلَمَ الموحِّدون الذين بإشبيلِيَةَ أميرَهم بمُنازلة أذْفُونْش قُرطُبة، فأزعَجَ عسكرًا صُحبةَ أبي زكريّا بن يومُور[1]. ولـمّا وصل أبو زكريّا بن يومُورَ بعسكرِ الموحِّدينَ إلى إشبيلِيَةَ، اجتَمع معَ إخوانِه الذين كانوا بها، وتشاوروا كيف يكونُ السلوكُ إلى قُرطُبة، إذِ العدوُّ مُنازِلٌ جوانبَها، فرأَوْا أن يكونَ السلوكُ إليها على الجبل كي لا[2] يكونَ عند الطاغية خبرٌ منهم حتّى يدخلوها[3]، فاستَجازوا على ذلك وسَلَكوا الطريقَ الكبير، فلم يَعلم العدوُّ بخبرِهم حتّى دخَلوها ليلًا، ثم بَرَّزوا من الغدِ عليه تبريزًا أذهَلَه، وأذهبَ طمعَه فيها وهاله، وأقام قليلًا من الأيام وأقلَعَ خائبًا لم يحظَ بنيّلِ مرام. وكان بقُرطُبَةَ مدةَ حصارِها مجاعةٌ عظيمةٌ أكَلوا... بعدَ إقلاع العدوِّ عنها وأقْفَرت، ثم... في أوّل[4]...

ولـمّا فَرغَ أبو زكريّا بن يومُورَ من محاربةِ العدوِّ المذكور وَصَله خطابُ يوسُف بن أحمد البِطْرَوْجي راغبًا، ثم وَصَّل بنفسِه إلى إشبيلِيَةَ مُتطارحًا طالبًا أن يشفَعَ له عند خليفته[5]، وأن يرجِعَ تحت طاعتِه، وأن يعفوَ عنه فيما جَناهُ من الفتنة، وكذلك رَغِب في أحمدَ بن قِسيّ خليله، وفي محمد بن عبد العزيز خَدينِه، فخاطَبَ فيه أبو زكريا المذكورُ بما رَغِب فيه، وأوصَلَ الأمانةَ عنه بما طلَب، فوصَلَ الأمرُ بالعفوِ عنه وعن صاحبَيْه. وكان سِدْراي بن وزير قد قَبَض يدَه مدّةَ ارتدادِ الثوّار عن فتنة الموحِّدين وأمسَكَ نفسَه عن مُقابحتِهم واشتَغل بمحاربة ابن قِسيّ ودفاع البِطْرَوْجيّ ومُغالبة محمد بن الحَجّام، فلم يكنْ للموحِّدينَ قبلَه حِقد، ولا ثَبَتَ منهم عليه نَقْد، فلمّا وصَلَ أبو زكريّا بن يومُورَ بالعساكر بادَرَ بخطابه[6] إليه وإلى أبي إسحاقَ بَرّان بن محمد بالاعتذار عن توقُّفِه والاستغفار عن تخلُّفِه، فسَعَيَا له أحسَنَ السّعي في ذلك كلِّه.

---

(١) له ذكر في نهاية الأرب ٢٤/ ٣٠١.

(٢) في م: «لكيلا».

(٣) في م: «بدخولها».

(٤) قوله: «في أول...» سقط من م.

(٥) في م: «الخليفة»، وهو تحريف لا يتسق سجعًا مع الذي بعده.

(٦) في م: «بالخطاب».

وفي سنة أربع وأربعينَ وخمس مئة، في آخرها: نهض[1] سِدْراي بن وزير إلى إشبيلِيَةَ، فبادَرَ إليها بنفسِه، فاجتَمع بهما فيها. ثم توجَّه منها بنفسِه وأهلِه ومالِه إلى حضرة مَرّاكُش، ولـمّا وصَلَ إليها قَبلَه أميرُ المؤمنين أبو محمد عبدُ المؤمن، وتخَدَّم له الوزيرُ أبو جعفر[2] ابنُ عِطِيّة حتى خَفَّ جانبُه وشكَرَ له بِدارَه، ثم تلاه أبو الغَمْر بن غَرُّون، ثم تابَعَهما يوسُفُ البِطْرَوْجيّ مُلقيًا بنفسِه، تائبًا عمّا جَناه من قبيح الفتنة في أمسِه، واجتَمع الكلُّ بحضرة مَرّاكُش. ثم نَظَر الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن في الحركة إلى مدينة سَلا[3].

وفي سنة خمس وأربعينَ وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من مَرّاكُش إلى مدينة سَلا ليتطلّعَ منها على أخبار الأندَلس، فلمّا وصَل إليها رأى أنْ يُجريَ ماءَ عينِ غبولةَ إلى مدينة الـمَهْديّة، وهي رِباطُ الفتح مِن سَلا، فأمَرَ بإحضار الفَعَلة، وأجرَى الماءَ حتى أوصَلَه إليها في شهرينِ اثنَيْن، وأمَرَ باستدعاء شيوخ جميع الأندَلس الذين تحتَ طاعته، فوصَل كتابُه إلى أهل إشبيلِيَة، فخاطَبوا أهلَ قُرطُبَةَ وأهلَ بلاد ابن وزير والغربِ وبلادِ الجَوْف وبلاد ابن قِسِيّ والبِطْرَوْجي، فوصَلوا إلى إشبيلِيَةَ مُسارعينَ[4] مُبادرين، واجتمع الجميعُ بإشبيلِيَة، وتحرَّكوا منها في الخامسَ عشَرَ من ذي الحجّة، وسَلَكوا طريقًا إلى شَريش ومنها إلى طَرِيف، وتلك النواحي كلُّها مُقْفِرةٌ لا سُكنَى بها ولا عِمارة لقُرب الفتنة الـمُهلِكة لأهل الأندَلس، فأجازوا البحرَ وأخَذوا الطريقَ إلى سَلَا[5].

قال ابنُ صاحبِ الصّلاة: فمرَرْنا في طريقنا على قَصْر عبد الكريم وليس فيه إلا قليلٌ[6] من الناس في خَيْماتٍ وحانوتٍ[7] واحد كان سوقُهم به، والأُسودُ تَزْأَرُ حوالَيْه والأرضُ مُوحِشةٌ قَفْرة، أخلاها تَهارُجُ الفتن. فوصَلوا إليها في السابع والعشرينَ

---

(١) في م: «قام».

(٢) سقطت الكنية من م.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٤-٣١٥.

(٤) في م: «مسرعين».

(٥) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٩-١٢٠.

(٦) في م: «القليل».

(٧) الضبط في الكلمتين من ك.

من ذي الحجة، وهم في نحو خمس مئة فارس بينَ[1] الشيوخ والأجناد والقُوّاد ومَن تَبِعهم من رجالهم. فأمَرَ الأميرُ عبدُ المؤمن... على ميلَيْن من سَلَا، فنزَلُوا إليهم وسَلَّموا... الأندلس ما وجب... [2] والدعاء لهم ولخليفتِهم بما حضَر من الكلام. وبعدَ هذا نزَل جميعُ الوَفْد في الدِّيار وأُدِرَّت عليهم الضِّيافاتُ أتمَّ إدرار.

وفي سنة ستٍّ وأربعين وخمس مئة في أوّل يوم من هذا العام المؤرَّخ: أمَرَ أميرُ المؤمنين الوافدينَ بدخولهم إليه وسلامِهم عليه في رَحْبة دار ابن عشَرةَ وهو جالسٌ على حصيرٍ في الرَّحبة المذكورة وعليه غِفَارةٌ زَبيبيّة، وعلى رأسِه عِمامةُ صُوف، والوزيرُ ابن عَطِيّة يُقدِّمُ الدّاخلينَ من الوفدِ ويعرِّف بهم و[3] يُسمِّيهم. فأشار ابنُ عَطِيّة بالتقدُّم في الكلام، فتقدَّم قاضيهم أبو القاسم بنُ حَجّاج[4]، فقال في أثناء كلامِه: إنّ أذْفُونْشَ لعنَه الله بعدَ ما تنَحْنَح وسَعَل، ودبَر وبهَر، فغَلِط في مقالِه عِوَضًا من[5] اللّعنة بالتأييد، ثم قال: إنه أضعفَ بلادَنا وأقفرها[6]. فعلم الخليفةُ أنه أخطأ، فسَكَت وأعرَضَ عنه، وخَجِل جميعُ الوفد من مقالِه، وبُهِتَ من حالِه، فتلافَى الناسَ في المجلس الفقيهُ أبو بكر ابنُ الجدّ، فخَطَب في الحين خُطبةً بليغةً ذكَرَ فيها أولي[7] الأمرِ العزيز والدعاءَ للخليفة وما يجبُ من البِدار إلى طاعته، والدخول في جماعتِه، وتكلَّم رؤساءُ المجلس واحدًا بعد واحد[8]، ثم انفصَل المجلسُ في ذلك اليوم، ووَعَد الناسَ بالرجوعِ إلى المجلس والتَّكرارِ في اليوم الثاني للمبايعة، فحضَر جميعُ الوَفْد، ودخَلوا على سبيل الدّخول[9].

---

(١) في م: «من».

(٢) قوله: «الأندلس ما وجب...» سقط من م جملةً.

(٣) قوله: «الداخلين من الوفد ويعرِّف بهم و» سقط كلّه من م وأخلّت به، فهو أمر عجيب.

(٤) في م: «حجّام» بالميم، وهو تحريف.

(٥) في م: «عن».

(٦) في م: «وأفقرها» بتقديم الفاء، وهو تصحيف.

(٧) في م: «أولاد»، وهو تحريف لا معنى له!

(٨) في م: «واحدًا واحدًا»، خطأ.

(٩) ينظر الاستقصا ٢/ ١١٩.

ذكْرُ بيعة رؤساءِ الأندَلس الوافدينَ على عبد المؤمن بمدينةِ سَلَا وانخلاعِهم له[1]

لـمّا دخَلوا على أبي محمد عبد المؤمن بادَرَ أبو محمد سِدْرايُ بن وزير أولًا وبايَعَ على الانخلاعِ من بلادِه باجَةَ ويابُورةَ وأنظارِهما، فشُكِر على فعلِه ذلك. وأراد البِطْرَوْجيُّ أن يتكلَّم فلم يقدِرْ على النُّطق، ولا شَرَح بيانَ الحق، فنفِدَ عليه توقُّفه، وتبيَّن تحرُّجُه، لكنّ أميرَ المؤمنين رفَع رأسَه للناس وقال مشيرًا إليه: هذا أبو الحَجّاج صاحبُنا بالشَّرف. فلم يَشكُرْه على ذلك، ولا قبّل يدَه. ثم قام ابنُ غَزُّون وبايَعَ على الانخلاع من بلاده، وكذلك محمدُ بن الحَجّام، وكذلك عامرُ بن مَهيب صاحبُ طبيرة، وكذلك بايَعَ جميعُ مَن حضَر من الثوّار، وتخَلّف ابنُ قِسِيّ وأشياخُ بلدِه شِلْب عن هذا الجَمْع، ولم يحضُرْ مَن ينُوبُ عنه، فظهَر للخليفة فسادُ مذهبِه وارتدادُه. ثم دخَل سائرُ الناس من الوافدينَ واحدًا بعدَ واحد حتى كمُلوا[2]، وكان السَّبقُ لأهل إشبيلِيَة. وتكلَّم في هذا[3] المجلس كلُّ مَن أراد أن يتكلَّمَ من الأشياخ والأجناد ومن سائرهم، ولم يُثرِّب[4] أحد عليهم ولو تكلَّم بكلام سخيف، أو تظَلَّم بطلبٍ ضعيف، وأنشَدَ من الشعراء مَن أراد. وأمَرَ جميعَ الوفد بالانصراف إلى بلادهم بعدَ إقامتهم خمسةَ عشَرَ يومًا.

وخاطَبَ أبو محمد عبدُ المؤمن الأشياخَ والطَّلبةَ الذين بإشبيلِيَة بوَصْف الحال، وبما يُبلِّغُ الآمِلَ للآمال. وبعدَ انصراف هذا الوفد تحرَّكَ الأميرُ أبو محمد[5] المؤمنين راحلًا إلى مَرّاكُشَ حضرتِه، وانصَرف معَه ابنُ وزير على أملٍ وجَذَلٍ وعِدّةٍ كريمة مبرورة، وخاطَبَ أخاه أن يُمكِّنَ الموحِّدينَ من بلاده، فامتَثل ذلك وفعَلَ. وأُمِرَ البِطْرَوْجي

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٥، والاستقصا ٢/ ١١٩.

(٢) في م: «أتـمّوا»، وهو تحريف.

(٣) في م: «بهذا».

(٤) في م: «يعتب»، وهو تحريف قبيح، وثرَّب فلانٌ عليه: لامه وعيّره بذنبه، وفي التنزيل العزيز: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]. يقال: ثرّب عليهم فعلَهم: قبّحه.

(٥) في م: «أمير المؤمنين».

فصُرِف مهجورًا إلى مَرّاكُش... لَبْلة من التّمادي على الارتداد ما أوجَبَ سجنَه... الغَلَبة عليهم... بن عيسى.

وفي هذه السنة: حاصَرت العربُ سيروان[1]... وضيَّقت عليها[2].

وفيها: أخَذ مؤنسُ بن يحيى العَرَبيُّ مدينةَ باجَةَ وأطاعه أهلُها[3].

وفي سنة سبع وأربعينَ وخمس مئة: شَرعَ أميرُ المؤمنين عبدُ المؤمن في الحركة إلى بِجَايةَ وأنظارِها على ما أذكُره إن شاء اللهُ تعالى.

ذكْرُ حركة عبد المؤمن إلى بِجَاية واستيلائه على مملكة بني حَمّاد وبلاد متيجةَ وتيسير ذلك[4] بالعَجَب[5] العجيب

لـمّا أراد الخليفةُ عبدُ المؤمن غَزْوَ بني حمّاد استَسَرَّ ذلك معَ خاصّتِه ووُزرائه، منهم: أبو إبراهيم وأبو حفص وغيرُهما، وأظهَر لهم ما في طيِّ نفسِه من ذلك، فاشتغل باحتشاد قبائل الموحِّدينَ من جبالهم، وخَرج من مَرّاكُشَ في أواخِر سنة ستٍّ الفارطة مُظهِرًا للناس غَزْوَ الرّوم بجزيرة الأندَلس. فلمّا وصَل إلى سَلا، أقام بها شهرَيْن يُرَدِّدُ الرأيَ في نفسِه، ثم وصَل[6] منها إلى سَبْتةَ مظهرًا للناس الإجازةَ إلى الأندَلس. واستَدعى مَن له من العمّال بإشبيلِيَةَ وأنظارِها، فوصَلوا إليه، واستوضَحَ مسائلَهم. ثم رحَل منها راجِعًا مُظهِرًا الانصرافَ إلى مَرّاكُش، وأشاع الذِّكرَ بذلك للناس، ومَقصِدُه في نفسِه ونفسِ خاصّتِه بِجَايةُ وبلادُ إفريقيّة. وكان حينَ حركتِه هذه من مَرّاكُش خاطَبَ عاملَه على تِلِمْسان وهو ابنُ وانودين يأمُرُه بمنع التُّجار المسافرينَ من التصرّف والتحرُّك إلى إفريقيّةَ برًّا وبحرًا لأجل الإخبار، بانتقال المسافرينَ

---

(١) سقطت من م، ولم نقف عليها.

(٢) في م: «عليهم».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٨٠ والمقصود هنا سنة ست وأربعين وخمس مئة.

(٤) ينظر الكامل ١١/ ١٥٨-١٥٩، والمعجب ٢٧٢ فما بعد، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٠٢ فما بعد، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٥-٢٣٦، والاستقصا ٢/ ١٢٠-١٢١.

(٥) في م: «فالعجب».

(٦) في م: «توصل».

والتُّجار. فامتَثل ذلك والتزَم الأمرَ في فعلِه هنالك[1]. ولـمّا فصَل من طَنْجةَ أخَذ على قَصْر عبد الكريم على طريق جَعَل فيه فاسًا على يمينِه، وأخَذ قاطعًا إلى الشرق، ونادى منادي المحَلّة عن أمرِه: أيُّها الناس، مَن تكلَّم منكم بكلمةٍ معناها إلى[2] أينَ هو المشيُ هل إلى الشرق أو إلى الغرب أو إلى[3] القِبلة؟ فجزاؤه السَّيف... ثم تحرَّك إلى جهة بِجَايةَ مُستعجِلًا في الرحيل، على أول غرَضِه من التأميل، فما شَعر ابنُ حمّاد صاحبُ بِجَاية، المعروفُ بالعزيز، حتى وصَل عاملُه بالجزائر بعدَما خَرج منها، ودخَلَها الموحِّدون، فصَبَّحَ بِجَايةَ في إثْرِ ذلك. وعَلِم بوصولِه أبو عبد الله بنُ ميمون المعروفُ بابن حَمْدون، وقد كان بينَه وبينَ أبي محمد عبد المؤمن عهدٌ على ذلك ومُوافقة، ففَتَح له بابَ مدينة بِجَاية، وقد كان ابنُ حمّاد حين وصَله مُسْتَنابُهُ من الجزائر نَظَر في قطعة من قطع البحر وركبها لفَوْره[4]، ورآها مُفزِعةً لذُعرِه، وأضاف إلى القطعة المذكورة قطعتين اثنتين ملأهما بجميع ذخائرِه من الجوهر والياقوت والذهبِ الصامت والآنية والثيابِ وغير ذلك، وأدخَل فيها عِيالَه، وقَذَفت في حينِه بذلك إلى مدينة[5]... وكان فيها أخوه شقيقُه، فأحَسَّ منه غَدْرَه، فرحَل عنه في البحر، ووصَل إلى مقرُبة من القُسنطِينة[6][7] في آخر مراسيها، وقد كان حصَّنها برجال من عنده، فنزل في البرِّ منها على ثلاثينَ ميلًا وأخرج من القطائع جميعَ ماله المشحون فيها وأوقَره على الدواب واحتمله إلى القُسنطينة وأقام بها حتى نازَلَه الموحِّدونَ وحاصَروه بها مدة، فرغِبَ في الأمان بجميع[8]... لعَدْلِه، واثقًا بفضلِه، فلقيَ من التأنيس ما أنساه... مظنّة تركه[9]،

---

(١) في م: «هناك».

(٢) سقط من م.

(٣) سقط من م.

(٤) في م: «العبوره»، وهو تحريف.

(٥) سقطت من م.

(٦) في م: «قسنطينة».

(٧) من هنا إلى قوله: «القسنطينة» بعد سطرين سقط كله من م.

(٨) سقطت من م.

(٩) قوله: «مظنة تركه» سقط من م.

وانتَقل بأثقالِه، وأحمال مالِه، وجميع أهلِه وعِيالِه، معَ المحَلّة إلى مَرّاكُش، فأعطاه الدِّيارَ والأموال، وتمّم له الآمال، ودام هو وبَنوه تحتَ إنعام وإكرام، حتى انقَرضوا بعدَ هذا بسنين. وبعدَ استقرارِه بمَرّاكُش، وتوالي إسبال[1] النِّعم عليه من الخليفة بآلاف الدنانيرِ والهِبات الجَزلة، وإحضارِه للمُذاكَرة في مجلسِه العالي، أشغل نفسَه[2] بالطِّراد والصَّيد، وتخامَلَ وتجاهَل، واستَعمل شِبَاكَ الحديد لصَيْد الأسود الضَّواري، فكان يتحيَّلُ عليها ويصيدُها ويُدخِلُها في أقفاصِ حديد ويَسُوقُها إلى عبد المؤمن ويُتحِفُه بها، فتُعقَرُ بحضرتِه على معنى الملاعبة والمطاردة بينَ يدَي الملوك، وكان يُعطيه على كلِّ أسَد يصيدُه ألفَ مثقال.

واستاقَ ابنُ حمّاد المذكورُ في بعض الأيام شِبْلَ أسدٍ صغير وأدخَله إلى الخليفة في مجلسِه، فأمَرَ بحلِّ الشِّبل من عِقاله، فمشَى الشِّبلُ بينَ الناس يخترقُ الصُّفوفَ حتى وصَل إلى الخليفة فرَبَض بينَ يدَيْه، وسَكَن لا يتحرَّكُ من موضعِه، فعَجِب الناسُ من ذلك. وكان قد سَبَقَ إليه في ذلك المجلس زَرْزور، فتكلَّم بين يدَيْه بأنواع من الكلام، فارتَجل أبو عليٍّ الأَشِيريُّ أبياتًا من الشعر في صفة الحال بالمجلس المذكور، وهي [من الرمل]:

أنِسَ الشِّبلُ ابتهاجًا بالأسَدْ ... ورأى شِبهَ أبيهِ فقَصَدْ

ودَعا الطائرُ بالنّصرِ لهُ ... فقضَى حقَّكمُ لـمّا ورَدْ

أنطَقَ الخالقُ مخلوقاتِهِ ... بالشّهاداتِ فكلٌّ قد شَهِدْ

أنكَ القائمُ بالأمرِ لهُ ... بعدَ ما طال على الناسِ الأمَدْ

رَجْعُ الخَبر: ولـمّا استولَى أبو محمد عبدُ المؤمن على بِجَايةَ وأنظارِها، وجَميع[3] أقطارِها، كان مَيْمونٌ وزيرُ ابن حمّاد قد فَرَّ إلى قبائل العرب بني سُليم، فكتَبَ إليه بالأمان، والعَدْل والامتنان، فوصَل من فَوْرِه ولقِيَ ما وَعَد له[4] وسَعِد بمذهبِه.

---

(١) في م: «سيل».

(٢) في م: «اشتغل» مكان «أشغل نفسه»، وهو تحريف وسقط في آن.

(٣) في م: «وجمع»، وهو تحريف.

(٤) في م: «به»، وهو تحريف.

وكَتَبَ أبو محمدٍ عبدُ المؤمن رسالةً فصيحةً إلى أهل العُدْوة والأندَلس، بوَصْف[1] فَتْح بِجَاية بخطِّ أبي جعفرٍ بن عَطِيّة أبدَعَ فيها غايةَ الإبداع، ووفَى شرحَ هذا الفتح بما أبهَجَ القلوبَ والأسماع، وبعَثَ بها إلى سائرِ الأقطاع و[2] الأصقاع.

ذكرُ سببِ هجر عبد العزيز وعيسى أخوَي الـمَهْديّ ومَقْتلِ يَصْلاتنَ صِهرِهما وصَلْبِه[3]

وذلك أنّ الأميرَ[4] عبدَ المؤمن لم يزَلْ من وفاة الـمَهْدي يكنُفُ[5] عبدَ العزيز وعيسى ويُحسنُ إليهما وإلى يَصْلاتنَ معَهما بالإحسان التامّ، والإنعام العامّ. وهذا يَصْلاتنُ يُغويهما[6]، ويوقدُ نارَ الحسَد في جوانحِهما، ويجعلُ نَقْضَ العهد وخَلْعَ الطاعة غذاءً بجوارحِهما، فإذا[7] دخَل مجلسَ الأمر العالي دخَل قاطبًا، وإذا خَرج خَرج غاضبًا، فيستريحُ بذمِّ الأمر بالتصريح، وينسُبُ إليه كلَّ فعلٍ[8] قبيح، حتى فشَا[9] سرُّه وسرُّ أصحابِه، ووَضُحَ وضوحَ الشمس غدرُه وغدرُ أترابِه، وتبيَّنَ مكرُه في طلابِه، فأخذه[10] بعدَ[11] طول إذاية وسَجَنَه[12]... فلمّا كان إيابُه من الغزوة المذكورة... عليه بإمضاءِ حدِّ الحسام على جِذْع بمَرْأى من جميع الأنام. ولـمّا كان... خذ[13]

(١) في م: «فوصف»، محرَّفة.
(٢) سقط من م.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا ٢/ ١٢٤.
(٤) في م: «أمير المؤمنين».
(٥) في م: «يأتلف».
(٦) في م: «يغريهما» محرَّفة.
(٧) في م: «وإذا».
(٨) سقط من م.
(٩) في ك، ر٣: «مشى».
(١٠) قوله: «في طلابه فأخذه»، سقط من م.
(١١) في ر٣: «بعض».
(١٢) في م: «وسجن».
(١٣) هكذا في ك، ر٣، وكأنه عجُز كلمة، ووقع في م: «هذا»، وهو تحريف بيّن.

ليصلاتن[1] أظهرت نفوسُهم الخبيثةُ ما في طَيِّها من إرادة النِّفاق والانتكاث، وأطمعَتْهم فيما لم يستحقُّوه أحلامُ الأضغاث[2]، فبَسَطت بهم بعدَ ذلك حوادثُ الأحداث[3]، إنصافًا على ما كانوا طُبِعوا عليه من دَبِيب عقاربِ الحسَد، وكمُنت[4] للأمر العالي أفاعيهم بكلِّ رَصَد، فاعتُقلوا بعدَ الهجر، ثم سُرِّحوا، ووَصَلوا إلى فاس، وأُعطُوا ومُنِحوا فلم يقنَعوا، فكان من حديثِهم ما يَطُولُ فيه البيان، فقُتلا وصُلبا في جِذْعَيْنِ في ذي القَعدة من[5] عام ثمانية وأربعينَ وخمس مئة على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى[6].

وفي سنة سبع وأربعينَ وخمس مئة: كان وصولُ أبي محمد عبد المؤمن إلى مَرّاكُش حضرتِه من حركة بِجَاية، فلمّا استقرَّ بها وَفَد الناسُ إليه من جميع بلادِه مهنِّئينَ له بإيابه، وبما منَحه اللهُ من الظَّفَر بأعدائه، ويسَّر له من طِلابِه، مُستبشِرينَ بيُمن سلامتِه، وعَوْدتِه إلى مقرِّ خلافتِه[7].

ووَفَد وَفْدُ إشبيلِيَةَ في جملةِ مَن وَفَد ووَرَد، وفيهم القاضي أبو موسى عيسى بنُ عِمران رحمه اللهُ تعالى، فأنشَد في معنى التحريض على البيعة للسيِّد أبي عبد الله ابن الخليفة عبد المؤمن، وهي [من الكامل]:

طـــال انتظـــارُ العالَـــمينَ لبيعـــةٍ ... فقلـــوبُهمْ كالنـــار مـــا لم تُعْقَـــدِ
فلَيُورِيَنْـــكَ اللهُ بعـــدَ تمامِهـــا ... عُمْـــرًا يَطـــولُ بنَـــصْرِ ديـــن محمـــدِ
إنْ قيل مَن للأمـر واحتَفـل الـوَرى ... لَأجـابَ كـلٌّ بـالجوابِ الأقـصدِ

---

(١) في م: «اليصلاتن»، وهو تحريف.
(٢) في م: «أضغاث الأحلام» ولا ندري من أين أتوا بها.
(٣) في م: «الأحاديث»، وهو تحريف ظاهر لا يتفق مع الانتكاث والأضغاث!
(٤) في م: «وكشّ»، وهو تحريف.
(٥) سقط من م.
(٦) قوله: «إن شاء الله تعالى» سقط من م.
(٧) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦.

أنّ الخلافـــةَ قـــد تَبـــيَّنَ نورُهـــا ... للنـــاظرينَ عـــلى جَبـــين محمـــدِ
ذاك الـــذي أعْطَتْـــك كُنيـــةَ إســـمِه[(١)] ... ليَحُـــوزَ أكـــرمَ غايـــةٍ للـــسُّؤدَدِ
فَـــرْعٌ غَـــذاهُ العلـــمُ مـــن لَـــدُ نـــشأةٍ ... حتى استوى وغدا منـارَ المهتَـدي[(٢)]
ما عُذرُ مَـن فـوقَ الكواكـبِ أصـلُهُ ... ألا ينـــالَ العلـــمَ أخـــذًا باليـــدِ

فاستحسَنَها أميرُ المؤمنين، وكانت حاجةً في نفس يعقوب، فأعربَتْ له عن ضمائر القلوب، وشاعَ قَبولُ هذه الأبيات عندَ أشياخ الموحِّدين؛ فتكلَّموا في ذلك بإجماع وإصفاق، وقالوا: إنّ القولَ قولُهم على أصحِّ الاتّفاق[(٣)]، وبادَرَ الناسُ من طَلَبة الحَضَر والأشياخ بالرغبة في تنجيم[(٤)] هذا الخبر، وتَوالت الرغَبات[(٥)] يومًا بعدَ يوم وصَرَّحوا أنّ السعدَ لهم في انتظام[(٦)] الأمرِ العزيز بالعهد الكريم. فقَبِل أميرُ المؤمنين منهم، واستحسَن القولَ عنهم.

ووَفَدت الشعراءُ للتهنئة بفتح بِجَاية، فمنهم: أبو عمر بنُ حَرْبون[(٧)]، قال من قصيدةٍ طويلة يمدَحُه ويذكُر وقعتَه في العرب [من الطويل]:

إلى هـــذه كـــان انتهـــاء المطالـــبِ ... فـسَقْيًا ورَعْيًـا بعـدَها للرَّكائـبِ[(٨)]
فيـــا نعمـــةً كانـــت مـــن الله نقمـــةً ... على كلِّ مُـزْورٍّ[(٩)] عـن الحـقِّ ناكـبِ

---

(١) في م: «أعطته كنيتُك اسمَه».
(٢) في م: «مهنَّد».
(٣) في م: «اتفاق».
(٤) سقط اللفظ من م.
(٥) في م: «الرعيّة»، وهو تحريف عجيب!.
(٦) في م: «انتظامهم».
(٧) في ك، ر٣: «حزمون» مصحف، وهو أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حربون الشلبي الشاعر المعروف.
(٨) في م: «للمراكبِ».
(٩) في م: «مغرور»، وهو تحريف.

جـــلا الـــسعدُ .... والترائـــبِ[1]

وصَيَّرْن[2] بِيضَ الهندِ حُمرًا كـأنّما[3] سَفَرْنَ إلينـا عـن خـدودِ الكواعـبِ

وقـائعُ غـارَتْ في الـبلاد وأنجَـدتْ فمَــدَّ يــدًا للــسِّلم كــلُّ مُحــاربِ

فــأيقَنَ مُرتـــابٌ وآمَـــنَ كـــافرٌ وثابَــتْ إلى العــاصي بــصيرةُ تائــبِ

فكيف يُطيقُ النـاسُ شُـكرَ جَنـابِكمْ وأعمارُهمْ[4] من بعض تلك المواهـبِ

وفي سنة ثمانٍ وأربعينَ وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من حضرته[5] مَرّاكُشَ إلى مدينة سَلا لتشييع[6] كُبراءِ العرب الوافدينَ عليه بالطاعة معَ بعض أُمرائهم من إفريقيّة، وفي نفسِه أن يربِطَ فيها[7] العهدَ الميمون، و[8] الطاهر المَصُون، فلمّا وصَل سَلا انعقَدت البيعةُ لابنه محمد على أوفَى شروطها ورُبوطها[9]. وأمَرَ بالكَتْب في وَصْف الحال ورغبة بالموحِّدين في البيعة المذكورة المؤْذِنة لهم ببَسْط الآمال، وذلك من إنشاء ابن عَطِية، فوصَلت البَيْعاتُ من كلِّ الجهات[10]، ووَفَدت الشعراءُ من الأندَلس للتهنئة على هذه البيعة السعيدة، فمنهم: أبو الوليد إسماعيلُ بن محمد الشَّوّاش، فقال من[11] قصيدة [من الطويل]:

أجــابَ بــه داعـــي الحيـــاة مُثوِّبـــا فبـادَرَه واسـتنجَدَ الـريحَ مَرْكبـا[12]

---

(١) كذا في النسختين، لم يبقَ من البيت سوء ما أثبتنا، وسقط البيت جُملة من م.
(٢) في م: «وصيَّر».
(٣) في م: «كأنّها».
(٤) في م: «وأمرهم».
(٥) في ر٣، م: «حضرة».
(٦) في ر٣، م: «ليشيع».
(٧) سقط من م.
(٨) في: «والعهد الطاهر» وفي م: «الطاهر» من غير الواو.
(٩) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا.
(١٠) في ك: «من كل جهاتٍ».
(١١) في م: «في».
(١٢) قدم البيت الأول على الثاني في ك.

إمـامُ هُـدًى يـدعو إلى الحـقِّ معلنًـا ... فيا فوزَ من لبَّـى ويـا ويـلَ مـن أبـى
خليفـةُ مهـديِّ الـورى وأمينُـهُ ... تـولّاه في المحيـا[1] ووالاه مُعقِبـا
حـواهُ أمـينٌ للإمامـة حـافظٌ ... وأدى حقـوقَ الله فيـه وأوجَبـا
وأنجَـزَه في الفـتح صـادقَ وعـدِه ... فمكَّنَـه في الأرض شرقًـا ومغربـا
لقد رَضِيَتْ فيـك الخلافـةُ مُرتـضًى ... لها[2] أوجَبَـت فيـك الدِّيانـةُ مُجتبى
وبالأمن والإيـمان والفـوز والرِّضـا ... ولايـةُ عهـد تُطلـعُ الـسَّعدَ كوكبـا
ونوجِيتَ بالسعدِ[3] الذي قُدِّرتْ له[4] ... فأمـضَيْتَ أمـرًا كـان أولى وأوْجَبـا
هو الـمَلِكُ الميمونُ في مطلع الرِّضـا ... أنـار وفي حُجْـر المعـالي تَرَتَّبـا[5]
فأُنـشئ مـن صَـفْو الحيـاةِ وسرِّهـا ... وبـوِّئ مـن مَغْنـاك غَـيْلًا مؤشَّـبا[6]
ويكفيه فخرًا يضمَنُ الفضلَ والنُّهى ... بـأنْ كـان منـكَ ابنًـا وكنـتَ لـه أبـا

ومدَحَه جماعةٌ من الشعراءِ القُصّاد، فهنؤوه بالبيعة المذكورة، وغَلَبتِه على بني حماد.

ولـمّا كمُلت رغبةُ الموحِّدينَ في البيعة[7] للابن أبي عبد الله، وأخَذوا بيده، وارتَبطوا لمعاهدة عهدِه[8]، رأَوْا أنّ العزّةَ تابعةٌ لهم في تولية الساداتِ البَنِين، وأنّ الخيرَ لهم في ذلك وللمؤمنين، يُوالُونَ الرغَباتِ في تولية هاتِه الولايات، فقَبِل منهم ما باشَروا به من رغَباتِهم، وأسعَفَهم في طَلَباتِهم.

---

(١) في م: «للمحيا».
(٢) في م: «لما».
(٣) في م: «بالأمر».
(٤) في م: «قرّ علمُه».
(٥) في م: «تربَّبا».
(٦) زعم ناشرو (م) أنّ مكان البيت بياض في الأصل، مع أنه ثابت في ك، ر٣، كما ترى.
(٧) في م: «بالبيعة».
(٨) في م: «وارتبطوا بالمعاهدة»، وهو تحريف وسقط.

ذكرُ[1] ولاية السّاداتِ الأكرمين أولادِ الخليفة

أميرِ المؤمنين عبدِ المؤمن بن عليّ[2]

وَلِـيَ السيِّدُ الأعلى أبو حفص مدينةَ تِلِمْسان، وتوجَّه معَه أبو محمد برو[3].... عليها، وصِهرًا للخليفة[4]، وعبدُ العزيز بن عباس... فاله[5]، ووَلِـي السيِّد أبو سعيد[6] غَرْناطة، فمشَى معَه الشيخُ أبو عبد الله بنُ سليمان وأبو سعيد عثمانُ بن مَيْمون الصُّنْهاجي، ثم انضاف إليها[7] بغَرناطةَ عندَ مَشْيِ السيِّد إليها أبو يحيى بنُ بخيت، ومنَ الكتّاب: أبو الحَسَن بن هردوس[8]، ثم ابنُ طُفَيل، ثم أبو بكر بنُ حُبَيْش الباجِي، وتوجَّه السيِّدُ الأسنى أبو محمد عبدُ الله إلى بِجَاية، وسار معَه على معنى التدريب الشيخُ أبو سعيد يَخلُفُ بن الحُسَين. ووَلِـي السيِّد أبو الحَسَن على مدينة فاس، فسار معَه وزيرًا يدرِّبُه أبو يعقوبَ يوسُفُ بن سليمان، ومنَ الكتّاب أبو العباس بن مَضَاء يُعلِّمُه ويقرأُ عليه.

رَجْع الخَبر لسبب مقتَل أخوَي الـمَهْدي رحمه الله تعالى: لـمّا كمُلت البيعةُ لوليِّ العهد أبي عبد الله واتّصلت بها الولاياتُ للسادات، دَبَّت عقاربُ الحسَد في قلوب عبد العزيز وعيسى وأصحابِهما بمكان مقرِّهم بمدينة فاس، واشتعلت نارُ الحسد في نفوسِهم، وكسَتْهم ثيابَ الحقد عِوَضًا من لَبُوسِهم، معَ ما كانوا طُبِعوا عليه من سُوء

---

(١) في م: «ذكرى».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا ٢/ ١٢٤، وذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ٥٥١ من الكامل ١١/ ٢١١-٢١٢.

(٣) في م: «بدو»، ولم يُنبّهوا إلى الفراغ الذي بعده.

(٤) في م: «وصهر الخليفة».

(٥) في م: «باله».

(٦) في ك: «أبو عثمان سعيد» وهو غلط.

(٧) سقط من م.

(٨) في م: «العردوس». وينظر تعليقنا في الصفحة ٢٣٨ من هذا المجلد.

الاعتقاد وكاس الأحقاد، يتنكّرونَ[1] للفتوح والأفراح، ويحسُدون الأمرَ على الماء القُراح. فسَرَوْا[2] في الحين ليلًا ونهارًا إلى مَرّاكُش لينتقضوا ما عقَدَه اللهُ في محَلّه وأمّله لأهلِه، وتواعَدوا معَ أصحابهم أن يجتمعوا في جامع عليٍّ بن يوسُف فأخْلَفوهم وأفرَدوهم وتحَيَّلوا[3] بسُوءِ تدبيرِهم ورأيِهم الفُرصةَ في حلِّهم أنّ في اللّيل والنهار تكمن[4] الآجال، وأنّ الأدواءَ تتشعَّبُ بسبب الاستعجال، فلم يعلَموا ذلك، بل استعجَلوا لأنفسِهم[5] أقدارَ المهالك.

وحين بَلَغ الخليفةَ خروجُهم من فاسَ على غير طريق ساءَ ظنُّه بهم، فوجَّه في الحين ابنَ عَطِيّة ليصُدَّهم عن تعدِّيهم ويردَّهم عن التغيير الذي يُرْديهم، فوصَل ابنُ عَطِيّة إلى مَرّاكُشَ في يومين، فوجَدَهم قد أحدَثوا أحداثًا وقَتلوا والِيَها ابنَ يفراخن[6] الـمُستنابَ بها، فنفَذَ لهم من الله القضا، وحقَّ فيهم من الحسام الاقتضا، فقُتلوا وصُلبوا بأعلى جِذْع، وقُتل عيسى قُربَ باب الدَّبّاغين، وعبدُ العزيز ببابِ أغمات، ثم بعدَ توجُّه الوزير ابن عَطِيّة خَرج الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن من سَلا قافلًا إلى حضرتِه مُستطلعًا ما حدَث وكان[7] مستمعًا، حتّى توسَّط الطريقَ فتلقّاه الثَّفَج[8]، وأدركَه الفتحُ والفَرَج، في وادي كسس، فوَصَل مَرّاكُشَ ودخَل دارَه، وقرَّ قرارُه، فأخَذ في قطع دابِرِهم، وتحَكَّم السّيفُ في أوّلهم وآخِرِهم، فلمّا أكمَل غرَضَه وأهلَك اللهُ من بغَى عليه، وتفرَّغ ذهنُه، وظَهر له من الله عَوْنُه، أمَرَ الوزيرَ الكاتبَ أبا جعفرٍ ابنَ عَطِيّة بالكَتْب إلى جميع البلدان، فكتَبَ بما لا يُجالُ معَه من الفصاحة والبلاغة في ميدان، وشَرَحَ حالَهم.

---

(١) في م: «يتكّدرون».

(٢) في م: «فشدّوا».

(٣) في م: «وتحيّنوا»، وما أثبتناه من النسخ.

(٤) هكذا في النسخ وفي ك، م: «تكمن».

(٥) في م: «أنفسهم».

(٦) هكذا في النسخ، وفي م: «تفراجين».

(٧) في م: «وما كان»، وما أثبتناه من النسخ.

(٨) في م: «الثبج»، وهو تحريف.

ذكرُ مقتل الناكثينَ معَهما من الموحِّدينَ وأصحابِهما

ولـمّا وصَلَ الأميرُ أبو محمد عبدُ المؤمن إلى مَرّاكُش لم يزَلْ يتَّبَعُ[1] الإيقاع بأصحابِ الناكثينَ المذكورين، فألفاهم في جَمْعِهم أكثرَ من كلِّ قَبيل وقد خالَطَهم من أهل التخليط من سائر القبائل بعضُ نَفَر قليل، فقَبَض عليهم وسُجنوا، ونفَذَ الأمرُ بعدَ إحضارِهم وإقرارِهم لإخوانِهم من كلِّ قَبِيل أن يتولَّوا قَتْلَ إخوانِهم بأيديهم ويكونوا... للأمر العالي ثارَه، وقَطعوا من العدوِّ مِفصَلَه وفِقارَه. وطلَع عبدُ المؤمن في أعلى البُرج الذي على قَصْر الحَجَر للجلوس وهو حَقِدٌ[2] عليهم وعَبُوس، وأحضَر أولئك الغادرينَ المنافقين المسجونين، فامتَثل الموحِّدونَ ما أُمِروا به من قَتْلِهم في أيام، وذلك يومًا بعدَ يوم، فنشَأت من الموحِّدينَ إثْرَ ذلك بعضِهم في بعض من كلِّ مَشّاءٍ بنميمة، وسَمّاع في فتنة مُلِيمة، فطَرقت للموحِّدينَ في هذا الوقت وَحْشةٌ من الخَجَل والوَجَل، ودهشةٌ من قبيح ما ظهر من الغادرينَ المذكورينَ من نكوثِ العهد في السَّهل والجَبل، فترامَوْا على خليفتِهم راغبينَ في العفوِ وإزالة الكَدَر، وجَلْب ما تعوَّدوه من الخُلوص والظَّفر، فقَبِل منهم ما أمَّلوا وتعطَّف عليهم على عادتِه بما سألوا، وكتَبَ إلى البلدان رسالةً بتغافُر الموحِّدينَ، من أفصح الرسائل، تبيِّنُ عن الأحوال المذكورة لكلِّ مُستفهِم وسائل، من إنشاء ابن عَطِية، بتاريخ سنة ثمانٍ وأربعينَ وخمس مئة.

وأقام عبدُ المؤمن بعدَ ذلك شهورًا مُواليًا إحسانَه وإنعامَه على جميع الموحِّدينَ الـمُتَظافرين[3] حتى أحْمَدوا ما كان من تلك الهيجا، ورأَوْا بإدرار البركات والمَسَرّات أنها خيرٌ من الدَّعَة في الأرجا، فضلًا منه وإجمالًا، وطَوْلًا تابَعه تألُّفٌ في القلوبِ واشتَمَلت عليه اشتمالًا. ونَظَر فيما استخار اللهَ فيه من البعوثِ إلى الأندَلس.

وفي سنة تسع وأربعينَ وخمس مئة: نَظَر أبو محمد عبدُ المؤمن في توجيه البعوث إلى حماية الأندَلس، وكان أبو زكريا يحيى بنُ يُومور[4] متردِّدًا بالنظرِ والحماية بما أمَرَ

---

(١) في م: «يتتبّع»، وما أثبتناه من النسخ.

(٢) في م: «حاقد»، وهو تحريف.

(٣) في م: «المتغافرين»، وهو تحريف.

(٤) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٦، والاستقصا ٢/ ١٢٥: «يغمور».

به من الولاية بقُرطُبَةَ وإشبيلِيَة، فطرأ عليه أنّ الشقيَّ الغادرَ عليًّا الوُهيبيَّ غَدَر مدينةَ لَبْلة ليلًا، وجَرَّ إلى أهلِها عِصيانًا وويلًا، أتاها ليلًا وأهلُها نيام، فلم يَشعروا إلا وقد حَلَّ بهم الدّاءُ الهيام، فكان منهم قومٌ سَبَقوا إلى قَصَبة الموحِّدينَ ودخَلوا فيها، فأَمِنوا من عادية الحادثة ودعاويها، وأنّ الجميعَ ذُهلوا فلم يقدِروا على الوصُول، وحصَلوا في حالة الذُّهول. فحين وصَل الخبرُ إلى أبي زكريّا وهو بقُرطُبة خَرج من فَوْره بعسكره، وسَرى ليلًا ونهارًا إلى لَبْلة، فلما قارَبَها تقدّم سَرَعانُ الموحِّدين فدَخَلوا القَصَبةَ إلى إخوانِهم فتقوَّوْا بهم وأبو زكريّا على أثَرِهم، فهرَبَ الشّقيُّ المذكور، وخَرج أهلُ لَبْلَةَ إلى أبي زكريا في صَبيحة فِرار الغادر معتذَرينَ طائعين، فلم يَعذُرْهم فيما جنَى لديهم بل ظلَمَهم وتعَدَّى ببَغْيه عليهم فقَتَلهم أجمعين، واستَبَدَّ في ذلك برأيِه الخسيس اللّعين، ولم يستَأْذن الأمير[1] في حديثِهم، وكان معَه أبو الغَمْر بن غَزُّون[2] فصَوَّب له إنفاذَ السّيف في بَرِّهم وخبيثِهم، ولم يُصْغ إلى صوت مُستغيثِهم، وكان هذا الثَّكْلُ على أهل لَبْلَةَ يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ من شعبانَ سنة تسع وأربعين وخمس مئة.

ولـمّا وصَل عبدَ المؤمن ما فَعل يحيى بنُ يومورَ في أهل لَبْلَةَ بانفراده واستبدادِه بعَث أبا محمد عبدَ الله إلى إشبيلِيَةَ يأمُرُه بأخْذِه واعتقالِه بمشاركة بَرّان بن محمد، فأَخَذاه يومَ الفِطر من عام تسعة وأربعينَ، وجَداه بالـمُصلَّى فاجتمعا به وأنْهَيا إليه ما أُمِرا به، فامتَثَله، فاعتقلاه في الحديد وأدخَلاه في قطعه[3] في...[4]

ونهَضَ عبدُ الله بن سُليمان به، وبقيَ أبو إسحاق واليًا على[5] إشبيلِيَةَ لتثقيف أموال لَبْلة في المخزن، فلمّا وصَل ابنُ يومورَ الـمَعْمَرة[6]... فأُخِّر فدام على ذلك إلى أن زار أميرُ المؤمنين قبرَ الـمَهْدي، وسار المذكورُ في جُملة الناس فعَفَا عنه وأمَّنه وبقيَ

(١) في م: «الأمر»، وهو تحريف.

(٢) في م: «عزّون»، وهو تصحيف.

(٣) الاستقصا ٢/ ١٢٥.

(٤) سقطت من م.

(٥) قوله: «واليًا على» جعل بياضًا في م مع وجوده في النسخ الخطية!

(٦) هكذا في النسخ، واستبدلها ميرندا بالحضرة، وتبعه ناشرو (م)، والمعمرة هنا بمعنى الحضرة.

عليه حسابُ الآخِرة. ثم إنه وجَّهه أميرُ المؤمنين إلى تِلِمْسانَ معَ ابنه[1] السيِّد أبي حفص في جُملة أشياخ الموحِّدينَ الماشِينَ صُحبتَه، وفي آخِر هذه السنة وصَل ابنُ وزير إلى أمير المؤمنين وهنَّأه على ظهورِه وغَلَبتِه، وأخبره بتسلُّط العدوِّ ابن الرَّنك على الثغور وملازمتِه لهم لقَطْع زروعِهم والإغارة عليهم في بَسائطِهم وشتِّ شَمْل جميعِهم، فأمَرَ بالكَتْب لهم بتأنيسِهم وعِدتِهم[2] بالنّصر الذي كان يؤمِّلُه قِبَلَهم ويستعدُّه لغزوِ أعدائهم ويَعِدُ برفع ضرائرهم ونَيْل سَرائرهم[3]، وخاطَبَ بذلك أهلَ باجَة وأهلَ يابُرة، وكان الكَتْبُ لهم بتاريخ الثالث والعشرين من محرَّم عام خمسينَ وخمس مئة.

وفي سنة خمسينَ وخمس مئة: بعَثَ عبدُ المؤمن إلى إشبيلِيَةَ وقُرطُبة واليَيْنِ، وكانا[4] دونَ أمير من الموحِّدينَ في هذه المدّة التي أوقِع فيها بابن يومور دونَ مَن يُدافعُ عليهما.

ذكرُ ولاية عبد الله بن أبي حَفْص بن عليّ على إشبيلية وأبي زَيْد عبد الرحمن بن بخيت[5] قُرطُبة

كان وصولُهما إلى الأندلس في هذه السنة المؤرَّخة، فأقام أبو محمد بإشبيلِيَةَ ونَهَض أبو زيد إلى قُرطُبة، فعندَما وصَل إليها خَرج معَ الموحِّدينَ إلى حصن البِطْرَوْج وما يَليه من الحصُون التي فيها النّصارى دمَّرَهم اللهُ تعالى، وفَتَح اللهُ به عليهم بهزائمَ شتّى، وصَحِبَه النّصرُ على ما يُراد ويأتي[6]، وهزَم القمطَ اللّعين صاحبُ بِطْرَوْج، ثم تغلَّب على الحِصن المذكور بعدَ ذلك وأخَذ فيه القمطَ المذكور وبعَثَ به إلى مَرّاكُش.

ولـمّا وصَل هذا الفتحُ والنُّجحُ إلى أبي محمد بن أبي حَفْص بإشبيلِيَةَ، أمَرَ بضرب الطُّبول عليه سُرورًا بذلك، ودخَل أهلُ إشبيلِيَةَ عليه مهنِّين، فتكلَّم له أحدُ أشياخ

---

(١) من ك فقط.

(٢) في م: «وعدته».

(٣) في م: «ضرّائهم ونيل سرّائهم»، وما أثبتناه من النسخ كافة.

(٤) لو قال: وكانتا، لكان أحسن.

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «بكيت» (٦/ ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣)، وفي تاريخ ابن صاحب الصلاة (ص١٢٠): «تيجيت».

(٦) في م: «ويتأتى».

إشبيلِيَةَ بعدَ السّلام عليه وقال له: لم تَجْرِ العادةُ بضَرْب الطُّبول بإشبيلِيَة على فتوح أهل قُرطُبة، فتغيَّر لونُ أبي محمد المذكور وفَهِم ما أشار إليه، فنَظَر في الأحشاد ونصَب الأجناد وتفاوَضَ في أمرِه معَ أبي إسحاق بَرّان صاحبِ المخزن فيما عزَم عليه من الجهاد، فصوَّب مُرادَه وقوَّى اجتهادَه، وكتَبَ إلى صاحب بَطليوسَ يُعلِمُه بما في نفسه، وأمَرَه بجمع أجناد الثَّغر الذي إليه، وأن يكونوا على استعداد وعلى وَعْد صحيح بالمرصاد. وخَرج أبو محمد المذكورُ بعسكرٍ وافر، والتَفَّ بالعسكر المذكور من أهل إشبيلِيَةَ وأقطارِها قومٌ كثير من المجاهدينَ المحتسِبينَ، إلى أنْ وصَل بطليوسَ، فاتّفق رأيُ الجميع على غزو جهة من جهات ابن الرَّنك أهلَكَه الله، وعزَموا على ذلك، فلمّا أجازوا قَنْطرةَ السَّيف أسْرَوْا إلى حصن أطرونكس، وكان حديثَ الإسكان للنَّصارى والبُنْيان، فأغاروا على جهاتِه وجَنَباتِه، وامتلأت أيدي المسلمينَ من نسائهم وأبنائهم ومَواشيهم، وأباحوا السّيفَ في رِقاب رجالِهم، وتقبَّضوا على جميع أموالِهم، ثم إنّهم وصَلوا إلى الحصن المذكور فقاتَلوهُ ساعةً من النهار، وتغَلَّبوا على الكَفَرة الفُجّار، وقَتلوا جميعَ الرجال وسَبَوا[1] النساءَ[2]... والأموال. واتّصل الخبرُ بالنّصارى المُجاوِرينَ لهم، فاحتَشَدوا وجاؤوا مُسرِعينَ راغبينَ لنَصْر[3]... وغَوْث أبنائهم وصُلبانِهم، فلمّا تراءى الجَمْعان أكثَر المسلمونَ من الصّبر وتلاوة القرآن فانهزَم الكُفّارُ ووَلَّوا الأدبار مُستصحِبينَ الخَسار والدمار. فترادَفَت للغنائم[4]، ونفَّل[5] اللهُ المسلمينَ[6] خيرًا من جزيل المغانم.

ثم رجَع أبو محمد إلى إشبيلِيَةَ بنفسِه، وقَسَم عسكرَه والخُمُس من الفَيْء المذكور. وخاطَبَ الحضرةَ بصورة الفتح، وخاطَبَ ابنَ بخيتَ من قُرطُبَةَ لِـما اتّفق من الفتح،

(١) في ق: «وأسروا».

(٢) بعد هذا فراغ قدر كلمة.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) سقطت من م.

(٥) في م: «وفعل»، وهو تحريف.

(٦) في م: «للمسلمين»، خطأ.

ثم تَوالى غزوُ ابن بخيتَ من قُرطُبَةَ لبعض الحصُون، ونازَلَـها وتغلَّب عليها، منها: حصنُ منتُور، وحصنُ المدوَّر، وغيرُهما، وخاطَبَ الحضرةَ بجميع هذا الفتح مفسِّرًا مبشِّرًا، فنفَذَ الأمرُ العالي لأبي محمد بن أبي حفص والي إشبيلِيَةَ وإلى أبي زَيْد عبد الرحمن بن بخيتَ بالـمَشْي إلى الحضرة وزيارتها، فمشَيا.

ولـمّا وصَل الواليانِ المذكوران[1] من قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ إلى الحضرة بايَعَا خليفتَهما وعرَّفاه بما فتَح اللهُ لهما بيُمن نَظَرِه وجِدِّ عسكرِه، وبرعاية أحوال الأندلس ودعاء أهلِها له بالتأييد على نَصْرِه المديد. واتّصل توحيدُ أهل غَرْناطة وفتْحُها، فتوالت على الحضرة البشائر، ورَغِبا من الحضرة أن يُشرِّفَهما بسيِّد يصلُ معَهما إلى إشبيلِيَةَ وقُرطُبة يستندانِ إليه ويخدِمانِه[2]، وحضَر أبو بكر بنُ الجَدّ، فرغِبَ مثلَهما وصرَّح في رغبته باسم السيِّد أبي يعقوب، فقَبِل رغبتَهم وبعَثَه معَهم بعسكرٍ منصور، غَرْناطة معَ جُملة من أبناء الموحِّدينَ أُولي النَّجابة والظهور.

اختصارُ الخبر بفَتْح غَرْناطةَ وأخْذِها من اللَّمْتُونيِّين وتمكينِ ابن يدّر منها للموحِّدينَ، وولايتِها السيِّدَ أبا سعيد ابنَ أمير المؤمنين[3]

ولـمّا اتّصل خبرُ هذه الفتوح المذكورة بمَيْمون بن يَدَّر[4] اللَّمْتُونيِّ الوالي على غَرْناطةَ، وصَحَّ عندَ اللَّمتُونيِّينَ الذين بها ما ذكرتُه، جَزِعوا منَ انفرادِهم وقلّة أعدادِهم، فخاطَبوا الحضرةَ راغبينَ في الصُّلح، وأن يُعفَى عنهم، فقَبِل منهم وأمَرَ عبدَ الله بن سُليمان صاحبَ الأُسطول بسَبْتَةَ وأبا سعيدٍ ابنَ[5] أمير المؤمنين بها أن يكونَ لجوانبِهم[6]، فأجازَ البحرَ إلى الجزيرة الخضراء ونَهَض منها إلى غَرْناطةَ المذكورة، فتلقّاه[7] ميمونُ بن

---

(١) في النسخ: «الواليين المذكورين»، ومثل هذا كثير في هذا الكتاب فأصلح لبشاعته.

(٢) في م: «ويحترمان به»، وهو تحريف.

(٣) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٢٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٧، والاستقصا ٢/ ١٢٥.

(٤) في المصادر السابقة: «بدر» وهو تصحيف.

(٥) سقط من ق.

(٦) في م: «جوابهم»، وهو تحريف.

(٧) في ق، ر٣: «فتلقى».

يدَر المذكور وإخوتُه الملثَّمونَ[1] بأوفَى برّ وإكرام، وأحفَى بِشر واهتمام، وقال: ادخُلوها بتحيّة وسلام، وخَرج الجميعُ من الملثَّمين راجِعينَ معَ أبي محمد المذكور إلى العُدوة آمنينَ في نفوسِهم وأهليهم وأموالِـهم وبَنيهم، ووَصَلوا في صُحبتِه إلى الحضرة، وأُنجِز لهم ما وُعِدوا به من الخيراتِ والإسكان في الدِّيار، والآمال في الاستقرار.

وكتَبَ أميرُ المؤمنينَ إلى ابنِه أبي سعيد بالإجازة إلى الأندلس وبإضافة ولاية غَرْناطةَ إلى ما بيدِه من عمل سَبْتة، فأجاز البحرَ بجَمْع من الموحِّدينَ والجُند الـمُسترزِقين، فوصَل إليها وملَكَها، وبادَرَ إليه من سَعِد من الثوّار الـمُجاوِرينَ لها، كأبي مروانَ بن سعيد وبَنيه، وكأبي جعفرِ بن مِلْحانَ وغيرِهم، ولـمّا استقرَّ السيِّدُ الأسنى بغَرناطة بعَث عسكرَه إلى الـمَرِيّة[2]... وليتطلّعَ أحوالَ النَّصارى،...[3] فنَهَض العسكرُ وكمَنَ على مقرُبة منها إلى نصف النهار، ثم خَرج، وأغاروا على بابِ الـمَرِيّة وقَتلوا من النّصارى عددًا كثيرًا ورجَعوا من غارتِهم إلى حصن بَرْجة[4]، فبادَرَ أهلُ الحِصن للقاءِ الموحِّدينَ وقالوا لهم: إنّ النَّصارى بقَصَبة الـمَرِيّة في عددٍ قليل فنزَلوا برجةَ وخاطَبوا السيِّدَ بغَرْناطةَ بمقالة أهل برجة، ونَصَحهم، فاحتفل السيِّدُ في الأحشاد وجَمَع الأجناد، ونَهَض من[5] غَرْناطةَ، فوصَل الـمَرِيّةَ ونازَلَـها ونَصَبَ المجانيقَ عليها، فاستغاث الكَفَرةُ الذين في القَصَبة بغَوِيِّهم أذْفُونْش فوصَلهم بعسكره الذّميم ووصَل معَه حليفُه ابنُ مُرْدنيش مُعينًا له، فلم يجدوا سبيلًا للقَصَبة ولا للدخول عليهم، فنزَلوا على بُعد وعلى حالِ خِزْي لا يُقدَرُ لهم على شيء.

وكان في جُملة عسكرِ الموحِّدينَ: أحمدُ بن مِلحان[6] الثائرُ بوادي آش معَ مَن

---

(١) في النسخ: «الملثّمين»، ولا يصحّ، وقد سبق أنْ نوّهنا غير مرة أن هذا يقع في الكتاب بكثرة فأصلح.

(٢) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) معجم البلدان ١/ ٣٧٤.

(٥) في م: «أهل»، خطأ.

(٦) له ذكر في كامل ابن الأثير ١١/ ٥٦.

وصَل من الثوّار المجاورِينَ لأهل غَرْناطة[1] مُعينًا برجالِه وفُرسانِه، فجَرى بينه وبينَ أبي محمد بن سُليمان منازعة، فأنِفَ من ذلك وارتدَّ إلى ابن مُرْدنيش وإلى أذْفُونْش ولحِقَ بعسكرِهما، ولـمّا عجز أذْفُونْش وابنُ مُرْدنيش عن نَصْر النَّصارى أقلَعا وافتَرقا ولم يجتمعا أبدًا ولا ارتَفَقا، ورجَع أذْفُونْش خاسرًا، فعَظُم عليه الأمرُ ومات في السنة المؤرَّخة، وخاطَبَ السيّدُ أبو سعيد أباه بذلك، فأمَرَ أن يَتوجَّه أبو جعفرٍ الوزيرُ صُحبة السيِّد أبي يعقوبَ يوسُف ابن الخليفة إلى الأندَلس، ويسيرَ إلى الـمَرِيّة، ويُنزِلَ النَّصارى من قَصَبتها على الأمان، فكان ذلك، وإذا كمُل هذا يرجعُ أبو جعفر معَ السيِّد أبي يعقوبَ إلى إشبيلِيَة.

ذكرُ ولاية السيِّد أبي يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن مدينةَ إشبيلِيَة وأنظارِها أعادَها الله[2]

لـمّا وصَل أشياخُ إشبيلِيَةَ إلى الحضرة العَلِيّة في سنة إحدى وخمسين وخمس مئة رَغِبوا في سيِّد يرجِعُ معَهم إليها ويستندونَ إليه في مصالحها[3]، وصَرَّح ابنُ الجَدِّ بطلَب السيّد أبي يعقوبَ فقال لهم عبدُ المؤمن: إنه صغير، فقالوا: بل هو كبير، فأسعَفَهم في ذلك وبعَثَه معَهم أميرًا، فلمّا وصَل إلى إشبيلِيَةَ بدأ أولًا بغزو طبيرةَ والثائرُ فيها عليٌّ الوُهَيْبي، فحصَرها في البرِّ والبحر، وذلك لـمّا رجَع الوزيرُ ابنُ عَطِيّة من مدينة الـمَرِية، وأنزَلَ النّصارى من قَصَبتها على الأمان، فخَرج معَ السيّد أبي يعقوبَ بعسكر الموحِّدين فنازَلوا طبيرةَ وعليٌّ الوُهيبيُّ بداخلها، فأقام الموحِّدونَ عليها شهرَيْن من أول عام اثنين وخمسينَ وخمس مئة، وكان ابنُ عَطِيّة وصَله خبرُ المطالَبة له في مجلس عبد المؤمن، فتقلَّق للانصراف إلى الحضرة حين بلَغَه الوقوعُ في جانبِه هناك، فرأى الرأي في المصالحة والقنوع من الوُهَيبيِّ المذكور[4] باللَّفظ في الخُطبة، فصولحَ على اختيارِه، وقَنَع

(١) في م: «لغرناطة».

(٢) الإحاطة ١/ ٢٦٥.

(٣) في ق: «مصالحهم».

(٤) ليست في ق.

منه بإقرارِه. وعندَ ذلك أقلَعَ السيّدُ بعسكرِه منصرفًا إلى إشبيلِيَةَ بعدَ ما استَولى على بلادِ ابن وزير، وقَدِم على شِلْبَ وبلاد الغرب يعقوبُ بن حَيُّونَ الهزرجيُّ والحُفّاظُ المتوجِّهونَ[1] معَه من الموحِّدين، فكمُلَ القَبْضُ من بلاد ابن وزير والعَزْلُ بأبدع تدبير، وفي هذه الحركة خَرج تاشْفينُ اللَّمْتُونيُّ من مَرْتُلة وضَمِن له عن الأمر... [2] بصناعِه... [3] فمَلَكها الموحِّدونَ، وكان تـمَلَّكها، وصُرف تاشْفينُ... [4] يومَ الخميس الثامنَ عشَرَ من جُمادى الأولى من سنة اثنتين وخمسينَ المذكورة، وهذه البلدةُ، أعني مَرْتُلَةَ، أولُ مدينة خَرج عنها الـمُلثَّمون[5] وآخِرُ بلدة ثار فيها الـمُرتَدّونَ على الموحِّدين، وكان لـمّا وصَل السيّدُ إلى طبيرةَ ونازَلَها وَفَد عليه أشياخُ بلاد بني وزير وفي جُملتهم الشاعرُ الأديبُ أبو بكرٍ بن الـمُنخَّل[6]، فقال يمدَحُه ويتغزّلُ في قصيدة طويلة أولُها [من الطويل]:

أقَـدُّكِ أم غُـصنٌ مـن البـانِ أهيَـفُ ... ولَحْظُكِ أم سيفٌ من الهنـد مرهَـفُ

ومنها:

فقالوا: أغـزوٌ؟ قلـت: لا شـكَّ أنـهُ ... فقالوا: فمن يغزو العِدى؟ قلت: يوسفُ

سـليلُ أمـيرِ المـؤمنينَ وكفُّـهُ ... وصـارمُهُ العَـضْبُ الـذي يُتخـوَّفُ

---

(١) في النسخ: «المتوجهين» وأصلحت.

(٢) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٣) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٤) بياض قدر كلمة واحدة.

(٥) في النسخ: «الملثمين» وأصلحت.

(٦) هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخَّل المهري الشلبي الأديب، كان أحد الأدباء المتقدمين والشعراء المجوّدين، له ديوان شعر لم يصل إلينا. وتوفي في حدود الستين وخمس مئة. ترجمه ابن الأبار في التكملة (١٣٩٩)، وابن سعيد في المغرب ١/ ٣٨٧، وابن عبد الملك في الذيل ٤/ ١٠٤ بتحقيقنا، والذهبي في المستملح (١٢١) وتاريخ الإسلام ١٢/ ٢٠٢، والصفدي في الوافي ٢/ ٧ وغيرهم.

ذكرُ نكبة الوزير الكاتبِ أبي جعفرٍ أحمدَ ابن عِطِيّة ومقتلِه رحمه اللهُ ونُبَذٍ من آثارِه ولُـمَع من أخبارِه[1]

أخبرَنا أبو عبد الله محمدُ بن عبد الملك، قال: كان أبو جعفر لـمّا غابَ هذه الغَيْبَةَ تمكَّن أعداؤه منه وقالوا ما شاءوه عنه من قَبيح المطالبة وصريح المكاتبة، فلمّا وصَل الحضرةَ وجَد حالَه قد[2] تغيَّرت والمطالبَ في جانبِه قد أثَّرت، وعبدُ السلام الكُوميُّ قد استكفَى بالحال، وانتضَى سيفَه لمطالبتِه بأعظم نِصال[3]، فلمّا كان بعدَ أيام من وصُولِه جَمَع الناسَ في الجامع الذي بجَنْب دارِ الحَجَر، وسُئلوا عن ابن عَطِيّةَ وأحوالِه وهو حاضرٌ قد أزال عِمامتَه بالأمر عن رأسِه، وبقي حاسرًا بعد التعميم، خَمِلًا[4] بعدَ التقدُّم في الأمر الكريم، دَهِشًا في نفسِه، مُكدَّرًا في حسِّه، وجميعُ أشياخ الموحِّدين والطلبة وأهل الأندَلُس حضور، فقال ابنُ عُمرَ للحاضرين: يقولُ لكم سيِّدُنا: من أعطى منكم شيئًا لابن عَطِية أو صانَعَه أو عَلِم منه شيئًا من قبيح فلْيقُلْه، فقال كلُّ إنسان بحسَب دينِه وعقلِه، حتّى وصَل السؤالُ إلى ابن وزير فقال: أعطاني فوقَ ما أعطيتَه أضعافًا، وسيّدُنا رضي اللهُ عنه لو جَعَل بينَه وبينَ عَبيدِه وأجنادِه وعُمّالِه ورعيّتِه عبدًا حَبَشيًّا يوصلُ له عنّا كلامَنا ومسائلَنا لعظَّمناه وأمَّلناه وهادَيْناه، ويا ليتَهُ لو رضيَ إلينا بالقَبول، فاستحسَنَ الخليفةُ كلامَ ابن وزير، وكان كلامُه سببًا لرَفْع السؤال عنه في هذا المجلس، فخَرج ابنُ عَطِيّةَ إلى الموضع الذي أُمِرَ باعتقالِه به، فكان آخرَ العهد به، وذلك في سنة اثنتين وخمسينَ المذكورة.

ثم[5] بعدَ هذا المجلس أنفَذَ فيه وفي أخيه حُكمَ الله تعالى، فأُخرِجا من سجنِهما

(١) الإحاطة ١/ ٢٦٤-٢٦٧، والاستقصا ٢/ ١٣١ فما بعدها، ونفح الطيب ٥/ ١٨٣ فما بعدها.

(٢) ليست في ق.

(٣) في م: «نضال».

(٤) في م: «خاملًا»، وما أثبتناه من النسخ.

(٥) ليست في ق.

وحُمِلا إلى جبل دَرْن[1] وقُتلا بموضع تاجْمُوتَ[2] قُربَ الملّاحة، وذلك في التاسع والعشرينَ لصَفَر من سنة ثلاث وخمسينَ وخمس مئة.

وندِمَ أميرُ المؤمنينَ بعدَ ذلك[3] على قتلِه، وبَكى عليه بالدموع، وذكَرَ الرُّواةُ الثِّقات أنه لم يَبلُغْ مبلغَ ابن عَطِيّةَ أحدٌ من الكُتّاب ولا الوُزراءِ المتقدِّمينَ في جَدِّه ومَجْدِه، وكتابتِه وفصاحتِه، ونُصحِه وخِدمتِه، وسلوكِه طُرقَ المكارم، واجتنابِه للمحارم، والتذاذِه بقضاءِ المسائل، وتلطُّفِه في توصيل الرَّغْباءِ من مضْطَرٍّ وسائل، وإحسانهِ بالتلطُّف للوفود وخدمتِه... [4]، حريز[5] والجنود، لكنّ الدهرَ العَثِر فوَّقَ سِهامَ[6] الحسَد بالمنايا إليه، فغدَره من أحسَنَ إليه، ولم يَرْعَ الفضلَ الذي يحبَّب[7]... يده[8] بالبُهتان، ونَبذوا ما كان له عليهم من الإحسان، ونَسَبوا إليه كشفَ السِّرّ، وصُحبةَ أعداءِ الأمر[9]، وأعظَمُهم له مطالبةً مروانُ بن عبد العزيز[10] الذي كان ثائرًا ببَلَنْسِيَةَ على حُسن ما سَعَى له ابنُ عَطِيّة حتى خَلَّصه من سِجن ميورقةَ، فكان هو في هذا المجلس أكبرَ أعدائه وسببًا في موتِه وفنائه، فإنه قال فيه شعرًا رماهُ في المجلس يُحرِّضُ فيه على قتلِه والإيقاع به، وهو [من البسيط]:

قُــلْ للإمــام أدام اللهُ مدّتَــهُ ... قــولًا تَبِــينُ لــذي لُــبٍّ حقائقُــهُ

---

(١) الضبط من ق.

(٢) له ذكر في المسالك والممالك للبكري ٢/ ٧٢٣، ٧٤٤. والجيم أصلها كاف أعجمية، ولذلك كتبت في هامش ق بكاف تحتها نقط ثلاث.

(٣) قوله: «بعد ذلك» ليس في ق.

(٤) فراغ قدر كلمة.

(٥) قوله: «وخدمته... حريز» سقط من م.

(٦) في ر٣: «سهم».

(٧) سقطت من م.

(٨) سقطت من م.

(٩) هكذا في النسخ كافّة، وغيّرها ناشرو (م) إلى: «الأمير» وما أحسنوا في ذلك صنعًا ولم يتنبهوا إلى أنّ السجعة تقتضي صحة ما أثبتناه بين: «السرّ» و«الأمر».

(١٠) له ذكر في نفح الطيب ٣/ ٤٠٨ و٤/ ٤٥٦.

إنّ الـزّراجينَ قـومٌ قـد وتَـرْتهمُ ... وطالـبُ الثـأر لم تـؤمَنْ بوائقُـهُ
ولـلـوزير إلى آرائهـم مَيَـلٌ ... لـذاك مـا كثُـرت فـيهمْ علائقُـهُ
فبـادرِ الحَـزْمَ في إطفـاءِ نـورِهمُ ... فـربَّما عـاق عـن أمـرٍ عوائقُـهُ
اللهُ يعلَـمُ أنّي ناصـحٌ لكـمُ ... والحـقُّ أبلـجُ لا تخفَـى طرائقُـهُ
هـمُ العـدوُّ ومَـن والاهُـم كهُـمُ ... فاحذَرْ عدوَّك واحـذَرْ مـن يـصادقُهُ

وكان هذا من أكبر الطالبينَ[1] له غدرًا ومَكْرًا.

قال محمد بنُ عبد الملك: حدّثني القاضي أبو العباس ابنُ الصَّقر بحضرة مَرّاكُش قال: كان الناسُ يَزورونَ ابنَ عَطِيّةَ لمعنى المنفعة به فينفَعُهم ولم يطلُبوا له. وكنت ممن يختصُّ به، فكتبتُ له أبياتًا فيها مخادعةُ الزائرين، منها [من البسيط]:

وعـامَلُوكَ بـزَوْراتٍ مـزوَّرةٍ ... فالوُدُّ في الصَّدر لا في المشي بالقدمِ

ويرحَمُ الله أبا الحسن المسعوديَّ حيث قال: لو لم يكن لأبي العتاهِيَة إلا هذه الأبياتُ التي أبان فيها عن صِدق الأخوّةِ والوفاء لكان مُبرِّزًا على غيرِه ممّن كان في عصرِه، وهي[2] [من الرجز]:

إنّ أخاك الصِّدقَ مَن يسعى معَكْ ... ومـن يـضُرُّ نفـسَهُ لينفعَـكْ
ومـن إذا رَيْـبُ زمـانٍ صـدَعَكْ ... شـتَّت شـملَ نفـسِه ليجمَعَـكْ

قال: وهذا في زماننا معدومٌ ومستحيلٌ وجودُه، ومتعذِّرٌ[3] كونُه، فكيف بزماننا اليوم؟

وحَكى أبو عبد الله بنُ داودوش، قال: سُئل أبو العباس الجُراويُّ عن الوزير الكاتب أبي جعفرٍ ابن عَطِيّةَ فقال: كان من الخليفة بحيث عُلِم من الاختصاص ولُطْفِ المحَلّ، فتذاكَرْنا سببَ الإيقاع به، فقال: اختلَف الناسُ في ذلك، والأشهرُ أنه خَرج بسرٍّ

(١) في ق: «الظالمين».
(٢) البيتان في زهر الآداب ٢/ ١٧٣.
(٣) في ق: «معتبر»، وفي ك، ر٣: «معتذر» وما أثبتناه هو الأصوب.

أوثرَ به، فحُبس مدةً ثم دُفع إلى رجُل من كوميةَ يُعرَف بيوسُف بن عبد المؤمن، فحَمَله معَ أخيه إلى موضع يُعرَف بتينيسكت: من طريق تينمل، فقَتَلها بذلك الموضع بأشياءَ غير محصَّلة. ثُم أخبَرني أنه كتَبَ قبلَ قتلِه إلى الخليفة وهو محبوسٌ كتابًا[1] يتضمَّنُ نظمًا ونثرًا ودَفَعه إلى المقرَّب عبد السلام فأمسَك الكتابَ[2] عندَ نفسِه ولم يدفَعْه إلى الخليفة بَغْيًا منه عليه حتى جَرى القدَرُ بما جَرى، والنَّظمُ هذا [من البسيط]:

عطفًا عليَّ أميرَ المؤمنينَ فقد ... بانَ العزاءُ لفَرْط البثِّ والحزَنِ
قد أغرقَتْنا ذنوبٌ كلُّها لُججٌ ... ورحمةٌ منكم أنجَى من السُّفُنِ
وصادفَتْنا سهامُ الدّهر عن[3] غَرَضٍ ... وعطفةٌ منكمُ أوقَى من الجُنَنِ
هيهاتِ للخَطْب أن تسطو حوادثُهُ ... بمَن أجارتْه رُحماكم من المِحَنِ
فالثَّوبُ يَطهُرُ بعدَ الغَسْل من دَرَنٍ ... والطَّرفُ ينهَضُ بعدَ الركض في سَنَنِ
أنتم بذلتُمْ حياةَ الخَلق كلِّهمُ ... من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمنِ
وصِبيةٌ كفِراخ الوَرْقِ من صِغَرٍ ... لم يألَفوا النَّوحَ في فَرْع ولا فنَنِ
قد أوجدتْهم أيادٍ منك[4] سابقةٌ ... والكلُّ لولاك لم يوجَدْ ولم يكنِ

والنّثر منها: تالله لو أحاطَت بي كلُّ خطيئة، ولم تنفكَّ نفسي عن الخيراتِ بطيئة، حتى سَحَرتُ مَن بالوجود، وأنِفتُ لآدمَ من السجود، وأبرَمتُ لحطبِ نار الخليل حبلًا، وأبرَيْتُ[5] بعدَه إلى[6] ثمودَ نَبْلًا، وحطَطْتُ عن يونُس شجرةَ اليقطين، وأوقدتُ معَ هامانَ على الطِّين، وافترَيْتُ على العذراءِ البَتول، وقذَفْتُها

(١) في ك، م: «كتبًا» وما أثبتناه من النسخ الأخرى.
(٢) في ك، م: «الكتاب».
(٣) في م: «في».
(٤) في النسخ: «منكم» ولا يستقيم عروضًا.
(٥) في م: «وبريت» وما أثبتناه من النسخ.
(٦) في م: «وبريت لقدار ثمود»، وهو تحريف.

وقَبَضْتُ قبضةً من أثَر الرسُول فنبَذتُها، وكتبتُ صحيفةَ القطيعة بدار النَّدوة، وظاهَرتُ الأحزابَ القُصوى[1] من العُدوة، ثم جئتُ بطَوْله وحِلمِه لائذًا، وبه رضيَ اللهُ عنه عائذًا، لقد آنَ لمقالتي أن تُسمع، وتَغفرَ لي هذه الخطيئاتِ أجمع[2] [من الطويل].

فعفـوًا أمـيرَ المـؤمنينَ ومَـن[3] لنـا بجمـلِ قلـوبٍ هَـدَّها الخفَقـانُ

وفي سنة اثنتينِ وخمسينَ وخمس مئة: كانت وقعةُ زغبولةَ على مقرُبة من إشبيلِيَة، على السيِّد أبي يعقوبَ يوسُفَ ابن الخليفة، وذلك أنّ النّصارى أهلَكَهم اللهُ غَنِموا نظَرَ إشبيلِيَة، فأمَرَ السيّدُ أبو يعقوبَ بوصول مَيْمون بن حَمْدونَ الوالي على شِلْبَ والبلاد التي كانت بيد ابن وزير، ويَستعجلُ بعسكر الغَرْب، فوصَل إليه، فاستعجَل السيّدُ إلى حربهم ومُقارعتِهم، وبرَزَ إليهم بعسكر إشبيلِيَة، فلقيَ النّصارى بحِصن زغبولة، فدارت الحربُ بين الكَفَرة والمسلمين، فمال الناسُ وأجْفَلوا عن مواقفِهم وانهزَموا عن السيِّد بجَمْعهم، واستُشهِد في المعركة ابنُ غَزُّون ومحمدُ بن عليّ الحَجّام وجُملةٌ من أشياخ الموحِّدين، واستُشهِد الحافظُ ميمونٌ صاحبُ الغَرْب، واستَخْلَص أبو يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن بدليل من الأدِلة، أخرَجَه من الملحمة في الغُبار وطار به أيَّ مطار، وفَرَّ ابنُ وزير بجَواد مُعار من أحد قَراباته، وأُسِر من عامة إشبيلِيَةَ بَشَرٌ كثير، وذلك في ربيع الأوّل من السنة، فوصَل الخبرُ إلى عبد المؤمن فنَظر في استجلابِ العرب وحماية الجزيرة من الحَرَب والنُّوَب[4].

وفي سنة ثلاثٍ وخمسينَ وخمس مئة: تحرَّك أبو محمد عبدُ المؤمن من حَضْرة مَرّاكُش في أوّل شوّال من هذه السنة المؤرَّخة إلى رِبَاط الفتح المسَمَّى بالـمَهْديّة عُدوةَ سَلَا، وكان قد استوْزَر بعدَ ابن عَطِيّةَ عبدَ السلام بنَ محمد الكُوميَّ، واستكتَب عبدَ الملك بنَ عيّاش القُرطبيّ[5]، فأمَرَ بالكَتْب إلى قبائل الموحِّدينَ بالنَّفْر للجهاد،

(١) سقطت من م.

(٢) نفح الطيب ٥/ ١٨٤-١٨٥.

(٣) في م: «فمن».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٧ باختصار.

(٥) ترجمته في الوافي ١٩/ ١٨٥.

والاستعدادِ في الزّادِ، وأمَرَ أهلَ البلاد البحريّة بإنشاء الأساطيل والأجفان لحَمْل جميع...[1] وأمنيتِه من ذلك، وسالت العساكرُ تابعةً...[2] الموحِّدين وسائر العساكر بالإنعام وأسبَلَ عليهم مُلاءاتِ العطاء التامّ، واستَخْلف مكانَه على بسائطِ العُدوة الشّيخ المذكور المرحومَ أبا حفص عُمرَ بن يحيى ليتطلَّع أمرَ البلاد الغربية، ونظَر في الحركة إلى إفريقيّةَ برَسْم مُنازلة الـمَهْدية في سنة أربع وخمسين وخمس مئة حسبَما أذكُره إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة أمير المؤمنينَ أبي محمد عبد المؤمن إلى بلاد إفريقيَة ومُنازلتِه مدينةَ الـمَهْديّة وتملُّكِها[3]

لـمّا استوفَت العساكرُ من سائر البلاد برَسْم الجهاد واستَخْلفَ أبا حفص كما ذكَرْنا، واستَخْلَف يوسُفَ بنَ سليمانَ على مدينة فاسَ وأنظارِها، وأمَّر بحضرة مَرّاكُشَ ابنَه أبا الحَسَن عليًّا، وأمَّر بإشبيلِيَةَ ابنَه السيّدَ الأسنى أبا يعقوبَ على أول ولايتِه لها. وترَكَ عبدَ الله بنَ أبي حفص بإشبيلِيَةَ، وتَرَكَ ابنَ بخيتَ بقُرطُبَةَ، وأمَّرَ بغَرناطةَ ابنَه السيِّد أبا عثمان، فلمّا تحقَّق كمالُ بُغيتِه وأُمنيتِه تحرَّكَ من موضع معسكرِه بمدينة سَلا، فكان خروجُه منها في العاشر من شهر صَفَر من عام أربعةٍ وخمسينَ وخمس مئة، فاستَصْحبَ السَّيرَ والنّصرُ أمامَه والظَّفَرُ مُلازمٌ أعلامَه، حتّى وصَل مدينةَ الـمَهْدية مقرِّ النّصارى من أهل صِقلِّيّة، ونازَلَـها، وتلاحَقَ الأُسطولُ إليه فيها بالآلات والمجانيق والعُدَد وغيرِها، وحضَرَ الفَعَلةُ لها، فأمَرَ[4] بقتال الكفَرة ورَماهم بالحجارة نهارًا وليلًا، وأرسَل عليهم من سحائبِ السِّهام وَبْلًا[5]، وأسال عليهمُ المنايا من كلِّ جانب سَيْلًا، ودام حصارُه لهذه المدينة المنيعة في المعاقل الرفيعة، فدام حصارُ الموحِّدين لها سبعةَ أشهر حتى يسَّر اللهُ فتحَها على صُلح من النّصارى وطَلَبوا الخُروجَ بأمان إلى

---

(١) فراغ قدر كلمة.

(٢) فراغ قدر خمس كلمات.

(٣) الكامل لابن الأثير ١١/ ٢٤١، والمعجب ٢٩٨، والاستقصا ٢/ ١٣٥.

(٤) بعد هذا في م: «لها» وليست في النسخ ولا معنى لها.

(٥) في م: «وابلًا» وما هنا من النسخ.

بلادِهم فمَنَّ عليهم بمُرادِهم وأخرَجَهم منها وطهَّر اللهُ بها صُقْعَ إفريقيّةَ والزّاب، وتخلَّد له عندَه جزيلُ الأجر والثواب.

وفي أثناء هذا ظهَرَ من العربِ بني سُلَيْم القائمينَ بتعدِّيهم على مدينة قابِس ما أوجَبَ استدعاءهم واستدناءهم، فخاطَبَهم أبو محمد عبدُ المؤمن بشعرٍ طويل من قول القاضي ابن عِمران يستدعيهم فيه ويَسْتدنيهم، فمنه هذا [من الكامل]:

أسُلَيْمُ دعوةَ ذي إخاءٍ مُرشدِ ... هادٍ إلى الحقِّ المبين المُسعدِ

ومُذكِّرٍ ما كان أسلافٌ لكمْ ... فَضَلوا به أفعالَ كلِّ مسدَّدِ

بجهادِ أعداء الإله ونَصْرِهمْ ... لرسول ربِّهمُ النبيِّ محمدِ

وتعرَّفوا أنّا عليكمْ صُبَّرٌ ... حتى يعودَ جوابُ هذا المنشدِ

وكتَبَ أيضًا شعرًا ثانيًا من قول ابن طُفَيل معيدًا عليهم بالاستدعاء، وتوجَّهت هذه الأشعارُ إلى شيوخ العرب إلى جميع إفريقيّةَ، وصَبَر عليهم في ردِّ جوابِهم على هذا النظم، وقد كانوا تغلَّبوا على مدينة قابِس، فجرَّد إليهم عسكرًا وأقام هو على مدينة المَهْديّة، فلم تكنْ إلا أيامٌ ووصَل الفتحُ بهزيمتِهم وبقَتْلِهم... [(١)] يوسُف الوالي على إشبيلِيَةَ يعرِّفُه بالهزيمة المذكورة ويشرَحُ له أمورَها[(٢)]، فقال في نصِّ الكتاب[(٣)]: أعزَّكم الله، وجعَلَنا وإياكم من الشاكرينَ لنُعماه، إنّ من الواجب المُحتَّم والمفرض، الحَزْمَ على مَن لزِمَه شُكرُ النِّعم لمُسديها، أن يقرِّرَ أولًا النِّعمةَ بكمالِها، ويَعمُرَ خاطرَه بتفصيل إجمالِها، ويُحضِرَ في ذهنه بهجةَ جمالِها حتى يَفيضَ على باطنِه نورُ إشراقِها، ويَهمي بباقع[(٤)] مِقوَلِه هاطلُ غيداقِها، وتتبارى له نفَحاتُ الشّكر في ميدان استباقِها، وهو الفتحُ الذي برَّزَ في الإعجاز والإغراب، وأضحَى نسيجَ وحدِه في الأشباه والأتراب، يتأكَّدُ بمحَلِّه وجوبُ الاعتبار، ولا يزال موقعُه يَعظُمُ بزيادة الاستيضاح والاختبار. وهي طويلةٌ نظمًا ونَثْرًا أضرَبْنا عنها للاختصار.

---

(١) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٢) في ر٣: «أمرها».

(٣) في م: «كتابه» وما أثبتناه من النسخ.

(٤) في م: «ببادع»، وهو تحريف.

ولـمّا وصَل هذا الكتابُ انشرَحَت صدورُ الموحِّدين، وتحقَّقوا نصرَ الله بأوفَى اليقين، وقُرِئ على المنابِر، وتكرَّرت المسارُّ في الرعايا والعشائر.

وفي سنة أربع وخمسينَ وخمس مئة: خَرج محمدُ بن مُرْدنيشَ من مدينة مُرْسِيَةَ بعسكره معَ أصحابِه النّصارى وبجَمْعه الـمُفسِد منتهزًا الفرصةَ في ظنِّه، ومتخيِّلًا بما أفسدَتْه الخمرُ من ذهنِه، أنه بمَغيبِ أمير المؤمنينَ يتغلَّبُ على الموحِّدين، حتّى نزَلَ مدينةَ جَيّانَ وفيها محمدُ بن عليٍّ الكُوميّ، فصادَفَ عندَه من النَّكث للبيعة قَبولًا لـمُرادِه، وأعجَلَه الشُّؤمُ في رأيه بارتدادِه، فظنَّ ابنُ مُرْدنيشَ أنّ سائرَ الموحِّدينَ يجِدُ عندَها وعندَ أهلها ما وَجَد عند الكُوميِّ المذكور من العِناد والفساد، فوصَل قُرطُبَةَ ونازَلَـها ودمَّر زرعَها وعفَّى ربعَها، وكان بها أبو زيد ابنُ بخيت واليًا عليها، فدافَعَه مدافعةَ الأبطال، وأهل الوفاءِ في كلِّ حال، ودام حصارُه إلى أنِ اجتمع القاضي أحمدُ بن إدريسَ معَ أبي زيد المذكور وتحيَّلا بحيلة من حِيَل الحرب على لسان ابن وَزير من إشبيلِيَةَ إلى ابن مُرْدنيشَ وهو يقولُ له: عَجِّلْ بالإقلاع عن قُرطُبة وسِرْ إلى إشبيلِيَةَ وأنا ضامنٌ لك دخولَـها، فحينَ قرأ الكتابَ أمَرَ بالإقلاع والإسراع، فوصَل ابنُ مُرْدنيشَ بجَمْعِه إليها ونزَلَ على مِيل منها، فبقيَ عليها ولم يرَ شيئًا من أمر الكتاب، فعلم أنها خُدعة، فأقلَعَ خاسرًا عنها، ولقيت إشبيلِيَةُ عظيمَ الخَطْب وعميمَ الرُّعب، وحَلَّ بأهلِها كَرْبٌ وحَرَب، وضَبَطَها السيِّدُ أبو يعقوبَ بحَزْمِه وجِدِّه وبمَن كان معَه من الموحِّدين وأشياخ إشبيلِيَةَ وأعيانِها[1] المخلصين يَسمُرونَ طُولَ ليلِهم على الأسوار، ويقفونَ بأبوابِ المدينة طُولَ النهار، ويتعوَّذُ الجارُ من الجار[2]، وساء ظَنُّ الموحِّدينَ بالناس، فسَجَن منهم من اتَّهَم، وأمضَى السَّيفَ على مَن صحَّ عنه أنه غَشّ الأمرَ وأجرَم، وسَلِم مَن لازَمَ الطاعةَ واستسلم. وتَمادى ذلك كلُّه حتّى ورَدَ الكتابُ المبشِّرُ بالفتح المؤرَّخ بالثاني من ذي الحجة من السنة المذكورة من ظاهر الـمَهْديّة[3].

---

(١) في ر٣: «وأعيان».

(٢) في ق: «البحار من البحار»، وهو تحريف ظاهر، وفي م: «الجار من شرّ الجار» ولفظة «شرّ» لا أصل لها في النسخ ولا معنى لها في مثل هذا الموضع.

(٣) المن بالإمامة ١١١ فما بعدها، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٨، والاستقصا ٢/ ١٤١.

وفي سنة خمس وخمسينَ وخمس مئة: فتَحَ اللهُ تعالى مدينةَ الـمَهْديّة، ونَزَلَ النّصارى عنها، ومَلَكَها المسلمونَ، فجلسَ عبدُ المؤمن مجلسَ التهنئة والشُّكر لله على ذلك، وأمَرَ بالكَتْب بوَصْف الفتوح والجَذَل الممنوح[1] شَرَح فيه... [2] ثم تيسير الفتح في هذه... [3] [من الطويل]:

ولـمّا قـضَيْنا بالمـشارقِ أمرَنـا ... وتـمَّ مـرادُ الله في كـلِّ مطلـبِ[4]

وأشرقَـت الـشمسُ المنـيرةُ فوقَنـا ... وأصـبح وجـهُ الحـقِّ غـيرَ محجَّـبِ

وطُهِّـر هـذا الـصُّقعُ مـن كـلِّ كـافرٍ ... وعـاد بـه الإسـلامُ بعـد تغلُّـبِ[5]

وكُـسِّرت الـصُّلبانُ في كـلِّ بيعـةٍ ... ونادى منادي الحـقِّ في كـلِّ مرقَـبِ

أشَرْنـا بأعنـاقِ المطـيِّ إلـيكمُ ... فطـار بهـا شـأْوُ الـسرورِ بمغـربِ

فأبـشِرْ أبـا حفـص بنَـصْرٍ مـؤزَّرٍ ... كفيـلٍ بـما تَبْغيـه في كـلِّ مـذهبِ

ولا بـدَّ مـن يـوم أغـرَّ محجَّـلٍ ... يُـسيلُ دمـاءَ الكُفـر في كـلِّ مـذنبِ

وتـشفي صـدورَ المـؤمنينَ بغـزوةٍ ... تكـونُ عـلى حُكـم الحسام المـذرَّبِ

ويغـزو بـلادَ الـروم جيشٌ عَرَمْـرَمٌ ... تُـخيِّرُ[6] مـن قـيس وأبنـاءِ يَعـرُبِ

يصولُ بـه مـن عُـصبة الحـقِّ معشرٌ ... بجُملـةِ مـا يلقـاهُ خـيرُ مجـرَّبِ[7]

---

(١) في ق، ر٣: «الموضوح» وما هنا من ك، وهو الذي في المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف.

(٢) بياض بمقدار نصف سطر.

(٣) قوله: «ثم تيسير الفتح في هذه...» سقطت من م.

(٤) لم يبق في النسخ من هذا البيت سوى قوله: «وتم مراد»، واقتبسناه من المنّ بالإمامة، ص١١٧، والمؤلف ينقل منه.

(٥) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «تغيُّبِ»، وفي م: «تقلُّبِ»، وهو تحريف.

(٦) في النسخ: «بخيل» وبه يكسر الوزن، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة، ويذكر بعض النسّابة أن البربر ينحدرون من قيس بن عيلان، فالمراد هنا أن الجيش يتكون من البربر والعرب. على أنّ المحقّقين من النسابين لا يصححون هذه النسبة.

(٧) في المنّ بالإمامة: «نخيلة ما أبقاه أمير مجرّب».

فيَـدمَغُ بالصَّمـصام كـلَّ مجـاهرٍ ويقطَـعُ بالبرهـانِ كـلَّ مـشغِّبِ
فطُـوبى لأهـل الغـربِ مـاذا يرَونَـهُ من النّصر والفـتح الـمُبين المقـرَّبِ

فأمَرَ السيّدُ أبو يعقوبَ أن يكتُبَها الطلبةُ بإشبيلِيَةَ ويحفظونَها[1]، وذكَرَ لهم أنها من إنشاءِ أبيه، فامتَثل الناسُ ذلك. وأمَرَ السيّدُ بقَرْعِ الطّبول على هذه المسارِّ التي استَلَذّت بها النفوس، وكان قَرْعُ الطّبول معَ الإطعام متّصلًا[2]، واليُسرُ مستمرًا مشتملًا، والشّعراءُ يُنشدونَ أشعارَهم بالتّهاني ويتمنَّونَ الثّلجَ بصحيح الأماني، فلمّا وصَل السيّدُ من أبيه ما ذكرتُه من المسَرّات، جاوَبَه على كتابِه بما يوجبُ الحالَ من التهنئة والدعاء والتأميل، وطلَبَ منه إغاثةَ[3] الأندَلس، وجاوَبَه أيضًا بشعر على معنى الواصل إليه ذُكر أنه من قول أبي العبّاس بن سيِّد المالَقيّ[4] يَذكُر فيه حالَ الفتنة وأحوالَ ابن مُرْدنيشَ وغيرِه، فقال من قصيدة أولُها[5] [من الطويل]:

هـو الأمـرُ أمـرُ الله لـيس لـهُ ردُّ يؤيِّـدُه أيـدٍ ويَـسمو بـه جَـدُّ
وقـد وضَـحت آياتُـه وأناتُـهُ وقد أُفحِمت[6] رَغْمًا[7] به ألْسُنٌ لُدُّ
ومـا اشـتبهت مُـذْ حُـمَّ إلا لزائـغٍ عقيدتُـه كفـرٌ وإقـرارُه جَحْـدُ
فمَن يبـغِ فيهـا الغـيَّ بعـدَ اجتلائـه فـإنّ حـسامَ الهنـد فيـه لـه رشْـدُ
وهـذي ريـاحٌ ريحـهُ عـصَفَت بهـمْ فعادوا[8] كعادٍ حـين جلَّلها الرمـدُ
ولم يُنجِهمْ حصنٌ حصينٌ إذا انْـزَوَوْا ولم يُغـنِهمْ ذاك العديـدُ ولا العـدُّ

(١) هكذا في الأصل والجادة: «ويحفظوها».
(٢) المن بالإمامة ١١٩.
(٣) في م: «إغاثته»، وما أثبتناه من النسخ كافة.
(٤) هو أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، المتوفى بعد الستين وخمس مئة.
(٥) القصيدة في كتاب المن بالإمامة ١٢١ باختلاف لفظي.
(٦) في ق، ر٣: «أعجمت»، وما أثبتناه من ك وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.
(٧) في المنّ بالإمامة: «رعبًا».
(٨) في م: «فصاروا»، وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.

ولم يَـجِدوا النـصرَ العتيـدَ بـزَعْمِهِمْ من اللّات بل رُدُّوا حديثًا كـما أردوا

وكانت سبيلُ الرُّشـد واضـحةً لهـمْ فما مـنهمُ فيهـا رَصِـيمٌ[1] ولا وَخْـدُ

ولا سـلَكُوا فيهـا سـلوكَ تعـذّرٍ ولا انتضَحت فيها الـشكائمُ واللُّثْـدُ[2]

ولكـنّهم مـالوا إلى الكُفـر مَيْلـةً فصالت بهمْ منكمْ يَدٌ ولها الأيـدُ[3]

إلـيكمْ أمـيرَ المـؤمنينَ توجَّهـتْ بنـا[4] الرَّغَبـاتُ الجُمُّ يحتثُّهـا جَهـدُ

لعـلَّ عِيانًـا مـنكمُ لعبيـدِكمْ وقُربًـا لكـمْ منهم يُـدالُ بـه البُعـدُ

فقد عضَّهم نابٌ من الكُفـر مُـنغِصٌ ودانـوا لكـمْ دهـرًا وأنيابُـهُ دردُ

بكـمْ يعـصِمُ اللهُ العـليُّ جمـيعَهمْ بكمْ تعظُمُ الآمـالُ بـل يكثُـر الرِّفْـدُ

بكمْ يعـتلي الإسـلامُ شرقًـا ومغربًـا فللـه فيهـا دائبًـا ولـك الحمـدُ

ونهَضَ الرقّاصُ بالجواب بهذا الشعر، وابنُ مُرْدنيشَ يُلحُّ بالفتنة والضُّرّ، ويستعينُ بالنّصارى أهل الكُفر، وإشبيلِيَةُ في مثل الحَلْقة من الفِتن إلى أن سَنَّى اللهُ وصُولَ الجواب من ظاهرِ قُسَنطينة بتاريخ ربيع الأول من العام المؤرَّخ يُعرِّفُ به بصحيح الإياب، [وما ثَنَى من أعِنَّةِ خيل الله لهذه الأسقاع][5] وحماية ذلك الجواب[6]، ويَذكُرُ فيه فتْحَ قَفْصة.

وركِبَ الرقّاصُ بالجواب من بِجَاية، فساعدَتْه الرِّيحُ، وخَرج في الـمَرِيّة. ووصَل إشبيلِيَةَ في أقربِ وقت من تاريخِه، ثم وصَل كتابٌ آخَرُ مُبشِّرٌ[7] بتمادي

---

(١) الرصيم: البطيء، وهو ضدّ الوخد الذي معناه سريع الخطو. وفي م: «رسيم»، وهو تحريف، وفي المنّ بالإمامة: «وسيم» وهو تحريف أيضًا لا معنى له.

(٢) في م، والمنّ بالإمامة: «واللبد» وهو تصحيف، وما أثبتناه من النسخ كافة، واللثد، القوم المقيمون لا يظعنون.

(٣) لم يبقَ من هذا الشطر في النسخ سوى قوله: «فصالت»، واستدركنا باقيه من المنّ بالإمامة.

(٤) في ر٣: «به»، وما أثبتناه من بقية النسخ والمن بالإمامة.

(٥) ما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ١٢٢.

(٦) في المنّ بالإمامة: «الجناب»، وهو أحسن.

(٧) في ك، م: «مبشّرًا» وما أثبتناه من بقية النسخ وهو الأفصح.

السَّير والانصراف، فارتفَعت المسارُّ المؤْذِنةُ ببَسْط الأرجاءِ والأكناف، يَأمُرُ فيه ببناءِ مدينة بجبل طارق في التاريخ المذكور، فتوجَّه السيِّدُ أبو سعيد من غَرناطةَ بنفسِه وعسكرِه إلى الجبل المذكور، فنزَلوا فيه وابتَدأوا البناءَ في الموضع الذي وقَع عليه الوَفْقُ والاتّفاقُ من نواحيه، فزادَت به آمالُ الأندَلس وتحقَّقوا نَيْلَ الأمل، وأيقَنوا بالفتح والنُّجْح ببُنْيانِ هذا الجبل[1]. وكان السيِّد أبو إسحاق[2] بإشبيلِيَةَ يُزعِجُ الفَعَلَةَ والرجالَ للبناء المذكور، ويرتقبُ وصولَ الأخبار بقُرب والدِه من هذه الأقطار، فوصَلَه الخبرُ بالتحقيق من إيابِه، والتحقُّق برجعتِه وانقلابِه، وأنه في القُرب من أَحْواز فاسَ وقدِ استاقَ من العَرب ما لا يُحصى، فعزَم السيّدُ أن يَخرُجَ من إشبيلِيَةَ إلى التبرُّك بلُقْياه، فلمّا كان يومُ عَزْمِه وَصَله الخبرُ بغَدْر أصحابِ ابن هَمُشْك مدينةَ قَرْمُونةَ وأنّ الموحِّدينَ الذين فيها احتَصَنوا بقَصَبتها، فكان باقي ذلك اليوم يومًا عصيبًا أحدَثَ هذا الخبرُ فيه حوادثَ سَوْءٍ وخُطوبًا، فامتَنع السيّدُ من سَفَرِه ورجَعَ إلى مقرِّه، ووجَّه عسكرًا إليها وتكدَّرت الأحوالُ من حينها[3].

ذكرُ أخبار عبد السلام في وِزارتِه إلى حين الإيقاع به فيها ومَنيّتِه[4]

لـمّا خَرج عبدُ المؤمن من مَرّاكُش إلى غَزْوة الـمَهْديّة في شوّال سنةَ ثلاث وخمسين استَوْزَر هذا عبدَ السلام الكوميَّ، فعندَ وصُوله إلى تِلِمْسان أمَرَ ابنَه السيّدَ أبا حفص أن يَصحَبَه في غَزاتِه، وكان واليًا عليها، فامتَثل ذلك، ولـمّا وصَل بِجَايةَ كان ابنُه السيّدُ أبو محمد عبدُ الله واليًا عليها، فتغلَّب عبدُ السلام المذكورُ على جميع الأمور في هذه الغَزاة وطالَبَ الساداتِ ونَسَب إليهم عندَ أبيهم قبائحَ الأفعال من الراحات والبَطالات وأنّهم يشربونَ الخمر، وقرَّر عندَه ذلك وكرَّر المطالبةَ لهم هنالك، فتأثَّر الخليفةُ لقولِه وبحَث عليهم وبعَث شيوخَ الموحِّدينَ إليهم، فدخَلوا موضعَهم

---

(١) ذكر ابن صاحب الصلاة خبر بناء المدينة مفصلًا (المن بالإمامة ١٢٩ فما بعدها).

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة وم: «وكان من اشتغال السيد أبي يعقوب»، وهو الصّواب لما سيأتي بعده من كلام.

(٣) ينظر المن بالإمامة ١٣٧-١٣٨.

(٤) المن بالإمامة ١٧٠ فما بعدها، والمعجب ٢٦٧، والحلة السيراء ٢/ ٢٣٨-٢٣٩.

ومجتمَعَهم دونَ إذْن ولا مَشُورة، فوجَدوهم يأكُلونَ طعامًا[1] وبينَ أيديهم مشروبٌ مطبوخ من رُبٍّ حلال، فرَجَعوا إليه وشَهِدوا بالحال وزوَّروا كلامَ كلِّ طالبٍ مُحتال، فتيقَّن والدُهم تحامُلَه عليهم ولم يُظهِرْ له شيئًا، فلمّا نازَلَ[2] الـمَهْديّةَ وأقام عليها المدةَ المذكورة وخاطَبَه أهلُ قابِسَ بالتوحيد، بعَثَ عبدَ السلام المذكورَ بعسكر من الموحِّدين مقدَّمًا عليهم فأعْجَلوا السَّيرَ إلى المدينة المذكورة فانهزَم مَن كان في جوانبِها من العرب القاطنينَ بها وقُتلوا واستُؤْصلوا، واستَبدَّ عبدُ السلام بجَمْع الغنائم والأموال وتنفيل ما شاءه من الأنفال، فنُسِب إليه الاحتجانُ في الأموال والإنكارُ لها والكِتمان، كما نَسَب هو لابن عَطِيّةَ الباطلَ والبُهتان، وكما تدينُ تُدان، وفي مدّة مَغِيبه تكلَّم أشياخُ الموحِّدين في حالِه واستعلائه عليهم وتقصيرِه بأولاد أمير المؤمنينَ ومطالبتِه لهم بعدَ تشكِّيهم بحالهم إليهم، فاجتَمَعوا معَ الخليفة ورَغِبوا أن يكونَ ابنُه أبو حفص يوصِلُ كلامَه إليهم، فأجابَهم إلى ذلك، واستَوْزَر أبا حفص في ذلك اليوم، فاستَبْشَر الموحِّدونَ بذلك، فلمّا استقامت للموحِّدينَ الأمورُ ووَصَل عبدُ السلام المذكورُ وفتَح اللهُ الـمَهْديّةَ ورحَل الموحِّدونَ عنها إلى إفريقيّة وهُزِم العرب واستاقَهم أميرُ الموحِّدينَ معَه، كان عبدُ السلام المذكورُ يُماشَى على ظاهرٍ من حالِه إلى أنْ وصَل عبدُ المؤمن إلى تِلِمْسانَ، فتشكَّى أهلُ العُدوة بعُمّال عبد السلام من حَمْلِهم على الرعيّة وظُلمِهم وتعدِّيهم ومِن كوميّةَ إخوانِه ووصَفَوهم باحتجانِ الأموال والجِباية في جميع الأعمال، وأطنَبوا في التشكِّي والتبكِّي، وأضافوا ذلك كلَّه إلى عبد السلام، فأمَرَ عبدُ المؤمن بجَمْع المشتكين، وحضور أشياخ الموحِّدين، وطَلَبة الحضَر والقاضي لسَماع أقوالِـهم وتبيُّن أحوالِـهم وتشكِّيهم بما كُلِّفوا من أثقالِـهم، فبيَّنوا أمرَهم وقالوا فيه القليلَ والكثير، ووصَل كلامُهم على أبيَنِ التوصيل، فتغيَّر عبدُ المؤمن وتأثَّر وقال: عجبًا من هذا الأمر وسَعَتِه وقلّةِ ما عندَنا من المال على كثرة جَمْعتِه! كانت لَـمْتُونةُ إنّما يَملِكونَ إلى تِلِمْسانَ هذه، وكانوا يُنصِفونَ أجنادَهم، ونحن الآنَ قد ملَكْنا ذلك وزائدًا وليس عندَنا ما نُعطي الموحِّدين؟ هذا من أعجبِ العجَب! وكان عبدُ السلام واقفًا يسمعُ كلامَه، فقال له عبدُ الحق بنُ وانودين: يا أميرَ المؤمنين، ذلك لتضييع المخازن والدِّين، فقال له عبدُ المؤمن: ما معنى والدّين؟ فكرَّر عليه

---

(١) في م: «الطعام» وما أثبتناه من النسخ.

(٢) في م: «نزل»، وهو تحريف يدلّ عليه قوله: «وأقام عليها».

الدّينَ مرةً بعدَ مرة، فقام أميرُ المؤمنينَ من مجلسِه ذلك مُغضَبًا، فبادَرَ عبدُ السلام لتقويم نعلِه فترَكَها له ولم يَلبَسْهما ودخَل حافيًا إلى موضعِه، فلمّا كان ظهرُ[1] ذلك اليوم قُبِض على عبد السلام وسُجِن في موضع مجلسِه، ووصَلَ الساداتُ والموحِّدونَ أرَبَهم فيه، فلمّا أقلَعَ عبدُ المؤمن من تِلِمْسانَ تركَه مسجونًا بها فتحيَّل في قَتْله بأنْ أمَرَ السجّانَ فعَمِل له ثَرْدةً مسمومةً فأكَلَها ومات في حينِه. وكان السببُ الذي كثَّر إدلالَ عبد السلام الكوميِّ على الأمر، أنْ كان والدُ عبد المؤمن تزوَّج والدةَ عبد السلام، فوَلَدت له ابنةً تُسمّى نَبْذة[2]، فكان يَرى لنفسِه حقًّا ولم يعلَمْ أنّ الـمُلكَ عقيم وأن مسَرّاتِه هموم.

رَجْعُ الخبر: ولـمّا وصَل الخبرُ إلى إشبيلِيَةَ بغَدْر قَرْمُونةَ تكدَّرت الأحوالُ بها وببلاد الأندَلس الموحِّديّة إلى أنْ وصَل الخليفةُ من إفريقيّة وعبَر البحرَ إليها، وفي تلك الأيام... [3] بإشبيلِيَةَ ورَدَ من قُرطُبَةَ خبرٌ كاذب أنّ ابنَ هَمُشْك صِهرَ ابن مُرْدنيشَ نازَلَ قُرطُبَةَ ودمَّر زروعَها، وأنّ أبا زيد بنَ بخيتَ استُشهِد عليها، وذلك أنّ ابنَ هَمُشْك لـمّا أقلَعَ من مُنازلتِها أكمَنَ بخيلِه ورَجْلِه على مقرُبة منها، فخَرج أبو زيد المذكورُ ليتطلَّعَ على تلك الأمور، فخَرجَ عليه الكمينُ فقُتل رحمه اللهُ تعالى.

ذكرُ جَواز عبد المؤمن إلى الأندَلس من سَبْتةَ بعدَ إيابِه من غَزْوة الـمَهْديّة وفَتْح إفريقيّة[4]

كان جَوازُه في شهر ذي القَعدة من عام خمسة وخمسينَ وخمس مئة ليجتمعَ بالموحِّدينَ بالأندَلس وبرُؤسائها ويَنظُرَ كيف يكونُ غَزْوُ الرّوم الـمُحارِبينَ لها، فبَرَز إليه يومَ جاز البحرَ من النَّظّارة عالَـمٌ لا يُحصيهم إلا خالقُهم، وكان يومًا مذكورًا مشهورًا، وكان السيِّدُ أبو يعقوبَ قد وصَل من إشبيلِيَةَ بجُملةِ أصحابه من الموحِّدينَ ومن الرؤساءِ الأندَلسيِّين، ونَفَرَ الناسُ[5] عندَ مَشْي هذا السيّد من إشبيلِيَةَ

(١) في ك، م: «في ظهر».

(٢) هكذا في النسخ مجوَّدة، وفي م: «بنذة»! وهو تصحيف.

(٣) فراغ قدر كلمة.

(٤) المن بالإمامة ١٣٨ فما بعدها.

(٥) سقطت من م.

من شيوخِها وطلَبتها وأعيانها وقاضيها[١] أبي بكر الغافقيِّ[٢]، وأبي بكرِ ابن الجَدّ[٣] وسائرِ أهل النَّباهة بإشبيلِيَةَ من الكُبَراءِ والشّعراء، وكذلك من أهل قُرطُبة وجميع الأقطار والأنظارِ التي تحتَ طاعة الموحِّدين، ووَصَل هذا الجَمْعُ إلى الجبل المذكور جبلِ طارق فأمَرَ الوزيرُ السيّد أبو حفص أن يُجمَعَ الوفودُ للسّلام، فدخَلوا وسَلَّموا سلامَ جماعة وأقَرُّوا له بالسّمع والطاعة، وأُذِن للشّعراءِ في الإنشاد، فأورَدوا ما نَظَموه من أفكارِهم بمحضَر الورّاد[٤]، فقال أبو بكرٍ بنُ الـمُنَخَّل[٥] من قصيدة طويلة[٦] [من الطويل]:

فتحتُمْ بلادَ الشّرق فاعتَمَدوا الغَرْبا ... فـإنّ نـسيمَ النّـصر بـالفتح قـد هَبّـا

أصَرتُـمْ إليـه الخيـلَ وهْـي أجـادلٌ ... فسالت بكمْ بحرًا وطارت بكـمْ شُـهْبا

وأنشَد القُرشيُّ المعروفُ بالطَّليق قصيدةً أولُـها[٧] [من البسيط]:

ما لِلعدى جُنّـةٌ أوقَـى مـن الــهرَبِ ... كيـف المَفـرُّ وخيـلُ الله في الطلـبِ

لــو بــدَّلوا قَـدَمًا[٨] زَلَّـتْ بقادمــةٍ ... لأصـبح الكـلُّ طيّـارًا مـن الرُّعُـبِ

---

(١) في م: «وقضاتها»، غيّرها ناشرو (م) عن عمد ظنًّا منهم أنه الصواب الذي ليس فيه ارتياب، باعتبار أن في إشبيلِيَةَ عدة قضاة أو قاضيين كما نوّهوا في تعليقهم، وكل ذلك وهم، فالقاضي هو أبو بكر الغافقي، وأما أبو بكر ابن الجدّ فلم يكن يومئذ قاضيًا، والعبارة في المنّ بالإمامة واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار حيث قال: «وقاضيها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر ابن الجد».

(٢) ترجمه ابن الأبار في التكملة (٥٩٢) وذكر أنه توفي في نحو السبعين وخمس مئة.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن يحيى الفهري، أبو بكر ابن الجد، ترجمته في تكملة المنذري ١/ الترجمة ١٢٣، وتكملة ابن الأبار (١٤٩٥) والتعليق عليهما، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٨٦هـ.

(٤) في م: «الوارد»، وهو تحريف.

(٥) في النسخ: «النحل»، وهو تحريف، وقد سبق التعريف به.

(٦) القصيدة بطولها في المنّ بالإمامة ١٤٢ فما بعدها.

(٧) القصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ١٥٣ فما بعدها.

(٨) في المنّ بالإمامة: «قومًا».

وأنشَد أبو عبد الله[1] ابنُ صاحبِ الصّلاة من قصيدةٍ أولُـها[2] [من الطويل]:

تـــلألأَ مـــن نُـــور الخلافـــة بـــارقُ ... أضاءت بـه الآفـاقُ والليـلُ غاسـقُ

وأشرقَـــت الـــدّنيا بـــه فكأنّهـــا ... من البِشرِ في كـلِّ الجهـاتِ مَشارقُ

بسَعْدِك يَبرِي السّيفُ مـا عَـزَّ قطْعُـهُ ... وينفُـذُ حـدُّ الـسَّهم مـا هـو راتـقُ

ولا زال أمـــرُ الله للـــدِّين هاديًـــا ... وأنـت لـدين الكُفـر مـاحٍ ومـاحقُ

قال أبو القاسم ابنُ أبي هارون[3]: كنتُ واحدًا من جميع الوَفْد، فأقَمْنا بجبل طارق نحوَ عشرينَ يومًا تحتَ إنعام وإكرام إلى أن عيَّدْنا عيدَ الأضحى، فرتَّب أمورَه وجهَّز عساكرَه وحصَّن ما حصَّن من البلاد الأندَلسيّة، وحينَئذٍ أُذِن للناس بالانصراف إلى مواطِنِهم فانصَرَفوا.

وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وخمس مئة: كان صدورُ أمير المؤمنينَ من...[4]، وذلك بعدَ أن أقام بجبل الفتح وبعَثَ منه عسكرًا جَرّارًا إلى بلاد العدوِّ برَسْم الغَزْو، وتقَدَّم بينَ يدَيْه، وقدَّم على القبائل ابنَ الشرقي، وعلى الأندَلسيِّينَ ابنَ صَناديد، فوصَلوا إلى فَحْص بلقون، فوجَدوا طاغيةَ الرُّوم قد استعَدّ للقائهم، فالتقى معَهم، فكان بينَ الفريقَيْنِ حَرَبٌ شديدٌ نصَرَ اللهُ فيه المسلمينَ على أعدائهم الكافرين، وكانت هزيمةً لم يُعهَدْ مثلُها، وقَفَلوا إلى الأمير عبد المؤمن فوجَدوه قد قَفَل إلى حضرتِه لأمورٍ حدَثت بعدَه في حِيَالِـها، ولم ينفصلْ من الأندَلس حتى مَهَدَها ورَفَقَ برعيّتِها، فاستقامت بذلك الأمورُ للموحِّدين وقَمَعَ اللهُ المعتدين. ومن قول أبي العبّاس الجُراويِّ في ذلك مادحًا لأمير المؤمنينَ عبد المؤمن [من الكامل]:

أعلَيْـــتَ ديـــنَ الواحـــدِ القهّـــارِ ... بالـمَـــشْرَفيّة والقَنـــا الخَطّـــارِ

---

(١) وكذا كناه ابن الخطيب في أعمال الأعلام، ص٣٠٦، وفي المنّ بالإمامة: هو أبو الحسين عبيد الله بن محمد ابن صاحب الصلاة.

(٢) القصيدة بطولها في المنّ بالإمامة ١٥٩ فما بعدها.

(٣) قال ابن صاحب الصلاة: «حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هارون» ثم ذكر هذا الخبر (المن بالإمامة ١٦٧).

(٤) فراغ في الأصل بقدر كلمتين.

ورأى بـكَ الإسـلامُ قُـرَّة عينِـهِ ... وغـدَتْ بـك الغَـرّاءُ دارَ قـرارِ
وسلَكْتَ مـن طُـرُق الهدايـة لاحبًـا ... طُـوبى لـمَن يمـشي عـلى الآثـارِ
وجـرَت معـاليكُمْ إلى الأمَـدِ الـذي ... بعُـدت مسافتُه عـلى الأسـفارِ
وقَفـتْ عـلى مـا قـد أردتَ سـعادةً ... وقَفـت عليهـا خدمـةُ الأقـدارِ
لا تُـخلِقُ الأيـامُ جِـدّةَ مُلكِكُـمْ ... أبـدًا ولا تَـبلى عـلى الأعـصارِ
لا غَـرْوَ أنْ كنـتَ الأخـيرَ زمانَـهُ ... فالفـضلُ للآصـالِ والأسـحارِ
وافَيْـتَ أندَلُـسًا فـأُمِّنَ خـائفٌ ... وسَـمَا لأخْـذ الثـأرِ ربُّ الثـارِ
وحلَلْـتمُ جبـلَ الهُـدى فحللـتُمُ ... منـهُ عُقـودَ عـزائم الكفّـارِ
جبلُ الهُدى والفتحُ والنّصرُ الـذي ... سـبَقَتْ بـشائرُهُ إلى الأمـصارِ
لـو بَـدَّلوا أقـدامَهمْ بقـوادمٍ ... طـاروا عـن الأوطـانِ كـلَّ مطـارِ
لـو راءَ موسـى مـا فعلـتَ وطـارقٌ ... زَريَـا بـما لهـما مـن الآثـارِ
أتـمَمْتَ مـا قـد أمَّلـوهُ ففـاتَهمْ ... مـن نَـصْرِ ديـنِ الواحـدِ القهـارِ
بعـرابِ خيـلٍ فـوقَهنّ أعـاربٌ ... مـن كـلِّ مُقـتحِمٍ عـلى الأخطـارِ
أكـرمْ بهـنَّ قبـائلًا إقلالُـها ... في الحـربِ يُغنيهـا عـنِ الإكثـارِ
وانظُـرْ إذا اصـطُفَّت كتائبُهـا إلى ... مـا تَـحمَدُ الكُتّـابُ في الأسـطارِ
لـو أنّهـا نَـصَرت عليًّـا لم تَـرِدْ ... خيـلُ ابـن حَـرْب سـاحةَ الأنبـارِ
هـم أظهَـروهُ مـعَ النبـيِّ وواجِـبٌ ... أن يُتْبِعـوا الإظهـارَ بالإظهـارِ
ملِكَ الـملوك لقـد أنِفْـتَ إلى العُـلى ... ونظَـرتَ مـن فـوقٍ إلى الأقـدارِ
أنـتَ الـسّبيلُ إلى النّجـاة فكلُّنـا ... لـولاك كـان عـلى شَـفيرٍ هـارِ
وجرَيْـتَ في نَـصْرِ الإلـه إلى مـدًى ... يكبـو وراءك فيـه كـلُّ مُجـارِ
قد ضـاق ذَرْعُ الكفـرِ منك وأهلُـهُ ... بموفَّـق الإيـرادِ والإصـدارِ

متأهِّبٌ للأمرِ قبلَ أوانِهِ مُطلِّعٌ على..........[1] رارِ
متحمِّلٌ أعباءَ كُلِّ عظيمةٍ ....[2] بالنَّفْع والإضرارِ
مُلئتْ بهِ الدّنيا صفاءً بعدَما مُلئتْ من الأقذارِ والأكدارِ
أخليفةَ المَهْديِّ دُمتَ مؤيَّدًا باللهِ منتقمًا من الكفّارِ
ترمي شياطينَ الأعادي في الوَغَى برُجوم خيلٍ من سماءِ غُبارِ
رَوَّعتَ[3] كلَّ مُروَّعٍ وحفِظتَ كُلَّ مضيَّعٍ وحمَيْتَ كلَّ ذِمارِ

ومن قولِه أيضًا رحمه اللهُ يمدَحُه ويذكُرُ إفريقيّةَ حين كان بها على المَهْدية [من البسيط]:

كانت محَلَّ أُناس قبلَنا فخَلَوْا عنها وآثارُهمْ فيها مُقيماتُ
تاللهِ لو عَلِمتْ مقدارَ وارثِها هبَّت إليك رُباها والقَراراتُ
قالوا العَطِيّاتُ أحياها فقلتُ لهمْ بل لم تكنْ قبلَ أنْ كان العَطِيّاتُ
أما سمعتُمْ جَريرًا عن هُنَيْدتِهِ يُثني يَرى أنها في الجُودِ غاياتُ
وأين مِن حبسه الآلافَ من ذهبٍ هُنَيدةٌ من سواه أو هُنَيْداتُ
وإنّ من قَيْس عَيْلانٍ أرُومتُهُ وقيسُ عَيْلانَ أملاكٌ وساداتُ
ومن يكنْ من أميرِ المؤمنينَ فقد قامت على فضلهِ منه الشّهاداتُ
اهنَأْ إمامَ الهُدى فالعدلُ مُنبسِطٌ والدِّينُ منتظمٌ والكفرُ أشتاتُ
أعيَتْ مآثِرُكمْ من أن تُنالَ وكم شُنَّت عليها من الأقوالِ غاراتُ
وكم أرادت وُلاةُ الشِّعر تَحصُرُها فأخفَقَت دونَها منهمْ إراداتُ
هذي أُبَيّاتُ عبد مُخلِص لكمُ مَحْضَ اعتقادٍ وما تُغني الأُبَيّاتُ

(١) بياض في الأصل.
(٢) بياض في الأصل.
(٣) هكذا في النسخ كافّة، ولو قال: «أمَّنت كلّ مروّع» لكان أحسن.

الأمـرُ أعظـمُ مقـدارًا وأرفـعُ مِـن أنْ قـد تُـحيطُ بـه منّـا مقامـاتُ
دمـتُمْ ودام لكـمْ إسـعادُ سـعدِكمُ ما دامت الأرضُ والسبعُ السّماواتُ

ومن قولِه أيضًا رحمه اللهُ في فَتْح الـمَهْديّة ويمدَحُ الخليفةَ عبدَ المؤمن [من الكامل]:

لِـمَن الخُيـولُ كـأنّهن سُـيولُ غُـصَّت بهـنَّ سَباسـبٌ وهجـولُ
طُوِيت لها الدّنيا فأبعَدُ مـا انتحَـتْ دانٍ وأبطـأُ سـيرِها تعجيـلُ
يَغزو أديـمَ الأرض مـن صَهَلانِـها مثـلُ اسـمِها حتـى تكـادُ تـزولُ
فصَهيلُها مَـحْضُ الثنـاءِ وإن يكـنْ لا يَفهَـمُ المـستمتعونَ صـهيلُ
تُثنـي عـلى المِلـكِ الـذي أيّامُـهُ سَـتْرٌ عـلى هـذا الـورى مـسدولُ
عـمَّ البـسيطةَ مُلكُـهُ فكأنّـهُ سَـيْلٌ عـلى كـلِّ الـبلاد يَـسيلُ
جَهِـلَ النّـصارى أنـه المِلـكُ الـذي يـرِثُ الـبلادَ وعُـذرُهمْ مقبـولُ
أهـلُ الجَهالـة هـمْ فكيـفَ ألـومُهمْ وعلِمـتُ أنّ الطبـعَ لـيس يَـحُولُ
لم ينزِلـوا طَوْعًـا ولا كُرهًـا[(١)] ولـ ـكنّ وراءَ الـصِّين منـهُ مَهُـولُ
ودَرَتْ نفوسُـهمُ بأنـك ظـافرٌ فأتـت تُقـدِّمُ [مـا][(٢)] إليـه تـؤولُ
فعفَـوْتَ عفـوَ القـادرينَ تكرُّمًـا عـنهمْ وعفـوُ القـادرينَ جميـلُ
شَـكَرَ الـبلادُ مـعَ العبـاد خليفـةً هـو بـالبلادِ وبالعبـاد كفيـلُ
لـو تنطِـقُ الـمَهْديّتانِ لَقالَتـا في الـشّكر مـا لا يُـدرِكُ التحـصيلُ
بـالأمسِ يمـلأُ سـمعَها ناقوسُـهمْ واليـومَ يمـلأُ سـمعَها التهليـلُ

وكان وصُولُ أبي محمد عبد المؤمن إلى مدينة مَرّاكُش من هذه الغَزواتِ المتقدِّمةِ الذِّكْر في شهر ربيعٍ الأوّل من سنة ستٍّ وخمسينَ المذكورة.

---

(١) لم يبق منها إلّا الكاف، وما بعدها بياض.
(٢) ما بين الحاصرتين ليس في النسخ، ولا يستطيع الوزن بغيره.

ذكرُ فَتْح قَرْمُونةَ وأخْذِها من يدِ ابن هَمُشْك[1]

لـمّا وصَل السيّدُ أبو يعقوبَ بنُ عبد المؤمن إلى إشبيلِيَةَ من وداع أبيه في أول عام ستة وخمسينَ وخمس مئة، رتَّب السّرايا على[2] حَرْبِ أهل قَرْمُونةَ يُغادونَهم ويُراوِحونَهم، فعمَّ جهاتِهم الحصار، ومَن ظهَرَ منهم الإسار، ومنَّ اللهُ أن أمْكنَ الموحَّدين من الغادر الذي غَدَر قَرْمُونة، ومكَّن منها ابنَ هَمُشْك، وهو: عبدُ الله بن شَراحيل، وسيق أسيرًا مكبولًا إلى السيّد أبي يعقوبَ بإشبيلِيَةَ، فقَتَله وقَتل أتباعَه وأشياعَه. وفي أثناء هذا وصَل يوسُف بن سُليمان بعسكرٍ ضَخْم إلى إشبيلِيَةَ جهَّزه عبدُ المؤمن حين وصُوله إلى مَرّاكُش، فاتّصلت آمالُ الناس عندَ وصُولِـهم واتّصلت المسرَّة[3] بحُلولِـهم، وقَوِيت بهم إشبيلِيَةُ، ودخَلت الأقواتُ والـمِيرةُ إلى قُرطُبة، وتوجَّه السيّدُ أبو يعقوبَ إلى مَرّاكُش لزيارة أبيه، واستَخْلَف على حرب قَرْمُونةَ أبا محمد عبدَ الله بن أبي حَفْص، فسار إليها ونزَل عليها حتّى ضاق مَن في داخلِها من الرَّعيّة، والشِّرْذِمة الشّرقيّة، ويئسوا من نُصرة ابن مُرْدنيش لهم، وقيَّضَ اللهُ لهم رجلًا من المسلمينَ فداخَلَ الموحِّدينَ وطلَبَ منهم الأمانَ في نفسِه وماله ورعيّةِ بلدِه، فأجابوهُ لذلك، فأجْمَعَ أصحابَه وفتَح بابَ المدينة ودخَلَها الموحِّدون بعدَما طال حصارُها مدّةً من سنة، وكان فتحُها يومَ الجُمُعة الخامسَ عشَرَ لمحرم من عام سبعة وخمسينَ وخمس مئة، وكان تغلُّبُ ابن هَمُشْك عليها يومَ الجُمُعة الخامسَ عشَرَ لربيع الأوّل من عام خمسة وخمسينَ وخمس مئة.

وفي سنة سبع وخمسينَ وخمس مئة: رحَلَ السيّدُ أبو يعقوبَ من مدينة إشبيلِيَةَ إلى حضرة أبيه برَسْم زيارتِه، وكذلك توجَّه أيضًا السيّدُ أبو سعيد ابنُ الخليفة لزيارة أبيه، فغَدَر ابنُ هَمُشْك بعدَه مدينةَ غَرْناطة حسبَما أذكرُه.

---

(١) الضبط من ق. وانظر: المن بالإمامة ١٧٧ فما بعدها.

(٢) في م: «رتّب السيد أبو يعقوب حرب...» ولا ندري من أين أتوا بها، ففي جميع النسخ ما أثبتنا.

(٣) في ك، م: «المسرّات».

ذكرُ غَدْر ابن هَمُشْك مدينةَ غَرْناطةَ ومُلكِه لها[1]

وذلك أنّ ابنَ إبراهيمَ بن هَمُشْك لم يزَلْ في كلِّ صائفة يُفسدُ زروعَ قُرطُبة ويُضِرُّ بجنَباتِها وربوعِها مدةَ الأعوام التي كان عبدُ المؤمن بإفريقيّة، وأنه استَوْلى بغَدْره على قَرْمُونَةَ وغيرِها، ولم يبقَ من البلاد المجاورة لإشبيلِيَةَ إلا قليلٌ منها، فلمّا كان إيابُ عبد المؤمن وعبورُه البحرَ إلى جبل الفَتْح ثم انصرافُه إلى مَرّاكُش، لازَمَت [العساكرُ من الموحِّدينَ][2] حصارَ قَرْمُونةَ حتى فتَحَها اللهُ كما ذكَرْنا، [فأسِفَ][3] عليها ابنُ هَمُشْك وهو على مدينة جَيّان، [فاضْطَرَمت الفتنةُ في قلبه][4] وجَنَّ في خاطرِه الفاسد أن يغدِرَ مدينةَ غَرْناطة، إذ هي بمقرُبة منه، فداخَلَ مَن بها من اليهود لعَنَهم الله وارتَبطَ معَهم على أن يجتمعوا باللّيل ويَعِدُوهُ بليلةٍ معيّنة يَصِلُهم فيها إلى باب الرَّبَض[5] فيكسرونَ البابَ ويدخُلونَه، فكان ذلك[6] كذلك، ودخَلَها في هذه السنة، وكان واليها السيّدُ أبو سعيد قد نَهَض لزيارة أبيه بالحضرة الـمَرّاكُشيّة كما تقدَّم ذكرُه، فمشَى ابنُ هود سرًّا من ابن هَمُشْك إلى اليهود وارتَبطَ معَهم على دخولِه المدينة، وكانت القَصَبةُ مُحصَّنةً بالرجال الأبطال مملوءةً بالأقواتِ والآلات، فوصَل الغادرُ في اللّيلة الموعودة وقدِ اجتمَعت الكَفَرةُ اليهود فكسَروا قُفلَ الباب وبادَروا بالصِّياح للأصحاب، فلمّا تسامَعَ الناسُ بذلك بادَرَ مَن كان هنالك ممّن له ولاءٌ واعتقادٌ في الدِّين، فلمّا أصبح الصَّباحُ من تلك اللّيلة وقد ملَكَ ابنُ هَمُشْك المدينةَ، خاطَبَ أميرَه ابنَ مُرْدنيش بمُرْسِيَةَ يُعلِمُه بما اتّفق له، وأطمَعَه أنه إذا وصَل بعسكرِه يُنزِلُ طوعًا مَن في القَصَبة من الموحِّدين، فاحتشَد ابنُ مُرْدنيش مَن ببلادِه واستدعى النّصارى أصحابَه، ووَصَلوا إليه، وخَرج في جَمْعِه الذَّميم طامعًا فيما ضَمِنَ له ابنُ هَمُشْك، وكان ابنُ هَمُشْك

---

(١) المن بالإمامة ١٨١، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٨٣-٢٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٩.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة، ص١٨٢.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ، وهو من المنّ بالإمامة أيضًا.

(٤) بياض في النسخ، وهو من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف.

(٥) في ق، ر٣: «الروض»، وباب الربض: أحد أبواب غرناطة، ولعله ربض البيازين.

(٦) سقطت من ك.

عندَ دخولِه شَرَع في قتال مَن بالقَصَبة وعذَّب من حصَل في يدِه منهم، وعبَثَ فيهم ورَماهم بالـمَنجَنيق، وأعان اللهُ المحصورينَ بالقَصَبة بما كان عندَهم من الأقوات والآلات فأعدُّوها معَ عَوْن الله عدَّهم، وشاع خبرُ تجلُّدِهم وتثبُّتِهم، وبلَغَ الخبرُ أميرَ المؤمنينَ عبدَ المؤمن فتحرَّك من حضرتِه لـجَواز البحرِ إلى الأندَلس.

ذكرُ حركةِ أميرِ المؤمنينَ برَسْم الـجَواز إلى الأندَلس حين بلَغَه غَدْرُ ابن هَمُشْك غَرْناطةَ[1]

لـمّا خَرج أبو محمد عبدُ المؤمن من مَرّاكُش على عادتِه من فَخامةِ هيئته وضَخامة جيوشِه برَسْم الغزوِ لبلاد الأندَلس، تَمادى مَشْيُه على تلك الهيئة المعهودة، فلمّا كان في بعض الطريق وصَله الخبرُ بغَدْر غَرْناطةَ، فساءه ذلك وتأثَّر له، فلمّا وصَل سَلا تقدَّم منها السيّدُ أبو سعيد ابنُه بمَن كان معَه، وأسرَعَ السَّيرَ إلى الأندَلس لعلّه يَدخُلُ قَصَبةَ غَرْناطةَ ويفرّ[2] ابن هَمُشْك، وكان السيّدُ قد قرَّر له أنّ ابنَ هَمُشْك في جُملتِه المعلومة له، وإذا بابن مَرْدنيشَ قد وجَّه عسكرًا من الرّوم في ألفَيْ فارس ورَجّالة كثيرة، فلمّا وصَل السيّدُ مالَقةَ استَدعى منها أبا محمد عبدَ الله بن أبي حفص الواليَ على إشبيلِيَةَ أن يَصِلَه بعسكرِها، فنَهَض أبو محمد المذكورُ والتقى بالسيّد أبي سعيد، وتجمَّعوا بأجمعِهم، وتقَدَّم السيّدُ بالموحِّدينَ والجُند الأندَلسيِّين ونَزَلوا فَحْصَ غَرْناطة حيث السواقي الجارية، فخَرجَ إليهم ابنُ هَمُشْك بالنّصارى وأصحابه، ودارت الحربُ بينَهم في الموضع المذكور، فانـهَزَمت جموعُ الموحِّدين وفَرُّوا أجمعين، فقُطِعت بهم تلك السواقي عندَ فِرارِهم فسَقَطوا فيها بخيلِهم، وكانت من أقوى أسباب انهزامِهم وقَتْلهم، واستُشهِد في ذلك اليوم الشيخُ أبو محمد بنُ أبي حفص المذكور، وتخَلّص السيّدُ أبو سعيد، [ووصَل][3] مدينةَ مالَقةَ، [واستُشهِد في ذلك اليوم العصيبِ كثيرٌ من][4] الموحِّدينَ والأندلسيِّين، وكان رُزْءًا عظيمًا وخَطبًا جسيمًا، وثبَّت اللهُ الموحِّدينَ المحصورينَ

---

(١) المن بالإمامة ١٨٥ فما بعدها.

(٢) في م: «مقرّ» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ والمنّ بالإمامة ١٨٦.

(٣) بياض في الأصل، وهي مستفادة من المنّ بالإمامة ١٨٨.

(٤) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة.

بقَصَبة غَرْناطة، إذ كان الخَطْبُ بمَرأى منهم ينظُرونَ من أعلى القَصَبة لقَتْل إخوانِهم، وانصَرف ابن هَمُشْك من هذه الوقيعة معَ أصحابِه النّصارى إلى القَصَبة الحمراء بغَرْناطة، وأسرى الموحِّدينَ بينَ يدَيْه يَقتُلُهم ويعبَثُ فيهم على مَرْأى من إخوانِهم.

ولـمّا وصَل خبرُ هذه الوقعة إلى رِباط الفتح، وكانت العساكرُ قد تَلاحَقت بأمير المؤمنينَ على نيّة ما تحرَّكوا إليه من الغَزْو لبلاد الأندَلس، واختار منهم عسكرًا ضخمًا من أعيان كلِّ قَبيل من أهل الشّهامة والنَّجْدة وأمَّر عليهم ابنَه السيّدَ أبا يعقوبَ، فتحرَّكوا من رِباط الفتح إلى أن وصَلوا بحرَ الزُّقاق فجازوا منه إلى الجزيرة الخضراء، واستوفَت العساكرُ وتلاحَقَت وتبادَرَت في الإجازة وتسابَقَت، وتحرَّكوا منها إلى مالَقَة فاجتَمَعوا بالسيّد أبي سعيد وتحرَّك الجميع.

ذكرُ حركة السيِّدَيْن ابنَي الأمير عبد المؤمن من مالَقَة إلى غَرْناطة وهزيمةِ ابن هَمُشْك[1]

فتحرَّك السيّدانِ أبو يعقوبَ وأبو سعيد من مدينة مالَقة إلى غَرْناطة وابنُ مُرْدَنيش قد وصَل بمحَلّتِه من المسلمينَ والنّصارى طَمَعًا في مُلك غَرْناطة، فنزَلَ في الجبل المتّصل بقَصَبة غَرْناطةَ وابنُ هَمُشْك بالحمراء معَه نحوَ ثمانية آلاف فارس من النّصارى دونَ عسكريّتِه وابنُ مُرْدَنيشَ في أكثرَ من هذا العدد وهم يَنتظرونَ كلَّ يوم وصُولَ العساكر ويَظُنّونَ ظنونَهم، والموحِّدونَ[2] يمشُونَ في طريقهم على تُؤْدة حتى وصَلوا واديَ شنيل[3]، فلمّا كان يومُ الخميس الخامس والعشرينَ لرجَب رَكِب السيّدانِ ورَكِب جميعُ العساكر بعدَما عَلَفوا خيولَهم بعدَ صَلاة العصر من يومِهم وعَزَموا أن يسيروا ليلَهم، وقَدَّموا الأدلّاء أمامَهم وتسَنَّموا الجبلَ إلى أعلاه الذي على وادي شنيل المتّصلَ بالقَصَبة الحمراء حيث محَلّةُ النّصارى وصاحبُهم ابنُ هَمُشْك، ومشَوْا طولَ ليلتِهم على تُؤدةٍ في الجبل المذكور على شَواهقِه وأحجارِه وقد سَهَّله اللهُ عليهم على وَعرِه، وكانت ليلةً مُقمِرةً، فلمّا بَرِقَ ضَوْءُ الفجر اطّلعوا على محَلّة الكَفَرة فبدَرُوهم

---

(١) المن بالإمامة ١٨٩.

(٢) في النسخ: «والموحّدين» ولا تستقيم فأصلحت.

(٣) ينظر مسالك الأبصار ٤/ ٢٢٧.

بالكفاح في مضاجعِهم[1] وأعجَلوهم عن ركوبِهم، فما قَدَروا أن يركَبوا خيلَهم إلا وقد أحان اللهُ حَيْنَهم، ثم كانت منهم بعدَ مُواقعاتٍ وحَملات ومُدافَعات، ثم أذهَلَهم اللهُ وأعماهم، فظَنُّوا أنّ الأرضَ متّصلةٌ إلى محلّة ابن مُرْدَنيش، وكانت بوادي حداره[2] منفصلةً عنهم، فولَّوا أدبارَهم عندَ الدّفاع والانهزام وتردَّوْا في وادي حداره عندَ إظلام الظلام، فتقطَّعت في حافاتِ ذلك الوادي أجسامُهم وحان في ذلك الصّباح السعيد حِمَامُهم، وقُتل في تلك المعركة قائدُ النّصارى وحُزّ رأسُه وسِيقَ إلى قُرطُبَةَ بعدَ أيام وعُلِّق بباب القصر، وتردَّى في الوادي صِهرُ ابن مُرْدنيشَ وقُوّادُه الأكابر وفُرسانُه المشاهير، وكان ابنُ مُرْدنيشَ في الجبل المتّصل بغَرْناطةَ يَرى قَتْلَ إخوتِه فيتفطَّرُ كبِدُه بحسرتِه. ودخَل الموحِّدونَ مدينةَ غَرْناطةَ وَسَطَ النّهار، على أتمِّ النَّصر والإظهار، وخرجَ الموحِّدونَ المحصُورونَ بالقَصَبة في الحين قاتلينَ لـمَن في المدينة من الأشقياءِ القاطِنين، وأقلَعَ ابنُ مُرْدنيش منهزِمًا [من موضع محلّتِه][3] بباقي شِرْذمتِه وتَرك أخبِيتَه وأسلابَه، كما أفْرَدَ في ذلك اليوم [أصحابَه][4]، فاقتفَى الموحِّدونَ أثَرَه وقَتلوا من أدركوه من قومِه، وانتَسب هذا الفتحُ بالعُدوة الأندَلسيّة إلى سعد السيِّد أبي يعقوبَ، واستقَرَّ في النفوس ذلك وعندَ أشياخ الموحِّدين، وكان ذلك سببًا في نَيْلِه الأمرَ العزيز، وأعلَمَ السيِّدان المذكوران حضرةَ الخليفة بالفتح فسُرَّ بذلك سُرورًا تامًّا وشكَرَ اللهَ تعالى شكرًا عامًّا.

---

(١) غيّرها ناشرو (م) إلى: «مضابعهم» وقالوا في تعليق لهم: «من ضابع المقاتل خصمه: إذا استلّ كلّ منهما سيفه فمدّه إليه» وهو تغيير فاسد وتعليل أفسد منه؛ لأنه لا يدل على المعنى المراد، والمحقق لا يغيّر ما في النسخ من غير تعليل صحيح، فلفظة «مضاجعهم» جاءت في جميع النسخ، فضلًا عن أنها كذلك في المورد الذي ينقل منه المصنف وهو المنّ بالإمامة، حيث قال: «فلمّا فرق ضوء الفجر بالصباح من يوم الجمعة الثامن والعشرين المؤرخ المذكور، أطلّوا على محلات الكفرة في ذلك الصباح، فبدأوهم في مضاجعهم بالكفاح، وخلطوا أحشاءهم بالسيوف والرماح، فلم يلحقوا أن يركبوا خيلهم». (المنّ بالإمامة ١٩٢).

(٢) معجم البلدان ٢/ ٢٢٧.

(٣) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف ١٩٣.

(٤) بياض في النسخ، وهي مستفادة من المنّ بالإمامة ١٩٤.

ولـمّا أكمَلَ اللهُ هذا الفتحَ العظيمَ الشأن تحرَّكَ العسكرُ لحصارِ ابن هَمُشْك بمدينة جَيّان، وأن يَستأصلَ في جميع جنَباتِه مَن فيها من أهل النِّفاق والعصيان، وأن يُخَصَّ هو بالنِّكاية والانتقام منه بأوفَى الخُسران، فنزَلَ الموحِّدونَ بساحل قريتِه[1] المذكورة الظالم أهلُها السابق أخذُها بما اقتَضاه جَهْلُها، فلاذ هو ومَن فيها من الأشقياءِ والكُفّار بالجُدُراتِ والآكام، وأصبحوا بأسوارِهم راضِين بحالة الضَّيم والاهتضام، ظانِّينَ بأنّهم مانِعتُهم حصونُهم وأنّى لهم من الامتناع والاعتصام؟ فانتسَفَ ما حَوالَيْها فخرِبَ عامرُها، ودام ذلك إلى أن وصَل الأمرُ إلى السادات باستيطانِ قُرطُبة.

ذكرُ حركة السيِّدَيْن من غَرْناطةَ وقدومِهما على قُرطُبة وذلك في شوّال من السنة المؤرَّخة[2]

ولـمّا وصَل السيّدانِ: أبو يعقوبَ وأخوه أبو سعيد إلى قُرطُبة خَرج أهلُ قُرطُبة للقائهما بجهة بابِ القَنْطرة، وكان أعيانُ قُرطُبة الذين أبقَتْهم الفتنةُ على أقدامِهم بارزينَ معَ النَّظّارة من العامّة، وذلك في نحو ثمانينَ رجلًا خاصّةً بجَلائهم من الفتنة على البلاد وما كان حَلَّ ببلادِهم من القَفْر بثغورِها وإنجاد، وقد ظهر على هيئاتِهم وصُوَرهم البُؤس، واستمرَّ على بلدِهم وعليهم من الفتنة الدرسُ، فلقد ذاقَتْ قُرطُبةُ وأهلُها من سوء هذه الفتنة الأندَلسيّة ما لم يذُقْه أحدٌ من أوائِلهم في الفتنة الحَمُّوديّة بإلحاح ابن هَمُشْك وقَساوتِه العَجَميّة.

ولـمّا استقرَّ السيّدانِ بقُرطُبة أمَرا ببناءِ قصورِها وحماية ثغورها، وانجَلَب إليها أهلُها في أقربِ مدّة، وتجدَّدت آمالُهم وصَلَحت أحوالُهم، وكان مقامُ السيّدَيْنِ بقُرطُبة نحوًا من أربعة أشهر.

وفي سنة ثمانٍ وخمسينَ وخمس مئة: وصَل الأمرُ إلى السيّد أبي يعقوبَ بالحركة إلى الحضرة، فتوجَّه إلى إشبيلِيَةَ ولم يُقمْ بها إلّا ستةَ أيام، وواصَلَ سيرَه إلى الحضرة تأميلًا أن يصيرَ له الأمرُ وولايةُ العهد بخَلْع أخيه المخلوع واتّفاق الموحِّدينَ على تقديمِه للإمامة.

---

(١) في م: «كديته»، وما أثبتناه من النسخ والمنّ بالإمامة الذي ينقل منه المصنف.

(٢) المن بالإمامة ١٩٧ فما بعدها.

وأقام السيّدُ أبو سعيد بغَرْناطةَ على الحالة التي أمَرَ بها فزادَها تمصيرًا ويسَّر خيراتِها تيسيرًا وانضافت إشبيلِيَةُ ونظَرُها في الأشغال إليه.

ذكرُ سببِ خَلْع السيِّد أبي عبد الله ابن أمير المؤمنينَ عبد المؤمن من[1] ولاية عهدِ أبيه[2]

لـمّا تحرَّك عبدُ المؤمن في هذه السنة إلى زيارة الإمام الـمَهْديّ، كان ذلك في فصل الشتاءِ والبَرْد، فزارَ ووَدَّع وانصَرف، وقد ظَهَر في تلك الحركة من جَرْحة محمد المخلوع ما أوجَبَ[3] عليه إثْرَ ذلك الخَلْعَ من شُرب الخمر وظهور السُّكر عليه، [وذلك][4] أنه [كان][5] يتقيّأُ يومًا على ثيابِه وأطنابِه وهو راكبٌ على فرسِه في المحَلّة على مَرْأى من أشياخ الموحِّدين والعامِّ من الناس الزائرين، فصَحَّ عند أبيه نُكْرُه وتخليطُه وسُكرُه، فأسقَطَ هو بفعلِه من الأمر نفسَه وكسَفَ بالنهار شمسَه، وتكلَّم الناسُ بعدَ ذلك بأقاويلَ شنيعة أنبأت عن خَلْعِه وحَتْفِه على ما يُذكَر إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة أمير المؤمنينَ عبد المؤمن من حضرة مَرّاكُش إلى رِبَاط الفتح بسَلا[6]

كان خروجُه من مَرّاكُش يومَ الخميس الخامسَ عشَرَ من ربيع الأول من السنة المؤرَّخة على نيّةِ الغَزْو والجهاد، والنظرِ في الآلاتِ والاستعداد، فاتّصل سَيْرُه وعَزْمُه على عادتِه من المشي الرفيق، ومراحلِه إلى منازلِه الـمَبْنيّة في الطريق، والعساكر المتقدّمة

---

(١) في م: «في».

(٢) المن بالإمامة ٢١٢-٢١٣.

(٣) في النسخ: «من جرحة محمد المخلوع [......] الطريق ما أوجب»، وهي غير مستقيمة، وأصل العبارة في المنّ بالإمامة التي ينقل منها المؤلف: «ثم أقلع ووصل المنسك الكريم، وزار وودّع وانصرف وقد نالِ الأجر العظيم، وعند الانصراف منها في الطريق ظهر من جرحة محمد المخلوع بما وجب...»، ص٢١٣.

(٤) ما بين الحاصرتين منّا للتوضيح.

(٥) بياض في الأصل، وما بين الحاصرتين منّا.

(٦) المن بالإمامة ٢١٤ فما بعدها.

معَه على الوفور والكمال، والظهور والإقبال، حتّى وصَل إلى رِباط الفتح من سَلا فأراح بها منتظرًا لاستيفاءِ المتأخِّرينَ من العساكر، فتلاحَقوا واستوفَوْا بجموعِهم وتسابَقوا مُبادرينَ بحُسن الطَّوع الذي بينَ ضُلوعِهم، وبعدَ ذلك مَرِضَ أبو محمد عبدُ المؤمن.

ذكرُ وفاة عبد المؤمن رحمَه الله تعالى[١]

لـمّا مَرِضَ وأخَذَه وجَعُه الذي توفِّي منه دام به أيامًا والناسُ ينتظرونَ شفاءه والأطباءُ كلَّ يوم يدخُلونَ عليه، فلمّا تمادَى الـمَرَضُ به أمَرَ بإسقاطِ اسم ابنِه محمد من الخُطبة، الذي كان وليَّ عهدِه، وفَهِم الناسُ أنّ الجَرْحةَ الموصُوفةَ قد مُضي بها وأُسقِطَ اسمُه بسببِها، وقيل: إنه أمَرَ بقتلِه ودخَل عليه الشّيخُ أبو حفص وأوصاهُ[٢] ووَعَى منه السّرَّ الذي وَعاه واستوثَقَ بوصيّتِه أيضًا لابنِه أبي حفص بتقديم أخيه شقيقِه يوسُف، وكان أبو حفص المذكورُ قد ملَكَ جميعَ الأمور، جعَل له أبوه ذلك.

ولم يزَل الوجَعُ يشتدُّ به وهو يذكُرُ اللهَ تعالى والأطباءُ يدخُلونَ عليه، فلمّا كان ليلةُ الخميس العاشر من جُمادى الآخِرة من السنة توفِّي رحمه الله، فحُمل إلى تينملَ ودُفن بجانبِ قبرِ الـمَهْديّ، وكان له من السنينَ، على ما رواه أبو عبد الله بنُ عبد الملك برواية أبي يحيى زكريا بن يحيى بن سِنان: ثلاثٌ وستونَ سنة، وقيل: أربعةٌ وسبعون.

ذكرُ[٣] بعضِ أخبارِه على الـجُملة وسِيَرِه رحمه الله[٤]

نَسَبُه: هو عبدُ المؤمن بنُ عليٍّ بن علويٍّ بن يملي بن مروانَ بن نَصْر بن عليّ بن عامر بن الأمْتر بن موسى بن عَوْن الله بن يحيى بن ورجايع بن سطفُور بن يَعْفُور بن ملطاط بن هُود بن قَيْس بن غَيْلان، بالغَيْن المعجَمة، وعَيْلان: اسمُ رمكة سمِّي بها،

---

(١) المن بالإمامة ٢١٧-٢١٨، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٩١-٢٩٢، والمعجب ٣٠٦-٣٠٧، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣١٨.

(٢) سقط من ر٣.

(٣) ليست في ك.

(٤) المن بالإمامة ٢١٩-٢٢٠.

فعبدُ المؤمن من قَيْس عَيْلان بن مُضَر، هكذا أثبَتَ نسَبَه جماعةٌ من المتقدِّمينَ له، وأصلُه منقولٌ من خطِّ أبي محمد عبد الواحد حفيدِه، وفي ذلك خلاف.

وكانت خلافتُه ثلاثًا وثلاثينَ سنةً وثمانيةَ أشهر وخمسةً وعشرين يومًا، أولُها يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ لرمضانَ سنة أربع وعشرينَ وخمس مئة، وآخرُها يومَ الثلاثاء ثامن جُمادى الآخِرة سنة ثمانٍ وخمسينَ وخمس مئة.

عمُرُه: ثلاثٌ وستون، وقيل غيرُ ذلك كما تقدَّم، وكان الذي تولّى حَمْلَه إلى تينملَ السيّدُ عليٌّ ابنُه.

كُتّابُه أيامَ خلافتِه: ميمونٌ الهَوّاريُّ، [وأبو محمد عبدُ الله بن جَبَل][1]، وأبو جعفر ابنُ عَطِيّة، وعطيّةُ[2] بن عَطِيّة، وأبو الحَسَن بن عيّاش.

وُزراؤه: ابنُ عَطِيّةَ، وعبدُ السلام الكوميُّ، وأبو حفص ابنُه، وأبو العُلى إدريسُ بينَ يدي ابنِه أبي حفص.

قُضاتُه: أبو موسى صِهرُه من أهل تينمل وحَجّاجُ بن يوسُف.

بَنُوه: الخليفةُ بعدَه يوسُف، شقيقُه أبو حفص، أبو عبد الله المخلوع، أبو محمد عبدُ الله صاحبُ بِجَاية، أبو سعيد عثمانُ صاحبُ غَرْناطة، أبو عليٍّ الحَسَن، أبو الرَّبيع سُليمانُ، أبو زكريّا يحيى، أبو إبراهيمَ إسماعيل، أبو إسحاقَ إبراهيم، أبو يوسُف يعقوب، أبو الحَسَن عليّ، أبو زَيْد عبدُ الرحمن، أبو سُليمانَ داود، أبو موسى عيسى، أبو العبّاس أحمد. البناتُ: صَفِيّةُ، وعائشةُ.

ومن مكارمِه وإنصافِه من نفسِه وانبساطِه في مجلسِه ما حدَّث الثقةُ أنه سَمِعه يحدِّثُ الشيوخَ من أهل الجماعة وأهل خمسين وبعضَ الطّلبة من الحَضَر، قال في بعض كلامِه: كنتُ في تِلِمْسانَ طالبًا أقرأُ أصُولَ الدِّين، وكان لي صاحبٌ بها فرحَلَ عنّي من تِلِمْسان يريدُ الشّرق، فوصَل بِجَايةَ، فخاطَبَني منها يعرِّفُني في كتابِه أنه

---

(١) فراغ في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٢١٩.

(٢) في م: «وعقيل»، ولا ندري من أين أتوا بها، وما أثبتناه من النسخ كافة، وهو: أبو عقيل عطية بن عطية أخو أبي جعفر القضاعي المراكشي، ينظر رسائل موحدية، ص٢٢، ٧١، والتعليق على المنّ بالإمامة ٢٢٠.

وصَل إلى هذه المدينة فقيهٌ عالِـمٌ بالعلم الذي تطلُبُه فلْتنتقِلْ إليه، فعندَ وصُول كتابِه إليّ رحَلتُ إلى بِجَاية فلقيتُ الـمَهْدي. وحدّث أبو الحَسَن ابنُ حَمْدين قال: حضرتُ معَه في غزوة بِجَاية، فلمّا توسَّطْنا نظرَ تِلِمْسانَ نظرَ في طريقه إلى قرية كثيرة الدُّور، فأمَرَ بوقوف العساكر وحَثَّ السَّيرَ منفردًا على فرسِه حتى وصَل القرية، فوقَف عندَ أحد أبواب دُورِها ساعةً يسألُ أهلَ الدار ثم انصَرف إلى العسكر، فلمّا نَزلت المَحَلاتُ ونزَل هو في مضاربِه أمَرَ بإحضار أهل الدار المذكورة فسألَهم عن أبيهم فقالوا: إنه توفِّي وترَك أولادًا أربعة، فأسهَمَهم أرضًا واسعةً لاحترائِهم، وأعطَى كلَّ واحد منهم ألفَ رأس من الغنم ومثلَها من البقر، وأربعةَ آلاف دينار، وكتَبَ إليهم ظَهِيرًا بالعزِّ والأمان والبرِّ والإحسان، وأن يكونوا حكّامًا على قَبيلِهم.

وذكَرَ ابنُ صاحب الصلاة أنه كان ساكنًا بتينملَ أيامَ الـمَهْديّ، وكانت له جارة، فأهدَتْ له عَنزًا عندَ إيابِه من إحدى حركاتِه فقَبِلها منها، وانصَرفت الأيامُ له بالسُّعود والظهور حتّى مَلَّكه اللهُ عزَّ وجَلّ، فوجَّه للمرأة ألفَ دينار وقال لها: هذا جزاءٌ على هديّتِك العَنْز.

ولـمّا استقرَّ بعدَ الفتح بمدينة مَرّاكُش وَفَد إليه من كان يُواليه من طلبةِ الحضر[1] واستقَرّوا عندَه، فدخَل عليه يومًا أبو محمد المالَقيُّ فرآه دونَ ثياب تُرضيه، فقال لأشياخ الموحِّدين: هؤلاءِ الطلبةُ عَرايا ضُعفاء، فنرى أن ندفعَ لهم مالًا نُقارِضُهم به ويتَّجرونَ فيه، فقالوا: نعم، فأسلَفَ من مال المخزن لكلِّ واحد منهم ألفَ مثقال فاكتَسَوْا منها وأصلَحوا بها على أنفسِهم ولم يأخُذْها منهم أبدًا.

ومن جِدِّه وظهور سَعْدِه ما أخبَرني أبو عبد الله بنُ عبد الملك قال: حدَّثني أحدُ أشياخ الموحِّدينَ بحضرة مَرّاكُشَ قال: كان عبدُ المؤمن في أيام طلَبِه قد سافَر من تِلِمْسانَ إلى مدينة فاسَ يريد الإقامةَ بها لطلبِ العلم ولقاءِ أهل الفضل، فصَحِب في طريقِه تلك تاجرًا من أهل الإسكندريّة ذا رَحْل كبيرٍ ومال، قال التاجر: فرأيتُ فتًى حَسَن الوَجْه فاستدعَيْتُه للصُّحبة معي فأبَى، فلم أزَلْ أُرغِّبُه حتى أجاب، فتمادى السَّيرُ معَه إلى فاس، فطلب الكَرِيُّ من التاجر أُجرةَ دوابِّه فدفَعَ له ما حضَره ونقَصه

---

(١) غيّرها ناشر و (م) إلى: «الحضرة»، وما أصابوا في ذلك، وهذا المصطلح تكرر في الكتاب وهو معروف.

خمسةَ عشَرَ درهمًا فأسلَفَها له عبدُ المؤمن. ثم إنّ التاجرَ طلَبَه بفاسَ فلم يجِدْه ولا وجَد لمن يعطي الدراهم، فكتَبَ اسمَه في زِمامِه، وارتحل التاجرُ إلى الإسكندريّة وبلاد الشرق فغاب نحوَ ثلاثينَ سنة، وكان طُولَ تجارتِه يشتري بتلك الخمسةَ عشَرَ درهمًا سلعةً بناحية ويجعَلُها معَ رَحْلِه ثم يبيعُها، وجعَلَ اللهُ فيها البركةَ بقوّة سَعْدِه حتى نَمَت. ثم إنه بعدَ طُول السنينَ المذكورة وزوال الفتنة رجَع إلى بِجَاية بجميع رَحْلِه فوجَد عبدَ بن سُليمان قد وَلِـيَ إمارةَ البحر بها من قِبَل عبد المؤمن، وأمَرَه أن يُثقِّفَ أموالَ التُّجار الواصِلين من الإسكندَريّة حتى يَستعلمَ أحوالَـهم، فثقَّفَ مالَ التاجر المذكور وأخَذ أزِمَّته بجميع المكتوب فيها، ووَجَّهها لعبد المؤمن، وسَجَن التاجر، فلم يزَلْ يرغبُ حتى أُخرج من السِّجن، فاستعجَل بنفسِه بالوصُول إلى الحضرة، فالتزَم لقاءَ عبد المؤمن وتعرَّض له وذكَرَ له مسألتَه معَه، فأحضَر عبدُ المؤمن زِمامَ التاجر وفتَّش ما ذكَرَه فوجَد مالًا غيرَ مكتوب وعددَ الدراهم الخمسَ عشْرةَ وأنّ المجتمِعَ في الرِّبح ألفُ دينار، فجزاه على أمانتِه وما ادَّعاه من رَوِيّتِه[1] خيرًا وكتَبَ له ظَهيرًا بالأمان في أهلِه ونفسِه ومالِه وأمَرَ بصرف رَحْلِه ومتى شاء ينصرفُ إلى محلِّه.

أخبرني أبو الحَسَن بنُ أبي محمد قال: وفي صَدْر من دولته جاز إلى الأندَلس ونزَلَ بجبل الفتح فشَرع في بناء الحِصن الكائن فيه الآن، وبعَث ثمانيةَ عشَرَ ألفَ فارس إلى بلاد العدوِّ برَسْم الغزْو وتقدِمةً بينَ يدَيْه، وقَدَّم على أصناف القبائل ابنَ الشَّرقيّ وعلى الأندَلسيِّينَ ابنَ صَناديد. فوصَلوا إلى فَحْص بلقون فوجَدوا طاغيةَ الروم قد استعَدَّ للقائهم والتقَى معَهم، فكان بينَ الفريقَيْن حَرْبٌ شديدٌ نصَرَ اللهُ فيه المسلمين، وكانت على الكُفّار هزيمةٌ لم يعهَدْ مثلُها. وقَفلوا راجعينَ، فوجَدوا عبدَ المؤمن قد رجَع إلى حضرتِه لأمور حدثت بعدَه في جباها ولم ينفصلْ من الأندَلس حتى مَهَدَها ورَفَق برعيّتِها، فاستقامت بذلك الأمورُ للموحِّدينَ ومَلَكوا الأندَلس ما عدا مُرْسِيَةَ وبَلَنْسِيَةَ وأنظارَهما فإنّهما لابن مُرْدنيش معَ تلك الجهات كلِّها إلى أن رجَعت بعدَ ذلك لطاعة الموحِّدين على ما يأتي.

انتهى ما اختُصر من أخبارِ عبد المؤمن رحمَه الله تعالى.

---

(١) في م: «عن رؤيته»، ولا معنى لها.

خلافةُ أمير المؤمنينَ أبي يعقوبَ يوسُفَ
ابن الخليفة عبد المؤمن رحمَهما اللهُ تعالى[1]

نَسَبُه: قد تقدَّم في خلافة أبيه.

بُويع في اللّيلة التي توفِّي فيها أبوه بتقديم أخيه أبي حفص شقيقِه إليه في ولايته وحمايته، وخَلَع ابنُه محمدٌ الآخَرَ فرضيَ بخَلْعِه وتسليم الأمر لأخيه، فانبسَطَت الآمالُ في أيّامِه، بسعادة أعلامِه، وكثُرت البركاتُ منه للموحِّدينَ والأجناد في أُعطِياتِه، واتّصل الإحسانُ منه بمواساتِه. وقد كان توقَّف الأخَوان: أبو محمد وأبو سعيد عن بيعتِه وعن البِدار لحضرتِه، واستبَدَّ السيِّدُ الأعلى أبو حفص بالأوامر السُّلطانية على ما كان معَ أبيه والشيخ أبي حفص وجميع الموحِّدينَ وأشياخ القبائل على الرِّضى به والتّيامُن بمَقْدَمِه [والاستسعاد بفضائله، الصادرة عنه، الظاهرة عليه برتبه فنفَذَ][2] الأمرُ منه بكلِّ تأنيس للناس، وبهداياتٍ من العَدْل باديات الأنوارِ والاقتباس، ثم نفَذَ الأمرُ بانصراف العساكر المجتمِعة إلى مواضعِهم وتأخير العَزْم إلى وقتٍ يأذَنُ اللهُ فيه باجتماعِهم. وكمُلَت البيعةُ بأكمل خُلوص السرائر وطِيب الوفاء في الضمائر، وتسَمَّى لنفسِه باسم الأمير واستقَلَّ بما صار إليه من التأمير. وبعدَ إكمال هذا الترتيبِ انصرَف من سَلا إلى مدينة مَرّاكُش معَ أخيه والموحِّدين، فمَلَك دارَ الخلافة، وأنافَتْ به السعادةُ أكرمَ إنافة.

ووَعَظ الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى الناسَ، أعني الموحِّدينَ على طبقاتهم ومَراتبِهم، وذكَّرهم بما يجبُ عليهم في دينهم وصَلاح يقينِهم، ولما يجبُ عليهم من فروضِهم ومَسْنونِـهم، وبحقِّ البيعة، وذلك قبلَ أن يُعلِمَ الناسَ بالوفاة، ولـمّا توفِّي الخليفةُ أظهرَ الشيخُ أبو حفص عمرُ بن يحيى من فطانة[3] النُّصح والوفاء، والدِّفاع

---

(1) المن بالإمامة ٢٢٨ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ١١/ ٢٩١-٢٩٢، والمعجب ٣٠٨، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٢١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٢/ ٦٤٦، والإحاطة ٤/ ٣٥٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣١٩، ونفح الطيب ٤/ ٣٧٨، والاستقصا ٢/ ١٤٦ وغيرها.

(2) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استدركناه من المنّ بالإمامة ٢٢٨.

(3) في م: «بطانة»، وهو تحريف.

بالحماية على أكمل الاستيفاء، ما وَطّأ[1] الأحوال ومهَّد الآمال، برأيه السَّديد وسَعْيه الحميد، ولازَمَ الحضورَ بنفسِه، واقتدَى الموحِّدونَ به في حَدْسِه[2]، فاستقامتِ الأحوال وتحقَّقتِ الآمال، وتَوالَى استبدادُ السيِّد أبي حفص على معنى الوِزارةِ والإمارة بإنفاذِ الأوامر السلطانية عن أمرِه على ما كان عليه عندَ أبيه على رِضًى من الأمير أبي يعقوبَ أخيه واتّفاق، وإجماع من شيوخ الموحِّدين وإصفاق، فكانت بينَهما أُخوّةٌ مبرورة، وكان ابنُ جامع بينَ أيديهما يتصرَّف في رَفْع الرُّفوعاتِ والمسائل وتوصيل رغبة الوافدِ ومسألة السائل، وكان هذا إدريسُ نشأةَ دار أمير المؤمنين وابنَ أميرِهم الأمين.

ذكرُ الإخوة[3]

كان السيِّدُ أبو الحَسَن عليُّ بن عبد المؤمن حاضرًا ليلةَ وفاة أبيه والبيعةِ لأخيه، فسار إلى تينملَ وحَمَل أباه ودَفَنَه ورجَع من مَشْيه وفي نفسِه عِلّةٌ من دخول الحسَد، مؤْذنةٌ له في الدارَيْن بطول الكمَد، فأقام مكمودًا فريدًا يُظهرُ إخاءً في طيِّه حُقودًا، فلم تمهلْه عِلّتُه ولا طالت به مدّتُه حتى فاضت نفْسُه في تلك الأيام وغابت شمسُه بليل الحِمام.

وأمّا السيّدُ أبو محمد فأقام ببِجَاية بعدَ الحال يُقدِّمُ رجلًا ويؤخِّرُ أخرى، ويرى الرأيَ ويكرِّرُه معَ مَن يختصُّ به، ولم تزَلْ مخاطبةُ الأمير إليه بالاستعطاف والاستدعاء، والجواب منه بالعِدَة في الرحيل إلى تلك الأرجاء، فمَطَل نحوَ سنة ونصف، واعتَذر عن الوُصول، ثم عزَمَ وتحرَّك من بِجَاية وظاهرُه جَمْعُ الشَّمل الموصول، فلمّا استقَلّت به المراحل أدركتْه منيّتُه وفاتَتْه أُمنيّتُه، وذلك في عام ستين، فوصَل خبرُ نَعْيه إلى أخيه أبي يعقوبَ بمَرّاكُش فتفجّع له وآوى جُملتَه وأهلَه، ونظَر في تثقيف بِجَاية وأنظارِها، ريثما وَجَّه لها من اختاره لحماية أقطارِها.

وأمّا السيّدُ أبو سعيد فتوجَّه إليه إلى قُرطُبة أبو عبد الله بن أبي إبراهيمَ وأبو يحيى بن أبي حفص، فتمارَضَ عندَ وصولِهما واعتَلّ، وارتَبط لهما ثم انحَلّ، فرجَعا من

---

(١) في ك، م: «وطّد» وما أثبتناه من ق وهو الأصحّ.

(٢) في م: «حسّه»، وهو تحريف.

(٣) المن بالإمامة ٢٣٥-٢٣٦.

عندِه بمواعيدِه، فلمّا استقرَّ بمَرّاكُش تكلَّم الناسُ الـمُرجِفون، وزَخْرَفَ في حديثِه الـمُزخرِفون. ثم ثبَّت اللهُ الحقّ، وذلك أنه لـمّا التَوَت حالُ السيِّد المذكور في الاعتذار، وتَلوَّم له بالانتظار، عزَمَ السيّدُ أبو[1] حفص على الـمَشْي إليه واستدعائه [بالتأنيس][2] والقدوم إلى جبل الفتح يَبْغُونَ اجتماعَهما عليه، فكان خروجُ هذا السيّد من مَرّاكُش في ربيع الأوّل من سنة ستين.

وتحرَّك هذا السيّدُ أبو حفص إلى أخيه السيّد أبي سعيد في جُملة من أعيان الموحِّدين، كأبي يحيى بن أبي حفص، وأبي يعقوبَ بن بخيت، وإسحاقَ بن جامع، ويوسُفَ بن وانودين، ومن أشياخ ثوّار الأندَلس المتخصِّينَ به، كأبي محمد سِدْرَاي بن وزير، وصاحبِ لبْلة عليٍّ[3] ابن الفَخّار، ومن أشياخ لَـمْتُونَةَ ومَسُوفةَ جماعةٌ منهم: عليُّ بن مُحرِز بن زياد، فوصَل السيّدُ المذكورُ بعسكرٍ موفور إلى طَنْجة وركِبَ منها البحرَ إلى سَبْتةَ منفردًا معَ خاصّتِه الخاصِّينَ به، وكاتبِه عبدِ الملك بن عيّاش وأمَرَ بمشي الناس على البَرِّ إلى القصر ومنه إلى سَبْتة. فلمّا كان في اليوم الثاني من وصُوله إلى سَبْتة عبرَ غُرابٌ إلى الجزيرة الخضراءِ ليُعلِم مَن فيها بوصُول السيِّد أبي حفص إلى سَبْتةَ وعبورِه في أثَرِه، وكان السيّدُ أبو سعيد قدِ احتَلّ بجبل الفتح معَ خاصّته وخَدَمتِه. وعبَرَ السيّدُ أبو حفص البحرَ في[4] ذلك اليوم في عُدّة عظيمة من نَشْر البنود وقَرْعِ الطُّبول والسُّرور بالوفود، واتّصل الشَّملُ بذلك الوصُول، وكان يومًا شهيرًا، كلُّه سرور. وبرَزَ أيضًا السيّدُ أبو سعيد بجبل الفتح براياتِه وببِشْر مُلاقاتِه ما أبهتَ الحاضرين وسَرَّ الناظرين. واجتَمَعا خيرَ اجتماع، وارتفَع الإرجافُ أجملَ ارتفاع، وعمَّ الخيرُ جميعَ الجهاتِ والأصقاع.

---

(١) قوله: «السيد أبو» فراغ في ك، وهو ثابت في ق، وقد أضاف ناشرو (م) ألفاظًا أخرى إلى النصّ هنا ليست منه، مع أنّ النصّ من غيرها مستقيم.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٢٣٦، وهو المورد الذي ينقل منه المؤلف.

(٣) سقط من م.

(٤) سقط من م.

ووَفَد أهلُ الأندَلس من أشياخ إشبيلِيَة وقُرطُبة وغَرْناطة معَ الشعراء[1] للتّهاني[2]، باتّصال المَسَرّاتِ والأماني، ودامت الإقامةُ بالجبل مدةً من خمسةَ عشَرَ يومًا في مسَرّة متّصلة ومبَرّة مشتملة، وأنشَد الشُّعراءُ أشعارَهم، وقضَوْا فيما وَرَدوا به أوطارَهم، فمن قول أبي عَمْرو[3] ابن حَرْبون [من البسيط]:

قد حَصْحَص الحقُّ لا ريبٌ ولا فَنَدُ ... هذي الفتوحُ التي كانوا بها وُعِدوا

خُذوا بحظِّكمُ يا أهلَ أندَلسٍ ... فما لِغاوٍ نَبا من بعدِها رشَدُ

واستمسِكوا بعُرى الأمرِ الذي بهَرَتْ ... آياتُهُ كلَّ مَن يَعْلو ويقتصدُ

اليومَ صُمَّ صدى الغاوي بأرضِكُم ... والكلبُ ينبَحُ ما لم يزأَرِ الأسَدُ

هو الذي وَعَد اللهُ العبادَ بهِ ... قد أنجَز الوعدَ حقًّا وانتهى الأمدُ

هذا سليلُ إمام الحقِّ بينَكمُ ... لا المالُ مدَّخرٌ عنكمْ ولا الولدُ

فقد ظفِرتُمْ بفيّاضٍ مَواهبُهُ ... تُحصَى الحصَى قبلَ أن يُحصَى لها العَددُ

انظُرْ إلى مجمَع البحرَيْن كيف حَوى ... من الفضائل ما لم يحوِه بلدُ

لاقَى الكليمُ على الشاطي به خَضِرًا ... وفيه لاقَى [أخاه][4] السيِّدُ الصمدُ

صِنْوَيْنِ ما اجتمَعا في أرض أندَلسٍ ... إلا ليَحميَ فيها دينَهُ الأحدُ

وقال أيضًا عندَ جَوازِه البحر [من الطويل]:

تجشَّمتُ هَوْلَ البحر في طلب البحرِ ... ولم أشْكُ صَرْفَ الدهر إلا إلى الدهرِ

---

(١) في ك، م: «الشعر»! وهو تحريف.

(٢) في ق، ر٣ كتبت: «للتهنّي» إمّا بحذف الألف الوسطية كما يصنع بعض الكتاب، أو هي كذلك، وما أثبتناه من ك، وهو المطابق للسجعة.

(٣) هكذا في النسخ جميعًا، وفي المنّ بالإمامة: «أبو عمر»، وهو أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حربون (وينظر تحفة القادم لابن الأبّار ٦٣). والقصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ٢٥٤-٢٥٨).

(٤) بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٢٥٦.

فقُلْ للدَّياجي إغـربي[1] أو تكـشَّفي فهـا أنـا قـد أمـسَيْتُ في ذمّـةِ البـدرِ

لعَمْرُكَ ما ألقى أبـا حفـص الـرِّضَى وأشكو اللّيالي [ما تَطاوَلَ من عُمْـرِ][2]

هُـــمَامٌ إذا مـــا هـــمَّ نـــالَ مـــرادَهُ ولـــو أنـــه أمـــسى عـــلى قُنَّـــةِ النَّـــسرِ

هُـــو ابـــنُ أمـــيرِ المـــؤمنينَ وشِـــبهُهُ وناهيك[3] من فَرْع وحسبُك من بحـرِ

فاستحسَنَ هذه الأبياتَ معَ تقدُّم القصيد وما ذُكِر فيها من المقصود.

ثم نفَذَ أمرُه بالانصراف وعبورِ البحر إلى العُدْوة والانعطاف، وسَرَّح أشياخَ بلاد الأندَلس الوافدين، والعمّالَ والأجنادَ القاصدين، وجاز السيِّدُ أبو حفص والسيّدُ أبو سعيد وأكثرُ الجِلّة الخاصِّينَ به، ولم يقُم السيدُ بسَبْتة إلا ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكبُ والقطائعُ بالعبور إليهم، فأجاز الجميعُ إليه، واستقرُّوا بينَ يدَيْه، وتحرَّك السيدُ الأعلى من سَبْتة واجتاز في سَيْرِه على فاس، ثم أعجَلَ الطريقَ إلى حضرة مَرّاكُش ومعَه أبو سعيد، إلى أن وصَل فتلقّاه الأميرُ أبو يعقوبَ خارجَ مَرّاكُش على أوفى الاستبشار، والسرور باجتماعِهم والاستظهار.

ووصَل السيّدُ مَرّاكُشَ في أوّل رجَبٍ الفَرْد من عام ستينَ وخمس مئة، وأنشَد الشعراءُ أشعارَهم بالتّهاني والمدائح فأجادوا وأحسَنوا، وخَطَب الخُطباءُ فأفصَحوا في ذلك بالسِّحر الحلال وبيَّنوا، فقال الأستاذُ أبو الوليد الشَّوّاشُ الشِّلْبيُّ في ذلك المجلس مهنِّئًا للأمير أبي يعقوبَ بالقدوم الـمَيْمون الـمُطْلى[4] بالأُلْفة والنِّظام من قصيدة أولُها[5] [من الكامل]:

---

(١) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «أغدقي»، وقرأها ناشرو (م): «أغدفي» وهي قراءة سقيمة.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة ٢٥٩.

(٣) غيّرها ناشرو (م) إلى: «وحسبك» كما في المنّ بالإمامة، بحجة أنّ المؤلف ينقل منه، وما أثبتناه ثابت في النسخ كافة، فلا يجوز تغييره، وما الذي أدراهم بأن ناسخ المن بالإمامة لم يخطئ؟

(٤) في ك، م: «المعلن»، وفي ر٣: «المطلق» وفي المنّ بالإمامة: «المعلى»، وما أثبتناه من ق، ولعلّه الأصوب.

(٥) القصيدة بتمامها في المنّ بالإمامة ٢٦٢-٢٦٥.

وَضَحت بأنوار الهُدى نَسَماتُهُ ... وأبانت الهَدْيَ القديمَ سِماتُهُ
مِلكُ الملوك مؤيَّدٌ لكنّهُ ... غَلَبت عليه من التُّقى ملَكاتُهُ
دانت له الدّنيا وكافةُ أهلِها ... فعَفَا وعَفَّ وسامَحَت عَطَفاتُهُ
أبدى لنا بسَنائه وهَنائهِ ... عجَبًا وظاهَرَ[1] حُسنَه حَسناتُهُ
كثُرت فضائلُهُ فكاثَرتِ الحصى ... عددًا وقد قلَّت له سقواتُهُ[2]
ومضَتْ ببَرْق غُيُومِهِ صَفَحاتُهُ ... ومضَت مضاءَ صِفاحِه عزَماتُهُ
وأفاده دهرًا بعيدًا[3] مُنعِمًا ... وُصِلت بباهرِ خيرِه خيْراتُهُ
نَجْلُ الخليفة يُقتدَى برَشادِهِ ... وسَدادِه وتبينُ فيه سِماتُهُ
ورَدَ الزُّلالَ العَذْبَ في يَنبوعِهِ ... صَفْوًا مَعِينًا لم تَشُبْهُ قَذاتُهُ
فهناك أُسِّس بالتُّقى بُنيانُهُ ... وهناك شُيِّد بالهُدى حُجُراتُهُ
وتقَيَّل الخُلُقَ الرضيَّ فأينَعَتْ ... أضحاؤه وتيسَّرت طَلَباتُهُ
يا خيرَ مَن ملَكَ الوَرى ودعاهمُ ... لله فابتَدرت له دعَواتُهُ
جُوزيتَ بالحُسنى إذا ما مُحسنٌ ... في فعلِه جُزيت له فَعَلاتُهُ
من يُصْفِ حبَّك أسعَدت أحوالُهُ ... ومآلُهُ وتُقُبِّلَتْ قُرُباتُهُ
من يَقتدِي[4] بسَناكَ يُهْدَ ومَن يَرُمْ ... سُبُلَ النّجاة فأنتمُ مَنْجاتُهُ
نَجْلُ الهدى وأخوك عزَّت نسبةً ... والمجدُ تَقصُرُ دونَها غاياتُهُ[5]
في الله أعمَلَ سعْيَهُ فحَوَتْ لهُ ... جَمْعَ الفضائل والعُلى مَسْعاتُهُ

(١) في ق: «وأظهر»، وما أثبتناه من ك، وهو الموافق لما في المنّ بالإمامة.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «قلّت به سنواته».

(٣) في م: «مفيدًا»، غيّرها ناشرو (م) استنادًا إلى ورودها كذلك في المنّ بالإمامة مع أنها على ما أثبتناها في النسخ كافة، وقد تكرر مثل هذا منهم وهو أمر لا يجوز في علم تحقيق النصوص.

(٤) كذا، بإثبات الياء، والقياس حذفها لأنه فعل شرط مجزوم، ولكن الوزن يمنعه.

(٥) هذا البيت بياض في النسخ لم يبق منه إلا لفظة «غاياته»، فاستدركناه من المنّ بالإمامة.

أنـتمْ لأهـل الأرض أوثـقُ عـصمةٍ　　وبـأمرِكمْ عُطِفـت عليـه حياتُـهُ
لا زِلـتمُ للمَكرُمـاتِ وللعُـلى　　شـملًا ولا يُقـضَى عليـه شَـتاتُهُ
واسـتقبِلوا في الـدّهر عُمْـرًا باقيًـا　　مـا واصَـلت غَدَواتِـهِ رَوْحاتُـهُ

وفي سنة ستينَ وخمس مئة: تحرَّك السيّدُ أبو حفص بأمرِ أخيه إلى قتال ابن مُرْدنيش؛ قال ابنُ صاحبِ الصّلاة[1]: وأقام السيّدُ أبو حفص بمَرّاكُش بعدَ انصرافِه من جبل الفتح ومعَه أخوه أبو سعيد بقيّةَ شهرِ رجَب الفَرْد وشعبانَ المكرَّم، وكان أبو سعيد بن الحُسَين وأبو عبد الله بن يوسُف قد تقدَّما بعسكر العرب وبعَثوا منهم عندَ وصولِهم إشبيلِيَةَ نحوَ خمس مئة فارس إلى مدينة بطليوسَ لحمايةِ صيفتِها[2]، فيسَّر اللهُ تعالى غزْوَ شِرْذمةٍ كبيرة من النّصارى أهل شَنْتَرين فهزَمَهم المسلمونَ وغنِموهم واستَأْصَلوهم قتلًا وسَبْيًا، فكان ذلك عُنوانَ الفتح.

ثم إنّ أبا سعيد وأبا عبد الله خَرَجا من إشبيلِيَةَ بالعسكر إلى مدينة قُرطُبة لدَفْع المحاربِينَ الأشقياء عن جِهاتها، فالتقَوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمِع معَدّ من عسكر ابن مُرْدنيش بحِصن لك[3]، فكانت بينَهم مُدافَعات وكَرّاتٌ عظيمةٌ ظهَر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسُف ومن أعيان العرب وصَبرْ أهل العسكر ودفاعِهم ما لم يظهَرْ مثلُه في الزّمان الأوّل، اتّصلت الحربُ بينَهم بطُول يوم كامل على شِرْب الماء بوادي لك المذكور، وانفَصَلت الحربُ بينَهم مكافأة، فوصَل كتابُ أبي سعيد وأبي عبد الله إلى الأمير أبي يعقوبَ بمَرّاكُش مستغيثينَ ومعرِّفين بهيئة حربهم وطُول مواقفتهم[4]، وذلك في أول يوم من رمضانَ من السنة المؤرَّخة، فغار السيّدُ أبو حفص وعسكرٌ في يومه ذلك، وأمر الموحِّدينَ والعرب بالإسراع والنفوذ إليه بما لديهم، وخَرج من مَرّاكُش في العَشْر الأُوَل من شهر رمضان المذكور من العام،

---

(١) المن بالإمامة ٢٧٥ فما بعدها.
(٢) في م: «صيفيّتها» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ وهو الذي في المنّ بالإمامة.
(٣) معجم البلدان ٥/ ٢٢.
(٤) في م: «مواقفهم»، وفي المنّ: «موافقتهم»، وكلاهما تحريف، والمقصود مواقفة الأعداء.

وخَرج معَه أبو سعيد عثمانُ، وهي غَزْوتُه الأُولى إلى ابن مُرْدنيش الفاتحةُ للموحِّدينَ في عدوِّهم، فأزعَجَهم السَّيرُ حتى أجاز البحر، ووصَل إشبيلِيَةَ واجتمع بالموحِّدينَ المذكورين، وتَذاكَروا وتشاوَروا وخَرجوا من إشبيلِيَةَ مصمِّمينَ إلى بلاد ابن مُرْدنيش، وذلك في أوّل ذي القَعْدة من العام، فأوّلُ حصن نازَلوه: [أندوجَر][1] لقُربِه من قُرطُبة، ففتَحوه في يوم نزولِـهم عليه، وبادر أهلُ الحصون المجاوِرينَ له بدخولِـهم في الطاعة وشنِّ الغارة بالعساكر المنصورة على نواحيها، فاستاقوا الغنائمَ وامتلأت أيدي الموحِّدينَ من السَّبي والفَيْء، وازدادوا نِعَمًا إلى نِعَمِهم، وشَفِيت قلوبُهم، وأنعم السيدُ عندَ كمال هذا الفتح الميسَّر على الموحِّدينَ بزادٍ وبركة زادها لهم.

ولـمّا كان الفراغُ من فتح الحِصن المذكور وثَقَّف مَن وجَبَ تثقيفُه وسَبَى مَن سَبَى، وتحكَّمت في ذلك [رماحُه وسيوفُه واصطفى][2] فيها [من رآه، واستحسن مرآه، أقلَعَ منها قا][3]صدًا إلى بلاد ابن مُرْدنيش، وتسامَعَ ابنُ مُرْدنيشَ أنّ العَزْمَ عليه، فاحتشَد جميعُ أهل شرق الأندَلس وكلُّ من له عليه طاعة، واستَدعَى أحلافَه النّصارى من طُلَيْطُلَةَ وأنظارِها، فوصَلوا إليه بجَمْع كبير ذَميم حقير تسابقوا لإجابته وحماية غِوايته، فخَرج بهم من مُرْسِيَةَ مقرِّه، واعتَرض الموحِّدينَ وهم بمدينة لُورَقة، وأقبَلَ بجَمْعِه إليهم وجلسَ مُضيِّقًا في الطريق عليهم لا يُمكنُهم النفوذُ إلا بعدَ مقارعة، فعَدَل الموحِّدونَ عن ذلك المضيق، إلى حصن واسع في أفسح طريق، وأتَوْا لُورَقَة من غربِها والشقيُّ مع عسكرِه بقُربِها، ثم إنّهم رحَلوا من نحوِها وتوجَّهوا في طريقِهم قاصدينَ مُرْسِيَةَ، فأقلَعَ ابنُ مُرْدنيش من موضعِه بجَمْعِها وتَماشى يومَهم ذلك عسكرُ الموحِّدين في جانبِ الجبل عن سَمْت الطريق، وعسكرُ ابنِ مُرْدنيش على يَسْرة الطريق في الجبل الآخَر، داما على ذلك يومَهم كلَّه، فلمّا كان يومُ الجُمُعة السابعُ من ذي الحجة من عام ستينَ المذكور وصَلوا أولَ فَحْص مُرْسِيَة على عشَرة أميال منها ألَحَّ عسكرُ ابن مُرْدنيش بالدّفاع والقِراع، فعبَّأَ الموحِّدونَ عساكرَهم

(١) بياض في النسخ وما بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٢٧٧.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة الذي ينقل منه المؤلف ٢٧٧.

(٣) بياض في النسخ استدركناه من المنّ بالإمامة.

ورَفَعوا راياتِهم ونَـهَوْا قبائلَ العرب الذين معَهم وقبائلَهم وتعاهَدوا على الثبات والصبر على أعدائهم، فدفَع ابنُ مُرْدنيش بعسكره فيهم وبأصحابه النّصارى ثلاثَ دَفْعات: الأولى في العرب، والاثنتَيْنِ في الموحِّدين، فثبّتَهم الله وأنجَدهم وقوّى قلوبَهم، فعَظُم الغبارُ والقَتام، ورجَع شمسُ النهار في إظلام، وتماشت الرُّكَبُ بالركب، وعَظُم الطّعنُ والضرب، إلى أن فتحَ اللهُ للموحِّدين ووَلّى الكَفَرةُ مُدبِرين فقُتلوا قتلًا ذَريعًا، وخَرَّ أكثرُهم صريعًا، وفَرّ ابنُ مُرْدنيش مهزومًا وقد عايَنَ مصارعَ أصحابه وأحزابِه، واستَنَد إلى جبل قريب من المعركة، فضرب فيها قُبّةً خِباءً على معنى خُدعة الحرب معَ فَلِّه المهزوم في ذلك ساعةً من بقيّة اليوم إلى أن ستَرَه اللّيلُ وقد أحدَقَ به الثُّكْل والوَيْل، وركِبَ من حينِه وفَرَّ إلى مُرْسِيَة مهزومًا ذليلًا مَلُومًا.

ثم إنّ الموحِّدينَ أقلعوا في بُكرة غدِهم في اتّباعِه فنزَلوا ساحةَ مُرْسِيَة وأقاموا بها وعَيَّدوا بظاهرِها وتتبَّعوا تلك الأصقاعَ بالتدمير والغارة على جنَباتها، فاستاقوا نَعَم أهلِها وتحكَّموا بالتطاول في وَعْرها وسهلِها مدةَ أيام كثيرة بالأمن لهم في الإقامة والتعقيب بالغارات في كلِّ نَظَر واجتلاب الغنائم على أوفَى السلامة، وخاطَبوا الخليفةَ أبا يعقوبَ بوَصْف هذا الفتح وشَرْح الحال، فورَدَت البُشرى بحضرة مَرّاكُش في الثالث وعشرين من ذي حجة من العام، ودخَل الفرسانُ للموحِّدين وبأيديهم علاماتُ ابن مُرْدنيش منكوسة، وضُرِبت الطّبول، واتّصل السرورُ والمأمول، وأمَرَ الأميرُ في الحين بقراءة الكتُب، فقرأهُ الفقيهُ أبو محمد ابنُ المالَقيِّ، وكان من إنشاء الكاتب أبي الحَسَن بن عبد الملك بن عيّاش، وقد ذكَرَ نصَّه ابنُ صاحب الصلاة في تاريخه[1]، أغنى ذلك عن ذكرِه هنا، وبعَث السيّدُ في طيِّ هذا الكتاب مدرَجًا فيه قصيدةً طويلة أولُـها [من الوافر]:

لقـــد بلَغَــتْ جِيــادُكمُ مــداها	ونالَــتْ مــا أرادت مــن عِــداها
وها هي فاسألوا الإصباحَ [عنها][2]	بحمـد الله [قـد حَمِـدت سُر][3]اهـا

(١) المن بالإمامة ٢٨٢ فما بعدها.

(٢) بياض في النسخ مستدرك من المنّ بالإمامة ٢٨٩.

(٣) بياض في النسخ مستدرك من المنّ بالإمامة ٢٨٩.

تعُــدُّ رضــاكمُ عِــزًّا وجاهًــا ... فــما تــشكو عــلى حــال وجاهــا

تَهــيمُ بحــبِّ طــاعتِكمْ فتَطــوي ... بــساطَ القَفْــر حتــى قــد طواهــا

كــأنّ قَطَــا الــمَفاوزِ حــين ثــارت ... تعلَّمــتِ الهدايــةَ مــن قَطاهــا

لقــد شُــنَّت بــأرض الــشرقِ حتــى ... أباحــت بعــدَ مَنْعتِهــا حِماهــا

فبــورُك للخليفــة في رجــالٍ ... أطــاعوا اللهَ فــيمن قــد عَــصَاها

هــو النــورُ الــذي بَهَــرت ولاحــت ... بــه شــمسُ الهدايــة في ضُــحاها

حَبــاهُ بــه الخليفــةُ عــن إمــامٍ ... قــدِ انتــاشَ البريّــةَ مــن عَماهــا

أبــا يعقــوبَ إنّ بنــا إلــيكمْ ... كــما بالحــائماتِ يُــرى صــداها

ودونَكــمُ تحيّــةُ مُــستهام ... يَطيــبُ الجــوُّ مــن مــسرى شَــذاها

ولا عَــدِمتْكمُ العَلْيــا فمهــما ... رعــاكمْ ذو الجــلالِ فقــد رعاهــا

وفي هذه السنة المؤرَّخة: اختَصَّ الأميرُ أبو يعقوبَ بوزارته أبا العُلى إدريسَ بن جامع وقَرَّبه وأحبَّه، فظَهَرت في هذه المدة للناس في أحوالِـهم منه وبه دلائلُ اليُمن واتّصال العَدْل والفضل والأمن، يسيرُ الراكبُ حيث شاء من بلاد العُدوة في طُرُقِها من جبلها وسهلها آمنًا في نفسِه ومالِه لا يخافُ إلا اللهَ تعالى، وأحسَنَ لـمَن وفَد إليه واستغاث به من أجناد الأندَلس الـمُضاعِينَ والمأسورين، ففَداهم بمالِه وأعطاهم الخيولَ [بسروجها ولجها، وآلاتِ الحرب][1] والكساءةِ[2] الرفيعة وأوصَل البركةَ للموحِّدينَ وللناس المقيمين معَه وطلَبة الحضر[3] الوافدينَ عليه في كلِّ شهرٍ على التوالي والاستمرار، واستبانَ فضلُه وعَدْلُه في كلِّ الأقطار[4].

(١) بياض في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٢٩٣.

(٢) في م: «الكسوة» وما أثبتناه من النسخ.

(٣) في م: «الحضرة» وهو تحريف عجيب وفهم غريب، وإذا هم كانوا بالحضر فكيف يفدون عليه؟

(٤) في م: «وعدله في الأقطار نورًا من الأنوار»، وهذه العبارة ليس في شيء من النسخ اقتبسها (المحقّقون) من المنّ بالإمامة من غير إشارة، وهو أمر عجيب.

وفي سنة إحدى وستِّين: عيَّد السيّدان: أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنينَ عبد المؤمن بظاهر مُرْسِيَةَ عيدَ الأضحى على أثَرِ التعييد بالنّصر والظَّفَر بعدوِّهم، ثم انعطفا آخِذَيْنِ في الانصراف إلى الحضرة، فلمّا وصَلا إلى قُرطُبَةَ أقام أبو سعيد فيها برأي مقدَّم من الأمير واتّفاق على حالتِه الأُولى، وانفَصَل السيّد أبو حفص عنه إلى إشبيلِيَةَ منصرِفًا إلى الحضرة، وأجاز البحرَ مستعجِلًا للدّخول حتى وصَل قريةَ مكول[1]، فكتَبَ إلى أخيه شعرًا من إنشاء ابن حَرْبونَ، فمنه[2] [من الخفيف]:

عَلِّلوا العَيْشَ باقتراب الدِّيارِ ... وانظُروا هل بدا لها من مَزارِ

هذه حضرةُ الإمام فحُطُّوا ... عندَها الرَّحْلَ فهْي دارُ قرارِ

فاشكُروا للركابِ أنْ جَمَعتْكمْ ... بالأمير الأجَلِّ فرع نِزارِ

بمليكٍ عندَ المليك مكينٌ ... قد كساه ثوبَ التُّقى والفخارِ

نصَرَ اللهُ دينَه من لدُنْكمْ ... بجيوش جاسَتْ خلال الدّيارِ

واعتَملَ السَّيرَ متشوِّقًا، فكان ورودُه حضرةَ مَرّاكُش في الثانيَ عشَرَ من ربيع الآخِر من السنة المؤرَّخة، ثم نزَلَ الأميرُ عن فرسِه والتَقَيا فتصافَحا وتسالمَا، ثم سلَّم الناسُ على الأمير وعلى مَن حضَر، وركِبوا ودخَلوا القصرَ بعدَ صلاة العصر، واجتمعا [خيرَ][3] اجتماع، وكان من السرور ما أبهَجَ الناظرينَ بغاية الاختراع. وفي اليوم الثاني من هذا الوصول صَنَع للواصِلينَ والمقيمينَ الأطعمةَ والأشربةَ الحلال المُدارةَ على المسارِّ السارّةَ مدةَ خمسةَ عشَرَ يومًا، ثم أنعَمَ عليهم بالكُسوة التامّة والعطاء الجزيل، فاجتمَع لجميع الناس السرورُ والمالُ الحاضرُ الموفور. وبعدَ هذا الإنعام والاتّصال العامّ رجَع الناسُ إلى قبائلهم للاستقرار، بعدَ نَيْل الغَزْو والأَجْر في هذه الأسفار، وخَمَدت نارُ الفتنة منَ ابن مُرْدنيش مدةً من خمسة أعوام إلى أن حدَث بينَه وبينَ صِهره ابن هَمُشْك الشَّنَآنُ الذي أذكُرُه بعدُ إن شاء اللهُ تعالى، فنَظَر أميرُ المؤمنينَ في غزوِه[4].

---

(1) الروض المعطار ٥٤٤.

(2) القصيدة بتمامها في سبعة وعشرين بيتًا في المن بالإمامة باختلاف لفظي ٢٩٤-٢٩٦.

(3) بياض في النسخ، واللفظة مستفادة من المنّ بالإمامة ٢٩٩.

(4) تفاصيل ذلك في المن والإمامة ٢٩٧-٣٠١.

ذكرُ ابتداءِ الولايات من الأمير أبي يعقوبَ لإخوتِه السّادات والـحُفّاظ من أشياخ الجماعات[1]

قال الراوية: ولـمّا كَمُل الإطعامُ والإنعام، ميَّزَ الناسَ على جميع طبقاتهم بهيئاتهم وخَيْلهم ورَجْلهم، فكُتبت أسماؤهم على الاستيفاء وخَرجت لهم البركاتُ على الذي كتَبوه ورتَّبوه، ونَظَر الأميرُ أولًا مَشُورةَ أخيه أبي حفص في ولاية بِجَايةَ وأقطارِها وجميع جهاتِها وأقطارِها، إذ كانت دونَ وال، وعلى حالة إغفال، فاختاروا لها من الإخوة السيّدَ أبا زكريّا يحيى بنَ عبد المؤمن فتوجَّه إليها من الحضرة غُرّةَ جُمادى الأولى من سنة إحدى وستينَ في جملةٍ متعيِّنة من أبناء الحُفّاظ والموحِّدين.

ونَظَر أيضًا في حديث إشبيلِيَةَ، إذ كانت تحتاجُ إلى والٍ، فاختار لها الشّيخَ أبا عبد الله بنَ أبي إبراهيم وعَقَد له الأميرُ رايتَيْن في مجلسِه الكريم، واختار جُملةً وافرة من أهل النَّجدة والتقديم، وعيَّن له وزيرًا يَسُوسُ أحوالَه وينظُر أعمالَه وأشغالَه، وهو: أبو زكريّا ابنُ سِنَان، وأمَرَ له بأربعة من الطّبول فضُربت يومَ خروجِه اهتبالًا به وإعلامًا برِفعتِه ورُتبتِه. فتحرَّكَ من مَرّاكُش غُرّةَ جُمادى الآخِرة من سنة إحدى وستينَ المذكورة.

قال ابنُ صاحبِ الصلاة[2]: فخَرج براياتِه[3] الاثنتَيْن من دار الخلافة على وَسَط مَرّاكُشَ وديارِها إلى باب فاس مستقبِلًا طريقَ الأندَلس، فتمادى مشيُه إلى سَبْتة وعبَرَ البحرَ في قطعتَيْن إلى طريف ثم سار إلى مدينة إشبيلِيَةَ، فخَرج إليه الحُفّاظُ والأجنادُ والأشياخُ منها والأعيانُ والتقَوْه ودخَلوا معَه مسرورينَ لقدومِه، فوجَدوه فوفّوهُ سَلامَه، ودخَل إشبيلِيَةَ في رجَب من عام أحدٍ وستين المذكور. وبعدَ ثلاثة أيام من وصُولِه إلى إشبيلِيَةَ سافَر معَ الحُفّاظ الواصلينَ معَه إلى قُرطُبَةَ للقاءِ السيِّد الأسنى أبي سعيد بها والسلام، فوصَل إليه وأقام عندَه ثمانيةَ أيام تحت برٍّ وإكرام، ورَحَل[4] إلى إشبيلِيَةَ، وضَرَبت جُملةٌ ذَميمةٌ من نَصارى شَنْتَرِينَ على جهة إشبيلِيَةَ،

---

(١) المن بالإمامة ٣٠١ فما بعدها.

(٢) المن بالإمامة ٣٠٢-٣٠٤.

(٣) هكذا في النسخ كافة، وهو جائز، ولو قال: «برايتيه» لكان أحسن.

(٤) في م: «ووصل».

فخَرج في اتّباعِهم عسكرُ إشبيلِيَةَ، فأدركوهم وأنقَذوا الغنائمَ منهم وهزَموهم وساقوا من سَبْيِهم مئة فارس وجُملةَ أعلاج، وعُرِّف الأميرُ أبو يعقوبَ بهذا الفتح فشَكر اجتهادَه وجهادَه. وأقام على شُغلِه منفردًا بأشغال إشبيلِيَةَ وأنظارِها إلى أن وصَل السيّدُ أبو إبراهيمَ حسبَما أذكُرُه.

ووُلِّي السيّدُ أبو إبراهيمَ ابنُ الخليفة عبد المؤمن إشبيلِيَةَ[1]، فكان وصُولُه إليها وقدومُه عليها في ذي الحجة من سنة إحدى وستين، وكان [أُمِرَ][2] في هذه الأيام للسيِّد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بالارتحال عن قُرطُبة والمشي إلى الحضرة، فخَرجَ مُبادرًا للأمرِ الذي أُمِر به، وخَطَر على إشبيلِيَةَ في الثامن من ذي القَعدة، والتقَى بأخيه أبي إبراهيمَ بقَصْر مصمودةَ، وخَرَج الشّيخُ الحافظُ أبو عبد الله بنُ أبي إبراهيم للقاءِ السيِّد أبي إبراهيم، فالتقَى به في جزيرة طَرِيف وانصَرف في صُحبتِه إلى إشبيلِيَةَ وقد وصَل له الأمرُ أن يُقيمَ معَه شيخًا له على ما كان يشتغلُ به فيها، وشُغلُ العسكريّة على يدَيْه والأمورُ كلُّها راجعةٌ إليه، والسيّدُ المذكورُ يختصُّ به غايةَ الاختصاص ويشتملُ عليه بالوُدِّ والإخلاص، إلى أن وصَله الأمرُ بولاية غَرْناطة.

وفي سنة اثنتين وستينَ وخمس مئة: وصَل الأمرُ إلى السيِّد أبي سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن بولاية غَرْناطةَ في شعبانَ العامَ، فنَظَر في الحركة إليها من إشبيلِيَةَ في أوّل رمضان، وأقام بغَرْناطةَ واليًا مُعدًّا مجتهدًا إلى جُمادى الأولى من عام أربعة وستينَ على ما سيأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى. ونَهَض بالاستدعاءِ هو وجميعُ الوُلاة بالأندَلس والسيّدانِ: أبو إبراهيمَ وأبو إسحاقَ صاحبُ إشبيلِيَةَ وقُرطُبة إلى حضرة مَرّاكُش، وأقام بها بقيّةَ عام أربعةٍ وستّينَ على ما سيأتي ذكرُه. ونَهَض وأصْهَر إلى السيِّد الأعلى أبي جعفرٍ على ابنته. وتَمادت إقامتُه بمَرّاكُش إلى أوّل شهر ذي القَعْدة من عام خمسة وستّين، وسافَر في صُحبتِه السيِّد أبو حفص غازيًا معَه إلى ابن مُرْدنيش بمُرْسِيَة وجميع شرق الأندَلس، ثم بعثَه السيّدُ المذكورُ إلى مدينة بَسْطةَ[3] بعسكرٍ موفور،

---

(١) في م: «من إشبيلية».

(٢) بياض في النسخ، وهي مستفادة من المنّ بالإمامة ٣٠٤.

(٣) في ك: «قسطة».

ففتَحَها اللهُ على يدَيْه، وانصَرف إلى السيِّد ظافرًا، وأقام معَه في هذه الغزوة إلى أنِ انصَرف السيّدُ المذكور وانصَرف بانصرافِه إلى إشبيلِيَةَ واستقرَّ بها في حضرة الخليفة أميرِ المؤمنينَ أبي يعقوبَ، كما جازَ إلى الأندَلس في سنة ستٍّ وستينَ وغَرْناطةُ في هذه المدة كلِّها تحت حُكمِه وبيدِه، وفيها رِجالُه وعيالُه، وحين استقرارِه بإشبيلِيَةَ نَهَض السيّدُ أبو سعيد إلى غَرْناطةَ واليًا عليها بالأمر عِوَضَه، ووَصَله رجالُه وعيالُه منها إلى إشبيلِيَةَ، ثم قدَّمه أبو يعقوبَ على تمييز الحُفّاظ أجمَعَ في أول ربيع الأوّل عامَ سبعة وستين، وحضَر الحضرةَ[1] الكُبرى معَ أميرِ المؤمنينَ ببلادِ الرُوم، وحضَر غزوةَ الطاغية أبي بردع[2] المسمَّى[3] [بسان مَنُوش][4] وناب في هذه الغزَوات الـمَنابَ الحميد، ثم لازَمَه الاعتلالُ نحوَ سنة ونصف، فتوفِّي في السابع والعشرينَ لرمضانَ من عام تسعة وستينَ وخمس مئة وله من العمُر ستٌّ وثلاثون سنة. رَجْعُ الخبَر[5].

ذكرُ الاتّفاق على كَتْب الأمير أبي يعقوبَ العلَامةَ بخطِّ يدِه[6]

ثم وقَعَ الاتّفاقُ على أن يَكتُبَ أميرُ المؤمنينَ العلَامةَ بيدِه، التي هي: «الحمدُ لله وحدَه»، وتَنفُذَ الأوامرُ العَلِيّةُ على أمرِه وحدَه، فلمّا كمُل ذلك أمَرَ بكَتْب رسالة إلى جميع بلادِه يأمُرُ فيها بالعَدْل والنّهي عن المنكر، وكتَبَ بها أولًا إلى أخيه السيِّد أبي سعيد، وكان بقُرطُبة، في الثالث من رمضانَ المعظَّم من عام أحد وستّين، وأمَرَ أن يُكثِرَ منها نُسَخًا إلى البلاد، فوصَلت نُسخةٌ منها إلى إشبيلِيَةَ، وهي أولُ أوامرِه العَلِيّة من إنشاءِ الكاتب أبي الحَسَن ابن عيّاش، أمَرَ فيها بالعدل والنّهي عن المنكر.

(١) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «وحضر الغزوة الكبرى مع أمير المؤمنين إلى وبذة ببلاد النصارى».

(٢) في م: «البرذع» ولا ندري من أين أتوا بالألف واللام.

(٣) في م: «المسنّ» وهو تحريف، وما أثبتناه من النسخ كافة والمنّ بالإمامة ٣٠٨.

(٤) زيادة متعيّنة من المنّ بالإمامة.

(٥) المن بالإمامة ٣٠٧-٣٠٩.

(٦) المن بالإمامة ٣١٢ فما بعدها.

وفي هذه السنة: وهي سنة اثنتين وستينَ: تحرَّكت في جبال غُمارةَ وغيرِها فتنةٌ بضُلّال جُهّال من البربر مُفسِدينَ ناعقينَ بالفتنة، وأعظَمُهم في جبال غُمارةَ المتّصلة بسَبْتة، فإنه نَعَق فيها مُفسِدٌ غَوِيٌّ اسمُه سَبُع بن منغفاد[١]، فإنه شَقَّ عصا الطاعة وفارَقَ الجماعة، وقَطَع الطُّرق[٢] وفرَّق الفُرُق[٣]، وسَبَا الرِّفاق، وأدخَل في قلوب القاطِنِينَ بقصر كُتَامةَ وتلك الجهات الرُّوعَ والفَزَع، وتفاقَم أمرُه وتعاظَمَ شرُّه، وامتَنَع في جبل الكواكب، واستفحَل فيه بالإذاية وتمادي الغِواية في بَشَر كثيرٍ من قولِه: هم من عَدَم الفهم كسائمة البُهْم، صَحِبَتهم الجَهالة واستهوَتْهم الضَّلالة، وفَشا ضُرُّهم وساء أَثَرُهم. فاتّفق أمرُ[٤] الموحِّدينَ أن يحسِموا شرَّ هؤلاء المارِقين، فنَظَروا في تجهيزِ عسكر، ووجَّه أبو سعيد يَخلُفُ بن الحُسين إلى بلادِ صُنْهاجةَ من جهة القلعة، وقد كان الشيخُ المرحومُ أبو حفص تقدَّم قبلَه بمَن كان معَه في جهةٍ أخرى، فلمّا عَظُم شرُّ هذا الشقيِّ سَبُع بن منغفاد أهلَكَه اللهُ بحركة الأمير إليه[٥].

ذكرُ حركة الأمير أبي يعقوبَ ابن الخليفة عبد المؤمن رحمهما الله ومقتَلِ سَبُع بن منغفاد المذكور[٦]

لـمّا عَظُم أمرُ هذا الشقيِّ تحرَّك إليه الخليفةُ: بنفسِه وعساكرِه وأخيه أبي حفص وأبي سعيد، ونهَضُوا إلى جبل غُمارةَ فنازَلوا فيها الشقيَّ الغَويَّ في أعلاها، وأحاطوا على أعدائهم في ذُراها وسَبَوْهم واستأْصَلوهم وأجلَوْهم وغَزَوْهم غزوًا شافيًا، وفتح اللهُ لهم أرضَهم، وملَّكهم عقارَهم وعِرضَهم، وقَتلوا الشقيَّ المذكور، واتّصل لهم الفتحُ في جبال[٧] غُمارةَ وصُنْهاجة بالمناب، وكان الانصرافُ من الجميع

(١) في المن بالإمامة ٣١٨: «منخفاد» أينما ورد، والمؤلف ينقل منه. ووقع في م: «منعقاد» وهو تحريف تأتي من سوء القراءة.
(٢) في م: «الطريق»، وهو تحريف.
(٣) الضبط من ق، حيث جوّد الضمة على الراء.
(٤) في ك، م: «رأي».
(٥) المن بالإمامة ٣١٨-٣٢٠.
(٦) سقط من م.
(٧) في م: «جبل» وما أثبتناه من النسخ.

بالنُّجح وحُسن الانقلاب[1]. ولـمّا كان الإيابُ من هذه الغزوة المذكورة أمَرَ الأميرُ أبو يعقوبَ بإعلام الفتح الشامل ومقتَل الشقيِّ وصَلْبه.

ولـمّا انصَرف الأميرُ أبو يعقوبَ من فتح جبال غُمارةَ غالبًا منصورًا إلى حضرة مَرّاكُش، أنشَده الشّعراءُ يُهنُّونَه باستيلائه على أعدائه، فقال أبو عُمر[2] بنُ حَرْبونَ من قصيدة[3] [من الكامل]:

بلَغَتْ بكـمْ حُجَجُ الكتابِ المنزَلِ ... ونُـصِرتمُ نَـصْرَ النبـيِّ المرسَـلِ
وجلَـوْتُمُ غَمَـراتِ كـلِّ دُجُنّـةٍ ... لـو أنّ صُـبْحًا رامَهـا لم تَنْجَـلِ
فـرَقِيتُمُ منهـا مَراقـيَ لم تكـنْ ... تَرقَـى بهـا قـدَمُ الـصَّبا والـشَّمألِ
ووطِئـتُمُ جبـلَ الكواكـبِ وطْـأةً ... خَـرَّتْ لـصعقتِها مناكـبُ يَـذبُلِ
والتـاجُ نـورُ الله يُـشرقُ فوقَـهُ ... من غُـرّةِ الـمَلِكِ الأجـلِّ الأفـضلِ
فتـبرَّأت تلـك المعاقـلُ مـنهمُ ... والعقـلُ لـو رُزِقـوهُ أمنـعُ معقـلِ
مـا غَـرَّهم بخليفـة الله الـذي ... مـا لامـرئ عـن أمـرِه مـن معـدِلِ
ضَرَبَ الـشقاءُ وجـوهَهم بـضلالةٍ ... تاهَـتْ بهـمْ في حَـوْزِ ليـلٍ أليـلِ
واستعجَلوا أمرَ الإله [فجاءهمْ][4] ... والويـلُ كـلُّ الويـلِ للمـستعجِلِ
عجبًـا لهـا مـن فتنـةٍ قـد سـوَّلت ... لـمُطوَّقاتِ الأيْـكِ صَيْدَ الأجـدَلِ
فسَطَت بهـم كـفُّ الـرَّدى لـمّا أبَـوْا ... أن يقبَلـوا عفـوَ الـصَّفوح المفـصلِ
وغـدا غَـويُّهُمُ بـرأس مُنيفـةٍ ... يَـهوِي إلى دَرْكِ الجحـيم الأسـفلِ
رضيَ الإلـهُ عـن الإمـام المجتبَـى ... وسـقَتْه أنـواءُ الـسحابِ الـهُطَّلِ

---

(١) زاد ناشرو (م) بعد هذا: «وسعيد الإياب» وليس في النسخ، وهي عبارة وردت في المنّ بالإمامة ٣٢٠.

(٢) في النسخ: «عَمْرو» وهو خطأ.

(٣) القصيدة بتمامها في المن بالإمامة ٣٣٦-٣٤١ وهي أطول مما هنا.

(٤) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة.

أَلقَى لسيّدِنا الخليفةِ عهدَهُ فَزَعَ الهُمامِ إلى الحسام المفصلِ[1]

وقضَى لنَجْلِهِمُ الكريم بحفظِها حتّى إلى اليوم العَمَاس[2] الأهولِ

فالآنَ قد هدَأت وقَرَّ قرارُها عند التقيِّ الزاهدِ المتبتّلِ

قَرَّت به عَيْنُ الخلافة إذ رأَتْ قِسْطاسَها بيد الإمام الأعدلِ

إنّ الخليفةَ إن تأخّر عصرُهُ فقدِ احتوى خَلْقَ الزمانِ الأوّلِ

شَرْخُ الشّبابِ ودولةٌ قد أقبلَتْ يا حُسنَهُ من مُقبِل في مُقبلِ

مَلِكٌ تسُحُّ على الورى برَكاتُهُ فتعُمُّ سائلَها ومن لم يسألِ

هُنِّيتَ مولانا أبا يعقوبَ ما خُوِّلتَ من فَتْح أغرَّ محجَّلِ

قُلِّدت جِيدَ المُلك منه تميمةً ما أن يَبيتَ لها بليل الأوجَلِ

قد جاءت الدُّنيا إليكَ بوَفْدِها واستقبلتْك بوجهِها المتهلِّلِ

والحضرةُ العلياءُ يَرقُبُ طَرْفُها منكمْ سَنا البدرِ المُنيرِ الأكملِ

حُصِر اللّسانُ وتاه في أوصافِكمْ فإليكموها[3] عُذرةَ المتجمِّلِ

وفي هذه السنة بعدَ غزوة جبال غُمارةَ: كان الشّيخُ أبو سعيد يَخلُفُ قد توجَّه بعسكر من الموحِّدينَ إلى جهة المرتدّينَ من صُنْهاجة، وكان الشّيخُ أبو حفص الهَنْتَاتيُّ بمَن معَه من عساكر الموحِّدين بجهة أخرى من بلاد صُنْهاجةَ المذكورين، ورَسَم لهم من العمَل ما وُدِّعوا عليه، فنَهَضوا واجتَمعوا وجَدُّوا في غَزْوِهم وسَعِدوا، فلمّا فتَحَ اللهُ جبالَ غُمارة واتّصل خبرُ هذا الفتح بصُنْهاجةَ ومَن جاورَهم من أهل الجبال، سُقِط ما في أيديهم ورَغبوا بأجمَعِهم وتطارَحوا على الموحِّدينَ في قَبول التّوبة، فقَبِل أبو حفص رغبتَهم وأعلمَ الأميرَ بذلك فصَفَح عنهم، فحين انصَرف الأميرُ أبو يعقوبَ من

(١) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «المقصل» ولعله الصواب.

(٢) «اليوم العماس»، كسحاب، أي: الشديد الحرب (القاموس).

(٣) لم يبق من هذه اللفظة في النسخ غير الفاء والألف من أولها ثم الهاء والألف من آخرها، واستفدناها من المنّ بالإمامة ٣٤١.

غُمارة انصَرف الشّيخُ أبو حفص وأبو سعيد بمَن كان معَهما من العساكر وأُعلِموا بما اتّفق من الطَّوع وما كان من الظَّفر فقال أبو عمر بن حَرْبون[1] من قصيدة[2] [من الكامل]:

وجَــد النّــسيمُ ثنــاءكمْ فتعطَّــرا ... ورأى الوَشــيجُ مـضاءكم فتفَطَّــرا

وتبــسَّمتْ أيــامُكم عـــن أنعُـــمٍ ... سَــمِعَ الغَــمامُ بــذكرِها فاســتَعْبَرا

وجَـرى لهـا فلـك الـسعادةُ بـالتي ... حَمِيـت عـلى كـسرى وفَلَّـت قَيْـصرا

فالــدِّينُ والــدنيا معًــا قــد رَدَّيــا ... بِردائــه الفــاروقَ والإســكندرا

جمَـعَ الإلـهُ بـه [الـوَرى في واحـدٍ ... فتبـارَكَ الـرّحمنُ مـاذا قَـدَّرا][3]

وأتـى بـه الـزَّمنُ الأخـيرُ مقـدَّمًا ... فكــأنّما الفلَــكُ الــمُدارُ تَقَهْقَــرا

ملِـكٌ تضَعـضَعت الملـوكُ لبأسِـهِ ... وغَـدا لـه الـزّمنُ العَنُـودُ مـسَخَّرا

أبــشِرْ فكــلُّ صــباح يــوم إنّــما ... يأتيــكَ بــالفتح الــمُبين مبــشِّرا

وأصِــخْ لــذكرِ اليوسُــفيّة إنّهــا ... منَعت مغاني الشّعب مـن أن تُـذكرا

جلَّـت عُلاكُـمْ أن يُحـاطَ بوَصْـفِها ... حتـى تَـساوى مَـن أطـال وقَـصَّرا

وفي هذه السنة: تحرَّك السيِّدُ الأعلى أبو حفص بعسكر من الموحِّدينَ إلى غَزْو المنافقينَ المرتدِّين، فسهَّل اللهُ له وفتَحَ عليه وانصَرف منصورًا ظافرًا[4].

وفي هذه الغزوة: أمَرَ السيِّدُ أبو حفص أبا عمرَ ابنَ حَرْبون أن يصنَع قصيدةَ شعرٍ على لسانِه يتشوقُ فيها إلى أخيه أبي يعقوب، فقال أبو عمرَ المذكورُ في ذلك[5] [من الوافر]:

ســـلامٌ أيهـــا المِلِـــكُ الـــهُمَامُ ... عـــلى ناديــك دام لــك الــسّلامُ

---

(١) في النسخ كافة: «أبو بكر بن حزمون»، وفي المنّ بالإمامة: «أبو عمر بن حربون»، ولعله هو الصّواب، إذ لا نعرف من الشعراء من يكنى أبا بكر وممن يعرف بابن حزمون.

(٢) القصيدة في المن بالإمامة في ثلاثة وأربعين بيتًا (ص٣٤٢-٣٤٧).

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٣٤٣.

(٤) المن بالإمامة ٣٤٧.

(٥) القصيدة في المن بالإمامة في ستة وثلاثين بيتًا (ص٣٥٠-٣٥٤).

ولا زالـــت لـــك الأيـــامُ سِــلْمًا	وصُــبَّ عــلى أعاديــك الــسّلامُ

فأنــت إمــامُ هــذا الخلــقِ طُــرًّا	متــى مــا زال لا زال الإمـــامُ

برأيِــكَ تكــشِفُ الغــمّاءَ عــنهمْ	وينقَــعُ غُلّــةَ الأرض الغَـــمامُ

ولـــولا دولـــةٌ أيّـــدتموها	لَــما عُــرِف الحــلالُ ولا الحــرامُ

ولا هطَلَــت عــلى الأرض الغَــوادي	ولا سَــجَعت عــلى الدَّوح الــحَمامُ

ســهِرتَ اللّيــلَ في طلــبِ المعــالي	وقــام بــيُمن دَعْوتِــك الأنــامُ

إلى قوله[1]:

يطــولُ بنــا الزمــانُ فكــلُّ يــومٍ	يمُــرُّ ولا نَــراكم فهْــوَ عــامُ

فتبــسِمُ عــنكُمُ هــذي اللّيــالي	كــما ابتــسمت عــن الزهــرِ الكــمامُ

أخبرَ أبو مروانَ عبدُ الملك بن محمد، قال[2]: حدَّثني مَن حضَر مجلسَ الخليفة أبي يعقوبَ قال: لـمّا أُنشدت هذه القصيدةُ المعلِنةُ عن صفاءِ الضمائر، وخُلوص الإخاء في السرائر، منَ السيِّد أبي حفص إلى حضرة أخيه، رأينا وجهَه قد انشَرح وتهلَّل سرورًا وبِشرًا، وتخيَّلناه لنُورِه بدرًا، فقام كلُّ مَن حضَر المجلسَ فبايَعه ودَعا له بأجزل العطاء لقائلها وانصَرف السيّد أبو حفص ظافرًا.

وفي سنة ثلاث وستينَ وخمس مئة: تسَمَّى الخليفةُ أبو يعقوبَ بأمير المؤمنين[3] وجُدِّدت له البيعةُ، أجمَعَ الموحِّدونَ على تجديدِها فجُدِّدت بخُلوص الضمائر وطيبِ السرائر، ونفَذَ الأمرُ بذلك إلى السيِّد أبي إبراهيمَ بن عبد المؤمن بإشبيلِيَةَ مُعلمًا بتجديد البيعة والاسميّة الإماميّة، فأُخِذت البيعةُ له بإشبيلِيَةَ وسائر بلاد الأندَلس التي كانت تحتَ طاعتِه كمدينة: قُرطُبة وغَرناطة ومالَقةَ وغَرْب الأندَلس، وكُتبت البَيْعاتُ من كلِّ بلد وبُعِثت إلى حضرة مَرّاكُش.

---

(١) سقط شبه الجملة من م.

(٢) المن بالإمامة ٣٥٤.

(٣) المن بالإمامة ٣٥٤ فما بعدها.

ولـمّا[1] كمُلت هذه البَيْعات، وسَرَت البشائرُ في البلاد، وتيمّن بارتباطِهم بالأندلس والعُدوة، فجميع العباد، عَفَا أميرُ المؤمنين عن جميع المسجونين، وحَطّ البقايا عن العُمّال الخائفين، وأمَّنَهم من الخوف[2] فيما تقيَّد عليهم من الدّواوين، فزادَ الانبساطُ والنشاطُ عندَ الناس بفضلِه وصَفْحِه وعدلِه، فنَمَتِ الأرزاق وعَمُرت الأسواق، وزادت المخازنُ وُفورًا، ودُرَّت الخيراتُ على الناس دُرورًا، وابتنَوْا بمَرّاكُش الدِّيارَ العتيقة، واغتَرسوا خارجَها أينَعَ حديقة، واتّصل فضلُه في جميع العُدوة: الغَرْبيّة والأندَلس، واجتمع الحُبُّ له في جميع القلوب والأنفس، فمَدَحه الشعراءُ وأطْنبوا، فأجزَلَ لهم العطاءَ فوق ما رَغِبوا، فمِن ذلك قولُ أبي عَمْرو بن حَرْبون[3] من قصيدةٍ[4] [من الكامل]:

جاءتـك تـسحَبُ ذيلَهـا للموعـدِ ... زهــراءُ طالعــةٌ بــسَعْدِ الأسـعدِ
فاصــدَعْ أمــيرَ المــؤمنينَ بــدعوةٍ ... لم تَــتَّرِكْ صــمًا لــسمع الــجَلْمدِ
يُهنـي الخلافـةَ أن لبِـسْتَ رداءهــا ... وقعَـدتَ منهـا اليـومَ أشرفَ مقعـدِ
ومـنِ ارتقَـى في سُـلَّم التقـوى رأى ... زُهرَ الكواكب بالحـضيض الأوهـدِ
ألقَــتْ أزِمّتَهــا إلى مــن هـــمُّهُ ... في مُرهَـفٍ أو مُـصحفٍ أو مـسجدِ
عَلِقَتْــهُ ميمــونَ النَّقيبــةِ زاهــدًا ... لم يــشتغلْ بــدَدٍ ولا هــو مــن دَدِ
انظُــرْ إليــه فــإنّ غُــرّةَ وجهِــهِ ... تَجْلو الصَّدى عن قلـب كـلِّ موحِّـدِ
فأقــام قَيّــامَ الــسماواتِ العُــلى ... عــن شــأن قَــوّامٍ لــه متهجِّــدِ

---

(١) المن بالإمامة ٣٦٣ فما بعدها.

(٢) وضع ناشرو (م) عنوانًا من المنّ بالإمامة من غير إشارة إليه، بل قالوا في تعليق لهم: إنّ العنوان سقط من بعض النسخ دون بعض، وهو لا وجود له في النسخ الخطية كافة، بل أدهى من ذلك أنهم تركوا النصّ الذي أجمعت عليه المخطوطات وراحوا ينقلون من المنّ بالإمامة، وهو أمر في (تحقيقهم) غريب! ومن ثم لم نعد نرى فائدة في تتبع المخالفات الكثيرة الواقعة في هذا النصّ، وما قدمنا فيه كفاية لكلّ ذي بصر واطّلاع، والله الموفق للصواب، إليه المرجع والمآب.

(٣) وقع في ر٣: «حزمون»، وهو تحريف.

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٣٦٥-٣٦٩ ومنه ينقل المؤلف.

الحـقُّ حقُّـك مـا لـه مـن دافـعٍ واستَشهِدِ البِيضَ الـصَّوارمَ تـشهَدِ
إنّ الـذي قـد قُمـتَ تَنـصُرُ دينَـهُ أعطـاك مـيراثَ النبـيِّ محمـدِ
لله مـشهدُ بيعـةٍ بويعتَهـا فالـدِّينُ والـدنيا بـذاك المـشهدِ
إنّ الـشريعةَ أُيِّـدت أركانُهـا بموفَّـق للـصالحاتِ مؤيَّـدِ
يَـجْلو خفِيّـاتِ الأمـور بفِطنـةٍ قـد أنبأَتـه اليـومَ عـمّا في الغـدِ
عمَـرتْ قلـوبَ المـؤمنينَ بحبِّـهِ واستمسَكوا بعُرى الـمُهنِّ[1] المحصدِ
فاسـلَمْ أمـيرَ المـؤمنينَ لأُمَّـةٍ مـا سرتهـا[2] إذ سُسْتَها بمُـصَّردِ
أمَّنْتَهـا أهـوالَ كـلِّ مَـخُوفةٍ شَرَّدن سِرْبَ الأمـن كـلَّ مـشرَّدِ
لـولا مقامُـكَ زُلزِلـت زَلزالُـها وتَضَعْضَعت صُمُّ[3] الهضابِ الصُّخَّدِ
لـولا الـذي بـسَط الإلـهُ بفـضلِهِ في الأرض من سُلطانِهم لم يُعهَـدِ[4]
حـطَّ الأنـامُ إلى ذُراكَ وأصـبحوا من ظلِّ عدلِك في النّعيم الأمـردِ[5]
صَـفَت النفـوسُ إليـكَ حتـى أنّهـا لـو سُـمتَها الأغـمارَ[6] لم تـتردَّدِ
غـارت معطَّـرةَ الثنـاءِ وأنجَـدتْ أهلًا وسـهلًا بالـمُعينِ الـمُنجِدِ[7]

---

(١) في م: «المتين» وهو الذي في المطبوع من المنّ بالإمامة، وما أثبتناه من النسخ كافة وهو الأولى.
(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المنّ بالإمامة: «شربها».
(٣) في ق، ك: «لهم»، وبها يحصل الإقواء في البيت، وما أثبتناه من ر٣، وفي المنّ بالإمامة: «شمّ»، ولعل «صمّ» أفضل هنا من «شم» للفظة «تضعضعت».
(٤) في المنّ بالإمامة: «من سلطانكم لم يُعبدِ».
(٥) في م: «الأفردِ» وهو تحريف، وفي المنّ بالإمامة: «الأبردِ».
(٦) في م، والمنّ بالإمامة: «الأعمار»، وما أثبتناه من النسخ، وهو الصّواب.
(٧) جاء العجز في م: «فرمت إليك بمتهم وبمنجدِ»، وهو منقول من المنّ بالإمامة ٣٦٨، وقد ترك (المحقّقون) النسخ الخطية التي اتفقت على ما أثبتنا وراحوا ينقلون من مصدر آخر غيرها، بل علّقوا بقولهم: «في ط: أهلًا وسهلًا بالأمير المنجد، ولا معنى له ولا ارتباط بما قبله»، وهي قراءة سقيمة، إذ لا وجود للفظ الأمير في جميع النسخ الخطية. نعم، جاء في واحدة منها: «المغير»، ولعله تحريف من «المعين».

فاهْنَـــأْ برضـــوانيّةٍ ميمونـــةٍ رَمَت الأعادي بـالنّعيم[1] الـمُقعِدِ

فهْـــي الـــمُعدَّةُ للمَعـــادِ ورَيْبِـــهِ وهْي العَتـادُ[2] بحَسْم داءِ المعتـدي

وإليكهـا تبقـي[3] رضـاك ذخـيرةً سَـنَدًا أُلـوذُ بـه طُـوالَ المسـندِ

لم تنـتهجْ سَـنَنَ المـديح وإنّـما قامـت بفَـرْضٍ في عُـلاك مؤكَّـدِ

أخَـذَتْ بـأطرافِ الثنـاء ولم تُطِـقْ إحـصاءَ أوصـافِ الجميـع المفـرَدِ

أنبـاءُ فـضلِك لا يقـامُ بحقِّهـا ولـوَ انهـا كُتِبـت بـذَوْب العـسجَدِ

وأمَرَ أن يكتُبَ الصُّناع في سفيه: «لأمير المؤمنينَ ابن أمير المؤمنين» فكُتِب فيه ذلك، فقال ابنُ حَرْبونَ مُرتجِلًا فيه على لسان السيف [من مجزوء الرمل]:

أنـــا إن جـــرِّدتُ يومًـــا كنــتُ بالنــصرِ ضَـمِينا[4]

لأمـــير الـــمؤمنينَ ابـــ ـــنِ أمـــير الـــمؤمنينا[5]

ولـمّا[6] كُمل البِشرُ العامّ، واليُسرُ التامّ، بتجديد البيعة الميمونة، أمَرَ أبو يعقوبَ ببركةٍ عامّة لجميع الموحِّدينَ والعربِ القاطنين، والأجنادِ الأندَلسيِّين بحضرة مَرّاكُش إيصالًا للعفو الذي تقدَّم وإفضالًا، فنَفَذَ أمرُه إلى الساداتِ إخوتِه بالبلاد الغربيّة والأندَلسيّة بالإنعام بالبركة. فعَمَّ الناسَ فضلُه ورِفدُه، واستَولَى بهذا الإنعامُ المبارك سعدُه، ونَـمَت الجِباياتُ والخراجات، وعَزمت النفوسُ على الغزوِ في الحَضَر والبدو، واتّصلت القطيعة[7] بالبيعة والأمان.

---

(١) هكذا في النسخ كافة، وغيّرها ناشرو (م) إلى: «بالمقيم» اعمادًا على ما جاء في المنّ بالإمامة.

(٢) في م: «المعاد»، ولا ندري من أين أتوا بها، فالذي في المنّ بالإمامة كما أثبتنا أيضًا.

(٣) في م، والمنّ بالإمامة: «تبغي»، وما أثبتناه من النسخ كافة.

(٤) في م، والمنّ بالإمامة: «قمينا».

(٥) المن بالإمامة ٣٧٠-٣٧١.

(٦) النص من المن بالإمامة ٣٧١-٣٧٢.

(٧) هكذا في جميع النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «الغبطة» وهي الأصحّ.

وقدَّم أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ في هذه السّنة أخاه السيِّدَ أبا إسحاقَ إلى قُرطُبَةَ واليًا عليها، فوصَل بعسكر ضَخْم من الموحِّدينَ إليها، واتّفق الرأيُ المباركُ على النظر السّعيد والاهتبال الحميد، بالتوجُّه إلى جزيرة الأندَلس حَماها الله، بصَرْف عِنان الغزوِ إلى أعدائها على قُربِهم وبُعدِهم من أرجائها، وخاطَبَ الخليفةَ بهذا الرأي المتَّفَق عليه، بعدَ استخارة الله تعالى لديه، إلى أهل الأندَلس بالنَّظر في الاستعداد لذلك برَسْم الجهاد.

وفي تاريخ وصُول هذه الرِّسالة[١] إلى والي غَرْناطةَ المذكور، خَرَجت من جهة وادي آش جُملةٌ ذَميمةٌ من خيل جراندُه[٢] من المحارِبين، وأصحابِهم النّصارى الكافرين، أهلَكَهم اللهُ تعالى، فأسرَوْا ليلتَهم ونهارَهم حتى وصَلوا نظَرَ مدينة رُنْده كَلأَها اللهُ تعالى، فغَنِموا بعضَه واكتَسَحوا سائمتَه وماشيتَه، وعَلِم بذلك الشيخُ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم بغَرْناطة، فحزم في أمرهم وفي حَسْم شرِّهم، وبعَثَ في اتّباعِهم ودفاعِهم عسكرًا كبيرًا، فالتقَى بالأشقياء وهم بالغنائم منصرفونَ إلى وادي آش، مجتمعين، فحينَ عايَنوا عسكرَ الموحِّدين أوَوْا إلى جبل شاهق، فحَمَل الموحِّدون أنجَدَهم اللهُ على الكافرين حملةً صادقة طارَدوهم فيها من أوّل صلاة الظّهر إلى أن هَبَّت عليهم ريحُ النّصر، خلالَ وقت العصر، ووَلّى الكافرونَ أدبارَهم وهزَموهم في أعلى الجبل المذكور، وأزعَجوهم فيه حتى تردَّوْا من حافَاتِه، وتكسَّرت أعضاؤهم، وتمزَّقت أجسادُهم[٣]، واستولى الموحِّدونَ عليهم بالقتل والأسر والسَّبي، وأنفَذوا الغنائم، وحازوا أسلابَهم ودوابَّهم، وسَبَوا من أعلاج النَّصارى ثلاثةً وخمسينَ عِلجًا استاقوهم إلى غَرناطة، فضُرِبت أعناقُهم، وكان فتحًا جَسيمًا، فعرَّف به أبو عبد الله بنُ أبي إبراهيم إلى أمير المؤمنين أبي يعقوبَ رحمه الله، فجاوَبَه على ذلك بالشُّكر الحَفيل والثناءِ الجميل، ومن قول أبي عَمْرو بن حَرْبونَ من قصيدة طويلة[٤] [من الطويل]:

---

(١) نص الرسالة في المن بالإمامة ٣٧٣-٣٧٤، والمؤلف ينقل منه ص٣٧٤ فما بعدها.

(٢) هو Giraldo .

(٣) في م: «أجسامهم».

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٤٠٨-٤١٢ .

أليس من الآياتِ أنْ بِتَّ وادعًا | وقيصرُ قد أمسى لأمرِكَ خادما
وما هُو إلّا أنْ دعا بشعارِكمْ | فجَدَّل مَن قد كان قَرْنًا مُقاوما
بحِلفِكمُ الميمونِ أضحى مؤيَّدًا | على كلِّ مَن عاداك بالبَسْطِ قائما
ورِثتُمْ عن المَهديِّ نورًا وحكمةً | بها اختارك الرّحمنُ للناس حاكما
فلا زالتِ الآمالُ من كلِّ معشَرٍ | تحثُّ إليك الواخِداتِ الرَّواسما
ولا زِلتُمُ تلقَوْنَ في كلِّ شارقٍ | بشيرًا عليكمْ بالفتوحاتِ قادما

وفي هذه السنة: استدعَى العرَبَ وخاطَبَهم برسالة وقصيدة يحرِّضُهم فيها على الجهاد ويَستدعيهم إلى الغزو، وعلى الاستعداد، ويصِفُهم فيها بما هم فيه من الزّعامة والشّهامة، ويُستدنيهم غايةَ استدناء.

وفي هذه السنة: شَغَب قومٌ من البربرِ المنافقينَ في جبل تاسررت، وحين صَحَّ خبرُ تشغيبِهم وعِنادِهم عسكرَ إليهم السيّد أبو حفص بجَمْع وافر من الموحّدين، فغَزاهم وأجلاهم عن ذلك الجبل وقتَلهم فيه شرَّ مقتَل، واستأصَلَهم سَبْيًا ونفيًا، ولم يدَعْ في حيِّهم حيًّا، وانصَرف فقال ابنُ حَرْبون من قصيدة طويلة[1] [من المتقارب]:

بيُمنِكمُ نجَحَ المطلبُ | وأعطَى مقادتَهُ المُصعَبُ
وأشرَقَت الأرضُ عن نُورِكمْ | فلم يبقَ في أُفُقٍ غيهَبُ
تركتُمْ ديارَهمُ[2] بَلْقَعًا | فتندُبُ من جاءها يَندُبُ
ولا غروَ أنْ صال ليثُ الشَّرى | فراغ مخافتَه الثّعلبُ
فمزَّقتُمُ شملَهم في البلادِ | كأنّهمُ[3] جملٌ أجربُ
فيُهنِي الخلافةَ أن أصبحت | بصارمِ سيفِكمُ تضربُ

---

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٣٧٩-٣٨٢.
(٢) في ك: «دياركم»، وهو تحريف.
(٣) في المنّ بالإمامة: «ففَلُّهم».

ووصَل إلى الخليفة أبي يعقوب فتحُ وقعةٍ كانت على المخالفينَ المرتدِّينَ بالمغرب، وأمَرَ أن يَبدأَ الشّعراءُ فيها بالحمد لله على طريق الكناية، فقال ابنُ حَرْبونَ من قصيدة[1] [من البسيط]:

الحمـــدُ لله مُـــدْني شاســـع الأمـــلِ ... وناظمِ الشّمل في سِلك من الـــجَذَلِ

ثـم الـصلاةُ مـعَ التـسليم يـشفَعُها ... على الرسُولِ الذي استوفَى مدى الرسُلِ

عـلى الـذي تـمَّمتْ أحكـامُ مِلّتِـه ... مكارمًـا لم تكـنْ في سـالفِ الـمِللِ

ومَـن رضـاهُ عـن الـمَهْديِّ أحفَلَـهُ ... كـما هَـدى بـسَناه أرشـدَ الـسُّبُلِ

ثـــم الـــدعاءُ لمولانـــا وســـيِّدِنا ... خليفـةِ الله عبـد المـؤمن بـن عـلي

وللإمـــام أبي يعقـــوبَ شِـــبْهِهمُ ... ومـــن تَقَـــيَّلهم في القـــول والعمـــلِ

مَلْـكٌ تظـلُّ ملـوكُ الأرض تتبَعُـهُ ... مستبشرينَ بأنْ عُـدُّوا مـن الـخَوَلِ

وقائعًـا حـدَقت فيهـا القنـا مُقَـلًا ... بـلا جفـونٍ وأجفانًـا بـلا مُقَـلِ

فإنْ عَمُوا عن سبيل الرُّشد وَيْحَهمُ ... . في المهابـــة الـــدُّولِ[2]

شَرَوْا[3] بعاقبـــة الإنعـــام عاقبـــةً ... نفوسَهمْ[4] بينَ سهل الأرض والجبـلِ

فأصـــبحوا عِـــبرةً تبـــدو لـــمعتبِـــرٍ ... مجـــدَّلينَ بـــما رامـــوهُ مـــن جَـــدَلِ

وفي هذه السنة: لازَمَ الموحِّدون حصارَ طَبيرةَ حتى افتتَحوها، وقد كان الأميرُ أبو يعقوبَ أيامَ إمارتِه بإشبيلِيَةَ نازَلَها مرَّتينِ فعَصَت عليه وامتَنعت بمَن فيها لديه، حتى فتَحَها اللهُ في خلافتِه عقِبَ شهر ذي القَعدة، وكان فيها أصنافٌ من أهل الشَّرّ ينهَبُونَ أموالَ المسلمين فسُرَّ أميرُ المؤمنينَ بانقطاع نفاقِها الطائل

---

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٣٨٣-٣٨٧ والمؤلف يختار منه دائمًا.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وفي المن بالإمامة جاء العجز: «يا ضُلَّ من ضَلّ في مهديّة الدولِ».

(٣) في المنّ بالإمامة: «سروا».

(٤) في المنّ بالإمامة: «تنوسهم».

السِّنين، إذ كان فيها من أول عام ستة وأربعينَ إلى آخِر هذه السنة، وهي ثلاثٌ وستون[١].

وفي هذه السنة: وصَل فِرْناندُه النَّصرانيُّ صِهرُ أذْفُونْش[٢] صاحب طُلَيْطُلَة فتَحَها الله إلى إشبيلِيَةَ حرَسَها الله معَ إخوتِه راغبًا أن يكونَ خَدِيمًا لأمير المؤمنين مُنابِذًا لشيعةِ الكافرين، فسار منها معَ أصحابِه إلى حضرة مَرّاكُش مَهَدَها الله وبقيَ فيها خمسةَ أشهر تحتَ إنعام وامتنان، وعطاءٍ جزيل وإسكان، حتى كاد أن يُسلِم وعاهَدَ في نُصح الخليفة بالخدمة الـمُجِدّة، فانصرَف تحتَ هذا الإحسان والصُّلح التامّ، وأُمِر بإثباتِ إخوتِه وأصحابِه معَ الموحِّدين في كلِّ شهر، فكان ذلك، وبايَعَه بالصُّلح صِهرُه البيبوج بن أذْفُونْش صاحب السّبطاط[٣]، ورغِبَ في الـمُهادنة وأن يكونَ يدًا واحدة معَ الموحِّدين وعونًا لهم على من عاداهم، وكان من أمره ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى[٤].

ذكرُ غَدْر العِلج جراندُه الجِلِّيقيِّ أخزاه الله لبعض بلاد غرب الأندَلس وحُصونها[٥]

كان هذا الكلبُ جراندُه صاحبَ جُرأةٍ ونَجْدة، فلمّا عايَنَ ابنُ الرَّنك نَجْدتَه وتيقُّظَه لغَدْر البلاد والحصون أعانه على ذلك برجاله، وسَلَّطه على المسلمين، فكان الكلبُ يتسلَّل في اللّيالي الـمَطِرة الحالِكة الـمُظلمة وقد أعدَّ الآلاتِ من السّلاليم التي تعلو سورَ المدينة التي يَرُوم، فإذا نام السامرُ المسلم في بُرج المدينة ألقَى تلك السّلاليم إلى جانب البُرج ورَقَا عليها بنفسِه أولًا ويقبِضُ على السامرِ ويُهدِّدُه ثم يقول له: تكلَّمْ على عادتِك لئلا يشعرَ الناسُ بنا، فإذا استوفَى طلوعَ جُملتِه الرّومية في أعلى سُور المدينة صاحوا صَيْحةً واحدةً عظيمة مُنكَرة، ودخَلوا المدينةَ وقَتلوا مَن

---

(١) المن بالإمامة ٣٨٧-٣٨٨. ووقع في النسخ: «ثلاث سنين»، وهو تحريف لا ريب فيه، لذلك أصلحناه من المنّ بالإمامة.

(٢) هو الفونسو السابع.

(٣) في ك: «السفاط»، وهو تحريف.

(٤) المن بالإمامة ٣٩٠-٣٩٥.

(٥) المن بالإمامة ٣٩٥-٣٩٧.

وجَدوه وأخَذوا مَن فيها سَبْيًا وفيئًا، فغدَر جرانده العِلجُ المذكورُ لعنه الله أولًا من غَدَراتِه مدينةَ ترجالَة سنةَ ستّين، ثم مدينةَ يابُرةَ في ذي القَعدة من السنة، وباعَها من النّصارى، ثم غدَر مدينةَ قاصرش في صَفَر سنةَ إحدى وستين، ثم غدَر حِصنَ مُنْتانجش في جُمادى الآخِرة من السنة، ثم غدَر حصنَ شيربةَ في جُمادى أيضًا من السنة، ثم غدَر حصنَ جلمانية: على مَقرُبة من بَطَلْيَوْس وسكَنَه بجُملته الذّميمة يُفاتنُ منه بَطَلْيَوْس ويؤذي المسلمينَ فيها حتى مكَّن اللهُ سيفَ الخليفة منه.

وفي سنة أربع وستينَ وخمس مئة في أوّلها: هدَأَت الفتنُ في المغرب وصَلَحت البُلدان وارتفَعت الحروبُ، ورَخُصت الأسعار ودانتِ الأوطار، وانقَطَعت فتنةُ [الضُّلّال الجُهّال أهل الجبال، وتابوا وأنابوا، و][1] دُعوا للجهاد فأجابوا، وعايَنوا الآياتِ البيِّنات من لطائف الله بنَصْره المُبين ووصُول النَّصارى راغبينَ في الصلح والخِدمة صاغِرينَ طائعين. وذلك لـمّا صَفَت لأميرِ المؤمنينَ مشاربُ هذه الجبال من الفتن نَظَر في توجيه العساكر.

ذكرُ غَيْرة الخليفة أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن لله وللدِّين بتجهيز عساكرِ الموحِّدين وبَعْثِهم لحماية الأندلس من الكفّارِ والمنافقين[2]

قال الراوية: إنّ أميرَ المؤمنينَ جَرّد[3] نَظَرَه لغَرْب[4] الأندَلس ونُصرتِها وحمايتِها، وقَصَد العمَلَ في ذلك بنيّة الجهاد لله عزَّ وجَل وإشفاقًا على المسلمين ودفاعًا عن الدِّين حين رأى العدوَّ قد فَغَر عليها فمًا، وأسالَ الدّموعَ أهلُها دمًا. فنَظَر في عسكرٍ ضَخْم مبارَك شَهْم اختارهُ من الموحِّدين ووجَّهه صُحبةَ الشّيخ المرحوم أبي حفص عمرَ بن يحيى إلى قُرطُبة تقدِمةً منه لِـما أمَّله في نفسِه من جَواز الموحِّدينَ معه، فكان هذا الجيشُ أيمنَ جيش، أظهَرَ على قلوب المنافقينَ والكافرين من الرَّوع أعظمَ طيش، وتيمَّن أهلُ الأندَلس بوصُولِه وحُلولِه، وكتَبَ إلى أهل الأندَلس رسالةً كريمة معرِّفةً عنه بوَعْد نَصْره ونظَرِه العزيزِ وأمرِه.

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه من المنّ بالإمامة ٣٩٧.

(٢) المن بالإمامة ٣٩٧ فما بعدها ومنه ينقل المؤلف دائمًا.

(٣) في م: «أجد» محرفة.

(٤) في المنّ بالإمامة: «لغوث».

قال مؤلِّفُه: أخبَرَ أبو مروانَ بن محمد ابن صاحبِ الصّلاة، قال[1]: حدّثني أبو محمد سِدْراي بنُ وزير، قال: كان السببَ في تعجيل حركة الشّيخ المرحوم أبي حفص إلى الأندَلس بالعسكرِ من مَرّاكُش وصُولُ الخبر بغَدْر اللّعين جرانده الجِلِّيقي مدينةَ بَطَلْيَوْسَ وتملُّكُ ابن الرَّنك الغادر صاحب قلمريةَ[2] لها وحصارُ الموحِّدينَ الذين بها في قَصَبتها معَ حافظِهم أبي عليٍّ عمرَ بن تيمصليت[3]، وذلك في شهر رجَب الفَرْد من عام أربعة المؤرَّخ وأنّهم في ضيقة من الحصار وتحتَ ضغط من الكفّار، فأمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ بضرب الطّبول والخروج، ورَكِب من فَوْره فخَرج من مَرّاكُشَ ونزَلَ وادي تنسيفت عازمًا على الغَزْو إلى الأندَلس، فأقام به ثلاثةَ أيام على هذه النِّية، فاجتمع رأيُ الموحِّدين أن يتقدَّم أبو حفص المذكورُ بالعسكر. وخاطَبَ أهلَ الأندَلس برسالة كريمة من إنشاءِ أبي الحَسَن ابن عيّاش شَرَحَ فيها الأحوال الـمُعرِبةَ عن الآمال، فكان أبو حفص على ما ذكَرْناه وكانت حركتُه في شهر ربيع الآخِر من سنة أربع وستينَ، وهو تاريخُ الكَتْب المذكور.

وكان من يُمن هذا العسكر أنه لـمّا وصَل إلى إشبيلِيَةَ صُحبةَ أبي حفص بينَما هو عازمٌ على الحركة لدفاع العدوِّ الغادر ابن الرَّنك لعنه الله عن مدينة بَطَلْيَوْس وحماية الموحِّدينَ المحصُورين بقَصَبتها، وهو قد أعَدَّ واستعَدّ، وإذا البشيرُ قد وصَل مُعلِمًا بأنّ البيبوجَ بن أذْفُونْش المعروفَ بالسُّلَيْطِن صاحبَ مدينة السبطاط وآبله وليّونَ وسمورة، قد وصَل بخيلِه ورَجْلِه حاميًا للمسلمين دافعًا لضيقةِ الكافرين عن مدينة بَطَلْيَوْس طاعةً منه إلى الخليفة، وقيل: إنه لـمّا وصَل إلى مقرُبة من بَطَلْيَوْس وجَّه منها رسولَه إلى الحافظ أبي عليٍّ عُمرَ بن تيمصليت المحصُور بالقَصَبة معَ الموحِّدين وأهل المدينة الأندَلسيِّين يقول لهم: اثبُتوا فإنّي واصلٌ إليكم لدفاع عدوِّكم عنكم، وانظُروا في معاونتي كيف أدخُلُ إليكم بنَقْب الحائط بابًا في قَصَبة بَطَلْيَوْس من جهة خفيّة، فلمّا تحقَّقوا وصُولَ البيبوجَ المذكور ومُناشبةَ الحرب بينَه وبينَ ابن الرَّنك فتَحوا ذلك

(١) المن بالإمامة ٣٩٨.

(٢) معجم البلدان ٤/ ٣٩١.

(٣) في المن بالإمامة: «تمصيلت».

النَّقْبَ وخَرجوا بجَمْعهم منه إلى باب قريب من أبواب المدينة [وفتَحوه][1] وأدخَلوا منه العسكرَ المذكور فتقاتَلوا بداخل المدينة معَ أصحاب ابن الرَّنك والموحِّدونَ المحصُورونَ يُعينونَ أصحابَ البيبوجَ وهم قد سَوَّوا الصُّفوفَ ولبِسوا الدّروع، فرأى ابنُ الرَّنك من تصميم الموحِّدينَ وأصحابِهم في قَصْدِهم والإقدام عليهم وأصحابُ البيبوجَ يَجِدُّونَ معَ المسلمين على عسكر ابن الرَّنك حتى انهزَم وفَرّ ابنُ الرَّنك مهزومًا، فلمّا أراد الخروجَ من باب بَطَلْيَوْس وهو مزعوج، وفي شدائد الحرب مدروج، كان عَمُودُ باب المدينة ممدودًا، أعدَّه اللهُ من جُندِه معدودًا، فانضَغَط اللّعينُ ابنُ الرَّنك في الخروج، فكسَرَ عَمُودُ الباب فخِذَه اليمنى، فسَقَط مَغْشيًّا عليه، فاحتمله أصحابُه، فاتّبعه قُوّادُ البيبوجَ المذكور واستاقوه أسيرًا إليه، فقيَّدَه في الحديد، ثم بعدَ ذلك أطلقَه برغبةِ النصارى له وسَرَّحَه إلى بلده مهزومًا ذميمًا، ولم يركَبْ بعد ذلك إلى أن هلَكَ لعنه الله، وفَرّ جراندُه الجِلِّيقيُّ إلى موضعِه حتى مكَّن اللهُ منه بعدَ ذلك وفتَحَ اللهُ مدينةَ بَطَلْيَوْس، ووفَى البيبوجُ ما عاهَدَ عليه، فرأى بعدَ ذلك كثيرًا من الإحسان والإنعام، وكان خروجُ النّصارى عنها في شعبانَ من العام المؤرَّخ والحمدُ لله على ذلك. وانصَرف البيبوجُ بنُ أذْفُونْش إلى بلاده سالـمًا بأجنادِه موصوفًا عندَ المسلمينَ والنّصارى بالوفاءِ والانحياش إلى هذا الأمر العزيز والولاء، وألقى اللهُ بينَه وبينَ ابن الرَّنك العَداوةَ والبغضاء، والفتنةَ المتّصلةَ الشّنعاء، وأورَثَها الإخوةَ منهم والأبناء.

وكتَبَ الشّيخُ أبو حفص بوَصْف هذا الفتح الإلهي والنّصر المتناهي، فسُرَّ بذلك أميرُ المؤمنين وشَكرَ اللهَ كثيرًا على لُطفِه وصُنعِه، فامتَدَحه الشعراءُ على ذلك الصُّنع الأجمل واللُّطف الأكمل، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة [من الكامل]:

نظـرٌ بكـلِّ سـعادةٍ مقـرونُ ... نالـت بـه الـدّنيا المنـى والـدِّينُ

تقـديمُ مـن شَـهِد الوجـودُ بأنـه ... مـا زال بالتقـديم فيـه قَمـينُ

عِلْـقٌ ثمـينٌ زِينـت الـدُّنيا بـهِ ... وافـاه عِلـقُ الـمُلكِ وهْـو ثمـينُ

تَغـزو المهابـةُ عنـه كـلَّ مُعانـدٍ ... ولـوَ انـهُ اشـتَمَلت عليـه الـصِّينُ

---

(١) بياض في النسخ.

وتَشِبُّ حيث توجَّهت عزماتُهُ حَرْبًا كما وُصِفَت لنا صِفِّينُ

إن أصبحت وهْي البَرامكُ أُمّةً ظُلمًا فإنّ حسامَهُ هارونُ

من قَيْس عَيْلانَ الذين سيوفُهمْ أبدًا تَصُولُ ظُباتُها وتصونُ

دامت لهم في الفخرِ كلُّ قبيلةٍ من شأنِها أن لا تكونَ تَدينُ

وكفاهمُ أنْ كان منهمْ مفخَرًا معنى الوجود وسرُّها المكنونُ

مِلكٌ إذا اضطَربَ الزمانُ مخافةً لم يُغْنِه التسكينُ والتأمينُ

ألقَى على أهل الضّلالة كَلْكلًا فلهمْ أليلٌ تحتَه وأنينُ

وجَرى إلى الأمدِ الذي لم يُجرِهِ مَلِكٌ ولم تَصعَدْ إليه ظنونُ

عُذرًا أبا يعقوبَ إنّ عُلاكمُ قد أفنَت الأمداحَ وهي فنونُ

لا يبلُغُ المنثورُ بعضَ مآثرٍ صانَتْ لك العليا ولا الموزونُ

كم مِدحةٍ لك بعدَها مذخورةٍ تَزِنُ المدائحَ كلَّها وتَزينُ

لو لم يَسُدْ إلا نظيرُك لم يَحُزْ فيه الأمينُ مدًى ولا المأمونُ

قد كان ما قد قلتَ يُرقَبُ حِينُهُ حتّى أتى ولكلِّ شيءٍ حينُ

ما[1] زال أمرُكمُ الذي هو عصمةٌ والعزُّ لا يَعدوه والتمكينُ

وقال أبو عمر ابنُ حَرْبون[2] من قصيدة طويلة[3] ثُبِّتت[4] في موضع غيرِ هذا أوّلُها [من الطويل]:

بسَعْدِك أضحَى الدِّينُ جَذْلانَ باسما وباسمِكَ أمسى الشِّركُ للشِّرك هادما

ألا إنّها فيما وعدتَ لآيةٌ يَدينُ بها مَن كان بالله عالما

براهينُ صِدق ما تزالُ ولم تزَلْ تُثبِّتُ يقظانًا وتُوقظُ نائما

(١) في ك: «وما»، وبه ينكسر الوزن.

(٢) في النسخ: «أبو بكر بن حزبون»، تحريف.

(٣) المن بالإمامة ٤٠٧ فما بعدها، وفيها أنّ القصيدة لأبي عمر بن حربون.

(٤) في ك: «أثبتت».

ذكرُ حركة الشّيخ أبي حفص عُمرَ بن يحيى من إشبيلِيَةَ إلى قُرطُبَةَ بعدَ قَصَبة بَطَلْيَوْس بها وصَل معه مُنتدِبًا في مَعُونة السيد أبي إسحاقَ ابن الخليفة على جهادِ المحارِبين

قال الراوي[1]: لـمّا وصَل أبو حفص إلى قُرطُبَةَ زادت به فلاحًا ونجاحًا واغتباطًا وصلاحًا، ورَوَّع اللهُ قلوبَ المحارِبين، وقَدَح في نفوسِهم[2] من زِناد الغَلَبة عليهم قداحًا، وتجَلَّى لإبراهيمَ بن هَمُشْك في هذه المدة من نُور الـهُدى ما أسرَجَ له مصباحًا، وأبصرَ به التوحيدَ صُراحًا، ووحَّد ابنُ هَمُشْك المذكور، وكانت قد نشَأت الفتنةُ بينَه وبينَ صِهرِه محمد بن سَعْد بن مُرْدنيش والعداوةُ والبغضاء، سرًّا وإعلانًا، وخافَه ابنُ هَمُشْك على نفسِه، فانقَطع من مُواصلتِه وزيارتِه أزمانًا، وزاده رُوْعًا وفَزَعًا قَتْلُه لوزيرَيْه ابنَي الجذع وبَناهما في الخريط بمَرأى منه، وقَتْلُه لابن صاحبِ الصلاة الغَرْناطيِّ[3] وغيرِه بالجُوع، وكانت ابنةُ إبراهيمَ بن هَمُشْك زوجتَه، فطلَّقَها ابنُ مُرْدنيش في هذه المدة وطرَدَها إلى أبيها مُهانة، فعندَ ذلك تطارَحَ ابنُ هَمُشْك على الشّيخ أبي حفص في الطاعة والتوبة، وأن يَصدُقَ متابَه بظهور النُّصح منه بتمكين الموحِّدينَ من بلادِه بأوفَى وُدّ وطاعة ومحبة، فوصَل قُرطُبَةَ في رمضان، فقُبِل أحسَنَ القَبول ورُحِّب به وأُنيلَ كلَّ المأمول، وكتَبَ إلى الخليفة مُعلِمًا بمَتابِه، فجاوَبَه بتقريبه واستجلابِه، واتّصلت البلادُ التي كانت بيده ببلاد الموحِّدين، وأَمِنت من الفتنة الطّرُقُ والرِّفاق، وارتفع في تلك النواحي المرَقُ والنِّفاق. وعندَما اتّصل توحيدُ ابن هَمُشْك بمحمد بن مُرْدنيش أميره سُقِط في يدِه، وتحقَّق أنّ ساعدَه قد كُسِر من عَضُدِه، فحمَلَتْه الأنَفةُ والعَجَلة أن يأمُرَ قُوّادَه وأجنادَه أن يُفاتِنوا بلادَ ابن هَمُشْك ويُحاربوهم ويُضيِّقوا عليهم، فامتَثلوا ذلك، فدامت الفتنةُ بينَهم أكثرَ من سنة كاملة، ودارت بينَهم الشّحناءُ على الاستدامة، وألقَى اللهُ بينَهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة، ولم يزَلِ ابنُ هَمُشْك يستغيثُ بالموحِّدين من عدوِّه ويستنصرُ بهم عليه ويَستصرِخُهم إلى غزوِه.

---

(١) المن بالإمامة ٤١٢ فما بعدها ومنه ينقل.

(٢) في ق: «قلوبهم».

(٣) أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة الغرناطي هذا ممن أجاز لأبي محمد عبد الله بن باديس اليحصبي المتوفى سنة ٦٢٢هـ (التكملة لابن الأبار ٣/ ٩٨).

وفي هذه السنة مدةَ إقامة أبي حفص بقُرطُبة: توجَّه ابنُه أبو يحيى واليًا على بَطَلْيَوْس، و[اشتَغل][1] الخليفةُ بحَفْر بئر في داخِل قَصَبتها يسيرُ إليها ماءُ الوادي استعدادًا لِـما يُخاف من المنازَلات، فسار إليها في سنةٍ جُملةٌ موفورةٌ من الموحِّدينَ والأجناد الأندَلسيِّين واستوطَنَها، وآنَسَ أهلَها وسكَّنَها، وجَدَّ في حفر البئر المذكور وجَلَب إليها الماءَ، فتحصَّنت القَصَبةُ وقويت بها النفوسُ آمنة.

وفي مدة إقامتِه فيها: دارت بينَه وبينَ جرانده النَّصرانيِّ حروبٌ صَبَر فيها أبو يحيى واستَبَدَّ بدفاع اللعين، ودام على جهادِه شهورًا إلى أنِ احتال العِلجُ في خُدعة من الحَرْب صَنَعَها وأوقَعَها، واستدعى جُملةً ذميمةً من النّصارى أهل شَنْتَرِين، ووصَل بهم إلى موضع كَمَنَهم فيه، ومشَى هو في جُملتِه المعلومة له، وأغار على جهة بَطَلْيَوْس فركِبَ الحافظُ[2] أبو يحيى وأصحابُه والأجنادُ معَه مُسرعينَ في اتّباعِه، وفَرَّ أمامَهم العِلجُ مُظهرًا الرُّوع، وطلَبَ النّجاةَ في إسراعِه حتى وصَل موضعَ الكمين، فخَرج على المسلمينَ فأَسَروا جماعةً منهم إلى أن فَدى أكثرَهم بماله. وبعدَ هذا انصَرف عن بَطَلْيَوْس[3].

وفي هذه السنة: استدعَى أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ أخوَيْه السيِّدَيْن: أبا إبراهيمَ الواليَ بإشبيلِيَةَ وأبا إسحاقَ الواليَ بقُرطُبة، واستدعَى معَهما الشّيخَ أبا عبد الله بنَ أبي إبراهيم الواليَ بغَرْناطةَ معَ حافظهم وعُمّال البلاد ليصِلوا إلى حضرة مَرّاكُش، فأسرَعوا إلى استدعائه وتحرَّكوا من الأندَلس في جُمادى الأولى من السنة المؤرَّخة، وأقاموا بالحضرة إلى أوّل سنة خمس وستينَ، وانصَرف السيّدانِ المذكورانِ وصُحبتَهما أخوهما أبو عليّ الحَسَنُ واليًا على سَبْتة، وأقام الحافظُ أبو عبد الله بنُ أبي إبراهيم بالحضرة، وبقيت غَرْناطةُ تحتَ حُكمِه حتى جاز صُحبةَ السيّد أبي حفص على ما يأتي[4].

وفي سنة خمس وستينَ وخمس مئة، في أوّل صَفَر منها: وَلَّى أميرُ المؤمنينَ أخاه أبا عليّ الحَسَن بمدينة سَبْتَةَ وأنظارِها وجميع أقطارِها وجبال غُمارة، فتحرَّك إليها من

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) سقطت من ق.

(٣) المن بالإمامة ٤١٧-٤١٩.

(٤) المن بالإمامة ٤١٩-٤٢٠.

الحضرة، وانصَرف السيّدانِ الأجَلّان معَه: أخوه أبو إبراهيمُ إلى إشبيلِيَة، وأبو إسحاقَ إلى قُرطُبَةَ على أوّلِـهما[1].

وفي هذه السنة: خَرج العدوُّ النَّصرانيُّ القمطُ نونُه من طُلَيْطُلَةَ بعسكرِه الذّميم وأغار على رُندَةَ وجبالِـها وفَحْص الجزيرة الخضراء وجبالِـها أيضًا، حتى وصَل البحرَ وقَتل المسلمينَ في تلك الأقطار وأسَرَهم فيها واكتَسح سائمتَهم.

وفيها: حدَثت زلازلُ عظيمةٌ عندَ طلوع الشّمس وعندَ زوالِـها في جُمادى الأولى في بعض بلاد الأندَلس، فكان الرائي يَرى الحيطانَ تضطربُ وتميلُ إلى الأرض ثم ترتفعُ وترجِعُ إلى حالِـها بلُطف الله تعالى، وتهدَّمت من ذلك ديارٌ كثيرة وصَوامعُ مساجدَ بمدينة قُرطُبة وغَرْناطةَ وإشبيلِيَةَ.

وفي هذه السنة في رجَب: زاد ضَعْفُ مدينة بَطَلْيَوْسَ من عَدَم القُوت، فنزَلَ الرومُ عليها وقَطَعوا جميعَ المرافق الداخلة إليها، فنَظَر إليها الموحِّدون الذين كانوا بإشبيلِيَةَ في مبرّة موفورة من الطّعام والآلات والمحَلات لتُحمَلَ إليها، فاجتَمعَ في ذلك نحوُ خمسة آلافِ دابّة موفورة بما ذُكِر، وتقدَّم عليها الحافظُ أبو يحيى زكريا بنُ عليّ بعسكر إشبيلِيَةَ فوصَل بالـمِيرة المذكورة والعسكر إلى مقرُبة من بَطَلْيَوْس فخَرج عليهمُ اللّعينُ جراندُه بأهل شَنْتَرِينَ وغيرِهم فانهزَم المسلمونَ وقُتلوا وأُسِروا وانتُهبت الـمِيرةُ وذهبت [بكُلِّيتِها][2]، وذلك في السادس والعشرين من شعبان، وفي هذا اليوم استُشهِد الحافظُ المذكور. ووصَلَ الخبرُ إلى أبي حفص بقُرطُبة وإلى الموحِّدينَ بإشبيلِيَةَ، فساءهم ذلك وعرَّفوا به الحضرة[3].

وفي هذه السنة: أَلَحَّ ابنُ مُرْدنيش بالفتنة على بلاد ابن هَمُشْك واستكفَى عليه بعسكره الشرقيِّ وحُلفائه النّصارى، فاستغاثَ ابنُ هَمُشْك بالموحِّدين وكثُر صُراخُه وشكا حالَه وأوجالَه، وكتَبَ بذلك الشّيخُ أبو حفص إلى الحضرة مُعينًا لابن هَمُشْك بكتابِه ومصدِّقًا له فيما استغاثَ به من عدوِّه، فاجتمع الرأيُ أن يتقدَّم إليه السيِّدُ أبو

---

(١) المن بالإمامة ٤٢٠-٤٢١.

(٢) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة ٤٢٣.

(٣) المن بالإمامة ٤٢٢-٤٢٣.

حفص من مَرّاكُش بعسكر لغزوِ ابن مُرْدنيش وحُلفائه النّصارى الذين كانوا معَه أهلَكَهم اللهُ تعالى[1].

ذكرُ حركة السيِّد أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن لغزوِ ابن مُرْدنيش وحصارِه حتى فَتْح أكثرِ بلادِه[2]

فخَرج السيّدُ المذكورُ من حضرة مَرّاكُش في أوّل ذي القَعدة من سنة خمس وستينَ وخمس مئة مُسارعًا لنَصْر جزيرة الأندَلس، وصَحِبَه في هذه الغزوة أخوه أبو سعيد وجماعةٌ من أبناءِ أشياخ الجماعة وأهل خمسينَ واختَصَّ من الصِّنف الأندَلسيِّ أبا محمد سِدْراي بنَ وزير وأخاه أبا الحَسَن وأشياخًا فرسانًا من الأجناد الساكنِينَ بمَرّاكُشَ من الأندَلس، انتخَبَهم واستَصْرَخهم لمعرفتهم بالحروب في بلادهم ومُذاكرتهم في مشاورتهم، فنَهَض السيّدُ بعساكره وجيوشِه[3] والسَّعدُ أمامَه يَقدُمُ أعلامَه، حتى أجاز البحرَ ووصَل إشبيلِيَةَ في آخِر عام خمسة وستين، فأراح بها للنظر في الأمور إلى أنْ وصَل الشيخُ أبو حفص من قُرطُبَةَ وصَحِبَه إبراهيمُ ابن هَمُشْك بأصحابِه المتخصِّينَ به، واجتمع خيرَ مجتمَع وأحسَنَ مرأًى ومَسْمَع، وتشاوَروا في الرأي أن يتوجَّه السيّدُ أبو سعيد أولًا إلى مدينة بَطَلْيَوْس.

وفي سنة ستٍّ وستينَ وخمس مئة: توجَّه السيِّد أبو سعيد إلى بَطَلْيَوْس لإحياءِ رَسْمِها بعدَ مَماتِها، وإخراج النّصارى عن جَنَباتِها، بعسكر من الموحِّدين ومن أهل الأندَلس والعرب، فوصَلَها في أيمنِ طالع، وكان من[4] الاتّفاق الحَسَن أنْ وافَقَ وصُولُه خروجَ البيبوجَ بن أذْفُونْش السُّلَيْطِنِ بعسكرِه قاصدًا بَطَلْيَوْسَ ليسترجعَها للمسلمينَ لـمّا رأى عدوَّه ابنَ الرَّنك قد قارَبَ التغلُّب عليها بإلحاح جراندُه على أسوارِها، وصَحَّ خروجُه عندَ[5] السيّد وأنه قد وصَل بعسكره إلى الفَحْص المعروف

---

(١) المن بالإمامة ٤٢٤.

(٢) المن بالإمامة ٤٢٤ فما بعدها.

(٣) سقطت من ق.

(٤) سقط من ق.

(٥) في ق: «عن».

بالزَّلّاقة، على مقرُبة بَطَلْيَوْس، فوَجَّه إليه السيّدَ أبا محمد ابنَ وزير وأبا العلاء ابن غَرُّون وأشياخَ الأجناد العُقلاء الألِبّاء للقائه واستفهامِه عن خروجه، وهل[1] هو[2] باقٍ على الصُّلح المربوط معَه أم لا؟ فوصَلوا إليه فرحَّبَ بهم وقال: إنّما خرجتُ لحماية بَطَلْيَوْسَ وإمساكِها لأميرِ المؤمنين، فشكروه على ذلك وعرَضُوا عليه تجديدَ الصُّلح، فأجاب إلى ذلك حتى كمُلَ الغرَضُ المراد، واتّصل العهدُ والسَّداد، وانصَرف البيبوجُ بعسكره إلى بلاده، وكان تيسيرًا من الله تعالى. وتحرَّك السيّدُ من موضع اجتماعِه بالبيبوجَ وصُلحِه إلى حصن جلمانيةَ[3] فافتتَحه عَنْوةً وهَدَمَه وانصَرف إلى إشبيلِيَةَ في ربيع الأول من السنة المؤرَّخة[4].

ذكرُ تغلُّبِ السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن رحمه الله على بلادِ محمد بن سَعْد بن مُرْدنيش[5]

وفي هذه السنة: تحرَّك السيّدُ أبو حفص من إشبيلِيَةَ إلى ابن مُرْدنيش، وذلك بعدَ انصراف أخيه أبي سعيد من مدينة بَطَلْيَوْسَ، على السير الذي صَنَع اللهُ له، ولـمّا اجتمع السيّدُ أبو حفص معَ أخيه أعادوا نيّتَهما على غَزْو عدوِّهم ابن مُرْدنيش، فتحرَّكوا من إشبيلِيَةَ إلى قُرطُبَةَ، وصَحِبَهم ابنُ هَمُشْك، وذلك في رجَب، فلمّا وصَلوا قُرطُبَةَ أقاموا بها أيامًا ثم رحَلوا عنها، فأوّلُ مدينةٍ نازَلوها: مدينةُ قيجاطه[6]، فافتتَحوها بعدَ قتال ونِزال، ثم أقلعوا منها مُغيرينَ على بسائطِ بلاد ابن مُرْدنيش في طريقِهم مُستصحِبينَ الظَّفَرَ في عدوِّهم حتى وصَلوا مدينةَ مُرْسِيَةَ فنزَلوها وتغلَّبوا على حصن الفَرَج الذي كان مُنتزَهَ ابن مُرْدنيش، واستباحوا الرِّياضاتِ والبساتينَ وما اتّصل بها[7] من البسائطِ

(١) سقطت الواو من ق.
(٢) سقطت من ق.
(٣) له ذكر في المغرب لابن سعيد ١/ ٣٧٨.
(٤) المن بالإمامة ٤٢٥-٤٢٧.
(٥) المن بالإمامة ٤٢٧ فما بعد.
(٦) الروض المعطار ٤٨٨.
(٧) سقطت من ق.

والقُرى، وابنُ هَمُشْك يدُلُّ الموحِّدينَ على عَوَراتِ عدوِّهم وعدوِّه ويُنكيه في رَواحِه وغدوِّه، وظَهَرت الغَلَبةُ على ابن مُرْدنيشَ وعلى عسكرِه بالحصار، وفَشَا الخَوَرُ في أحلافِه الكفّار، وكلُّ من استدعَى من النّصارى أفردوه وأسلموهُ وأخْلَفوا وعدَه، واستقَلُّوا رِفْدَه، فلم يصِلْ إليه منهم إلا نحوُ أربع مئة فارس، فوجَّهَهم إلى مدينة لُورَقَةَ لضبطِ قَصَبتها معَ قائدِه ابن عيسى، فضَبَطَها وحِصنَها، فلمّا طالت هذه النازلةُ ودخَل الخلَلُ في حال ابن مُرْدنيش واعتلَّت نفْسُه بالفِكر والـمَرَض، ورأى الناسُ أنّ حالَه قد حالت وزالت، قامتِ العامّةُ من أهل مدينة لورقةَ بدعوة الموحِّدين، فاحتَصَنَ مَن كان بها من رجال ابن مُرْدنيشَ والنصارى بقَصَبتها ووَثِقوا بمَنَعتِها، فخاطب أهلُ لورقةَ السيّدَ أبا حفص يُعلِمونَه بقيامِهم بدعوة الموحِّدين ويَستصرِخونَه بنصرِه لهم على عدوِّهم، فأقلَعَ السيّدُ عن مُرْسِيَةَ قاصدًا لهم، فاحتَلَّ بمدينة لورقةَ ومَلَكَها واستوطَنَ أرباضَها وبسائطَها، وبقيَت القَصَبةُ بمَن فيها وعليها القائدُ ابن عيسى، فكان من قضاء الله أنْ خَرجت سَرِيّةٌ من محَلّةِ الموحِّدين للغزوِ في بسائطِها، واتّفق لهم أنْ أخَذوا محمدًا ابنَ القائد ابن عيسى واستاقوهُ إلى السيِّد فأمَرَ أن يُحمَلَ إلى أبيه بقُرب من القَصَبة عساه يتَخلَّى عن القَصَبة، فامتَنَع من الإجابة إلى ذلك، وطال الحصارُ على القَصَبة حتى نفِدَ لهم القُوت وتغَلَّبوا على ابن عيسى بالقول والكلام حتى أذعَنَ لهم في رأيِهم، فنزَلَ ابنُ عيسى المذكورُ عن القَصَبة معَ النّصارى وأصحابِه وأخْلَوْها، ودخَلَها الموحِّدونَ، ودُفِع الابنُ إلى أبيه ورَجَعا إلى ابن مُرْدنيشَ بمُرْسِيَة، وانصَرف الرّومُ إلى بلادِهم طالبينَ النّجاةَ بأنفسِهم، وانصَرف أبو حفص والموحِّدونَ بمحَلّتِهم لحصار مُرْسِيَة واستَوْلَوْا على ما جاوَرَها من البلاد.

ولـمّا انصَرف السيّدُ المذكورُ من فتح لورقةَ إلى حصار مُرْسِيَة، طاع له أهل[1] حِصن ألْش[2]، ووصَلوا إليه، ثم وصَل أهلُ الحصون المجاوِرينَ لهم، ثم افتُتِحت مدينةُ بَسْطة، ودخَلت في طاعة الموحِّدين وأمِنَ أهلُها، واتّصل عندَ أهل الشّرق هذا الفتح وهذا الأمانُ والصَّفح، فبادَروا بالطاعة والدخول في حِزب الجماعة. ولم يزَلِ

---

(١) في م: «جهل»، ولا معنى لها.

(٢) Elche وينظر عنه الروض المعطار ٣٠، وفي المن بالإمامة: ألج بالجيم.

ابنُ مُرْدنيشَ في حصارٍ في عُقْر دارِه، ونكَباتٍ تَترادفُ عليه منَ انقلابِ إخوانِه وأصهارِه، وتحوُّلِـهم عن طاعتِه وهو مكمودٌ مفئود، قد أسلَمَه القريبُ والبعيد، وظهَر له من أخيه يوسُفَ التقصير، وتحقَّق منه الانحرافَ والـمَيْلَ للموحِّدين، فزادت كبِدُه ألـمًا، واتّصلت نفسُه سَقَمًا، فلازمَتْه العِلّةُ الـمُزمِنة ومنها كانت مَنِيّتُه.

وقام بالـمَرِيّة محمدُ بن مُرْدنيش المعروفُ بصاحبِ البسيط ابنُ عمِّ صاحبِ مُرْسِيَة وصِهرُه على أختِه بدعوة الموحِّدين، وأعانه على قيامِه محمدُ بن هلال[1] صاحبُه، وتقَبَّضا على الوالي بها من قِبَل صاحبِ مُرْسِيَة، وخاطَبوا بذلك السيّدَ أبا حفص، فوجَّه إليهم عسكرًا من الموحِّدينَ مُعينًا لهم، واتّصل الخبرُ بابن مُرْدنيش بمُرْسِيَة، فأمَرَ بقتل أُختِه وقَتْل بَنيه منها، وأمَر الموكَّل بعذابِ الناس أن يَحمِلَهم إلى البحيرة، وكانت متّصلةً بالبحر، فأدخَلهم في قاربٍ منها ودخَل معَهم فيه وغرَّقهم في البحيرة على أشنع حال وأقبح مقال، واختَلَّ ذهنُ ابن مُرْدنيش في إثْرِ ذلك، وقَلَّ عَوْنُه من الله ومن الناس هنالك، وعاد صُبحُه كاللَّيل الحالك، وفزِعَ من إذايتِه جميعُ قرابتِه، وسائرُ أهلِه وشيعتِه.

وعند اتّصال هذا الفتح والنُّجح واليُمن الشامل، والجهاد المتَواصل، جاز الخليفةُ أبو يعقوبَ إلى جزيرة الأندَلس في السابع والعشرينَ لرمضانَ من سنة ستٍّ وستينَ المؤرَّخة، ووصَل إشبيلِيَةَ في اليوم الثانيَ عشَرَ لشوّال.

اختصارُ الخبر عن حركة أمير المؤمنينَ أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن من حضرة مَرّاكُش وجَوازِه إلى الأندَلس[2]

لـمّا تقدَّم أخوه أبو حَفْص بالعسكر [المؤيَّد][3] إلى الأندَلس، كان هو مريضًا بمَرّاكُش، وكان معَ مرَضِه وضَعْفِه ونيّتِه في الجهاد، والنَّظرِ في مصالح العباد، فاستدعَى العربَ من إفريقيَة، وقدَّم لهذه الغزوة الحافلةِ الصَّدَقات وفعلَ الخَيْرات، ولم يزَلْ ينظُر في

(١) له ذكر في الحلة السيراء ٢/ ٢٦٨.

(٢) المن بالإمامة ٤٣٤ فما بعدها.

(٣) بياض في النسخ، وما أثبتناه من المنّ بالإمامة ٤٣٤.

الغزوة التي وَعَد بها الموحِّدين معَ شدّة مرَضِه وطُولِه، فإنّ مرَضَه كان من أول سنة خمس وستينَ، وا[ستَقلَّ و][1] خَرَج إلى صلاة الجُمُعة في السادسَ عشَرَ لربيع الأوّل من عام ستة وستين، فكانت عِلّتُه أربعةَ عشَرَ شهرًا وخمسةَ عشَرَ يومًا، لكنّه كان يدخُل إليه وزيرُه أبو العُلى إدريسُ بن أبي إسحاقَ بن جامِع يُعلِمُه بالـمُخاطَبات الواصِلة، والأخبار الـمُسلِّيةِ السارّة المتجاملة، وإذا وصَلت مسَرّةٌ [شَرَح له ما اتّصل][2] جَمالُه، وغيرُ ذلك يقعُ منه السكوتُ عليه، حتى وصَلت مخاطبةٌ من السيِّد أبي حفص أخيه في معنى الغَزْو فعرَّفه بها وأمَرَه بالجواب عليها واستدعاءِ العرَب من إفريقيّة، وخاطَبَهم بهذه القصيدة من قول ابن طُفَيل، وهي[3] [من الطويل]:

أقيموا صُدورَ الخيلِ نحوَ المغاربِ ... لغزوِ الأعادي واقتناءِ الرغائبِ

وأذْكوا الـمَذاكي الغادياتِ على العِدى ... وقد عَرَضت للحرب جُردُ السلاهبِ

فلا تُقْتَنَى الآمالُ إلا من القَنَا ... ولا تُكتَبُ العليا بغير الكتائبِ

ولا يَبلُغ الغاياتِ إلا مصمِّمٌ ... على الجدِّ رَكّابٌ ظُهورَ المصاعبِ

يَرى غَمْرةَ الهيجاءِ أعذَبَ مشربٍ ... وإن أعرَضَت زُرقًا جِمامُ المشاربِ

وما الفخْرُ إلا مكسَبًا من حُسامِهِ ... ويُعرِضُ عِزًّا عن جميع المكاسبِ

ألا فابعَثوها همّةً عربيّةً ... تُحَفُّ [بأطراف القَنا][4] والقَواضبِ

أفرسانَ قَيْس مِن هلالِ بنِ عامرٍ ... وما جَمَعتْ من طاعن ومُضاربِ

لكمْ قبّةٌ للمجد شُدُّوا عِمادَها ... بطاعةِ أمر الله من كلِّ جانبِ

دعَوْناكمُ نَبْغي خلاصَ جميعِكمْ ... دعاءَ بريءٍ من جميع الشواغبِ

نريدُ لكمْ ما نبتغي لنفوسِنا ... ونؤْثِرُكمْ زُلْفَى بأعلى المراتبِ

---

(١) بياض في النسخ، وما بين الحاصرتين مستفاد من المنّ بالإمامة ٤٣٤.

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ، وهو مستفاد من المنّ بالإمامة ٤٣٦.

(٣) القصيدة بتمامها في المن بالإمامة ٤٣٧-٤٤١ ومنه ينقل المؤلف دائمًا.

(٤) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

فلا تزهَدوا في نَيْل حظِّكمُ الذي ... لكمْ فيه فوزٌ من جميع المطالبِ
بكمْ نُصِر الإسلامُ بدءًا فنَصْرُهُ ... عليكمْ وهذا عَوْدُه جِدٌّ واجبُ[1]
فقوموا بما قامت أوائلُكمْ بهِ ... ولا تُغفِلوا إحياءَ تلك المناقبِ
ومَن ذا الذي يَسْمو ليبلُغَ شَأْوَكمْ ... إذا كنتمُ فوقَ النُّجوم الثواقبِ
نَصحْناكمُ والنُّصحُ في الدِّين واجبٌ ... بما لكمُ فيه صلاحُ العواقبِ
وأنتُمْ على التخصيص أجدرُ مَن بَنى ... بذُروتِه بيتًا رفيعَ الذوائبِ
فإنّكمُ قيسٌ وفرسانُ ربِّنا ... على الأرض من قَيْسٍ بغيرِ مُغالِبِ
خُذوا حِذرَكمْ فالأمرُ جَدٌّ وإنّما ... يكونُ بقَدْر الجَدِّ قدرُ المناصبِ
وقد فاز بالتقديم منكمْ معاشرٌ ... بما قدَّموه من جميع المذاهبِ
تحُثُّ بهمْ نحوَ البِدار إلى العِدى ... عِتَاقُ جوادٍ[2] أو عِتاقُ نجائبِ
فصاروا إلى الداعي سراعًا كأنّهمْ ... قداحٌ [تَلقَّى الفوزَ من][3] رَمْي ضاربِ
فخُصُّوا من التكريم والبِرِّ بالذي ... يكونُ جديرًا بالوليِّ المُصاقبِ
فنالوا محَلَّ السَّبْقِ فانفسَحت [لهمْ ... رياضُ][4] الأماني سائحاتِ المراتبِ
وقد شاهدوا من حُرمة الأمر ما قضَى ... لهمْ بأمانٍ من جميع النوائبِ
وقد كان من أقوالِكمْ ما علِمتُمُ ... فإن كان [فعلٌ][5] فالرجا غيرُ خائبِ
وليس خطيبُ الصِّدق من قال فالهدى ... ولكنّ فعلَ الحرِّ أصدقُ خاطبِ
وما خُلُقُ الأعرابِ إخلافُ موعدٍ ... ولكنّ صِدقَ الوعدِ خُلْقُ الأعاربِ

(١) في هذا البيت إقواء.
(٢) هكذا في النسخ، وفي المنّ بالإمامة: «جياد»، وهو أجود.
(٣) بياض في النسخ مستدرك من المنّ بالإمامة.
(٤) بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.
(٥) بياض في النسخ مستفاد من المنّ بالإمامة.

سيعلَمُ مَن أوفَى ومَن خانَ عهدُهُ ... ومن كان مِن آتٍ إلينا وذاهبِ
وتظهَرُ أحوالٌ يَروقُ سَماعُها ... فيرغَبُ في أمثالِها كلُّ راغبِ

وأنّ العربَ تأخَّروا قليلًا، فخاطَبَهم بقصيدة من قول ابن عيّاش يستعجِلُهم، وهي[1] [من الطويل]:

أقيموا إلى العلياءِ عُوجَ الرّواحلِ ... وقودوا إلى الهيجاءِ جُرَد الصّواعلِ[2]
وقوموا لنصرِ الدين قَيْمةَ ثائرٍ ... وشُدّوا على الأعداءِ شدّةَ صائلِ
وأسْروا بني قيسٍ إلى نَيْل غايةٍ ... من المجدِ تُجنَى عند بَرْدِ الأصائلِ
تعالَوْا فقد شُدّت إلى الغزوِ نيّةٌ ... عواقبُها مقصورةٌ بالأوائلِ
هي الغزوةُ الغَرّاءُ والموعدُ الذي ... تنَجَّز في أُفْق الهُدى بدلائلِ
فطيروا إليها يا هلالَ بنَ عامرٍ ... ثِقالًا خِفافًا بينَ خافٍ وناعلِ
ولا تُخدَعوا من حظِّكمْ بإجابةٍ ... تُبوِّئُكمْ في المجدِ أسنَى المنازلِ
فما همُّنا إلا صلاحُ جميعِكمْ ... وتسريحُكم في ظلِّ أخضرَ هاطلِ
وتسويغُكمْ نُعمى ترِفُّ ظِلالُها ... عليكمْ بخيرٍ عاجلٍ غيرِ آجلِ
فلا تتوانَوْا فالبِدارُ غنيمةٌ ... وللمُدلج الساريِّ صفاءُ المناهلِ

ولـمّا[3] وصَلت إلى العربِ هاتان القصيدتانِ وأوضَحوا قراءتَها وتبيَّنت لهم معانيها وفصاحتُها وما فيها من التحريض على جهادِ الكفّار، أجابوا إلى الطاعة بأجمل البِدار، ووصَلوا بجَمْعِهم إلى السيِّد الأسنى أبي زكريّا يحيى بن عبد المؤمن ببِجَاية فتحرَّك معَهم إلى مَرّاكُش، ووصَل أيضًا العُمّالُ والأُمناء: أبو محمد عبدُ الواحد[4]

---

(١) القصيدة في المن بالإمامة ٤٤١-٤٤٣، وهي في المعجب ٢٩٤-٢٩٥ منسوبة إلى الخليفة نفسه.

(٢) هكذا في النسخ، والجرد الصواعل: السيوف المنجردة الطويلة، ووقعت الكلمة في المعجب والمنّ بالإمامة: «الصواهل»، وما هنا أحسن.

(٣) ينقل المؤلف من المن بالإمامة ٤٤٣ فما بعدها.

(٤) في المن بالإمامة: «عبد الوهاب».

صاحبُ تونُس وأنظارِها، وأبو زكريّا يحيى الـهَنْتاتيّانِ، ومعَهما النُّعمانُ وغيرُه، بهؤلاءِ العرب والخيل والأموال، ولـمّا وصَلوا تِلِمْسانَ صَحِبَهم السيّدُ أبو عمرانَ موسى ابنُ الخليفة أيضًا بما عندَه من العساكر والأموالِ والعُمّال، وكان عددَ الخيل الواصلةِ من إفريقيّة أربعةُ آلاف فرس ومئة وخمسون حِمْلًا من المال الصامت، وكان الذي وصَل من تِلِمْسانَ ونظَرِها ألفُ فرس وخمسونَ حِملًا من المال الصامت. وبَلَغ الخبرُ السارُّ بوصُول السيّدين والعرب، وكان [أميرُ المؤمنين][1] أبو يعقوبَ قدِ استقَلَّ فتمكّن سرورُه واستقلالُه، وخَرج إلى المسجد الجامع يومَ الجُمُعة الثامنَ عشَرَ لربيع الآخِر، وخَطَب أبو محمد المالَقيُّ الخُطبةَ المعلومةَ فاستبشَرَ الناسُ وشَكَروا اللهَ على [شفائه][2]، وبعدَ ذلك بيومَيْن دخَل عليه أشياخُ الموحِّدين وطلَبةُ الحضَر وسَلَّموا عليه ودَعَوا له وهَنَّوه على عافيتِه، وخَطَب الفقيهُ القاضي أبو يوسُف حَجّاجُ بن يوسُف[3] خُطبةً بليغةً في معنى الشُّكر لله والدّعاءِ [بالنصرِ والتأييد لأمير المؤمنينَ][4]، وتلاه الفقيهُ أبو محمد المالَقيُّ بمثلِ ذلك، ثم أمَرَ بعدَ ذلك بالصَّدقة والحَنان، والإنعام والإحسان، وأمَرَ رحمه اللهُ لكلِّ واحد من الخُدّام بما أمَّله من الإنعام، فجزاه اللهُ من خليفة خيرًا.

ونفَذَ الأمرُ بلقاءِ السيّدَيْن والعربِ الوافدينَ من إفريقيّة بالتبريزِ الكامل ضَحْوةَ يوم السبت الثاني لشهر ربيع الآخِر من السنة، فخَرج أميرُ المؤمنينَ للقائهم وخَرجت معَه الجيوشُ والعساكر في زينتهم، وفي ساقته على قُربٍ أخوه أبو عبد الله المخلوعُ، وإلى جانب أبي عبد الله المذكور سائرُ الإخوة الصِّغار، وأمامَ العسكريّة ستةَ عشَرَ عَلَمًا كبارٌ من البنود الـمُذَهَّبة. فلمّا وصَل الفَحْصَ العريضَ فوقَ باب الشريعة والطُّبولُ قاصفة والجيوشُ متكاثفة أمَرَ بضربِ قُبّة ونزَلَ بها معَ إخوتِه وبَنيه، ونزَلت العساكرُ الواصلةُ من العرب معَ أهل إفريقيّة والسيِّدينِ المذكورين أشار إليهم أن تَحمِلَ العساكرُ الوافدة والبارزةُ بعضُها على بعض جَرْيًا ولَعِبًا وفَرَحًا وطَرَبًا، ورأى النَّظّارةُ فيهم عجَبًا،

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) ترجمته في التكملة الأبارية (٧٦٢)، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٥٠٩.

(٤) بياض في النسخ.

وأَمَرَ الوافِدينَ بالنزول والسلام، وتقدَّم الأخَوانِ السيِّدان أبو زكريّا وأبو عِمرانَ ثم أشياخُ الموحِّدين ثم أشياخُ العرب، ثم أمَرَهم بالانصرافِ إلى المدينة والعربَ إلى مضرِب محَلّتِهم.

ولـمّا كان اليومُ الثاني من البروزِ المذكور بايَعَه أشياخُ العرب وعامتُهم، وأخذ العهودَ عليهم، وخَرج أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ إلى البُحيرة [لمعنى إطعامِهم][1] والترحيب بإلمامِهم بعدَ صَلاة يوم الجُمُعة الثاني والعشرينَ من ربيع الآخِر من السنة، فأطعَمَ العربَ وغيرَهم مدّةَ خمسةَ عشَرَ يومًا يدخُل كلَّ يوم في البُحيرة أكثرُ من ثلاثة آلاف رجُل وقد صَنَع ما تقدَّمت به العادة، وهو نَهرٌ من رُبٍّ ممزوج بالماء، كلّما أكَلَتْ طائفةٌ سلَّمت على الخليفة ونَهَضت إلى ساقية الرُّبِّ تشربُ وتَطرب، ورأى الناسُ في هذا الإطعام ما لم يُرَ قطُّ من الإكرام والاهتمام.

ولـمّا كان في آخِر الأيام المذكورة حدَثَ بينَ صِبْيان الموحِّدين وبينَ أتباع العربِ الوافدين نزاعٌ ودفاع بهَوْشة وقَعَت بين الفريقين أدَّت إلى اختطافِ ثيابِ الناس في الطريق من كلِّ فريق، فمات فيها بعضُ العبيد، فعُتِبَ العربُ بسببِ جُرأتِهم على سُوء الأدب، ثم إنّهم تَطارَحوا على العفو من قبيح ما جَنَوْا أتباعُهم وعَبيدُهم وأشياعُهم واعتَذروا من فعل مَن لا خَلاقَ له، فقُبِلَ منهم عُذرُهم وأُمِرَ بجَرْي إطعامِهم والتمادي على إكرامِهم مدةَ أيام، ثم أُمِرَ بتمييزِهم وتمييز الموحِّدينَ وغيرِهم.

ولـمّا كان يومُ الأحد الثامنُ من جُمادى الأولى أمَرَ بتمييز العرَبِ الوافِدين ومَن وصَل معَهم وأن يَحضُروا بين يدَيْه في رَحْبة قصره بدار الحَجَر بداخل حضرتِه، وأُمِروا أن يدخُلوا كلَّ يوم بعدد معلوم من القَبيل المأمور به، وكان الذي ابتَدأ أولَ يوم قَبيلةُ زغبةَ، فتمادى التمييزُ خمسةَ عشَرَ يومًا، ولـمّا كان غُرَةُ جُمادى الآخِرة مُيِّز الموحِّدون على عدد قبائلِهم وتسمية منازلِـهم وتَمادى تمييزُهم خمسةَ عشَرَ يومًا أيضًا، ثم أَمَر بإخراج البركة للعرَب الوافدين ولجميع عساكرِه الموحِّدين.

وكان خروجُه من مَرّاكُش يومَ السّبت الرابع من شهرِ رجَب الفَرْد من سنة ستٍّ وستينَ على باب دَكّالةَ في أحسن هيئة وتعبئة وقد قُدِّم أمامَه مصحفُ عثمانَ بن

---

(١) بياض في النسخ.

عفان رضيَ اللهُ عنه على جَمَل [مرتفع][1] عليه قُبّةٌ حمراء لتَصُونَه وهو منظَّمٌ بالجوهر والياقوتِ الأحمرِ والأصفر، فسار على أحسن هيئة وتعبئة والعساكرُ وراءه قد مَلأوا الأرض بالطّول والعرض، حتى وصَل رِباطَ الفتح فميَّز بها العساكرَ والجيوش، فاجتمع في عسكر الموحِّدينَ عشَرةُ آلاف فارس، وفي عسكر العرَب عشَرةُ آلاف فارس دون الـمُطَّوِّعةِ والناس، وكان أكثرُ الجيش معَ السيِّد الوزير أبي حفص بالأندَلس محاصِرًا ابنَ مُرْدنيش.

واتّصل سيرُ أمير المؤمنينَ حتى وصَل قصرَ مَصْمودة، وابتَدأت العساكرُ بالإجازة في أول شهر رمضان، وأجاز البحرَ هُو معَ خاصّتِه في السابع والعشرينَ منه، فتلقّاه أشياخُ إشبيلِيَةَ وأهلُ الأندَلس بجزيرة طَرِيف.

ثم تحرَّك إلى إشبيلِيَةَ فوصَلَها يومَ الجُمُعة الثانيَ عشَرَ من شوّال بالتبريز الحَفيل، وخَرج الناسُ إليه من الإسراع بما دَلَّ على حُسن طاعتِهم أدلَّ دليل، فأقام بها عشَرةَ أيام، ثم رحَل إلى قُرطُبَةَ فوَصَلَها في غُرّة ذي القَعدة ووَجَّه عسكرًا منها إلى طُلَيْطُلَةَ، وقَدَّم عليه ابنُ يفراجين[2] وأشياخًا من الموحِّدين، وانصَرف إلى قُرطُبة فعيَّد بها عيدَ الأضحى، فخَرج يومَ العيد على عادتِه إلى الصلاة وصَلّى به الخطيبُ أبو محمد المالَقيّ، وانصَرف إلى دار الإمارة، وجلس في اليوم الثاني في مجلس قَصْره للسلام عليه والتهنئة إليه، وأدخَلَ الوزيرُ أبو العُلى ابنُ جامع مَن تقدَّمت عادتُه بالدّخول من أشياخ الموحِّدين الكُبَراء وطَلَبَة الحَضَر والقُضاة والفقهاء والوُلاة[3] والأولياء، ودخَل معهم الشعراء والأُدباء بما صاغوه من أشعارهم في المديح والتهنئة، فقام أبو محمد عبد الله بن محمد الشِّلْبيُّ فأنشَد[4] [من الكامل]:

شرَفُ الخلافــة أنْ مَلَكْــتَ زِمامَهــا	وغدَوْتَ مــن عَقِــب الإمـام أمامَهـا
طَبَــعَ الإلــهُ لهــا حــسامًا صــارمًا	يَــحمي جوانبَهــا فكنــتَ حــسامَها

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) هكذا في النسخ، بالياء آخر الحروف في أوله، وفي المن بالإمامة ٤٨٤: «تفريجين»، وهو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن تفريجين.

(٣) لم يبقَ من هذه اللفظة إلا الألف واللام والواو من أولها والتاء المربوطة من آخرها.

(٤) القصيدة في المن بالإمامة ٤٩١-٤٩٦، وما ذكره المؤلف هو قسم منها.

ورأت عُـــداةُ الله أنّ حِمَامَهـــا | مـن قَيْس عَـيْلانٍ فكنـتَ حِـمامَها
فعلى رماحِـك أن تـشقَّ صـدورَها | وعـلى سـيوفك أن تفلّـق هامَهـا
وعـلى جيوشـك أن تـدوِّخ أرضَـها | وتـدوسَ في عَرَصـاتها[1] أصـنامَها
وعـلى الخلافـة أن تلـوذَ بـسيّدٍ | يُجري على سُبل الهـدى أحكامَهـا[2]
قِسْطاس عَـدْل لا يميـلُ فـإنْ رأى | مَيَـلَ الـشريعة أمَّهـا فأقامهـا
يَطفي الحـروبَ إذا تـوهَّج جـمرُها | ولـربّما خَـمَدت فـشَبَّ ضِرامَهـا
وإذا أسـودُ الحـرب هـاج غرامُهـا | عـانَى بحـدِّ المَـشْرَفيِّ غرامَهـا
مـا البـأسُ إلا مـا تـضمَّن سـيفُهُ | لا مـا تـضمَّن بعـضُها صمـصامَها
مـا الـسعدُ إلّا مـا تنـالُ وفـودُهُ | وذَوو السّعودَ فقد غَدَت طُوّامَهـا[3]
فاهنَـأْ أمـيرَ المـؤمنين بـدعوةٍ | عَقَـدَ الإلـهُ ذمـامَكمْ وذمامَهـا
وتكفَّـل الـرحمنُ نـصرةَ مُلكِكـمْ | [وأمـدَّ مـدةَ][4] عُمْـرِكم وأدامَهـا

وأقام الخليفةُ أبو يعقوبَ [بقُرطُبَةَ إلى آخر ذي الحجة من السنة][5]، وانصَرف إلى إشبيلِيَةَ.

ولـمّا دخَل إشبيلِيَةَ على الهيئة المعلومة [من السّرور والتبريز الذي][6] لم يَرَ الناسُ مثلَه بالأندَلس في الحديث والقديم، امتدحه الشعراءُ بما جَزَل لهم العطاء، فمنهم: أبو العباس بن سيد، والجُراويُّ، وغيرُهما، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة طويلة يمدحه فيها ويذكر ابنَ مُرْدنيش [من الوافر]:

حلَلْـتَ مـن العُـلى أسـمى ذُراهـا | وجارَيْـتَ النجـومَ إلى مَـداها

(١) في ك: «عرصات» محرّفة.
(٢) سقط هذا البيت برمته من ق.
(٣) في المنّ بالإمامة: «خُدّامَها» وما أثبتناه من النسخ وهو الأجود، والطومة: المنيّة.
(٤) بياض في النسخ.
(٥) بياض في النسخ.
(٦) بياض في النسخ.

ووالَيْـتَ الـسَّماحَ فقـد تَناهـتْ أمــانٍ للعُفــاة ومــا تناهـــا
وجــودُك نعمـــةٌ لله عمَّـــت وجـودُك نعمـةٌ أُخـرى سـواها
أرى ذاك الزمـــانَ وشـــاء ألّا تُقــارَنَ في الأمــور ولا تُــضاهى
وصَـلتَ وصَـلت فـالأمواهُ تجـري وغُلـبُ الأُسْـد تُـحذَرُ في شَراهـا
وعُـذرُ الـشمس لـو حـسَدتْك بـادٍ لأنّ سـناك أشـهرُ مـن سـناها
تَنــالُ المــارقينَ بكـلِّ أرضٍ ولا طـارت ولا نقَلـت خُطاهـا
لقد أخْـزى الزّمـانُ عـلى النّصارى بـوطءِ مؤيَّـد صَـدَعت صَـفاها
وأنـصَفَ بعـضَها الإسـلامُ منهـا وأدرك في العقوبـــة منتهاهـــا
خطـوبٌ أذهَلَـت عـلى ابـن سـعدٍ وذادت عــن لواحظِــه كَراهـا
وقـد كانـت تُـشَدُّ بهـا قِـواهُ فـما لغَبَـت قِـواهُ ولا قِواهـا
يـردِّدُ آهَ مـن أسـفٍ وحُـزنٍ ومـا تُنجـي مـن الغَمَـراتِ آهـا
وهـل يبقـى وقـد فَغَـرت إليـه منيَّتُــه المريحــةُ منــهُ فاهـا
لقـد وَلّى عـن الخـير اختيـارًا ووالَى الـلّاتِ والعُـزّى سَـفاها
وآثَـرَ معـشرًا ضَـلّوا سـبيلًا فـما عرَفـوا النبـيَّ ولا الإلـها

وقال أيضًا من قصيدة أولها [من الكامل]:

ضرَبَـت عليـك لواءَهـا العليـاءُ وتحـيَّرت في وَصْـفِك الـشعراءُ[1]
وقضَى الـذي أعطـاك سـعدًا مقبِلًا ألّا يفـارقَ حاسـديك شـقاءُ
ما شكّ ذو النظر الصّحيح ولا امترى أنّ الـورى أرضٌ وأنـت سـماءُ
الأمـرُ أمـرُ الله لـيس يـضُرُّهُ مـا حاوَلَـت مـن كيْـدِه الأعـداءُ
والحـقُّ أبلـجُ والـمُعاندُ عينُـهُ عميـاءُ عنـه وأذْنُـه صـمّاءُ

---

(١) سقط هذا البيت من ك.

لـو كانـت الجـوزاءُ مـن أعدائـهِ	لم تَـنْجُ عـن غاراتِـه الجـوزاءُ
سـاءِلْ إذا ركَـدَ الـدُّجى وتحـيَّرتْ	زُهـرَ النّجـوم ونامـت الرُّقَبـاءُ
يَـهدي ويَـهدي مـنعمًا ومعلِّـمًا	لا زال منـه الـهَدْيُ والإهـداءُ
أوفَى بـما تـرَكَ النبـيُّ محمـدٌ	والقـائمُ الـمَهْديُّ والخلفـاءُ
وجَلَى الحقـائقَ للـورى	.... (1) الأمـواتُ والأحيـاءُ
أولـيَّ عهـدِ المـؤمنينَ ومَـن بـهِ	كمُـل الـسرورُ وتـمَّت الـنَّعماءُ
العيـدُ أولى أن أُهنِّيـه بكـمْ	فعليـه مـنكمْ بهجـةٌ وبهـاءُ
أنـتمْ سَـنَا الـدّنيا فلـولا أنـتمُ	مـا فارقَـت آفاقَهـا الظلـماءُ

وعندَما احتَلّ أميرُ المؤمنين بإشبيلِيَةَ عزَلَ ابنَ المعلِّم عاملَها وأمَرَ بمحاسبتِه والوقوف على عمله، وقدَّم على عملها ابنَ جلداسن.

وفي سنة سبع وستينَ وخمس مئة: وصَل السيّدُ أبو حفص من غَزاته المذكورة إلى إشبيلِيَةَ منصورًا على أعدائه، واجتمع بالخليفة بها على سرور كامل وظهور حافل وبروز لم يُعهَدْ في الأزمان الأوائل، وذلك في شهر محرَّم من هذه السنة[2].

وفي هذه السنة: كمُلت القَنْطرةُ بإشبيلِيَةَ، فظَهر له فيها من الأَجْر الجزيل والأثَر الجميل ما لم يتقدَّم مثلُه قبلَه لأميرٍ من الأُمراءِ الخلائف ولا لـمَلِكٍ من أهل الطوائف[3].

وفي هذه السنة: أَمَرَ ببناءِ قصورِه المعروفة بالبُحيرة خارجَ باب جَهْور من إشبيلِيَةَ، وكان قد وصَل معَ السيِّد أبي حفص أعيانٌ وفُرسان راغبينَ في التوبة والبيعة، فالتزَموها على أتمِّ حقوقها، وأمَرَ لهم بظهائرَ بتحرير أموالِـهم وتقرير آمالِـهم، فتسامَعَ أهلُ الشّرق بما فَعَل معَهم فجاءوا عندَ ذلك أفواجًا، أفرادًا وأزواجًا، حتّى انفَرد صاحبُهم ابنُ سَعْد، وتَمادى به فكرُه إلى القبرِ واللَّحد[4].

---

(1) بياض في النسخ.

(2) المن بالإمامة ٤٩٦.

(3) المن بالإمامة ٤٩٦.

(4) المن بالإمامة ٤٩٨ فما بعدها.

ذكرُ العِلّة التي لازَمَت ابنَ مُرْدنيش إلى أن توفِّي[1]

لـمّا طال الحصارُ على محمد بن سَعْد بن مُرْدنيش وقَلّ من أصحابِه عونُه، اختَلّ ذهنُه، وأوقَعَ بوزيرَيْه ابني الجَذع وفَيّاهما وبَناهُما في حائط بموضع يَراهما حتى ماتا جوعًا، وكذلك فَعَل بابن صاحب الصلاة الغَرْناطيِّ: عذَّبه وجعَلَه في بُرج دون طعام ولا ماء حتى أكَلَ ثيابَه التي كانت عليه، فلأجل ذلك أفردَه أخوه وأصهارُه ومَن ظَنَّ أنهم أنصارُه. وكان أخوه أبو الحَجّاج بادر إلى الطاعة والدّخول في حزب الجماعة، فلمّا تحقَّق محمدٌ طاعةَ أخيه زاد عليه الذّبول، وفسَد عقلُه بالذّهول، فاشتدّت عِلّتُه وحضَرت منيّتُه، فتوفِّي في رجَب من السنة، فانقرَضَت أيّامُه وبادَرَ إلى الطاعة قُوّادُه، وخاطَبَ ابنُه هلالٌ مُبادرًا بالطاعة والدّخول معَ الجماعة، فقُبِل أحسَنَ قَبول وأخَذ في الحركة والوصول، ونهَضَ أبو حفص إلى مُرْسِيَة لثقافِها وتأنيسِ أهلِها عندَ طاعة هلال بن مُرْدنيش صاحبِها.

ذكرُ طاعة هلال بن مُرْدنيشَ بعدَ موت أبيه ووصولِه إلى حضرة الخليفة أبي يعقوبَ بإشبيلِيَة[2]

وذلك أنه لـمّا ماتَ محمدُ بن سَعْد بن مُرْدنيش بادَرَ ابنُه هلالٌ بالوصول إلى الخليفة بعدَ استقرار أبي حفص بمُرْسِيَة، وكان وصُوله بجميع إخوته وأصحاب أبيه من قُوّادِه وكُبَراء أجنادِه عَقِبَ شعبان من السنة، فخَرج إليه السيّد أبو زكريّا وأخوه أبو إبراهيمَ أخوا الخليفة معَ جماعة من الموحِّدين، ودخَل في صُحبتِهم إلى مجلس الخليفة قُر[بَ صلاة المغرب][3] من يوم وصُوله، فطَلَع في الحين هلالُ رمضان فسَلَّم على الخليفة وبايَعَه فقال [أبو موسى عيسى بن عِمران][4]: يا سيّدَنا، طلَعَ علينا في هذه الليلة هلالان: هلالُ شهر رمضان وهلالٌ هذا، فتبسَّم لذلك الخليفة، وانصَرف هلالٌ معَ أصحابِه فأُنزِل في قصر ابن عَبّاد وأُنزِل أصحابُه في الدار المتّصلة [به][5]

---

(١) المن بالإمامة ٥٠٥ فما بعدها.

(٢) المن بالإمامة ٥٠٧ فما بعدها.

(٣) بياض في النسخ.

(٤) بياض في النسخ.

(٥) بياض في النسخ.

وقد أعدت لهمُ الفُرُش والمطاعم والمشارب، وأُفهِموا أنهم الأقاربُ والأصاحب، ورحَّبت بهم المملكةُ والدّولة.

وفي هذه السنة: أمَرَ أبو يعقوبَ الخليفةُ بابتداءِ بناء الجامع بإشبيلِيَة، وكان يتطلَّعُ على بنائه بنفسِه، فكانت مدةُ بنائه ثلاثةَ أعوام آخرُها عامَ واحد وسبعين، وأمّا بناءُ صَوْمعةِ الجامع، فلا صَوْمعةَ تعدِلُها في مساجد الأندَلس تَظهرَ للعين على مرحلة من إشبيلِيَة، أمَرَ ببنائها هذا الخليفةُ في عام ثمانين، وكان تمامُها على يدِ ابنِه المنصور على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى[1].

ذكرُ غزوة الخليفة أبي يعقوبَ إلى مدينة وبذة[2] وهي الأُولى من غَزَواته وما كان فيها من الأحداث

كان خروجُه من إشبيلِيَةَ في الحاديَ عشَرَ من شوّال من سنة سبع وستينَ، ووصَل إلى وبدة ونازَلَها يومَ الثلاثاء السابعَ عشَرَ من ذي القَعدة، فكانت له فيها حربٌ يطول ذكرُها بعدَ ما فتَح في طريقِه المعقِلَ الأشهَبَ حِصنَ بَلج القُشَيريِّ وحصن «ألْكَرَس».

ولـمّا كان يومُ الأحد الثاني والعشرين من الشهر المذكور هبَّت ريحٌ عاصف مزَّقت أكثرَ الأخْبِية، وكان تقدَّم أيضًا ريح أكثرَ من هذا ومزَّقت أكثر من هذا، ثم جادت بمَطر وابِل، وكان زمنُ الحَرّ، فكان للروم في ذلك سَقْيٌ وإملاء، شربوا منهُ ومواشيهم.

ولـمّا كان يومُ الاثنين عَزَم الأمير أبو يعقوبَ على قتالهم في سُورِهم، وأن يجتهدَ الناسُ في ذلك بنهاية مقدورِهم، فركِبَ وركبت العساكر كالبحر الزاخِر لا أولَ لها ولا آخِر، فجاء المطرُ الوابِل وجادت السماء بهتّانٍ هاطل، ففَزِع الناسُ وتعجَّبوا ورَغِبوا في التوبة إلى الله تعالى وانقَلبوا وعَجَزوا عن القتال على كثرة العَدَدِ والعُدّة، والعَزْم على شدّة الصبر والجَلَد، وانصَرف الأميرُ والناسُ أجمَع، فقام فيهم الشيخُ أبو محمد ابن عُمر خطيبًا باللّسان العرَبيّ تارَةً وباللّسانِ البربَريِّ أخرى يُعرِّفهم بما أوجَب الله عليهم من

---

(١) المن بالإمامة ٥٠٩ فما بعدها.

(٢) هو Huete حصن قديم في مقاطعة كونكة، ينظر الحلل السندسية ١/ ٤٠٤.

الجهاد ويقول لهم: قد كنتُم بمَرّاكُش تقولون: لو كنّا غزَوْنا لجَاهدنا واجتهدنا، فلمّا حضَرتم قَصَّرتم وجَبُنْتم وخُنْتُم اللهَ عزَّ وجل وما نصحتهم، فبَكى الناسُ عند ذلك وتابوا.

فلمّا أصبح الصّباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القَعدة تكلَّم بعضُ الناس بالرّحيل، وضُرِب الطّبْلُ الكبير إشعارًا للناس بذلك، فكأنّ القيامةَ قد قامت، فمِن رجُل حائر لا يدري ما يصنَع وآخَرَ حازم قد أُخِذ بما يَسمَع. وعندما عايَنَ النّصارى أهلكَهم اللهُ حركةَ الناس وإقلاعَهم عنهم خَرجوا في الحين بخيلهم ورَجْلهم ووصَلوا إلى الوادي الذي كانوا قد مُنِعوا الشّربَ منه من يوم حصارهم، واشتَغلوا معَ الناس بالقتال واشتَعلت في البيوت والدّروب النِّيران، وصار الناسُ في حرب وانزعاج إلى الرّحيل، [ولا أخَ يسأل][1] عن أخيه من حال الذّهول. ووصَل الرومُ إلى السّوق فوجَدوا فيه الضُّعفاءَ والمَرْضى، [والتحَم القتالُ بينَ النّصارى][2] والمسلمين، وأمَرَ الأميرُ بجميع العساكر بالوقوف حتى تُرفَعَ الأخْبِية فرُفعت وتقدَّمت، [وبقيت قُبّتُه واقفةً على حالها][3] حتى رُفِع جميعُ الناس، ثم أمَرَ بضَرْب الطّبل والحركة والناسُ على ترتيبهم والنّصارى يقرُبونَ ثم يَهرُبون إلى حين نزول المحَلّة، ثم تمادى مَشْيُ العسكر بعدَ ذلك حتى وصَل إلى مُرْسِيَة فدخَلها يومَ الخميس من ذي الحجة من السنة[4].

وفي سنة ثمانٍ وستينَ وخمس مئة في أوّل يوم منه: رغِبَ أكثرُ الموحِّدين والعساكر في السَّراح إلى بلادهم وأوطانهم عندَ ضِيقة مُرْسِيَةَ بهم وغلاءِ السّعر فيها بسببِهم، فأذِن لهم في ذلك، وارتَحل أكثرُهم، وأقام أشياخُهم وكبراؤُهُم، ودامت الإقامةُ بمُرْسِيَة حتى أهَلّ شهر صَفَر وخَرجت البركةُ إلى الموحِّدين والمرتزِقين، وأحضَر الخليفةُ هلالَ بن مُرْدنيش وإخوتَه وعمَّه، وآنَسهم وأولاهُم كلَّ مُستحسَن سَهْل، ووعَدَهم من بِشره وسَيْره ما لم يبلُغْه معَ المأمون الحَسنُ بن سَهْل، وأشار إليهم أنهم سيكونونَ من جُملة أهله، وأمَرَهم بالارتحال معَه إلى حضرته، فأخَذوا في النّظَر

---

(١) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٥٤١.

(٢) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٥٤١.

(٣) بياض في النسخ، وما أثبتناه بين الحاصرتين من المنّ بالإمامة ٥٤١.

(٤) المن بالإمامة ٥٢٣ فما بعدها.

لذلك والعَزْم إلى هنالك، وأمَّرَ العمَّ أبا الحَجّاج يوسُفَ بن مُرْدنيش ببَلَنْسِيَة وأنظارِها، وعندَ ذلك أخَذ في الانصراف.

وفي أوّل ربيع الأوّل تحرَّكَ منها وأجاز على غَرْناطة وترَكَ فيها أخاه أبا سعيد، ووصَل إشبيلِيَةَ في الثانيَ عشَرَ لربيع الأوّل، ووصَل معَه أبو حفص وجُملةُ الموحِّدين ووجوهُ دولتِه وسائر إخوتِه، فخَرج أهلُ إشبيلِيَة إلى لقائه ومعَهم شيخُهم أبو بكر ابنُ الجَدّ، ودخَل إشبيلِيَة أوفرَ دخول، وعندَ وصُوله أمَرَ ببناءِ الجامع المذكور، وببناءِ البُحيرة والقصور[1].

وفي هذه السنة المؤرَّخة: وصَل وَفْدُ أهل القَيْرون وفقهاءُ تونُسَ وإفريقيّةَ إلى مدينة إشبيلِيَة، فرحَّب بهم أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ وأنزَلَهم وأكرَمَهم حتّى انصَرفوا[2].

وفي شعبانَ من هذه السنة[3]: خَرج من مدينة آبلة القُومِسُ المسنُّ الضالُّ المعروفُ بالأحدب، مديرُ الحرب في الفتنة على المسلمينَ بالأندلس، فكم من فَتْكة له في الإسلام في شنِّ الغارات شرقًا وغربًا بجموع الكَفَرة إخوتِه يصِلُ بهم إلى طَرِيفَ والخضراء، ويَسقي المسلمينَ كأسًا مُرًّا، إلى أن أَذِن الله بهلاكِه وفناء شِرذِمتِه أهل آبلةَ في هذا التاريخ. فخَرج من آبلةَ يريدُ نظَرَ إشبيلِيَة على ما عَهِد في زمانه وحالة طُغْيانه، ووصَل بجَمْعه إلى الوادي الكبير وجازَه على جهة إستجَةَ مارًّا بها على تلك الجهات كلِّها، فغَنِم فيها نحوَ خمسينَ ألفَ رأس من الغنم، ومن البقر نحوَ ألفَيْ رأس، وأسَرَ خلقًا من المسلمين، وأجاز غنائمَه وأَسْراهُ مكتوفينَ مُستغيثين. وكان الأميرُ أبو يعقوبَ قد تقدَّم عندَه خبرُ هذا الطاغية وخروجِه، فأمَرَ عساكرَه بالتأهُّب إليه، فلمّا كان ما ذكرتُه عنه خَرج إليه العسكر من إشبيلِيَة معَ السيّدَيْنِ الأخوَيْن: أبي زكريّا وأبي سعيد، فجَدّوا في اتّباعِه مُسرعين، وصَفَت نفوسُ المسلمين، فلمّا كان صَبيحةُ يوم الأربعاء التاسعَ عشَرَ لشعبان تأخَّر النّصارى عن شيخِهم الضالّ عن الرّحيل من موضع مَبيتهم، وذلك بمقرُبة من قلعة رَبَاح، فتأهَّب الناسُ بأجمَعهم

(١) المن بالإمامة ٥٥٣-٥٥٦.

(٢) المن بالإمامة ٥٥٦.

(٣) المؤلف ينقل من المن بالإمامة ٥٥٧ فما بعدها على عادته.

والعدوُّ الكافر يظُنُّ أنْ لا مُقارعَ له ولا مُدافع، فاستعجَل الكافر حين ذلك بالرّحيل، وقد تَراءى الجَمْعان بكلِّ فَجّ ومِيْل، فسَلّ الله عليهم سيفَه، و[حَلّ][1] في قلوبهم منه رُوعُه وخوفُه، فانحازوا إلى جبل شاهق واعتقَدوا أنه مَنْجاهم ولم يَعلَموا أنّ [بها][2] حادثتَهم ومثواهم، فانضَمَّ عساكرُ المسلمين إليهم، وصَعِدوا الجبلَ غَلَبةً عليهم، فابتَدأوا معَهم في ذلك الجبل الوَعِر في طعنٍ وضرب، ومُقارعةٍ وحرب، فهزَم اللهُ المشركين، ووصَل المسلمونَ إلى اللّعين الأحدب فقَتلوه واحتَزّوا رأسَه، وقَتلوا جميعَ مَن كان معَه، ولم يَنْجُ من جَمْعه إلّا القليل، وأُنقِذَ الأسرى من المسلمين بأجمَعهم والغنائمُ كلُّها، وانصَرفت إلى أربابِها وامتلأت أيدي الموحِّدين من الدّروع والخَيْل والبِغال، ونالوا في ذلك الجهادَ المبرور، الغنيمةَ والأُجور، وجَمِعت رؤوسُ النّصارى معَ رأس الأحدب المذكور، وحُمِلت إلى إشبيلِيَة، فضُرِبت الطّبولُ على ذلك، ووصَل وَصْفُ مقتلِه في كتابٍ من الخليفة أبي يعقوبَ إلى أخيه السيِّد أبي عمران، فكانت إحدى الـمَسرّات وباكورةَ الفتوحات.

وكان هذا السيِّدُ أبو عمرانَ من أولاد الخُلفاء النُّجباء الطّلبة الأُدباء، والخُطباءِ الشّعراء، وجرَتْ بينَه وبينَ قاضي مَرّاكُش حَجّاج بن يوسُف في هذه المدة مُخاطبةٌ شُهِد له فيها بالسَّبق حتى كَلِف بها جميعُ أهل العصر، وذلك أنه أصابه ضَعْف فغابَ عن الموحِّدينَ ثلاثةَ أيام، فكتَبَ إليه القاضي بيتَيْنِ من الشعر يتشوَّقُ فيهما إليه، وهما [من الوافر]:

يغيبُ البدرُ يومًا ثم يبدو ... وأنت تغيبُ عن عيني ثلاثا

لئن بلَغتْ ثلاثًا لا أراكُمْ ... فلستُ بمُدركٍ يومَ الثُّلاثا

فجاوَبَه في الحين وما رَوَّى، ولا بَيَّض قِرطاسًا ولا سَوّى [من الوافر]:

أتَتْنا منكمُ دُررٌ فحلَّتْ ... محَلًّا أوجَبَت منا انبعاثا

ولولا العُذرُ من سببٍ قويٍّ ... لسِرْنا نحوَكمْ حتمًا حثاثا

ولكنّا نسيرُ بحالِ وُدٍّ ... إليكمْ مُصبِحًا يومَ الثُّلاثا

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

وفي مدة إقامته بحضرة مَرّاكُش أميرًا تَوالَى القَحْط وامتَنع الغَيْثُ مدةَ شهرَيْن، ثم مَنَّ الله بالغَيْث وتدارَكَ سبحانَه بالغَوْث، فقال [من المتقارب]:

وغَيْثٍ هَمَى فوقَ مَتْنِ الرُّبَى ... فشبَّهتُه جُودَ أهلِ السيادَهْ
أتانا على رغبةٍ فانثَنى ... وقد بَلَغ الكلُّ منّا مُرادَهْ

ومن شعرِه أيضًا وكتَبَ به إلى أخيه السيّد الأسنَى أبي زكريّا يحيى ابن الخليفة الذي كان صاحبَ بِجَاية، وهو [من البسيط]:

مَن ساد وهْو صغيرٌ كيف تحسَبُهُ ... يُبقيه ربِّي إذا ما كان في الكِبَرِ
ومن يقولُ أميرُ المؤمنينَ أبي ... فتِلكمُ الغايةُ القصوى لمفتخرِ
أضحَتْ بِجَايةُ في التمثيل هالتَهُ ... وظلَّ يطلُعُ فيها مُشبِهَ القمرِ
بدرٌ بلا كُلَفٍ، درٌّ بلا صَدَفٍ ... ماءٌ بلا كدرٍ نارٌ بلا شرَرِ

ومن الشعراء المُجِيدينَ من أحفاد أمير المؤمنين عبد المؤمن: السيّد أبو الرّبيع بن أبي عبد الله بن عبد المؤمن، له أشعار كثيرة موجودة تدُلُّ على حَذْقِه[1]... الفقيه رحمه اللهُ وعفَا عنه.

وفي هذه السنة: غَدَر النّصارى أهلَكَهم اللهُ مدينةَ باجَة، واتّفق غَدْرُها من البُرج المستقبَل ببابِ قَصَبتها المسمَّى عندَ أهلها ببُرج الحَمَام، وذلك لتضييع عُمرَ بن سُحْنونَ لها، وإهمالِه أمرَها وحالَها، وقلّةِ جَدِّه على السُّمّار، وأكلِه مواساتَهم المرَتَّبةَ لهم على سُكناهم في أبراج القَصَبة والمدينة، وكان البُرجُ[2] المذكورُ فيه سامرٌ يأخُذ في الليلة على سَمَره قيراطًا من قطع، فأخَذه له وترَكَ البُرج مُضاعًا دونَ سامر، فوصَل النّصارى إلى السُّور في ليلة مُظلمة وهم يتسلَّلونَ على أيديهم وأرجُلِهم، فلم يشعُرْ أحَدٌ بهم من السُّمّار إلى أن جَعلوا السلالمَ في لَصْق البُرج المذكور، فصاحوا بأعلى أصواتِهم ولُغاتِهم، فاستَيْقَظَ الطالبُ عمرُ بن سُحنون من سَكْرتِه فوصَل إلى باب

---

(١) بياض في النسخ بقدر كلمتين.

(٢) من هنا إلى قوله: «البرج» مرة أخرى سقط كله من ك، لقفز نظر الناسخ من هذا اللفظ إلى مثيله.

القَصَبة فوجَد النّصارى قد تـمَلَّكوه وفتَحوه وأدخَلوا عسكرَهم في القَصَبة المذكورة، فتردَّى من أعلى البُرج إلى المدينة فارًّا بنفسِه، ثُم تدَلَّى من سُور المدينة إلى الفَحْص، وفَرّ إلى مَرْبلة على قدمَيْه، واتّصل الصِّياحُ وضَجيجُ الرّوم بالقَصَبة والمدينة، ففَرّ الناسُ على وجوههم من أبوابه فقُتلوا في الأبواب، وأُسِروا في كلِّ جَناب، وأُسر عِيالُ الطالب الـمُضيَّع وبَنُوه وأُخِذ مالُه وعيالُ القاضي ابن زرقاج وجُملةٌ من أصحابِه ومن نساءِ البلد إلّا منِ استعجَل بالخروج، واستُشهِد فيها عندَ باب الجامع[1] الفقيهُ أبو جعفرِ بنُ إسماعيلَ ابن صاحبِ الصّلاة[2]، وعاقَبَ اللهُ تعالى كلَّ من بَغَى فيها وسَعى في شهادة الزُّور وشَهِد بها، واجتَمع عندَ النّصارى فيها من المال شيءٌ كثير، وحَلّ بأهلِها مصابٌ كبير، وكانت مدينةُ باجَة من الـمُدن القديمةِ البناء وأسوارُها قد قامت وارتَفَعت في الهواء، ثم هَدَمها الإمامُ عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ الداخِل بعدَ هزيمة العلاءِ بن مُغيث.

ذكرُ سبب غَدْر النَّصارى مدينةَ باجَة

وذلك أنه لـمّا كان خَلْعُ سِدْراي بن وزير عن باجَةَ وجميع بلاد غَرْب الأنْدَلس، ولِـيَ بعدَه مدينةَ باجَة حُفّاظٌ من الموحِّدين، فنظَر كلُّ واحد منهم بحسَب اجتهاده، وكان أشبَهَهم عُمرُ بن تيمصليت التينمليُّ، فحدَث مدةَ مقامِه بها بينَ أعيانِها وسِفَالِـها نزاعٌ واختلاف بما طُبِعوا عليه في القديم والحديث من الماءِ والهواء، فطالَبَ بعضُهم بعضًا وأظهروا لهم عَداوةً وبُغضًا، أدّى ذلك إلى إمساك بعض أشياخِهم بإشبيلِيَة، وعَزْل ابن تيمصليت المذكور، المتحرِّي عن تلك الأمور، ووَلِيَ عليهم طالبٌ بَرْبَريٌّ سخيفُ العقل اسمُه عُمرُ بن سُحنون، وكان قصيرَ القامة صغيرَ الهامة كَوْسَجًا أعرَجَ لا يفهَمُ ولا يُفهَم، فدخَلَها في أشأَم طالع وأعظم محنةٍ لسامع، واتّصل به سِفالُـها فقرَّبهم لنفسِه وأدناهم من مـحَلِّ أُنسه، فنَزا التباغُضُ بينَ عامتها وخاصّتها بذلك السبب، وتَقاطعوا في الـمُواصَلة والنَّسَب، فقال في ذلك أبو بكر بن حُبَيش وخَرج فارًّا منها بنفسِه [من الكامل]:

---

(١) في م: «البرج»، وما هنا يعضده ما في التكملة لابن الأبار (١٧٦).

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إسماعيل ابن صاحب الصلاة، قال ابن الأبار: «استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده، وذلك ليلة السبت الثاني والعشرين لذي حجة سنة سبع وخمسين وخمس مئة» (التكملة، الترجمة ١٧٦).

إن الفِـرارَ غنيمـةٌ مـن باجـةٍ ... فاعمَـلْ...... (١) ذميـل الأيْنُـقِ

واحمَـدْ لفُرقتِهـا لـئلا تهلكـا ... . (٢) عـن قلـب التَّـقي

وإذا رجَـوْتَ لهمِّهـا فرجًـا (٣) ... . (٤) بـالعَقُوق الأبلـقِ

هيهـاتِ لا فـرجٌ لـديها يُرتَجـى ... ولئن حـذِرتَ بها الخُطوبَ فاقْلقِ

إنّ الغريـبَ إلى الغريـب منغّصٌ ... ايـود لهـا الرَّزايـا مـا بقِـي (٥)

واستخلَص عُمرُ بن سُحنونَ المذكورُ وزيرًا لنفسِه وسَميرًا لأُنسِه رجُلًا بدَويًّا من سِفال باجَة فجرَّأه على سَفْك الدّماء وأخْذ أموالِ الناس بالباطل وضَرْبهم بالسِّياط على أقلِّ الأشياء، وأعان معَه على ذلك قاضيَ البلد عمرَ بن زرقاج، وكان رجلًا كثيرَ الحركة والطَّيش، فصوَّب له إذاية الناس بالظلم والبطش، وانضافَ إلى هذا القاضي قومٌ أراذلُ من شهود الزُّور، يشهَدونَ له بغَرَضِه السيِّئ المغرور، فكانوا يعقِدونَ العقود بالكذب والـمَيْن، ويُثبِتُ الحقوقَ البواطل بشهادة وَغْدَيْن، ويخاطبُ بذلك أميرَ المؤمنين، يقول: إنّ فلانًا وفلانًا يخاطبُ المنافقين، لولا عَدْلُ الخليفة رحمه الله.

ثم إنّ عمرَ بن سُحنون المذكورَ استبَدَّ معَ أصحابه في تلك الأمور، وأخَذ برأي الفُجّار، والسِّفْلةِ الأشرار، وقَتل الفقيهَ الفاضلَ أبا جعفرٍ ابنَ الأنصاريِّ ظلمًا وعُدوانًا، وقَتل معَه جماعةً من أهل البلد سهوةً وخِذْلانًا، وعقَد عقودَ زُور في أمره أنه أراد القيامَ وخَلْعَ الإمام، ووَصَلت العقودُ الـمُدَلَّسة إلى الخليفة بإشبيلِيَة، وكان قد وصَل إلى الخليفة قَرابةُ الفقيه ابن الأنصاريِّ المظلوم، فسأل الخليفةُ الفقيهَ أبا بكر ابنَ الجَدّ عن أهل باجَة وأحوالِهم فعرَّفه بما عَلِم من أفعالِـهم وبرَّأَ ابنَ الأنصاريِّ المذكورَ فيما نُسِب إليه، وقال: مَعاذَ الله أن يكونَ ذلك الذي رُفِع عليه، وتكلَّم بكلام في تبرِئة أهل باجَة يجِدُه

---

(١) بياض في النسخ.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) هكذا في النسخ ولا يستقيم به الوزن.

(٤) بياض في النسخ.

(٥) هكذا العجز في النسخ، ولا يستقيم عروضًا.

عند الله مدَّخَرًا، ويلقاه به مطهَّرًا، وفي أثَرِ هذا المجلس وصَل أهلُ الصِّدق والحق فسُئلوا عن ذلك فأكذَبوا القاضيَ وشهودَه، فعفَا عنهم الإمام، وارتفع الباطلُ والـمَلام.

ورَفع أبو محمد ابنُ وزير بعدَ ذلك رَفْعًا إلى الخليفة وقال: إنّ لي بباجَةَ أصهارًا وهم بَنو صاحبِ الصلاة وبنو الأنصاريّ، ورَغِبَ أن يَأذَنَ لهم في الخروج عن باجَة إلى إشبيلِيَة، فخَرجوا عنها بما خَفَّ من أموالِـهم وأحوالِـهم ودخَلوا إشبيلِيَة يومَ الخميس الخامس وعشرينَ لجُمادى الآخِرة من عام سبعة وستينَ وخمس مئة، فلم تدُم الحالُ إلا ستةَ أشهر وسبعةَ أيام، وعاقَبَ اللهُ ابن سُحنونَ المذكور، والقاضيَ وشهودَ الزُّور، وكان غَدْرُها في محرَّم من عام ثمانية وستين.

ولـمّا اتّصل خبرُ غَدْرِها بأمير المؤمنينَ قال له سِدْراي بنُ وزير: بِيعت باجَةُ بقيراط، فقال له: ما معنى هذا؟ فوَصَف له حالَ ابن سُحنون وكيف أخَذ أجرةَ السامر في البُرج وما كان من فعلِه، فأمَرَ أميرُ المؤمنينَ بقتله، ففَرَّ فلم يوجَدْ ولم يمُتْ حتّى عاقَبَه الله بالجُذام.

ولـمّا أخَذ ابنُ الرَّنك اللّعينُ باجةَ ودخَلَها عايَنَ كِبَرَها وأنها لا يمكنُ امتناعُها لاتّساعها، فأخلاها وحَرَّقَها وهَدَم سُورَها وأسَرَ أهلَها إلى أن أنقذَهم اللهُ من الأسر بالفداء ومشَى كثيرٌ إلى مَرّاكُش وغيرِها يَطلُبونَ من[1] الناس، فوَجَدوا عندَهم الحنانَ بالعطاء والإيناس، فانجَبروا بعدَ تفرُّقِهم أيديَ سبا، وبعدَ أن أورَثَتْهم الحوادثُ وصَبا.

وفي سنة تسع وستينَ وخمس مئة: كان وصُولُ العِلج الطاغي جرانْدُه الذي غَدَر مدينةَ باجَة وغَدَر الحُصونَ والـمُدن وأفْقَر المعمورَ والمسكون، وكان قائدَ ابن الرَّنك وصاحبَ جيوشِه، فوصَل [معَ أصحا][2]به الأدِلّاء إلى إشبيلِيَة حضرة الخليفة [سامعًا طائعًا ليكون عبدًا خديمًا، وليُنكِيَ إخوتَه النّصارى بما يكونُ تصديقًا له عند الخليفة][3] وتقديمًا، فقَبِل منه القولَ وأنزَلَه وأمَر له بالإحسان والكرامات،

---

(١) سقط من ك.

(٢) بياض في النسخ.

(٣) ما بين الحاصرتين ليس في النسخ الأربع التي بين أيدينا، استدركناها من م.

فساء وصُولُه ابنَ الرَّنك صاحبَ قلمريةَ لعنه الله ولم يزَلْ يُرسل إليه سرًّا في أن يتحيَّلَ في الارتداد والغَدْر والمكر، فظَهَر بعدَ أشهر عليه ذلك، فتقبَّض عليه هنالك، ومكَّن اللهُ منه أعزَّ تمكين، وقُيِّد هو وأصحابُه في الحديد، فسُرَّ بذلك القريبُ والبعيد، وبُعثوا بجُملتِهم إلى سِجِلْماسةَ فأقاموا بها تحتَ سجن وترقيب، ونكالٍ مُريب، ثم همَّت نفسُه فيها بالفِرار ليجوزَ من أحد المَراسي فظَهَر منه ذلك فقُتل وحُزَّ رأسُه، وانكفَّ عن الإسلام بأسُه.

وفي هذه السنة، في أول شهر صَفَر: خَرج الخليفةُ أبو يعقوبَ من إشبيلِيَة بجيشِه ونزَلَ بحصن القلعة وهو خَرابٌ مهدومٌ منذُ إمارة عبد الله بن محمد الأُمويّ، هَدَمَه بسبب ثورة ابن حَجّاج فيه عليه، ومَلَك منه إشبيلِيَة وقَرْمُونة، فأمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ ببنائه وعِمارته نظرًا[1] وصَلاحًا لفَحْص إشبيلِيَة فصَلَحت إشبيلِيَة ببنائه وعِمارته.

وفي هذه السنة: وصَل ابنُ مثَنّى مُشرف تونُسَ والقَيْروان بأموالِ خراجِها.

وفي سنة سبعينَ وخمس مئة: أمَرَ أبو يعقوبَ بغَزْو البيبوجَ بن أذْفُونْش، وكان قد بادَرَ بالصُّلح وطلَبَ الاستعانةَ بعسكر الموحِّدين على القمط نونُه صاحب طُلَيْطُلة، فأُعين على ذلك، ثم ظَهَر جَدُّه وكمُل عهدُه في حماية بَطَلْيَوْس وإنقاذِها من يد ابن الرَّنك الغادرِ لها، وذكَرَ أنه أنفَقَ على عسكرِه في ذلك مالًا كثيرًا، فوجَّه إليه الخليفةُ هديّةً فيها منتٌ منظومٌ بالجوهر وحَمَلَها له أبو محمد بنُ جامع وابنُ غَزُّون وأبو زكريّا الكُوميُّ فقَبِل الهديّة بأوفَى السرور، وأبهَتَهُ ما عايَنَه فيها ممّا لم يعهَدْه في ذلك الوقت، وبعَثَ معَهم أرسالَه بهديتِه وشهودًا عليه باستمرار الصُّلح، وتمادت على ذلك حالُه إلى آخِر سنة تسع وستينَ، فنَكَث ونقَضَ العهدَ وكفَر بالنِّعمة فعاقبَه اللهُ سريعًا بالنِّقمة، فنَظَر الأميرُ أبو يعقوبَ في غزوِه في عُقْر داره ومُنازلةِ جهاتِه وأقطارِه، فكتَبَ إلى العرَب والأجنادِ بالوصُول إلى إشبيلِيَة والتأهُّبِ للغزو، فوصَلوا بجَمْعِهم وحشودِهم، فتجهَّز السيّد أبو حفص للنّهوض إليه بالعساكر عِوَضًا من أخيه أمير المؤمنين، فخَرج أبو حفص من إشبيلِيَةَ في الثالث من صَفَر إلى

---

(١) من هنا إلى آخر الفقرة سقط من ك.

الغادر البيبوجَ بمدينة السبطاط قاعدته، فغَزاه وافتَتح قَنْطرةَ السّيف وناضوشَ في خبر طويل. فقال الشعراءُ في ذلك وأطْنَبوا، فمنهم: أبو العبّاس الجُراويُّ قال من قصيدة أولُـها [من الكامل]:

عن امرِكم يتصرَّفُ [الثَّـقَلانِ][1] وبنَصْرِكم يتعاقَبُ الـمَلَوانِ

وبـما يَسُوءُ عـدوَّكم ويسُرُّكمْ تتحـرّكُ الأفـلاكُ في الـدَّورانِ

جاهـدتُمُ في الله حـقَّ جهـادِهِ ونهـضتُمُ لحمايـة الإيـمانِ

وتـركتُمُ أرضَ العِـدى وقلـوبَهمْ في غايـة الرَّجَفـانِ والـخَفَقانِ

وغـزاهمُ الـدِّينُ الحَنيفـيُّ الـذي كُتِـب الظهـورُ لـه عـلى الأديـانِ

كتَبَ الإلـهُ لكمْ فتوحًـا في العِدى هـذا لهـا وسـواه كـالعُنوانِ

هـذا مقـامُ المـصطفى يـا فـوزَ مَـن حـازَ النِّيابـةَ فيـه عـن حـسّانِ

مـن يعـرِفِ الـرّحمنَ حقًّـا يعـترفْ بحقوقِـه لخليفـةِ الـرّحمنِ

وله أيضًا من قصيدة أولُـها [من الطويل]:

بسيفِك صال الدِّينُ في الشّرق والغربِ ودارت على الأعـداءِ دائـرةُ الحـربِ

وأذعَـنَ نـاءٍ واسـتقام مُعانـدٌ ولان قيـادًا كـلُّ ممتنـع صَـعْبِ

وعندَما يسَّر اللهُ هذا الفتح لأمير المؤمنينَ في هذه السنة على يد أخيه السيِّد أبي حفص وهَزَم النّصارى في عُقْر دارِهم حتى انْجَحَروا تحت جدارِهم، رغِبَ ابن الرَّنك اللّعين، في الصُّلح من أمير المؤمنين، وكان أميرُ المؤمنين قد عَلِم قِدَمَ باجَة وأنها قاعدةُ الغَرْب وبما جَرى فيها من النوائب والكَرْب، فنَظَر بنُور الله في إسكانِها وإسكان الحصُون المجاورة لها، فأمَرَ بإنفاذ الكُتُب إلى جميع بلادِه في استدعاء أهل باجَة ووصُولِـهم إلى حضرتِه إشبيلِيَة، فأُزعِجوا منها ووصَلوا إلى إشبيلِيَة، واجتَمعوا بها، وأُعلِم أميرُ المؤمنين بوصُولهم فأمَرَ بدخولِـهم عليه.

---

(١) ما بين الحاصرتين ليس من النسخ التي بين أيدينا ولا يستقيم المعنى ولا الوزن من غيرها.

اختصارُ الخبر عن دخول أهل باجَةَ مجلسَ أمير المؤمنين أبي يعقوب وما دار بينَهم من الكلام

كان دخولُهم إليه يومَ السّبت السابع لربيع الآخِر سنةَ سبعينَ وخمس مئة، وقد احتَفل في حضور الوجوه من إخوته السّادات، ووجوه أشياخ الموحِّدين وملوك الأندَلسيِّينَ من بني غَزُّون، وبني مُرْدنيش، وبني هَمُشْك، ووجوه طلَبة الحَضَر، منهم: أبو محمد المالَقيُّ وأبو بكر ابن الجَدّ وأبو موسى بن عِمران، وكان الوزيرُ الكبير أبو العُلى إدريسُ بن أبي إسحاق بن جامع يُعرِّفُ باسم مَن دخَل من أعيان باجَة ويشرِّفُهم، فلمّا دخَلوا وسلَّموا بما وجَب عليهم، نظَر أمير المؤمنين إليهم وقال: كيف حالُكم؟ فقالوا: تحت خيراتٍ وأمن وبركات في أيام سيّدِنا أمير المؤمنين، وخطَبَ أحدُهم خُطبةً بليغة أبدع فيها غايةَ الإبداع وأبهَج بها القلوبَ والأسماع، فلمّا أكمَلها تبسَّم أميرُ المؤمنينَ فقال للقاضي: أحسَنت أيّها الطالبُ الخطيب، ثم قال أميرُ المؤمنين: تمشُونَ إن شاء اللهُ إلى بلدكم وتسكنونَها بعدَ نظَرِنا لكم في زوال رُوعِكم والتئام صَدْعِكم، ويرجِعُ جُندُ أهل بلدتكم ورَعيّتُها، وأهلُ تلك الحصون المجاورة لكم للاستيطان بها كما كنتُم، ونتبِعُكم إثْرَ هذا بقَبيل من الموحِّدين الـمُنجِدين بفُرسانِهم ورجالهم يَسكنونَ معَكم بأولادهم وعِيالهم، فقالوا: سمِعْنا وأطَعْنا يا سيّدَنا ومولانا، وذكَروا مصالحَهم كلَّها قليلَها وجليلَها، فأنعَمَ عليهم بما سألوه وانصَرفوا شاكرينَ بعدَما ولّى عليهم حافظًا أبا بكر ابنَ وزير.

اختصارُ الخبر برجوع أهل باجَةَ إلى بلدِهم

تقدَّم الحافظُ أبو عليٍّ ابن تيمصليت بالخُروج إلى شِلْب وجميع الغرب، فحشَدَ الرجال وأعطى الأموال في الخامس لربيعٍ الآخر من السنة، ثم خَرج أبو بكر ابنُ وزيرٍ من بعدِه في السادس من الشهر المذكور بجميع الجُند والفُرسان، وخَرج أهلُ باجَةَ في الحادي والعشرينَ من الشهر المذكور ووصَلوا باجةَ يومَ الخميس غُرّةَ جُمادى الأولى، فعايَنوا منها الدّمار وأنكروا الأوطانَ والدِّيار، كما قال لَبيد[1] [من الخفيف]:

ذهبــت عــامرٌ فلــم يبــقَ منهــا	بريـــاض الأعــرافِ إلا الـــدّيارُ
وكـــذاك الزّمـــانُ يـــذهبُ بالنـــا	سِ وتَبقـــى الطّلـــولُ والآثـــارُ

(١) ينظر معجم البلدان لياقوت ٣/ ٨٦.

بل والله تهدَّمت بتداوُل الأيام وعُدوانِها، وتفرُّق أهلها وسُكّانها، وتحكُّم الكفَرة في أوطانِها.

وعندَ دخولهم إليها مشَى كلُّ واحد منهم إلى دارِه وموضع قرارِه، فأبصَروا ما يَشِيبُ له الوليدُ أسفًا ويَبكي عليه الجمادُ لَـهَفًا، قد حُرِّق منها الدّور ومُزِّقَ المعمور، ونزَلَ الناسُ في قَصَبتِها على ما كانت عليه من هَدْم سُورِها وخَرابِها، وكانت جُملتُهم يومَ خَرابِها نحوَ مئتي رجل بين شيوخ وشُبّان ورجالٍ وفُرسان، فكثُر عليهم الرُّوع، وبُهِت الجَمْعُ فصَنَعوا بابًا في الحين للقَصَبة من جهة المدينة، وبنَوا البابَ الذي من جهة الفَحْص، وسَكَنوا في القَصَبة المذكورة، ونقَلَ كلُّ واحدٍ منهم خشَبَ دارِه وجعَلَه معه بالقَصَبة، وخاطَبوا الخليفةَ بدخولهم فجاوَبَهم بما أرضاهم.

ولـمّا كان يومُ الأربعاء السابع من جُمادى الأولى من سنة سبعينَ المؤرَّخة، وصَل عمرُ بن تيمصليت من شِلْبَ وغيرِها بخمس مئة رجل من الحَشْد والبَنّائين، واستاقوا أقواتَهم في شهر كامل وجميعَ ما يُحتاج إليه من آلة البناء، واتّصل العملُ والاجتهاد في بناءِ السُّور إلى آخِر الشهرِ المذكور، وعاد ابنُ تيمصليت أيضًا إلى شِلْب وبلاد الغَرْب برَسْم حَشْدٍ آخَرَ للبناء، وتَمادى العملُ في البناء المذكور إلى شهر رمضانَ الـمُعظَّم وقد كمُل سورُ القَصَبة، وشُرِع في بناء سُور المدينة على كِبَره وخَرابِه، ووصَل الأمرُ بوصُول الحافظ ابن تيمصليت إلى الحضرة العَلِيّة فوصَلَها أوّل ليلة من شوّال، فدخَل إلى الخليفة وأعلَمَه بما صنَع، فشَكر له مَنابَه وأجزَلَ ثوابَه.

ثم حدَثت بين أهل باجَةَ وبينَ أبي بكر ابن وزير مُطالباتٌ وشَهَوات فعَقَد عقودًا على أعيانِها بشهادة أهل الزُّور، والأراذل وأهل الفجور، فرَمَى بها القاضي في وجوهِهم ونَجَهَهم فيما ادَّعَوْه بأفواهِهم. ثم إنّ أعيانَ باجَةَ رفَعوا إلى حضرة أمير المؤمنين بأحوالِـهم وما هم عليه مع ابن وَزير من سُوءِ السّياسة والتدبير، فأمَرَ بعَزْله عنهم ووَلّى عليهم أبا عليٍّ عُمرَ بن تيمصليت، فاتّصلت الغِبطةُ بباجَة وتمكّن الناسُ بقَصَبتها وفي ديارِها الحديثةِ البُنْيان، وتَبايَعَ الناسُ أرضَها بينَهم في خارجها وداخلها، وحَرَثوا الأرضَ وعمَروها وبَنَوا الحَوانيتَ والرِّباع، ورُفِعت إلى دار الأشراف بإشبيلِيَةَ الأزِمّةُ بأعشارِها وكِراءِ رِباعِها، وسُرَّ أميرُ المؤمنين بذلك.

وتَمادى سُكنى باجَةَ على ما ذكَرتُه إلى أن رحَل الخليفةُ عن الأندَلس وتَرَك واليًا على إشبيلِيَةَ أخاه أبا عليّ الحَسَنَ، فمشَى النظَرُ على بعض ما تقدَّم إلى أن نَكَث العهدَ اللّعينُ ابنُ الرَّنك وخَرج بجَمْعِه إلى باجَة ونازَلَها عامَ ثلاثة وسبعين، وبقي عليها أيامًا وأفسَدَ زروعَها حتى كاد أن يَغْلِبَ عليها. ثم أقلَعَ عنها ووصَل إلى جهة إشبيلِيَة ودخَل قريةَ طريانة، وتغلَّب وحرَّق القطائعَ في وادي إشبيلِيَة، وانصَرف فوجَد باجَةَ البائسةَ قد أقْفرها أهلُها وخَرجوا منها بأولادِهم وعِيالهم وتفرَّقت جميعُ أموالهم وفَرُّوا على وجوهِهم إلى مَرْتُلة، وذلك في شهر محرَّم من عام أربعة وسبعينَ وخمس مئة.

وكان السببُ في ذلك أنّ عمرَ بن تيمصليت واليَ باجَةَ خَرج منها بجُندها وفرسانها وصَحِبَه عليُّ بن وزير من حِصن شيربة[١]، وأغاروا على فَحْص قصر أبي دانِس، فخَرج إليهم جَمْعٌ من النّصارى فتقاتَلوا معَهم، فبينَما هم في القتال كذلك إذ خَرجت عليهم جُملةٌ من نصارى أهل شَنْتَرِين في فَحْص القَصْر على غير مِيعاد فانهزَم ابنُ تيمصليت وابنُ وزير، ووصَل الخبرُ إلى أهل باجَة ففَرُّوا أجمعين، وأُسِر ابنُ تيمصليت وابنُ وَزير وبعضُ مَن كان معهما من الرّجال والفُرسان وقُتل الباقون.

أخبرَ أبو عبد الله بنُ عبد الملك قال: حدَّثني أبو الحَسَن ابنُ وزير قال: لـمّا كان نفوذُ القضاءِ عليّ وعلى ابن تيمصليت حَمَلَنا ابنُ الرَّنك لعنَه الله إلى قلمريةَ، فعُمل لنا تبريزٌ عظيم وأُكبِلْنا، فأمّا ابنُ تيمصليت فجَعَلَ في عُنقِه سلسلةً من حديد، وعَذَّبه حتى مات رحمه الله. وأمّا أنا ففَداني منه أميرُ المؤمنينَ رضي اللهُ عنه بأربعة آلاف دينار حَشَميّة.

رَجْعُ الخبر: وفي هذه السنة تَعرَّس أمير المؤمنين بابنة ابن مُرْدنيش، وكان ابتناؤه بها ليلةَ السّبت الخامِس لربيع الأول، أخبر أبو عبد الله بنُ عبد الملك قال: وَجَّه إليها ألفَ دينار عَيْنًا وقال: إنّما وجَّهتُ لها بهذا العدد تأنيسًا، وإنّما الصَّداقُ الذي أُمِرْنا به خمسونَ دينارًا. ولـمّا وصَلتْ إليه معَ نسائها وخَدَمِها أعطَى كلَّ واحدة منهنَّ بركةً كبيرة ووَهَب للزّوجة جميعَ ما أهدَى إليه إخوتُها عندَ فَتْحِه لـمُرْسِيَة من الكُسَى والحَلْي والخَدَم، وزادها من عنده ما أبهَتَها. وهمَّ مَن وصَل معَها من النّساء بالدّخول معَها، فقال الخليفة: تَدخُل المباركةُ منفردة، فدخَلت وقبَّلت يدَه، فدَعا لها بخير وجامَعَها.

---

(١) هي مدينة Senpa التي في البرتغال.

فاتّفق لبني مُرْدنيش بها سَعْدٌ ما اتّفق لأحد من ثُوّار الأندَلس، فإنّهم أُخرِجوا عمّا كان بينَ أيديهم ثم صاروا أحماءَ لأمير المؤمنين، وهذا غريب وشيءٌ عجيب.

وفي سنة إحدى وسبعينَ وخمس مئة: أمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ بنكْبة محمد بن عيسى مشرف إشبيلِيَة في جُمادى الآخِرة وتوَلّى تثقيفَ حالِه ومالِه للمخزن يلولُ بن جلداسن، واستَصْفى ما كان عندَه من المال والعَقَار بأنواع العذابِ وأسوإ العقاب، حتى ضَرَب نفْسَه بسِكّين كان في يدِه فلم يمُتْ من ذلك، ثم عُذِّب وضُرب حتى مات، فلُفّ في حَصِير ورُبِط في وَسَطه حبلٌ ورُمي به في وادي إشبيلِيَة فقَذَفه الوادي بعدَ أيام في بابِ إشبيلِيَة فأصبح عِبرةً لأولي الألباب، نعوذُ بالله من سُوءِ العاقبة.

ذكرُ حركة الخليفة أبي يعقوبَ من إشبيلِيَة منصرِفًا عن الأندَلس إلى حضرة مَرّاكُش

كانت حركتُه يومَ الخميس الرابعَ عشَرَ من شهر رمضانَ المعظَّم، وقيل: في شعبانَ من العام المؤرَّخ، ودخَل في غُرابٍ في الوادي من مَرْسَى طلياطةَ ولم يُسلِّمْ عليه أحدٌ من أشياخ إشبيلِيَة ولا رأَوْه لاستعجالِه، وكان قد جاز البحرَ إلى الأندَلس في الرابع والعشرينَ من رمضانَ من عام ستة وستينَ، ووصَلَ إلى إشبيلِيَة في الثانيَ عشَرَ من شوّال ورحَل منها يومَ الخميس المذكور، فكان طُولَ إقامته بالأندَلس أربعةُ أعوام وعشَرةُ أشهر ونصفٌ. ولـمّا كان سَفَرُه إلى الحضرة في اليوم المذكور خَرج جميعُ الموحِّدونَ في اتّباعِه بعِيالهم وأبنائهم، وكذلك بَنو مُرْدنيش وبنو هَمُشْك والعُمّالُ والكُتّابُ وغيرُهم، وجاز الأميرُ أبو يعقوبَ البحرَ إلى طَنْجة وتربَّص بها منتظرًا للناس حتى استوفَوْا عليه، وكان دخولُه مَرّاكُش في منتصَف رمضانَ المعظَّم من السنة.

وفي هذه السنة، وهي سنة إحدى وسبعين: نزَلَ الوباءُ والطّاعونُ بمدينة مَرّاكُش في أول شهر ذي القَعْدة، ولم يُعهَدْ مثلُه فيما تقدَّم من الأزمنة قبلَه، انتهى عَددُ الأموات في كلِّ يوم مئة إلى مئة وتسعينَ شخصًا وأكثرَ من ذلك، حتّى إنّ الناسَ لا يستطيعونَ حَمْلَهم إلى الجامع للصّلاة عليهم، فأمَرَ الخليفةُ أن يُصلَّى عليهم في سائر المساجد رِفقًا بالناس في ذلك.

فأوّلُ مَن مات من الأشراف السادات: السيّدُ أبو عمرانَ ابنُ الخليفة عبد المؤمن، ثم أخوه أبو سعيد، ثم أخوهما أبو عبد الله، ثم أخوهم أبو زكريّا الذي كان صاحبَ بِجَاية. ومن أشياخ الموحِّدين: أبو سعيد يَخْلُفُ بنُ الحُسَين، وكان الشيخ أبو حَفْص بن يحيى الـهَنْتَاتِيُّ بقُرطُبة فخَرج منها مسافرًا إلى الحضرة العَلِيّة مَرّاكُش فمات في الطريق ودُفن برِباط الفَتْح من سَلَا، واتّصل رُوعُ الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يَخْرُجْ منها أحدٌ ولا يدخُلْها أحد، وكلُّ مَن خَرج منها فارًّا بنفسِه مات في الطريق، ومَرِض الخليفةُ أبو يعقوبَ وأخوه أبو حَفْص مَرَضًا طويلًا حتى كاد أن يُرْجَفَ بهما ثم استقَلّا بعدَ ذلك، وأمّا ما كان في دُورِهم وقصورِهم من الخَدَم والعبيد وغيرِهم فأخبَر أبو مروانُ ابنُ صاحبِ الصّلاة قال: حدّثني الشيخ الحافظ أبو بكر ابنُ الجَدّ قال: حدّثني السيّدُ أبو عليٍّ الحَسَنُ ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، أنه كان يموتُ في كلِّ يوم في دورِهم ثلاثونَ شخصًا حتى فَنِي أكثرُ مَن كان في قصورِهم ودُورهم، ودام هذا الطاعونُ بقيّةَ سنة إحدى وسبعين ونصفَ سنة اثنتَيْن وسبعين، وذلك مدةَ سنةٍ كاملة.

وفي هذه السنة: مات القاضي أبو يوسُف حَجّاجُ بن يوسُف بمَرّاكُش، وكان فريدَ زمانه في الفَضْل والزُّهد والعدل، وكان له باعٌ واسع في الأدب. وكذلك الكاتبُ أبو الحَكَم بن هردوش[1] المالَقيُّ وأخوه المشرفُ أبو الحَسَن، وكان من الطلبة الجِلّة. وكذلك توفِّي الكاتبُ أبو الحَسَن عليُّ بن زيد الإشبيليّ[2] ومشرفُ غَرْناطةَ أبو عَمْرو ابن أفلحَ وجُملةٌ من أعيان الطلبة والموحِّدينَ، رحمهم اللهُ تعالى.

---

(١) هكذا جاء، وفي تكملة ابن الأبار: «هرودس»، قال: «إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الكاتب، سكن مالقة، وأصله من وادي آش، يكنى أبا الحكم ويعرف بابن هرودس... وتوفي أول سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة» (التكملة، الترجمة ٣٩٦).

(٢) لعله هو الذي ذكره ابن الأبار في التكملة، فقال: «علي بن زيد الأنصاري من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن. له رواية، وأجاز له أبو طاهر السلفي ولجماعة معه منهم أبو بكر بن خير سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة» (الترجمة ٢٧٣٤) ولم يعرف وفاته، ولخّص ابن عبد الملك ترجمته في الذيل ٣/ ١٨٠.

وفي سنة اثنتين وسبعينَ وخمس مئة: خَرج أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ من مَرّاكُش معَ الموحِّدينَ في الرابع من شهر ذي القَعدة برَسْم الغَزْو لصُنْهاجةِ القبلة، وترَكَ بها أخاه أبا حَفْص واليًا عليها وأميرًا على الناس، فلمّا وصَل رباطَ هسكورةَ أمَرَ الناسَ ببناءِ بيوتٍ ودُور للسُّكْنى ورَجَع إلى مَرّاكُش بخاصّتِه، وقَدَّم على العسكر المقيم بها ابنَه السيّدُ أبا يوسُف وجعَل شيخَه أبا عبد الله بن يوسُف بن وانودين، فكان دخولُه مَرّاكُشَ في الحادي والعشرينَ لذي القَعدة، وبعدَ ذلك أذْعَن جبلُ صُنْهاجة بالطاعة وانصَرف جميعُ الأجناد.

وممّا وقَع من الأحداث بالأندَلس في هذه السنة: وذلك لـمّا عزَمَ أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ على الانصراف من الأندَلس إلى حضرته الـمَرّاكُشِيّة، تَرك على قُرطُبة أخاه الحُسَين، وعلى إشبيلِيَة أخاه أبا الحَسَن، فالتزما في ذلك الجِدَّ الألزم، ومَشَّيا في الثغورِ نظَرَهما الأقدم، وعندَما تحقَّق العِلجُ الغادر نونُه صاحبُ طُلَيْطُلَة ظهيرُ أذْفُونْشَ أخزاه الله رحلةَ الخليفة أبي يعقوبَ عن الأندَلس[1]، نقَضَ العهدَ ورفَضَ السِّلمَ والعقْد، فخَرج بجَمْعه الذّميم ونازَلَ مدينة كونكة[2]، فاستغاث أهلُها بأمير المؤمنين، وكان الناسُ من ضَعْف الـمَرَض والطاعونِ على الحركة لا يقدِرونَ، فوصَل الأمرُ إلى السيّدَيْن المذكورَيْن يؤكِّد عليهما أن يتحرَّكا لغزوِ جهات طُلَيْطُلَة وطَبيرة[3] لعل العدوَّ يُقلعُ عن كونكةَ المذكورة.

فخَرج عسكرُ قُرطُبة معَ السيّد أبي الحَسَن يومَ الاثنين السادس من شوّال، وأغار على جهة[4] طُلَيْطُلَةَ وانصَرف سالـمًا غانمًا، وخَرج بعسكر إشبيلِيَة السيّد أبو عليّ الحُسَين في أربعةِ آلاف فارس وأربعة آلاف راجِل إلى جهة طَبيرة وفتَحَ حصنًا

---

(١) قوله: «عن الأندلس» سقط من ق.

(٢) هكذا تكتب، وتكتب بالقاف أيضًا، وهي كاف أعجمية.

(٣) هكذا في النسخ جميعًا، ولعله يقصد: طلبيرة، إذ هي من أعمال طليطلة (معجم البلدان ٤/ ٣٧)، والملاحظ أنّ صاحب الروض المعطار شكّ فيها إذا كانت طبيرة هي طلبيرة (ص٣٨٧)، وذكر الإدريسي أن طبيرة: قرية على مقربة من الساحل بالبرتغال Tavira (ص١٧٩)، ومن ثم فالأصوب أنها: طلبيرة.

(٤) سقطت من ق.

على ضفّة الوادي إشبيلية من طَبيرة[1]، فسَبى جميعَ مَن وجَد فيها من النّساء والصِّبيان وقَتَل الرّجال، وكان قد حَلَف أن يجوزَ واديَ باجة[2] نكايةً للنّصارى أهلَكَهم اللهُ فبرَّ بيمينه، وجازه في قارب كان قدِ استاقَه من إشبيلِيَة على الظّهر لهذا المعنى، ثم إنه أقلَعَ بمحَلّتِه مُغِيرًا على ضفّة وادي باجة[3] ثم انصَرف إلى إشبيلِيَة بالغنائم والأسرى سالـمًا غانمًا.

ثم خَرج بعدَ ذلك اللّعينُ صاحبُ السبطاط الملقَّب بالبيبوجَ بجَمْعه الذّميم فجاز في إغارته واديَ إشبيلِيَة ووصَل إلى نظرِ أرْكُش وشَرِيش، فخَرج إليه عسكر المسلمين من إشبيلِيَة فتبِعهم فلَحِق جُملةٌ من أهل طَبِيرة النّصارى مُنصرِفينَ إلى بلدهم[4] فما شَعَروا حتّى أحدَق بهم عسكرُ الموحِّدين فقُتلوا فيها أجمعين وأُنقِذت الغنائمُ التي كانت بأيديهم من البقرِ والغنم وثمانينَ عِلجًا من أدِلّائهم، فرَحَل العسكرُ المذكور [إلى][5] إشبيلِيَة بالتبريز إليهم والعلامات والطّبول والنَّظّارة من العامّة مسرورينَ، فصُفَّت الأعلاجُ بينَ يدَي السيِّد أبي عليٍّ الحُسَين ابن أميرِ المؤمنين ثم أمَرَ بضَرْب رقابِهم فقُتلوا أجمعينَ بمحضَر الموحِّدين، وبقي السيِّدان ببلدَيْهما ظاهرَيْنِ ظافرَيْنِ في حركتِهما إلى أنِ استدعاهُما الخليفةُ أبو يعقوب.

وفي سنة ثلاثٍ وسبعينَ وخمس مئة: كان استدعاءُ أميرِ المؤمنين أبي يعقوبَ أخوَيْه: أبا عليّ الحُسَين وأبا الحَسَن عليًّا إلى حضرته مَرّاكُش، وكان خروجُهما من إشبيلِيَةَ يومَ الثلاثاء الثامن من شهرِ رمضانَ المعظَّم، ومشَى في صُحبتِهما أبو داود ملول ابن جلداسن ليتبيَّنَ أعمالَ إشبيلِيَة، وصَحِبَهما أبو عليّ بن غَرُّون وجُملةٌ من أشياخ الموحِّدينَ الإشبيليِّين، وجَدّوا في السَّير إلى أنْ وصَلا حضرةَ مَرّاكُش وعَيَّدا فيها عيد الفطر مع أخيهما وأقاما معه بحضرة مراكش شهر شوّال وذا القعدة وذا الحجة في

(١) هكذا في النسخ، وهو نصّ مضطرب، فلعل المقصود وادي تاجة، حيث تقع عليه طلبيرة.

(٢) هكذا في النسخ ولعل الصواب «تاجه».

(٣) كذلك.

(٤) في ك: «بلادهم».

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة متعينة.

المفاوضة في مصالح المسلمينَ ومحاربة أعداءِ الله الكافرين، وأمَرَهما بالانصراف إلى بلدَيْهما: قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ، فوصَلا إليهما في شهر محرَّم من عام أربعةٍ وسبعينَ وخمس مئة.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ثلاث وسبعين: كانت السَّطوةُ بالوُزراء والعُمّال الخُدَماء، فمنهم: ابنُ جامع وبَنُوه وغيرُهم، وكان لهم في الوِزارة خمسَ عشْرةَ سنة، وأقاموا بمدينة مارِدَة مغرَّبينَ مهجورينَ ستةَ أعوام إلى أن مات أبو يعقوبَ في غَزْوة شَنْتَرين. ثم لـمّا استُخلِفَ أبو يوسُفَ عَفَا عنهم وعن سِواهم، وممّن انتُقِمَ منه أبو عبد الله محمدُ ابنُ الـمُعلِّم، وكان مشرفَ إشبيلِيَة، انتُقِدت عليه أخبارٌ شَنيعة وأحوالٌ فظيعة، فأمَرَ بسَجْنِه وأخْذ ما بيدِه، فلم يبقَ له سَبَدٌ ولا لَبَد[1]، وتفرَّقت جميعُ أحوالِه شذَرَ مذَر، وضُربت بعدَ محنةٍ عظيمة عنُقُه رحمه الله. وكذلك ابنُ فاخر مشرفُ سِجِلْماسَة وأبو الحَسَن عليُّ بن حَنّون، رحمَهم اللهُ تعالى.

وفي سنة أربع وسبعينَ وخمس مئة: بعَث الخليفةُ أبو يعقوبَ ابنَيْ أخيه أبي الحَسَن إلى بلاد الأندَلس، فوَلِـي أبو زيدٍ غَرْناطةَ، ووَلِـي أبو محمد عبدُ الله مالَقة.

وفيها: توفِّي أبو عليٍّ الحُسَين ابن الخليفة عبد المؤمن، وكان الواليَ على إشبيلِيَة.

وفيها: كانت وفاةُ أبي العبّاس ابن الخليفة عبد المؤمن بمدينة سِجِلْماسَة، وكان واليًا عليها.

وفيها: توفِّي أبو علي ابنُ غَرُّون، والقاضي أبو القاسم فُضَيل، وأبو محمد المالَقيُّ شيخُ طلَبة الحَضَر بمَرّاكُش، وكان من أهل العلم والدِّين والحِفظ لحديث رسول الله ﷺ ولم يزَلْ عندَ الخليفة أبي محمد عبد المؤمن في حُظْوة مكينة، وكذلك عندَ الخليفة أبي يعقوب، وكان يرفَعُ له المسائل ويتناولُ توصيلَ الوسائل ويَرفَعُ أشعارُ الشُّعراء وإخراجَ الجزاء وتقدَّم للخَطابة والصلاة بأمير المؤمنين، وإذا وصَل كتابُ فتح أو غيرِه قرَأَهُ، إلى غير ذلك، وكان له أدبٌ غَضّ وشعرٌ في الزّهد ومكفرات، ولم يزَلْ في عزٍّ وتمكين إلى أن تُوفِّي رحمه الله.

وفي هذه السنة: كان سَيْلٌ كثيرٌ بوادي إشبيلِيَةَ خَرج على جنبات طرقاته.

---

(١) أي: ماله قليل ولا كثير.

وفيها كثُر طلَبُ العدوِّ ابنِ الرَّنك في البَرّ والبحر، فدوَّخ بعضَ القُرى في الشَّرَف وغيرِه، فنظَر الخليفةُ في بَعْث ابنِه أبي إسحاقَ واليًا على إشبيلِيَة في عسكر ضَخْم.

وفي سنة خمس وسبعينَ وخمس مئة: اشتدَّت فتنةُ النّصارى في البرِّ والبحر، فوَلَّى أميرُ المؤمنين غانمَ[1] بن مُرْدنيش على الأُسطول بسَبْتَة، فعبَرَ البحرَ أولًا غازيًا مدينةَ أُشْبُونَة فتغلَّب فيها على قطعتَيْن من قطائع الرُّوم وانصَرف إلى سَبْتَة، ثم عبَرَت بعد ذلك جُملةٌ ذميمةٌ من الشّياطين إلى شلطيشَ[2] فتغلَّبوا عليها وأَسَروا فيها من المسلمينَ خَلْقًا كثيرًا وفَكّ اللهُ أسرَهم بالفِداء منهم.

وفيها: كانت وفاةُ السيِّد أبي حَفْص ابن الخليفة عبد المؤمن في ربيع الأول، وهو الذي كرَّر غَزَواتِه في المنافقين حتى أَذْعَنوا طائعين، وأنقَذَ الثّغورَ من أيدي الكافرين.

وفيها: ارتَحل السيِّدُ أبو عليٍّ الحُسَين ابن الخليفة عن قُرطُبَةَ بجميع أهلِه ووَلَده ورجالِه، ثم تَبِعه أبناءُ أخيه المتوفَّى أبي حَفْص وساروا بأجمَعهم إلى مدينة مَرّاكُش، وكان اجتماعُهم بها ممّا جدَّد الأُنْس وأبهَجَ النفْس، ثم سألَهم عن أحوال الأندَلس فأخبَروه أنّ صاحبَ طُلَيْطُلَةَ أظهَرَ نَقْضَ الصُّلح وبالَغَ في الغارةِ والقُبح، فغار أميرُ المؤمنين لذلك وجمَعَ أشياخَ الموحِّدين فأعلَمَهم بهذا الخبر، فغاروا لغَيْرتِه وتألَّموا من شُغُل بالِه وفكرتِه، وأخَذوا في الاستعداد وخُلوص نيّتِهم في الجهاد، ونظَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ في استجلاب العَرب من إفريقيّة وعَزَم على الغَزْوِ إلى مدينة قَفْصة لأن يَحسِم عِلَلَها ويسُدَّ خَلَلَها.

ذكرُ حركة الخليفة إلى إفريقيَّةَ وغزوتِه إلى مدينة قَفْصة[3]

قال الراويةُ الثِّقة: كان خُروجُه من مَرّاكُش يومَ الخميس خامسَ عشَرَ من شوّال من سنة خمس وسبعينَ وخمس مئة، وذكَرَ ابنُ صاحب الصلاة قال: حدّثني أبو الحَسَن الـهَوْزَنيُّ أنه كان يُعطي في البركةِ لعساكره في غَزْوتِه إلى قَفْصة ألفَ ألفِ دينار،

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧.

(٢) وقع في بعض النسخ: «شلطين»، وهو تحريف، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٥٩.

(٣) ينظر كامل ابن الأثير ١١/ ٤٦٧-٤٦٨، والمعجب ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٢.

تَمادى ذلك مدةَ غَزْوتِه إلى أنِ انصَرف، سوى العُلُوفات والمواسات والـمَرافق في كلِّ منزل، وكتَبَ رحمه اللهُ إلى الطّلبة الذين بجزيرة الأندلس معرِّفًا لهم بغَزْوته وحركته، فلمّا عيَّدَ عيدَ الأضحى من السنة حَضَّ على البِدَار إلى ما عَزَم عليه من الجهاد، والسُّلوك في الآكام والمِهاد، وقَدَّم ابنَه المنصورَ أبا يوسُف، فوصَل تِلِمْسانَ في هذه السنة المؤرَّخة.

وفي سنة ستٍّ وسبعينَ وخمس مئة في أولّها: استُكمِلَتِ العساكرُ الموحِّديةُ بتِلِمْسان، وعبَّأ أميرُ المؤمنينَ جيوشَه بأحسن التعبية في الثانيَ عشَرَ من شهر صَفَر برَسْم الغَزْو إلى قَفْصةَ وبلاد القَيْرَوان، حتّى وصَل بِجَاية، فلمّا احتلّها تحقَّق عندَه أنّ ابنَ المنتصِر يحرِّض العَرَب على الفتنة وأنه يواصلُ الممتنعَ بقَفْصةَ ويُواليه على الشِّقَاق والنِّفاق، فقُبِضَ عليه ودُخِلت دارُه فوُجِد فيها مخاطَباتُ العَرَب إليه بجَوابه بما يشهَدُ عليه ويحقِّق ما نُسِب إليه من ذلك، فأُخِذ ما كان بيده من الأموال والذَّخائر وغير ذلك.

وسار أميرُ المؤمنين من بِجَايةَ حتى كان بقُرب من قَفْصة وصَل إليه جميعُ أشياخ العَرَب من قَبِيل رِيَاح بالبِدار والمسارعة إلى الطاعة طالبينَ الأمان في دُورِهم وأنفُسِهم، فأُسعِفُوا فيما طَلَبوا، وأُسعِدوا على ما فيه رَغِبوا، ونازَلَ أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ قَفْصةَ مُحاصرًا، ولم يزَلْ يُقاتلُهم بالـمَنجَنيق وغيرِه إلى أن رَغِبوا في العَفْو فأُعفُوا، وافتُتِحت قَفْصةُ وأسكَنَها بعسكر من الموحِّدينَ ونزَلَ عنها الشّقيُّ المعروفُ بالطّويل، وذلك في شهر رمضانَ من عام ستة وسبعين.

ولـمّا افتَتحها رحَلَ عنها إلى تونُس وخاطَبَ أهلَ حضرة مَرّاكُش وأهل الأندلس وبعَث معَ الرسالة بقصيدةٍ أولها [من الطويل]:

ولـمّا انقضَى الفتحُ الذي كان يُرتجَى	وأصبح حزبُ الله أغلبَ غالبِ
وأنجزَنا وَعْدٌ من الله صادقٌ	كفيلٌ بإبطال الظّنون الكواذبِ
وهَبُّوا كما هَبَّ النّسيمُ إذا سَرى	ولم يترُكوا بالشرقِ عَلْقةَ آيبِ
يَغَصُّ بهم عَرْضُ الفيافي وطولُها	وقد زاحَموا الآفاقَ من كلِّ جانبِ
كأنّ بسيط الأرض حلْقةُ خاتَمٍ	بهمْ ويعم البحر بعضُ المذانبِ

ومَـدَّ عـلى رَغْـم الـصَّغار لـسِلْمِنا يدَيْه عظـيمُ الـرّوم في حـال راغـبِ

يُـصرِّح بـالرُّغْبى وبـينَ ضـلوعِهِ تـنفُّس مـذعورٍ وزفـرةُ راهـبِ

وَعَى من لسانِ الحال أفـصحَ خُطبةٍ وما صمَتَتْ عنه فِصَاحُ القواضبِ

وأصـبحَ منحـوت الفـؤاد يـحُثُّهُ إلى المقصدِ المطلـوب صـورةُ طالـبِ

فأُسـعِف والمطلـوبُ مـا لا يَظُنُّـه ولله سِرٌّ في هُـدونِ المحـاربِ

أشَرْنـا بأعنـاقِ الجِيـاد إلـيكُمُ وعُجْنا عليكمْ من صُدور الركائبِ

إلى بُقعـة قـد يمَّـن اللهُ فـضلَها بمَن حَلّ فيهـا مـن إمـام وصـاحبِ

سـنَطوي إليهـا بالـذّميل مَـراحلًا ونَثْني إليها العَـزْم مـن كـلِّ جانـبِ

وهي طويلةٌ من قول الكاتبِ المتطبِّب أبي بكر ابن طُفَيْل الوادي آشيّ، وعظيمُ الرّوم الذي ذُكِر فيها هو صاحبُ صِقِلِّيَّةَ والجزائرِ الشرقية.

ولـمّا وصَل هذا الشعرُ في طيِّ الرسالة المذكورة إلى مدينة إشبيلِيَةَ استَبْشَر الناسُ بما يسَّر اللهُ لأمير المؤمنين من الفتح وكريم النُّجح، وقابَلَت منها العيونُ لذيذَ الوسَن والكَرى، واجتَمَعت أشياخُ إشبيلِيَةَ برسم التّهنية للسيِّد أبي إسحاقَ فهنَّوه على ذلك، وقام ابنُ الجَدّ خطيبًا بينَ يدَيْه، وأنشد أبو مروانَ عبدُ الملك بن محمد في المعنى قصيدةً أولُها [من الكامل]:

فـتحٌ يَفُـوتُ مـداركَ الأوهـامِ ويُعجِّـزُ الإحـصاءَ بـالأقلامِ

صَدَع الـدُّجى صَـدْعُ الـرِّداءِ بنُـورِهِ فـأرى الغُـواةَ تقـضِّيَ الأحـلامِ

خيرُ البشائرِ صُوِّغت حَـمْلَ الـمُنى بقفـول خـير خليفـة وإمـامِ

وافَـتْ كـما ابتـسم الأمـانُ لخـائفٍ وانـهَلَّ إثْـرَ الـمَحْل سَـكْبُ غَـمامِ

لـمّا طَـوى طـيَّ الـسِّجِلِّ مـشارقًا أمَّ المغـاربَ نـاصرُ الإسـلامِ

يـا أيهـا الملِـكُ الـذي في ظلِّـهِ أمِـنَ الـمَرُوعُ حـوادثَ الأيـامِ

وسَـطا وجَـادَ ومـا تَباطَـا شـأوَهُ أسَـدُ العَـرِين ولا الغَـمامُ الهـامي

وجَرى علـى نَـهْج الخلافـة تابعًـا ... آثارَهـا في الـنَّقض والإبـرامِ

هنَّأتَنـا نُعمـى تَـجِلُّ عـن الـمُنى ... قـدرًا وقِـسمًا لـيس كالأقـسامِ

ولـمّا أنفذَ الخليفةُ أبو يعقوبَ عساكرَ العَرَب إلى الغَرْب على ما ذكَرَه في رسالته التي بعَثَها إلى الأندلس، أخَذ قافلًا من إفريقيّةَ إلى مَرّاكُش وترَكَ مُستنابًا على إفريقيّةَ أخاه أبا عليّ الحَسَنَ بمدينة تونُس، ووَلّى أخاه أبا موسى بِجَاية وأنظارَها، وحينَئذٍ أخَذ في الانصراف والقُفول إلى حضرته، وكان وصُولُه إلى فاس في شهر صَفَر من عام سبعة وسبعين.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وسبعين: أُسِر غانمُ بن مُرْدنيشَ قائدُ الأُسطولِ بسَبْتة وأخوه أبو العُلَى وجُملةٌ من أصحابِه، واستُشهِد باقي إخوته وجماعةٌ من المسلمينَ رحمَهم اللهُ تعالى، واحتَوى النّصارى على كثير من القطائع وعلى مَن كان فيها من المسلمينَ، وانصَرفوا إلى أُشْبُونَةَ، وذلك في منتصَف محرَّم، فتقاطَعَ غانمٌ بمال عظيم وكتَبَ لأمير المؤمنينَ من موضع اعتقاله بوَصْف أسرِه وسُوءِ حاله، فوصَل كتابُه إلى تِلِمْسانَ في أول صَفَر، فأمَرَ في الحين لأبي القمر هلال بن محمد بن مُرْدَنيش أخي غانم أن ينصرفَ إلى حضرة مَرّاكُش لينظُرَ في فداءِ أخيه، وأمَرَ بإنشاء الأُسطول بإشبيلِيَة، فلمّا وصَل أبو القمر إلى مَرّاكُش حضَرَ المالُ وبعَثَ به إلى إشبيلِيَة، فانصَرف الفِكاكُ به ودَفَعه إلى العدو، وانطلق غانمٌ المذكور من الأسر وأخوه ومَن كان بقيَ من أصحابه.

ثم كثُر كَلَبُ العدوِّ في هذه السنة في البحر، وكان النّصارى من أهل طُلَيْطُلَة وشَنْتَرِينَ طولَ مدة مَغِيب أمير المؤمنينَ قد ألحُّوا على جهات الأندَلس بالنِّكاية وشنِّ الغارات على القُرب والبعد من بلاد الإسلام، فلمّا وصَلتِ البشائرُ بوِفادة أمير المؤمنين نَشِطت النفوسُ لجهاد أعداءِ الله الكفّار، فأبْلَوْا فيهم بلاءَ مَن أخَذ بالثار.

وفي هذه السنة: توفِّي أبو يعقوبَ ابن بخيت بغَرْناطة، والقاضي أبو عبد الله ابن القاضي عِيَاض، وأبو الحَسَن ابن يَرْبوع قاضي مالَقةَ رحمَهم اللهُ تعالى.

وفي سنة سبع وسبعينَ وخمس مئة: وصَل البشيرُ إلى إشبيلِيَة بوصُول الخليفة إلى حضرته، فمشَى السيِّدُ أبو إسحاقَ منها للقاءِ أبيه وتهنئتِه ومشَى صُحبتَه ابنُ وانودينَ

وغيرُه من الموحِّدين وأشياخُ إشبيلِيَة، وعندَما عَلِم أشياخُ قُرطُبَة وغَرْناطةَ ومُرْسِيَة بِدار أهل إشبيلِيَة أخَذوا في الـمَشْي إليه والوفودِ عليه، فوصَلوا معَ السيِّد أبي عبد الرحمن يعقوبَ بن عبد المؤمن الوالي على مُرْسِيَة، ثم إنّ هذا الوَفْدَ المذكورَ أقام بمَرّاكُش إلى أوّل شهر ذي القَعدة ثم انصَرفوا إلى بلادهم.

وفي هذه السنة: عسكرَ أبو عبد الله محمدُ بن وانودينَ الـهَنْتاتيُّ بجميع الموحِّدين من أهل إشبيلِيَةَ وجميع مَن كان فيها من الأجناد، وحشدِ أهل الحصُون من الخَيْل والرُّماة، وخَرج من إشبيلِيَةَ في غاية منَ الاستعداد، فغَنِم المسلمونَ جميعَ ما وجَدوه بخارج يابُرةَ من الغنَم والبقر، ونازَلهم في يوم عاشُوراء، وأمَرَ بقَطْع ثمارِها وأشجارِها وكرومِها وإعفاءِ رسُومها، وابنُ وانودينَ يَقدُمُ المسلمينَ كاللّيثِ الضاري، ويستعينُ في جهادِه بالخالق الباري ـ والكفَرةُ أهلَكَهم الله قدِ انْجَحَرُوا خلْفَ سُورِهم انْجحارَ الثعالبِ العاوية إذا سَمِعت زئيرَ الأسودِ العادية ـ ولقد كان يومًا في خِبائه نائمًا في القائلة والمسلمونَ يُغيرونَ في كلِّ جهة، فخَرجَتِ النّصارى من يابُرةَ في حين غَفْلة، فاستيقَظَ من نومِه، وركِب من فَوْرِه، فهزَمهم أجمعينَ حتّى تَساقَطوا في حَفير السُّور رجالًا دون دوابّ، فأُخِذت دوابُّهم وأسلابُهم وقُتل منهم خَلقٌ كثير ولم يَخرُجْ منهم بعدَ ذلك قليلٌ ولا كثير. وأقام ابنُ وانْودينَ عليها يومَيْن وانصَرف عنها بالعسكر فصَبَّحوا حِصنًا آخرَ للنّصارى يُسمَّى حِصنَ فنج[1] فساء صباحُهم ولم يستيقظوا من سَكْرتهم إلا واللّيلُ قد أحاطَ بهم من كلِّ جانب فتغلَّبَ على الحصن، وفَتحَه ومنَحَه اللهُ من المغنَم ما مَنحَه فسَبى من النّساء أربعَ مئة بينَ كبيرة وصغيرة، ومن الرّجال مئة وعشرينَ وقتَل منهم خَلقًا كثيرًا، ودخَل إشبيلِيَةَ في داخِل الـمُحَرَّم في تبريزٍ وحَفْل عظيم، وباعَ السَّبيَ بها فكثُر عندَ الناس الخَدَم، وامتدّت النِّعَم.

وفي هذه السنة: كانت وَقْعةٌ أيضًا على النّصارى في البحر، وذلك أنّ قائدَ سَبْتَة عبدَ الله بن جامع، وهُو الـمُوَلّى عليها، حين أُسِر غانمُ بن مُرْدنيش، خَرج منها بالأُسطول، وخَرج القائدُ أبو العبّاس الصِّقِلِّيُّ من إشبيلِيَةَ بأساطيلِها، واجتَمَعوا جميعًا

(١) هكذا في النسخ كافة وقد ترسم «بنج» لأن أصلها باء أعجمية P، ونبه هويسي ميرندا إلى أن الصواب فيه قليج.

بجزيرة قادِسَ وقدِ استكمَلوا أربعينَ قطعةً، فنَهَضوا منها بجَمْعهم إلى جهة شِلْب، فالتقَوْا بأُسطول أهل أُشْبُونَةَ بالموضع الذي أُسِر فيه غانمُ بن مُرْدنيش في البحر، وعكس فيه في مُنتصَف محرَّم من العام الفارِط فالتقوا الآنَ في الخامسَ عشَرَ من محرَّم أيضًا، وهذا من أغربِ الأشياء، فنَصَر اللهُ المسلمينَ في هذا اليوم نَصْرًا مؤزَّرًا وقَتَل من النّصارى كثيرًا وأَسَر منهم نحوَ الألف وثماني مئة، ولم يمُتْ فيه من المسلمينَ[1] إلا رجلٌ واحد وأُخِذت لهم من القطائع نحوُ العشرينَ معَ أسلابِهم وأسلحتِهم واقتَسَموا الغنيمةَ منَ الأسرى وغيرِهم وانصَرفوا ظاهرينَ ظافرينَ إلى موضعِهم، وبادر القائدانِ المذكوران: ابنُ جامع والصِّقِلّيُّ بغنيمتَيْهِما من الأسرى إلى أمير المؤمنين فأعطَى منهم البعضَ في فداءِ غانم من مُرْدنيش وضُربت أعناقُ الباقين.

وألَـحَّت خيلُ النّصارى أهلَكَهم الله من أهل شَنْتَرينَ بالضَّرب على بعض بلاد المسلمينَ بالشَّرَفِ وغيرِه، فخَرج إليهم عسكرُ المسلمين من إشبيلِيَة فتقاتَلوا قتالًا شديدًا، وقُتل فيه من النّصارى نحوُ مئةٍ وسبعين، ثم خَرج كمينُهم فانهزَم المسلمونَ واستُشهِد منهم جماعة. ثم توالَت خيلُ طُلَيْطُلة بالضَّرب على إستِجَة وجِهة قُرطُبة فخوطب بذلك الخليفةُ بالحضرة.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة: وقَعَت بالأندَلس أحداثٌ قبيحة، فمن ذلك: أنّ خيلَ النّصارى من جهة شَنْتَرِينَ وإشبُونَة وصَلوا إلى قرية شُلَوْقَة[2] من الشَّرف، فضَربوا عليها في ألفِ فارس وألفِ راجِل وقَتلوا مَن وَجَدوا من المسلمين وأسَروا وغَنِموا وأغاروا على حِصن القَصْر وغيرِه، وانصَرف هذا العدوُّ دمَّره اللهُ على طريق لَبْلة موفورون، والمسلمونَ بين أيديهم مأسورون.

وحادثٌ أيضًا، وهو خروجُ الطاغية العدوِّ أذْفُونْش الصّغيرُ أهلَكَه اللهُ إلى بلادِ المسلمين بجَمْعه الذّميم زاعمًا أنه يحتوي على الأندَلس، ووصَل وَفْدٌ إلى إشبيلِيَةَ من قُرطُبة يعرِّفونَ أنّ الطاغيةَ أذْفُونْش ابن شانجُهْ ملك قَشْتالةَ وطُلَيْطُلة قد وصَل بجُموعِه لحصارِ قُرطُبة، فارتفعَ السعرُ بها ارتفاعًا عظيمًا، ثم تَرادَف الخبرُ بنزولِه

(١) قوله: «من المسلمين» سقط من ك.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣٥٩.

عليها وانتقالِه بعساكرِه الذّميمة إليها في الرابع من صَفَر، فنزَلَ بمقرُبة منها وشَنَّ غاراتِه إلى جهة مالَقة ورُنْدة وغَرْناطة، فغلا السعرُ لذلك وعَظُمت الضِّيقةُ، ونظَر ابنُ وانودين في توجيه الموحِّدين لضبط البلاد المجاوِرة لإشبيلِيَةَ وشدِّها بالرِّجال، ودَفَعوا بعضَ ضَرَر النّصارى بفَحْص قَرْمُونة وأبو عبد الله ابنُ وانْودين شديدُ العَزْم والحَزْم في النّظر حولَ إشبيلِيَة وخيلُ العدوِّ تَجُولُ يمينًا وشمالًا في اكتساح وتدمير. ثم نازَلَ إستِجَةَ ولازَمَها حتى نَقَب سُورَها وكاد يتغلَّبُ عليها، وكان حافظَها أبو محمد ابنُ طاع الله الكوميُّ[1]، فثبّتَه اللهُ فيها وثبَّت أقدامَ المسلمين. ولـمّا كان يومُ الخميس الثالثَ عشَرَ لصَفَر أقلعَ من إستِجَةَ يريدُ إشبيلِيَة، فأقام العدوُّ في فسادٍ وتدمير، وفي خلال ذلك دخَل حصنًا من عَمَل رُنْدة بغَدْر يهوديٍّ دَلَّهم على عوراته، وأخَذوا فيه ألفَ نَسَمة وأربع مئة ما بينَ رجل وامرأة، وأحرَقوا الزّروعَ بنَظَر الجزيرة ورُنْدة حتّى اجتَمع عندَهم من المغنَم من كلِّ قُطرٍ وجِهة ما لا يُحيطُ به الوَصْف.

وحادثٌ أيضًا، وهو تغلُّبُ العدوِّ على حِصن شنتفيلةَ[2] والمنار على ما كان عليه منَ الامتناع والارتفاع، فطَمِع العدوُّ في غيرِه، وقال لأقماطِه حين أخَذ شنتفيلةَ: الآنَ آخُذُ قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ، وكان تغلُّبُه عليها في السابعَ عشَرَ من صَفَر، فأَسَر فيه منَ الرّجال والنساء سبعَ مئة ففَداهم أهلُ إشبيلِيَة بألفَيْن وسبع مئة دينار وخمسة وسبعينَ دينارًا ذهبًا، دَفَع منها ابنُ زُهر من مالِه مئةَ دينار عَيْنًا والباقي جَمَعه الناسُ بالمسجد.

وحادثٌ مروِّعٌ أيضًا، وهو تحصينُ العدوِّ بشنتفيلةَ وإسكانُها بالنّصارى وجَلْبُ الأقوات إليها وتقويتُها بالعُدَد والآلات، فلمّا أكمَلَ مُرادَه أسكَنَ فيها خمسَ مئة فارس وألفَ راجِل وعاهَدَهم على حمايتِهم وإعانتِهم، وأقلَعَ لعنه اللهُ إلى بلاده في الثالثَ عشَرَ لشهر ربيع الأول من السنة، وكان تدوخُه أقطارَ الأندَلس خمسةً وأربعين يومًا. ولـمّا تُحقِّق انصرافُ العدوِّ إلى بلاده اجتَمع رأيُ الموحِّدين على مُنازلة شنتفيلةَ ودَفْع دائها العُضال.

---

(١) اسمه عبد الله، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٢، والاستقصا ٢/ ٢١٧.

(٢) وتكتب «شنت فيلة» كما في معجم البلدان ٣/ ٣٦٧.

ذكرُ مُنازلة شنتفيلةَ التي غدَرَها اللَّعينُ في هذه السنة

فاستَنْفَر السيِّدُ أبو إسحاقَ ابنُ الخليفة أبي يعقوبَ صاحبُ إشبيلِيَة جميعَ الأجنادِ والحشود من بلادِ الأندلس برَسْم الجهاد، فوصَلوا أجمعين، فتحرَّك من إشبيلِيَة غُرَّةَ ربيع الآخِر من سنة ثمانٍ المؤرَّخة، واتَّفق في هذا اليوم فتحٌ استَبْشَر الناسُ به، وذلك أنّ أكثرَ النّصارى الذين كانوا بشنتفيلةَ خَرجوا منها وأغاروا على بعض الجِهات، فخَرج المسلمونَ في اتّباعِهم من قَرْمُونَةَ وغيرِها فالتقَوْا معَهم وهزَموهم وقَتلوا منهم سبعينَ فارسًا وأَسَروا آخَرينَ واستاقُوهم مكبولينَ إلى السيِّد أبي إسحاق، فضَرَب أعناقهم في الطريق.

ولـمّا وصَلتِ العساكرُ إلى شنتفيلة أحدَقوا بها من كلِّ جانب، فضاقَت حالُ الكَفَرة وعَدِموا الشّعيرَ لعَلَف دوابِّهم فعَلَفوها القمحَ فمات أكثرُها، فأقام المسلمونَ عليهم ستةً وأربعينَ يومًا، فلمّا كان السادسُ لجُمادى الأُولى وصَل الخبرُ أن أذْفُونْش خَرج من طُلَيْطُلَةَ قاصدًا لنَصْر إخوتِه الملعونين، فأقلَعَ السيّدُ والموحِّدون وانصَرفوا إلى إشبيلِيَة، ثم وصَل العدوُّ بعدَ أربعة أيام من إقلاع المسلمين، فخَرج إليه من شنتفيلة إخوتُه الكَفَرة فميَّزهم فلم يجِدْ من الخمس مئة فارس إلا خمسينَ فارسًا ومات الباقونَ بالقَتْل والوباءِ وعَلْفِ القمح للدوابّ، ولم يجِدْ من الرّجال إلا ست مئة من ألف، فأمَرَ لهم بالرّحيل عنها والإخلاءِ منها في الخامسَ عشَرَ لجُمادى الأولى من السنة.

اختصارُ الخبر عن حركة الخليفة أبي يعقوبَ إلى بلاد السُّوس لقَطْع المنافقينَ عن المعدِن

وذلك أنه لـمّا صَحَّ عند أمير المؤمنينَ أنّ المعدِن الذي بجَبَل السُّوس على مقرُبة من بلاد هرغةَ قد أُخرِج منه شيءٌ لم يُعهَدْ في قديم الزّمان ولا سَلَّه قطُّ أهلُ ذلك المكان، وظَهَر أهلُ هذا الجَبل بما تحصَّل في أيديهم منه واغتَصَبوه لأنفسِهم دونَ حقّ منه للخليفة، فعسكَرَ في أوّل صَفَر من سنة ثمانٍ وسبعينَ وخمس مئة وخَرج من حضرة مَرّاكُش لتحصينِه وتحصيلِه، فوصَل إلى المعدِن المذكور، فنظَر الخليفةُ في بناء حِصن عليه وأسكَنَه بالأجناد واستعَدَّ لتحصينِه غايةَ الاستعداد. فلمّا أكمَلَ غرَضَه أقلَع بمحَلّاتِه

عنه وسلَكَ على مسالكِ الـمَهْديِّ وزارَ قبرَه وقبرَ أبيه عبد المؤمن وأظهَر الإيحاشَ إليهما وأسكَبَ عبَراتِه عليهما، وأمَرَ وفودَ الأندَلس أن يسيروا من مَرّاكُش إلى زيارتِهما.

قال أبو مروان عبدُ الملك بن محمد في تاريخِه: وكنتُ في وَفْد إشبيلِيَة، فزُرتُ القبرَيْنِ المكرَّميْنِ بتينملَ معَ أبي بكر بن زُهْر وأبي الوليد بن رُشْد، وأمَرَ طلبةَ[1] الحضَر أن يَرْثُوهما ويَذكروا غُرَّ فضائلِهما ومآثرِهما، فقال الناسُ في ذلك وأطْنَبوا، فحَباهم عليه بالعطاءِ الكثيرَ، فمِن ذلك قولُ أبي مروانَ بن خالد [من الطويل]:

مجَاري عيونِ المسلمينَ تَسيلُ ... دمًا ونَجِيعًا والدموعُ هَمُولُ

ألم تَرَ أنّ الدّهرَ قد عمَّ صَرْفُهُ ... ففي كلِّ دار أنّةٌ وعَويلُ

وإنْ طال في الدُّنيا مقامٌ لإمرئ ... فلا بدَّ يومًا أن يكونَ رحيلُ

فيا رَوْضةَ المَهْديِّ حَلّ بكِ الهُدى ... وسِرٌّ معَ الأيام ليسَ يَحُولُ

أحقًّا أميرُ المؤمنينَ إمامُنا ... مَحَا القمرَ الدِّينيَّ منه أُفولُ

أحقًّا مضَى المنصورُ واختار ربَّهُ ... فليس مدى الأيام منه قُفولُ

مضَى بعدَ ما أحيا الأنامَ بهَدْيِهِ ... وقام بأمرِ الله وهْو كفيلُ

وطَهَّر دينَ الله من دَنَسٍ بهِ ... وأظهَر هَدْيًا جاء فيه رسولُ

أقام بأعلى تينمَلَ وإنّما ... إلى جانب المَهْديِّ منه نزولُ

هما في جِنان الخُلد في صَفْوة الرِّضَى ... مَقِيلُهما عندَ الإله مَقِيلُ

معَ المصطفى خيرِ الأنام محمدٍ ... وظِلُّهما عندَ الإله ظَليلُ

فطُوبى لأرضٍ حَلّ فيها إمامُهُ ... ولله مَهْديٌّ بها وخليلُ

ويا عجَبًا للقبرِ كيف أحُلُّه ... وقد كانت الدّنيا إليه حَلولُ

فحُقَّ لأهل الدِّين سَكْبُ دموعِهمْ ... وحُقَّ لكلِّ المؤمنينَ ثُكولُ

فتبكي عليه الخيلُ في حالة الوَغَى ... إذا كان ضربٌ والبكاءُ صَهيلُ

---

(١) في ك: «بطلبة».

ويَبكيه أهلُ الغَـرْب والـشّرق دائـمًا | وتَنــــدُبُهم شُـــبّانُهمْ وكهــــولُ
كــأنّ الغـــواني الباكيـــاتِ حمـــائمٌ | يُـــهيِّجُها عنـــدَ العَـــشِيِّ هَـــديلُ
لئن كان أصلُ الحقِّ في التُّرب قد ذَوَى | فـــإنّ لفَـــرْع الحـــقِّ منـــهُ أُصـــولُ
فـــألقَى إلى خـــير الخلائـــفِ عهـــدَهُ | أجـــلِّ بَنِيـــه وهْـــو منـــهُ سَـــليلُ
إلى مَـــن لـــهُ في العِلـــم أكثـــرُ مـــذهبٍ | وكـــلُّ كثـــيرٍ في عُـــلاهُ قليـــلُ
إلى شِبْهِهِ في الخَلْـق والخُلْـقِ والـرِّضَى | لـــه الخُلفـــاءُ الكـــافِحونَ قَبِيـــلُ
هـــو الطـــاهرُ الـــصَّوّامُ كـــلَّ زمانِـــهِ | رؤوفٌ بحـــالاتِ الأنـــام مُقيـــلُ
فـــلا زال منـــصورًا بـــأمرٍ مظفَّـــرٍ | وأســـيافُهُ في الكـــافرينَ تَـــصُولُ

وأما الرابِطتانِ اللّتان بقُرب الغار الذي في جَبل إيجليزَ حيث كان الـمَهْديُّ رضيَ اللهُ عنه، فالواحدةُ[1] منهما تُسمَّى: رابطةَ وانسري، والأخرى: رابطةَ الغار، فكان الناسُ يأخُذونَ التّرابَ منهما فيتبرَّكونَ به ويجعَلونَه على المرضى. ولـمّا انقَضت هذه الزيارةُ انصَرف الخليفةُ إلى مَرّاكُش وانصَرف الناسُ معَه.

وفي مدة هذه الحركة المباركة، كان خروجُ الطاغية أذْفُونْش، لعنه الله كما تقدَّم ذكرُه، إلى نَظَر قُرطُبَةَ وإشبيلِيَة، وأحدَث فيهما مَن العَيْث ما أحدَث، فرأى الخليفةُ أن يَنظُر للموحِّدين بالأندَلس بتقوِية عَزْمِهم وإعمال جَدِّهم وحَزْمِهم وأمرِهم بالصبر، فيسَّر اللهُ سبحانَه حديثَ شنتفيلةَ على ما ذكَرْنا، ونظَرَ ابنُ وانودينَ الآنَ في الغزوِ على ما أذكرُه.

ذكرُ غَزْوة ابن وانْودينَ إلى طَبِيرةَ[2]

ونظَرَ أبو عبد الله ابنُ وانْودين في الجهاد، فاشتَغَلَ بحَشْد الأجناد، فاجتَمعوا بإشبِيلِيَة على أكمل المراد، فتحرَّك بالعسكر في الثامن لجُمادى الآخِرة سنةَ ثمانٍ وسبعينَ ومعَه الموحِّدونَ وأشياخُ الأندَلس، وسلَكَ بهم على طريق قُرطُبة، ثم تَرَك طريقَها

---

(١) يعني: الأولى، أو إحداهما.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٤. وفيه: «طلبيرة»، وأثبتنا ما في النسخ، وسبق أن علّقنا على هذا الأمر، فالمراد: طلبيرة.

وسلَكَ على غير طريق، حتّى خَرج إلى حِصن بثةَ[1] المنسوب لابن سعيد الخَيْر، ولـمّا وصَل إليه ميَّزَ العسكرَ عليه فألفَى فيهم عَددًا وافرًا فسَرَّه ذلك، وتَشاوَرَ معَ الأشياخ فاتّفق رأيُ الجميع أن يَضرِبوا على مدينة طَبِيرة، فتحرَّك بالجميع المذكور من حِصن بثةَ وسار سيرًا مُرتفِقًا بالناس مدةً من ثلاثة أيام وقد ستَرَه اللهُ بالضَّباب والغَيْم حتى خَفِيَ على النّصارى وصولُه، فلمّا كان بمقرُبةٍ منها التقَوْا بسَرِيّة من النّصارى نحوٍ من عشرينَ فارسًا فأحدَقوا بهم وأخَذوهم إلا دليلَهم، فإنه فَرّ، ولـمّا قرُبَ المسلمونَ من وادي تاجُه[2] لم يجِدوا مغنمًا[3]، فعَلِموا أنّ ذلك الفارَّ قد أُعْلِمَ بخبرِهم وكشَفَ عن أثَرِهم فأَزْعَجوا في السَّير إلى قُرب طَبِيرة فأغاروا على ما وجَدوا من المغنَم في فَحْصِها وساروا على تعبيةٍ وترتيب وحَنَق على عَبَدة الصّليب حتّى وصَلوا طَبِيرةَ المذكورةَ في منتصَف جُمادى الآخِرة من السنة المؤرَّخة.

وفي غدِه كانت الغَزْوةُ في الكَفَرة والحمدُ لله، فنزَلَ المسلمونَ في رَبْوةٍ مرتفعة مجاوِرة للمدينة بنَحْو مِيل وضَرَبوا أخبيتَهم ونشَروا ألوِيتَهم وباتوا بها ليلتَهم أحسَنَ مَبيت، فأنكَر النّصارى ما عايَنوهُ من الإقدام عليهم والثَّبوت لدَيْهم، وكانوا منذُ سبعينَ سنةً لم يَرَوْا مسلمًا في تلك الأرض إلّا إن كان مأسورًا عندَهم، فحَشَدوا جميعَ من في بلدِهم وبَعَثوا عن أهل الحصُون المجاوِرة لهم، واجتَمعوا كلُّهم وخَرجوا إلى الرَّبوة المذكورة، فقلَّلهم اللهُ في أعيُنِهم والمسلمونَ قد أقلَعوا مُنصرِفينَ بعدَ ما امتلأَتْ أيديهم من المغانم والأَسرى، فجَدّ الكَفَرةُ في اتّباعِهم، وعزَموا على مقاتلتِهم ودفاعِهم، إلى أنِ اتّبَعوهم نحوَ ثمانيةِ أميال ولم يبقَ في طَبِيرةَ شيخٌ ولا صَبِيٌّ إلا خَرج، ومعَهم القِسِّيسُ يُحرِّضُهم على القتال ويَضمَنُ لهم الظَّفَر، وابنُ وانودين يَقدُمُ أصحابه ويَعِظُهم بما لهم عندَ الله من الأجر والثّواب على الجهاد، وهو معَ ذلك يُطاولُ معَ النّصارى الـمُقاتلة ويقطَعُ الأرضَ باعًا باعًا ليَخرُجَ من قُرب بلادهم، إلى أن أشرَفوا على جَبل يَستُرُهم فنزَل العسكرُ وراءه وقال لهم: هذا موضعُ الحرب إن شاء الله،

---

(١) في ك: «ثبة».

(٢) في النسخ: «باجة» وهو تصحيف ظاهر.

(٣) في ك: «غنمًا»، وهو تحريف.

واعلَموا يا إخوانَنا أنّ أرضَكم بعيدة وأنّ الفِرارَ يُدخِلُ النار فتثبَّتوا يَنْصرْكُم الله، فتوادَعَ النّاسُ وعَزَموا على الجهاد، فتقدَّم أبو عبد الله ابنُ وانُودين والمسلمونَ معَه للدّفاع فحَمَلوا على الكَفَرة حملةً أهلَكَهم اللهُ فيها فانهزَموا وولَّوا أدبارَهم وقطَعَ اللهُ آثارَهم، ومات منهم في الموضع المذكور أزيَدُ من عشَرة آلاف بينَ فارس وراجِل وقُتل فيها من اليهود نحوُ الألف، وامتلأت أيدي المسلمينَ من أسلابِهم ودوابِّهم.

ودخَل ابنُ وانُودين والمسلمونَ إلى إشبيلِيَة شاكرينَ مسرورينَ بما فتَح الله عليهم، وعُرِّف أميرُ المؤمنينَ بصُورة هذا الفتح فسُرَّ به غايةَ السّرور، وخاطَبَ بذلك ابنَ وانُودين وقال في خطابِه له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فبقيَ أبو عبد الله من ذلك في وَجَل وتحتَ كَسَل. وتغيَّر الخليفةُ على السيِّد أبي إسحاقَ في كونه لم يحضُرْ تلك الغزوةَ التي نُسِبت لابن وانُودين وهُو من[1] جُملة قُوّادِه، وعاقَبَ كلَّ مَن تخلَّف عن الأجناد وهَجَر، وحُرِم من العطاء حتى تابَ واستغفَر.

بعضُ أخبار يوسُفَ بن وانُودين الـهَنْتاتيِّ
وما كان لابنه محمدٍ من المآثر

وذلك أنه لم يتقدَّمْ أحدٌ من الموحِّدين بالدّخول في هذا الأمر وهو أميرٌ على قبيلة إلا أبا يعقوبَ يوسُفَ بن وانُودين، فإنه وصَل معسكرًا في قبيلته ومَن طاوَعَه من إخوانِه الـهَنْتاتيِّين فضَخُم به التوحيد وعَظُم به التمهيد، وهو الذي استاق قبيلةَ جزولةَ وجَلَبَهم وأدناهم لهذا الأمرِ العالي وقرَّبهم، وكان عندَ الخليفة أمير المؤمنينَ من كبار أهل خمسينَ، ونشَأَ أبو عبد الله هذا أحسَنَ مَنْشَأ على الطّهارة الدِّينية وتلاوة كتابِ الله تعالى معَ العقائد الـمَهْديّة وعَرَضَ «الموطّأ» في المجلس السامي بمحضرِ أمير المؤمنينَ عبد المؤمن وعِلْية الناس، وقَرَّبه كثيرًا معَ صِغَر سنِّه فزادت نَجابتُه وعَلَت مكانتُه، وقَدَّمه قائدًا على العسكر، وأصحَبَه معَ نفسِه في الغَزَواتِ والحَركات، وحضَر معَه فتحَ بِجَايةَ والـمَهْديّة وسائرَ الفتوحات، وكان بطلًا شُجاعًا ذا نَجْدة وشَهامة،

(١) وقع سقط كبير في ق، ك، ر٣، ب من هنا إلى قوله في العنوان الثاني «الحافلة الاستعداد»، وهو عنوان الخبر المبتدئ بقوله: «اختصار الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوب من مراكش إلى غزوته الحافلة الاستعداد... إلخ».

وله الوقائعُ المشهورة والمشاهدُ المذكورة، من ذلك: معَ عسكر ابن مُرْدنيش وأهل شَرْق الأندَلس، وحَرْبُه معَهم في سنة سبعين، وهزيمتُه أيضًا للنّصارى أهل شَنْتَرين، وفَتْحُه لِحصن بنج وسَبْيُه أهلَه، وهزيمتُه أيضًا للنّصارى الذين أغاروا على حِصن برجانةَ وقَرْمُونة، وتوصيلُه المِيرةَ العظيمة إلى مدينة بَطَلْيَوْس، ومواقفُه لأذْفُونْش في اليوم المشهور في حِصن الغلال، وتغلُّبُ المسلمينَ من الفرسان والرِّجال على أخبِية محَلّة الطاغية أذْفُونْش لعنَه الله، وإنقاذُهمُ الأسرى والمَغانمَ من أيدي النصارى، وإقلاعُ أذفُونْش باللّيل من ذلك الموضع فارًّا أمامَه، إلى غير ذلك من مَناقِبه. ثم بعدَ ذلك عَدَا عليه الزّمان وطولبَ وأُدِّب بسُكناه حِصنَ غافِق: من ثغور الأندَلس، ثم بعدَ ذلك استقرَّ بتونُسَ على ما يأتي.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثمان[1] وسبعين: غَلَتِ الأسعارُ بمَرّاكُش والأندَلس، واعتَلَّ الخليفةُ فوَفَدت عليه الأطباءُ من الأندَلس للمعالجة إلى أن وجَد الراحةَ فامتَدحَه الشعراء، وعمَّهم منه النَّيلُ والإعطاء، فمنهم: أبو العباس بنُ عبد السلام، قال من قصيدة يمدَحُه ويهنِّيه ببُرئه [من الوافر]:

ستملِكُ أرضَ مصرٍ والعراقا	وتَجري نحوَك الأُممُ استباقا
إذا لم يتفقْ رأيٌ ورأيٌ	أفادا في محبّتِك اتّفاقا
صَفَا لك كلُّ قلبٍ غيرِ صافٍ	وزَحْزَح عن ضمائره النِّفاقا
وحقِّكمُ وحقُّكمُ عظيمٌ	لقد حَسُن الزمانُ بكم وراقا
وقد بَلَغ الوجودُ بكمْ مُناهُ	وقد أمِنَت عصا الدِّين انشقاقا
تبادَرَت الفتوحُ إليه تَجري	غرائبُها وتَستبقُ استباقا
أميرَ المؤمنين ومَن عليهِ	سَنَا الإسلام يأتلقُ ائتلاقا
ويا ملكًا أحَنَّت كلُّ أرضٍ	إلى أرضٍ أقام بها اشتياقا
يحِنُّ إليك يومٌ غيرُ آتٍ	ويشكو الذاهبُ الماضي الفراقا

(١) في م: «ثلاث» ولا يستقيم.

شكوتَ فأيُّ قلب غير شاكٍ وأيُّ العيش لم يَمرُرْ مذاقا
ولولا عَطْفةُ الإبلالِ كنّا بنار الوَجْد نحترقُ احتراقا

وقال أيضًا يمدَحُه ويهنِّيه بالعيد [من المحدث]:

شَملت ببقائكمُ النِّعَمُ وسَمت برجائكمُ الهممُ
وهَمَت دِيَمٌ من راحتِكمْ هيهاتِ تُساجِلُها الدِّيَمُ
وعنَتْ لعزائمِكمْ عرَبٌ تَشقَى بصوارمِها العجَمُ
أُسْدٌ تنقادُ الأُسْدُ لها بُهمٌ تنقادُ لها البُهَمُ
حُمِدت شِيَمُ الأيام بكمْ ولكَمْ ذُمَّت منها الشِّيَمُ
بهَرت أنوارُ خِلافتِكمْ وسماءُ العلم بها عَلَمُ
فرَأى مَن ليس له بَصَرٌ ووَعَى من كان به صَمَمُ
وأناف المجدُ على زُحَلٍ وأتَى بغرائبِه الكرمُ
أعيَا البُلغاءَ مَقامُكمُ ولوَ أنّ مقالَهمُ حِكَمُ
العيدُ أحقُّ بتهنئةٍ فله بكمُ فخرٌ عمَمُ
دُمتُمْ والكلُّ يَلوذُ بكمْ من صَرْف الدّهرِ ويَعتصمُ

وفي هذه السنة: توفِّي قاضي الجماعة بمَرّاكُشَ أبو موسى بنُ عِمران في الخامس وعشرينَ لشعبان، وكان فريدَ زمانِه دِينًا وعِلمًا وأدبًا، فمِن قوله عند وفاتِه رحمه الله تعالى [من الكامل]:

دَعْ ذكْرَ دارٍ قَصْدُها أن تَخرَبا واعمَلْ لدار مُلكُها لن يذهبا
فالله مولانا يصُونُ جميعَكمْ لا أرتجي أَرَبًا سواه ومطلَبا
وهْو الكفيلُ برحمتي وسعادتي هذا وإن كنتُ المسيءَ المُذنِبا

وفي اليوم الذي توفِّي فيه أبو موسى بنُ عمران وَلِي مكانَه القضاءَ أبو العباس ابنُ مضاء.

وفي سنة تسع وسبعينَ وخمس مئة: أمَرَ الخليفةُ أبو يعقوبَ رحمه الله بتَوْسِعة مدينة مَرّاكُش وهَدْم سورِها الأوّل وإقامة سُورٍ آخَر.

ذكرُ السببِ في توسِعة مَرّاكُشَ حرَسَها الله

وذلك لـمّا دانَتْ لأمير المؤمنين المغربُ والأندَلس وإفريقيّة وملَكَ ملوكَها، وهَتك شركَها وشريكَها، واجتَمع في طاعتِه جميعُ أهل العُدوتَيْن طُرًّا، إلى أحواز طَرابُلُسَ برًّا وبحرًا، انْجَلى الناسُ إلى مَرّاكُش مِن كلِّ مكان، وتفاخَروا في سُكناها بحسَبِ القُدرة منهم والإمكان، فصارت أوسعَ البلاد معاشًا وأكثرَها خَلْقًا وأربحَها تجارة، فضاقت بالناس، فلم يَجِدوا موضِعًا للبناء ولا محَلًّا للسُّكنى، وكان الأميرُ أبو يعقوبَ أمَرَ القبائلَ هسكورةَ وصُنْهاجةَ أن يَرتحلوا من بلادهم إلى سُكناها بأهلهم وبَنِيهم فامتَثلوا ذلك ووصَلوا ولم يجِدوا حيث ينزلون، فشَكَوْا ضيقتَهم وحَيْرتَهم فنظَر أميرُ المؤمنينَ في ذلك، فركِبَ السيِّدُ المنصورُ ابنُه أولَ يوم ربيعِ الآخِر ومعَه شيوخُ الموحِّدين وعُرَفاءُ البنّائين ينظُرونَ تحتَ نظَرِه حيث يكونُ هذا الاتّساع، والأمرُ المطاع، فاتّفق رأيُهم على زيادة مدينةٍ متّصلة من جهة القِبلة، فرجَعوا إلى الخليفة وأعلَموه بذلك، فرأى رأيَهم وأمضَى سعيَهم، وأمَرَ العبيدَ والرّجالَ بهَدْم السُّور القديم بجهة بابِ الشريعة، وكان الابتداءُ في بناء الأساس المذكور صبيحةَ يوم الاثنين الخامس والعشرينَ من ربيع الآخِر من السنة المؤرَّخة، واتّصل بناءُ السُّور المذكور وبناءُ باب الشريعة مدةً من أربعينَ يومًا حتى كُمِّل، وجاء على ما قُدِّر فيه وأُمِّل.

وفي هذه السنة: كان الحادثُ الواصلُ من إفريقيّةَ إلى السيِّد أبي الحَسَن ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله، كان بينه وبين العرب بني سُلَيْم حرب بمقربة من قابِس، وأنّ الموحِّدين لـمّا دامت الحربُ بينَهم أمَروا لفُرسانهم أهل الرّايات أن يَنتقلوا من موضعِهم ويَأْووا إلى الجبل المسمَّى هنالك بجبل كِسرى يَقفوا فيه ويَمتنعوا من العَرَب في نواحيه، فظنَّ الناسُ في العسكر أنّ ذلك الانتقالَ عن انهزام فتَركوا أثقالَهم وانكَسَروا مهزومينَ دونَ قتال ومالوا عن السيِّد، فلَجَأ إلى الجبل المذكور بمَن معَه ولم يجِدوا فيه ماءً فعَطِشوا عَطَشًا شديدًا فدفَعوا على العَرَب دَفْعةً واحدةً فأحْدَق العَرَبُ بهم وتقَبَّضوا على السيِّد وعلى أصحابه.

وحين وصَل هذا الحادثُ اشتَغل بالُ الخليفة وخاطِرُه، وغار بذلك غَيْرةً عُلِم بها باديهِ وحاضرُه، وبَعث عن الموحِّدين وأعلَمَهم بالخَبر، واتّفق الجميعُ على غَزْو بني سُلَيْم وجهادِهم وأخْذِ الثأر منهم. وكان ورودُ الخبر بذلك في العاشر من جُمادى الأولى من سنة تسع المذكورة. ثم بعدَ ذلك بأيام، وصَل الخبرُ السارُّ بالإعلام، عن إطلاق السيِّد من أيدي العَرَب بمال أعطاهم في نفسِه وأصحابِه، وأنه وصَل إلى تونُسَ في الثاني من ربيع الآخِر، فانبسَطَت النفوس، وأُضحِكت الأيامُ بعدَ العبوس.

وفي هذه السنة: خَرج النّصارى إلى بعض حُصون المسلمينَ فقطَعوا كرومَها وأشجارَها وحرَّقوا زروعَها وخرَّبوا ديارَها، فبادَرَ أهلُها وأشياخُها إلى حضرة مَرّاكُش متضرِّعينَ إلى الله تعالى في نَظَر الخليفة لهم، ووَصَفوا إليه أحوالَـهم وما نالَهم من ضُرِّ العدوّ، فأمَرَ الموحِّدينَ بإشبيلِيَة أن يَحمِلوا إليهمُ المِيرةَ من الطّعام والآلات وغير ذلك، ووُعِدوا بالنّصر على أعدائهم وطبِّ دائهم، فانصَرفوا عنه راضينَ إلى إشبيلِيَة، وعندَما وصَلوا إليها استَظْهروا بالأمر على الموحِّدين، فجهَّزوا أربعةَ آلاف دابّة بالمِيرة أوصَلَها إليهم أبو عبد الله ابنُ وانُودينَ بعسكر من الموحِّدينَ والأجناد إلى بَلدتِهم، فحَيُوا بعدَ مماتِهم ونُشِروا بعد وفاتِهم.

وفيها: كانتِ السَّطوةُ بأبي زكريّا ابن حَيُّون شيخ كوميّةَ وبابنِه عليٍّ الذي كان مشرفَ تِلِمْسان وغيرِه، وكان كلَّ يوم يُخرَجُ مكبولًا للحساب على عملِه، ثُم أُخرج ابنُ حَيّونَ المذكورُ مَنْفيًّا من الحضرة إلى بَطَلْيَوْس، وبقيَ عليٌّ ابنُه في السِّجن إلى خروج أمير المؤمنينَ في غَزْوته إلى شَنْتَرِين.

وفيها: هرَبَ من مَرّاكُش عليُّ بن محمد بن رَزِين المعروفُ بالجَزِيري، وكان على مذهب الخَوارج الأزارِقة في تكفير جميع المسلمين، واجتَمع إليه قومٌ من البَرْبر يقرَؤونَ عليه مذهبَه، فأغْواهُم، وشاعَ خبرُه ومذهبُه، وسأذكُرُ مقتلَه في أيام المنصور إن شاء الله.

وفي هذه السنة: توفِّي بمَرّاكُشَ أبو بكر محمدُ بن عليٍّ الحَصّارُ الإشبيليّ.

وفيها: توفِّي بسَبْتَةَ القاضي أبو عبد الله ابنُ الحَدّاد والمشرفُ بإفريقيّةَ ابنُ مثنّى.

وفيها: أمَرَ أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ بتمييز الموحِّدين والعَرَب والقبائل للغَزْو، وذلك في يوم السّبت الخامس لجُمادى الآخِرة من سنة تسع وسبعينَ وخمس مئة.

اختصارُ الخبر عن حركة أمير المؤمنين أبي يعقوبَ من مَرّاكُش إلى غَزْوته[1] الحافلةِ الاستعداد، الكاملة الحشودِ والأجناد وما اندرَجَ فيها من سَطْوته بالعُمّال، وما حدَث فيها من الخطوبِ والأهوال، وهي آخرُ غَزَواتِه رحمَه الله تعالى بمنِّه

ابتَدأَ بتمييز القبائل والأجناد في الخامس من شهرِ جُمادى الآخِرة كما ذكرتُه، فميَّزهم قَبِيلًا بعدَ قَبِيل، وأمَرَ بعمَل عشَرة مَجانيقَ فصُنعت ورَمى الرّجالُ بالحجارة قُدّامَه، والسّعدُ يعلو خلفَه وأمامَه، وذلك التبريزُ بالبحيرة بخارج مَرّاكُش والناسُ ينظُرونَ في ذلك كلَّ يوم. دام هذا الحالُ شهرَ جُمادى كلَّه.

وفي شهرِ رجَب: ارتَحل الخليفةُ عن البُحيرة المذكورة إلى قَصْرِه بمَرّاكُش ودخَل على الباب الجديد بابِ الشريعة، وهو أولُ دخوله عليه، وتقدَّم أمامَه على قدمَيْه ابنُه أبو يوسُف المنصور[2] وجميعُ البنينَ، وأقام بقصره يُفكِّر في أمرِ الغَزْو وشأنِه.

وكان السيّدُ أبو يوسُف ابنُ الخليفة عبد المؤمن واليًا على مُرْسِيَة فوصَل إلى حضرة مَرّاكُشَ في شهر رجَب ووصَل معَه جماعةٌ من أعيانِها، فلم يؤمَرْ بالدّخول على أخيه أمير المؤمنين لِـما وصَله عنه وصَحَّ عندَه، ثم أمَرَه بعدَ ذلك بالدّخول معَ الساداتِ والموحِّدين.

وفي يوم الجُمُعة الحادي والعشرينَ من شعبانَ المكرَّم: وَلّى أميرُ المؤمنين أبو يعقوبَ يوسُفُ بَنيه الأربعةَ قواعدَ بلاد الأندلس، صَرَف أبا إسحاقَ إلى إشبيلِيَةَ واليًا عليها كما كان أولًا، ووَلَّى أبا يحيى قُرطُبَةَ برغبة أبي الوليد ابن رُشْد، ووَلّى أبا زيد الحرضانيَّ غَرْناطةَ، ووَلّى أبا عبد الله مدينةَ مُرْسِيَة، وأمَرَهم بالحركة إليها مقدِّمةً لحركته الحافلة[3] ووَلّى قضاءَ إشبيلِيَة أبا المكارم ابنَ الحُسَين المِصريَّ وعزَل قاضيَها أحمدَ بن محمد الحُوفيّ، ووَلّى أبا الوليد ابنَ رُشد قضاءَ قُرطُبة، ووَلَّى أبا عبد الله ابنَ

---

(١) إلى هنا ينتهي السقط الطويل.

(٢) سقط من ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٤.

الصقر قضاءَ غَرْناطةَ، وأمَرَ لجميع الموحِّدينَ المعيَّنينَ للسَّفَر معَ السادات المسمَّيْنَ بالكُسْوة والزّاد على مَراتبِهم وأقدارِهم. وتحرَّك الجميعُ إلى الأندَلس في السابع والعشرينَ من شعبانَ بعدَ ما أُمِروا بالرِّفق، والجَرْي على سَنَن الحقّ.

وكانت قسمةُ السِّلاح والخَيْل في الخامسَ عشَرَ من شهر رمضان، فحضَر الموحِّدونَ والعَرَبُ والمتجنِّدون، فقَسَمَها على قَدْر طَبقاتِهم، وأمَرَ لطلَبة الحضر بأربعة وعشرينَ فرسًا، وأعطَى خِباءً لكلِّ عشَرة من الفرسان، وتمادى هذا الإنعامُ والإحسان إلى شوال.

وفي الحادي والعشرين منه: أخرَجَ البركةَ لجميع العساكر من الفرسان والرُّجّال.

وفي يوم السّبت الخامس والعشرينَ لشوّالٍ المذكور: أمَرَ النّاسَ بالحركة، فصَلّى أميرُ المؤمنينَ صلاةَ الصُّبح وقُرِئ الحِزبُ على العادة، واجتَمع النّاسُ على ما أُمِروا ووُعِدوا، ورَكِب أميرُ المؤمنينَ على عادة ركوبه من السَّكينة والوَقار، والهيئة له في الإعلان والإسرار، ودَعا النّاسُ له بالتأييد والنَّصر على جميع الكفّار، وقد تقدَّم أمامَه عَلَمُه الأبيض معَ الرَّجّالة على العادة من الترتيب ومعَه مصحفُ عثمانَ بن عفّان رضيَ اللهُ عنه على جَمَل أبيضَ مرتفع وعليه كِلَّةٌ[1] حمراءُ تَصُونُه، وهو مرصَّعٌ بنفيس الجَوْهرِ والياقوت، ويليه مصحفُ الـمَهْديِّ على بَغْل، وبَنوه معَ إخوته السّادات خلفَه، وعليه راياتٌ مختلفةُ الألوان، وكان خروجُه على باب دَكّالةَ: من أبوابِ مَرّاكُش، وأمَرَ بإخراج عليِّ بن حَيُّون الكُوميِّ، فأُخرج مصفَّدًا في الحديد وعليه رُقَباءُ يحرسونَه في اللّيل والنهار، فلمّا كان بتيجطين تحيَّل على رُقَبائه[2] وسَقاهُم الخمرَ وأسكَرَهم وكسَرَ حديدَه وفَرّ على فرس أعطاهُ له أحدُ بني عمِّه، وأُعلِم أميرُ المؤمنين بخبرِه فأمَرَ بضربِ رقابِ الرُّقَباءِ الذي كانوا يحرُسونَه وسَجْن منِ اتُّهم.

---

(١) ستر رقيق مثقَّب يتوقّى به من البعوض وغيره، وهو مستعمل إلى اليوم في العامية العراقية بهذا المعنى، والمقصود هنا: الغطاء الذي يحفظ هذا المصحف على شكل قبة، ولذلك جاء في بعض النسخ: «قبة» بدلًا من «كلّة».

(٢) في ك، ق، ر٣، ب: «تجمل على رفقائه».

ثم إنه أقلَعَ أميرُ المؤمنينَ من هذا المنزل إلى أنْ وصَل إلى رِباط الفتح سَلا، فدخَلَها يومَ الاثنين الثالثَ عشَرَ من ذي القَعدة، وكان دخولُه فيها من أغربِ الهيئات وأتمِّ الآلات، ونزَلَ بمدينة الـمَهْديّة التي تقدَّم ذكرُها.

ولـمّا كان يومُ الاثنين الموفي عشرينَ من ذي القَعدة وصَل أبو محمد بنُ أبي إسحاق بن جامع من بلاد إفريقيّةَ والقَيْرَوان، بجُملة من الفُرسان، فدخَل على أمير المؤمنين، وأقام يسألُه عن الأحوال، ويستفهمُه عن أحوالِ العَرَب المنافقينَ الجُهّال، فعرَّفه أنّ إفريقيّةَ في نهاية العافية وأنّ العَرَب قد سَمِعوا بالحركة المباركة ففَرُّوا بأهليهم[1] فلا يُتَّقَى بأسُهم ولا يُفارقُهم نكْسُهم.

ثم أمَرَ الخليفةُ بعدَ ذلك بإجماع شيوخ الموحِّدين وشيوخ العَرَب والقُوّاد بالحضور، فحضَر الجميع، وخَرج إليهم ابنُه السيِّدُ أبو يوسُف المنصورُ وشيوخُ الموحِّدين، وقالوا لجميع مَن حضَر: إنّ سيِّدَنا أميرَ المؤمنين يقول لكم: أنتم قد وصَلتُم واجتمعتُم، وهو يَستشيرُكم في هذه الحركة: إمّا لإفريقيّةَ وإمّا للأندَلس، فلْيتكلَّمْ كلُّ واحد منكم بمُرادِه، فقالوا بلسانٍ واحد: ليس أمَلُنا إلّا في غزوِ الكفّار بجزيرة الأندَلس. وأُعلِم أميرُ المؤمنينَ بما وقَع من كلام، فقال: الحمدُ لله على نِعَمِه الكاملة وآلائه الشاملة.

وقد كان الخبرُ وصَل بأيام أنّ العدوَّ الغادرَ نَكَث العهدَ وحَلَّ العَقْدَ ونازَلَ بعضَ حصُون الإسلام، فزادت غِبطةُ المسلمينَ في جهادِ الكافرين، وعزَموا على ذلك بنيّةٍ صادقة، وعزيمةٍ بالله واثقة، وتقدَّمتِ العساكرُ للجَواز على القَنْطرة ببحر سَلَا في الثامن والعشرينَ لذي القَعدة، وجازَ أميرُ المؤمنينَ في الموفي ثلاثينَ منه، وتَمادى مَشْيُه إلى مدينة مِكْناسةَ فوصَلَها في السادس لذي الحجة، وعيَّد عيدَ الأضحى في بُحيرته الكبرى، ورحَلَ منها في الحاديَ عشَرَ لذي الحجة ووصَل مدينةَ فاس يومَ الأربعاء الثالثَ عشَرَ من الشّهر المذكور، فنزَل بالبُحيرة وارتاح بها ثلاثةَ أيام يَستفهِمُ الأحوال ويختبرُ العُمّال، فكان من الإيقاع بهم ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

---

(١) في ب: «بأولادهم».

سَطْوةُ الخليفة أبي يعقوبَ بعُمّال مدينةِ فاسَ وأنظارِها

ولـمّا كان يومُ السّبت الثالثَ عشَرَ لذي الحِجّة أوقَعَ بعبد الرّحمن بن يحيى المشرف بمدينة فاسَ لِـما صَحّ عندَه من خيانتِه، وحَمْلِه على الرعيّة وإذايتِه، فألحَقَه هو وأصحابَه وألحَقَ به في هذه السّطوة والعقاب إبراهيمَ بن عبد الله الجَيّانيَّ الجاهلَ قَدْرَ نفسِه، وقَبَض في الحين على دُورِهم أجمَع في كلِّ بلدٍ ومكان، وأكبَلَهم وسَجَنَهم في موضع أليم النَّكال، ثم قَبَض على سائر العُمّال وكان عدَدُهم ثمانيةَ عشَرَ عاملًا أوّلُهم: مشرفُ فاسَ المذكور وخازنُه على المال الذهبيُّ وخازنُه أيضًا على الطّعام الطرسوقيُّ[1] وابنُ عاصم مشرفُ مِكْناسة وابنُ هود عاملُها وابنُ عُمرَ صاحبُ المدينة بها والمشرفُ برباط تازا وعليُّ بن مرزبن صاحبُ مَلَوِيّة وقاضِي المعدِن وغيرُ هؤلاء، فاستَأْصَل أموالَهم ورَدَّ للمخزن ضِياعَهم ورِباعَهم وترَكَ لكلِّ رجُل منهم دارًا واحدةً، وكان الذي قاطَعوه على أنفسِهم أن يُعطوه ويَدفَعوه أربع مئة ألف دينار وستينَ ألفًا يُقسِّطونَها على أنفسِهم، وشَهِد العدولُ بذلك عليهم فجَعَل[2] عليهمُ الرُّقَباءَ حتى دَفَعوا المالَ المذكور.

ولـمّا كان يومُ الاثنين الثامنَ عشَرَ من ذي الحِجّة أمَرَ الخليفةُ بتقدُّم قَبيل هَنْتاتةَ وتينملَ وحركتِهم من فاسَ إلى قصر الـمَجَاز برَسْم الجَواز إلى الأندلس، وكان شيوخُ العَرَب بجميع قبائلهم قد وصَلوا إلى الـمَهْديّة برِباط الفتح سَلَا أيامَ إقامة أمير المؤمنينَ فيها، فأنعَمَ عليهم بالكُسواتِ العجيبة والبركات الجَزيلة، واشتَرطوا على أنفسِهم أن يحضُروا لهذه الغزوة في مئة وثلاثينَ ألفًا بينَ فارسٍ وراجِل، وأمَر الخليفةُ ابنَه أبا حفص بالـمَشْي إليهم والتقدُّم عليهم وأن يحضُرَ معَهم الجَوازَ لبَرِّ الأندَلس، فخَرج من فاسَ في الحادي والعشرينَ من ذي الحجة، وقَدَّم أيضًا على بعض قبائل الموحِّدين بعضَ السادات ليتقدَّموا إلى الجَواز، وكتَبَ إلى مَن بالأندَلس منَ الوُلاة أن يكونوا على هيئةٍ للجهاد، وأن يَستعدّوا لهذا الجَمْع الحَفيل غايةَ الاستعداد.

---

(١) في ك: «الطرهوقي»، وسقطت اللفظة من ب.

(٢) في ك: «فعمل».

ثم كانت سنةُ ثمانينَ وخمس مئة: ففي يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرَّم تحرَّك الخليفة أبو يعقوبَ من مدينة فاسَ على الهيئة المذكورة إلى أن وصَل مدينةَ سَبْتة فأقام بها شهرَ المحرَّم، ثم عَبَر البحرَ يومَ الخميس الخامس لصَفَر فحَلّ بجبل الفتح، ثم سار من جبل الفتح إلى الجزيرة الخضراءِ إلى أن برَزَ بعساكرِه على إشبيلِيَة في يوم الجُمُعة الثالثَ عشَرَ لصَفَر، وخَرج جميعُ أهل إشبيلِيَة إلى لقائه والتبرُّك برؤيته، فمِن تواضُعِه وشَرَفِه واعتنائه بالعلم أنه لـمّا أبصَر ابنَ الجَدّ رحمه الله وهو يُسرعُ في مَشْيِه ليُسلِّمَ عليه ترَجَّل عن فرسِه وتلاقَيا فترامَى ابنُ الجَدِّ على يدِ أمير المؤمنين وقبَّلَها ومسَح بها وجهَه وقال: الحمدُ لله الذي جمَعَني بكَ يا حبيبي وحبيبَ الناس، فتبسَّم الخليفةُ من قوله، وهذا من تواضُعِه وفضلِه[1].

قال أبو مروان ابنُ صاحب الصّلاة: وكنتُ حاضرًا في يوم هذا اللّقاء، فسَلَّمتُ عليه، معَ مَن تقدَّم من الطّلبة إليه، وتزاحَم الناسُ للسلام، فلم أقوَ لهُ على الكلام، ونزَلَ رضيَ الله عنه داخلَ البُحيرة التي له بخارج باب قَرْمُونة، فلمّا كان في اليوم الثاني أمَرَ بإخراج السِّلاح والعُدَد وأمَرَ بتمييز العساكر والعَدَد، وقَسَم عليهم جميعَ الأسلحة المذكورة وقَسَم ألفَ فَرَس من العِتاق الجِيَاد على أشياخ الموحِّدين والعَرَب والأجناد، وتلاحَقَت هذه الأيامَ عساكرُ أهل الأندلس من أقطارِهم وأمصارِهم، وأتَى القائدُ أبو العبّاس الصَّقِلِّيُّ بأجفانٍ غزوانيات وآلاتٍ للحرب مُعَدّات.

وفي هذه السنة[2]**، في التاسعَ عشَرَ لصَفَر**: نَكَل الخليفةُ أبو يعقوبَ بأبي عبد الله ابن وانُودين، وسببُ ذلك أنه لـمّا وصَل إلى حضرته إشبيلِيَةَ كان ابنُ وانُودينَ أصابه شيءٌ من الـمَرَض فلم يقدِرْ على الخروج للّقاء فضُرِب فيه عند الخليفة وقيل عنه ما كان وما لم يكنْ، فأمَرَ بخروجه أسوَأَ خروج، فخَرج وقَعَد يومَيْن فأُمِرَ أن يَمشيَ إلى غافِقَ ليَسكُنها على وَجْه التغريبِ والتأديب، فنهَضَ هو وأبو زكريّا يحيى ابنُ الشّيخ أبي...[3] لتخلُّفِه عن الـمَبيت بالمحَلّة ليلتَيْن، فكانا خليلَيْنِ ابتُلِيَا ببَلِيّتَـيْن.

---

(١) ينقل المؤلف من كتاب «المن بالإمامة» على عادته، ولم يصل إلينا هذا القسم منه، والخبر باختلاف في المعجب ٣٣٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٤.

(٢) قوله: «وفي هذه السنة» سقط من ك.

(٣) بياض في النسخ.

وأقام أميرُ المؤمنينَ بإشبيلِيَة على ما ذكَرتُه من تنفيذ الأوامر والنَّظر فيما يَصلُحُ له ولجميع العساكر، إلى أن تحرَّكَ غازِيًا إلى مدينة شَنْتَرِين صَبيحةَ يوم الخميس السادس والعشرينَ لصَفَر على ما عُهِد في حركاتِه وترتيب هيئاتِه، وتَمادى الـمَشْيُ من منزلٍ إلى منزل إلى حِصن العرجة، فوصَلَه يومَ الجُمُعة الرابع لربيع الأوّل، ورحَل منها وقدِ استُكمِلَت عليه العساكرُ من كلِّ أُفُق وقد تزَيّا الجميعُ بأحسن الزِّيّ وتبختَروا في الـمَشْي وتوشَّحوا بالسُّيوف الهِنْديّة والدُّرق اللَّمطيّة والقِسِيِّ الخَطِّية، وسالوا في بِطاح الأرض بتبريزٍ يُسخِطُ الكُفّارَ حتى وصَلوا مدينةَ بَطَلْيَوْس، فأمَرَ بالنّزول عليها وميَّز العساكرَ وأمَرَهم بلِباس السِّلاح فامتَثلوا ذلك وجدَّدوا ما نقَصَهم من الزّاد، وكان إدريسُ بن جامع مُغرَّبًا معَ بَنيه بمارِدةَ وابنُ حَيّونَ الكُوميُّ كذلك ببَطَلْيَوْس، فرغِبوا من الخليفة أن يَأذَنَ لهم في حضور هذه الغَزْوة فأَذِن لهم في الحين ومشَوْا في جملة المجاهدين.

ورحَل يومَ الخميس العاشرِ لربيع الأوّل من بَطَلْيَوْس، ولـمّا وصَل إلى وادي تاجُه أمَرَ الموحِّدينَ أن يتقدَّموا حتى يقفوا على باب شَنْتَرِين، ونهَضَ معَهم السيّدُ أبو إسحاقَ الوالي على إشبيلِيَةَ حتى وقَفوا على باب شَنْتَرِين يومَ الأربعاء السادسَ عشَرَ لربيعِ الأوّل إلى وقتِ الظّهر ولم يَشتغلْ أحدٌ بقتالٍ ولا رَمْي بنِبال، إنّما كان الغَرَضُ في رؤية أسوارِها وفَهْم حال كفّارِها، ونزَلَ أميرُ المؤمنينَ بجميع عساكره بالجبل الـمُطلِّ على شَنْتَرِين القريب إليها، وأمَرَ العساكرَ أن يَبرُزوا على الكفّار فتأهَّبوا للتبريز والـمُجالَدة والدِّفاع، ثم وقَفوا على بابِها والكفّارُ أهلُها قدِ انجَحَروا داخلَها بجموعِهم وحشودِهم وقد مُلِئت قلوبُهم ذُعرًا وحَسْرةً، وأميرُ المؤمنين يأمُرُ الناسَ بالتكبير والتهليل وقد ضُرِبت له القُبّةُ الحمراء، وهم فرِحُونَ مُستبشِرونَ والخيراتُ كثيرةٌ بكلِّ جهةٍ ومكان، واتّسع الناسُ في أقواتِهم، ووصَل مُدُّ الشّعيرُ اثني عشَرَ مُدًّا بدرهم، والقمحُ خمسةَ عشَرَ مُدًّا بدرهم.

قال أبو مروان ابنُ صاحبِ الصّلاة: لقد رأيتُ فِي هذا اليوم ثورًا بيدِ عربيّ باعَه بدرهم واحد، وقد اشترَيْتُ معَ أصحابِي بقرةً سمينةً بثلاثة دراهم، وامتلأتِ المحلاتُ على كثرتِها وكِبَرِها من البقرِ والغنم.

وانحصَر الكفّارُ في هذا اليوم حصرًا شديدًا حتى لم يَخْرُجْ أحدٌ منهم، وهُدِم رَبَضُهم المتّصلُ بالسُّور وأوقِدت النِّيرانُ فيه، وطَمِع الناسُ في دخول المدينة، وأمَرَ النَّجّارينَ بعمَل السّلاليم، وبات الناسُ أحسنَ مَبيت في ليلة الجُمُعة الثامنَ عشَرَ لربيع الأوّل.

ولـمّا صَلّى الناسُ الصُّبحَ يومَ الجُمُعة المذكورة أمَرَ الناسَ بالتأهُّب لقتال الكفّار في الأسوار، فتقاتَلوا حينًا حتّى تـمَكَّنوا من الرَّبَض المذكور، ومَن خَرج من جيش النّصارى هُزِم، حتى كانوا يتَرجَّلُونَ عن خيولهم ويُطلِعُهم إخوانُهم بالحبال من أعلى سُور القَصَبة، وعايَنَ الكفّارُ في هذا اليوم ما أذهَلَهم وهالَهم، وقرَّت أعيُنُ الإسلام بما نالَهم، وهُدِمتِ الكنيستانِ اللّتانِ بالمدينة البَرّانيّة وخُرِّبت دُورُها وأقْفَر معمورُها. ولله دَرُّ الرجُل الصّالح محمد بن إبراهيمَ حيث يَدعو على شَنْتَرِينَ في عِلّتِه التي توفِّي منها فقال [من الكامل]:

يـا شَـنْتَرِينُ ولا أُنـادي سـامعًا ... ألقَـتْ عليـكَ بلاءهـا الأقـدارُ
ورُمِيـتِ عنـدَ دعائنـا بحـوادثٍ ... تـذَرُ الـدّيارَ ومـا بهـا دَيّـارُ
وتبـدَّلت فيـك العِمـارةُ وَحْـشةً ... والأمـنُ خـوفٌ والغِنَـى إقتـارُ
وتعَبَّثَـت بجهاتِهـا أعـداؤها ... ومَـحَا محاسـنَها الـبِلى والقـارُ
حتّـى أقـولَ بنَغْمـةٍ يـا بلـدةً ... «لا أنـتِ أنـتِ ولا الـدّيارُ دِيَـارُ»

ورحم اللهُ قائلَها، فلو كان حيًّا لرأى دعوةً قد أُجيبت في هذا اليوم.

وبات الناسُ ليلةَ السّبت على الحالة المرغوبة من الأمل في فتح شَنْتَرِينَ خَرَّبها الله.

وفي صَبيحة يوم السَبت تأهَّب الناسُ للقتال، ودام القتالُ بينَهم إلى يوم الاثنين الحادي والعشرينَ لربيع الأول[1]، فكانت بينَ المسلمينَ والنّصارى حروبٌ وخطوب، فأمَرَ الخليفةُ في هذا اليوم أن يَرفَعَ الناسُ أيديَهم عن القتال، وكان قد أمَرَهم أن يَرحَلوا من منزلِهم وينزِلوا في منزلٍ آخَر فتعجَّب الناسُ من هذا الرأي في الانتقال والارتحال، وتعطَّلت في النفوس جميعُ الآمال، وظهَر الخَلَلُ في جميع الأحوال.

---

(١) في ك، ب: «الآخر» ولا يصحّ.

وكَبَا بابن الخليفة أبي إسحاقَ فَرَسُه واعتَلَّت قدَمُه وتورَّمت في الحين، وكان يتصرّفُ في أوامر أبيه على سرير من خشب ويُحمَلُ على الأعناق. وحدَثَ في هذا اليوم على عسكر أهل مُرْسِيَةَ حدَثٌ مُروِّع، وذلك أنهم خَرجوا للإغارة في بسائط النّصارى، فخَرجوا عليهم وهزَموهم بعدَ حروب شديدة، ووصَلوا للمحَلّة مهزومينَ مَفْلولينَ، وأُخِذت من دوابِّ المسلمينَ خمسونَ دابّةً خرَجَت برَسْم العَلَف، وبات الناسُ في المحَلّة على حَذَر، ومن الوَجَل في ألمٍ وضَرَر.

وحدَث في هذه الغَزْوة حدَثٌ أبهَتَ العقول، وأذْهَلَ غايةَ الذُّهول، وذلك أنّ خطيبَ الجماعة الذي كان يُصلِّي بالخليفة الجُمُعة في حضرته وفي غَزْوته هذه اختَلّ عقلُه عندَ رؤيتِه شدّةَ الحرب، فركِبَ فرسَه ودخَل في عسكر النّصارى مُستجيرًا بهم! فيا لهُ من حَدَث مُبْكٍ في الإسلام، مُنْكٍ للأنام، ونقيصةٍ في الدِّين، ووقعة بصنفِه من أرض الأندَلس إلى أرض الصِّين، وعندَ وصُوله إليهم عَرَفوهُ وفَهِموا مذهبَه فاتَّهموه وقَتلوه، واستُشهِد في هذه الغزوة جماعةٌ من أعيان الموحِّدين وجماعةٌ من أشياخ رؤساءِ الأندَلس وغيرِهم، وكان في هذه الغزوة بينَ المسلمينَ والكافرينَ قتالٌ ونزال يَطُولُ شرحُه ووَصْفُه، إلى أنِ اعتَلّ أميرُ المؤمنين فأمَرَ بالرّحيل على ما أصِفُه.

إيضاحُ الخبر عن وفاة أمير المؤمنينَ أبي يعقوبَ بن عبد المؤمن في غَزْوته هذه رحمَه الله[1]

قال أبو الحَجّاج يوسُفُ بن عُمر رحمَه الله: لـمّا قَصَد أميرُ المؤمنينَ في هذه الحركة التي توفِّي فيها إلى عدوِّ الغرب ابن الرَّنك اللّعين، لسُوءِ مجاورتِه وشدّة إضرارِه بالمسلمين، عزَم على قَصْد مدينة شَنْتَرِين أمدِّ بلادِ ابن الرَّنك سورًا، وأكثرِها حُبورًا، وأكثرِ بلاده أجنادًا، وأقواهم استعدادًا، فبرَّزَ عليهم تبريزًا أذهَلَ حلومَ الكافرين، وفَتَّ أفئدةَ الدانِينَ منهم والقاصِين، في أُمَم لا تُحصَى، ولا تُكاثَر بالرَّمل ولا الحصَى، والبلدُ، لحُسن عِمارته والتفافِ أشجارِه واتّصال جَنّاته وإيناع ثمَراتِه، ليس له مَسْلكٌ إلّا من خلال تلك الأغصان، وفي أثناءِ مُنعرَجاتِ ما أحدَقَ به منَ اشتباك الكروم والتفافِ

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٠٥، والمعجب ٣٣٤-٣٣٥.

الغِيطان، فكانت أشخاصُ الفرسان عندَ رؤيتِهم تتَوارى بالظِّلال، ويَستُر ظهورَ حُسنِ هيئتِها فروعُ الأشجار وأسنمةُ الجبال، فأمَرَ الخليفةُ الجيشَ: خيلًا ورَجْلًا وبعضًا وكُلًّا بنَشْر بِيض تلك الرايات، التي كانت قد أُعِدّت لهم تلك الأوقات، وكان القَصْدُ محاصرتَها وإظهارَ القُدرة في مُضايقتِها.

قال يوسُف بن عُمر: فلمّا استراثَتْ من جِهاتها الأنباء، وطال لغير طائل الثَّواء، عزَم أميرُ المؤمنينَ على الارتحال، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكَلال، فأمَرَ بالرّحيل ليلًا فاضْطَرب إقلاعُ الناس اضطرابًا شَنيعًا وكثُر الضَّجيجُ واختلاطُ الأصوات، وتهوَّلت المحَلّات، وأخَذ العمومُ على شتّى المسالك، فلا تَرى سميعًا ولا مُطيعًا. وقد كان ثقاتُ الخليفة يطوِّفونَ أوّلَ اللّيلِ على الرؤوس والجموع، وأوعَزوا إليهم ترتيبَ التحرُّك وكيفيةَ القُلوع، وأن يكونَ كلُّ قَبيل من جِهتِهم ثابتينَ مُرصِدين، حتّى ترحَلَ الحُمولةُ والأثقال، وتتخلَّص إلى السَّعة من المضائق والأوحال، فلم يوقَفْ عندَ مَعاقِد هذا الاعتزام، ونُثِر ما عُقِد من ذلك النظام، ولم يُهتَدَ لشيءٍ من هذه الأحكام، وتوَهَّم الناسُ أنّ الأميرَ قد أقلَعَ سَحَرًا واحتاطَ لإجازة النّهر مُبكِّرًا، فبادَروا للتقدُّم وما تهيَّبوا عواقبَ التحكُّم. ولـمّا اتّضحَ الفجرُ وانقَشَع الظّلام، ولم تصحَّ أضغاثُ تلك الأحلام، وبَطَلتِ الظُّنونُ والأوهام بمضاربِ الأمير في منزلِه ولم يُقوَّضْ لها طُنُبٌ ولا أوتاد ولا خُلع من مركَزِه عماد، فبُهِت مَن بُهِت، وحَمِد رأيَه مَن لزِم الصبرَ وثبَت، فركِبَ الخليفةُ وليس بساقتِه إلا القليلُ غيرَ مستعدِّينَ ولا شاكِين، أكثرُهم في ثياب السِّلم وكما أفاقوا من سَكَر النَّوم فالتأَمَ من كلِّ صِنف من الناس مَن حضَر، وأقبَلَ مَن سَمِع طبلَ الإقلاع، وتبصَّر، وانحدَر الأميرُ من هذا المنزل وبقيَ ابنُه المنصورُ في الموضع المذكور يُرتِّبُ مَن يُظاهرُ الرّومَ عندَ ظهورِهم ويقاومُ ردعَهم وما تدَلَّوْا به من جرورِهم، وهو يمُدُّ الحاضرينَ بشهامتِه ويقوّيهم بصَرامتِه، وانحفَزَ المنصورُ باللَّحاق بأبيه وقد توالَتْ منه عليه الرُّسُل واستَوحَش مِن تأخُّرِه، ووجَد إشفاقَ الأبِ على بَنيه. وعندَما تنفَّس تخَنُّقُ الكفّار، ووجَدوا السبيلَ إلى التفلُّتِ من الأوكار، تسَرَّبوا بين تلك الأشجار، وانحَدروا من جنَباتِ الأوعار كالسِّباع الجِيَاع، فحافوا على ما تطرَّف من الحُمولة، وانتهَزوا الفرصةَ في أولئك الفرسانِ والأتباع.

واستُشهِد في أثناء هذا الموقف جُملةٌ من أعيان الموحّدين ورؤساءِ الأندَلسيِّين وبعضُ بني مُرْدنيش والخطيبُ ابنُ المالَقيّ.

قال يوسُفُ بن عُمر المؤرِّخ: حضَرتُ يومَ هذا الإقلاع وليلَه، فما رأيتُه في تاريخ تقدَّم قبلَه، ولا يَحصُرُ واصفٌ هولَه.

ولـمّا عرَفَ الخليفةُ بدُنوِّ الرّوم من ساقتِه واجترائهم على الافتراس بأكنافِ ساحتِه، أمَرَ بضرب الطُّبول وإشراع الألوِية في النُّصُول، فأقبَلوا لأصواتِ الطّبول مُهطِعين، ودَفَع مَن كان بجناحَي الساقة على مَن وُجِدوا منَ الرّوم مُنبسِطين، وغادَروهم في مَصارعِهم مُجدَّلِين، وحانَ لهم شرُّ يوم ما ظَنُّوا أنه يَحين، وأُخِذ ثارُ الشُّهداء في الحين، ونزَلَ أميرُ المؤمنينَ بعُدوة الوادي، وقد بَدَت من جَرْحِه البوادي، وأمَرَ بتفرُّق الجموع ورجوع كلِّ واحدٍ منهم إلى قَبيله منَ العموم، واستقبَلَ موسطةَ البلاد، وأباح فيها مبالغةَ الفساد، وأمَرَ بتخريبِ ما وُجِد من المباني وتغويرِ المياه واستئصال الأشجار وانتهابِ الزُّروع وتحريق كلِّ ما يُمكنُ تغييرُه وإزالةُ عَيْنِه بالنار، وتَمادى المشيُ على هذا النّحو إلى حِصن طرش، فأقام بذَروة جبلِه وأمَرَ بشَنِّ الغارات عليه وتقسيم السّرايا على الجَنَباتِ إلى جَلْب الأقوات، وأمَّرَ السيِّدَ أبا زيد ابنَ الأخ أبي حَفْص على مُعظم البُعوث، فاستاق منَ الغنائم ما وقَفَ العجزُ عن سَوْقِها ووصَلوا والخليفةُ مُلتزمٌ الفراشَ، وكان له أيامٌ لم يَخرُجْ لأحد، ثُم أمَرَ بالرّحيل وخَرج على مطيّتِه مُضطَجِعًا على فراشِه وتَمادى القفولُ وضَعْفُه يتزايد والأطباءُ حاضِرون وابنُ زُهر وابنُ مُقبِل وابنُ قاسم مُلازِمونَ له حتّى جاوزوا واديَ تاجُه وضَعُف عن الجلوس على الدابّة، فصُنع له سريرٌ ورِوَاقٌ عليه يَحجُبُه من الهواء. والخَدَمةُ مُطِيفونَ به يتفقّدونَه فيما يحتاجُ إليه من صَلاح شأنِه، فذُكر أنه تُفقّد بعدَ أميال فوُجِد قد توفِّي رحمه الله، وذلك في الثامنَ عشَرَ لربيع الآخِر من سنة ثمانينَ وخمس مئة.

بعضُ أخباره على الـجُملة وسِيَره رحمَه اللهُ تعالى

قال ابنُ صاحب الصّلاة: كان أبو يعقوبَ فاضلًا كاملًا عَدْلاً وَرِعًا جَزْلًا، حافظًا للقرآن بشَرْحِه وناسخِه ومنسوخِه، عالـمًا بحديث رسول الله ﷺ حسَنِه وصحيحِه، متفنِّنًا في العلوم الشّرعيّة والأصُوليّة، وكان صادقًا رأيُه للموحِّدينَ بالمواساة في كلِّ

شهر، وبالبركاتِ مدى الدّهر، وكان راغبًا في العِمارة مُثابِرًا على الجهاد مُشِيعًا للعَدْل مُقسِطًا فيه، أصلَحَ العُدوةَ وأمَّنها وآنَسَ شارِدَها وسَكَّنها، وخَصَّ جزيرةَ الأندَلس ببعوثِه لها فقَمَعوا عاصيَها وافترَعوا بالفتح قاصيَها، وأحسَن لأجنادِها وأمَدَّهم بالخَيْل لغَزْوِ الكفّار بائسينَ من أعدائها.

ولـمّا عُقِدت البيعةُ له بإجماعٍ وإصفاق في سنة ثلاث وستينَ تحرَّك غازيًا بعسكرِه الضَّخْم الشَّهم مُرادِفًا لأخيه أبي حفص، وهو الذي مَصَّر إشبيلِيَةَ وأمَرَ ببناء سُورِها من جهة الوادي من مالِه بعدَ هَدْم السَّيل له الخارج عن جَنَباتِها وجِهاتها عامَ أربعة وستّين.

ولـمّا استقرَّ بإشبيلِيَة في عام ستة وستّينَ عَقَد جَسْرًا على واديها بالقَنْطرة العظيمة المؤسَّسة لعُبور الناس عليها من أهلِها وأهل الشَّرف إليها ولإجازة العساكر للغَزْو عليها، وسَبَّلَها للمسلمينَ للعبور في مصالِحِهم دونَ قبالةٍ ولا إجارةِ عمالة، وجَلَب الماءَ في الساقية لمشرَب أهلِها وابتنَى فيها الجامعَ الكبير لاتّساع الناس فيه، فكمُل في مدّة قليلة من الأعوام على عِظَمِه وسَعة جُرْمِه، وابتنَى الصَّومعةَ إلى نصفها، وابتنى الزِّلاقَ لأبوابِ إشبيلِيَة من جهة الوادي احتياطًا من السَّيل الخارج عليها، وابتنى قَصَبتَها البَرّانيّةَ والداخليّة، وأسكَنَ الثُّغورَ القَفِرة، وابتنَى جميعَ أسوارِها وأعادها للإسلام بعدَ إقفارِها، وفَدَى من الأسر مَن وُجِد عندَ الرّوم من أهلها، وفَدى عليَّ بنَ وزير وغانمَ بن مُرْدنيش بمالٍ كثير، وغَزا الكفَرةَ ببُعوثِه وعساكرِه المؤيَّدة برًّا وبحرًا، وأذاقَهم عيشًا مرًّا، انتهى كلامُه.

وقال غيرُه: مات على ظهرِ دابّتِه على طريق يابُرة، افتَقَده مَن كان يَخدُمُه فوجَدَه ميتًا، وقيل: إنّ سببَ وفاته كان من سَهْم أصابه وهُو في خِبائه على شَنْتَرِينَ من قوس اللّولَب، ذكَرَ ذلك بعضُ المؤرِّخينَ، منهم: أبو الحُسَين بن أبي محمد الشَّرِيشيّ وغيرُه.

وكانت بيعتُه برِباط الفتح حيث توفِّي والدُه أبو محمد عبدُ المؤمن، ووَافَقَت بيعتُه انقراضَ الدّولة العُبَيْديّة بالمشرِق، فكانت خِلافتُه اثنينِ وعشرينَ عامًا وعشَرةَ أشهر وعشَرةَ أيام، أوّلُها يومُ الثلاثاء ثامنُ جُمادى الآخِرة سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وخمس مئة، وآخِرُها يومُ السبت ثامنَ عشَرَ ربيعٍ الآخِر سنةَ ثمانين، فكان عمُرُه سبعًا وأربعينَ سنة،

وكان مولدُه بتينملَ سنةَ ثلاث وثلاثينَ وخمس مئة، وكانت أُمُّه بنتَ القاضي أبي عِمران، وقيل: إنه صَلّى عليه ابنُه أبو يوسُف معَ أصحابِه وأشياخ الموحِّدين.

وكان يومَ حركتِه لهذه الغَزاةِ التي توفِّي فيها قد حدَث له فيها حدَثٌ غريبٌ من الفَأْل عندَما خَرج بالعَلَم الأبيض على باب القَصَبة انكَسَر له الرُّمحُ بالراية نصفَيْن، فتَمادى الخروجُ بالرايات الباقيات، ولـمّا وصَل إلى باب دَكّالةَ عندَ طلوع الشمس وإذا بمُنادٍ يُنادي على جَنازةٍ وهو يقول: الصّلاةُ على الغريب، فكَرِه ذلك وتفاءَلَ به وقطّبَ له وجهَه.

وكان عدَدُ أولادِه ثمانيةَ عشَرَ ولدًا ذكورًا، أسماؤهم: يعقوبُ المنصور، وإسحاقُ شقيقُه، ويحيى، وإبراهيم، وعبدُ العزيز، وإدريس، وأبو بكر، وعبدُ الله، وأحمد، ويحيى الصّغير، ومحمد، وعُمر، وعبدُ الواحد، وعبدُ الحقّ، وإسحاق، وطلحة، وعبدُ الرّحمن. وقاد له الجيوشَ من إخوتِه أخوه أبو حفص وأخوه أبو سعيدٍ وأخوه أبو عليٍّ الحَسَن، وأخوه أبو زكريّا صاحبُ بِجَاية.

وكان حاجبَه أبو حفص شقيقُه.

وُزراؤه: إدريسُ بن إبراهيم ابن جامع إلى أن أوقَعَ به آخرَ أيامِه، ثُم أبو بكر بنُ يوسُف الكُوميُّ بينَ يدَي ابنِه أبي يوسُف.

قُضاتُه: حَجّاجُ بن يوسُف وأبو موسى عيسى بنُ عمران وأبو جعفرٍ بنُ مَضاء، وكان وزيرَه في أيام إمارته، وعيسى بنُ مخلوف.

كُتّابُه في أيام خلافته: أبو الحَسَن ابن عيّاش القُرطبي، وسببُ اتّصاله به أنه لـمّا كانت الفتنةُ الملَثَّميّة الـمُهلِكةُ للطائفة القُرطُبيّة، خَرج ابنُ عيّاش هذا في جُملة مَن خَرج منها وفَرَّ عنها ورحَل إلى إشبيلِيَة فقَرَّبه أبو بكر الـمُراديُّ شيخُ كُتّاب بيتِ الإشراف، ثم انتَقل لكتابة السيِّد أبي حفص وسار معَه إلى تِلِمْسان، ولم يزَلْ في صُحبتِه وكتابتِه إلى أن كان الإيقاعُ بأبي جعفرٍ ابن عَطِيّة، فاستدعاهُ الخليفةُ إلى حضرته وأمَرَه بكتابتِه، وكانت وفاتُه عامَ ثمانيةٍ وستّين. وكتَبَ له أيضًا أبو العباس طاهرٌ المعروفُ بابن مَحْشُوّة.

تـمّت أخباره.

ذكرُ بيعة أمير المؤمنينَ يعقوبَ المنصور وخلافتِه وضَخامة دولتِه ومَهابة سَطْوتِه رحمَه الله[1]

نَسَبُه: هو يعقوبُ بن يوسُفَ بن عبد المؤمن، وتقدَّم[2] نسَبُ عبد المؤمن.

مولدُه: في العَشْر الأواخر[3] من ذي الحِجّة سنةَ أربع وخمسينَ وخمس مئة، فكان عمُرُه إحدى وأربعينَ سنةً وشهرَيْن وأيامًا قلائل.

وكانت خلافتُه أربعَ عشْرةَ سنةً وأحَدَ عشَرَ شهرًا وأربعةَ أيام[4]. وكان بينَ بيعة العامّة إياه وبينَ وفاة أبيه تأخُّرٌ بسبب كَتْم الوفاة.

صفتُه: كان مربوعًا آدمَ اللّون ضَخْمَ الهامة بوَفْرة إلى شَحْمةِ أُذُنَيْه أعْيَنَ حتّى لا يَرى مَن كان في عصرِه أملحَ عَيْنًا منه، وكان أشمَّ وسَط اللِّحية قد غَلب الشَّيبُ على مُقدَّمِها، وكان معتدلَ الجسم متناسِب الأعضاء سَبْطَ الأنامل، بليغَ اللّسان حاضرَ الجواب، مُشرِفًا على أجزاءِ مملكتِه في القُرب والبُعد، وكان شجاعًا مِقْدامًا عظيمَ الصَّريمة على أعدائه لا تضيعُ عندَه فضيلةُ أحدٍ من رجاله ولا يَغيبُ عنه شيءٌ من أحوال رعيّتِه[5] ولا يجترئُ أحدٌ على مخادعتِه. وكان يحبُّ الصّالحينَ ويُدني مجالسَهم ويَستدنيهم من أقاصي طاعته.

وُزراؤه: استَوْزَر أخاه أبا عبد الله ثم أبا عليّ عُمرَ بنَ أبي زَيْد الـهَنْتاتيَّ ثم أبا يحيى بنَ أبي محمد بن أبي حفص ثم أبا زيد بن يوجان. وحجَبَه فُضَيْلٌ وعنبرٌ فتَياه[6].

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٠٥، والمعجب ٣٣٦ فما بعدها، وتاريخ الإسلام ١٢/ ١٠٥١- ١٠٦٤ وهي ترجمة رائقة، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥، والاستقصا ٢/ ١٥٨ فما بعدها.

(٢) في م: «وقد تقدم»، وما أثبتناه من النسخ.

(٣) في م: «الآخرة»، وما أثبتناه من النسخ.

(٤) في المعجب مدة ولايته ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا. قلنا: ولا يصح.

(٥) في ب: «الرعية».

(٦) ينظر المعجب ٣٣٧-٣٣٨ وفيه تفصيل.

قُضاته: أبو العباس بن مضاء، ثم أبو عبد الله بن مروان، ثم أبو القاسم بن بَقِيّ[1].

كُتّابُه: أبو الفَضْل بن أبي الطاهر، ثم أبو عبد الله بن عيّاش، وأبو الحَسَن الـهَوْزَنيُّ على الـمَجَابي وديوانِ العسكريّة، ثم أبو محمد ابنُ الكاتب، ثم أبو محمد الكباشي[2].

نَقْشُ خاتَمِه: أميرُ المؤمنين ابنُ أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين. وكانت بيعتُه أولًا بعدَ وفاة أبيه يومَ الأحد التاسعَ عشَر لربيعٍ الآخِر سنة ثمانين.

اختصارُ الخبر عن بيعتِه رحمَه الله تعالى

لـمّا توفّي والدُهُ كما تقدَّم ذكْرُه أُخفِيَ خبرُه ومشَت الدابّةُ به على حالِـها حتى كان النزولُ بالمنزل فضَرَبت أخبيتَه على جَرْي عادتِه وأحْدَق الخَدَمةُ والفِتيانُ به على عادتِهم في سُكونهم وهيئاتهم، فلمّا تـمَهَّد النزولُ وتكاملَ الناسُ بالوصُول بعَثَ السيّدُ أبو زيد من حينه عن بعض البَنِينَ الأكابر ووجوه الموحِّدين والأشياخ الـمَزاور وذكَّرهم وعرَضَ عليهم مُبايعةَ الأمير أبي يوسُف، وعايَنوا الأميرَ أبا يعقوبَ مسَجًّى بينَهم فبايَعوه من وقتِ الزّوال إلى عشِيّة اليوم بعَيْنه، وأضرَبَ عن تعريف من اتُّهم في صفائه وشُكَّ في وفائه. وتَمادى الـمَشْيُ بعدَ هذا والـمَطِيّةُ على حالها يَظهَرُ الاعتناءُ بها وتنزِلُ المضاربَ والألويةَ على حالها، وكُتِمَ موتُه عن الإشاعة والتصريح، وكُفِّن وصُلِّي عليه، وأُدرِج في تابوت وتُقدِّم به إلى إشبيلِيَة، ولـمّا كان الوصُولُ إلى إشبيلِيَة رَوَّح أبو يوسُف يعقوبُ المنصورُ بها ثلاثةَ أيام حتى تلاحَقت الناسُ وتكامَلت المحَلّات واستوفَتْ جميع العَرَب وسائرُ أصناف الجيوش، واتَّسقَ الجميعُ بإشبيلِيَة وأكنافِها، فلمّا كان يومُ الجُمُعة غُرّةِ جُمادى الأولى ندَبَ الناسَ على الخصوصِ والعموم للمُبايعة، وحضَر من يجبُ حضورُه ومَن وسِعتْه القَصَبةُ، في اليوم المذكور وفي يوم السبت بعدَه، على طبقاتهم، فأفاضَ على قَرابتِه وأهل بيتِه غامرَ الإحسان وخَصَّ السيِّدَ أبا زيد بعشَرة آلافٍ دون أهل بيتِه لتقدُّمِه لخِدمتِه[3].

---

(١) المعجب ٣٣٩ وفيه تفصيل.

(٢) المعجب ٣٣٨-٣٣٩ وفيه تفصيل.

(٣) المعجب ٣٤٠.

ذكرُ حركة المنصور من إشبيلِيَةَ إلى الحضرة وما نفَذ من أوامرِه العَلِيّة إلى يوم جَوازِه إلى العُدوة

لـمّا كمُلت أشغالُ جزيرة الأندَلس وعَمَّ أخْذُ البيعة قاصيَها ودانيَها، أمَرَ يومَ الأحد الرابعِ والعشرينَ من جُمادى الأُولى بحضور أشياخ الموحِّدين والعَرَب وشيوخ الوفود من كلِّ بلد، وصَرَّح بالحركة وانقضاءِ الغَزْو والتأهُّب لسَمْع نَقْر طَبْل الرّحيل[١]، فخَرج أهلُ المجلس وعرَّفوا العموم، وكتَبَ لسائر البلاد والقبائل من المجاهدينَ والمسافرين، وقدَّم القائدَ أبا العباس الصِّقِلِّيَّ إلى طَرِيفَ في ثلاثَ عشْرةَ قطعةً، وتقدَّمت قطعتانِ بالأثقال إلى رِبَاط الفتح بسَلَا، وأمَرَ جميعَ الناس من أهل الأندَلس من كلِّ طبقة أن يُبكِّروا إلى بُحيرة الوادي[٢] فأسحَروا في اليوم المذكور في أُمَم لا يُحصَى عدَدُهم ولا ينقطعُ مدَدُهم، وزُيِّنت قطعةٌ بإزاءِ قُبّة الجلوس على شاطئ النّهر وكمُل سَلامُ الجميع، وقُدِّم المصحفُ الكريم، ودخَل ضُحى اليومِ المذكور وقد أعَدَّ له آفراك، فنزَلَ بقرية طريانةَ وتَمادى مشيُ العساكر معَه إلى شَرِيشَ وأقلَعَ منها يومَ الثلاثاء، وتلاقَى على مدينة ابن السّليم بالسيِّد أبي زكريّا ابن السيِّد أبي حفص قادمًا من تِلِمْسان معَ أعيان زُغْبة ومنِ انضافَ إليهم من العرَب وفي صُحبته سبعُ مئة فرس مَعُونةً لأهل الأندَلس، وكان قد ترَك منها مئتين بطَنْجة حسبَما أُمِر له به. ثم أسرَى المنصورُ ليلةَ الجُمُعة من عين الشّمس فأصبح بحجر الإبل وقدِ انضَمّ بشاطئ البحر الأُسطول، وقامتِ التهاليلُ[٣] والطُّبول، فراقَ المنظر وراعَ المخبَر، ونزَلَ الدارَ المباركة بالشريعة والسّعدُ مُصاحبٌ والهواءُ مُوافق، فشُحِنت من ساعتِها الأجفانُ بالأثقال وشُدَّت الرِّحال، وأسفَرَ عن حُسن وجهِه اليُمنُ والإقبال.

ولـمّا كان يومُ السبت السابع لجُمادى الآخِرة من سنة ثمانينَ المؤرَّخة جلسَ بمضرِب الساقة لـمُوادعة أهل الأندَلس ووداعِه الوُلاةَ بها من إخوتِه الذين كان قدَّمهم...

---

(١) ليست في ب.

(٢) في ب: «البحيرة التي بالوادي».

(٣) في ق، ر٣: «التآليل»، ولا معنى لها. والتهاليل هي الهتافات أو التسبيحات. معجم دوزي ١١/ ٤٨-٤٩.

وإسحاقُ وأبو يحيى وأبو زيد، ودخَل البحرَ ضُحى اليوم المذكور، وقُدِّم مصحفُ عثمانَ بن عفّان رضيَ اللهُ عنه بأروابِه على مَهْلِهم إلى قصر مصمودة، فأقام به بقيّةَ يومَ الجُمُعة حتى استوفَى الجوازَ الجميعُ، حتّى جناح السّلامة[1].

ولـمّا استقرَّ بِرباط الفتح تسمَّى بأميرِ المؤمنين وكتَبَ إلى بلاد الأندَلس بذلك، إذ كانت كُتُبه تنفُذُ مذ بُويع من الأمير يعقوب، وتلقَّى به هناك أبو عبد الله بن واجاج معَ وفود العَرَب وأهل فاس ومِكْناسةَ وعُمّالهما، وأخَّر إبراهيمَ بن إسماعيل عن عَمَل فاس، وأمَرَ سائرَ العُمّال بالوصُول إلى الحضرة، ودُفن أميرُ المؤمنينَ أبو يعقوبَ بالرِّباط المذكور بدارِ الخليفة.

ولـمّا وصَل الناسُ إلى مَرّاكُش أقبَلوا على التودُّع مِن نَصَبِهم، والانغماسِ في راحاتِهم، وتبسَّطوا بالإدلال، واتّصل الإغبابُ عن ملازمة الأشغال، فأنكر الخليفةُ تلك الأحوال، وأخَذ في تشميرِ ما انسَحَب من الأذيال، ورَفْع ذلك المنكرِ والإهمال.

اختصارُ الـخَبر عن تورُّع المنصور في قَطْع الـمَناكر وبَسْط العدل ومباشرة الأحكام لتحقيق شرائع الإسلام

لـمّا رأى التّساويَ في الانهماك والاغترار، وسَمِع المجاهرةَ بالاستهتار، والتنافُسَ في الشَّهَوات ونَفاقَ سُوق الغانيات الـمُلهيات، تنكَّر وغضِبَ في الله لذلك النّكير، وأضرَبَ عن القالِ والقيل، وجعَل الإنذارَ والإعذار مكانَ السّيفِ الصَّقيل، فأمَرَ بإراقة المسكِرات وقطعِها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفذَ الـمُخاطَباتِ بذلك إلى كافّة وُلاتِه بالأمصار، فأُريقَ منها في البلاد ما يُساوي أموالًا جَمّة، وضُمِّنت الكتُبُ النافذةُ بذلك فصولًا في بَسْط العدل والتأكيد على العُمّال والولاة بتأنيس الرَّعيّة وتوخّي رِضاهم في اقتضاءِ حقوقهم وكفِّ أيدي الظالمينَ عنهم وإباحة جَواز البحر إلى المشتكينَ والمتظلِّمين، فانبسَطَتِ الآمال وحَسُنَتِ الأحوال وتوالَتْ له الأدعِيةُ الجميلة.

---

(١) قوله: «الجميع حتى جناح السلامة» ليس في ب.

وفي إراقة الخمرِ يقول ابنُ بُجَيْر [من الطويل]:

رضيعُ ثُدِيِّ العِلم طال رَضاعُهُ ... لها وهْي ليست تستطيعُ فِصالَهُ
إذا شئتَ تدري في العلوم مقامَهُ ... فسَلْ عن دقيق العلم واسمَعْ مقالَهُ
أقام حدودَ الله في كلِّ موطِنٍ ... وأعمَل فيه رعْيَهُ واهتبالَهُ
فأنهَلَ بطنَ الأرض منهُ وعَلَّهُ ... وقد مُنِعت أيدي الورى أن تَنالَهُ
وبدَّد منهُ كلَّ ما فيه شُبهةٌ ... ولم يُبقِ إلا حُلْوَهُ وحَلالَهُ
إمامٌ جميعُ الخيرِ بعضُ صفاتِهِ ... فلا خيرَ إلا وهْو ممّا أنالَهُ
يُؤمِّمُه مَن سدَّد اللهُ قصدَهُ ... وأنجَحَ مسعاه وأنعَمَ بالَهُ
ويسبِقُ بالجُود السؤالَ لأنه ... يَرى وجهَ راجيه فيأبَى ابتذالَهُ

ذكرُ جلوسِه للأحكام بنفسِه

كان ابتداءُ جلوسه غُرّةَ رجَب سنةَ ثمانينَ المذكورة في المسجد الجامع المجاوِر لقَصْر الحَجَرِ أيامًا من صلاة الضُّحى إلى قُرب الزَّوال، معَ تأنيس الخصوم لاستدعاءِ ما لديهم من الأموال، فارتاعَ الأعيانُ من حضورِ ذلك المقام، لِما فيه من هجوم خَجِل وضِيق مجالِ المقال، وتطرَّق إليهم السِّفال، وأغرَموهم جُملةَ أموال، وكلُّ منِ ادَّعى شيئًا بشُبهة أو دَعْوى صُولِحَ بما يُرضيه دفعًا للبَلْوى. قال يوسُفُ بن عمر: ولقد حضَرتُ لأُناس من السُّوقة والتُّجار ادَّعَوا على السيِّد أبي زيد، فمنهم من قال: أهدَيْتُ له فرسًا وآخَرُ جاريةً وشتَّى دَعاوى، فكلٌّ أرضاه ووفَّى له ما ادَّعاه، فلمّا كثُر تزاحُم الغَوْغاء، وقلَّت فوائدُ الخُصَماء ـ وكانوا يقصِدونَ إلى مجلس في أدنى المطالب، وربّما كانوا يقصِدونَ رؤيةَ السُّلطان لا للوصُول لحقٍّ واجب ـ فقَطَع العامة ذلك الجلوس، بعدَ ما توطَّأت به بعدَ شِماسِها النفوس.

وفي أيام الجلوس للأحكام وصَل إلى الحضرة مئة وخمسونَ من أُسارى الرُّوم كان قد أسَرَهم القائدُ الصِّقِلِّيُّ حين عكّس أجفانَهم بساحل بحر إشبيلِيَة، فأمَرَ المنصورُ بغَزْو جميعِهم. ثُم أمَرَ بقَطْع لِباس الغالي من الحرير، والاجتزاءِ منه بالرَّسم

الرقيق الصَّغير، ومنَعَ النساءَ من الطَّرْز الحَفيل، وأمَرَ بالاكتفاء منه بالسّاذَج القليل، وأمَرَ بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثيابِ الحرير والدِّيباج المذهَّب، فبِيعت منه ذخائرُ لا تُحصَى بأثمانٍ لم تُوفَ ولم تُستَقْصَ، ثم أمَرَ أصحابَ الشُّرطة بقطع الـمُلهين والقَبْض على مَن شُهِر من المغنِّين، فثُقِّف من وُجد منهم بكلِّ مكان، فغَيَّروا هيئاتِهم وتفرَّقوا على الأوطان، وبارت سُوقُ القِيان، وزُهِد كلَّ الزهد في هذا الشان.

ذكرُ اختطاطِ حَوْمة الصّالحة وإدخالِـها في الحضرة العالية

ولـمّا استَوْفَت هِمّتُه وجوهَ المحاسن وضروبَ الفضائل، وفخُمت المملكة وأَمَّها كلُّ قاصد وسائل، ضاقت عنها مساكنُ سَلفِه بقصر الحَجَر، فأمَرَ باختطاطِ الصّالحة، وحُشِد لها العُرَفاءُ والصُّنّاع، وكلُّ مَن شُهِر بالإتقان والأطباع، وحُدِقت مساكنُها بالتكسير، وأُرضيَ بالتعويض مَن كان له بها شيءٌ صغيرٌ أو كبير، وقُسِمت مساكنُها، وعيِّنت لِـما تحتاجُ إليه من المنافع أوضاعُها وأماكنُها، وجُمِعت لها الآلات، وخوطبَ بإمدادِها الجهات، ورَتَّب لإشغالها مِن حُفّازها[1] وحُفّاظِها وعُرَفائها ونُظّارِها، وأوعَزَ إليهم وأكَّد عليهم ألا يُنشئوا شيئًا من البُنيان إلّا فوقَ الغاية من الوِثاقة والإتقان، فأقبَلوا على العمَل من غير مَلَل ولا كَلَل مُواصِلينَ مساءَهم بصباحِهم، ومُوالين غدوَّهم برَواحِهم، حتى كمُلت على أحسن الهيئات وفوقَ ما أَمَّل فيها من الإرادات، فصارت بها حضرةُ مَرّاكُش مصرَ الأمصار وغايةً في الفَخامة وارتفاع المقدار.

وبينَما الناسُ وادِعونَ في ظلِّ الأمان، نائمونَ ملءَ الأجفان، إذ طرَأَ خبرُ بِجَاية وما دار فيها من النِّكاية.

ثم كانت سنةُ إحدى وثمانينَ وخمس مئة، ففيها: كان دخولُ ابن غانِية[2] معَ الـمَيارِقة مدينةَ بِجَاية، وتحرُّكُ السيِّد أبي زيد ابن عمِّ الخليفة المنصور بالجيوش مِن حضرته مَرّاكُش ورجوعُها له على أحسنِ حالاتِها وما اندَرَج في أثناء ذلك من الحوادث والـمِحَن وغيرِ ذلك.

---

(١) جمع حافز، وهو الشرطي عند أهل الأندلس، ينظر معجم دوزي ٣/ ٢٤٢ من الطبعة الفرنسية.

(٢) هو علي بن إسحاق المعروف بابن غانية (المعجب ٣٤٥).

اختصارُ الخبر عن دخول ابنِ غانِيةَ بِجَاية[1]

كان أبو يعقوبَ رحمه اللهُ وَجَّه القائدَ أبا الحَسَن عليَّ بن الدبرتير إلى جزيرة مَيُورقة بعدَ هلاكِ إسحاق بن غانِية[2] ليَعرِضَ الطاعةَ على مَن بها من بني إسحاقَ المذكور، وليقدِّم الإعذارَ والإنذار، على جَرْيِ العادة فيمَن خالَفَ الجماعة من الثوّار، فركِبَ أبو الحَسَن المذكورُ ظهرَ البحر من سَبْتةَ على ما اقتَضَتْه صَريمتُه من الجَدّ، ولـمّا وصَلَها وسَّعَ نزُلَه وأكرَمَ في الظاهر مثواه، ووصَل بالدّوام على الخير قُواه، وقد أضمَروا ما كانوا بَنَوْا عليه [من نيّة خرو][3]جِهم وغَدْرِهم، وبَدَا من محاولتهم ما لم يَخْفَ على أبي الحَسَن في سرِّهم وجهرِهم، وكان عندَ حلولِه بساحتِهم واشتغاله بمجادلِتهم، بَعَثوا إلى مراكبِه مَن أنزَلَها من الرِّكاب والعمائرِ البحريّة، وطلَعَ فيها العمائرُ الـمَيُورقيّة، وجَرَّدوها إلى دارِ عُددِهم، فلم يكنْ لأبي الحَسَن مَحِيد عن الاستسلام، والصبرِ على ما فَجَأه منَ الآلام.

وتَمادى إمساكُهم للقائد المذكور ومُطاولتُهم له ومُواعَدتُه حتى اتّصل بهم وفاةُ أمير المؤمنينَ أبي يعقوب، فتحرَّكت أحلامُهمُ الضّعيفة إلى التدبير الذّميم، واستَهْواهم تَسويلُ شيطانِهم الرّجيم، وأغواهم غَوِيُّهم الـمَريد، وضالُّهم الرُّوميُّ رَشِيد، فاعتَقَلوا أبا الحَسَن في دار إنزالِه، ووكَّلوا به من الحَرَس والرُّقَباء ما أَمِنوا به من مكرِه واحتيالِه، وخَرج المذكورُ رَشِيد بقطائعِهم إلى بِجَاية، وقد بَلَغوا منَ احتفالهمُ الغاية، وظِلُّ الـهُدنةِ في تلك البلاد ممدود، وماءُ العافية بها مسكوبٌ وموروود، والعيشُ كالأحلام والدُّنيا تحيّةٌ وسلام، فوصَل الأعداءُ إلى بحرِها، وقدَّموا زَوْرقًا إلى حَريم أسوارِها، واستَوْثَقوا بالاستفهام من جَلِيّة أخبارِها، فأشرَفَ عليهم مِن أهل البلد مَن سألَهم عن شانِهم، وما اضْطَرَّهم إلى الهجوم من غير استئذانِهم، فأخبَروا أنهم غُزاةٌ يَطلُبونَ مَرافقَ السواحل، وهم بينَ مُخادع ومُخاتل.

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٠٧-٥٠٨، والمعجب ٣٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٥.

(٢) المعجب ٣٤٤.

(٣) ما بين الحاصرتين فراغ في النسخ.

وكان السيِّدُ أبو موسى قد حَلَّها من إفريقيّةَ مُجتازًا بها معَ أصحابِه، والسيِّد أبو الربيع على مقرُبة منها راحلًا إلى الحضرة، والكلُّ من هؤلاءِ غيرُ مستعدِّين، وعلى بُعدٍ منَ الفتنة منذ سِنين، وأقبَلَ العدوُّ من الغَد على تعبية واستعداد، وتأهُّب وامتداد، قد تكفَّنوا في ضُروب أسلحتِهم، وتعلَّقوا من الغِربانِ بصدورِهم وأجنحتِهم، وانضَمُّوا إلى السواحل والأسوار انضمامَ الطّير إلى الأوكار، وجَنَحوا إلى إحدى الجهات، بأسرارٍ تقدَّمت قبلُ من الـمُكاتَبات، فتدَلَّى لهم قومٌ من السُّوقة والفُسّاق وأسَرُّوا إليهم بعَوَراتِ البلد وغفلة أهلِه وقلّةِ الـمُقاتِلة من أهل النَّجدة به، فقَوِيت بذلك آمالُهم وامتدَّت أطماعُهم، وهَبَطَ لمحاربتِهم أخلاطٌ من الناس من غير قائد يجمَعُهم، كُشُفٌ من العُدّة، كُسالى من الضَّعف والوَحْدة.

وقد كان في البلد من أرباب الأمر ما لو شاء اللهُ لَـمنَعوهم منَ الاستيلاء، ولا مُدافعةَ معَ محتوم القضاء. وعندَما اجتَمَعت تلك الـمُقاتِلةُ في البرّ، ورَأَت القِطَع كالـمُضرِبة عنهم، والـمُبدِيةِ النَّهبَ منهم، ثُم أوجَفَت إليهم إيجافًا، وتساوَتْ في احتماءِ الـمُقاذفِ والإسراع نحوَهم ثقالًا وخِفافًا، وأرسَلوا عليهم سَحابًا من القِسِيِّ العاقرة، وحِرابًا كالمنايا الماطرة، فشقَّتهم عن آخِرهم وتفرَّقوا كالفَراش المبثوث لا ينظُرُ أوّلُهم إلى آخِرهم، فمَدَّ الأعداءُ مطالعَ الطرائدِ وولايتَها، وخَرج الفرسانُ مستلئمينَ كأنّ اللُّجّةَ كانت طريقَها، وحين تكامَلت أعدادُ خيلِهم ورَجْلِهم، وارتفَع ما أَوْجَسوا في نفوسِهم من خِيفتِهم ووَجَلِهم، طلَعوا إلى ثَلْم السُّور قاصدين، بتجسيسٍ تقدَّم من أولئك الفاسقين، فسَهَّلوا بالحديد توعُّرَهم، ورأَوْا في الحين تيسُّرَهم، فاستولَوْا على البلد بأسرِه، وقَبَضوا على السيِّد أبي موسى وذويه وأهلِه، وثُقِفَ مَن يتعيَّنُ من الخَدَمة والموحِّدين، وصُيِّروا في ديار مُرْقَبين.

وكان دخولُ البلد في التاسعَ عشَر لصَفَر من سنة إحدى وثمانين وخمس مئة، وتَرك يحيى بنُ غانِيةَ[1] أخاه، بالبلد معَ رَشِيد الرُّوميِّ مولاه، وخَرج من فَوْرِه ليَلحَقَ بالسيِّد أبي الرّبيع، فالتقَى معَه بموضع يُعرَفُ بياميلول، فانخَزَلت العَرَبُ إلى العدوِّ وانطَوَت إلى حِزبِه، ورجَعت معَه على السيِّد وحربِه، فخُلِع عن محَلّتِه، واستَوْلَى

(١) المعجم ٣٤٢.

العدوُّ على ما كان فيها من أموالِه وعِياله وثِقْلتِه، ووَجَّه بالجميع إلى بِجاية لنظَر رَشِيد وثقافِه، وانهزَم السيّدُ أبو الرّبيع واستُشهِد بعضُ رجالِه، وتخَلّى إلى الجزائر فوجَدَها غيرَ حصينة، فانحدَر منها إلى تِلِمْسان واستقَرَّ بها معَ السيِّد أبي الحَسَن فريدًا من جُندِه، عاريًا إلا من أدبِه ومَجْدِه.

واقتفَى الشّقيُّ آثارَه، فأخَذ الجزائر وقدّم عليها يحيى ابن أخيه طلحة، وانتهَى إلى مليانةَ فأخَذَها وقدَّم عليها يدرَ ابنَ عائشة، ووقَفَ بها فنكَص على عَقِبَيْه ورأى أنّ الذي حصَل له فوقَ قَدْرِه ومطلبِه، فرجَع إلى بِجَاية، ووقَفَ معَ مسجدِها الجامع وأخَذ الناسُ بمُبايعتِه والدّخول تحتَ طاعتِه، ونَشَر رايتَه السَّوداء، وانحَشر إليه الغَوْغاء، فبايَعَه منِ اقتادَه الشّقاءُ بأَزِمّتِه، وتوقَّف من توكَّل على الله وأخَذ بسُنّتِه، ثم أخَذ ما أخَذ من مخازن بِجَايةَ من المال والثِّياب والعُدَد وكَسَا أوباشَ العَرَب ومنِ انضافَ إليهم ولاذَ به من أتباعِه، وضَمَّ جَمْعَه من أولئك الأخلاط المؤلَّفين، وتَرك ببِجَايةَ أخاه يحيى ورَشِيدًا، وتحرَّكَ إلى قُسَنْطِينةَ ونازَلَها في جَمْع من المؤلَّفة لا يُحصى عَدِيدُه، وعنها كان تفريقُه وتبديدُه.

قال أبو الحَجّاج يوسُفُ بن عُمر: أخبَرني القاضي أبو عبد الله بنُ إبراهيم، قال: لـمّا أُقِيمت رايتُه المذكورة بإزاء المِنبر اشتَغلوا عنها بما كانوا فيه من النظر، خَرَّت على وجهِها، واندَقَّ من القناة قائمُها، فتفاءل الناسُ بإنذارها، بقِصَر مدّتِه وزوالِ دولتِه.

ذكرُ حركة السيِّد أبي زَيْد إلى بِجَاية[1]

ولـمّا وصَلَت هذه الكائنةُ إلى حضرة مَرّاكُش على كيفيّتِها، وبيانِ ما انطَوَت عليه النفوسُ في مُوالاةِ العدوِّ من خُبث سرائرِها ونفاقِها وفساد طَوِيّتِها، فاهتزّ المنصورُ اهتزازَ أمثالِه، وصبرَ صبرَ المتوكِّل على صالح أعمالِه، وشَرع في تكثيف كتائبه وتكشيفِ عُمّالِه[2]، وانتقاءِ رجالِه وشُجعانِه وأبطالِه، وأباح التمكُّنَ منَ الآلات، وأعطَى

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧، والاستقصا ٢/ ١٦٠.

(٢) قوله: «وتكشيف عماله» ليس في ب، ق.

الجزيلَ من البركات، وأمَّرَ[1] السيّدَ أبا زيد ابنَ السيِّد أبي حفص على الجيوش، وفوَّض إليه التفويضَ التام، فخَرج في أعداد وافرة، وجُموع وعُدَد متكاثرة.

وتحرَّكت الأساطيلُ من سَبْتةَ على احتفال من أشكالها وانتقاءٍ من قُوّادِها ورجالِـها، وعليها أبو محمد بنُ أبي إسحاقَ بن جامع وأبو محمد بنُ عَطّوش الكُوميّ والقائدُ أبو العباس الصِّقِلِّي ومَن دونَهم من الرؤساءِ الأعيان، والأنجادِ الشُّجعان، والكلُّ تحت رَعْي الشّيخ أبي محمد ابن جامع وإلى نظَره وتحت ما يَراه من نَهْيِه وأمرِه، ومشَى[2] الجميعُ على تواعُد من تضافُر البرِّ والبحر، وتلاقي الفريقَيْن على الفتح والنّصر، فارتَـجَّت الأرضُ بَرًّا وبحرًا، ومَلأت الأنباءُ مسامعَ الخافقَيْنِ خبالًا وذُعرًا.

ووصَل الموحِّدونَ بمحلّتهم إلى مدينة فاس، فأمسَكهم بها ترادُفُ الأمطار، وتعذُّرُ الطريق بالوَحْل ومدودِ الأنهار، حتّى صَحَت السّماء وجَفّت الأنواء، ورحَل السيِّدُ من فاسَ وتدرَّج بالجيش إلى تِلِمسان، والسيِّدُ أبو الحَسَن ابنُ السيِّد أبي حفص واليها، وقد شَيَّد أسوارَها وشدَّ بالرجالِ أنظارَها، والسيِّد أبو الربيع قد استقَرَّ بها من هزيمته، مُستوحِشَ النفسِ كاسفَ البال، حليفَ أفكارٍ وأوْجال، يتنسَّمُ ريحَ النّصر، ويستوهبُ الدعاءَ في استنقاذِ أهلِه من قَبْضة الأسر.

وخيلُ يدر ابن عائشةَ صاحبِ مليانةَ تضرِبُ إلى مازونةَ ونواحيها، وقد أضرَمَ نارَ الفتنة في بطونِ تلك الجبال وأعاليها، فأخَذ الناسُ من تِلِمسانَ أُهبتَهم، واستوفَوْا منها أقواتَهم وأزوِدتَهم.

وقد كان أبو يوسُف المنصورُ أتبَعَ أُمراءَ الجيوش: البرِّية والبحرية كتُبًا لأهل سائر البلاد المغلوبِ عليها بالأمن والأمان والصَّفح والإحسان، ولـمّا دَنَت من البلاد دَسُّوا بالكتُب جواسيسَها دخَلوا بها ليلًا إلى البلاد واجتمعوا بها معَ من يوثَق به للأمن، فلمّا وقَفوا عليها ورأَوْا أنهم قد أَمِنوا غوائلَ العذاب، وأن العفوَ والرحمة لهم مفتَّحةُ الأبواب، وَثَبوا على مَن كان عندَهم من الأعداء، وأرصَدوا لفِرارهم بالمضائق

(١) في ق: «وأمدّ» ولا معنى لها.

(٢) من هنا إلى قوله: «برًّا وبحرًا» سقط كله من ب.

وقُبض على أكثرهم بتلك الـمَخانق، وسَبَقتِ الأساطيلُ ففتَحت الجزائرَ قبلَ وصُول أهل البَرّ، وضُرِبت الطّبولُ في يوم واحد على فتح الجزائر ومِلْيانة، وقُبِض على يحيى صاحبِ الجزائر وحواشيه، وأتْباعِه وغَواشيه.

وكان يدر ابنُ عائشةَ صاحبُ مِلْيانةَ قد أسرَى منها فاقتفَى أهلُها أثَره، فلَحِق بالقرية المعروفة بأُمِّ العلو وعُرِض عليه النزولُ على وَجْه التضييف، ثم قُبض عليه بأطراف النهار بعدَ مُعاركة ومُحاربة، وسيقَ جَمْعُهم مُصفَّدين، وأمَرَ السيّدُ أبو زيد على وادي شلف بغَزْو الباقين، وتقدَّم القائدُ أبو العبّاس الصِّقِلِّيُّ بقطعة واحدة معَ بعض أهل البلد ودَسُّوا لهم كتُبًا بما وراءهم من الأُسطول والجيوش الواصلة، فلمّا وصَلت الأُسطولُ[1] إلى بِجَاية ضَجَّت العامّة وفتَحت الأبواب، ودخَلت عمائرُ الأساطيل فانتَهَبَتْ كثيرًا من البلد، فتلافَى الحالَ الشيخُ أبو محمد ابنُ جامع بالاشتداد والاجتهاد، ووضَعَ السّيفَ على مَن عُثِر عليه من أهل الاعتداء والفساد، فحَمِيت نارُ الالتهاب وسَكَن العمومُ عما كانوا فيه منَ الانتهاب، وخَرج السيِّدُ أبو موسى ومَن كان معَه من الموحِّدين تحتَ الثِّقاف، وخَرج يحيى بنُ غانِية في عَدَد قليل عن بِجَاية ولحِقَ بأخيه بقُسَنْطينةَ وهُو محاصِرٌ لها، وقد كان بَلَغ أهلُها من الحصار، إلى حال مؤْذِنة بالدَّمار، وانتَهَوْا من الجَهدِ والتضييق إلى ما أَغَصَّهم بالرِّيق، وضاقَ بهم من كلِّ طريق، فجاءهم من الفَرَج والتنفيس ما وجَدوا بركتَه في الحين، واللهُ معَ الصابرين.

وعندَ وصُول ابن غانِيةَ أضرَمَ النِّيرانَ في الآلات المنصوبة عليها، وتَركَ الأعداءُ أثقالَهم وكُراعَهم من غيرِ اختيار، وخاب سعيُهم وما بنَوْا عليه من التأميل، وتفرَّقوا أيديَ سبإٍ بكلِّ سبيل.

ووصَل السيّدُ أبو زيد بالمحَلّات إلى منزل تيكلات بعدَ إقلاع العدوِّ عن قُسَنْطينةَ بثلاثة أيام، فوقَع الاتّفاق، وتلاقَى الإجماعُ والإصفاق، ممّن تعيَّن من أشياخ الموحِّدين، وحضَر تلك الحركة من أهل البصائرِ والدِّين، وأجمَعَ رأيُهم على الترويح

---

(١) كذا في النسخ، والمراد: وصلت سفن الأسطول.

بالمجلس المذكور رَيْثما يُجرِّدُ الناسُ أثقالَهم ويجدِّدونَ أزوِدتَهم ويتأهَّبونَ إلى اتّباع الأعداء إلى ما لا نهايةَ له، فأقاموا به يومَهم ذلك وثانيَه، ولحِقَ طلَبةُ بِجَايةَ ووجوهُ أهلِها صُحبةَ السيِّد أبي موسى فتهانَوْا بالسلامة، وشكروا اللهَ على ما خوَّلَهم من النِّعمة السابِغة والكرامة، واتّصل سَلامُهم بوَداعِهم وانصَرفوا على أدراجِهم.

وسيقَ كلُّ من قُبِض عليه ببِجَاية ونَظَرِها ممّن مُيِّز من المرتدِّين، وقُبِض عليه ممّن جازَ من مَيُورقةَ من المتجنِّدين، فأُمِّن مَن جاز من مَيُورقةَ من الأجناد، وقُتل كلُّ مَن نَزَع عن هذا الأمر وأظهَر نفسَه في الارتداد، ووزِّع على الموحِّدين كلُّ ما كان بدار الشّقيِّ من الإماء، احتياطًا لضِياعِهم بطُول الثَّواء.

ورحَل الموحِّدونَ في اليوم الثالث في اتّباع الأعداء يتقصَّوْنَ أنباءه ويَقْفُونَ آثارَه، ويَطوُونَ عليه المراحل، ويعَضُّونَ على فَوْتِه الأنامل، والعدوُّ قد ألقى أعباءه وخفَّف رَحْلَه وفرَّق رَجْلَه وشمَّر للفِرار ذيلَه، واتَّـخَذ اللّيلَ جَمَلًا، وإن رأى غيرَ شيءٍ ظنّه رَجُلًا، فتعذَّر على الموحِّدينَ لَحاقُه، وارتفع عنه في هذا الوقت مَحاقُه، لكثافة الجيش واتّساع أثقالِه، وأنْ لا مَحِيدَ عن رحيل الإنسان بمرافقِه وجمالِه، فرجَع الجميعُ إلى بِجَاية بعدَ ستة أشهر لم يَكتحلوا تحت جِدار بمنام، ولا بَرَحوا عن الإسراج والإلجام، والجيشُ وافرُ العُدّة ظاهرُ الصَّلاح، غيرُ مفلول ولا مقصُوصِ الجناح.

وعُرِّفَ المنصورُ أبو يوسُفَ بتيسيرِ هذه الحركة وما كان من أمرِ الأُسطول في فتح بِجَاية، فهنِئ بالحضرة بمَرّاكُش، فقال أبو العباس ابنُ عبد السلام في ذلك [من الطويل]:

لـواؤك منـصورٌ وسَـعْدُك غالـبُ ... وحزبُـك للأعـداء عنـكَ محـاربُ

لقـد ثَكِلـت أُمُّ الـمُناوي وغُـرِّرتْ ... مَبـادئُ مـن أحوالِـه وعواقـبُ

سَمَا لاستراقِ السَّمع من وَهَداتِـهِ ... ودون سماءِ الـمُلك شُهبٌ ثواقبُ

تلاقَـى عليـه الـبَرُّ والبحـرُ ترتمـي ... سَـفينٌ إلى استئـصاله وكتائـبُ

غريـقٌ بغرقَـى مثلِـه متمـسِّكٌ ... ومـوجُ المنايـا مـثلَهم متراكـبُ

هوَتْ بهـمُ الأطـماعُ في هُـوّة الـرَّدى ... وغَـرَّتهمُ جهـلًا بُـروقٌ خَوالـبُ

أطاعوا غَوِيًّا لم تقيِّدْه شِرعةٌ | ولم تُرِهِ وجهَ الصّواب التجارِبُ
مغيَّبُ وجهِ الرأي والوجهُ حائرٌ | يَرى حاضرًا في أمرِه وهْو غائبُ
دعاهُم إلى آجالِهمْ فتهافَتوا | كما جَمَعَ الأعوادَ للنار حاطبُ
تصامَمَ عن وَعْظ الزّمان بقلبِهِ | وأعرَضَ عن وجهِ الهُدى وهْو لاحبُ
تخيَّل أنّ الناصريّةَ دارُهُ | يُطاعنُ عن ساحاتِها ويُضاربُ
وفي الغيب من إنجاد طائفةِ الهدى | ونَصْرِ أميرِ المؤمنينَ غرائبُ
هو الأمرُ أمرُ الله ليس يَفوتُهُ | مُناوٍ ولا يَنْأى عليه مُناصبُ
وما هاربٌ منه ولو بَلَغ السُّها | بناجٍ وهل يَنْجو من الله هاربُ
بناصرِها المنصور تاهت خلافةٌ | تُناسبُهُ في حُسنِه ويناسبُ
إمامٌ له فضلٌ على الخلق باهرٌ | ومرتبةٌ تنحطُّ عنها المراتبُ
مناقبُه مثلُ الكواكب كثرةً | ونورًا ألا لله تلك المناقبُ
له نسبةٌ قَيْسيّةٌ قُدُسيّةٌ | تُقِرُّ لها بالمعلواتِ المناسبُ
هي الدّوحةُ الشمّاءُ في الأرض أصلُها | وقد زاحمَت منها السماءَ الذوائبُ
حقيقٌ بميراث النبوّة والهُدى | ولا عَجَبٌ إنّ المزايا مواهبُ
بِقِيمِ أميرَ المؤمنينَ وسعدِكمْ | تُهزُّ قنًا منه وتَنضَى قواضبُ

ذكرُ استقرار السيِّد أبي زيد ببِجَاية وما جَرى مدّةَ إقامته بها من الأحداث إلى حينِ انفصالِه

لـمّا وقَعت الفتنةُ ببِجَايَة وأقطارِها، وخَفّ قَطينُها وعُمّارُها، وانتُهبت زروعُها وغَلاتُها، وقَلّت خيراتُها وعُدِمت مَرافقُها وأقواتُها، وألَـمَّ بالرعيّة الحَيْف، وتقسَّمَهم الجلاءُ والسَّيف، اعتَصم مَن نَجا منهم بقُنن الجبال والأوعار، واحتمَى مَن رَكَن منهم إلى أحياءِ العَرَب بالجِوار، فأقفَرت من بِجَايةَ بسائطُها، وقلت مادّتُها، وغَلَت أسعارُها، وتعذَّرتِ الجِباية، وجاوَزَ تقتيرُها النّهاية، فتسلَّل من القبائل خيلًا ورَجْلًا

معظمُ سوادِهم، وتسرَّبوا معَ الأيام فِرارًا من الإعدام إلى أقطارِهم وبلادِهم، ولم يبقَ إلّا مَن يُعرَفُ بعينِه واسمِه، ولا ساغَ له الرحيلُ عن قومِه، وكلُّ مَن كان يصلُ إلى الحضرة يُلقي في جانبِ السيِّد الأقوالَ الخبيثة، والأحوالَ السيئة الرَّثيثة، فأُوغِرَ صدرُ أمير المؤمنينَ على السيِّد المذكور، وصَرَفَه صبرُه وتُقاه عن معاقبتِه، فخاطَبَه معاتبًا على ما قيل فيه وزُوِّر، وبَسَط له من العَدْل والـمَحْض ما خَفَّ على ما نُقِل عنه وصُوِّر.

فأقام السيِّدُ على هذه الحال والمجاعةُ تشتَدّ والوباءُ يزيدُ حتّى عَمَّ الـمَوَتان، وبَطِرت معيشتَها الرخمُ والعُقْبان، وانحصَر المسلوبونَ والمغنومونَ إلى البلد في أُمم لا يُحصَى عديدُهم ولا يُنادى من الإقتار وليدُهم، وعَجَز أهلُ البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحونَ في الخُرَب وفي سِكك المدينة زُمَرًا أمواتًا ذكورًا وإناثًا.

وانفصَل الأسطولُ إلى المغرب وساءت حالُ المنافقين، ووصَل غزيٌّ الصُّنهاجيُّ من قِبَل الشقيِّ ابن غانِية بجُملة من جُندِه ووَفْر من عُدَدِه، فحصرَ مدينةَ أشِير وتغلَّب عليها وقَتل حافظَها، فاقتضَى نظَرُ مَن ببِجَاية توجيهَ أبي حفص عُمرَ ابن السيِّد المذكور بجماعة من الموحِّدين وأبي الظَّفَر ابن مُرْدنيش بمَن كان معَه من الأجناد، فالتقَوْا بغزيٍّ وأصحابه ودار بينَهم أمَضُّ القتال، وتسنَّموا لهم ظهورَ الجبال، فترجَّل العسكرُ بجملتِهم، واقتَحَم عليهم في منَعتِهم، وأوقَعوا بهم أيَّ إيقاع، وانزعجَ فَلُّهم إلى أطراف تلك البقاع.

وأُسْرِعَ برأس غزيٍّ إلى بِجَاية أيَّما إسراع، واستَولى أبو الظَّفَر ابنُ مُرْدنيش على منازِلهم وحريمِهم وحواشمهم ومَواشيهم وسَباها، وانصَرف من غَزاته وجَعَل ذلك الغُنْم زادَه وثوابَه، وشَغَّب عبدُ الله بمكان غزيٍّ أخيه، فاستهواه القاضي أبو العبّاس ابنُ الخطيب واستَنْزَلَه فصُلب ببِجَاية بإزاءِ رأس أخيه[1].

وفي هذه السنة: قُتل ابنا القائد ابن حملة، وكان تغريبُ بني حَمْدونَ عن بِجَاية إلى سَلَا وجَبْرُهم على بيع أموالِهم وديارِهم بثمن بَخْس[2].

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

وفيها: قُتل بعضُ مَن شارَكَ في تلك الفتنة من أهل بِجَاية ممّن خَلَع طاعةَ المنصور ولزِم خدمةَ ابن غانِية.

وفيها: قُتل رَشِيدٌ الرُّوميُّ ونِزارٌ ابن الزميلي الحكيمُ.

وفيها: حُمِل على بقيّة بني القائد وأصهارِهم وذَويهم في بيع أملاكِهم وديارِهم، وكان أهلُ البلد بعَقِب فتنةٍ مُبِيرة وجائحة من المجاعة مُغيرة، فبيعت بثمن بَخْس أكثرُه غيرُ مقبوض، وخَرَجوا على وجوهِهم وما منهم إلّا مُنطوٍ على فؤاد مرضوض وجَمْع مفضوض، واستقَرَّ جميعُهم بمدينة سَلَا حائرين، وبأثوابِ الضَّيعة مشتملين.

وبعدَ هذا وصَل إلى السيِّد أبي زيد كتابٌ كريم ببَسْط نفسِه، واسترجاع نافِر أُنسِه، وتزوير ما نُسِب إليه من الغفلة، وقدومِه على الخليفة بكلِّ ما أَلِف وعَهِد منَ الأَثَرة، وقَدِم على البلد السيِّدُ أبو عبد الله بعدَ تأخُّرِه على الوِزارة، وانصَرف السيّدُ في جمرةِ الشتاء وصِدق الأنواء. ووصَل السيّدُ بمَن معَه على مشقّة من الأهواء إلى الحضرة، فلقيَ من الخليفة أكرمَ ما وَعَدَه، والبرَّ الذي أَلِفَه منه وتعوَّده.

ولم تزَلْ همّةُ المنصور تتبَعُ جُزْئيّاتِ المملكة بالتفخيم، ويُجيلُ النظرَ فيما بقيَ منها للتكميل والتتميم، فرأى أنّ الدينارَ القديم يَصغُرُ عن مَرْأى ما ظَهَر بالمملكة من المَنازع العالية، وأنّ جِرمَه يقِلُّ عمّا عارَضَه من المَناظر الفخمة الجارية، فعَظَّم جِرمَه ورفَعَ قدرَه بالتضعيف وسَوْمَه، فجاء من النتائج الملوكيّة والاختراعاتِ السَّرية، جامعًا بينَ الضّخامة والنَّماء، والطِّيب وشَرَف الانتماء. فتكلَّمت في ذلك الشّعراء، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة [من البسيط]:

بجِدِّ عِزْمِك نال الدِّينُ ما طَلَبا ... وأحجَمَ الشِّركُ عن إقدامه رَهَبا

وأيقنت ملّةُ الإسلامِ أنّ لها ... بكَ الظهورَ على الإعداء والغَلَبا

وأنّ كلَّ بعيد عندَها كثَبٌ ... ولو تطالب في أفلاكها الشُّهُبا

وأنّ أمرَك مُستَوْلٍ على أمدٍ ... من السعادة فات العُجْمَ والعَرَبا

إنّ الخلافةَ نالت من محاسنِكم ... أوفَى الحظوظ فأبدَت منظرًا عَجَبا

أعلى المراتبِ من بعدِ النبوّة قد ... حَبا بها اللهُ أعلى الخَلْق وانتَخَبا

سينظِمُ السعدُ مصرًا في ممالكِهِ ... حتى تدوِّخَ منها خيلُهُ حَلَبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسانَ يتلو جيشُه الرُّعُبا

هو الذي كانت الدّنيا تؤمِّلُهُ ... وكلُّ عصر له ما زال مُرتقبا

هل ابنُ إسحاقَ إلا كالذين جَرَوْا ... إلى مصارعِهم من قبلِهِ خَبَبا

عن شرٍّ منقلبٍ تُجلَى عواقبُهُ ... وقَلّ ما حَمِد المغرورُ منقَلَبا

راق النَّضارُ عيونَ الناظرينَ وقد ... غدا اسمُك المعتلي أعلاه مُكتَتَبا

قد جاز في وصفِها في كفٍّ ذاك وذا ... أنّ النجومَ استحالت للورى ذهبا[1]

نَداك عمَّ بني الدّنيا وألبَسَهم ... في الشرق والغرب أثوابَ الغِنى القُشُبا

خليفةَ الله رُحماكم لمغتربٍ ... ناء وما إنْ نَأى دارًا ولا اغتَرَبا

وفي هذه السنة: كان استبدادُ القائد أبي الحَسَن ابن الدبرتير بقَصَبة مَيُورقة وتغلُّبُه عليها وتتبُّعُه بالقتل مَن وَجَد بها من لَمْتُونةَ وحواشي زَناتة، وتملُّكُه لأحوالِهم وديارِهم وأموالِهم.

ذكرُ تغلُّب القائد أبي الحَسَن على قَصَبة مَيُورْقة المذكورة

قد تقدَّم خبرُ وصُولِه إليها وتثقيف ابن غانِيَةَ له عندَ عَزْمِه على الخروج إلى بِجَاية واستيلائه عليها، وذلك أنه لـمّا خَلَت الجزيرةُ منهم وخَرج معَه شوكةُ أجنادِهم ورجالِهم وأنجادِهم، خلا لأبي الحَسَن المذكور وجهُ نَظَرِه، وأمكنَتْه الفُرصةُ في إعمالِ الحيلة في تخلُّصِه من ثِقافِه وتبصُّرِه، وكان الأعلاجُ جلَّ حاشيتِهم وناشئتِهم والمتطلِّعينَ على أسرارِهم، وكان أكثرُهم على أديانِهم يرومونَ الانتقالَ إلى أوطانِهم، فاستمالَهم القائدُ المذكور مدةَ اعتقالِه استمالًا مُواليًا، أخَذ بعقولهم واستهواهم، وبَسَط لهم في المواعيد ومَنّاهم، وعَهِد إليهم عندَ تمكينِه من مُرادِه، وإعانتِهم له على ما يَرومُه منَ استيلائه واستبدادِه، أن يُجهِّزَهم إلى بلادِهم ويُخلي سبيلَهم بأهليهم وأولادِهم.

---

(١) هكذا في النسخ التي بين أيدينا، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

ولـمّا تمَّ له تدبيرُه، وتحصَّل له من خُلوصِهم ما تيقَّنه ضميرُه، وَعَدوهُ بأنّ ذلك يكونُ في جُمُعةٍ عندَ افتراق الناس إلى طهارتِهم واشتغالِـهم بالتأهب لفَرْض صَلاتِهم، فوصَلوا الميعاد وخَرجوا معَه من فَوْرِهم وغَلّقوا أبوابَ القَصَبة وتعلَّقوا بالأسوار، وفتَحوا بيوتَ الأسلحة وأخَذوا منها فوقَ المقدار، وأحالوا على رجالِ القَصَبة من لَـمْتُونةَ ومَسُوفةَ وحواشيهم واستأْصَلوهم بالقَتْل إلى آخرِهم، فما اجتمعَ أهلُ البلد إلا وقد أعضَلَ داؤهم وأعيا دواؤهم، وغَلَب الاستيلاءُ على القَصَبة فانحشَر إليهم أهلُ البلد والجزيرة ونَصَبوا عليهمُ المجانيقَ والآلات، وأحاطوا بقتال القَصَبة من كلِّ الجهات، فكلّما سدَّدوا إليهم سِهامًا، وأرسَلوا عليهم حجارةً أو أشرعوا لهم سِنانًا، رفَعَ أبو الحَسَن على السُّورِ شخصًا من ذُرِّية إسحاقَ بن غانِية يُعارِضُ به ويتّقي السِّهامَ والأحجار، وأكثر ما كان يعملُ ذلك بأُمِّ عليّ ابن غانِية وأبنائه وخاصّتِه وإخوانِه، فكان أهلُ البلد يكُفُّونَ عن القتال ويرغَبون في الاستنزال، وتمادت الـمُمانعةُ أيامًا، وصَرَفوا بينَهم في أثناءِ ذلك اليوم عهودًا مؤكَّدةً وأيْمانًا.

وكان أبو عبد الله بن إسحاقَ بن غانِية تحصَّن بأقصى الجزيرة من سِجن إخوتِه، على ما كان أراده منَ الخروج من الجزيرة إلى الأمرِ وتقدُّم هجرتِه، فوصَلَت المصالحةُ والـمُهادنة بينَ أهل البلد وبينَ القائد أبي الحَسَن على وصُول أبي عبد الله وارتباطِه معَه ونزوله وتخلِّيه عن البلد له، فسيقَ أبو عبد الله المذكورُ، فنزَلَ أبو الحَسَن له بعدَ ما استصفَى كلَّ ما أراد من ديارِهم وما فَدَوْا به أنفسَهم من ذخائرِهم، وسرَّح كلَّ مَن كان بالبلد من الروم المجنَّدين والمتملِّكينَ بأموالِـهم وأهليهم وأولادِهم، وجَهَّز جميع ما وَعَدَهم إلى بلادِهم. وخَرج أبو الحَسَن المذكور ولحِق بالحضرة معَ أبي عبد الله بن إسحاق مُبادرًا بالطاعة، فبَلَغ من الكرامة أملَه ورأى من الإحسان فوقَ ما أمَّلَه، وبقِيتِ الجزيرةُ في حُكم الموحِّدين، والخُطبةُ باسم المنصور أمير المؤمنين، حتّى يقعَ نظَرُه فيمن يوجِّهُه إليها واليًا عليها.

وفي أثناءِ النظَر لها ركِبَ عبدُ الله بن غانِية من إفريقيّةَ إلى صِقِلِّيّة، وأُعينَ منها بجَفْن تجهَّز فيه إلى مَيُورقة، وانضَمّ إلى بعض قُرًى في أطرافِها وخَدَع بعضَ الرعيّة

باستمالتِها واستلطافِها، فخَرج عندَهم وأعانوه بدوابَّ ورجال، وسار إلى البلد فدخَله بتلطُّف واحتيال.

ولم يزَلْ عليُّ بن إسحاقَ بعدَ إقلاعِه من قُسَنْطينةَ وخَلْعِه عن البلاد التي كان أخَذها وانقطاعِه بأطرافِ طَرابُلُسَ وما وراءها يَألَفُ ذُؤبانَ العرَب وأوباشَهم، ويستميلُ هَمَجهم وفراشَهم، ويُناهشُ الأطرافَ القَصِيّة، وينتهزُ بسَرِيّة وبغير سَرِيّة، والشيخُ أبو محمد ابنُ واسجور بمدينة تونُس مُطِلٌّ عليه إطلالَ العُقاب الكامن والأسد الهاصر، والمنصورُ بحضرته يَستقرئُ أخبارَه، ويتربَّصُ به الدوائرَ التي أحَلَّها به فحسَمَت عِلَلَه، ومحَت آثارَه.

وفي سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة تَـحَرُّك المنصورِ إلى قَفْصة، وذكرُ ما كان فيها من الأنباءِ والحوادث

لـمّا دخَلت السنةُ المذكورة وتَوالَت على الحضرة الأنباءُ الشَّنيعة بتضييق الـمَيارِقة على بلاد الجريد، وتغلُّبهم على ما تَطرَّف منها في الثَّغر الأقصى والشأوِ البعيد، شَرَع في الحركة إليها، وألقَى كَلْكلَ[1] التصميم عليها، واستنفَرَ القبائلَ من البسائط والجبال، وكاثَرَ بها أعدادَ الحَصْباءِ والرِّمال.

وفي هذه الحركة اختَرع افراكَ المعَدّ لنزوله في غاية الحُسن والجمال، وقدَّم الارتقاءَ إلى تينملَ لزيارة قبرِ الـمَهْديّ على جَرْي عوائدِ سَلَفِه في تيمُّنِهم بتقديمِه، وقضاء حقِّه وتعظيمِه.

وشَرَع في أثناء زيارة قبرِ إمامِه في نَظَرِ مصالح البلاد، فشَدَّها بالوُلاة والأجناد، ثم جاء عيدُ الفِطر بعدَ هذه الزيارة، فلمّا قضَى فرضَ الصلاة، خَرج من مَرّاكُش في الثالث من شوّال، واستَخْلفَ على مَرّاكُش السيّدَ أبا الحَسَن شيخَ بني العمّ وكبيرَهم، وجعَلَ له النظَرَ في تتميم ما بقيَ من بناءِ الصالحة، ووَكَّلها إلى إعمال خاطرِه والاستبدادِ برأيه ودقيق نظَرِه، وتَمادى المشيُ بعدَ الخروج من الحضرة من غير ترويح إلى رِباط الفتح، فجدَّد العَزْمَ بها وقدَّم ما يجبُ من المخاطَبات وودَّع مَن كان حَضَر من أهل

---

(1) في ق، ر٣: «كلل».

الأندَلس وجهاتِ الحضرة من الوُلاة، فقالت الشّعراءُ في ذلك الوداع، فقال أبو بكر بن مُجبَّر[1] [من الكامل]:

لَيتَ الحوادثَ عن عِياني تغفُلُ ... فأُشاهدَ الفتحَ الذي يُستقبَلُ

وأضرَبَ المنصورُ عنِ استصحاب عَرَب المغرب وتجنيدِهم في حركته تلك إلا بعضًا من أشياخ رِيَاح كبني زَيّان رَعْيًا لِقِدَم هجرتِهم، وتيقُّنًا بنصيحتِهم، وأكَّد على سائر العُمّال الذين بالمنازل وأُمّهات الطُّرُقات بتبليغ المكاتَبات ووضوح المخاطَبات بإصلاح المسالك وتوطئة السُّبُل وتمهيدِها، ونَصْب الجُسور في أماكنِها وإعداد الأقواتِ وترغيدِها، وتيسير المرافق وتوفير العُلُوفات، وأنْ لا عُذرَ لهم فيما يَحتاجُ إليه الجيشُ من الموجودات. وكان الناسُ يمشُونَ كأنهم في أحسن مساكنِهم، وينتقلونَ من الترفُّه والتمتُّع بما لم يعهَدوه في معايشِهم ولا اقتَدَروا عليه في أماكنِهم.

ولـمّا وصَل المنصورُ إلى مدينة فاس رَوَّح بها أيامًا عديدة، وبُرهةً من الزمان مَدِيدة، لكونِها قاعدةَ المغرب وأُمَّ القُرى، وعاملُها إذ ذاك أبو موسى بنُ وامازين[2]، فأقام الناسُ بها في تضييف خَرَقَ العوائد، يتنافسُ الرعايا في ذلك على الأعياد، يأتونَ بجِفان تحمِلُ الواحدةَ منها عدّةٌ من الرجال، عليها عِدّةُ جُزُر يأكُلُ منها جموعٌ فلا يأتونَ لها على انتهاء، فجدَّد الناسُ بها أزوِدتَهم، وتفَقَّدوا أسلحتَهم وعُدّتَهم، وبساطُ العدل مبسوط، ونظامُ الأحكام حيث ما حَلّ الإمام مُحكَمٌ مربوط.

فرُفِعَ إلى المنصور أنّ أبا القاسم ابنَ الملجوم بنَى غُرفةً في دارِه يُشرفُ منها على بعض جيرانِه، وجعَلَها متنزَّهًا له ولإخوانِه، فأمَرَ بوقوفِ أهل البصَر عليها، فلم تُشرِفْ إلّا على صحن حَمّام وسطح بعض أقوام، فأمَرَ المنصورُ بهَدْمِها وتغيير رَسْمِها، وتتَبّع بالعدل قضايا العباد، ومشَى البحثُ عن المتظلِّمينَ بكلِّ منزلٍ وبكلِّ واد، ووقَعَ الرحيلُ بعدَ هذا الاجتهاد والنظَرِ في الاستعداد.

---

(١) في م: «محمد»، وهو تحريف، وهو شاعر مشهور، سيأتي الكثير من قصائده.

(٢) هكذا مجوّدة في النسخ كافة.

ولـمّا كان النزولُ برِباط تازَى التفتَ المنصورُ إلى ساقَتِه فرأى أكثرَ القَرابة من الإخوةِ والعمومة قدِ اصْطَفُّوا واختَصُّوا بلباس الغفائر الزَّبيبيّة والبَرانيس المِسْكيّة، فأنكرَ عليهم مُلازمةَ ذلك الزِّي، لكونه من زِيِّ الخليفة في حالتَيْ ركوبِه وجلوسِه في كلِّ موطِن، فجَمَعهم السيّدُ أبو زيد، إذ كان أقربَهم إلى الخليفتَيْن: أبي يعقوبَ وأبي يوسف بالإيثار والتقديم، والمؤمَّرَ عليهم في الحديث والقديم، فجمَعَهم وذكَّرهم بعوائد الأمر والمحافظة على آدابِه وأن يتَجنَّبوا أفعالَ الخليفة المختصّةَ به، فلم يعُدْ أحَدٌ منهم بعدَ ذلك للِباس تلك الألوان، المختصّةِ بالسُّلطان.

وتَمادى السّيرُ، واليُسر يُسهِّلُ كلَّ عسير ولُطفُ الله يُدني كلَّ قَصِيّ ويُنيلُ كلَّ خطير. ولـمّا أطلَّ الموحِّدونَ على أرض قُسَنْطِينةَ وما اتّصل بها من الصحراء، تبادَرَ الأشقياءُ من الـمَيارِقة والأغزاز، وتألَّفوا وضَمُّوا جموعَهمُ الذّميمةَ وتحزَّبوا واستَهوَوْا شِرْذِمةً من سُليم لصوصًا وأوباشًا وكلابًا هِراشًا، فبَرَزوا بفضاءِ القَيْرَوان، وتَراءت طلائعُهم للعِيان، فعَزَم المنصورُ على الهجوم عليهم قبلَ تمكُّن استعدادِهم وأَخْذِهم في تدبيرِهم ومُرادِهم، فتفاوَضَ معَ أشياخ المجلس والوُزراء، وبرَزَت نتائجُ الآراء، فصوَّب الجلوسَ بتونُس وأن يُجدِّد منها العَزْمَ للأعداء، فاتّصل المشيُ إليها ورَوّح الناسُ بها، والعدوُّ أثناءَ ذلك قد أخَذ أُهبتَه، وشدَّ للشرِّ حوبتَه، وتَراخَى تهيُّبُه ورُوعُه، وقوِيت شوكتُه وجَمْعُه.

وفي هذه السنة: توفِّي أبو الحَجّاج ابنُ مُرْدنيش بمدينة بَلَنْسِيَة.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانينَ وخمس مئة: كانت وقعةُ عمرة، وكيفيّةُ الخُدعة فيها على الموحِّدينَ وانهزامُهم وقَتْلُهم واستيلاءُ ابن غانِيةَ على خيلهم ورَجْلِهم، على ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ وقعةِ عمرةَ وهزيمةِ الموحِّدين

وذاك أنه لـمّا وضَع الناسُ بمدينة تونُس أثقالَهم وأخَذوا من البلد منازلَهم ورتَّبوا لـمَن نَصَبوا من الخيل والحَشَم مُؤنتَهم ولوازمَهم، أمَّرَ أبو يوسُف المنصور السيِّدَ أبا يوسُف بنَ أبي حفص على عسكر الموحِّدين، وخَرج من تونُسَ في جمع حَفِيل،

وجيش من كلِّ قَبيل، فقَصَدوا إلى العدوِّ بجُملتِهم وأثقالِـهم حتى أشرَفوا على أرضِه، فرمَوا بنافلةِ العَزْم وفَرْضِه[1]، ولـمّا كان ليلةُ البَيات، وعَوَّلوا على اللّقاءِ والثبات، أسحَروا من الغدِ كما كانوا بجملتِهم وحُمولتِهم وأثقالِـهم، وذلك يومَ الجُمُعة منتصَفَ ربيع الآخِرِ سنةَ ثلاث وثمانينَ المذكورة.

ولـمّا تَراءى الجَمْعان، وتقاسَما مساحةَ الميدان، وكاد يتنازلُ الفريقان، تشتَّتِ الآراء، وكثُر التواكُلُ والالتواء، وأُعجِلَ الناسُ عن استعدادِهم... ولم يُمكَّنوا من مرادِهم، وأسْرَوْا وساروا على ريقِهم، معظمَ طريقِهم، مُعيينَ غيرَ شاكِين، والحُمولةُ ناحيةٌ منهم موسَقةٌ بأثقالِـهم لم يُحطَّ بها حزام، ولم يُرخْ لراحلةٍ منها زِمام، وعمومُ القبائل قد وَقَفوا بالأطراف بحيث لا تَطيشُ لهمُ السِّهام، وناشَبَ الأغزازُ القتال، وحَمِيت حفائظُ الرجال، فدفَعَ القائدُ أبو الحَسَن ابن الدّبرتير بجُملتِه، وأهلِ الجَدِّ والثِّقة من شِيعتِه، فغَشِيَه وأصحابَه سحائبُ سِهام، أكَبَّت منهم جماعةً لوجوهِهم كسقوطِ الأنعام، وقُبِض على أبي الحَسَن بعدَ إرجالِه عن مركوبِه وصُرِع أصحابُه من مطعونٍ ومضروب، واقتفَى أثَرَه أبو عليّ ابنُ يُومور[2] بحَشْدِ العَرَب وهم غيرُ محاربين، ولا بالنّجدة مرتسِمين، فنكَلوا لأول حملة عن دفاعِه، وخَلَّوا بينَه وبينَ أعدائه، ولم يصبِروا على ارتجاعِه، فقُبِض عليه وقد أثخنَتْه الجِراح.

وكشَفَت الحربُ عن ساقِها وكثُر الضّجيجُ والصُّراخ، والتَحَم نَسْجُ الفريقَيْن، واستحَرَّ القتلُ بين الفئتَيْن[3]، وحَمِي الوَطِيس وجُهِدت النفوس، وفَلّ الحُسام وكَلَّ السِّنان، وأُصيبت جملةٌ من الأعيان، وعَظُم الكربُ وتخاذَلت جموعُ العوام، ودَنا اللّيلُ وغشِيَ وَحْشُ الظّلام، وانضمَّت الأطنابُ على قلب الساقة، وخَرج الاحتمالُ عن وُسع الطاقة، وكانت تَغْشاهم سحائبُ السهام كسحاب الغَمام، وهم في مثل الحَلْقة منَ الازدحام، وفي ليل بَهيم من ظُلَم القَتام[4]، يتوقَّعونَ المنايا من كلِّ الجهات،

---

(١) في ق، ر٣، ب: «نابلة العزم وفرضها»، وما أثبتناه هو الأصوب.

(٢) في الروض المعطار ٤١٤: «مومور».

(٣) في ب: «الفريقين».

(٤) في ر: «القتال».

ويتدافَعونَ على مثل ظَهْر القُنفُذ من قَصَد القَنا وأشلاءِ الأموات، فحينَئذٍ ألقَى اليقينُ من صبر الناس بيدِ التسليم، وأفلَتوا من غَمَرات الـمَنُون، وفي حُنَين أُسوةٌ للمسلمين[1].

وأخَذ السيِّدُ وأصحابُه في الفِرار على كلِّ طريق، وسَرَوْا ليلتَهم بكلِّ فَجٍّ عميق، واشتَغل العدوُّ بالسَّلب والنَّهب، فلم يُقدِموا على الاتّباع، ولا أَمِنوا غوائلَ الأرباع، وبقيَ بالـمُعترَك أكثرُ الرَّجّالة ممّن لم يَقدِرْ على الفِرار من جَريح وظَمْآن، وانضَمُّوا إلى قَفْصةَ ودخَلوا البلدَ وغُصَّت بهم سِكَكُه، فتغافَلَ عنهم قَراقشُ وأصحابُه وخُلِّي سبيلُهم، فنادَى عليهمُ ابنُ غانية وأشاعَ بمُخادعةِ الاستدعاء، ووَرّى لهم بإظهار وَجْهِ الاعتناء، فاجتَمع جميعُهم بنفوس سليمة، فأمَّر عليهم ابنَ غانية فقُتلوا أجمعين.

وجلسَ ابنُ غانيةَ بخِباء الساقَة المأخوذ للسيِّد أبي حفص وجَمَع أثاثَ المنهزِمين وأسلابَ الموحِّدين وقَسَمَها على شِيعته، واغترّ بخَيالاتِ الدّهر وخُدعتِه، وكان أبو الحَسَن ابنُ الدبرتير قد حصَل في أسرِ العدوّ وطَمِع في النّجاة والفَوْز، وسَقَطَ الخبرُ إلى ابن غانِيةَ المذكور فبَعَث عن الذين ارتَبطَ معَهم على إفلاتِه فأعطاهُم مالًا على أن يَغدِروه، فأسلَموهُ إليه وخانُوا فيما كانوا وَعَدوه، ولـمّا مثُلَ بينَ يدَيْه أمَرَ بتعذيبِه نفَعَه اللهُ بشهادته، وكذلك أبو عليّ ابن يُومور قَتَله وعَلَّقه على بابِ قَفْصة، وفُقِد في هذه الحركة كثيرٌ من أعيان الموحِّدين وأشياخِهم وأتباعِهم، وأصبح من بقيَ منهم يومَ الوقيعة حيث هَوى به عِنانُه وزِمامُه، وطاوعته نهضةُ جوادِه واعتزامُه، وضَلّوا بأقطار تونُس وهم طُلَحاءُ موكوعون، وإلى الوصُول إلى البلد راهبون، وبادَرَ إلى تونُس سَرَعانُ المنهزِمة وأكثرُ عبيدِ الخَدَمة.

وكثُر التحدُّث وفشَت الأنباء، وكثُر بالمنصور قلقُه وطار[2] أرقُه، وحرَّض الناسَ على تجديد نيّتِهم وضاعَفَ لهم جَبْرَ ما تَلِف في حربِهم من أسلحتِهم، فاهتزَّت الجيوشُ من كلِّ مكان، وترادَفَ عليهم الإفضالُ والإحسان، فتضاعَفَت الأعداد وتَوالَت الأمداد، وخَرج من تونُسَ بجيشِه ليباشرَ الحرب بنفسِه.

---

(١) الروض المعطار ٤١٤-٤١٥.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وقد قال صاحب القاموس: «وطال، كطار».

ذكرُ حركة المنصور أبي يوسُفَ من مدينة تونُس لـحَرْب الـمَيارِقةِ والعَرَب وأشياعِهم[1] والأغزازِ وأتباعِهم وهزيمةِ يوم الـحَمَةِ عليهم وما ظَهَر في ذلك اليوم من جَزالتِه وصَرامتِه واستفتاحه ما غُصِب له من البلاد في التاسع من شعبانَ سنةَ ثلاث وثمانينَ وخمس مئة

وذاك أنه لـمّا جَرى على الموحِّدينَ ما جَرى بفتح عمرةَ من نَظَر قَفْصة على ما تَقَدَّم منَ اختصارِ خبرِه، وإيرادِ أثَرِه، لم يَلبَثِ المنصورُ بعدَ الكائنة بتونُس إلا ريثما استنفَرَ عساكرَه وميَّز رجالَه واستوفَى أشغالَه، وتحرَّك من تونُس في صَدْر رجَب فنَفَر الناسُ خِفافًا وثِقالًا، وترادَف الوصُول خيلًا ورِجالًا، وهال منظرُ العساكر بانتظام الساحات، وتقدَّم رُوعُها إلى كلِّ الجهات، والعدوُّ في أثناء ذلك يحشُد حشودَه، ويجمَع من كلِّ سحيق جنودَه، حتى صَلُبت شوكتُه، وثَقُلت على البلاد وطأتُه.

ولـمّا انتهى المشيُ إلى مدينة القَيْرَوان، ونوافحُ الفتح تهُبُّ من كلّ مكان، قدَّم المنصور الإعذار والإنذار، فخاطَب الأعداء بعَرْض الدخول في الطاعة، والانضواء إلى حزب الجماعة، فلم يَرْعَوا سَمْعًا لهذه المخاطبة، ولا أظهروا لها مَخِيلةَ إنابة ولا مُجاوبة.

ولـمّا وصَل المنصورُ إلى مدينة القَيْرَوان تشوَّق إلى رؤية ما أبقت منها حوادثُ صُروف الأزمان، فوصَل المدينةَ ونظَر إليها والحوادثُ قد أخْلقت جِدّتَها ومحَت بهجتَها، فاختَرق سِكَكَها يلتفتُ تعجُّبًا واعتبارًا، ويتأوهُ تفكُّرًا وتَذكارًا، حتّى انتهى إلى الجامع العتيق البِناء، الأنيق الصّنعة في كلِّ الأجزاء، فنظَر إليه وقد طمَسَ التقادمُ مَرْآه، ومَحا الجديدان نورَه وضِياه، فطيَّر إلى شرق الأندلس، بنَسْج كُساه، والاستعجال في توجيه فُرُشِه وحُلاه.

ثم استمرَّ المشيُ أيامًا حتّى تراءى الجَمْعان، وتلاقَى من الطلائع سَرَعان، وكاد يتميَّز العِيانُ بالعِيان، فنزَلَ الناسُ على فَرْسخَيْن من الحمة والعدوُّ بأكنافها لم يُرَعْ له سِرب ولا هالَهُ من النزول قُرب، فانحفَزَ الناسُ تلك اللّيلة في الاجتماع والوصُول،

---

(١) في ر٣، ق: «لحرب الميارقة الأغزاز وأتباعهم والعرب وأشياعهم».

وضَرْب الفساطيط والأبنية موصُولًا بموصول، وأمَرَ المنصورُ منَ الغد بالإقلاع والنِّداء بالتوكُّل على الله والاستعانة به، وأن يَلتمسَ الناسُ أسلحتَهم ويأخُذوا لِلقاء العدوِّ أُهبتَهم.

فاجتَمع أشياخُ مملكته، ونُصَحاءُ خِدمتِه وأربابُ دولتِه، وعَرَضوا عليه فداءه بنفوسِهم وصونَه عن مشاهدة الحرب ببَذْل مُهَجِهم وأن يُقيمَ بالمحَلّة سنَدًا وراء ظهورِهم يلجَأونَ إليه ويَأوونَ لديه، فكلٌّ مَن أخَذ معَه في ذلك زَجَره، وسَفَّه رأيه وضعَّف نظَرَه.

وقدَّم على القبائل أشياخَ قَرابته وأشِدّاءَ عشيرته، وتجَلّى بينَ يدَيْ جيشه ومشّى المَزاورةَ المتقدِّمينَ ومشَى إثْرَهم[1] على ما أحكَمَ من النظام، ـ ومَن طلَبَ الأعداءَ بالجَدِّ والسَّعد لم يبعُدْ عليه مَرام ـ والأعداءُ متشوِّفون، ولأوّل نبأِهِ مُصيخون، وقد نَسَج الضّبابُ ذلك اليومَ على الأرض كثيفَ شِباكِه، وحالَ بين الناظرِ وبينَ ما يَروم من إدراكِه.

ولـمّا خَرَقَ شروقُ الشمس جَيْبَ الضّباب، وتراءت[2] بُحورُ الجيوش يركَبُ الموجُ فيها وَدْعَ الموج[3] ويَقْفو العُبابُ منها أثَرَ العُباب، نَفَخ في وجوه الأعداء طمَعُهم، وأكذبتْهم ظنونُهم، ورمَوْا أثقالَهم وأسلحتَهم، وصَفّقوا للفِرار أجنحتَهم، والتَحق المتقدِّمونَ بأواخِرهم، فاستَأْصلوهم في معرَكٍ واحد عن آخِرهم، وسيقَ من قُبِض في المعترَك من أعيانهم فقُتل بين يدَيْ أمير المؤمنين المنصور، وأفلَتَ قراقشُ الغزيُّ وابنُ غانِيَةَ تحت غَسَق الضَّباب وبينَ ناب السِّنان وحدِّ الذُّباب، وقُبِض بساقتِه على أعلاج من حاشيتِه وخاصّة خَدَمتِه، والمنصورُ على أثَرِهم من غير عَجَل، والرؤوسُ تُداسُ بين يدَيْه كرؤوس الحَنْظل، وأذّن مؤذِّنُ الظهر والناسُ على سُروجِهم، لم يَبرَحوا من حين خروجِهم، وصَلّى الناسُ متمِّمينَ غيرَ مقصِّرين، ونُصِبت القُبّة الحمراءُ مدةَ

---

(١) في ق: «آثارهم» ولها وجه، إذ هي منصوبة على نزع الخافض.

(٢) من هنا إلى قوله: «نفخ في وجوه الأعداء» سقط من ر٣، ق.

(٣) أي: الموج بعد الموج.

الصّلاة فدخَلها المنصورُ وخَرج بثيابِ السِّلم وشعار الأمن، فهُنِّي بالفتح وما تيسَّر من النُّجح، ووضَعَت الحربُ أوزارَها، وصَلِي مَن صَلِي نارَها.

وأمَرَ المنصورُ بالركوب، وأغَذَّ السيرَ إلى جهة قابِس، فغَشِيَ اللّيلُ على مقرُبة منها وباتَ الناسُ آمنين، وببُرْد النّصر والعافية مرتَدِين، وبالأثقال والحُمولة بموضع النزول بالأمس، وأنفَذَ المنصورُ عندَ وصوله إلى قابِس جُملةً من خَيل ورِجال ورُماة وأبطال يَحرُسونَ مَن فيها من الأعداء عن الفِرار، ويَطوفونَ بها إلى حين لحوق العساكر معَ طلوع النهار.

وفي هذه السنة، بعدَ هذه الوقعة: فتَحَ المنصورُ بلاد الجريد بأسرِها، وقضى التَّطوافَ عليها قُطرًا بعدَ قُطر، وما كان على أربابها البَلَديِّينَ القُدماء، من الإبقاء واستئصال مَن كان فيها من شِيَع الأشقياء، والقَبْض على الذين بها من الأغزاز، وإسباغ العفو عليهم وتصييرهم في جُملة الأجناد، وما تخَلَّل هذه الأحوال من الحوادث الغريبة والاتّفاقات البديعة في مدّة هذا التَّطوافِ والـمُحاصرة، إلى انقضاء الإياب إلى تونُس، وذلك في شوّال من العام.

وأكثَرت الشّعراءُ في هذا الفتح، فقال أبو بكر بن مُجْبَّر في فتح يوم الحَمَة [من الوافر]:

أُســائلُكم لـــمَن جـيشٌ لـــهامُ ... طلائعُـــه الملائكـــةُ الكـــرامُ

أتــت كتُـبُ البـشائر عنـه تَـتْرى ... كــما يتحمَّـــل الزهـــرَ الكُـــمامُ

تَـــنُمُّ ولم تُفَـــضَّ ولا عجيــــبٌ ... أيحجُـــبُ نفحـــةَ البـــدر الخِتـــامُ

كــأنّ النــصرَ أضــحكها ثغــورًا ... فللأيـــــام عــــنهنّ ابتـــــسامُ

ويــا لَلنّــاس يُرغَــبُ عــن أنــاسٍ ... لهـــمْ بالـــدِّين والـــدنيا قِـــوامُ

أمـــامَهمُ إذا ســـلكوا ســـبيلًا ... كتـــابُ الله يتبَعُـــه الإمـــامُ

يُـــصاحبُه فيَـــصحَبُه الأمـــاني ... ويَتبَعُـــه فيَتبَعُـــه الأنـــامُ

هــو الــمَلِكُ الكـريمُ ومـا أصـبنا ... إذا قلنـــا هـــو الـــمَلِكُ الـــهُمامُ

فسَلْ ما حَلّ بالأعداء منهُ وكيف استؤصلَ الداءُ العقامُ

لقد برَزَت إلى هَوْن المنايا وجوهٌ كان يَحجُبُها اللِّثامُ

وما أغنَت قِسِيُّ الغِزِّ عنها فليست تَدفَعُ القدَرَ السِّهامُ

غَدَوْا فوق الجيادِ وهم شخوصٌ وأمسَوْا بالصَّعيد وهم رمامُ

هو الأمرُ الرِّضَى طُوبى لنفسٍ يكونُ لها بعصمتِه اعتصامُ

حياةُ الدِّين دولتُه فدامت لأمر قد أُتيح له الدّوامُ

سلامُ الله من قُربٍ وبُعدٍ عليه وحَسْبُ مَن نزَل السلامُ

وقال أيضًا يمدَحُه ويذكُر هزيمةَ ابن غانِية والأغزازِ من قصيدة [من البسيط]:

عدوُّكمْ بخطوب الدّهر مقصودُ وأمرُكمْ باتّصال النّصر موعودُ

رأى الشّقاءَ ابنُ إسحاقٍ أحقَّ بهِ من السِّيادةِ والمجدود محدودُ

وكيفَ يحظى بدُنيا أو بآخرةٍ مُحَلأٌ عن طريق الحقِّ مطرودُ

أمَا دَرى لا دَرى عُقبى عِداتِكمُ كلٌّ بحدِّ حسام الحقِّ محصودُ

ألقى السّلاحَ ووَلّى يبتغي أمدًا يُنجيه وهْو مَرُوعُ القلبِ مودودُ

ما مرَّ يومًا ببابٍ ظنَّهُ سببًا إلى التخلُّص إلا وهْو مسدودُ

وهَبْه عاشَ أليس الموتُ أهونَ من عيش يُخالطُه همٌّ وتنكيدُ

أنحى الزمانُ على الأغزازِ واجتهدت في قطع دابرِهم أحداثُه السُّودُ

أنتم سليمانُ في المُلك العظيم وفي طُول التهجُّد في المحراب داوودُ

قد أبهَجَ الدِّينَ والدنيا مَقامُكمُ وكيف لا وهْو عندَ الله محمودُ

جارَى مناقبَكمْ شِعري فقصَّر عن بلوغ أدنى مداها وهْوَ مجهودُ

مَن ليس معتقدًا إيجابَ طاعتِكمْ فليس يُغنيه إيمانٌ وتوحيدُ

رضاكمُ الدِّينُ والدّنيا وعدْلُكمُ ظلٌّ ظليلٌ على الأيام ممدودُ

دمتُم حياةَ مدى الدّنيا ودامَ لكمْ نصرٌ وفتحٌ وتمكينٌ وتأييدُ

وفي هذه السنة: حاصَرَ المنصورُ أبو يوسُف قَفْصةَ وفتَحَها في شعبانَ من السنة، وذلك أنه لـمّا فَرَغ من التبريز عليها والاستطلاع لِـما لدَيْها نزَلَ بمحَلّتِه عليها حيث نزَل أبوه في محاصرتِه أيضًا لها، ولم يَعرِضْ أولًا لقتالها [حتّى][1] انحَلّ قُفلٌ من أقفالِـها.

فلمّا استَوْسَقَتِ الموادُّ بالوصُول من البلاد، وكمُلت العُدَد بالضرب والاستعداد، وحرَّكَ ما لَـجُّوا فيه وأظهَروه من العصيانِ والارتدادِ قلوبَ الجهاد، حوَّل المنصورُ أماكنَه، ونقَلَ مساكنَه، ونُصِبت له هناك بمقرُبة من البلد مُرتقَبةٌ من الخشب يُشرِفُ منها على مواضع القتال، وعلى المتصرِّفينَ في الأشغال[2].

ثم قُسِمت على البلد جميعُ الـمَجانيق والآلات، وأحاطت بهم من كلِّ الجهات، ودام عليهم حَرَجُ القتال والنَّكال، يأخُذهم باليمين والشمال، وضمَّ من المجانيق أرفعَها أثقالًا، وأشدَّها خدمةً ورِجالًا، وجُعلت سُموتُ أحجارِها على السُّور حتى أعادته هباءً منبَثًّا[3]، وصيَّرته معَ سِتارته السُّفلى قاعًا صَفْصَفًا مُجتثًّا، وأقيم بُرجٌ على سَبْع طِباق، مُزاحِمًا بذَروتِه مراقيَ السَّبع الطِّباق، فشُحِن بالرُّماة والآلات، رجالٌ بصفوف الأسلحة والرايات، تُحرَّك بالهمز ولطيف الرَّكز، فانسابَ انسيابَ الحيّة الرَّقْطاء، ومرَّ على سَمْتِهِ مرَّ الحُبابِ على صفحةِ الماء، من غير توعُّر ولا تغوُّرٍ ولا التواء، ونُفخ بداخِله البوقاتُ وصَكَّت الطّبول، وقام بأقطار المحَلّة التكبيرُ والتهليل، ودَنا منَ السُّور حتى أطلَّ على جَفْنِ المدينة إطلالَ الأهوام، وتـحَكَّم من أهلِها بسوءِ الانتقام، وكمُل رَدْمُ الحَفير المقابل لثَلْم السُّور حتى ساوَى وجهَ الأرض وصار مَهْيَعًا للبلد، بحيث لا يمنَعُ فارسًا ولا راجلًا، ولا خارجًا ولا داخلًا.

ولـمّا كان من الغَدِ من وقوف البُرج المذكور أخَذ الموحِّدونَ أسلحتَهم وأبرَموا عَزْمتَهم، وأعَدُّوا للقتال أُهبتَهم، وصَعِدوا على الرَّدْم للبلد قاصدينَ إلى الثَّلم، وكان المسلكُ صعبَ الـمُرتقَى لِـما تَراكَم في صدرِه من رَدْم الأسوار وسحيقِ ما قَذَفت به

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة مقتضاة.

(٢) ذكر المراكشي استرجاع قفصة في خبر قصير (المعجب ٣٤٩-٣٥٠).

(٣) في ق، ر٣، ب: «منثورًا»، وما أثبتناه أوفق للسجع.

المجانيقُ من جميع الأحجار، فزَلّت فيه الأقدام، ولم يتمكَّن بوَحْلِه عليهم الاقتحام، وكمَن لهم رَجّالةُ الأشقياء معَ معارج الرُّدوم، ودَرَّقوا ببقايا السُّور واستكَنّوا للوثوبِ والهجوم، فهَبُّوا عليهم من مكامن الأحجار، واستغاثوا بما كان منَ ارتفاعِهم من ذلك الانحدار، فواقفُوهم بعِظَم النهار، وانصَرف الموحِّدونَ ليجدِّدوا لهم من الغَدِ عَزْمةً تذهَبُ بمواقفتِهم وتكُبُّ أُولاهم على أُخراهم.

ولـمّا رأَوْا أنّ البلدَ مكسوح، وأنّ دَمَ مَن فيه مسفوح، تفاوَضَ الملأُ منهم بقيّةَ يومِهم في إعمال رسالتهم والاحتيال لنَجاتهم، وكيفيّةِ التوصُّل لحياتِهم، فراجَعوا بصائرَهم، وظهَّروا بالنّدم سرائرَهم، فأجمَعوا على توجيه أعيانِ البلد وأربابِه وأهل الحلِّ والعقد من كلِّ فريق من أصحابه. فلمّا جَنّ اللّيل وسَكَن ما بالمحَلّة من تموُّج الحركات، وأمِنوا منَ انبساط العامّة عليهم وامتدادِهم إليهم بالاستطالات، خَرجوا من ثَلْم السُّور بعدَ الإذْن إليهم في الوصُول، والإباحة لهم بالهبوط والنزول، فوصَلوا بمقرُبة من خِباء الساقة بعدَ ما تحقَّقوه على ما تقدَّم ذكرُه.

وجلَسَ المنصورُ لتنفيذ رسالتِهم والنظر فيما يكونُ من إجابتِهم، فبعَثَ في وجوه القَرابة وأهل الـمَشُورة والمناصحة، وتكلَّموا في شروطِهم ورَغِبوا في تتميم رُبوطِهم، فلم يُستَعْفَوْا في تأمين الـمَيُورقيِّينَ والأوباش المنضافين، فعاد القَفْصِيُّونَ المذكورون إلى بلدِهم في ذلك الأمان، ونفَذَ لهم التوقيعُ على تأمين الأغزاز في أنفسِهم وما مَلَكت أَيمانُهم وتأمين أهل البلد في أنفسِهم خاصّة وأملاكِهم، ويأتي مَن كان في البلد من الحشود ينزِلونَ على الحُكم، فقَنِعوا بهذا الالتزام وما أشار الخليفةُ من الأحكام، وصَدَر لهم من ذلك النظام، ورأَوْا أنّ ذلك نعمةٌ عليهم بعدَما كانوا في قَبْضة الهلاك ولـهَواتِ الحِمام، وانفَصَلوا بعدَ هَدْءٍ من اللّيل إلى أصحابِهم بعدَما رَغِبوا في ترويح القتال عنهم تلك اللّيلة تطميناً لنفوسِهم وتصديقًا لِـما عقَدَه من أمانِهم، فسَكّنَت تلك اللّيلةُ اضطرابَ الحركات، وباتَ الناسُ ملءَ عيونِهم من السِّنات، بأبدانٍ رائحات وأنفاس خافتات.

ولـمّا كانت من الغَدِ لم يبقَ بالبلد من الشّيخ الـهَرِم إلى الغلام المحتلم مِن غزيٍّ ومَيُورقيٍّ، وبَلَديٍّ وأجنبيّ، إلا وبادَروا بالسلام مُسرعين، وعلى شقاءٍ أو نعيم

مُقدِمين، وحين كمُل استيفاؤهم، ولم تبقَ بالبلد ما ظَهَر إلا نساؤهم، وهم وقوفٌ يهلِّلونَ ويكبِّرون، ولِـما يكونُ من حال رجالِـهم مرتقبين[1]، ثم مُيِّز كلُّ صنف من صنفِه وعُزِلَ منهم جميعُ البلديِّين، وعُرِّفوا بما شمِلَهم من العفوِ والجُود الـمُعين، ونَجَوْا منه من الهلاك الـمُبير والعذاب الـمُبين، وخُلِّي سبيلُهم، وسابقَوا إلى بلدهم يُعلنونَ بدعائهم ويتضرَّعون بشكرهم، وعُزِل أشتاتُ الجنود وأصنافُ الحشود الغَوْغاء ومَن نزَل على الحُكم وغَلَبت عليه حُكمُ الشَّقاوة وثُقِّفوا في البُرج الـمُقام المذكور، وقد حان لهم الحَيْنُ المقدور، وانصَرف أميرُ المؤمنينَ والجمهور.

فلمّا فَرَغ من صَلاة ظُهر اليومِ المذكور جلسَ في الـمَرْقَبة التي تقدَّم ذكرُها الـمسمّاة بالدَّيْدَبان، وأمَر بإخراج المثقَّفين[2]، وأمَرَ بذَبْحِهم أجمعين، فكانوا يُساقونَ إلى مَصارعِهم زُمَرًا زُمَرًا ويُكَبُّونَ على وجوههم وجُنوبهم وظهورِهم، وبُدئ بابن شقيِّهم، ذَبَحه أبو يحيى الوزير، حتّى إذا أَتَى الذَّبحُ على آخِرهم جُعل من خندقِهم وحَفيرِهم بقيعَ قبورِهم، وأهلُ البلد ينظُرونَ إلى مَصارعِهم، وتمكُّن الحديدِ في أوداجِهم وأخادعِهم، فنُهكَت الجهةُ من دَفْن جيفتِهم، وثَقُلت من وَحْشة جثثِهم، فحوَّل المنصورُ مضاربَه، ورحَل إلى البقعة التي نزَلَها أوّلًا، وقَسَم سورَ قَفْصةَ على جميع مَن بالمحلّة فتوزَّعه الجمهورُ من كلِّ قَبيل، فأُعيدَ في يومَيْن هباءً منبَثًّا، وأُضرِمتِ النارُ في جميع الـمَجانيقِ والآلات، ورحَل الناسُ عنها، وبقِيت سوداءَ كاللّيل البَهيم، وكديار عادٍ بعدَ الرِّيح العقيم، وطالما كانت جنةً تُزهِر.

ودخَل المنصورُ تونُسَ في العَشْر الأواخر من شوّال من السنة، فوصَلت الوفودُ مُهنِّية، وأكثَرت الشّعراءُ في ذلك. قال أبو العباس الجُراويُّ يمدَحُهم ويَذكُر فتحَ مدينة قَفْصة [من الكامل]:

فــتحٌ يُطــاول فتحُـــه الأحقابــا … خـضَعَت لـه فِـرَقُ الـضَّلال رِقابـا

واستـــشعر الــــمُرّاقُ منــه مخافــةً … مَلَكــت علــيهمْ جيئــةً وذهابــا

---

(١) هكذا في النسخ، والجادة: «مرتقبون»، والذي ألجأه إلى ذلك هو ضرورة السجع.

(٢) في ق، ر٣، ب: «المنافقين».

وغَدا بـه مـا قـد صَـفا مـن عيشِهمْ كـدَرًا ومـا فيـه الحـلاوةُ صَـابَا

لله يـــومُ الأربعـــاء فإنـــهُ أحيـا النفـوسَ وتـمَّمَ الآرابـا

شرُف الزّمـانُ بـأن تكـونَ أبًـا لـهُ مــا إن... ان حابــا

وسِع الـمُواليَ والـمُعاديَ حُكمُهُ في كـلِّ أرض رحمـةً وعـذابا

وُسم ابـنُ إسحاق عـلى خُرطومِهِ خِزْيًـا ينـالُ حديثَـه الأحقابـا

طمِحَ الشقاءُ بأهـل قَفْصةَ وارتقَى بهـمُ شـواهقَ صـعبةٍ وعُقابـا

وأبَـى لهـم إصرارُهـمْ مـن قبـلِ أن رأَوُا العـذابَ إنابـةً ومَتابـا

لم يغـنِ عـنهم إذ أتـاهم مـن عـلٍ أن يحرسُـوا الأسـوارَ والأبوابـا

طلبـتْهمُ تحـتَ الـتّرابِ وفوقَهـا آجالُـهم فتولَّـجوا الأسرابـا

نـالتْهمُ رُحمـى الخليفـة بعـدَما نـادى الـرَّدى بنفوسِـهم وأَهابـا

آيــاتُ نـصر بيِّنــاتٌ كلُّهــا بَـهَرت بـما جـاءت بـه الألبابـا

وسعادةٌ عجَبٌ تـهُدُّ قِـوى العـدا هـدًّا وتقـصمُ مـنهمُ الأصـلابا

خـصَّت إمامًـا للبريّـة مُجتبًـى بَـرًّا تقِيًّـا خاشـعًا أَوّابـا

ملِـكٌ عليـه مـسحةٌ ملكيّـةٌ لـبِسَ الزّمـانُ جمالَـها جِلبابـا

بـهَجوا على الأبصار بهجةَ يوسُفٍ ويـضيءُ داوودٌ بـه المحرابـا

مـدحُ الإمـام عبـادةٌ نرجـو بهـا عـزَّ الحيـاة وأن نفـوزَ مآبـا

مـا سـافرَتْ أذهانُنـا في مدحِـه إلا وكـان لهـا القـصورُ إيابـا

لم يـدرِ حـقَّ مقامِـهِ مَـن لا يَـرى مـن دون حـقِّ مقامـه الإطنابـا[1]

وفي هذه السنة: كان استقرارُ المنصور بتونُس بعدَ إيابه من حركة الحمة وقَفْصَة وغيرِهما وما طرَأَ مدةَ إقامتِه بها من الحوادث الشاردة والأنباء الواردة وتقديم السيِّد أبي زيد على إفريقيّة وحركةِ المنصور إلى الـمَهْديّة وانفصالِه منها إلى المغرب بعدَ رَبْط

---

(١) وقع في النسخة (ب) تقديم وتأخير في النصوص، ثم عاد بعد هذا الأمرُ متسقًا.

أشغال البلاد وتأنيس مَن بها من العباد، وذلك أنه عرَّف الناسَ بعدَ أيام بأن يكونوا للحركة مستعدِّين ولم يعيِّنْ لها زمانًا[1] ولا خصَّص للوِجهة مكانًا، وشَرع في أشغال الحركة وأحوالِـها، وتثقيف البلاد والفَحْص عن أعمالِـها، وتقديم حُكّامها وعُمّالِـها.

وفي هذه السنة، وهي سنة ثلاثٍ وثمانينَ المذكورة: كانت حركةُ القائد أبي العباس الصِّقِلِّي بالأساطيل المنصورة وهجَموا على يابِسةَ ودخَلوها واستولَوْا عليها وقبَضوا فيها على ابن نَجاح القائد المايورقيِّ الذي هَرَب عن ابن غانِية للموحِّدين ثم نكَثَ عليهم، وقد كان خَدَع أهلَ يابِسةَ ودخَلَها.

وفي هذه السنة: كان استيلاءُ يوسُف بن أيوبَ على ما كان بيدِ الرّوم من بلاد الشام وغَلَبتُه على بيتِ المقدِس وصَرْفُه للمسلمين وضَبْطُه على ما كان به من النّصارى حتى فادَوْه بعشَرة دنانيرَ للذّكر وخمسةٍ للأُنثى وترْكِهم له جميعَ ما كان عندَهم من الأسلحة وتأمينِهم في أموالِـهم وأنفسِهم على تأدية هذه الضّريبة من العِدى[2].

وفي سنة أربع وثمانينَ وخمس مئة: تحرَّك المنصورُ من تونُسَ إلى الـمَهْديّة في المحرَّم وقد عزَم على الإياب إلى المغرب، فقدَّم المخاطَباتِ والرسائلَ تتضمَّنُ تتميمَ الحركة الشّرقية والاعتناءَ بالبلاد المغربيّة والأندَلسيّة، وأقام المنصورُ بالـمَهْديّة ريثَما رَبَطَ أشغالَ العَرَب إلى قوانينَ يوقَفُ عليها، وتحرَّك المنصورُ من الـمَهْدية على مُواصلة من التأويبِ والسُّرى آيبًا على طريق تاهَرْت لا يَعرُج على معقِل ولا يتلوَّمُ في منزل، والعباسُ بن عَطِيّة الزَّناتيُّ يَطوي له المراحل وينتقي له المنازل، حتّى أطلَّ على تِلِمسانَ في مدةٍ قريبة من الزّمان، معَ راحلةِ العساكر وتيسُّر المرافق بكلِّ مكان.

ولـمّا وصَل المنصورُ إليها وقدِمَ عليها، وكان قد تقرَّر عندَه مدةَ مغيبه في غَزاتِه هذه تواترُ الأنباء وأحوالُ كلِّ مَن تردَّد في بيعتِه واستهواه الشّيطانُ في نكث عقيدتِه والتزحزُح عن طاعته، وأعوذُ بالله من عَمى البصائر، وتتبُّع الحسَد المؤدِّي إلى هلاك الرجال الأكابر وتَلَف العشائر.

---

(١) في ب: «زمنًا»، وما أثبتناه أوفق للسجعة.

(٢) تنظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير ١١/ ٥٢٩-٥٥٨، وتاريخ الإسلام، حوادث سنة ٥٨٣هـ.

نكبةُ السيِّد أبي إسحاقَ بن عبد المؤمن

كان ابتداءُ سَطْوة المنصور في أَوْبتِه قبلَ وصُوله إلى حضرتِه ببعض قَرابتِه الحاسِدينَ لبيعتِه، فأولُ مَن تلقّاه بتِلِمسانَ السيِّدُ أبو إسحاق أحدُ الأعمام، وممّن كان غُمِر بالإحسان والإنعام، وكان تأخُّرُه بهذا القُطر لاعتلال لزِمَه، فذُكر عنه أنه كان يطعنُ في آراءِ المنصور في تلك الحركة ويُضعِّفُها بحُجَج ضعيفة سخيفة، فجاء ليسلِّم عليه وقَعَد بينَ يدَيْه، وسأل أبو إسحاقَ الخليفةَ عن حاله، وكيفيّة كونِه في حلولِه وارتحالِه، فقال له: حالُنا على ما يسُرُّ المسلمين ويَسُوء الحاسِدين. ثم أمَرَ بقيامه فأُخرج على وَجْهه وطُرِدت دابّةُ مركوبِه ومشَى على قدَمَيْه إلى منزِله والعامةُ تطأُ أثوابَه، ولم يلبَثْ إلا يسيرًا وتوفِّي.

نكبةُ أبي حفص الملقَّب بالرَّشِيد والي مُرْسِيَة وأبي الرّبيع والي تادْلا وما وَرَد على المنصور من قَتْلِهما وكيفيّةُ مقتلِهما[1]

لـمّا جَرى بفَحْص عمرةَ ما جَرى من قَتْل الموحِّدين، وصَرَخَ الشيطانُ بظهور المارِقين، خبُثت سرائرُ الحاسدين، وبدَا على ألسنتِهم ما أصَرُّوا عليه من النِّفاق على تراخي السِّنين، وفَشَا على ألسِنة الرُّكبان شَنيعُ الكلام وسَرى ذلك ببلاد المسلمين. فلمّا ردَّ اللهُ الكرَّةَ على الأشقياء، واجتَثَّ الفتحُ أصلَهم من جميع ما كانوا أخَذوه من تلك الجهات والأنحاء، استَحالت الأضغاث، وسَكَنت الزَّعازِعُ والأحداث، وقد كانت الأنباءُ تصلُ إلى تونُس فيَطوي للأعداء عليها كَشْحَ الحليم، ويُعِدُّها ليوم عظيم.

فكان ممّن وصَل إلى إفريقيّةَ في أثناء تلك الحال، وتموُّج تلك الأهوال: العاملُ ابنُ اللَّحّاف، منشئُ الإرجاف، ومسعِّرُ الشّتاتِ والخلاف. فذكَرَ عن الرّشِيد أشياءَ تُنافرُ التوفيقَ والرّشاد، وتُحرِّك لمنكَرِها الجهاد، وتُنتجُ الخلافَ والارتداد، وتُصَكُّ منها المسامع، ولا يمكنُ مدافعةَ قُبحِها الـمُدافع، وأنه مُذ أشهُر يُضمِرُ حِيلَه ويقطعُ بالأرجاف الشّنيعة ليلَه ونهارَه، وأنّ الواصِلينَ من الأندَلس تحدَّثوا بمُوالاتِه أذفُونْش ومُحالفتِه معَه بأكيد المخاطَبات والمكاتَبات على التعاضُد في النِّفاق، والتآلف على ذلك والاتّفاق.

---

(١) المعجب ٣٥٢ فما بعدها.

وكان هذا الرَّشيدُ قدِ استَولَى على الناس بضروب العُدوان، وتسبَّب إلى أخْذ أموال التُّجار وإذاية الجِيران وغالَبَ العُمال على بيوت الأموال، وكلَّفَهم المُؤَنَ الثِّقال، ثم قَبَضَ على ابن رَجا مُشرف مُرْسِيَة وثقَّفه وطلَبَ منه إحضارَ تقييدات المَجابي وأزِمّتِها المجتمع فيها بجُملتها، فعَجَز الرجلُ عن تكليف المُحال، وما لا يُستطاعُ من الأعمال، فضَرَبَه بالسَّوط حتى قَتَلَه رحمه الله. وفَرّ ابنُ سليمانَ إلى بَلَنْسِيَة، وكان صاحبَ العمَل بمُرْسِيَة، وكذلك الكاتبُ حَكَم بن محمد فارَقَه فِرارًا بحياتِه وطمعًا في نَجاتِه، فخاطَبَه الرَّشيدُ يُريه الرَّغبةَ فيه، ويَعِدُه ويُرجِّيه، فتحرَّك الحائنُ يسعى برجلِه إلى أجلِه منقادًا إلى ما زَوَّر له من أملِه، وقد دَسَّ الرَّشيدُ إلى أحد حُفّاظِه أن يُنزِله عندَه، ويبطِشَ به ويودعَه ليلًا في مَلْحَدِه، فامتَثل الفاجرُ أمرَه، وقتَلَه ولم يُمهلْه، وانكشَفت أحوالُ الرَّشيد للناس فأوقعَتْه غَدَراتُه، وأوبقَتْه سيئاتُه[1].

وفي أثناءِ هذه الأحوال وصَله من الحضرة الاستدعاء، وارتفَع عن أهل الأندَلس البلاء، وارتَحل فشيَّعه الناسُ بقبيح الثناء.

وتقرَّر أيضًا عن ابن أبي الرَّبيع صاحبِ تادلا عمِّ المنصور ما كان تسبَّب فيه مِن كشف رأسِه في النِّفاق وخَلْعِه للطاعة ومُجاهرتِه بالشِّقاق، وارتهانِه في مُخاطباته لمن جاوَرَه من القبائل على إجابتِه والارتباط معَه على ذلك الاتّفاق، فسَوَّفوه تسويفَ المستهزئين، ورأَوْا أنه من الضالّينَ الهالكين، ثم مشَى السيِّدُ أبو زكريّا في سَرِيّةٍ وافرة فأحاط بجهاته، وأخَذ بمُخنَّقِه على المألوف من عزَماته.

ولـمّا لم يجِدْ سليمانُ المذكورُ إلى متنفَّسٍ سبيلًا، ولم يرَ منَ الإعانة كثيرًا ولا قليلًا، ألقَى بيد الاستسلام، وهَدَم ما بنَى عليه من أضغاثِ تلك الأحلام، وبقي غريقًا في وَرْطته، نادمًا على ما فَرَّط من فعلتِه الذميمة وغَلْطته، فأُذكِيت عليه عيونُ الرُّقَباء، وأُكِّد عليه في القدوم واللِّقاء، فسار يُقدِّمُ رِجلًا ويؤخِّرُ أخرى حتى لَحِق بالمحَلّة المنصورة، حاصلًا في قَبْضةِ ما جَناه من النوائبِ المحذورة. ولـمّا وصَل الرّشيدُ أيضًا من مُرْسِيَة أمَرَ بنزوله منفردًا في نَفَر من خاصّتِه وخَدَمته، ثم قَبَض عليه وعلى أبي الربيع المذكور، وتحمَّلتْهما الثِّقاتُ إلى رِباط الفتح خيلًا ورَجْلًا، وصارا تحتَ الثِّقاف والإشراف حتى أتاهما اليقين.

---

(١) سقطت من ب.

ذكرُ موتِ السيِّدينِ المذكورَيْن

ولـمّا وصَل المنصورُ حضرةَ مَرّاكُش وتمهَّد نزولُه، وقَفَل كلُّ مَن كان يُنتظَر قفولُه، وتفرَّغ من سَلام القاطنين، ومن تضييف الوارِدين، اجتَمع بالسيِّد أبي الحَسَن المستخلَف بمَرّاكُش ومن كان معَه من الموحِّدين، فباحَثَهم عن أحوال أولئك المنافقين، فقرَّر لديه من خبيث[1] أقوالِـهم وكيفيّة أفعالِـهم ما أوجَبَ عندَه شرعًا سفْكَ دمائهم، بنفاقهم واعتدائهم، فلمّا أوضح ذلك عندَ المنصور خاطَبَ عثمانَ بن عبد العزيز الكُوميَّ صاحبَ قَصَبة رِباط الفتح أن يُعفِّيَ آثارَهم ويصيِّرَهم في الهالكين، فقدَّمهما فضَرَب رقابَهما عفا اللهُ عنهما، وقُتل في نكبتِهما من تُحقِّق[2] اشتراكُه في المعصية معَهما، وورَدَ الشاعرُ الـمُحسن أبو بكر بن مُجبَّر في جُملة الوافدينَ للتهنئة بهذا القول السعيد فقال [من الرمل]:

بعلاكُـمْ وهْـو حـسْبُ الـمطنبِ ... عَـرَف المـشرقُ فـضلَ المغـربِ

فـسَحَ الـدّهرُ لـه حتـى رأى ... سِـيَرَ ابـنٍ وأبٍ بعـدَ أبِ

فرعاهـا بفـؤادٍ فَطِـنٍ ... وتلاهـا بلـسانٍ مُعـرِبِ

قـد لعَمْـري أبـصَر النـورَ الـذي ... مـذ بَـدَا أعـشَى عيـونَ النُّـوَبِ

ورأى مـا لم يكـنْ يعهَـدُهُ ... فهْـو مـشغولٌ بطُـول العجَـبِ

أيُّهـا المنـصورُ إنّ الـدِّينَ قـد ... حَـلَّ مِـن عـزِّك أعـلى الرُّتَـبِ

هُـو أمـرُ الله في أيـديكُمُ ... فاجـذِبوا الأرضَ بـه تنجـذبِ

رُفِعـت قبّتُـهُ مـضروبةً ... مـا لَـها غـيرَكمُ مـن طنُـبِ

عـارضٌ أبـدى بُروقًـا جَـمّةً ... وهْـو لم يـأتِ بـبرقٍ خُلَّـبِ

يقتـضونَ الوعـدَ بالنّـصر لكـمْ ... وهْـو قـد خُـطَّ لكـمْ في الكتُـبِ

غـيرَ أنّ الـسعيَ محمـودٌ ولا ... يقطـعُ الـسّيفُ إذا لم يَـضرِبِ

---

(١) سقطت من ب.

(٢) الضبط من ب.

مَن يكُنْ مطلَبُهُ نصرَ الهُدى | نالَ عند الله نُجحَ المطلبِ
قد تلافَى اللهُ إفريقيّةً | وهْي نَهْبٌ في يدَيْ مُنتهِبِ
أنتمُ أحيَيْتُم الدِّينَ وقد | مات فيها موتَ مَن لم يُعْقِبِ
أحجَمَ الأعداءُ عنكمْ رهبةً | مَن رأى الموتَ عِيانًا يَرهَبِ
اهنئي يا حضرةَ القُدْس فقد | رُحْتِ في ثوب البهاء المعجِبِ
يا لها من أَوْبةٍ محمودةٍ | سَقَت الدهرَ حياءَ الطربِ

ولـمّا تفرَّغ المنصورُ من بعد الحُلول بحضرة مَرّاكُش من حركته وبَلَغ المرغوبَ في أعدائه والمطلوبَ من أُمنيتِه، نَظر في إنجاز ما وَعَد به في مُخاطباته، وضمَّنه في مُكاتباته، من مصالح البلاد الغربيّة، وإعانة الثّغور الأندَلسيّة، فاستعدَّ لذلك كلِّه بعدَ الفراغ من نَصَبِه، وبُلوغ الغاية من أَرَبِه، بقيّةَ سنة أربع وثمانينَ المذكورة.

وفي سنة خمس وثمانينَ وخمس مئة: قدِمَ السيِّد أبو الحَسَن ابنُ العمِّ أبي حفص على تِلِمْسان، ومكَّن يدَه في المخازن بوجوه الإمكان، وقَدِم على إشبيلِيَةَ أبو حفص يعقوبُ ابن العمِّ أبي حفص لتمهيدِها لمثل هذه الحركات، وأطلَقَ الـمُخاطبات بالتأكيد على العُمّال في ضَرْب الآلات، وما تحتاجُ إليه الجيوشُ من العُدَد والأقوات، ثم أُشيعَ في الجبال القِبْليّة والبلاد الغربيّة النّداءُ بالجهاد من غير تكليف على حُكْم التطوُّع وتأتّي الإرادات، فترادَفَت الأُممُ من الجبال والبسائط طامعينَ متطوِّعين، وأَتَتْ أُناسٌ كثيرةٌ من حَبَش غانِية وعمرةِ الصَّحارى مبادِرين، فاجتَمع بالحضرة، من الأحمر والأسود وشتَّى اللّغات من الحشود والمطَّوِّعة وعموم الأعراب من الجنود من معدودٍ وغيرِ معدود، ما ضاق بهم رَحيبُ الفضاء، وتكاثَرَ عن العدِّ والإحصاء.

والعدوُّ بالأندَلس في أثناءِ ذلك يشُنُّ الغارات، ويُبالغُ في النّكايات، حتّى أخذ بمخنَّق غَرْب الأندَلس برًّا وبحرًا، واستعانَ بقراقيرِ[1] الإفْرَنج فأذاق المسلمينَ ضُرًّا.

(١) في ق، ر٣، ب: «قراقر» والمحفوظ ما أثبتناه إذ هو جمع القرقور: وهي السفينة الطويلة العظيمة، كما في معجمات اللغة، وستأتي على الوجه بعد قليل.

وفي هذه السنة: كانت غَلَبَةُ ابنِ الرَّنك اللَّعين على قاعدة شِلْبَ وإخراجُ أهلِها عنها إلى أنْ فتَحها المنصورُ عَنْوةً وجَبَرَها للإسلام بحدِّ الحسام[1]. وكان من مُوافقة قَدَر الله وصولُ جُملة من القَراقير[2] الرُّومية مُجتازِينَ على عادتِهم إلى بيت المقدِس منذ انتُزِع من أهل ملَّتِهم فيصَلُّونَ أبدًا في كلِّ سنة إليه ليُزيلوا عن أعناقِهم بزَعْمِهم عهدًا في أديانِهم ويَخرُجوا عن عهدِ ما شُرِط عليهم ونَفَذ إليهم معَ رُهبانهم، فعقَلَت الأنواءُ القراقيرَ[3] المذكورةَ بجهة الأُشبونة، فألفَى الكافرُ ابنُ الرَّنك مادةً لعَوْنِه على كفره، وجيشًا ميسَّرًا لِـما دبَّره من خَتَلِه وغَدْرِه، ووجَد منهم قَبولًا لجهاد المسلمين، فأحدَقوا بشِلْبَ من كلِّ الجهات، وبالَغوا في حصارِها إلى أنْ تملَّكوها وأخرَجوا أهلَها عن...[4] بعدَ إشرافِهم على الهلاك من الظَّمإ والجوع وعَدَم الهجوع، وكان حافظُها حينَئذ عيسى بن أبي حفص بن عليّ لم تُحنِّكْه التجارِب ولا ابتُلي بسدِّ الثغور، فاستَولَى عليه الجَزَع ولفَّه الـهَلَع ودخَل في غِمار المؤمَّنين، وسلِموا في أنفسِهم وخَرجوا مسلوبين، واستَأصَل العدوُّ حِصنًا من نظَرِها يُعرَفُ بالبور، وأتَى القتلُ على كلِّ مَن كان فيه من صغير أو كبير وإناث وذكور، نفَعَهم اللهُ بشهادتهم يومَ النشور.

وفي هذه السنة: كانت وقعةُ حِصن المنار[5] وتغلُّبُ أذْفُونْشَ عليه، وذلك أنّ أذْفُونْش قَصَمه الله بثَّ سراياه على أكثرِ بلاد المسلمين فضَرَبت على قُطر قُرطُبة، ومال جُلُّ شوكتِهِم على جهة إشبيلِيَة فتهرَّجت أقطارُها وأقلعت بسائطُها وأغوارُها، ووصَلوا إلى قُرى الوادي واكتَسَحوا ما اتّصل بتلك البوادي، وأسرع الرُّعاةُ إلى إشبيلِيَة يَستصرِخونَ بالغَوْث، فخَرج جميعُ عسكر إشبيلِيَة من غير أُهبة وبادَروا إلى مُصادمة العدوِّ وقد تَراءى الجَمْعانِ من غير تعبيةٍ تحفَظُ نظامَهم، ولا أُهبة ترتِّبُ خواصَّهم وعوامَّهم، وقدِ انتَشروا كالسائمة بتلك البسائط والفُحوص، واختَلط منهمُ العمومُ بالخصوص، ولم يتذكَّروا فَضْلَ المقاتلين في سبيل الله كأنّهم بنيانٌ مرصوص.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/ ٥٧-٥٨.

(٢) ينظر الهامش في الصفحة السابقة.

(٣) هنا جاءت على الوجه.

(٤) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٥) الروض المعطار ٢٠٢.

ولـمّا رأى العدوُّ أمرَهم بدَدًا، وأنّهم لم يَملِكوا من غيِّهم رَشَدًا، أضرَبوا عمّا حصَل بأيديهم من غنائِمهم ومواشيهم وصَعِدوا على رَبْوة أشرَفوا منها على عوَرات المسلمين، وعَلِموا المتقدِّمين منهم والمتأخِّرين، فأخَذوا عَزْمَهم ولبِسوا لأْمَهم على ما كان من ضَعْف عدَدِهم، وبُعد مَدَدِهم، وانصَبُّوا على نشَزِهم كقطعة ليل، أو كجلمودٍ حطَّه السّيلُ من علٍ، ووالَوْا عليهم الكرَّ والإقدام، وأشرعوا فيهم السِّنانَ والحسام، فتخاذَلت جموعُ الناس أجمعين ووَلَّوا للحين منهزمين، وأوى بعضُ الفَلِّ إلى دفءِ حصن المنار، فخَرج عليهم صغارُ الوِلدان وعقائلُ النِّسوان، يَضرِبونَ في وجوهِهم بكلِّ عار، ويَثلُبونَهم بقبيح الفِرار، وقد كان حضَرَها أعيانُ الموحِّدين، ووجوهُ الأجناد الأندَلسيِّين، واستَولَى العدوُّ على مَن ضمَّه الـمُعترَك من أسيرٍ وقتيل، وكثير من السّلبِ وقليل، وانقَلب بغنيمة باردة، وفائدة يا لها عندَهم فائدة.

ووصَلت سرِيّةُ الـمُغيرة إلى حَريم البَحائر بشَرَف إشبيلِيَة، وخَرج السيِّد أبو حفص صاحبُ إشبيلِيَةَ في جُملة خَيْل فلم يجاوِزْ سُورَ باب الفَرَج، وخيلُ العدوِّ معَ حيطان البحائر يُدِلُّون دلالَ الآمنين، ويعبَثونَ كما يشتهون، فعادت الأندَلسُ في تهارُشٍ واختلاط، والناسُ من الشدائد والضِّيقة في مثل سَمِّ الخِيَاط.

وكان نزولُ ابن الرَّنك اللَّعين على شِلْبَ في ربيع الآخِر من السنة المؤرَّخة، وحاصَرَها بقيّةَ ربيع الآخِر وجُمادى الأولى والآخِرة وتسعةَ عشَرَ يومًا من رجَب، ودخَلها يومَ الاثنين الـمُوفي عشرينَ منه.

وفي جُمادى الأُولى من السنة: خَرج أذفُونْشُ ملكُ قَشْتالةَ إلى أُمِّ غَزَّالة[1]، فنازَلَها وخَلَت قبلَ وصُولِه إليها. وفي أوائل جُمادى الآخِرة أقلَعَ عنها ونزَل ربينةَ ودخَلها عَنْوةً وقَتل فيها كلَّ منِ اعترَضه وأسَر الباقيَ وسَبَى كلَّ مَن كان بها، وتَمادى إلى قلعة جابرٍ إلى حِصن شُلَيْر[2] وانصَرف إلى طُلَيْطُلة، وذلك في جُمادى الآخِرة من السنة، فأقلق المنصورَ ما وصَله من هذه الأنباء، وانحفَز في الحركة لدَفْع هذه الأدواء.

---

(١) معجم البلدان ١/ ٢٥٤ والضبط منه.

(٢) معجم البلدان ٣/ ٣٦٠ والضبط منه.

ذكرُ حركة المنصور الأُولى إلى الأندَلس من حركاته وما ظهَر فيها من قدرتِه وغلَبتِه

كان خروجُه من مَرّاكُش في الرابعَ عشَرَ من شهر ذي الحجة من السنة المؤرَّخة، فأنفذَ الـمُخاطبات إلى إشبيلِيَة وإلى سائر الجهات، فتضمَّن التيسيرَ باستقبال جيوش تلك البلاد وانحفازَها لنَصْر أهلِها على عدوِّهم، وكشْفَ ما هم فيه من الأوصابِ الشّداد، وتَمادى السّيرُ إلى رِباط الفتح، فتلوَّم به نحوَ الأربعينَ يومًا حتى استوفَتِ الحشود، وكمُلت أعدادُ القبائل والجنود، وتَمَّ في كلِّ جهة من البلاد النظرُ المحمود.

وفي سنة ستٍّ وثمانينَ وخمس مئة: تحرَّك المنصورُ من رِباط الفتح في أواخِر محرَّم، وتَمادى السّيرُ إلى قصر مصمودة، وجدَّد منها المخاطباتِ إلى إشبيلِيَة تتضمَّنُ قُربَه الميمونَ إليهم، ووفودَه في أقربِ وقتٍ عليهم، وفي أثناءِ هذا بَدَرَ من بَواكر الفتوحات تعكيسُ أجفان الرّوم فقُتل منهم خَلْق وأُسِر آخَرون فهُنئ بذلك المنصور، وامتدحَه الشّعراءُ، فمنهم ابنُ مُجبَّر، فإنه قال من قصيدة طويلة أولُها [من الطويل]:

دلائـلُ فـتح كـان يَـذْخَرُها الـدّهرُ ... فلـمّا أردتَ الغَـزْوَ أبرَزَهـا النّـصرُ
فها هي مُـذْ جـدتْ ركابُـك تَـنْبري ... سِراعًا فمن أفراحِها الـشَّفعُ والـوترُ
فـدونَكها منـسوقةً فلـشدَّ مـا ... تـسابَقَ فيهـا نحـوَك الـبَرُّ والبحـرُ
هو الفـتحُ يـا مـولايَ مـا فيـه مِرْيـةٌ ... ولا للّيـالي في تعـذُّرِه عُـذرُ

ومنها [من الطويل]:

أفي الـصبح شـكٌّ إنـه لَـمُـصبِّحٌ ... وقد غاضَت الظّلماءُ وانفَجر الفجـرُ
أتتـك أُسـارى الـرّوم وهْـي أقلُّهـا ... فمِن فَضَلات القتـل ينتجعُ الأسرُ
وما كـان قبـلَ اليـوم سـهلًا مَرامُهـا ... ولكنْ علا الإسلامُ ما تـضع الكفـرُ
ومـا زلـتَ تَـدنو كـلَّ يـوم مـسافةً ... إلـيهم ويَهـوي في نفوسِـهمُ الـذُّعرُ

ومنها [من الطويل]:

لقد كان في الأحوال عُسرٌ فكلَّما دنَوتَ استمرَّ اليُسرُ فارتفع العُسرُ
لعَمْري لقد سنَّى بك اللهُ غزوةً قد افترَّ عن ثغرِ السرور لها الثّغرُ

ومنها [من الطويل]:

إلى غَزَواتٍ من قريب تتابَعتْ ففي كلِّ قُطر من سحائبِها قُطرُ
لقد أيقنَتْ هذي الجزيرةُ أنها سيَجبُرُها مَن لا يُهاضُ له جبرُ
لئن كان ماتَ الأمنُ في جنَباتِها فقُربُ أمير المؤمنينَ له نَشْرُ

وتربَّص المنصورُ بقصر مصمودةَ وقدَّم بين يدَيْه الجيوشَ للجَواز، فكان ابتداؤها في الخامسَ عشَرَ من ربيع الآخر من السنة المؤرَّخة. ولـمّا انحفَزَ الناسُ في جَوازِهم تحرَّك المنصورُ من قصر الـمَجاز وركِبَ البحرَ ضُحى يوم الأحد الثالث والعشرينَ لربيع، وروَّح بطَرِيفَ رَيْثما استنفَذَ الجَواز، ووصَل بعضُ وفود البلاد المجاورة للبحر للسّلام، وضَجُّوا بالتشكِّي بالوُلاة والحُكّام، ورفَعوا فيهم شنيعَ الأرفاع بما لا تَسَعُه شرائعُ الإسلام، فأضرَبَ المنصورُ عن شنيع ذلك الكلام، وقال: إنّما نبدَأُ بغَزْو المفترِين والمشغِّبينَ من أطراف الأنام، ثم غَلَبه تُقاه، فأضرَبَ عمّا كان نَواه، وأمَرَ بطردِهم وعصرِهم تحتَ الوعيد، وإن لم يتوبوا عن أعراض المسلمينَ فالموتُ أقربُ لهم من حبل الوريد[1].

وتحرَّكَ المنصورُ من طَرِيف غُرَّةَ جُمادى الأولى، وتَمادى مَشْيُه إلى ظاهرِ أركش، فوادعَ الناسَ منها وركِبَ إلى قُرطُبة نهجَ السبيل، وعرَّج عن نظَر إشبِيلِيَةَ بالرّحيل، وأخَذ بتجديد العَزْم للحرب وتقديم الحَزْم، وأمَرَ السيِّد يعقوبَ ابنَ العمِّ الأكبر أبي حفص بالحركة من إشبيلِيَة بعساكرِه من أجنادِها وأعرابِها وما انضَوَى من أهل البوادي من غَرناطةَ والحُشود والمطَّوِّعة إلى آخِرها ومَن تأخَّر من صُنهاجةَ وهسكورةَ من كلِّ الجهات والمجاهدينَ من سائرِ الأشتات. فتحرَّكَ هذا السيِّدُ وجميعُ مَن ذُكر من

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٩.

هذه العساكر بعدَ انتظام السابق منهم بالآخِر غُرّةَ جُمادى الأُولى، وتَمادى مشيُهم حتى نزَلوا بظاهر شِلْب.

وفي آخِر الشّهر المذكور وصَلتِ الأساطيلُ إليهم فالتَأم غُزاةُ الرَّجّالة: البرِّية والبحرية، ونُصِبت الـمَجانيقُ والآلاتُ الحربية، ودَنا من السُّور الحُماةُ والكُماة، واضْطَرُّوهم من التضييق، إلى ما أغَصَّهم بالرِّيق، وبقِيَت تحتَ الحصار يَنشُرُ عليها القتالَ تارَةً ويَطوي أخرى.

ولـمّا كان وداعُ الناس من منزِل أركش على ما تقدَّم ذكرُه وأُحصر خبرُه، تَمادى مشيُ المنصور أمير المؤمنينَ إلى قُرطُبة، فنزَلَ بالقصر الذي كان الأخُ أبو يحيى تأنَّق في بنائه، ومشَى أثناءَ ذلك للزّهراءِ بنيّة الاعتبار بآثار القرون الذاهبة والأُمم السالفة، فأمَرَ بقَلع الصُّورة التي كانت على بابِها، وكان من الاتّفاق أنْ هبَّت ريحٌ عاصفٌ بأصيل ذلك اليوم أثَّرت في خِباء الساقة بعضَ التأثير وقَطَعت في طُنُبِه كالقطع اليسير، فأرجَفَ جُهّالٌ من عوامِّ قُرطُبة أنّ ذلك بسبب صُورة الزّهراء وأنها كانت طَلْسَمًا لِـما ارتدَعَها من الأشياء، واتّصل ذلك بالمنصور فجعَلَه من علوم أهل قُرطُبَةَ القديم ومن غَيايتِهم[1] وتقليدِهمُ الذّميم، وأخَذ في مهمّات الجهاد، وما يليقُ بالحالِ الحاضرة من التأهُّبِ والاجتهاد، فصَرفَ أرسالَ أذْفُونْشَ إلى بلادِهم، ووجَّه السيّدَ أبا زكريّا ابنَ أبي حفص إلى إشبيلِيَة بمَن تحتَ نظَرِه من العرَب وزَناته وأهل تِلِمْسانَ ومنِ انضافَ إليهم وأَوى لديهم وأمَرَه بالتجهُّز من إشبيلِيَة رِفقًا ونظَرًا سديدًا للتمكين من الأزواد، وأمَرَه باللَّحاق به والاجتماع معَ إخوتِه بعدَ ما حَدَّ له ما حَدّ من الاستعداد. ثم إنّ المنصورَ حقَّق تمييزَ الجيوش الـمُسترزِقة، ومنِ افترَقَ من الأعدادِ الواصلة من برِّ العُدوة أخَذوا باقيَهم المسمَّى بالبركة، وأمَرَ بسَوْق الرايات وعَقْدِها، وخَرج من حينه والنّصرُ والسَّعدُ مُحالِفان له في حالتَيْ حركته وسكونِه، فقال أبو بكر ابنُ مُجبر من قصيدة [من البسيط]:

بُشراي هـذا لـواءٌ قـلَّ مـا عُقِـدا	إلّا ومَـدَّ لـه الـرُّوحُ الأمـينُ يـدا
وأقبَـلَ النّـصرُ لا يعـدو مناحيَـهُ	فحيـث مـا قـصَدَت أربابُـه قَـصَدا

---

(١) في م: «غبايتهم» ولا معنى لها.

واستقبلَتْه تباشيرُ الفتوح فقد	كادت تكونُ على أكنافِه لَبَدا
وقرَّب الفلَكُ الدوّارُ بُغيتَهُ	فلو تناول بعضَ الشُّهْب ما بَعُدا
إمامُ جيش أراد اللهُ نُصرتَهُ	فأرسَلَ الملأَ الأعلى له مَدَدا
إنّي لأحكُمُ بالنّصر العزيز لهُ	وإنْ سكتُّ فإنّ الوحيَ قد شَهِدا

فوصَل السيِّدُ أبو زكريّا إلى إشبيلِيَةَ وتلوَّم بها رَيْثما تـمَّم أشغالَه وخفَّف أثقالَه ورتَّب أدلّتَه ورجالَه، وتحرَّك منها فجَدَّ سيرَه حتى لَحِق بالمنصور حيث أمَر، وذلك بوادي تاجُه وبه تلاقت العساكر والأعداد، وتكاملت الحشود والأمداد.

اختصارُ الخبر عن فتح طُرُّش[1] ومُحاصرة حِصن المنار والإقلاع عنه

وتحرَّك المنصورُ من الوادي المذكور قاصدًا إلى حِصن طرش، فنَشَر عليه مُمِضَّ القتال، واشتدَّ على مَن فيها مضايقةُ النَّكال، وغَلَب عليهم انقطاعُ الآمال، ولـمّا رأَوْا أنفُسَهم في قَبْضة الهلاك وأنّ قيامَ المسلمين عنهم عينُ الـمُحال، ألقَوْا بيد الاستسلام وبَسَطوا رغبتَهم في الأمان، وأن ينفَّسَ عنهم رَيْثما يصِلونَ إلى طاغيتِهم ابن الرَّنك في الاستئذان، فتوجَّه قائدُهم معَ صُحبة وجوه العرب فوصَّلَهم إلى مَأْمَنِهم.

ورحَل المنصورُ بعدَ فتح هذا الحصن إلى حصن طمّان، فسلَكَ فيه ذلك المسلكَ من الحصار، وأخَذَتْه الجيوشُ بالتضييق عليه من كلِّ النواحي والأقطار، ووافَت رسُلُ ابن الرَّنك راغبًا في السِّلم وعَقْدِه، ومتلطِّفًا فيما تعجَّله من رَبْطِه وشدِّه، فأمَرَ المنصورُ بترويح القتال عن الحِصن المذكور، رَيْثما ينعقدُ هذا السِّلمُ وتنضبطُ تلك الأمور، وكان المنصورُ عَزَم في هذه الغَزاة أن يدوِّخ بلادَ ابن الرَّنك وينتهيَ فيها إلى أقطار قلمريةَ فُوعِك، وتمادى وَعَكُه، ورأى جيشُه قد أثَّر فيه الغلاءُ ونَهَكَه، فأخَذ إلى إشبيلِيَة قافلًا، وكتَبَ إلى جميع مَن كان بالعساكر بشِلْبَ بالإقلاع منها عاجلًا، وتَمادى المشيُ والأسعارُ ترتفع، والموادُّ من جهة البلاد تنقطع، حتى كان الوصُولُ إلى

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٢٩ والضبط منه.

إشبيلِيَة في الحاديَ عشَرَ لجُمادى الآخِرة من السنة. وفي يوم هذا الوصول نزَلَ على إشبيلِيَة في غاية الحَفْل، وركِبَ السُّودانُ على النُّجُب البيض بأيديهم الدّرقُ وعلى رؤوسِهم طَراطيرُ الطيلقان الشديد الحُمرة وصدورُ النُّجُب منظومةٌ بجلاجيلَ على شكل السَّفَرْجَل، والأغزازُ بضروب الحُلَل، فظَهَر مَرأًى تَحارُ فيه الأبصار وتذهَلُ الخواطرُ والأفكار، والـمُلكُ لله الواحِد القهّار. وكانت مدةُ هذه الغَيْبة ثلاثةً وأربعين يومًا، ووصَل المنصورُ على أتمِّ الأمور.

ذكرُ وصول المنصور لإشبيلِيَة وما طَرأَ من الأنباءِ مدةَ هذا الاستقرار ومشَى فيها من الحوادثِ والأخبار

ولما استقرَّ المنصورُ بهذا القَرار، وخَرج من ذلك الوَعْك خروجَ البدرِ من السِّرار، أخَذ في الفَحْص عن شؤونِ الناس وأحوالِـهم وكيفيّة كونِهم معَ وُلاتِهم وعُمّالِـهم، فاستُبرِئت السُّجون، وقُتل كلُّ مستوجِب القتلَ فيها منذ سنين، بعدَ عَرْض أزِمّتِهم على أمير المؤمنين، واشتدَّ في قطع الـمَناكِر والـمُلهِين، وأمَرَ بالقبض على ابن سِنان لِـما رُفعَ عنه في وَقْعة المنار أنه أولُ مَن بادَرَ بالفِرار، وأنّ الخَوَر حمَلَه على النزول عن فَرَسِه واللِّياذ بالأوعار، والتعلُّق بأهدابِ الأشجار، وأعوذُ بالله من التهالُؤ في أوقات الإدبار، فأمَرَ المنصورُ إذ ذاك باستصفاءِ أحوالِه وضمِّ أموالِه.

وفي هذه السنة ظهر الغوي الشقي علي الجزيري.

ذكرُ قيام الثائرِ الـجَزِيري

وصَل خبرُه وأمرُه إلى المنصور بإشبيلِيَةَ في رجَب، بظهورِه بحضرة مَرّاكُش وانتشارِ الإرجاف به ببَرِّ العُدوة، وكان هذا اللّعينُ في أوليّتِه يتعلّق بأذيال الطّلب ويلهَجُ منه بحِفظِ المتشابهات وما يؤوَّلُ منه إلى الروايات، فأمَرَ الخليفةُ بطردِه، فمشَى ملفوظًا يتغرَّبُ ويتجوَّلُ في الأقطار، ويسعَى في الفساد بالتكتُّم والاستتار، ويلتمسُ أبدًا جُهّالًا منَ العوامّ يُحادِثُهم ويُطابقُهم ويُلابِسُهم ويُرافقُهم، إلى أنْ ظهَرَ بمَرّاكُش الخبيث، وشَنُعت عنه الأحاديث، فأمَرَ السيِّد أبو الحَسَن بن أبي حفص بالبحث عليه في أقطار المدينة، فاختفَى وخَرج فارًّا بنفسِه، لا يَعرِفُ يومَه من أمسِه، ثم ظَهَرَ أيضًا

بمدينة فاس، وامتَزج بأوباشٍ منَ الناس، فسَقَط الخبرُ عندَ واليها ابن وَمَازير فلفَّهم بغُبارِهم وقَبَض على مَن عثَر عليه منهم عندَ انتشارِ أخبارِهم فاستَأْصَلهم قتلًا ونفيًا، وأفلَتَ اللّعينُ ولاذَ بأوعار تلك السّواحل، وانغَمَس فيها انغماسَ اللصِّ الخاتل، ثم تواتَرت الأخبارُ بأنه جازَ إلى الأندَلس، فأمَرَ المنصورُ بالكُتْب إلى جميع الجهات بصفتِه وأمارته وهيئته، واستقرَّت الكتُب بيد الحُكّام والعُمّال، والمتصرِّفينَ في الأشغال، وقد كان ذُكِر عنه أنه يتَصوَّرُ في صورة الحيَوان الذي لا يعقِلُ مثلَ الحمير والكلاب والسَّنانير، وأُلقي في ذلك من الأخبار المستحيلة ما نُسِي به أخبارُ أبي دُلامة الكذّاب فصَحّ عندَ المستضعَفين من العوامِّ تصحيحُ ذلك الكلام، وكانوا متَى رأَوْا سِنَّورًا مُنكَرًا في منازلهم لم يشكُّوا أنه الجَزِيريُّ طالبًا للاختفاءِ والفِرار، فيتلقَّوْنَ ذلك الحيَوان الذي يرَوْنَه حيث كان بالإنكار.

وتمادَى الناسُ على ذلك أيامًا إلى أنْ قيلَ: عُثر عليه بمالَقة وعلى أوْباش من سِفْلة الأسواق فمُلِئت منهم السُّجون، وفيهم أخو الفاجِر الملعون، وأمَرَ المنصورُ بسَوْقِهم إلى إشبيلِيَة، فذُكِر أنّ هذا الثائرَ كان في جُملة المسجونين، وأنّ القاضيَ المعروفَ بالواني أطلَقَه بِرشوةِ أولئك المفسِدين، فقَتَل جميعَهم وكانوا تسعةً وتسعين رجلًا، وأمَرَ على القاضي فضُرب بالسِّياط على عددِ الدّنانير التي تصيَّرت مِن قِبَل اللعين إليه فهلَكَ المذكورُ قبلَ إكمالِـها ولحِقَ بالآخِرة وأعمالِـها، وقُتل بسبب هذا اللعين خَلْقٌ كثير من الناس، ووقَع عليه البحثُ في كلِّ مكان، وجَعَل الرُّقباءُ يتصفَّحون الصِّفاتِ بالعِيان، حتّى قُبِض عليه بنَظَر مُرْسِية وسِيق إلى إشبيلِيَة فأُخرج إلى موضع جلوس الموحِّدين وطِيف به على جموع الحاضِرين، فأكذَبَ نفسَه فيما نُسِب إليه وفيما كان يدَّعي ويحُضُّ عليه، فصحَّح خِذلانَه وتمَّم حِرمانَه، ثم عُذِّب بعد هذا وصُلِب وقُطع به أرجافُ المفسِدين، وامتَدحه الشّعراء فقال الجُراويُّ يمدح المنصورَ ويَذكُر الثائرَ المذكور المعروفَ بالجَزيريِّ من قصيدة طويلة [من البسيط]:

قـضى لــكَ اللهُ بالتأييــد والظَّفــرِ ... وبالــــسّعادة في وِرْدٍ وفي صَـــدَرِ

آثــرتَ في نُـصرة الـدِّين المـسيرَ عـلى ... طِيب الـمقام وبِعـتَ النّـومَ بالـسّهرِ

مُظفَّــرٌ مــا المغــرور يطالبُــهُ ... في الأرض مـن ملجأٍ عنه ولا وزرِ

جـدَّ الجزيـريُّ في إتـلافِ مُهجتِهِ ... حتـى تـورَّط في وِرْد بـلا صَـدَرِ

نـارٌ مـن الفتنـة العميـاءِ أطفأهـا ... سعدُ الإمـام وحـدُّ الصارم الـذّكَرِ

مـا زال إبليسُ في الأقطار يوقـدُها ... وتَرتمـي مـن شِرار الخلـق بالـشّررِ

زاد الـشقيُّ عـلى الخُفّـاش مـشبهِهِ ... ضَعْفَ البصيرة إذا ساواه في البصرِ

جـارى إلى سَـقَر أصـحابَه فهـوَوْا ... فيهـا سِراعًـا وأوفـاهُم عـلى الأثـرِ

إنّ الـذي اتّـخَذ الأهـواءَ آلـهةً ... عـلى الـضّلال مُـصِرٌّ غـيرُ مزدجـرِ

والوعظُ في النـاس مقبـولٌ ومطَّـرَحٌ ... كالخطِّ في الماء أو كالنَّقش في الحَجَـرِ

وقال أيضًا [من البسيط]:

مـا في الحيـاة لـمَن نـاواكُمُ طمَـعُ ... إن نَـدّ خوفًـا ففـي أُحبولـةٍ يَقـعُ

عن كلِّ قوس صُروفُ الدهر ترشُقُهُ ... فـما لـهُ في سـوى التسليم منتفَـعُ

مـا للعُـداةِ بـما أعددتَـه قِبَـلٌ ... ولا بغـير انقيـاد منـه تمتنـعُ

غَزاهمُ الرّعبُ في جيش بلا لَـجَبٍ ... فأحجَموا من وراءِ الدّرب وانقَمعوا

دارت عليهم كـؤوسُ الـذلّ مُترَعـةً ... تَـسقيهمُ جُرَعًـا مـن بَعـدِها جُـرَعُ

كـلُّ الـممالك مُلـكٌ خـالصٌ لكـمُ ... وكـلُّ ممتنـع طوعًـا لكـمْ تبَـعُ

والبحـرُ تعتمـدُ الأنهـارُ موضـعَهُ ... فتلتقـي في نواحيـه وتجتمـعُ

والـشِّعر إن لم يكـنْ في نفسِه حـسَنًا ... فـما تحـسِّنُه الأصـحابُ والـشِّيَعُ

مَـن رام وَصْـفَك مـستوفًى فغفلتُـهُ ... يُبدي ومن فهمِه عندَ الـوَرى يـضَعُ

أضحَت عُلاك مكانَ النَّجم عن مِدَحي ... مـا حِيلتـي وبلـوغُ الـنّجم ممتنـعُ

وفي هذه السنة: وصَل ابنُ مُنقذ رسُولًا عن صاحب الشّام والدِّيار المصرية يوسُفَ بن أيوبَ الملقَّب بصلاح الدِّين، وكان وصُولُه أولًا إلى إفريقيّة.

وفي رجَب الفَرْد: وصَل إلى المنصور أمير المؤمنين مُخاطَباتُ السيِّد أبي زيد من إفريقيّةَ والسيِّد أبي الحَسَن من بِجَاية بوصُول المذكور إلىٰ تلك البلاد، وما قابلوه به من الـمَبرّة وتوطئة المِهاد، والتعريف منهم بكِتمانه لسببِ وصُوله.

ولِـما جاء فيه من أشغاله، فروجعَ السّاداتُ بالشّكر على ما قابَلوه به من الإكرام، وأنْ لا يُبحَثَ عنه بشيءٍ من الاستفهام، ثم قدِّمت المخاطباتُ إلى مَن بالمغرب من الولاة والعُمّال، بالتوسِعة له في نزُلِه والاحتفال به، وأن يستقرَّ بمدينة فاس، فأقام بها إلى أنِ انقَضت حركةُ المنصور، فاستدعَى الرسُولَ المذكور، فوصَل إليه، وقَعد بين يدَيْه، وخَلا به على اختصاص وانفراد، وأمَرَ قبلَ دخوله بقَصْدهِ إلى المراد، فتلقَّى الجوابَ من المنصور مجمَلًا، وأُحيل على ما يوضِّحُه له الوُزراءُ مفسَّرًا ومكمَّلًا، ولـمّا دنا إيابُه، وحصَل على ما تمكَّن جوابُه، أُفيض عليه من النَّوال الغَمْر والإحسان، وضروب من النِّعم السابغة والامتنان، وقوبِلت هداياه من العِوَض في نَفاسة الأشخاص والأثمان، وانصَرف إلى بلاده وقد رأى ووعَى في طريقه وفي مدة إقامته ما عَلِم أنّ بالمغرب مُلكَ الإسلام ومقرَّ الإيمان.

وفي سنة سبع وثمانينَ وخمس مئة: تأهَّب المنصورُ لحركة شِلْب، وعزَم على غزوِ بلادِ الغرب[1]، ثم جدَّد المنصورُ عزمَه وقدّم حزمَه بعدَما سَقَطت جمرةُ الـمَصِيف وتمكَّن فصلُ الخريف، شَرع في التأهُّب للحركات والنظَر في الآلات، وانضمَّت ما تحتاجُ إليه منازلةُ البلاد، من العُدَد الحربيّةِ والاستعداد، ولـمّا استوفَى بالعمل تكملةَ الآلات، وانضمَّتِ الحشودُ من كلِّ الجهات، تحرَّك من إشبيلِيَةَ غُرّةَ ربيع الآخِر على حالةٍ من الاستقدار، وهيئة عظيمة من الاستظهار، وترتيبٍ رائق لم يدوَّنْ مثلُه في عيون الأخبار، آيةً للأفكار ونُزهةً للأبصار.

وتَمادى المشيُ من إشبيلِيَة على الإحكام العجيب، والضّبط لأحوال العساكر وحُسن النِّظام والترتيب، حتّى كان الحُلولُ على قَصْر أبي دانِس وتقسَّمت الحشودُ وترتَّبتِ الجُنود، وأهلُ الخِدمة من العبيد يَردُمونَ خندقَ المدينة من جهاتها الأربع،

---

(١) ينظر الروض المعطار ٣٤٣، والاستقصا ٢/ ١٨٤.

وطوائفُ من المقاتلة الأنجاد قد زَحفوا إلى السُّور يَستعذِبونَ طعمَ المنايا، ويبيعونَ من الله أنفسَهم بالرَّزايا.

ولـمّا عايَنَ المنصورُ صبرَ المسلمينَ على القتال، وقد كثُرت فيهم الجِراحاتُ بالحجارة والنِّبال، روَّح القتالَ ثلاثةَ أيام، وقصَد تجديدَ الفِكر والاعتزام، وانتظارَ ما كان أعَدَّه لذلك المقام، إلى أنْ وصَلت الأجفانُ البحريّة بالعُدَد الحربيّة، وقد تسابَقت لدخول الوادي بتيسير تعجِزُ العقولُ عن تكييفه، ويُشكَرُ القديرُ سبحانَه على إحكامِه وتصريفِه، فبُهِت الذي كَفر، وسُقِط في أيدي المشركينَ من كلِّ مَن ألقَى السمعَ وأبصرَ، فنُصِبت في يوم وليلة أربعةَ عشَرَ مِنجَنيقًا، إذ كانت معَدّةً بعدَ الفراغ من عملِها، فأحدَقَ منها بالبلد منايا زاحفة وصواعقُ قاصفة.

ولـمّا كان الخامسَ عشَرَ لجُمادى الأولى، أمَرَ الجيشَ بأسرِه بأخْذِ الأسلحة ونَشْر القتال عليهم من كلِّ الجهات، ورَمَى المجانيقَ مرةً واحدةً على مرِّ الأوقات، فاشتدّ القتال، وتضاعَفَ عليهمُ النَّكال، ولـمّا رأَوْا أنفُسَهم في لَـهَواتِ الـمَنُون، وأنهم معَ ما لديهم من أهل ومال في بحر الفَوات مُغرَقون، تَطارَحوا كالفَراش على الأسوار، ورضُوا بالفِرار من الرَّمضاءِ إلى النار، ونزَلوا على الحُكم مُستسلمينَ لائذين بما للخليفة من الإجمال والإفضال، وهَبَطوا من البلد صاغرين، وانسَلَخوا عنه أجمعين، فأُودِعوا بطونَ الجَوارِ المنشآت، وضَحِكت لمناجاتِهم كتُبُ البِشارات، وحُمِلوا إلى إشبيلِيَة فكانوا عُنوانَ الفتوحات.

وشَرَع المنصورُ في النظر في أمور الحِصن وأحوالِه، وصَلاح ما ظَهَر منَ اختلاله، وثَقَّله بأنْجادِ رجالِه، ورَسَم لسُكّانِه رسومًا: مُشاهرةً ومُسانَهةً في مخازن إشبيلِيَة وسَبْتة على الاستمرار والدّوام، والتيسير والتّمام، وقَدَّم على الحصن المذكور ابنَ وزير.

ثم رحَل عنه ونزَل حصنَ قلمالة[1]، وهُو من القلاع السامية الارتفاع، الغريبة الارتفاق والانتفاع، لا يتمكَّنُ لـمُنازلتِه جيش، ولا يَحسُنُ بغيره بمجاورتِه عَيْش، وقد ملأَه الكافرُ ابنُ الرَّنك بأنجادِ رجالِه وكُماة أبطالِه، ولـمّا رأوا من جنود الله ما لا

(١) في الروض المعطار ٣٤٣: «بلمالة» Palmella.

قِبَلَ لهم به ألقَوْا بيد الاستسلام صاغرين، وأن يَتخلَّوْا عن جَفْن الحصن مجرَّدين، فأسعَفَهم المنصورُ وقَبِلَ رغبتَهم لمكان انقيادهم وطاعتهم وخَلّى سبيلَهم إلى بلادهم، وسُمُّ الرُّعب قد تغلغَلَ صميمَ أكبادِهم، وأتى النّهبُ على ما كان في الحصن من أثاثٍ وأقوات وأسلحةٍ وآلات، ثم أمَرَ المنصورُ بهَدْمِه، وإزالة عينِه ورَسْمِه، فصبَّحه من الجيش قبائلُ العبيد، سوداءَ مُقفِرةً كظهرِ البِيد، يُنكِرُها العِيان، وتَعمُرُها الغِربان.

ثم استمرَّ القصْدُ إلى حصن المعدِن ففتَحَه وأمَرَ بهَدْمِه وتَعْفية رَسْمِه، فاستُؤصِل بالتخريب والدّمار، ومَضَت بهجتُه ورَوْنقُه ساعةً من نهار.

ثم كان الإقلاعُ والمسير، واستخارةُ اللّطيفِ الخبير، إلى مدينة شِلْب، فكان الوصولُ إليها يومَ الخميس الثاني من جُمادى الآخِرة، فأحدَقَت المحلاتُ بأكنافِها، وأخَذت بفُرُجِها وأطرافِها، حتى لا يتنفّسونَ إلا من الهواء، ولا يصلُ إليهم من مِلّتِهم طارقٌ من الأنباء، فسُوِّيت خَنادقُهم بالرُّدوم، وقُرِعت أسوارُهم بالرُّجوم، والبلاءُ يَطرُقُهم بالصّواعق سحابُه، ويُراوِحُهم ويُغاديهم بضروبِ المنايا عذابُه.

ولـمّا كان يوم الأربعاء الخامسَ عشَرَ من الشّهر المذكور سَها الكفّارُ معَ الصّباح عن الاحتراسِ والانهِمال، واطمأنّوا أنّ ذلك الوقتَ ليس من أوقات القتال، والمسلمونَ يَرقُبونَ خُدَعَ الحرب ارتقابَ هلال شوّال، فتحسَّس بغفلتِهم وبما كانوا فيه من سهوِهم ونَوْمتِهم دليلٌ منَ الأدِلّاء، فتسلَّل حتّى وثَب في ثَلْم السُّور، وشدَّ ظهرَه جماعةٌ من الرّجال الذُّكور، ورَفَعوا به الرايات، وصُكَّت الطّبول وملأ الجوَّ ضجيجُ التكبير والصَّيحات، فلم يستيقظِ الكافرونَ إلّا وهم في قَبْضة الـمَنُون بينَ مطعون ومضروب، ولا وقَفوا إلّا في نَجيع من دمائهم مصبوب، فبادَروا يُنادونَ بشعار الأمان، فضُرِب لهم أجلُ عشَرةِ أيام، فانقَلبوا وقد أجاز لهم طاغيتُهم طلبَ الأمان، وشَكَر لهم ثبوتَهم على عظيم الامتحان، وخَرجوا من قَصَبة شِلْبَ يومَ الخميس الخامس والعشرين لجُمادى الآخِرة، ورحَل المنصورُ عن شِلْب يومَ الثلاثاء الثامن والعشرينَ من الشّهر المذكور، ووصَل إشبيلِيَةَ في الرابع لرجَب من السنة المؤرَّخة، فانقَضَت هذه الغَزاةُ الكريمة في ثلاثة أشهر.

ذكرُ حركة المنصور من الأندَلس إلى مَرّاكُش بعدَ انقضاء غَزاتِه على مرغوبِه وما أظهرَه اللهُ تعالى من نصرِه والظَّفر بمطلوبِه

ولـمّا أكمَل المنصورُ غَزاتَه المشهورةَ وفتَح ما فتَح من بلاد ابن الرَّنك اللّعين وألقَتْ له ملوكُ الرّوم بيد الاستسلام، وارتَبَطت مُهادنتُهم على عزِّ كلمة الإسلام، ورُتِّبت أشغالُ البلاد، وسُدَّت الثّغورُ بثقات القُوّاد ووجوه الأجناد، وقَدَّم بعضَ القَرابة في أُمّهات البلاد، وفَوَّض إليهم النظرَ فيما يرَوْنَه من مصالِحها والأخْذَ في ذلك بالحَزْم والاجتهاد، واستوفَى ذلك على ما يمكنُ من النَّظرِ السّديد في بقية رجَبٍ الفَرْد وشعبانَ المكرَّم من السنة، ووَعَد الناسَ بالـمُوادعة ببُحيرة الوادي أولَ يوم من رمضان، وعندَ كمال مُوادعة الناس رحَل من إشبيلِيَة، وتَمادى المشيُ إلى البحر، وكان الجَوازُ بنصف الشّهر المذكور، واستمرَّ مشيُه أيامًا إلى حضرته، وبعدَ وصُولِه إليها وتمهُّدِ استقرارِه من أوْبتِه أنشَده الشّعراءُ، فقال الجُراوي [من المتقارب]:

إيــابُ الإمــام حيــاةُ الأُمَــمْ ... تَــوالى الـسرورُ بــه وانــتَظَمْ

وجــاد بــه الأرضَ صـوبُ الحيــا ... وجَــلّى الظــلامَ بــه بــدرُ تَــمّ

فــشكرًا لخيــل وفُلــكٍ دنَــتْ ... بمُـستأصِل الظُّلـم مـاحي الظُّلَـمْ

إذا حــلَّ في بلــدةٍ أمرَعَــتْ ... فطــابَ جَناهــا وفــاح الـمِـشَمّ

وقــام بأقطارِهــا عدلُــهُ ... وصــوبُ نَـداهُ مقــامَ الــدِّيَمْ

إذا الخَطــبُ جــيَّش نحــوَ الــوَرى ... تــصدَّى لــه عزمُــهُ فــانهزمْ

سـلِ الـدّهرَ عـن بطـشِه بالعِـدى ... تُـجِبْ مـن وراءِ الـدُّوربِ العَجَـمْ

فتــوحٌ عِظــامٌ حَباهــا الزّمــانُ ... لِــذي هِــمَم دونَهــنَّ الــهِممْ

نــصَحْتُكمُ يــا ملــوكَ الزّمــانِ ... نــصيحةَ مَــن لــيس بــالمتّهمْ

أنيبــوا إليــه ولُــوذوا بــهِ ... تَفــوزوا وألقُــوا إليــه الــسَّلَمْ

وبعدَ هذا الوصُول إلى الحضرة وُعِك المنصورُ الوَعْكَ الـمُفضي إلى طول الدَّنَف، الـمُشرِف به لولا لطفُ الله على التَّلَف، فاحتاطَ بحُسن بقيّته للمسلمين، ونظَر نظَرَ أمثالِه

للدُّنيا والدِّين، فعقَدَ البيعةَ لابنه أبي عبد الله على ما رَآه من السَّداد، وكتَبَ بذلك معرِّفًا إلى مَن كان من وجوه القَرابة في أُمّهات البلاد، كالسيِّد أبي زيد ابن السيِّد أبي حفص بإفريقيّة، والسيِّد أبي يحيى ابن أمير المؤمنينَ بإشبيلِيَة، فبادَروا إلى ما نُدِبوا إليه من توجيه عهودِهم، ودخَلوا تحتَ ما يجبُ عليهم من ربوطِهم وعقودِهم، ثم بعَثَ عنه من إفريقيّةَ والأندَلس فسبَقَ أهلُ الأندَلس لقربِ بلادهم، وتأتّي الإسراع لهم على مرادِهم.

ووصَل صُحبةَ أهل الأندَلس يوسُفُ بن الفَخّار اليهوديُّ رسولًا عن مَلِك قَشْتالة في تثبيت المهادنة، فألفَوا المنصورَ قد مَنّ اللهُ باستقلاله، وتبيَّن النُّجحُ من استبلالِه، فامتَدحَه الشّعراءُ بالتهنئة على بُرْئِه، فقال أبو العباس بن عبد السلام يمدَحُه ويهنِّئه [من البسيط]:

بُـرءُ الإمـام حيـاةُ الـخَلْقِ كلِّهـمُ ... عـمَّ الـسرورُ بـه وانثالَـتِ الـنِّعمُ
شـكا فـلا مُقلـةٌ إلا أضرَّ بهـا ... سُـهدٌ ولا قلـبَ إلّا شـفَّه ألـمُ
تـجهَّم الـدّهرُ لـمّا أنْ شَـكا وبَـدا ... ببُرئـه وهْـو طَلْـقُ الوجـهِ مبتـسمُ
صحَّت بـصحتِه الآمـالُ وانتعشَتْ ... وزاحمَـتْ زُحْـلًا في أُفْقِـه الـهممُ
أفـاض عـدلًا عـلى الـدُّنيا وألبَـسَها ... نُـورًا فلـم يبـقَ لا ظُلـمٌ ولا ظُلَـمُ
وبـثَّ في كـلِّ إقلـيم هُـدًى ونَـدًى ... فلـيس يوجَـدُ لا جهـلٌ ولا عَـدَمُ
لـولا سياسـتُه مـا كـان ملتئمًـا ... شَعْثٌ ولا كانـت الأسبابُ تنتظمُ
واللهُ يخـتَصُّ أقوامًـا برحمتِـه ... تجـري بحكمتِـه الأرزاقُ والقِـسَمُ
حـاطَ الإلـهُ لنـصر الـدِّين مهجتَـهُ ... وعوفيـت تلكـمُ الأخـلاقُ والـشِّيمُ

وفي سنة ثمانٍ وثمانينَ وخمس مئة: انفصَلت الوفودُ الأندَلسيّة عن الحضرة، ووصَل السيّدُ أبو زيد من إفريقيّةَ بهديّة جليلة فيها التُّحَفُ الملوكية والألطافُ السُّلطانية، وصَحِبه مَن كان أمَرَ بوفادتِه من عرب سُلَيْم ورِيَاح في جماعة وافرة من أعيانهم ووجوه أنجادِهم، ولقي الجميعُ المنصورَ يومَ خروجه من مَرّاكُش بمنزل تانسيفتَ[1]

(١) الروض المعطار ١٢٧.

في الحركة المقصودِ بها جهةُ فاس، فمشَى الجميعُ واستَوْفَوْا سلامَهم، وأَمَرَ بقيّةَ النهار بدخولهم مرّاكُش وإكرامهم، وليُعاينوا أمكانَ الخليفة واستبصارهم في قدرة الأمر وعظيمِ ما بها منَ الآثار والبناء، فأقاموا بها ثمانيةَ أيام وانحفَزوا لاحِقينَ بأمير المؤمنين وناشرينَ شُكرَه بما يُبقي ذكرَه معَ الدّهورِ والسِّنين.

ورحَل الخليفةُ إلى رِباط الفتح ومنها إلى مدينة فاس، وفي أثناء الإقامة بفاسَ قدَّم النظرَ في أشغال إفريقيّة وما يجبُ لها منَ الاعتناء والتقديم، وإعمالِ الفِكر في قطع دائها الجسيم، فصَرَف كلَّ مَن وصَل معَ السيِّد أبي زيد معَ العَرَب: السُّلَيْميِّينَ والرِّياحيِّين، ورُفِّهوا بضروب الإنعام، وأُدخِلوا تحتَ شروط الالتزام، ووُعِدوا بمقابلة البِرِّ على وفائهم والإكرام، وانقَلب هذا الوفدُ الإفريقيُّ على غاية ما أمَّل، وأضعافِ ما طلَبَ وسأل.

ثم تمكَّنت صحتُه، واستقامت راحتُه، فتروَّح إلى رِباط الفتح فاغتبَطَ بسُكناه وعزَم على الانتقال الكُليِّ إليه، فأمَرَ بتجديد القَصَبة المسمّاة بالـمَهْديّة الـمُشبَّهة بمَهْديّة بني عُبَيد بإفريقيَةَ لإحاطة البحر بها من جميع جهاتها.

ولـمّا قامت شخوصُ مَبانيها وتصوَّرت هيئاتُها، رتَّب قوانينَ أشغالِـها.

ورحَل إلى مَرّاكُش في منتصَف العام المذكور، وأقام بمَرّاكش جاريًا على حَزْمِه، آخذًا بتصميمه وعَزْمِه في تثقيفِ البلاد وتجديد العُدَد والاستعداد.

وفي هذه المدة: وصَلت أرسالُ ملوك الرّوم في تجديد عهد المسلمين والـمُهادنة، فاشتَطُّوا في شروطِهم وابتغَوا الزّيادةَ على عوائدِهم في عَقْد رُبوطِهم، وأنِفَ المنصورُ لقولِـهم وخَلا بأهل العَزْم والـمَشُورة في أحوالهم، وحَمَّلَهم على الصَّريمة في العَزْم على غزوِ بلادهم في عُقْر دارِهم، وأزعَجَ مَن كان بمَرّاكُش من أرسال الرُّوم دون غَرَض مَقْضيٍّ لهم، وانحفَزَ النظرُ في أسبابِ الحركة.

ثم كانت سنةُ تسع وثمانينَ وخمس مئة، ففيها: أمَرَ المنصورُ باختطاطِ منزل بخارج إشبيلِيَةَ يكونُ برَسْم نزول المجاهدين، ورهبةً في نفوس الكافرين، وأمَرَ أن يكونَ بتاج الشَّرَف ليأخُذ بمخنَّق بَحْرها ويكونَ كالطالع بينَ سَحْرِها ونَحْرِها، فقامت في أدنى مدّة أشخاصُ الأسوار، ومَثُلت مواضعُ الدِّيار، وكمُل القصرُ الكبير

بمجالسه المشرِفة على إشبيلِيَةَ وما وَالاها من البِطاح والأنظار، إلى مُنتهَى نظَر الأبصار، وكان بناؤه ذلك كلُّه من أضخم ما عُمِل وفوقَ ما أُمِّل، والمنصورُ بالحضرة يتشوَّفُ إلى أنبائه ويُوالي السؤالَ عمّا يتزيَّدُ في بنائه، حتّى بَرَّح به الشّوقُ إلى التشفِّي من صفاته، وإلى معاينة كيفيّة الوَضْع ببيانِه، فوجَّه عن الناظر فيه فوصَل إليه وعرَّفه بكيفيته، فزاد شوقُ المنصور له وسمَّاه بحصن الفَرَج[1]. ولقد كان قبلَه بنظَر إشبيلِيَة حصنٌ يسمَّى بهذا الاسم، قال صالحُ بن سيِّد: وفي سنة اثنتين وسبعينَ وأربع مئة جدَّد المعتمِدُ على الله حِصنَ الفَرَج.

وفي هذه السنة: كان ظهورُ الأشَلِّ ببلد الزّاب، وذلك أنّ هذا الأشَلَّ قام ببلد الزّاب ودَعَا لنفسِه واجتمع له شِرْذِمةٌ من العَرَب، وبايَعَه كثيرٌ من أهل تلك الجهات والتأَمَ عليه أشتاتٌ من الناس من الجبال المجاورة له ومن كلِّ صنف من الغَوْغاء والسِّفلة والغُرباء، فاستعجَل أمرَه واشتعل جَمْرُه، وشاع في تلك البلاد ذكرُه، وكان يُلقي لأصحابِه بالغايات لزَعْمِه من الحِدْثان وضروب غير معقولة من الـهَذَيان، بأنه موعودٌ بأمرِه، وأنّ الأراجيزَ نَصَّت على خبرِه.

وتوالَتْ على المنصور أنباؤه، وكثُر في تلك البلاد ضرَرُه واعتداؤه، فخوطِب السيِّدُ أبو زكريّا صاحبُ بِجَاية بالتوصُّل في كل حال إليه، والاحتيال بكلِّ وَجْه يسَعُه الإمكانُ عليه، فعَقَد السيِّدُ عسكرَ بِجاية وجهاتِها وخَرج مُتَحسِّسًا لأخبارِه ومتقصِّيًا لآثارِه.

واجتمعت أخلاطٌ من عَرَب تلك الجهات ومُنافقيها، وهَمُّوا بمحاربة السيِّد أبي زكريّا وأكلِه، وطمِعوا في انتهاب عسكره وفَلِّه، وهو يُداريهم بحزامته وشهامتِه، ويَصُول عليهم بنَجْدتِه وصَرامتِه، وقَلِق مَن كان معَه من الموحِّدينَ والأجناد، فتعِبَ من التوغُّل في تلك الصَّحارى والبلاد، ودَسَّ السيّدُ أثناءَ ذلك عيونًا يتجسَّسونَ أخبارَ الأشَلِّ المذكور ومكانَ استقرارِه، ومن استَند من أنجاد القبائل في جوارِه، فتفرَّقوا في تلك الجهات وضَرَب لهم بالإياب إلى ميقات، وبقيَ معَ مجموع العَرَب يُراودُهم في التمكين من الأشَلّ المذكور ويَعِدُهم بالثّواب على ذلك معَ الأجرِ المذخور، وهم يمحُلونَ له أمرَه ويُنكِرونَ كونَه، وقد طمِعوا في أكل عسكره والغَدْر به وكشْفِ

---

(١) المعجب ٣٦٩-٣٧٠.

وجوهِهم في محاربته، والناسُ قد وجَدوا في أنفُسِهم خِيفةً منهم وتوقَّعوا غدرَهم المذكورَ عنهم.

وفي أثناء ذلك قَفَلت ثقاتُ السيِّد الموجَّهونَ بخبر الأشَلّ وتعيين مكانه، وبصفتِه والوقوف على عيانِه، وكيف يختصُّ أحَد الرّسُل حتّى توصَّلَ إليه وهو في مجلسه، على هيئتِه من لُبْس ثياب فاخرة، معتَمٌّ بعمامةٍ خضراء وسيف محَلًّى موضوع بينَ يدَيْه، وقد طاف به قومٌ من شِيعتِه وهو يحدِّثُهم بلسان حضَريّ.

ولـمّا استوفَى السيّدُ ما نَصَّ الرُّسُل من أخبارِه، وعَلِم موضعَ استقراره، أعمَلَ الحيلةَ في ذلك، وجمَع بعضَ العرَب وقال لهم: قدِ امتثلنا ما أُمِرنا به من البحث عن هذا الشّقيّ، والاجتهادِ في التقصِّي عن موضعِه الخَفِيّ، وقد أبْلَيْنا عُذرًا في ذلك، وشهادتُكم كافيةٌ إنِ احتيجَ إليها هنالك، وقد ظهَرَ من قبائِلكم جموعٌ وافرة، ووجوهٌ في النَّجابة ظاهرة، لو عَلِم الأميرُ بمكانِكم، لَزاد في إحسانِكم، واستَجلبَ كثيرًا من أعيانِكم، ولكنْ نحن قد شرَعْنا في الإياب، وسُرعةِ الانقلاب. فمَن وصَلَنا منكم عرَّفْنا بمكانه، ونبَّهْنا عن عظيم شانِه، فأظهَروا على هذا الكلام شُكرَه وأعظموه قدرَه، وهم قد نوَوْا غَدْرَه، فأخَذ السيّدُ بالحَزْم، ووَعَد جميعَهم للحضور للرحلة معَه من الغد.

ولـمّا جَنَّ اللّيل أسرى السيّدُ ليلتَه حتّى أصبح على مقرُبة من قلعة بني حَمّاد من عمَل بِجَاية، ثم أغذَّ السّيرَ حتى دخَل القلعةَ بجُملتِه، وسائر محلّتِه، وأصبح العرَبُ نادمينَ على فَواتِه طامعينَ في إنجاز ما مَنّاهم به من عِداتِه.

وبعدَ استقرارِ السيّد بالقلعة وأخْذِ مَأْمنِه من عاديتِهم، وبُعدِ عسكرِه من غارتِهم، خاطَبَ أعيانَهم، ووجوهَ أنجادِهم، والمترعرِعينَ من أولادِهم، لإنجاز وَعْدِه لهم على زَعْمِهم في إرادتهم.

ولـمّا وَصَلوا إلى القلعة احتَفل في إطعامِهم، فلمّا تمكَّنوا أُغلِقت أبوابُ المدينة وقَبَض على جماعة من أولادِهم واعتُقلوا بالحديد، ثم جمَعَ السيّدُ آباءهم وعشائرَهم وأقسم لهم بالأيْمان الـمُغلَّظة أنه لا يحُلّ وِثاقَهم إلا بإحضار الأشَلّ أو رأسِه أو تُحملُ رؤوسُهم مكانَ رأس المذكور، إلى أمير المؤمنين المنصور، فقالت العرب: ما نُسلِّمُ جارَنا ولا نغدِرُ دخيلَنا ولو أتَى القَتْلُ على جميعِنا، ومَضَوْا لسبيلهم، فقام نساءُ العرب

المذكورين من أُمّهات الأولادِ المسجونين وقالوا لآباء أبنائهم وعشائرهم: أيُقتَلُ أبناؤنا برجُل منافق ذي حِيَل سارق؟ تبًّا لِما رأيتُموه وبئس ما فعلتُموه، وطَرَدوا آباءهم من بيوتهم، فاختلفتِ القبائلُ على الأشَلّ وأراد الفِرارَ فهجَمَت طائفةٌ من عشائر المتّفقينَ عليه وعلى وزيره وأسَرَوْا به حتّى أوصَلوه إلى القلعة، فأحسَنَ السيّدُ إلى الواصِلينَ به وأخلَى سبيلَ المعتقَلينَ من أجلِه وضَرَب عنُقَه وعُنقَ صاحبِه واحتَمل رأسَه إلى بِجَاية فعُلِّق على بابِها معَ ذراعِه وعَضُدِه وطَهُرت تلك النواحي من عاديته، والأمرُ لله سبحانَه في خليقتِه.

وفي سنة تسعين وخمس مئة: ورَدَ على المنصور مخاطَباتُ الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص من إفريقيّة باستفحال العدوِّ بها وانبساط العَرَب معَه وفسادِها، فانحفَزَ في الحركة إلى رِباط الفتح مصمِّمًا على قَصْد إفريقيّة، وقَوِي الرأيُ والتأهُّبُ إلى العَوْد إليها والقدوم عليها، ووَجَّه من رِباط الفتح عن وُلاة الأندَلس ليُوادعوا على أشغالهم وكافّة أعمالهم، فلمّا وصَلوا إليه وقدِ انصَرمت مدةُ صُلح ملك قَشْتالةَ فبعَثَ المذكورُ اللَّعين إلى جميع ثغور المسلمينَ المجاورة له ليُنذِرَهم ويُحذِّرَهم، وقد كان وَجَّه رُسُلَه إلى عَقْد المهادنة، وأظهَرَ بعدَه الـمَكيدةَ، فأعقَبَه اللهُ سُوءَ غَدْرِه وأحاق به وبالَ أمرِه نُكرًا.

واغترَّ الكافرُ وتأنَّس بإشاعة الحركة إلى إفريقيّة، فجَمَع اللّعينُ أنجادَه وأقماطَه وقُوّادَه، وضَرَب لهم ميقاتًا ارتَبطوا عليه في شنِّ الغارات، فضَربوا بلادَ المسلمينَ شرقًا وغربًا، وعمَّت الفُرقة العاديةُ الواصلةُ إلى إشبيلِيَة جميعَ جهاتها، وانتشَرت على أنظارها وجنَباتها، فورَدَت هذه الأنباءُ الشّنيعة والأحوالُ الفظيعة على المنصور وهو على قَدَم الحركة فأنفَذَ وُلاةَ الأندَلس عندَ جَوازِه إلى عُدوةِ سَلا وتصميمِه على طريق الشرق، ووصَل مِكْناسةَ وأخبارُ عَيْث العدوِّ في الأندَلس تشنُع، ومُخاطَباتُ أهل ثغورِها تُجمَع، فأمَرَ المنصورُ ولاةَ إفريقيّةَ بمدود الأموال وكتُبه الكافيةِ عن الكتائب والأبطال، وصَرفَ وجْهَ الحركة من مِكْناسةَ إلى بلاد الأندَلس، فاهتزَّت الجبال وتلك الجهات ونَشِط الناسُ وقَوِي حِرصُهم على الغزو لقُرب بلاد الأندَلس وتأتّي الـمُؤَن بها والأقوات.

وفي سنة إحدى وتسعينَ وخمس مئة: كان إجازةُ أمير المؤمنينَ أبي يوسُف يعقوبَ المنصور البحرَ إلى الأندَلس، وذلك في يوم الخميس الـمُوفي عشرينَ من جُمادى الآخِرة، ولـمّا دَنا من البحرِ تسابَقَ سَرَعانُ الناس بالجَواز إلى لقائه من المتشوِّفينَ والمستبشرين.

اختصارُ الخبر: من يوم إجازة أمير المؤمنينَ المنصور إلى يوم خروجِه من إشبيلِيَة إلى غَزاتِه[1]

كان إجازةُ البحر في اليوم المذكور، ورَوَّح بطَرِيفَ يومًا واحدًا، وواصَل المشيَ من طَرِيفَ، ولقِيَه والي إشبيلِيَة معَ وجوه الناس من أهلها، ثم قَفَا متقدِّمًا بِرَسْم إعداد ديار النّزول، وما يجبُ النظرُ فيه للوصُول. ولـمّا وصَل المنصورُ إلى إشبيلِيَة نزَلَ بظاهر بُحيرة بابِ[2] جَهْوَر، فخَرج الملأُ من أهل البلد إليه، برَسْم السّلام عليه، من الصّبي الـمُحتلم إلى الشّيخ الهَرِم، وغُصَّ بهم الفضاء وضاق بهمُ المتّسَع، ثم أُمِرَ الشّيخُ أبو بكر ابنُ زُهر ومَن كان يستعينُ به من أشياخ البلد لتنفيذ البراءات في الدِّيار المنزَلة، ثم أذِنَ بعدَ الظهر بالدّخول للسادات والمتغيِّب من سائر الطبقات، وذلك يومَ الخميس السابع والعشرين من السنة، وركِبَ من الغدِ ومشَى إلى حصن الفَرَج فأُعجِب بصُورة وَصْفه واحتفال بنائه، ورجَع من حينِه فمشَى إلى الجامع الكبير، وخَطَب الخطيب أبو عليّ ابنُ حَجّاج بسُورة (ق)، وهي أولُ جُمُعة قُرئ بها في الأندَلس من السّنة.

ثُم خَرج يومَ السّبت وأمَرَ بالتمييز فركِبَ جميعُ العساكر بالعُدَد الكاملة والزِّيِّ الفاخر. ولـمّا كمُلت مَراكبُهم واستوفَى بالانتظام راجلُهم وراكبُهم، ركِبَ المنصورُ ومشَى معَ الكُتّاب والوُزراء ومَن حضَر من القَرابةِ والأبناء، وطاف عليهم في مواضعِهم صفًّا صفًّا وقَبِيلًا قبيلًا، وشكَر استيفاءهم واستعدادَهم شُكرًا جزيلًا، وخَرجت الـمُرَتَّباتُ والبركات، وانتفَرت الحشودُ المعتادة، وسائرُ الجيوش المنقادة.

---

(١) في ب: «غزواته»، وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٢) سقطت الكلمة من ب.

ذكرُ غَزْوة المنصور والتأهُّب للعدوِّ يومَ الفتح المشهور بموضع الأرك[1] المذكور ووَصْفُ الحال في الحربِ والقتال[2]

وذلك أنه لـمّا استوفَى المنصورُ من أشغاله ما أمَّله، وأتمَّ في كلِّ غَرَض من مذاهبِهِ ومقاصِدِ عملِه، خَرج لهذه الغَزْوة الميمونة بالأرك صَبِيحةَ يوم الخميس الحاديَ عشَرَ من رجَب من سنة إحدى المذكورة، وتَمادى مسيرُه على طريق النّهر الأعظَم، ووصَل قُرطُبة يومَ الجُمُعة التاسعَ عشَرَ من الشّهر المذكور، وروَّح ثلاثًا، وخَرج يومَ الثلاثاء الثالث والعشرين منه، فضَربت سَرِيّةٌ خَيْل من النّصارى على قلعة رَبَاح وما جاوَرَها ليتجسَّسوا الأخبار، فخَرج إليهم مَن كان بالحِصن فاقتفَوْا آثارَ أعداءِ الله والتحقوا بهم، فكانوا عندَهم كأكلة جائع أو شَرْبة ظمآن، وتركوهم بتلك البِطاح ولائمَ للنُّسور والعُقْبان، فكانت هذه السَّرِيةُ باكورةَ الفتح وتُحفتَه، وتَمادى المشيُ وفي كلِّ يوم بِشارةٌ ومسَرّةٌ من أنبائهم ورَوْعِهم تَتْرى، وأحاديثُ منَ ارتكاسِهم وانتكاسِهم تُتلى وتُقرا، إلى أن تَراءى الجَمْعان، وتظاهَرت النِّيران، ووقَع العِيانُ بالعيان.

ولـمّا نزَل المنصورُ بهذا المنزل الذي أطَلَّ منه على جُموع الكافرينَ ومحَلّاتهم، وعوَّل على غزوِهم من الغدِ ومصارعتِهم، وتوكَّل على الحيِّ الذي قضَى بهلاكهم وإماتتِهم، أمَرَ باجتماع الملأِ من الناس من كلِّ فريق، فأجابوا مُهطِعين على كلِّ طريق.

فلمّا كمُلت جُموعُهم واستقرَّت بهم مجالسُهم، قام في صَدْرِهم الوزيرُ أبو يحيى بن أبي محمد ابن الشّيخ أبي حَفْص وقال بصوت مُسمِع لكلِّ مَن حضَر: يقولُ لكم أميرُ المؤمنين: اغفِروا له، فإنّ هذا موضعُ غُفران، وتَغافَروا فيما بينكم، وطيِّبوا نفوسَكم وأخلِصوا لله نيّاتِكم، فبكى الناسُ وأعظموا ما سَمِعوه من سُلطانهم، وما جَرى إليه من حُسن معاملتهم، ثم قال الجميع: مِن خليفة الله نطلبُ العفوَ والغُفران، وبيُمن نيّته وصِدق طَوِيّتِه نرجو الخيرَ من الرّحمن، وقام أبو عليٍّ القاضي ابنُ حَجّاج وخَطَب خُطبةً

---

(١) الروض المعطار ٢٧.

(٢) ينظر عن وقعة الأرك: الكامل لابن الأثير ١٢/ ١١٣، والمعجب ٣٥٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٢٩-٣٣٠، والاستقصا ٢/ ١٨٩.

بليغةً في التحريض على الجهاد وفضله، والتنبيه على مكانِه وقدرِه، ومَدَّ القولَ في ذلك بما وَسِعه من بيانه. وانفصَل الناسُ وقد تنوَّرت بصائرُهم، وخَلَصت لله ضمائرُهم وسرائرُهم، وقَوِيت أنفسُهم واعتزامُهم، وتضاعَفَت نَجْدتُهم وإقدامُهم، وأمَرَهم الوزيرُ بلباس أسلحتهم والاستعداد من الغُدوِّ والبكور للقاء عدوِّهم، فتَركوا بالمحَلّة الحُمولةَ والأثقال، ومشَى جميعُ العساكر على مُهلتِهم ودنَوْا حتى صاروا من العدوِّ بأوضح مَرْأى، وكانوا منه قابَ قوسَيْن أو أدنى، وأخَذوا مراكزَهم وقدَّموا رجالَهم وترتَّبوا بالصفوف ووقَفوا كالبُنيان المرصوص، والمنصورُ معَ أهل بيته ومَن جَرت عادتُه من القبائل بالتزام ساقتِه من وراء الجميع يشُدُّ ظهورَهم، ويرى ويسمعُ شهودَهم وحضورَهم.

ولـمّا رأى الكفّارُ ما دهَمَهم من جنودِ الله تعالى لم يكنْ لهم بدٌّ من الإبلاء والمدافعة، فهَبَطوا من مركزِهم كاللّيل الدامس والبحرِ الزاخر، أسرابًا تتلو أسرابًا وأمواجًا تعقُبُ أمواجًا، ليس إلّا الصَّهيلُ والضجيج، والحديدُ على وقَع الفجيج، فدُفِعوا حتى انتهَوْا إلى الأعلام، فتوقَّفت كالجبال الراسِيات، فمالوا على الميسَرة فتزحْزَحَ قومٌ من المطَّوِّعة وأخلاطٌ من السُّوقة والرجرجة، فصَعِد غُبارُهم إلى الجوّ، فقال المنصورُ لخاصّته ومَن طاف به: جدِّدوا نيّاتِكم وأحضروا قلوبَكم، ثم تحرَّكَ وحدَه وتركَ ساقتَه على حالها وسار منفردًا من خاصّته مُقدِمًا بشهامتِه ونَجْدته، ومرَّ على الصفوف والقبائل وألقَى إليهم بنفسِه كلامًا وَجيزًا في الهجوم على عدوِّهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقتِه.

ولـمّا وقَعت أعيُنُ الناس عليه ورأَوْا عظيمَ ما وصَل إليه، حَمِيت نفوسُهم وتحرَّكت هِمَمُهم، فحَمَل كلُّ قَبِيل على مَن يليه، ودَفَع كلُّ موكب على مَن يقابلُه من العدوِّ ويلتقيه، وانضمَّت على الكفّارِ الأطناب، وسُدَّت عليهمُ الأبواب، فلم يجدْ أحدٌ منهم حيث يُعرِّج، ولا وجَدوا بابًا للخَلاص يُفرِّج، فالتحَم الجَمْعان، واعترَكَ الفريقان، وحَمِيَ الوَطِيس، والتفّت الأقدامُ والرؤوس، واستُعجمت الأصوات وارتفعَ التمييزُ والالتفات، وخُلِع الكفّارُ عن مراكزِهم، ونَسَخ اللهُ ما أراهم من اغترارِهم فولَّوا الأدبار، وشمِلَهم الإدبار، ورَكِبهم السّيف، وتقسَّمَهم النّهبُ والحَيْف، من ضُحى يوم الأربعاء التاسع من شعبان إلى الزّوال، فانتُهبت محَلّةُ اللّعين على الفَوْر، فلم يُلْفَ لمضاربِها

ولا لشيءٍ من أثاثها خبرٌ على اتساعها وكثرة كُراعِها وحافرِها، ولله الحمدُ والشّكر، وأجْلَت الحربُ عن حصيد من القتلى كالزّرع المحصود والصَّخر[1] المنضود، كابِينَ على الوجوه لغير سُجود، ومُستَلْقينَ على الجُنوب دون هُجود، وكما يُحْشَرونَ يومَ النّشور إذا بُعثِر ما في القبور، مسافةَ فَرْسَخ في فَرْسَخ لا يَكفيهم حَدّ، ولا يَحصُرُهم عَدّ.

قال يوسفُ بن عُمرَ الكاتبُ في تاريخه: كان عددُ القَتلى في هذه الغَزاة زُهاءَ ثلاثينَ ألفًا عبرةً للناظرين وآيةً للسائلين، قال: واستُشهد من المسلمينَ نحوُ الخمس مئة، وأفلَتَ أذْفُونْشُ اللّعين تحتَ حدِّ السِّنان واجتازَ على طُلَيْطُلَةَ لا يَعرُجُ على مكان في نحو عشرينَ فارسًا قد اتَّخذوا اللّيلَ جَمَلًا، وإن رأَوْا غيرَ شيء ظَنُّوه رجُلًا، واعتَصم معظمُ الفَلّ وكلُّ مَن نَجا من المعترَك بحِصن الأرك، فأحدَقَ بهم المسلمون حتى أشرَفوا على الهلاك، فصالَحَ عليهم بيطره بن فراندس اللّعين الـمُوالي للمسلمين بفداء عدَدِهم أُسارى من المسلمين وإخراجِهم من دار الحرب، وبلَغَ عددُ حُصَراء الأرك المذكورينَ خمسةَ آلاف شخص بين صغيرٍ وكبيرٍ ذكرًا وأنثى، فأسعَفَ في ذلك المنصورُ إشفاقًا وحرصًا على استنقاذِ أُسارى المسلمين، وأُخِذت منهم رهائنُ وجَّه بهم إلى إشبيلِيَة ثم إلى رِباط الفتح وسَرَّح الجميعَ منهم، فكانت أعظمَ مكائد الكافرين وخُدَع المشركين.

وكان الناسُ يضربونَ الأمثالَ بوقعة الزّلّاقة ويُعظِّمونَ أمرَها، ولا يَذكُرونَ غيرَها، وفُجِع أكثرُ المسلمين من أهل الأندَلس في الزّلّاقة لأنّ الحربَ دارت عليهم فيها على ابن عَبّاد وأهل الأندلس من قَبْل الفجر إلى أوّل الزّوال، لأنّ لَـمْتُونَةَ خافوا منَ الامتزاج بأهل الأندَلس لكلام قيل أُلقِيَ إليهم في حقِّ ابن عَبّاد، فنزَلوا على نحو الميلَيْن من مُسْلمي الأندَلس.

وغَدَر أذْفُونْشُ اللّعين وتحرَّك في اللّيل وقَصَد مَحَلّةَ ابن عَبّاد فأتَى القتلُ على المسلمينَ حتى ضُحى النهار، ويوسُف بن تاشفينَ بمنزلِه لم يتحرَّك حتى وجَّه إليه المعتمدُ كاتبَه أبا بكر ابنَ القصيرة يُعرِّفُه بهلاك المسلمين، فحينئذٍ تحرَّك إلى مَحَلّة أذْفُونْش فأضرَمَها نارًا وقَتل كلَّ من كان بها، وأضرَم الناسُ في أبنيته وساقتِه وهَبَطَ في ظهرِه وهو يقتحمُ معَ

(١) من هنا إلى قوله: «وكما يحشرون» سقط من ب.

أهل الأندَلس، واستحيا ابنَ عَبّاد وهو مُثخَنٌ بالجراح، وانضمَّت على أذْفُونْش الأطراف وأعيد في مثل الحَلْقة، وخَدَّم السّيفَ فيهم حتّى وقَع اللّيل.

وقيل: إنه كان في ستّينَ ألفًا بينَ فارس وراجل، وذلك في يوم الجُمُعة الثانيَ عشَرَ لرجَب سنةَ تسع وسبعينَ وأربع مئة، ولم يَنْجُ أذْفُونْش إلا في ثلاثةَ عشَرَ فارسًا، وكان لـمّا أخَذ طُلَيْطُلَةَ في سنة ثمانٍ وسبعينَ وأربع مئة اشتدّ أملُه وعَزَم على الهبوط إلى قُرطُبة، حينَ رأى منامةَ الفيل وجَسُر بذلك على الـمُلاقاة فأخزاه اللهُ وأهلَكَه ومن كان معَه، فكانت غزوةُ الزّلّاقة مقسومةَ الثّكل مكدَّرة الصفو. وجاءت هذه الواقعةُ هنيئةَ الموقع عامةَ المسَرّة، كأكلة جائع أو شَرْبة عاطش، فأنسَتْ كلَّ فتح بالأندَلس تقدَّمها، وبقي بأفواه المسلمينَ إلى المهات ذكرُها.

ولـمّا كان هذا الفتحُ الجليل أخَذَ رحمه الله قافلًا إلى إشبيلِيَة والنّصرُ يتهلَّلُ فوقَ جبينِه، والظّفرُ يضحَكُ معَ شِماله ويمينِه، فدخَلها يومَ الثلاثاء السابع والعشرين من شعبانَ المكرَّم سنة إحدى وتسعين وخمس مئة.

ذكرُ استقرارِ المنصور بإشبيلِيَة من حركة غَزْوة الأرك وبعضُ ما كان منَ الأحداث مدّةَ إقامته بها إلى يوم خروجِه عنها إلى حركة الـجَوْف

ولـمّا وصَل المنصورُ إشبيلِيَة ووصَل وفودٌ من سائر بلاده ومُنتهَى طاعتِه بالتّهاني من النَّظم والنّثر، فقال المنصور: الفتحُ أعظمُ من الإطناب في وصفِه، وأمَرَ الكاتبَ أبا الفضل ابنَ أبي الطاهر وأكَّد عليه أن يوجزَ الكَتْبَ في هذا الفتح غايةَ الإيجاز ولا يسلُكَ في العبارة عنه مسلكَ شيءٍ مما تقدَّم من أوصافِ الفتوحات، وأن ينحوَ فيه منحى كَتْب الصحابة رضيَ اللهُ عنهم في فتوحاتهم، فخاطَبَ على ما أُمِر به وطَوى بساطَ الشّعر، ولم يُحفَظْ عن الشعراءِ فيه مقالٌ إلا الكاتبَ الأريب الشاعرَ الـمُجيد أبا العباس الجُراويَّ، فإنه قال فأحسَن ولم تصلْ إليه [من الطويل]:

هُو الفتحُ أعيا وصفُه الـنّظمَ والنّثـرا ... وعمَّت جميعَ المسلمينَ بـه البُـشرى

وأنجَـدَ في الـدنيا وغـار حديثُـهُ ... فراقَتْ بـه حُـسنًا وطابـت بـه نَـشْرا

تـميَّز بالأحجـال والغُـرَر التـي ... أقلُّ سناها يَبهَـرُ الـشمسَ والبَـدْرا

لقد أورَدَ الأذْفـونَشُ شِـيعتَه الـرَّدى ... وساقَهمُ جهلًا إلى البطـشة الكـبرى

حَكـى فعـلَ إبلـيسٍ بأصـحابِه الأُلى ... تـبرَّأ مـنهم حـينَ أورَدَهـم بـدرا

أطارَتْـه شَـدّاتٌ تَـولّى أمامَهـا ... شريـدًا وأنـسَتْه التعـاظُمَ والكفـرا

رأى الموتَ للأبطـال حولَيْـه ينتقـي ... فطـار إلى أقـصى مـصارِعِه ذُعـرا

وقـد أوردَتْـه المـوتَ طعنـةُ ثـائرٍ ... وإن لم يفـارقْ مـن شـقاوتِه العُمْـرا

ولم يبـقَ مَـن أفنـى الزّمـانُ حماتَـهُ ... وجرَّعـه مِـن فَقْـد أنـصارِه صـبرا

أُلـوفٌ غـدَت مأهولـةً بهـمُ الفَـلا ... وأمسَتْ خـلاءً مـنهمُ دورُهـمْ قَفْـرا

ودارَتْ رحَى الهيجا عليهمْ فأصبَحوا ... هَشِيمًا طَحِينًا في مهبِّ الـصَّبا يُـذرى

يطـيرُ بأشـلاءٍ لـهُم كـلُّ قَـشْعمٍ ... فما شئتَ مـن نَسْر غـدا بطنُه قـبرا

فكيف رأى الـمغترُّ عُقبـى اغـترارِهِ ... وكيـف رأى الغـدّارُ في غَيِّـه الغَـدْرا

وكـان يَـرى أقطـارَ أنـدَلسٍ لـهُ ... متـى يَـرْمِ لم يخطـئْ بأسـهُمِه قُطـرا

فـسلّاه يـومَ الأربعـاء عـن الـمُنى ... فـما يَرتجـي مـمّا تملَّكـه شِـبرا

إذا عزلَتْـه الـرّومُ كانـت نَجاتُـهُ ... وقـد أحدقت جمرُ المنايـا بـه غَـدْرا

فتعـسًا لـه مـا دام حيًّـا ولا مُنًّـى ... وكـسرًا لـه مـا دام حيًّـا ولا جَـبْرا

بيُمن الإمام الصالح الـمُصلح الـرِّضَى ... نَضَى سيفَه الإسلامُ فاستأصـلَ الكُفْـرا

فـلا زالَ بالنّـصر الإلهـيِّ يقتـضي ... بشائرَ تُحصي قبـل إحـصائها القَطْـرا

وانبسَط المنصورُ[1] انبساطَ مَن بلَغَ آمالَه وشفَى نفسَه واستأصَلَ أعداءه، وتوسَّع في أعمال البرّ شكرًا لله تعالى، فأكّد العَزْمَ في بناء الجامع الكبير وتتميم مناره، وسرَّح الجموعَ والقبائل والأجنادَ ونبَّههم على أن يكونوا على أُهبةٍ واستعداد لمعاودة الجهاد، وتفرَّغ أثناءَ ذلك للمذاكرة والمناظرة.

---

(١) سقطت من ب.

وفي سنة اثنتين وتسعين وخمس مئة: انتقل المنصورُ إلى حصن الفَرَج بتاج الشَّرف، وكمُل غَرْسُ البُحيرة المحدَثة تحتَه، وأمَرَ بعمَل نواعيرَ على شطِّ النهر تحتَ الحصن لتكونَ تتميمًا لحُسنِه وجمالِه. وفي أثناء ذلك انصرمت مدةُ الشتاء، وأطلَّ زمنُ الحركة لـمُعاودة جهادِ الأعداء، واستنفرَ العمومَ من القبائل من مَنازلها المعلومة لترويجِها، وعُرِّفوا بالاستعداد لتمييز الجموع وتصحيحِها، ووصَل الجميعُ وميِّزت الجيوش فانضمَّت أطرافُ الأشغال، وانصَرم شهرُ آذارَ ونيسان، وحُصِد الزَّرعُ بكل مكان، وحَسُن إلى الغزوِ التَّرحال.

ذكرُ غَزْوةِ المنصورِ المعروفة بسنة طُلَيْطُلَة[1]

ولـمّا أكمل المنصورُ أشغالَه وحشَد جنودَه وميَّز رجالَه، تفاوَض معَ من يجبُ من أهل البصائر بالحروب من حيث يكونُ الدّخولُ إلى الكافر أذْفُونْش في صميم أكبادِه، واستئصال الباقي من طارِفِه وتلادِه، فوقَع النظرُ على تقديم بلاد الجَوْف وتأميل استرجاع ما كان غَلَب عليه اللَّعينُ من بلاد المسلمين، فكانت حركتُه من إشبيلِيَة إلى هذه الغَزاة المذكورة يومَ الاثنين منصَف رجَب الفَرْد سنةَ اثنتين وتسعين المؤرَّخة والسَّعدُ يمهَدُ بينَ يدَيْه مناهجَ التيسير، ويفتحُ له كلَّ مُبهَم ويقرِّبُ كل عسير.

وقدَّم إلى حصن منتانجشَ جماعةً من الأندلسيِّين وهو من المعاقل الشاهقة الارتفاع، المشهورة بالتوعُّر والامتناع، فأحاطت به الجماعةُ المذكورة، ونشَروا عليه الحربَ[2] يومَهم ذلك، ولـمّا كان من الغدِ وصَل المنصورُ إلى الحصن المذكور، فعندَما عايَنَ الأعلاجُ جيوشَه المنصورة، وجموعَه المظفَّرةَ المذكورة، ألقَوْا بيد الاستسلام واعتَلَقوا بحَبْل الإمام، فأُسعِفوا فيما سألوه من الأمان، وأمَرَ القائدَ أبا عبد الله بنَ صَناديدَ[3] بتوصيلهم إلى حيثُ يَأمَنونَ من أنحائهم، وعندَما سار بهم فَرْسخًا من المحَلّة غَشِيهم أوباشٌ من العَرَب فوضَعوا فيهم الحديد واستأْصَلوهم قتلًا إلى آخِرهم وسَبَوْا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٢/ ١١٥.

(٢) سقطت من ب.

(٣) له ذكر في الاستقصا ٢/ ١٨٧.

ما كان معَهم من النِّساء والذُّرِّية، فغَضِب أميرُ المؤمنين لاجتراءِ أولئك الأَرْذَلين وجهلِهم بعهود المسلمين، فسَجَن منهم مَن عثَر عليه، وجمَعَ النِّساءَ والذُّرِّية وأوصَلَهم القائدُ المذكورُ إلى أوائل بلادهم، وخَلَت أيضًا مدينةُ تَرْجَالَةَ[1] دون مُنازلة، وهبَّت ريحُ الفتح في تلك الكُوَر المأخوذة والأقطار، وبلَغَ الرُّعبُ فيهم ما لا تَبلُغُه سُمُر الأَسَل وبِيضُ الشِّفار، وأتَى عليهم الاستئصالُ والجلاءُ بالاضطرار، وقَنِعوا من السلامة بالفِرار.

واصْطكَّت في هذه الحصون المذكورة دعوةُ الإسلام، وتعوَّضت في أسبوع واحد من مِلّة الكُفر بشريعة محمدٍ عليه السلام. وتَمادى العملُ في الاستئصال والتخريب على هذا الترتيب، إلى مدينة طَلَبِيرةَ أكبرِ قواعد طُلَيْطُلة وأسراها، وأعظمِها منَعةً وأعلاها، فأمَرَ المنصورُ باستئصالها، وأُلحقت من التخريبِ والانتهاب بأمثالِـها.

ومرَّ كالسَّيل الجاري والبحر الزاخر حتّى حَلَّ بساحة طُلَيْطُلة فَساءَ صباحُ المنذَرين، فبرَّز عليها تبريزًا أذهَلَ عقولَ الكافرين، ولم يُعهَدْ ظهورُه عليها في مدة الملوك المتقدِّمين، وتقسَّمت الجيوشُ على جنَباتها، وشُنَّت الغاراتُ على سائر جِهاتها، وأقام عليها أسبوعًا وأذْفُونْش اللّعينُ بأطراف بلاده يتأوَّهُ تأوُّهَ المفؤود، ما تنقضي عَبَراتُه، ولا تتمُّ زَفَراتُه.

ولـمّا قضَت نفسُ المنصور من هذه الوِجهة أوطارَها، وطوى هذه الأقاليمَ طيَّ السِّجِلِّ ومحَى آثارَها، ووفَّى حقوقَ الجهاد حقَّها وادّخارَها، أخَذ في القفول والإياب، وسُرعة الرَّجعة وحُسن الانقلاب، منصورَ الأعلام، ناصرَ الإسلام، فقال أبو العباس الجُراويُّ من قصيدة طويلة أولُها [من مخلّع البسيط]:

قـد أصـلِيَتْ نارَهـا العُـداةُ — وأُنجِـزَتْ فـيهمُ العِـداتُ
وعمَّهـم بالـدمارِ يـومٌ — تقـصرُ عـن وصـفِه الـرُّواةُ
في مـشهدٍ لا تـزالُ تُـتْلى — آياتُـه وهْـي بيِّنـاتُ
فـتحٌ مفاتيحُـهُ الـمَواضي — والعزَمـاتُ المؤيَّـداتُ

---

(1) الروض المعطار ١٣٣، وفي معجم البلدان: «تُرجيلة».

رَدَّت حِمى الفنْش مُستباحًا ... بِيضٌ من الهندِ مُرهَفاتُ

ذَلُّوا لأمر الإله قسرًا ... وهم أُولو نَجْدةٍ أُباةُ

وغرَّقت جمعَهم بحارٌ ... أمواجُها الخيلُ والكُماةُ

رأَوْا لحزب الإله صبرًا ... والموتُ حَفَّت به الجهاتُ

فحاولوا منهمُ انفلاتًا[1] ... وليس للخائن انفلاتُ

فلا تسَلْ عن بناتِ ماءٍ ... إن صَرْصَرت حولَها البُزاةُ

وفي سنة ثلاثٍ وتسعينَ وخمس مئة: استقرَّ المنصورُ بحضرة إشبيلِيَة لتفقُّد أشغاله، وتكشُّفه عن خُدّامِه وعُمّالِه، وعهدُ الخروج عنها إلى الغَزاة الثالثة، وذلك أنه لـمّا وصَلَ المنصورُ من هذه الغَزاة الثانية وتدويخ البلدان، وكمَّل التضييفَ للجيوش والإحسان، تفرَّغ لتفقُّد أشغالِه وعُمّاله، وربّما كان قد أُشعِر بتفريط ومُداهنة فأمَرَ بالكشفِ عن الأشغال والبحث عن دقائق الأعمال، فبدَأَ بمُحاسبة أبي سُليمانَ داود بن أبي داود وتأخيرِه، وكان أميرُ المؤمنين المنصورُ قد رُمِي له في طريق الغَزْو بشعرٍ في المذكور [من الطويل]:

تنبَّهْ أميرَ المؤمنينَ لحادثٍ ... فأنت إمامُ العدل فينا وقدوتُهْ

بلادُك لا ترجو سواكَ لنظرةٍ ... وداودُ قد أفنى البلادَ وإخوتُهْ

ذكرُ نَكْبة داودَ بن أبي داود

فأبرَزَ لمحاسبته أبا محمد عبدَ الله بن يحيى وأبا عبد الله ابنَ الكاتب، وقد كان تحتَ نظرِهما من كُتّاب الجهات نحوَ خمسينَ كاتبًا، فأقاموا في نَسْخ وتقييد وتبييض وتسويد، وإكبابٍ على بحث وتنقيب، وتصديق بعض وتكذيب، وفي كلِّ حين يَسألُ المنصورُ عن كيفيّة الأشغال، وعمّا يُبرِزُه الحقُّ من وجوه الأعمال، وتَمادى العملُ على هذا الأسلوب مدةً من ستة أشهر حتى تمحَّصتِ الأعمال، وثبَتَ الحقُّ وارتفع المحال، وبُسِط لأبي سُليمانَ وجْهُ العُذر وأُبيحَ له إثباتُ ما شاء في عمَلِه بما يصحُّ في كلِّ

(١) في ب: «انقلابًا»، وهو بمعنى.

الأحوال، فتعيَّن عليه بعدَ الرِّفق والألطاف، والتمشية على طريق الإنصاف، جملةٌ من المال في خاصّتِه ومئة وخمسونَ ألفًا أو نحوُها في عملِه، فاستُصفيَتْ أحوالُه وأموالُه، ولم يُكشَفْ له سَتْر ولا امتُحن أهلُه ولا عِيالُه، حتى عُفيَ عنه.

وفي هذه المدّة أيضًا حُوسبَ أبو عليٍّ عُمرُ بن أيوبَ على ما كان تحتَ نظَرِه وفي اختزانِه من أموال النَّفقات والموقَفِ عندَه من سائر المرتَّبات، فوقَفَ عليه مالٌ جَسِيم واستُفهِمَ عنه فلم يوجَدْ له جواب، فضُمَّ ديونُه وجُمع أطرافُه وجُمع نحوُ الخمسةَ عشَرَ ألفَ دينار فقُبِضت منه وطُلب باستيفاءِ الباقي فعجَزَ عنه فاعتُقل معَ أبي سليمان حتى تدارَكَهما عفوُ أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة: قُلِّد أبو زيد بن يُوجَّان[1] أشغالَ البَرَّيْنِ من الأعمال العَلِيّة والأشغال السُّلطانية والوِزارة وما يتعلَّق بها من أشغال الموحِّدين ومُلازمة الخِدمة، فاستقلَّ بذلك كلِّه استقلالًا ظهَرَ به صَلاحُ الأحوال وترتيبُ الأشغال وتوفيرُ الـمَجابي واجتماعُ الأموال، وقدَّم أبا القاسم ابن نُصَيْر على الإشراف على عمَل إشبيلِيَة.

وفي هذه السنة: قُدِّم يوسُفُ بن عُمرَ الكاتب المؤرِّخ بعدَ انسلاخه عن خدمة السادات بني السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن لتصيير ما كان يشتغلُ لهم به ويَنطوي عليه وعلى المستخلَص بالشَّرف ومدينة لَبْلة وعلى السِّهام المنزوعة من أيدي الناس، وتقييد ما يَراه من مصالحِها.

ذكرُ حركة المنصور إلى الغَزاة الثالثة وهي آخِرُ غَزواتِه من عمُرِه وآخِرُ جهاد استوفَى فيه عظيمَ أجرِه

ولـمّا استوفَى بإشبيلِيَة من أشغالِه وانجَلَتْ غَمْرةُ الشتاء وتمكَّن فصلُ الربيع، عيَّن الخليفةُ شهرَ الوِجهة وصرَّح بالحركة، فترادَفَ الناسُ بالوصُول من البلاد، واستوفَتِ العساكرُ والأجناد، حتّى ضاقَ بإشبيلِيَة متّسعُها وعجَزت عن تحمُّل الـمُؤَن والأعباء، فضُرِب طبلُ الرّحيل، ونَفَر كافّة الناس من كلِّ قبيل، فكان خُروجُ المنصور

---

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجان الهنتاتي (المعجب ٣٨٨).

من إشبيلِيَة ضُحى يوم الاثنين الرابع والعشرينَ من شهر... [1] من السنة، فنزَلَ بالكَرْم آخِذًا على طريق قُرطُبة، وكانت سنةَ خِصب، فمشَى الناسُ في أطيب عَيْش حتى كان الوصُول إلى قُرطُبة، فدخَلها المنصورُ للاستيطان، وقسَّم الجيوش لانْتجاع الخِصب حيث كان ريثما يقرُب أوانُ التحطُّم [2]، وتمكينِ وجود الأقوات في بلاد الروم.

وفي هذه السنة: نُكب القاضي أبو الوليد ابنُ رُشد الحفيدُ [3]، وذلك أنه كان نشَأَ بينَه وبينَ أهل قُرطُبَةَ قديمًا وَحْشةٌ أحدثتها أسبابُ المحاسَدة، فانتَدب الطالبونَ لسَعيٍ أشياءَ عليه في تواليفِه تأوَّلوا الخروجَ فيها عن سَنَن الشّريعة وإيثارَه فيها لحُكم الطبيعة، وحشَروا منها ألفاظًا عديدة، وفصُولًا ربّما كانت غيرَ سديدة، فجُمعت في أوراق، وقيل: إنّ بعضَها أُلفِيَ بخطِّه، ومشَى الرافعونَ إلى مَرّاكُش سنةَ إحدى وتسعين، فشُغِل عن الوقوف عليها والالتفات إليها لِـما كان الحالُ بسببِله منَ الاستعداد، والنظر في مَهمّاتِ الجهاد، فنكَص الطالبونَ على أعقابِهم، وقَنِعوا بسُرعة إيابِهم.

ولـمّا كان هذا التلوُّم من المنصور بقُرطُبة وامتدّ بها أمدُ الإقامة وأنِسَ الناسُ لمجالس المذاكرة، تجدَّدت للطالبينَ آمالُهم، وقوِيَ تألُّفُهم واسترسالُـهم، فأدلَوْا بتلك الأُلْقِيات، وأوضَحوا ما احتَجَنوه من شَنيع الـهَفَوات، الماحية لأبي الوليد كثيرًا من الحَسَنات، فلمّا نُظِرت وتؤوِّلت خَرجت بما دَلّت عليه أسوأَ مخرج، وأعرَبت عن سُوءِ كلِّ منهج، فلم يمكنِ المنصورَ عندَ اتّفاق الطلبة إلا المدافعةُ عن شريعة الإسلام، والقصدُ لسنّة الرسُول عليه السلام، فأمَرَ المنصورُ بحَبْس أبي الوليد، وتفرَّق تلاميذُه أيدي سبا، وطَلَبوا نفَقًا في الأرض أو سُلّمًا في السما، وبعدَ ذلك غُفِر لأبي الوليد واستُدعي إلى الحضرة وتوفِّي بها.

ولـمّا بلَغَ المنصورُ بقُرطُبَةَ مرادَه، وأحكَمَ تدبيرَه وأكمل استعدادَه، تحرَّك رحمه الله على أيمَن الأقدار، ومساعدة من خدمة اللّيل والنهار، وأخَذ على طريق طَلَبيرةَ

---

(١) بياض في النسخ بقدر كلمة.

(٢) التحطم: يباس المزروعات بحيث تصبح جاهزة للحصّاد.

(٣) تنظر نكبته في المعجب ٣٨٤-٣٨٥ وتاريخ الإسلام ١٢/ ١٠٦٠-١٠٦١، وهي مذكورة في مصادر ترجمته، وينظر سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٠٧ بتحقيقنا.

وقد كان أذْفُونْشُ اللَّعين، عندَ إشراف المنصور على بلادِه بعساكر المسلمين، قدَّم رُسُلَه في طلب الـمُهادنة والاستسلام، والوقوف عندَ الأمر العليِّ والالتزام، فنَظَر المنصورُ بنُور التوفيق والرّشاد ألّا يحُلَّ ما انعقَد عليه العزمُ من صريمةِ الغَزْو والجهاد، فأصرَفَ رسُلَه من غير جواب، إلا انتظارَ سِنان وصارم قضاب.

وتَمادى المشيُ على هذا الأسلوب، وعلى ما أمَّل من المرغوب، حتّى كان الإلمامُ بطُلَيْطُلة فغَشِيَها أعظمُ مما تقدَّم منَ الانتهاك والانتهاب، بالاستئصال والإتلاف والإذهاب، ثم اتّصلت الأنباء أنّ الكافرَ البَرْشَلونيَّ أمدَّ أذْفُونْشَ برجالِه وأبطالِه، وهم بحِصن مَجْرِيط يقدِّمونَ ويؤخِّرون، ويخوضُونَ فيما لا يفعلون، فقَصَد المنصورُ إليهم وصمَّم نحوَهم تصميمَ الواثق بالعليِّ الكبير رجاءَ أن تزِلَّ أقدامُهم، وعسى أن يحرِّكَهم حِمامُهم، وعندَما أشرَفَ المسلمونَ على الحِصن المذكور، وأحدَقوا به إحداقَ الهالاتِ بالبدور، وأكثَروا التهليلَ والتكبير والتعظيمَ للعليِّ الكبير، فكادت تنصدعُ لصيحتِهم أكبادُ الصخور، ويهتزُّ لصَكّتها رميمُ أهل القبور، فعند ذلك انصَدعت جموعُ أذْفُونْش وأسلَمَه أحلافُه وجَعل يتعلّق بجباله، لـحُرَقِه وأوجالِه.

ولـمّا بلَغَ المنصورُ على حصن مَجْرِيط فوقَ ما أمَّل من القصود، وضَعْضَعت صكّةُ وَطْئه قاسياتِ القلوب ومزَّقت فَلَّ الكافرين من الحشودِ والجنود، وعَلِم الكافرُ أنه لا يَملِك من أمرِه فتيلًا، ولا يحاولُ في كشف ما أنزَلَ اللهُ سبحانه متصرَّفًا ولا تحويلًا، استقبَل المنصورُ بحركته وَجْهَ الشّرق فأخَذ من حصن مَجْرِيطَ على وادي الحِجارة في منازلَ وربوع، وأشجارٍ وزروع، فمشَى العملُ فيها على ما تقدَّم من الترتيب في الاستئصال والتخريب.

ولـمّا حلَّت العساكر بساحتِها وانبسَطوا على جنَباتها، تَسابقَ بعضُ الناس إلى البلد، وقد كان الكافرُ شحَنَها بجملة رجالِه وكُماتِه، وأهل الثِّقة عندَه من حُماتِه، فخَرجوا إلى الطائشة من أتباع المحَلّة وسوادِهم، فظَهَروا عليهم في طرادِهم، حتّى تَوالى السابقونَ فأكبُّوهم على أذقانِهم وأورَدوهم بينَ قتيل وجَريح في أنقابِهم وأكنافِهم.

ولـمّا كان من الغدِ أخَذ الناسُ أُهبتَهم للتبريز، ووقَفوا عليهم بالقبائل على مراتبِ التمييز، فبهت الكافر من ذلك الملأ الحضور، ويئسوا من السّلامة كما يئس الكفّارُ

من أصحابِ القبور، فروَّح بالوادي المذكور ريثما خاطَبَ البلاد وبشَّر بكيفية هذه الغزوة جميعَ العباد، ثم رحَل حتّى وصَل قُرطُبة فختَم الجهادَ بالحضور بجامع قُرطُبة لخَتْم كتابِ الله ليلةَ سبع وعشرينَ لرمضان، ثم رحَل منها ودخَل إشبيلِيَة صَدْرَ شوّال[1] من العام.

ولـمّا استقرَّ المنصورُ بإشبيلِيَة بعدَ هذه الغَزْوة الثالثة أخَذ في تجديد أعمال البِرّ وبث الصَّدَقات في السرِّ، وأكّد النظرَ في تتميم ما بقيَ بالجامع المكرَّم من الأطراف وإكمال فحل المنار، وانتقل إلى حصن الفَرَج بقيّةَ فصل الـمَصِيف فتمادى سُكناه به ورأى حُسنَ إشرافه واعتلائه ورِقّةَ هوائه، ثم انتَقل منه إلى مدينة إشبيلِيَة وبينَ يدَيْه أكثرُ أهل الدولة وحِمَاءِ القَرابة، ولم يُقِمْ بعدَ هذا الانتقال إلّا نحوَ أربعين يومًا ثم تحرَّكَ إلى حضرته.

ثم كانت سنةُ أربع وتسعينَ وخمس مئة، ففيها: تحرَّكَ المنصورُ من الأندَلس إلى بَرِّ العُدوة، وهي كانت آخرَ حركاتِه رحمه الله.

ولـمّا رأت ملوكُ الرّوم أنّ بلادَها ورجالَها قد أتَى عليها الاستئصالُ والاصطلام، وأنْ لا نَجاةَ لها إلّا الرغبةُ في الاستسلام، وجَّهوا أرسالَهم في طلب الصُّلح على ما عُهِد من شروط الأحكام، فأُسعِفوا فيه على حُكم شريعة الإسلام[2].

ثم شَرعَ في تثقيف البلاد، وشدِّها بثقات الأنجاد، وقدَّم عليها الوُلاةَ والعُمّال، فقدَّم على إشبيلِيَة أبا زيد ابنَ الخليفة، وعلى بَطَلْيَوْس وجهاتِها السيِّدَ أبا الربيع بنَ أبي حفص بن عبد المؤمن، وعلى الغرب أبا عبد الله ابنَ السيِّد أبي حفص بن عبد المؤمن، وقدَّم على الـمَجابي في تلك البلاد، وأمَرَهم بالنصيحة والاجتهاد، وكان خروجُه من إشبيلِيَة في العَشْر الوُسَط من جُمادى الأولى وجَوازُه غُرّةَ جُمادى الأخرى، وأخَذ على طريق فاس وروَّح بها نحوَ عشرين يومًا، واستمرَّت حركتُه إلى الحضرة مَرّاكُش.

وفي هذه السنة: شَرِكَ أبو مروانَ الباجيُّ معَ أبي الحَكَم بن حَجّاج رحمه الله في الخُطبة.

---

(١) في ب: «شعبان»، وهو غلطٌ بيّن.

(٢) الكامل لابن الأثير ١٢/ ١١٦.

وفي سنة خمس وتسعينَ وخمس مئة: أمَرَ المنصورُ بإعذار الأطفال بمَرّاكُش، وأن يُجعل في يدِ كلِّ واحد منهم دينارٌ من الذهب ودرهمٌ من الفضة وحبّةٌ من الفاكهة الخضراء ليشتغلَ بها الطّفلُ عن ألـمِه، ويُصرَفُ الدِّينارُ في مداواته، فكان يذهبُ في ذلك كلِّه فوقَ الألف ألف ما بينَ ذهبٍ وفضّة، فكان هذا من مكارمِه التي لم يسبِقْه أحدٌ إليها من الملوك المتقدِّمين.

ومن فضائله المشهورة في الوجود: ما أمَرَ به من شكلة اليهود، وذلك أنّهم كانوا قد عَلَوْا على زِيِّ المسلمينَ وتشبَّهوا في ملابسِهم بعَيْشِهم وشاركوا الناسَ في الظاهر من أحوالهم، فلا يتميّزونَ من عباد الله المؤمنين، فجَعل لهم صفةً كحدادِ ثَكْلى المسلمين: أردانُ قُمُصِهم طولَ ذراع في عرض ذراع زُرْق وبَرانيسُ زُرق وقَلانسُ زُرق، وذلك في سنة خمس وتسعينَ المؤرَّخة[1].

ولـمّا اتّصل الخبرُ بابن نغرالةَ اللّعين عمل أرجوزتَه التي أولُها [من الرجز]:

لُـبسُ ذا الأزرق لـيس فيـه خـسارا فـافهَموا يـا قـوم هـذي الإشـارا

يَذكُر فيها نُبَذًا ونُكَتًا من الحِدْثان، ويتعرَّضُ فيها للتفاؤل والتطيُّر بهذا الأزرق للسُّلطان.

وفي أثناء ذلك وُعِك المنصورُ وَعكَه الذي توفِّي منه رحمه الله، وربّما قال اللّعينُ اليهوديُّ أرجوزتَه بعدَ وفاة المنصور، وهو الصّحيح.

بعضُ أخبار أميرِ المؤمنينَ المنصور على الـجُملة ووصيّتُه وما ذكَرَ الناسُ في موتِه

كان رحمه الله فاضلًا[2] عاقلًا، حازمًا عازمًا، لا تأخُذُه في الله لَوْمةُ لائم، متواضعًا لله مجاهدًا في سبيل الله، وذُكر عنه أنه لـمّا قَتل أخوَيْه بمدينة سَلَا رأى بعدَ ذلك أباه في منامِه وهما عن يمينِه وشمالِه فقال له: يا يعقوب، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ

(١) المعجب ٣٨٣.

(٢) سقطت من ب.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]، وذَكَر أبو عبد الله بن هاودوشَ في تأليفه، أنّ أبا العباس الجُراويَّ قال للمنصور لـمّا ذَكَر أنّ أخاه كان طامعًا في ولاية إمرة المؤمنين وأن قومًا كانوا يحدِّثونَه ويؤمِّلونَ ذلك له، فقال أبو العباس: يا سيِّدَنا، قد كان عبدُكم، يعني نفسَه، قد أنشَدَكم على جهة التفاؤل لكم بذلك قصيدةً أولُها [من الكامل]:

الـدّهرُ منّـا في مـديحِك أفـصحُ ... فعلى مَ يُتعِبُ نفسَه مـن يمـدَحُ
أنـت المرشَّـحُ للّتـي لا فوقَهـا ... إنّ العظـيمَ لمثلهـا يترشَّـحُ

فقال له: صدقت، كذلك كان، وأمَرَ له بصلة جَزلة في ذلك اليوم.

وأنشَد أبو عبد الله بن هاودوش أبياتًا لنفسِه قالها في ابن قاسم حين وَرَد على المنصور، فلم يُقِمْ أكثرَ من جُمُعة إلا وقُبِض المنصورُ رحمه الله تعالى، وهي [من الطويل]:

إذا أهمَـل الـدّهرُ الفتـى كـان جَـدُّهُ ... لينجـوَ مـمّا نالـهُ غـيرُ عاصـمِ
ومن كـابَرَ الـدّهرَ استعَدّ إلى الـذي ... يجيءُ بـه للحيـن شؤمُ ابـن قاسـمِ
أتـى زائـرًا دارَ الإمـام كـأنّما ... زيارتُـه والـرُّزءُ ضربـةُ لازمِ
أتاهـا فألفاهـا ديـارَ مـسرّةٍ ... فغادَرَهـا المـشؤومُ دارَ مـآتمِ

أخبَرني الشّيخُ الصّالح أبو عليّ صالح بن أبي صالح، قال: حدّثني الفقيهُ أبو محمد عبدُ الرّزاق بن عُمر الساكنُ بموضع أبي خِراش، أنّ جَدَّه أبا عُمر كان من طلبة يعقوبَ المنصور، وحضَر معَه غزوةَ الأرك، قال: لـمّا رجَع المنصورُ من تلك الغزوة ونزَلَ بإيجليز، استدعَى أشياخَ الـمَصامِدة، فقال لهم: لـمَن كان هذا الموضعُ الذي بُنيت فيه مَرّاكُش؟ فقالوا له: نصفُه لهيلانةَ ونصفُه لهزميرة، قال: فاطلبوا لي أصحابَه، فأتَوْه بأقوام، فأعطاهم ثمنَه وحينَئذٍ دخَل مَرّاكُش.

ولـمّا وُعِك رحمه الله الوَعْكَ الذي توفِّي منه منَ اختلاف أهوِية الأقاليم ـ فقد كان بارزًا لهواجِرِها وأمطارِها أزمنةً متَوالية، فخاف على نفسِه الفَوات، وعَلِم أنّ الكلَّ إلى الممات ـ أمَرَ بإحضارِ شيوخ الموحِّدين ووجوه أهل بيتِه من صغارِهم وكبارهم والأعيان

من أهل خَدَمتِه، ودخَل الجميعُ إليه في مجلس مَرَضِه بحَوْمة الصّالحة التي اختَطَّها لنفسِه ولغيرِه، فأخَذ يُذكِّرُهم بعوائد الأمر وفضائل جماعته، ويؤكِّد عليهم التزامَ ما كانوا عليه من طاعته، والعملَ في ذلك كلِّه بكتاب الله وسُنّتِه، والوفاءَ بعهودِه ومواثيقه، وأبلَغَ في الوصيّة والتنبيه والتذكير والاستسلام لقُدرة الله العليِّ الكبير، وما شابَه ذلك من الوصايا النافعة في حقِّ الدِّين والدنيا، والقيام بالأمر والعمَل بما يُخلِّصُ في الأولى والأخرى، وأورَدَ في ذلك من الكلام البليغ ما لم تُورِدْه على الرَّوِيّة الخُطباء ولا بلَغَت كُنهَه الأُدباء، حتّى أجهَشَ الحاضرونَ بالبكاء، وكادت تنفطرُ لوصاياه أكبادُ الأولياء، ولم يترُكْ ذا فضيلة من رجالِه ولا من أهل الدّولة إلّا أشار إليه، ولا صاحبَ مَزِيّة إلّا نبَّه عليه، وانفصَل هذا المجلسُ وقلوبُ مَن حضَرَه قد مُلئت خشوعًا ووفاء، وحمايةً وإبقاء.

وها أنا أذكرُ وصيّتَه على نحوِ ما وقَعَتْ وصحَّحها قرابتُه والمؤرِّخونَ لدولته، وهي هذه، لـمّا أمَرَ رحمةُ الله عليه بدخول أشياخ الموحِّدينَ عليه واستقرَّ بهمُ المجلس، سَكَن بعضَ سُكون وشَخَص ببصَرِه في الناس وعيناه قد تَغَرغَرتا بالدّموع، فسأل الناسَ عن أحوالِـهم وأشغالِـهم ثم قال: أيُّها الناسُ رحِمكم الله، إنّ هذه العِلَلَ والأمراض قد توالَتْ علينا وهدَّت قُوانا وهَتكت جَوارحَنا، وأظنُّ واللهُ أعلمُ بغَيْبِه أنّ هذه العلّةَ آخرُ عهدِنا بهذه الدُّنيا، وأنها القاضيةُ علينا، فانظُروا رحِمكم اللهُ وأعانكم على طاعته مَن تقدِّمونَ على أنفُسِكم وعلى رِقاب المسلمين، فخَنَقَت الناسَ العَبْرة وتشاغَلوا بالبكاء، فتكلَّم الشيخُ أبو موسى بنُ محمد ابن الشّيخ أبي حفص بن عليّ وقال: كأنّكم يا أميرَ المؤمنين يا سيّدَنا تُخرِسُنا بهذا القول: أبعدَ قول قولان، أو فعل فعلان؟ أنتم أميرُ المؤمنين، فإن تُوفِّيتُم فإلى رحمة الله تعالى، والجميعُ صائرونَ ومنقلبونَ إلى ما تصيرونَ إليه، وكنتُم قلَّدتُمونا عهدَكمُ الكريم لسيِّدنا الأميرِ الأجَلّ أبي عبد الله ابنِكم، وما رَبَطْناه في حياتِكم فنحن باقونَ عليه إلى أن تَلحَق نفوسُنا بنفوسِكم، وهو خليفتُكم علينا بعدَكم.

ولـمّا فتحَ الكلامَ الشيخُ أبو موسى وجَدَ الحاضرونَ للكلام فصلًا، فتكلَّم كلُّ واحد على قَدْرِ وُسعِه في الكلام ومعرفتِه في الخطاب، فقال لهم رضي الله عنه: كلُّ ما

ذكرتُم سَمِعنا، ولكنْ ما شغَلَ نفوسَنا شيءٌ سوى صِغَرِ سنِّه، ولله ما خَفِي وللناس ما ظَهَر، وإذا وافقتُم على ما ذكرتُم فادعوا اللهَ تعالى باليُمن والإقبال والتوفيق فيما ادَّعيتُم وعليه عوَّلتُم، واللهُ تعالى يُعينكم ويُعينُه بكم لا ربَّ سواه، وإذا كان بعَوْن الله تعالى فلا تترُكوهُ لرأيِه حتى يتنبَّهَ ويَظهَرَ ويَكمُلَ عقلُه ويفعلُ اللهُ بعدَ هذا ما يشاء. ثم التفَتَ إلى السيِّد أبي الحَسَن وأخيه السيِّد أبي زَيْد ابنَي السيِّد أبي حفص وقال: إنّ هذَيْن الرجُلَيْن لخَيرُ هذه البيتة، كنا قدَّمناهما على إخوانِنا وعلى بلادِنا فلْيكونا على ما عهدِناهما عليه وما رَبَطْنا لهما في حياتِنا.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ الطّلبةُ، يعني السادات، إنْ أمكنَكم ألّا تصرفوا أحدًا منهم فهو الأحقُّ لهم ولكم، وإن أحوجَتْكم الضّرورةُ إلى تصريفِهم فإيّاكم والطَّبل، إيّاكم والطّبل، فإنه ممّا يُخِفُّ الأدمِغة ويحوِّلُ العقول، ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاءِ الأشياخ، يعني أبا زكريّا وأبا محمد عبدَ الواحد، لا تتخيَّلوا أنّ دخولَهم علينا وخروجَهم من عندنا كان غايتُه هذا اليوم، فإنّا لهذا الوقت ادّخَرْناهما، فلْيكونا شيخَيْ محمد وعَوْنًا له على الطاعة والخير، ولا يصدُرْ أمرٌ إلّا عن مَشُورتِهما ورأيِهما.

ثم قال رضي اللهُ عنه: هذا الرجُلُ أبو الغَمْر هو من عُقَلاء الناس وأتمِّهم صيانةً وعَفافًا، وقدِ انقَطع إلينا وعوَّل علينا، فلْتكونوا له أعوانًا وأنصارًا، وكذلك الرجُلُ الغائبُ عنّا الحاضرُ في نفوسِنا محمدُ بن إسحاق، غَرَضُنا فيه أن تُجْرُوه على السَّنَن الذي أجرَيْناه، وتحفَظوا جانبَه وتوَفُّوه حقَّ انقطاعِه إلينا حتّى يَظهَرَ عليه بركةُ انحياشِه إلى هذا الأمر. وإيّاكم والتفريطَ، وإيّاكم والتفريطَ في هذَيْن الرجُلين.

ثم قال رضي اللهُ عنه بعدَ أنْ أطرَقَ ساعةً وعيناه تَذْرِفان دموعًا، وقال: أُوصيكم بتقوى الله تعالى، وبالأيتام واليتيمة، فقال له الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد: يا سيِّدنا يا أميرَ المؤمنين، ومنِ الأيتامُ واليتيمة؟ قال: اليتيمةُ جزيرةُ الأندَلس، والأيتامُ سُكّانُها المسلمون. وإيّاكم والغفلةَ فيما يَصلُح بها من تشييدِ أسوارِها وحماية ثُغورِها وتربية أجنادِها وتوفير رِعْيتِها، ولْتَعْلموا، أعزّكمُ الله، أنه ليس في نفوسِنا أعظمُ من همِّها، ونحن الآنَ قدِ استودَعْناها اللهَ تعالى وحُسنَ نظَرِكم فيها، فانظُروا أمنَ المسلمين وأجْروا الشرائعَ على منهاجِها.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ الأغزاز أمَرْنا لهم بهذه البركة يأخُذونَها، فاترُكوها على ما رتَّبْنا ورَبَطْنا؛ لأنّ الموحِّدينَ لهم سِهام يرجِعونَ إليها، وليس للأغزاز سهام.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ العَرَب تُدارونَهم وتُلاطفونَهم وتُحسِنوا إليهم، ومَن وفَدَ عليكم منهم تعطونه وتحسنون[1] إليه غايةَ الإحسان وتَشغَلونَهم بالحركات ولا تتركونَهم للعُطلةِ والراحات.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهؤلاءِ الطَّلبة ـ يعني طَلَبةَ الحَضَر ـ تجعَلونَ لهم موضِعًا يكونُون بخاصّتِهم يشتغلونَ فيه بالـمُذاكرة حتى يَشِبَّ محمدٌ ويَكمُلَ عقلُه بعقولهم.

ثم قال رضي اللهُ عنه: وهذا الرجُل، أبو القاسم ابنُ بقيّ، كنّا قدَّمناه على القضاء لعِلمنا بعَفافِه وطهارتِه ولضَعْف مَؤُونتِه وقلّة طمَعِه، فلْتترُكوه على أمرِه حتى يقضيَ اللهُ ما يشاء.

ثم قال رضيَ اللهُ عنه: وهذا عبدُ الرحمن بن يُوجَّان، كنّا قد أشغَلْناه بأشغالِنا وصَرَفْناه في أعمالِـنا، فوالله ما رأينا في شُغُله وخِدمته ما يغيِّرُ نفوسَنا عليه، ولا ظَهَر لنا منه طمع، ولم تكنْ عادةَ غيرِه، كذلك، فلْتتركوه على شُغُلِه حتى ينفُذَ أمرُ الله.

وذكَر رضي اللهُ عنه قبائلَ الموحِّدينَ قَبِيلًا بعدَ قَبِيل، وأوصَى بهم قَبِيلًا بعدَ قَبِيل، وبمُزاوَرتِهم، ثم حوَّل وجهَه[2] إلى الحُكّام والأشياخ وقال لهم: تُرانا نذهبُ عنكم إلى دار البقاء ونترُكُكم في دار الفناء، وقد أزَلْنا من أعناقِنا وجعَلْنا في أعناقِكم هذه القِلادة نُطلُبُكم بها بينَ يدَي الله تعالى، فانظُروا من المسلمين وأجرُوا الشرائعَ على منهاجِها وأمْشوا أوامرَ الله سبحانَه وسُنّةَ نبيِّه محمد ﷺ على ما يجب، وإيّاكُم والباطل، وإيّاكم والباطل، واللهُ تعالى يُعينُكم ويُعينُ بكم ويُلهِمُكم لِـما فيه صَلاحُكم، ثُم دَعَا للناس، وخَرج الموحِّدونَ عنه، فلم يرَهُ أحدٌ بعدَ ذلك اليوم رحمةُ الله تعالى عليه.

---

(١) في ب: «تعطوه، وتحسنوا»، واحتساب «مَن» هنا موصولة أفضل، لرفعه الأفعال المضارعة بعده.

(٢) سقطت من ب.

حدّثني الشّيخُ أبو الوفاء عَدَل[1]، قال: حدّثني السيِّد أبو عليّ ابنُ السيِّد أبي موسى ابن المنصور، قال: خَرج سيِّدُنا أميرُ المؤمنينَ المنصور ذاتَ يوم إلى رياضِ الكبير وبينَ يدَيْه جميعُ أولادِهِ الكبيرُ منهم والصغير، وهم في نحو خمسةَ عشَرَ ولدًا، فنَظَر نظرةً إليهم ثم التفَتَ مِرارًا يُكرِّرُهُ عليهم إلى أن قال لهم ولـمَن حضَر معهم: رأيتُ البارحةَ في منامي سيّدَنا أميرَ المؤمنين أبي وهو في هيئتي وعلى شِبه صُورتي هذه التي نحن فيها معَكم وأولادُه معَه كلُّهم كما أنتم أولادي معي، وكلَّمني كيف أُكلِّمُكم فقال لي: يا يعقوب، لـمَ قتلتَ أخاكَ وعمَّك؟ فما كنت...[2] عليَّ مِرارًا، كأنه يُعتِبُني عِتابًا، ثم قال لي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، ثُم بَكى المنصورُ حتّى بَلَّت دموعُه لحيتَه، ولـمّا...[3] يوم بعَثَ عجائزَ كنَّ عندَه صالحاتٍ مقرَّباتٍ إلى أُمِّ أخيه وإلى أُمِّ عمِّه ـ وقيل: إلى زَوْجةِ...[4] أمِّ ...[5] وزوجته، بذكْرِ العجائز المرسَلين إليها بالاعتذار في شأن ابنِها، أو زوجِها، ...[6]،وحَشَمَها أن يَنالوا منهنّ ويُنكِّلوا بهنّ، فتَركَها العجائزُ ولم يروْها وتوجَّهوا إلى أُمِّ السيِّد أبي زيد أخي المنصور، فعندَما سمِعتْ بهنّ أدخَلَتْهنّ عليها فسلَّموا عليها فأكرمتهم وسألتهم عن أميرِ المؤمنين فأبلَغوها سلامَه وعرَّفوها بكلامِه وأنه يرغَبُ منها أن تجعَلَه في حِلٍّ من دَمِ ابنِها، فذكَرتْ خيرًا وقالت: إن كان ابني فهو أخوه، وهُو أعلمُ بما عَمِل في حقِّ المسلمين منّي، وقد وهَبْتُ له مالي في دمِه وغفَرتُ له.

ولـمّا وصَل العجائزُ إلى المنصور عرَّفوه بكلامِها فشَكرَها، وقال: والله لئن أفجَعْناها في ابنِها لَنُرِيَنَّها الأملَ في أخيها، ثُم وَلَّى أخاها ولايةَ فاسَ وأعمالِـها والنظرَ في

---

(١) الضبط من ب، ق.

(٢) بياض في النسخ بقدر أربع كلمات.

(٣) بياض في النسخ قدر نصف سطر.

(٤) بياض في النسخ قدر كلمتين.

(٥) بياض في النسخ قدر كلمة.

(٦) بياض في النسخ قدر كلمتين، لعلها: «وأمرت خدمها».

أشغالِـها، وبعدَ ذلك أَخَّره عنها ونقَلَه إلى ولاية مالَقة فبقيَ واليًا على مالَقَةَ مدةً من ثلاثينَ سنة؛ لأنّ المنصورَ أوصَى عليه ابنَه الناصرَ وأمَرَه أن يُوصيَ عليه لبنيه، فما عُزِل عن تلك الولاية ولا انتَقل عن مالَقَةَ إلى أن توفِّي بها رحِمَهم اللهُ تعالى.

وذكَروا ـ واللهُ أعلم ـ أنه مِن وقتِ تلك الرؤيا التي رَآها المنصورُ، قام بنفسِه أن يَختلعَ عن الـمُلك ويبقَى يَعبُدُ اللهَ حتّى يموت، فقدَّم ابنَه الناصرَ وأوصَى وصَاياه وغاب، وأخبرَ الناسَ بموتِه واللهُ أعلمُ بحقيقة أمرِه.

وأمّا ما ذُكِر عنه من قَتْل أخيه وعمِّه فقد تَضْطرُّ الملوكُ إلى هذا: المأمونُ عبدُ الله العبّاسيُّ: قَتل أخاه محمدًا الأمين، المعتزُّ: قَتل أخاه، عبدُ الله بنُ محمد الأُمَويُّ: قَتل أَخَوَيْه، ابنُ طُولون صاحبُ مِصرَ قَتل أخاه، ابنُ حمدان: قَتل أخاه، إبراهيمُ بن زِيادة الله: قَتل جميعَ إخوتِه، صاحبُ خُراسان نَصْرُ بن أحمد: قَتل أخاه، إبراهيمُ بن حَجّاج صاحبُ إشبيلِيَة: قَتل أخاه محمدًا، عَبّاد بن محمد: قَتل أخاه عبدَ الله ثُم قَتل ابنَه إسماعيلَ الملقَّبَ بالمنصور وكان خليفتَه المرشَّح لمكانِه، سُليمان بن عبد الملِك: قَتل ابنَه سرًّا، عبدُ الله بن محمد الأُمَويُّ بالأندَلس: قَتل ابنَيْه: الـمُطرِّفَ ومحمدًا، عبدُ الرحمن الناصرُ الأُمَويُّ: قَتل ابنَه عبدَ الله بسِعاية الحَكَم وَلَدِه الآخَر ذَبَحه يومَ عيد الأضحى، المنصورُ بن أبي عامر: قَتل وَلَدَه عبدَ الله، أبو جعفرٍ المنصور: قَتل عمَّه عبدَ الله بن علي، الـمُعتضِدُ العبّاسيّ: غَرَّق عمَّه أبا عيسى، الـمُعتضدُ المذكور: قَتل عمَّه الآخَر المعتمِد فقيل: سَمَّه وقيل: بل فتَح فاه عندَ رُقادِه فأفرَغَ في حَلْقِه رصاصًا مُذابًا، عبدُ الله بن الموفَّق: قَتل ابنَ عمِّه الـمُكتفي، الحَكَمُ الربضي قتل عمه سليمان ـ عبد الرحمن الناصر قَتل عمه العاصي، يحيى بن علي بن حَمّود: قَتل [ابنَ][1] أخيه إدريس، زيادةُ الله بنُ الأغلَب: قَتل جميعَ أعمامِه، المنصورُ بن أبي عامر: قَتل ابنَ عمِّه عسكلاجةَ وقَتل أخاه وقَتل ابنَه، وغيرُ هؤلاء.

وسياساتُ الملوك لا تُعرَضُ للامتحان ولا تحتملُ التمحيص والـ...

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق؛ لأنه ابن عمِّه لا عمَّه، كما هو معروف.

...[1] الخبر لوفاة المنصورِ وما ذُكر فيها

قيل: توفِّي، رحمه الله، ليلةَ الجُمُعة الثانيَ عشَرَ لربيع الأوّل سنةَ خمس وتسعينَ وخمس مئة[2] ودُفن بمجلس سُكناه[3] حضرة مَرّاكُش ثم نُقِل منها إلى تينملَ بعد ترتيبِ القُرّاءِ عليه يومًا كاملًا، فتصدَّعت لفَقْدِه الجَهادات، وتفَطَّرت لـمُصابِه القلوبُ القاسيات، وكذّب [الكافّةُ][4] من العامة بوفاته وصارت تَصرُخُ حيث سارت بحياتِه، فآونةً يجعَلونَه مُرابِطًا ببلاد الأندَلس[5] على استكتام، وتارَةً يُثبِتونَه حاجًّا إلى بيت الله الحرام، تمسُّكًا بحبِّه...[6] لقدرِه، واتّباعًا لهوى النفْس في التلذُّذ بذكْرِه.

أخبرني الحاجُّ ابنُ مَرِينةَ قال: أخبرني بعضُ المشارقة في بلادِهم أنّ قبرَ المنصور ملِكِ المغرب في بلاد الشام[7]، وكانت ولا رَيْبَ ولا اختلافَ أنّ المنصورَ رحمه الله، كان رجُلًا صالحًا عالـمًا فاضلًا، وثَبَتَ عندَ قَرابتِه وأهل بيتِه أنّ قبرَه بتينملَ، وقال بعضُهم: إنه هو الذي أخرَجَه المليانيُّ من قبرِه وزَعَم أنه الـمَهْديّ، وذلك في سنة أربع وسبعينَ وست مئة، وهذا ما بَلَغَنا من وفاتِه.

تـمّت أخبارُه.

---

(١) بياض في النسخ قدر كلمة.

(٢) اختلف في وفاته، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أنه توفي في غرة صفر (المعجب ٣٨٥)، وذكر النويري أن وفاته كانت في سابع عشر ربيع الآخر (نهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٨). أما ابن الأثير فذكر أن وفاته في ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل: جمادى الأولى (الكامل ١٢/ ١٤٥).

(٣) من هنا إلى قوله: «وتفطّرت» سقط من ق، ب.

(٤) ما بين الحاصرتين فراغ في ق، ب.

(٥) قوله: «مرابطًا ببلاد الأندلس» فراغ في ق، ب.

(٦) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

(٧) قال ابن خلكان: «ثم حكى لي جمع كبير في سنة ثمانين وست مئة بأن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يُعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين» (وفيات الأعيان ٧/ ١٠)، وقال الذهبي بعد نقله لهذا الخبر: قلت: الأصح موته بالمغرب (تاريخ الإسلام ١٢/ ١٠٦٤).

ذكرُ بيعة أبي عبد الله الناصِر لدين الله
وضَخامةِ دولته ومَهابة سَطْوتِه

نَسَبُه: هو أبو عبد الله محمدُ بن يعقوبَ بن يوسُف بن عبد المؤمن.

بويعَ بيعةَ العامّة بعد أسبوع من وفاة أبيه، وذلك في العَشْر الآخِر من ربيع الأوّل سنةَ خمس وتسعين، واستوسَقت له الخلافةُ بهذه البيعة، وقد كان بويعَ في خلافة أبيه كما تقدَّم ذكرُه، فكانت خلافتُه خمسَ عشْرةَ سنة وأربعةَ أشهر وثمانيةَ عشَرَ يومًا أولُها يومَ الجُمُعة الثالثِ والعشرين لربيع الأوّل من سنة خمس وتسعينَ المذكورة، وآخرُها يومُ الثلاثاء العاشر لشعبانَ المكرَّم سنةَ عشْرٍ وست مئة[1].

ولـمّا استَوْسَقت القبائلُ بالقدوم للمبايعة، وبَلَغت واجبَها من المبادرةِ والمسارعة، وكمُل الوارِدونَ والوفودُ بالوصُول، وقضَى من تمشية السياسة وتهدين المملكة وتطييب النفوس كلَّ مأمول، ووصَلت البيعاتُ من البلاد، وخَرَجت البركاتُ للموحِّدينَ والأجناد، أنشَدَت الشعراءُ في التهنئة بتجديدِ البيعة، فمن ذلك ما قاله أبو العبّاس الجُراويُّ من قصيدة [من الكامل]:

لـهَجَت بـذِكرِك ألسُنُ الـمُدّاحِ ... وسمَت بـذِكرِك رُتبـةُ الأمـداحِ
أزرى نَـداك بكـلِّ بحـرٍ زاخِـرٍ ... هبَّـت عليـه عواصـفُ الأرواحِ
بمحمـد وزرَ الـوَرى وبـما لهـم ... في كـلِّ يـومِ نَـدى ويـوم كفـاحِ
فَـرْعٌ سيحكي أصلَه ولقـد حَكـى ... بمقاصـدٍ قـد سُـدِّدت وسـلاحِ
تـأبَى الخلافـةُ مـن سوى أكفائها ... والـمَجدُّ غـيرُ مقابَـل بمُـزاحِ
غَـشِيَتْ بنـورِكُم الـبلادُ فمَـن بها ... أغنـى عـن الإصـباح والمـصباحِ
سـكَنَت ببيعتِـه القلـوبُ ولم تـزَلْ ... تهفـو مـن الإشـفاق دون جَنـاحِ

---

(١) المعجب ٣٨٦، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٩، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٢٥٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣١.

عَـمَّ الـسرورُ بهـا البـسيطةَ كلَّهـا   كالـصُّبحِ فـاضَ عـلى رُبـى وبِطـاحِ
لا زِلــتَ للأعيــاد تمــنَحُ بهجــةً   يُعيــي سَــناها أعيُــنَ اللمّــاحِ
مــستوفيًا مــدَدًا إلى مــددٍ بهــا   رَبــدًا طِــوالٍ لا تُعَــدُّ فِــساحِ
مُتــسربِلاً بالــسّعدِ متّــشحًا بــهِ   مــستفتحًا بالواحــد الفَتّــاحِ

وقال أيضًا في هذه البيعة من قصيدة طويلة منها [من الكامل]:

صنعٌ جميـلٌ جَـلّ عـن أن يُوصَـفا[1]   يوجــد بــه كــمالًا واكتفــا

ومنها:

هـي بيعـةٌ أحيـا الإلـهُ بهـا الـوَرى   وحَــمَى بهـا ديـنَ النبـيِّ المـصطفى
سـبقَت قلـوبُ الخلـقِ أيـديَهمْ بهـا   ورَجَــا زمــانُهمُ بهــا أن يُــسعِفا
كــلٌّ يمُــدُّ يــدَ الــضَّراعة راغبًــا   في نَيْلِهــا مــسترحِمًا مــستعطفا
جـمَعت صلاحَ الدِّين والـدُّنيا معًـا   وغــدَا بهــا شــملُ العُــلا متألِّفــا
مــا مــن تقــيٍّ مــؤمن إلّا وقــد   سُرَّت لــهُ نَفْــسًا وهــزَّت معطفــا
لبَّــى مناديهــا بقلــب مخلــصٍ   متبرِّكًــا بحــضورِها مستــشرفا
أنْــسَت مــآثرُهُ مــآثرَ يعــرُبٍ   وسَـمَت بقيـس في العـلاءِ وخِنـدِفا
فُــتَّ المــدائحَ فــالبليغُ مقــصِّرٌ   ولـوَ انـه نَظَـم الكواكـبَ أحرُفـا
لازلــتَ بــالملإِ العــليِّ مؤيَّــدًا   ولِصَرْف دهرِك كيف شئتَ مـصرِّفا

واستَوزَر أبا زيد بنَ يُوجّان وشَرع في مصالح البلاد، وما يجبُ من النظَر الصالح لحماية العباد[2]، فقدَّم السيّدَ أبا زيد الحَسَن ابن السيِّد أبي حفص على بِجَاية وجهاتها

(١) لم يبق في النسخ الخطية من الكلمة سوى الياء والواو، والبيت على كل الأحوال غير موزون لنقص فيه واختلال.
(٢) المعجب ٣٨٧.

وسائرِ أنظارِها وأقطارِها، وأمَدّه بالرّجال وبَسَط يدَه على الأموال، وقدَّم أخاه السيّدَ أبا محمد بن المنصور على إشبيلِيَة وأخَّر عنها السيِّد أبا زيد ابنَ الخليفة.

وفي سنة ستٍّ وتسعينَ في أوّلها: توالَت عليه الأنباءُ من إفريقيّةَ بإجحاف العدوِّ بأطرافِها وانبساط العَرَب على بسائطِها، والتئامِها معَ مَن بها من الأشقياء وتغلُّبِهم على بعض معاقلِها، فتحرَّك إليه السيِّدُ أبو الحَسَن ابن السيِّد أبي حفص من بِجَاية في عسكر مشتَّت الآراء عديم النُّصَحاء، قليل أهل الغَناء، ملفَّق من أعراب حُثالة أطماع، وكلاب جِياع، وبقايا مكْر وخداع، فنزَلَ بظاهر قُسَنْطينة وترَك مضاربَه مشتملةً على حشيشِها، خاويةً على عروشِها، والعدوُّ قد عَرَف من جهة العَرَب بواطنَ أحوالها، وأرصَد كمائنَه عن يمين السيِّد وشماله.

وعندما تراءى الجَمْعان، وتقارَبَ الفريقان، نَكَص أوباشُ العَرَب عن السيّد وما كان من خِذلانِهم على أعقابِهم وكَرُّوا كالمنهزِمينَ إلى محلّة السيِّد لأخْذ المال والأثاث على زَعْمِهم، فأخفَقَ مسعاهم، وخانَهم ظنُّهمُ الكَذُوبُ ورجاهم، وخَسِروا دُنْياهم وأُخراهم، وعندَ انخزال العَرَب المذكورين عن السيِّد وما كان من خِذلانِهم وغَدْرِهم وعُدوانِهم، ثَبَتَ السيِّدُ معَ أهل الحفيظة من جماعة الموحِّدين وأبلَوْا بلاءَ أمثالهمُ الصّابرين، حتى تلاحَقت كمائنُ الأعداء فصار السيِّدُ وأصحابُه بينَ أنياب الـمَنُون وأخَذتهم كمائنُه بالشمال واليمين، فلم يجِدْ أكْفاءً لمدافعتهم ولا أعوانًا لمصادرتهم، فاستَسْلموا إلى الانحدار، منهم على مُدافعة ومنهم مَن بادر بالفِرار، وانجَرَّت الهزيمةُ على الموحِّدينَ أميالًا وفَقَدوا فيها رجالًا وأموالًا، وانسَلخ السيِّدُ أبو الحَسَن من غُمارةِ الهزْمة ووصَل إلى حِصن قُسَنْطينة معَ اللّيل عاريًا من كلِّ شيء، واتّصل بالناصِر ما كان... [1] هذه المعركة واستيلاءُ العدوِّ على تلك الجهة، فوقَع النظرُ على تجديد والٍ لإفريقيّة[2].

وفي هذه السنة: أنفَذ الناصرُ لدين الله السيِّدَ أبا زَيْد إلى تونُس واليًا عليها معَ جماعةٍ من الموحِّدينَ والأجناد ليتلافَى بالإمساك أرماقَ أهلها، ويسُدَّ ما وقَع من خَللِها، ويُداويَ ما أمكنَ من عِلَلها، فخَرج من مَرّاكُش وأغَذّ السيرَ حتى وصَلَها على طريق

---

(١) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣١.

الساحل ودخَلَها تحت غَرَر من انتشار العدوِّ بجنَباتها فلم يَغْنَ بها غَناء، ولا رفَعَ عن أهلها عناء، وأنِسَ العدوُّ بضعفِه وقلّة دفاعِه، واتّصل عمَلُه بأطماعِه. وتملَّك الغويُّ حصنَ الـمَهْديّة، واتّصل بأحواز قُسَنْطينة، واستفحَل ضرَرُه وقَوِي شرُّه، واشتعل بتلك البلاد جَمْرُه.

وتَوالت هذه الأنباءُ على حضرة الناصِر واتّسعت بذلك الأراجيفُ وشَنُعت الزّخاريف، فتجرَّد للنظر وأبرَمَ العَزْم وقدَّم الحَزْم في إصراخ تلك الجهات وإمدادِها بعسكر وافرِ الأعداد، شامل الاستعداد، فتقدَّم لتمهيد ما بها من التغلغل والاضطراب، والإشراف على ما بِنظَر بِجَاية من أوباش الأعراب، وأمَّر على هذا الجيش الوزيرَ ابنَ يُوجّان فخَرج معتمِدًا على حُسن عقيدته، ومُستندًا لله تعالى وكريم عادتِه، واستقرَّ بتِلِمْسان، ثم تدرَّج إلى بِجَاية ثم إلى قُسَنْطينة ثم عاد إلى تِلِمسان فوصَله الأمرُ بالنظر في أعمالها وجميع أشغالها، ثم وصَله الأمرُ بالانتقال إلى فاسَ لعمالتِها وأقام بها إلى أنْ مشَى في خِدمة الناصِر إلى إفريقيّة.

وفي سنة سبع وتسعين وخمس مئة: عزَل الناصرُ لدين الله أخاه عن إشبيلِيَة ثم بعدَ ذلك فَهِم عنه الرّغبةَ في ولايتها فأسعَفَه في رغبتِه.

وفيها: كان السّيلُ الشّنيع بوادي إشبيلِيَة هلك فيه أممٌ لا يحصيهم إلا الله، وذلك بجَفْن إشبيلِيَة وبكلِّ من كان بضفتي الوادي من قُرطُبة إلى جزيرة قادس. وقيل: إن الذي ذهب من دور إشبيلِيَة بهذا السيل ستة آلافِ دار، وذكر التجارُ الواصلون من غرب الأندَلس أنهم عثَروا بالرمال الكبار على سبع مئة شخص من الغَرْقى، قال ذلك يوسُف بن عُمر في تاريخه، وقال الراوي: إن هذا السّيلَ بإشبيلِيَة تقدّمته سيول كثيرة حتى قال الشاعر [من السريع]:

لله حمـــصٌ أيُّـــما بلـــدةٍ	لـــو أنّنـــا نـــأمنُ ثُعبانَهـــا
طـــاف بهـــا والـــرِّيحُ روحٌ لـــهُ	فـــابتلع الأرضَ وســـكانَها

وفي سنة ثمانٍ وتسعينَ وخمس مئة: تحرّكت أنباءُ الثائر الجُزُوليِّ المعروف بأبي قَصَبة واتّصل ببلاد السُّوس وشاع أمرُه وسَرى شرُّه وتأجّج جَمْرُه، فتحرَّك الناصرُ لدين الله

إلى رَجْراجة ونَظر في أمرِه وأنفَذ عسكرًا برَسْمه، فأخَذه الله بسُوء مكرِه فهُزِم عسكرُه وحُزَّ رأسُه وسِيق إلى الحضرة، وكان أبو قَصَبة هذا لـمّا وصَلته العساكرُ إلى السُّوس وأخَذتْه بالشمال واليمين، وقَف وقوفًا لم يُذكَر عن شَبيب[1] بن يَزيد ولا غيرِه من المتقدِّمين حتّى طحنَتْه وأصحابَهُ بَطْشةُ الموحِّدين فقُتلوا عن آخِرهم ورُفع رأسُ أبي قَصَبة في عصا[2]. والتحَقَ بهذا الفتح في أسبوع واحد بمُوافقة الأحكام فتحُ مَيُورقة.

ذكرُ فتح مَيُورقةَ ثانيةً وأخْذِها من يدِ ابن غانِية وذكرُ مَن وَلِيَها من لَـمْتُونة ومَسُوفة

كان دخولُ النّصارى مَيُورقةَ على ناصِر الدولة مُبشِّر الصِّقِلّي مولى ابن مجاهد في سنة ثمانٍ وخمس مئة، ثم استفتَحها المرابِطون ودخَلها وانودينُ بن سير من قِبَل أمير المسلمين عليِّ بن يوسُف بن تاشفين، فبقيَ بها ثلاثةَ أشهر، ثم وَلِيَها من بعده أبو بكر بن تكرطات، ثم وَلِيَها من بعده بايور بن محمد، فقامت عليه الرعيّةُ وقَتلوه. ثم وَلِيَها أبو بكر بنُ عليِّ بن ورقا فمات بها، ثم وَلِيَها محمدُ بن غانِية الـمَسُوفي حتى مات بها مقتولًا، ثم وَلِيَها ابنُه إسحاق فأقام بها ثلاثينَ سنةً أولُها سنةَ خمسين وآخِرها سنة ثمانينَ وخمس مئة، ثم وَلِيَها عليُّ بن إسحاق بن محمد بن غانِية وخَرج عنها، ثم وَلِيَها عبدُ الله أخوه إلى أن مات في هذه السّنة وهي سنةُ تسع وتسعين وخمس مئة.

رَجْعُ الخبر: كان هذا الثائرُ بإفريقيّةَ عبدُ الله بن إسحاقَ بن محمد ابن غانِية الـمَسُوفيُّ قد اغترَّ بما اتَّفق له في أوقات وحركات من موافقة أقدارٍ وأغاليطِ الزمان من مشْيِه إلى صِقلِّيّة ودخولِه منها إلى مَيُورقةَ بعدَ خروج أبي عبد الله بن إسحاقَ والقائد أبي الحَسَن بن الدبرتير عنها وافتراصِه الجزائرَ ودخُوله إياها ونَيْله كلَّ الـمُستنال منها وفلِّه للشّيخ أبي زكريّا بساحل مَيُورقة، فأَنِس بما كان من هذه الأحوال المقدَّرة والاتّفاقات المتصوَّرة.

---

(١) شبيب بن يزيد أحد فرسان الخوارج الأشداء (ينظر تاريخ الإسلام ٢/ ٨٢٠، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٤٦).

(٢) ينظر المعجب ٣٩٥ حيث ذكره في سنة سبع وتسعين.

ولـمّا تمكّن فصلُ الشتاء وارتَجَّ البحرُ ومُنِع ركوبُه، وتعذّر على كل متصرِّف فيه مطلوبُه، تحرَّك ابنُ غانِية المذكور في أُسطوله إلى جزيرة يابِسة ليكيدَها بفُرَصِه، ويُجريَها على ما تقدَّم له من تلصُّصِه، فلم يصرِفْ أهلُها بالًا لما أمَّل لديهم، ولا أرعَوْا سمعًا لندائه إليهم، وظَفِر ابن مَيْمون له بطريدتَيْن فأضرَمَهما نارًا، ورجَع ابنُ غانِيَةَ خائبَ الوِجهة، ثم جدَّد حالًا ولجَّ ضلالًا، ونازَلَ مَنُورقة والأنواءُ قد صَدَقت بأمطارها، ومَنَعت عن التصرُّف حتى الطّير في أوكارِها، وحاصَرَها اللّعينُ حتّى لجأَ أهلُها إلى أكل الـمَيْتة وضَعُفوا عن كلِّ مدافعة وحَمِيّة وأسلموا له البلد وتـمَلَّكه وثقَّفه وترَكَ فيه رجُلًا منهم يُعرَف بابن نَجاح[1]، ولـمّا خَفَّت الأنواء وحَسُن الهواء أسرَى إليه السيِّد أبو العُلى في أسطولِ سَبْتة، وصبَّحهم فساء صَباحُهم وبَطَش بهم الأُسطول قبلَ التئام أحوالِـهم وترتيبِ قتالِـهم، فدخَل البلدَ عَنْوة وقَبَض على ابن نَجاح وصُيِّر معَ أصحابِه إلى الحضرة فهلَك بها.

وأكثَرت الشّعراءُ في هذا الفتح، فقال الجُراويُّ من قصيدة طويلةٍ أولُها [من الطويل]:

لكَ النّصرُ حزبٌ والمقاديرُ أعوانُ ... فحسبُ أعاديك انقيادٌ وإذعانُ

فبعدًا وسُحقًا لابن إسحاقَ إنهُ ... مُطيعٌ لأحلامِ الكَرى وهْو يَقْظانُ

سواءٌ لدَيْه من غَباوةِ طبعِهِ ... هلاكٌ ومنجاةٌ وربحٌ وخُسرانُ

فمن حيثُ رام العزَّ جاءته ذِلّةٌ ... ومن حيثُ رام الحظَّ لاقاه حرمانُ

وهل هُو إلا من أُناس تهافَتوا ... فَراشًا على أسنانِكم وهْي نيرانُ

عَصَوا دعوةَ الـمَهْديِّ وهْي سفينةٌ ... فأغرَقهم طُغيانُهم وهو طُوفانُ

لقد ألبَسَ اللهُ الخلافةَ بهجةً ... بمُلك به يزهَى الوجودُ ويزدانُ

سعودُك مَن يرتابُ فيها وللوَرى ... عليها دليلٌ كلَّ يوم وبرهانُ

---

(١) هو الزبير بن نجاح كما في المعجب ٣٩٧.

وقال أيضًا يهنِّئه بفتح مَيُورقة المذكورة [من الكامل]:

شاءَ الإلهُ حمايةَ الإسلامِ فأعَزَّ نُصرتَه بخير إمامِ
بسَميِّ خير الخَلْق والنّورِ الذي كفَلت بدايتُه إلى الإتمامِ
جُمِعت ببَيْعتِه القلوبُ على الرِّضى واستَبْشَرت بمنال كلِّ مرامِ
وسَرى السرورُ بها وصار مُواصِلًا للجَدِّ في الإنجادِ والإتهامِ
واعتزَّ دينُ محمد بمؤيَّدٍ ماضي العزائم للشريعة حامِ
لولا انتظامُ أمورِنا بوجودِه لَغَدت مبدَّدةً بغير نظامِ
أضحَتْ خلافتُه السعيدةُ للورى وِزْرًا من الأعداءِ والأعلامِ
ذَخَر الزمانُ من الفتوح غرائبًا لزمانِه المتهلِّل البسّامِ
لا مثلَ فتحِ ميورقة فهْو الذي أهدى السّرورَ لمُنجِدٍ وتِهامِ
مطَلَت به الأيامُ حتى استُنجِزَتْ بسِنان خطيٍّ وحدِّ حسامِ
وبعَزْمةٍ منصورة وعصابةٍ مشهورة التصميم والإقدامِ
جَمَح ابنُ غانِية فكَفَّ جماحَهُ يومٌ أدار عليهِ كأسَ حِمامِ
ناهيكَ من يوم أغرَّ محجَّلٍ متميِّز عن سائر الأيامِ
وعَظَت بمصرعِه الحوادثُ عَنْوةً ناهيكَ من وَعْظ بغير كلامِ
فلْيُهنِئ الدّنيا وجودُ خليفةٍ جَزْل المواهب سابغ الإنعامِ
تُغنيه عن قَوَد الجيوش سعادةٌ تقتادُ ما شاءت بغير زمامِ
نِيطت أمورُ الخَلْق عنه بحازمٍ متكفِّل بالنّقض والإبرامِ
سامٍ إلى الرُّتَب التي لا فوقَها نَجْل الأكابر من سلالة سامِ
وَرِث الخلافةَ عن خلائفَ كلُّهم عَلَمُ الهدى الهادي إلى العلّامِ

لبِست به الدّنيا جَمالًا كُنهَهُ — أعيا على الأفكار والأوهامِ
فكأنّها دارُ السلامِ نعيمُها — متأبِّدٌ ودخولُها بسلامِ
يا عصمةَ الدّنيا نداءُ مؤمِّلٍ — صبحًا يُروِّحُه من الأيامِ
فارقتَ ما قد كنتَ فيه كأنّهُ — طَيْفٌ رأَتْه العينُ في الأحلامِ
فعسى أرى وجهَ الرِّضى فلطال ما — أمَّلتُ رؤيتَه معَ الأعوامِ
بالطّبع حاجتُنا إليك وهل غِنًى — يُلفَى عن الأرواح للأجسامِ
لا زال سعدُك مسعدًا متصرِّفًا — فيما تريدُ تصرُّفَ الخُدّامِ

وقال أيضًا يمدَحُه ويذكُر فتحَ مَنُورقةَ في التاريخ المذكور [من الطويل]:

أطاعَكَ صَرْفُ الدّهر في مُهَج العِدَا — وأصدَر عمّا شئتَ فيهم وأورَدا
بعَثْتَ أمامَ الجيش جيشَ مهابةٍ — أقامَهمُ في كلِّ أرض وأقعدا
سعودُك نَبْلٌ لو قصدتَ بها السُّهى — لكان على بُعد المسافة مقصِدا
تركتَ بقايا السّيف خَلْفَ حصارِهِ — رمادًا تَهادَتْه العواصفُ رمددا
جَرى بهمُ الإمهالُ شأوًا مغرَّبًا — وأعمَتْهمُ عن رُشدِهمُ فسحةُ المدى
هُو الفتحُ أعيا من أطال مرجِّزًا — وفات مداهُ من أطال مقصّدا
قضَى اللهُ أن يَحظى به أسعدُ الورى — فكان أميرَ المؤمنين محمّدا

وفي هذه السنة، وهي سنةُ تسع وتسعين: وصَلت الأنباءُ بالفتنة المشتعلة بأكثرِ جهات إفريقيّة وكثُر عن العَرَب إشاعةُ المكروه والـمُجاهرةُ من السيّئات، فأنِفَ الناصرُ من سَماعِها وإشاعتِها فخرَج من مَرّاكُشَ في الرابع من جُمادى الآخِرة من هذه السنة وتَمادى مشيُه إلى مدينة فاس، فأقام بها ثلاثةَ أشهر يعقدُ مصالحَ البلاد وما يجبُ من حماية العباد، وتأمينِ الطُّرقات وحَسْمِ عِلَلِ المفسِدينَ بها من الأشتات.

وفي أثناء ذلك تجدَّد ما تقدَّم من ظهور استطالة العَرَب على الأطراف، وجَوْرهم على ما والاهُم من النواحي والأكناف، فجهَّز إليهم عسكرًا من الموحِّدين وشوكةً من

أنجاد المجاهدين، وقَصَدوا إلى موضع اجتماعِهم وقرارة سُلطانِهم، فتقدَّمت لهم الرُّماة، ودُفِع عليهم الحُماة، فكانت على هلاكِهم أنجدَ مُعين وأجدَّ نَصِير فأغزوا جميعًا بموضع قرارِهم، وجَرى السيفُ على آثارِهم.

وفي سنة ست مئة: استقرَّ الناصرُ بحضرته وأراح من حركته، فنَظَر في تفقُّد بلاده والإشرافِ على جُزْئيات مملكتِه، فنَفَذت أوامرُه السُّلطانية إلى سائر الأقطار الأندَلسيّة بالحَفْز الأكيد على عُمّالِـها بالنّظر في الآلاتِ الحربيّة.

قال يوسُفُ الكاتب: ففي شهر المحرَّم وصَل الأمرُ إلى إشبيلِيَة بضَرْب الآلات وشراءِ الدّروع الـمُحكَمة، وفي ربيع الأول وُلِّـيَ إشبيلِيَة السيِّدُ أبو إسحاقَ ابنُ أمير المؤمنين أبي يعقوب وأُخِّر عنها أبو عبد الله بن أبي يحيى وقُدِّم على بَسْطة ووُلِّي أيضًا السيِّدُ أبو محمد عبدُ الواحد ابن أبي يعقوبَ مدينةَ شِلْب وبلادَ غَرْب الأندَلس. وفيها وُلِّـيَ أبو عبد الله بنُ عبد السلام الكُوميُّ قيادةَ أُسطول سَبْتة وأُمِر له بما كان يأخُذه أبو محمد بن طاعَ الله، ووُلِّـيَ أبو يحيى بن أبي سِنَان مدينةَ بطليقَ وجِهاتها، وأُمِر بالحَفْز في حِياطتها ورَفْع مُلمّاتِها، ووصَل إبراهيمُ ابن الفَخّار وزيرُ أذْفُونْش ملكِ قَشْتالة الخاصُّ برسالته في رُبوط الـمُهادنة والمصالحة.

وفي هذه السّنة: كانت سطوةُ الناصر بعَرَب المغرب واستئصالِـهم وقَتلِهم، وغرَّب بعضَ أشياخِهم إلى الأندَلس.

وفيها: أمَر بابتداء بناءِ الرّصيف بمدينة مَرّاكُش.

وفيها: كان الهَرْجُ ببلاد إفريقيّةَ وما والاها من بلاد الجَريد، وتملُّكُ ابن غانِيَةَ لحصُونها وأنظارِها وتغلُّبُه على أقطارِها ومحاصرتُه مدينةَ تونُس ودخولُه إياها عَنْوةً على ما سيأتي.

وفي سنة إحدى وست مئة: تحرَّك الناصرُ إلى بلاد إفريقيّةَ على هيئةٍ شامخة من البهاءِ والظهور[1]. كان خروجُه من مَرّاكُش على الهيئة المذكورة في العَشْر الوُسَط من جُمادى الآخِرة، فعندَ وصُوله إلى رِباط الفتح اتّصل به ما كان بإشبيلِيَةَ من فُتور الأحكام

(١) ينظر المعجب ٣٩٧-٣٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٢، والاستقصا ٢/ ٢١٤.

وتبسُّط حَواشي السيِّد أبي إسحاق بالمظالم وإغضائه لهم وتغافُله عنهم، ومشَى ذلك على ألسنة الخواصِّ والعوامّ، فنفَذَ الأمرُ بتأخير السيِّد المذكور عن إشبيلِيَة وتقديم السيِّد أبي موسى ابن الخليفة.

ورحَل الناصرُ من رِباط الفتح وتَمادى المشيُ والبشائرُ تَتوالى وتطَّرد، وأنباءُ العدوِّ تستحيلُ وتبعُد. ولـمّا أشرف الناصرُ على بلاد إفريقيّة تخاذَلت حشودُ ابن غانِية فشمَّر أذيالَه عن أُمّهات الأقطار، ورأى أنْ لا معقِلَ له سوى الفِرار، فأخلَى الأشقياءُ مدينةَ تونُس لأوّل وَهْلة دونَ قتالٍ ولا محاربةٍ ولا نِزال، ودخَلَها أبو إسحاقَ صاحبُ الأسطول، إذ كان تقدَّم إليها فأكَبَّ في الحين عليها فأنَّس أهلَها وسكَّن نافرَها وثقَّف ما يجبُ تثقيفُه فيها، وعَرَّف الناصرَ بدخولِـها وهروب الأشقياءِ منها، فوجَّه الناصرُ لأشغالها وضمِّ أعمالها داودَ بنَ أبي داود معَ جماعة من الموحِّدين.

ولـمّا وصَل الموحِّدون المذكورونَ تونُس خَرج أبو يحيى بالأسطول ولَحِق بالـمَهْديّة نفَذَ له الأمرُ بذلك، واقتفَى الناصرُ أثرَ الأشقياء، وأزعَجَهم إلى أطراف الصّحراء. ولـمّا أيقَنوا بالتصميم إليهم، وألّا معرَّجَ إلّا عليهم، انزَعَج ابنُ غانية بجُملته ومنَ معَه من أتباعِه وشِرذِمتِه وحصَّن حِصنَ الـمَهْديّة وشدَّها بأنجادِ رجاله وشحَنَها بالعُدَد الحربية وترَكَ بها أثقالَه ورحَل إلى نواحي بلاد الجَريد متمسِّكًا بطَمَعه مغترًّا بخياله، والناصرُ لدين الله جامعٌ بينَ استفتاح البلاد واقتفاءِ أثرِه ومُستقِرٍ لأخبارِه بقيّةَ سنة إحدى وست مئة.

وفي سنة اثنتين وست مئة: في شهر محرَّم نزَلَ الناصرُ بجهة سَفاقُس وهو على صريمتِه في استرجاع البلاد، وتسديد ما أورَثَها الأعداءُ من الجلاءِ والفساد، وتَمادى التتبُّعُ لتلك الأقطار، وتأنيس المستوحِش من أهلِها من جَوْر أولئك الفُجّار، وانزعاج[1] ابن غانِية بجُملته عن ذلك[2] الإقليم، وطهَّر أرضَها من أثرِه الذّميم، وقد كان القائدُ أبو يحيى نازَلَ الـمَهْديّةَ بمجموعِه وانتَشَروا ببسائطِها، والأشقياءُ قد نزَلوا بساحتهم يُعمِلون الحِيلة في افتراسِهم، إلى أن خَرجوا عليهم خروجَ الحيّات من أجحارِهم فأوقَعوا

(١) في ب: «وانزعج».

(٢) في ب: «تلك».

بهم في تلك البسائط، فاستُشهِد من الغَزاة جماعةٌ ولاذَ أكثرُهم بالبحر، واكتَسح الأشقياءُ ما وجَدوا من أسلحتِهم وعُدّتِهم ورفَعوا رؤوسَهم في شُرُفات الحِصن، واتّصل هذا النبأُ بأمير المؤمنينَ الناصر فتحرَّكَ إلى الـمَهْدية.

ذكرُ مُنازلة الناصرِ مدينةَ الـمَهْديّة

ولـمّا قضَى الناصرُ من وِجهته غَرَضَه ومذهبَه خفَّف رِكابَه إلى الـمَهْدية ومُنازلتِها والتصميم على فتحِها وحَسْم عِلّتها، فنزَلَت المحَلّاتُ عليها من جهاتها، واستَوْفت بالوصُول إمدادَ تلك الجهات، وأخَذ الناسُ بحظوظهم من أكنافِها على ضِيقها، ورَبَطوا مضاربَهم في تلك المسافات، وشَرعَ الناصرُ في إقامة العُدَد والآلات على جهة الجَدِّ والاجتهاد، فقامت في أيسرِ مدّة على أوفرِ عُدّة، ورتَّب لها من الخَدَمَةِ مَن يقومُ بخِدمتِها ويستقلُّ بحراستِها، والأشقياءُ قد تَطمَّعوا طِيبَ الفُرصة ولذيذَ الخُدعة والموحِّدون بتكاثُر أعدادِهم توقَّفوا عن مُدافعتِهم وجِلادِهم، واستَوطنوا السُّكونَ والقرار، وأبعَدوا أن يجترئَ عليهم مارِد في ذلك المِضمار، وربّما انبعَثَت الأشقياءُ أثناءَ ذلك إلى الـمَجانيق والآلات انبعاثَ الطّير من الأوكار، فأضرَموها نارًا، فكان ذلك إغراءً بالتشديد في مُحاربتهم وحَمْيًا للنفوس على قتالِهم ومجالدتِهم، فاشتدَّ عَزْمُ الناصِر لدين الله على جَبْر الآلات وإقامة أضعافِها، فَجُبِرت الـمَجانيقُ والأكبُشُ والسّلاليمُ على أضعافِ ما كانت، وتضاعَفَ العذابُ بتضعيفِها على الـمَهْديّة، وأقيمت خلالَها أبراجٌ ساميةُ المراقب، مُشرِفةٌ على ظاهر الحِصن وباطنِه إشرافَ النّجوم الثواقب، مُنذرةً بروعتِها لِـما صادمَتْه بحُلول المصائب، وتكامَلَت أعدادُ الحشود، واستنفَرَ مَن بالجهات من أهل الطاعة والجنود، وعُمِّرت الآلاتُ بأنجادَ الرجال، وطال المقام، وقَوِي الالتزام، وصـ...[1] والأشقياءُ قد قَسَت قلوبُهم عن الانقياد، وصَمّت آذانُهم عن...[2] [وفي] أثناء هذه المحاصرة وامتداد هذه المدارعة، تحرَّك للأشقياء...[3] المؤدِّية إلى مصارع آجالِـهم،

---

(١) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٢) كذلك.

(٣) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

وأرادوا تقويةَ نفوس المحصُورين...[1] لهم فالتفُّوا وتوافَقوا معَ أخلاط من سُلَيْم والمرتدِّين من رِيَاح... ومن الـمـ ... [2] وأتباعِهم ـ ووافَقهم غَوِيُّهم على الارتحال بقَضِّهم وقَضِيضِهم، وخفّهم... [3] وكُراعِهم إلى موضع يكونُ قتالُهم وحَربُهم بين حريمِهم ليكونَ دفاعُهم أحمى عن الحريم ولا يولُّونَ [4] عنهم، وجَرَوْا في ذلك على سَنَن الجاهليّةِ الجَهْلاء، وعلى ما كانت عليه حربُ [داحسَ والغبراء][5]، أسبابًا أحكَمَها الباري تعالى لأرزاق الموحِّدين، ونَصْرًا ادّخَره لأميرِ المؤمنين، ووصَل الخائبونَ أحوازَ قابِسَ على هذا الاعتزام، ووصَلت هذه الأنباءُ للناصر لدين الله، فأمَر بتجهيز عسكر كثيف يقتطعُ سَوادَ المحَلّات يكونُ مُقتفِيًا لآثارِها، وأهلَ الغَناء والإقدام من حُماتِها وأنصارِها[6].

ذكرُ ابتداءِ ظهور أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص الـهَنْتاتيّ[7]

لـمّا أمَر الناصرُ بتجهيز هذا العسكر قدَّم عليه أميرًا الشّيخَ أبا محمد عبدَ الواحد ابن الشّيخ أبي حفص لمكانِ غَنائه وصحّة دينِه وحُسن يقينِه، وتهيُّبِ الموحِّدينَ قَدْرَه ومسارعتِهم إلى برِّه، فخَرج من ظاهر الـمَهْديّة على هيئة رائقة من الاقتدار، وجَدٍّ حاكم بمساعدة الأقدار، والعدوُّ بأقطار قابِسَ قد تكامَلَت أعدادُه، واستوفَتْ حشودُه وأمدادُه، وجاءوا بخفِّهم وأثقالِـهم، والنَّفيسِ من أثاثِهم وأموالِـهم، وعَقَلوا الإبلَ بأوقارِها، وأوقَفوا الظعائنَ بكُراعِهم بإزائها، وجَعلوها كالتماثيل يقاتلونَ دونَها وكالحصون يَلجأونَ إليها.

ولـمّا رأى الموحِّدونَ ما مَثَلوهُ من الإشكال، وراعَوْه من الاحتفال، وأنّ ذلك من خُدع حروب القتال، الـمُطمِعة لعقول الرّجال، سار الموحِّدونَ إليهم على تعبئة

---

(١) كذلك.

(٢) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٣) كذلك.

(٤) في النسخ: «ولا يو» فأكملنا اللفظة على ما قدّرنا.

(٥) فراغ في النسخ، ولعل ما بين الحاصرتين هو المراد.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٣، والاستقصا ٢/ ٢١٥.

(٧) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٤، والاستقصا ٢/ ٢١٥ فما بعدها.

وصَدَقوا عليهمُ الدِّفاع، وكشَفت الحربُ عن ساقها القِناع، ودارت زَبُونًا عمياءَ بينَ الفريقَيْن، فأجْلَت عن انسلاخ الأعداء عن محلّتِهم وأهليهم وأموالهم وسائرِ حُمولتِهم وأمتعتِهم وأثقالِـهم، ورَكِبَ السّيفُ أدبارَهم إلى الأصيل، وغادَرَهم ولائمَ للطّير بكلِّ سبيل. واستَولَى الموحِّدون على تلك الأموال الفاخرة والأحوال الضّخمة الواسعة، وامتلأت أيدي الجماعة من سَواد المَحلّة من الغطاء والوِطاء وما غَصَبوه وسَلَبوه من أحواز أطْرابُلُس إلى أنظارِ بِجَاية منذُ عشرينَ سنة.

وقَفَل الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد بسَبْيِه ونَفْلِه وخَيْلِه، وكثيرِ المغنَم وقُلِّه، منصورَ الأعلام، مُظفَّرًا في كلِّ قصدٍ ومَرام، وبين يدَيْه رايةٌ سوداءُ من زِيِّ المسوِّدة مرفوعةٌ للأبصار، ورتَّب ذلك كلَّه على صفوف، وتأهَّب للتبريز...[1] بهم على الـمَهْديّة على مَرْأى مِن حُصَرائها، واصْطَكّت الطّبول وبَلَغ [الغايةَ][2] والسُّول، فأكثَرت الشّعراءُ في هذه الوقيعة، فقال [أبو عَمْرٍو وزيرُ][3] بن خالد اللَّخْميُّ من قصيدة له أولُها [من الطويل]:

... عُــــرى الـــــمُلكِ والــــدِّينِ	أصاخت لها من بَعـدِها أُذُنُ الـصِّينِ
... ســــــــلامها كما لـــــــــــها	ترائــب منًّــا مــنكم غــيرَ ممنــونِ
فكيــف بمــصرٍ والعــراق وعنــدَها	حديثٌ منَ استيلائكمْ غـيرُ مظنـونِ
ومــا هُـــو إلّا أنْ تَعــيَّنَ موقــفٌ	يقــدِّمُ مـــا أخّرتمُـــوه إلى حـــينِ
وتُطــوى بأيــديكمْ تــلادٌ عريــضةٌ	غَـدَت نـشرًا مـا بـينَ غـاوٍ ومفتـونِ

ومنها:

وأنَّــستُمُ بالعــدلِ وَحْــشةَ تــونُسٍ	وأمّنــتُمُ مـــن خَوْفِهـــا أيَّ تـــأمينِ
وألبَــسْتُمُ أرضَ الجريـــدِ مَلابــسًا	بهـا جَـرَّدت ثـوبَ المذَلّـة والهُـونِ

---

(١) بياض في النسخ قدر ثلاث كلمات.

(٢) بياض في النسخ قدر كلمة، ولعلّ ما أثبتناه بين الحاصرتين هو المراد.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ استفدناه مما سيأتي بعد قليل.

وأقبَسْتُمُ نـارَ الــهُدى خَلْفَ قـابِسٍ وغِبـتُمْ فـسَلْهم حُوريّاتِهـا العِـينِ[1]

وأبـرَقَ مـنكمْ عـارضٌ نحـوَ بَرْقـةٍ إذا صاب لم يَخـصُصْ مكانًـا بتعيـينِ

ويـا طِيـبَ مـا أهدَتْـه مَهْديّـةُ الــمُنى لكمْ من سَـلام دونَـه مـسكُ دارِيـنِ

ووالَيْـتُمُ الأيـام فانقـاد صَـعبُها على شدّةٍ من حُكمِكم أو على لينِ[2]

فــدام لــهُ فخــرٌ بحُـسنِ صِـفاتِهِ على كـلِّ منـصورٍ سـواكمْ ومـأمونِ

وكمَّل التبريزَ بالغنائم، وفَرَغ من تضييف الـمُقيم والقادم، ومَن بداخِل المدينةِ يتجلَّدونَ على استئصال البلاء، ويُبدونَ التهاونَ بالهلاك منهم والماضي وقد يَئسوا من طُول البقاء، ويُسرِّحونَ بالكذبِ في كلِّ ما يسمَعونَ في حقِّ طاغيتِهم من الأنباء، لا يملُّونَ حربًا ولا قتالًا، ولا يزدادونَ معَ الشِّدة والتضييق عليهم إلا صبرًا واحتمالًا، والموحِّدونَ قد هَجَروا لَذّاتِهم، وامتَنعوا من سِناتِهم، ورأَوْا أنّ ابتذالَ نفوسِهم وطِيبَ مَماتِهم في ذات الله زيادةٌ في حياتِهم، ورأَوْا ألا مَحالةَ لهم ولا راحةَ عن هذا الحصارِ والالتزام، وأنّ رحيلَهم عن الحِصن من غير استفتاحِه وأخْذِه مُحالٌ وحرام.

وأمَر الناصرُ لدين الله بجميع الآلات الحَرْبيّة من الـمَجانيق وغيرِها على جانبٍ واحدٍ من السُّور، وأمال الحَفْرَ والعملَ على الجانب المذكور. ولـمّا تحقَّقوا هزيمةَ أنصارِهم، ورأَوْا تهدُّمَ أسوارِهم، وأنهم صائرونَ إلى قبضة الهلاك والحَيْف، أو راجعونَ إلى النّزول على حُكم السَّيف، نادَوْا بشعار الأمان، ورَغِبوا في الإبقاءِ عليهم والامتنان، فأُسعِفت رغبتُهم، ونزَلَ الحاجُّ ومَن كان معَه من ذَوِيه وأشياعِه وبَنيه على ما اشتُرِطَ من الاقتراح، وأن يترُكَ سبيلَه إلى السَّراح، وذلك يومَ السبت التاسع والعشرينَ من جُمادى الأولى من السنة.

ودخَل الموحِّدونَ الـمَهْديّة، وكمَّل ما كان من فتح هذا القطر الشريف، والمعقِلِ السامي الـمُنيف، فتحَ جميع إفريقيّةَ وما اتّصل بها وانضاف إليها من بلاد الجَريد وغيرِها، وتمهَّد استيطانُ من كان بها من التقلُّع والتشريد، وانحَلّ عنهم ما كانوا فيه من الضَّنكِ

---

(١) هكذا في النسخ، وقد وضع النسّاخ فوق لفظة: «فسلهم» من العجز حرف طاء، والبيت مضطرب غير موزون.

(٢) سقط البيت بجملته من «م».

الشديد، وأكثَرت الشّعراءُ في هذا الفتح، فقال أبو عمرٍو وزيرُ[1] بن خالد من قصيدةٍ طويلة [من الكامل]:

هــــذا أمــــيرُ المــــؤمنينَ محمــــدٌ ... غيــثُ العبــاد وعــصمةُ المستــسلمِ

قــد قادهــا كاللّيــل دُهــمَ كتائــبٍ ... في قـــادة مـــن قومِـــه كـــالأنجُمِ

زانـــوا ســـماءَ المعلُـــواتِ وزانَهـــمْ ... بكـــمال بـــدرٍ في الـــسماءِ مـــتمَّمِ

يُبــدي بهــا الــبَرَّ العــريضَ تــدافُعًا ... كـــالبحر في أمواجـــه إذ يرتمـــي

وتَخالُـــها رَوْضًـــا بـــدَت أعلامُهـــا ... زهـــرًا تفـــتّح مـــشرقًا في مُظلـــمِ

بُـــشراك ســـيّدَنا بمُلـــك الأرض لا ... يبقـــى بهـــا داعٍ لـــمُلك مُجـــسَمِ

قـــد قابلَتْـــك أكُفُّهـــا بـــضَراعةٍ ... واســـتقبلَتْك وجوهُهـــا بتبـــسُّمِ

وتغَلغَلـــت بلقـــائكمْ آمالُـــــها ... وغَدا صريحُ الفتح غيرَ مُـجَمَّمِ[2]

هـــذي مَباديـــه الكريمـــةُ قـــدِّمت ... حُيِّيـــتُمُ منهـــا بـــأكرم أكـــرمِ

وبكـــمْ بهـــاءُ الـــدّين والـــدّنيا معًـــا ... دامـــا لكـــمْ في غِبطـــة وتـــنعُّمِ

وأقام الناصرُ على حِصن الـمَهْديِّ ريثَما رتَّب أحوالَه ورَبَط أشغالَه، ورحَل في الـمُوفي من جُمادى الثانية من السنة، فاستقرَّ بمدينة تونُس غُرَّةَ رجَبٍ الفَرْد من العام المؤرَّخ.

اختصارُ الخَبر عن استقرار الناصر بمدينة تونُسَ بعدَ هذه الأَوْبة إلى حين قُفولِه منها وانفصالِه

لـمّا وصَل الناصرُ إلى تونُس واستقرَّ بها، أمَر بتضييف المسافرينَ، فهنَّوه على أَوْبتِه القاطِنونَ، وصَرف الحشودَ إلى مَواضعِها وأماكن مَصِيفِها ومربَعِها ليستريحوا من نَصَبِهم وتَعبِهم، وتُودِّع الناصرُ إذ ذاك تَودُّعَ مِن استَأْصلَ الأعداء، واستنفَرَ الأولياء،

(١) في ب: «يزيد»، محرّف.

(٢) في ب: «مجسَّمِ».

واسترجَع البلادَ وأمَّن السُّبلَ وحَقَن الدّماء، فكانِ استقرارُه وإقامتُه بها بقيّةَ سنة اثنتين وست مئة وأكثرَ سنة ثلاث وست مئة.

وفي سنة ثلاث وست مئة: شَرَع الناصرُ في تفقُّد البلاد، وأسهَم الدانيَ والقاصيَ منها من النّظَر الموفَّق ما تستقيمُ به أحوالُها من الصّلاح والسّداد، ثُم صَرف نظَرَه إلى إفريقيّة وقصَد إزعاجَ الأشقياء من أطرافِها، وتَهْدِينَ ما بقيَ من تقَلقُلِها وخلافِها، وأمَر بتجهيز عسكرٍ كثيف قدَّم عليه السيِّد[1] أبا إسحاقَ بنَ المنصور، فخَرج من تونُس[2] في شهر صَفَر من العام، وصاروا يضربونَ في أرض تلك الأقاليم غربًا وشرقًا، ويتقصَّوْنَ آثارَ الـمُفسِدينَ بها قُطرًا قطرًا وأُفقًا أُفقًا، حتّى دوَّخوا ما وراء طَرابُلُس واستأْصَلوا بني دَمَّر ومطماطةَ وما والاها، ووقَفوا على آخِر جبال نَفُّوسةَ وجاوَزوا حدَّ عُمرانِها المحدود، وشارَفوا أرضَ سُويقةِ بني مكّود، يَقدُمهم النّصرُ والتأييد إلى كلِّ سبيل، ويسبِقُهم النُّجحُ والتيسير إلى كلِّ معرَّس ومَقِيل، يتفَيّأُونَ مطارحَ الظّلال، تحتَ تنعُّم بالغُدوِّ والآصال، لم يَعرِضْ لهم مُنازع ولا اجتَرأَ عليهم عدوّ، وانقَلبوا بنعمة من الله وفَضْل لم يمسَسْهم سُوء.

وبعدَ إياب هذا البعثِ واستقرارِه، وقضاء المرغوبِ من أوطارِه، أضمَر الناصرُ الحركةَ إلى المغرب في نفسِه، ولم يَخْلُ النظرُ لها في الباطن من فكرِه وحسِّه، وأمَر بإشاعة الاستقرار بتونُس، والنّظرِ في اتّخاذ الـمَحارث والاتّساع في المزارع، وأشغَلَ بالَه بالنّظر فيمَن يُولِّي إفريقيّة[3].

ذكرُ ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص إفريقيّة

فلـمّا فَرغَ الناصرُ من جميع الأشغال نَظَر فيمَن يُولِّي على جميع إفريقيّة، ويقومُ بأعبائها ويُقاومُ بنَجْدتِه ومَهابتِه الطاري عليها، فنَثَر كِنانتَه وعجَم أعوادَها، وأجال بصيرتَه في سائر قبائل الموحِّدين، وعَرَض عليها واحدًا بعدَ واحد أنجادَها وخِيارَها وأجوادَها، فأجمَعَ فكرَه وأوقَفَ نظَرَه الموفَّقَ وذِكرَه على شيخ الموحِّدين وأكبر أنجادِ جماعتهم أجمعين

---

(١) سقط من ب.

(٢) العبارة في ب: «قدم عليه أبا إسحاق بن المنصور من تونس فخرج».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٤.

أبي[1] محمد عبد الواحد ابن الشّيخ أبي حفص عُمر الهَنْتاتيّ، فأصفَقَ على هذا النّظر السَّديد العقلاءُ والألباب، وأعان عليه الصُّلحاء، فبُسِطت يدُه على ما شاء، وأُبيحَ لهُ في الجيش الانتقاء، وشَدَّ ظهرَه بتسريب الأموال والخيل والرّجال، فاستقرَّ على حالة فخمة مَقْضيٍّ لها بالاستيلاءِ والظّهور، والظَّفَر الدائم معَ تَوالي الدّهور.

ذكرُ حركة الناصِر من تونُس حَرَسَها اللهُ إلى بلاد المغرب

وتحرَّك الناصرُ لدين الله قافلًا إلى بلاد المغرب بعدَ قضاء هذه الأوطار، وتخليد ما لها من كريم الآثار، في السابع من شوّال العام، ونزَلَ بمقرُبة من باجَةَ في التاسع منه، وتَمادى المشيُ إلى تِلِمسانَ فاستقرَّ بها في ذي الحجة، فنفَذَ الأمرُ منها إلى عامل قُرطُبة وعامل غَرْناطةَ وعامل بَسْطة وعامل إشبيلِيَةَ والـمَرِيّة ومُرْسِيَة بالنّظر في الأشغال وإحضار الرِّجال والتنبيه على التأهُّب، والنّظر في الأعمال، ورَوَّح الناصرُ ريثَما قضَى السنةَ في أيام النَّحر من شهر ذي الحجة ثم رحَل عن[2] تِلِمْسان.

وفي سنة أربع وست مئة، ففي صدر المحرَّم منها: نزَلَ ظاهرَ مدينة فاسَ.

وفيها: تجدَّد النظرُ في أشغال العُمّال، ووقَعَ البحثُ عمّا إلى نظرِهم من الأعمال، وازدحَمت على باب الخليفة قبائلُ من أقطارِ المدينة وأخلاطٌ من الناس مُشتَكِينَ بعامل فاس، وكان أبا[3] الحَسَن ابن أبي بكر، وبعامل مِكْناسةَ أبي الربيع ابن أبي عِمران، فنُكِبا جميعًا واستُصفي ما وُجِد لهما من أحوال وأثاثٍ وأموال، وبقيَ كلُّ واحدٍ منهما محبوسًا في بلد عملِه، وتجدَّد الخطابُ إلى عُمّال الأندَلس المذكورينَ قبلَ هذا بنصِّ ما أُمِروا به أولًا. ورحَل الناصرُ من مدينة فاسَ ونزَلَ مِكْناسةَ في صَفَر، فوُعِك وَعْكًا اقتضَى الإقامةَ بمِكْناسةَ بقيّةَ صَفَر.

وفشَا خبرُ هذا الوَعْك ببلاد الأندَلس فتوجَّعت قلوبُ الـمُخلِصين لـمَرَض أمير المؤمنين، إلى أن طَلَع البشيرُ بما مَنَّ اللهُ تعالى به منَ استقلاله، وحَلّ بِرباط الفتح في

---

(١) في م: «أبا» ولا يستقيم.

(٢) في ب: «على تلمسان».

(٣) في م: «أبو» ولا يستقيم، وأصلها: «وكان العامل أبا الحسن»، فهو خبر كان.

ربيع الأوّل، ثم رحَل منه فلم يتلوَّمْ[1] في منزل ولا آوى إلى معقل والعافيةُ في كلِّ يوم تُرَدُّ عليه، حتّى دخَل مَرّاكُش وافرَ الصِّحة شديدَ القوة، فقال أبو العباس الجُراويُّ يمدَحُه ويُهنِّئه [من الخفيف]:

أطلَعَ الدّهرُ منكَ بدرًا مُنيرا ... ملأَ السبعةَ الأقاليمِ نُورا
وأتانا الزّمانُ منكَ كمالًا ... لم تُشاهِدْ له العصورُ نظيرا
أوّلٌ أنتَ في التقدُّم والسَّبْـ ... ـقِ وإن كنتَ في الزّمانِ أخيرا
ملأَ اللهُ كلَّ قلبٍ وعَيْنٍ ... نظرةً من كمالِكمْ وسرورا

ومنها [من الخفيف]:

أينَ منكَ الملوكُ عَزْمًا وحَزْمًا ... ونَدًى فائضًا وخيرًا وخِيرا
كنتَ في الغَيْبِ للخلافةِ أهلًا ... وخليقًا بنَيْلِها وجَديرا
شاءَ إسعادَنا الإلهُ تعالى ... يومَ تفويضِه إليك الأُمورا
إنّما أنتَ رحمةُ الله عمَّت ... ساكني الأرض مُنجِدًا ومُغيرا
أوجَدَ اللهُ منك للدِّين عزًّا ... ومُعِينًا وناصرًا وظَهيرا

ومنها [من الخفيف]:

يا إمامَ الهُدى مَلأتْ جَمالًا ... وجَلالًا عيونَنا والصُّدورا
كلُّ نُورٍ للشمس والبدر يبدو ... أنتَ أصلٌ له ومنك استُعيرا
دُمتَ للدِّين عصمةً ومَلاذًا ... ولإعدائه مُبِيدًا مُبِيرا

وقال أبو عبد الله ابن يَخْلَفْتَن الفازازيّ[2] [من البسيط]:

شمسُ الضُّحى من سَنا مَرْآهُ يَقتبِسُ ... فأيُّ قصدٍ عليك اليومَ يَلتبِسُ

---

(١) في ب: «ينزل».

(٢) في ب: «الفازاي»، خطأ.

وقال الجُراويُّ من قصيدة طويلة أوّلُها [من الوافر]:

أضـــاء لنـــا بغُرّتِـــك الزّمـــانُ وألبَـــسَنا تغلُّبَـــك الأمـــانُ

وجاءتنـــا الـــمُنى مُتواليـــاتٍ عـــلى نَـــسَقٍ كـــما انـــتَظم الجُـــمانُ

وقال أيضًا من قصيدة طويلةٍ أولُها [من البسيط]:

شـــدَّ الإلـــهُ بكُـــمْ للـــدِّين أركانـــا وأذعَنَـــت لكـــمُ الأيـــامُ إذعانـــا

وارتاضَ كلُّ جَمُوح[1] في عِنانِكمُ من بعدِ مـا أعجَـز الـروَّاضَ أزمانـا

وقال مرتجلًا أيضًا في مجلسِه [من الكامل]:

كانت من الشمس الصِّعابُ فَراضَها عَـزْمٌ فـرَّضَ الرّاسـياتِ وذَلَّـلا

لبِسَت حِدادًا من دُخَانِ حريقِها[2] لـمّا تـخرَّم جَـمْعُها واستُؤصِـلا

ولـمّا قضَى الناصرُ لدين الله منَ الاستراحة مِن نَصَبِ الأسفار ما قَضاه، وأمضَى أثناءَ ذلك من الأوامر والأحكام ما أمضَاه، شَرَع في الإشراف على الوجوه السُّلطانية والأشغال العمليّة، فقدَّم أبا محمد عبدَ العزيز بن عُمرَ بن أبي زيد[3] على إشراف البَرَّيْن، وضَمَّ الأعمال وتفقَّد الأشغال، ونظَر في وصول العُمّال إلى الحضرة بأعمالِـهم وكُتّابِهم الـمُقيِّدينَ لأشغالهم، فبادَرَ مَن عَيَّن الوصُول لِـما أُمِر به، ووصَلوا مستعدِّين على ما جَدّ به، فشَرع في تصفُّح بعضِها تصفُّحًا لم يَقصِدْ فيه إلى تحقيق، ولا سلَكَ فيه نهجَ الطريق، ووصَل في جُملة مَن وصَل من مشتغلي[4] الأندلس: يوسُفُ بن عُمر الكاتبُ المؤرِّخُ لدولة المنصور رحمه الله، وكان بإشبيلِيَةَ ينظُر في بعض الأشغال الـمَخْزَنية والسِّهام السُّلطانية، فأولُ ما صُرِف بأبي الحَسَن بن واجَاج عن ولاية إشبيلِيَة إلى ولاية مُرْسِية، وأمَرَ لمحمد بن عبد الله بالهبوط إلى إشبيلِيَة رجاءَ أن يكونَ أشدَّ من أبي الحَسَن شكيمةً

(١) في ق، ب: «جموع» ولا معنى لها.

(٢) في ب: «خريقها»، ولها وجه.

(٣) الذي في تاريخ ابن خلدون هو عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي (تاريخه ٦/ ٣٣٤)، نسبه إلى جده.

(٤) في م: «مشتغلين» ولا تستقيم.

في امتحان يوسُفَ بن عُمر الكاتب، وأشدَّ نِكايةً في جانبه، وكان أوّلُ من قُلِّد النّظَرَ في أعمالِه لم يزَلْ متعطِّشًا للإيقاع به وحاشدًا للأسباب التي يَعلَمُ أنها تَقْدَح عندَ الخليفة في جانبِه، فجَعل يرتادُ الأنباءَ ممّن يصِل إلى الحضرة مِن باغ يَبغي شيئًا عليه من سِفلة الأسواق أو خَونَة العُمّال الفارّينَ بالحقوق المُرتَّبة عليهم أو المؤدَّبينَ على ما اقتَرفوه وجَنَوْه، تؤخَذُ منهم الأرقام، وتُقبَلُ منهم الأقوالُ التي تجري مجرى الأحلام، وتَشنُعُ وتقامُ مقامَ اليقين، ومشَى ذلك كلُّه، فوصَل وذُكِر.

وممّا قال فيه من يُغري به [من الكامل]:

يا رابعَ الخُلفاء أنت الأوّلُ	والكلُّ منكمْ في الفضيلة أكملُ
أمِنَ السَّويّةِ أنّ عدلَك مشرقٌ	والظُّلمُ عندي منه ليلٌ أليَلُ
ويدا[1] ابن عَمْرٍو أصبحت لعَليّةٍ	تَرمي وبيتُ المال بئس المعتلُ
وله أمورٌ ليس يُمكنُ شرحُها	أنت الحسامُ لها وهذا المَفصِلُ

قال يوسُفُ بن عُمرَ المذكورُ عن نفسِه: لـمّا وصَلتُ إلى موضع تيقطين لقيني أحدُ ثقاتِ الأمير بجُملة من خَيْل ورَجْل، وأُحيط بي وبكلِّ مَن كان معي من كلِّ الجهات، وقُيِّد جميعُ ما وصَل من الأحمال للسّلطان، وقُيِّد ما كان لي رجاءَ أن يكونَ فيها شيءٌ يُنكَرُ عليّ من أسباب تدُلُّ على مُصانعةٍ أو مالٍ أو غير ذلك ممّا يُخالِفُ ما هو بسبيلي، وأُخِذ ما وُجد لي، وثُقِف ما كان بيدي وما رَكِب عليه عيالي من أوعية وكتُب وظروف وغير ذلك، ووصَلْتُ مترقِّبًا بذلك كلِّه إلى دار الأشراف، وبقيتُ محبوسًا بها، ولـمّا كان ثالثُ وصُولي أُحضِر الشّهود وفُتحت الشّدود، وكتَبَ الشّهودُ ذلك كلَّه مفسَّرًا، وعُرِض على المقام الإماميِّ، فنَظَرَ بنُور الله وما جُبِل عليه من العَدْل والامتنان، وطبيعة الفضل والإحسان، فأمَرَ بصَرْف ذلك كلِّه عليّ وإسلامِه إليّ، وذلك بسبب تأليفه الذي أُلِّف في محاسنِ والدِه المنصور.

وفي سنة خمس وست مئة: وصَلتْ كتُبُ السيِّد أبي الحَسَن والي تِلمسانَ بثِقَل مرَضِه وتوالي اعتلالِه وخوفِ ضَياع ما لديه من الأشغال، واضطراب قبائل زَناته واختلافِهم

(١) كذا في النسخ بالتثنية، والجادة الإفراد.

وقَطْعِهِمُ السبيل، وقطع الرِّفاق، عن الضرب في الآفاق، فأُعفي عن ولاية البلد، وأُذِن له في الوصُول، وعوملَ بالبرِّ الموصول.

ذكرُ ولاية السيِّد أبي عِمران مدينةَ تِلِمسان وحركتِه منها لحرب ابن غانِية وهزيمةِ عسكرِه ومقتلِه رحمه الله

فرحَل من تِلِمْسانَ بمَن معَه من عسكره وخَدَمته وشهوده وقاضيه وأكبرِ ثقاته، ومَشَوْا عن رَحْلهم آمنينَ غيرَ محترِسين، والمتجسِّسونَ من زَناتة المستوطِنونَ بتلك الجهات لا يَرقُبونَ في مؤمن إلًّا ولا ذِمّة، ولا يَرْعَوْنَ شريعةً ولا ذمة، فتسلَّلوا إلى ابن غانِيةَ وقومِه وأطلعوهم على عَوَراتِ العسكر وما هو فيه من إضاعة الحَزْم وقلّة الحذَر، وتسابَقوا إلى السيِّد من جهة أخرى...[1] ويُبعِدونَ له نواحيَ العدوّ ويُهوِّنونَ عليه أمرَه، ويحدِّرونَه إلى جهته، وتارَةً يحرِّضونَه على لقائه والزَّحف له، فتحيَّر السيِّدُ بُرهة ثم تأهَّب بعضَ تأهُّب، ولم يكنْ إلّا قبلَ أن يلتئمَ جَمْعُه وتكمُلَ تعبئتُه ويأخُذَ أُهبتَه ويستحذرَ عُدّتَه، إذ غَشِيتْه أسرابُ العدوِّ كالجرادِ المنتشر، وطلَعت عليه ساقاتُ ابن غانِية، وكان له كالمنتظِر، فثبَتَ السيّدُ معَ مَن كان في موكبِه من خاصّته، ومضَت الهزيمةُ على جناحَيْ ساقتِه، واصْطَلَمتْهم العَرَبُ قتلًا وأسرًا، وفرَّ مَن أفلتَتْه الرِّماحُ خيالًا وذُعرًا، واستُشهِد السيِّدُ أبو عمرانَ معَ مَن صبرَ معَه من خاصّته، وصاروا إلى فضل الله ورحمتِه، وأُسِر بعضُ بَنيه والكاتبُ أبو الحَسَن ابنُ عيّاش[2] معَهم وبعضُ طَلَبة تِلِمْسان.

واستَولَى العدوُّ على المحَلّة وأثقالِـها وخَيْلِها وبغالها وسائرِ أحوالِـها، وتبسَّطت جُموعُه على تلك الجهات، وعاثُوا بها عَيْثَ السِّباع الضارِيات، فارتاع أهلُ تِلِمسان وغلَّقوا أبوابَ المدينة وأذهَلَهم فَجْأةُ هذا الأمر بروعتِه، ووقَفَ كلُّ قَبِيل من جهات البلد برَبْوته مانعًا عن حَوْزتِه، وأرسَلت العَرَبُ في تلك النواحي جموعَها، وأخَذوا ينتهكونَ عِمرانَها وينتهبونَ زروعَها، ودامت على قُطر تِلِمْسان مضَرّتُهم وبلَغَت الـمُخنَّقَ

---

(١) وقع في ق، ر٣، ب نقص استمرّ إلى قوله: «وتوهّم الأعداء هزيمة أصحابهم» بعد ثلاث صفحات.

(٢) هو أبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش، كما في المعجب ٣٩١.

نِكايتُهم وإذايتُهم، فأسرعَ السيّدُ أبو زكريّا من فاسَ إليها وسكَّن ضجَّتَها ووطّأَ نفوسَ أهلِها وهوَّن روعتَها.

ووصَلت الناصرَ كيفيةُ هذه الوقيعة، فتألَّم لـمُصاب المسلمين، وأشجاهُ فَقْدُ رجالِه الأقرَبين، فأمَر بتجهيز عسكر وافر من أهل النَّجدة واليَسار والقوّة، وقوّاهم بالأَزْوِدة الواسعة فأمدَّهم بالعُدَد الفاخرة، وأمَّر عليهم الوزيرَ أبا زيد ابنَ يُوجّان رحمه اللهُ تعالى[1].

ذكرُ ولاية أبي زَيْد ابن يُوجّان مدينةَ تِلِمْسان

لـمّا كمُلت أشغالُ وِجهته، وعَزَم على حركته وخروجِه من الحضرة، صبَّح الجيشُ بابَ السّلطانِ على سُروجِهم، على المعتاد من رُتبتِهم في خروجِهم، ودخَل الشيخ أبو زيد لـمُوادعة الخليفة وما يتَلقّاه من وَصاياهُ وأوامرِه. فلمّا استوفَى ذلك من خليفتِه وأراد الانفصالَ عن مُوادعتِه، تَرامى عليه في استوهاب عفوِ العُمّال، وبثِّ الغُفران لهم في العاجِل والـمَآل، فوجَد الناصرَ منبسِطَ النفس لقَبول ما ألقَى له منشرحَ الصّدر للعفو سريعَ الاشتمال عليه، فأمَرَ في الحين بسَراحِهم وحلِّهم من موضع اعتقالِـهم.

وسَقَط الخبرُ في أقطارِ المدينة على قبائلهم وذَويهم وأوليائهم، فبادَروا إلى باب السُّلطان وغُصَّت بهم الأبوابُ والرِّحاب، فكان خروجُ ابن يُوجّان من مُوادعة الناصر وركوبه معَ خروجِهم من معتقَلِهم وسَراحِهم، ونَهَض ابنُ يوجّانَ بعسكرِه وقد حَفَّ به جميعُهم مشيعينَ له بأدعية مؤكَّدة، وأصوات مردَّدة، فكان يومَ سرور، يبقَى ذكرُه إلى يوم النُّشور.

ووصَل الأمرُ إلى إشبيلِيَة ومَن كان بها من المعتقَلين على غاية اليأس من الرّجاء لِـما كانوا فيه من الوعيدِ والالتواء، فكان وصُولُ البشير أجرى إليهم من فَرَج أيّوب، وألذُّ مُؤَنها في نفوسِهم من قميص يعقوب، فازدحَمت بباب المعتقَلينَ جموعٌ من المسلمين وأصْفَقوا بالحمد والشُّكر لله ربِّ العالَمين.

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

ووصَل ابنُ يوجّانَ إلى تِلِمسان منصورَ الرايات مَقْضيَّ الأُمنيات، فقَدِمت إلى العدوِّ مَهابتُه وغَشِيته كالليل روعتُه، وانسَلخَ عن أقطار تاهَرت وما والاها وانزَعج إلى جهة طَرابُلُسَ فلاذَ بصَحرائها فأمَّن الناسَ بجهة تِلِمْسانَ وتلك الأقطار[1].

وفي هذه السنة: قَدَّم الناصرُ بعضَ الوُلاة على أعمالِه وأخَّر آخَرينَ عن أشغالِه، فأخَّر أبا يحيى بنَ أبي الحَسَن بن أبي عِمران[2] عن الوِزارة وألزَمَه في دارِه، وقدَّم للوِزارة أبا سعيد بنَ أبي إسحاق بن جامع[3].

وبعدَ أيام من ترتيبِ ما رتَّب لخَدَمتِه ووُزرائه جدَّد نظَرَه في أمورِ البلاد، وما يجبُ لها من التفقُّد بالصّلاح والسَّداد، فقدَّم بإشبيلِيَة أخاه السيّدَ أبا إسحاق، وقدَّم أخاه السيّدَ أبا محمد بشَرْق الأندَلس ومعَه الوزيرُ أبو محمد المذكور، فحسُنت بهما البلاد وسَكَنت ظلَّ عَدْلِـهما العباد.

وبعدَ وصُول هذا السيِّد أبي محمد إلى مُرْسِيَة وتمكُّن استقرارِه، وتعرُّفِه كيفيةَ أحوالِ البلاد وأنظارِه، أنهَضَ أبا يحيى إلى بَلَنْسِيَةَ وثقَّف أشغالَها وأصلَح أحوالَها، وقدم الكاتبينِ النَّبيهَيْن: أبا محمد الحَسَن وأبا عبد الله بن مَنِيع، وكلاهما فيما انفَردا به من الإحسان وصَنْعة الإنشاءِ والدِّيوان فَرَسا رِهان ومالِكا رايةِ الإتقانِ والبيان، واقتَصر أبو محمد بنُ الحَسَن بن عبد العزيز على كَتْب التوقيعاتِ والظهائر، وكلِّ ما ترتَّب عليه وقوعُ العلَامة من وجوهِ الأوامر، وانفَرد أبو عبد الله بنُ مَنِيع بديوان العسكر وما انضاف إليه من التنفيذات السُّلطانية وتقييد الجِزْياتِ العامّة في أنواع النفَقات.

وفيها: وصَل الأمرُ إلى إشبيلِيَة بتأخُّر القاضي أبي عبد الله الباجيِّ وولاية أبي محمد عبد الحقِّ بن عبد الحقّ (كذا) قضاءَ إشبيلِيَة.

وفي سنة ستٍّ وست مئة: هزَم الشّيخُ أبو محمد بن أبي حفص صاحبُ إفريقيّة مَن كان بها من الـمَيارِقة معَ ابن غانِية ومَن تَبِعَهم من الـمُخالفين واستَوْلى على جميع محلّتِهم على ما يأتي.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥ باختصار.

(٢) هو محمد بن علي بن أبي عمران.

(٣) المعجب ٣٨٩.

ذكرُ السّببِ في حركة أبي محمد بن أبي حَفْص إلى ابن غانِية

قد تقدَّم ما كان منَ انتهاز ابن غانِيةَ من الفُرصة في عسكر تِلِمسان وأنه حَمَله الاغترار وأزعَجَتْه الأقدار على الحركة إلى جِوار إفريقيّة ومُعاودة حَرْبها وخَيَّلت لهم ظنونُهم أنّ البلادَ قد تقلقَلت بسَماع تلك الوقعة وسَرى فيهم أثَرُ تلك الرَّوعة وأنّ الشّيخَ أبا محمد صاحبَ إفريقيّةَ ضَجِر بجَمْعِهم وسَرى إلى رجالِه نفسُ رُوعِه، والشّيخ أبو محمد لم يُخْلِ نفسَه عن استعداد واعتزام، ولا عطَّل رِكابَه عن إسراج وإلجام، وأنّ الـمَيارقةَ تألَّفت لهم من سَوادِ العَرَب جموعٌ جَمّة وضُلّال، وفُرسانٌ من تلك الجبال ورجال، فأتَوْا على تعبئة مَهُولة رَتَّبوها على تدبيرِهم، وخَيَّلوها من أسباب الظَّفر على تقديرِهم، خَلَطوا إبِلَهم وحُمولتَهم وأثقالَهم، وقَرنوا بها هوادجَهم ورحالَهم، وتمثَّلوا بالبسيط كالجبل الشاهق والهيكل الباسق.

فزَحَف إليهم الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد والموحِّدونَ ومنِ انضافَ إليهم من سائر الطبقات والجموع وقد لَبِسوا قلوبَهم فوقَ الدّروع، فتقابَلَ الجَمْعان، والتحَمَ الفريقان، وشَدَّ عَرَبُ الأشقياء على يسارِ طاقة الموحِّدين، فانكشَف مَن كان بها من الأغزاز وبعضُ الأعراب ووَلَّوا الأدبارَ منهزمين، وثَبَت الشّيخُ أبو محمد بمركَزِه بقلب الساقة معَ مَن كان معَه من أهل الحِفاظ الصّابرين[1]، وتوهَّم الأعداءُ هزيمةَ أصحابِهم فسَوَّوا للفِرار أجنحتَهم وسَرَّحوا إلى كلِّ سَحيق أعِنّتَهم، وتخَلَّفوا على أهاليهم وحُمولتِهم، فأوقعَ فيهم السّيفُ حدَّه وأعمَلَ فيهم ما أمضاه الكِتابُ وحدَه، واستَوْلى الموحِّدونَ على جميع محلّة الضالّينَ بحشمها وأثقالها وخفِّها وسائر أحوالها.

وانصَرف أبو محمد وراياتُه تضحَكُ في وجوه الرِّماح، وجِيادُه تتسابقُ بينَ مَراح وارتياح، وكان معظمَ مَن هلَكَ في هذه الوقعة وجوهُ رِيَاح وأنجادُها ورؤساؤها الـمُشغِّبةُ وأجوادُها، ورغَّد إفريق إفريقيّةَ وديارها وجميع جهاتِها وأنظارها ما سَبى وكَسَح من غنائمهم وحيَوانهم وأثاثِهم وخَدَمِهم، وأتَتْ هذه الوقعةُ على أشتاتِ الـمُفسِدين ولم تُلمَحْ لهم بعدُ بارقةٌ ولا تلوحُ إلى يوم الدِّين[2].

---

(١) إلى هنا ينتهي السقط في ق، ر٣، ب.

(٢) هو باختصار في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

ووصَل البشيرُ إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة بهذه البِشارة، وقُرِئت بجامعِها الكتُبُ السارّة، وجلَسَ الناصرُ للتهنئات وأُفيضَتْ على الواصِلينَ بالنبإ سَوابغُ البركات، وقالت الشعراءُ في ذلك، فقال أبو عبد الله ابنُ يَخْلَفْتَن الفازازيُّ من قصيدة[1] [من الكامل]:

هـذي الفتـوحُ تفتَّحـت أزهارُهـا ... وتـدفَّقت مِـلءَ المـلا أنهارُهـا
وتأرَّجَـت نَفَحاتُهـا وتبرَّجـتْ ... صـفَحاتُها وتبلَّجـت أنوارُهـا
وأتَـتْ بـشائرُها إليـكَ سَـوافرا ... عـن أوجُـهٍ يـا حبّـذا إسـفارُها
تَطـوي المراحـلَ لا يُفـتَّرُ ليلُهـا ... شـوقًا إليـك ولا يغـبُّ نهارُهـا
إنّ الـدُّنا مهـضوبةٌ آذانُهـا ... لِـسماعِها مرفوعـةٌ أبـصارُها[2]
شَهِدت بسَعْدِك في الورى وتمحَّضت ... سـندًا ومثنـى عنـدَهم آثارُهـا
مـا زلـتَ تُعنـى بالدِّيانـة جاهـدًا ... ومجاهـدًا حتّـى اسـتقلَّ منارُهـا
واعتـزَّ جانبُهـا وأيِّـد ركنُهـا ... واشـتدّ سـاعدُها وأُدرِك ثارُهـا
ظنَّـت لـشِقوتِها بأنـك نـازحٌ ... تَنْـأى عليـك إذا سـمعتَ ديارُهـا
فرميتَهـا بكتائـبٍ ملمومـةٍ ... كاللّيـل لكـنّ النجـومَ شِـفارُها
لم يُـنجِ ناجيَهـا غـداةَ أفْلِهـا ... إلّا الفِـرارُ وأيـن عنـك فِرارُهـا
تركَـتْ رؤوسَ رؤوسِـها مبثوثـةً ... وطَفَـت علـى بحـرٍ بـه أشـفارُها
ومـضَى الـشقيُّ وقـد تلـبَّس رُوعُـه ... يَـضْفو عليـه ذُلُّـها وصَـغارُها
عـصَفَت رِيـاحُ جنـودِكمْ برياحِـهِ ... فهَفَـت جوانحُـها وخـفَّ مَطارُهـا

ومنها:

مولايَ وصْـفُك لـيس يَحْـوي كُنْهَـه ... خُطَـبُ المـدائح لا ولا أشـعارُها
لكـنْ نهايتُهـا وإن طـال المـدى ... في عَجْزِهـا وقـصارُها أقـصارُها

---

(١) في ب: «من قصيدة أولها»، ولفظة «أولها» لا معنى لها ولم ترد في النسخ الأخرى.

(٢) سقط هذا البيت من ق، ر٣، ب.

لا زال للإسـلام يُمنُـك باقيًـا وعِـداك بـاقٍ شـؤمُها وبَوارُهـا

وصَفَتْ ليوسُف نَجْلِك الزاكي الرِّضى أيامُـه وتباعَـدت أكـدارُها

صَـفْوُ الأئمـة لُبُّـهَا مرجوُّهـا مرهوبُـها مأمولُـها مختارُهـا

حتـى يُقلِّـدَه الخليفـةُ عقـدَها ويُـرى عليـه تاجُهـا وسِـوارُها

وبقيـتَ أقـصى مـدةٍ مَقْـضيّةً أوطارُهـا مَرْضـيّةً أطوارُهـا

في عـزّة موصـولةٍ وسـعادةٍ لا تنقـضي أبـدَ الـدُّنا أعـصارُها

مـا لاحَ بَـرْقٌ في متُـون غَمامـةٍ وترنَّمـت في أيْكـةٍ أطيارُهـا

وفي سنة سبع وست مئة: وصَل سَيْرُ بن إسحاقَ ابن غانية إلى حضرة مَرّاكُش وكان متبرِّئًا من نِفاق إخوتِه مُنطويًا على حِزب الأمير وفئتِه، فخَرج معَ إخوته في حركتِهم إلى تِلمسان، فلمّا استوثَقَ من بعدِهم عن مقرِّه وأمِنَ غائلتَهم في اقتفاءِ أثَرِه، وكان الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد قد خَرج إلى التّطوُّف بأقطار إفريقيّة على عادتِه فأسرَى سيرٌ حتّى التحَقَ به بجُملتِه بعدَ ما عرَّفه بخبَرِه وقصّتِه، فلمّا وصَل سيرٌ إليه أكرَمَ مثواه ووسَّع نزُلَه وقوّاه واستأْذن له في الوصُول إلى الحضرة فأُذِن له فيه، فبَلَغ مقصودَه ومرغوبَه[١].

وفي هذه السنة: قدَّم الناصرُ على جزيرة مَيُورقة أبا يحيى بنَ أبي الحَسَن بن أبي عِمران وأخَّر عنها السيّدَ أبا عبد الله بنَ أبي حفص.

وفيها: قدَّم السيِّدَ أبا عبد الله بنَ أبي حفص المذكورَ على بَلَنْسِيَة ثانية.

وفيها: قدَّم على مُرْسِيَةَ أبا عِمران بن ياسين الـهَنْتاتيَّ وأخَّر عنها أبا الحَسَن بن واجاج وتوجَّه إلى مَرّاكُش.

وفيها: أخَّر الناصرُ لدين الله أبا محمد بنَ حَوْط الله[٢] عن قضاء مُرْسِيَة، وقدَّم عليها قاضيًا أبا الحَسَن القَسْطليَّ ثانيةً، وقدَّم ابنَ حَوْط الله على قضاءِ قُرطُبة، وأُخِّر عنها

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥ باختصار.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصاري المالقي (المرقبة العليا ١١٢).

أبو عليّ بنُ أبي محمد المالَقيُّ واستُدعِي إلى الحضرة، وقدَّم بها على طَلَبة الحَضَر خُطّةَ أبيه وإخوتِه.

وفيها: قُدِّم أبو إبراهيمَ ابن يَغْمور[1] على قضاءِ بَلَنْسِية.

وفيها: قَدَّم الشّيخُ أبو محمد بنُ أبي حفص صاحبُ إفريقيّةَ أبا سُليمانَ داودَ بن أبي داود على عمَل تَوزَرَ وجِهاتها من بلاد الجَريد، وقدَّم أخاه ابنَ أبي داود على قابِسَ وجهاتِها.

وفيها: قُدِّم القائدُ أبو عبد الله بن عيسى الـمُرسيُّ على قيادة شِلْب.

وفيها: قُدِّم أبو الجيش مُحاربٌ على التقديم إلى أرسال ملوكِ الرّوم والاشتغالِ بإنزالِـهم وتضييفِهم والتّرجمة عنهم، وأُخِّر عن ذلك ابنُ عوبيل.

وفيها: قُدِّم السيّد أبو زيد على كُورة جَيّان وأُخِّر عن سِجِلْماسة، وعن جَيّانَ: أبو موسى بنُ أبي حفص.

وفيها: صُرِف السيّدُ أبو إسحاقَ ابن المنصور عن إشبيلِيَة بعدَ استعفائه عنها.

وفيها: نُقل عن غَرناطَة السيّدُ إبراهيمُ ابنُ الخليفة أبي يعقوبَ إلى إشبيلِيَة، وقُدِّم على غَرْناطة: أبو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص، وفي هذه الولاياتِ أخبارٌ يطُولُ ذكرُها أضرَبْنا عنها.

وفي هذه السنة: كان مهلِكُ ابن عَطِيّةَ الزَّناتي، بعَثَ إليه ابنُ يُوجّان صاحبُ تِلِمْسان من اغتالَه في وَطَنِه وأتاه من مَأْمنِه.

وفيها: استَولَى العدوُّ البرجلونيُّ على حصُونٍ مِن نَظَر بَلَنْسِيةَ وغَلَب عليها بينَ حصار وقتال، ونزَلَ له أكثرُ أهلِها على الأمان فمنهم منِ احتَملَه إلى بلدِه ومنهم من وصَل إلى بلاد الأندَلس.

وفيها: تحرَّك السيِّدُ أبو العُلى الكبير قائدُ أساطيل البَرَّيْن إلى بلاد بَرْشَلونةَ بجميع أجفان العُدوة والأندَلس على معاندة ومُنافسة من أهل البلاد في الاحتفال، وتمكَّن من العُدَد الوافرة والأموال، فكانت أحسَنَ حركةٍ للمسلمين وأوحشَ فجيعةٍ وأعمَّ وقيعةٍ

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن يغمور الجابري (التكملة الأبارية، الترجمة ٥١٧).

جَرت على الغُزاة البحريِّين، وأوقعَ حَسْرةٍ كانت بقلوبِ الكافرين، وفي إثْر تلك المفسَدة كان استيلاءُ البرجلونيِّ على حصُون بَلَنْسِية في هذه السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: وصَلتِ الأنباءُ إلى الحضرة بتغليب المسلمينَ على كثير ممّا في أيدي الرّوم من معاقل صِقِلِّيَّة ووصُولِ أعيانهم ووجوهِهم إلى مدينة تونُس إلى الشّيخ أبي محمد بن أبي حفص، وإطلاقِ الخُطبة في بلادِهم بالدّعوة الـمَهْديّة الموحِّديّة، وإنكارِهم ما سواها من المقصورة على العبّاسية.

وفيها: تحرَّكَ وأغار أبو محمد عبدُ الواحد على المنافقينَ والـمُفسدينَ من قبائل سُلَيْم، واستاقَ أشياخَهم بأموالهم واسترهَنَهم بتونُسَ في حَسْم ما يثُّونَه من فسادِهم وفي التبرِّي ممّا يُوالونَ به ابنَ غانية من مُضايقتهم وإمدادِهم، فشرَّد بحبس هؤلاءِ الأشرار مَن خَلْفَهم، وضرَبَ محمدُ بن عبد السلام حافظُ أطْرابُلُسَ على أنظارِ نَفُّوسةَ وسَلَب قصرًا ألفَى فيه أثاثًا وأسبابًا وأثقالًا للمارِقينَ المنافقين، فتهذَّنت في هذه المدّة جهاتُ إفريقيّة وسَكَن رُوعُها والتأم تشعُّبُها وصَدْعُها.

وفي هذه السنة: كان الحريقُ الشائعُ الضَّرَر الجاري بقَيْساريّة مَرّاكُش وما اتّصل بها، وذلك ليلةَ الخميس الثالثَ عشَرَ لجُمادى الأولى والناسُ كما أوَوْا إلى مَضاجعِهم وسَكَنوا إلى هدوئهم وهُجوعِهم، فتمكَّنت النارُ بيابِس العِيدان وشُفوف الثياب، وأسرعت كالشِّهاب في سُقُف الأسواق، فما هَبَّ الأقربونَ إليهم من نَوْمهم ولا تَلافاهُم الصَّريخ من قومِهم إلّا وقد شَبَّ لهبُها بينَ الآفاق وعَلَتْ ضجّتُه المدينةَ وهتكت العامةَ بها والاها من الدروبِ الـمُقفَلة.

واتّصل الصُّراخُ والضّجيجُ بالناصر لدين الله فخَرج مسرعًا من قصرِه وتخَطّى إلى الصُّعود بصَوْمعة الجامع المتّصل به، فعايَنَ أمرًا لا مردَّ له ولا حيلةَ لمحتال إلا التسليمُ للكبير المتَعال. واقتَحَمت النارَ سِفْلةُ الغوغاء وضُروبُ الغُرباء فسَلَبوا بعضَ ما ألفَوْه ممّا سَلِم من الحريق وتسَلَّلوا به على كلِّ طريق، وأمدَّ النارَ احتدامُ الهواء وموافقةُ زمنِ الصّيفِ، فما طَلَع الصّباحُ وبقي من أمتعةِ مَرّاكُش ذُبالةُ مصباح.

وأمَرَ الناصرُ بالبحث على مَن وُجِدَ بشيءٍ يُذكَرُ عليه من أمتعة التُّجّار، وعُثِر عليه بالتجسُّس والاختبار، فلُقِط من أخلاطِ الناس قومٌ قلائل، ومن بعض المتعلِّقينَ بالقبائل، فقُتلوا عن آخِرهم، وبقيَ البحثُ على سائرهم.

وذهَبَ في هذه الكائنة للتُّجار الواردينَ والقاطنين والقاصينَ والدّانين من الأموال الجَسِيمة ما لا يُحصَى، وافتقَر فيها أمّةٌ من ذَوي اليَسَار وأصبحوا يتكفَّفونَ الناسَ حَيارى على الأقطار، وأكّد الناصرُ في جَبْر هذه الأسواق وإقامتِها وإعادتها إلى ما كانت عليه من أحسن هيأتِها، فإنها كانت كالمرآة في وَجْه القصر تُضيءُ به من أكنافِه، وكالوِرْدِ العَذْب والمادّة لتأتّي مُؤَنِه وجميع لُباناتِه.

وفي هذه السنة: وصَل إلى الناصر جماعةٌ من وجوه بلاد شرق الأندَلس معرِّضينَ بآثارِ العدوِّ البَرْشَلونيِّ في بلادِهم وانتهاكِه لطارِفِهم وتِلادِهم، فقَوِي عزْمُ الناصر على نَصْرِهم والحركة إليهم وإلى غيرِهم، فشَرَعَ في توطئة ما يُحتاجُ إليه بما تقومُ به الحركاتُ الثِّقال، والتكشّفُ عمّا أحدَثَه الوُلاةُ والعُمّال، وخوطبت عُمّالُ قُرطُبة وإشبيلِيَةَ بتجديد العساكر السُّلطانيات، وقُدِّم بعضُ الخَدَمة لتوطئة السُّبُل وإعداد العُلوفات والتضييفات، وذلك في جميع المراحل والمناهل على العادة الجارية قبلَ ذلك.

ذكرُ حركة أميرِ المؤمنينَ الناصر إلى الأندَلس

لـمّا رتَّب الأشغالَ وسهَّل أمرَها، خَرج من مَرّاكُش يومَ السّبت الـمُوفي عشرينَ من شهر شعبانَ المكرَّم، وتَمادى مَشْيُه إلى رِباط الفتح في كَنف السلامة والنُّجح، فتلَوَّم بها ريثَما أكمل مُهمّاتِ الأشغال، وأجرى أمورَه على أصلح الأحوال، ونفَّذَ ما يجبُ تنفيذُه من شُغل البرَّيْن على ما رَآه واختارُه من الاستيفاءِ والكمال، وانصَرف شهرُ آذار وقرُبَ نَيْسان وطابَ الزّمان، وحَسُن التَّرحالُ والنُّزول بكلِّ مكان.

تحرَّكَ من رِباط الفتح يومَ الاثنين الثامنَ عشَرَ[1] من شوّال، ونفَّذ من المنزل المعروف بمَرْج الحمام الـمُخاطباتِ إلى الأندَلس بتحريض المسلمينَ على الجهاد، والتفرُّغ لِـما يجبُ من التأهُّب والاستعداد، فامتَثل ولاةُ الأندَلس ما أُمِروا به وأعَدّوا الوظائفَ التي عُرِّفوا بها وامتَحَضوا النصيحةَ وأعمَلوا الجَدَّ فيما كانوا بسبيلِه.

وتَمادتِ الحركةُ إلى قصرِ كُتامة والأسعارُ قائمةُ النَّفاق، والبلادُ قد تضيَّقَت في كلِّ ما يَؤُولُ إلى الارتفاق.

---

(١) في ق، ر٣، ب: «الثامن» ولا يصحّ؛ لأنه كان يوم جمعة، والثامن عشر هو يوم الاثنين.

وسببُ سَطْوتِه بعُمّالِه في هذه السّنة: أنْ لقِيَ الناسُ في هذه الحركة من تنوُّع الـمَسْغَبة وانتشار المجاعة وتعذُّر الأوطار وعَدَم الأقوات ما لم يعهَدْه الناسُ ولا عَلِموه في أسفارِهم القاصيات، ولا عارَضَهم مثلُها فيما تردَّدوا فيه من زمن الفتن الـمُبيرات، والناصرُ يتربَّصُ بانتقال المراحل لثِقَل الحالات، ويُغضي عمّا سَمِع من الهَنَوات إلى أنِ استقبَلَ المنازلَ التي كانت تستمِدُّ منها الرِّفاق وتَحتَقِبُ منها الحقائب، ويَدَّخِرُ منها الأزوِدةَ المقيمُ والذاهب، فألْفاها وقد جَفَّ مَعِينُها وخفَّ بتوالي العُدوان قَطينُها، ولم يبقَ منها لمخازنِ السُّلطان الوافرة أثر ولا يتّضحُ لخازنِها دليلٌ ولا نظر.

واستَوْلَى على عموم المحَلّة الإقتار، وبلَغَ منهم مبلغَ الهزيمة الـمُبيرة الإضرار، وجاوَزَ الحدَّ بالناس وُسعُ الاحتمال، ووقَفَ لهم العَجْزُ عن إدراك الحِيلة في مَعايشِهم على غاية الاضمحلال، وأحفَظَ الناصرَ ما رأى من هذا الإهمال وشدّة إغفال المكلَّفينَ بالأعمال، فبَسَطَ السَّطوةَ على مَن كان منهم بمَدارج الضَّرر أجمعين، وأوقَعَ العقابَ منهم بالـمُستهزِئين، وأنفَذ أمرَه إلى الشّيخ أبي محمد ابن أبي عليّ بن مُثنّى صاحبِ الأعمال الـمَخْزَنية والمفوَّض إليه الأشغالُ العمَليّة إلى القَبْض على عامل فاس، وهو: عبدُ الحقِّ بن أبي داود، أكبرِ عُمّالِه عندَه والأخَصِّين، وألطفِهم منزلةً كان لديه في كلِّ حين، فتروَّح بعدَ وصُوله إلى المدينة ثلاثًا ليبُثَّ في نفوس المشتغلينَ الطُّمأْنينةَ والأمان وليُصلح ظنونَهم في وصُول أبي محمد إليهم في ذلك الأوان، ثم فُجِئَ عبدُ الحق بالقَبْض عليه بدارِ الأشراف وأرسَل إلى منزلِه مَن ألحَقَه بالثِّقاف وبالَغَ في استصفاءِ أحوالِه، وتبسيط اليدِ بالقبض على كافّة أصحابِه وعُمّالِه، ونفَّذ الكتُبَ إلى سائر الجهات بتثقيفِ مَن خَدَم في مُدّته وغَمَس يدَه في أشغالِه، فغَشِيَهم الامتحان، بكلِّ قُطر[1] شاسع ومكان.

ولـمّا وصَل الناصرُ إلى قصر كُتامةَ كما تقدَّم، كان إنذارُه يتضاعفُ ويَزداد لمخالفة المعتاد، وتغييرُه يتأكَّد لِـما أشرَفَ عليه منَ الإهمال والفساد، وكان عاملُ القصرِ المذكور

---

(١) سقطت من ب.

محمدُ بن يحيى بن تاكغت الـمَسُوفيُّ عامل سَبْتة، وقد طابَقَت أحوالُه أحوالَ أمثاله، فقُبِض عليه وعلى أصحابِه، ووُجِّهوا مصفَّدِينَ لرئيس الأعمال بفاس، وكان الناصرُ في هذه الحركة يَقصُرُ المراحل ويتلوَّمُ بالمنازل ليَخِفَّ الناسُ من ساحل الـمَجاز.

وحُشِرت الـمَراكبُ من سائر السّواحل إلى ساحلِه، فانتهَضَ للجَواز وتوالي الانحفاز، فوصَل إليه والجيشُ قد جاز معظمُه ولم يبقَ إلا أقلُّه، فروَّح بالقصر بقيّةَ ذي القَعْدة ريثَما جازَت ساقتُه وأثقالُه، وحاشيتُه ورجالُه، وركِبَ السُّفنَ يومَ الاثنين أولَ يوم من ذي حجة من السّنة المذكورة[1]، ورحَلَ يومَ السّبت إلى فَجِّ إبراهيم، وتَمادى مَشْيُه حتّى وصَل إلى فَجِّ إشبيلِيَة وحَلّ بقصور بُحيرة باب جَهْوَر يومَ الاثنين منتصَفَ ذي حجة من السنة المذكورة. ولـمّا استقرَّ الناصرُ بمدينة إشبيلِيَة أمَرَ بدخول الجيش على طبقاتِهم وترتيبِ جماعتِهم، واستقرَّ الجميعُ بمدينة إشبيلِيَة آخرَ هذه السنة.

وفي سنة ثمان وست مئة: أمَر الناصرُ لدين الله باستنفار الحُشود الأندَلسيّة وبعمَل الآلاتِ الحَرْبية وبالحَفْز على أهل الكُوَر والجِهات في الحضور بما لديهم من وظائفِ الغُزاة ووصُولهم معَ مَن لهم من المشتغلينَ والوُلاة، حتّى اتّسَقَ نظامُهم وتَقوَّى اعتزامُهم.

ولـمّا استَوْفَت العساكرُ من سائر البلاد واستكْمَلت الحشودَ والأمداد، شَرَع الناصرُ في التأهُّب للحركة برَسْم الغزوِ والجهاد، فتحرَّك من إشبيلِيَةَ في أحسن زِيٍّ وهيئة، وقدرةٍ واستعداد، بعساكرَ وافرة من الموحِّدينَ والعَرَب والأجناد وغيرِهم من الـمُقاتلة والأنجاد، فتَمادى مَشْيُه على نيّة غَزْو الكفّار وحماية الذِّمار، فقصَدَ قلعةَ شلبطَّرةَ[2] ففتَحَها وأخَذَها، بعدَ قتال شديد وانتزَعَها، وهو حصنٌ عظيمٌ نَفْعُه شديدٌ أذاهُ وضُرُّه، وكتَبَ بفتحِه إلى البلاد بتاريخ ثاني شهرِ ربيع الآخِر من هذه السنة المؤرَّخة[3].

---

(١) قوله: «من السنة المذكورة» سقط من ب.

(٢) الروض المعطار ٣٤٤.

(٣) المعجب ٣٩٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥.

فصلٌ من الرّسالة التي وجَّهها الناصرُ لدين الله مُعلِمًا بفتح حِصن شلبطَّرةَ من إنشاء ابن عيّاش

وإلى هذا وفَّقكم الله وأوزَعكم شُكرَ نُعماه، فإنّ النَّصرانيّةَ لـمّا طال بالقتال عهدُها، وكاد ينسَى وَطْءَ الخيولِ غَوْرُها ونَجْدُها، وأنّ السِّلم الذي كان بينَ الموحِّدين وبينَ صاحب قَشْتالةَ حان أن ينقضيَ أجلُه وحَدُّه، بلَغَ إلينا أنّها همَّت بأنْ توقدَ نارَ الحرب التي كم أحرَقَها وَقْدُه، وكان الموحِّدونَ بعد قُفولهم من الشّرق لا يزالونَ على النِّية للغَزْو والجهادِ في سبيل الله بالأعراب ومَن يليهم قاصيهم ودانيهم، فأتَتْ منهم أُممٌ لا يَعلَمُهم إلّا اللهُ ولا يُحصيهم، وجاءوا كأمواج البحار في جيوش لا يُطِلُّ على مصباحِها الساري، واللهُ مُجازيهم بتظافُرِهم وتَواصيهم، وكان أئمةُ الكُفّار الذين لا أَيمانَ لهم ولا إيمان، ولا حُجّةَ على ما يدَّعونَه ولا بُرهان، قد وافاهُم من رومةَ رسُولُ إلهِهمُ الأرضيِّ الذي له يَسجُدون وإياه يعبُدون يأمُرُ باتّفاقهم، وخَلْع بعضِهم ما بقيَ من شروطِ الموحِّدين في أعناقِهم، ومَن نكَث فإنّما يَنكُثُ على نَفْسِه، وشَرْطُ الله أوثَق، وسيفُ الخليفة أمضَى وأصدق، فبينَا هم يَجْرُونَ بالخَلاء، ويجُرُّونَ فُضولَ الخُيَلاء، ويُدبِّرونَ ما لا يَتِمّ، ويُريدونَ ما لا يَعصِم من أمر الله ولا يرُمّ، إذ سَمِعوا بإجازتِنا التي كانوا يرَوْنَها بعيدًا ويراها اللهُ قريبًا، وحلولِنا بالأندَلس التي نَصَر اللهُ بها الدِّينَ الحنيفَ نازحَ الدار غريبًا، فرأَوْا أنّ الحربَ قد كشَفَت لهم عن ساقِها، وأجلَبَت لهم من آفاقِها.

ولـمّا كان صاحبُ قَشْتالةَ أقربَ مَن تعيَّنت حربُه دارًا، وأكثَرهم ممّا استطاع نكايةً وإضرارًا، كان أوّلَ مَن نَويْنا ووجَبَ تقديمُ حربِه علينا، وإن كنّا لم نحُلَّ بالأندَلس إلا وفصلُ الغَزْو قد ذهب جُلُّه، ولم يبقَ إلا أقلُّه، ذلكُم ممّا لقِيَ الناسُ في طريقهم من المطرِ المتدارَك، والوَحْل الـمُقيِّد للأخامص والسَّنابِك، والسُّيول الخارقة بكلِّ أرض جَلَد، أنهارًا تَرمي غَواربُها الغديرَ بالزَّبَد، حتّى ذهب بالجسور، وامتَنع أكثرُها من العبور، وفي النِّية منَ العَزْم أثناءَ هذه المحاولاتِ والأمور، ما لا يَعلَمُه إلّا الله العليمُ بذات الصُّدور، ولكنْ وفَّقكم اللهُ معَ ضِيق الآناء، وكون الفصل لم تبقَ منه إلّا صَبابةٌ كصَبابة الإناء، رأَيْنا أنْ لا نُخلِيَ العامَ من غَزْو يُذلُّ الكافرينَ في أرجائهم، ويجدِّدُ عهدَهم بالسّيف الذي لم يجفَّ بعدُ من دمائهم.

وكان المعقِلُ المعروفُ بشلبطَّرةَ قد عَلِقت به حبائلُ الصُّلبان، وتألَّـم ببقائه وسَطُ البلاد قلبُ الإيمان، قد جَعَلتْه النَّصرانيةُ إلى كلِّ غايةٍ جَناحًا، وأعدَّته لأبواب المدائن مِفتاحًا، تُهانُ شعائرُ الله في سَنامِه وبَطْحائه، ودينُ الحقِّ عن يمينِه وشمالِه وأمامِه ووَرائه، تعتقدُه الكفّارُ حجَّها وجهادَها، وتخدُمه ملوكُها ورُهبانُها وبلدانُها، وتُسرِّبُ إليه درهَمها ودينارَها، وتَزعُمُ أنه يَعصِمُ دارَها ويحُطُّ أوزارَها.

ومنَ الاتّفاق أنّ الموحِّدينَ كانوا قد جَعَلوه في غَزْوة من الغَزَوات مُعرَّجَ ركابِهم ومستوقَفَ إيابِهم، وما عسى أن يبلُغَ العَزْم وهم بسببِ انقلابِهم وقد قضَوْا من الغَزْو نُهمتَهم فأقلَعوا عنه لضَرْبٍ من النّظر، وأمَّلوهُ إلى حين وكلُّ شيءٍ بحُكم القضاءِ والقَدَر، فازدادت فيه فتنةُ الكفّار، ولولا عادتُهم في التشيُّد مدى الأعصار لاستغنَوْا فيه بمجرَّد الوَهْم عن السِّلاح والأسوار.

وما عَلِم القومُ أنّ أمرَ الله في مَزِيد، وأنّ سعدَه من جديدٍ إلى جديد، وأنّهم يُنازَلونَ في وقتٍ تكذِبُ فيه ظنونُهم وتَرى ما لم تعهَدْه عيونُهم، فاستخَرْنا اللهَ في مُنازلتِه، وشَرَعْنا في الضّرورة من أسبابِ محاولتِه، وقُلنا: هُو يمينُ صاحب قَشْتالة إن قُطعت قُصِد منه هذا الدّليل، ومَظِنّتُه عن غَيْرتِه إن لم يتحرَّكْ لها فقد قام على ضَعْفِه أدلُّ دليل.

ثم إنّا قدَّمنا إليه الأعرابَ رَعيلًا فرعيلًا وأطلَقْناهم عليه قبيلًا فقبيلًا، وظَهَر في بسيطِه زهاءُ أربع مئة فارس فقتَّلوهم تقتيلًا، ثم إنّا تحرَّكنا على الأثَر في جيوشِنا فقَبْلَ النزولِ من السُّروج، ووضْعِ المهنَّدِ والوشيج، حَيّاهم الناسُ بكلِّ ضَرْب وَجيع، وموتٍ وَحِيٍّ سريع، ومَلَكوا عليهم أرباضَهم، وكانت من الذَّروة إلى البَطحاء، وأضرَمُوها نارًا من جميع الأنحاء. ثم أمَرْنا بالـمَجانيق فزُحِف بها إليه تقذِفُ حجارةً كالجبال عليه، وأُنشِئَ عليهم سَحابٌ مُكفَهِرٌّ من النَّبال تتكسَّرُ منه النِّصالُ على النِّصال، فمَن نَجا من الحجارة أمثال الجبال، لم يَنْجُ من السِّهام أمثالِ الغَمام الـمُنثال.

والسّرايا معَ الأيام تجُوس طُلَيْطُلة وأحوازَها، والرُّعبُ يملأُ أطرافَ البلاد وأحوازَها، والنَّصرانيةُ قد ضاقت على الرَّحْب ساحتُها، ووَدَّت لو يكونُ في الموت راحتُها.

فخَرج أهلُ المعقِل المذكور وفارَقوه لـمَن له عُقبى الدار، وعلى أثَرِهم طهَّرَ اللهُ المعقِل من الأقذار، وبدَّل اللهُ فيه الناقوسَ بالأذان، وعادتِ الكنيسةُ مسجدًا على تقوى منَ الله ورِضوان، ورأى المسلمون قُرَّةَ عَيْن لم يرَوْا مثلَها مُذ أزمان، وخَلَصت القلعةُ للموحِّدين في التاريخ المذكورِ قبلُ.

وفي سنة تسع وست مئة: شاع الخبرُ بالأندَلس عندَ أشياخ الموحِّدين بمهلِك المستغلَبَيْنِ المعتقَلَيْنِ بفاسَ: والي مدينة سَبْتة ووالي مدينة فاس، ووصَل ابنَ مُثنَّى الأمرُ بقتلهما في أواخِر السّنة الفارطة، وقيل: إنّ مقتلَهما كان في أواخِر ذي الحجة، وقيل: في أوائل محرَّم من هذه السّنة، فأُخرج المذكورونَ يومَ جُمُعة بعدَ الصّلاة بحضور الآلاف من الناس، فضُرِبت أعناقُهما صَبْرًا، عبرةً للمعتبِرين وذكرى للغافلين.

وفي هذه السنة: كانت وقعةُ العِقاب[1] التي كانت السببَ في هلاك الأندَلس إلى الآنَ، وذلك أنّ أميرَ المؤمنين الناصرَ قَصَد بلادَ العدوِّ أذفُونْشَ اللّعين في جيش عظيم من المسلمين، فاستَعدَّ له الطاغيةُ وجمَعَ أهلَ قَشْتالةَ أجمعينَ وغيرَهم من سائر جموع ملوكِ النَّصرانية الذين هم للجزيرة مكتنِفُون، فالتقَى الجَمْعانِ بالموضع المعروف بالعِقاب، فكان الظّهورُ أولًا للمسلمين، على أنّ الموحِّدينَ لم يَجِدُّوا في تلك الغَزْوة ولا نَصَحوا فيها لأجْل نكبةِ أميرِهم الناصر لأشياخِهم، وقتلِه واستئصالِه لهم على يد المفوَّض ذلك إليه ابنِ مثنًّى، فلمّا وَرَدَ على أذفُونْشَ البَرْشلونيُّ أخزاهُما اللهُ تعالى بثلاثةِ آلاف فارس ولَّت جموعُ المسلمين، فمشَت الهزيمةُ عليهم وثَبَت الناصرُ لدين الله ثُبوتًا كاد يُردي به ويُمكِّنُ العدوَّ منه، حتّى وصَلت رِماحُهم إليه، ثم انحازَ راجعًا فسَلِم، وذلك يومَ الاثنين الثامن من صَفَر من السنة[2]، فذكروا أنّ بعضَ الناس كان يقول: مُدَّها قلْ لابن المثنَّى يَرُدَّها، يعْنُونَ بذلك صاحبَ الأشغال الذي نكَبَ أشياخَ الموحِّدين، ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم. وكتَبَ الناصرُ بالاعتذار عن هذه الوقعة إلى الحضرة وغيرِها أذكُر هنا منها بعضَ فصُول:

---

(١) بكسر العين، كما في الروض المعطار ٤١٦.

(٢) ينظر عن وقعة العقاب: المعجب ٤٠١-٤٠٣، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٥-٣٣٦، والاستقصا ٢/ ٢٢٠-٢٢٥.

فصلٌ من ذلك، وهي من إنشاءِ ابن عيّاش رحمه الله

وإلى هذا ـ وفَّقكم اللهُ وأعانَكم على ما يحبُّه ويرضاه ـ فإنّ صاحبَ قَشتالةَ لـمّا كان في العام السالف قد ضَعُف عن الانتصار، وكاد يَخفَى في بلادِه حتّى عن الأبصار، رأى أنْ يَضرَعَ للملوكِ أهل مِلّتِه ضراعةَ الأَسِيف، ويُصانعَهم على مَعُونتِه بالتالد والطَّريف، ويَسترحِمَهم عسى أن يجدَ عندَهم رِقّةَ القويِّ على الضّعيف، فبَثَّ القِسّيسينَ والرُّهبان من بُرتقالَ إلى القُسطَنْطينةِ العُظمى، يُنادونَ في البلاد من البحر الروميِّ إلى البحر الأخضر: غَوْثًا غوثًا ورُحْمى رُحْمى، فجاءه عُبّادُ الصّليب من كل فَجٍّ عميق، ومكانٍ سَحِيق، وأقبَلوا إليه إقبالَ اللّيل والنهار، من رؤوس الجبال وأسياف البحار، فكان أوّلَهم سَبْقًا[1] الإفْرَنجُ المتوغِّلونَ في الشّرق والشّمال، ثم تابَعَهم البرجلونيُّ بما عندَه من العُدَد والرّجال. وكان صاحبَ نبرةَ متعلِّقًا من الموحِّدين بذِمام، ومنقادًا إليهم أبدًا في أسمح زِمام، فسَخِط عليه صاحبُ رُومةَ إن لم يكنْ لقومِه مُعسكِرًا ولسواد أهل مِلّتِه مكثِّرًا، فلحِقَ بتلك الجموع مُرهِجًا، وتوسَّط بحرِّهم الـمُزبِد مُلجِّجًا، كلٌّ ينادي الصّليب، ونحن نُنادي بالسميع الـمُجيب، وكنّا لـمّا تحرَّكنا بالموحِّدينَ، ومَن معَهم من سائر المسلمين، رأَيْنا أنّ الأُمةَ قد جَدَّ جَدُّها، وأرهَفَ في ذات الله حدُّها، وعَلِمنا أنّ الأمةَ التي ليس لها في الأرض نَظير، والعصابةَ التي وَلِيُّها اللهُ وجِبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذلك ظَهِير، حِزبُ الله الذي شَرَّف به منقطعَ التّراب، وأعزَّ به الدِّينَ الغريبَ في زمان الوَحْدة والاغتراب، فسألنا اللهَ أن يوفِّقَنا إلى الرّشاد، وأن يحملَنا على جادّة صَلاح العباد، وضرَعْنا إليه في الإلهام، لِـما فيه الخيرُ والخِيَرةُ للإسلام.

ووصَلْنا إلى ظاهر جَيّان وأقَمْنا هنالك أيامًا ننتظرُ عُبورَ الوادي الكبير، إذ كان قد طَمَا تيّارُه، وأمدَّتْه من كلِّ شِمالٍ ويمينٍ آثارُه، معَ ما كنّا فيه منَ النّظر في رعاية الأصلح، والمحافظة على رأس المال الذي هُو التجرُ الأربح، والكُفّار طولَ هذا يَنْثالُونَ على طُلَيْطُلَةَ انثيالَ الجَراد في الكثرةِ والإفساد، وصاحبُ قَشتالةَ يتودَّدُ إليهم بالصّبر على انتسافِ بلادِه، ويتجدَّد إلى تابِعِهم ومتبوعِهم بأموال رعيّتِه وأجنادِه، ونحن نعلَمُ على القطع واليقين، أنه جَمْعٌ لا يتأتّى للكفّار إلّا بعدَ الـمِئِينَ من السِّنين.

---

(١) في ق: «فكان أسبقهم».

فحين نَضَب الوادي الكبير زَحَفْنا بالجيوش وتحرَّكت جماهيرُ الكُفر فأرهَبوا مَن كان في طريقهم من حصونِ الثَّغر، ثم إنّ الفئتَيْنِ قُضِيَ بتلاقيهما في الموضع المعروف بالمرشة، فكان بينَ المسلمينَ وبينَ أعدائهم يومٌ ذو كواكبَ نازَعت فيه المواكبُ المواكبَ، وموقفٌ نرجو أن يَراهُ اللهُ لنا وأن يَقبَلَ فيه عملَنا، اشتدَّ فيه الكِفاح، وأُرخِصت فيه الأرواح، لكنْ أرادَ اللهُ أن يُمحِّصَ المؤمنين ويَبْلُوَ فيه الكافرين، فكانت عاقبةُ اليوم على الخصُوص لأهل الصُّلبان، والعاقبةُ المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان.

وتعاجَزَ الفريقانِ والمسلمونَ عزيزةٌ جوانبُهم، محروسةٌ بقُدرة الله كتائبُهم، لم تُصِبِ الحربُ منهم أحدًا، ولا نقَصَت لهم عددًا، وهي الحروبُ قضَى الله أن تكونَ سِجَالًا، وأن يجعلَ اللهُ فيها لكلِّ قوم مجالًا، كذلك كانت في زمن النبيِّ ﷺ والوحيُ غَضٌّ نَضِير، وجبريلُ منَ السماءِ إلى الأرض في كلِّ وقت سفير، وكذلك كانت في زمن الخُلفاء[1] رضيَ اللهُ عنهم، كلُّ ذلك ليَعلمَ الشاكرَ والصابرَ منهم.

وإذا كانت، وفَّقكم اللهُ، الجيوشُ موفورةً والرايات منشورةً، والعزائمُ باقيةً وكفاياتُ الله واقيةً، فلا تَهِنوا، فإنّا لا نَهِن، وانتظروا الكرَّةَ على الكفّار، والإمدادَ عليهم بجُند الله الذين هم خيرُ الأنصار، فما كان اللهُ ليترُكَ المؤمنينَ حتّى يأخُذَ أعداءهم أخْذًا وَبِيلًا، ولن يجعَلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سَبِيلًا.

وعرَّفْناكم لتكونَ عندَكم هذه الوقيعةُ على وجهِها، والنازلةُ على كُنهِها، ولتعلَموا أنه لم يُدرَ للموحِّدين قتيل، ولا أصيبَ منهم كثيرٌ ولا قليل، والسلام. وكُتِبَ أواخِرَ صَفَر سنة تسع وست مئة.

وفي سنة عَشْر وست مئة: توفِّي أبو عبد الله الناصرُ رحمه الله، وذلك أنه لـمّا كانت هذه الوقعةُ الشَّنيعة أخَذ في الجَواز إلى العُدوة واستقرَّ بحضرتِه الـمَرّاكُشيّة، لم تكنْ له بعدَ ذلك حركةٌ منها إلى أن توفِّي بها يومَ الثلاثاء العاشرِ لشعبانَ المكرَّم من السنة المؤرَّخة، وذُكِر أنّ بعضَ وُزرائه أغْرَوْا به من سَمَّه لأنهم خافوا منه أن يقتلَهم فيما جنَوْه معه جزاءً على قبيح فعلِهم، والله العالـمُ بحقيقة ذلك[2].

---

(١) في ق، ب: «الصّحابة».

(٢) خبر وفاته في المعجب ٤٠٣ وغيره.

ذكرُ دولة المستنصِر بالله ونُبَذ من أخبارِه[1]

نَسَبُه: هو أبو يعقوبَ يوسُفُ بن محمد بن يعقوبَ بن يوسُف بن عبد المؤمن.

بُويعَ يومَ الأربعاء الحاديَ عشَرَ لشعبانَ من السنة، وسنُّه عشَرةُ أعوام أو نحوها[2]، ولقِّب المستنصرَ بالله، وتوفِّي سنةَ عشرين، فكانت دولتُه نحوَ عشَرة أعوام، وكان أبوه قد أوصَى عليه بعضَ أشياخ الموحِّدين بحضرته فتغلَّبوا عليه في أيام دولته، فلم تكنْ له حركةٌ تُشهَر ولا غزوةٌ تُذكَر لكنّ أيامَه كانت هادنةً ليس فيها مُفاتنة.

ووَلَّى أعمامَه وقَرابتَه البلادَ الغربيّةَ والأندَلسيةَ بعدَما وصَلتْه البَيْعات من كلِّ الجهات.

وكانت وفاتُه يومَ السبت الثانيَ عشَرَ لذي الحجة سنةَ عشرينَ وست مئة، فكانت خلافتُه على ما حقَّقه ابنُ رَشِيق وغيرُه عشْرَ سنين وأربعةَ أشهر ويومين.

وفي سنة إحدى عشْرةَ وست مئة: ولَّى المستنصِرُ بالله على مدينة فاسَ السيّد أبا إبراهيمَ إسحاقَ الملقَّب بالأمير الظاهر ابن الخليفة يوسُف بن عبد المؤمن، ونقَلَه من غَرْناطةَ إليها، وهو أبو الـمُرتَضى رحمه اللهُ تعالى، ووَلَّى على إشبيلِيَةَ وجِهاتها السيّدَ أبا إسحاقَ بنَ أبي يوسُفَ يعقوبَ المنصور، وهو السيّد أبو إسحاقَ الأحول.

وفي سنة اثنتي عشْرةَ وست مئة: قام دَعِيٌّ ببلاد جَزُولة يدَّعي في مذهبه بدَواعي الـمُحال، وتَبِعه ناسٌ كثيرةٌ من الضُّلّال والجُهّال، وذكَرَ لهم بزَعْمِه أنه فاطميّ، وشاع الخبرُ عنه في البلاد أنه عُبَيْديٌّ من ذُرِّية عُبَيد الله الشِّيعي، والموحِّدونَ في ذلك يَعلَمونَ ثقةً بالله تعالى أنّ مآلَه مآلُ أمثالِه من كلِّ منِ ادَّعى دعواه ونَحَى في الباطل مَنْحاه، إلى أنْ مكَّن اللهُ منه فقُتِل وعُلِّق رأسُه على باب فاسَ حرَسَها اللهُ تعالى[3].

---

(١) المعجب ٤٠٤، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٤٣-٣٤٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣/ ٦٢٤-٦٢٦.

(٢) هكذا في النسخ، وهو غلط بَيّن صوابه ستة عشر عامًا، لأنه ولد سنة ٥٩٤هـ، وتولى الأمر سنة ٦١٠هـ وتوفي سنة ٦٢٠، كما في مصادر ترجمته.

(٣) المعجب ٤١٠.

وفي هذه السنة المؤرَّخة: وصَل إبراهيمُ ابن الفَخّار[1] الإسلاميُّ وزيرُ ملِكِ قَشْتالةَ رسُولًا من عنده في شأن عَقْد السِّلم، فأنعَمَ المستنصرُ بالله بذلك ووجَّه كتابَيْنِ اثنين، أحدُهما: إلى السيِّد أبي الربيع صاحب جَيّان، والثاني: للشّيخ أبي العبّاس بن أبي حفص والي قُرطُبة، ومقتضاهُما عَقْدُ السِّلم والـمُوادعة معَ ملِك قَشْتالةَ أخْزاه اللهُ على جميع بلاد الموحِّدين بالأندَلس على الشّروط التي حَدُّوها والعهود التي عقَدوها، فالتَزم اليهوديُّ لعنَه اللهُ ما لُزِم، وأنعَمَ بما عُقِد من الأمر وأُبرِم، فصَلَحت البلادُ الأندَلسيّة في هذه السنة من جهة الـمُهادنة ووَلِيها كُبَراءُ السادة وأشياخُ الموحِّدين وأميرُهم يوسُف المستنصرُ بالله بحضرتِه مقيم، وأوامرُه نافذةٌ في بلادِه وأيام دولتِه، وليست له حركةٌ تُشهَر ولا غزوةٌ غَزاها بنفسِه فتُذكَر، ولم أتعرَّفْ له خبرًا في أيام دولته إلّا ما كان من ظهورِ بني مَرِين أعزَّهم الله.

وفي سنة ثلاثَ عشْرةَ وست مئة: وصَل عسكرٌ من بني مَرِين إلى جهة مدينة فاس، فخَرج إليهم والِيها السيِّدُ أبو إبراهيمَ بمن كان معَه من الأجناد بفاس، فهَزَمه بنو مَرِين وقبَضُوه واحتَملوه معَهم إلى أن عُرِّفوه فأطلقوه، فتأكَّدت بينَهم مودّة إثرَ ذلك، وسمِّي هذا العامُ بمدينة فاسَ عامَ المشغَلة؛ لأنّ الناسَ جرّدوا في تلك الهزيمة ودخَلوا مستترينَ بالمشغَلة[2].

وكان ابتداءُ ظهور بني مَرِين أعزَّهم اللهُ تعالى في سنة عشْرٍ وست مئة بعدَ مولدِ أبي يوسُف يعقوبَ بن عبد الحقِّ رحمه اللهُ تعالى بسنةٍ واحدة، وكان دخولُهم إلى بلاد الغَرْب سنةَ إحدى وست مئة، وسأذكُر إن شاء اللهُ بعضَ مآثِرهم ومَفاخرِهم في أيام مُدّتِهم وأعوام دولتِهم إن شاء اللهُ تعالى.

ولم أتحقَّقْ خبرًا أذكُرُه في سنة أربعَ عشْرةَ وخمسَ عشْرة.

وفي سنة ستَّ عشْرةَ وست مئة: كان المحْلُ العظيم، والمجاعةُ التي شكاها الظاعنُ والمقيم، وتَناهى الحالُ في مَزِيد السِّعر إلى ما لا نهايةَ له، وكان ابتداءُ الحال فيه في السنتَيْن

---

(١) ترجمته في المغرب لابن سعيد ٢/ ٢٣، ونفح الطيب ٢/ ٣٥٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

المتقدمتَيْن لهذه السنة المؤرَّخة، وأمّا السَّنةُ[1] الفارِطةُ عنها فكانت قبائلُ المصامدة تسمِّيها سنة وقليل.

وكان للمستنصر بالله في هذه السنة فعلٌ جميلٌ وخيرٌ جزيل، وذلك أنه لـمّا عَلِم ما حَلّ بالمسلمينَ في بلادِه من المجاهدة في غلاءِ السِّعر والشّدّة أمَر بفتح المخازن المعَدَّة لاختزان الطعام، ففُتحت للعامّة وفُرِّقت عليهم، فذُكر أنها كانت بثمن للأقوياء، وبغير ثمن للضُّعفاء، وبالجُملة فإنه صدَّق منها شيئًا كثيرًا وأعطَى من الأموال عطاءً جَزيلًا فحَسُنت أحوالُ الناس بذلك.

وفي سنة سبعَ عشْرةَ وست مئة، في أوائلِها: اشتدّت الحالُ في تناهي غلاءِ الأسعار بالبلاد الغربيّة والأندَلسيّة إلى أنْ فرَّج اللهُ سبحانَه عن المسلمينَ بالرّخاءِ والعافية[2].

وفيها: أمَر أميرُ الموحِّدين المستنصرُ بالله يوسُفُ ابن الناصر بالكَتْب إلى البلاد الغَرْبية والأندَلسيّة بأخْذ الناس بإقامة الدِّين والحَفْز في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حَذَا في ذلك ما فعَلَه جَدُّه عبدُ المؤمن في الرّسالة التي أنشَأَها له أبو جعفر ابنُ عَطِيّة وبعَثَ منها نُسَخًا إلى قواعدِ بلادِه، وكذلك أيضًا فعَلَه خليفتُه يوسُف أمَرَ بإنشاء رسالةٍ أخرى في معنى ذلك.

فصلٌ منها

وإلى هذا وصَل اللهُ توفيقَكم، فقد علِمتُم أنّ الدِّينَ هو الأساسُ الوثيق والبناءُ العتيق، والفُسطاطُ المضروب، والعَلَمُ المنصوب، والتَّجرُ الذي لا يَبُور، والطريقُ الذي لا يَجُور، منِ استمسَكَ به فقدِ استمسَك بالعُروة الوُثقى، ومن تحصَّنَ به فقد تحصَّن بالمعقِل الأحصَن الأرقَى.

فإذا وَقفتُم على كتابِنا هذا فجدِّدوا للناس به الذِّكرى، وعرِّفوهم أنّ الدُّنيا مَطِيّةُ الدارِ الأخرى، وحضُّوهم على العمل الصالح، والتَّجر الرابح، عسى أن يجعلَهمُ اللهُ تعالى في الدارَيْن من الذين لهم البُشرى، وبُثُّوا في جهاتِكم كلِّها الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن

---

(١) قوله: «المؤرّخة، وأما السنة» سقط من ق.

(٢) سقطت من ب.

المنكر تطهَرْ من الأرجاس وتَـتَنَقَّ الحواضرُ والبوادي من الأدناس، وتسلم القلوبُ والجوارح من الوَسْواس الخَنّاس، واستحفِظوا الكافّةَ صَلواتِهم، فإنّها الكتابُ الموقوف على المؤمنين، وخُذوهم باعتيادِ المساجد، فإنّها الشاهدُ الأزكى بشهادة خاتَم النبيئين وسيِّد المرسَلين، واطلُبوهم بقراءة الحِزب والتوحيد بالمساجد والأسواق، فإنه الخيرُ المألوف والشِّعارُ المعروف والرَّسْم الذي عليه العمل، والعهدُ الذي لا يجبُ فيه التغييرُ والخَلَل، وتتبَّعوا شعائرَ الدِّين كلَّها بالإقامة، ولا يعرِضْ لكم في الأمر بها والحضِّ عليها عارضُ سَآمة، وتخَوَّلوا الناسَ على الدّوام بالوصايا النافعة، والمواعظِ الجامعة، وأعلِموهم أنه قد جاء في الأثر: إذا أصلَحَ المرءُ جُوانيَّهُ أصلح اللهُ بَرانيَّه[1]. فليُصلِح الناسُ سرائرَهم، وليُخلِصوا ضمائرَهم، وليوقِنوا بأنّهم مسؤولون، وأنهم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعمَلون.

ونحن قد قلَّدنا اللهُ قلادةً نعلمُ لوازمَها، ونحفَظُ مراسمَها، ومن جُملتها: التذكيرُ بالدِّين، فهو الشافعُ الذي يُقبَل، والوسيلةُ التي لا تُضاعُ ولا تُهمَل.

فاعلَموا أعزَّكم الله هذا المقصودَ علمًا، وكونوا في القيام به لا تخالفونَ يقَظةً ولا نَوْمًا، وللناس عليكم ما نأمُركم به من العدل التامّ، والإنصاف العامّ، وكفِّ الأيدي، وقَبْضِها عن التعدِّي. وهذا خطابٌ قد أرشَدْنا فيه إلى مناهجَ سَويّة، وحضَضْنا فيه على أمورٍ ضروريّة، وأتَيْنا فيه بما يجبُ البِدارُ إليه، وخيرُ العمل ما دوومَ عليه، واللهُ مُعينُـكم، والسلامُ عليكم. وكُتِبَ في عاشرِ ربيع الأول سنة سبعَ عشْرةَ وست مئة.

وفي سنة ثمانِ عشْرةَ وست مئة: تجدَّدت الـمُهادنةُ والـمُصالحة بينَ وُلاة الأندَلس من الساداتِ والموحِّدين، بأمر أمير المؤمنين المستنصر بالله، وبينَ النّصارى دمَّرهم الله، وكتَبَ الوزيرُ أبو يحيى زكريّا بن أبي زكريّا لمِلِكة قَشْتالَة بنت ملِك قَشْتالة وطُلَيْطُلَة كتابًا من إنشاء ابن عيّاش يُخبرُها بالسِّلم الذي انعقَد بينَه وبينَ رسولِـهم أخزاهمُ الله أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٢/ ١٧، وأبو داود في الزهد أيضًا (٢٠٣٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء من حديث أبي البختري سعيد بن فيروز عن سلمان. وأبو البختري وإن كان من الثقات الأثبات لكنه كان كثير الإرسال يروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد منهم، فما كان من حديثه سماعًا فهو حسن، وما كان معنعنًا فهو ضعيف، وقد عنعنه في هذا الحديث. ينظر تحرير التقريب ٢/ ٤١.

فصلٌ من ذلك

وقدِ انقَلب إليكم رسولًا منكم بما تتعرَّفونَه في السِّلم المنعقد، النيِّر شِهابُه المتَّقد، بينَ الموحِّدينَ وبينكم، بالمخاطبة الكريمة التي حَمَلَها إليكم وحَمَل نحوَكم من الإتحاف ما يُبلِّغُكم على يدَيْه، الذي هو عُنوانُ الـمُخالصة وثمرةُ الـمُواصلة، وكلُّ ما يكونُ من هذا بينَنا وبينكم ينبغي أن يكونَ متقبَّلًا، وعلى أحسن المتأوَّلاتِ متأوَّلًا إن شاء الله، وأنتم بحَوْل الله تقِفُونَ عندَ حدود السِّلم وتحافظونَ عليها وتعاقبونَ كلَّ مَن هَمَّ بإذاية المسلمين، فإنّ الوفاءَ شعارُ الملوك، وعليهم فيه يجبُ السُّلوك. وكُتب سادسَ رمضان سنةَ ثمانِ عشْرةَ وست مئة.

وفي سنة تسعَ عشْرةَ وست مئة: قدَّم أميرُ المؤمنينَ المستنصِرُ بالله أبا محمد ابنَ المنصور، وهو العادل، على مُرْسِيَة وأخَّره عن ولايةِ غَرْناطة.

وفي سنة عشرينَ وست مئة: كانت وفاةُ المستنصِر بالله بمَرّاكُش يومَ السّبت الثانيَ عشَرَ لذي الحجّة من عام عشرينَ المذكور[1]. وفي أيامِه كان ابتداءُ ظهور بني مَرِين أعزَّهم الله، فضَربوا على مدينة فاس، وكانوا في نحو أربع مئة فارس، فخَرج للقائهم وحربِهم واليها السيّدُ أبو إبراهيمَ والدُ المرتَضى فهزَموا جمعَه وأسروه عندَهم ثلاثةَ أيام، ثم أطلقوه وبَعَثوا به إلى فاسَ معَ بعض عجائزِهم مكرَّمًا معظَّمًا بعدَما سَلَبوا كلَّ مَن كان خَرج معَهم إليهم من ثيابِهم وأخَذوا دوابَّهم وبالَغوا في تجريدِهم حتّى كانوا يَستُرونَ عوراتِهم بالمشغَلة، فسمِّي ذلك العامُ عامَ المشغَلة، وهو عام ثلاثَ عشْرةَ وست مئة، فلم يَزلِ السيِّدُ المذكور يُواليهم بالإكرام والبِرِّ والاحترام ويعطيهم ويُرضيهم في كلِّ عام، ويقرِّبُهم ويُدْنيهم من هذا العام إلى عام سبعةَ عشَرَ حين ظهورِ الأمير أبي سعيد عثمانَ بن عبد الحقِّ[2]، فإنه استبدَّ برأيِه دونَ غيرِه إلّا ما كان من مراسَلات بينَهما ومُهادَنات إلى آخِر دولة المستنصِر بالله في عام عشرين.

---

(١) المعجب ٤١٠-٤١١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٤٥.

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٩٧ و٧/ ٢٢٣ فما بعدها.

وفي أيام المستنصِر بالله وصَلَ القاضي أبو محمد عبدُ الله بن عبد الحقِّ[1] من إشبيلِيَة إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ باستدعائه إياه واعتنائه به ولم يزَلْ عندَه وعندَ مَن وَلِـي بعدَه من خُلفاء بني عبد المؤمن مكرَّمًا معظَّمًا إلى أن توفِّي رحمه اللهُ تعالى. ولم تكنْ للمستنصِر بالله حركةٌ ولا غَزْوة ولا خَرَج من حضرتِه إلا لمدينة تينملَ على العادة في التبرُّك بالـمَهْدي، فما وقَفْتُ له على خبرٍ أذكُرُه إلا ما رأيتُ في بعض الرسائل واللهُ يؤتي مُلكَه من يشاء.

ذكرُ بيعة أبي محمد عبد الواحِد المخلوع[2]

هو عبدُ الواحد بن يوسُف بن عبد المؤمن، بُويعَ بمدينة مَرّاكُش يومَ الأحد الثالثَ عشَرَ لذي حجّةٍ من سنة عشرينَ وست مئة، وخُلع يومَ السّبت الـمُوفي عشرينَ لشعبان وخُنق بعدَ ثلاثة أيام من خَلْعِه، وذلك يومَ الاثنين الثاني والعشرين لشعبانَ المكرَّم من سنة إحدى وعشرينَ وست مئة، فكانت مدّةُ خلافتِه بمَرّاكُش ثمانيةَ أشهر وتسعةَ أيام، وخالَفَ عليه[3] عبدُ الله[4] ابنُ أخيه يعقوبَ المنصور الملقَّب بالعادل بمُرْسِيَة ونازَعَه في اسم الخلافة بعدَ شهرَيْن اثنينِ من بيعتِه إلى أن خُلع وتخَلَّص الأمرُ للعادل بالعُدوتَيْن بعدَ ستة أشهر منَ استبدادِه، أولُها يومَ الثلاثاء الثالثَ عشَرَ من صَفَر من سنة عشرين، وآخِرُها يومَ السّبت آخِرَ دولة أبي محمد لكونِه دُخِل عليه القصرُ في هذا اليوم بمَرّاكُش وفي يوم الأحد بعدَه أشهَدَ على نفسِه بالخَلْع وتوفِّي ليلةَ[5] الأربعاء الخامس والعشرين لشعبانَ من عام إحدى وعشرينَ وست مئة[6].

وفي سنة إحدى وعشرينَ وست مئة: قام أبو محمد العادلُ بمُرْسِيَة وبويعَ بها، وطاعَت له بعضُ بلاد الأندَلس، وناب إليه بعضُ الموحِّدين، وبقي آخَرونَ[7] إلى أن

---

(١) ترجمته في التكملة الأبارية (٢٢٠٣)، وتاريخ الإسلام ١٢/ ٨٣٣.

(٢) المعجب ٤١١، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٤٥، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٦٧٤.

(٣) شبه الجملة ليس في ق، ك.

(٤) المعجب ٤١٦، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٧٦٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٥) في ق: «يوم»، وما أثبتناه من النسخ الأخرى.

(٦) المعجب ٤١١، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٦٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٨.

(٧) في ق: «الآخرون».

خَلُص الأمرُ له ووصَلتْه بيعةُ الموحِّدينَ من مَرّاكُش، وكتَبَ أبو محمد العادلُ من مُرْسِيَة، إلى أبي محمد ابن السيِّد أبي عبد الله ابن السيِّد أبي محمد البَيَّاسيِّ حين انخلاعِه عن دعوة ابن أخي جَدِّه أبي محمد عبد الواحد ودخوله تحتَ دعوة العادل، كتابًا بالشُّكرِ والاعتناء، وكان أبو محمد عبدُ الواحد حين خَلَعه الموحِّدونَ في سنِّ الشّيخوخة فنَسَخَ الخَلْعُ أمرَه قبلَ التمكُّن فعُدَّ في الأوامر المنسوخة، فما كان إلا القتلُ حتى تحوَّلت إلى غيرِه أجنادُه ومواكبُه.

ذكرُ دولة العادل ابن المنصور ابن الخليفة يوسُفَ بن عبد المؤمن

بُويعَ بمُرْسِيَةَ يومَ الثلاثاء الثالثَ عشَرَ لصَفَر من عام أحدٍ وعشرين وست مئة، وتوفِّي يوم السبت الحادي والعشرينَ لشوّال سنة أربع وعشرين، فكانت دولتُه ثلاثةَ أعوام وثمانيةَ أشهر وتسعةَ أيام، منها إلى أن خُلع أبو محمد عبدُ الواحد ستةُ أشهر وتسعةُ أيام، ولـمّا أصفَقَ الناسُ على بيعة العادل بمُرْسِيَة توجَّه منها إلى إشبيلِيَة، وكان أخوه أبو العُلى المأمونُ[1] واليًا على قُرطُبة وعبدُ الله البَيّاسيُّ واليًا على إشبيلِيَة، فبايعاه[2] بها، واجتَمع ثلاثتُهم فيها، وبها وصَلَه البيعاتُ من أهل الأندلس ما عدا بَلَنْسِيَةَ ودانِيَة وشاطِبَة وجزيرة شُقر، فإنهم كانوا إلى نظَر السيِّد أبي زيد أخي البَيَّاسيِّ المذكور وأخي أبي دبّوس، ثم وصَلَه بإشبيلِيَة بيعةُ أهل مَرّاكُش وبلاد الغَرْب. ولـمّا استقرَّ العادلُ بمَرّاكُش وَلّى أخاه أبا العُلى مدينةَ إشبيلِيَة ووَلّى البَيّاسيَّ قُرطُبَةَ، وذلك في سنة اثنتين وعشرينَ وست مئة[3].

وفي سنة اثنتين وعشرينَ وست مئة: استقامتِ الأمورُ والأحوال لأمير المؤمنينَ العادل بمدينة مَرّاكُش، فأقرَّ عُمّالَه على أعمالِـهم وخُدّامَه على طبقاتِهم في أمورِهم وأحوالِـهم وجميع أشغالِـهم في البلاد الغَرْبية والأندَلسيّة، وكتَبَ عندَ وصُوله إلى الحضرة للأندَلس:

---

(١) ليست في ق، ك.

(٢) في ق: «فبايعه».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

فصلٌ من ذلك

وأن تعلَموا رضيَ اللهُ عنكم أنّ الموحِّدينَ أعزَّهم الله لم يَزالوا يتعرَّفونَ في أوْبتِهم هذه من التيسير والتسهيل، واستصحاب الصُّنع الجميل، ما قرَّب لهم كلّ قاصٍ، وذلّل لهم كلَّ عاص، ويسَّر كلَّ عسير وجَبَر كلَّ كسير، إنجازًا منه سبحانَه للمواعيد الصادقة، وصِلةً لأسباب العناياتِ اللاحقة، تنثالُ عليهمُ الخيراتُ انثيالًا، وتُوافيهم المسَرّاتُ بُكَرًا وآصالًا، وتتلقّاهم وفودُ الموحِّدين من كلِّ جهة أرسالًا يتسابقونَ إلى لقائهم تسابُقَ الطّير إلى الأوكار، ويتبارَوْنَ في حِفظ ما أُخِذ عليهم من الوفاء بما التزَموه من العقود تباريَ السُّراة الأحرار، وها هم بحمد الله قدِ انتَظَم شَمْلُهم واتّصل حَبْلُهم واجتَمعت أهواؤهم واتَّفقت على إعزاز كلمة الحقِّ آراؤهم، وحَلُّوا بدارِ الموحِّدين ومطلَع الخُلفاء الراشدينَ الـمُهتدَين، حيث الجموعُ وافرة، والأعدادُ متكاثرة، وطائفةُ الحق متعاضدةٌ متظاهرة، وذلك حلولَ استدعاءٍ واستنفار، لا حلولَ إقامة واستقرار، عازمينَ على الجهاد، واللهُ تعالى يُمضي عزائمَهم، ويجَبُرُهم على جميل معتقداتِهم على جهاد أعداءِ الله الكفّار، فاعلموا وفَّقكم اللهُ ذلكم واللهُ يُبلِّغُكم آمالَكم والسلامُ عليكم.

وفي سنة ثلاث وعشرينَ وست مئة: قام عبدُ الله البَيَّاسيُّ بالأندلس، وكان العادل وَلّاه قُرطُبة، فخَلَع دعوةَ العادل وخَرج عن طاعة الموحِّدين واستعانَ بالنّصارى عليهم ودَلَّهم على عَوَراتِ تلك البلاد، وأدخَلهم قيجاطةَ وغيرَها من بلاد المسلمين، فتمَلَّكوا الأموالَ وقتلوا الرجال وسَبَوا الحَريمَ والأولاد. ثم دخَل بهم حِصنَ باجَة ولُوشَةَ وغيرِهما من الحصُون الإسلاميّة. وذُكِر عن هذا البَيّاسيِّ أمورٌ شنيعة، منها: أنه دخَل في دين النَّصرانية وكان شيخًا مُسِنًّا فنسأَلُ اللهَ العافيةَ وحُسنَ العاقبة[1].

ثُم نزَلَ البَيَّاسيُّ المذكورُ لعنه الله على إشبيلِيَة مُحاصِرًا لها وأبو العُلى أخو العادل فيها مُحاصَرًا بها، فخَرج إليه بعسكر المسلمين فهَزَمه اللهُ معَ مَن كان معَه من الكافرين في الخامس والعشرينَ لصَفَر من السّنةِ المؤرَّخة، وكتَبَ أبو[2] العُلى إلى أخيه العادل من إشبيلِيَة يخبره بهزيمة البَيّاسيِّ، فمن ذلك:

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٢) سقطت من ق، ك.

الحضرةُ الإماميّةُ الظاهرةُ العَلِيّة، مقامَ الفضل الباهر، ومقرَّ العدل المشتهَر في البادي والحاضِر، حضرةَ سيِّدِنا الخليفة الإمام العادل أمير المؤمنين ابن الأئمة الخلفاء أمراءِ المؤمنين أدام اللهُ لها اتّصالَ البشائر وخلَّد في صُحُف اللّيالي والأيام ما لا يزالُ يجدِّدُه برحمتِه لها من قهر الـمُنافر ونَصْر المظاهر. عبدَها الباذلُ في خِدمتها العَلِيّة نفسَه ونفائسَه، وفي الذَّبِّ عن خلافتِها السعيدة وإمامتها الحميدة راجلَه وفارسَه، المشمِّرُ عن ساعدِ جَدِّه في مقارعةِ الصّادِّينَ عن قصدِه، بهمّةٍ في العمل المبرور منافسة، وعزمةٍ من النّصر الموعود غير آيسة، لِـما أحلَّه اللهُ من الـمُلِمّات بعدوِّه البائس وطائفتِه البائسة، عبدَها إدريس، سلامٌ كريم على المقام الإماميِّ ورحمةُ الله وبركاتُه، وبعدَ حمدِ الله الذي أبَى إلا أن يُتِمَّ نُورَه، ويصلَ الخليفةُ العادل الفاضلُ اعتلاءه وظهورَه، والصّلاةُ على سيّدِنا محمد رسولِه المصطفى الكريم ذي الدعوة المنجزة والوسيلة المذكورة، وسيِّد الأوّلينَ والآخِرين، صَفْوة الصّفوة وخِيرة الخِيَرة، فكتَبَ العبدُ المسترَقُّ شخصُه وفؤادُه، المستحقُّ بغمر الأيادي والفضل المتمادي جَدُّه واجتهادُه، كتَبَ اللهُ للمقام العالي من أنباءِ المسارِّ ما يقترنُ به التواتر، ويرتفعُ به التشاجُر من إشبيلِيَة.

ومنها: ولـمّا كان يومُ كتابه نزَل العدوُّ المذكور فكانت بينَنا وبينَه مُواقفاتٌ غُلِب فيها باطلُه، ومُحي بعَوْن الله أملُه، وهو قَصَمه اللهُ يُحاولُ الانتهاض ويَرُومُ الاحتمال وبناؤه[1] قد مال، فوَلَّى أمامَ حزبِ الله الموحِّدين ما ابتَلَع رِيقًا ولا وجَّه إلى غير الفِرار طريقًا، تكتنفُ السِّهامُ أذُنَيْه وتسبِقُ الشِّفارُ إليه، وتكادُ عُقبانُ المنايا الواقعةُ على جُزَعائه وجُرَحائه تقعُ عليه، فكم خلَّف خلفَه من قَتيل مضرَّج بدمِه وجريح عضَّ بنانَ ندَمِه، أردَتْه مواعيدُه الكاذبة وتمويهاتُه العائدةُ عليهم وعليه بسُوء العاقبة، وتَبِعتْهم أجنادُ الله إلى مَضاربِهْ فألفَوْها حُرَمًا مُصفِقةً بالرِّياح، لا بل خِلَقًا ممزَّقةً بالرِّماح، فد أخلاها جَزَعًا وخلَّاها فَزَعًا، وأوَى إلى رَبْوة ليست ذاتَ قَرارٍ ولا مَعِين، واستمسَكَ بعُروة لا تَثبُتُ معَ شمالٍ ولا يمين، وكانت الشمسُ قد وجَبَت وأسحَبَت، والظُّلمة قد أزِفت وأزلَفَت، فمَحَت الأشخاصَ من النّواظر، وعمَّت تلك الرَّبوةَ على الأقدام والحوافر، ولولا سوادُ اللّيل خامَرَه السِّنان المؤلَّل، وغادرَه بالأثلاث لحمًا لا يُظلَّل.

---

(١) في ب، ق، ك: «وبقاؤه»، ولا معنى لها.

ومنها: وإنّ المحنةَ بهذا البائس قد بَلَغت مَداها، وانقَبَضت بعدَ البَسْط يداها، وانتهى إلى غايةٍ لا يتعدّاها، والحمدُ لله الذي أذَلّ للخلافة العادلية أحدَ عُداتِها، وأنصَفَها من مُنازِعِها بأداتِها، فكافرُ النِّعم تستحيلُ عليه نِقَمًا، وحاجبُ الشمس ضوءَها حافظًا بينَ ظلام وعَمَى، والموحِّدون عازمونَ على اتّباع هذا العدوِّ إلى أن يَدَعُوهُ عقيرًا أو يَستثبِلوهُ[1] أسيرًا إن شاء اللهُ تعالى. وكُتب في ربيع الأوّل من عام ثلاثة وعشرينَ وست مئة.

وكتَبَ أيضًا أبو العُلى لأخيه العادل يُخبِرُه برجوع بلد طليطلة إليه[2] وانتزاعِها من يدِ البَيّاسيِّ المذكورِ بعدَما هَزَمَه.

وفي هذه السَّنة: رجَع أهلُ حصن القَصْر إلى والي إشبيلِيَةَ أبي العُلى وخَرجوا عن طاعة البَيّاسيِّ الذي مَحَى اللهُ أثَرَه عندَ جَوْلتِه الخائبة ودعوته الكاذبة، قدِ استمال جُملةً من حُصون الشَّرَف أتباعًا خَفَّت أحلامُهم وما رجَحَت، وخَفِيت عنهم سبيلُ الحقِّ فما وَضَحت، وتلقَّوه تلقِّيَ البِدار، وتطارَحوا عليه تطارُحَ الفراش على النار، وإذا أراد اللهُ بقوم سُوءًا أعمى بصائرَهم[3]، وطَوى على كُفر النِّعم سرائرَهم، وكان لـمّا فَتَح أبو العُلى حصنَ القَصْر المذكور واستمرَّ فتحُه لغيره من حصون الشَّرَف ولم يبقَ للبَيَّاسيِّ منها إلا الأقلّ.

وفي هذه السَّنة: قامتِ العامّةُ من أهل قُرطُبة على البَيّاسيِّ المذكور وقَتَلوه وبَعثوا برأسِه إلى إشبيلِيَة فبعَثَه السيّد أبو العُلى إلى حضرة مَرّاكُش إلى العادل، وكتَبَ عن أميرِ المؤمنين العادل جوابًا لأخيه أبي العُلى بعدَما ورَدَ إليه كتابُه معَ رأس البَيّاسيِّ يتضمَّنُ تقديمَ أخيه أبي العُلى المذكور[4] على قُرطُبة مضافةً له لإشبيلِيَة.

وفي سنة أربع وعشرينَ وست مئة: خالَفَت عَرَبُ الخلطِ على العادل، فجهَّز إليهم عسكرًا فهزَمتْه الخلطُ، وكان أوّلَ جيش جهَّزه العادلُ من عساكر الموحِّدين[5].

---

(١) أي: يبقوه، مأخوذ من الثبل، بالضم والتحريك، وهو البقية في أسفل الإناء وغيره، كما في معجمات اللغة.

(٢) شبه الجملة سقط من ق.

(٣) في ق، ك: «أبصارهم» وما أثبتناه أوفق للسجع.

(٤) سقطت من ق.

(٥) الاستقصا ٢/ ٢٣٢.

وفيها: قام بعضُ أشياخ الموحِّدين على العادل بمدينة مَرّاكُش حَرَسَها الله، ثم بعدَ ذلك قَتلوه، وكان السببُ في قَتْل العادل على ما ذَكَره بعضُ العارِفينَ بذلك أنّ الموحِّدينَ استعَدّوا لقتال الخلط وهسكورةَ، ووصَلت الحِصَصُ من جبالهم برَسْم قتالهم، فاستأذَنوا في ورودِهم إليه وقدومِهم عليه، فوعَدَهم ليوم الخميس الآتي، ثم بعدَ ذلك بَلَغَهم عنه ما أغاظَهم من القول الذّميم لهم، فبينَما العادلُ قاعدٌ في القُبّة معَ كُبَراءِ الدولة، إذ أقبَلوا قاصِدينَ إليه، فعندَما عايَنَهم وفَهِم الشرَّ منهم، قام عن[1] مجلسِه ودخَل القصر، فاتّبعوه ودخَلوا عليه مسرعينَ لقتله، فتعرَّض لهم بعضُ الفِتيان فقَتلوا أحدَهم وقَتلوا للعادل ابنًا صغيرًا، واختفَى العادلُ حينَئذٍ، ثم بعدَ ذلك ظَفِروا به وقَتلوه وكتَبوا بيعتَهم لأخيه أبي العُلى المأمونِ وبعَثوا[2] بها إليه، ثم نكَثوا إثْرَ ذلك عليه[3].

وفي هذه السَّنة: قام بإشبيلِيَةَ أبو العُلى المأمونُ ودَعا لنفسِه وخَلَع طاعةَ أخيه لتغلُّب الموحِّدينَ عليه، وبويعَ بها في الثاني لشهر شوّال على ما أذكر بعدُ إن شاء الله تعالى[4]. وكان من أوّل تخلُّص الأمر للعادل إلى أنْ دَعا أخوه[5] لنفسِه مُنازعًا له ثلاثةُ أعوام وشهرٌ واحد وعشَرةُ أيام، أولُها الثاني والعشرون لشعبان من سنة إحدى وعشرين، وآخِرُها مفتتَحُ شوّال لكونِ أبي العُلى بويعَ في الثاني منه ودخَل القصر على العادل بمَرّاكُش، وقيل: في الثاني والعشرينَ منه، فكانت مدةُ تنازُعِهما عشرينَ يومًا، وكان دخولُ الموحِّدينَ عليه القَصْرَ وقَبْضُهم عليه غُدوةَ يوم الأربعاء الثاني والعشرينَ المذكور، وقَتلوه بعدَ أربعةَ عشَرَ يومًا من خَلْعِه وعَزَموا على بيعةِ أخيه أبي العُلى. وقيل: إنهم بايَعوه بكَتْبِهم له ثُم نَدِموا على ذلك ونكَثوا عليه لكونِهم خَلَعوا عمَّه ثم قَتلوه ثم قَبَضوا على أخيه العادل وقَتلوه وقدَّموا ابنَ أخيه يحيى وتَركوا أبا العُلى لخَوْفِهم منه من فعلهم بعمِّه وأخيه إلى أن أمكَنَه اللهُ منهم.

---

(١) من هنا إلى قوله: «بعضُ الفتيان» سقط كلّه من م، والسقط والتحريف والتصحيف فيها كثير، وقد أضربنا عن تتبُّع ذلك في تعليقاتنا لكثرته، كما نوّهنا إلى ذلك قبلُ.

(٢) من هنا إلى قوله: «ودعا لنفسه» في الفقرة الآتية سقط من ب، ق، ك.

(٣) ينظر هلاك العادل في المعجب ٤١٦، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٩.

(٤) المعجب ٤١٦.

(٥) في النسخ: «أخاه» ولا يصح نحوًا.

ذكرُ بيعة يحيى ابن الناصر[1]

بُويعَ يومَ الأربعاء الثاني والعشرينَ لشوّال على الرِّواية المتقدِّمة، وتوفِّي يومَ الأحد منسلَخَ شوّال من سنة ثلاث وثلاثينَ وست مئة، فكانت دولتُه تسعةَ أعوام وتسعةَ أيام أولُها يومُ الأربعاء المذكور، منها من أول بيعتِه إثْرَ القَبْضِ على العادل إلى أوّل دولةِ الرّشيد إلى وفاة[2] الـمُبايَع له بعدَ أخيه أبي العُلى خمسةُ أعوام وشهرانِ اثنان، ومنها من أوّل دولة الرّشيد إلى وفاة أبي زكريّا المذكور ثلاثةُ أعوام وعشَرةُ أشهر، أولُها يومُ الأحد مفتَتح شوّال وآخِرُها يومُ الأحد أيضًا منسَلَخ شوّال من سنة ثلاث وثلاثينَ وست مئة، وهو يومُ وفاة أبي زكريّا على ما سيأتي ذكرُه معَ بعض أخبارِه في دولة الرّشيد إن شاء اللهُ تعالى.

وكانت دولةُ يحيى نَكِدة كلُّها لم يستقرَّ له الأمرُ إلا نحوَ سنتَيْن، فلمّا وصَل عمُّه أبو العُلى هزَمَه وفَرَّ أمامَه وسار يَخوضُ في البلاد معَ بعض الموحِّدين إلى أن تحرَّك أبو العُلى إلى سَبْتَةَ وحاصَرَها، ودخَل يحيى مَرّاكُشَ أيضًا ثانيةً، ثم سَمِع عن وصُول عمِّه فخَرج منها وتَبِعَه الرّشيدُ بعدَ موتِ أبيه فهزَمه، ودخَل الرّشيدُ مَرّاكُشَ ثم بعدَ ذلك فَرَّ الرّشيدُ هاربًا أمامَ الخلطِ وهسكورة، ودخَلها أيضًا أبو زكريّا معَهم إلى أنْ جدَّد الرّشيدُ حركتَه من سِجِلماسَة والغَرْب ووصَل مَرّاكُشَ فهزَمه وفَرّ أمامَه، فما زال بعدَ ذلك يخوضُ في البلاد إلى أن غَدَره بعضُ عَرَب المعقِل وبَعثوا رأسَه إلى الرّشيد في أوائل شهرِ ذي القَعْدة من عام ثلاثة وثلاثينَ حسبَ ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ بيعة أبي العُلَى المأمون ومدّتِه وبعضِ أخبارِه معَ الموحِّدين في دولتِه[3]

هو أبو العُلَى[4] إدريسُ بن أبي يوسُف يعقوبَ المنصورِ بن أبي يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن، بُويعَ بإشبيلِيَةَ يومَ الخميس ثاني شهرِ شوّال من سنة أربع وعشرينَ وست مئة،

---

(١) المعجب ٤١٦.

(٢) قوله: «إلى وفاة» سقط من ب، ق، ك.

(٣) المعجب ٤١٦، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٨٧٦، والإحاطة ١/ ١٤٧، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٠، والاستقصا ٢/ ٢٣٦.

(٤) الكنية مجودة بخط الذهبي في تاريخ الإسلام، ووقع في بعض المصادر: «العلاء» وهو خطأ.

وتوفِّي يومَ السبت منسَلَخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرينَ وست مئة، فكانت دولته خمسةَ أعوام وثلاثةَ أشهر، منها، من أوّل تنازُعِه معَ أخيه العادل إلى يوم دخول القَصْر عليه بمَرّاكُش وبَيْعة أبي زكريّا بن الناصر، عشرون يومًا، ومنها من أول دولة أبي زكريّا إلى يوم وفاة المأمون المذكور خمسةُ أعوام وشهرانِ اثنان وتسعةُ أيام، أوّلُها يومُ الأربعاء الثاني والعشرين لشوّال من سنة أربع وعشرين المؤرَّخة، وآخِرُها يومُ السّبت منسَلَخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرينَ وست مئة، فكانت دولةُ المأمون مزدِحمةً كلُّها مع العادل ومعَ أبي زكريّا.

وسببُ بيعة أبي العُلى المأمونِ بإشبيلِيَة أنه لـمّا قام أخوه العادلُ بمُرسِيَة ودَعا لنفسِه بها وبُويع فيها وخَلَع الموحِّدون عمَّه عبدَ الواحد بمَرّاكُش وبعَثوا إليه بيعتهم واستقامت له الأمور، تحرَّكت نفْسُ أخيه أبي العُلى المذكور لطلب الإمرةِ والخلافة، فما زال يشغَلُ نفسَه بذلك ويستميلُ نفوسَ الموحِّدينَ المستوطِنين هنالك.

وكان معَه بإشبيلِيَةَ المذكورة جُملةٌ من وجوه الموحّدين وأشياخِهم، فلم يُمكنْهُ إظهارُ ذلك لهم؛ لأنه لا يَعلَمُ ما يَصدُرُ له منهم ولا يَعلَمُ ما في نفوسِهم له من القَبول على مرادِه أو الإضراب عنه، فأخَذ في ذلك معَ القاضي أبي الوليد بن أبي الأصبَغ بن حجّاج، وذلك في شهر رمضانَ المعظَّم من عام أربعة وعشرينَ المذكور، وأمَرَه أن يُنشئَ[1] خُطبةً بليغة، فذكَرَها يومَ عيد الفطر، وكان قريبًا من هذا التدبير ليَستروِحَ في ذلك لذكرِه وليَعلَمَ ما في نفوس الموحِّدينَ من أمرِه، فشَرَعَ القاضي في إنشاءِ الخُطبة المذكورة وخَطَب يومَ العيد، وكان مساقُه لها أنْ بدَأ بخَلْق السَّمواتِ والأرض ثم ذكَر قولَ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم ذكَر ما معنى الخليفة، إلى أنْ ذكَر الـمَهْديَّ ثم ذكَر عبدَ المؤمن إلى أنْ وصَل لذكر العادل، فأخَذ فيه مأخَذًا حسَنًا وتسلَّل منه بلُطف وتسبَّب لذكرِ أخيه أبي العُلى، ورقَّق وعرَّض، ثم أخَذ بعد ذلك بأنْ أشار بالتّصريح لذكره والتلويح بالقيام بأمره، ومعَ ذلك كان الخطيبُ المذكور وأبو العُلى في غاية من الخوف والحَذَر، إذ لم يكنْ عَلِم أحدٌ بذلك غيرُهما ولا دبَّر ذلك الأمرَ أحدٌ معَهما.

---

(١) من هنا إلى قوله: «لذكره» سقط من ب.

ولقد عرَّفني من أثِقُ به أنه شاهَدَ رِعدةَ الخطيب في وقوفه، بحيث أنه كان قريبًا من السقوطِ إلى الأرض، وكلُّ ذلك من شدّة الخوف من عاقبة الأمر.

فلمّا كان ثاني يوم الفِطر حضَر في مجلس أبي العُلى أشياخُ الموحِّدين وأشياخُ إشبيلِيَةَ أجمعين، ووقَعَ ذكْرُ الخُطبة وإجادتِها، وأمَرَ القاضي الخطيبَ بإعادتِها ليسمَعَها مَن لم يعلَم القصدَ بها، فأعاد الدعاءَ للخُلفاء، فلمّا وصَل لذكر أبي العُلى أطنَبَ فيه، فقام الحاضِرون بجَمْعهم إليه وأخَذوا بيده وأقعَدوه مقعدَ الخلافة وبايَعوه.

ولـمّا اتّصل ذلك بالموحِّدينَ بمَرّاكُش فَعَلوا ما فَعلوه معَ العادل بعدَما كتَبوا إليه وعوَّلوا في الخلافة عليه، ثم نَدِموا وقدَّموا ابنَ أخيه كما تقدَّم ذكرُه، فهاجت نفسُه لذلك واتَّقدت جَمْرتُه لهم هنالك، فبقيَ بإشبيلِيَةَ يحاولُ أمرَه، ليأخُذَ منهم ثأرَه، إلى أن كان ذلك على ما سيأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

أبناؤه: أبو محمد عبدُ الواحد وعبدُ العزيز وعثمان وأبو الحَسَن عليّ. **بناتُه:** أمَةُ العزيز وصفيّة وعائشةُ ونَجْمة وفَتْحُونة؛ وأُمّهاتُ الذكورِ والإناث رُوميّات وسَرِيّات.

وُزراؤه: أبو زكريّا ابنُ أبي الغَمْر وغيرُه.

وكتَبَ له جملةٌ من الكُتّاب منهم: أبو زكريّا الفازازيُّ وابنُ عَمِيرة، وأبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ، وأبو عبد الله بنُ عيّاش، وأبو العبّاس بن عِمران، وغيرُ هؤلاء من الكُتّاب.

ولـمّا بويعَ أبو العُلَى المأمونُ بإشبيلِيَةَ طاعت له بعضُ بلاد الأندَلس وبايَعَه بها السيِّد أبو زيد صاحبُ بَلَنْسِيَة وكتَبوا بيعتَهم إليه.

وفي سنة خمس وعشرينَ وست مئة: كان ابتداءُ ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن هُود الجُذاميِّ[1] بشَرْق الأندَلس على ما أذكُره، وذلك أنّ السببَ في ابتداءِ ظهورِه ونُجح أمورِه في رجَب من هذه السنة المؤرَّخة هو القائدُ الغشتيّ، وكان هذا الغشتيُّ رجلًا حوّاسًا[2] وتحتَ يدِه جماعةٌ كبيرة من أراذلِ الناس السِّفْلة الخِسَاس، وصاروا له أعوانًا وجُسّاسًا، فكان يقطعُ بهم الطُّرُقات في تلك النواحي والجهات، كأنّهم

---

(١) المغرب لابن سعيد ٢/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠، والإحاطة ٢/ ١٢٨.

(٢) أي: لصًا.

مُغاوِرونَ فيها للرُّوم المجاوِرينَ إليها، حتى اشتدّ ضرَرُه هنالك بالأرض ومَن عليها، ولحِقَ أذاه المسلمينَ المتردِّدينَ في طُرُقاتهم لتجاراتهم. وكان هذا محمدُ بن يوسُف رجلًا من أصناف الجُند بمُرْسِيَةَ وغيرِها لكنّه كان لأسلافِه القُدماءِ تقدُّمُ مُلك تلك البلاد الشّرقية الأندَلسيّة تقلَّدوا حُكمَها قديمًا وأمرَها، فقيل: إنّ بعضَ المنجِّمينَ كان يقول لبعض أُمراء بني عبد المؤمن: إنّ قائمًا يقومُ عليكم بتلك البلاد يكونُ من صِنف الأجناد اسمُه محمد بن يوسُف، فقَتلوا بسبب ذلك شخصًا بجَيّان يُسمَّى بذلك الاسم، وظَنُّوا امتحاءَ[1] ذلك الرَّسم، فوقَع في النفوس من ذلك ما وقَع إلى أنْ خَرج ابنُ يوسُفَ هذا من مُرْسِيَة إلى مَرّاكُش في خِدمةٍ بمخاطبةٍ إلى أميرِ المؤمنين المستنصِر بالله فوصَل بالـمُخاطبة إليها واسمُه مكتوبٌ فيها، فصُرف بعدَ أيام من مَرّاكُش إلى بلادِه فقيل: إنه لم يُعطَ كتابًا ولا جوابًا وإنّما خَرج فارًّا بنفسِه خائفًا على رأسِه.

فلمّا كان في بعضِ الأيام لقِيَه شخصٌ منجِّم يدَّعي ذلك العِلمَ بزَعْمِه ويَحكُم بما يراه في نَجْمِه، وذلك كلُّه بحُكم الله سبحانه الذي سبَق في علمِه، فنَظَر إليه وقال له: يا أبا عبد الله، أنت هو سلطانُ الأندَلس، فانظُرْ لنفسِك وانْجُ برأسِك، فإنّي رأيتُ فيك علامةَ الـمُلك وتصييرِه إليك، وأنا أدُلُّك على مَن يقيمُ لك مُلكَك وأشيرُ به عليك، فانهضِ الآنَ إلى المقدَّم الغشتيِّ، ومعَه يقومُ أمرُك وحالُك، وتكونُ جماعتُه خُدّامَك ورجالَك، فنهضَ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُفَ المذكورُ إلى تلك الجماعة ومقدَّمِها الغشتيِّ المشارِ إليه[2].

فلمّا وصَل إليه وقَصَّ خبَره عليه سُرَّ الغشتيُّ بذلك سُرورًا عظيمًا، وكان محمدُ بن يوسُفَ هذا على فَرَس ذكرٍ أشهَب، وبه استدَلّ الـمُخبِرُ له فيما زَعَم من عِلمِه، وذلك من العَجَب، فكان هذا الحصانُ عندَ ابن هود ذا شأنٍ وعزّة، فقال المقدَّم لابن هود: ما بيني وبينَك كلامٌ في شيء منَ الأشياء حتّى نخرجوا معَك للمغاورة ونجتمعوا عليك ونَنْسوا خروجَنا إليك، فخَرجوا على سَعْدِه إلى جهة من جهات الرُّوم فاكتَسَحوا ما فيها

---

(١) في ك: «محو»، وهو بمعنى.

(٢) تنظر الإحاطة ٢/ ١٢٨.

من البَقَر والأَسرى، وكان قدِ انضافَ إلى ابن هود أُناسٌ آخَرونَ اتّبعوه ثم زادوا إثْرَ تلك الوِجهة طائفةً أخرى وانضافوا جميعًا معَ طائفة الغشتيِّ فنهَضوا إلى موضعٍ يُعرَف بالصُّخَيْرات[1]: بمقرُبة من مُرْسِية، فبايَعوه هنالك، فتسامَعَ الناسُ بذلك فبادَروا إليه خِفافًا وثِقالًا فُرسانًا ورجالًا، لعلمِهم بما وقَعَ بينَ الموحِّدين وأُمرائهم من خَلْعِهم لمخلوعِهم وقَتْلهم لعادلِهم الذي كان واليَ مُرْسِية. ثم ولِي بعدَه مُرْسِيَةَ السيّدُ أبو العباس بنُ أبي موسى بن عبد المؤمن، وهو الذي خَرج عليه ابنُ هود في هذه السنة فخَرج إليه بعسكر من مُرْسِيَة فهَزَمه، ثم خَرج إليه والي بَلَنْسِيَةَ السيّدُ أبو زيد فهزَمه واستَولى على محلّته، وعاد إلى مُرْسِيَة فزَحَف بجَمْعِه إليها برايةٍ سوداءَ يدَّعي أنه قائمٌ بدعوة بني العباس، فبايَعَه فيها لَفيفُ الناس، ونبَذوا طاعةَ الموحِّدين وارتفَع عنهم بذلك الشكُّ والالتباس، وشاع ذكرُ ابن هُود في الأندلس وأقطارِها، إلى أنْ ملَكَ البلاد وجنَّد الأجناد، وعاهَدَ لصاحبِه الغشتيِّ أنه إنْ ملَكَ مُلكَ البلاد الأندلسيّة أن يُعطيَه القيادةَ البحريّة، فكان ذلك كما عاهَدَه وواعَدَه، فلمّا ملَك إشبيلِيَةَ أعطاه قيادةَ أساطيلِها والنظرَ في أحوالِـها، إلى أن طاعت له سَبْتةُ فأعطاه إيّاها قيادةً وعملًا تنويهًا به، فلمّا علا سَعدُه وكمُل، قام عليه أهلُ سَبْتةَ وأرادوا قتلَه، ففَرَّ أمامَهم وخَفِي أثرُه إلى أن تُحقِّق بعدَ ذلك خبرُه، فقيل: إنه دخَل في زَوْرق صغير ليهرُبَ فيه إلى الأندَلس أمامَ أهل سَبْتة، فحُمِل في أيدي العدوِّ أسيرًا فحُمل إلى جبهة غَرْب الأندَلس ودام في الأسر أعوامًا كثيرة وشهورًا، ولو عَلِموا أنه الغشتيُّ لقَتلوه أو طَلَبوا منه مالًا كثيرًا، لأنه كان قد أضرَّ بهم في البحر وله فيهم جُملةُ غَزَوات قتَلَهم فيها واستَأْصلَهم، وشاع ذكرُه في الآفاق حتى ضُرِب به المثلُ لزعامتِه وشهامته، وخَرج من الأندَلس في شيخوخته، وله أخبارٌ يطولُ ذكرُها، ومات برِباط أَسَفي رحمه اللهُ تعالى.

رَجْع الخبر إلى ابنِ هود[2].

(١) الروض المعطار ٣٥٥ وفيه: الضخور.

(٢) الإحاطة ٢/ ١٢٩.

ذكرُ بعض أخبار الدّولة الـهُوديّة الـمُتوكِّليّة
وقيامِها بالدّعوة العباسيّة في البلاد الأندَلسيّة

بُويعَ ابنُ هود بمُرْسِيَة غُرّةَ رمضانَ المعظَّم من سنة خمس وعشرينَ المؤرَّخة، وتسمَّى بأمير المسلمينَ ومعزِّ الدِّين، وتلقَّب بالمتَوكِّل على الله، وقام بدعوة الخليفة أبي جعفرٍ المنتصِر بالله[1]، فسمّاه مجاهدَ الدِّين سيفَ أميرِ المؤمنين عبدَ الله المتوكِّلَ عليه أميرَ المسلمين، وهكذا كان يُكتَبُ عن ابن هود في أوائل كُتْبه، **علامتُه**: توكَّلتُ على الله الواحد القهّار، وعلامةُ أخيه أبي النّجا: وثِقتُ بالله وحدَه. وكان لسائر إخوتِه علاماتٌ في كَتْبِهم وألقابٌ يمتازونَ بها في رعيّتِهم، فسُمِّي أبو النّجا سالـمٌ عمادَ الدّولة، وأبو الحَسَن عَضُدَ الدّولة، وأبو إسحاقَ شرَفَ الدّولة، فكان يُكتَبُ عنهم: من الأمير فلان. وتوفِّي المتوكِّلُ على الله في سنة خمس وثلاثين، فكانت دولتُه عشَرة أعوام أو نحوَها، قتَلَه ابنُ الرميميِّ بقصر المرنة، قيل: بالسُّم وقيل: بمِخَدّة، وذكَرَ الناسُ في سبب قتلِه أقوالًا، وسأذكُر بعضَ أخبارِه على مرور السِّنين[2].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ خمس وعشرين: تحرَّك المأمونُ بعساكره من مدينة إشبيلِيَة إلى مُقاتَلة ابن هود، فالتقَيا فهَزَم المأمونُ لابن هود أشنعَ انهزام وكتَبَ إلى أهل إشبيلِيَة بشَرْح الأحوال لهم فيها والإعلام، وامتَدَحت المأمونَ أبا العُلَى جماعةٌ من الشعراء، فقابَلَهم بأجزلِ العطاء على هذه الهزيمة وغيرِها، فمنهم: الكاتبُ أبو زيد عبدُ الرّحمن الجُزُولي، قال يمدَحُه في قصيدة طويلة منها [من الكامل]:

كُــلٌّ يقــولُ ونَــصْرُكمْ مــأمونُ ... والـيُمنُ منه عـلى الفتـوح ضمينُ
في كــلِّ محمَــدةٍ عــلى المـأمونِ عبـ ... ـــدِ الله زاد أبــو العُــلَى المـأمونُ
معنــى الخلافــة سرُّهــا مختارُهــا ... مأمونُـــها ميمونُـــها الميمـــونُ
نــصرُ الإمــام أبي العُـلَى جـارٍ عـلى ... حُكــم القــضاء وإنــه لَـــمكينُ
اللهُ أيَّـــد أمـــرَه وقـــضَى لـــهُ ... بـــالظَّفْر بالأعــداءِ وهـــو جَنـــينُ

---

(١) هكذا لقّبه، وهو المستنصر بالله، أبو جعفر منصور بن محمد بن أحمد.

(٢) الإحاطة ٢/ ١٣٢.

نطَق الزّمانُ به وقال محقِّقًا | إذ ذاك أمرُ الله فهو مُبينُ
رَفَعت له أيدي السعودِ مَبانيًا | من فوقِها حِصنٌ عليه حصينُ
قامت على أُسسِ الهداية فاعتَلَتْ | ومَنارُها للمتقدِّمينَ(1) الدِّينُ
وسماؤها النّصرُ العزيزُ وأرضُها | تقوى الإله وإنه لَمُعينُ
أضواءُ أسرار الخلافة كلُّها | بيد الخليفة حبْلُهنَّ متينُ
اهنَأْ أميرَ المؤمنينَ أبا العُلَى | اهنَأْ فأمرُك في العُلَى مكنونُ

ومنهم: الكاتبُ أبو جعفرٍ ابنُ الكاتب أبي عبد الله بن عيّاش، قال من قصيدة أولُها [من الطويل]:

فؤادي بأمداح الخليفة هَيْمانُ | ففيه اعتزازٌ والتغزُّلُ إذعانُ
علَوْتُ ومقصودي الإمامُ أبو العُلى | وفي مَن أياديه على المدح سلطانُ
قصدتُ أميرَ المؤمنين بمدحِه | فأمداحُه للمرءِ يُمنٌ وإيمانُ
هُو المِلكُ المأمونُ لله درُّه | نَماه إلى بيت النبوّة عدنانُ
فما الأصلُ إلّا للنبوّة ينتمي | ومن طِيب ذاك الأصل تنعُمُ أغصانُ
فطاعتُه فرضٌ على الناس كلِّهمْ | وعصيانُه لا شكّ لله عصيانُ
بقِيتَ أميرَ المؤمنين مؤيَّدًا | فإنك رُوحٌ والبريّةُ أبدانُ
ولا زال أمرُ الله يقصُدُ أمرَكمْ | ويحرُسُه طَرْفٌ من النّصر يقظانُ

ومنهم: أبو الحَسَن عليُّ بن الفَضل، قال من قصيدة طويلة يمدَحُه [من مجزوء الرمل]:

ملَكَ العُليا إمامٌ | مالكٌ دُنيا ودينا

---

(١) كذا في النسخ، ولا يقوم للعجز وزن على البحر الكامل، بحر هذه القصيدة، بهذه الكلمة، وقد جعلها ناشرو (م): «للمتّقين».

وأتـى الجـامعَ زُهـدًا مـعَ جَمْـعِ الزّاهـدينا[1]
عقَـدوا الرايـاتِ فيـهِ عَقْـدَ عَـزْم مُخبتينـا
وإلـهُ النـاسِ يقـضي لهـمُ الفـتحَ الـمُبينا
أيُّهـا المـأمونُ صـمِّمْ تَـصْطَليهمْ أجمعينـا
وجـزَاكَ اللهُ عنّـا بجـزاءِ الـمُحسِنينا

ومنهم: أبو أُميةَ إسماعيلُ بن سَعْد السُّعود بن عُفَير، فمن ذلك قولُه من قصيدة أولُها [من الكامل]:

حسْبُ الإمامـةِ أنّـك المـأمونُ لاقـاك طـالعُ سـعدِك الميمـونُ
حسَمَت خلافتُك الخلافَ كما بدا بـسَناك نـورُ الحـقِّ فهْـو مُبيـنُ
فعساكَ عيسى تَنجلي بك فتنةٌ دجّالُـها بـسفالةٍ مفتـونُ
سيَرى مُطيعُ هواه كيف يخونُ مَن رُوحُ الإلـه عـلى حِمـاه أمـينُ
لكنّ أمـرَ الله فـيهمْ والـذي أرجـاه مـن ميعـادِه سِـجِّينُ
مَـن رام يـا مـأمونُ كيـدَك إنّـما كـاد الإلـه وذاك كيـف يكـونُ
يا ابنَ الخلائف يا خليفتَنا الذي نَـسَقُ الفتـوح بـسعدِه مـضمونُ
يُهنيـك بـل يُهنـي الأنـامَ بـشائرٌ يُـصغي العـراقُ لـذكرِها والـصِّينُ
ودعاؤنا عندَ الأصائل والضُّحى كلأتْـك عـينُ الله يـا مـأمونُ

ولم تزَلِ الشّعراء تمدَحُه في كلِّ وقت، فيقابلُهم بالبَذْل لا بالـمَقْت.

ولـمّا صدَر أبو العُلَى المأمونُ من حركتِه بعدَ مقابلةِ ابن هود وهزيمتِه واستقرَّ بإشبيلِيَة حضرتِه، وصَلتْه بعضُ البيعات من بلاد المغرب ووصَلتْه بيعةُ هلال بن مُقدَّم الخلطيّ وأنه تحت طاعتِه وداخِلٌ في سِلكِه وجماعتِه، وأنه لا يتبَعُ يحيى ولو سقاه بكأس

(١) سقط قوله: «جمع» من ك، والعجز مكسور بها أو بدونها. ولعل ما يرمّ الوزن أن يقول: «مع جميع الزاهدينا».

الـمَحْيَا، فكتَبَ له أبو زيد الفازازيُّ عن إذْن المأمون شعرًا يَشكُرُه على فعلِه، ويعِدُه فيه بأقصَى أملِه، وهو [من البسيط]:

الطَّعنُ والضّربُ منسوبانِ للعَرَبِ ... بالسَّمهريّة والهِنديّة القُضُبِ

والحربُ تبعَثُ منها كلَّ معتَرِكٍ ... حفائظًا تترُكُ الأعداءَ في حرَبِ

حازوا الوفاءَ إلى الإقدام وانتَسَبوا ... إلى خلال المعالي كلَّ منتسَبِ

تجشَّمت جُشَمٌ نصرَ المعِدِّ لها ... أسنى الجوائز من مال ومن نشَبِ

وجاءت الخلطُ المشكورُ مقدَمُها ... كالأُسْدِ تبدو عليها سَوْرَةُ الغضبِ

خَفُّوا إلى نصر حزبِ الله واحتَفَلوا ... في عسكر صَخِبٍ أو جَحْفَل لَجِبِ

كتائبٌ ضاقت الأرضُ الفضاءُ بها ... في ظلِّ ألويةٍ منشورةِ العذبِ

فمن صوارمَ مثلَ النّار في صُعُدٍ ... ومن سوابقَ مثلَ الماءِ في صَبَبِ

بحرٌ على البرِّ مرتجٌّ غواربُهُ ... من فوقِه قِطع الرايات كالسُّحُبِ

شواهدٌ صَدَقت فيهمْ مخايلُها ... بها لهمْ من صميم الدِّين والحسَبِ

تذكَّروا مِنَنَ المنصور فاعترَفوا ... لنَجْلِه بعدَ كرّات من الحِقَبِ

والفضلُ يبدو على الأحرار رَوْنقُه ... وليس يَخفى على الباقي من الحقبِ[1]

أمّا هلالٌ فقد أوفَى بذمّتِه ... وفاءَ راعٍ لحقِّ الدِّين والأدبِ

رأى الخلافةَ حَلّت غيرَ موضعِها ... فأدركتْه عليها غَيْرةُ العربِ

وقال لا سِلمَ حتى يُستقادَ لها ... من ظُلم مستلبٍ أو جَوْر مغتصِبِ

وسلَّم الأمرَ للأوْلى الأحقِّ به ... بالرّغم من أنْف أهل الغدْر والكذبِ

وافَتْ مصرِّحةً بالوُدِّ بيعتُهُ ... طليعةً بجزيل النّصر والغَلَبِ

جمعًا لفضلَيْن يلقَى الحُسنيَيْنِ به ... نصرِ الكتائب في الهيجاءِ والكتُبِ

---

(١) سقط البيت كلّه من ك.

صبرًا أبا النّجم صبرًا إنها ظُلَمٌ تُجلَى وتُمحى بفضل الله عن كثَبِ
ودُمْ على حالةٍ تُجنَى عواقبُها أذكى من المسكِ في أحلى من الضَّرَبِ[1]
فعندَ ذلك إيثارٌ ومَرْتَبةٌ تنحطُّ عنها مزايا سائر الرتَبِ
وسوف تلقَى بعَوْن الله مأْثُرةً تحظَى براحتها من سائر التعبِ

ولـمّا تحصَّلت هذه القصيدةُ بيد يحيى بن الناصر، ورأى ما فيها من التحميد لهلال بن مقدَّم الخلطيِّ، أمَرَ الأُستاذَ أبا عبد الله ابنَ الصّفّار المعروفَ بالبرنامَج، أن يجاوبَه عليها وينهَجَ في هلالٍ غيرَ تلك المناهج، فقال الأستاذ [من البسيط]:

نسبتَ شرَّ عَبِيد العُجْم للعَرَبِ جهلًا بفضل رسُول الله والنَّسَبِ
أَصِخْ لتسمَعَ أنسابَ الذين همُ شعارُكمْ في الخطوبِ السُّود والنُّوَبِ
كانت عَبيدُ العصا للقُرمطيِّ فإذْ وافَى الموفَّقُ لاذت منهُ بالهَرَبِ
حلّت محَلّاةَ بتراءٍ فقد رحَلتْ عنها بنو جُشَم من مائها الأَشِبِ
خانَتْهم الخيلُ رَيْعان الشياهِ لها فلم تضرْها وجَدّت بعدُ في الطلبِ
لو أُعلِمت وائلٌ يومًا بدعوتِها فيها لَـما شرِبت ماءً من الغضبِ
ونيطت الخُلَّطُ الرُّدّى بهم نسبًا كأنها القَبَسُ الصّيفيُّ بالذنبِ
فإن تكنْ في الوغَى من طلحةٍ سَلِمت فذا الموفَّقُ وصفًا ليس باللقبِ
وليس من رَهَب يُنجيهمُ هربٌ ما يَبعُدوا يقرُبوا للحين والشّجبِ
أمّا هلالٌ فقد حاق المحاقُ بهِ لاقَى الوَبالَيْنِ من حَرْب ومن حَرَبِ
حَلّ الحضيضَ سقوطًا وهْو محترقٌ تحتَ الشُّعاع بشُهب الهند لا الشُّهُبِ
وغرَّه خُلَّبٌ من شاعرٍ ملقٍ فنال صاعقةً لا واكفَ السُّحُبِ
وظلَّ من رُتَب العليا على عدةٍ فالتُّربُ يَعلوه ما يرقَى على الرُّتَبِ
وصار يطمَعُ في مالٍ وفي نشَبِ وصار منتشبًا في بَرْثَن النشبِ

(١) الضرب، بسكون الراء: العسل الأبيض، وبالتحريك أشهر، كما في معجمات اللغة.

فقــل لــهُ لــو أرادَ الخــيرَ فــاز بــهِ | الصّيفِ ضيَّعتَ جهلًا حافلَ الحَلَبِ
لـمّا أوَتْ عاصمٌ للدِّين واعتـصَمتْ | بحبلِـه نالــت الــدّنيا بــلا نــصَبِ
فــإن يكــنْ مهتــدٍ منهــا بكــمْ فكــما | تُلقــى خــلال رمــادٍ قطعــةُ الــذّهبِ
ومَــن عَــصَا مــنكمُ فــالموتُ يَطلُبُــه | يُمسي ويُصبحُ معـدودًا مـن النّهـبِ
والحقُّ شـمسٌ سَـناها لـيس يَحجُبُـهُ | وإن تَــراكم غَــيْمُ الــزُّور والكــذبِ
يحيـى خليفــةُ ربِّ العالَــمينَ ومَــن | يجهَلْه يُعلِمْه حظُّ الـسُّمرِ والقُـضُبِ
نــال الخلافــةَ عــن خُـبْرٍ وعــن خَـبَرٍ | محقَّـــقٍ وبـــإرثٍ عـــن أخ وأبِ
اختـــاره اللهُ فاختارتـــه صـــفوتُه | مــن البريّــة أهــل الــدِّين والحــسَبِ
لم يذخُروا نُصحَهم للدّين واجتهدوا | ما كان عن رَهَــب مــنهمْ ولا رَغَـبِ
ليست بنَـكْث ولا كُتْب قد اختَلَفت | ولا كتائــبِ أهــل البَغْـي والـصُّلُبِ
لم ينتصرْ بالنَّصارى والبُغاة عـلى الــ | ــمُطهَّرينَ مــن الأدنــاس والرِّيَــبِ
خليفـــةٌ مرتـــضَى أنـــصارُ دولتِـــهِ | أنصارُ أمرِ الـهُدى الباقي على الحِقَـبِ
طعنُ الصُّدور وضربُ الهام عنـدَهـمُ | مــاءُ الحيــا شَــبِمًا قــد شُـجَّ بالـضَّرَبِ
قُبحُ الوغَى عندَهـمْ حُسنٌ وراحـتُهمْ | ما نالَـهم في اعتلاءِ الدِّين مـن تعـبِ
وحــــرُّ جاحِمِهـــا بَــــرْدُ العـــشيّةِ في | رَوْض عليـل نـسيمًا غِـبَّ منـسكِبِ
أيــا إمــامَ الـــهُدى إنّ الــبلادَ لكــمْ | شرقًــا وغربًــا فنائيهــا كمقــتربِ
وإن يُجادلْــك في المنـصور ذو جَـدَلٍ | فنَجْلُ نُوح ثَـوى في قـسمة العَطَـبِ
وإن يقــلْ أنــا عــمٌّ فــالجوابُ لــه | عــمُّ النبــيِّ بــلا شــكٍّ أبــو لهــبِ
وهــل يمُــتُّ بــشيءٍ لا تــمُتُّ بــهِ | بل زدتَ فخرًا، ملأتَ الدّلوَ للكَرَبِ
إذا عــصاك مطيــعٌ لــيس منتفعًــا | يــومَ القيامــة بالطاعــات والقُــرَبِ
ويُرتـجَى العفوُ للعاصي بطاعتِكمْ | فإنّهــا ســببٌ ناهيــكَ مــن ســببِ

أيُمـــنَحُ المـــرءُ والقهّـــارُ يمنَعُـــهُ ويوهَـبُ المرءُ والوهّـابُ لم يَـهَبِ
فــدُمتَ للــدِّين تحميــه وتحفَظُــه مـن كـلِّ بـاغ وعـادٍ عابدِ الـصُّلُبِ

وكتَبَ يحيى ابنُ الناصر حين ذلك يَستجلبُ الناسَ لطاعته ويُرغِّبُهم في حزبِه وجماعتِه من إنشاء كاتبِه أبي الحَسَن السَّرَقُسْطيّ، وذلك بعدَ الصَّدَر:

والذي نوصيكُم[1] به تقوى الله والاستعانةُ به والتوكُّل عليه، وأن تَعلَموا أنّ أمورَ الرعيّة لا بدَّ لها من حافظ يحفَظُها ويراعي حقَّ الله فيها ويجهَدُ في صَلاح أحوالها وتلافيها، فإنّها لا تَصلُح إلّا بسُلطان يَزَع، وعامل يَسُوس ويردَع، بهذا يكونُ قِوام العالَـم، ويَنتصِفُ المظلومُ من الظالم، وبه تكونُ الدَّعةُ والأمان، وقد جاء في الشّرع: «يزَعُ اللهُ بالسّلطان ما لا يزَعُ بالقرآن».

ولـمّا كانت هذه القِلادة لم تزَلْ من لدُن سيِّدنا الإمام تنتقلُ من يدِ إمام إلى نَجْله، وكان الأمرُ من مستحقِّيه وفي أهلِه، إلى أنْ بلَغَ الأمرُ إلى المستنصِر بالله أمير المؤمنين والناسُ في أَمَنةٍ وفي تهدين، ولو أجَّله الأجَل، وساعَدَه الأمل، لألقَى هذه القِلادةَ إلينا، وتلا قولَ سميِّه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٩٠]، إلّا أنّ الأمورَ اختَلّتِ اختلالًا، واكتَسَت من بعدِ قوّة وصحّة وَهْنًا واعتلالًا، واسترسَل الشّرُّ وأهلُه استرسالًا، وفي أثناءِ ذلك كادت قواعدُ هذا الأمر الـمَهْديِّ لولا تدارُكُ الله أن تتزعْزَع، ومَبانيه الوثيقةُ أن تَتضَعْضَع، فتلافاه الأشياخُ والجِلّة بها شدَّ أركانَه، وأسَّس بُنيانَه، وأعطاه بحمد الله من كيدِ كائدِه أمانَه. واقتضَى نظَرُهم بعدَ استخارة الله تعالى لهذا الأمر المؤسَّس على التقوى بُنيانُه، وبعدَ شَحْذ العزائم، والطّيرانِ إلى الحقِّ بعمل خفاق الخَوافي والقوادم، تحميلَنا هذه الأمانةَ العُظمى، والقِلادةَ الجُسمى، فأعطَوْنا صفقةَ أيديهم، وعقَدوا بيعتَنا بنيّاتِهم الصادقة وأيمانِهم، حرصًا منهم على لـمِّ شَعْث المسلمين، وعنايةً بأمور الدُّنيا والدِّين، ورَدْعًا لـمَن ظنَّ أنّ الفتنةَ أمكَنَت وصُولًا، وأنّ الاعتداءَ أوجَد إلى الاعتداءِ سبيلًا، وما عَلِم أنّ أمرَ الله محروسُ الجانب، ومحروبَ المجانب، وأنّ الشيطانَ مقذوفٌ

(١) في ك: «يوصيكم».

من سماءِ سعادة هذه الدّعوة بشِهابٍ ثاقب، وأنّ الدُّولَ تَدوَى وتُبِلّ، ويُعتريها ما يَعتري الأبدانَ من الأدواءِ ثم تَستقلّ.

ونحن قد أخَذْنا رايةَ هذا الأمر باليمين، وتلقَّيناها تلقِّيَ الحازِمين، فكونوا من ذلك على بيّنةٍ ويقين، واعلَموا أنّ اللهَ قد جاءكم بمَن يَسهَرُ في مصالِحكم وأنتم نائمون، ويقومُ بما يعودُ الأصلحَ عليكم وأنتم قاعدون، ويقضي لقاصِيكم ودانيكم بالدَّعة والـهُدون. فاستقبِلوا زمنًا جديدًا، وتفيَّئوا ظلَّ الدَّعةِ مديدًا، واعلَموا أننا نستقبلُ المسلمينَ بنظرٍ يزيدُنا محبّةً لهم، ويعرِّفُهم ما لنا من الرِّفق والحُنوِّ عليهم، فإنّ مقصودَنا في الأُمة جميل، ورأيُنا في تأليف موجِبات الاستئصال أصيل، فنحن نصفَحُ عن الجانب، ونحُلُّ قيدَ الجاني، ونَصرفُ عن الوعيدِ إلى الوعد، ونؤْثرُ العفوَ على المؤاخَذة والقُربَ على البُعد، فكونوا على صحّة من أنّ الأحقادَ قد ذهبت رسُومُها، وزالت منَ الأجياد وسُومُها، وأنّ الناسَ معَنا في زمن شَبَّ واقتَبل، وأنّ الآمِلَ بفضل الله مُدرِكٌ الأمل، فادخُلوا وفَّقكم اللهُ فيما دخَل فيه الجمهور، وابعَثوا بيعتكم بعدَ أخْذِها وثيقةَ الأساس، مُحكمةَ الأمراس، في طاعة سَعْد ويُمن إلى حضرة الموحِّدين، واللهُ الـمُنجِدُ الـمُعين.

وقد عرَّفناكم بما انعقَد علينا من الموحِّدين ومَن إليهم منَ المسلمين، فتيمَّنوا، ودعَوْنا اللهَ في الخِيَرة والإنجاد والعَوْن فأمَّنوا. اللهمَّ إنك قلَّدتَنا أمورَ المسلمين، وارتضَيْتَنا للنّظر في مَصالح الدِّين، واختَرتَنا للمِلّة الحنيفيّة خُدَماء، وأسبَغْتَ علينا النَّعماء، فاجعَلْنا لأنعُمِك منَ الشاكرين، ولآلائك من الذّاكرين، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه.

ولـمّا سَمع أبو العُلى بذلك كلِّه أقلقَتْه مُبايعة يحيى ابن الناصر، ونَكْثُ الناكث عليه من الموحِّدينَ وغَدْرُ الغادر، فنَظَر في الجَواز لبرِّ العُدوة، وعَمَر بذلك باطنَه رواحَه وغُدوَّه، فحَشَد الحشود وزمَّم الجنود، وجمَع نحوَ خمس مئة فارس من الرّوم، لِـما كان يَبغي من الحركة ويَروم، فلمّا عَلِم بذلك ابنُ هود قَرَع الطّبولَ ونشَرَ البنود، وقَوِيت شوكتُه وتألَّفت شِرذِمتُه، وأطاعته بعضُ تلك الأماكن، وتحرَّكت أرياحُه السّواكن، والمأمونُ إذ ذاك لم يشغَلْ فكرَه إلّا بما عَمَر، ولا انـهَلَّ سَحابُ بأسِه ولا انهمَر، فركِبَ طِرفَه، وغَمَض طَرْفَه، وأمَر بالرّحيل فرحَل في سنة خمس وعشرينَ وست مئة.

وفي سنة ستٍّ وعشرينَ وست مئة: استقرَّ أبو العُلى بحضرة[1] مَرّاكُش، ولـمّا وصَل إليها ونزَل عليها خَرج إليه ابنُ أخيه يحيى بن الناصر بمَن كان معَه من العَرَب والموحِّدين وسائر الجُنودِ والحشود، وضُربت قبّتُه الحمراءُ على جبل إيجليز واستعَدّ لمقابلتِه ومحاربتِه، وكان المأمونُ قد وصَل من الأندَلس بنحو خمس مئة فارس من الرُّوم وبمَن كان معَه من العَرَبِ والموحِّدين والجنودِ والحشود، فقصَدَ الرُّومُ إلى القُبّة الحمراء فمزَّقوها ووقَعَت الهزيمةُ على عساكر يحيى بن الناصر وهرَبَ فارًّا بنفسِه، لا يَعلَمُ يومَه من أمسِه، وهزَمَه عمُّه هزيمةً عظيمة قَتل فيها من الموحِّدينَ وأتباعِهم ومن العَرَب وأشياعِهم أُممًا لا تُحصى، ولا تُكاثَرَ بالحَصَى، وأمَرَ بتعليق رؤوسِهم معَ كلِّ شرافة من سُور مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى حتّى ملأت الرؤوسُ أكثرَ شرافات السُّور، وفَرّ يحيى بنُ الناصر يتعلّق بالجبال الشّواهق معَ كلِّ منافق إلى أنِ استقرَّ معَ الموحِّدين في جبالِـهم، وتعذَّرت عليهم جميعُ أمورِهم وأحوالهم.

واستقرَّ أبو العُلى المأمونُ بحَضْرته ونَظَر في أمورِ مملكتِه وأخَذ في ذلك معَ خاصّتِه وأرباب دولتِه، فأولُ ما شَرَع فيه وبثَّه ملءَ فيه: مسألةُ النّاكِثينَ عليه من الموحِّدين الـهَنْتاتيِّين والتنمليِّينَ بعدَ تأمينِهم والنِّداء عليهم بذلك بمَرّاكُش، فخَرج مَن كان فيها من الموحِّدينَ إليه وطَلَعوا بالسلام عليه. فأجمَع على مسألتِهم بعضُ الفقهاء، وعرَّفهم بتوجيه مُبايعتِهم إليه ثم ما كان من خديعتِهم ونَـكْثهم عليه، وقال للفقيه القاضي المكيديِّ: ما تقولُ يا فقيهُ في قوم بايَعوا شخصًا ثم نَـكَثوا عليه وخَلَعوه ثم قَتلوه، ثم بايَعوا شخصًا آخَر فنَـكَثوا عليه وقَتلوه، ثم بَعَثوا بيعتَهم هذه إليّ، ثم نَكَثوا أيضًا عليّ؟ فقال له القاضي: وجَب عليهمُ القتلُ أجمعين يا أميرَ المؤمنين، وقرأ سورةَ المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، فأمَرَ أبو العُلى المأمونُ بضَرْب رِقابِهم فقُتل منهم في ذلك اليوم نحوُ مئة شخص من أعيانِهم، وخُرِق لهم حَفيرٌ كبير خارجَ باب السّادة ودُفنوا هنالك، ووقَع البحثُ والطّلبُ على مَن بقيَ منهم بمَرّاكُش فمَن حصَل سُلِك به تلك المسالك حتى أُخِذ بعضُ أصاغرِهم من محاضرِهم وقُتلوا عن آخرِهم[2].

(١) في ب: «بمدينة».

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٧-٢٣٩.

ومن قول أبي العُلى المأمون في قَتْلهم عَفَا اللهُ عنهم [من الكامل]:

أهلُ الحَرابة والفسادِ من الوَرى يُعزَوْنَ في التشبيه للذُّكّارِ

ففسادُه فيه الصّلاحُ لغيرِه بالقطع والتعليق في الأشجارِ

ذُكّارُهم ذكرى إذا ما أُبصِروا فوقَ الجُذوع وفي ذُرى الأسوارِ

لو عمَّ حِلمُ الله كافّةَ خَلقِه ما كان أكثرُهم منَ اهل النارِ

ومن كَتْبه بخطِّ يده رسالةٌ لأهل أندوجر يَزجُرُهم عمّا فَعلوه من القبيح ويُصرِّح بقتلِهم إن لم يَنتهوا أيَّ تصريح، فمن ذلك بعدَ الخُطبة والصَّدَر:

إلى الجماعة والكافّة من فُلانة، وَقَاهم اللهُ عثَراتِ الألسنة وأرشَدَهم إلى مَحْو السيّئة بالحَسَنة، أمّا بعد، فإنّه وصَل من قِبَلِكم كتابٌ جدَّد لكم أسهُم الانتقاد، ورَماكم من العِناد بالداهية والنّآد، أتعتذرونَ من المُحال بضعف الحال، وبقلّةِ الرّجال، فألحَقكم برَبّات الحِجال؟ كأنّا لا نعرفُ مناحيَ أقوالِكم، ولا نَعلَمُ بتقلُّبكم في أحوالكم، لا جَرَمَ مغرارًا أنكم سمِعتُم بالعدوِّ قَصَمه الله، وقصْدِه ذلك الموضعَ عصَمَه الله، فطاشَت قلوبُكم خَوَرًا، وعاد صَفْوُكم كدَرًا، وشمَمتُم ريحَ الموت وِرْدًا وصَدَرًا، وظننتُم أنكم أُحيطَ بكم من كلِّ الجوانب، وأنّ الفضاءَ قد غُصَّ بالتفافِ القَنا واصطفافِ المقانب[1]، ورأيتُم غيرَ شيء فحسِبتُموه طلائعَ الكتائب. تبًّا لهِمَمِكم المُنحطّة، وشِيَمِكم الراضية بأدونِ خُطّة، حين نُدِبتُم إلى حماية إخوانِكم، والذبِّ بالكلمة من مقتضَى أيمانِكم، نَسَقتُم الأقوالَ وهي مكذوبة، ولفّقتُم الأعذار وهي بالباطل مَشُوبة، لقد آنَ لكم أن تَمُدُّوا ذيلَ الحِرمان إلى مغازِل النِّسوان، وما لكم ولصَهَواتِ الخيول، وإنّما على الغانجاتِ جَرُّ الذّيول، أتُظهرونَ العِناد تصريحًا وتلويحًا، وتظنُّونَ أنكم إذا تفرَّقتُم لا نجمَعُ لكم شتاتًا ولا نُدني منكم نُزوحًا؟ أين المفرُّ وأمرُ الله يُدرِكُكم، وطلبُنا الحثيثُ لا يَترُكُكم؟ فأميطوا هذه النَّزعةَ النِّفاقيةَ عن خواطِركم قبلَ أن نمحوَ بالسّيف أقوالَكم وأفعالَكم، ونستبدلَ قومًا غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكم، ونحن نُقسمُ بالله،

---

(١) جمع مقنب، وهي الخيل والفرسان.

لوِ اعتَسفْتُم كلَّ بَيْداءَ سَمْلَق[1]، واعتصمتُم بأمنع معقِل وأحفَل فَيْلَق، ما وَنَيْنا عنكم زمانًا، ولا ثنَيْنا عن استئصال العَزْم عنكم عِنانًا، فلا يُغرَّنَّكمُ الإمهال أيها الجُهّال، ولا يعودنَّكمُ الاجتراء إلا لنَبْذِكم بالعراء، وأدواءُ الأهواء بالسّيف تنحسم.

[من البسيط]:

إذا رأيــتُم نُيــوبَ اللّيــثِ بــارزةً فــلا تَظنُّــونَ أنّ اللّيــثَ مُبتــسمُ

فإن كفاكُم صَريرُ الأقلام، وإلّا جَفاكُم صَريرُ الحسام، والسّلامُ على منِ استقام، ورحمةُ الله وبركاتُه.

وكتَبَ أيضًا أبو العُلَى المأمونُ بخطِّ يدِه إلى بلادِه كلِّها بزَوال اسم الـمَهْديِّ من السِّكة والخُطبة، وذلك أنه لـمّا قَتل الموحِّدينَ أمَر بقطع ذكْرِ إمامِهم الـمَهْديِّ من الخُطبة في جميع بلادِه ومَحا اسمَه من الـمُخاطَبات ومن النَّقْش في السِّكة، وقَطْع النِّداء بعدَ الصّلاة والنداءِ عليها بتاصليت الإسلام، وهي إقامةُ الصّلاة باللّسان البَرْبريّ، وكذلك سؤدوت وناردي، وأصبح ولله الحمد وما أشبَهَ ذلك ممّا كان العملُ عليه من أوّل دولة الموحِّدين إلى هذه السنة المؤرَّخة[2].

وهذه هي الرسالةُ المذكورة: من عبد الله إدريس أميرِ المؤمنين ابن أميرِ المؤمنين ابن أميرِ المؤمنين، إلى الطَّلَبة والأعيانِ والكافّة ومَن معَهم من المؤمنين والمسلمين أوزَعَهم اللهُ شُكرَ أنعُمِه الجِسَام، ولا أعدَمَهم طلاقةَ أوجُه الأيّام الوِسام. وإنّا كتبناه إليكم، كتَبَ اللهُ لكم عملًا منقادًا، وسَعْدًا وَقّادًا، وخاطرًا سليمًا، لا يزالُ على الطاعة قائمًا مقيمًا، من مَرّاكُش كلأَها اللهُ تعالى، وللحقِّ لسانٌ ساطع، وحسامٌ قاطع، وقضاءٌ لا يُرَدّ، وبابٌ لا يُسَدّ، وظِلالٌ على الآفاق لـمَحْو النّفاق يُعَدّ. والذي نُوصيكم به تقوى الله والاستعانةُ به والتوكّلُ عليه، ولِتَعلَموا أنّا نَبَذْنا الباطل وأظهَرنا الحقّ، وأنْ لا مَهْديَّ إلا عيسى ابنُ مريم، وما سُمّي مَهْديًّا إلّا أنه تكلَّم في المهد، وتلك بِدعةٌ قد أزلْناها، والله يُعينُنا على القِلادة التي تقلَّدْناها، وقد أزَلْنا لفظَ العصمة عمّن لا تَثبُتُ له عصمة، فلذلك أزَلْنا

---

(١) السملق، كجعفر، القاع الصفصف، كما في القاموس المحيط.

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٨.

عنه رَسْمَه، فتَسقُطُ وتُبَتّ وتُمحى ولا تُثبَت، وقد كان سيّدُنا المنصورُ رضي اللهُ عنه هَمَّ أن يَصدَعَ بها بهِ الآنَ صدعْنا، وأن يرقَعَ للأُمة الخَرْقَ الذي رقَعْنا، فلم يُساعدْه لذلك أملُه، ولا أجَّلَه إليه أجَلُه، فقَدِم على ربِّه بصِدق نيّة وخالصِ طَوِيّة. وإذا كانت العصمةُ لم تثبُتْ عندَ العلماءِ للصّحابة، فما الظنُّ بمَن لم يَدْرِ بأيِّ يد يأخُذ كتابَه، أُفٍّ لهم! قد ضَلّوا وأضَلّوا، ولذلك وَلَّوْا وذَلُّوا، ما تكونُ لهم الحُجّة على تلك المحَجَّة، اللهمّ اشهَدْ، اللهمّ اشهَدْ أنّا قد تبرَّأْنا منهم تبرُّؤَ أهل الجنّة من أهل النار، ونعوذُ بك يا جبّار من فعلِهمُ الرَّثيث، وأمرِهمُ الخَبيث، إنّهم في المعتقَد من الكفّار، وإنّا فيهم كما قال نبيُّك عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] والسلامُ على منِ اتّبع الهُدى واستقام.

وامتدحَتْه الشّعراءُ حينَ ذلك بما يتنسَّمُ نَدًا ومِسكًا، وتَجعَلُه بعِقد نحرِك سِلكًا، فمِن ذلك الكاتبُ الأجَلُّ أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ قال يمدَحُه [من الطويل]:

تَتيهُ[1] بك الدّنيا ويَزهو بك المُلكُ ... ويُعزَى إليك الفضلُ والدِّينُ والنُّسْكُ

وتتَّسقُ الأمداحُ فيك تتابُعًا ... بباهِرِ أوصافٍ كما انتَظم السِّلكُ

وتشهدُ أملاكُ الزّمان إذا رأَوْا ... سَناك الذي يجلو الدُّجا أنك المَلْكُ

وما ذاك إلّا أنْ سبَقْتَ وقَصَّروا ... وأدْلَجت إذ باتوا وحقَّقت إذ شَكّوا

أنالَ بك الإسلامُ أقصَى مرادِهِ ... وقد سَعِد التوحيدُ إذْ شقيَ الشِّركُ

وأظهَرَك الجَدُّ السّعيدُ على العِدا ... فكان لك المَنْجى وكان لها الهُلْكُ

أيا ابنَ أميرِ المؤمنين أبا العُلَى ... أصِخْ سمْعَ إحسانٍ لعبدِك إذ يشكو

ومنها:

وأرجو لدى مولايَ لمحةَ رحمةٍ ... فإنعامُه ينمو وإحسانُه يزكو

---

(١) وقع في النسخ: ق، ك، ب، ر٣ بياض قدر أربع صفحات، والظاهر أنه كان كذلك في الأصل المنتسخ منه، وقد استدرك في ر٣ بخطّ مغاير، وسنشير إلى موضع نهاية البياض.

وقال محمدُ بن إبراهيمَ الذرة يمدَحُ أيضًا أبا العُلَى المأمونَ [من الطويل]:

ألا وضُح التحقيقُ وارتفَع الشكُّ ... بأنك مَلْكٌ لا يقاس به مَلْكُ

جبينُك إصباحٌ وكفُّك مُزنةٌ ... وبأسُك طُوفانٌ ورايتُك الفُلكُ

ويُمناك مَحْيًا للأنام ورحمةٌ ... إذا حاقَ من محْل الزّمان بهم هُلكُ

تُنيل من الأفراس ما بان عِتقُهُ ... وتُعطي من الإبريز ما أخلَص السَّبكُ

فأنتمْ أميرَ المؤمنين بعدلِكمْ ... تعزَّزَ دينُ الله وارتفَع الشكُّ

وقال آخَرُ في هذا المعنى [من الطويل]:

لكَ اللهُ من مَلِكٍ إلى مَلِكٍ يُعزَى ... يَحُوطُ العُلى حفظًا ويكنُفُها حِرْزا

سَما واحدًا من جانبَيْهِ إلى العُلى ... فلا يَعتزي جمعٌ إليها ولا يُعزى

بعثتُ ثناءً في نظامِك عاطرًا ... هزَزتُ لهُ من عِطف مجدِك ما اهتزّا

إذا كنتُمُ لي ساعدًا أنا كفُّهُ ... فيا ليتَ شِعري بالفضيلة من يُجزى

وأنتم بني المنصور أوْلى بخُطّةٍ ... هيَ المُلكُ إذ طرَزْتُمُ مجدَها طَرْزا

إلا إنّما في كلِّ حال لك العُلى ... فدُمْ يا أباها تكسِبُ المجدَ والعِزّا

فأنتَ لها ما دمتَ في الأرض إنّما ... نَراك عليها من نوائبِها حِرزا

وإنّ أمداحَه لَكثيرةٌ جدًّا لا أُحصي لها عددًا والكفايةُ منها ما ذكرتُه، ولاختصار الكُتْبِ اختصرتُه.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وعشرينَ: قَوِي أمرُ الأمير أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن هُود بالأندَلس، فأولُ مَن طاع له من بلادِها أهلُ مُرسِية، فخَرج إليه المأمونُ في السّنة الفارِطة كما تقدَّم فقابَلَه وقاتَلَه فوقَعَت الهزيمةُ على ابن هود، وبعدَ انصراف المأمون عنه إلى إشبيلِيَة قام بدعوته ابنُ الرّميميِّ[1] بمدينة المَريّة، ثم طاعَتْ له غَرْناطةُ ومالَقة، فضَعُف المأمونُ عن مصادمتِه لِما كان قد أهمَّه من أمر الموحِّدينَ بمَرّاكش، فلمّا

(١) هو عبد الله بن محمد المعروف بابن الرميمي (المعجب ٢٧٩).

استقرَّ المأمونُ بمَرّاكُش واشتَغل فيها بما اشتَغل اتّقد نارُ الفتنة بالأندَلس واشتَعل وطاعَتْ لابن هودٍ أكثرُ بلادِها ورؤسائها وأنجادِها، وخَلَعوا طاعةَ الموحِّدينَ عنها وقَتلوهم في كلِّ بلد منها وأجْلَوْهم واستَأْصَلوهم إلّا مَن سَتَرَه اللهُ منهم وأخفاه في ذلك الوقتِ عنهم.

واجتَمع أهلُ إشبيلِيَة في يوم الخميس ثاني عيدِ الأضحى من هذه السنة بموضع يُعرَفُ بالنَّخيل، فتكاثَرَ فيه القالُ والقيل، إلى أنْ خَلَعوا طاعةَ الدّولة الموحِّدية والتزَموا طاعةَ الدّولة الـهُوديّة، وكتَبَ عنهم أبو بكر ابنُ البنّاء كتابًا يُعلِمُه بذلك، وأنّ اللهَ أرشَدَهم إلى أقوم المسالك، فجاوَبَهم على ذلك أخو المتوكِّل على الله وهو أبو الحَسَن عَضُد الدّولة مهنِّئًا لهم على اجتماعِهم على الطاعة، ودخولِـهم في حزبِ الجماعة، وعلى قيامِهم بالدّعوة العبّاسية وخَلْعِهم للدّولة الموحِّدية وبما لهم عندَ أخيه من الأَثَرة والتقديم، والبرِّ والتكريم، وذلك بتاريخ السابعَ عشَرَ لذي الحجة من السنة المؤرَّخة.

وفي هذه السنة: فارق زيّانُ[1] بن مُرْدنيش السيّدَ أبا زيد البَياسيَّ وقاطَعَه وضَبَطَ بلدَه بَلَنْسِيَة، ولحِقَ السيِّدُ المذكورُ بالنَّصارى وانقَطع إليهم حتى مات فيهم، وأمّا أخوه عبدُ الله فكان من أمرِه ما تقدَّم ممّا هو مشهورٌ مذكور نسألُ اللهَ العافيةَ وحُسنَ العاقبة.

ومنَ الاتّفاق الغريب أنّ نَصْرانيَّيْنِ وَصَلاهُ قبلَ ذلك بأمدٍ قريب، أعني للسيّد أبي زيد، فقالا له: نراك تصلُ إلينا وتدخُل في دينِنا، فكرِهَ ما قالاه وقتَلَهما صبرًا، فلم يكنْ بعدَ ذلك إلّا قليلاً ولحِقَ بالنّصارى مرتدًّا وفارَقَ أهلَه ووَلدَه واستَوطَن بينَهم، ثم سَقَط من أعيُنِهم فرفَضوه واطَّرحُوه ولم يعِشْ بعدَ ذلك إلا يسيرًا ومات.

وفي سنة سبع وعشرينَ وست مئة: تحرَّكَ المتوكِّلُ على الله ابنُ هود بجيوش عظيمة من المسلمينَ إلى غَزْو أعداءِ الله الكافرين، فالتقَى معَ عساكر الرّوم على مارِدة، فدَفَع فيهم بنفسِه بنَجْدته وعَزْمِه، ثم انهَزَم إلى ساقتِه فوجد قد ولَّوْا منهزمينَ هنالك من أجل ذلك، وكان من طبعِه مَلولًا عَجولًا، وكانت هذه الغزوةُ أولَ غَزَواتِه وأضخمَها فلم يُنصَرْ فيها[2].

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٦-٢١٨.

(٢) الإحاطة ٢/ ١٣٠.

وفي هذه السنة: كانت المقابلةُ بينَ يحيى ابن الناصر والمأمونِ بمقرُبة من مَرّاكُش في يوم السّبت الخامس والعشرينَ لشهر ربيع الأوّل، فانهزَم يحيى وفرَّ إلى الجبل وقبَض المأمونُ على قاضيه أبي محمد ابن عبد الحقّ ودفعَه إلى هلال بن مقدَّم الخُلْطيِّ وحبَسَه حتى افتُدِيَ منه بخمسة آلاف دينار، وقيل غيرُ ذلك[1].

وفي شهر رمضانَ المعظَّم منها: خَرج المأمونُ من مَرّاكُش وهزَم يحيى ابنَ الناصر والموحِّدين بفَحْص واونْزَرْت إلى لجاغةَ، فقَتل المأمونُ في تلك الهزيمة من أهل الجبال أعدادًا كثيرةً، وعلَّق على سُور مَرّاكُش من رؤوسِهم نحوَ أربعةِ آلاف رأس، وكان زمنَ القَيْظ فشَكا الناسُ روائحَها للمأمون فجاوَبَ مَن أخبره بذلك بأنْ قال: إنّ هاماتِ الـمُحارِبين هي أحرازٌ لهم وروائحُها عطِرةٌ عند المحبِّين مُنتِنةٌ عندَ الـمُبغِضين. وكتَبَ المأمونُ بعد ذلك بتغيير سَيْر الموحِّدين حسبَما تقدَّم[2].

تلخيصُ الخبر بابتداءِ الدّولة الموحِّدية الحَفْصيّة واستيلاءِ الأمير أبي زكريّا على تونُس وتلك البلاد الإفريقيّة

وهو: أبو زكريّا يحيى ابنُ الشّيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حَفْص عُمرَ بن يحيى الـهَنْتاتيّ. وذلك لـمّا كان من أمرِ ابن غانِيةَ في تلك البلاد ما كان وتغلُّبِه عليها، استطالت أيدي المعتَدينَ والـمُفسِدينَ فيها بكلِّ مكان، واستيلائه على بلاد الجَريد وأقطارِها وعلى تونُسَ وأنظارِها، ودخولِه إياها عَنْوةً وأخْذِه للسيّد أبي زَيْد صاحب تونُس معَ ابنِه أسيرين وحبسِهما في ثِقافِه أشهُرًا وأيامًا، وكان مدّةُ تغلُّب ابن غانِيةَ على تلك البلاد وإقامتِه فيها بالعَيْث والفساد نحوَ عشرينَ سنة، إلى أنْ وصَل أبو عبد الله الناصرُ إليها واستَولى بعساكرِه عليها، ففَرَّ ابنُ غانِية أمامَه من تونُس من غيرِ قتال ولا حَرْبٍ ولا نِزال، فبَعَث الناصرُ لها مَن هَدَّن أهلَها وتوجَّه إلى الـمَهْديّة فحصَرَها، وكان ابنُ غانية قد شَحَنَها بالرُّماةِ والرّجال، والعُدَد والأموال.

---

(١) وقيل: إن فداءه كان ستة آلاف دينار (الاستقصا ٢/ ٢٣٧-٢٣٩).

(٢) الاستقصا ٢/ ٢٣٩-٢٤٠.

وفي أثناءِ تلك الأحوال والفتنِ والأهوال، ألّف ابنُ غانِية أخلاطًا من الأعراب ووافَقهم عل الارتحال معَه بالأهل والوَلَدِ والمالِ والعيال، ثقةً منه أنّهم لا يُولُّونَ الأدبار، وأنّ الهزيمةَ عليهم عار، فقدَّم الناصرُ الشّيخَ أبا محمد عبدَ الواحد على عسكرٍ كبير من حُماة الموحِّدين وأنجادِهم منتخَبِينَ من رؤسائهم وكبارِهم، فخَرج بالعسكر من ظاهرِ الـمَهْديّة، باعتقادٍ صادقِ الطَّوِّية، وكان ابنُ غانِيةَ بأحوازِ قابِس قد تكامَلت أمدادُه، واستَوْفت عليه أعدادُه، ووصَلوا إليه بخيلهم ورَجْلِهم، فقصَدَ أبو محمد إليهم ودفَع بجُملتِه عليهم، وأجْلَت الحربُ عن انسلاخ العَرَب عن أموالِـهم وأثقالِـهم، واستَولَى[1] عسكرُ الموحِّدينَ على رجالِـهم وكُراعِهم بعدَ قَتْل مَن قُتل وأسْر من أُسر منهم وخَتَل، وقَفَل أبو محمد عبدُ الواحد بالعسكر إلى الناصر منصورًا ظافرًا، فكان ذلك ابتداءَ السُّعود لبني أبي حَفْص في تلك البلاد وإنجاز القَدَر لهم بمُلك إفريقيّةَ إلى الآنَ، وذلك في آخِر سنة اثنتينِ وست مئة[2].

فلمّا كان في آخِر سنة ثلاث وست مئة حين أخَذ الناصرُ في القُفول من تلك البلاد، وأعمَلَ نظرَه فيما يُحتاجُ إليه من الصّلاح والسَّداد، وأجالَ بصرَه وبصيرتَه فيمن يَستخلفُه فيها من كبارِ الموحِّدينَ وأنجادِها، فأجمَع نظرَه على تقديم أبي محمد عبد الواحد لعلمِه بأنه يقومُ بأعبائها، ويقاومُ بنَجْدته ومَهابته جميعَ أعدائها، فقدَّمه عليها تقديمًا لم يُعهَدْ في الولاياتِ قبلَه مثلُه، وأسنَدَ أمرَ إفريقيّةَ كلِّها إليه، واعتَمد في صلاحِها وسَدادها وصَلاح حالِ أهلِها بالجُملة عليه، وأباح له التخييرَ في قبائل الموحِّدينَ وغيرِهم مَن يريدُ البقاءَ معه من أولاد الموحِّدينَ وأنجادِهم، فاختار جُملةً كبيرةً من أولادِهم وأجوادِهم، فصار تحتَ يدِه جموعٌ وافرة، وجيوشٌ مُتكاثرة، فاستقرَّ بتونُس في حالة فَخْمة وولايةٍ ضَخْمة اقتَرن بها السَّعد، وانتُجِز لها بالفتوح الوعد[3].

ثم أيضًا ما كان من تغلُّبِه على عسكر ابن غانِيةَ في سنة خمس وست مئة واستيلائه على جميع ما كان بمحَلّتِه وقَتْلِه لأكثرِ أصحابِه وجُملته وتشتُّتِ شِرذِمته. ثم ما كان أيضًا

(١) إلى هنا ينتهي البياض الواقع في النسخ: ق، ك، ب، ر٣.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٦٠.
(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٦٠، والاستقصا ٢/ ٢١٦.

من خروجِه بعسكرٍ من تونُس معَ الموحِّدين، وبغارتِه معَهم على المعتَدينَ والـمُفسِدين، ثم خروجِه أيضًا من تونُس معَ الموحِّدين بعسكره الجَرّار حين حَمَل ابنَ غانِيةَ الاغترار، وأزعَجَتْه الأقدار إلى بعض أحوازِ إفريقيّة ومعاودة حربِها والانحدار إلى عِمرانِها وقُربِها.

وكان ابنُ غانِية قد أَلَّف من العَرَب جُموعًا جَمّة فزحَف إليهم أبو محمد والموحِّدونَ فتقابَلَ الجَمْعانِ والتَحم الفريقان، فانهزَم بعضُ الموحِّدينَ والأغزازِ والمتجنِّدين، وثَبَت أبو محمد بمركزِه في قلب ساقتِه معَ مَن كان معَه من الصّابرينَ بنَجْدتِه وشجاعته، ورجَع على الأعداء وأوقَع فيهم السّيف، واستَولى الموحِّدونَ على أثقالِـهم، وانصَرف أبو محمد إلى تونُس سالـمًا غانمًا، وبقي يتطوَّفُ على تلك البلاد في كلِّ سنة على عادتِه إلى أن توفِّي أبو عبد الله الناصرُ عام عشَرة، وبُويعَ ابنُه المستنصِرُ فتلكَّأَ عن توجيه المبايعة إليه من تونُس، فساءت ظنونُ السّادة وبعض الموحِّدينَ في ذلك عليه، ثم وصَلت بيعتُه بعدَ ذلك إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة فتخالَفت الظّنونُ في الشيء المظنون، وكان كاتبُه النُّخَيليُّ الكاتبَ الجليل، ونال معَه بتونُسَ من الخير العميم الجزيل، إلى أنْ نَـكَبَه أبو العُلى الكبير واستَصْفَى أموالَه وأحوالَه وأعطى كاتبَه الفتى جميعَ ذلك.

ولـمّا توطَّدت المملكةُ للمستنصر ابن الناصر، وتمهَّدت له البلادُ البادي منها والحاضر، من البلاد الغَرْبية والأندَلسيّة والإفريقيّة، فقدَّم أعمامَه وبني أعمامِه السّادات وبعثَهم لقواعدِ البلاد وُلاة، وقدَّم عمَّ أبيه أبا العُلى الكبيرَ على مدينة تونُس ليستَوطِنَ قَصَبتَها ويكونَ أميرَها وأن يتفقَّد أحوالَها وأمورَها، وكان ذا نَظَر سديد، ورأي مباركٍ رشيد، وهُو الذي بنَى بإشبيليَة حين وَلِيَها بُرجَ الذّهب، وبنَى بسَبْتةَ بابَها الجديد، فلمّا وصَل إلى تونُسَ في الأجفان[1]، واستقرَّ بقَصَبتِها معَ من كان معَه من الأهل والوَلَد والخُدّام والأعوان، وبقيَ الشّيخُ أبو محمد على أعمالِه، ناظرًا في أشغالِه وعُمّالِه، لكنّه على ما ذُكر ضاقت بوصُول السيِّد أحوالُه، وأوّلُ ما فَعل السيّدُ من أفعالِه أنه بعَثَ إلى مَرّاكُش ببعض أولادِه وهما: أبو زكريّا وأبو عبد الله يتصرَّفانِ بين يدَي الخليفة المستنصِر بالله في ولاياتِه وأعمالِه، فولّاهما البلادَ، وظهَرَ منهما في ذلك الجَدُّ والاجتهاد.

---

(١) قوله: «في الأجفان» سقط من ق.

فلمّا توفِّي الشّيخُ أبو محمد عبدُ الواحد بتونُسَ آخرَ دولة المستنصِر، تقدَّم وَلَدُه عبدُ الله على عَمالةِ تلك البلاد الإفريقيّة تحتَ نظَر السيّد أبي العُلى المذكور، من غير استبدادٍ منه بالأمور، إلى أنْ توفِّي أبو العُلى ووَلِـي ابنُه أبو زيد الملقَّبُ بالأسمر، على عادة أبيه في الأحوال، وأبو محمد عبدُ الله بن أبي محمد عبد الواحد ناظرٌ في الأشغال وجابي الأموال.

وقيل: إنّ وفاةَ أبي العُلى كانت بجزيرة مَيُورقة. واستمرَّ حالُ أبي محمد عبد الله بتونُسَ على أشغالِه وأعمالِه إلى سنة سبع وعشرين، فكان من أمرِه ما أذكُرُه، وذلك أنه لـمّا بُويعَ بإشبيلِيَةَ أبو العُلَى المأمونُ نَكَثوا عليه الموحِّدونَ بمَرّاكُش وبايَعوا يحيى ابنَ الناصر، فكان أبو العُلى الكبيرُ عمَّ أبي العُلَى المأمون وأخا أبي محمد الـمَخْلوع وعمَّ العادل المقتول، والمأمونُ عمَّ يحيى ابن الناصر.

فلمّا وصَل المأمونُ إلى مَرّاكُش وأخَذ ثارَ عمِّه وأخيه وقَتل مَن قَتل من الموحِّدين فيهما وبسببِهما وبسببِ نَكْثِهم عليه ومُبايعتِهم لابن أخيه وقامتِ الفتَنُ بينَهم كما تقدَّم، وكان المأمون تَرك ابنَ عمِّه السيّد أبا الرّبيع بقُرطُبة، فقُتل بها حين خالَفَ عليه أهلُ الأندَلس وقَتلوا الموحِّدين، وكان بعَثَ السيِّدَ أبا عِمران ابنَ عمِّه أبي عبد الله الحرضني إلى بِجَاية معَ أبي عبد الله اللِّحيانيّ وهو ابنُ أبي محمد ابن أبي حفص، وتوجَّه أخوه أبو زكريّا بنُ أبي محمد المذكورُ إلى تونُس.

فلمّا استقرَّ بها قرارَه، وتعرَّف الموحِّدونَ ما كان من قتل إخوانِهم بمَرّاكُش وعرَّفَهم أبو زكريّا ابنُ أبي محمد عبد الواحد بذلك كلِّه، وراوَدَ أخاه عبدَ الله المذكورَ على خَلْع بني عبد المؤمن والاستبداد بالأمرِ دونَهم والاحتواءِ على مُلك إفريقيّة، فأبَى له من ذلك وامتَنع كلَّ الامتناع، وأطال في ذلك الكلام معَه ومعَ بعض الموحِّدين حتى صَكّتْه الآذانُ والأسماع في تلك البِقاع والأسقاع، فأمَرَه أخوه أنْ لا يَخرجَ من دارِه، حيث كان استقرارُه، فاغتاظَ لذلك وعَظُم عليه وزاد نِفارُه، ودبَّر في خروجِه من تونُس وفِرارِه، فخَرج من تونُسَ إلى قابِس واجتَمع معَ ابن بَكّيّ شيخِها ومُدبِّر أمرِها، فأقبَلَ عليه حينَ وصُوله إليه وشارَكَه في أحوالِه، وعظَّم شأنَه بما يجبُ عليه من التعظيم، وكرَّم مَثْواه، ووافَقَه على مطلبِه ومُناه، إلى أنْ كان من أمرِه ما أذكُره.

وفي سنة سبع وعشرين وست مئة: كان استيلاءُ الأمير أبي زكريّا على بلاد إفريقيّة[1]، وذلك لـمّا استقرَّ بمدينة قابِس وشَرَع معَ ابن بَكِّيّ في الرأي والتدبير، خاطَبَه الموحِّدونَ من تونُس، الصغيرُ منهم والكبير، بالسَّمع والطاعة إليه، وباجتماع كلمتِهم عليه، ووافَقُوه على ذلك إذا خَرج أخوه عبدُ الله من تونُس برَسْم الحركة إلى جهة القَيْرَوان، فلمّا خَرجوا معَه ونَزلت محلّتُه بظاهر تونُس، طَلَبوا منه عادتَهم التي هي البركةُ والإحسان، فتلكَّأَ لهم في ذلك، والأميرُ أبو زكريّا بمن كان معَه بمقرُبة من هنالك، وأخوه عبدُ الله مُستأمِنٌ في خِبائه، مؤمَّنٌ من أعدائه، فبادَروا إليه للخِبا، ورَمَوْه بالحجارة حتى أيقَن بالهلاك والفَنا، ففرَّ أمامَهم أسوأَ فِرار، لا يستقرُّ به موطنُ قرار، فعفَوْا عن قتلِه بسببِ أخيه وأهلِه إلى أن قُتل بمَرّاكُش على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

فقَعَد الأميرُ أبو زكريّا من حينِه مقعدَ الأمراء، وبايَعَه أشياخُ الموحِّدينَ الكُبَراء، ورحَل إلى تونُس فبُويعَ بها بيعةَ الخُلفاءِ العظماء، وأقعَدَ الكُتّابَ والوُزراء، وأنفَذَ الكتُبَ للبلدان، ولكلِّ جهة ومكان، فوصَلتْه البيعات، من كلِّ الجهات، وطاعت له جميعُ تلك البلاد، واستقامتِ الأحوالُ على أكمل البُغية والمراد، وكتَبَ علامتَه بخطِّ يدِه «الشُّكر لله وحدَه»، وأبقى اسمَ الإمام الـمَهْديَّ في الخُطَب وغيرِها، وسيَّر الموحِّدينَ بأسرِها، وقَبَض على السيِّد الذي كان بقَصَبة تونُس فانقضَى أمرُه وانقطع خبرُه، وكان قَبَض أهلُ بِجايةَ على السيِّد أبي زكريّا عِمران، وطَلّعوه في أحدِ الأجفان فغرِق في البحر، ووصَل أبو عبد الله اللِّحيانيُّ إلى تونُس، فكان بها معَ أخيه عظيمَ القَدْر، في النّهي والأمر.

ولـمّا وصَل خبرُ هؤلاءِ السيِّدَيْنِ إلى مَرّاكُش قُتل فيها أخو الأمير أبي زكريّا عبد الله، وكان حين وَصَل إليها مكرَّمًا معظَّمًا، لكنْ جرَت عليه الأقدار، بمشيئة الله الذي لا يقفُ تحتَ قهرِه الاختيار، واستبَدَّ أخوه في تلك البلاد، غايةَ الاستبداد، وتلقّاه أهلُها مسارِعينَ للطاعة بأحسن قَبول، ونُشِرت عليه الألويةُ وقَرْعُ الطّبول، وبلَّغَه اللهُ البُغْية والمأمول، إلى أن توفِّي في سنة ستٍّ وأربعين، فكانت مدّتُه نحوًا من عشرينَ سنة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤١، والاستقصا ٢/ ٢١٨.

وخالَفَ على المأمون أخوه السيِّدُ أبو موسى بسَبْتة، ودَعا لنفسِه فيها وبايَعَه أهلُها، وتسَمَّى بالمؤيَّد إلى أن حصَرَه فيها أخوه المأمونُ على ما يأتي ذكرُه في سنة تسع وعشرين، فخاف منه وفرَّ إلى الأندَلس، ودخَل في دعوة ابن هُود وبايَع أهلُ سَبْتَةَ حينَئذٍ لابن هود، فوجَّه إليهم واليًا قائدَه الغشتيَّ فبقيَ بها أشهرًا وأخرَجه أهلُها وبايَعوا الحاجَّ أبا العباس أحمدَ بن محمد اليانِشْتيَّ وخَلَعوا طاعةَ ابن هود، فاستبدَّ الحاجُّ أبو العباس المذكورُ فيها وتسَمَّى بالموفَّق بالله، وكان من أكابرِ التُّجّار وذوي المروءةِ واليسار، وذلك في سنة ثلاثينَ وست مئة.

وفي سنة تسع وعشرينَ وست مئة: كان وصُول أرسال الخليفة العباسيِّ المستنصر[1] بالله من بغدادَ إلى ابن هُود المتوكِّل على الله، وكتَبَ له كتابًا يأمُرُه فيه بإقامة الدِّين والاجتهاد في أمورِ الجهاد، وسمّاه مجاهدَ الدِّين سيفَ أميرِ المؤمنين، فمِن ذلك فصولٌ منه بعدَ الاستفتاح والصَّدر والخُطبة والدُّعاء: والحمدُ لله الذي اختار من هذه الدّولة العبّاسيَة الشَّمّاء، والشّجرة التي أصلُها ثابتٌ وفَرعُها في السّماء، إمامًا للمسلمين، وخليفةَ لله تعالى في الأرَضِين، والمفترَض طاعتُه على الخَلْق أجمَعين، سيّدَنا ومولانا أبا[2] جعفرٍ المستنصر[3] بالله أميرَ المؤمنين، صَلَواتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين. ثم قال: ولـمّا انتهى إلى علومِه الشريفة ما هو عليه مجاهدُ الدِّين محمدُ بن يوسُف بن هُود من سلوكِ سَنَن الطاعة المؤسَّس بُنيانُها على تَقوى من الله ورضوان، والتزَم شروطَ الولاء الذي هو علامةُ متانةِ الدِّين وكمال الإيمان، اقتَضَت آراؤه الشّريفة المقدَّسة النبويّة الإماميّة، الطاهرةُ الزكيّة، المكرَّمةُ المعظَّمة، المستنصرةُ بالله زادَها اللهُ جَلالًا متألقَ الأنوار، وشرفًا رفيعَ المنار، واقتدارًا يَفُوقُ حدُّه حدودَ[4] الآفاقِ والأقطار، أن يُقلِّد أمرَ جزيرة

(١) في النسخ: «المستظهر» وهو خطأ محض، فإنه منصور بن محمد الظاهر وقد بويع له في رجب سنة ٦٢٣هـ، وتوفي سنة ٦٤٠هـ (تاريخ الإسلام ١٤/ ٣٣٠).

(٢) في النسخ: «أبو» ولا يصح.

(٣) في النسخ: «المستظهر»، وهو خطأ بيّن.

(٤) قوله: «حد حدود» سقط من ق، ك، ب.

الأندَلس وما يَجري معَها من الولايات إلى البلاد، ويُسوِّغه ما يفتتحُه من ممالكِ أهل الشِّرك والعناد، تقليدًا صحيحًا شرعيًّا، وتشريفًا صريحًا إماميًّا، وقد أمَرَ رضيَ اللهُ عنه بأوامرَ تَهدي إلى سبيل الرَّشاد، وتُحظيه بِرضى الله الذي هو نِعمَ الذخائرُ يومَ يقومُ الأشهاد، أمَرَه أن يتدرَّع شعارَ التقوى الذي هو خيرُ لباس، ويستشعرَ خيفتَه التي يجعَلُ لها كما قال اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وأمَرَه أن يجعلَ كتابَ الله تعالى منارًا يرجِعُ إليه في كلِّ المشكلات، ومِصباحًا يَستضيءُ بمَراشدِه في الأحكام الشرعيّة الـمُشبهات، وأمَرَه أن يعملَ بسُنّة النبيِّ ﷺ في مصادر أمورِه ومواردِه، وبإجماع المسلمينَ في جميع مَناحيه ومقاصدِه، وأمَرَه بمُجالسة الفقهاءِ والعلماءِ والفضلاء، وأمَرَه أن يُحسنَ السَّير في رعيّتِه، ويُسكِنَهم أرحبَ كنَف من حُنوِّه وشفقتِه، ويساويَ بينَهم في مجالس نظرِه وحكومتِه، وأمَرَه أن يقتديَ في جميع أمورِه بما أمَرَه اللهُ به، وأن يعتقدَ في مجاهدة الكافرينَ المشركين ما أمَرَه اللهُ به في قولِه عزَّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، فليكنْ مجاهدُ الدِّين بهذه الـمَراشد مُقتديًا، ولمناهج أوامرِها المطاعة مُقتفيًا، فإنه إذا اتّبع هُداها، وامتَثل مَراسمَها واحتذاها، وتمسَّك بعِصَم طاعةِ مَن أوجَبَ اللهُ عليه وعلى الخلائق اعتقادَ مفروض طاعتِه، وطوَّق أعناقَهم بالتزام شروطِ مُوالاتهم وعبوديّة سيّدِنا ومَولانا خليفة الله في أرضِه، والقائم بسُنَن دينِه وفرضِه: أبي جعفرٍ المنصور المستنصر[1] بالله أميرِ المؤمنين، فازَت قِداحُه، وتضاعَفَت من أقسام السعادة مَتاجرُه وأرباحُه، فإنّ ذلك عندَ ذوي الدِّيانات المتينة أحكمُ الأواصر وأوثقُ العُرى، والذُّخرُ النافعُ الذي يجدُه كلَّ موفق مسعود: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] والسلام.

وكُتِبَ في العَشْر الأواسِط من ذي القَعدة سنة تسع وعشرينَ وست مئة ـ وقيل: بل كان في السنة التي قبلَها ـ ختامُه: الحمدُ لله وصَلَواتُه على سيّدِنا محمد وآلِه وسلامُه، عُنوانُه: إلى مجاهِدِ الدِّين وأشرف الأمراء، تاج الخواصِّ الأمير الاسفهصلار الكبيرِ الأجلّ، الـمُرابط الـمُثاغِر الغازي، مجاهِدِ الدِّين، جمال الأنام، نَجْم الدولة، عزِّ المِلّة،

---

(١) في النسخ: «المستظهر»، وهو خطأ ظاهر.

مُعينِ الأُمّة، فَخْر الملوك، قامع المشركين، مذلّ الخَوارج والمتمرِّدين، زعيم الجيوش، أبي عبد الله محمد بن يوسُفَ بن هود سَيْفِ أمير المؤمنين.

ولـمّا صدَرَ كتابُ أمير المؤمنين العباسيِّ إلى الأندَلس لابن هُود، قُرئَ بمُصَلَّى غَرْناطةَ القديم، وكانتِ الرايةُ السوداءُ بإزاءِ المِنبَر وابنُ هود قائمٌ، وزِيُّه السوادُ، في نَخْوة بني العبّاس يتبختر[1]، وما قُرئَ من الكتاب إلا يسيرُ أسطار؛ لأنّ الناسَ كانوا قد خَرجوا للاستسقاءِ والاستمطار، وأمَرَ ابنُ هُود أن يُكتَبَ عنه في كُتُبِه للبلاد: من مجاهدِ الدِّين سَيْفِ أمير المؤمنين عبدِ الله المتوكِّل على الله أمير المسلمين محمد بن يوسُف بن هود.

ولـمّا استقامَتْ لابن هُود أحوالُه، وساعدَتْه أمانيُّه وآمالُه، وَلَّى العهدَ لابنه أبي بكر ولقَّبه بالواثق بالله، فوفَدَت عليه البَيْعاتُ من كلِّ البلاد من جزيرة شُقْر إلى الجزيرة الخضراء، مورَّخةً بعام تسعةٍ وعشرينَ وست مئة.

وفي هذه السنة: قامتِ العامّةُ من أهل إشبيلِيَة على عمادِ الدّولة أبي النَّجاء سالم بن هود الوالي على إشبيلِيَةَ وأنظارِها من قِبَل أخيه المتوكِّل، فأخرَجوه من إشبيلِيَة، وبقيَ أمرُهم شورى بينَهم يرجِعونَ فيه لأمرِ الباجيِّ ورأيه، وكانوا أرادوا مبايعتَه فامتَنع لهم إلى أنْ وصَلته بيعةُ قَرْمونةَ في السنة الآتية بعدَ هذه فقبِلَها، وحينَئذٍ مدَّ يدَه إلى مُبايعة أهل إشبيلِيَة فبايَعوه وبقيَ أميرَهم بها[2] إلى أن قُتل في سنة ثلاثٍ وثلاثين[3].

وفي هذه السّنة: كانت ابتداءُ ظهور أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن الأحمر[4] ببرِّ الأندَلس، بُويعَ بأَرجونةَ وهي بلدُه، إذ كان فيها منشَأُه ومولدُه. وكان بطلًا شُجاعًا، فأورَثَه ذلك سموًّا وارتفاعًا، وكان هذا محمد بن يوسُف مطابقًا لابن هود في اسمه واسم أبيه، مفارقًا له في اللَّقب، فهذا لقبُه: الغالبُ بالله، وذلك: المتوكِّلُ على الله،

---

(١) في ق، ك: «يتبخترون».

(٢) سقط شبه الجملة من ق.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

(٤) تاريخ الإسلام ١٥/ ٢٥٣، والوافي بالوفيات ٥/ ٢٥٥.

وابنُ هود خَرج على الموحِّدين وابنُ الأحمر خَرج على ابن هود، وما أكثَرَ ما أثَّر فيه اشتهارُ أبيه الأحمر، فاستعمَلَه في كلِّ شيء، وعليه في الشُّهرة والعلامة اقتَصر، رَكِب عليه وكتَبَ فيه وتزَيّا به في اللِّباس، كتزيِّي ابن هودٍ بالسَّواد لقيامِه بدعوة بني العبّاس[1].

ومن أرجونةَ ملَكَ ابنُ الأحمر جَيّان، وبُويعَ له بها سنةَ ثلاثين، واشتُهر ظهورُه في كلِّ مكان، ولقد جاء بها على قَدَر، فقَبِلتْه وعلى حمايتِها اقتدَر، وأيُّ عَيْش لـمَن بجَيّانَ يَطِيب، وعهدُ جارتِها أبدة بأخْذِ النّصارى لها كجلسة خَطيب؟ ومِن جَيّانَ ملَكَ قُرطُبة، ولا أعرفُ كيف كان ذلك، ولكنّه أسلَكَ أهلَها أضيَقَ المسالك، فعاجَلوه بالإخراج كارهًا، فخَرج وقد رَكِب من حزمِه فارهًا، وهو من جَأْشِه في أعظم جيش، والمسلمونَ بتلك الجزيرة من شدّةِ الاضطراب وكثرة الفتن في أعظم طَيْش، وأخرَجَه أيضًا أهلُ إشبيلِيَةَ وأنكَروا أمرَه، لـمّا غَدَر الباجيَّ وقَتَلَه، وسأذكرُ بعضَ أخبارِه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي هذه السّنة المؤرَّخة: حاصَر بعضُ القبائل مِكناسةَ الزّيتون، فعرَّف بذلك أهلُها أبا العُلَى المأمون، برسالة من إنشاء ابن عَبْدون، فنَسَقَ فيها الحالَ نَسَقًا، وأعلمَه أنهم في أمرٍ صيَّر صُبحَهم غَسَقًا.

فصلٌ منها

فالعبيدُ أيّدكم الله هالكونَ لا مَحالة، وحياتُهم في حيِّز الاستحالة، إلّا أنْ يَتدارَكَ اللهُ تعالى بلُطفِه، ويتلافَى الجميعَ بجزيل عَطْفِه. ومعروفٌ أنّ هذا القُطرَ حَماه اللهُ قُفلُ الغَرْب، والبلادُ معتمِدةٌ عليه اعتمادَ الحسام على الضَّرب، فإغاثتُه واجبة، وحمايتُه حاجِبة، فالعَجَلَ العَجَلَ! قبلَ بلوغ الأجل، والغِياثَ الغِياثَ! قبلَ تمكُّن الفسادِ والإعباث. وله شعرٌ في المعنى طويل، فمنه [من الطويل]:

إمامَ الهُدى سمعًا لدعوة شاكِ ... ثَوى بينَ هلّاكٍ رَهينَ هَلاكِ

وأوشَك أن يَغتالَ مِكْناسةَ الرَّدى ... وتَبكي على مَن تحتويهِ بَواكي

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

أحاطت بها الأعداءُ من كـلِّ جانـبٍ فقـــد قَعَــدت منهــا بكـــلِّ شِراكِ
وقد زارَها من أهـل زَرْهـونَ هَوْنُها وبَثُّــوا لهــا التطليــقَ بعــدَ مــلاكِ
وأبنـــاءُ فـــازازٍ لهـــا مُـــستفزّةٌ فهــا هــي تــشكو كــلَّ أروعَ شــاكِ

وكتَبَ معها: رفَعَ هذه الشَّكوى إلى المكان الإماميِّ الأعلى - أدام اللهُ أيامَه، ونصَرَ ألويتَه وأعلامَه - عَبيدُه المستجيرونَ بعدلِه، أهلُ مِكْناسةَ تَلافَى اللهُ برحمته تلافَها، وتَدارَكَ بلُطفِه قُطّانَها وأُلّافَها، مستصرِخينَ جلالَه، مُسترقِبينَ إقبالَه، فالعبيدُ في حُكم الفَوات وعددِ الأموات، وعدلُ المقام الأعلى كفيلٌ بتدارُك أرماقِهم، وحَلِّهم من وَثاقِهم. كُتِب في شهر كذا من عام تسعة وعشرينَ وست مئة.

وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وست مئة: كانت وفاةُ أبي العُلى المأمون رحمه اللهُ في آخِرِها، وذلك أنه لـمّا تَوالت عليه أخبارُ تلك الجهاتِ الغَرْبية، وما فعلَتْه بمِكناسةَ تلك القبائلُ الفازازيّةُ والـمكلاتيّة من حصارِهم إليها، ونزولِـهم عليها، وما فَعَله أيضًا أهلُ سَبْتَةَ من خلافِهم إليه وذمِّهم في كلِّ وقت عليه، شَرَع في حركة تلك البلاد، برَسْم حَسْم ما فيها من الضَّرَرِ والفساد، فخَرج من مَرّاكُش بعساكرَ وافرة، وجيوش مُتكاثرة، بعدَما تيقَّن أنّ يحيى بنَ الناصر، لم يبقَ له وَلِيٌّ ولا ناصر، وأنه أخَذ في الفِرار، فلا يستقرُّ له قَرار، وأنّ الموحِّدينَ تَركوه واستقَرّوا بجبالهم، والذين كانوا معَه من فُرسانهم ورجالِـهم، وأنه قد توجَّه إلى جهة دَرْعةَ وسِجِلْماسة.

وحينَئذٍ توجَّه المأمونُ بعساكرِه إلى جهة مِكْناسة، ولـمّا قَرُب منها، هَرَبت تلك القبائلُ المذكورةُ عنها، فاستمرَّ مشيُه إلى مدينة سَبْتَةَ فحاصَرَها من جهة البَرّ، وأكثرُ عيشِهم إنّما هو من جهةِ البحر، فكانوا في نِعمة شاملة، لم يَرِدوا مواردَ الحرب ولا نالَهم ولا هالَهم تضييقُ المأمون ولا حصارُه، وإن تَكاثَرت أعدادُه وأنصارُه، وقد نصَبَ عليها ثلاثَ مَنجَنيقات تَرمي كلَّ يوم عدةَ أحجار، فما ثَلَمت شيئًا من السُّور، ولا هَدَمت دارًا من الدُّور، فأقام عليها ثلاثةَ أشهر مُتَوالية، وأهلُها في بلدِهم كما كانوا في الأيام الخالية، لم يَعدَموا فيها طعامًا ولا إدامًا، ولو حاصَرَهم كذلك أعوامًا، إلى أنْ

وصَلَه خبرٌ أقلَقَه، وأسهَرَ جَفْنَه وأرَّقَه، فأحرَقَ الـمَجانيقَ وأشعَلَ في محلّةِ السُّوق نارًا، وأقلَعَ عنها اضطرارًا لا اختيارًا، وهُو أنّ يحيى بنَ الناصر دخَل مَرّاكُش عَنْوة فقَتل فيها وسَبَى، وأحرَقَ الكنيسةَ وأورَثَ أهلَها وَصَبًا، فجَدَّ في السَّير للقاءِ يحيى ليُعدِمَه بزَعْمِه الـمَحْيَا، وبلَغَ حرقُ الكنيسة للنّصارى أجنادِه، وكانوا عُمدتَه في إصدارِه وإيرادِه، فتشتتتْ أحوالُهم، وتكاثَرت أوجالُـهم، فزادوا ونَقَصوا وعزَموا على مقابلة يحيى وحَرَصوا، وأقسَم المأمونُ أن يُطلِقَهم على البلد ثلاثةَ أيام حتى يَنتصِفوا، ولا يتأخَّروا عمّا يَشفي صدورَهم ولا يتوقَّفوا. فلمّا وصَل المأمونُ معَ أجنادِه إلى وادي أُمِّ الربيع جُرِّع كأسَ المنيّة قبلَ بُلوغ الأُمنيّة، فشرِبَ المسلمونَ الخائفونَ من الروم سَلسَبيلًا، ولن يجعَلَ اللهُ للكافرين على المؤمنينَ سبيلًا(١).

ولـمّا توفِّي المأمون كتَمتْ زوجتُه حَبّابةُ الرُّوميّةُ أُمُّ الرشيد وفاتَه إلّا منَ القُوّاد، وأظهَرت أنه في قَيْد الحياة إلى جميع الأجناد، وكانت أُمُّ الرّشيد رُوميّةً، فأولُ مَن عرَّفت بموتِه قُوّادُ الرُّوم، ثم عرَّفت أشياخَ الـخُلَّط وبعضَ القَرابة والخاصّة، وبقيَ الأمرُ مكتومًا عن العموم، فأجمعوا على بَيْعة ابنِها عبد الواحد الرَّشيد بيعةً خاصّةً لا عامّة، وذلك ثانيَ يوم وفاة أبيه وهُو يومُ الأحد مفتتَحُ شهرِ محرَّم من عام ثلاثينَ وست مئة.

وشاع الخبرُ في المحَلّة أنّ أميرَ المؤمنينَ مريضٌ لا يستطيعُ أن يركَبَ على مركوب مُسرَج، ثم أدخَلوه في تابوت وجُعِل في هَوْدج والجيوشُ أمامَه وخلفَه وقد تأهَّبوا للقاءِ يحيى، وكتَم القُوّادُ حتْفَه وأغَذُّوا السَّيرَ إلى أنْ وصَلوا حضرةَ مَرّاكُش، فخَرج منها يحيى بجيوش الموحِّدين وبمَن كان معَه من العَرَب والمتجنِّدين، فالتقَى الجَمْعان، ودارت بينَهم كأسُ الحربِ والطِّعان، فانجَلَت عن هزيمة يحيى ابن الناصر، وقَتْل أكثرِ مَن كان معَه من العساكر، ودخَل الرّشيدُ حضرةَ مَرّاكُش سالـمًا ظافرًا، ووَلَّى يحيى بنُ الناصر منهزِمًا خاسرًا، وسأُورد كيفيّةَ دخولِه إن شاء اللهُ تعالى(٢).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤١-٣٤٢، والاستقصا ٢٤٠-٢٤١.

(٢) الإحاطة ١/ ٤١٧.

ذكرُ بيعةِ الرّشيد وخلافتِه وما جَرى من الأحداث والأخبارِ في دولتِه[1]

نسَبُه: هو أبو محمد عبدُ الواحد بنُ أبي العُلى إدريسَ المأمون ابن أبي يوسُف يعقوبَ المنصور بن أبي يعقوبَ يوسُفَ بن أبي محمد عبد المؤمن.

أُمُّه: أمُّ وَلَد رُوميّةٌ تسمَّى حَبابة.

أبناؤه: محمدٌ وعثمانُ دَرَجا، ولمحمد هذا أنباءٌ في وفاتِه بمدينةَ فاس وهو في كَفالة عمِّه أبي الحَسَن السّعيد، وذلك في عام اثنينِ وأربعين وست مئة.

إخوتُه أشِقّاؤه: أَمَةُ العزيز، وهي الحُرّةُ عزّونة[2]، وغيرُ أشقّائه: أبو الحَسَن السّعيد وأُمُّه أيضًا أُمُّ وَلَد، وعبدُ الله وعبدُ العزيز أبناءُ طَيْف أُمِّ وَلَد أيضًا، ولهذا عبدِ العزيز نبأٌ ظَريف في جِنايتِه الشَّنعاء وقُتل بسَبْتةَ في عام سبعةٍ[3] وأربعينَ وست مئة، وعثمانُ أُمُّه ظَريفُ، أيضًا أُمُّ وَلَد، وصفيّةُ أُمُّها أُمُّ وَلَد، وعائشةُ كذلك ونَجْمةُ أُمُّها أيضًا رُوميّةٌ، وفَتْحونةُ أُمُّها أُمُّ وَلَد.

صفتُه: أزهرُ اللّون أشقر، كثُّ اللِّحية، حَسَنُ القَدّ، في وجهِ يسيرُ نَمَش.

عمُرُه: أربعٌ وعشرونَ سنة.

دولتُه: عشَرةُ أعوام ونحوُ أربعةِ أشهر.

وفاتُه: يومَ الجُمُعة عاشرِ جُمادى الآخِرة من عام أربعين وست مئة.

وُزراؤه: السيِّدُ أبو محمد عبدُ الله بن أبي سعد بن المنصور، وأبو زكريّا بنُ أبي الغَمْر، وأبو عبد الله محمدُ بن عبد الله الجنفيسيّ، وأبو محمد عبدُ الله بنُ أبي زكريّا، وأبو عليّ السيِّدُ ابن أبي محمد عبد العزيز ثم أبو عبد الله الجنفيسيُّ المذكورُ مرةً ثانية بعدَ تأخيرٍ له.

---

(١) المعجب ٤١٧، وتاريخ الإسلام ١٤/ ٣٢٤، والوافي بالوفيات ١٩/ ٢٥٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٢) الضبط من ق.

(٣) سقطت من ق.

أصحابُ أشغالِه: عبدُ الرحمن بن عُمر بن وين الخير القَبائليّ، ثم انضاف ذلك للسيِّد أبي محمد الوزير الكبير عند استيلائه على المملكة، ثم أبو موسى بن عَطّوش بعدَ وفاة أخيه.

كُتّابُه: أبو زكريّا الفازازي، وأبو عبد الله القُبّاجيُّ، وأبو عبد الله الحُسَينُ ابن أبي عَشَرة، وأبو عبد الله الفازازيّ، وأبو عبد الله بن سُليمان، وأبو العلا ابنُ حَسّان، وأبو الـمُطرِّف ابن عُمَيْرة، وأبو الحَسَن الرُّعَيْنيّ، وأبو القاسم القباجيُّ، وأبو عبد الله التِّلِمْسانيّ[1]. وهؤلاء الكُتّابُ الذين ذكَرْنا منهم مَن كتَبَ قبلَه لأبيه المأمون ومنهم مَن أضافَه الرّشيدُ إليهم، ومنهم أبناءٌ كتَبوا يسيرًا، ومنهم من مُدَّت له الحياةُ إلى انقضاءِ مدّةِ الرَّشيد.

مُشارفُه في حضرته: أبو محمد سعدُ الـمَكْنيُّ بأبي البركات، ثم أبو إسحاقَ السَّبْتيّ، ثم أبو عبد الله بن طَراوة، ثم أبو العبّاس بن هشام، ثم أبو عبد الله بن أبي البركات.

حاجبُه: أبو الفَضْل مبارَكٌ التكروتيّ.

أصحابُ شُرطِتِه: أبو موسى بن عَطّوش قبلَ اشتغاله، ثم أبو محمد بن ماكْسن، ثم أبو زكريّا بنُ عَطّوش، ثم أبو الحَجّاج بن مَلِيح، ثم عاصمٌ الهسكوري، ثم أبو الحَسَن أزلماط.

وكانت مُبايعتُه خاصةً لا عامّة ثانيَ يوم وفاة أبيه كما تقدَّم ذكرُه، وهو يومُ الأحد مُنسلَخِ[2] عام تسعة وعشرينَ وست مئة.

وفي سنة ثلاثينَ وست مئة: كان استقبالُ الرّشيد مَرّاكُش حرَسَها الله، لـمّا أتاح اللهُ النّصرَ على يحيى ابن الناصر أميرِ المؤمنينَ وعلى طوائفِ الموحِّدين وعَرَب سُفيان،

---

(١) وقع النص في ق، ك، ب كما يأتي: كتّابه: أبو زكريّا الفازازي، وأبو عبد الله بن سليمان، وأبو العلى بن حسّان، وأبو المطرِّف بن عميرة، وأبو الحسن الرعيني، وأبو القاسم القُبّاجي، وأبو عبد الله التلمساني». والقُبّاجي قيّده ابن عبد الملك في الذيل والتكملة بضمّ القاف ولكنه لم يُشر إلى تشديد الباء، وهو مجوّد في النسخ الخطية من البيان (الذيل ٤/ ٢٥٩ الترجمة: ٦٨٩).

(٢) في ق، ك، ب: «مفتتح» ولا يصح.

وكان شيخَهم يومَئذٍ جَرْمونُ بن عيسى، وانتُهِب له من الأموال والذّخائر ما لا يُحيطُ به حَصْرٌ ولا حساب، وفرَّت أعداؤه خاسرينَ مهزومين، واستقبَلَ مَرّاكُش وكان واليَها السيِّدُ أبو الفضل جعفرٌ ابن السيِّد أبي سعيد ابن الخليفتَيْن أميرَي المؤمنينَ قدَّمه عليها أهلُها[1]، فإنّهم ترَكَهم المقدَّمُ عليها من قِبَل يحيى، وهو أبو سعيد بن وانُودين بغير والٍ ولا ناظر، فاختاروا السيّدَ أبا الفَضْل لشياختِه ودينِه، وكان يجلسُ في حانوتٍ للشهود بإزاء باب القَصْر، وكانت سِيرتُه في الناس حسَنةً وفي تسديدِ أحوالِـهم، ضبَطَ ذلك بكلِّ مستجاد من العمَل ومُلاحظةٍ للمصالح من غيرِ خَلَل، فكتَبَ عَقْدًا شهِدَ له فيه جمهورُ الناس من الطّلبة والأُمناء يتضمَّنُ أنّ تقديمَه لم يكن باختيارِه، وأنه أُكرِه عليه، واجتَمع الجُمهورُ على تقديمِه لمصلحةِ الوقت لئلّا تمتدَّ أيدي الناس إلى آخَرين، كلُّ ذلك احتياطٌ مما يَتَوقَّعُ من أميرِ المؤمنينَ المأمون، فكفاه اللهُ ما كان يَخشاه[2].

ولـمّا دَنا الرّشيدُ إلى مدينة مَرّاكُش كتَبَ لأهلِها ظَهِيرًا بتأمين كافّتِهم والعَفْوِ عن عامّتِهم وعمّن كان معَهم من الموحِّدين، ورفَعَ عنهم الـمَغارم وجدَّد لهم أحوالًا سَنِيّة وآمالًا رَضِيّة، ووَجَّه بهذا الظَّهير الفقيهَ القاضيَ أبا محمد عبدَ الحقّ في أُناس معَه، فلمّا دنَوْا من السُّور أنكرَ الناسُ صُورَهم فاستعدُّوا لهم وظَنُّوهم مقدَّمةً لجيش المأمون، وازدحَم الناسُ في السُّور لقتالِـهم، فإنّهم كانوا ثابتينَ على قتال المأمون مُلازِمينَ طاعةَ يحيى بن الناصر[3] لِـما كانوا تحقَّقوا منَ الذي عزَمَت عليه النّصارى منَ استئصالهم وفَيْئهم، فتعرَّض أبو محمد عبدُ الحقِّ لهم فيما أنكَروه، وتكلَّم معَ بعض الطّلبة والأُمناءِ من جهةِ باب السّادة فحَمِدوه وشَكَروه، ولم يكنْ عندَ أهل مَرّاكُش خبرٌ بموتِ المأمون وولايةِ ابنِه الرَّشيد ولا بهزيمة يحيى ابن الناصر بعدَ حلولِه من الـمُلك في قصر مَشِيد، فبيَّن لهمُ الفقيهُ أبو محمد عبدُ الحقِّ كيفيّةَ ذلك وشَرَحه لهم وعرَّفَهم بالظَّفَر والنِّعم عليهم، فوَثِقوا بقوله وسكَنَت إليه نفوسُهم واطمأنّتِ الخواطر، وهَبَّ عليهم من المَسَرّة ريحٌ عاطر،

---

(1) سقطت من ق.

(2) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(3) من هنا إلى قوله: «يحيى ابن الناصر» الآتي بعد أسطر قفز ناسخ الأصل الذي نسخ منه نسّاخ ق، ك، ب، ر٣ فسقط من هذه النسخ ما بينهما.

وارتفَع عن الناس الالتباس، بعدَما كانوا في أمر جَلَّ عن القياس، وأعلَنوا بالسَّمع والطاعة والدُّخول في حزب الجماعة لخليفتِهم الرّشيد أميرِ المؤمنين، وأضحَوْا به مسرورين ومنهُ آمِنين، وأذِنوا للفقيه أبي محمد ومَن معَه بالدُّخولِ للبلد فدخَلوا من باب النَّصْر جميعًا، وتوجَّه هو ومَن معَه معَ السيِّد أبي الفضل ووجوه البلد سريعًا، حتّى وصَلوا دارَ الخليفة[1]، فأدار عليهم من السرور رَحيقَهُ وسُلافَه، وقُرِئَ الظَّهيرُ الكريم على الناس فسُرُّوا بمقتضاه، ولا أحدَ منهم إلّا قَرَّ عينُه به وارتضاه، وكتَبوا لخليفتِهم بسَمعِهم وطاعتِهم، وعاد أبو محمد وأصحابُه ذا مُحَيّا طَلْق، وتوجَّه معَهم من كُبَراء أهل مَرّاكُش مَن أراد التوسُّل بالسَّبْق.

ولـمّا قَدِم الفقيهُ القاضي على الرّشيد، وعرَّفه بما كان من أمرِه الحميد، تلقّاه من البرِّ بأحفلِه، ومنَ الاعتناء بأتـمِّه وأكملِه، ولـمّا كان المأمونُ اتّفق معَ النّصارى بما اتّفق، انحَلّ ذلك الأمرُ المنتظِم بوفاتِه وافترَق، وقيل: إنّ أُمَّ الرّشيد حَبّابة، أرْضَتْهم بمالٍ بعدَ المأمون فحادوا عن سبيل الحرب وأغلَقوا بابَه، وسَلَّم اللهُ المسلمينَ من الرُّوم، فقد كانت تَبغي إمحاقَهم وتَرُوم، ودخَل الرّشيدُ مَرّاكُش والنّصرُ يخدُمُه، والسعدُ يصحَبُه ويَلزَمُه.

دخولُ أمير المؤمنينَ الرَّشيد مَرّاكُشَ حَرَسها الله

ودخَل أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ مدينةَ مَرّاكُش منتصَفَ شهر محرَّم من سنة ثلاثينَ كما تقدَّم ذكرُه، واستقرَّ بها واطمأنّت نفوسُ المسلمين، وتجدَّدت الأحوالُ والآمال، واستقَلَّ بالـمُلك أيَّ استقلال، وحَسَم العِلَل، ورفَعَ الداءَ والخَلَل، وعادتِ البلد في أسنى حُلًى وأبهى حُلَل، وكان ألفَى البلدَ قدِ استولَتْ عليها أيدي العرب، واستطالت بكلِّ نوع من العَبَث والفسادِ والخَراب، عندَ دخول يحيى إليها، وجَمْع حشَمِه وعَرَبِه عليها، ووصَل في خدمة الرّشيد من العَرَب الخُلْط شيءٌ كبير، واستقرَّ جميعُهم بالجهات والأنحاء وكلُّ عين قَرير، وامتلأت أيديهم من أموال عَرَب سُفيانَ ومَواشيهم، وسُرُّوا بما أفاء اللهُ عليهم من الظَّفر بأعاديهم، ووصَل معَ الرّشيد عمُّه السيِّدُ أبو محمد سَعْد، وهو به كثيرُ البرِّ والاعتناء، فكتَبَ له ظهائرَ برِباع وكثيرٍ من العقَار، ولم يُبدِ له إلا التعزُّزَ والوَقار، وكان قد ترَكَ

(1) في ك: «الخلافة».

أبو محمد سعدٌ أولادَه بقصر عبد الكريم معَ جماعة من خاصّتِه تحتَ كفالة أبي زكريّا بن عَطُّوش، ثم توجَّه عنهم عندَ استقرارِه بمَرّاكُش آمِنًا من أحوالِه، مُبلَّغًا جميعَ أمانيِّه وآمالِه.

وفي أثناءِ ذلك وَرَد على السيِّد أبي محمد سعد كتابٌ من يحيى بن الناصر وهو يُعتِبُه في عُدولِه عن بيعتِه إلى بيعة ابن عمِّه بألفاظٍ لا يَليقُ ذكرُها، فإنّ كاتبَه أقذَعَ فيها، وجاءه بالكتاب رَقّاصٌ فاعتَقَله ورَفَع الكتابَ إلى أمير المؤمنينَ الرّشيد وفاءً بعهد طاعتِه وحقِّ خِدمته.

وكان السيِّدُ أبو محمد سعدٌ إذا وصَل إلى دار الخليفة يقعُد في القُبّة التي يجلسُ فيها الرّشيدُ أميرُ المؤمنين تكريمًا لجانبِه وتوقيرًا، فنهَضَ على عادته واجتَمع معَ الرّشيد وبعض خاصّتِه، وتفاوَضَ معَه في كَتْب جواب يحيى بن الناصر، فوقَع النظرُ أن يَكتُبَ له بأشنَعَ ممّا كتَب، وكان كاتبُ أبي محمد سعد لم يحضُر، وهو أبو القاسم ابن عِمران، فأمَرَ أبا عبد الله التِّلِمْسانيَّ أن يَكتُبَ له، وكان صغيرَ السِّن، فكتَب، وكان في أوّل الكتابِ المذكور بعدَ البسمَلة والتّصلية: من سعدٍ ابن الخُلفاءِ الرّاشدين إلى السيِّئ النظَر القاصر، الذي لم يَصرِفِ اللهُ له من التوفيق والتسديد لـمْحةَ باصر، يحيى بن الناصر، سلامٌ على مَن خالَف عقلَه وحالَف جهلَه، ورحمةُ الله وبركاتُه، ثم نَحا هذا الـمَنْحى إلى آخِر الكتاب.

ولـمّا استقرَّ الرّشيدُ بحضرتِه، واجتَمع الناسُ على طاعته، وصَلتْه البيعاتُ من كلِّ الجهات، وتجدَّدتِ البشائرُ والمسَرّات، فمِن ذلك: بيعةٌ من بعض القبائل مختصرة:

بيعةٌ مختصَرة لأبي محمد عبد الواحِد الرّشيد أميرِ المؤمنين

الحمدُ لله الذي شيَّد بالإمامة أركانَ الإسلام، وحَفِظ بها دينَ محمدٍ عليه السّلام، وجعَل طاعةَ منِ استحَقَّها، وأدَّى حقَّها، من فروض الأعيان، ونَظَم بتقليد بَيْعة منِ اختارَه لخلافتِه في أرضِه، وارتضاه لإقامةِ سُنّتِه وفَرْضِه، عقودَ الاعتقاد وتـمَّم به شرائطَ الإيمان، والصّلاةُ على سيِّدِنا محمد رسُولِه المبعوث لخير أُمّة في خير زمان، وعلى آلِه الطيِّبينَ وصَحابتِه الأكرَمِين والتابعينَ لهم بإحسان، والرِّضى عن الخلفاءِ الرّاشدينَ الذين كانوا يَقْضُونَ بالحقِّ وبه يَعدِلونَ في الإسرارِ والإعلان، اللهمَّ ارضَ عن خليفتِك في بَراياك، الكفيل عدلُه بإقامة دينِك القيِّم ورعاية رعاياك، الإمام المؤيَّد المبارَك الأسعد

أميرِ المؤمنينَ أبي محمد عبدِ الواحد ابن سيِّدِنا الخليفة الإمام المأمون أميرِ المؤمنين أبي العُلى ابن الخُلفاء الراشدين، اللهمّ كما انتخبتَه من خير نِصاب، وأعدتَّ به الدولةَ المأمونيّةَ إلى عُنفُوان الشّباب، وجمَعتَ بعدلِه ضروبَ الأشتاتِ كما جمَعتَ بفضلِه جميعَ الأسباب، وحسَمتَ بحُسامِه موادَّ الشِّرك والارتياب، اللهمّ اجعَلْ[1] كلمتَه العُليا، وامنَحْه من قسم السّعادة والنِّعم المستزادة ما يجمَعُ له بينَ سَعادتَي الآخِرة والدّنيا، إنك[2] كفيلٌ بكلِّ خير جميل.

وبعدُ، فهذا ما أجمَعَ عليه الكافّةُ من بني فلان، خصوصُهم وعمومُهم، من عَقْد بيعتِهم الموطَّدةِ الأركان، المؤسَّسِ بُنيانُها على تقوى من الله ورِضوان، لسيِّدنا الخليفة الإمام[3] أميرِ المؤمنين ابن الخُلفاءِ الرّاشدين، أعلى اللهُ كعبَه، ونَصَر حزبَه، أبْرَموا عَقْدَها، والتزموا عهدَها، وقلَّدوا أعناقَهم أمانتَها، وتكفَّلوا حِياطتَها وصيانتَها، واعتصَموا بمَتْن حَبْلِها، واهتدَوْا بيُمن سُبُلِها، وأوجَبوا بها على أنفسِهم طاعتَه، واعتقَدوا بعَقْدِها موالاتَه ومشايعتَه، وفاءوا إلى فئتِه المباركة، والتزَموا مواصلةَ مَن واصَله ومُتاركةَ مَن تارَكَه، سرورًا بسعدِ أيامِه، وشكرًا لجزيل إحسانِه وإنعامِه، وامتثالًا لماضي أوامرِه ولحُكم أحكامِه، طائعينَ غيرَ مكرَهين، بارعينَ غيرَ نازِعين، بضمائرَ خالصة، وعزائمَ ماضيةٍ غيرِ ناكصة، يُوالُونَ مَن والاه، ويُعادونَ من عاداه، ويوادُّونَ مَن وادَّاه، وفاءً بعهده وميثاقِه، وابتغاءً لـمَرْضاتِه ووفاقِه، مبايعةً موثَّقةَ الإحكام، سَنِيّةَ الأحكام، أعطَوْا عليها صفقةَ أيْمانِهم وأكيدَ أليّاتِهم، واعتقَدوا الوفاءَ بها والتمسُّكَ بسببِها بصفاءٍ من سرائرِهم، وخُلوص من نيّاتِهم وضمائرِهم، وأشهَدوا اللهَ تعالى وملائكتَه على أنفسِهم بذلك، وهم بحدودِه عالمون ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقيَّدوا بذلك شهادتَهم في شهر محرَّم سنةَ ثلاثينَ وست مئة.

وفي صَدْر سنةِ ثلاثينَ المذكورة: وصَل ابنُ وقاريطَ الهسكوريُّ من جبلِه بمَن معَه من أولادِ أميرِ المؤمنين المأمون رحمه الله، فوصَل السيّدُ أبو الحَسَن المعتضِدُ بالله وإخوتُه

---

(١) سقطت من ق. والعبارة في ك: «فاجعل اللهم كلمته».

(٢) في ق، ك: «إنه».

(٣) سقطت من ق.

إلى أخيهم الرَّشيد، وكان هذا أبو الحَسَن ترَكَه أبوه بإشبيلِيَةَ فقيم عليه فيها ثم أخرَجَه أهلُها فحصَل عند عمِّه بسَبْتة.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيلِيَةَ للباجيِّ وأهل قُرطُبة لابن الأحمر، وعقَدَ ابنُ هُود السِّلمَ معَ العدوّ بسببِ اشتغالِه بمحاربتِهما على أن يُعطيَ ابنُ هود لأذْفُونْش ألفَ دينار في كلِّ يوم[1].

وفيها: أخَذ العدوُّ قَصَبةَ مدينة أُبَّدةَ أعادها اللهُ للإسلام.

اختصارُ الخبرِ عن وصُول ابن وقاريطَ وسببِه وذكرُ ما تعلَّق به منَ الأخبارِ به

كان ابنُ وقاريطَ هذا عازمًا ألّا يعودَ إلى المأمون ولا يُدْخِلَ يده بوَجْه من الوجوه لخَوْف خامَرَ عقلَه منهُ، إلى أن وصَل الرَّشيدَ بوسيلة من استَصحَبَه من إخوتِه أولادِ المأمون، فانبسَطَ خاطرُه بعضَ انبساط، وقام من الكَسَل إلى النّشاط، ومال بكُلِّيته إلى جانب السيِّد أبي محمد سَعْد عمِّ الرّشيد، وصار في الظاهر يَخدُمُه، فثبتَت به تلك الـمُدةَ قَدمُه، وكان ابنُ وقاريطَ أيضًا مُعتنيًا بالفقيه أبي إسحاق ابن الحَجَر غُرّةِ مصرِه، ونادرةِ عصرِه، العِلمُ والأدبُ والطّبُّ يُعزَى إليه، فما زال مشتملًا عليه، وكان الفقيهُ أبو إسحاقَ خفيفًا على النفوس تميلُ قلوبُ الملوك لمداعبتِه، وحُسن حديثِه ودِرايته، واحتوائه على أخبارِ الدُّول وإحاطتِه، وكان للسيِّد أبي محمد سَعْد به اعتناءٌ كثيرٌ أيضًا ويَخلو معَه في أكثرِ أوقاتِه، فكان أبو إسحاقَ المذكورُ يؤكِّدُ الوصلةَ بينَ السيِّد أبي محمد سَعْد وبينَ ابن وقاريطَ، ووثَّق ذلك كما يجبُ وكما أراد في حقِّ صاحبَيْه، وعمِلَ في ذلك ما زاد اشتمالَةَ نَفْس ابن وقاريطَ عليه. ثم استقامَت الأحوالُ في هذه السّنة على السُّكون والدَّعة وابنُ وقاريطَ مِصرٌّ صُحبةَ مسعود الخَلْطي ومتودِّدٌ له ومستكثرٌ به، إلى أن حصَل على مقصودِه من مُصافاته، وتمَّ له التدبيرُ في مُوالاتِه، وهو في الظاهر متمسِّكٌ بالسيِّد أبي محمد سعد، فلمّا كمُل مرادُه فيهما سعَى سعيًا آخَرَ في الأمور، وتحرَّك لأشياءَ كان لها ساكنًا، وربّما

---

(١) في ق، ك، ب: «عام» ولا يصحّ.

كانت مُعاوِناتٍ في الباطن في تأخير السيِّد أبي محمد عن الوِزارة لأمورٍ قُدِّرت، ثم مَرِض أبو محمد سَعدٌ وانفَرد بالوِزارة للرّشيد أبو زكريّا ابنُ أبي الغَمْر، وقدَّم ابنَ وين الخَيْر على الأشغال، ووافَت المنيّةُ أبا محمد سعدًا ولا بدَّ من وقوع الآجال[1].

ذكرُ وفاة السيِّد أبي محمد سَعْد وحِمامِه وحضورِ أبي محمد الرّشيد لدفنِه وبني أعمامِه

لـمّا وافَت المنيّةُ أبا محمد دُفِن بدارِه في دُوَيْرةٍ منها تُسمَّى دارَ العُقبان في أحدِ أُسطواناتِها، وحضَر جنازتَه أميرُ المؤمنين الرَّشيدُ وأعمامُه وإخوتُه وأبناؤه، وقَعَدوا على القبر حتى كمُل بناؤه، وتكلَّم الناسُ في موتِه بما اللهُ يعلَمُ حقيقتَه، فهو الذي يَعلَمُ السرَّ ودقيقتَه.

ذكرُ السببِ في انتزاءِ ابن وَقاريطَ وعِنادِه

لـمّا توفِّي أبو محمد سعدٌ رحمَه الله اختَلَّ على ابن وقاريطَ أحدُ عاقديّتِه واضطَرب، وهجَسَت في نفسِه الظّنونُ الكاذبةُ وكثُرتِ الأوهام، ومال في كلِّ وادٍ وهام، فلم يقدِرْ على القيام بالحضرة، وصار ذا شحوبٍ وكان ذا نَضْرة، وطلَبَ مطالبَ شنيعةً أسعف فيها منها محاشاة هسكورة، وأن يُنعَمَ عليه بمَجْبَى هزرجةَ وأغماتِ وَريكة، فكتب له بذلك ظهائر، ولم يزدْ معَ ذلك إلّا تنافُرًا، وألقَى يدَه على هاتَيْن الجهتَيْن، وكأنّه في لظًى وهو ما بينَ جنّتَيْن، فخَرج ذاتَ يوم يريدُ تفقُّدَ إخوانِه، وإصلاحَ أمرِه وشأنِه، فكان آخرَ العهد به وبعِيانِه، وعندَ انفصال ابن وقاريطَ وعِناده، أخَذ ابنُ وين الخَيْر في اللَّحاق به لاستصلاحِه واستردادِه، فأعوَزَ الداءُ الدواء، وتمكَّنت في نفسِه الشَّحناء، وكان هذا آخرَ سنة ثلاثين.

وفي سنة إحدى وثلاثينَ وست مئة: استقرَّت أحوالُ الرّشيد، وهو يعالجُ الأمورَ وينظر الرأيَ السَّديد، وعاد ابنُ عمِّه أبو محمد إلى الوِزارة وأقرَّ عُمّالَه على أعمالِـهم، وخُدّامَه على طبقاتِهم وأحوالِـهم، وأظهَر ابنُ وقاريطَ عِنادَه وارتدادَه، وأعلنَ بطاعة يحيى واتّبع

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

مرادَه، وأصَرَّ على الفساد، والعَبَث في البلاد، ثم توجَّه نحوَ يحيى وهو ببلادِ مزالة، فقرَنَ به أمانيَّه وآمالَه، ولـمّا عَلِم الموحِّدونَ ميْلَ يحيى إلى ابن وقاريطَ واغترارَه بمشايعتِه وإصغائه إليه، نَبَذه أكثرُهم بالعراء، واطّرحوا عهودَ الوفاء.

حركةُ الرَّشيد إلى تادِلا

وفي هذه السنة: شَرع الرّشيدُ في حركتِه لبلاد هسكورةَ وما والاها، وأبدَى حالةَ الحَزْم وأجلاها، وتحرَّكَ في جُموع جنودِه وحاشيتِه، وخَلّف على حضرتِه واليًا صِهرَه السيّدَ أبا العُلى إدريس، فضَبَطَ البلدَ وأحسَنَ السِّيرةَ في العامّة وأهل التدريس، وباشَرَ الأمورَ بنفسِه، وطلَعَ ببدرِ الفضل وشمسِه، وكان يَسكُنُ بزوجتِه ابنة المأمون بدار من ديار القَصْر، وكان جلوسُه غُدوًّا وعَشِيًّا في مَرْبعةِ الدار للنهي والأمر، وسكَنَت الأحوالُ بهذه الحركة، وانقَطع الإرجافُ وارتفَع الفساد، واستمرَّتِ الحالُ على هذا قَدْرَ شهرٍ أو أزيَد، ثم توارَدَت الأخبار بانقطاع يحيى ومَن معَه بابن وقاريطَ وجموعِه، وأنهمُ استنفَروا هسكورةَ القَبيلةَ ومزالةَ وجلاوةَ ومَن في هذه الجبال من خيل ورَجْل لقصودِ مَرّاكُش والحصُول عليها، فهاجَت النفوسُ واضْطَربتِ الأحوال، وكانت بالقصر الحُرّةُ أمُّ الرّشيد، فهالَها هذا الأمرُ الشديد، واشتدَّ السيِّدُ أبو العُلى في الضَّبط والترتيبِ للأمور، والمباشرةِ لقليلها، وكثيرِها بينَ الجُمهور، وتوجَّهت كتُبُ الحرّة لابنِها تَستعطفُه وتستحِثُّه لتدارُكِ الحال قبلَ انخراقِ الفتن وتعذُّر الرَّتْق، فثنَى عِنانَه بعزْم صادق، وقصَدَ بلادَ هزرجة، وكان المرورُ إليها حينَ قفولِه على بلاد هسكورة، فأعاد في طريقه الإيقاعَ بهم والتخريب لبلادِهم، وانسحابِ الجيوش على طارفِهم وتِلادِهم، ولـمّا أحسَّ أبو زكريّا يحيى بنُ الناصر وأشياعُه بحَزْمِه، وقدومِه بصادق عَزْمِه، لجَأوا إلى جبل يُعرَفُ هنالك، واستنفَروا تابعَهم ومتبوعَهم، وجمَعوا جموعَهم، واستعدّوا للقتال، وأخَذوا أُهْبةَ النِّزال، والرّشيدُ يتقدَّمُ له النصر، وتبدو له مَخايلُ الظَّفَر، لِـما تبيَّن له انكماشُ أعدائه بالجبل المشار إليه، وتعويلُهم حقيقةً عليه، وجيوشُ الرَّشيد في استعداد، وقوّةٍ بالله تعالى واستنجاد[1].

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

هزيمةُ الرّشيد ليحيى ومَن معَه على هزرجة

ولـمّا دَنا الرّشيدُ من يحيى ومَن معَه حَمَل عليهم فلم يَلبَثوا أنْ وَلّوا الأدبار، ولاذوا بالفِرار، واعتصَموا بشواهقِ تلك الجبال ومضائق تلك الأوعار، وتَركوا محلّاتِهم بمواضعِها، وأسلَموا جميعَ ما فيها، وكان توجُّهُهم في هذه الهزيمة نحوَ بلاد القِبلة، حليفُهم الخَسار، وشعارُهم الذُّلّ والصَّغار.

وخيَّم أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ في موضع الفتح ومستقرِّ النُّجح، ليأخُذَ بحظٍّ من الرّاحة، والشّكرِ لنِعَم الله المتاحة، وليعودَ أهلُ العسكر إلى النظَر في مصالِـحهم وأمورِهم وتجديدِ ما يحتاجونَ إليه من مقابلة عدوِّهم، واتَّسعت بما حصَلوا عليه أحوالُهم وانبسَطَت آمالُهم، كلُّ ذلك بمشيئة الله الواحد، ومصائبُ قوم عندَ قوم فوائد[1].

إيابُ الرّشيد لحضرتِه سالـمًا بجميع عسكريّتِه

واستقبَلَ أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ حضرتَه والسّعدُ جديد، والنّصرُ في كلِّ ظَعْن ومقام يزيد، فتلقّاه أهلُها بالتهنئة والسرور، وكان له في يومَ دخولِه احتفالٌ مشهور، شُفِيت به الصُّدور، واستقامَت الأحوالُ والأمور، واستمرَّت العافيةُ للمسلمين واستَشْعَروا ما أراد شاردُ قومِهم لتقديراتٍ قدَّروها، وأمورٍ توقَّعوها، فإنّهم أجْحَفَت بهم زلازلُ الداخِلينَ عليهم مرّات، فما كان منهم صغيرٌ ولا كبير إلّا وهو يتقطَّعُ حَسَرات، فكانت الهُدنةُ عامّةً متّصلة، والعافيةُ مستمرّةً مشتملة، ولله سبحانَه الـمَنُّ والفضل، والقوةُ والحَوْل[2].

وفي هذه السَّنة: وصَل الزّعيمُ غنصالُه أخو شانْجُه بعدَ فتكةٍ فتكها عندَ جزيرة قادِس وأَسَرَ جميعَ مَن فيها بعدَ قَتْل ذريع لأهلِها، وذلك أنه لـمّا استُقبِلَ من بلادِه اجتاز على جزيرة قادِس وأعمَل الحيلةَ في الإيقاع بأهلِها والغَدْر بهم، فأمكنَتْه الحالُ من كمالِ مكرِه وتمام غَدْرِه، فغَدَر الجزيرةَ ومَن فيها من المسلمين، واستباح كلَّ مَن بها، واستاق مِن أهلِها جماعةً إلى رِباط أسَفي فانتَدبَ المسلمونَ لافتكاكِهم بالفِداء، فلم يبقَ بأيدي الرّوم أحدٌ من المسلمين.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢-٣٤٣.

وهذه الفَتْكةُ الشّنعاء كانت سببًا لخَراب جزيرة قادِس، حتّى لم يبقَ لها رسم، واستمرَّ خَلاؤها إلى حين تملَّك النّصارى مدينةَ إشبيلِيَة وسائرَ بلاد الأندَلس إلا أقلَّها فملَكوا قادسَ وغيرَها.

وصولُ بعض الموحِّدينَ إلى الحضرة

وفي هذه السنة: كان وصولُ أبي عثمانَ سعيد بن زكريّا الجدميويِّ مُبادرًا من صنفه الموحِّدين. وسببُ ذلك أنه تردَّد إلى جهة جدميوةَ بعضُ تُجّار النّصارى في منافعِهم ومَتاجرِهم، وربّما اجتَمع أبو عثمانَ بشخص روميٍّ خاصٍّ بالرُّومي جوان كيس، وكان وكيلَ شانْجُه زعيم النّصارى، وصار الشخصُ يُتحِفُه بتُحَف من مَرّاكُش قصدًا في تيسير أمورِه في تجارتِه وغيرِها، فأظهَرَ أبو عثمان للرُّوميِّ ما ازداد به حرصًا إلى خدمتِه، فشَرحَ حالَه وفعلَه لموجِّهه الوكيل المشارِ إليه، فتحرَّكت نفسُه إلى مُضايفة أبي عثمانَ والتودُّد له وتوجيه رسُلِه إليه بأشياءَ غيرِ واحدة، واستمرَّ الحالُ على هذا مدةً، فاطمأنَّ الوكيلُ من أبي عثمان وقَدِم عليه ليجتمعَ معَه ويُشاهدَ شخصَه ويُوفيَه مِن بِرِّه وقصدِه لِـما أولاهُ من ظهرِ الغَيْب بعدَما استأْذنَ الوكيلُ المذكورُ لضيفِه وأسعَفَه في مطلبِه، وأمَرَه بإبلاغِه سلامَه، وأنّ حوائجَه عندَه مقضيّة.

ولـمّا وفَدَ على أبي عثمان تلقّاه بأحسنِ القَبولِ والترحيب، وأحَلَّه منَ اعتنائه بالمحلِّ الخَصيب، وأقبَلَ كلُّ واحد على صاحبِه يَعِدُه ويمَنّيه، ويؤكِّدُ غرضَه الجميلَ فيه، فأجزَلَ له أبو عثمان أجزَلَ إحسان، وفاوَضَه في الدّخول في الطاعة على عهدٍ من شانْجُه، وسعَى منه في حقِّه ووثِق بوفائه، فأظهَرَ له الوكيلُ المذكور، من الفَرَح بذلك والسرور، والضمانِ لكمال هذا المقصود، ما سَكَنَ له أبو عثمانَ وجعَلَه معوَّلًا فيما رامَه من السَّبق إلى الطاعة ليكونَ له الشّرفُ بذلك والـمَزِيّةُ على إخوانِه الموحِّدين، وقد كانوا في أثناءِ هذا الحال تقَلَّصت مِن يحيى أموالُهم وانقَطَعت منه أطماعُهم لاستحواذِ ابن وقاريطَ عليه، وهو عدوُّهم الأكبر الساعي في تفريق جماعتِهم وانتساخ دولتِهم، ثم عاد الوكيلُ الرُّوميُّ إلى زعيمِه وقصَّ عليه ما جَرى بينَه وبينَ أبي عثمان وأطنَبَ عليه. وكان شانْجُه المذكورُ ذا عقل ورأي وإداراتٍ مَصْلَحيّة، فجرَّد في خدمة أبي عثمانَ

عن ساعدِه، وتولّاها بأحسنِ مساعيه ومقاصدِه، ورفَع القضيّةَ على وجهِها، وأوضَحَ المصلحةَ فيها، وأشار بقَبوله وإجابتِه، وإسعافِه في وِفادتِه، ليقتديَ بفعلِه سواه، ويهتديَ بهَدْيِه مَن جاوَرَه ووالاه، فألفَى عندَ الخليفة الرّشيد قَبولًا، وخيرًا في حقِّه مبذولًا، وقد كانت النفوسُ متشوِّفةً إلى استجلابِ عصابةِ التوحيد، وإيصال القريبِ منهم والبعيد، فكتَبَ لأبي عثمانَ عهدًا وثيقًا، وأراه وَجْهًا طليقًا، ونَصَبَ له من المَسرّة والمَبرّة منهجًا وطريقًا.

ولـمّا كمُل[1] هذا المرامُ وتيسَّر، توجَّه الزّعيمُ المذكور له وما تأخَّر، فسُرَّ أبو عثمانَ بوفود ذلك عليه وقدومِه، وأيقَن بتكميل أملِه وتتميمِه، ووجَّه من ساعتِه معرِّفًا بوِفادتِه مُعلنًا بإخلاصِه وطاعتِه، ثُم لم يلبَثْ إلّا مقدارَ ما استعَدّ للوِفادة، واستقبَلَ الحُسنى وزيادة، وأخَذ في الوصول بإخوانِه وأقاربِه، ومن اتّبَعه في الحال من قَبيلِه بجميع مضاربِه، وخَرج للقائه الزّعيمُ المذكور، ووصَل معَه إلى الدار المكرَّمة فتُلقِّيَ بالاعتناءِ والاهتمام، على أوفَى التكميل والإتمام، وتلقَّى من الخليفة الرَّشيد من جميل الوَعْد وطلاقةِ البِشر وجزيل البِرِّ والخير ما أعاد انتعاشَه، وأذهبَ إيحاشَه، وانفَصَل إلى ما أعَدَّ له من أنواع القِرى، وانبسَطَت آمالُه أيَّ انبساط، وانتقل من الكَسَل إلى النّشاط، وظَفِر هو ومَن وَفَد[2] معَه بإنعام الخليفة وإحسانِه، والفوز بعطفِه وحَنانِه، واستَبْشَر الناسُ بعودة الموحِّدينَ إلى الطاعة أيَّ استبشار، وعَظُمت في نفوسِهم هذه المِنّةُ التي استَشْعَروا بها أيَّ استشعار، وصار أبو عثمانَ يغدو إلى الخليفة ويَروح، وأدِلّةُ المسرّة المستقرّةِ في خَلَدِه تبدو عليه وتَلوح، وهُو في أثناء ذلك يُدبِّرُ مصالحَه ويستوضحُ الأحوال، ويختبرُ الرجال، واشتغل بمُهاداتِه جميعُ الخُدّام، وتَوالَى الفرَحُ والبَسْطُ ودام، وتـمَّت له الإرادةُ على اختيارِه، وجَرى طَلِقًا في مجال السَّعدِ ومضمارِه، وتراخَت له المدّة، وساعدَتْه الأيامُ المعَدّة، إلى أن جَرى عليه القَدَرُ المحتومُ ووافاه، ولا يَسلَمُ منه أحدٌ وإن طال مداه.

---

(١) سقطت من ق.

(٢) سقطت من ق، ك.

محاولةُ أبي عثمانَ سعيد بن زكريّا الجدمِيويِّ في استجلابِ الموحِّدينَ إلى حضرة أميرِ المؤمنين

لـمّا استقرَّت حالُ أبي عثمان وتصوَّر له مرادُه منَ اصطناع رجال الدّولة واستعمال ما يتحبَّبُ به إليهم، واستمال نفوسَهم بنَدى يدِه وسماحتِه وإعانتِه لهم بمعروفِه وإهابتِه، تهيَّأ له الولوجُ في الأمور والمفاوَضةُ في الأشياءِ التي عليها النّجاحُ يدور، صَنَع معَ الموحِّدين والاعتقاد بأَوْبتِهم إلى طاعة الخليفة الرَّشيد، وأخَذَ في التحدُّث معَ مَن يثقُ به ويَركَنُ إلى حُسن رأيِه ليكشفَ عن البواطن في حقِّ الموحِّدين، ويَستوضحَ فيهم بالخبرِ اليقين، فانجَلَت عنه غمّاءُ الالتباس، ولاحَ له من إيضاح أصحابِه ما ازداد به الإيناس، فسَلَك في تقرير أحوالِـهم وتقريب مَرامِهم مسلكًا أورَدَه موردَ القَبول، وأتحَفَه بالمرادِ والمأمول، فحَسُنت في شأنِهم مآخذُه، وتلقَّى الإسعافَ المطلَق في إباحة العفوِ عنهم ووصُولهم إلى عوائدِهم وردِّ قوانينِهم وإجرائهم في الأحوالِ إلى معتادِهم، فخاطَبَهم وقَرَّر عندَهم ما هاجَت به نفوسُهم، ومال الكثيرُ منهم إلى الدّخول في الطاعة والاتّصاف باتّباع الجماعة، وشاعَ الخبرُ بذلك في الحواضِر والبوادي، وسار بهذه المسرّة الرّائحُ والغادي، وعندَ ذلك ارتفَع الحَرَجُ عنهم، واستعمَل الإغضاءَ عمّن يشاءُ التودُّد[1] منهم.

وفي هذه السنة: وصَلت الهدِيّةُ العبّاسية لابن هُود.

وفيها: رجَعت قُرطُبةُ لابن هود بعدَما أخْرَجوا منها ابنَ الأحمر.

وفيها: وقَعَتِ المقابلةُ بينَ ابن الأحمر وابن هُود فهزَمَه ابنُ الأحمر[2].

وفي سنة اثنتين وثلاثينَ وست مئة: استمرَّتِ الأحوالُ على ما كانت عليه من الهُدنة، واستقرَّت أمورُ ابن وقاريطَ على غَلْوائه وسرايا فسادِه تسري إلى الخُلَّط، وشيخُهم وشوكتُهم في هذا الوقت أحَدُّ شوكة، والإملاءُ منَ الله سبحانه يزيدُهم طُغيانًا وكفرًا بنَعمائه وجُحودًا لآلائه، واستئصالًا للبلاد، وتسلُّطًا على العباد، ليقيمَ عليهم حجّتَه في

---

(١) في ك: «التردُّد».

(٢) الاستقصا ٢/ ٣٣٦.

أخذِهم أخْذةً رابية، وشيخُهم إذ ذاك مسعود، وهو يظنُّ أنّ إغضاءَ الخليفة الرّشيد من هَناتِه وصبرِه على غُصَص عتوِّه من وَهْن وضَعْف يظنُّ أنه غافلٌ عنه وعَزْمتُه متيقِّظةٌ تتزيَّدُ له وقوعًا في شَرَك الرَّدى، وحصُولًا في يد البَطْش والاستيلاءِ عليه وإن طال المدى، والخليفةُ يتلقّاه ببِشرِه، ويُعاملُه ببِرِّه، ولم يشعُرْ بها في طيِّ ذلك من المسالك، ولم يعلَمْ إشارةَ المتنبي في ذلك [من البسيط]:

إذا رأيــتَ نُيــوبَ اللّيــثِ بــارزةً   فــلا تظُــنَّنَّ أنّ اللَّيــثَ يبتــسمُ

ولقد كان له وكيلٌ يسمَّى موسى الكافرَ، وكان من الفجور بحيث لا يُجارَى، وكانت له استطالةٌ بلسانِه على خُدّام أميرِ المؤمنينَ ورجالِه وصِبيانِه، لا يَنهاهُ دينٌ ولا فضل، ولا يمنَعُه حياءٌ ولا عقل، وحصَلت في نفوس جميعِهم أمورٌ مُزعِجة لا تُطفَى لواعجُها ولا تَخمُدُ جمَراتُها، وكان رجلٌ آخرُ كاتبَ مسعودًا الخُلَطي ذو جهل وعتُوّ، وزيادةٍ في الفسادِ ونموّ.

ولـمّا سَرَتْ سمومُ ابن وقاريطَ إلى العدوِّ الخُلَّطيِّ بأنواع فسادِه، وتحكَّم فيه داءُ عِنادِه، أظهَرَ العَرَبيُّ تجبُّنًا وتثاقُلًا عن الوِفادة على عادتِه تحرِفُ عن الطاعة المستقيمة، وحُقَّ لمنِ اغتَرَّ مثلَ غُرورِه أن يختلَّ عقلُه، فإنّ الأرضَ كادت أن تهتزَّ لوطْأتِه، والجبالَ تَميدُ لسَطوتِه، فإنّ إخوانَه الخُلَّط كانوا أزيَدَ منَ اثنَيْ عشَرَ ألفًا من الفُرسان ومعَهم من الأتباع المنقادينَ والحشُود مثلُهم، وأما رَجْلُهم فالجَرادُ المنتشِر لا يحصي عددَهم إلا خالقُهم الذي أبادَهم بقُدرتِه، وما منهم فارسٌ إلا له جملةٌ من الخَيْل وأعدادٌ من كامل السِّلاح على أنواعِه، وأمّا الثيابُ والمال العَيْن والآنِيةُ من الذّهبِ والفضّة والإبلِ والمواشي شيءٌ يقفُ دونَ حصْرِه الأوهام، وتكِلُّ عنه الخواطرُ والأفهام، ولقد نظَر صُعلوكٌ منهم مِن فُتّاكِهمُ المشاهيرِ وقد خامرَتْه أريحيّةٌ إلى البحر، فامتطَى جوادَه، وأخَذ سلاحَه، وقصَدَ البحرَ، فدُفع عليه وقال له: إن كانت لك يا بحرُ طاقةٌ فبارِزْني، ونعوذُ بالله من هذا الاغترار، وأمّا الفَتْكُ بالأحرار الأبكار(١) واسترقاقُ العَبيد الأحرار فأمرٌ شائع وحُكمٌ واقع، ما له من دافع عنهم ولا وازع.

---

(١) سقطت من ق، ك.

وعندَ تَناهيهم وانتهائهم إلى هذه الغايات منَ الاستكبار في الأرض والبَغْي فيها بغير الحقّ دَنا دمارُهم وحان إدبارُهم وأمسَى سِلكُهم نَثِيرًا ورَسْمُهم مَحِيلًا، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وفي أثناءِ ذلك كلِّه اشتغَل الرّشيدُ باستجلابِ الموحِّدين وبَسْط آمالِـهم واستمالة قاصيهم ودانيهم، واستدعائهم للفَوْز برأيِه الجميل فيهم، فورَدَت مُخاطبتُهم بشُكر نعمةِ الله عليهم بالانضواءِ إليه والدّخُول في طاعته، ولأبي عثمانَ سعيد بن زكريّا الجدميويِّ في هذا أثرٌ محمود وسعيٌ مشكور، وما زال في أوقاتِه دائبًا على كلِّ ما فيه استصلاحُهم إلى أن توقَّدت عزائمُهم على أن يَفِدوا على حضرة الخلافة ودار الإمامة مَرّاكُش، وأخَذوا لذلك أُهبتَهم، واستدعَوْا من كلِّ جبل شاهق إخوتَهم، وانتَدبَ للوصُول معَهم موسى ابنُ أميرِ المؤمنينَ الناصر أخو يحيى وكبيرُه سنًّا، فإنه كان في هذا الجانب عازمًا على الطاعة والاتّصال بالجماعة.

وانتهى الموحِّدونَ المذكورونَ إلى شجاعتهم فيما أمَرَهم، وشاعَ خبَرُهم واتّصل ذلك بمسعود ابن حميدان شيخ الخُلَّط فشَمَخ بأنْفِه، وأنِفَ منَ انتظام الموحِّدينَ في تلك الطاعة وكان ذلك سببَ حَتْفِه، واختَلَجت في صدرِه أمورٌ توقَّعها، فرأى حَسْمَ العِلّة بقَطْع ما بين أميرِ المؤمنينَ وبينَهم، وتمكُّنِ أسبابِ القطيعة بقَتْلهم، فعيَّن لذلك جَمْعًا من عَرَبه الخُلَّط وبعَثَهم للقَبْض على جميعِهم والفَتْك بهم، فسَبَقَ إليهم سابقُ الاعتناء الرَّبّانيّ وسابقُ الخبرِ الذي أنقذَهم من لَهَواتِ المنيّة، فرجَعوا من هنالك إلى جبلِهم سالمين، واستقَرُّوا به بعدَ الرُّوع والذُّعر آمنين.

ولـمّا اتّصل هذا النبأُ الفظيعُ بأمير المؤمنين الرَّشيد توَقَّدت عَزَماتُه وهاجَت وَثَباتُه، وعَلِم أنّ أمورَه تتعذَّر بمخالفة الخُلَطيِّ له في إرادتِه، فأسهَرَ في الحِيلة أجفانَه، وهجَر مضاجعَه وأوطانَه، وساهَمَ وُزراؤه وأهلُ مَشُورتِه في تلافي الأمور قبلَ التفاقُم وحَسْم العِلَل قبلَ تمكينِها، فأَبرَزَت الحِيلةُ وجْهَ المكيدة بعدَ التفاوضِ أيامًا، وانتبَهَت لهم أعيُنُ المصلحة بعدَ أن كانت نِيامًا، واجتمع الرأيُ الذي أحكَمَه الترجيح، وأسفَرَ لهم عن وَجْه أمرٍ نَجيح، إعمالِ حركة السيِّد أبي محمد الوزير الكبير بالجُنْد كلِّه، واستدعاءِ الخُلَطيِّ والبَطْش به، فإنه كان تخَوَّفَ من القَبْض عليه تحوُّلَ الجيش بالحضرة، فلمّا استحْكَم التدبيرُ

لذلك شَرعَ فيه بعد استخارة الله سبحانه، ولـمّا كمُل هذا التدبير في الحركة المذكورة بالجيش شَرعَ فيها السيِّدُ أبو محمد الوزيرُ المذكور على غاية التأهُّب والاستعداد، وتحرَّك السيِّدُ بمَن معَه منَ الأجناد، إلى حاحةَ برَسْم جِبايتِها وحياطتِها، ولم يبقَ من الجُند أحدٌ، وتحرَّكَ معَه والدُ الـمُشرف أبي البركات خاصّة الرّشيد إظهارًا للاعتناءِ بهذه الحركة.

ذكرُ استدعاءِ مسعود بن حميدان الـخُلَّطيِّ إلى حضرة مَرّاكُش واستدنائه لـحَيْنِه وحتْفِه

ولـمّا توجَّه الوزيرُ المذكور بالجيش إلى حاحة، شَرع أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ في التوجيه عن مسعودٍ الخُلَّطيّ، فأجاب بعدَ لأْيٍ إلى الوصُول، وهو يظُنُّ أنْ قد خَلا له الجوّ ولم يبقَ له ما يَرُوعُه، وأنّ سعدَه موصول، فعزَم على الوِفادة بعدَ أنْ قال له أحدُ خاصّته: أجِبْ هذا المسكينَ الذي استدعاك، فإنه أراد الاستظهارَ بعُلاك، ولم يعلَمْ أنه صائرٌ إلى رَداه، وأنّ حتفَه حان وقَرُبَ مداه، ولـمّا وَصل إلى الحضرة وبحرُه يزخَر، وأسودُ خَلْطِه تزأَر، تُلُقِّي بالبرّ والقِرى الواسع، ودان له كلُّ أربِ شاسع، وصار يتردَّدُ إلى باب الخليفة في جموعِه، وتَظهَرُ حركاتٌ في النفوس لأولِ طلوعِه، وكان بالحضرة مُعاويةُ عمُّ عُمر بن وقاريطَ يُظهر الإنابةَ والتبرُّؤ منَ ابن أخيه وفعلِه، والقَدْحَ عليه في جميع أمرِه، فلمّا وصَل الخُلَّطيُّ صار يُعلنُ بمودّتِه ومُوالاتِه فزاد اغترارُ معاويةَ بما تسنَّى له منه.

وهذه الأخبارُ تردُ على الخليفة الرّشيد ويأتيه بها مِن خواصِّ رجالِه من يوضِّحُها على وجهِها، فأعَدَّ لها عُدتَها وأخَذ لها بالاحتياط والعَزْم، وقد كان معاويةُ أعَدَّ طعامًا كثيرًا في دار ابن تلاتيماسَ بالصّالحة من الحضرة ليصلَ مسعودٌ الخُلَّطيُّ إليه برَسْم المحالفة والـمُصافحة، وعيَّن لذلك يومًا أصبح في بُكْرتِه الطعامُ مُعَدًّا حاضرًا، وكان لقدوم الخُلَّطيِّ عليه مُرتقِبًا ناظرًا، وأحضَر مِن وجوهِ إخوانِه من يثِقُ به، فلمّا كان في صُبح اليوم المذكور أشخَصَ أميرُ المؤمنين الرَّشيدُ صاحبَ شُرطته في ذلك الوقت، وهو الشّيخُ أبو محمد بن ماكْسِن، وأمَرَه بالنّهوض بأعوانِه إلى دار معاويةَ والقَبْض عليه وتوصيلِه إلى دار الأشراف حتى يَنفُذَ فيه حُكمُه، وقد كان العَرَبيُّ بدار الخلافة يَقْضي أشغالَه بها ويتوجَّه

معَ إخوانِه لدار الهسكوريِّ معاوية، فتوجَّه أبو محمد بنُ ماكْسِن لِـما أُمِر به، وكان في نفسِه خَوَر، فوصَل إلى الدار التي بها معاويةُ واضْطَرب، وما اتّصل به إلا بعدَ حين، وقد كاد أن يُفلتَ، وفي أثناء ذلك استُبطِئَ فوَجَّه[1] عن الشّيخ أبي موسى بن عَطّوش ليتداركَ هذا الهمّ ويُنفِّذَ ما أُمِر به قبلَ انفصال الخُلَطيِّ من دارِ الخلافة توقِّيًا من أن يَلقاه فينزِعَه ويَعضُدَه، فتوجَّه الشّيخُ أبو موسى معَ جماعة من كوميّة إخوانِه وغيرِهم، ولقيَ أبا محمد بنَ ماكْسِن ومعَه معاويةُ على رمكةٍ له من عِتاق الخيل شهيرة السَّبق، فحين عايَنَه الشّيخ أبو موسى أشار على مَن معَه بإنزالِه والمبالغة في تعنيفِه، وعُمِلت عِمامتُه في عُنقِه، وأوصَلَه إلى دار الأشراف. ونَما الخبرُ في الحال إلى الرّشيد، فنَفَذَ أمرُه بضَرْب عُنقِه، وذلك وقتَ الضُّحى، فرَوِيَت الأرضُ من دمِه، واستراحت النفوسُ من ألـمِه.

وسَمِع مسعودٌ الخبر فلم يَرُعْه، وقال: أفسَدَ الشّيخُ أبو موسى غداءَ الخُلَّط وطعامَهم، وألزَمَه القيامَ بهم في ذلك الوقت، فقام خيرَ قيام بما أرضاهم وأرضاهُ فيهم، ومضَى معاويةُ كأمسٍ الغابر، والطَّلَلِ الداثر[2].

مهلِكُ مسعودِ بن حميدان وكيفيّةُ قَتْله معَ قومِه في ذلك الميدان[3]

لـمّا استَحكَمَ الرّشيدُ التدبيرَ المتقدِّمَ ذكرُه، ووصَل مسعودٌ المذكورُ، فاوَضَ أهلَ مشورتِه في كيفيّة القَبْض عليه، وتمَّ له القصدُ في ذلك بما أشار إليه، وعيَّن الرشيدُ يومًا لذلك وأعَدَّ بالقَصَبة برياض الحِزب يحيى بنَ عبد الرحيم رضيعَ والدِه ومعَه منَ الفتيان أعدادٌ أُهِّلوا لقتال مسعود بن حميدان وتَجالُدِه، وجعَلَ معَهم أيضًا من العَبيد الجنّانينَ أعدادًا كثارًا في مواضعَ خفِيّةٍ عن الأبصار، وعُيِّن صاحبُ الشُّرطة أبو محمد ابنُ ماكْسِن للجلوس بأعوانِه وحرَسِه بمَرْبَعة أهل الدار لإصلاح البابَيْن اللّذَيْن عليهما، أحدُهما: بابُ الرّحبةِ الكبرى والثاني: رحبةُ القِباب، واستعدَّ لهذا كلِّه بما اقتضَتْه الحالُ، وعرَّف الذين برِياض الحِزب بأن يُماشيَ بعضُهم العَرَبيَّ إذا دخَل مُستدعًى وحدَه على

(١) في ق، ك، ب: «موجيه»، ولا معنى لها.

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٤٣.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣، والاستقصا ٢/ ٢٤٣.

العادة للمُثول بين يدَي الخليفة الرّشيد إلى موضع محدودٍ يكتَنِفونَه فيه عن يمينٍ وشمال ويَخرُجَ الباقونَ من جَنّانينَ وغيرِهم من مواضعِ مكامنِهم لاستئصالِه والبطش به، فلمّا وقَر في النفوس ذلك أُشعِر الناسُ بقعودِ أميرِ المؤمنين، وخَرج الإذْنُ لمسعود بن حميدان بالدّخول إلى السُّلطان، فقام من موضع جلوسِه ومعَه جماعةٌ من إخوانِه أبطالٌ رجال يسحَبُونَ الزَّهو، ويستعملونَ في مسيرِهم معَه الـهُزءَ واللَّهو، ولـمّا أفضَوْا إلى باب الرِّياض المذكور حيث الترتيبُ المشارُ إليه، نفَذَ له الأمرُ بأنْ لا يدخُلَ معه سواه، فتردَّد في ذلك متلوِّمًا وقال: إنه لا يدخُلُ إلّا معَ أصحابِه ولا يتّجهُ له أن يُفارقَهم، وتوقَّف هنالك عن الإجابة إلّا إن كان معَ عُصبتِه، فقيل له: إنّك تَعلَمُ العادةَ في أنْ لا يَدخُلَ أحدٌ لأوّل وَهْلة إلّا بعدَ استئذان، ولا بدَّ من سَلامِهم بعدَ حُلولِه بالمجلس واستئذانِهم على ذلك بحُكم العادة الجارية، وبعدَ لأْيٍ أنفَذَ أصحابَه معَ جانبَي الباب ودخَلَ وحدَه، وسُدَّ في ظهرِه، فظَهَرَ له ابنُ عبد الرحيم في نَفَر قليل يمشُونَ معَه، فلمّا كان متوسِّطًا بالمكان المحدود لإلقاءِ اليد فيه والفَتْك به بَصُر بجُملة من الجَنّانينَ العبيد وغيرِهم وأحسَّ بالشّرّ وبمُسايرة ابن عبد الرحيم وغيرِه له على غيرِ عادة، ثم ألقَى الملأُ المذكورونَ أيديَهم فيه وانخَرطَ ابنُ عبد الرحيم في سيفِه والعَرَبيُّ في أيدي الناس وبيدِه سِكّينٌ في ذراعِه، فراعَه ما رأى، ورأى الموتَ قد فَغَر نحوَه فاه، واستقبَلَه من جهاتِه كلِّها رَداه، فانتفَضَ من أيديهم كما ينتفِضُ العُقاب، وظهَرَ منه للذين اكتَنَفوه ما اضْطَرَبوا له أشدَّ الاضطراب، فأفلَتَ من أيديهم، وضَرَبَه ابنُ عبد الرحيم بالسّيف فلم يُصِبْه إلّا بذُبابِها، ثم خَرَّ على وجهِه صَريعًا دَهِشًا قدِ استَولَى عليه الجَزَع، وخامَرَه إفراطُ الفَزَع، وظَهَر من عَدَم الانتفاع به في ذلك المحَلِّ الشّنيع وقلّة الاصطناع ما لم يكنْ فيه مقدَّرًا بحال، ثم جَذَب العَرَبيُّ سكِّينَه وقصَد البابَ الذي دخَل منه، ولو أراد قَتْلَ ابن عبد الرحيم لَـما منَعَه منه مانع، ولكنْ حَماه الأجَل في بقائه، واشتَغل العَرَبيُّ بالنَّجاة بنفسِه والإفلات من الشَّرَك الذي كان يتخبَّطُ في مَهاويه.

ولـمّا استقبَلَ البابَ أعلَن بصوتِه ليَسمَعَ مَن وراءَ الباب، فكلُّ مَن كان داخلَ الباب فَرَّ أمامَه هَيْبةً وفَرَقًا، ففتَح الباب، وخَرج إلى جماعتِه في زِيِّ المحارب الذابّ عن

نفسِه، فأشهَروا حديدَهم وصاروا برجُل واحد وقد وَسَّطوا بينَهم شيخَهم وقصَدوا بابَ الرَّحبة الكبرى ليَخرُجوا من هنالك، فاتَّبَعَهم في مدى هذه الرَّحبة كلُّ مَن كان مُختفيًا بالرِّياض وهم يشتدّونَ في أعقابِهم، فعايَنَهم كلُّ مَن كان في الرَّحبة من القَرابة والكُتّاب والخَدَمة والبوعديِّين، فتحقَّقوا أنّ العَرَبَ همُ المطلوبون، فانْجَحَر كثيرٌ من الناس في بيوتٍ هنالك ولم يبقَ إلّا بعضُ البوعديِّينَ، والذين في أعقابِ العَرَب من فِتيانٍ وغيرهم، ينادونَهم بأخْذِهم من أمامِهم[١]، فكان من البوعديِّينَ[٢] في ذلك عناءٌ وانتهاض، إلّا أنّ العَرَبَ أشدُّ قتالًا وبأسًا وهم يشتدّونَ نحوَ الباب الكبير الذي يُفضي بالخارج إلى مَرْبَعة أهل الدار، فألفَوْه مسدودًا في وجوهِهم، فأعطَوْا بعضَهم لقتال الذين يَلُونَهم وبعضَهم لكسرِ الأعمدة وفتح الباب، واستَصعَبَ ذلك عليهم مدةً لوِثاقةِ الباب وأعمدتِه، وفي أثناءِ ذلك تسَوَّرَ البوعديُّونَ من جهة طريق باب القَرابة على الجُدُرات واستَعْلَوْا على العَرَب، وأتاهُمُ العذابُ من فوقِهم ومن تحت أرجُلِهم والأمرُ يشتدُّ، والنفوسُ من إفلاتِهم تُضرِمُ نارًا، ثم تيسَّر للعَرَب فتحُ ذلك الباب على فخامته، وقد نِيلَ منهمُ النَّيلَ الشّديد ودونَه جُملةُ أبواب لا قِبَلَ لهم بها ولا لغيرِهم، فأفضَوْا إلى مَرْبَعة أهل الدّار وبها أبو محمد بنُ ماكْسِن بأعوانِه على مقتضَى الترتيبِ الأوّل، ففَرَّ هو وأعوانُه إلى جهة وليس لهم وِرْد ولا صَدَر، ولا عينٌ ولا أثَر، قد غُلَّت أيديهم لإفراط الخَوَر، وانْجَحر ابنُ ماكْسِن في تلك السقائف واستتَرَ، وهو يشاهدُ الحَمَلاتِ ويُعايِنُ الـمَنايا كيف تَخترِمُ النفوسَ وتختطفُ الأرواح، فلمّا أفْضَت العَرَبُ إلى الباب الثاني، وهُو الذي يُفضي بالخارج منه إلى رَحْبة القِباب، ألفَوْه أيضًا مسدودًا في وجوهِهم، وخالَطَهم في تلك الـمَرْبَعة مَن كان يُقاتلُهم من باب الرِّياض إلى هذا المكان والبوعديُّونَ وغيرُهم قد تسوَّروا الجُدران وهم يُقاتلونَهم من السُّقُفِ بالحجارة، فلمّا عايَنَ العَرَبُ ما لا قِبَلَ لهم به وأيقَنوا بالهلاك وأنه لا نَجاةَ ولا فِرار توَسَّطوا شيخَهم وصاروا يموتونَ دونَه واحدًا واحدًا، وكان هُو آخِرَهم قتلًا.

---

(١) قوله: «من أمامهم» سقط من ق.

(٢) في ق، ك: «العدويِّين».

وعندَ ذلك آبَتِ العقول وقد شَرَدت، وعادت النفوسُ وقد كادت أن تَزهَق أو زَهقت، والـمُنادي ينادي بقطع رأس العَرَبيِّ المذكور فقُطع مِن فَوْرِه وحُمل إلى أمير المؤمنينَ وهو بباب الحِزب فشَكرَ اللهَ تعالى على ما تـمَّم له من صُنعِه الجميل، بالشُّكر العريض الطويل.

وفي أثناءِ انفلاتِ العَرَبيِّ من الرّياض حيثُ كان ابتداءُ أخْذِه فخِيف من خروجِه وإفلاتِه، ولو أخَّره الأجَلُ وأمهَلَه وألهَمَه الخروجَ على باب القَرّاقِين لتوصَّل إلى مرغوبه، ولكنّ قضاءَ الله تعالى لا يُرَدُّ بأسُه عن القوم الـمُجرمين. فبعَثَ أميرُ المؤمنينَ إلى كنيسةِ النّصارى ليستصرخَ مَن فيها على قلّتِهم[1] من تُجّارِهم وضُعفائهم وأُولي الأعذارِ منهم، وكان المتوجِّهَ إليهم عَنْبرٌ الذي أفضَتْ إليه الحِجَابةُ بعدَ سنين.

قال الفقيهُ الكاتبُ أبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ رحمه الله: ولقد كنتُ في أحد المساجد بالقَشّاشِين للقراءة هنالك، فدخَل ناسٌ أخبَروا بالقضيّة على غير وجهِها، فخَرج جميعُ مَن كان به، فلِقيتُ بسُوق البَرْذَعيِّينَ الفتى المذكورَ وهو على فرس حالي الرِّكاب أشهَبِ اللّون مِن خَيْل الخليفة، وليس على الفتى رداءٌ ولا في قدمَيْه إلا جِلدُها، وكان المطرُ في ذلك اليوم، وفيما قبلَه من الأيام، متواليًا شديدًا لا يفتُرُ، والأزِقّةُ والسِّككُ قد غُصَّت بالناس، وهو قد أطلَقَ عِنانَ فرسِه ووراءه نحوُ ثلاثينَ من فُرسان النّصارى وتُجّارِهم وهو يستحِثُّهم والطِّينُ قد عَلاه حتّى لا يتبيّنُ لونُ فرسِه ولا لونُ ثيابِه وقد تشَوَّه بما تلوَّث به لا يَلوي على أحد، ثم قصدَ بابَ القَرّاقِين بمَن معَه فألفَوا العَرَبيَّ وأصحابَه في مَصارعِهم وأبرَزَهمُ القَتلُ إلى مضاجعِهم، فعندَ ذلك أعطَى الرّشيدُ لجميع الناس برَكةً شاملةً واسعة، وأمَرَ بإلقاءِ اليد فيمَن كان بالبلد من الخُلّط وفي خَيْل الطائفة الهالكة ومَتاعِها وأثاثِها، وطِيفَ بجُثثِها في المدينة، فاستبشَرَ الناس ووقَع الإيناس.

وقد كانت الأراجيفُ قد تنوَّعت في فنون من التشنيع والتبشيع، فارتفَع بذلك في الوقتِ الـهَرَج، وأقبَلَ الفتحُ وجاء الفَرَج، وحسِبَ الرّشيدُ ذلك فتحًا عظيمًا لا تُحيطُ به الأفكار، ولا يأتي بمثلِه اللّيلُ والنّهار، وغُنمٌ تفتخرُ به أيامُ دولتِه على الأعصار،

(١) في ق، ك: «قتلهم»، ولا معنى لها.

وتسمو به حضرتُه تِيهًا على جميع الأمصار، وحُقّ لذلك أن يكون، فإنّ الأمورَ قد كانت أَخذت في الاختلال، وتعطَّلتِ الـمَجابي وساءت الأحوال، فاقتَحم بهذه العَزْمة ما كان في آخرِها جميلَ العاقبة وإن كان قد ارتكَب خطرًا كبيرًا من الأخطار، ولكنّه اقتدَى بقول البغداديّ [من الوافر]:

سأُعطي النفسَ ما طلَبتْ فإمّا تَـهونُ فتَحمِـلُ البَلْـوى وإمّـا

ولله تعالى القُدرةُ وبه النُّصرة.

توجيهُ الرّشيد عن وزيرِه وجيشِه من حاحَةَ

ولـمّا فَرغَ من هذه الغَزْوة في أعدائه، واحتوائه على أملِه في ذلك واستيلائه، أنفَذَ فرسانًا ثقاتٍ كُفاةً أنجادًا بمكتوبٍ منه بخطِّه لم يطّلعْ عليه أحدٌ إلّا وزيرُه السيِّد أبو محمد، وأغلَقَ أبوابَ البلد ليُخفيَ خبرَ الهالكين ويتأخَّرَ عِلمُه عن جموعِهم وقبائلهم تَوقِّيًا من اتّصال ذلك بهم، فيأتونَ على الوزير المذكور وجيشِه، وحَدَّ للفرسان حَدًّا يصِلونَ فيه بكتابِه، وحذَّرهم مِن تجاوُزِه، وجَشَّمَهم الجَهْدَ في احتماله، فلم يَسَعْهم إلّا هلاكُ نفوسِهم دونَ ما حذَّرهم منه، فأتَوْا من ذلك بالعَجَب، ووَرَدوا على السيِّد أبي محمد بالأمر، فعندَ وقوفِه عليه أخَذَ في الرّحيل يَستقبِلُ الحضرة، وقد كانت عندَه مقدِّماتُ ذلك لاطّلاعِه على خَفِيّاتِ الأمور ومُضمَر التدبير ومَواقيتِ المحاولات وتردُّد الـمُخاطَبات عليه معَ الساعات ظاهِرُها في الأشغال وباطنُها وَجْهٌ آخر، فما كان إلّا انقضاءُ أربعة أيام من مهلِك مسعود، وكان وصُولُ السيِّد والجيش، فعظُم الاستبشارُ بذلك، وانتَظَم ما كان يُخافُ انتثارُه، وأنِسَت النفوسُ بالعافية، فاستمرَّت الحالُ في ذلك على الكمال ببلوغ الأماني والآمال.

وعندَ تمام هذه الأغراض الخَطيرة وكمال المحاولاتِ الكبيرة، شَرعَ الرّشيدُ أميرُ المؤمنين في التوجيه عن الموحِّدين، فتيسَّر له من ذلك ما كان قدِ استَصْعَب عليه بمخالفة العَرَبيِّ وانحرافِه عن جميل رأيِه في هذا الـمَرام الذي قصَدَ به الائتلاف، ورفْعَ الشّتاتِ والاختلاف، ونفَذَت كُتُبه لهم ولسائر البلاد بهذا الفتح الجَسِيم والصُّنع الكريم، فأَخذ الموحِّدونَ في الوِفادة عليه وهم يحسَبونَ أنّ ذلك كلَّه بسببِهم ومن شدّة برِّه بهم.

ذكرُ وصول جُملة من الموحِّدين إلى حضرة الرَّشيد وإعادةِ ما أزالَه أبوه المأمونُ من ذكرِ الـمَهْدي

ولـمّا أخَذ الموحِّدونَ في الوصُول وبنَوْا عليه وعلى المثُول بين يدَي الرّشيد قدَّموا شخصَيْنِ منهم، وهما: أبو بكر بنُ يعزى التينمليُّ ومحمدُ بن يرزيجنَ[1] الـهَنْتاتيُّ رسولُ أبي عليّ بن عَزّوز، وابنُ يعزى رسُولُ يوسُفَ بن عليّ بن يوسُف ومَن معَه من أهل تينمل، فتلقَّيا ببرٍّ واعتناء، وأُعيدا إلى موجِّهِهما باستدعائهم، فكان ذلك، وخَرج الناسُ إلى لقائهم وعايَنوا ما طالَ به عهدُهم، وتمكَّن في نفوس الناس من الفَرَح بهم ما لا تكِلُّ عن شرحِه الأقلامُ والأفهام، وعايَنَ الموحِّدونَ المذكورونَ من أميرِهم الرّشيد بِرًّا واسعًا وخيرًا متتابِعاً، وأُنزِلوا خيرَ إنزال، وتُلُقُّوا بما شاءوا وأمَّلوا منَ احتفالٍ واهتبال.

وكانت لهم شروطٌ قبلَ دخولِهم وهي إعادةُ ذكرِ اسم الإمام الـمَهْديِّ في الخُطبة واسمِه في الـمُخاطَبات ونَقْشِه في السِّكّة من الذّهب والفضّة، وإعادةُ الدّعاء بعدَ الصلاة والنّداء عليها بتاصليت الإسلام، وهي إقامةُ الصَّلَوات وما أشبَهَ هذا مثلَ: سودوت ونارديّ[2]، وأصبح ولله الحمد، فهذا كلُّه كان العملُ عليه في جميع دولة الموحِّدينَ إلى أنْ جاء المأمونُ من الأندَلس، فكان ما كان من تغيير تلك المعالم الفاسدةِ والرسُوم، فاستمرَّ ابنُه الرّشيدُ على رَسْم أبيه، وجَرى على قانونِه، فلمّا كان من الموحِّدينَ انتدابٌ إلى الطاعة اشتَرطوا إعادةَ ما وقَع النصُّ عليه فأُسعِفوا فيه، وسُمِعت موجباتُ وصُولِـهم وانتظامِهم.

ولـمّا احتَلُّوا منازلَهم وبقُوا بها أيامًا ولم يُعِدْ شيئًا من تلك العوائد، ساءت ظنونُهم، وكانوا في أمر مُريِّح من توقُّع القطع بهم فيما هو عُمدتُهم التي عليها يعتمِدون وبهَدْيِها يهتَدون، ونَما خبرُ تأثُّرِهم وتحدُّثِهم بذلك إلى الرّشيد أميرِهم، فسكَّن نفوسَهم وجدَّد تأنيسَهم بإعادة تلك العادة وإجرائها على القوانين المعلومة المستقيمة، فيالله! ماذا بلَغَ من سرورِهم وما كانوا فيه من الارتياح عندَ سَماعِهم وانطلاق ألسنتِهم بالدُّعاء إلى الله تعالى

---

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣: «يوزيكن».

(٢) في ق: ك: «بارديّ».

في نَصْر خليفتِهم وتأييدِه، وإعلاءِ أمرِه وتجديدِه، وشَمَلت الأفراحُ الكبيرَ منهم والصّغير، وعَمَّ الجَذَلُ الحاضرَ والبادي، وعندَ ذلك تمهَّدت قواعدُ الموحِّدين، وتبيَّنوا القَصْدَ الجميلَ فيهم وأشاعوه عندَ قاصيهم ودانيهم، وبولغَ في إدنائهم وتكريمِهم، وأُحِلّ أشياخُهم مـحَلَّ أشياخ الموحِّدينَ على قِدَم الزّمان، واستَبْشَروا بنعمة من الله ورضوان.

واستقرَّ الموحِّدونَ بحضرة الخلافة في أحسن مستقَرّ، ووَفَد على أثَرِهم أبو محمد ابنُ أبي زكريّا، فلقِيَ بِرًّا جزيلًا، واعتناءً حَفيلًا، وصُرِفت على جميع الموحِّدينَ ديارُهم وعَقارُهم وأملاكُهم وسِهامُهم، فعادوا إلى أحسنِ عادة، واستشعَروا النموَّ في أحوالهم والزّيادة.

ولـمّا ساغَ للرّشيد مقصَدُه في هلاكِ عدوِّه ووصُولِ جيشِه معَ وزيرِه أبي محمد من حاحَةَ، وانقادَ له أكثرُ الموحِّدين ودخَلوا في إيالتِه، وأعلَنوا في بلادهم بطاعتِه، أخَذ في استصلاح الأمور، وسدِّ الثُغور، وحَسْم الأدواءِ قبلَ إعيائها وانخراقِ الفَتْق عليه منها، وشَرَع في ذلك بوجوهٍ توفَّرت عليها دواعي رجالِه وطائفتِه[1].

ذكرُ فتنة الـخُلَّط وعِنادِهم وحِصارِهم مَرّاكُش وفِرارِ الرَّشيد منها أمامَهم ودخولِهم إليها معَ يحيى بن الناصر

لـمّا نُمِي إلى الخُلَّط خبرُ شيخِهم وإخوانِهم، جَالوا في أنواع الفساد، وأظهروا الشِّقاقَ والعِناد، وخاطَبوا شيخَ الضُّلّال، ورأسَ الفجورِ والضَّلال ابنَ وَقاريطَ المتفنِّنَ في الفتن، الناشئَ في المكائدِ على قديم الزّمن، واستكثَروا بمُداراتِه وآرائه، ولم يَجِدوا مُعِينًا إلا الاستمدادَ به، فأجابَهم إلى مطلوبِهم، وأقبَلَ على مساعدتِهم وإسعافِهم، وقد كان في هذه الـمُدّةِ السالفة مُنْتزِياً مُوالياً ليحيى مشتغلاً بتجديد طلَلَ دارِس، أخنَى عليه الذي أخنَى على لُبد، يَحضُّهم على الإعلان بدعوة يحيى والاستنادِ إلى بيعتِه والذبِّ عنه والانضواءِ إليه، ووَجَد ابنُ وقاريطَ بذلك ما كانتِ الأيامُ تُقصِّرُ عنه عندَه من مرادِه، فانتعَشَ وقد كان أشفَق لانقطاع الأمل من تجديد مُحال يَرُومُه ورَسْم يُقيمُه، فانتَدبَ الخُلَّطَ لمساعدتِه واتّباع رأيه والاقتداءِ به، ووَجَّهوا أرسالَهم وكُتبَهم بذلك ليحيى بن الناصِر،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣.

وقَدَّموا على أنفسِهم لعَقْد أمورِهم وإحكام رُبوطهم يحيى بنَ هلال بن حميدان، وأضرَموا للفتنة[1] نارًا وأظهَروا الخلافَ والعناد، واشتَغلوا بتخريبِ القبائل وفساد البلاد، وحشَدوا حشودَهم واجتَمعوا من كلِّ أَوْبٍ وفَجّ، واستقبَلوا الحضرةَ مُعلِنينَ بطلب ثأرِهم، فأحدَقوا بجَنَباتِها، وخيَّموا بأحوازِها وجِهاتها، وشَرَعوا في تدمير البحائر وقطع مياهِها وشجراتِها، وقد خَلَت أمامَهم الـمَجاشرُ والقُرى إلّا مَن كان لهم عليه سُلطانٌ من الرَّعية، فإنه استقرَّ بمكانِه، وعَظَهم انتقامُهم وعَيْثُهم في الحَوْز، فضاقتِ الأرضُ بما رَحُبت على الناس لانقطاع المرافق والموادّ، وارتفَعت الأسعارُ وعُدِمتِ الأقوات، وقَلَّ كلُّ مرفَق وأعوَزَ وُجدانُ ما يَنتفعُ به الناسُ من الحَطَب والتِّبْن والفواكِه والخُضَر وما يُجلَبُ من البوادي، واقشعرَّت الجُلود من هَوْل المكابَدة في طلبِ شيء من أنواع الحِنطة، وبَلَغت مبلَغًا لا عَهْدَ بمثلِه حتّى انتهى الرُّبع الواحدُ من الدّقيق اللّطيفِ الفاسد إلى ثلاثةِ دنانير، والناسُ في ازدحام على مَن يَشعُرونَ عندَه زِنةُ الخَرْدلة منه أو مِن سواه، وما أهمَّهم إلّا إقامةُ الأَوَد بما ينطلقُ عليه اسمُ الحِنطة، وتَمامُ الشّرح لهذه المجاعة يأتي بعدَ ذلك إن شاء اللهُ تعالى بعدَ ذكرِ خروج الرّشيد[2].

ذكرُ فِرار الرَّشيد من حضرتِه أمامَ الـخُلَّط

ولـمّا انتَهت هذه الأحوالُ إلى هذه الغاية المشروح بعضُها، وضاقَ على الخليفة مجالُ النَّظَر وتقَلَّصت أحوالُه وأحوالُ أجنادِه وحاشيتِه، أخَذ في الحركة ليَضرِبَ يمينًا وشمالًا والأجنادُ تفنَى في هذه الشدة وتنثالُ على أعدائه الخُلَّط، فاتَّخَذوها سببَ الانتقام، وانتهزَوها فرصةً في الوصُول بجُموعِهمُ الكثيفة المتَراكمة تَراكُمَ السَّحاب، فأنِفَ زعيمُ النّصارى حينَئذٍ غنصالُه منَ الانحصار للعرَب، فجَمَع جموعَه ورتَّب أمورَه وتأهَّب للقائهم بخارج الحضرة، واستعَدَّ لذلك بأقصَى ما في إمكانِه من العُدّة، وخَرج معَه بعضُ المسلمين وقَصَدوا نحوَ وادي تانسيفت[3] حيث كان جموعُ الخُلَّط ومخيَّمُهم، فلمّا

---

(١) في ق، ك: «وأضرموا الفتنة».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣، والاستقصا ٢/ ٢٤٣.

(٣) الروض المعطار ١٢٧.

أحسَّ العَرَبُ بهم تداعَوْا إلى قتالِـهم وأقبَلوا من كلِّ جهة بفُرسانِهم ورجالِـهم، واجتَمعوا في أُمَم لا يُحصيها إلّا بارئُ النَّسَم سبحانَه، فكان بينَ الفريقَيْنِ يومٌ عَصِيب، واحتَدَمَ القتالُ طويلًا وأمدادُ الخُلَّط تتَزايد، ومَن كان منهم بعيدًا ناداه صَريخُهم فأتَى من وقتِه ورَأَت النّصارى موقِعًا شَنيعًا، ووَرَدوا من عَدَم الرأي في حربِهم مَورِدًا فَظيعًا، وكان فيهم عبدُ الصَّمد بن يلولانَ الـهَسْكُوريُّ الذي كان يُضاهي ابنَ وقاريطَ ويُكابِرُه، وكان من شُجعان الفُرسان، في نَفَرٍ يسير من إخوانه.

ولـمّا عايَنَ الجُندُ الخارجُ من مَرّاكُش ذلك الأمرَ نَظَروا طريقًا ليلتمِسوا منه سبيلًا، فلم يرَوْا أوقَى جُنّةً من قَنْطرةِ تانسيفتَ، فاقتحَمُوا عليها ومَن معَهم، وضاق هنالك مجالُهم، وتسابَقَ بعضُ الخُلَّط إلى طَرَفِه الأدنى ليمنَعوهم من الخروج عليه، فكان هنالك خَطْبٌ شَنيع ورحَى الحربِ تَدورُ على زُعماءَ مِن فُرسان النّصارى، فاستحَرَّ القَتلُ فيهم وعُدِم منهم عددٌ، ثم حَمَلوا حملةً صادقة على الذين أمسَكوا عليهم طَرَفَ القَنْطرة واللّيلُ قدِ انسَدل ظلامُه، فخَرجوا من القَنْطرة وسَمُّ الخِيَاط أفسَحُ منها مجالًا، وسَتَرَهم اللّيلُ بجِلبابِه ودخَلوا المدينةَ ليلًا منهزِمينَ خامِدين.

وبات الناسُ في اضطرابٍ لِـما عايَنوا من سُوءِ الحال وانقلابِ الأجناد، وقد قُتل عددٌ كثيرٌ من زُعمائهم، وعُدِم أكثرُهم في هذه الكائنة بسلاحِهم، وأصبح الناسُ يَمُوجُ بعضُهم في بعض، وارتفعَتِ الهَيْبةُ من السّلطان وجُندِه، وعُدِمت الأقواتُ البتَّـةَ، وكاد الناسُ يأكُلُ بعضُهم بعضًا، والعَرَبُ الخُلَّط في خَفْض من العَيْش، والزَّرعُ عندَهم يُداسُ بالأقدام، فامتَدّوا بالفساد، واستَدرَجوا بوصُولِـهم من مكانٍ إلى مكان، وأيقَنوا أنّهم آمِنونَ من خُروج الجَيْش لهم ثانيةً لقَتْلِهم أبطالَهم واستيلائهم على أسلحتِهم وجميع ما كان لهم، والأحوالُ تزيدُ ضِيقًا بكلِّ وَجْه ولا مدَدَ يُرتقَب ولا فَرَجَ إلّا من تحت ظِلال السُّيوفِ يُنتظَر.

ولقد وصَل الخُلَّطُ في أحد الأيّام إلى الحضرة من جهة القِبلة وتَركوا الـمُصَلَّى في الأعياد وراءهم، واقتَرَبوا من السُّور في أُمَم لا تُحصَى، فخَرجَ العسكرُ كلُّه حينَئذٍ إلى خارج المدينة، وكان سَطْرًا واحدًا من غَرْبيِّ الصِّهرِيج الذي بينَ باب النَّصر وبابِ الشّريعة

إلى مَقرُبة من موضع مَبيع البقَر والغَنَم، فعايَنَ الناسُ مِن قتلهم ما راعَهم وأضعَفَ قُواهم وأوهَنَ نفوسَهم، وربّما انضاف إليهم في ذلك الصَّف عبدُ الصّمد الهسكوريُّ وإخوانُه، والناسُ على الأسوار لا ينطِقونَ[1]، واستمرَّتِ الحال في هذا اليوم على ما ذُكِر منَ اصطفافِ خاصّة دونَ قتال إلى العَصْر، وانفَصَل الخُلَّطُ من هنالك، ودخَلَت الأجنادُ إلى البلد، وما مَرَّ يومٌ إلّا وله شأنٌ من الشّدّةِ وعَدَم الأقوات.

فلمّا انتهَتِ الأمورُ إلى أبعدِ غايةٍ تـمُرُّ بالأوهام منَ الاختلال، توقعت المحاصرة حقيقةً، وانتَظَم الخُلَّط بابن وَقاريطَ وأشياعِه، وتفاقَم الأمرُ واشتدَّ الحال، فاقتضَتِ المصلحةُ النّظرَ في وَجْهٍ يكونُ فيه مخرَجٌ إلى الفَرَج، وحضَر لذلك الموحِّدونَ وغيرُهم، وانبعَثَتِ الخَواطرُ بما فيها، وأُعمِلت الأفكارُ في أسباب النَّجاةِ ودواعيها، وتفاوَضَتِ الأقوالُ وترجَّحَتِ الآراء، واستمدَّ الكبيرُ من الصَّغير، ونَظَروا في عاقبةِ الأمر، فرأى الجمهورُ أنّ الخروجَ أحقُّ وأَوْلى، قالوا: إنّما نَحْيَا بخروجِنا فتكونُ لنا الكَرّةُ أو نموتُ فنستريح، وأَثَروا قولَ القائل [من الخفيف]:

عـشْ عزيـزًا أو مُـتْ وأنـت كـريمٌ   بـينَ طعـنِ القَنـا وخَفْـق البُنُـودِ

فلمّا اجتَمعوا على هذا الرأي الناجح والقَصْد الصّالح، تَفاوَضوا في جهةٍ يقصِدونَها وناحية يعتمدونَها، فانتَدَب لهم الموحِّدونَ وقالوا: إنّ الموطأ ما إليه من سبيل وقد أحدَقت به الأعداء، وهذه بلادُنا تُنجيكم، ونحن بأنفُسِنا وإخوانِنا نَفْديكم ونَقِيكم، وجبالُنا المتَّسعةُ تحمِلُكم دهرًا وتُؤويكم، وإذا حلَلْتُم بعَرَصاتِها وشواهقِها وأمِنتُم من المكارهِ وبوائقِها، وأتيتُمُ الأمورَ من وجوهِها وطرائقِها، وتوسَّعتُم في معرفة الأحوال وحقائقِها، وكنتُم قد مَلَكتُم قِيادَ آرائكم، وأمنتُم من كلِّ جهة حتّى من عدوِّكمُ الذي مِن ورائكم، وعند ذلك يتأتّى لكمُ المراد، وتأتي الأيامُ بالموافقة والإسعاد. ولـمّا قَرَّروا ذلك استَبْشَر الرّشيدُ ومَن معَه بمَقالهم، ورَكَنوا إلى رأيِهم واستَخاروا اللهَ سبحانَه في الحركة معَهم إلى جهة الجبل لارتقابِ الفَرَج المؤمَّل والنَّصر المنزَّل، وأخَذ الرّشيدُ

---

(١) في ق، ك: «ينظرون».

ورجالُ دولتِه والموحِّدونَ في حركتِهم، وخفَّف الناسُ أثقالَهم ببَيْع ما لا يحتاجونَ إليه، وعندَ ذلك ظَهَرت الحِنطةُ في البلد ممّا باعَه المتحرِّكون، ولقد كان عندَهم منها ما تتمشَّى به أحوالُ الناس مدةً طويلة، ولكنّ حُبَّ النفْس منَعَهم عن إخراجِه والتمسُّكِ به.

وشاعَ في الناس خبرُ الحركة والأبوابُ مُغلقةٌ إلا أحدَها عندَ الضّرورة يُفتَح، وانتَعَش الناسُ بظهور الزّرع بعضَ أيام، وبالبيع والشِّراء ومعاملة المتحرِّكينَ فيما يحتاجونَ إليه، ولم يتهيَّأْ لهم الخروجُ من الحضرة حتى بَعُدتِ العَرَبُ يسيرًا عنها[1].

ذكرُ السببِ في بُعد العَرَب عن الـحَضْرة وتهيؤ الخروج منها للرّشيد بجُملتِه وأجنادِه

لـمّا عَزم الرّشيدُ على خروجِه من حضرته، توقَّع أن تَجلِبَ العَرَبُ عليه بخَيْلِهم ورَجْلِهم فلا يجدَ وصولًا إلى الجبل ولا غيرِه، فأجْمَعَ رجالُه على أن يبعَثَ رَقّاصِين بكتُب مُفتعَلة تتضمَّنُ نُصرةَ الرّشيد على أعدائِه الخُلَّط، كأنّهم وصَلوا بها من عند جرمونَ شيخ عَرَب سُفيان، وبطاعتِهم له وحرصِهم على الاتّصال به والدّخول في سُلطانِه، وأجزَلوا العَطِيّةَ للرقّاصِين وأمَروهم بالانتماءِ إلى جهةٍ معيَّنة ثم يأتونَ منها قاصِدينَ الحضرةَ مارِّينَ على الخُلَّط متعرِّضينَ لهم لكي يأخُذوهم ويَستعجِلوا أخبارَهم ويأخُذوا كُتبَهم ويستفهمونَهم عن مَأمِّهم ومُتوَجَّهِهم فيُخبرونَهم بأنّهم قاصدونَ الحضرةَ من عندِ عدوِّهم جرمون، وأنه مُستقبِلُهم بعَرَب سُفيانَ أعدائهم، وأنهم تَركوه على وادي أُمِّ رَبيع. ثم كمُل لهم هذا الغَرَض، وجَرَت به الإرادةُ على أحسنِ ما قُدِّر فيها، وأنّ الرَّقّاصِينَ عَمَدوا بالكتُب ناحيةَ الخُلَّط فأخَذوهم وكتبَهم وألَـحُّوا عليهم حتى أقَرُّوا لهم بأنّهم أرسالُ جرمون، فأجمَعوا على أن يقصِدوه وقد كانوا في أمنٍ من جهتِه بأنه لا يُقاومُهم ولا يستطيعُ كِفاحَهم، ولكنّهم لـمّا وقَفوا على الكُتُب واستَخْبَروا الرقّاصِينَ، ظَنُّوا أنَ الأمرَ حقّ، واقتَضَت الـمَصْلحةُ عندَهم أن يُبدِّدوا جمعَهم قبلَ انتظامِهم بالرّشيد واجتماعِهم به، فأخَذوا في الحركة نحوَ وادي أُمِّ رَبيع[2].

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣ باختصار.

(٢) الروض المعطار ٦٠٥.

ذكرُ كيفيّة خروج الرّشيدِ من حضرتِه بجميع جُندِه

لـمّا أحسَّ الرّشيدُ ببُعد العَرَب الخُلَّط والهَساكرةِ الذين كانوا معَهم عن مَرّاكُش، خَرج قاصدًا إلى الجبل، وكان لـمّا عزَم على ذلك عيَّن يومًا له، فلمّا كان في صُبحِه اشتَغل بالتجهُّز، واشتَغلت خُدّامُه بحركتهم وأثقالهم وعيالهم ولم يترُكوا لأنفسِهم بمدينة مَرّاكُش قليلًا ولا كثيرًا ولا جَليلًا ولا حقيرًا، وكان اجتماعُ الذين يخرُجون خارجَ البلد لم يَبعُدوا عن سُورِه بوَجْهٍ من الوجوه، وجلسَ الرّشيدُ بقُبّته معَ خاصّته، وكلُّ ما يخُصُّه من أثقال وأحمال وحَشَم وعِيال قدِ اشتَغل به الموكَّلون، فلم يتِمَّ ذلك إلّا في الساعة الثالثة من النّهار، فلمّا استوفَى كلُّ واحد خدِمتَه أُشعِر بذلك، وأُدنِيَ إليه فرسُه والقلوبُ تخشَع والعيونُ تدمَع والأصواتُ بالدّعاءِ إلى الله سبحانه ترتفعُ بنصرِه، والألسِنةُ ناطقةٌ بشُكرِه. وتقَدَّم للخروج على باب الكُحْل ووراءَه أثقالُه وعيالُه، وكان عِذارهُ لم يُستكمَلْ في خدِّه والدّموعُ باديةٌ في عَيْنَيه، والنهارُ بهذه المصيبة حالِك، ووقَفَ خارجَ الباب للدُّعاءِ على العادة هنالك، والناسُ يؤمِّنونَ على الدّعاء، ويَرجُونَ الإجابةَ من ربِّ السماء.

واستَخْلَفَ إذ ذاك على مَرّاكُش أبا محمد عبدَ الله بن زكريّا. وقصَدَ الرّشيدُ نحوَ الـمُصَلّى متوجِّهًا لجهة الجَبل فسُدّ بابُ الكُحْل وسائرُ الأبواب، وتمشَّى الناسُ معَه بعيالِـهم وأثقالِـهم في الساقة، وانسَدَل عليه حجابُ الاعتناء الرَّبّانيّ فلم يصِلْ إليه أحدٌ في ذلك اليوم من أعدائه، ونزَلَت المحَلّةُ بمقرُبة من أَغْمات، واستَشْعَروا مِن ألطافِ الله تعالى ما استدَلُّوا به على كلِّ فتح آت، ومَن كان تلوَّم متأخِّرًا عن وقتِ خروجِه وأخَذ في اتّباعِه لحِقَ به العَربُ فاستأصَلوه ومن جُملتِهم: أبو زيد المكّاديُّ قاضي الجماعة وابنُه عبدُ العزيز، فأمّا الوَلَدُ فإنه خَرج سبقًا على فرسِه إلى نحوِ المدينة ونَجا، وأمّا الشّيخُ فلم يُبقِ العَرَبُ له ولا لعياله ما يَستُرُهم فضلًا عن سِواه، ولو عَلِموا أنه القاضي لَقَتلوه، ولكنّهم جَهِلوه فتَرَكوه لُطفًا منَ الله تعالى فقَصَد على حالتِه تلك المحَلّةَ فأعانَه كلُّ من كان بها بكلِّ ما يَحتاجُ إليه فحَسُنت حالُه بذلك.

وأقام الرَّشيدُ بمحَلّتِه هنالك[1] يومًا، فاتّصل بالعَرَب خبرُ خروجِه من حضرتِه، فجاءوا متحسِّرينَ يتلهَّفونَ على ما فاتَهم، فضَيَّقوا على محَلّتِه أشدَّ تضييق، وبالَغوا في

(١) في ق، ك، ب: «وأقام الرشيد هنالك بمحلته»، وهي بمعنى.

قتالِه بكلِّ مَضِيق وفَجٍّ عميق، فاجتَمع أهلُ مَشُورتِه على الرّحيل من هنالك ليلًا إلى أَغْمات برَسْم التحصُّن بها، ومنها يكونُ طريقُهم حيث يَمَّموا، فلمّا أرخَى اللّيلُ عليهمُ سُرادقَه اغتنَموها فرصةً وأقلعوا من حينِهم إلى أَغْماتَ المذكورة، فلَقُوا من المشاقِّ في تلك الأوعارِ والمضائق ومَجاري المياه والتفافِ الأشجار وازدحام النّاس والدّوابِّ وشدّة الخَوْف وامتدادِ أيدي بعضٍ إلى بعض ما لا يوصَف، وما اتّصل الناسُ بالبلد إلّا معَ الصُّبح وقد أخَذ منهمُ التّعبُ والمشَقّةُ ما أشْرَفوا منه على الهلاك.

ولـمّا كان من الغدِ أقبَلَ الخُلَّطُ في الجموع الوافرة والأعدادِ المتكاثرة وهم يظُنُّونَ أنّهم ظَفِروا بمطلوبهم وحصَلوا على أرَبِهم، فألفَوا الأثَرَ بَلْقَعًا ولم يَجِدوا لهم موضعًا، فشَقَّ ذلك عليهم وكبُرَ في نفوسِهم وأقبَلوا يَتلاوَمونَ على تَرْكِهم ثأرَهم وأنْ لم يُقيموا عليهم مُخيِّمينَ ليلَهم ونهارَهم، ثم إنهم[1] لم يَلبَثوا إلّا ساعةَ لومِهم لأنفسِهم وأخَذوا في التضييق على أَغْماتَ والانتهاءِ إلى سُورِها، وأقاموا لها مُحاصِرينَ يومَيْن لم يَجِدْ أحدٌ فيها شيئًا يَبتاعُه، واحتيجَ إلى طعام برَسْم زادٍ لدارِ الخليفة الرّشيد، فتطوَّف خاصّتُه الـمُشرِفُ أبو البركات على الأسواق ثم على أهل الدِّيار ثُم اقتَحَم بعضَها فلم يجتمعْ له إلّا قَدْرُ تسعينَ مُدًّا من قمح. فلم يمكنِ الاستقرارُ هنالك على الجُوع، فأجمَعوا أمرَهم على الخُروج إلى جهة تالمقت، ومنها يصعَدونَ الجبلَ مأمنَهم من عدوِّهم، فكان ذلك، وعَمِيت أخبارُهم عن عدوِّهم، وطَبَع اللهُ تعالى على قلوبِهم وسَمْعِهم فما أحسُّوا بالخروج إلّا بعدَ حصُول الناس بأطرافِ الجَبل.

وهنالك استَأذَن شيخُ تينملَ أبو يعقوبَ يوسُف بن عليٍّ بن يوسُف على التوجُّه بالجُند إلى جهة ويرجّان: من أعمال مدينة تينمل، للقَبْض هنالك على السيِّد المعروف بأبي حافة[2]، وهو أبو إبراهيمَ ابنُ أبي حفص، فأسعَفَه الرِّشيدُ إلى التوجُّه لذلك بالجُند، وكان السيِّدُ المذكورُ من أشياخ يحيى ومنَ الذين يتولَّونَ الذبَّ عنه بلسانِه وقلبِه ويدِه، فلمّا توجَّه أبو يعقوبَ بالجُند لم يبقَ بمحَلّة الرَّشيد أحدٌ منهم.

---

(١) سقطت من ك.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤: «حاقة».

وشاع الخبرُ عندَ العَرَب فاجتَمعوا بقَضِّهم وقَضِيضهم وكبيرِهم وصغيرِهم وجَرَّدوا العَزْمَ على الـمُصادمة والـمُكافحة لينالوا ما يَحُومونَ عليه واللهُ تعالى يُذهبُ كيدَهم ويُخيِّبُ سعيَهم، ثُم أقبَلوا نحوَ المحَلّة وليس لها مانعٌ ولا دافع، ولـجَأَ الناسُ إلى التوعُّر في مكانٍ ضيِّق وقدِ اشتَدّت أحوالُهم وانقَطَعت آمالُهم وبعضُهم يَنظُر إلى بعض، والأمرُ يؤُولُ بالتقدير وقرائنِ الأحوال إلى اختلال ونَقْض، فبينَما هم كذلك وعدوُّهم فيهم طامع، وبَرقُ رعودِه لامع، وعذابُه بالقوم لولا دفاعُ الله واقع، إذ أقبَلَت مقدِّماتٌ لجيشِهم كأنّها العُقْبان، وترادَفَ العسكرُ من كلِّ جهةٍ ومكان، فعاد التَّرَحُ فَرَحًا، وجُرِّرت أذيالُ المَسَرّة مَرَحًا، فعندَما عايَنَ الخُلَّطُ تكامُلَ الجيش من تلك الفُجوج، أيقَنوا بخَسارٍ وفساد، لِـما ظَنّوا أنه عائدٌ بنُجْح وسَداد، ثم انقَلَبوا من هنالك ناكِصين، ووَلَّوْا على أدبارِهم خاسِرين، واستمرَّ الرّشيدُ على مسيرٍ في الجَبَل وأشياخُ الموحِّدينَ يأتُونَ بالـمَرافق والتضييفِ ويوسِّعونَ على الناس في عُلوفاتِهم، وأظهَروا كلَّ جميل من طَوِيّاتِهم، وتقَدَّموا بين يدَيْ خليفتِهم في بلادِهم وطُرُقاتِهم، ولم يَثْنِ عِنانًا عن موضع يُعرَف بأدّار[1]: من بلادِ هَرْغة[2]، وكان مخزنَ مالٍ وذخائرَ لأبي إسحاقَ بن أمغار، ولم يكنْ ألقَى بيدِ الانقياد أَنَفةً ممّا كان بينَه وبينَ يوسُفَ بن عليٍّ التينمليّ، وكان في ذلك التاريخ مُؤازِرًا ليحيى ومُشايعًا له في جُملة من الموحِّدينَ كانوا تمَسَّكوا به ولم يُـخِلُّوا بشيء من خدمتِه وطاعتِه، فضَبَطَ حِصنَ أدّار الحاجُّ أبو محمد ابنُ الشّيخ، وكان ترَكَه عمُّه أبو إسحاقَ به فقام خيرَ قيام بمَنْعِه فحاصَرَه الرَّشيدُ فيه واستمرَّ القتالُ عليه إلى أن أَلقَى بيدِه وطلَبَ أمانًا فخَرجَ منه، وكان في الحِصن إذ ذاك أبو زيد بنُ عبد الكريم الجدميويُّ، وهو شابٌّ يقرأ، وكان أبو إسحاقَ بنُ أمغارَ خالَه، ثم إنّ الرَّشيدَ ومَن معَه من الموحِّدينَ استقبَلوا بلادَ القبلة وقالوا: هذه سِجِلْماسةَ أمامَنا، وبها تتِمُّ آمالُنا وتتَّسعُ أحوالُنا، وننْسَى ما كابَدْناهُ منَ الأهوال، ونستجدُّ عزمًا ونَظَرًا في المقارعة والنِّزال، وإذا ملَكْناها ملَكْنا كلَّ البلاد، ويتيسَّرُ لنا فيها نَرُومُه المراد، وكان بها

---

(١) الضبط من ق.

(٢) هذا الحصن جوَّد تقييده ناسخ ق، فشدّد الدال.

أرقمُ بنُ يحيى بن شُجاع بن مُرْدَنيش، فسَمِع بقَصْد الرّشيد إليه فارتَعدت فَرائصُه وهاجَتْ خَواطرُه ولم يرَ أنجَحَ رأيًا من قتالِه، فرتَّب لذلك وأخَذ له أُهبتَه وبالَغَ في حَسْم كلِّ علّة وأحسَنَ لرجالِه، وكان عندَه جماعةٌ من النَّصارى يُعوِّلُ عليهم ويَسكُنُ إليهم، فوسَّع لهمُ العطاء وأقام ببلدِه متمنِّعًا به، والرّشيدُ يَطوي إليه المَراحلَ وزاعِجُ الاضْطِرار يستحِثُّه. فلمّا نزَلَ بخارج سِجِلْماسةَ وهو يظُنُّ خيرًا بمَن فيها ظَهَر له من أحوال ابن مُرْدنيش ما دلَّه على شِقاقِه وعِنادِه، فاشتدَّتِ الحالُ على الجُند وعلى كافّة أهل المحَلّة، ولم يَجِدوا مَرْفَقًا ولا عَلَفًا ولا قُوتًا، وهم في صحراءَ فَغَرت فاها إن زَلّت بهمُ الأقدام أو آثَروا الإحجامَ على الإقدام، فعندَ ذلك شَرَعوا في المُنازَلة وأخَذوا في المُقاتلة، وعيَّن أرقمُ بن مُرْدنيش قريبَه أحمدَ بنَ أبي النَّجم لقتال الرّشيد، فأظهَرَ في ذلك عناءً وبلاءً، وحَجَز اللّيْلُ بينَ الفريقَيْن والناسُ من عُدْم الأقوات في اضْطِرام، ومِن غَلَبةِ اليأس عليها في استعارٍ واحتدام، وأصبحَ الناسُ في اليوم الثاني ولا قُوتَ في خِباءِ أحدٍ منهم، حتّى أن الصِّغارَ من الأولاد كانوا يَبكُونَ من شدّة الجُوع، فما يجدُ آباؤهم ما يُسكِّتونَهم به.

ثُم إنّ النّصارى الذين كانوا بالبلد معَ أرقم ابن مُرْدنيش مالَت نفوسُهم إلى إغاثة إخوانِهم، وعَلِموا أنّ ذلك لا يتَّجهُ إلا بالغَلَبة على شيطانِهم، ففتَحوا البابَ مُعلِنينَ بالطاعة ولم يكنْ عندَ أرقمَ نبأٌ منهم، فجاءه الخبيرُ بذلك[1]، فتدارَكَ أمرَه بطلب الأمان فأُمِّنَ، ودخَل الناسُ سِجِلْماسةَ وقد كاد الجُوعُ أن يُبيدَهم فحصَلوا في خَفْض من العَيْش وبلد خَصيب، متّسع الخَيْراتِ رَحيب، فاستقام الحال، واستَقرَّ الناسُ في دَعَةٍ وأمن وصَلَحتِ الأحوال، وبها بقيَ إلى أنْ جدَّد حركتَه إلى مَرّاكُش على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

رجْعُ الخبرِ إلى أحوالِ مَرّاكُش بعدَ حركة الرّشيد منها وإقبال الخُلَّط إليها[2].

---

(١) في ق: «فجاء الخبر بذلك».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٣-٣٤٤.

ذكرُ المجاعةِ التي كانت بمَرّاكُش عَصَم اللهُ المسلمينَ من مِثلِها

لـمّا توجَّه الرَّشيدُ في حركتِه المذكورة وخَرج أمامَ الخُلَّط من الحضرة[1]، تحيَّر الناسُ وكثُر فيهم الرَّهج، وعَظُمت عليهمُ المصيبةُ بإسلامِهم وعُدْم الأقواتِ والـمَرافق، ولم يبقَ لأحدٍ سَبَدٌ ولا لَبَد ولا طارفٌ ولا تالد ولا ذخيرةٌ ولا مالٌ ولا عَقار، واستَوْلَتِ المجاعةُ على جُمهور الناس ورأَوْا محِنًا يُستعاذُ بالله منها، وانتهَى الـمُدُّ الواحدُ من القمح الفَحْصيِّ إلى سبعة دراهمَ كِبارًا[2] من طَبْع... السِّكّة، وأمّا الدّرهمُ الفضّةُ فكان يُصرَفُ في نصف درهم، وكان هذا عُرفًا بين السُّوقة بالسّبعة الدّراهم السِّكّة، إنّما تُخرَجُ من مِثْلَيْ عددِها، وأمّا أسواقُ المدينة في هذه الـمَجاعة فلم يكنْ بها ما ينطلقُ عليه اسمُ شيءٍ بوَجْهٍ من الوجوه، والحَوانيتُ مُغلَقة وما بقيَ بها مَن يَلبَسُ ثوبًا يُساوي عشَرةَ دراهمَ إلا الأطمارُ المتغيِّرةُ الخَلِقة، وتغيَّرت الصُّورُ الجميلة، وتَنكَّرت الدّنيا باستيلاءِ المجاعة، وإذا ظَهرَ في السُّوق بعدَ أيام كثيرةٍ شيءٌ من خُبزِ الشّعير يُحشَرُ الناسُ عليه وإنهم لَقيامٌ ينظُرون، وما يَصِلُ إليه إلّا الكُفاةُ الذين لهم تجلُّدٌ على الاقتحام وصبر، ثم لا يَعدَمُ الذي يتوصَّلُ إليه أن يجتمعَ عليه العشرونَ وأكثرُ من الضُّعَفاء والمساكين حتى ينتزِعوهُ منه قهرًا، وأمّا شيخٌ أو عجوزٌ أو طفلٌ أو ضعيفٌ فإنه لا يصلُ إلى شيء، ولا على لُقمة منه، وسائرَ الأيام إنّما يَظهَرُ في الأسواق ما يكرَّرُ طحنُه من فيتورِ الزّيتونِ وغيرِه، فهو كان غذاءَ الناس؛ لأنه كان كثيرًا بالبوادي الخالية فتجتلبُه الضُّعَفاء ويَقتاتُونَ منه ويَبيعونَ فَضَلاتِهم، وكذلك النارنجُ كان موجودًا كثيرًا، فصار الناسُ يَميلونَ إلى شرائه وما يَدْرونَ حامضًا هو أم حُلوًا من سُوءِ ما حَلّ بهم، وكان يُباعُ في الأسواق خُبزٌ يُعمَلُ من تابودا[3] التي تَنبُتُ في الصّهاريج وفي الأنهارِ والسواقي، وهو شِبهٌ من القَصَب، سُمٌّ من السُّموم يُتخيَّرُ منه ما جَفّ ويُطحَن كما تُطحَن الحِنطة ويُعمَلُ منه خُبزٌ يُخيَّلُ لـمَن يَراه فإذا التمَس شيئًا منه باستعماله ومَذاقه لم يَجِدْ شيئًا.

---

(١) شبه الجملة ليس في ق.

(٢) من هنا إلى قوله: «وكان هذا» سقط من ق، ك، ب، ر٣.

(٣) لفظة مستعملة في البوادي الشمالية إلى الآن.

ومن جُملة ما اقْتاتَ الناسُ به في ذلك الوقت: عصائدُ تُصنَعُ من نُوّار الخَرّوب، وما عدا هذا ليس له وجودٌ البتّةَ، حتى لقد هلَكَت أُمَمٌ لا تُحصى وأبوابُ البلد كلُّها مُغلَقة والـمُصايفةُ قد قَرُب أوانُها، وكانت طيّبةَ الزّرع جِدًا، وظَهَر في الزّرع باكورٌ لو وجَده الناسُ لأغناهم، ولكن حالَتْ بينَهم وبينَه العُربانُ والعساكر.

ولـمّا انتهت هذه الشِّدةُ بالناس إلى كلِّ غاية، نزَلَ عليهم عدوُّهمُ الشّديدُ الباس، فاشتدَّ الحصار، وتمنّى الناسُ الإسار، وبلَغت القلوبُ الحناجر، وما للناس غيرَ الله سبحانَه من وَليٍّ ولا ناصر، وأحدَقَ العَرَبُ بالبلد من كلِّ جهةٍ ومكان، وكان معظَمُهم وزعيمُهم من جهة القِبلة عندَ الـمُصَلَّى وحيث سوقُ الدّوابِّ وهم يُقاتلونَ أهلَ[1] السُّور مُداوَلةً في كلِّ يوم.

قال أبو عبد الله التِّلِمْسانيّ: ولقد عايَنْتُ من بُرجٍ مرتفع بباب دار الأشراف، وليس في أبراج القَصَبة أعلى منه، قتالَ العَرَب معَ أهل السُّور، فكانتِ الرِّجالُ من العَرَب يقِفونَ على القَنْطرة التي تُعرَف بتُوف المطرح ويَرمُونَ حجارةً على بُرج بابِ الشّريعة[2]، فما يَمُرُّ مارٌّ بالرّصيف وتنتهي حِجارتُهم إلى فُندق السُّكّر هناك وإلى الممرِّ الممرورِ عليه ببابِ نفيس، وهذه مسافةٌ لا يقطَعُها إلا شدّةُ الساعد، ولقد كان الناسُ يَرمُونَ بالحجارة من السُّور، فما كانت تنتهي بوَجْهٍ إلا للسِّتارة؛ لأنّ الناسَ في ضَعْف أنهكَ القُوى وأخَلَّ بالعظام والعَرَبُ في قوّة وخَفْض من العيش، والفَحْصُ وزرعُه في حُكمِهم، وهم يُخوِّفون ويُهدِّدون.

واستمرَّتِ الحالُ على ذلك، فكان الضُّعفاءُ يَخرُجونَ على الأبواب، فإنّ البلدَ ضاقَ بهم فآثَروا الفِرارَ بأنفُسِهم، ولم يَبْقَ بالبلد إلّا الأقلّ ممّن لا يستطيعُ خروجًا، وبَقِيت هذه الحالُ مدةً والخُلَّط وحشودُهم يَستحِثُّونَ يحيى وأشياعَه. فتقدَّم منهم السيِّدُ أبو إبراهيم بنُ أبي حافةَ فنزَلَ بمقرُبة من البلد، وعايَنَ الناسُ مِن نزولِه هناك ما راعَهم، ولم يبقَ في الناس قوةٌ لحمايةِ بلدِهم، فمالت نفوسُ الناس إلى السيِّد المذكور لعلّه يمنَعُهم من عَبَثِ العَرَب فيهم، ثم تسَوَّر السُّور وتمكَّن من البلد، وفَرَّ الوالي أبو محمد بنُ أبي

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) في ق: «الشريفة»، وليس بشيء.

زكريّا ومعَه يحيى بنُ عبد الرحيم، فإنه كان الرّشيدُ ترَكَه على مَن كان تخَلَّفه بالقصر من خَدَم وإخوةٍ صغار، وكان فِرارُهما من سِرب بابِ الصّالحة، وتوجَّها نحوَ تاماروتَ: من بلاد هَنْتاتةَ، واستقَرّا في أمنٍ هنالك إلى أن عادا بعَوْدةِ الرّشيد إلى حضرتِه على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ فتح مَرّاكُشَ حرَسَها اللهُ تعالى ليحيى ابن الناصر على يدِ السيِّد المذكور عبد الله بن أبي حافة

لـمّا نزَلَ السيّدُ، كما تقدَّم ذكرُه، بباب الشّريعة[1]، سَكَنتْ إليه نفوسُ الناس ليحميَهم من عَبَث العَرَب وفَتْكِهم، وقد كانوا تأخَّروا في ذلك الوقت عنها يسيرًا، فتمكَّن السيّدُ من البلد ووَجَّه كتُبَه بذلك ليحيى وضَبَطَ البلد واكتَسَح لنفسِه كثيرًا، وأخَذ من وجوه البلد وتُجّارِه ما أراد، واصطَنَعه الناسُ خوفًا على أنفُسِهم وأموالِـهم، وكان له وَلَدٌ اسمُه عمرُ تسبَّب لناس بأشياءَ استَولَى بها على كثيرٍ من أموالِـهم، وكان أثَرُه في ذلك شنيعًا، وما كان لأبيه مطيعًا في الكفِّ عن الناس معَ طمَع أيضًا كان في والدِه توصَّل به هو وابنُه إلى ما راما. وفي أثناءِ هذه الحال وجَد الناسُ سبيلًا إلى الزَّرع الأخضَر، فخَرج لحَصْدِه الضُّعفاء وأكثَرَ الناسُ منه في البلد، فانتَعَشوا وعادتْ إليهم أرواحُ الحياة، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد. وقتَل السيِّدُ هنالك شخصًا عِلْجًا في الأصل كان من خاصّة الرّشيد، وكان طالَبَ بقتلِه صبرًا، ثم اتّصلتِ الأخبارُ بوصُول يحيى وابن وَقاريطَ والخُلْط، ووصُول جماعة من الموحِّدين مستقبِلينَ المدينةَ الخائفَ أهلُها، فاشتَغَلت الخَواطرُ من الذين يعلَمونَ عواقبَ الأمور ومارَسوا الفِتنَ والأهوال في الدّخول عليهم مرّات، ومَرَّ آخَرونَ ممّن هُو من جانبِ يحيى ومِن قوم لا يعقِلونَ من السُّوقةِ الذين يأخُذون أموالَ الناس ويدخُلون الدِّيار ويقتحمونَ على أهل الـمُروءات ويَحمِلون العَرَب إلى قوم لهمُ اشتهار بمال، أو بينَ أحدٍ منهم وبينَهم على متاع قليل تنافُس، فيُدركُ أملَه في الإيقاع به والنَّيل منه [من الطويل]:

بِـذا قـضَت الأيـامُ مـا بـينَ أهلِهـا ... مـصائبُ قـومٍ عنـدَ قـومٍ فوائـدُ

---

(١) في ق: «الشرقية».

ذكرُ وصُول يحيى ابن الناصِر لـمَرّاكُش ومَن معَه من الـخُلَّط وهَسْكُورةَ معَ ابن وَقاريط

لـمّا وصَل يحيى إلى مَرّاكُش واحتَلَّ بها، وصَل معَه أشياخُ العَرَب وعامّتُهم وكبيرُهم وصغيرُهم واستَوْلَوا على كلِّ سُوق وجهة، واقتَحَموا الدِّيارَ ووالَوا الإضرار، واختاروا من الدِّيار ما شاءوا فأخَذوه ولا مانعَ يمنعُهم ولا زاجرَ يزجُرُهم، ووصَلَ أبو إسحاقَ ابنُ الشّيخ، وكان كالوزير إلّا أنّ رَوْنقَ الوِزارة قد دَثَر ودَرَس وتغيَّر، وكان أيضًا وزيرًا له أبو محمد بنُ وانودين وأبو يحيى زكريّا بن يجلد. ووصَل ابنُ وقاريطَ في أشياعِه ونزَل دارَ أبي سعيد بن جامع، ونزَل عليّ بن هلال في جميع ديارِ دار[1] نفيس هو وإخوانُه، واقتَسَموا الدِّيارَ والقصورَ العجيبةَ التي لا يأتي الزّمانُ بنظائرِها ولا بأمثالِـها، وبعدَ أيام انقَبَضتِ الأيدي على امتداد وكُفَّت أكُفُّ الفساد، ولم يكنْ للموحِّدينَ كبيرُ أثَر في هذا الوقت، فأمّا أبو إسحاقَ ابنُ الشّيخ فلم يكنْ همُّه قبلَ احتلال يحيى بأيامٍ ثلاثةٍ أو أربعة إلّا في القَبْض على مَن بقِيَ في القَصْر من أولادِ المأمون ليُمسِكَهم فيما أخذَتْه الأيدي وانهبَتْه، واحتَمل إلى الجبل مَن حصَل منهم في يدِه، ثم لَحِق بموضعِه لغَلَبة العَرَب وابن وقاريطَ على يحيى، حتّى إنه كان إذا جلسَ[2] في القُبّة المعروفة لجلوس العلماء ما بقيَ أحدٌ من العَرَب إلّا وهُو يَقتحِمُ عليه فيها بغير إذْن، وما كان جلوسُ عامّتِهم مدّةَ إقامته بالقُبّة إلّا بمقرُبةٍ منه في الرَّحبةِ الكبرى، وتغيَّرتِ الأحوالُ كلُّها.

وفي أثناءِ ذلك التاريخ: أطلقَ ابنُ وقاريطَ ذُؤابةً من عِمامتِه يقولُ له الناس: الفشتال. قال الكاتبُ أبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ رحمه الله: ولقد عايَنْتُ عِمامةَ ابن وقاريطَ وطَرَفُها معَ رُكبتِه، وفيه من التِّيه والزَّهْو والعُجْب والاغترار ما لا يَصِفُه الواصفون، وقد تحصَّل له كلُّ مطلوب من حُلول يحيى مَرّاكُش واحتوائه على سُلطانِه ولعِبه بعقول العَرَب كيف شاء واستيلائه على القبائل والبلاد، وتوجيه رجالِه إلى كلِّ جهة عن الأموال، وإقبالِ الرِّضى عليه بالمساعدة، فظَنَّ أنّ ذلك شيءٌ لا يَفسُدُ ولا ينقَضي والأقدارُ منه تضحَك والأيامُ تأتي بكبيرِ عادتِها من الكَسْرِ لكلِّ جبّارٍ عنيد منَ الإملاءِ له والإمهال.

---

(١) سقطت من ق.

(٢) في ق: «حتى إنه إذا جلس»، وفي ك: «حتى إذا جلس».

ولـمّا حالَت أحوالُ الموحِّدينَ المذكورينَ وعَلِموا أنّهم في قَبْضةِ ابن وقاريطَ أخذوا في التكاسُل عن الخِدمة والتثاقُل، واستمرُّوا على ذلك صَدْرًا من تلك الأيام، حتى اضْطُرَّ يحيى إلى تقديم الحَسَن ابن السيِّد أبي عليّ بن أبي عَبد الله ابن السيِّد أبي حَفْص وزيرًا، فاستمرَّ في الوِزارة يسيرًا، ثم أصابه مَرَضٌ شديد، فاستأذَنَ على أخيه أبي إبراهيمَ الأصغر، وكان مُخالطًا لبعض الطَّلَبة ومُلابِسًا لهم، فقام مقامَ أخيه في التصرُّف ليحيى، ونفَقت سُوقُه وتغيَّر زِيُّه الذي كان يُعرَفُ به، ثم لم يلبَثْ إلّا يسيرًا وحُمَّ حِمامُه، وأخوه الحَسَنُ على أثَرِه، وبقِيتِ الأحوالُ على هَرَج وسُكون تارَةً سِلمًا وتارَة هَيْجًا، وكان المتَولِّيَ على باطن يحيى والحاجبَ له والناظرَ عليه والكافلَ لأمورِه والضابطَ لنفقاتِه والمرجوعَ إليه في مَصالِحه ودارِه وحَرَمِه ومملكتِه على تقلُّصِها: فتًى اسمُه بلالٌ يُكنَى أبا حَمامة، وكان شيخًا متطلِّبًا قرأ في زمن[1] شبيبتِه، وكان متوقِّدَ الخاطر مُتنَمِّسًا[2]، وعليه كانت تُدورُ أحوالُ يحيى إلى أنْ صار يكتُبُ بخطٍّ مَشْرِقيٍّ العلَامة في ظهائرِ التي هي الحمدُ لله وحدَه، وأمّا غيرُه قبلَ هذه المدة فلا يرتابُ في أنه كان يكتُب العلَامةَ عِوَضًا منه، حتى لقد قيل عن امرأة: إنّها كانت تكتبُها فإنّ يحيى كان في يدِه اليمنى شلَلٌ، وكان هذا يَظهَرُ فيه، فإنه كان لا يرفَعُ به طِنابَ برنوسِه ولا يُمسكُ قضيبًا بيدِه على عادةِ الخُلفاء، ولقد كانت مسائلُ الناس برغَباتِهم يُرفَعُ إليه منها ما لا يُحصى وكلُّها يَكتُبُ عليه الفتى أبو حَمامةَ بلالٌ المذكورُ بما شاء وما أجراه اللهُ تعالى على قلبِه ويدِه، وذلك بِمِداد يَميلُ إلى البياض وبقلم رقيق وبينَ الحروف فُسْحة فيُعيدُ يحيى على تلك الحروفِ بخطٍّ ضعيف، وربّما نَسِي بعضَ تلك التواقيع فلا يمُرُّ عليها بشيء إلى أنِ اطَّلع الفتى على هذا الأمرِ الشَّنيع فستَرَه، وصار يَكتُبُ التواقيعَ بالمِداد الأحمر المعروفِ للخلفاء.

ولقد اضْطُرَّ يحيى حينَ دخولِه القصرَ إلى ما يُنفقُه، فوجَّه في ذلك لابن وقاريطَ والعَرَب فاكتَرثوا لحالِه وشَرَعوا في توزيع المال عليهم وعلى هَسْكُورةَ، ثم لم يتِمَّ ذلك الـمُحاوَل وبقيَ على اضْطِرارِه واحتياجِه وتقلُّصِ مادّتِه، ثم تسلَّل الموحِّدونَ الذين كانوا بمَرّاكُشَ وتوصَّلوا بذلك إلى أسبابٍ دبَّروها وتوصَّلوا بها إلى غاية مرغوبِهم.

---

(١) سقطت من ك.

(٢) المتنمِّس: الحاذق، كالناموس. (قاموس).

وأوقَعَ إذ ذاكَ الفتى بلالٌ بعليٍّ ابن الناصر أخي يحيى، وقال ليحيى: إنه عازم على الفِرار كما فـرَّت إخوتُه: موسى وزكريا ليَلحَقَ بهما عندَ الرّشيد، فاقتضى نظَرُه القبضَ عليه، فبعَثَ عنه غُلامًا من عَبيد البحايرينَ الفُتّاك الفُجّار، فتوجَّه الغلامُ إليه معَ جماعة من أشباهِه، فلم يُلفِهِ بدارِه وألفاه بحَمّام يُعرَفُ بحمّام الفَهْميّ، ووافَقَه خارجًا ليَركبَ دابّتَه فاحتَمَله مرقبًا إلى الدار الـمَكْرِيّة وثُقِّف ليلتَه هناك، وكان فتًى صغيرَ السنّ نحيفَ الجِسم أصفرَ اللّون. وشاعَ الخبرُ تلك الليلةَ عندَ الناس، ورَقَّت له النفوسُ لسكونِه وعقلِه وأنه لم يَصدُرْ عنه ما كان يصدُرُ عن أحد من إخوتِه ولا غيرِهم، فتَطارَحَ الناسُ على العَرَب في شأنِه ليُسلِمَه. ثم جلسَ يحيى في اليوم الثاني لتلك اللّيلة على عادته بقُبّته، فدخَل عليه العَرَبُ وابنُ وقاريطَ، ودخَل من الخُلْط شيخٌ عالي السِّنّ رفيعُ القَدْر عندَ إخوتِه مُطاعًا فيهم، فشَفَع عندَ يحيى في أخيه وأتى بكلام حَسَن في استعطافِه عليه ورَعْي وجهِه وأخوّتِه فلم يَعطِفْ عليه ولا رَقَّ له لِـما وقَرَ في نفسِه من طريق حاجبِه ومدبِّرِه، وقرأ العَرَبيُّ المذكورُ في ذلك المجلس في أثناءِ كلامِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية [الحجرات: ٦]، فلمّا انقضَى المجلسُ أمَرَ بقتلِه، فقُتل رحمه اللهُ صَبْرًا، فكانت في القلوبِ منه فَجْعة. وأمّا ابنُ وقاريطَ وغيرُه فلم يكنْ همُّه إنكارًا لذلك، فإنّ مرادَه كان إبادةَ العالَم عساه أن ينفردَ وحدَه بالدُّنيا، ولا بقاءَ إلا لله سبحانَه.

وكان دخولُ يحيى مَرّاكُش في آخِر سنة اثْنتينِ المذكورة، وأقام بها إلى صَدْرٍ من عام ثلاثةٍ وثلاثينَ وست مئة، والرّشيدُ في هذه الـمُدّة بسِجِلماسَة وقبلَها ببلاد القِبلة، وبسِجِلْماسةَ أقام هُو أيضًا صَدْرًا من عام ثلاثةٍ وثلاثينَ المذكور، وكان ابنُ وقاريطَ في هذه المدّة كلِّها يَصطنعُ العَرَبَ الخُلْط ويُصافيهم ويَستميلُ نفوسَهم ويتحبَّبُ إليهم ويُحالفُهم على أنه واحدٌ منهم لا يُخالفُهم ولا يُفارقُهم في حركة ولا سكون، فتهيَّأ له بذلك مُرادُه وتمكَّن ممّا شاء وقَدَّم وأخَّر ونَهى وأمَر، ولم يكنْ[1] عندَه وعندَ العرب ليحيى ممّا يعوِّلونَ عليه وِرْدٌ ولا صَدَر، واتّخذ العَرَبَ ليكونوا له وُزراءَ ورُكنًا، ويكونَ هو مدبِّرًا لأمورِهم وقائمًا على أحوالِـهم، فإنّهم كانوا في قوّة لم يظُنَّ أحدٌ أنهم يَبيدونَ لكثرة

---

(١) سقطت من ك.

جُموعِهم وقوّة نفوسِهم وحدّة شوكتِهم، فما كان ببلاد المغرب أقصاها وأدناها مَن يُقاومُهم، فتمهَّدت له الدُّنيا وخافَهمُ القبائلُ حتّى جاءَهم منَ الله ما كانوا يوعَدون.

ولـمّا حالَفَهم على ذلك ووَثِقت به نفسُه، رَفَض بلادَه وهجَر إخوانَه وانقَطَع إلى العَرَب، إلّا أنّ أمورَ جميعِهم كانت في إدبارٍ وخَسار، إلى أنْ شَرَعوا في الحركة من مَرّاكُش عندَ سماعِهم بحركة أميرِ المؤمنينَ الرشيد من سِجِلْماسةَ في عام ثلاثة وثلاثين وست مئة على ما يأتي.

بعضُ أخبارِ الأندَلس

وفي هذه السَّنة، وهي سنةُ اثنتين وثلاثينَ وست مئة: كان توجُّه الأمير أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن نَصْر إلى مدينة إشبيلِيَة، فدخَلَها بحِيلة دبَّرها وعَمِلَها وقتَل شيخَها[1] الباجيَّ غَدْرًا ومَكْرًا، وحصَل في القَصَبة فسَكَنها شهرًا، فاجتمعَ أهلُ إشبيلِيَةَ في ليلة عيَّنوها لاجتماعِهم ورَجَعوا إليه بأجمعِهم فأخرَجوه من القَصَبة وأذاقوه نكالًا وشرًّا وطَرَدوه بالجُملة حتّى رحَل عنهم، وجدَّدوا للأميرِ أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن هود بيعةً أُخرى، فبعَثَ إليهم أخاه أبا النَّجاء سالـمًا واليًا عليهم كما كان قبلَ ذلك.

وفي هذه السنة: حاصَرَ المتوكِّلُ على الله محمدُ بن يوسُف بن هُود مدينةَ لَبْلة، وكانت للإسلام، وثار عليه بها قائدُها ابنُ محفوظ، فطال مقامُه عليها وضيَّقَ بأهلِها ولم يَقدِرْ عليها، فرحَلَ عنها ولم يعُدْ بعدَ ذلك إليها.

ذكرُ ما وقَع عليه السِّلمُ بينَ المسلمينَ والنّصارى في هذه السَّنة

لـمّا اتّصَل بابن هُود خروجُ الطّاغية أذفُونْشَ الأحولِ ملكِ قَشْتالةَ بعساكره الذّميمة إليه، وصَحَّ عندَه أنه ما عَزَم في حركتِه إلّا عليه، أقلَعَ عن حصار لَبْلةَ بجُنده وعاد بهم إلى بلادِه، فوصَلَه رُسُلُ أذْفونْش، فعقَد معَه الصُّلحَ لمدة من ثلاثة أعوام على مئة ألف دينار وثلاثةٍ وثلاثينَ ألفَ دينار، فقبَضَ منها خمسينَ ألفًا معجَّلة وباقي العدَد على الأعوام المذكورة مُقسَّطةٌ مؤجَّلة. وحينَئذٍ انصرف أذْفُونْش إلى بلادِه صادرًا، وبقيَ ابنُ محفوظ

---

(1) في ق، ك، ب: «شيخهم».

لابن هود مُنافِرًا، ووزَّع ابنُ هود المالَ المتَّفَقَ عليه معَ أذْفُونْشَ على البلاد الأندَلسيّة الإسلاميّة، ثم فَسَد الصُّلحُ بعدَ سنةٍ واحدة.

وفي سنة ثلاث وثلاثينَ وست مئة: كان دخُولُ النّصارى مدينةَ قُرطُبَةَ أعادها اللهُ للإسلام: نزَلَ أذْفُونْشُ أخزاه الله بعساكرِه الذّميمة على مدينة قُرطُبَةَ فحاصَرَها وضيَّقَ عليها، وأقبلَت نحوَه الحشُودُ من البلاد القاصِية والدّانية، إلى أنْ ملَكَها وأخرَجَ المسلمينَ منها، وهذا من أجلِّ مُصابٍ وأعظَمِه، ولكنّ الرِّضى بما قَدَّره اللهُ وأحكَم، إذ هي أُمُّ المدائن، وقرّةُ عَيْنِ الوارِد والقاطِن، فلقد حَلَّ بالأندَلس من الرُّوم ما يَلِينُ له القاسي، وتنهَدُّ له الجبالُ الرّواسي، ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

وكان أوّلَ ما أخَذَ العدوُّ قَصَمه الله شرقيُّها، ثم لازَمَها حتّى استَولَى عليها في الثالث والعشرين لشوّال من السّنة، فكان بينَ الحادث في طُلَيْطُلَةَ والحادثِ في قُرطُبَة مئة سنة وستٌّ وخمسونَ سنة(١).

رَجْع الـخَبَر إلى أمورِ الرّشيد وأحوالِه
وكيفيّةِ قفولِه من سِجِلْماسةَ وانتقالِه

وفي هذه السَّنة: شاع الخبرُ بحركة أميرِ المؤمنينَ الرَّشيد من سِجِلْماسةَ وقُصودِه إلى مَرّاكُش، ومُخاطبتِه إلى جرمونَ بن عيسى وإلى عَرَب سُفيانَ ومَن والاهُم واستنصارِه بهم على أعداءِ جميعِهم الخُلَّط، فكانت بمَرّاكُشَ أهوالٌ، واضْطَرَبت بها أحوالٌ، وشَرَع يحيى في حركته منها بجموع الخُلَّط ومَن بقيَ معَه من خُدّامه، وكان نزولُه بالمخالص وخروجُه إليه من غيرِ احتفال، وخيَّم هنالك أيّامًا، واستعَدَّ هو ورجالُه وحاشيتُه لها والأخبارُ تَرِدُ باستقبال أميرِ المؤمنينَ الرّشيد والتئامِه معَ جرمونَ وسُفيان وعَزْمِهم على الـمُصادمة والـمُكافحة. فتحرَّكَ يحيى ابنُ الناصر ومعَه ابنُ وقاريطَ وهسكورةُ والخُلَّط، وبَحرُهم زاخر ومَوْجُهم مُتلاطِمٌ وافر، فقَصَدوا أنجذام(٢) ولهم صولةٌ على الأيّام، وتصريحٌ بأنْ لا غالبَ لهم منَ الأنام، فإنّهم كانوا في قوّةٍ عظيمة وشدّةٍ لا تُرام(٣).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

(٢) هكذا في النسخ كافة، وستأتي بعد قليل برسم: «أوجذام»، ولم نقف عليها.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤، والاستقصا ٢/ ٢٤٤.

ذكرُ مقابلةِ الرَّشيد ليحيى ابن الناصِر وانهزامِ يحيى معَ الـخُلَّط وجميع أنصارِه

لـمّا قطَع أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ واديَ أُمِّ ربيع، استقبَلَهم للحرب بالعَزْم والحَزْم فألقاهم بمكانِهم بأوجذام، فكان بينَهم وبينَه قتالٌ شديد، وصبَرَ الفريقانِ صبرًا يَذُوبُ له الحديد، ثم كانت الحَرْبُ آخرَ النّهارِ سِجالًا، ولم يُجِلْ للخُلَّط فيه مجالًا، وعاد كلُّ فريق إلى مخيَّمِه، فهاجَت هنالك نفوسُ الشُّجعان، والتفَّت مقدِّماتُ الفريقَيْنِ وطلائعُهم بذلك المكان، والظّهورُ في تلك المواطِنِ للرّشيد ويحيى في إنكار وقد بَدَا له ما لم يكنْ يَحتسب، وبدَتْ منه أحوالُ الـمُضْطَرِب، لم يستقرَّ على حال ولم يزَلْ حليفَ أوجال، في كلِّ يوم بين الفريقَيْن جِلَادٌ وجِدال، فلمّا انقَضَت عشَرةُ أيام منَ اليوم الأول الذي كانت فيه الخُلَّطُ بصُورة المنهزِم، تجدَّد لِلقاءِ الأقران شوقُ الفريقَيْن، وانبعَثَتِ النفوسُ لهيجاءَ طال العهدُ بها تُصِمُّ الـمَسْمعَيْنِ وتُعمي العينَيْن، وكان بينَهم من القتال ما يَشِيبُ له الوِلدان، وشَبَّت الحربُ نارَها بكلِّ جهة ومكان، وصافَحَت الصِّفاحُ أبطالَ الشُّجعان، وتكسَّرت في النُّحور والصُّدور الذّوابلُ والسِّنان.

فبينَما هم كذلك والحربُ بينَ الفريقَيْن تضْطَرِم، والمنايا للنفوس تَختَرِم، إذْ قصدَ النّصارى أقوى جهة من جهاتِ العدوِّ فدفعوا عليه دَفْعةً شَنِيعة قَتلوا فيها خَلْقًا كثيرًا، فولَّوا الخُلَّط وأميرُهم أدبارَهم، وآثَروا على الثّبات فِرارَهم، فاتّبَعهم الأجنادُ يقتُلونَ ويأسِرون، وأخرَجوهم قَهْرًا عن كلِّ ما كانوا يَملِكون، وأسلَموا مُهجاتِهم وأبناءَهم وأموالَهم ونساءهم، وما انثنَوْا عن فِرار متّصل ليلًا ولا نهارًا، وخَرَجوا عن كلِّ نعمةٍ كانت بأيديهمُ اضْطِرارًا، وحَصَل أميرُ المؤمنين وأجنادُه وعَرَبُه على أشياءَ لا يُحِيطُ بها الوَصْف، ولو أَتَى كلُّ آتٍ في هذا بما عسى أن يأتِيَ من الشّرح لكان مُقصِّرًا، وعن مدى البلاغة في شرح هذا النبأ العظيم متأخِّرًا، وفَرَّ الخُلَّطُ على وجوهِهم خاسِرين ولم يُفلِتوا إلّا بما خَفَّ من أهلِهم وأولادِهم، وتركوا جميعَ طارِفِهم وتالِدِهم. فسبحانَ الذي أَخذَهم أَخْذةً رابية، وأوقَع بهم ما لم يُبقِ لهم من باقية. وأقام الرّشيدُ بتلك المعالِمِ الفَسيحةِ الأرجاء المتّسعةِ النَّعماء والنَّصرُ يَكنُفُه من جميع أكنافِه وأرجائه، والفتحُ العظيمُ الجَسيمُ يُبشِّرُه بما يستقبِلُه من الفُتوح الدالّة على فَضْل الله تعالى واعتنائه.

وانبسَطَت بهذا الصُّنع الكريم نفوسُ المسلمين، وانقبَضت أيّ[1] انقباض نفوسُ الأعداءِ الخاسِرين، ووَثِقوا بارتفاع الفِتن التي غيَّرت آثارَهم، وأعادت ليلًا نهارَهم، وأعدَمتْهم دَهْرًا مَرافقَهم وأسعارَهم.

وقد كان الخُلَّطُ استَوْلَوا على البلاد والرَّعية وما كان في جهةٍ من الجِهات كلِّها عاملٌ لأمير المؤمنين ولا مُشتغلٌ بمَجْبَى من الـمَجابي، حتى انطَمَس رَسْمُ الخَراج بالكُلِّية وتعطَّل بكلِّ مكان، ودَعَت لهذه العِلّة ضرورةُ الاحتياج في أوقاتٍ تقَدَّمت هذا إلى توظيفِ مال، وتعيَّنَت رجالٌ لشدّة الحاجة وتبيين أحوال الأجناد، وافتقارِهم إلى إقامة الأوَد الذي عليه الاعتماد.

ولـمّا كانوا دخَلوا معَ أمير المؤمنينَ المأمون بَلَغوا منَ الترفُّه والقُوّة والظُّهور والحصُول على الأموالِ والذّخائر ونَفِيس الوِطاءِ والغطاء ما هُو شائعٌ في العالَم ذكرُه، فاقتضَى نظَرُ الرّشيد أن يُقدِّم عُمّالًا على البلاد التي كان الخُلَّطُ أشدَّ استيلاءً عليها، وهي: صُنْهاجةُ تاسغرت ودكالةُ ورجراجة، فتَخيَّر مِن كُفاة رجالِه وخِيار عُمّالِه منِ ارتَضاه ووَثِق بكفايتِه في ضمِّ الرعيّة، وطَلَبَها بالواجبات واستخراج ما كان بأيدي الخُلَّط أعدائه، فكان في ذلك ما لا تُحيطُ به الأوهام، وأشغَلَ طلبَه عن طلبِ الجباية في ذلك الأوان، ولله تعالى وحدَه الإحاطة.

وكانت إقامتُه لذلك أيامًا حتّى كَمُل عمَلُه في هذا المهمِّ من إنفاذ عُمّالِه للبلاد وترتيبِ منازلِ عَرَب سُفيان وتحسين أحوالِـهم بمُسامحتِهم في جميع ما تحصَّل بأيديهم، وقد كانوا في ضِيق من العَيْش فاتّسعت أحوالُهم وتجدَّدت آمالُهم وكثُرت جموعُهم وانضافَ إليهم كثيرٌ من الأصناف التي كانت من إمدادِ الخُلَّط، وامتلأتِ الأرضُ بهم وهم فَرِحونَ بما آتاهم اللهُ تعالى، مستبشِرون، متيمِّنُونَ بخليفتِهم وله داعُون.

وأخذ أميرُ المؤمنينَ الرّشيدُ في الوصُول إلى حضرتِه ودارِ خلافتِه، فبادَرَ الناسُ باللِّقاء وأعلَنوا له بالدّعاء، وكان لدخولِه يومٌ شهير وحفلٌ عظيمٌ خَطير، وحَلّ بقصرِه في عزّةٍ سامية، وسعادةٍ بركاتُها نامية، قد بَلَغ أملُه في الأخذِ بثارِه، وعاد إلى وطنٍ طال العهدُ بالحُلول بقرارِه، فأغضَى عن كلِّ أحد وصَفَح وعَفَا وأحسَنَ وسَمَح.

---

(١) في ق، ك: «إلى» ولا تتجه.

واستمرَّت هُدنةُ البلاد، وعافيةُ العباد، وانحَسَمت دَواعي الفساد وأسبابُ العِناد، وعادتِ الرَّعيّةُ إلى الطاعة والوصُول إلى المشتغِلينَ وأداءِ الواجبات، وعَمُرت الـمَداشر، وارتفَعت عن الأُمة أمورٌ من المظالم التي كانت العَرَبُ يتنوَّعونَ فيها، ومُطِرت البلادُ مَطَرًا استشعَر الناسُ به الانتعاش، وحَرَثوا بنسبة الوقتِ وعُدْم الزَّرع، فإنه كان في صَدْر هذه المدّة من صَدْر عام ثلاثةٍ وثلاثين معدومًا، وما كان سببُ وُجدانِه إلا استخراجَ ما كان للخُلَّط مخزونًا في الحضرة وحَوْزِها وجهاتِها.

ووصَل في هذه السّنة جماعةٌ منَ الموحِّدينَ وأشياخِهم، وأنِسُوا بطاعة أميرِ المؤمنين، وقد كان ترَكَ أبا يعقوبَ يوسُفَ بن عليِّ بن يوسُف واليًا بسِجِلْماسةَ، وأقام الشّيخُ أبو عليّ ابنُ الشّيخ أبي محمد عبد العزيز وإخوانُهم هنالك برَسْم الأَوْبة إلى بلادِهم، وتوَجَّه موسى ابنُ الناصِر أميرُ المؤمنينَ إلى دَرْعةَ، ولم يتحرَّك من سِجِلْماسةَ أحدٌ من صِنف الموحِّدين معَ أميرِ المؤمنين، فأمّا أبو يعقوبَ يوسُفُ بن عليّ فإنه لـمّا ثارَ بمقرُبة من سِجِلْماسةَ شخَصَ من صُنْهاجةَ ما زال يُضايقُه حتّى اقتَحَمها عليه برأي من أهلِها ومساعدةٍ له، فقُتِل واليها من قِبَل الرَّشيد ودُفِن في فرناج الحَمّام، وفَرَّ الموحِّدون من هنالك ولَحِقوا ببلادِهم، وقُتل بدَرْعةَ موسى ابنُ الناصر. ولـمّا وصَل الموحِّدونَ إلى الرَّشيد وتمكَّنوا من بلادِهم وسِهامِهم وأملاكِهم وبانَ صَلاحُهم، اقتَضَتِ الحالُ إعمالَ الحركة إلى الغَرْب في طلبِ يحيى والخُلَّط، وقد كان الخُلَّطُ لـمّا انهَزَموا أخَذوا في تدبير مَصالِحِهم وأجمَعوا أمرَهم على نظَرِ الـمَصْلحة في نَكْث بَيْعة يحيى ورَفْضِه، وما زالوا يتَحيَّلونَ في إخراجِه من بين أظهُرِهم إلى أن وصَلَه بعضُ عَرَب المعقِل فأوَى إليهم طَرِيدًا شَرِيدًا لا يملِكُ نَقيرًا ولا فَتيلًا، فبقيَ عندَهم يتردَّدُ بينَهم إلى أنْ جَرى عليه حُكمُ الله السابقُ في عِلمِه فقُتل على ما يأتي ذكرُه.

ولـمّا تَشاوَرَ عَرَبُ الخُلَّط في مَصالِحِهم وأجمَعوا رأيَهم على أمرٍ لا بدَّ لهم مِن إتْيانِه، نَدَبَهم ابنُ وَقاريطَ بفُجورِه وغَدْرِه، وزَيَّن لهم قبيحَ رأيه، وحضَّهم على الاستنصارِ بابن هُود داعي الأندَلس والاستصراخ به ليَمُدَّهم بعسكرٍ من عندِه ويكونوا من حزبِه وجُندِه، ويقوموا في هذه البلاد بخِدمتِه ويُعلِنوا بطاعتِه، فاستَصْوبَ العَرَبُ رأيَه واستَجادوا سَعْيَه، وأخَذوا في تعيينِ من يتوجَّه بكتُبِهم إليه، فانتَدَبَ ابنُ وقاريطَ إلى التوجُّه بنفسِه

معَ أحدِ أولاد هلال وجماعة من وجوهِ الخُلَّط، فكلُّهم شَكَروا بِدارَه، وأظهَروا برَّه وإيثارَه، وابنُ وقاريطَ بما اشتَمل عليه من المكرِ الذي لا يُدرَكُ فيه مداه، إنّما اشتَغل بالتمهيد لنفسِه، والنّجاة برأسِه، فإنه لا يستقرُّ في الغَرْب ولا يمكِنُه استيطانُ بلادِه بمقرُبة من دارِ الأمر، فيكونَ نِصْبَ العَيْن، فاختار البعدَ والانقطاعَ في جزيرة الأندَلس على صُورةِ طلبِ الاقتصادِ والاستمداد منَ ابن هود، فتَمّ له في ذلك الوقت تدبيرُه، فتوجَّه معَ جماعة من الخُلَّط واتّصل بابن هود، فأقبَلَ عليهم إقبالًا عظيمًا وأعطاهم[1] وأنزَلَهم، واستمرَّت إقامتُهم هنالك إلى أمدِ القَبْض على ابن وقاريطَ في عام خمسةٍ وثلاثينَ وست مئة على ما يُذكَرُ في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وبقيَ العَرَبُ الخُلَّط في اختلال واضْطِرابِ أحوال ومُلاقاةِ أهوال إلى أن تحرَّك الرّشيدُ في هذه السَّنة إلى الغَرْب ففَرُّوا أمامَه وهابوا قدومَه وإقدامَه، فافتَرقوا في البلاد وتفرَّقوا في القبائل عبرةً لمن يَعتبِر وعِظةً لـمُزدجَر.

ذكرُ حركة الرّشيد إلى الغَرْب وهي الأُولى

لـمّا اجتَمع رأيُه على الحركة إلى الغَرْب، بذَلَ العطاءَ الواسعَ للأجناد، وأمَر الموحِّدينَ أن يُعيِّنوا له حِصّةً منهم على قبائلِهم، فكتَبوا له بعضًا منهم لقُرب عهدِهم بالوصُول لـمَرّاكُش، فأعطاهم برَكاتٍ وأزوِدةً وأحسَنَ لأشياخِهم إحسانًا كثيرًا، واستعَدّ لهذه الحركة استعدادًا ضخمًا، واستقبَلَهمُ استقبالًا فَخْمًا، وأظهرَ من القوّة والعُدّة والأَخبية ما يَرُوقُ منظَرُه، وتَركَ بحضرته واليًا الشّيخَ أبا عليّ ابنَ الشّيخ أبي محمد عبد العزيز برَسْم القيادة وصاحبُ الأشغال بها: أبو عبد الله بنُ أبي زيد بن عليّ بن يوسُف التينمليُّ وقاضي الجماعة: أبو زيد المكاديُّ، وصاحبُ الشُّرطة حينَئذٍ: يوسُفُ بن عثمان الـهَنْتاتيُّ[2]، فلم يُقصِّر الشّيخُ أبو محمد في ضَبْط المدينة وحِياطتِها ومباشرةِ أمورِها واستقَلّ بذلك استقلالَ مثلِه ذاتًا ومنصِبًا، والناسُ في دَعَة وسُكون والسُّبُلُ آمنةٌ والخيراتُ آتيةٌ والنفوسُ وادعةٌ مطمئنّة.

---

(١) سقطت هذه الكلمة من ق، ك.

(٢) سقطت من ق، ك.

واستقبَلَ الرّشيدُ الغَرْب وكلُّ تيسير يُياسرُه وكلُّ صُنع جميل يأتيه ويُبادرُه، تتلقّاه البلادُ والقبائل، وتَحميه القَنا والقَنابل، فقَصَد مدينةَ فاس فخيَّم بها مُقيمًا، وحَلّ منها جَنّةً ونعيمًا، ونفوسُ أهلِها شائقةٌ إلى لقائه، وقلوبُهم مجبولةٌ على حبِّه، وجَوانحُهم مُنطوِيةٌ على طاعتِه، لا تَلقَى إلا داعيًا بنَصْرِه، وضارعًا في إعلاءِ ذكرِه، ووافَقَ وصُولُه قُربَ الصائفة والبلادُ تقشعرُّ الجلودُ منَ ارتفاع السِّعر بها، فانجَلَت تلك الغَمّاءُ على عهدٍ قريب وأمدٍ يسير.

ولـمّا ألقَى بفاسَ عصَا التَّسْيار، واستقرَّ بعَرَصاتِها القَرار، ولم يكنْ بُدّ من النظَر للأجناد، وطلَبِ الـمَجابي التي في البلاد، نَظَر في الوجوه التي يَكمُل بها هذا المراد، ورجَّح من الأقوال ما فيه مَخِيلَةُ الإسعاد، فاقتضَى العَزْم، واستجَدَّ الحَزْم، ورأى أنّ الذي يَشفي النفوسَ من صَدإِ غُلّتِها ويُريحُ عاجِلًا من عِلّتِها، تقديمُ مَن لهُ قولٌ مُطاع، وقوةٌ واضْطِلاع، وحُكمٌ يُتَلقّى بالامتثال، وأمرٌ يَرِدُ فلا يُردُّ بتأوّلٍ واعتلال.

واستمرَّت المفاوضةُ في ذلك وفي النفْس ما قد تَخَلَّص ترجيحُه منَ الاقتصار بهذا الخَطْب الكبير على وزيره السيِّد أبي محمد، ثُم خَرج له بمقصودِه، وألقَى له بجميع عهودِه، وحَمْلِه[1] هذه الأمانةَ بحُسن ظنِّه فيه وتقديرِه، وتصديق ما هَجَس في خاطرِه في حال تدبيرِه.

ذكرُ حركة السيِّد أبي محمد إلى غُمارةَ ومَقْتلِ يحيى ابن الناصِر رحمه اللهُ تعالى

توجَّه السيِّدُ أبو محمد ابنُ السيِّد أبي سعيد ابن الخليفة المنصور، وتوجَّه معَه جميعُ الجُند منَ المسلمينَ والنّصارى، واستَخْلفَ على الوِزارة الشّيخَ أبا موسى بنَ عَطّوش، وأقام الأشياخُ منَ الموحِّدين بحضرة فاس، وتوجَّه معَ الشيخ أبي محمد مشتغِلًا له الشّيخُ أبو زكريّا ابن عَطّوش ومقيِّدُ أشغاله أبو العبّاس ابن هشام من خواصِّ العُمّال ونُبهائهم، وجُبيت القبائلُ الغُماريّة والفَازَازيةُ جِبايةً عظيمة حصَل الأجنادُ منها على مالٍ عظيم وكلُّ مُشتغِلٍ كذلك.

---

(١) في ق، ك: «وحملته».

وفي أثناءِ هذه الحركة سِيقَ إلى حضرة فاسَ رأسُ يحيى ابن الناصر أميرِ المؤمنين، وكان لـمّا انهزَم معَ الخُلْط صار إلى العرب في عدّةٍ قليلة ثم رَفَضوه وتَركوه وتشاءَموا باتّباعِه، فقَذَفت به الأيامُ إلى بعض عَرَب المعقِل، فأوَى إليهم فاحتَوَوْا عليه ووعَدُوه بنُصرتِه، وطلَبوا منه ظهائرَ بإعطاءِ ما لا يملِك، وتبسَّطوا في المطالب طَمَاعِيَةً في أن تعودَ له الدّنيا الـمُدبِرةُ عنه، فحَمَله سُوءُ النظَر على التوقف في تلك المطالب، فامتَلأت صُدورُ ناس منهم غَيْظًا عليه، فانتَدبَ شخصٌ لغَدْرِه وقَتْلِه، فلمّا كان يومٌ من أيام رحيلِه اغتالَه شيطانٌ منهم فخَرَّ صَريعًا، ودُفن في قلعةٍ في فَحْص يُعرَفُ بفَحْص الزّاد، وهو بينَ وادي أبي حُلو ومخاض النِّساء، وهذه المواضعُ بينَ مدينة فاس ورِباط تازا، ويُعرَفُ الفَحْصُ المذكورُ أيضًا بمقتَلةِ عامر، وهذا عامرٌ هو: ابنُ صغير، من المعقل، قُتل هنالك في فتنة.

ولـمّا سِيق رأسُه إلى حضرة فاس وَجَّه به الرَّشيدُ إلى مَرّاكُش في زِقٍّ عسَل وصَل به إلى مَرّاكُش عبدُ الرحمن بن محمد الفَكّاك المعروفُ بابن التُّرجُمان، ولم يكنْ أبو محمد المذكورُ يُعرَفُ قديمًا سوى بالفَكّاك لقبًا، ولـمّا ورَد بذلك وبكَتْب الخليفة الرَّشيد على الشّيخ أبي محمد عبد العزيز المقدَّم على مَرّاكُش جمَعَ الناسَ على طبقاتهم ومَراتبِهم وقَرأ عليهم الكتابَ الإماميَّ والرأسُ في طَسْت، ثم أمَرَ بتعليقِه على باب الشّريعة: من أبوابِ مَرّاكُش، فسبحانَ مَن لا يَحُولُ سلطانُه ولا يُرَدُّ حُكمُه ولا يتغيَّر شانُه! فلقد كان لهذا الرجُلِ في الدُّنيا من التغلُّب والتملُّك والتخلِّي ما لا يُحيطُ به الأفكار، ولله سبحانَه القوةُ والاقتدار.

وفي أثناء ذلك ورَدَ الأمرُ من حضرة فاسَ على الشّيخ أبي عليٍّ المذكور بقَتْل[1] حَسَن بن زَيْد العاصِميّ وفائد بن عامر، وهؤلاءِ كان القَبْضُ عليهم بسِعاية أبي الحَسَن جرمونَ رئيس العَرَب وشيخِهم، والأخوانِ المذكوران: فائدٌ وقائد، من رُؤساء العَرَب بني جابر، وأما العاصِميُّ فرئيسُ إخوانِه وهم شوكةُ سُفيان ولهمُ الرِّياسةُ في القديم، ولكنّها انتقَلت إلى قُرّةَ لانتقال الرِّياسة إلى جرمونَ في قديم الزمان.

---

(١) في ق، ك: «القتال»، ويأتي بعد قليل ما يعضد اختيارنا.

ولـمّا وَرَدَ على الشّيخ أبي عليٍّ الأمرُ بقتل هؤلاءِ العَرَب، وكانوا معتقَلينَ في مخزنٍ هو سِجنُ أمثالهم بالرَّحبة الكُبرى من دار الخلافة، فأُخرجَ عشِيَّ اليوم الذي وَرَد عليه الأمرُ فيه بضَرْب أعناقِ هؤلاءِ المذكورينَ، فضَرَب أعناقَهم بإزاءِ قوس يَجلِسُ فيه الوُزراءُ للخلافة، وأدخَلوا شهودًا عايَنوهم قَتْلى، وكتَبَ عَقْدًا بإنفاذِ ما أُمِر به ووجَّهه إلى أميرِ المؤمنينَ الرّشيد[1].

وفي أثناءِ هذه المدّة أمَرَ الرّشيدُ للشّيخ أبي موسى مُستخلَف الوزير السيِّد أبي محمد سَعْدٍ باستدعاءِ أشياخ الموحِّدينَ ليَأخُذَ معَهم في ردِّ ما تَصيَّر إلى رحالِـهم وذَويهم من خَيْل المعقِل الذين كانوا وَفَدوا على الحضرة واعتَدَوْا على دوابِّ الناس وانتهَبُوها بخارج فاس، فوصَل إليها الأشياخُ من الموحِّدين إلا أبا إسحاقَ ابنَ الشّيخ لأنَفةٍ أدركَتْه تَغلَّظ بها عن إجابتِه وتكلَّم بقَدْح فيه واستحقَرَه لكونِه من عامّة الموحِّدينَ من كوميّة، وهو من صِبيانِ أهل الجَماعة من هرغة.

ولـمّا نُمِي الخبرُ إلى الرَّشيد بتوقُّف ابن أمغارَ المذكور عن الوصُول للوزير نفَذَ أمرُه بسَجْن أشياخ الموحِّدينَ بموضع جلوسِهم، ثم عطَفَتْه الرّحمةُ عليهم فسَرَّحَهم وأحسَنَ إليهم، فعرَّفَهم ـ في حالٍ واحدة ـ ببطشِه وسَطْوتِه وبإحسانِه ورحمتِه، وعلى أثَرِ ذلك عاد الوزيرُ أبو محمد من غُمارةَ بالجيش الكثيف والمالِ الواسع.

وفي أثناءِ ذلك عادَ الرَّشيدُ إلى حضرته مَرّاكُش أُمِّ القرى بهذا الإقليم ومحَلِّ الخُلفاء ودارهم، وموضع قَرارِهم، ووصَل إلى هذه الحضرة على اثنينِ وعشرينَ يومًا من مدينة فاس، وكان لهذا اليوم شأنٌ مشهور، وذكرٌ معروفٌ في الآفاقِ منثور، وعادَتِ الأحوالُ كلُّها إلى نِظامها وقَوانينِها، واستقامَتِ الأيام، وشُفِيَ الإمام، واستَخْلَفَ على قواعدِ البلاد كلِّها رجالَه وعُمّالَه، وكان دخولُه إلى مَرّاكُش في صدرِ عام أربعةٍ وثلاثينَ وست مئة بعدَما قدَّم على الأمور السُّلطانية طائفةً من قَرابتِه.

وفي هذه السنة: كان أبو محمد بنُ وانُودين مقدَّمًا على دَرعةَ، وكان السيِّد أبو محمد بنُ عبد العزيز بسِجِلْماسةَ، تحيَّلَ عليها إلى أنْ حصَل بها بعدَ تمكُّن أشرارٍ فيها عندَ

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٤ باختصار.

الفتنة الناشئة بها إثْرَ خروج الرّشيد منها وقَتْل أبي يعقوبَ يوسُفَ بن عليّ بها، وقد تقَدَّم شرحُ ذلك، فما زالَ الشّيخُ أبو محمد يتحيَّلُ ويَنظُرُ وجوهَ التمكُّن منها إلى أنِ انتَهزَ فُرصةً فيها ودخَلَها الشّيخ أبو محمد بن وانودين، وخَرج عنها السيّدُ أبو محمد المذكور، ولقد كانت له فيها آثارٌ سلَكَ فيها مسالكَ الخلفاء في أمورٍ يَطُولُ ذكرُها وقام بالدّعوة الرَّشيديّة بها أبو محمد بن وانودين.

وفي سنة أربع وثلاثينَ وست مئة: عَمَر الموحِّدونَ بلادَهم ومجاشرَهم، وضَمُّوا شركاءهم وأقبَلوا على أشغالِهم وصَلاح أحوالِهم في خدمة بَواديهم وإطلاق سَواقيهم، واتّسَعت أحوالُهم وتوفَّرت آمالُهم، وقَدَّم منهم حُفّاظًا على الجهات وظَهَرت أمورُهم باديةَ الصّلاح دالّةً على النّجاح، وترتيبِ أمورِهم أيَّ ترتيب، وجَرَتِ الأحوالُ كلُّها على الاستقامةِ: أحوالُ البعيد منهم والقريب.

وفي هذه السّنة: كانت حركةُ الرّشيد إلى حضرة فاسَ أيضًا، ولـمّا اتّصَل بها وأقام وصَلتْه أرسالُ بني مَرِين، فقام بها خيرَ قيام، وضَيَّفَهم بخارج فاس، ووَصَلَهم بإحسان كثير وكُسُواتٍ فاخرة، ولم يكنْ له كبيرُ أثَر في المغربِ في هذا العام، وكانتِ الجِبايةُ بنسبتِها إلى ما كان في العام الفارِط قليلة، واستَخْلفَ على مَرّاكُش في هذه السّنة الشيخَ أبا محمد ابنَ الشيخ بن أبي إبراهيم وعاملُه عليها أبو يعقوبَ يوسُفُ الـهَنْتاتي.

وفي هذه السّنة: توفِّي الكاتبُ الجَليل أبو عبد الله محمدُ بن أبي عَشَرةَ السلاويُّ رحمه اللهُ تعالى، ودُفن بفاس.

وفيها: كان الغلاءُ الـمُفرِط الذي انتهى فيه الرُّبعُ الواحدُ من الدّقيق إلى سبعةٍ وثلاثينَ درهمًا، ولكنّ الناسَ كانت أحوالُهم تُقاومُ هذا الغلاء، فإنّ السِّلعَ كلَّها نَفَقت أسواقُها ودَرَّت أرزاقُها، وكان الدّرهمُ الواحدُ أفضلُه عشرونَ درهمًا أو نحوَ ذلك، والمَردُّ هكذا في كلِّ سوق، فما كان أحدٌ من التُّجّار ولا من السُّوقة يُبالي بتضاعُف نفقتِه معَ جزيل الفائدة العائدة عليه في تجاراته، وأربابُ الدّولة قدِ امتلأت أيديهم بالخَيْر الكثير، وكلُّ نفسٍ مستعدّةٌ للحَرث إذا أفاء اللهُ تعالى على العباد بنعمتِه وأعانَهم بِوابل رحمتِه، فإنه مِفتاحُ الأرزاق والسببُ الـمُوصِل إلى الخير، واستمرَّت حركةُ الرّشيد بقيّةَ هذه السنة المؤرَّخة.

رَجْعُ الخبرِ إلى بعض أخبارِ الأندَلس

وفي هذه السنة: امتدّت آمالُ المتوكِّل على الله ابن هُود في سَلْطنتِه بالأندَلس، وكتَبَ إلى وُلاة البلاد يأمُرُهم بالاجتهاد في مصالح العباد، أذكُرُ منها هنا بعضَ فصولِها لكثرة فروعِها وأُصولِها، فمنها بعدَ البسملة والصّلاة والدّعاء:

فصولٌ من ذلك[١]

أمّا بعدُ، حمدًا لله الذي أوضَحَ للحقِّ سبيلًا، ومَدَّ ظلَّ رحمتِه على الخَلْق ظليلًا، وجَعَلَ العدلَ بحفظ نظام الإسلام كفيلًا، ونزَّل الأحكامَ على قَدْر المصالح تنزيلًا، ونَصَب على معلَم الهُدى عَلَمًا لمن اقتَدى ودليلًا، وألهَمَ إلى ما يَرضاه عملًا ومعقِدًا وقيلًا، وصَلَواتُه الطيّبةُ وبركاتُه الصيِّبة على سيِّد العالَمين وخاتَم النبيِّين محمد رسُولِه الذي فضَّله بخَلّتِه واصطفائه تفضيلًا، وبعَثَه بالحنيفيّة السَّمْحة فبيَّنَها تبيينًا وفصَّلَها تفصيلًا، ورتَّبها كما أمَرَه ربُّه إباحةً ونَدْبًا وتحريمًا وتحليلًا، حتّى ثبتَتَ سُنّةُ الله فلن تجِدَ لها تبديلًا ولا تحويلًا، وعلى آلِه وصَحْبه الذين فَهِموا ما جاءهم به عليه السّلامُ نصًّا وتأويلًا، وأبقَوْا من سِيَرِهم الفاضلة وأحكامِهم العادلة أثرًا للمقتَفِينَ جميلًا، ومآثرَ تَسبَحُ الأفهامُ والأقلامُ في مَجاريها سَبْحًا طويلًا[٢]، وأمضَوْا عزائمَهم فيما نَسَخ[٣] لهم بالحقِّ باطلًا وبالهُدى تضليلًا، ورضوانُ الله يتوالَى على خليفتِه وحامل أمانتِه[٤] الذي كمَّل اللهُ به[٥] مُوجِباتِ الإمامة تكميلًا، وأنالَه من هَدْي النبوّة أفضلَ ما كان للهُداة مُنيلًا، سيّدِنا ومَوْلانا الإمام المستنصر[٦] بالله

---

(١) أوردها المقري في نفح الطيب ٧/ ٤٠٧ فما بعدها.

(٢) في نفح الطيب: «أساسًا للمتقين جليلًا، ومآثر للمقتفين تسبح الأفهام والأقلام في بحارها سبحًا طويلًا».

(٣) في النفح: «تنسخ».

(٤) بعد هذا في النفح: «إلى خليقته».

(٥) في النفح: «له».

(٦) في م: «المستظهر»، وفي النفح: «المنتصر» وكله تحريف صوابه ما أثبتناه، وهو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله الخليفة العباسي المشهور الذي تولى بعد الظاهر سنة ٦٢٣هـ وتوفي سنة ٦٤٠هـ كما هو مشهور في ترجمته.

أبي[1] جعفرٍ المنصورِ أميرِ المؤمنين، الـمُتبوِّئ من راحةِ[2] الشَّرف والجلالة [محلًا شريفًا][3] جليلًا، والمنتخَبِ من بُحْبوحة بيتِ الرّسالة الذي وَجَد الوحيُ عندَه مُعرَّسًا ومَقِيلًا، والدّعاءُ لديوانِه العزيز النبويِّ[4] بنَصْرٍ يأتي لإمدادِه بمَدَد الملائكة قبيلًا، وفَتْح يأتي الإيمان من الظهور بغيةً وتأميلًا.

ومنها[5]: فأوّلُ ما نُوصيكم به وأنفُسَنا: تَقْوى الله العظيم وخَشْيتُه في كلِّ حال، ومراقبةُ أمرِه ونَهْيه عندَ كلِّ انتحاءٍ وانتحال، والوقوفُ عندَ حدودِ الله التي حَدَّها وأرصَدَها بإزاءِ موجِباتِه وأعدَّها، فإنه لا يتَعدّاها إلّا مَن رامَ تعفِيةَ رَسْمِها وطَمْسَه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، والمحافظةُ على ما تُتحفَّظُ به الشّريعة، والملاحظةُ لِـما تضُمُّ الرعايا به حَوْزَةَ الحِياطة المنيعة، والـمُثابرةُ على ما تُكَفُّ به أكُفُّ الاعتداء، والمبادرةُ إلى الائتمام[6] بالسَّلَف الصّالح والاقتداء، والطريقةُ الـمُثلى، وآياتُ الله التي تُتلَى، وهدايتُه التي لأبصارِ البصائر تُجْلَى، وخَفْضُ الجناح والأخْذُ بالرِّفق والإنجاح[7]، وتوخِّي الحقِّ الذي هو أوضحُ انبلاجًا من فَلَقِ الصّباح[8]، والحِلمُ والأَناة، والمذاهبُ الـمُستحسَنات[9]، واللهَ اللهَ في الدِّماء، فإنّها أولُ ما يُقضَى بينَ الناس يومَ القيامة فيها، ولا سبيلَ إلى استحلالِـها إلا بإحدى ثلاث: كفرٌ بعدَ إيمان، أو زنًا بعدَ إحصان، أو قتلُ المسلم لأخيه، وقد قال مالكُ الخَلْقِ والأمر: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فتثبَّتوا فيها فأمرُها جليل، وتحريمُها لا يَدخُله تحليل.

---

(١) في الأصل: «أبو» لا تستقيم نحوًا.

(٢) في النفح: «ساحة»، وهو الأوجه.

(٣) زيادة متعينة من النفح.

(٤) في النفح: «والدعاء له من لدن العزيز القوي»، وما هنا أحسن.

(٥) النفح ٧/ ٤٠٩.

(٦) في النفح: «الاهتمام»، وما هنا أوجه.

(٧) في م: «الإسجاح»، وما هنا يعضده ما في النفح.

(٨) في النفح: «الإصباح»، وهو الأولى للسجعة.

(٩) بعد هذا في النفح: «والأمور البينات».

ومنها[1]: ومِمّا نأمُركم به: أن تَبحَثوا على العُمّال، ولا تُشغِّلوا[2] منهم إلا الحَسَنَ الطريقة الـمَرْضيَّ الأعمال، ومَن لم يكنْ منهم جاريًا على القوانين الـمَرْعيّة، ناصحًا لبيت المال رفيقًا بالرَّعية، وكان في أمانتِه حائدًا عن الجادّةِ السَّويّة، قائلًا كما قال قبلَه ابنُ اللّتبيّة[3]، فلْيُعوَّضْ منه غيرُه، ولْيُدفَعْ عن الجانبَيْنِ ضَيْرُه، فإنه ما كانتِ الخيانةُ في بشرٍ[4] قَطُّ إلا أهلكَتْه، وما وُضِعت في شيءٍ طبيعةُ سُوءٍ إلا مَلَكتْه، وإنّما هو مالُ الله تُرزقُ[5] منه الحُماة، وبه تُسَدُّ الثغورُ الـمُهمّات، فينبغي أن يُختارَ له مُحتاطٌ في اقتضائه وقَبْضِه، حافظٌ لدينِه ومروءتِه في كلِّه وبعضِه، فخُذوا في انتقاءِ هذه الأصناف المسمَّيْن، واطلُبوا بهذه الأوصافِ المتصرِّفينَ والمولَّيْن، واجمَعوا منَ الاجتهادِ الحميد والقصدِ والاعتماد: الأَثَر والعَيْن، وأنصِفوا منهم إنْ تظلَّم متظلِّم، واشْفُوا شكوى كلِّ مشْتَكٍ وألَـمَ كلِّ متألِّم، واعلَموا أنّ حُرمةَ الأموال بحُرمة الدِّماءِ لاحقة، وأنّ إحدى القضيتَيْنِ للأخرى مساويةٌ ومُساوِقة، ومنِ أكبرِ ما وَرَد في ذلك وأعظمِه قولُ رسُول الله ﷺ: «حُرمة مال المسلم كحُرمة دمِه». ولكنِ الناسُ في الحقِّ سواءٌ لا مُحاباةَ ولا مُفاضلة، ولا مُجاوَزةَ في تغليبِ قويٍّ على ضعيف ولا محاولة، ولا يؤاخَذُ أحدٌ بجريمةِ[6] أحد، ولا يَجْني وَلَدٌ على والدٍ ولا والدٌ على وَلَد، وكتابُ الله أوْلى بالاتّباع وأحرَى، يقولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وإذا[7] وصَلَكم كتابُنا هذا فقُصُّوه على الناس مُفصَّلًا ومُجمَلًا، وأظهِروا لهم

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤١١.

(٢) في النفح: «تولوا».

(٣) إشارة إلى حديث أبي حميد الساعدي، قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلًا على صدقات بني سُليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا مالكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: «فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا...» الحديث في البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢)، وقد وقعت العبارة في م: «قابلًا لما قبل» وهو تصحيف جد ظاهر، وما أثبتناه يعضده ما في نفح الطيب.

(٤) في النفح: «في شيء».

(٥) في ك: «الذي ترتزق».

(٦) في النفح: «بجريرة».

(٧) لو قال هنا «ومنها» لكان أحسن، فما بين ما تقدم وهنا كلام كثير، وينظر النفح ٧/ ٤١٤.

مَضامينَه قولًا وعَمَلًا، إن شاء اللهُ تعالى، وهو سبحانَه يُديمُ علاءكم ويصلُ إعادتَكم في كلِّ محمَدة وإبداءَكم، ويُجزِلُ حظوظَكم من السّعادة وأنصِباءَكم بمَنِّه وكرَمِه لا ربَّ سواه، والسلامُ. وكُتِب في الرابع والعشرينَ لجُمادى الأُولى عامَ أربعةٍ وثلاثينَ وست مئة.

وفي سنة خمس وثلاثين وست مئة: توفِّي الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن هُود، كان مقتلُه عل يدِ عاملِه ابن الرّميميِّ[١] الوالي من قِبَلِه على مدينة الـمَرِيّة في الرابع والعشرينَ لجُمادى الأُولى، فكانت دولتُه تسعةَ أعوام وثلاثةَ أشهر وأيامًا. وسببُ ذلك: أنه كان في ابتداءِ أمرِه عاهَدَ زوجتَه ألّا يتَّخذَ عليها امرأةً طُولَ عمُرِه، فلمّا مَلَكَ البلادَ الأندلسيّة وعَظُم فيها أمرُه، حصَلت بيدِه رُوميّةٌ من أبناءِ زُعمائهم ومن أجمل نسائهم، وقد كان عاهَدَ زوجتَه ألّا يتزوَّجَ عليها ولا يَسُوقَ رُوميّةً إليها، فأودَعَها عندَ ابن الرّميميِّ صاحب الـمَرِية، فكانت له في ذلك الـمَنِيّة، فاستحسَنَ ابنُ الرّميميِّ الرُّوميّةَ ومدَّ يدَه إليها وضبَطَها لنفسِه، ودبَّر وَجْهَ الحِيلة في الخَلاص من ذلك برأسِه، ثم إنّ[٢] ابنَ هُود سَمِع بخبر رُوميّتِه فاستعمَلَ حركتَه إلى الـمَرِية على عادتِه لينظُرَ منها في أمورِ القائم عليه بغَرْناطة، وهو الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن نَصْر؛ لأنه كان قد مَلَكَها في هذه السَّنة.

ولـمّا وصَل ابنُ هود إلى الـمَرِيّة بمحَلّتِه، نزَلَ خارجَها، فدبَّر ابنُ الرَّميميِّ في أمرِه وعَمِل على أن يَحلِفَ عليه ليدخُلَ معَه إلى دارِه ليقومَ بحقِّه فيها خيرَ قيام، وليَخلُوَ برُوميّتِه بعضَ أيام، فدخَل ابنُ هُود معَه فعرَّفه بأنّ الرُّوميّةَ في الحَمّام، ولـمّا جَنّ الظّلامُ عليه أدخَل أربعةً منَ الرّجال إليه فقَتلوه مطفيًا، وبقيَ أمرُه في تلك الليلة خَفِيًّا[٣].

قال أبو محمد البَسْطيّ: كان ابنُ هُود من أسلم الملوكِ صَدْرًا، وغَلَب عليه في أكثر بلادِه مَن جعَلَه في أهلِها صَدْرًا، فبالـمَرِيّة: أبو عبد الله الرّميميُّ المدعوُّ بذي الوِزارتَيْن، قضَى عليه ذاتَ ليلة بمِخَدّتَيْن أقعَدَهما على أنْفِه وفيه، وأراه بالغدِ كأنه مات فجأةً ولا أثَرَ فيه، وبمالَقة: عبدُ الله ابن زَنّون، أضرَّ بها حتى الضَّبَّ والنّون، وبغَرناطة: عُتبةُ بن يحيى

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن أبي يحيى المعروف بابن الرميمي، وقد تقدم التنبيه عليه، وينظر المغرب لابن سعيد ٢/ ١٩٩.

(٢) سقط هذا الحرف من ق، ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

الـمَغِيليُّ الخَطيبُ على ابن الأحمر بالمساوئ، ومِن أجلِه أخرَجَ منها شمسَها في الحَمَل والميزان، على مقتضًى لا ينتطحُ فيها عَنْزان، العالِـمَ العَلَم سهلَ بنَ مالك، ونَفاهُ إلى مُرْسِيَةَ في اللّيل الحالك، وآثَرَ هواهُ على حِلمِه، وأثَّر فيه على خلاف معرفتِه وعِلمِه، وبضَرْب الجَيّانيِّ ولم يَجْن، وبتركِه مَنْسِيًّا في السِّجن، حتى أغاظَ أمرُه أهلَ غَرْناطة وأضجَر، فتهيّأ محمدٌ وأبو محمد ابنا خَلَف ابن ولجر في أربعينَ رجُلًا من أهل النَّجدة، وتواعَدوا أن يُصبِّحوا على باب القَصَبة أوّل يوم من رمضانَ من السنة المذكورة، وهم بسيوفِهم مشهورة، وما ارتفَع الضُّحى إلّا وهم في القصور يَعبَثُون، وأفلَتَ حافظُها البغيِّل من رؤساءِ بني هُود، وقُتِل عُتبةُ واليها، ووجَّهوا لابن الأحمرِ ليصلَ إليها.

ذكرُ وصول الأمير أبي عبد الله بن الأحمرِ إلى غَرْناطةَ واستيلائه عليها

وذلك أنه لـمّا جَرى بغَرْناطة مِن قَتْل واليها عُتبةَ بن يحيى ما جَرى، أجمَعَ أهلُها على خَلْع ابن هُود وبيعة ابن نَصْر، فأنشَأَ البيعةَ له أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ وأبدَعَ فيما كتَب وأنشَأ، ووجَّهوها معَ أبي بكر ابن الكاتب وأبي جعفرٍ النمزوليّ[1]، وذلك في العَشْر الأُخَر لرمضانَ المعظَّم، فأقبَلَ ابنُ الأحمر إلى غَرْناطةَ وما زِيُّه بفاخر، ونزَلَ بخارج غَرْناطةَ على أن يَدخُلَها من الغدِ غُدوًّا، ثم بَدَا له غيرُ ذلك، فدخَلَها معَ غروبِ الشمس يومَ نزولِه.

قال أبو محمد البَسْطيّ: فعايَنْتُه يومَ دخُولِه بِشايةٍ[2] مُطَّلعة، أكتافُها مقطَّعة. وعندما نزَلَ بباب جامع القَصَبة وحِلِّه، وكان مؤذِّنُ المغرب في الحَيْعلة والإمامُ به أبو المجدِ الـمُراديّ، فغاب، فدفَع الأشياخُ السُّلطانَ إلى المِحراب، فصَلّى بهم على هيئة سَفرِه، بفاتحة الكتاب و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ الآية و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الآية، وهو بسيفِه مقلَّد، ثُم خَرج إلى قصر بادِيسَ ابن حَبُوس والشّمعُ بينَ الأبواب يتَّقِد، فدخَل في خاصّتِه كأنه العَرُوسُ في مِشيتِه، وفي أثناءِ ذلك بَلَغه الخبرُ أنّ ابنَ هُود أعجلَتْه الـمَنيّة بعد وصولِه إلى الـمَرِيّة، وأنّ ابنَ الرميميِّ قاتلَه قام بها وضَبطَها لنفسِه، فزَحَف إليه الأميرُ ابنُ الأحمر من غَرْناطةَ فحاصَره فيها حتّى ضاقت حالُه، وانقَطَعت آمالُه، فخَرج منها ودخَل في

---

(١) في ك: «وأبي حفص».

(٢) هو لباس حربي محشو بالقطن لوقاية المحارب (معجم دوزي).

مركَبٍ في البحر بأهلِه ومالِه، واستقرَّ بمدينة تونُس تحتَ كَنف الأمير أبي زكريّا، ومَلَكَ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن الأحمر مدينةَ الـمَرِيّة في هذه السنة، هذا ما ذكَرَه البَسْطي.

ذكرُ مُبايعة أبي بكر محمد بن محمد بن يوسُف بن هُود[1]

وذلك أنه لـمّا بَلَغَ الخبرُ إلى مُرْسِيَةَ بموت المتوكِّل على الله محمد بن يُوسف بن هُودٍ بالـمَرِيّة، وشاع ذلك في تلك البلاد الشّرقية، اجتَمع أهلُ مُرْسِيَةَ على مُبايعة وَلَدِه إذ كان وليَّ عهدِه، وتسَمَّى في الخلافة بالواثِقِ بالله، وطاعت له تلك الجهات، فما قام بأمورٍ ولا قَعَد، ولا صَدَرَ فيها ولا وَرَد، فعافَتْه النفوس، وشَمَخت عن طاعتِه الرؤوس، فأقام كذلك سبعةَ أشهر وخَلَعوه وقدَّموا فقيهَهم[2] عزيزَ بن خَطّاب وبايَعوه، وذلك في السنة الآتية بعدَ هذه.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيلِيَةَ أميرَ المؤمنين الرَّشيدَ في شوّالٍ منها بعدَما قدَّموا على أنفُسِهم واليًا السيّدَ أبا عبد الله ابنَ السيِّد أبي عِمران، فإنه كان مدّةَ ابن هُود بإشبيلِيَةَ معَ أخوَيْه: أبي زَيْد وأبي موسى، وذلك من حين أوْبتِهم في كَفالة أُمِّهم من بِجَاية بعدَ أنِ استُشهِد فيها والدُهم في الدّولة المأمونيّة حين قيام أبي زكريّا بن أبي حفص الهَنْتاتيِّ ببلاد إفريقيّةَ واستيلائه عليها.

ووصَل إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة وَفْدُ أهل إشبيلِيَة، ورُفِضت بها الدّولةُ الهُوديّة وعادت إليها الدّولةُ الموحِّديّة، وكان لأبي عَمرٍو ابن الجَدّ أثرٌ كبير في تقديم السيِّد عليهم، فولّاه الرَّشيدُ من غيرِ استبداد بنَقْض ولا تدبير، وإنّما كان الأمرُ لابن الجَدِّ المذكور الذي أخَذ بالحَزْم والعَزْم في تلك الأمور، لينالَ باستبدادِه غايةَ مرادِه، فأخرَج بني حَجّاج اللَّخْميِّينَ الإشبيليِّينَ عن إشبيلِيَةَ إلى سَبْتة.

وكان أهلُ سَبْتَةَ أيضًا قد خَلَعوا دعوةَ الموحِّدين في سنة ثلاثينَ كما تقدَّم ذكرُه، وقدَّموا على أنفُسِهم شيخًا من أشياخِهم وهو الحاجُّ أبو العبّاس اليانشتيُّ، فقام بأمرِهم خيرَ قيام إلى هذه الأيام، فهجَسَت في نفوسِهم هَواجسُ الاستبصار، لـمّا أحسُّوا بوصول

---

(١) في ق: «أبي بكر محمد بن يوسف بن هود»، وك: «أبي بكر بن يوسف بن هود».

(٢) سقطت من ق، ك.

الأجفانِ بالوفدِ والبيعة من إشبيلِيَةَ إلى الرّشيد، فاتّفقوا على عودتِهم وتجديد بيعتِهم له في هذه السَّنة، وكان وصُولُ الوَفْد من إشبيلِيَةَ إلى مَرْسَى مازيغانَ في جَفْنَيْنِ كبيرَيْن من أُسطول إشبيلِيَةَ، ووصَل معَهم أصنافٌ من الناس، فلمّا وصَلوا حضرةَ مَرّاكُش وقَدِموا على الرّشيد، كان لقدومِهم شأنٌ عظيم ونالوا به التفضيلَ والتكريم، وامتلأت النفوسُ مسَرّةً بانتظام الدّعوة بالعُدوتَيْن، وشاعَ الخبرُ بما كان في سَبْتَةَ أيضًا، وقُرئتِ البَيْعةُ الإشبيليّةُ وأُنشِدتِ الأشعار، وكثُر الفَرَحُ والاستبشار، وخَطَب الخُطباء وأفصَحَ الأُدباءُ النّثرَ والنَّظم، وعمَّتِ المَسَرّةُ نفوسَ الوافدين وأُنزِلوا منازلَ الترحيبِ والتقريب ووَرَدوا مواردَ الإحسان، وضُيِّفوا بأنواع التضييف على مَراتبِهم ومَنازلِهم، وفُرِشَتِ الدّيارُ لهم، والبِرُّ يجمَعُهم ويشمُلُهم، وقد كان الناسُ طال عهدُهم بهذا الفتح الأندَلسيِّ الذي تَصغُر عنه الفتوحات، فشَمَلت المسَرّاتُ كبيرَهم وصغيرَهم، ولم يبقَ سوقٌ من الأسواق إلّا جَمَع أهلَها للنّزاهات، وابتاعوا رؤوسَ البقرِ والغَنم والفواكه، وخَرَجوا إلى بحائرِ الحضرة، وذلك على ترتيبِ الأسواق وأهل الصنائع، وجاء الخبرُ بقَبْض أهل إشبيلِيَةَ على ابن وقاريطَ المُنتَزي إليهم حسبَما تقَدَّم ذكرُه، قصَدَ بذلك أهلُ إشبيلِيَةَ إظهارَ خِدمتِهم وتكفيرَ ما كان من خروجِهم عن الدّعوة وتقريرَ حبِّهم في الطاعة التي قادَهم إليها الاستبصارُ والاهتداء، فكان أَخْذُ ابن وقاريطَ من الفتح الذي أربَى على فتح إشبيلِيَةَ، لعَداوتِه القديمة وفتنتِه التي كان فيها كلُّ الإمعان، وكان أَخْذُ[1] عُمر[2] بن وقاريطَ في سنة أربع وثلاثينَ حين كان بإشبيلِيَة.

خبرُ غَدْر ابن وقاريطَ لمدينة سَلَا في هذه السّنة

ولقد كان عُمر بن وقاريطَ في سنة أربع وثلاثينَ حين كان بإشبيلِيَةَ معَ ابن هُود والرّشيدُ إذْ ذاك بفاسَ، وصِهرُه الفقيهُ المكرَّم أبو العُلى بِسَلَا معَ زَوْجِه الحُرّة فاطمةَ بنت أميرِ المؤمنين المأمون أُختِ الرَّشيد، فلاحَت لابن وقاريطَ فُرصةٌ في الهجوم على سَلَا وأَخْذِ السيِّد أبي العُلى وزَوْجِه الحُرّةِ فاطمة، والاستحواذِ على البلد من رِباط الفتح، وقرَّب

---

(١) سقطت من ق، ك.

(٢) في ق، م: «عمرو»، وهو تحريف، وينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤... إلخ.

هذا الـمَرامُ البعيدَ في نَفْس ابن هُود، وطلَبَ منه إعانتَه بجَفْنَيْنِ مُعدَّيْن ليدخُلَ بهما واديَ سَلَا ويتمكَّن بمَن معَه من الغَزاة من مُرادِه، لعلمِه بخَلاء البلدَيْن من صِنف الأجناد وخصوصًا رِباطَ الفتح، حيث القَصَبةُ العظيمةُ واستقرارُ الوالي، فأعانَه ابنُ هُود بما أرادَ وأمَدَّه بما شاء، فقَصَد ابنُ وقاريطَ سَلَا، وتصَوَّر لهُ بعضُ مرادِه، وحصَل في الوادي، وكاد أن يَملِكَ رِباطَ الفتح، ولو ملَكَه لَحَصَل على معقِل الدُّنيا ارتفاعًا ووَثاقةً ومَنَعة، فاشتدَّ الناسُ إليه وتكاثَروا من البلدَيْن عليه إلى أنِ اضْطُرَّ إلى الخروج عن الحِلَق[1] والتخلِّي عن البلدَيْنِ وقد أثَّر بعضَ التأثير.

فلمّا سَمِع الرّشيدُ هذا الخبرَ وطارت إليه طَيّاراتُ الاستعجال به، قام وقَعَد، وعيَّن مِن فِتيانِه وخاصّتِه وعُلوجِه وبعض رجالِه أعدادًا لتدارُكِ رِباط الفتح لإيصال أُختِه وأُمِّه إليه في جَزَع شديد وأمرٍ كبير، فيسَّر اللهُ مقصِدَهم بتوجُّه الحُرّة فاطمةَ إلى فاس، فكان هذا السببُ الحديثُ عهدُه من أشدِّ الأُمور على ابن وَقاريطَ حين أَخْذِه، فعَظُمت المَسَرّةُ بالقَبْض عليه للانتقام منه، وكان في هذا كلِّه من التيسير ما فيه دليلٌ على عناية الله تعالى وما أراد من المسلمينَ من الخيْر والاتّصال والانتظام، فكلٌّ[2] ذلك يسيرٌ في قُدرتِه، فإنه يفعلُ ما يشاء.

وبعدَ أيام وصَلت[3] بيعةُ أهل سَبْتَةَ[4] أيضًا، وصَل بها وجوهُ أهل سَبْتَةَ وأعيانُهم لمدينة مَرّاكُشَ للرّشيد، فتكامَلَتِ المَسَرّات[5] وترادَفَتِ الفتوحات، وقَبَض أهلُ سَبْتَة على اليانشتيِّ وابنِه، وأدخَل أهلُ سَبْتَةَ السيِّدَ أبا العبّاس ابنَ السيِّد أبي سعيد، وكان معَ ابن عبد الله بن أبي يالول بأحوازِ غُمارة ووصَل معَ ابن أبي يالول، وأُدخِلَ البلدَ أيضًا إبراهيمُ بنُ مسعود الكُوميُّ، وأعلَن أهلُها بدعوةِ التوحيد.

---

(١) في ق، ك: «الخلق».

(٢) في ق، ك: «فكان».

(٣) في ق، ك: «حصلت».

(٤) من هنا إلى قوله: «وأعيانهم» سقط من ق.

(٥) في ق، ك: «المسرّة».

ولـمّا وصَل وَفْدُ سَبْتَةَ بالبيعة، استُحضِر كافّةُ الناس لقراءتِها، وتكلَّم الناسُ على طبقاتهم في علومِهم وآدابِهم وأشعارِهم، وكان أيضًا منَ الاعتناءِ بهؤلاء الوافِدينَ ما حقَّق رجاءهم ووسَّع آمالَهم، واجتَمعتِ الوفودُ من أهل إشبيلِيَةَ وسَبْتَةَ وغُمارةِ البحر منَ البلدَيْن، ووافَقوا الصَّيفَ بمَرّاكُش ومِزاجُها الانحراف وهواؤها رديءٌ بكثرة الأمطارِ من الجَدْب الذي كان تقَدَّم أعوامًا، فكثُرتِ الرُّطوبةُ وحَدَث الوباء، فتغيَّرت أحوالُ أهلِها فضلًا عمّن سِواهم لا سيّما أهلُ البحر، فنزَلَ الوباءُ بهم وقَتَل منهم عددًا كثيرًا، ومَرِض الأشياخُ الوافدونَ كلُّهم من أهل سَبْتَةَ وإشبيلِيَةَ، فأوسَعَ لهمُ الرَّشيدُ في العطاء، وربّما زادَ في المال والكُسَى على عشرينَ ألفًا من الدّنانير، واشتَدّ الـمَرَضُ على الأشياخ حتى لَقد فَرَّ من السَّبتيِّينَ البَطَرْنيُّ شيخُ سَبْتة ونظائرُه خوفَ الموت، فماتوا في الطريق بمقرُبة من الحضرة، ولم يرجِعْ من غَزاة البلدَيْن العُشرُ الواحد، فكان ذلك عبرةً للمعتبِرين وعِظةً للمزدجَرين.

ذكرُ القَبْض على عُمرَ بن وقاريطَ المذكور وحَمْلِه من إشبيلِيَةَ إلى أَزمور

ولـمّا انقَضَت هذه المحاولاتُ وانتَظَمتِ المسَرّات، وعادتِ الأجوِبةُ بشُكر المقاصد، وسعادةِ المصادرِ والـمَوارد، سِيق ابنُ وقاريطَ من إشبيلِيَةَ في قطعة، وكان أكبرَ أسبابِ القَبْض عليه: أبو عبد الله المومنانيُّ[1] من أهل فاس، من الفقهاءِ الأذكياء الذين لهم أخبارٌ وأحوال، وكان بإشبيلِيَةَ وله خدمةٌ للدّولة المأمونيّة بها، فتحرَّك من إشبيلِيَةَ إلى تحريض أهلِها على توجيهِه، وأنّهم ما يُتحَفُونَ بتُحفة أطرفَ منها، ووصَلتِ القطعةُ بابن وقاريطَ إلى أزمورَ فقَبَضَه الشّيخُ أبو زكريّا ابن عَطّوش المشتغِلُ هنالك، وكان قبلَه

---

(١) هو محمد بن عيسى بن مع النصر بن إبراهيم بن دوناس، أبو عبد الله، نزل بعض سلفه بني مومنان من حوز فندلاوة فنسب إليه، وسيأتي بعد قليل تلفه مع أبي حفص، وله ترجمة في أعلام مالقة (٥١)، والتكملة لابن الأبار (١٧٤٨)، وصلة ابن الزبير ٣/ الترجمة (٢٣)، والذيل لابن عبد الملك ٥/ ٢٤٩، والمستملح للذهبي (٣٥٣)، وتاريخ الإسلام، له ١٤/ ٣٠٣، وابن القاضي في جذوة الاقتباس ١/ ٢٥١ وغيرها.

بأزمورَ الشيخُ أبو محمد بن ماكْسِن، ولكنّه وُجِّه إلى سَبْتَةَ وديوانِها وأعمالِـها عند وصول بيعتِها لِقِدَم له في الخدمة ووسائلَ كان بها مبرورًا محفوظًا.

وكان بأزمورَ جماعةٌ من الخُلَّط مساجِن، منهم: عليُّ بن هلال ووِشَاحُ بن هلال وجماعةٌ من أعيانِهم قَبَضَ عليهم أميرُ المؤمنين عندَ قُفوله من فاس في صَدْر هذه السّنة على أنهم مَراهن، واشتَغَلَ بالتحيُّل على سائرِهم والقَبْض عليهم، فإنّهم ضاقت ببُغيتِهم الأرض فلجَأوا إلى عفوِه، ولكنّه عزَمَ على استصفائهم فألحَقَ ابنَ وقاريطَ بهم وبَنَى عليه في موضع سجنِهم وسَجَنَه ببيت صغير ليس له فيه تَزحزُح من مكانِه، واستوثَق منه الحديدَ الثّقيل وبقيَ هنالك أيامًا.

وفي أثناءِ هذه السّنة استَجْلبَ أميرُ المؤمنين الخُلَّطَ وأنّسَهم وبَسَطَ آمالَهم واستَدْناهم وأنزَلَهم بتانسيفت، فكان بذلك مخيَّمُهم إلى أن أحكَمَ التدبيرَ في أخْذِهم، فلمّا عزَمَ على ذلك وأمضَى رأيَه فيهم استَدعَى أشياخَهم عن آخِرهم، وسَجَنَهم، ووجَّه الأجنادَ إلى دواويرِهم فأتَوْا على ما فيها وما بقيَ لهم مالٌ ولا نفْس، وامتلأت أيدي الأجنادِ والناس من أموالِـهم، وسِيقَ النِّساءُ والذُّرِّية إلى حضرة مَرّاكُش فامتلأت منهم الأسواقُ والسِّكَك من كلِّ[1] عذراءَ ما تجاوَزَت قطُّ خِدْرَها وما كان في ذلك من الشّناعة ما رَقَّت النفوسُ به إليهم، وتساوَت الحُرّةُ العربيّةُ الصَّريحة والأَمَةُ في العبوديّة، ثم نَادَى الـمُنادي بأنْ لا يُمَدَّ يدٌ إلى امرأةٍ ولا طفل ولا صغير، وحُشر النّساءُ والذُّرّيّةُ بدار الأشراف، فضاقت عليهم وامتلأت رِحابُ الجامع، وتعطَّف الناسُ عليهم وأحسَنوا إليهم، وأُذِن لأعدائهم من سُفيانَ وبني جابرٍ في سِتْر بناتِ الخُلَّط كبيرِهم وصغيرِهم، وهذه من أكبرِ النّكايات وأعظم الـمُصيبات[2].

ذكرُ مقتَل عُمرَ بن وقاريطَ رحمه اللهُ تعالى

ولـمّا فَعَل أميرُ المؤمنينَ الرَّشيدُ ما فَعَل بالعَرَب، أمَرَ بقَتْل مَن في أزمورَ من أشياخِهم، وأن يُعجَّل بأمساخِهم، فحُزَّت رؤوسُهم، وفُقدت نفوسُهم، وحُملت جملةُ

---

(١) سقطت من ك.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

الرؤوس في خُرْج على جَمَل ورُكِبَ عليها ابنُ وقاريطَ عِوَضَ فرسٍ وسَرْج، وحُمِل إلى مَرّاكُش على هذه الحالة، فوصَل إليها وقد قرَّب اللهُ إلى الأخرى ارتحالَه، فبقيَ ساعةً بخارج المدينة والناسُ ينظُرونَ إليه، ويصُبُّونَ اللّعنةَ عليه، ثم أُدخِل إلى السِّجن فبقيَ به أيامًا، ثم أمَرَ الرَّشيدُ بقَتْله وتعليقِه على باب الشّريعة أحد أبوابِ مَرّاكُش، فسبحانَ مَن لا يفنَى دوامُه! فلقد كان ليثًا يزأر، وبحرًا يزخَر، فجَرَع كأسَ حِمامِه، ورَماه الدّهرُ بسهامِه، فتوطَّدت للرَّشيد المملكةُ وتَرادَفَت المسَرّات، وأَتَتْه من كلِّ جهة البِشارات، بما شاء اللهُ من الفتح وأراه من النُّجح، وكانت هذه السّنةُ سنةَ خِصب وخَيْرات وتتابُع مسَرّات، انتهى القمحُ بمَرّاكُش إلى ثلاثة أمدادٍ حَفْصيّة بدرهم، وتنافَسَ الناسُ في شراءِ الأسباب والثِّياب، حتّى لقد بيعت شُقّةٌ بثمانينَ دينارًا من هذه الدّراهم، وذلك لاتّساع الأحوال والآمال، فقد كان الناسُ تَوالَت عليهم أمورٌ وأحوال يَطُولُ أمرُها ويثْقُلُ ذكرُها، ولكنّ اللهَ سبحانه مَنَّ بالفضل وامتدادِه، والله لطيفٌ بعبادِه(١).

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ وست مئة: وصَلت بيعةُ أبي عبد الله محمد بن يوسُف بن نَصْر للخليفة الرَّشيد، وكان يَذكُرُ اسمَه في كتُبه ويدعو له في خُطَبِه، فقَنِع منه بذلك، وبقيَ على هذه الحالة إلى سنة أربعينَ حين وفاةِ الرَّشيد. ووَلَّى الرَّشيدُ على سَبْتَةَ أبا عليّ بنَ خلاص، فكان ذا وفاءٍ وإخلاص(٢).

وفي هذه السنة: ثار ببلادِ السُّوس ثائرٌ يُدعَى بابن ياوجي، في حِصن تيوينوين، واستَدعَى الناسَ إليه فأجابه كثيرٌ منهم، فسَمِعت به عَرَبُ المعقِل فأقبَلوا إليه وطلَبوا منه الاجتماعَ به ووَعَدوه بالنّصرِ والإعانةِ على ما أخَذ فيه، فخاف منَ الخروج إليهم واستدعاهم ليجتمِعوا به في الحِصن المذكور، وكان صاحبَ البلاد السُّوسيّة أبو محمد ابن أبي زكريّا بن أبي إبراهيم، فما زال يَبذُلُ العطاءَ عليه إلى أنِ اغتالَه جُزوليٌّ بدَسِيسةٍ إليه، وذلك أنه لـمّا دخَل عَرَبُ المعقِل إلى الحِصن نَعَق ناعقٌ بأنه يريدُ بإدخالِـهم التغلُّبَ على الحِصن والتمكُّنَ من أهله وإخراجَهم منه، فتقدَّم إليه شيخٌ من جُزولةَ وضَرَبَه فقتَلَه

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

فسَمِع بمصرَعِه هلالٌ فرغَّب ناسًا في قَطْع يدِ الثائر المقتول، فقطع له واحتَمَلَه سريعًا إلى أبي محمد بن أبي زكريّا وأخبره الخبرَ، فضُربتِ الطّبولُ على قتلِه، فتحرَّك خاطرُ أهله، وكانوا يظُنّونَ أنه غيرُ ملتفِت، فقَطَع رأسَه الجُزوليُّ قاتلُه وجعَلَه في قُفّة وتوجَّه به معَ بعض أصحابِه إلى مَرّاكُش، ولم يمرَّ هذا الفريقُ على تارودانتَ لقديم عِصيانِهم ووَفَدوا على أميرِ المؤمنينَ الرَّشيد فهنَّأوه بقَتْله. فنُظِمت الأشعار وقُرِعَت الطُّبول وعمَّ السُّرور، وعُلِّق رأسُه على باب الشّريعة معَ رؤوس الثوّار المتقدِّم ذكرُهم، واستَدعَى الرَّشيدُ القُفّةَ التي سِيق فيها رأسُ الشّقيِّ المذكور، فأخرَجَها مملوءةً دراهمَ لسائقِه جزاءً وثوابًا، وانصَرفوا بخيرٍ كثير واسع، فإنّ الدراهمَ لم تكنْ في أوعِيَة، إنّما صُبَّت في القُفّة المذكورةِ صَبًّا.

والحديثُ شجون، وذلك أنّ هذا الحِصنَ على قديم الزّمان مجبولٌ مَن فيه من أهله على الشِّقاق والارتداد، وقد كان في الفتح الأوّل في عهدِ الخليفة عبد المؤمن ما اشتُهر خبَرُه، فإنه أقام عليه زمانًا وهم على طُغيانهم وعِصيانهم، ولفَتْحِه خبرٌ مشهور ذكَرَه البَيْذَقُ وغيرُه، ثم لم يزَلْ مخيِّمَ كلِّ مَن في نفسِه شِقاق أو نفاق. وفيه خَرَج على الموحِّدينَ المشهورُ بأبي قَصَبةَ، وكان مُولَعًا بالسِّحر، ولم يبقَ من الموحِّدين أحدٌ في حال ثورتِه إلا استقرَّ بهذه البلاد في قتالِه، ولقَتْله بعدَ الـمُدّة الطائلة نبأٌ معروف، وعُلِّق رأسُه على باب الشّريعة. وبعدَ ذلك التاريخ: وصَل مَرّاكُش رجلٌ يقال له: عبدُ الرّحيم ابن الفَرَس من أهل الأندلس، فقيهٌ عالِـم، ذكَرَه ابنُ عبد الملك الـمَرّاكُشيُّ في «التكملةِ والذَّيل» له، ولكنْ جَرى عليه القدَرُ الذي لا يُرَدّ وترَكَ الناسُ حينَئذٍ الرّوايةَ والأَخْذَ عنه، فكان يمُرُّ على رأس أبي قَصَبة وهُو معلَّقٌ فيَندُبُه ويتحسَّرُ عليه، ثم حَمَلتْه الأقدارُ إلى هذه البلاد السُّوسيّة، فثار في هذا الحِصن، واجتَمع إليه الناسُ وامتَنَع به وأعانَه أهلُه بأموالهم، فأُعمِلَت الحِيلةُ أيضًا في حَسْم عِلّته إلى أنِ اغتيلَ وقُتل، فسيقَ رأسُه وعلِّق بإزاءِ رأس أبي قَصَبة، وفي هذه عبرةٌ ودِلالة على نفوذِ إرادة الله بإلهام ابن فَرَس للوقوف على رأس أبي قَصَبة وإدامة النّظَر إليه إلى أن جمَعَت القُدرةُ بينَهما. فشأنُ هذا الحِصن في الضّلال والارتداد قديمٌ وحديث، وسيأتي بعضُ خبرِه أيضًا وخبرِ عليِّ ابن يدّرَ في أواخِر هذه الدّولة الموحِّدية إن شاء اللهُ تعالى.

وفي هذه السنة: نازَلَ العدوُّ مَلِكُ أرغونَ مدينةَ بَلَنْسِيَة، وكان صاحبَها زَيّانُ بن مُرْدنيش[1]، ثم وصَلت الأجفانُ من تونُس بالإغاثة لأهل بَلَنْسِيَة، فوجَدوهم محصورين، فكتَبوا بذلك للأمير أبي زكريّا رابعَ محرَّم من عام ستة وثلاثينَ وست مئة.

وفي ذلك اليوم بعينِه: بايَعَ أهلُ مُرْسِيَةَ لابن خَطّاب وتلقَّب بضياءِ السُّنّة، وكان فقيهًا عالِـمًا. وكان وصَل من تونُس في الأساطيلِ المذكورة أبو يحيى ابنُ الشّهيد الهَنْتاتي بمالٍ ناضٍّ ليدفعَه لأبي جميل، فلم يجدْ مَن يقبِضُه منه لكوْن أبي جميل[2] كان محصُورًا، فرجَعَت الأساطيلُ المذكورةُ في الثانيَ عشَرَ من محرَّم من السّنة، وتَركوا ما سوى المال الناضِّ من الأطعمة والأسلحة وغيرِ ذلك بدانِيَة.

وفي هذه السنة، في يوم الـجُمُعةِ السابعَ عشَرَ من صَفَر: خَرج أبو جميل زَيّانُ بن مُرْدنيشَ من بَلَنْسِيَةَ بجُمهور المسلمين، واستَولَى العدوُّ عليها ودخَلَها ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليِّ العظيم. وحدَّثَ مَن شاهَد حِصارَها أنّ القمحَ كان يُباعُ بها ستةُ أواقٍ بدرهم والشّعيرُ اثنتا عشْرةَ[3] أوقيةً بدرهم، ولـمّا أخَذ المسلمونَ في الخُروج منها بِيعَ الدّقيقُ بها أحَدَ عشَرَ رِطلًا بدرهم، ووقَعَ الصُّلحُ على دانِيَة وقليرةَ إلى مدّة من خمسة أعوام، وقيل: سبعة أعوم.

وفيها: ركِبَ أبو عبد الله بنُ الأحمر من غَرْناطةَ إلى موضع الحَمْراء وأجالَ فيها نظَرَه وخطَّ أساسَ الحِصن وجَعَل فيه مَن حفَرَه، وما تمّت السَّنةُ إلّا والحِصنُ مشيَّدُ البناء حصينُه، وقد جاءه من ماءِ الوادي برَفْع سدٍّ وحَفْر ساقية معينُه.

وفيها: وَفَد على[4] ابنِ الأحمر وجوهُ أهل مالَقة ببَيْعتِهم إليه، فقَدِموا بها غَرْناطةَ عليه، وكانت البيعةُ من إنشاء ابن عَسْكر[5]، وكان في العِلم والأدب مشهورًا يُذكَر،

(١) ينظر نفح الطيب ١/ ٣٠١ و٢/ ٥٩٠ و٣/ ٤٨٨.

(٢) في م: «ابن جميل»، وهو تحريف، و«أبو جميل» هي كنية زيان، كما سيصرح به المؤلف بعد سطرين!

(٣) في م: «اثنا عشر»، وهو تحريف.

(٤) في م: «علي»، وهو تحريف.

(٥) هو محمد بن علي بن عبيد الله الخضر بن هارون الغساني المعروف بابن عسكر المتوفى في هذه السنة، وهي سنة ٦٣٦هـ وترجمته في أدباء مالقة (٥٠) وهي ترجمة رائقة، والتكملة لابن الأبار (١٦٨١)، والمغرب لابن سعيد ١/ ٤٣١، والذيل لابن عبد الملك ٤/ ٤٩٢ وتعليقنا عليها.

فقلَّده ابنُ الأحمر قضاءَ مالَقة، وسِيق إليه وإليها ابنُ زَنّون أشرَّ سَوْق، فأذاقَه من العذابِ أمرَّ ذَوْق، وكان قَدَّمه عليها ابنُ هُود، ثم أُعيد إليها بعدَ عذابِه ونكاله فسُجن بها واستُصفيَت أحوالُه فذَبَحَ نفسَه في سِجنِه نسألُ اللهَ العافية من شرِّ هذه الدنيا ومِـحَنِها، وأولُ مُشرفٍ قتَله في حمرائه إثْرَ بنائه: أبا محمد بنَ عَرُوس مُشرفَ الـمَرِية، ضَرَبَه بالسِّياط حتى وافَتْه الـمَنيّة، وذلك تحتَ الأصبحيّة، وكم من مُشرفٍ قُتلَ بعدَه لم يُحرِّكْه للإبقاءِ عليه ريحُ الأريحيّة، عَفَا اللهُ عنّا[1] وعن جميعِهم بمنِّه.

وفي هذه السنة، يومَ الثلاثاء مُنسلَخ رجَبٍ الفَرْد: رفَعَ أبو عبد الله ابنُ الأبّار قصيدتَه السِّينيّةَ التي أولُـها [من البسيط]:

أدرِكْ بخيلِك خَيْلَ الله أندَلُسا   إنّ السّبيلَ إلى مَنْجاتِـها دَرَسا

رَفَعَها إلى حضرة الأمير أبي زكريّا يَستصرِخُه فيها لنُصرة الأندَلس ويصفُ سُوءَ الأمرِ بها[2].

اختصارُ الخبر عن كيفيّة رُوْم جَنْوَةَ
الذين راموا دخولَ مدينة سَبْتَةَ عَنْوة

وذلك أنّهم لـمّا وصَلوا إلى سَبْتَةَ في مَراكبهم برَسْم محاولاتِ تجاراتِهم، فاجتَمع منهم في ديوانِها ورَبَضِها عددٌ كثير، فرامُوا التغلُّب عليها بتحيُّلاتهم وإراداتهم، فخيَّب اللهُ سَعْيَهم فيما رامُوه من التحيُّلات، وأكذبَتْهم نفوسُهم بما خَيَّلت لهم من التخيُّلات، وذلك أنه لـمّا عَلِم بذلك صاحبُها الحاجُّ أبو العباس اليانشتيُّ كتَبَ إلى القبائل الساكنة عليها، والراجعة في الحُكم إليها، فعرَّفهم بتلك الأمور، وأمَرَهم بالوصُول إليه، والقدوم بجُملتهم عليه، في يوم معيَّن معلوم، وهذا الأمرُ عندَه منَ الجُمهور مكتوم، فلمّا كان في اليوم المذكور خَرج لِلقائهم أبو الحَسَن ابنُ اليانشتيِّ فألفاهُم في جموع لا يُستطاعُ إحصاؤُهم.

---

(١) قوله: «عنّا و» سقط من ق، ك.

(٢) تنظر مقدمتنا للتكملة الأبارية.

وعندَ خروج وَلَد صاحب سَبْتَةَ إليهم، فَهِم النّصارى أنّ الدائرةَ عليهم، فأبْرَموا أمرَهم طامِعينَ فيما أمَّلوه، وزَحَفوا بجموعهم إلى الباب لعلّهم يَملِكوه[1]، فبينَما هم بمقرُبة منَ الباب يحاولونَ إليه المسير، إذ لم يبقَ بينَهم وبينَه إلا شيءٌ يسير، إذ أقبَلَت عليهم عساكرُ البَرْبر داخِلينَ على الباب، فكَسَروهم وقَتَل كلُّ واحد منهم مَن قَتَل منَ الرُّوم وما صبَرَ ولا دَبَر، فقُتل النّصارى في ذلك اليوم قتلًا ذَريعًا وقُطِّعوا تقطيعًا، وتحكّمتِ السّيوفُ والرِّماح من كلِّ مفرِق لهم ونَحْر، ومَن سَلِم من القَتْل رمَى بنفسِه عائمًا إلى الأجفانِ في البحر، وانتُهِبت أموالُهُمُ التي في فنادقهم أيَّ انتهاب، والتَهَبتِ النارُ في سِلَعِهم وسلاحِهم كلَّ التهاب، واحتَوت البَرْبرُ والسُّوقةُ وغُزاةُ البحر وغيرُهم على جميع ما كان في الفنادق من أسبابِهم، وما خَلَص للنِّيران من أموالِـهم، وأخَذَت كلُّ يدٍ ما ملَكَت من أيِّ شيء وَجَدت أو عليه سَلَكت، وعَلِم مَن كان في تلك الـمَراكب مِن أهل مِلّتِهم أنّ المنيّةَ قد نزَلَت بجُملتهم فأخَذوا في الإقلاع من مَرْسَى سَبْتَةَ يُنادُونَ: الفِرارَ الفِرار! فلمّا وصَلوا إلى إخوانهم أعلَموهم بقصّتِهم وشأنِهم، فاجتَمعوا في نحو مئة مركَب ويمَّموا سَبْتَةَ لحصارِها، والمبالغةِ في إضرارِها، فلمّا وصَلوا إليها نَصَبوا الـمَجانيقَ عليها فنصَرَها اللهُ وعصَمَها منهم، ثم وقَع الصُّلحُ بينَهم على أن يُعطيَ أهلُ سَبْتَة للرُّوم مالًا معلومًا من جُملة ما مضَى لهم، فدَفَعه لهمُ اليانشتيُّ من مال المخزَن، وأقلَعوا عنهم وأراح اللهُ بفضله منهم.

وكان عامُ جَنْوةَ عندَ أهل سَبْتَةَ مشهورًا، وفي تواريخِهم مذكورًا، وكان ذلك عامَ ثلاثةٍ وثلاثينَ وست مئة، وقيل: في سنة ستٍّ وثلاثين[2].

وفي هذه السنة، في يوم الجُمُعة السادسَ عشَرَ لشهر رمضانَ المعظَّم: دخَل الأميرُ أبو جميل مُرْسِيَةَ على رِضًى من أهلها، وخَطَب بها للأمير أبي زكريّا صاحب تونُس، وقَبَض على عزيز بن خَطّاب وقتَلَه ليلةَ الثلاثاء الـمُوفي عشرينَ من شهر رمضانَ المعظَّم المذكور، وانتَظَمت البلادُ الشَّرقية[3] برِّ الأندَلس للأمير أبي زكريّا: من جزيرة شُقْرَ إلى مُرْسِيَة.

---

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «يملكونه».

(٢) ينظر الاستقصا ٢/ ٢٤٤.

(٣) في ق، ك: «المشرقيّة».

وفي سنة سبع وثلاثينَ وست مئة: كان الغلاءُ الـمُفرِط والـمَجاعةُ العظيمةُ بمدينة سَبْتة، حتّى عُدِم فيها الطّعامُ بالكُلِّية في هذا العام، وكانوا يسمُّونَه بعام سبعة، وهو مشهورٌ عندَهم يتَمثَّلونَ به بينَهم، ومن هذا العام صار أهلُ سَبْتَةَ يختزنونَ الطّعامَ في الـمَطامير في كلِّ عام حيطةً على أنفُسِهم من مِثل هذه الـمَجاعة التي لم يُعهَدْ مثلُها في الأعوام الفارِطة قبلَها عصَمَنا اللهُ من مثلِها بفَضْله. وكانت أكثرُ بلاد الغَرْب غاليةَ الأسعار، بسبب كثرة الفتن وقلّة الأمطار، في تلك الأقطار، وبسبب عُدْم الحُماةِ والأنصار، لتلك الجهاتِ والأمصار، فقد كان أهل تلك البلاد اشتَعَلت بالفتن نارُهم وقلَّت حُماتُهم وأنصارُهم، حتّى اشتدَّت حالُهم وتكاثَرت أوجالُهم بسببِ ما كان بينَ أُمراءِ الموحِّدينَ من الحروب والوقائع، والفتن والزَّعازع، واشتغالِـهم عنهم بأمورهم وأحوالهم في حَضْرتهم الـمَرّاكُشيّة في الدّولة المأمونيّة وفي أوائل الدّولة الرَّشِيديّة، فكثُر الغلاءُ والجلاء في البلاد الغَرْبيّة من أجل النِّفاق واختلاف الكلمة في السنينَ الماضية، حتى انقَطَع السّبيل وعُدَم فيه الدّليل.

وكان أشدَّ ضَرَرًا في تلك الجِهات على الناس، عَرَبُ رِيَاح بالاختلاس والافتراس، لا سيّما بأَحْوازِ مِكْناسةَ وفاس، وتقدَّم بينَهم وبينَ زَناتة حروبٌ كثيرة، ونشَأَت بينَهم وبينَ بني مَرِين عَداوةٌ كبيرة، فكانوا يُحاربونَهم ويُقاتلونَهم بجهة القَصْر، وشيخُهم إذ ذاك عثمانُ بن نَصْر، إلى أن ظَفِر بهم بنو مَرِين ونَهَضوا إليهم سريعًا، وقَتَلوهم قتلًا ذَريعًا، واستولَوْا على دواويرِ عَرَب رِيَاح واكتَسَحوا ما كان بها من دوابَّ وأسبابٍ وأثاثٍ وسلاح، وفرَّقوهم أيديَ سبا، ولم يترُكوا لهم سَبَدًا ولا لبدًا ولا سببًا، وأوقَعوا فيهم سُيوفَهم، وأنزَلَ اللهُ عليهم حُتوفَهم. وانصَرف عثمانُ بن عبد الحقِّ وإخوتُه وعشيرتُه وجِيَادُهم تتسابقُ في مَراحٍ وارتياح، ووجوهُهم تتهلَّلُ تهلُّلَ الإصباح. ولم يَزالوا في بلاد الغَرْب ظاهرين، وبأعدائهم ظافرين، وكانوا في أثناءِ تلك الأحوال، التي كانت بينَ الموحِّدينَ والأهوال، خيولُهم في بلاد الغَرْب رائحةٌ غادية تستأصلُ ما ألفَتْه بسيوفِها من المعتَدِينَ على كلِّ حاضرة وبادية، وذلك أنه لـمّا نوَّر اللهُ بصائرَ بني عبد الحقِّ وبني حَمَامة، وأنجزَ لهم ما وعَدَهم من الكرامة، فأخلَصوا لله نيّاتِهمُ التي هي رأسُ أعمالِـهم، ونوَوْا للمسلمينَ خيرًا في أفعالهم، وقد قال عليه السلام: «إنّما الأعمالُ بالنِّيات، وإنّما لكلِّ

امرئ ما نَوَى»، فما قَدَّموا عملًا من الأعمال قبلَ تمهيد تلك البلاد، والضّرب على أيدي أهل الضَّررِ والفساد، فأمَّنوا السُّبُل وسَدُّوا الخَلَل، فاتّسعت أحوالُهم وانبسَطَت آمالُهم، فصار أهلُ تلك البلاد يُعظِمونَهم غايةَ الإعظام، ويعاملونَهم بالبِرّ والإكرام، ويُعطونَهم مالًا معلومًا في العام، فكانتِ السُّبُل آمنة، والحاضرةُ والباديةُ هادنة، ونفوسُ أهلها بالعافية ساكنة، إلى أن وصَل ابنُ وانودينَ واليًا على تلك البلاد، فأشعَلَ نارَ الفتنة بعدَ الإخماد، وأشغَلَ بالَه بالقتال معَهم والجِلاد.

اختصارُ الخبَرَ بولاية أبي محمد عبد الله بن وانودينَ بلادَ الغرب، وما كان يُطوِّلُ مقامَه بها منَ الحَرْب

وذلك أنّ هذا عبدَ الله بن وانودينَ كان من خِيار الموحِّدين، وكان ترْكُه الناصرَ لدين الله بتونُس معَ الشّيخ أبي محمد بن أبي حَفْص في جُملة مَن تَرَك معَه من أولاد الموحِّدين وهُو إذا ذاك في حال الشَّبيبة إلى أن توفِّي أبو محمد عبدُ الواحد المذكور، وتبدَّلَت الأحوالُ والأمور، ووصَل إلى مَرّاكُش ونزَلَ بدارِه بالسَّبْتيِّين، وقعَدَ معَ إخوانِه الـهَنْتاتيِّين، ثم جُعِل معَ الوقّافِين، ثم نُقِل إلى مزورة العزّ، ثم نُقل إلى الوِزارة، فاستَوْزَرَه أميرُ الموحِّدين المعتصمُ بدين الله أبو زكريّا يحيى ابن الناصر، وكان جارَه بالسَّبْتيِّينَ الكاتبُ الجَليل أبو الحَسَن السَّرَقُسْطي، فعرَّفَه به واسكتبَه أبو زكريّا المذكورُ فحضَر معَه في تلك الأحوال التي كانت بينَه وبينَ عمِّه المأمون، وتلك الأمور، وتزوَّج ابنُ وانودينَ السيِّدةَ بنت يوسُف المستنصِر بالله، فسادَ بسببِها وزاد حُظوةً بها إلى ما كان من حُظوته ومكانتِه، فدخَل معَ يحيى مَرّاكُشَ ثلاثَ مرّاتٍ بالحروب، ورحَل معَه منها[1] كذلك بالهزيمةِ والهروب، واستقرَّ بجَبَله مِرارًا، وفَرَّ إليه فِرارًا، معتصمًا بالله وبه موطنًا وقَرارًا، ثم نَظَر بنظَرِه السّديد، وبادَرَ بنفسه إلى خدمة الرَّشيد، فوَلّاه بلادَ دَرْعةَ سنةَ اثنتين وثلاثين، وأعطاه الأجناد، فظَهَرت خِدمتُه في تلك البلاد، وحاوَلَ محاولةً عظيمة في أمرِ السيِّد القائم بسِجِلْماسةَ أبي محمد عبد العزيز حتّى أخرجَه منها بعدَما ثارَ فيها وجنَّد الأجناد وألَّف

(١) العبارة في ق، ك: «ودخل معه فيها».

من العَرَب أعداد[1]، ودخَل ابن وانودينَ إليها فوَلّاه الرَّشيدُ عليها إلى أن وصَل منها إلى مَرّاكُش في سنة أربع وثلاثين.

فلمّا كان في **أواخر سنة خمسٍ وثلاثينَ**، حين[2] استقامت الأحوالُ للإمارةِ الرَّشيديّة، وطاعت له سَبْتةُ وطَنْجةُ، وَلّاه الرَّشيدُ البلادَ الغَرْبية وجَعَل له النظَر فيها والتفقُّد لأحوالها ولأمور وُلاتها وعُمّالها، ووَلّاه قبائلَ غُمارةَ كلِّها سَهلِها وجَبَلها، فخَرج من مَرّاكُش بعسكر كبير من الموحِّدين وجُموع من المتجنِّدين وحِصَص من العَرَب وغيرهم، وفوَّض له الرَّشيدُ النظَر في أحوال تلك البلاد وفي إصلاح حالهم وأمرهم، وأعطاهُ طُبولًا وعلامات، وكتَبَ له بخطِّ يدِه في جُملة أوراقٍ بعدَ البَسْمَلة علاماتٍ ليُنفِذَ بها الأوامر ويَكتُبَ لـمَن شاء الظَّهائر، وارتَهنَ أن يَستجلبَ عَرَبَ إفريقيّة، فكتَبَ لهم عنه بأشعارٍ وعدّةِ رسائل، وكان كاتبَه الفقيهُ الجَليل أبو الحَسَن السَّرَقُسْطيّ، وكان عندَه معظَّمًا مبرورًا مكرَّمًا مشكورًا، وتوجَّه صُحبتَه واليًا على سَبْتَةَ أبو علي ابن خِلَاص البَلَنْسِيّ وعلى دارِ الصناعة، بها، أبو زكريّا بن مُزاحِم الكُوميُّ، فوصَل بالمحَلّة إليها ونزَلَ أيامًا عليها، ثم رحَل إلى بلاد غُمارةَ لينظُرَ في أعمالـها وأشغالـها، فنفَرَت منه بعضُ قبائلها وتحصَّنت في موانعِ جبالها، وكان معَ بعض تلك القبائل الغُماريِّين قد طاعوا للأمير أبي سعيد عثمانَ بن عبد الحقّ ودخَلوا في حُرمة بني مَرين وتحتَ طاعتهم وانقادوا لهم للمَغْرَم وغيره[3].

وكان الرَّشيدُ أعطى لابن وانودينَ جُملةَ أحمال بالكُسَا الشَّرقيّة البَدِيعة من كلِّ نوع برَسْم الإعطاء لبني عبد الحقّ ولأشياخ بني مَرين ولـمَن يجبُ إعطاؤه، فلمّا وصَل ابنُ وانودينَ إلى مقرُبة من بلادِهم أشغَلَ نفسَه بقتالهم وجِلادهم، فأوّلُ فعْل فعَلَه معَهم أنه وصَل إلى مقرُبة من مَواضعِهم ليطلُبَ الفارِّينَ من غُمارة، فوقَع النِّزاعُ في ذلك، وعامَلَ بني عبد الحقِّ بمُعاملةٍ غيرِ صالحة، وحاوَلَ أمرَهم بمحاولة غير ناجحة، ووافَقهم على أشياءَ لم يفِ لهم بها، فكانت الحربُ بينَه وبينَهم بسببها على ما أذكرُه بحَوْل الله تعالى،

---

(١) كذا في الأصل، والجادة: «أعدادًا».

(٢) سقط الظرف من ق، ك.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٥.

وذلك أنه لـمّا خَرج ابنُ وانودينَ على بني مَرِين الطريقَ فيما كانوا تَوافَقوا عليه وأغاروا على محلّته وقتَلوا جُملة كبيرة من أجنادِه وجُملتِه، فتشتَّت حالُه وتكاثَرت أوجالُه، ووصَل الخبرُ إلى الرَّشيد بحالهم وأمرِهم، فاغتاظ لذلك عليه وأمَرَه بالسُّكْنى في تلك البلاد، فسَكَنَها وهو كئيبُ القلبِ والفؤاد.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وثلاثين وست مئة: استُشهِد الأميرُ عثمانُ بن عبد الحقِّ رحمه اللهُ تعالى، قيل: إنّ عِلجًا من أعلاجِه غَدَره وضَرَبه ضَرْبةً بخِنجر قَطَع به أوْداجَه فمات من حينِه وهرَبَ العِلجُ إلى ابن وانودينَ فعرَّفه بالأمر فأعطاهُ وأرضاه، وقيل: إنّ ابنَ وانودينَ هو الذي حرَّضَه على ذلك واتّفق معَه عليه ثم صَرَفَه ابنُ وانودينَ بعدَ ذلك من عندِه، فلم يُعلَمْ بعدَ ذلك صحةُ خبر[1].

ولـمّا توفِّي هذا الأميرُ أبو سعيد كتَبَ ابنُ وانودينَ مُعلِمًا بخبره الرَّشيدَ، وبعَثَ إليه كاتبَه أبا الحَسَن السَّرَقُسْطيَّ، وما كان عندَه أكبرُ منه ليعرِّفه بالحال مشافهةً ولينُوبَ في شَرْح ذلك عنه.

وتقدَّم الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن عبد الحقِّ على قبائل بني مَرِين ومنِ انضافَ إليهم من زَناتةَ وبني ورا وغيرِهم، فأطاعوه وطاوعوه، غيرَ أنّ بني عسكرٍ خالَفَت بني حَمامةَ في الانقياد التامّ، فكثُرت بينَهم الشَّحناء وحَقَنوا الدِّماء، واغترّ ابن وانودينَ بمُنافرتهم وطَمِع فيهم لأجْل مُعاقرتِهم، وذلك أنه لـمّا اتّصل به ما كان بينَ بني حَمامةَ وبني عسكر منَ الـمُكابرة والـمُظاهرة والـمُنافسة والـمُنافرة، استَخْلَص بني عسكرٍ لنفسِه استخلاصًا وأخلَصَ لهم نيّتَه فيما زَعَم إخلاصًا، واستعطَفَهم واستلطَفَهم، ووعَدَهم بأموال يُعطيهم، وأحوال تُرضيهم، على أنْ يُقابلَ بهم إخوانَهم، ويَطرُقَ بهم أوطانَهم، فارتَبطَ معَهم على ذلك ارتباطًا ونهَضَ معَهم إلى مقابلة بني عبد الحقِّ وبني حَمامةَ، فألفاهم بمقرُبة من سلفات، فقابَلَهم في تلك الجهات، فوسَّع بنو حَمامةَ ومَن كان معَهم إلى مواضعِهم بعدَ مقابلة ومقاتلة وفَقْدِ مَن فُقِد من الفريقَيْن، وعاد ابنُ وانودينَ معَ الموحِّدين وبني عسكر، وكان غَرَض بني مَرِين أن يتبَعَهم ابنُ وانودين بمَن معَه

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٦.

ليكمُنوا لهم فيتمكَّنوا منهم، فترَكَهم ورحَل معَهم ونزَلَ بظاهر مِكْناسةَ فألزَمَ أهلها وظائفًا[1] وتكالفًا، وابتلاهم بأنواع من الـمَغَارم والـمَلازم، ثم رحَل ابنُ وانودين بمحَلّتِه إلى مدينة فاسَ ليُوفِّي للعسكريِّين ما لهم فيها، فأغْرَمَ بالتعيين جُملةً من الناس، ثم عادَ أيضًا إلى جهة مِكْناسةِ الزّيتون، فنزَلَ بمقرُبة من زرهون، ففَرَّ أهلُ تلك الجهات أمامَه وتَرَكوا مواضعَهم ورُبوعَهم وأسلَموا للنَّهب مواشيَهم وزروعَهم.

ذكرُ هزيمة بني مَرِين لابن وانودين وعسكرِ الموحِّدين

وذلك أنه لـمّا اشتَغل بفاسَ ومِكْناسةَ بما اشتَغل منَ المظالم، وفعَلَ بأهلها ما فَعَل من تأديةِ الـمَغارم، اجتَمع بنو مَرِين ومنِ انضافَ إليهم من زَناتةَ وغيرِهم على أميرهم أبي معرّف محمد بن عبد الحقّ ورحَلوا معَه بجُملتهم، ونزَلوا بمقرُبة من مِكْناسةَ بمحَلّتِهم، إلى أن وقَعَت شَوَّافتُهم في أجنادِ الرُّوم وقائدِهم اللّعين فقَتلوهم أجمعين، إلّا مَن فَرَّ منهم بعدَ قَتْل قائدهم الزَّعيم، أبي ضَرْبَةَ الذّميم، ووصَل فَلُّهم الـمُنهزِم إلى ابن وانودين، فعرَّفوه بقَتْل قائدِهم فتفجَّع عليه وعلى مَن قُتل من جماعتِه التي كانوا تحتَ يدِه، وكان قد بعَثَهم لتلك الجهات يحرُسونَها ويتفقَّدونَها، وقيل: إنّ قاتلَ أبي ضَرْبةَ هو أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ بن عبد الحقّ، وكان موضعُ نزول بني مَرِينَ أعزَّهم الله بمحَلّتِهم على نحو ثمانية أميال من مِكْناسة، فدبَّر ابنُ وانودينَ وَجْه الحِيلة في الوصُول إليهم والهجوم في ذلك الموضع عليهم معَ بعض أُناس من ناسِه، فأسرَعَ فيما دبَّر وشَرَع، فنهَض مُسرعًا مع العسكريِّينَ والموحِّدينَ والعَرَب والمتجنِّدين، فتأهَّب بنو عبد الحقّ وبنو مَرِين لقتالهم، واستعَدّوا لحربِهم ونزالِـهم، فلمّا اصْطفَّت الصَّفّان، واجتَمَعت الجَمْعان، للضّرب والطِّعان، دُفِعت الأجنادُ في خَيْل بني حَمامةَ لتقديرِهم أنّ بني عسكر والعَرَبَ يُدفَعونَ معَهم عليهم، فأسلَمَهم بنو عسكرٍ إليهم، فصَدَقَ لبني حَمامةَ الدّفاع، وكشَفَت الحربُ القِناع، فتحكَّموا فيهم بالأسِنّة والـمَشْرفيّة كيف شاءوا وكما أرادوا، وقَتَلوا منَ الموحِّدينَ وغيرِهم جُملةً كبيرة، وأكثرُ من قُتل في المعركة أجنادُ النّصارى، الذين خَلَصوا منَ القتل معَ أبي ضَرْبةَ وانهزَموا، ثم الآنَ للقتال عادوا، فأهلَكَهم اللهُ وبادوا، ووقَعَت

---

(١) هكذا في الأصل مع أن الجادة «وظائف» لأنها ممنوعة من الصرف.

الهزيمةُ على ابن وانودينَ ومَن بقِيَ معَه من الموحِّدين، وتفرَّق جميعُ أهل العسكر، منَ العَرَب وبني عسكر، ودخَل ابنُ وانودين إلى مِكْناسةَ مطرودًا إليها، ووصَل بنو مَرين إلى محلَّتِه فاستولَوْا عليها واحتوَوْا على جميع ما كان بها من دوابَّ وأسبابٍ وأخبِية وأمتِعةٍ وغيرِ ذلك منَ الأشياء الخِفاف والثِّقال، ولم يترُكوا لأحد فيها ما يُساوي العِقال، ثم خَرج ابنُ وانودين من مِكْناسةَ في اللّيل معَ جُملة من الخَيْل ومعَ ابنه أبي زكريّا يحيى، فقصَدَ إلى قصر عبد الكريم حيث كان أولادُه وعِيالُه، فانحصَر فيه معَ أهله ورجالِه، وكان معَه أيضًا محصورًا في القصر، أبو عثمانَ سعيدُ بن نَصْر[1].

وكانت مدّةُ إقامة ابن وانودينَ في الغَرْب في ولايتِه فيه سنتَيْن اثنتَيْن أو نحوَ ذلك، وكان وُلاةُ أهل تلك البلاد وعُمّالُهم يُخاطبونَ الرَّشيد ويَشرَحُونَ له أمورَهم معَه وأحوالَهم حتّى أسنَدوا عنه أنه يقومُ في تلك البلاد الغَرْبية لِـما ظهَرَ له فيها من الاستعدادِ والاستبداد وأنه يفعَلُ مثلَ ما فعَلَ أبو زكريّا الحَفْصيُّ في البلاد الإفريقيّة. وقيل: إنّ الرَّشيدَ اتّهمَه بذلك؛ لأنه كان يترُكُ عِيالَه بعضَ الأشهُر بسَبْتةَ مُستوطِنينَ، وكان بينَه وبينَ عَرَب إفريقيّةَ مُكاتَباتٌ كان الرَّشيدُ أمَرَ له بها، فما كان من أحد يُخفيها، فلمّا قيل له: إنّ الرَّشيدَ صَدَّق ما قيل له عليه وما كُتِب فيه إليه، خَرج من القَصْر في نحو خمسينَ فارسًا معَ رجالِه وبَنيه وعِياله آخِذًا على طريق المعدِن قاصدًا إلى جبالِه فتَبِعه بعضُ خيل من بني مَرين فحارَبَهم وتخَلَّص منهم، فما زال يجُدُّ السَّيرَ ليلَه ونهارَه، إلى أنْ وصَل جبلَه، وحينَئذٍ استقرَّ قرارَه.

فزاد بنو مَرين بهزيمتِه وبما كان منَ استيلائهم على محلّتِه في الغَرْب عُلوًّا وظُهورًا، إذ ما زالوا فيه ظاهرينَ وبأعدائهم ظافرين، واستَولَى أيضًا بنو مَرينَ بعدَ تلك الكائنة على ما كان بجهة القَصْر من عَرَب رِيَاح إثْرَ تلك الهزيمة، وغنِموهم غنيمةً عظيمة. والأميرُ المعظَّم أبو معرّف ابن عبد الحقِّ انقاد له جميعُ القبائل الـمَرينيّة وبعضُ الغُماريّة وبعضُ القبائل الـمَغربيّة، فكان بنو مَرين يجُولونَ في تلك البلاد ولا مدافعَ لهم لقتالٍ ولا جِلاد، ثم كانت بينَهم وبينَ الرَّشيد مُهادَنات ومُراسَلات. وأمّا ابنُ وانودين فبقِيَ في جَبَله حتى بَرِئت ساحتُه ممّا ذُكِر عنه وقُبِل العُذرُ منه وعاد إلى مَرّاكُش مكرَّمًا معظَّمًا، وسأذكُر أخبارَه في دولة الإمارة الـمُعتضِديّة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٦.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وثلاثينَ، في أوائل ربيع الآخِرِ منها: وصَل الأُسطولُ من تونُس إلى مَرْسَى قَرْطاجَنّة، وصَل فيها وُفودُ أهل شرق الأندَلس المتوجِّهونَ بالبَيْعات، وصَادَف وصُولُها اضطرابَ الأمور على الأمير أبي جميل زَيّانَ بن مُرْدنيش والألسِنةُ قائلة والخَواطر جائلة، فسكَّن بعضَ التسكين وهدَّنَ بعضَ التهدين، ووصَلتِ المخاطبةُ منَ الأمير أبي زكريّا إلى مُرْسِيَة وشاطِبة وأورِيُولةَ ولُورْقَة وجزيرة شُقْر وفيها ذكرُ ولاية الأمير أبي جميل على شرقِ الأندَلس، وتواريخُها: عاشرُ صَفَر من سنة سبع المذكورة[1].

وفي السابعَ عشَرَ لـجُمادى الأولى من السنة: خَرج أبو جميل زَيّانُ من مُرْسِيَةَ لـمّا استَشعرَ من أهلها الـمَيْل منهم إلى بهاءِ الدّولة ابن هُود، ودخَلها ابنُ هود مُجاولةَ ابن عصام[2] صاحب أُورِيُولة. وكان لـمّا قام أهلُ مُرسِيَة على سُلطانهم ابن خَطّاب ونكَثوا عليه وقَتلوه خاطَبوا الأميرَ أبا زكريّا صاحبَ تونُس وكتَبوا له ببيعتِهم.

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وثلاثين: كانت مبايعةُ الأمير أبي عبد الله ابنِ الأحمر للرَّشيد، وأخْذُ البيعةِ له على أهل غَرْناطةَ ومالَقة وجَيَّان وسائرِ البلاد التي كانت تحتَ طاعته، فوصلَتْه الـمُخاطباتُ الرَّشيديّة بالشُّكر له على مُبادرته[3].

وفي سنة ثمانٍ وثلاثينَ وست مئة: توسَّعتِ الأحوال وامتدّتِ الآمال، ونزَلَت الأمطار في تلك الأقطار، وظَهَرت الخَيْراتُ في كل الجِهات، وحُرِثتِ البلاد، وأفاضَ اللهُ على عبادِه خيرَه المعتاد، وذهَب ما كان من بقايا الجُوع وأُمِن الـمَرُوع، ورَخُصت الأسعار وبُنِيت الدِّيار، فإنّها كانت قد خَرِبت ودَثَرت بالأزمنة آثارُها، وامتَحَت من بعض الجهات رسومُها وقَرارُها، لا سيّما بمَرّاكُش، فقد كانت خَرِبت بكثرة الدّخلات ديارُها، فصارت في هذه السَّنة عامرةً مَبْنيّةَ الدُّور، وأميرُ المؤمنينَ بها في دَعَة وسرور، وخَراج موفور، وكانت البلادُ الغَرْبيّةُ أيضًا قد خَمَدت نيرانُها، إلى أنْ وصَل جميعُ بني عسكرٍ إلى مِكْناسةَ ونواحيها على ما أذكُرُه.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٥.

(٢) في ك: «عاصم».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١٧.

وفي هذه السنة: وصَل إلى مِكناسةَ وجهاتها كافّة بني عَسْكر، مُستمِدِّين من عَرَب المعقِل أعظمَ عسكر، فأحْدَقوا بها من كلِّ ناحية، وخُيولُهم عليها رائحةٌ وغادية، وذلك بسبب فتنةٍ كانت بينَهم وبينَ بني حَمَامةَ، أُولي التقدُّم[1] عليهم والزَّعامة، وكان أهلُ مِكْناسةَ قد وَثِقوا منهم، لِـما كان يصدُر لهم من الخَيْر عنهم، منَ الصِّدق والوفاء، والاحترام لتلك الجهاتِ والأنحاء، وقد كانوا وافقوهم بمالٍ معلوم في العام يُعطونَهم عليها، فوصَل الآنَ العسكريُّونَ إليها، فضاقَ أهلُها بهم ذَرْعًا، وتيقَّنوا استئصالَ أموالهم زَرْعًا وضَرْعًا، فبَعَثوا إليهم علماءهم وصُلحاءهم، راغبينَ في كفِّ عاديتهم عن أنحائهم، فما قَبِلوا لهم رغبة، ولا استشعَروا منَ الله سبحانَه فيهم مخافةً ولا رهبة، بل ألزَموهم أربعةَ آلاف دينار خِفارة، وكلٌّ منهم سَرَدَ سِنانَه وجرَّد شِفارَه، ولولا والي مِكْناسَة الذي أخَذَهم بالإرادة لأُضرِمت نيرانُهم، وتَوالى اضطرارُهم، وقَوِي بتلك الجهاتِ شيطانُهم، لكنْ بَنو حَمَامةَ بوفائهم وصَفائهم عَظُم سُلطانُهم.

وفي سنة تسع وثلاثين وست مئة: قَوِي أمرُ الأمير محمد بن يوسُف بن نَصْر ببَرِّ الأندَلس، وطاعت له أيضًا بعضُ بلادِها، وانقادَ له أكثرُ رؤسائها وأنجادِها، فقَوِيت شوكتُه بها، ولكنه يُظهِرُ أنه تحتَ طاعة الرَّشيد ومن ولايتِه، وأنه المجدِّدُ للدّولة الموحِّديّة بالأندَلس، وذلك من كفايتِه ودهائه ونَباهتِه، وكان وافرَ العقل والدّهاء، فقَنِع منه الرَّشيدُ بذكرِه إيّاه في الخُطَب والدّعاء.

ولـمّا توفِّيَ الرَّشيدُ في السنة الآتية بعدَ هذه المؤرَّخة ووَلِـيَ السّعيد، قَطَع دعوتَه وبايَعَ أبا زكريّا بن أبي حَفْص بتونُس، وتوجَّه ببيعتِه التونُسيّة أبو بكر ابنُ عيّاش شيخُ مالَقة وأبو جعفرٍ التنزوليّ، وبعَثَ إليه الأميرُ أبو زكريّا أموالًا كثيرةً برَسْم أن يستعينَ بها المسلمونَ على الجهاد، وكان قدِ انتقَلت حالتُه بغَرْناطةَ عمّا كانت عليه، فلم يقفْ على عَيْن ما وَجَّه الحَفْصيُّ إليه، وقَوِيت عِمارةُ غَرْناطة، فأراد أن يُكبِّرَ جامعَها ويزيدَ فيه، فحلَفَ للقاضي محمدِ بن عِياض أنّ مالَ صاحبِ تونُس باق، إشارةً إلى التوفية، وكان يَكتُبُ بخطِّ يدِه الـمَجَابي، ولا يَسرِقُ في الإنفاق ولا يُحابي.

---

(١) في ق، ك: «التقديم».

وفي هذه السنة: كان مقتَلُ السيِّد أبي حَفْص معَ المومنانيِّ بمَرّاكُش[1]، وذلك أنّ الخليفةَ الرّشيدَ كان قد وَلّاه ولايةً عظيمة وأمَرَه بالخروج بالعَسْكر إلى جهة هسكورةَ وغيرِها، وكان المومنانيُّ من أجلِّ الكُتّاب وله مَرتَبةٌ عندَ الرَّشيد وحُظوة، يأمُرُ له في المواسِم والأعياد بجَزيل الخيرِ والإحسان، وكان يَنظُرُ بزَعْمِه في عِلم الـحَدَثان[2]، فحدَّثَتْه نفسُه الكاذبةُ بما آلَ أمرُه فيه إلى السّيفِ وسُوءِ العاقبة، فمِن حِرمانه وفُجور حَدَثانِه: أنه كتَبَ براءةً بخطِّ يدِه يُهنِّئُ فيها السيِّدَ أبا حفص بولايته، وأنّها إن شاء اللهُ ابتداءٌ لخلافة تكون، أو كلامٌ يدُلُّ على هذا، وأمَرَ رسُولَه أن يدفَعَ تلك البراءةَ بباب السَّرّاجِين القديم الذي كان بمقرُبة من جامع الكُتُبِّيِّينَ من سُور الحَجَر، فغَلِط الرسُولُ المذكور ودفَعَ البراءةَ المذكورةَ بباب السَّرّاجِين الذي هو الآنَ يُعرَفُ بباب القَرّاقِين، فأخَذها القائدُ أبو المِسْك ودَفَعها من حينه للرَّشيد، فكان في الحين مشغولًا فلم يقرَأْها ولم ينظُرْ إليها، وظَنَّ أنه يطلُبُ منه عادتَه معَه في المواسِم، وكان ذلك ليلةَ سبع وعشرينَ من رمضان، وقد بعَثَ له العادةَ فاستشغَلَه ولم يُعرِّجْ على بطاقتِه، فلمّا وصَله رسُولُه وأخبرَه أنه دفعَها بذلك الباب قامت قيامتُه واستعجلَتْه منيّتُه، فكتَبَ براءةً ثانيةً يستعذرُ له ويَستعطِفُه فيها، فلمّا وصَلت إلى الرَّشيد قرأَها وعَلِم ما فيها، فطلَبَ البراءةَ الأُولى، فلمّا قرأها أمَرَ بقتل المومنانيِّ البائس والسيِّد أبي حَفْص من حينِهما، فذُكِر أنّ السيّدَ المذكور حين استدعاه الموكَّلُ به خَرج إليه في دَرّاعة فطلَّعه بها إلى القَصَبة ولم يُمهِلْه يرجِعُ إلى داره ليَلبَسَ ثيابَه، فعندَ وصُوله كان آخرَ العهد به، وكذلك المومنانيُّ حين حُمِل أمَرَ الزَّمّالةَ أن يَضرِبوه بالـمَياجِم على الرأس، فكان ذلك واللهُ يَقِي ويعصِمُ بمنِّه، ولم أتحقَّقْ تاريخَ هذه المسألة هل كانت في هذه السنة أو في التي قبلَها[3].

---

(١) تفاصيل ذلك في الذيل لابن عبد الملك ٥/ ٢٥٠-٢٥١ وتعليقنا هناك.

(٢) الحدثان، كهذيان: مصطلح يستعمل على معنى التنبؤ بالمستقبل يتنبأه العرّاف أو الفلكي أو الكاهن، كما في معجمات اللغة.

(٣) في أعلام مالقة: «ووصل مالقة خبر موته في أوائل ذي قعدة عام ثمانية وثلاثين وست مئة» (الترجمة ٥١).

وفي سنة أربعينَ وست مئة: توفِّي الرشيدُ رحمه الله، وذلك أنه لـمّا استقامَتِ الأحوالُ للرَّشيد، بعدَما جَدَّد دولةَ الموحِّدين ووصَلَه منهم القريبُ والبعيد، وأجلَى جميعَ الخُلَّط إلى السُّوس، وتهدَّنتِ النفوس، وتمهَّدتِ البلاد، واشتَغل الناسُ بمَرّاكُش في الرِّياضات بالنَّزاهات، استَعمل الرّشيدُ سُكناه برِياض تدفق وبنَى حولَه سَقائفَ للموحِّدينَ والمشتغلين والوَقّافِين والرُّقّاب والحُجّاب، وأمَرَ ببناءِ الدِّيار هنالك للمقرَّبين من خَدَمتِه وأرباب دولتِه، فلمّا قدَّر اللهُ بحَيْن وفاتِه وانقضاءِ مدّة حياتِه دخَل في زَوْرَق في الصِّهريج في الرِّياض الكبير المذكور معَ بعض جَواريه برَسْم التنزُّه، فانقَلَب بهم الزَّورَق، فقيل: إنه مات من حينه، وقيل: إنه طَلَعَ منه محمومًا فنُقل إلى قصره، وذلك في يوم الثلاثاء السابع من جُمادى الآخِرة من هذه السَّنة المؤرَّخة، وبعدَ ثلاثة أيام توفِّي.

وأخبَرني أيضًا بوفاته أبو عِمرانَ ابنُ تيجا، قال: أخبَرني أبو وكيل ميمونُ بن سَعادةَ حاجبُه قال: حضرتُ لوفاة سيِّدنا الرَّشيد، وذلك أنه دخَل في الزَّورق في الصِّهريج برَسْم التفريج في ليلةٍ باردة، فأصابَتْه فيها نَزْلةٌ عظيمة، وكان على راحة معتَّمًا بعمامةٍ فلمّا أزالَها حُمَّ من حينِه فأُخرج من الزَّورَق ورُفع إلى قصرِه فانقضَى أمدُه في يوم الجُمُعة العاشرِ لجُمادى الأُولى من سنة أربعينَ المذكورة[1].

ذكرُ بيعة أبي الـحَسَن المعتضِد بالله المدعوِّ بالسَّعيد ونُـبَذٍ من أخبارِه[2]

هو: أبو الحَسَن عليُّ بن أبي العُلى إدريسَ بن أبي يوسُف يعقوبَ المنصور ابن أبي يعقوبَ يوسُف بن عبد المؤمن.

بُويعَ يومَ وفاة أخيه في العاشرِ لجُمادى الآخِرة، وتوفِّي يومَ الثلاثاء مُنسَلَخ صَفَر من عام ستة وأربعينَ، فكانت خلافتُه خمسةَ أعوام وثمانيةَ أشهر وخمسينَ يومًا.

ولقِّب لقبَيْن[3]: المعتضدَ والسَّعيد.

وُزَراؤه: أبو زكريّا ابن عَطّوش، والسيِّد أبو إسحاقَ ابنُ السيِّد أبي إبراهيم.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٤.

(٢) ترجمته في تاريخ الإسلام ١٤/ ٥٥٢، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٩.

(٣) في م: «لقبان» ولا تستقيم.

وكتَبَ له: أبو الحَسَن الرُّعَيْنيّ، وأبو عبد الله التِّلِمْسانيّ.

ومن خواصِّه: أبو محمد العراقيُّ والقيجاطيُّ وأبو زَيْد ابن البَقّة ناظرٌ في أشغالِه وأحوالِه.

ولـمّا اجتمعَ أهلُ العَقْد والحَلّ من أشياخ الموحِّدين يتفاوَضُونَ في تقديم مَن يجبُ تقديمُه للخلافة من بعدِ الرَّشيد، واجتَمع أيضًا السادةُ من بني عبد المؤمن في بيت القَرابة وفي جُملتِهم السيِّد أبو الحَسَن المذكور، وكان أسمرَ اللّون ذا سَطْوة ومَهابة، فلم يَذكُرْه أحدٌ منهم، فأراد بعضُهم تقديمَ وَلَد الرَّشيد كما قُدِّم أبوه صغيرًا، وقال آخَرون: قد أُعيينا من تقدُّم الصِّبيان علينا، يَعْنُونَ يوسُفَ المستنصِرَ ويحيى أخاه[1] والرَّشيد، وكان أبو الحَسَن المذكورُ في أثناءِ ذلك في قَلَق عظيم من ذلك حتى قال لـمَن قال: لئن لم يُبرِموا هذا الأمرَ وإلّا أبرَموه بغيرِ اختيارِهم، فقيل: إنّ أبا محمد عبدَ الله بن وانودين ترَكَ مفاوضةَ أشياخ الموحِّدين وقام إلى السيِّد أبي الحَسَن فأخَذ بيدِه وأقعَدَه في موضع قُعود الخُلفاءِ أسلافِه، وبايَعَه ابنُ وانودينَ المذكور، ثم تَتَابَعت بيعةُ القَرابة والموحِّدينَ إليه، وبعدَ ذلك استَوفَت البيعاتُ عليه.

ولـمّا أقعَدَته الخلافة في محلِّها وزيَّنته بحُلَلِها وحَلْيِها، قَبَضَ على جُملة من الموحِّدين أهل رَبْطِها وحَلِّها، الكارهينَ لخلافته، الخائفينَ من سَطْوته ومَهابته، فسَجَنَهم وأغْرَمَهم أموالًا، وحبَس أُمَّ الرَّشيد وأغْرَمَها مالًا، وضَرَبَ ابنَ سعادةَ شيخَ العَبيد في أيام الرَّشيد نحوَ ألفِ سَوْط على كلام قاله في جانبِه قَبْلَ ذلك ووصَلَه، فلم يُقدِّر اللهُ بموتِه في ذلك الحال، وقيل: إنه على ما ذُكِر قال: لا بدَّ أجعَلُه يمشي قُدّام أخيه بأوصال.

وكان جُلُّ عَرَب السّعيد عَرَبَ الخُلَّط استخلَصَهم لنفسِه، وقَرَّبهم بعدَما استَدعاهم من السُّوس وغيرِه وجَلَبَهم، وكان له من أجنادِ النّصارى الذين جَلَبَ أبوه جَمْعٌ كبير، وتَرَكَهم بمَرّاكُش في كنيستِهم وناقوسِهم وأمضَى ذلك لهم.

وخالَفَ عليه بسَبْتَةَ أبو عليٍّ ابن خِلاص البَلَنْسيُّ، وبايَعَ للأمير أبي زكريّا الحَفْصي، وخالَفَ عليه بسِجِلْماسةَ عبدُ الله بن زكريّا الهزرجيُّ، وكتَبَ بيعتَه للأمير أبي زكريّا المذكور،

---

(١) في م: «أخيه» ولا تستقيم.

فأطلَقَ يدَه هنالك على جميع الأمور، فضَرَبَ السِّكَكَ الأميريّةَ السِّجِلماسيّة، وأعطى المالَ للعُربان، فأتَتْه من كلِّ مكان، وسأذكُر خبرَه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وسببُ نِفاق عبد الله بن زكريّا الـهَزْرَجيِّ على السَّعيد أنه كان واليًا على سِجِلْماسَة من قِبَل الرَّشيد، فبَلَغ السّعيدَ عنه حينَ وفاة أخيه أنه قال: كيف أُبايعُ أسودَ حبَشيًّا؟ فسَرَّها السَّعيدُ في نفسِه إلى أنْ خاطَبَه عبدُ الله المذكور بخِطابه يَستعطِفُه فيه ويُبدي له خلافَ ما ذُكِر عنه أنه خَرج على فيه، فكان الجوابُ على ظهر الكتاب: قد وعَتْها أُذُنٌ واعية، وخَرج في توقيعِه للكتاب: فلْيُمزَّقْ كتابُه تمزيقًا ويُبعَثْ به إليه سريعًا، فلمّا وصَل ذلك إلى ابن زكريّا حينَئذٍ خَطَب للأمير ابن زكريّا كما ذكرتُه[1].

وفي هذه السنة: بعَثَ أبو يحيى يَغْمراسَن بجُملة من الفُرسان إلى أبي الحَسَن السَّعيد بهديّة من عندِه فيها جُملةٌ من الخُيول العِتاق، وفي جُملة من الدَّرق، وعاهَدَه على قتال بني مَرين وأن يأخُذهم بعساكرِهم من الجانبَيْن، فأبَى اللهُ ذلك بل مكَّن لهم في الأرض، وأهَّلَهم لإقامة السُّنّة والفَرْض، وكان الأميرُ أبو زكريّا لـمّا سَمِع بموت الرَّشيد وتقديم السَّعيد ومخالفة مَن خالَفَ عليه وبالهديّة التي بَعَثَ يَغْمراسَن إليه، طَمِع في بلاد الغَرْب فأخَذ في الحركة إلى تِلِمْسانَ على ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الـخَبَر عن حركة الأمير أبي زكريّا إلى تِلِمْسانَ لمحاربة يَغمراسَن بن زَيّان وفَتْحِه إيّاها حينَ وصُوله إليها ثم تقديمِه ليَغْمراسَن بعدَ ذلك عليها

وذلك أنه لـمّا اتّصَل بالأمير أبي زكريّا بتونُس مصالحةُ السَّعيد معَ أبي يحيى يَغْمراسَن صاحبِ تِلِمْسان، خاف أن يصالحَ أيضًا للأمير أبي يحيى بن عبد الحقّ ويتحرَّكَ معَهم إلى بلاد إفريقيّة. وكان السّعيدُ بزَعامتِه وشَهامتِه يُحدِّثُ نفسَه وناسَه بذلك، فأخَذ الأميرُ أبو زكريّا بالعَزْم والحَزْم وجمَعَ الأجناد وحشَدَ الأحشاد واستَوْفَت عليه العُربان من كلِّ جهةٍ ومكان مِن أقاصي بلاد إفريقيّة، فوصَلَه منها كلُّ قاصٍ ودان، وخَرج من تونُس بجيوش وافرة وجُموع عظيمةٍ متكاثِرة في أواخرِ سنة أربعينَ المؤرَّخة.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

وذُكِر أنه اجتَمع في تلك المحَلّة المنصورة من الرُّماة الأندَلسيِّين والإفريقيِّينَ والغربيِّينَ ما نَيَّف على عشَرة آلاف بين فُرسان ورجال يَرمُونَ كلُّهم بالنِّبال، وكانت محلّةُ العَرَب مقسَّمةً كلُّ أمير بمَحَلّتِه وجماعتِه وجُملتِه يرحَلونَ قومًا بعدَ قوم ويومًا بعدَ يوم لأجْل قلّة الماء في تلك الجهات والأنحاء، وتمادَى المشيُ هكذا إلى أن وصَل إلى تِلِمْسانَ بعساكرَ كالطُّوفان، فلمّا وصَل إليها ونزَلَ بمحَلّاتِه عليها أمَرَ لكلِّ مَن يَرمي بالنِّبال، أن يُذيقَ أهلَها بالرّمي أشدَّ وَبال، فلم يَخرُج أحدٌ إليهم من أهل تِلِمْسان لقتالٍ ولا غيرِه من إدبارٍ وإقبال، من كثرة النَّبْل[1] المرسلة عليهم الوابِلة إليهم، حتى لقد قيل: إنّ فَرُّوجًا حصَل فيه جُملةٌ منَ النِّبال، فلقد كانت مثلَ سحائب الأمطار، ولم يطُلْ عليهم ذلك الحصارُ إلا ثمانيةَ أيام وما اشتدَّ فيها القتالُ والرّميُ بالنِّبال إلّا يومٌ واحدٌ من تلك الأيام تأهَّب الناسُ فيه بجُموعِهم ولبِسوا دروعَهم، فكانت تلك الدّروع، كالشّمس في الشّروق واللُّموع.

ويَغْمراسَنُ إذ ذاك محصورٌ في المدينة يُبصِرُ من داخلها لأهل المحَلّة وخَيْلها ورَجْلها، وكان يظُنُّ أنْ لا مُنازعَ له ولا من يقفُ قِبَلَه إلى أنْ رأى ما لا طاقةَ له به من كثرة المحَلّاتِ النازلة عليه الواصِلة[2] برَسْم القتال عليه فدبَّر في نفسِه حِيلةً يعمَلُها، فعمِلَها لـمّا دبَّرها. وذلك أنه خَرج من تِلِمْسان معَ أهله وعِياله وبعضِ خَيْله ورِجاله، وشَقَّ ما بينَ تلك الجُموع والعساكر، وفعَلَ في ذلك بزعامتِه وشَهامته فَعْلةً ما يقدِرُ أحدٌ أن يفعلَها، وذُكر عنه أنه ترَكَ بتِلِمْسانَ امرأةً له فعاد بسببِها إليها وأخرَجها منها بنفسِه على بغلة، وقيل: إنه أردَفَها وخَرج بها.

ولـمّا سَمِع الأميرُ أبو زكريّا عن خروجِه من تِلِمْسان عَفَا عن أهلها ودخَلها واستَولَى عليها، ودخَلوا ثِقاتُه وأربابُ دولتِه إليها، فأقام الأميرُ أبو زكريّا بمحَلّته على تِلِمْسانَ على ما ذُكِر سبعةَ عشَرَ يومًا إلى أنْ رأى أبا يحيى يَغْمراسَنَ معَ جماعة كبيرة من إخوانه في أعلى الجَبَل فقال: هؤلاءِ نسورٌ على صُخور، ولـمّا تَفاوَضَ معَ أشياخ الموحِّدينَ

---

(١) في ق: «النِّبال».

(٢) سقطت من ق.

بعدَ ذلك في شخصٍ يولِّيه تِلِمْسان ويَترُكُه أميرًا هناك إلى أنْ وقَعَ رأيُه على تقديم صاحبِها عليها ورجوعِه معَ إخوانه إليها ليكونَ سَدًّا بينَ البلاد الإفريقيّة والغَرْبيّة، فوَلّاه الأميرُ أبو زكريّا مدينةَ تِلِمْسان وأقطارَها وجميعَ أنظارِها، فعاد يَغْمراسَنُ إلى تِلِمْسانَ معَ بني عبد الوادي إخوانِه وحَكَم تلك البلادَ كلَّها وَعْرَها وسَهْلَها بعدَ معاهدة ومعاقدة معَ الأمير أبي زكريّا وشروطٍ مشروطة ورُبوطٍ مربوطة، وعاد الأميرُ أبو زكريّا إلى بلاده معَ عساكرِه وأجنادِه وحصَلَ بمدينة تونُس حضرتِه بعدَ ثلاثة أشهر أو نحوِها في حركته إلى حين أَوْبتِه، فلمّا شاعَ خبرُ هذا الفتح بادَروا ببيعتِهم بعضَ بلاد الأندَلس وسَبْتَةَ ودخَلوا في طاعتِه.

وفي سنة إحدى وأربعينَ وست مئة: قَتل السَّعيدُ السيِّدَ عزوزًا زوجَ أُختِه عزّونةَ، وهي كانت سببًا في تجرُّعِه كأسَ مَنُونِه، فذُكر عنها أنها وجَدت عندَه براءةً أوقَفَت عليها أخاها فشَكَرها على ذلك وأرضاها، ولم يعلَمْ أحدٌ ما كان فيها غيرُها وأخيها، فلمّا وقَف على البراءةِ المذكورة أمَرَها بردِّها إلى الموضع الذي فيه أصابَتْها، فما عَلِم زوجُها أنها رأَتْها، ثُم أمَرَ بعدَ ذلك بثِقافِه بدار الإمارة، فلم يَعلَمْ أحدٌ أيَّ وقتٍ لقيَ حِمامَه.

ومن أخبار عبد الله بن زكريّا الـهَزْرَجيِّ الثائرِ بسِجِلماسَة

لـمّا استبَدَّ فيها بأمرِه وانقادَ له أهلُ تلك الجهات والأنحاء، ووصَلتْه العَرَبُ من جهة الصّحراء، وفَوَّض له الأمورَ في تلك الجهاتِ الأميرُ أبو زكريّا الحَفْصيُّ الـهَنْتاتيُّ وأطمَعَه في استمدادِه بأموالٍ وزيادة، ودَعا له في الخُطبة بسِجِلماسةَ المذكورة، فلمّا شاعَتْ في البلاد أخبارُه ونِفاقُه، وصَحَّ عندَ السَّعيد والموحِّدينَ خلافُه وشِقاقُه، هَجَست نفوسُ بعض الموحِّدينَ للفِرار إليه والقدوم عليه لأجْل خوفِهم الشّديد من سَطْوة السَّعيد، القريب منهم والبعيد، فلمّا ظَهَر لأبي زَيْد عبدِ الرّحمن بن أبي زكريّا الجدمْيويِّ ولأخيه أبي عثمانَ ما ظَهرَ لهما من تغيُّر السُّلطان السَّعيد عليهما، أشارَ عليه أبو زيد، أعني على أخيه أبي عثمان، بالفِرار من مَرّاكُش والانتقال، وقال له أشياءَ كانت خَفِيّةً عنه، فما سُمِع له مقال، فتوافَقَ أبو زيدٍ المذكورُ معَ ابن واجاج وأبي سعيد العُود الرَّطب الـهَنْتاتيّ على الفِرار من مَرّاكُش إلى سِجِلماسَة وتَواعَدوا ليوم معلوم، ووافَقَ أبو زيد لقاعد معَ

جماعة من الرُّوم، وكان السَّعيدُ شَرعَ في الحركة إلى بلاد الغَرْب برَسْم حربِ بني مَرِين وكانت محلَّتُه على تانسيفت[1].

فلمّا خَرج السّعيدُ من مَرّاكُش إلى محلّتِه برَسْم حركتِه قَبَض هنالك على سعيد بن زكريّا واعتَقَلَه، وإلى مدينة فاسَ حمَلَه، وفيها قتَلَه بعدَما استصفَى بمَرّاكُش جميعَ أموالِه وأحوالِه[2]، وفرَّ أخوه أبو زَيْد معَ أصحابِه وأخَذوا طريقَ دَرْعةَ، فخَرجَ عليهم في طريقِهم بنو يُعَزّ[3] وأكَلوهم بتعجيل وسرعة، ولم يترُكوا لهم سببًا من الأسباب، لا دوابَّ ولا سلاحًا ولا قماشًا إلا ما ستَرَهم من الأثواب، ثم فَرَّ ثلاثتُهم من بني يُعَزّ ومعَهم دابّةٌ واحدة يتداولونَها وجماعةً منَ النّصارى، فتوجَّهوا باللّيل حَيارى، فضَلّوا الطريقَ وجَهِلوه، وقَعَدوا ذاتَ يوم في موضع وصَلوا إليه فنزَلوه، فبينَا هم كذلك ليس فيهم من كثرة الخَوْف والجَزَع من يَفهَم ولا يَعقِل، إذْ أقبَلَت عليهم جموعٌ من عَرَب المعقِل، فبادَرَ إليهم أبو زيد بنُ زكريّا بالسلام، فرَدّوا عليه ووقَعَ بينَهمُ الكلام، فقال لهم: يا معشَرَ العَرَب، قد بلَغتُمُ الأرَب، احبِسونا في عشَرة آلاف دينار نؤدّوها، وفي أقربِ وقت إليكم نَعُدُّوها، وكان غَرَضُ العَرَب في الرُّوم يقتلونَهم ولا يتركونَهم، حتى سَمِعوا كلامَ أبي زَيْد، فيما ارتَبطَ معَهم واشتَرط لهم من المال، فحَمَلوهم إلى خيامِهم وبالَغوا في إطعامِهم وإكرامِهم، وقالوا بلسان حالِـهم: هذه غنيمةٌ باردة، وأُمنيةٌ علينا واردة، وكانوا وافَقوهم على ثلاثة أيام عدَدًا. فلمّا نفَذَ الأمد، وطلَبوا أبا زيد فيما به وعَد، فقال لهم: إيتوني بشُقَف أو عَظْم، فأتَوْه بكَتِف بعير كتَبَ فيه لخازن المال بسِجِلماسةَ اليهوديِّ المسَمّى بابن شلوخةَ أنْ يدفَع لحامل الأحرف إليه عشَرةَ آلاف دينار من الدّنانير العَشْريّة السِّجِلماسيّة ساعةَ وقوفِه عليها، وكتَبَ عبدُ الرّحمن بن زكريّا.

فلمّا وصَل العَرَبيُّ بالبراءة إلى سِجِلْماسةَ سأَلَ عن اليهوديِّ المذكور فعُرِّف له فدفَعَ له البراءة، وقال له: أعطِني ما فيها قبلَ أن تُتمَّها بالقراءة، فقال له: نعَمْ، أهلًا وسهلًا

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(٣) الضبط من ق.

بك يا أخا العَرَب، وتوجَّه معَه إلى صاحبِ سِجِلْماسةَ فعرَّفه بما طلَب، فمَثُل بين يديه، وأخبَره بما جاء فيه وإليه، فقابَلَه بالإكرام وأمَرَ له بالطّعام، وقال لليهوديّ: أحضِرْ له مالَه، وبقيَ عبدُ الله بنُ زكريّا يسألُه ويَختبرُ مقالَه، إلى أنْ قال له: أنا راجِل فلان ابن فلان، فقال له: ما يأخُذ المالَ إلّا من يستحقُّه من أشياخ العُربان، فصرَفه وراءَ شيوخِه، وقصْدُه أن يحصُلوا في فُخوخِه، فانصَرفَ العَرَبيُّ ووصَلَهم، وعرَّفهم منَ القول بما عَرَّفهم، وقال لهم: إنْ أردتُم مالَكم فتمشُونَ إلى سِجِلْماسةَ، فيها تَبلُغون آمالَكم، فتوجَّهوا لسجِلْماسةَ قاصدين، وعلى ابن زكريّا وارِدين، فعندَ وصُولهم إليه وإقبالِـهم عليه، قال لهم: أخذتُم إخوانَنا وأجنادَنا وكانوا قاصِدين إلينا ووافدين علينا، لن تَبرَحوا من هنا حتّى يَصِلوا إلينا[1]، فما كان إلّا أيامٌ قلائل حتّى وَصَلوا إليه فأكرَمَهم ورفَعَ شأنَهم ومكانَهم حين وَفَدوا عليه، ثم توجَّه منهم أبو سعيد إلى تونُس فتلقَّاه أميرُها أبو زكريّا بالبِرِّ والتكريم، ونال عندَه الخيرَ العميم، وبقيَ أبو زيد بسِجِلْماسةَ إلى أن كان من أمرِه ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

ذكرُ حركة السَّعيد إلى سِجِلْماسَة وظَفَرِه بالثائرِ عليه فيها عبد الله بن زكريّا الـهَزْرَجيّ

وذلك أنه لـمّا تفاقَم حالُ ابن زكريّا المذكور في تلك الجِهات ونِفاقُه على السَّعيدَ وشِقاقُه، وأظهَرَ الخلافَ والعِناد، وكتَّبَ الكتائبَ وجنَّد الأجناد، تحرَّكَ السَّعيدُ إليه وخَرج من مَرّاكُش باستعجالٍ وسرعة، وأخَذ على طريق دَرْعة، بعدَما قدَّم خيلًا ورَجْلًا لسدِّ تلك المسالك، لئلا يَسلُكَها سالك، ويتعرَّفَ ابنُ زكريّا بحركته، فيأخُذَ في حال أُهبتِه. وكان عبدُ الله بن وانودينَ أمَرَ إخوانَه بني يعز بقَطْع الطّريق هنالك، فما كان يَجُوزُه إلّا مَن رَمى بنفسِه في المهالك، وقدَّم السعيدُ مخاطباتِه إلى أشياخ سِجِلْماسةَ وظَهيرًا كريمًا بالاعتناءِ التامِّ والتكريم، فأظهرَ جَدَّه ونُصحَه أبو زيد بنُ أبي زكريّا الجدميويُّ في

---

(١) في ق، ك، ب: «لن تبرحون من هنا حتّى يصلون إلينا»، وقد كتبناها على الوجه، ومثل هذا كثير في هذا الكتاب ممّا لم نشر إليه.

تلك الأمور، وحاوَل محاولةً عظيمة معَ قُوّاد الرُّوم في أمر ابن زكريّا المذكور. فاستعمَل النّصارى شرًّا معَ بعض العَرَب بإزاءِ باب القَصَبة داخلًا وخارجًا ودخَلوا في السِّلاح، وقام الضّجيجُ في البلد والصِّياح، فعَلِم عبدُ الله المذكورُ أنها عليه أدارَه، فخَرج على بابِ الغَدْر من القَصَبة ودخَلها أبو زيد الجدميويُّ معَ أشياخ سِجِلْماسةَ وشحَنوها بالرُّماة والرِّجال الحُماة، وخاطَبَ أبو زيد السَّعيدَ مُعلِمًا بالحال، وأنّ الطالبَ للمُحال، اضمَحلَّ حالُه وحال، وتوغَّل في الأوحال، فشَكَر السعيدُ لأبي زيد خِدمتَه ونصيحتَه، ونال عندَه خيرًا عظيمًا وعَفَا عنه فيما جَرى قبلَ ذلك منه.

وفي أثناءِ ذلك: قُبِضَ على عبد الله بن زكريّا واستاقَه بعضُ العَرَب إلى السّعيد مصفَّدًا في الحديد، فمثُل بينَ يدَيْه وقرَّر فعلَه عليه، فتكلَّم فيه أشياخُ الموحِّدين إلى أميرِهم، وذكَّروه ما كان من وصيّة الـمَهْديِّ إمامِهم على سَلَفِه لعبد المؤمن وبَنيه، وأن دماءهم حرامٌ عليهم، ولو وصَلوا بالضَّرر إليهم، فما سَمِع من مقالِـهم الذي قالوه، بل أمَرَ عليه بالقتل[1] فقَتلوه، وحُمِل رأسُه فعُلِّق على باب الكُحول، وقُرِعت بسببِه الطُّبول[2].

ورجَع السّعيدُ قبلَ وصُوله إلى سِجِلْماسةَ، ودخَل مَرّاكُش مع خاصّتِه وترَكَ أهلَ محلّته وجُملتِه يقفونَ على مَهَلٍ إثرَه، ولم يَعلَمْ أحدٌ من الحضَر رجوعَه وصدرَه، لأنه دخَل قصرَه على غير أُهبةٍ للقائه، ولا معرِفة للناس بأنبائه، وذلك في سنة اثنتينِ وأربعينَ وست مئة.

وفي سنة اثنتين وأربعينَ وست مئة: توفِّي الأميرُ أبو معرّف محمدُ بن عبد الحقِّ رحمه الله، فكانت إمارتُه نحوَ ستة أعوام، وتقَدَّم بعدَه أخوه الأميرُ المعظَّم أبو يحيى بن عبد الحقّ، فبايَعَه القبائلُ الـمَرينيّة وبعضُ الزَّناتيّةِ وبَنو وَرا وغيرُهم من القبائل الغَرْبيّة، وانقادوا لأمرِه بالسَّمع والطاعة، وبايَعُوه وشايَعُوه بالقُدرة منهم والاستطاعة، فعَظُم في الغَرْب وشاع فيه ذكرُه[3].

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٩٦.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٢٧، والاستقصا ٣/ ١٠.

وفي هذه السَّنة: تحرَّكَ السّعيدُ من حضرة مَرّاكُش قاصدًا البلادَ الغَرْبيّة ومتفقِّدًا لأشغالها وأعمالِـها ومستعدًّا لحَرْب العساكر الـمَرِينيّة وقتالِـها، فتمادَى مشيُه من حضرتِه على العادة المعهودة لأَسْلافِه وأحلافِه في مَراحلِها المعلومة ومَنازِلها، إلى أنِ استقرَّ بمدينة فاسَ فتلوَّم بها أيامًا، فعزَلَ عن الأشغالِ أقوامًا، ووَلّى آخرينَ على أشغالِـها، ونظَر في أمورِها وأحوالِـها، إلى أن تخَلَّصت أشغالُه بكمالِـها، وقيل: إنه قَتَل سعيدَ بن زكريّا فيها.

وكان هذا أبو عثمان أحدَ أشياخ الموحِّدين الكُبَراءِ في طبقات الوُزراء، وقيل: إنّ قَتْلَه كان في السّنة الفارِطة قبلَ قَتْل عبد الله بن زكريّا، ورحَل من فاسَ بعساكرِه الموحِّدية إلى جهة الـمُقَرْمَديّة[1]، فنزَلَ بمحَلّتِه في أنحائها متعرِّفًا لأحوال بني مَرِينَ ولأنبائها، فكانت بينَه وبينَ الأمير أبي يحيى بن عبد الحقِّ مُهادنةٌ وأرسال، في مصالح الأحوال، فعاد من ذلك المنزلِ من غيرِ قتال، وقَفَل راحلًا إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى[2].

وفي هذه السنة: أمَرَ السّعيدُ بسَجْن أبي محمد ابن وانودينَ أحدِ أشياخ الموحِّدينَ وعُظَمائها المتصرِّفينَ في الولاياتِ الكِبار والأعمال، فأمَرَ عليه واعتُقِل بأزمورَ بأعظم اعتقال، وسُجِن معه أبو زكريّا بنُ مُزاحم وأبو زكريّا بن عَطّوش، فسُجِنوا بها، وعُمِل عليهم عشَرةٌ من الرّجال إلى أنْ كان من أمرِهم ما أذكُرُه في السنة الآتية إن شاء اللهُ تعالى[3].

وفي سنة ثلاثٍ وأربعينَ وست مئة: صالَحَ الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن نَصْر ملِكَ قَشْتالةَ أذْفُونْشَ الأحوَلَ أخزاه اللهُ تعالى على بلاد المسلمينَ التي تحتَ طاعتِه وفي حِزبِه وجماعتِه مدةً من عشرينَ سنة، وأعطاهم في هذا السِّلم المذكور مدينةَ جَيّانَ وما والاها من الحصُون والمعاقل، وخَرج منها كلُّ مسلم عاقل، وسَكَن فيها آخرونَ معَ النَّصارى مُدجِّنين[4]، وكان أهلُ إشبيلِيَةَ لم يدخُلوا في هذا السِّلم المعقود، وكان

---

(1) الضبط من ق.

(2) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦، والاستقصا ٢/ ٢٤٧.

(3) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦.

(4) في ق، ك: «مدخَلين» ولها وجه، أي: داخلين في السلم المعقود، على أنّ «مدجّنين» استعملت بكثرة في هذه الأعصر على المسلمين الذين عاشوا تحت سيطرة النّصارى يدفعون لهم ضريبة، كما في معجم دوزي وغيره.

أيضًا أهلُ شَرِيش لم يدخُلوا في هذا الصُّلح المنعقِد في هذا العام، لكنّهم صالَحُوهم على أنفسِهم بمالٍ معلوم في العام إلى أن أعطَوْهم القَصَبةَ وأشرَكوا المدينةَ معَهم ثم أخرَجوهم منها ووقَع النِّفاقُ بينَهم على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وأمّا أهلُ شَرْق الأندَلس فسالَموهم بمالٍ معلوم أيضًا، وبعضُهم تدجَّنوا وأسكَنوا معَهم الرُّوم، وكان أيضًا أهلُ مُرْسِيَةَ لـمّا خَلَعوا أبا بكر ابنَ هود خليفتَهم وأخرَجوه من مدينتِهم، بادَرَ إلى الرُّوم الـمُجاوِرين إليها فأعطَوْه حِصنًا أسكَنوه فيه، فكان أشدَّ ضَرَرًا من الرُّوم على أهل مُرْسِيَة، حتّى نزَلوا بمحَلّتهم عليها إلى أن دخَلوها على ما أختَصِرُه إن شاء اللهُ عامَ اثنينِ وستينَ وست مئة حين وقَع النِّفاق بينَ المسلمينَ والنّصارى في أواخِر هذا الصُّلح المنعقِد في هذه السنة.

ذكرُ أخبار ابن وانودينَ وما كان من أمرِه وحالِه وفِرارِه من السِّجن بأَزَمّورَ إلى جبالِه

وذلك أنّ هذا أبا محمد ابنَ وانودينَ كان من كبار الموحِّدين، وهُو الذي قدَّم السعيدَ بساعدِ جِدِّه، وأقعَدَه مقعدَ أبيه وجَدِّه، بعدَما جرَّد بعضُهم سيفَه من غِمدِه، إلى أن صارتِ الخلافةُ إليه، واجتَمَعت كلمةُ الموحِّدينَ عليه، فبَذَلَ أيضًا جِدَّه في توفِية خِدمتِه وتبليغ نصيحتِه، فلمّا كان في السّنة الفارِطة سَطَا عليه السعيدُ بسَطْوتِه، وامتحَنَه بأعظم محنتِه، وغَرَّبه في أَزَمُّور ليذوقَ مرارةَ غُربتِه، وفراقَ أهلِه وشيعتِه، فكان ذلك عندَه أعظمَ نكالِه، ولم يَعلَمْ أحدٌ من الوُزراءِ والكُبراءِ السببَ في اعتقالِه، فسَجَنَه ابنُ ماكْسِن بدُوَيْرة بإزائه، وجعَلَ عليه عشَرةً من رجالِه يحرُسُونَه في ليله ونهارِه، ويتسمَّعونَ من أخبارِه ومقالِه، وكان عليه كَبْلٌ ثقيل لا يَقدِرُ أن يتحرَّكَ من أجلِه لثِقَله، فدبَّر وجهَ الحِيلة في أمرِه وحالِه، ونظَر في كيفيّة فِرارِه إلى جبالِه، فاستَخلَصَ لنفسِه شخصًا من أولئك العشَرة المعيَّنينَ للحَفْز عليه في ذلك المكان، وأفاضَ عليه وعليهم الإنعامَ والإحسان، حتّى تمكَّن منهم غايةَ الإمكان، وكان معَه بتلك الدُّوَيْرة أبو زكريّا ابنُ مُزاحم وأبو زكريّا ابنُ عَطّوش وكلُّ واحدٍ منهم في بيتِه.

وكان صاحبَ ابنِ وانودينَ الذي اتَّفق معَه ليدبِّر الحِيلةَ شخصٌ يقال له: ابنُ الـمُعَلِّمة، يتصرَّفُ إليه. ثم إنّ ابنَ وانودينَ بَلَغَه أنّ أبا الحَسَن يَعلُوَ يصلُ إلى أَزَمُّور، فخاف أن يكونَ وصُولُه برَسْم قتلِه أو حَمْلِه، فأعطَى لابن المعلمة خمسينَ دينارًا عَشْريّة فأعطَى منها لصاحبٍ له خُمسَها برَسْم أن ييسِّرَ له في الوادي لبطيرةً ينتظرُه بها واشترى ببعضِها جَلّابيّةً، وكان عندَه أُخرى يَلبَسُها، وأشاع لأصحابِه أنّ يَعْلُوَ ما يصلُ إلّا بسَراح ابن وانودين، وجعلَهم يطلُبونَ له البِشارةَ فأعطاهم من الدّنانير التي كانت عندَه أكثرَها ووعَدَهم بالإحسانِ إليهم والإنعام عليهم إذا مَنَّ اللهُ بسَراحِه، فاشتَغلوا طولَ يومِهم بالأكل والشُّرب واللَّهوِ والطَّربِ إلى الليل، وكانت تلك اللّيلةُ مُظلمة، والمتصرِّفُ فيها ابنَ المعلمة، وكان مِفتاحُ بيتِ ابن وانودينَ بيدِه، وقد جَعَلَ فيه قُلّةً خاويةً وجَلّابيّةً وعليه الجَلّابيةُ الأُخرى قد لَبِسَها، وهو يدخُل ويَخرُج في التصرُّف مرةً بعدَ أخرى.

فلمّا نفِدَ لهمُ الزّيتُ وغيرُه قال لهم: أنا أسُوقُه إليكم، فدخَل البيتَ وألبَسَ ابنَ وانودين الجَلّابيةَ وأعطاه القُلّة، وقال له: اخرُجْ سريعًا، فخَرَج عليهم في الظّلام كأنه صاحبُهم وأكثرُهم رُقود، فخَرج ابنُ المعلمة في أثَرِه بجَلّابيّتِه وقُلّةٍ أخرى وقال لهم: كنتُ نسيتُ آنيةَ الزيت فرجَعْتُ برَسْمها وخرجتُ ودخَلتُ عليكم وأنتم رُقودٌ كلُّكم، فكنت مجرِّبًا لكم. وانصَرفَ، فلحِق بابن وانُودين فأطلَعَه اللبطيرة وأجاز به الوادي صاحبُه المتقدِّم ذكْرُه، وستَرَ اللهُ ابنَ وانُودين تلك الليلةَ، وفي غدِها ظَهَر أمرُه، فخَرج ابنُ عَطّوش من بيته فلم يجِدْ أحدًا، فعلم أنّ ابنَ وانُودين قد هرَبَ وعدا، فصَاح على الناس فأخبَرَهم بخبرِه وأنبَههم ما تعَدَّى، فكان ذلك سببًا في خروجه ونَيْله من أمرِه رَشَدًا.

وقيل: إنّ بعضَ الصُّلحاء الأخيار نفَعَ اللهُ بهم أشاروا على ابن وانُودين أن يتصدَّق بدِيَتِه ألفَ دينار، وحينَئذٍ يشرَعُ في الفِرار.

ولـمّا حصَل ابنُ وانُودين في ضفّة الوادي مشَى مع صاحبَيْه، فكانا في بعض الطريق يرفَعانِه في أصلابِهما من مكان إلى مكان، إلى أن أصبح الصّباحُ وقد حصَلوا في الأمان، ثم وصَلوا إلى دواويرِ سفيان، فسألوا عن كانون، فقيل لهم: بالله لو كان ابنُ وانُودين فما كان يَخرُج الآن إليه، فكيف أن يَخرُجَ إليكم أو يسلِّم عليكم؟ لعلمِهم بمحبته في ابن وانُودين وصُحبته، فعرَّفوهم أنه هو المذكور، فخَرج إليه كانونُ وسُرَّ به غايةَ السرور، وكان

بينَهما مودّةٌ عظيمة وصحبةٌ قديمة، فأكرَمَه وأعطاه في الحين مئةً وخمسين من الفرسان متخيَّرة من عَرَب سُفيان فتوجَّهوا معه إلى مَرّاكُش، فوصَلَها ليلًا وضَربَ برُمْـحِه في أحد أبوابها، وعرَّف بنفسِه للبوّاب الساكن على الباب وقال له: قل للسلطان ابن العَنْبر: ترى ابن وانُودين وصَل إلى جبله وقَرَّ في أمنع مكان، فيعمل ما شاءه من أعمالَه.

وحصَل ابنُ وانُودين مستقِرًّا في جباله، بعدَما خطَر على لجاغةَ وغيرِها وعرَّفهم بأمرِه وحاله، وأنذر من في تلك الجهات والأوطية من إخوانه الهنتاتيين ورجاله، وكان كانونُ قد أعطاه فرسًا لكونه من عِتاق خيله، وسلاحًا له ولصاحبيه في جُملةِ ما فَعَل من جميل فعلِه، فصَرف ابنُ وانُودين أيضًا أرسالَه بخير جزيل وبفعل جميل.

ولـمّا وصَل أبو الحسن يَعْلو إلى أزَمُّور ضَرب أرقابَ الرجال التسعة الحارسينَ له وعلَّق رؤوسَهم على السور، وأمَر السعيدَ بسَراح ابن عَطّوش وابن مُزاحم وأحسَن لابن عَطّوش واستوزَرَه بعد ذلك.

وفي أثناء ذلك بعَثَ السعيدُ لابن وانُودين عشَرةً من وجوه الموحِّدينَ معَ خاصّتِه مِزْوارَ الطّلبة أبي محمد العراقيّ، فاجتَمعوا معَه بتامزاورتَ وبَلَّغوا له ما أمَرهم به السَّعيدُ من القول الحَسَن وبزَوالِ ما كان في خاطرِه عليه، ونَقَلوا ذلك كلَّه إليه، فشَكَرَ ابنَ وانودين على ذلك وطلَبَ منه أن يكونَ سُكناه هنالك، يعني في جبالِه، بأولادِه وعِياله، فأسعَفَه السّعيدُ في مطلبِه ومذهبِه، وسَكَن بتيفنوتَ طُولَ حياته إلى حين[1] مماتِه.

ومن العجَب العجيب والاتّفاقِ الغريب أنه قَتَلَ السَّعيدَ وكانونَ وابنَ عطّوش في يوم واحد، ووَرَّخ موتَ ابن وانودينَ فوجَد موتَه قبلَهم بيوم واحد، وكان غَرَضُ السّعيد قَتْلَهم الثلاثة فقُتل السّعيدُ وكان ثالثَهم. وذكَرَ بعضُ العارفين بأخبار السَّعيدِ وأمرِه، مثلَ: الشّيخ الفقيه أبي عبد الله السَّرَقُسْطيِّ وغيرِه، أنه كان قد هَمَّ بقتل ابن وانودينَ مرارًا فكان ينهاه عبدُ العزيز الـمُنجِّمُ سرًّا وجَهارًا، فإنه كان ينظُر في علمِه ويقول: إنّ يومَك يكونُ بعدَ يومِه، فكان ذلك كذلك. وكان مولِدُ الفقيه أبي عبد الله السَّرَقُسْطيِّ بتيفنوتَ في عام أربعة وثلاثينَ وست مئة حين كان أبوه كاتبًا ليحيى ابن الناصِر ثم بعدَ ذلك لابن وانودين.

---

(١) سقطت من ق، ك.

اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد والموحِّدين إلى قتال الأمير أبي يحيى وبني مَرِين

وذلك أنه لـمّا اتَّصل بأبي الحَسَن السَّعيد خلافُ كانونَ عليه واتّفاقُه معَ الأمير أبي يحيى أن يكونَ مسيرُهما بكبيرِهما برَسْم القتالِ إليه، وأنّ بني مَرِين حَشَدوا حشودًا كثيرة في الغَرْب برَسْم القتال معَه والحَرْب، فخَرَج السَّعيدُ من مدينة مَرّاكُش حضرتِه، على ما عُهِد من هيئتِه بعدَما أعطَى للموحِّدينَ بَرَكاتِهم، وللمتجنِّدين أُعطِياتِهم على جَرْي عادتِهم، وحشَدَ حشودًا من العُربان من بني جابِر والخُلْط وغيرِهم من الفُرسان. ولـمّا اجتَمَعت الحشُودُ عليه من كلِّ جهةٍ ومكان، تحرَّكَ بجيوشِه وعساكرِه على العادة المعروفة لأسلافِه الأُمراءِ من بني عبد المؤمن وترتيب الأشياخ والوُزراءِ والساداتِ الكُبَراء، وكان وزيراه يومَئذٍ: أبا زكريّا ابنَ عَطّوش الكُوميَّ والسيّدَ أبا إسحاقَ ابنَ الأمير الطّاهر أبي إبراهيم، وترَكَ أخاه أبا زَيْد بنَ أبي إبراهيم بمَرّاكُش نائبًا عنه وعِوَضًا منه، وكان أخوهما ثالثُهما أبو حَفْص عُمرُ الملقَّب حينَ خلافتِه الـمُرتضَى[1] واليًا على أغمات، وحضَر معَه في هذه الحركة كُتّابُه الجِلّة أبو الحَسَن الرُّعَيْنيّ وأبو زكريّا الفَازَازيُّ وأبو عبد الله التِّلِمْسانيّ، ومِزوارُ الطلبة أبو محمد العراقي، وأبو محمد القيجاطيّ[2].

وتَمادى مشْيُ الجميع إلى تامَسْنا، والأميرُ المعظَّم أبو يحيى هنالك بمقرُبة من واسنات، وبَنو مَرِين أعزَّهم اللهُ قدِ اجتَمَعت عليهم جموعٌ من بني راشِد الزَّناتيِّينَ والوراويِّين والسُّفيانيِّين، ونَزلوا بجموعِهم في تلك الجهاتِ والجَنَبات، واستعَدّوا للقتال معَ السّعيد والنِّزال، وتخَيَّروا من فُرسانِهم الأبطالِ مَن يتشوَّفُ في تلك النواحي والأقطار، ويَطَّوَّفُ عليها لسَماع الأخبار. فلمّا وصَل السّعيدُ بمحَلّتِه إلى تلك الجهات بقُربٍ من واسنات، بادَرَ أكثرُ أهل العَسْكر للماءِ عندَ وصُولهم لشُرب دوابِّهم، فمنَعَهم بنو مَرِين من شُربِه فتَجالَدوا بالسُّيوف والرِّماح عليه، والأميرُ أبو يحيى على رَبْوةٍ ناشرٌ أعلامَه، والقتالُ على الماء بينَ الفريقَيْنِ أمامَه، إذ دفَعَ قائدُ الرُّوم بجهلِهِ عليه، وأقبَلَ جَمْعُه الذّميمُ

---

(١) في ق، ك: «بالمرتضى».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٦-٣٤٧، والاستقصا ٢/ ٢٤٧.

إليه، فأسرَع بنو مَرين إليهم، وانقَضّوا عليهم، فقَتلوا أكثرَ جماعتِه الذّميمة، ورُفِعت على مَن خَلَص منَ القتال[1] منهم الهزيمة، وأخَذ بنو مَرِين علامَهم، وفَرَّ قائدُهم المهزومُ إلى مضاربِ السّعيد فِرارًا أمامَهم.

فلمّا اتَّصل الخبرُ بالسّعيد، أمَرَ بحضور القريب والبعيد، منَ الموحِّدينَ والعَرَب والأجناد، وأمَرَهم بالتأهُّب للقتال والجِلاد، فقاتَلوا قتالًا شديدًا، وصبرَ الفريقانِ للضَّربِ والطِّعان، إلى أن جُنَّ اللّيل وافترَق الجَمْعان، وبعدَ ذلك حصَلَ بيدِ الموحِّدين عبدٌ من عَبيد بني مَرين عارفًا[2] بأمورِهم وأحوالِـهم، فأرادوا أن يقتُلوه، فقال لهمُ السَّعيد: اسألوه عن أمرِهم وحالِـهم واعتَقِلوه، فإنْ صَدَق في مقالِه وإلّا فبعدَ ذلك تقتُلوه، فأُحضِر بينَ يدَي السَّعيد، فقال: إنّ الأميرَ أبا يحيى اجتَمع معَ أبي حديد، وخَرَجا عن المحَلّة بنحو ميلَيْن اثنين، فقيل: إنّهما اتَّفَقا على القتال في اليوم الفُلانيّ خاصّة ويفترِقان، فلمّا كان صَبيحةُ اليوم المذكور أمَرَ السّعيدُ بركوبِ الناس مستعدِّينَ للقتال، فرَكِبوا وتأهَّبوا للجِلاد معَهم والنِّزال، وأمَرَهم السَّعيدُ أن يدفَعوا بجُملتِهم دَفْعةً واحدة فدَفَعوا، فحارَبَهم بنو مَرِين ومَن كان معَهم ساعاتٍ من ذلك اليوم، ثم رَفَعوا أيديَهم عن القتال ووسَّعوا قاصدينَ إلى جهة الغَرْب، وذلك خُدعةٌ من خُدَع الحرب، فطَمِع فيهم السَّعيدُ لـمّا وَسَّعوا أمامَه.

ورجَع كانونُ إلى جهة مَرّاكُش ناشرًا أعلامَه، وتَبِعه عَرَبُ سُفيانَ بجُموعِهم، وتابِعِهم ومتبوعِهم، وتَبع السَّعيدُ بني مَرين وجَدَّ في اتّباعِهم، فما وقَفوا إليه ولا عَرَّجوا عليه، إلى أنْ صَحَّ عندَه أنّ كانونَ كرَّ راجعًا من الـمَيْدان معَ إخوانِه عَرَب سُفيان، فخافَ أن يدخُل مَرّاكُش كما دخلَتْها الخُلَّطُ قبل ذلك وأنّ على ذلك كان اتّفاقُه معَ الأمير أبي يحيى واجتماعُه. فأمَرَ أهلَ محلّتِه بإقلاعِهم من هنالك ورحيلِه، وجَدّ في اتّباع كانونَ يُقفِّي أثَرَه على طريق مَرّاكُش إلى أنْ سَمِع خبرَه، ورَجَع إلى جهة دَكّالة فلقِيَه، وكان من أمره ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

---

(١) في ق، ك: «القتل».

(٢) هكذا في الأصل، والجادة: «عارفٌ».

ذكرُ دخولِ كانونَ مدينةَ أَزَمُّور[1]

وذلك أنه لـمّا كرَّ كانونُ بن جرمونَ راجِعًا عن السَّعيد وتَركَه مُستغرِقًا في الحروبِ معَ بني مَرِينَ التي ليس لهم فيها نَظيرٌ ولا قريب، قَصَدَ إلى أَزَمُّور فأدخَله عليُّ بن يزيمرَ التامرديُّ إليها فاستَولَى معَ عَرَبِه عليها، فاستطالت أيديهم فيها على بعض حَضَرِها الغُرَباء بأنواع الظُّلم والاعتداء، وأغْرَمَهم أموالًا وأغْرَمَ اليهودَ الساكنينَ بها كذلك مالًا، واستأصلَتْهم العَرَبُ استئصالًا، وكان واليَها حينئذٍ ابنُ معنصر الكُوميُّ، تَركَه ابنُ ماكْسِن عِوَضًا منه ونائبًا فيها عنه، فقد كان تَوجَّه المذكورُ معَ الشّيخ أبي عبد الرّحمن القاسم بن زكريّا الهنائيِّ معَ جُملة من بني هناءَ لِلقاء السَّعيد بالتضييفِ له إلى تامَسْنا، ولو حضَرَ القاسمُ بن زكريّا بأَزَمُّور، لَـما كان أحدٌ يَجسُرُ على شيءٍ من تلك الأمور.

ولـمّا اتَّصل بكانونَ خبرُ رجوع السَّعيد خَرج من أَزَمُّور وقصَدَ إلى جهة جَبَل الحديد وأخَذ على دكّالةَ قاصدًا إليه، فسَمِع بخبره السّعيد، فانقَضّ بعسكره عليه، وكان السّعيدُ قَدَّر على ما ذُكِر أنه تَوافَقَ معَ ابن وانودينَ على دخُول مَرّاكُش، فأسرَع في طلبِ كانونَ المذكور، حتّى قطع في وجهِه حين خَرج من أَزَمُّورَ وأوقَعَ السَّيفَ على مَن كان معَه من العَرَب الـمُعتَدِين والـمُفسِدين، وقضَى فيهم أَرَبه ومطلبَه، وفَرَّ كانونُ معَ مَن خَلَص من عَرَبِه إلى الغرب[2].

ولـمّا ظَفِر السّعيدُ بالعَرَب المذكورين وقتَلهم واستأْصَلهم، أمَرَ بحزِّ رؤوسهم وبعَثَ بها إلى مَرّاكُش، فعُلِّقوا بها على السُّور، وتوجَّه بعسكرِه إلى أَزَمُّور، وقيل: إنه كان حَلَفَ أن يدخُلَها بسيفِه، وكان أهلُها في أمرٍ عظيم من خوفِه، فخَرج إليه الصُّلَحاءُ نفَع اللهُ بهم وأخبَروه بأفعال العَرَب وأعمالِـهم، وبمَن كان السببَ في دخولِـهم، فوقَعَ البحثُ في كلِّ الجهاتِ على عليِّ بن يزيمر، فقُبِض عليه، ودخَل السّعيدُ على يمينِه إلى أَزَمُّور، وسيفُه كما ذُكِر مشهور، وعَفَا اللهُ عن أهلها فيما سَلَف إلّا على الجاني ابن يزيمر لأجْلِ ما اقترَف، فسيقَ إلى مَرّاكُش مصفَّدًا في الحديد، فأمَرَ فيها بقَتْلِه السَّعيد، بعدَما عايَنَه القريبُ والبعيد.

---

(١) ينظر عن أزمّور: الروض المعطار ٥.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧، والاستقصا ٢/ ٢٤٧.

ولـمّا وصَل الأميرُ أبو يحيى إلى جهة مِكْناسةَ وتلك الجهات، من مقابَلة السّعيد على واسنات، وراياتُه منصورة وجيوشُه مَوْفورة، قامَت هُوشةٌ بمِكْناسة وقتَل العامّةُ واليَها راجلَ السّعيد، وقال بعضُهم: هو مجْرازٌ بكلام بني مَرِين سَمَّوه بأسماءِ العبيد، فخافَ خاصّتُهم وخاطَبوا الأميرَ أبا يحيى ووافَقُوه بأموالٍ معلومة ليَحُولَ بينَهم وبينَه، وكان أهلُ الغَرْب مُرتقِبينَ لوصُول الأمير أبي زكريّا من تونُس، وبايَعَه أهلُ سَبْتة وطَنْجة، فاقتضَى نظَرُ قاضي مِكْناسةَ ابنِ عَمِيرة أن يَكتُبَ إليه هذه البيعة[1].

ذكرُ نصِّ البَيْعة المِكْناسيّة لأمير الحضرة التُونُسيّة

الحمدُ لله العليِّ الكبير، اللّطيفِ الخَبير، خالقِ الخَلْق غنيًّا عن المثالِ والنَّظير، ومقدِّرِ الأشياء على ما اقتضَتْه حِكمتُه من التدبير، يدبِّرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرض ولا اضطرارَ في الأمرِ ولا اضطرابَ في التقدير، مُكوِّرِ اللّيل على النّهار ومُكوِّر النهارِ على اللّيل فتاهتِ العقولُ وفَنِي الـمَقُول في الشاهدِ من أسباب التكوين والتكوير، وصَلّى اللهُ على سيّدِنا ونبيِّنا[2] محمد المبعوثِ بالكتابِ الـمُنير، المنعوتِ بالبشيرِ النّذير، طَلَعَ بَدْرًا باهرَ الطّالع هاديًا بنورِه الساطع والأرجاءُ مُدلَـهِمّةٌ بالدَّياجير، والجاهليةُ في غَلوائها من احتقابِ مَذَمّة الجَوْر والاحتقار لذمّة الـمُجير[3]، فثَـنَى[4] الخَلْقَ عن شرودِهم، وسَفَر بينَ العبادِ ومعبودِهم، فكان شَرَفُ السِّفارة على قَدْر شَرَف السَّفير، ومكانُه عندَ الله كما اختارَه من الرَّفيق الأعلى حينَ[5] أتَتْه رسالةُ التخيير، صَلّى اللهُ عليه وعلى آلِه المتخَبينَ من معدِن التقديس والتطهير، وأصحابِه المهاجِرينَ الفائزين بثوابِ صُحبتِه بالمقام الشّهير والحظِّ الجَليل الخطير[6]، والأنصار الذين قاموا بنُصرته عندَ عُدْم النّصير، واستَأْثَروا به حين رجَع الناسُ بالشّاء والبعير، صلاةً تَتوالَى عليه وعليهم ما لاحَ الصّباحُ باهرَ

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

(٣) في ق، ك، ب: «الأجير»، ولا معنى لها.

(٤) في ق، ك، ب: «فنهى»، وهي بمعنى.

(٥) من هنا إلى قوله: «من معدن...» سقط من ق، ك.

(٦) عبارة ق، ك، ب: «صحبته بالحظ الجزيل الخطير».

التباشير، ونَثَرتِ الرِّياحُ جواهرَ الغُصن الـمَطِير، ورضيَ[1] اللهُ عن الـمَهْديِّ المعلوم مجدِّد رَسْم الهداية، وقد كان على خطرٍ من التغيير، وعلى خِيَرةِ أوليائه وأصحابِه الذين استعمَرَهمُ اللهُ أرضَه فأقاموا سُنَّة الله وفَرْضَه مختارينَ من أَروم الكَرَم والخير، متواصينَ في إظهار أمر الله بغاية الجِدِّ ونهاية التشمير، ونرفَعُ الدّعاءَ في مَظانِّ قَبولِه، ومواقفِ الرّجاء في وصُولِه، لـمَولانا الإمام الأعظم والملاذِ الأعصَم الأمير الأجَلِّ الـهُمَام الطاهرِ الأسعدِ الأشرف الأعلى المؤيَّد المنصور ناصر الدِّين وكافلِ الإسلام والمسلمين أبي زكريّا ابن الشّيخ المعظَّم المقدَّس المجاهد الأرضيِّ أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حَفْص، ولوَلِيِّ عهدِه الكريم وسَليل مَجْدِه الصَّميم الأمير الأجَلِّ الـهُمَام المؤيَّد أبي يحيى.

أمّا بعد، فإنّ اللهَ سبحانَه خَلَق الخلقَ بالفِطَر والصُّور مُتفاوتين، وعلى عَرَض هذا الأدنى مُتَهافتين، وجَعَل السُّنّة التي أعلى أعلامَها، وبيَّن أكرمُ خَلْقِه[2] عليه السلامُ[3] أحكامَها، لأمر مصالِحِهم ناظمة، وعلى أخْذِهم بالتناصُف والتعاطُف قائمة، لا يَصلُحُ الناسُ فَوْضى[4]، ولا يترُكُ الغُواةُ إذا أهمَلَهمُ الوُلاةُ تقحُّمًا في الباطل وخوضًا، ومن نِعَم الله على الرعيَّة هدايةُ رُعاتِها، واستقامةُ قادتِها إلى سبيل النّجاة ودُعاتِها، وأن يكونَ أهلُ الفضل والوَرَع بطانتَهم، ويتَولّى الأخيارُ والصُّلحاءُ إنجادَهم وإعانتَهم، فبهذا تتِمُّ النَّعماء وتسكُنُ الدَّهماء، وتُحقَنُ في أهبِها[5] الدِّماء، كما أنّ ضدَّ هذه الحال مُؤْذنٌ بخَراب العِمران وتسلُّط حزب[6] الشّيطان، ومن الـمَقُول المقبول: «يزَعُ اللهُ بالسُّلطان ما لا يزَعُ بالقرآن»، والمشاهدُ في هذه المدّة كان قد أحالَ[7] أوجُهَ الأيام وأشْمَت[8] الكُفرَ

---

(١) من هنا إلى قوله: «ونرفع الدعاء» سقط كلّه من ق، ك، ب.

(٢) سقط من ق، ك، ب.

(٣) سقط من ق، ك، ب.

(٤) عبارة ق، ك، ب: «لا يضاع الناسُ مرضى».

(٥) قوله: «في أهبها» سقط من ق، ك، ب.

(٦) سقط من ق، ك، ب.

(٧) في ق، ك، ب: «حال».

(٨) في ق، ك، ب: «واشتمل».

بأهل الإسلام، وما زال عدوُّ الدِّين يَشفي منه صدرَه، ويُركِبُ أهلَه بها يتَعاظمُ أحدُنا ذكرَه، إلى أنِ انقَضَت بحمد الله مدّةُ الإملاء، وأَذِن كسُوفُ الأحوال بالانجلاء، فطَلَع الفجرُ على الغرب من ثَنِيّتِه، ورأى بعدَ الشكِّ بُرهانَ بُرئه من شَكيّتِه، يُنادي به الجِدّ الذي استقال من عِثارِه، وخَرج قمرُه من سِرارِه، قد أمكَنَت الفُرصةَ من يَبتدِرُها من بلادِك، واصطَفَت[1] الحَلَبة فأعِدَّ لها الـمُقْرَب[2] من جيادِك، وهذا موقفُ الخبرة قد بَدا، وإنّما يفوزُ بالخصل السبّاقُ إلى المدى.

ومِكْناسةُ هي التي وَلَـجَت من هذا الباب، وأسْرَجَت وليلُ الخَطْب مُرخِي الجِلباب، ورأت فُرجةَ الفُرصة فنَصَّت، وقِيدَ إليها في يد القهر[3]، وأبرأها من عوارضِ الدّهر فأقصَّت[4]، وعَلِم أهلُها أنه لا يَصلُح معَ[5] التقصير غَيْرة، ولا تُقبَلُ بعدَ[6] الفتح هجرة، وأنّ دعوةَ الإمارة التي تُزَفُّ[7] بناتُ الآمال بساحتها، ويَخِفُّ ثباتُ الجبال عندَ رَجاحتِها، وهِي الدّعوةُ الواقعة، مواقعَ سُحبِها اللامعةُ[8] في مطالع شُهُبِها، المبنيُّ على ضَرْب العِدا وقسمة البأس والنَّدى حسابُ كتائبِها وكتُبِها، هي مَطمَحُ الهِمَم ومَرْقاها، ومجتمَعُ الأمانيِّ ومُلتقاها، والـمَفزَعُ من متسلِّطٍ تنصرُ البِيضُ منه صيدَها، فتودُّ أنّ حدَّها منه سَقاها، وتَصْبو[9] لأن تُصيبَ مصيبَه بأسعدِها كما كان مصيبُ سمِيِّها أشقاها، لا جَرَمَ أنّهم خَلَعوا طاعتَه خَلْعَ النِّجاد، وضرَبوا بينَهم وبينَها بأوثق

---

(١) في ق، ك، ب: «واختطفت».

(٢) المقرب والـمُقربة: الفرس التي تدنى وتقرب، وتكرم ولا تترك، كما في معجمات اللغة. ووردت اللفظة في ق، ك: «المغرب» وليست بشيء.

(٣) في ك: «القصر».

(٤) في ق، ك، ب: «فاقتصّت».

(٥) في ق: «لا يقصد على»، في ك، ب: «لا يقصد مع».

(٦) في ق، ك، ب: «ولا يقبل بهذا».

(٧) سقطت من ق، ك، ب.

(٨) من هنا إلى قوله: «مطمح الهمم» سقط كله من ق، ك، ب.

(٩) من هنا إلى قوله: «لا جرم» سقط من ق، ك، ب.

الأسداد، وولَّوا وجوهَهم قِبلةً تَرْضاها عبادةُ الوفود ووفادةُ العباد، وأبصَروا فجرَ الحقيقة وقد أذهَبَ اللهُ بخَيْط البَياض منه خَيْطَ السَّواد، حيث مياهُ الكرم مفجَّرة[1] وجِباهُ الأُمم معفَّرة، وأعاظمُ الرِّجال أمثلةٌ مصغَّرة وضراغمُ الأغيال في حَوْمة[2] النِّزال حـمُرٌ مُستنفِرة.

وعندَما أُخرج الحقُّ[3] من تلك العُهدة، وتـمَخَّض الرأيُ عن صَريح الزُّبدة، اتَّفق منهمُ العلماءُ والصُّلحاء، والأشياخُ والأعيانُ والنُّصَحاء، ووجوهُ القبائل والعساكر، وكافّةُ طبقاتِ الناس منَ البادي والحاضِر، على أنْ بايَعوا الإمامَ الهاديَ الأميرَ الأجَلّ أبا زكريّا ابنَ الشّيخ المجاهد أبي محمد عبد الواحد ابن الشّيخ المعظَّم أبي حَفْص بيعةً رَفَعت بالعدلِ معالـمَها، ووضَعَت على التقوى قواعدَها، وصادَفَ وقتَ الحاجة بيانُها، وأُسِّس على تقوًى من الله ورضوانٍ بُنيانُها، ابيَضَّت بها وجوهُ الـمُنى وكم تغيَّرت ألوانُها، وطَلَعت لها شمسُ الهداية من مَشرِقها فنفَع الناسَ إيمانُها، ورَفَع البؤسَ قِرانُها الأسعدُ وزمانُها، أعطَوْا بها صفقةَ أيْمانِهم مُبادِرين، وشكروا اللهَ على نعمة القيام بها وسيَجزي اللهُ الشاكرين، على السَّمع والطاعة، والارتباطِ بلُزوم الجماعة، والانقياد للأوامرِ والزَّواجِر بمبلَغ الوُسْع ومجهودِ الاستطاعة، في اليُسر والعُسر والقُلِّ والكُثْر، والسَّرّاءِ والضَّرّاء والشِّدة والرَّخاء، وعلى ما بايَعَ عليه سَلَفُ هذه الأُمة أئمتَهم، وأعطَوْا بها عن بصيرة ونقاءِ سَريرةٍ عهودَهم وأذِمّتَهم، النيّاتُ في الوفاءِ بها صادقة، والألسِنةُ بشُكر الله عليها ناطقة، والظّواهرُ معَ البواطِن في التزام أحكامِها والانقياد بزِمامِها متوافِقةٌ متطابِقة، طَوْقُها لهم ألزَمُ من طَوْق الحَمام، ورِبقتُها منعقِدةٌ في أعناقهم برِبقة الإسلام، وبعدَ أن أبرَزَوا عمَلَها في أبهى صُوَر الأعمال، واستوفَوْا عقدَها بشروط الصّحةِ والكمال، أتْبَعوها بأُخرى تتنزّلُ منها منزلةَ السُّورة من الفاتحة، وتُدِلُّ على رَوْضِها النّضير بنواسِمِها النافحة، وهي البيعةُ للأمير أبي يحيى، وفَرْع الدّوحةِ العُليا، ونظام أمرِ الدِّين

(١) في ق، ك، ب: «متفجّرة».

(٢) في ق، ك، ب: «خدمة» وليس بشيء.

(٣) في ق، ك، ب: «الخلق».

والدّنيا، نَصَر اللهُ أعلامَه، وأسعَدَ أيامَه، وأمضَى في عدوِّه الماضيَيْنِ القاضيَيْنِ رأيَه وحُسامَه، على سُنّة البيعةِ لوُلاة العهود، وما مضَى العمَلُ عليه في مثلِها[1] من مَهمّاتِ الأمورِ ومُبرَماتِ العقود، وكلتا البيعتَيْنِ أمضَوْها على أساليبِها الـمَرْعيّة، وقوانينها الشّرعيّة، بنيّاتٍ كريمة وغيوبٍ سَليمة وبصائرَ وجَدَت منهم أمضَى عزيمة[2]، أشهَدوا عليها اللهَ الذي قولُه بالوفاءِ مرتبطٌ بإيجابه، وأمرُه الذي لا تقومُ السماءُ والأرض إلا به، وكفَى بالله شهيدًا، وكفى بالله عليمًا، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. وكتَبَ الملأُ المذكورونَ بكلِّ ما ذُكِر فوقَ هذا بخطوطِهم شاهدينَ على أنفُسِهم بنصِّه كلِّه، وعاقدينَ منه ما لا رُخصةَ لأحد من الأحدين في حلِّه، وذلك في يوم الجُمُعة الـمُوفي عشرينَ لربيع الأوّل من سنة ثلاث وأربعينَ وست مئة.

ولـمّا اتّصل خبرُ أهل مِكْناسةَ بالسّعيد وبما فَعَلوه من قَتْل عاملِه ومُبايعتِهم لصاحب تونُس، شَرَع في الحركة إليهم بحَنَق عظيم، ثم إنّ أهلَ مِكْناسةَ بعَثوا صُلَحاءهم وعُلَماءهم راغبينَ في العَفْو الأتمّ، مستغفرينَ اللهَ ممّا اقتَرفوا من الإثم، مُقسِمينَ أنهم لم يُوافقوا قاضيَهم على كَتْب تلك البيعة المذكورة، وخاطَبَه خاصّتُهم وعامّتُهم بمُخاطباتٍ يَطلُبونَ منه العفوَ والرِّضى، ويُجرُونَ السَّهوَ فيما سَلَفَ ومضَى، وكتَبوا مُخاطبتَهم ببيعتِهم من إنشاءِ ابن عَبْدون، فقُرئت عليه، فعَفَا عمّا ذُكِر من تلك الأمور.

تجديدُ بيعة أهلِ مِكْناسَةَ للسَّعيد
من إنشاءِ ابن عَبْدونَ الكاتبِ الـمُجيد

الحمدُ لله مقدِّر الأمور، ومصرِّف المقدور، ومُخرج عبادِه من الظُّلُمات إلى النُّور، عالم السرائر، ومنوِّر البصائر، ورافع الدرَجات وواضع الخَطيّات، وهُو الذي يَقبَلُ التّوبةَ عن عبادِه ويَعْفو عن السيِّئات، وَسِع كلَّ عاصٍ حلمُه، وأحاط بكلِّ شيء علمُه،

---

(١) قوله: «في مثلها» سقطت من ق، ك، ب.

(٢) قوله: «وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة» سقط من ق، ك، ب.

ونفَذَ في كلِّ موجودٍ حُكمُه، لا رادَّ لِـما به حَكَمَ وأمَر، ولا ناقضَ لِـما أحكَمَ وأمرّ، قدَّر الأشياء وأتقنَ الإنشاء، وآتى مُلكَه مَن شاء، وأسَّس بالإمامة مبانيَ الدِّيانة، ووصَل بها للرّعايا أسبابَ الرعاية، وأمدَّ من أهلِه لوراثةِ مقامِه الأسمى، واختاره لأمانتِه العُظمى، بالإنجادِ والإعانة.

ومنها: بعدَ تَمام الدّعاءِ والصّلاة والرِّضى، اللهمَّ ارْضَ عن خليفتِك في عبادِك، المرتسِم في ديوان أوليائك وعبادِك، الإمام المؤيَّد، والحُسام المهنَّد، الأتقَى الأطهر الأعلى، المعتضِد بالله أميرِ المؤمنين أبي الحَسَن ابن سيِّدِنا الخليفة الإمام المأمون أميرِ المؤمنين ابن الخُلفاءِ الرّاشدين رضًى يُبلِّغُه أملَه في الدُّنيا والدِّين، ويَحكُمُ لدولته السّعيدة ومدّتِه الحميدة بالتمهيدِ والتمكين، ويجعَلُ كلمتَه الباقيةَ إلى يوم الدِّين. اللهُمّ كما انتقَيْتَه من أكرم جُرثومة، وسدَّدتَه لإقامة حدودِ الله المرسومة، فضاعِفِ اللهمَّ في قلوبِ رعاياه حبَّه، وأيِّدْ بالملائكة والرُّوح عِصابتَه وحزبَه.

ومنها: ومَن[1] شُكِرت في الخِدمة آثارُه، فحقيقٌ أنْ تُغفَرَ زلّتُه وتُمحى آثارُه، وأنّ العبيدَ من أهل مِكْناسَة قدِ اجتَمعوا ووقَفوا موقفَ الاستكانة والمذلّة، وقَرعوا سنَّ النَّدَم على ما صَدَر عنهم من زلّة، واستَشْعَروا لِباسَ الإنابة، وبادَروا لهذه الدّولة الـمُعتصميّة بالإجابة، واتّفقوا جميعًا على أن جَدَّدوا بيعتَهم لسيّدِنا ومَولانا الخليفة الإمام المعتضِد بالله أميرِ المؤمنينَ أبي الحَسَن ابن الأئمّةِ الرّاشدين، أعلى اللهُ يدَه، ونصَرَه وأيّدَه، حسبَما تقدَّم مُستوعبةَ الشروط، مستوفاةَ العقودِ والرُّبوط، لم يَستثنوا فيها فصلًا، ولا أغفَلوا من عقودِها فَرْعًا ولا أصلًا، بنفوس مغتبِطة، ونيّاتٍ على الوفاءِ بما التزَموه من عقودِها مرتبِطة، وأشهَدوا اللهَ وملائكتَه على أنفسُهِم بذلك وهم به عالمون، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقيَّدوا عليه شهادتَهم في تاسعَ عشَرَ شهرِ ذي الحجّة من عام ثلاثة وأربعينَ وست مئة.

وفي هذه السنة: بايَعَ أهلُ إشبيليَةَ وأهلُ سَبْتَةَ للأمير أبي زكريّا، وبعَثَ ابنُ خِلاص صاحبُ سَبْتَةَ هديّةً إليه معَ وَلَدِه في غُراب جديد فغَرِق الغُرابُ بها وبالوَلَد، ولم يخرجْ

---

(١) في ق، ك، ب: «وقد»، وما أثبتناه أوفق لقوله بعد «فحقيقٌ».

منه أحد، وفيه كان الكاتبُ أبو إسحاق بنُ سَهْل، وبعَثَ أهلُ إشبيلِيَةَ بيعتَهم معَ بعض وزرائهم وكُبرائهم، وكان شيخَنا إذ ذاك وصاحبَها أبو عَمْرو ابنُ الجَدّ[1].

وفي سنة أربع وأربعينَ وست مئة: وصَلَت الأجفانُ التونُسيّة إلى سَبْتَةَ وإشبيلِيَة، فوصَل واليًا على سَبْتة ابنُ الشّهيد الـهَنْتاتيُّ ومشغلًا بها ابن أبي خالد البَلَنْسي، ووصَل إلى إشبيلِيَةَ أبو فارس برَسْم أن يَسكُنَ قَصَبتَها. وكتَبَ الأميرُ أبو زكريّا إلى أهل إشبيلِيَةَ هذه الرسالةَ التي أذكُرُها هنا مُختصَرةً، إن شاء اللهُ تعالى:

فصلٌ من ذلك بعدَ الدُّعاءِ والصَّدَر

وإلى هذا وَالَى اللهُ من صُنعه الجميل ما يعُمُّ مُرادَكم ويَعصِمُ مَرادَكم، فإنه وَفَد وفْدُكمُ المبارَكُ ببيعتِكم التي أُسِّست على الرِّضوان قواعدُها، وأجاب بكم إلينا داعي السعادة فلم تُبطِ في إنجازِ الإجابة مواعدُها، وثوَّبَ بكُم إلى تفيُّؤ الوارفِ من ظلِّها فلم تَنْبُ عن الإصغاءِ مواقعُ ندائه، ويسَّرتْكمُ اليُسرى لاقتفاءِ سُبُلِها وبُشرى لـمَن يسَّرتْه لاقتفائها واقتفارِها، وبشَّرتْه بحُلول مَمادحَ تلقَّته من رَحْبِها وسُبُلها بسُفور أهل السعادة وأسفارِها، حيثُ النّجاحُ للساعي أصدقُ رائدٍ لا يكذِبُ أهلَه، والإسجاحُ على كلِّ مَلَكة عائدٌ بما لم يعُدْ فيه إلى الحسن سهلَه، والإفصاحُ بما يُجمجِم عنه الانتصارُ لدين الله وسُنّةِ نبيِّه عليه السلام، والإيضاح لمناهج الإدراع والاستشعار بكلِّ عزيمةٍ ماضية في إعلاءِ شعارِ الإسلام.

ومنها: فقد مهَّدنا لكُم من النّظَر الصّالح أوْثَرَ مِهاد، تَنامونَ ملءَ الجُفون في ذُرى الأمنِ وناميًا بأمنياتِكم في أكنافِ الامتداد، وعقَدْنا لكم ذمّةَ استنصارٍ أُمِرَّتْ بيدِ العَوْن الرَّبّاني موامرُها، وأُقِرَّتْ من الإبرام والإقرار على ما تَساوت فيه بواطنُها وظواهرُها، فلْتوقِنْ تلك الجَنَباتُ المكلوءة أنّ سَمْعَنا بحول الله نَصير، ولتشعُرَنّ من العزَمات المنصورة لأيةِ حالة حالِيَة تَصير، لا يَبرَحُ يرأَبُ ثَأَى ثغورِكم ويَرتُقُ فتقَها ويلُمُّ شَعْثَها، ويدأَبُ على سلكِ أمورِكم أسهلَ مسالك الانتظام وأوعثَها، ويدرَأُ عن أكنافِكم كلَّ حادثة تُرغَمُ فيها أنوفُ النّوائب، ويَحسُمُ عنكُم من كلِّ خَطْب مباعثُه بأعجازِ كتُبِه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

أو ببدورِ كتائب، فلْتثِقوا بنَصْر الله سبحانَه وإمدادِه والنّظرِ الصالح الذي لا يغبُّكم تعاقُبُه، والاهتمام لا يَبرَحُ بمَراصدِه الذي يُراعي تعرُّفَ أحوالِكم ويُراقبُه، فتِلكم القاعدةُ منّا بالمحَلِّ الذي لم نُخْلِه من كلِّ نَظَر جميل يوجدُها، اقترابـها وانضوائها، ويُسعِدُها بالطاعة التي سَلَكت فيها أوضحَ سبيل وجَرَت من مناهج إخلاصِها على سَوائها، فشايَعتُم الحقَّ وتابعتُم أنصارَه، ودافَعتُم عن حَوْزِه وبقَّيتُم على الجادّة منارَه، فاللهُ سبحانَه يُعينُنا وإيّاكم على كلِّ عمل يُزلِفُ لـمَراضِيه، ويُجزِلُ الحظَّ من ثوابِه ويُوفِرُه، ويشفَعُ لكم مؤتنفُ[1] الإسعاد بماضيه، ويَنصُر حزبَكم الـمُفلح ويُظفِرُه، بمنِّه ويُمنِه والسلامُ عليكم. كُتِب في العاشر لمحرَّم من عام أربعة وأربعين وست مئة.

ولـمّا قفَل وَفْدُ إشبيلِيَة من تونُس بعدَما بايَعوا الأميرَ أبا زكريّا، وجَّه معَهم مشتغلًا وعاملًا وبعضَ رجالِه فوصَلوا بجُملة من القطائع إلى مدينة إشبيلِيَة فاشتَغلوا بما لا يَصلُح من الفساد، وجَرَت لهم فيها أمورٌ شنيعاتٌ لا يمكنُ ذكرُها، فأخرَجَهم أهلُ إشبيلِيَةَ وقَتلوا ابنَ الجَدّ الذي كان سببًا في وصُولهم إليهم، ولـمّا قُتل ابنُ الجَدِّ رحمه الله كان قتلُه سببًا في نزول النّصارى مدينةَ إشبيلِيَة؛ لأنّ أذْفُونْش اللَّعينَ كان مُصافيًا لابن الجَدِّ ومُصالحًا له على المسلمين، فلما مات فَسَد الصُّلحُ بينَهم فحاصَروهم.

وفي سنة خمس وأربعينَ وست مئة: أحدَقَت النّصارى بمدينة إشبيلِيَة وحاصَروهم برًّا وبحرًا، وأذاقوا أهلَها شرًّا، وكان نزولُهم عليها ووصُولُ جُموعهم إليها في شهر جُمادى الأُولى من العام المذكور، فاشتدَّ في هذه السَّنة حصارُها، وتملّأت منهم أنظارُها وأقطارُها، وأخَذوا خَلْقًا كثيرًا من أهلِها واختَطفوا في الأجفان بعضَ أطفالِها وضيَّقوا بها غايةَ التضييق، ورَمَوا الحجارةَ بالـمَنجنيق، وعَدِموا المرافقَ كلَّها قليلَها وجليلَها إلّا ما كان في بعض ديارِ الأغنياء، فإنّهم كانوا يحتاطونَ في تلك الأمور، مثلَ: الفقيه القاضي ابن منظور، فإنه كان يطمَعُ في إقلاع النّصارى عن المدينة فيأمُرُ الناسَ بالقتال والرَّمي بالنِّبال، والناسُ معَ ذلك حَيارى، يمشُونَ سُكارى وما هم بِسكارى، ومات بالجُوع خَلْقٌ كثير، وعُدِمت الأطعمةُ من القمح والشّعير، وأكَلَ الناسُ الجُلود، وفَنِيت الـمُقاتِلةُ من العامّةِ وأصناف الجنود.

---

(١) وقع في بعض النسخ: «مواثيق» وما أثبتناه من ق، ك، ب، وهو أليق.

ولـمّا انتهى بإشبيلِيَةَ شدّةُ الحصار، وعَدِموا الأنصارَ من الأمصار، وصَاروا قَبْضةً في يد أعداءِ الله الكفّار، خاطَبوا أميرَ المؤمنين المعتضِدَ بالله السّعيد وكافّةَ المسلمينَ من أهل عُدوة الغَرْب يستصرخونَهم ويُعرِّفونَهم بما نالَهم من الجَهْد العظيم والكَرْبِ الشّديد الأليم، ويُرغِّبونَهم في نُصرتهم، ويَحُضُّونَهم على جهاد أعداء الله الكافرين، فمِن ذلك قصيدةٌ يرِقُّ لها القلبُ القاسي، وتأمَرُ لها الجبالُ الرواسي، وهي [من البسيط]:

ذكرُ القصيدة التي نَظَمَها أبو موسى هارونُ بن هارونَ رحمه اللهُ تعالى يَرثي أهلَ إشبيلِيَةَ ويصفُ ما نالَهَا من الكُرَب الشِّداد ويُحرِّضُ المسلمينَ فيها على الجهاد

يا حمصُ أقصدَكِ المقدورُ حين رمَى	لم يَـرْعَ فيـكِ الـرّدى إلّا ولا ذِمَمـا
جـرتْ عليـكِ يـدٌ للـدهر ظالمـةٌ	لا يعـدلُ الـدّهر في شيء إذا حَكَـما
مـا كنـتُ أحـسَبُ أنّ الحادثـاتِ إذا	همَّت بكِ السّوءَ لا تُلقي لكِ السَّلَما[1]
ولا توهَّمْـتُ ذاكَ الحُـسنَ يطمِـسُهُ	رَيْـبُ الزّمـان ويكـسو نـورُه الظُّلَـما
قد كان حسنُكِ فتّـانَ الـشباب فمُـذ	أُصِبت عوِّضتِ منـه القُـبحَ والهرَمـا
يـا جنّـةً زحزحَتْنـا عـن زخارفِهـا	ذنوبُنـا فلزمنـا البـثَّ والنّـدما
يا سائلي عـن مـصابِ المسلمينَ بهـا	أصِخْ لتـسمَعَ أمـرًا يـورثُ الـصّمما
لـمّا تفرّقـت الأهـواءُ واضْـطَرمت	نـارُ البُغـاة فقامـت للـردى عَلَـما
ونـوزعَ الأمـرُ أهلـوهُ وقـام بـهِ	مَـن لم يجـدْ قِـدَمًا فيـه ولا قَـدَما
ثـارت حفـائظُ للتثليـث فابتَـدروا	وأيقظوا من سِنات الغفلـة الـهِمَما
وأنـشَروا ميِّـتَ الأحقـاد بيـنَهمُ	ولو أطـاقوا لعَمْـري أنـشَروا الرِّمـا
ويمَّمـوا حمـصَ في جَمْـع يـضيقُ بـهِ	ذرعُ الفضاء فسوّى الوهـدَ والأكَـما

(١) سقط هذا البيت من ق، ك، ب، ر٣.

فـالبحرُ بالمنـشآت ارتـجّ مـن ذُعـرٍ ... والـبرُّ بالمرهَفـات ارتـاع فـاكتَتما

واستوطَنوا القبرَ في الوادي وقام لهمْ ... جَسرٌ من الفُلك لا تشكو به السَّأما

فكم أُسارى غَـدت في القيـد موثقـةً ... تـشكو مـن الـذّل أقـدامًا لها حُطَـما

وكـم صريـع رضيـع ظـلّ مختطَفًـا ... عـن أُمِّـه فهْـو بـالأمواج قـد فُطِـما

يـدعو الوليـدُ أبـاه وهْـو في شـغُلٍ ... عن الجـواب بـدمع سـال وانـسَجَما

فكـم تـرى والـهًا فـيهمْ ووالـهةً ... لا يرجِعُ الطّرفَ إن حاورتَـه الكَلِـما

لَـهْفي علـيهمْ ومـا لـهفي بمغنيـةٍ ... عمّـن تبَـدَّل بعـدَ النِّعمـة الـنِّقَما

إنـا إلى الله قـد حَـلّ المـصابُ ومـا ... من حيلة في الذي أمـضى ومـا حتَـما

في كـلِّ حـين تَـرى صرعَـى مجدَّلـةً ... وآخـرينَ أُسـارى خَطـبُهمْ عظُـما

وقـد أحاطـت بنـا الأعـداءُ فـاغرةً ... أفواهَهـا تبتغـي أرواحَنـا طُعَـما

عادت سِوارًا على سُـور المدينـة قـد ... أفناه عضًّا وكـم مـن مِعـصَم قَـصَما

عَفَت يدُ الشِّرك ما شاد الخلائفُ من ... قصر ومن مصنع ضخم حَكى إرَمـا

من يبصرِ المنزلَ الأعـلى يقُـلْ ولـهًا ... مـا خُـطّ قَـطُّ لـذا أُسٌّ ولا رُسِـما

أيـن القِبـابُ التـي كانـت محجَّبـةً ... فيها الملـوكُ تُفـيض الجـودَ والكرما

تُمْـضي العـزائمَ والأقـدارُ تُـسعدها ... فـلا تـرُدُّ لهـا الأيـام معتزَمـا

وكـم بطِريانـةٍ أبقـى الأسـى نُـدَبا ... في القلـب يبعـثُ وجـدًا كلّـما كُلِـما

يـا حـسنَها غُرُفًـا للحُـسن جامعـةً ... مـا طـاب قـطُّ لها إلا النّعـيمُ حِمـى

كانـت معاهـدَ للّـذات نَعمُرُهـا ... فـلا نُـراع إذا مـا هـاجمٌ هَجَـما

أيامَ غَـضُّ التـصافي محـض طاعتِهـا ... ولا تُبـالي إذا مـا لائـمٌ لَومـا

كـم ليلـةٍ قـصَرتْها القـاصراتُ فـما ... تـزالُ تـستنطقُ الأوتـارَ والـنّغما

سقَى عشيّتَها الغَـرا التـي انـصَرمت ... صـوبُ الغَـمام إذا مـا أسبَلَ الـدِّيَما

عـيشٌ تقَـضّى وأبقَـى بعـدَه أسـفًا ... كـأنّ مـا كـان منـه في الكـرى حُلُـما

يا عينُ فابكي على حمصٍ وقولي لها … منكِ البكاءُ إذا ما تُرسليهِ دما

فقد أصيبت بها الدّنيا وساكنُها … حقًّا وأصبح ركنُ الدِّين قد ثُلِما

سَطَا بها الكُفرُ إذ قَلّ النّصيرُ بها … فمن معزٍّ بها الإسلام ما سَلِما

يا أهلَ وادي الحِما بالعُدوة انتعِشوا … هذا الذّماءُ فقد أشفى به سَقَما

ماذا يُبطِّئكمْ عنّا وحُقَّ لكمْ … أن تُبصِروا دارَ قوم أصبحت رِمَما

وحقُّنا واجب فالدِّين يجمَعُنا … معَ الجِوار الذي ما زال مُنتظِما

وقد دعَوْنا فأسمَعْنا على كثَبٍ … بما قدِ استنفَدَ القرطاسَ والقلما

فزعمُ أذفونَشْ أنّ الحصرَ يُهلِكُها … والله يكذِبُ ما رَوّى وما زَعَما

إن تنصرونا فإنّا منشدونَ لهُ … لا يُرغِمُ اللهُ إلّا أنفَ من رَغِما

فتحُ الجزيرة ممّا سَنّ أولُكمْ … فلْتُثبِتوا للهُدى في أرضِنا قَدَما

كونوا لها خَلَفًا منهمْ وإن نفُذُوا … ولا تُبالوا أطال العهدُ أم قَدُما

لا عذرَ في تركِها للكفر مسلمةً … إنّ الزمانَ وأنتمْ فيه ما عَقِما

كم صارخ فَزِع كان الصّراخُ لهُ … قرعُ الظنابيب حتى لم يدَعْ ألما

هل من مُجيب لداعينا فيُركبَنا … فُلكَ النّجاة فبحرُ الحادثاتِ طَمَا

لم يبقَ فينا سوى الأنفاس خافتةً … فكلُّنا في وجود يشبهُ العَدَما

كم نستغيثُ ولا إنسانَ(1) يُصرِخُنا … ونستطبُّ لداء طال ما حُسِما

وقد شَقِينا وأُشقِينا وحُقَّ لنا … بما به الكفرُ والإسلامُ قد نَعُما

يا حسرةَ الدِّين والدنيا لأندَلُسٍ … مهما استطال بها التثليثُ واجتَرَما

لم يبقَ للحقِّ في شتّى مطالعِها … نورٌ فأصبحَ ليلُ الكفرِ مرتكِما

يا نفسُ لا تذهبي للحادثات أسًى … وجامِلي الصّبرَ وارضَيْ بالذي قُسِما

---

(١) في ق، ك، ب: «أنصار».

وإن دهَتْكِ مِن الأحداث داهيةٌ دَهْياء تتركُ وجهَ الدّهر مبتسما

فالمفزَعُ اللهُ والذُّخرُ العتادُ أميـ ـرُ المؤمنينَ وحسبي في النّجاة هُما

نِعْم المَلاذُ ونِعم الذُّخرُ قد ضُمِنت نَجاةُ مَن بهما في الحادث اعتَصَما

مَن مُبلِغٌ أمرَه إنّي شقيتُ بما لقيتُ من جَوْر دهر طال ما ظَلَما

خليفةَ الله لولا النّأيُ عنكَ لَما أجزْتَ بيّ لدهرٍ كلَّ ما حَكَما

وكنتَ كاشفَ كَرْب لا انكشافَ لهُ وقمتَ دوني من الأعداءِ منتقِما

وكنتَ تشفي صدورَ الأولياءِ فلا عدوَّ إلا بما يُرضيه قد وَقِما

أقسمتُ في حَلِفي بالله مجتهدًا وحسبُ ذي حَلِف برٌّ بما قَسَما

ما السّعدُ واليُمنُ إلا خادمانِ لكمْ إنّ العظيمَ لمن فات[1] الورى عَظُما

فلا مبالاةَ بالأيام إن مطَلَت فربّما ضنَّ قَطرُ السُّحبِ ثم هَمى

فاصدَعْ بحقِّك إنّ الدهرَ ممتثِلٌ فربَّ دهرٍ عَبُوس[2] عاد مبتسما

وفي سنة ستٍّ وأربعينَ وست مئة: كان استيلاءُ الطاغية أذْفُونْش اللّعين على مدينة إشبيلِيَةَ أعادها اللهُ للإسلام، بعدَما جرَّعوا أهلَها كأسَ الحِمام، من كثرة المجاعة وعُدْم الطعام، فكلٌّ منهم في بحر المنايا غاصَ وعام، ممّا حلَّ بهم من الأوجالِ والآلام، ما يَطُولُ في وصفِه وشرحِه الكلام، ويُستنفدُ فيه القراطيسُ والأقلام، فسلَّموا لهم في المدينة وخَرج منها الخاصُّ من أهلِها والعامّ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرينَ من شهر[3] رمضانَ المعظَّم من هذا العام، وكان نزولُ الطاغية عليها في شهر جُمادى الأولى من العام الفارِط، فكان حصارُهم لها مدّةً من عام وخمسة أشهر بعدَما كانوا يجدونَها قبلَ ذلك بعام، وقد كانوا خاطَبوا السّعيدَ بمُخاطبات ومُكاتبات يحِنُّ لسَماعِها الجَماد، يستصرخونَه ويرغِّبونَه في سبيل الجهاد، وبيَّنوا له أحوالَهم، وتوغُّلَهم في أوحالِهم، وكان عازمًا بزَعْمِه

(١) في ق، ك، ب: «مات».

(٢) في ق، ك، ب: «غيور».

(٣) سقط من ق، ك، ب.

على الحركة إلى البلاد الشَّرقية: التُونُسيّة والإفريقيّة، التي لم يبلُغْ فيها ما أمَّله من الأُمنيّة، فما عرَّج على كتُبهم ولا خطابِهم، ولا رثَى لحالهم ولِما نَابَهم وأصابَهم، بلِ اشتَغل بحركتِه المذكورة، وعساكرِه الموفورة، التي كانت غيرَ مؤيَّدة ولا منصورة[1].

اختصارُ الخبر عن حركة السَّعيد من حضرتِه المَرّاكُشيّة إلى جهة البلاد التِّلِمْسانيّة وكيفيّةِ مقتلِه بها وأكْلِ محلّتِه هنالك ونهبِها

وذلك أنّ هذا الأميرَ المعتضِدَ أبا الحَسَن السّعيدَ لم يزَلْ يحدِّث نفسَه من حينَ وَلِيَ الخلافةَ بعدَ أخيه أبي محمد الرَّشيد بالحركة إلى البلاد الإفريقيّة، وكان أميرُها أبو زكريّا من حينِ دخولِه تِلِمْسانَ طَمِع في دخولِه إلى البلاد الغربية، ومنَ الاتّفاق في الأمور أنْ وصَلت هديّةٌ إلى الرَّشيد من صاحبِ صِقِلِّيّة النادون، فوجَده أرسالُه قد مات، ووَلِيَ الخلافةَ السّعيد، فدفَعوها إليه، ووَجَّه له السّعيدُ أيضًا هديّةً من عندِه معَ أرسالِه وطلبَ منه الإعانةَ بالأجفان الصِّقِلِّية إذا وصَل إلى البلاد الإفريقيّة، فكان ذلك مطلبَه ومذهبَه. وكذلك كان الأميرُ أبو زكريّا يؤمِّلُ الوصُولَ إلى البلاد الغربيّة في مذاهبِه ومقاصدِه، فماتا جميعًا في سنةٍ واحدة ولم يقضِ اللهُ لهما أَرَبًا، فيما أمّلا وطَلَبا، فاستعدَّ السَّعيدُ لهذه الحركة استعدادًا عظيمًا لم يُعهَدْ له قبلَه فيما تحرَّك من الحركات مثلُه، فقد كان يستعدُّ لها من حينَ وَلِـيَ الإمارة إلى هذه السَّنة المؤرَّخة، فتحرَّك لها، فما وصَلَها ولا رآها، وكان له منجِّمٌ اسمُه عَزّوز بن عَمْرون نَهاه عن هذه الحركة يومَ خروجِه عن حضرتِه إليها.

وكان خروجُه في غُرّة شهر ذي حجة من سنة خمس الفارِطة عن السنة المؤرَّخة إلى تانسيفت، فنزَلَ بمحَلّتِه عليها، وكان منجِّمُه يَرى في عِلمِه ونَجْمِه حُمُراتٍ كثيرةً تدُلُّ على وقيعةٍ كبيرة، وكان السّعيدُ وصَلَه كانونُ الـمَكْنيُّ بأبي حديد، فنزَلَ بمحَلّة عَرَب سُفيان على تانسيفت في جملة مَن كان بها منَ العُربان، وكان السّعيدُ وكانونُ يقال لهما: الأحمران لكونِهما كانا في لونِهما أسمرَيْن، وكان بينَهما فيما تقدَّم منازعةٌ حين خالَفَ كانونُ المذكور عليه ثم عاد في هذه السنة إليه، واجتَمع معَ السّعيد بمحَلّتِه بتانسيفتَ

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٧.

من العَرَب عساكرُ وأمداد، ومن قبائل الموحِّدينَ والمتجنِّدينَ وعبيد المخزن آلافًا[1] مؤلفة وأعدادًا[2]، فأمَرَ ببناء المصَلّى وعيَّد هنالك عيدَ الأضحى، وكثُرت الدّماءُ في المحَلّة من الضَّحايا، فقال المنجِّم: هذه الحُمرةُ التي ظهَرت لك والمنايا، فانبسَطَت آمالُه وانشَرحت للحركة حالُه، وتحرَّكَ هناك في الخامسَ عشَرَ من شهر ذي الحجة من عام خمسة وأربعينَ وست مئة، وفي تلك المحَلّة في أيام العيد توفِّي أبو زكريا الفازَازيُّ رحمه اللهُ تعالى، وتوجَّه السّعيدُ بمحَلّاته وطُبولِه وعلاماتِه إلى أنِ استقرَّ برِباط تازَا ومنها عقَد صُلحَه معَ الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ على أن يُعطيَه حظَّه حِصةً من بني مَرِين يَخدُمونَ معَه إلى بلاد إفريقيّة ويَستعينُ بهم على أعدائه ويَستأمنُ ممّن تَرَكَ منهم وراءه، فوقَع الإصفاقُ والاتّفاق أن يتوجَّه معَه جماعةُ بني عسكر؛ فتَركوا المراهينَ منهم بتازا وساروا معَه في جُملة العسكر، فلمّا وصَل السَّعيدُ إلى مَقرُبة من تِلِمْسان بعَثَ إلى أبي يحيى يَغْمراسنَ يأمُرُه بلقائه، وبالدّخول تحتَ لوائه، فوصَلَه جوابُه يُعرِّفُه أنه تحتَ طاعتِه، وداخلٌ في جملة جماعتِه، غيرَ أنه لا يصلُ إليه ولا يَلقاه، لأجْل ما كان معَه من بني مَرينَ أعدائه، لكنْ يبعَثُ معَه جُملةً وافرة من بني عبد الوادي إخوانِه وجماعتِه يكونونَ تحت رايتِه، فأقسَمَ السّعيدُ أنه إن لم يصلْ بنفسِه إليه وإلّا نزَلَ بمحَلّتِه عليه، فوقَعت بينَهما منازعةٌ في ذلك ومُنافرة، انجلَت عن مُقاتلةٍ ومحاصَرة، فرحَل السّعيدُ بمحَلّتِه إلى جهته، فوسَّع أمامَه، حين تحقَّق إلمامَه، وطَلَع إلى تامجردتَ جَبَلِه بعساكرِه وأهله، فلمّا حصَل أبو يحيى يَغْمراسنُ بجِباله، معَ خَيْله ورِجاله، بعَثَ إلى السَّعيد أيضًا أرسالَه يطلُب منه الـمُهادنةَ والمصالحة، فامتَنع وقال: ليس إلا المكافحة، فتبِعَه بالطّلوع إلى تلك الجبال، التي ليست في مسالكِها للحرب في الحِيَل مجال، وقد ضبَطَ تلك المضائقَ من بني عبد الوادي أنجادُ الرجال، فاجتَمع أشياخُ الخُلَّط في نحو ألف فارس مدَّرِعين، وتأخَّروا عن الطلوع معَه مُمتنِعينَ ومجتمِعين، وقد كانوا أشاروا عليه بالرجوع حين رام الطّلوع، وقال له وزيرُه ابنُ عَطّوش مثلَ ذلك حين عايَنَ تلك المضائقَ في المسالك ومنَعه فما امتَنَع، وبادَرَ

---

(١) هكذا في الأصل، والجادة: آلافٌ.

(٢) هكذا في الأصل، والجادة: أعدادٌ.

لنفسِه بالطلوع وما ارتَـجَع، وقال له حين صَدَّه عن ذلك بكلامِه: ادخُلْ هنا إن أنت ظننتَ، وأشار له بإحدى أكمامِه، فترجَّل الوزيرُ وتقدَّم أمامَه وقد جَرَّد حسامَه، فرمَى بنفسِه في المهالك، في مواضعَ لا يقدِرُ أن يسلُكَها سالك، والسّعيدُ يَقْفو أثَرَه غاضبًا، على بغلِه راكبًا، وأمامَه عَلَمُه المنصور، بل كان في الحين مهزومٌ ومكسور، وذلك أنه لـمّا حصَل في تلك المضائق وبينَ تلك الجبال الشّواهق، أقبلَت عليه خَيْلٌ ورِجالٌ وانصبّت عليه كالصّواعق، فأولُ مَن مات: الوزيرُ المذكور وصاحبُ العَلَم، وقُتل السّعيدُ في الحين وجَرَعَ كأسَ الحِمام، وانهزَم جيشُه أعظمَ انهزام، وتفرَّقت عساكرُه كلَّ التفريق، وتمزَّقت أحوالُه كلَّ التمزيق، واستوَلَى الخُلَّطُ في محلّتِه في أول الحال، معَ بني عسكرٍ ونَهَبوا فيها جُملةَ أموال، وذلك قبلَ أن يصلَ بنو عبد الوادي إليها، وقيل: إنهم كانوا تَوافَقوا معَ الخُلَّط عليها وباعوها منهم، هكذا ذُكِرَ عنهم، وتفرَّق أهلُ محلّة السّعيد أيديَ سبا، وقد أكلَتْهم الأرضُ نُـهَبًا، ولا عاد منهم أحدٌ إلا منهوبًا مفلولًا مسلوبًا، وكان مقتلُ السّعيد يومَ الثلاثاء مُنسلَخَ صَفَر من عام ستة وأربعين، عَفَا اللهُ عنهم أجمعين.

وقتلُ كانونَ كان قبلَ السّعيد بيوم، وقيل: في يوم واحد، وتقدَّم على العَرَب أخوه يعقوبُ بن جرمون، وبقيَ في خِدمة المرتضَى أيامًا عديدةً في المنزلة الرفيعة، فدخَل بينَه وبينَ ابن أخيه محمد بن كانون وُشاةٌ حتَى قَتلَه، وحكايتُه طويلة، فطلَبَ أخواه: مسعودٌ وعليّ أخْذَ ثأرِه بالغرب فلم يُمكنْهما ذلك، حتّى احتالا عليه فرحَلوا كلُّهم يومًا من الأيام واشتَغل الناسُ بأخذِ المنازل فطلَبا أخْذَ الثأر ذلك اليومَ لإمكانِه إيّاهما لتفرُّق الناس للصَّيد والنّزول، فانصَرفا عن عمِّهما وبَعُدا عنه حتّى رأياه نزَلَ على بئر ليتوضّأَ، فجاءاه مُسرعَيْن معَ عبدٍ لهما يسمَّى مُساعدًا وبعضِ رجالِه، فتقدَّم مسعودٌ أمامَه لأنه كان يَأمَنُ غائلتَه ويَعرِفُ حِلمَه وصَفحَه، وكان قد خَلَع خفَّه الواحدَ ليتوضّأ، فحَمَل عليه وقال: ثأرُك اليوم يا محمد، فقَتَلوه ودخَلوا دَخِيلًا على العَرَب ألّا يُعينوا عليهم، فغَفَروهم ومنَعوهم، وتقَدَّم بعدَ ذلك وَلَدُه عبدُ الرحمن فلم يَنجَحْ، ثم بعدَ ذلك عمُّه عُبيدُ الله ثم مسعودٌ، وذلك على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى(١).

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٤٥٠-٤٥٣.

ذكرُ خلافة أبي حَفْص الـمُرتضَى رحمَه الله[1]

نسَبُه: هو أبو حَفْص عُمرُ ابن السيِّد أبي إبراهيمَ ابن أميرِ المؤمنينَ أبي يعقوبَ يوسُفَ ابن الخليفة عبدِ المؤمن.

مدةُ خلافتِه: ثمانِ عشْرةَ سنةً وتسعةُ أشهر واثنانِ وعشرونَ يومًا أولُها يومُ الأربعاء غُرّةُ ربيع الأول من عام ستة وأربعين، وآخِرُها يومُ السّبت الثاني والعشرينَ لمحرَّم سنة خمس وستين، وقُتل بدَكّالةَ في الثاني والعشرينَ من شهر صَفَرٍ بعدَه.

وُزراؤه: منهم أبو محمد بنُ يونُس وأبو عبد الله محمدُ بن عبد الله الجنفيسيُّ وأبو زيد ابن عَزّوز وأخوه السيِّد أبو إسحاقَ وأبو زَيْد بن بَخِيت التينمليُّ وأبو زيد بن عبد الكريم الجدميويُّ وأبو يوسُفَ بن تيجا الجدميويُّ وأبو موسى بن عَزّوز الـهَنْتاتيُّ وأبو زيد بن يَعْلُو الكوميُّ وأبو محمد بن أصناج، ولم يجتمِعوا في وقت واحد إلا بعضُهم، واختارَ لهم لـمُصاهرته أبا سعيد بنَ تيجا وأبا موسى بنَ عَزّوز فأعطاهم بناتِه.

كُتّابُه: أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ وأبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ وغيرُهما.

وحُجّابُه: القائدُ سعدٌ وغيره.

صفتُه، على ما أخبرَ به أبو عِمران بنُ تيجا وغيرُه: معتدِلُ القامة ساطعُ البياض عالي الأنف أسيلُ الخَدِّ أحَى، أشيبُ لا يخضِبُ بحِنّاء ولا غيرِه.

ذكرُ السببِ في بيعتِه

لـمّا تحرَّك الخليفةُ السّعيدُ إلى تِلِمْسان ترَك أبا حفص الـمُرتَضى واليًا على مدينة سَلَا بعدَما كان على أَغْماتَ واليًا، وترَكَ أخاه السيِّد أبا زيد واليًا على مدينة مَرّاكُش، وكان أبو حفص رحمَه اللهُ شديدَ الوَرَع قليلَ الطّمع، فلمّا وصَل الخبرُ إلى مَرّاكُش بوفاة السّعيد وهزيمةِ عساكرِه وطائفتِه ونَهْب محلّتِه وتفرُّق الموحِّدين، اجتَمع السيّدُ أبو زيد المذكورُ معَ مَن حضَر من أشياخ الموحِّدين يتفاوَضُونَ في مصالح الأمور، فأراد بعضُهم أن يقدِّم السيّدَ أبا زيد المذكور، فامتَنَع وتورَّع، وأراد آخَرونَ تقديمَ غيرِه من بني عبد المؤمن،

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام ١٥/ ١١٩، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨.

وكان في الوقت جماعةٌ منهم حاضرون، فقام أبو عبد الله محمدُ بن عبد الله الجنفيسيُّ قائمًا وقال: غَفَلتُم يا جماعةَ الموحِّدين عن السيِّد التَّقيِّ العالِـم الزَّكَيِّ أبي حفص في رغبتِكم له في الولاية عليكم أمرَ الخلافة، وتُبايعونَه لطهارته وصِيانته، فضَجَّ الموحِّدونَ بالتَّلبية سَمْعًا وطاعةً مُغتبِطينَ مُرتبطينَ طائعينَ مُسرِعين، فبايَعَ مَن حضَر منَ الموحِّدين لأخيه أبي زيد نيابةً عن أخيه، وتوقَّف عبدُ الله بن يونُس عن بيعته حتى ذَكَر شُروطًا أوجَبَت بعدَ ذلك قتلَه، وكُتِبت البيعةُ لأبي حفص الـمُرتضَى بمَرّاكُش، وتوجَّه بها الحاكمُ ابنُ أصلماطَ فلقيَ السيّد أبا حفص مُقبِلًا من سَلَا معَ بعض الموحِّدين وأشياخ العَرَب بتامَسْنا، فعندَ وصُوله إليه بادَرَ لمبايعته وأخرَجَ بيعةَ أهل مَرّاكُش، فضُرِبت خِباءٌ لاجتماع الناس على قراءة البيعة المذكورة إذ لم يكنْ هناك غيرُها، فقُرِئت البيعةُ وانتشَر أمرُها، وبايَعَه مَن حضَر، فمن حينِه نَهى وأمَر، ثم وصَله ابنُ يونُسَ في الطريق ولم يكنْ عالـمًا بمقالِه، فقدَّمه وزيرًا وقدَّم يعقوبَ بن كانونَ على عَرَب بني جابر وأقرَّ له ببلادِه على بُغيتِه ومُرادِه، وكان يعقوبُ بن جرمونَ قد تقدَّم على عَرَب سُفيانَ كما تقدَّم.

ثم استمرَّ مشْيُه على هيئة المملكة بوُزراءَ وأُمراءَ من العَرَب وبعض المتجنِّدين والقَرابة والخُدّام، غيرَ أنه لم يكنْ بطُبول ولا أعلام، فلمّا قرُبَ من حضرة مَرّاكُش خَرج إليه أشياخُ الموحِّدين بجِهازاتٍ جميلة وكُسًى حَفِيلة وخُيول وطُبول وبُنود وجُنود، فنزَل بموضعِه ببُحيرة الطَّلبة ورياضِها المختصّ به على القِدَم وجميعُ الخَدَمة واقفين[1] على قَدَم، حتى[2] استوْفَت أغراضُه، ودخَل حضرتَه في أجمل زِيّ وأبهى حَلْي.

ولـمّا استقرَّ المرتضَى رحمه اللهُ بحضرتِه واجتَمع الناسُ على طاعته، والدخولِ في جماعتِه، نَظَر أشغالَه وتفقَّد أحوالَه وعُمّالَه، فأمَرَ بالقبض على بعض خُدّام السَّعيد فقُبِض على حاجبِه القائد أبي المِسْك وعلى خاصّتِه أبي زيد ابن البَقّة، ووقَعَ البحثُ على غيرِهما فعُثِر على مَن قدَّر اللهُ عليه بمحنتِه ونَكْبتِه، وسَجَنَ الحُرّةَ عزونةَ أُختَ السّعيد وأَغْرَمَها مالًا كثيرًا وحَلْيًا خطيرًا، ثم وصَل السيّدُ أبو إسحاقَ أخو المرتضى من سِجِلْماسةَ إلى

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «واقفون».

(٢) في ق، ك، ب: «ثم».

مَرّاكُش، إذ كان استقرارُه بها من بعدِ الهزيمة، بعدَما رأى في طريقه مشقّةً عظيمة، فأكرَمَه أخوه بما يجبُ له من الإكرام، وعظَّمه غايةَ الإعظام، فقد كان أكبرَ سنًّا منه فوجَب له عليه التكريمُ والتعظيم، وقدَّمه على الوِزارة والنّظَر في الأمور، وأمَرَ قارئَ العُشْر[1] أن يقرأَ يومَ الجُمُعة: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٣٢]. وكان ابنُ يونُس وزيرُه حينَئذٍ قد قال لأشياخ الموحِّدين حين شَرَعوا في كَتْب البيعة: تشترطوا على أبي حفص ألا يُقدِّم أخاه وزيرًا، فكان ذلك وغيرُه سببًا من أسباب تأخيرِ ابن يونُسَ عن الوِزارة، وخروجِه من دارِ الإمارة، بحُسن التدبير والإدارة، إلى حين مقتلِه على ما أذكُرُه في موضع خبرِه وأمرِه إن شاء اللهُ تعالى[2].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وأربعينَ وست مئة: استولَى الأميرُ المعظَّم أبو يحيى بنُ عبد الحقِّ على رِباط تازَا، وهُو أولُ فتحِ بني عبد الحقّ أعزَّهم اللهُ تعالى في تملُّك قواعدِ البُلدان، وكان فتحُها واستيلاءُ بني مَرِينَ عليها ودخولُهم إليها على يد الأمير المعظَّم الأعلى أبي يوسُف بن عبد الحقّ، فهو الذي تعاهَدَ معَ أهلها وأعطاهمُ الأمنَ والأمان، وأفاضَ عليهمُ العدلَ والإحسان، وذلك لـمّا توجَّه السَّعيدُ بعساكره إلى جهة مدينة تِلِمْسان واستعمَلَ صُلحًا معَ الأمير أبي يحيى ابن عبد الحقّ، وطلَب منه الإعانةَ بحِصّة من بني مَرِينَ يتوجَّهونَ معَه تحتَ لوائه ليستعينَ بهم على أعدائهم بني عبد الوادي وأعدائه، فتوجَّه معَه جماعةُ بني عسكر على ما ذُكِر وتَركوا برِباط تازَا مَراهنَهم، وبقيَ بَنو عبد الحقِّ مستوطِنِينَ بجهة بلاد الرِّيف حيث كانت مواضعُهم ومساكنُهم، فاستأمَنَ منهم السعيدُ، وانصَرف راحلًا إلى تِلِمْسان، فكان مِن أمرِه معَ يَغْمراسنَ بن زَيّان ما تقدَّم ذكرُه وكان.

فلمّا وصَل إلى الأمير أبي يحيى الخبرُ بهلاكِه وقَتْله وتبدُّد أحوالِه وخَيْله ورَجْله، وأكْلِ العَرَب وغيرهم لمحَلّتِه وتبديد أموال أهلِه وجُملتِه، وتفريقِهم وتمزيقِهم حين وقَعَت

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٢-٢٥٣.

الهزيمةُ عليهم، رحَل معَ إخوانِه بني عبد الحقِّ وبني مَرِين ومنِ انضافَ إليهم وتعرَّض لهم بجُموعِهِ على شوارع الطريق، وقد فرَّق اللهُ عسكرَ السّعيد أيَّ تفريق، فكانت لهم الغنيمةُ الباردةُ العظيمةُ الفائدة، من غيرِ طَعْن ولا ضَرْب، ولا قتالٍ ولا حرب، وهكذا جَرَت العوائد، مصائبُ قوم عندَ قوم فوائد، فكانوا يَصِلونَ إلى أيديهم قومًا بعدَ قوم ويومًا بعدَ يوم، فيأخُذونَ أثقالَهم ودوابَّهم، ويَستأصِلونَ أموالَهم وأسبابَهم، حتّى امتلأت أيديهم من أموال الموحِّدينَ وأجنادِهم، ووصَل بنو عسكرٍ أيضًا إلى بلادِهم، فاجتَمع بنو مَرِين على أميرِهم كبيرِهم وتوجَّهوا إلى تازَا حيث كان مَراهنُ أولاد بني عسكرٍ وغيرهم، فنزَلُوا بجموعِهم عليها وأرسَلوا أرسالَهم إليها، وكان واليَها السيّدُ أبو عليّ أخو السيِّد أبي العُلى إدريسَ الشهيرُ بأبي دَبّوس، فبعَثَ إليهم الرجُلَ الصّالح أبا عليّ سالـمًا، وطلبَ الاجتماعَ بأبي يوسُف، وكان به وبمذهبِه عالـمًا، فاجتَمع معَ الأمير المعظَّم أبي يوسُف وتعاهَدَ معَه على أنه لا سبيلَ أن يتعرَّض مَرِينيٌّ لتازِيّ بمضَرّة، فارتَهنَ الأميرُ أبو يوسُفَ له في ذلك ووافَقَ عليه فكان كذلك، وعاد إلى البلد أبو عليّ سالم، وخَرَج السيّدُ منها بأهلِه سالم، ودخَل بنو مَرِين وبنو عبد الحقِّ إليه، وبايَعوا للأمير أبي يحيى واجتَمعوا عليه، وطاع له قبائلُ تلك الجهات كلِّها، وبايَعه أهلُ رَبْطِها وحَلِّها، ويسَّر اللهُ فتحَ تازَا لبني عبدِ الحقّ الكرام، على يدِ الأمير أبي يوسُفَ بتيسيرِ[1] مُرام، فهو كان قُفلَ البلاد الغَرْبية فصار مِفتاحَها وأولَ فتوحها لهذه الدّولة الـمَرِينية[2].

ولـمّا استقرَّ الأميرُ أبو يحيى برِباط تازَا قَرَع الطّبول ونشَر البُنود وسارت إليه من كلِّ الجهات أشياخُ القبائل بالوفودِ والورود، وقد كان قبلَ ذلك أميرًا على بني مَرِين منذ أربعة أعوام، دونَ طُبول ولا أعلام، وكان قد وَعَد أخاه أبا يوسُف أن يُعطيَه ذلك البلد، فلمّا يسَّر اللهُ فتحَه على يدَيْه أنجزَ له فيما وعَد، فكان رِباطُ تازَا بلدَ أبي يوسُف من حينئذٍ، وقد كان أعطى للصّالح عهدَه، فسَلَّم له فيها أخوه أبو يحيى وتحرَّك بعساكره إلى مدينة فاسَ فنزَلَها، وبعدَ مدّةِ أشهُر من فتح تازَا استوَلَى عليها ودخَلها في الثامنَ عشَرَ

(١) سقط شبه الجملة من ق، ك، ب.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٣.

لربيعٍ الآخِر منَ السّنة، وطاعت له جميعُ أقطارِها وأنظارِها، وقدَّم عليها المسعودَ بن خَرْبش الحَشَميَّ فاستَوطنَ قَصَبتَها معَ جُملته وأهلِه إلى أن كان ما كان فيها من حتفِه وقَتْله على ما أختصِرُه في السّنة الآتية إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الخبر عن وفاة أبي زكريّا الـحَفْصيّ[١]

وذلك أنه لـمّا اتّصل به عن أبي الحَسَن السّعيد أنه يَرُومُ الحركةَ إليه والقُدومَ بعساكرِه إليه، قاصدًا من حضرتِه الـمَرّاكُشيّة إلى تلك البلاد الإفريقيّة، خَرج من حضرتِه التونُسيّة في سنة سبع وأربعينَ قاصدًا أيضًا إلى جهة البلاد الغَرْبية، فقد كان يحدِّث نفسَه بالورودِ عليها[٢] والقدوم بعساكرِه إليها، فتوجَّه بالعَزْم والحَزْم من حضرته في غاية الاستعداد، بعدما استَوفَت عليه الحشودُ من العَرَب والأمداد، وتآلَفَت عليه آلافٌ من الأعداد، فقد كانت عَرَبُ تلك البلاد، انقادَت له أعظمَ انقياد، فتَمادَى مشْيُه بتلك العَرَب المتكاثرة إلى جهة بلد العُنّاب وبها أصابَه من الألمِ ما أصابَه، ونابَه منه ما نابَه، وكان وَلَدُه الكبيرُ أبو يحيى، قد عَدِم ببجَاية الـمَحْيَا، فزاد تألُّـمُه منه وارتيابُه، وأضرَبَ عن الحركة كلَّ الإضراب، وصَرف أكثر ما كان معَه منَ الأعراب، وبقيَ بألـمِه بتلك الجهات، متلوِّمًا في السُّكونِ والحركات، وللظَّفَر أوقات وللقَدَر تصرُّفات، إلى أن قدَّر اللهُ عليه بعدَ ذلك بالمهات، وذلك بعدَ نحو أربعة أشهر من موتِ ابنه أبي يحيى الفقيد، فخيَّبَ اللهُ ظنَّه وظنَّ السّعيد، وماتا في طريقهما ولم يبلُغا أرَبَهما، وقيل: إنه كان بينَ موت السّعيد وموت الأمير أبي زكريّا سنةٌ واحدة وأشهر[٣].

ومن الاتّفاق الغريب أنه لـمّا مات ببلد العُنّاب كان أولادُه بتونُس، فأمَرَ أن يُنادَى على قبرِه: الصَّلاةُ على الغريب، وكان لهذا الأمير أبي زكريّا من الأولاد الذكور أربعة، منهم: كبيرُهم أبو يحيى الذي كان وليَّ عهدِه توفِّي في حياته كما تقدَّم ذكرُه، فلم يتمالَكْ صبرًا من بعدِه على فَقْدِه، فقد كان قَدَّر أنه وارثُ فَخارِه ومجدِه، وكان وَلَدُه أبو عبد الله

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٤٠٠.

(٢) في ق، ك، ب: «إليها».

(٣) في ق، ك، ب: «وشهرًا».

وأخوه أبو حَفْص بتونُسَ وأُمُّهما رُوميّة وأخوهما أبو إسحاقَ معَهما وأُمُّه عربية ريَاحيّة، فلم يحضُرْ أحدٌ منهم وفاتَه، بل كلٌّ منهم غاب عندَ وفاته. وكان حينَ توفِّي وَلَدُه أبو يحيى حَزِن عليه حُزنًا شديدًا، وجَزِع على فَقْدِه إلى أن صار في أثرِه فقيدًا، فوجَّه له هذا الرثاءَ فيه [من الطويل]:

ألا جـازعٌ يبكـي لفَقْـد حبيبِـهِ ... فـإنّي لعَمْـري قـد أضرَّ بيَ الثَّكْـلُ

لقـد كـان لي مـالٌ وأهـلٌ فقـدتُهمْ ... فأصـبحتُ لا مـالٌ لـديّ ولا أهـلُ

فلَهْفـي لقـوم فـرَّق الـدهرُ شـملَهم ... ألا راحـةٌ تُرجَـى فينـتظمُ الـشّملُ

سـأبكي وأبكـي حـسرةً لِفـراقِهمْ ... بكـاءَ قَـريح لا يمَـلُّ ولا يَـسْلو

وإنّي لَأرضى بالقـضاءِ وحُكمِـه ... وأعلـمُ ربّي أنـه حـاكمٌ عـدْلُ

وكان الأميرُ أبو زكريّا رحمه الله مَلِكًا مُطاعًا وبطلًا شُجاعًا مُشاركًا في العلم للعلماء، ومدبِّرًا للأمورِ بالمعرفة والدّهاء، مُطابِقًا للأُدباء النُّبهاء، فذًّا في البلاغة والبراعة بارعَ النّظم والنّثر حسَنَ الألفاظ في البُلغاء، كثيرَ الأدب واللّغة في طبقات الشّعراء، وقد أثبتُّ هذه الرّسالةَ النبويّة ليُستدَلَّ بها على فضلِه وبديع قولِه رحمه الله تعالى:

ذكرُ الرِّسالة النبويّة التي أنشأَها الأميرُ أبو زكريّا إلى الحضرة الشريفة حضرة خيرِ البريّة ﷺ

إلى سيِّد المرسَلين، وسنَدِ الـمُبْسلين، الرؤوفِ بالمؤمنين، الموصُول من سببه متين، الآخِذ بالحُجَزِ عن النار، الباني من طُرُق النّجاة أرفعَ منار، العاقبِ الحاشر الطاوي الناشر، الكالئ الحافظ، الـمُعْرَض عليه الجنة والنار في عرض الحائط، المنعوتِ في التوراة والإنجيل، المحميّةِ ذُراه بحجارة من سِجِّيل، مَطلَع المعجِزات غُرًّا ساميةً كبنات بَخْر، سيِّدِ ولدِ آدمَ ولا فَخْر، الذي نبَذَ الدنيا وفلَّ شَباها، وشدَّ على بطنِه الحجرَ ولو شاء لتَبِعَه ذهبًا وفضّةً أخشباها، فصالَ بالشِّرك وسَطًا، وجعَلَنا اللهُ به أُمةً وسَطًا، ذو[1] الخُلُق العظيم، والقلبِ السَّليم، الـمُلقَّى القرآنَ من لَدُن حكيم عليم، أشدِّ مَن رامى، وأسدِّ الناس مَراما،

(١) هكذا في الأصل، والوجه: «ذي».

وأصدَعَ عندَ الألباس، وأشجَعَ على حين يحمَرُّ الباس، وأثبَتَ والمقامُ دَحْض والموتُ عَضّ، وأبرِّ من حمَلتْه ناقة، وأوفى من شَدَّ إليه راحلٌ شِناقَه، أرْوَى من عَجْفاءِ أُمِّ معبَد، وترَكَ نُورَ الإسلام وهو معبَّد، فجدع مَن خدع، وحنَّ إليه الجِذعُ وختم به الأزلم الجدع، النبيِّ لا كذِب، محمدِ بن عبد الله بن عبد المطّلب: من عبد الله يحيى بن عبد الواحد بن عُمر، سلامٌ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبرَكاتُه.

وعلى أنورِ[1] وأكرم خليليْنِ في الـمَحْيَا والمهات، الثاني في الغار، المتعلِّق منَ التصديق بالسببِ المغار، الثابتِ حين جَفَّ الرِّيقُ والوريق، الهاجِدِ وكلٌّ نائمٌ وناظره أريق، والمؤنَس في العريش يومَ النفْخ المهتدي حين جارَ هادي الطّريق، فجعَلَها بينَ الفجر والبُجْر، الذي عُرِض عليه الإسلامُ فلم يتلعثَمْ، وسَفَر عنه وجهُ الإيمان فلم يتنقَّبْ بعدُ ولا تلثَّم، وشَرى الباقي فشار معسولَه، وأنفَق مالَه فلم يترُكْ لنفسِه إلا اللهَ ورسولَه، والـمُغضي عن العاجِلة وقد حَدَّقت إليه كلَّ التحديق، أبو[2] بكر عتيقٌ الصِّدِّيق.

وعلى مُحلِّي الأعصار ومُجلِّي الإعصار، وممصِّر الأمصار، مُبيد العدوِّ الأزرق بمُزَعْفَرِيِّ الأُسُود، وبني الأصفر بالكتائب السُّود، مُنشي عمائم الفتوح كأيمن الصّوب على قَطَن، الذي لم يُرَ مَن يَفْري فَرْيَه حتّى ضَرب الناسُ بعَطَن، الساعي بغَيْرته على منازلِ عترتِه واللّيلُ بهيم، الـمُنزَلِ القرآنُ بمُوافقته في أسرى بدرٍ والحِجاب وتحريم الخمر ومقام إبراهيم، جُعِل الحقُّ على لسانِه، ونورُ الـمُحَدَّثينَ في جَنانِه وإنسانِه، فرُدَّ عن مُنافقةِ الخطاب، وأصفَى خطابَ الإيمان وأطاب، أبو[3] حفص الفاروقُ عمرُ بن الخَطّاب [من الطويل]:

سلامٌ كعَرْف الرَّوض بـاكَرَه القَطـرُ	إذا مـا خَطَـا قُطـرٌ تَداوَلَـه قُطـرُ
تحيّـةَ مـن قـد قـسَّم الـشوقُ قلبَـه	ففـي طِيبـةٍ شطرٌ وفي تـونُسٍ شطرُ
أطارت قسِيُّ الـشوق أفـلاذَ صـدرِه	فللّــه مــا أودَى بــه ذلــك الأُطـرُ
كأنّ النَّـوى لم تُـضمِ غـيرَ جَـوانحي	فـوا كبِـدي لـو دَرَّ لي ذلـك الـشّطرُ

---

(١) بعد هذا في ق، ك، ب: «سمات بسمات نسمات».

(٢) هكذا في الأصل، والوجه: «أبي».

(٣) هكذا في الأصل، والوجه: «أبي».

وكــلٌّ يــزِفُّ المجــدُ آمالَــه لــهُ ... ومــا ليَ منــه لا عَــروسٌ ولا عِطــرُ

أيُقعِـدُني يـا خـاتَمَ الرُّسـل خـاتَمٌ ... مـن البُعـد في قلبـي لـهُ أبـدًا فطـرُ

ومَن لا يـذُدْ بـالعزم يقـصُرْ بعجـزِهِ ... لقـد بَسَقَ العيـدانُ واتّـضع الفطـرُ

ولــو كنــتُ مختــارًا لنفــسي منيّــةً ... لَـما ناب في تَرحاليَ الطِّرسُ والـسَّطرُ

جِيادي جِيادي لا تصومي على عمًى ... أمالَــكِ إهــلالٌ بطيبــةَ أو فِطــرُ

فكـم ضـامرٍ نـادى الغـرابُ غرابَـهُ ... ألَا في ســبيل الله مــا غــيَّر الخطــرُ

وكـم سـاربٍ يَسري لهـا سرُّ بالِـهِ ... مخافــةَ أن يــضحي وسِرِبالُــه فطــرُ

تحيّةَ توّاق وإن أنهضَتْه آمالُه بَهَظَتْه أعمالُه، أو دعاه بالُه عَداه وَبالُه، أو جُدّت عقائقُه، جُذّت حقائقُه، فهو ذو فؤاد منخوب من الحُوب، مُقفِر من العزائم إقفارَ ملحوب، نادمٌ نادبٌ على الأحيان، مؤمِّلٌ خُلوصَه تخلُّصَ ثابتٍ من لِحيان، فلو سَما به العَزْم، عن وَهدْة الأَزْم، لأظلّته التّوبة، ونضَحَت ثوبَه، ولو أعرَقَت مطاياه، لَـما أغرَقَت خطاياه، فالراغبُ إذا طام ضامَ الإهضام، وشمَخَ عنه أنفُ الطّنف، وثبَت له أيد الريد.

وبعدُ، أيُّها المبعوثُ للعباد من أنفَسِهم، الأَوْلى بالمؤمنينَ من أنفسِهم، فإنّا نَدعوك لتدفَع عنّا عائدَ هذا الخَوْض، إذ كنتَ فَرَطَنا على الحَوْض، ونستشفعُ بكَ يومَ الـمَساق والكشفِ عن الساق، ونستجيرُ بك من مناقشة الحساب يومَ لا أنساب، وندرأُ بكَ هولَ العَرْض، يومَ تُبدَّلُ الأرضُ(١) غيرَ الأرض، أُناديك بشَرَفِ ناديك وأياديك، لعلّ سِجْلًا من أياديك [من الطويل]:

مُعفَّــرَ لــيث الغَيْــث وهْــو مزعفَــرٌ ... مقلِّــم أظفــار الــشّكوك الخَــوالجِ

ومُنقَــذَ مــن قــد أوبقَتَــه ذنوبُــهُ ... ولــو كــان يُملهــنّ مــن رمــل عــالجِ

إلى كم يُـصيبُ الـسَّهمُ غـيرَ مـسدَّدٍ ... فيا ليتَ شعري هل يُرى غـيرَ زالـجِ

أأظمــأُ والــسُّقيا إليــك دوالــحٌ ... تطلَّــعُ عــن غُــرٍّ ســوار دوالــجِ

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

وإنّ أحــقَّ النــاس بــالفوز قاصــدٌ يُعالجُ أسبابَ السُّرى فوقَ عـالجِ
فإن خَلَجت تلك الـذنوبُ فـلا تـنَمْ لعلـك تنجـو قبـلَ إظـلال خـالجِ
وتنـسُبني الأيـامُ للعجـزِ جهـدَها وما ليَ من ذنـب سـوى ذنـبِ فـالجِ
ألا عزمـةٌ يـا خـاتَم الرسْـل تَنْـبري ألا نهـضةٌ تعتـادُني دونَ خـالجِ
ومـن بعـدِ ذاك العـدِّ يـصدا مُحَلِّـيًا فـأُلقي بـدلو بـين دالٍ ودالـجِ
لقد خـاب قِـدْحًا مـن تـأخَّر قِدحُـهُ فمَـن لي بقِـدحٍ يـا محمـدُ فـالجِ

على أنّي يا رسولَ الله لم آلُ جُهدًا في طاعتِك التي بها نَهتدي، ولا أغفَلتُ فريضةَ جهاد أرُوحُ عليه وأغتدي، فمتى أحسَستُ نَباةً بادرتُ إليها، فقد قلتَ صلّى اللهُ عليك: «جهادُ يوم خيرٌ من الدّنيا وما عليها»، فإن تأخَّرتُ عن زيارتِك إقدامًا فقد أعملتُ في عَضُد سُنّتِك أقدامًا، وإن لم أنتبِهْ، فإنّي يقِظٌ لِـما جئتَ أنت به، وإن لم أرد من تلك الشريعة، فإنّي بانٍ دفاعي عن شريعتِك بكلِّ ذريعة، في بلاد تَجادعُ أفاعيها، ويَصَمُّ واعيها، ولا يُجابُ إلى شِقاق واختلاقٍ داعيها، فقد صارت الـمَواسطُ تَغورُ فتنتُها وتُنجِد، وتركعُ فيها المواضي إلى محاريبِ السّنابكِ وتسجُد، وقد أوَى كثيرٌ من بلاد الإسلام إلى ذمّة الصَّليب، ولم يأخُذْ أهلُها من الرأي والأَناة بنصيب، فوقَفْتُ دونَها لا رغبةً عن مهوَى أفئدة العباد، ورعَيْتُ هدونَها لا تثاقلًا عن بيتٍ سواءٌ العاكفُ فيه والباد، ورابطتُ أطرافَها لا عَجْزًا عن البيتِ العتيق، وبقيتُ أخبِطُ في غَسَقِها وإنّي لَفقيرٌ إلى نُور ذلك الفتيق، مدّخرًا ذلك تجارةً لن تَبور، مجيَّرةً بك عندَ الله تعالى يوم يُدعى الثُّبور، ويُبعَثُ مَن في القبور، ثم السلامُ عليكَ وعلى آلِك وحالي جلالِك ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه.

* * *

ولما توفِّي الأميرُ أبو زكريّا ببلد العُنّاب[1] وبويعَ وَلَدُه أبو عبد الله بتونُس وتسَمَّى بأمير المؤمنين المستنصِر بالله، وكان والدُه يُدعى بالأمير وعُمرُ أبي عبد الله إذ ذاك إحدى وعشرونَ سنةً أو نحوَها، وتوفِّي سنةَ أربع وسبعين، فكانت ولايتُه في خلافته سبعًا

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٦٨ و٦/ ٣٢ وهو من بلاد إفريقية.

وعشرين سنةً أو نحوَها، وبعدَ سنة وأشهر من ولايته أراد بعضُ الموحِّدين أن يخلَعوه واجتَمعوا على عمِّه أبي عبد الله اللِّحيانيِّ وبايَعُوه بيعةَ الخاصّة وهو قاعدٌ في دارِه والموحِّدونَ معَه يتفاوَضونَ في أمرِه، إلى أن دخَل على المستنصِر عِلجُه ظافرٌ الكبير وأعلَمَه بما وقَع في دار عمِّه من التدبير، فأمَرَه باستدعاءِ بعض الفُرسان، وحضر ابنُ أبي الحسين خاصّته، وأبي جميل[1] زَيّان بن مُرْدنيش وغيره من رؤساءِ الأندَلسيِّين، واجتَمع مَن كان في القَصَبة من أهل الدّخلة وخَرجوا على باب الغَدْر ودخَلوا على باب البلد الـمُوالي لدار أبي عبد الله المذكور، فدخَلوا عليه بعدَما كان الأمرُ عندَهم في المبايعة مشهورًا مذكورًا فقَبَضوا عليه وقَتلوه وقَتلوا كلَّ مَن كان حضَر في تلك القضيّة، واجتَمَعت من رؤوس تلك الجماعة سبعٌ وأربعونَ رأسًا وحُمِلت إلى القَصَبة، وعايَنَ المستنصِرُ رأسَ عمِّه فتأسَّف عليه حينَ سِيق إليه ثم أمَرَ بدفنِه وبتعليق تلك الرؤوس على السُّور، فتمهَّدت مملكتُه واستقامت له الأمور.

وفي سنة سبع وأربعينَ وست مئة: كان استيلاءُ الأمير أبي يحيى ابن عبد الحقِّ على حضرة فاسَ بعدَ حِصارها مدةً من السّنة الفارِطة وقتالِـها، وكان لـمّا ملَكَها وملَكَ أقطارَ سهالِـها وجبالِـها وَلّى عليها السعود[2] بنَ خَرْبَش الحَشَميَّ، فاستَوطَن قَصَبتَها بأهلِه ومالِه ووَلَدِه وعيالِه، وكان الأميرُ أبو يحيى ترَكَ معه فيها زوجَه التي اسمُها فَتّوحةُ بحَشَمِها وخَدَمِها، وكان بفاسَ حينَئذٍ نحوُ مئتي فارس من النّصارى الأجناد، كانوا قد وصَلوا إليها في العام الفارِط حين موتِ السَّعيد، فأقاموا بها معَ قائدهم المسَمَّى شديد[3]، إلى أنِ انحصَروا فيها وقُتل منهم في القتال أعداد، وكان أهلُ فاسَ استعدَّ بهم لقتال بني مَرين أعزَّهم اللهُ أيَّ استعداد[4].

فلمّا دخَل فاسَ الأميرُ أبو يحيى حَبَسَهم وحَسَمَهم من أجنادِه وتَركهم فيها معَ السعود بن خَرْبش فجاهَرَ القائدُ المذكور عليه بخلافِه وعِنادِه، وذلك أنّ هذا القائدَ

(١) يعني: باستدعاء أبي جميل، وإلا فلا تستقيم.

(٢) في م: «المسعود»، وما أثبتناه يعضده ما في تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١.

(٣) هكذا في الأصل، والجادة: «شديدًا».

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١.

استدَلَّ على السعود وصار يدخُل الدارَ عليه ويتردَّدُ كلَّ حينٍ إليه، فاجتَمع جماعةٌ من أشياخ البلد معَه ووافَقوه على أن يَقتُلَه، فدخَل عليه يومًا فغَدَره وقَتلَه، فلمّا اجتَمعت على قتلِه أشياخُ فاس أهلُ رَبْطِه وحَلِّه، خاطَبوا المرتضَى مجدِّدينَ بيعتَهم إليه، ومعتمدينَ في نُصرتِهم على الله تعالى وعليه، فخاطَبَهم وجاوَبَهم ووعَدَهم بإطلالِه عليهم ووصُولِه برايتِه المنصورة وعساكرِه الموفورة إليهم، وقال لهم: كونوا مرتَقِبينَ لرايتِنا ومتأهِّبينَ لإطلالِنا، فما أطلَّ عليهم ولا وصَل إليهم، فبَقُوا في انتظارِه نحوَ تسعة أشهر من حينَ قُتِل المسعود، ينتظرونَ منه الورود، حتى ضاقت أحوالُهم بالجُوع والحصار، واشتدَّ أمرُهم بطُول الأضرار، فطلَبوا العفوَ من الأمير أبي يحيى، فعفَا عن عامّتِهم، وأغْرَم أموالًا لخاصّتِهم، وذلك أنه لـمّا دخَل إلى مدينة فاسَ جمَعَ من أهلِها ثلاثَ مئة رجُلٍ من وجوه الناس، وأغرَمَهم في الخطإِ ثلاث مئة ألف دينار عَشْريّة، وضرَبَ أرقابَ ستة أُناس من أعيانِ أشياخِهم، وقيل: إنّ ذلك كان في يوم الأحد السادسَ عشَرَ لرجَب من سنة سبع وأربعينَ وست مئة المذكورة(١).

وفي هذه السنة، وهي سنةُ سبع وأربعين: قام بسَبْتَةَ الفقيهُ العالِـم، أبو القاسم ابنُ الفقيه العالِـم أبي العبّاس العَزَفيّ رحمَه اللهُ تعالى ليلةَ سبع وعشرينَ لرمضان، وكان الـمُعينَ له في ذلك والمدبِّرَ له في الأمرِ هنالك القائدُ للبحر حينَئذٍ وهو أبو العباس الرنداحيُّ، فقد كان بينَهما مودّةٌ عظيمة، وصُحبةٌ حديثةٌ لا قديمة، وذلك من حينَ وَلِـي قيادةَ البحر، وكان له فيه على الغُزاة النهيُ والأمر، وذلك أنه لـمّا خالَفت سَبْتةُ على السّعيد، ووصَلَها من تونُسَ ابنُ أبي خالد وابنُ الشَّهيد، فاستَوطَنا قَصَبتَها وأضرَّ ابنُ أبي خالد بأهلِها، وكان بينَه وبينَ القائد المذكور تغيُّرٌ في بعض الأمور، وكان بسَبْتَةَ قائدُ الفَحْص شقافٌ المشهور، الذي كان السببَ معَ قضاءِ الله تعالى في دخول النّصارى مدينةَ إشبيلِيَة، ووصَلَ منها إلى سَبْتَةَ معَ جُملة من الأجنادِ والقُوّاد، فلمّا توفِّي الأميرُ أبو زكريّا في السنة الفارِطة وتوفِّي السَّعيد، وضاق أهلُ سَبْتَةَ غايةَ التضييق من جَوْر ابن أبي خالد وتغافُل ابن الشَّهيد، اجتَمع القائدُ الرنداحيُّ معَ الفقيه المعظَّم أبي القاسم العزَفيِّ فحرَّضَه على القيام بأمرِ بلدِه وأن يُعينَه على ذلك بعَدِّه وعُددِه، والتزَم له أن يقوم بالأمر حتى يُخلِّصَه،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣١-٢٣٢.

فوافَقَه الفقيهُ على ذلك، وأمَرَه بإنجازِه في الليلة المذكورة، فاستعمَل القائدُ المذكورُ طعامًا في دارِه وعرَضَه على بعض عَمائر الأجفانِ منَ الرؤساء والقُوّاد والرُّماة والغُزاة، واستَدعاهُم لمنزِله كأنّها وليمةٌ مشهورة، ولا عَلِم أحدٌ منهم بسرِّه ولا كيفيّة أمرِه، فاشتَغل الناسُ عندَه بالسَّماع والشَّطح في الدار، وهو معَ ذلك لا يستقرُّ له معَهم قرار، وهو قد بعَثَ زعماءَ رجالِه باللّيل بعدَما كشَفَ لهم عن الحال وأمَرَهم أن يَسُوقوا له رأسَ شقافٍ وفلان وفلان، فأولُ ابتدائهم بشقافٍ المذكور فإنّهم صَاحوا في دارِه وقالوا له: الوالي بعَثَنا إليكَ يريدُ أن يجتمعَ بك في بعض الأُمور، فلمّا خَرج إليهم قَطَعوا رأسَه، وقَتلوا كلَّ مَن أمَرَهم بقتلِه، ورجَعوا إليه آخرَ اللّيل فأعلَموه بأنّهمُ امتَثَلوا كلَّ ما أمَرَهم به.

فاجتَمع معَ الفقيه المعظَّم وعرَّفه بكلِّ ما كان من الأمر وما فعَلَه من قَتْل القُوّادِ والأجناد والأندلسيِّينَ وغيرِهم، وأنه أمَرَ رجالَه بقتلِهم فأخرجوهم بالحِيلة من ديارِهم وقَتَلوهم، فلمّا أعلَمَه بذلك ترَكَه قاعدًا في أُسطُوانِهِ بشمعةٍ أمامَه معَ بعض إخوانِه وخُدّامِه وهو يتَطايَرُ خوفًا مما يتوَقَّعُ من عاقبة الأمر، ورجَع القائدُ إلى دارِه والعمائر بها يَشطَحونَ ويفرَحون ولا يعرِفونَ ما وقَع، وهم لا يشعُرون، فخَرج بهم من دارِه وتقدَّم إلى القَصَبة بعدَما ضرَب النَّفير، فاجتَمع من عَمائر الأجفانِ الكبيرُ والصغير، وشاع الخبرُ عندَ أهل البلد، فخَرجَ السُّوقةُ والتُّجّار، واجتَمعوا أجمعينَ على القائد والفقيه بأُسطُوانِه مرتقبًا[1] لما يتزَيَّدُ من الأخبار، ومتخوِّفًا[2] مما يتَوقَّعُ من تصرُّف الأقدار، والرجالُ يسيرونَ إليه مرةً بعدَ أخرى، وأهلُ سبتةَ مجتمِعونَ على قائدِهم يطلُبونَ رأسَ ابن أبي خالد دونَ غيرِه؛ لأنه كان أضَرَّ بهم بظُلمِه وجَوْرِه، وابنُ الشَّهيد معه خائفٌ[3] أيضًا من حالِه وعاقبة أمرِه، إلى أن صَعِد الرَّجُلُ على سُور القَصَبة وظَفِروا بابن أبي خالد فقَتَلوه وقطَعوا رأسَه وعلَّقوه على السُّور، وأُخرِج ابنُ الشّهيد المذكور ونُفِي إلى الأندَلس في زَوْرق إلى أنْ وصَل بعدَ ذلك إلى تونُسَ بشهور، واستبدَّ أبو القاسم العزَفيُّ بمُلكِ سَبْتة وبقيَ بها مسرورًا، معظَّمًا مبرورًا، ولم يزَلْ أهلُ بلده يعظِّمونَه بغاية الإعظام،

---

(١) في م: «مرتقب» ولا تستقيم.

(٢) في م: «متخوف» ولا تستقيم.

(٣) في م: «خائفًا» ولا تستقيم.

والتوقير لجانبِه والاحترام، فهو من جِلّة الفقهاءِ الأعلام، ومن مآثرِه العظام، قيامُه بمولدِ النبيِّ عليه السلام من هذا العام، فيُطعمُ فيه أهلَ بلدِه ألوانَ الطّعام، ويؤثرُ على أولادِهم ليلةَ يوم المولدِ السّعيد بالصَّرْف الجديد من جُملة الإحسانِ عليهم والإنعام، وذلك لأجْل ما يُطلقونَ المحاضرَ والصّنائعَ والحَوانيت يمشُونَ في الأزِقّة يُصلُّونَ على النبيِّ عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمِّعُ الـمُسمِّعون لجميع أهلِ البلد مَدْحَ النبيِّ عليه السلام، بالفَرَح والسّرورِ والإطعام للخاصِّ والعام، جار ذلك على الدّوام، في كلِّ عام من الأعوام، وتوفِّي رحمه اللهُ عامَ سبعة وسبعين، فكانت مدّتُه نحوَ ثلاثينَ سنةً على ما يأتي ذكرُه في صِلة هذا الكتاب إن شاء اللهُ تعالى[1].

وفي سنة ثمان وأربعينَ وست مئة: وفَد على الـمُرتضَى بمَرّاكُش أبو عِمران موسى بنُ زَيّان الوَنْجاسيُّ[2] من بني مَرِين، أحدُ الفُرسان الأعيان، أرسَله إليه أخوه عليُّ بن زَيّـان، فأكرمَـه وعـظَّمه، ثم انصَرف عنه مقضيَّ المآرب، مرضيَّ المطالبِ والمذاهب، ثم ورَدَ عليه أبو الحَسَن عليُّ بن زَيّان المذكور، وأخَذ معَه في بعضِ الأمور، فأكرَمَه غايةَ الإكرام، وأنعَمَ عليه بجزيل الإنعام، وعيَّن له مالًا معلومًا في كلِّ عام، وكان قد وصَل معَه جُملةٌ من بني وَنْجاسن، فخَرَّج لهم ما لهم على صُنهاجةَ في هذا العام، وسأله المرتضَى عن أمورِ بني مَرينَ وأحوالِـهم فهوَّن عليه الخروجَ إلى قتالهم، فأمَرَه بالتقدُّم إلى سَلَا، وكان واليَها ابنُ أبي يَعْلَى ليكونَ معَه هناك معَ مَن بها من الموحِّدينَ والأنجاد ليمنَعوا بني مَرين عبورَ الوادي إلى جهة تامَسْنا من تلك البلاد، وكان المرتضَى نظَرَ في ضمِّ عساكرِه ودبَّر في أمرِه بنواهيه وأوامِره، ووَجَّه إلى الأندَلُس برَسْم أن يصِلَه جمعٌ منَ النّصارى ليُركبَهم معَه ويكونوا له أعوانًا وأنصارًا، فوصَلوا إليه في هذه السنة[3].

وفي سنة تسع وأربعينَ وست مئة: تحرَّكَ المرتضَى بعساكرِ الموحِّدينَ والأجناد، والعَرَبِ والأحشاد، على ترتيبِ سَلَفِه المعتاد، من التأهُّب والاستعداد، والاستخارة لله

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٤٠١.

(٢) ويكتب «الونكاسي» أيضًا، كما في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، وهي كاف أعجمية فيكتبها بعضهم جيمًا وبعضهم كافًا وآخرون قافًا.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٣.

تعالى في تبليغ القصدِ والـمُراد، وتقديم الزِّيارة، للأحداثِ بتينملَ على عادة سَلَفِه بني عبد المؤمن، فأمضى العَزْمَ في الابتداءِ صَدْرَ هذه الحركة بالزيارة المذكورة، والافتتاح منها بالأعمال المبرورة، والاهتداءِ بمَن تقدَّمه فيما كانوا يعقِدونَه في بيت معاهدِهم من الرّايات المنصورة، فكان خروجُه من حضرة مَرّاكُش في أوّل يوم من شهر رمضانَ المعظَّم إلى زيارة قبر إمامِه، تبرُّكًا بلَثْم ثَراه واستلامِه، وتوسَّل هنالك بأكرم الوسائل، وتمثَّل في تعظيم ذلك المكان بقولِ القائل [من الطويل]:

نُعظِّمُـــه أن حَـــلَّ فيـــه معظَّـــمٌ ... ونُكرِمُـــه أنْ كـــان مثـــوَى المكـــارمِ

ونقـضي حقوقًـا للهُـدى في زيـارةٍ ... تقـــدَّمها أُولى الحقـــوق اللّـــوازمِ

فلمّا فَرغ من الزِّيارة على أكمل ما أمَّلَه وقصَدَه، قَفَل مستقبِلًا إلى الحركة التي أمضَى عليها عزمَه وعقدَه، فرحَل عن مَرّاكُش في الخامس من شهر رمضانَ من السنة المذكورة، في أبهَى زِيّ وأحسن صُورة، بعدَما استَوْهَب جميلَ الدُّعاء من الصُّلحاء، وتمادى مشيُه على الهيئة الموصُوفة والأُهبة المعروفة إلى جهة سَلَا، فتلوَّم بها أيامًا قلائل، إلى أن تعرَّف أخبارَ بني مَرِين وغيرِهم ببراهينَ ودلائل، فعزَم على مقابلتِهم ومقاتلتِهم، فتحرَّك من سَلَا بعساكرَ وافرة وجيوشٍ متكاثِرة من قبائل الموحِّدين ومن أصناف المتجنِّدين، فكان من أمرِه ما أذكُرُه إن شاء اللهُ عزَّ وجَلّ.

اختصارُ الخبر بظهورِ الأمير أبي يحيى وبني مَرِين على عساكرِ المرتضَى والموحِّدين في الموضع المعروف بأمن مَلُولين

وذلك أنه لـمّا بلَغَ الأميرَ أبا يحيى وبني عبدِ الحق أعزَّهم اللهُ تعالى استقبالُ المرتضَى بعساكرِه إليهم، اجتَمع قبائلُ بني مَرِين وبني وَرَا وبعضُ زَناتةَ والعَرَب ومنِ انضافَ إليهم من قبائل الغَرْب، فرأى بنو عبد الحقّ بسديد رأيِهم ونُجح سعيِهم أنْ يُخاطبوه ويُكاتبوه، فخاطَبَ الأميرُ أبو يحيى المرتضَى طالبًا منه المهادنةَ والـمُصالحة، فأراد المرتضَى أن يُصالحَهم ويُسامحَهم لأنه كان مائلًا إلى الراحة وعَدَم التصرُّف، فأبَى وُزراؤه من ذلك وقالوا: لا يَصلُحُ في إقليم واحد مَلِكان، فرحَل إلى لقائهم بالحلّ والتَّرحال، وكانت الثِّقْلةُ وأحمالُ المال، على نحو أربع مئة من البغال، على قول مَن قال: إنّ بعضَها أحمالٌ

بالمال وبعضَها بالأثقال، إذ كان المالُ كلُّه دراهم ليس فيها مثقال، وكانت الثِّقلةُ فيها مضاربُه وأسبابُه وأفراحُ المختصِّ به، لسُكناه على عادة خلائفِه وأسلافِه في حركاتهم، وغير ذلك مما يُدَّخر من أسباب الحركات لـمَهمّاتِهم، وكانت أثقالُ الموحِّدينَ بالنسبة إلى ذلك المحالّ آلافًا من الجِمال، وكانت مـحَلّةً كبيرة، واستعَدَّ المرتضَى لهذه الحركة[1] استعدادًا عظيمًا بطُبول وعلاماتٍ كثيرة، فتمادَى المشيُ على أحسن بهاءٍ وأتـمِّه، وأعظم استعدادٍ وأعمِّه، حتّى وصَلَت المحَلّةُ الموحِّديةُ إلى مقرُبة من العساكر الـمَرِينيّة، ونزَلَت بموضع أمن مَلُولين.

وكان الأميرُ أبو يحيى ابن عبد الحقّ قدِ استعدَّ لقتالهم وأعَدَّ بني مَرِين لحربِهم ونزالِـهم، فقصَدَ عليُّ بنُ زَيّان معَ جماعته إلى جهة من جهتِهم ودفَع عليها وعليهم، ثم دَفَعت عساكرُ الموحِّدين من جهة أخرى بالقتال إليهم، فأعطَى بنو مَرِين لهم ظهورَهم لأن يَقْفُوَ الموحِّدونَ آثارَهم، فقد كانوا كمَنوا لهم ودبَّروا أمورَهم، وذلك خُدعةٌ من خُدَع الحروب، فتعرَّف الموحِّدونَ أنهم كمَنوا لهم في الخنادق فتوقَّفوا عن دفاعهم واتّباعِهم، فلم يتبِّعْ أحدٌ لبني مَرِين خيفةَ الكمِين.

وقيل بعدَ ذلك: إنّ الأميرَ أبا يحيى كان تَوافَقَ في ذلك اليوم معَ يعقوبَ بن جرمونَ فبقيتِ المحَلّةُ بذلك الموضع ساكنةً آمنة إلى أنِ استَظهَر يعقوبُ بن جرمونَ المذكورُ بكتاب وصَلَه من قِبَل الأمير أبي يحيى ليوقِفَ عليه المرتضَى ويتكلَّمَ معَه في صَلاح الأمور، فقَنِع منه بذلك المقال، وأمَرَ في الحين[2] بالرَّحيل من ذلك الموضع والانتقال، وأقلَعَ من غير عهدٍ معهود ولا عَقْدٍ معقود، وشاع في المحَلّة من يعقوبَ بن جرمونَ ورجالِه، انعقادُ الصُّلح وكمالِه، وكان إقلاعُ المحَلّة من هنالك في ليلتهم حينَ ذلك فأصبحوا على ظهرِ راحِلينَ وإلى مَرّاكُش قافِلين، وأوقَعَ اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم فرحَلوا وتَركوا بعضَ مضاربِهم وأسبابِهم وقَفَلوا جميعًا في الرُّوع بالقلوب، وكان فيه لبني مَرِينَ المقصودُ والمطلوب، وذلك بما وَهَبَه اللهُ لهم من القوة والشّجاعة، والأخْذِ في الأمورِ بالعَزْم والـحَزْم جُهدَ الاستطاعة.

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

(٢) في ق، ك، ب: «الجيش».

ولـمّا قذَفَ اللهُ الرعبَ في قلوب الموحِّدينَ وأجنادِهم، ورحَلوا قافلينَ إلى بلادِهم، تفرَّقت جموعُهم وخارَتْ طِباعُهم، فتبِعَتْهم جيوشُ بني مَرِين وجَدُّوا في اتّباعِهم، فاستولَوْا على جُملة مضاربِهم وأسبابِهم، وتمكَّنوا من أحمالِـهم وأثقالهم، وأخَذوا بغال السّلطان وأثقالَه، وخيلَه المقادةَ وأبغالَه، وكان بعضُ فُرسانِه ورجالِه إذا ضاقَ حالُه يرتجِلُ عن فرسِه خيفةً على رأسِه، ومَن تقدَّم لا يشتغلُ إلا بخَلاص نفسِه، وتمادَى مشيُهم إلى أَزَمُّور، وكؤوسُ الخوف عليهم تَدور، فلمّا وصَل المرتضَى إليها ونزَل عليها جدَّد حركتَه منها، ثم رحَل قافلًا إلى حضرته، فكانت عليه هذه الهزيمةُ من غير قتال هزيمةً عظيمة، وكان الوزيرُ القائمُ فيها بالتدبير عبدَ الله بنَ يونُس إلى أن كان من أمرِه ما أذكرُه إن شاء اللهُ تعالى[1].

وفي سنة خمسينَ وست مئة: أخَّر المرتضَى وزيرَه ابنَ يونُس عن وِزارته حينَ وصَل له منه ما أوجَبَ قتلَه بعد ذلك بحُسن الإدارة، فاستَوطَنَ ابنُ يونُس تامصلحتَ موضعَه، وكان يَدخُل مَرّاكُش في كلِّ يوم جُمُعة، وكان يدخُل للخليفة معَ الموحِّدين برَسْم السّلام لكنْ لا بدَّ له أن يُكلِّم بما شاء من الكلام، واستقرَّ بذلك الموضع معَ أولادِه وعِيالِه وخُدّامِه ورجالِه، وكان من جُملة رجالِه وخُدّامه ومن قبيلةِ بني... [2] عليُّ بن يَدّر، فهرَب إلى السُّوس حين عُزِل ابنُ يونُس عن الوِزارة واستقرَّ به، وكانت بينَه وبينَ يونُس مراسَلاتٌ ومداخَلات[3].

وفي سنة إحدى وخمسينَ وست مئة: جاهَرَ عليُّ بن يَدّر بعِنادِه، فبعَثَ إليه المرتضَى عسكرًا من الموحِّدين أجنادِه فحارَبوه فلم يَقدِروا عليه بشيء، فقفَلوا راحلينَ إلى مَرّاكُش، وكان بتارودانتَ أحدُ أشياخ الموحِّدين معَ جماعة من أجنادِ المسلمينَ والنَّصارى ساكنينَ هنالك.

وفيها: كانت زَلْزلةٌ عظيمة في بلاد الغرب اهتزَّت الأرضُ بها بمَن عليها[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨، والاستقصا ٢/ ٢٥٣.

(٢) فراغ قدر كلمة.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٨.

وفي هذه السنة: كانت كائنةُ أجناد النّصارى الذين أرادوا أن يقوموا على الأمير أبي يحيى يَغْمراسنَ ببلد تِلِمْسان، وذلك أنه لـمّا أراد أبو يحيى يَغْمراسنُ بنُ زَيّان أن يظهَر بما عندَه من العساكرِ والأجناد على تجينَ ومَغْراوة وبني عبد الواد، فأمَرَ بخروج أجنادِ المسلمينَ والنّصارى مدَّرعين، فخَرجوا على باب القَرْمادِينَ كلُّهم أجمعين، وكان قد اجتَمع عندَه بتِلِمسانَ على ما ذكَرَه الثِّقاتُ من أهلِها نحوُ ألفَيْن من الرّجال والفُرسان، وقال بعضُهم: ثلاثةُ آلاف، ووقَع بينَهم في ذلك الخلاف. فلمّا خَرَج يَغْمراسنُ برَسْم الـمَيْز من تِلِمْسان واجتَمع عليه الأنجادُ من بني عبد الواد والأجنادِ والقُوّاد، فوقَف هناك بمقرُبة من موضع كان يُعرَفُ بقَصْر الشّعراء، ووقَف تجينُ ومَغْراوةُ قريبًا منه بحَوْمة أخرى، ووقَف أجنادُ المسلمينَ ناحية وأجنادُ الرّوم ناحيةً أخرى وقوفًا، قد عَمِلوا صفوفًا صفوفًا، إلى أن كان آخرُ وقوفهم وصفوفِهم، فأرادوا غَدْرَ المسلمين، فعجَّل اللهُ مَنُونَهم وحُتوفَهم، وذلك أنه لـمّا وقَفَ أبو يحيى للمَيْز قدَّم المسلمينَ وميَّزهم، وإلى جانبِه الأيمن جوَّزَهم، وأمَرَ بمَيْز الرّوم وكانوا مدَّرعينَ مجتمِعين، وكان[1] المسلمونَ متفرِّقين غيرَ مجتمِعينَ ولا مدَّرعين، ولم يتأهَّبوا القتال، ولا خطَر لهم ذلك ببال، فلمّا شَرعَ في تمييزِهم وقَف قُوّادُهم أمامَه وكانوا عشَرةً إلى أن ميَّز أكثَرهم فارسًا بعدَ فارس وقائدُهم الكبيرُ المسمَّى بدنجيلَ مجتهدٌ في تمييزِهم وتجويزِهم واقفٌ بعلامِه إلى أنْ أقبَلَ إلى الأمير يَغْمراسن وهو مدَّرعٌ بِدرعِه معَ جماعة من جَمْعِه برَسْم لقائه له واجتماعِه، فجاء يعانقُه بذراعِه، فأدخَل رأسَه تحتَ ذراعِه، فهَمَز أبو يحيى فرسَه، وأخرَج من تحت ذراعِه رأسَه، بعدَما ترَكَ بيدِه عِمامتَه وجَدّ في اتّباعِه، حينَ افتراقِه منه وانتزاعِه، فدخَل الـمَخْزيُّ الكافر، الغادرُ الماكر[2]، في جُملة أصحابِه الرّوم، وحَرَمَه اللهُ ما كان[3] من الغَدْر يَروم، وقامت هُوشةٌ عظيمةٌ في ذلك اليوم المعلوم، وعمِل أبو يحيى المذكورُ إحرامَه على عَصاه وصَاح في الناس: يا آلَ عبدِ الوادي غدرتُم يا زَناتة، إلى أن ميَّزوا كلامَه، فقد كان الناسُ أشاعوا أنه قُتل وذاق حِمامَه، وكان في ذلك اليوم هولُ يوم القيامة، وفَرَّ تجينُ ومَغْراوةُ حين رأَوْا

(١) من هنا إلى قوله: «ولا مدّرعين» سقط من ق، ك، ب.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

(٣) قوله: «ما كان» سقط من ق، ك، ب.

ذلك إلى أنْ وصَلَهم الخبرُ بكلامِه وحياتِه فكَرُّوا راجعين، وتراجَعت الناسُ إليه من كلِّ مكان فحَفُّوا به خلفَه وأمامَه، وانعَقَدت الساقةُ عليه حينَئذٍ بعساكرِه وطبولِه وأعلامِه، وكان تجينُ ومَغْراوة قد قَدَّروا حين قامت تلك الأهوال، والتحَمَ بينَ المسلمينَ والرّوم القتال، أنها حِيلةٌ عليهم، حتّى بعَثَ أبو يحيى يَغْمراسنُ مَن أعلَمَه بالخبر إليهم، وكان ظنُّ النّصارى دمَّرهم اللهُ أنّ الفتنةَ تقومُ بينَهم، فدبَّروا غدرَهم ومكرَهم سببًا لحَيْنِهم، فلمّا اجتَمعت الفُرسان على أبي يحيى يَغْمراسنَ بن زَيّان، أمَرَ بغَلْق بابِ تِلِمْسان، وأطلَقَ أيدي الفُرسان الأحرار على قَتْل الأعداءِ الكفّار، فروَّى من دمائهم غُلَلَ الأسنّة والشِّفار، واستَأْصلُوهم بالقَتْل طولَ النّهار، ولم يَتأتَّ للكفَرة في ذلك اليوم الفِرار، بل حصَروهم في موضع وداروا عليهم دورَ السِّوار، وقَتل الحضَرُ في البلد عِيالَهم وأطفالَهم الكبارَ منهم والصِّغار، واستَأْصَلوهم بالقَتْل والنَّهب والسَّلب في دواخل الدِّيار، واستغنَى في ذلك بعضُهم، ولم يبقَ من الكفَرة في ذلك اليوم في داخِل البلد وخارجِه دَيّار، واستُشهد في ذلك اليوم جُملةٌ[1] من المسلمينَ الفُرسان أوّلُهم أخو يَغْمراسن محمدُ بن زَيّان، وقُتل كاتبُ أبي محمد ابنُ غالب عن غَلَط، ولم يُقتَلْ من الحضَر إلا هو فقط[2].

وفي سنة اثنتين وخمسينَ وست مئة: تفاقَمَ أمرُ عليِّ بن يدّر بالخلاف في بلاد السُّوس، وانقادت له بعضُ عرب الشّبانات وبني حَسّان، واجتَمع عليه أعدادٌ من الفرسان، وطاع له بعضُ أهل تلك البلادِ يَغرمُهم، وكان يُعطي بعضَ العرب ويُكرمُهم، وكان العاملَ بتارودانتَ من قِبَل المرتضَى، وهي كانت حاضرةَ تلك البلاد فيما تقدَّم ومضَى، فخَرج إليه في هذا العام عسكرٌ من الموحِّدين، فوسَّع أمامَهم حينَ قدِموا عليه، ثم رجَع بعدَ انفصالِـهم منها إلى حالِه وتغريمِه[3].

وكان بين المرتضَى وبينَ الأمير أبي يحيى بن عبد الحقِّ في هذه السّنة مُخاطباتٌ ومُجاوَبات، فكان للموحِّدينَ في ذلك بعضُ التسكين والتّهدين، وكان عازِمًا على الحركة فأضرَبَ عنها.

---

(١) في ق، ك، ب: «جماعةٌ».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ١١٣ وفيه أن هذا كان في سنة ٦٥٢هـ.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٦٧.

وفي هذه السنة: كان مقتلُ ابن يونُس الذي كان وزيرًا للمرتضَى قبلَ ذلك، وسببُ قتلِه على ما ذكَرَ العارِفون بأمرِه سُوءُ معاملتِه معَ خليفتِه في أعمالِه، فأولُ فعل فَعَلَه أنه اشتَرطَ عليه شروطًا حين كُتِبت البيعةُ، منها: ألا يقدِّم أخاه وزيرًا، فكان هذا وأمثالُه من ضَعْف عقلِه وتدبيرِه أن يترُكَ السُّلطانُ أخاه ويُسنِدَ أمرَه إليه، فلمّا وصَل السيّدُ أبو إسحاقَ من سِجِلْماسةَ بعدَ أشهُر من خلافة أخيه، قدَّمه وزيرَه وأسنَدَ إليه أمورَه، فكان في كلِّ أمر يُمضيه، وكان ابنُ يونُسَ معَه وزيرًا يقعُد معَه في جُملة الوُزراءِ والموحِّدينَ الكُبَراء، فكان السيِّدُ يَختبرُ في كلِّ وقت أفعالَه وأعمالَه إلى أنْ قال يومًا في جملةِ مقالِه: فعَلَ المخلوعُ كذا، وصَنَع المخلوعُ كذا، وهو عمُّ السيِّد المذكور وعمُّ الخليفة، فانزعَجَ السيِّدُ لمقالِه وقال: خَلَع اللهُ عَيْنَ الذي خَلَعه، وخَرج عن موضعِه ذلك وكان سببًا لتأخيرِه عن الوِزارة.

ولقد قال يومًا بمحضَر خليفتِه المرتضَى حينَ وقَع ذكرُ سكِّينٍ مفلول أخرَجَه من كُمِّه مسلولًا وقال: والله ما خَرجتُ يومًا قطُّ إلا بهذا هكذا، وأشار به إليه، فتعجَّب الحاضرونَ من أمرِه وقام المرتضَى في الحين مغضَبًا ودخَل إلى قصرِه، فكان ذلك أيضًا مما انتُقِد عليه. وكان معَ ذلك المرتضَى، يُعاملُه بالقَبول والرِّضى، إلى أن قيل عنه: إنه يُكاتبُ عليَّ بنَ يدّر ويُراسلُه، ويشاركُه في بعض الأمورِ ويُداخلُه، ويكتفلُ له شراءَ السلاح وغيرِها، وثبَتَ عندَ السيّد أمرُها، إلى أنْ حصَلت كتُبُه بخطِّ يدِه لعليِّ بن يدّرَ المذكور، يُعرِّفُه فيها بالأحوال والأمور، فانكشَف سرُّه وحالُه، وأمَرَ المرتضَى باعتقالِه، فاعتُقل بداخل القَصَبة بدار الحُكماء، وخَرج الحاكمُ بن آصلماطَ إلى موضعِه برَسْم ثِقافِ مالِه وحالِه معَ الخَيْل والرِّجال والأُمناء، فاستاقَ إلى مَرّاكُش أولادَه فسُجِنوا بها وعُمِل عليهم وعلى أبيهم جُملةٌ من العُدوتَيْن والرُّقَباء، وخَرجت من المرتضَى بطاقةٌ بالتوقيع عليها فيها مكتوبٌ جميعُ ما انتَقَد عليه، فحُمِلت إليه ووقَفَ على ما فيها ورَماها حين نظَر إليها، وسيقت له الكُتب التي بعَثَها لعليِّ بن يدّر، فحَلَفَ بأيمانٍ مغلَّظة أنه ما كتَبَها، فما صُدِّق في أيْمانِه ولا مقالِه، بل حَقَّق عليه جميعَ ما ذُكر عنه، فأمَرَ بقتلِه في موضع سِجنِه واعتقالِه، وبقيَ أولادُه مسجونينَ في هذه السنة إلى أن أُخرِجوا بعدَ ذلك[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٦٧.

اختصارُ الخبر عن مقتَل أشياخ الـخُلَّط

وذلك لـمّا أراد اللهُ بقَتْل السّعيد في عام ستة وأربعين، وتفرَّق أهلُ عساكرِه أجمعين، كان أشياخُ الخُلَّط أحدَ أسبابِ تلك الوقيعة، ولهم فيها أخبارٌ شنيعة؛ لأنهم في أول الحال تأخَّروا عنه حينَ عَزَم على القتال واجتَمعوا بجَمْعِهم حين سَمِعوا بقتلِه ورجَعوا لمحلّتِه، فأكَلوا وقَتلوا، ونَهَبوا وسَلَبوا لجُملته وأهل دِخلتِه وبعضِ أهله، وقَبَضوا على أُخت السَّعيد الحُرّة نَجْمةَ زوجةِ الوزير السيّد أبي إسحاق، واستولَوْا على مالِـها وحالِـها، وكان قد حصَل بأيديهم في تلك الكائنة شيءٌ كثير من السقطِ العظيم الخَطَر الكبيرِ القَدْر، فقد كان احتواؤهم على تلك المَحلّة واستيلاؤهم معَ بني عسكر عليها قبلَ وصُول بني عبد الوادي إليها. وقيل: إنّهم كانوا متّفقينَ معَهم على بيعِها منهم على ما ذُكِر في ذلك عنهم، فحَبَسَ ذلك الفعلَ الذّميمَ المنسوبَ إليهم، إلى أنِ احتيلَ بالحِيلة بعدَ ذلك عليهم، فلمّا وصَلوا إلى مَرّاكُش أذِن لهم في الدّخول إلى القَصَبة حين وصولِهم، وكان عَبيدُ المخزَن وبعضُ المتجنِّدين مستعدّينَ لهم عند دخولهم، فأُدخِلوا لدار الكرامة برَسْم الإكرام والإنعام، فحاق بهمُ الانتقام بالقَتْل لهم والإعدام، وقيل: بالسُّمِّ في الطّعام فماتوا في الحين أجمعين، وكان عددُهم سبعين[1].

وفي أثناءِ ذلك اعتُقل يعقوبُ بن محمد بن قَيطونَ الجابريُّ، فقد كان الشّيطانُ استَهواهُ لعصيان خِدمة السُّلطان، وكان المرتضَى رحمه اللهُ أنعَم عليه بجزيل الإنعام، وأعطاه بحُوَز مَرّاكشَ الأملاكَ والأسهام، وأعطى يعقوبَ بن جرمونَ السُّفيانيَّ مثلَ ذلك، فظهَر منه النُّصحُ والاجتهاد، وظهَر منَ ابن قَيْطونَ البغيُ والفساد، فبعَثَ المرتضَى عسكرًا إلى تامَسْنا معَ أبي الحَسَن يَعْلى ليتشوَّفَ منها متزيِّداتِ الأخبار من البلاد الغربية وغيرِها، وليتعرَّفَ أحوالَ العربِ هنالك وأمرَها، وليدبِّر معَ يعقوبَ بن جرمونَ في أمرِ يعقوبَ بن قَيْطون كيف يكونُ القبضُ عليه، ويَنظرَ وجهَ الحِيلة في ذلك إذا وصَلَ إليه.

فلمّا وصَل ابنُ قَيطونَ إلى أبي الحَسَن المذكور واجتَمع معَه في جُملة أشياخ العرب وغيرِهم، وتكلَّموا معَه في حالِـهم وأمرِهم، أخرَج يَعْلى ليعقوبَ بن جرمونَ ظَهيرًا كريمًا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩.

بالتنويه له والتكريم، وقدَّمه على جميع العرب بأنْوَه التقديم، فسُقِطَ في يدِ ابن قَيْطون حينَ سمِع التقديمَ والتعظيم، وتكلَّم بما معَه من الكلام، وأراد الانفصالَ عنه بسلام، فتكلَّم يَعْلَى معَ ابن جرمونَ سرًّا بما تكلَّم، ثم أمَرَ بالقَبْض على المذكور وعلى وزيرِه ابن مُسلم، فأُكبِلا بكَبْلَيْنِ ثقيلَيْن، وقَفَل أبو الحَسَن يَعْلَى إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى بهما معتقلان[1].

وفي هذه السنة، وهي سنةُ اثنتين وخمسين: كان أبو عبد الله المستنصِرُ بالله مستوطِنًا بحضرتِه التّونُسيّة قد طاعَتْ له تلك البلادُ الإفريقيّة وعُمّالُه ورجالُه بمدينة مَليانةَ والجَزائر وغيرِها من تلك البلاد الراجِعة الآنَ إلى تِلِمسان، وكان ليَغْمراسنَ في هذا العام وبعدَه بحُوَز تونُس أملاكٌ وأسهام، إحسان[2] عليه من المستنصِر بالله وإنعام[3].

وفي هذه السّنة: كان الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر أميرُ البلاد الأندَلسيّة في غاية الهُدنة معَ أمير المِلّة النَّصْرانية أذْفُونْش بسبب صُلحِهما المنعقِد بينَهما في سنة ثلاث وأربعين، فتوجَّه إليه في هذه السّنة واجتَمع معَه بخارج مدينة إشبيلِيَة بجَمْعِه ووافَقَه على ما كان وافَقَه عليه ودفَع هديّتَه إليه، وانصَرفَ إلى غَرْناطةَ بعدَ موافقتِه إياه ورِباطِه معَه، وما زال من هذا العام يجتمعُ معَه في كلِّ عام أو في بعض الأعوام إلى أن أراد أن يغدِرَه حين وصَل إليه في عام اثنينِ وستينَ على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسينَ وست مئة: كان الأميرُ أبو يحيى بن عبد الحقِّ مستقرًّا بمدينة فاسَ، وصَلَحت ببلاد الغَرْب أحوالُ الناس، وتهدَّنت الأحوالُ من الفتن والأهوال، وصار مُلكُ تلك البلاد إليه، واجتَمع جميعُ مَن فيها من القبائل عليه، فغُصَّ المرتضَى بأمرِه وحالِه حين بلَغَه من خُدّامِه ورجالِه جميعُ أمورِه وأحوالِه، وهوَّنوا عليه تجديدَ الحركة إليه، فقدَّم الـمَواعد، وأخَّر العزائمَ والمقاصد، وتأهَّب لها بالاستعدادِ والاستكثار من العُدَدِ والأعداد، والفُرسانِ الأنجاد، من العربِ والأجناد، برَسْم الاستقبال إلى تلك البلاد.

---

(١) هكذا في الأصل، والجادة: «معتقلين».

(٢) هكذا الأصل، والجادة: «إحسانًا» فهو مفعول لأجله.

(٣) كذلك، فالوجه: «إنعامًا».

ذكرُ حركة المرتضَى إلى الغَرْب برَسْم القتال
معَ بني مَرينَ في تلك البلادِ والحرب

وذلك أنه لـمّا شَرعَ المرتضَى في الحركة إلى البلادِ الغَرْبية برَسْم مقابلةِ الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ وقبائلِه الـمَرينيّة، خَرجَ من مَرّاكُش معَ خاصّتِه على عادتِه إلى مدينة تينملَ بعدَ الاستخارة وتقديم النيّة في زيارة قبرِ إمامِه، وعَقْدِه فيه لبنودِه وأعلامِه، استفتاحًا بعوائدِ أسلافِه، واستنجاحًا بمقاصدِ أحلافِه، بتسديد رأيه في مقاصدِه السَّنيّة وسَعْيه، فلمّا كمَّل الزيارةَ تحرَّك من مَرّاكُش في أبهَى زِيّ وأكمل صورة بما تأهَّب لهذه الحركة منَ استعدادِه، واستكثارِه من عُدَدِه وأعدادِه، وحشودِه وأمدادِه، واجتَمع من قبائل الموحِّدين قبائلُ وافرة، وجموعٌ من العربِ متكاثرة، وتَمادى مشيُ العساكرِ على المنازل المعلومة، والمراحِل المعهودةِ المعروفة إلى جهة مدينة سَلَا، ومنها جدَّد الحركةَ لِلقاءِ بني مَرين والحروبِ معَهم، وكانوا مستعدِّينَ للقائه.

ذكْرُ هزيمة المرتضَى بموضع بني بُهلول
وقفولِه إلى مدينة مَرّاكُشَ مهزوم مفلول(١)

ولـمّا ورَدَ المرتضَى إلى تلك الجِهات بعساكرِه وجنودِه، وعربِه وحشودِه، كان الأميرُ أبو يحيى ابنُ عبد الحقّ قدِ استعَدَّ أيضًا باستعدادِه بقبائلِه الـمَرينيّة ومنِ انضافَ إليهم من القبائل الغَرْبية، وبجيادِه وأنجادِه، فتأهَّب لقتالهم ونِزالهم بجموعِه المتكاثرة وأجنادِه، فوقَعَت بينَه وبينَ المرتضَى رحمَهما الله مراسَلاتٌ ومرادَدات في أحوالِـهما وأحوال المسلمينَ المتعلِّقينَ بهما، فلم يقدِّر اللهُ صُلحًا بينَهما إلى أنْ كانت مقاتلَتُهما ومقابلتُهما بموضع يُعرَفُ ببني بُهلول، فكان سيفُ أبي يحيى عليه بالنّصر مسلولًا، فالتقى الجمعانِ بالضَّرب والطِّعان، فنَصَر اللهُ بني مَرين على عساكر الموحِّدين، فهزَموهم وقَتلوهم واستَأْصَلوهم أعظمَ استئصال، بعدَما دام بينَهم القتال، فلم يكُ إلا لمحةُ لامح أو صَيْحةُ صائح، إلّا وقدِ انهزَمت جيوشُهمُ المتكاثرة، وصَارت بعدَ انتظامِها متناثرة، واستَولَت بَنو مَرين

(١) هكذا الأصل، والجادة: «مهزومًا مفلولًا».

على أثقالِ عساكر الموحِّدينَ وعلى مضاربِ المرتضَى وجماعته، وعلى ما كان من الأطعمة وغيرِها في خَزائنِه، وعلى الأحمال والبِغال والجِمال، ومنَ الأموالِ ما تخالَفَت في كثرتِه الأقوال، فقيل: إنّ جُملةَ ما أُخِذ له في تلك الحركةِ المذكورة والوقيعةِ المشهورة من الدّنانيرِ الفِضّية العَشْريّة سبعُ مئة ألفِ مثقال، وأمّا من الخَيْل والبِغال فكثُرَ فيه المقال، وكذلك من المضاربِ والأسباب، وأكثرُ الأثاثِ انتَهبَها المنتَهِبون أيَّ انتهاب، فحصَل بأيدي بني مَرِين ومَن كان معَهم من أشيائهم ومَتاعِهم شيءٌ كثير، وكان أمرُ هذه الهزيمة أمر كبير[1]، ليست كهزيمة أمن مَلُولين، التي خَرج الناسُ منها من غير كِسرةٍ مفلولين، بسُوءِ التدبير من الوزير، والرأي الفاسدِ والتدبير، نسأَلُ اللهَ العافيةَ من الإدبار، وحُسنَ العاقبة في دارِ القرار.

وكانت هذه الهزيمةُ الشّنيعةُ من بعض قبائل العرب، فقيل: إنّهمُ اتّفَقوا معَ بني مَرين وباعُوا المحَلّةَ منهم، فلمّا اصْطفّتِ الصَّفّان ووقَعَت الحربُ بينَ الفريقَيْن، أعطى العربُ ظهورَهم منهزِمين، فتَبِعهم بنو مَرِين، وانكسَرت عساكرُ الموحِّدين، فانهَزَموا بجُملتِهم أجمعين، وفرَّ المرتضَى رحمه اللهُ بنفسِه، وقُتل مَن قدَّر اللهُ له بحُلول رَمْسِه، وقصَد الفارّينَ معَ خليفتهم مدينةَ أَزَمُّور، ومنها نظَر في تجديد الأُمور، فقد كانوا بنو مَرِين حَمَلوا ساقتَه وعلامتَه وطبولَه، فبعَثَ إلى مَرّاكُش، وكان ترَكَ بها أبا سعيد بنَ تيجا معَ مَن كان ترَكَ بها من السّادة وأشياخ الموحِّدين، وأمَرَهم أن يَلقَوْه بطُبول وعلاماتٍ برَسْم قُفولِه إلى مَرّاكُش ودخولِه، فخَرجوا منها بذلك للقائه، وحَمِدوا اللهَ على سلامتِه وبقائه، فلقَوْه بموضع راط بجهة دَكّالةَ بالخَيْل والبغال والطّبّالة والبَنّادة، فانعقَدت عليه الساقةُ هنالك، وتَمادى مشيُه إلى حضرتِه كذلك، فدخَلَها بزِيِّه المعلوم، وقلبُه ممّا دهاه مكلوم، ولـمّا حصَل في حضرته، واستقرَّ بموضع خلافتِه، حَمِد اللهَ تعالى على ما مَنَّ به عليه من سلامتِه، وألزَم نفسَه أنه لا يعودُ إلى حركة أبدًا، فما خَرج بحركة بعدَها[2] حتّى خَرج فارًّا بنفسِه وحصَلَ في شِراك الرَّدى.

---

(١) هكذا الأصل، والجادة: «أمرًا كبيرًا».

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

وممّا أُنكِر عليه ونُسِب من الأمرِ إليه من ذلك: ما أخبرني به أبو عِمرانَ بنُ تيجا أنه قال: كتَبَ لابنه من أَزَمُّورَ حين وصَل إليها من كِسرة بني بُهلول وهو مهزومٌ مفلول، يُوصيه أن يعمَلَ له مِرحاضًا في حمّام المخالص، ويجدِّد بناءَ الحمّام ويُزيلَ منه الرُّخامَ لأجْل الزَّلْق الذي كان فيه، ويجدِّدَ فيه حتى يستوفيَه ليجدَه خالصًا حين يَبيتُ في المخالص.

وكتَبَ له أيضًا أن يصرِفَ له صَرْفًا من جُملة أرطال من الفضّة برَسْم التفريق على الأولادِ والأصاغر وخَدَم قصرِه، فامتثَلَ في ذلك أمرَه، وكتَبَ أيضًا من حضرته حينَ وصُوله إليها وقدومِه عليها إلى الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ راغبًا إليه أن يَجبُرَ عليه خادمًا كانت قد أُخِذت له حينَ هزيمته، واستيلاءِ بني مَرين على محلّتِه، فأمَرَ الأميرُ أبو يحيى بالبَحْث عليها في دَواوير العَرَب، وزَناتةَ وغيرِها بغاية البحث والطّلب، إلى أن وجدَها في بعض أحياءِ العرب، فدفَعَها للواصِل إليه بسببِها، وهو أبو محمد جابرٌ، فقَبضَها منه مقضيَّ الأرَب، فيما رغِبَ وطلَب، فتوجَّه بها إلى الفقيه المعظَّم أبي القاسم العزَفيّ صاحبِ سَبْتةَ برَسْم مآربَ أيضًا يستقضيها له، فقضاها، وكَسَا الخادمَ المذكورةَ بكُسوةٍ عظيمة وأعطاها دابّةً وأكرمَها وأرضاها، وصَرَفَها معَ مُوصلِها إليه إلى أنْ وصَّلَها لسيّدها المرتضَى فقَبِلها وارتضاها، وكانت حاجةٌ في نفسِه قضاها، فوَلَدت منه الأولادَ بعدَ ذلك بعدَما رَآها من كلِّ فريق مَن رآها.

وفي سنة أربع وخمسينَ وست مئة: شَرع المرتضَى في بناءِ الدِّيار لأولادِه الكبار، مثلَ: دار العرائش ودارِ البلار، وما جاوَرَها من القصور بأبي دانِس، وبنى داخلَ القَصَبة ديارًا كثيرة، وأنفَق فيها أموالًا خطيرة، ولم يزَلْ من هذه السّنة وقبلَها وبعدَها يشتغلُ بالبناءِ والتسديد والإصلاح، فأوّلُ ما ابتَدأَ ببناءِ جامع عليِّ بن يوسُف، وآخرُ بناءٍ بناه الموضعُ الذي سمّاه بالفاتحة، التي كانت لأمورِه غيرَ ناجحة.

وكانت البلادُ في هذه السّنة هادنةً ومهدَّنة، أمّا المرتضَى فكان بينَه وبينَ الأمير أبي يحيى مُهادنةٌ ومصالحة، فتهدَّن الموحِّدونَ في بلادِهم والـمَرينيُّونَ كذلك، وأمّا ابنُ الأحمر فكان في مُصالحةٍ معَ الرُّوم، لكنّه فُجع في موتِ وَلَدِه وليِّ عهدِه يوسُف. وأمّا الفقيهُ أبو القاسم العزَفيُّ فاستبدَّ ببلدِه، وضَبطَها لنفسِه باشتدادِه وجِدِّه، في مصالح أهلها بغاية جِدِّه واجتهادِه، فبلّغَه اللهُ غايةَ قصدِه ومُرادِه، لكنه كان يخاطبُ المرتضَى في كلِّ الأوقات،

ويُخطِّطُ بما يجبُ له من التخطيطات، والبرِّ والكرامات، ويُعرِّفُه بجميع الأمورِ المتزيِّدات، وكان في أول حالِه وأمرِه طلَبَ منه أن يبعثَ له شخصًا من الموحِّدين أو سيدًا من السادات، فبعَثَ إليه ابنَ أشرقيّ فأخرَجَه بعدَ أشهر وكتَبَ للمرتضَى بما كان من أفعالِه وأعمالِه، فصدَّق المرتضَى في ذلك مقالَه، وبقي الفقيهُ مستبدًّا بأحوالِه.

وأمّا أبو الحَجّاج يوسُفُ ابنُ الأمين فاستبَدَّ أيضًا بطَنْجة، وقد كان ترَكَه أبو الفَضْل بقَصَبتها مقدَّمًا على الرّماميين المرتَّبين فيها ساكنًا مثلَ أمين، وذلك أنّ أهلَ طَنْجةَ لـمّا رأَتْ أنّ المرتضَى ضَعُفت أحوالُه عن الحركات إلى تلك الجهات، وقَوِيت أحوالُ بني مَرِينَ فيها بالظهور والبَرَكات، في السُّكونِ والحركات، دخَلوا تحتَ طاعة الفقيه العالِـم أبي القاسم العزَفيّ، فبعَثَ إليهم القائدَ أبا الفَضْل العبّاس، وكان شيخًا من فُضَلاءِ الناس، فتوجَّه صُحبةَ هذا يوسُفُ بن محمد ابن الأمين في جُملة مَن توجَّه معَه إليها، فقَدِم أبو الفضل المذكورُ[1] من سَبْتة معَ جماعةٍ كبيرة من الرُّماة والرّجال عليها، فاستوطَنَ مدةً قَصَبتَها ثم ترَكَ فيها ابنَ الأمين المذكورَ عِوَضًا منه ونائبًا فيها عنه، بخِلال ما يُغرِمُ بعضَ القبائل الغُمارية ويجتمعُ بالفقيه بسَبْتة ويقضي أشغالًا فيها، ويعودُ إلى طَنْجةَ بعدَما يُخلِّصُ أشغالَه كلَّها ويستوفيها، فلمّا طالت غَيْبةُ أبي الفَضْل المذكور عنها واستأْنَس أهلُها بابن الأمين المذكور، وقد كان بسَبْتةَ مقدَّمًا على جماعةٍ كبيرة منَ الرِّجال، فكانوا يسمَعونَ من قوله ويَرجِعونَ لفعلِه، فدبَّر معَهم أن يقومَ بطَنْجةَ، فوافَقوه على ذلك ورافَقُوه، فقام فيها وضَبَطَها لنفسِه إلى أنْ قتَلَه أولادُ الأمير أبي يحيى وأدخَلوه في رَمسِه فقتَلَهم رجالُه معَ مَن كان معَهم أجمعين على ما يأتي.

وفي سنة خمس وخمسينَ وست مئة: بعَثَ أميرُ المؤمنينَ أبو حَفْص عمرُ المرتضَى عسكرًا منَ الأجنادِ والموحِّدين قُدِّم عليه أبو محمد بنُ أصناج، وأمَرَه أن يتوجَّه إلى بلاد السُّوس لينظُرَ في مَصالِحها وحَسْم عِلَلها الطارئة عليها من أهل الضّلال والفساد والخلافِ والعِناد، فلمّا وصَل إليها استوطَنَ بتارودانتَ منها، وكان القائمُ بتلك البلاد عليُّ بن يدّر قد تحصَّن بتيونوينَ معَ مَن كان معَه من المفسِدين والمعتَدين منَ العربِ

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

وغيرِهم، مدبِّرينَ في حالهم وأمرِهم، فخَرج إليه بالعسكر أصناجُ فقابَلَه عليُّ بن يدَّر وقاتَلَه وقَتل منَ الأجنادِ جُملةً كبيرة، وعاد ابن أصناج إلى مَرّاكُش وقد نقَصَ من عسكرِه ناسٌ كثير، وبقيَ ابنُ يدّر في سُوسِه، بشديد بأسِه فيه ودروسِه[1].

وفي هذه السنة: وَلَّى الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن يوسُف بن نَصْر ولايةَ عهدِه لأبي عبد الله وَلَدِه، وكان يسمَّى بالفقيه، وكان التقديمُ قبلَه لأخيه إلى أن توفِّي كما تقدَّم ذكرُه.

وفي هذه السنة: استَولَى الأميرُ المعظَّم أبو يحيى بنُ عبد الحقِّ على مدينة سِجِلْماسةَ ودخلَها وقبَضَ على واليها حسبَما يأتي ذكرُه مختصَرًا، وذلك أنّ الواليَ بسِجِلْماسةَ في هذه السنة كان الشّيخَ أبا محمد عبدَ الحقّ الجنفيسيَّ، وكان رجُلًا مُقعَدًا، لكنّه يركَبُ على الدابّة وينزِلُ عنها برجالٍ مستبِدِّينَ لذلك وعبيد، وكان قَدَّمه عليها المرتضَى وأسنَدَ له أمرَها وأمرَ دَرعةَ وغيرِها، فاستَوطنَ قَصَبتَها معَ مَن كان معَه فيها من الخَيْل والرُّماة والرِّجال، فنظَرَ بنظرِه وأمَرَ بأمرِه في جميع الأشغال والأعمال، غيرَ أنه كان يصرِفُ المقال ويتصرَّفُ بالانتقال إن كان بالاستعجال فيُنقَلُ على ظهورِ الرّجال، وإن كان على مَهَل واستمهال فعلى الخَيْل والبغال.

وكان السببَ في دخُول الأمير أبي يحيى إليها واستيلائه في هذه السّنةِ عليها رجلٌ يقال له: محمدٌ القَطِرانيّ، كان أبوه شخصًا حَيْرانًا يَبيعُ في زمن شبيبتِه وكُهولتِه القَطِران، لكنّه كان أبوه يَعرِفُ مقدارَه، ليس كابنِه هذا الذي عدا طورَه وطلَبَ الثّارة، وكانت له نفْسٌ خبيثةٌ غدّارة، وذلك أنه كان عندَ ابن زجو[2] مقرَّبًا من بين رجالِه يُصرِّفُه في أشغالِه، ويُفيضُ عليه من إحسانِه ونَوالِه، فصار أكبرَ خُدّامِه ورجالِه، فعَرَف أشياخَ عربِ المعقِل وغيرَهم، وأدخَل نفسَه معَهم في جميع حالِهم وأمرِهم، وجعَل مخدومَه ابنَ زجو إذا وصَلوا إليه يُقبِلُ عليهم، ويُعطي العطاءَ الجَزْلَ إليهم، ويُكرِمُهم بغاية إكرامِه، وجزيل إحسانِه لهم وإنعامِه، حتّى مالوا بكُلِّيتِهم إليه، ونالوا الخيرَ عندَ مخدومِه

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩.

(٢) جاء رسم هذه الكلمة في ق، ك، ب: «زكوا»، وهي في أصلها كاف أعجمية، فتكتب بالجيم المصرية والكاف.

باعتمادِهم عليه، فكانت أمورُهم وأحوالُهم تنقضي كلُّها على يدَيْه، إلى أنْ حدَّث نفسَه بالثِّيارة وبطلبِ الإمارة، فلم يَتأتَّ له ذلك إلا بالحِيَل والإدارة[1].

فخاطَبَ إلى الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقّ، وفي طيِّ مخاطبتِه إياه غيرُ الحقّ، الذي هو محضُ الباطل، بتزيين الفُجور والبواطل، لكنّ الأميرَ المذكور لـمّا وصَل خِطابُه إليه أخَذ بالحَزْم والعَزْم، فكان جوابَه قدومُه بالعسكر إليه، بعدَما قدَّم جُملةً من بني مَرينَ إليهم، كأنّهم إلى ابن زجو أرسالًا، فأدخَلهم القَطِرانيُّ عليه إعظامًا وإجلالًا، وكان معَه حينَئذٍ جملةٌ خيلًا ورِجالًا، فما استقرَّ قَرارُهم معَ ابن زجو المذكور، وتكلَّموا معَه في بعض الأمور، إلّا والأميرُ أبو يحيى قد وصَل إلى سِجِلْماسةَ، فقَبَضَ القَطِرانيُّ على ابن زجو معَ مَن كان معَه من ناسِه، وأخرَجَه على باب الغَدْرِ إلى الأمير أبي يحيى، بعَثَه القَطِرانيُّ إليه، وبقيَ بالقَصَبة واجتَمع جميعُ مَن كان فيها عليه، فلمّا وصَل ابنُ زجو للأمير أبي يحيى ومثُل بينَ يدَيْه، بقي متعجِّبًا من حالِه وبطلانِه، ومن حال القَطِرانيِّ الغَدّار وخِذلانِه، فقال في جُملة كلامِه لفرسانِه ورجالِه: كيف يتَولَّى أمرَ البلاد والعباد عجوزةٌ مبطولة، تُرفَعُ وتوضَعُ على الأعناقِ منقولة؟

وكان القَطِرانيُّ لـمّا عزَم على الغَدْر والمكر، عاهَدَ الأميرَ أبا يحيى أن يترُكَه بسِجِلْماسةَ واليًا من قِبَلِه للنّهي فيها والأمر، فوفَّى له بالعهد وأنجزَ له في الوعد، وجعَل معَه شخصًا من بني مَرينَ يَسكُن في القَصَبة معَ جُملة من الرِّجال والفُرسان، لكنّ القَطِرانيَّ أكثرُ منه[2] جُملةً وعُصْبة، وأمَرَ الأميرُ أبو يحيى للقَطِرانيِّ كما كان الوَفْقُ معَه أن يدفَعَ له المالَ المختزَن بالقَصَبة، فدفعَه له، واستصفَى حالَ ابن زجو ومالَه. وتَلوَّم الأميرُ أبو يحيى هنالك أيامًا، وعاد إلى حضرة فاسَ بعدَما ارتَبطَ معَ القَطِرانيِّ المذكور، واشتَرطَ عليه بعضَ الأُمور، وجعَلَ معَه ثقتَه يُشاركُه في التدبير، والقليلِ من أمرِه والكثير.

ولـمّا وصَل الأميرُ أبو يحيى إلى حضرتِه حَبَسَ ابنَ زجو في مالٍ كان قاطعَه به على نفسِه خيفةَ أن يُدخِلَه في رَمْسِه، فبعَثَ إلى أهلِه وأولادِه وعِياله لينظُروا منه وليعرِّفوا للمرتضَى بذلك وبأمرِه وحالِه، فبلَغَه خبرُه وأمرُه وما كان فَعَل القَطِرانيُّ وغيرُه، فاغتاظَ

(١) يعني: المداراة.

(٢) في ق، ك، ب: «منهم».

على ابن زجو ووَلَدِه، ونَسَبه للتفريطِ حتى أخَذ البلدَ من يدِه، فانحرفَ غايةَ الانحراف على هذا الأمر، وأقسَم أنه لا يَفْديه من ذلك الأَسْر، إلّا أن يَفديَ نفسَه من مالِه، فكتَبَ ابنُ زجو إلى أهلِه وعِياله، ليدبِّروا في أمرِه وحالِه، فبعَثُوا إليه بعضَ ما كان عليه وأعطَى حفيدَهُ رهينةً في الباقي، وخَرج من السِّجن يُدبِّرُ فيه، وخَلَّص ما كان بقيَ عليه، ووصَل حفيدُه إليه[1].

اختصارُ الخبر بقيام القَطِرانيِّ بسِجِلْماسةَ بالدّعوة الـمَرينيّة ثم نكْثِه عليها وقيامِه فيها لنفسِه بالدّعوة الموحِّدية بعدَ خروجِه عنها ونُبذٍ من أحوالِه إلى أنْ مكَّن اللهُ منه

وذلك أنه لـمّا قام فيها بالدّعوة الـمَرينيّة كما تقدَّم ذكرُه، وخاطَبَ الأميرَ أبا يحيى مُعلِمًا له بحالِه وأنه يدخُل في حزبِه وطاعتِه، وغَدَر ابنَ زجو وأخرَجَه من القَصَبة إليه، فاجتَمع مَن كان بها من الأجنادِ والعربِ عليه، وأسكَنَ معَه الأميرُ أبو يحيى في القَصَبة مَن يشاركُه في الأمور الـمَخْزنيّة، فقد كان الأميرُ المذكور ترَكَه على حالِه ناظرًا في أشغالِه معَ خُدّامِه ورجالِه وجعَل معَه قائدًا من أعيان بني مَرين معَ رجالِه أيضًا وخُدّامِه، والقَطِرانيُّ المذكور يتصرَّفُ في الأمور بينَ يدَيْه ويُعرِّفُ بجميعِها إليه، حتّى لا يخفَى منها شيءٌ عليه، واستمرَّ ذلك الحالُ بقيّةَ هذه السنةِ المؤرَّخة، إلى أنِ اشتُهر أمرُه وكبُرت دائرتُه ومرحلتُه، وكثُرت خَيْلُه وجُملتُه، وبلَغَه الخبرُ في أثناء ذلك بوفاة الأمير أبي يحيى في السنة الآتية على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

فقام القَطِرانيُّ فيها بأمرِه ثائرًا، وزحَفَ القائدُ الـمَرينيُّ معَ مَن كان معَه من خَيْل ورجال إليه غادرًا يريدُ فيما زَعَم أن يقتُلَه، فخلّصَه اللهُ منه، وخَرج من القَصَبة برجالِه وخَيْله ووَلَدِه وأهلِه وانصَرف إلى الحضرة العَلِيّة الفاسِيّة، فوجَد التنازُعَ وقَع بها بعدَ موتِ الأمير أبي يحيى بينَ ابنِه وأخيه، وهُو الذي جَسَّر القَطِرانيَّ على القيام بسِجِلْماسةَ حين وجَد فترةً لتراخيه، فطلَبَ لنفسِه الاستبداد، واستبدَّ برأيه أيَّ استبداد[2]، فجنَّد

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) عبارة ق، ك، ب: «واستعدّ برأيه أيّ استعداد».

الأجناد ووصَلتْه من العربِ الأمداد، وجاهَرَ على أُمراءِ الدّولتَيْن: الموحِّديّة والـمَرينيّة بالخلافِ والعِناد، وخاطَبَ للمرتضَى معتذرًا عن حالِه في ابتداءِ أمرِه حين دخُولِ بني مَرين إلى سِجِلْماسة وحالِ ابنِ زجو معَهم وغيرِه، وأنه قائمٌ فيها بدعوتِه وداخلٌ[1] تحتَ طاعتِه، غيرَ أنه اشتَرط عليه الاستبدادَ فيها، وأن يكونَ عاملَها وواليَها، فوصَلَه منَ المرتضَى خطابُه الكريم، يقتضي البِرَّ والتكريم، وقدَّمه على تلك البلاد أعظمَ التقديم، وقدَّم له ذلك مقدِّماتٍ يتعَلَّلُ بها، ويُجعَلُ في الشَّرَكِ بسببِها، وكان قد طلَبَ له في جملةِ مطالبِه أن يبعَثَ له قاضيًا من عنده، وأن يُعينَه بجَمْع كبيرٍ من جُندِه، فبعَثَ إليه الفقيهَ أبا عَمْرو بنَ حَجّاج قاضيًا، وكان في أمرِه حازمًا ماضيًا، وبعَث سيّدًا يَسكُنُ في القَصَبة من غير استبداد، وقائدًا من النّصارى معَ جُملةٍ وافرة من الأجناد، وأوصَى المرتضَى للقاضي المذكور ولقائدِ الرُّوم مُشافهةً لأمرٍ يكونُ عليه محفوظًا ومكتومًا.

فلمّا وصَل العسكرُ إليها، أدخَل القَطِرانيُّ القاضيَ وأجنادَ النّصارى إليه، وصَرَف السيّدَ ومَن كان معَه من الموحِّدينَ والمتجنِّدين وامتَنع لهم أن يَدخُلوا عليه، فانصَرفوا جميعًا عنه، وقيل: إنهم تَلوَّموا في تلك الجهات إلى أنْ أمكنَ اللهُ منه، وذلك أنه لـمّا استقرَّ القاضي الفقيهُ أبو عَمْرو بنُ حَجّاج بسِجِلْماسةَ وحَكَم بينَ الناس بالشَّرع، وكان فاضلًا بالطّبع، استمالَ محبةَ الناس كلِّهم إليه، وأحال القَطِرانيُّ في الأمورِ كلِّها عليه، وتقرَّب الرُّوميُّ للقَطِرانيِّ المذكور، وتهيّأَ للقاضي ما رامَه معَ قائد الرُّوم، وكان الرُّوميُّ الـمَخْزيُّ من طبعِه محاولًا للأُمور مُبرِمًا، فدبَّر وجهَ الحِيلة في قَتْل القَطِرانيّ، فصار يدخُل إليه من غيرِ مَشُورة عليه، إلى أنْ ظَفِر به في بعضِ الأيام وقتَلَه، وركِبَ في جماعتِه ليورِّيَ للناس[2] زعامتَه وشَهامتَه فيما فعَلَه، فقامت هُوشةٌ في البلد وقُبض على والد القَطِرانيّ فطلَبَ العفوَ من القاضي، وقال: هو ليسَ لي بوَلَد، وذكَرَ عنه ما كان له منه من العِصيان، وما كان فيه من الجَهْل والطُّغيان، وأبانَ القاضي المذكورُ للناس ما خفِيَ عنهم من تلك الأمور، وأنْ ما قتَل الرُّوميُّ القَطِرانيَّ إلّا بأمرِ أمير المؤمنين المرتضَى عِقابًا على ما فَعَل من جميع فعلِه، وهُو الذي أوجَبَ أمرَه للقائد بقتلِه.

---

(١) في ق، ك، ب: «ودخل».

(٢) في ق، ك، ب: «الناس».

وركِبَ القاضي في البلدِ مسدَّدًا ومصرَّفًا، ورُفع رأسُ القَطِرانيِّ على رُمح فنوديَ عليه: هذا جزاءُ الغادر، متطوَّفًا أسواقَ البلد، وبقيَ أبوه خائفًا مرتقِبًا أن يُقتَل معَه، فأمَّنَ الفقيهُ القاضي أبو عَمْرٍو رُوعَه، وكتَبَ إلى المرتضَى يُعرِّفُه ببراءة ساحتِه ممّا جَناه ابنُه، فعندَ وصُوله إلى مَرّاكُش أمَرَ بسَجْنه وعلَّق رأسَ ابنِه على السُّور، واستقامت بسِجِلْماسةَ الأمور، وعاد الفقيهُ أبو عَمْرٍو بعد ذلك إلى مَرّاكُش فقدَّمه المرتضَى على جميع أشغالِـها، فقام خيرَ قيام بأحوالها، وكتَبَ المرتضَى بخبر القَطِرانيِّ إلى الفقيه أبي القاسم العزَفيِّ[1].

وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وست مئة: كانت وفاةُ الأمير المعظَّم أبي يحيى ابن عبد الحقِّ رحمه الله، فكانت دولتُه من حِين استيلائه على رِباط تازَى نحوَ عشَرة أعوام، وكان قبلَ دخولِه إليها واستيلائه عليها أميرًا على القبائل الـمَرينيّة وغيرِها وقائمًا بأمرِها وحالِـها نحوَ أربعة أعوام، وذلك من حين وفاةِ أخيه الأمير أبي عبد الله محمد بن عبد الحقّ رحمه الله في سنة اثنتين وأربعين، وكانت أيضًا إمارتُه نحوًا من ستة أعوام.

وأخبرني مَن أثِقُ به عن وفاةِ هذا الأمير أبي يحيى وسببِه أنّ أحدَ الصُّلحاء نفَعَ اللهُ بهم عَضّ بيدِه على إصبعِه حين دَلّه على ما ينفَعُه، فما قام من موضعِه إلّا وقد تألَّمَ إصبعُه، فخَرَجت فيه حبّةٌ صغيرة، فما زالت تزيدُ وتكبُر من حينَ أوصاه الصّالحُ بوصيّتِه، إلى أنْ قضَى اللهُ في هذه السنة بمنيّتِه، وقيل: إنّ ذلك الرجُلَ الصّالح هو الحاجُّ التاهَرْتيّ، حين اجتَمع معَه بسِجِلْماسةَ، وقيل غيرُه واللهُ أعلمُ بحقيقة أمرِه.

وكان الأميرُ أبو يحيى رحمه الله فارسًا شجاعًا لم يكنْ في زَناتةَ أشجعُ منه، وبذلك كان يزيدُ على يَغْمراسنَ بن زَيّان.

ولـمّا توفِّي هذا الأميرُ أبو يحيى قام من بعدِه وَلَدُه الأكبر أبو علي عُمرُ فبايعَه بعضُ القبائل الـمَرينيّةِ وتأخّر عنه آخَرونَ من وجوه أشياخ بني مَرِين، واتّفقوا على تقديم عمِّه الأمير الأعلى أبي يوسُف، وقالوا: هذا أحقُّ بالتقديم، والتوقيرِ له والتعظيم، لِـما عَلِموا من دينِه وصَلاحه وتُقاهُ في الحديث والقديم، فوقَعَت بينَه وبينَ ابن أخيه مُنازعةٌ بل مقارعةٌ على مدينة فاسَ إلى أنِ استوطَنَ الأميرُ أبو يوسُف رِباطَ تازَى معَ ناسِه

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٤٩-٣٥٠، والاستقصا ٢/ ٢٥٥.

وأهلِه، فكانَ بنو مَرِين يَسيرونَ إليه يومًا بعدَ يوم ويَفِدون عليه قومًا بعدَ قوم، إلى أنِ استَوفَى عليه أكثرُهم فقصَدَ بهم إلى مدينة فاسَ ودخَلَها، وخَرج أبو عليّ عُمرُ إلى مِكْناسة، فتحصَّن بها أشهرًا، وكان يعقوبُ بنُ عبد الله في أولادِ بني عبد الحقِّ كبيرًا عندَهم، فما يزالُ يحاولُ أمرَ الأمير أبي عليّ المذكور، إلى أنِ انقادَ لعمِّه أبي يوسُف وسَلَّم له في الأمور، وقيل: إنه وصَل معَه إليه حتى بايَعَه واجتَمعت كلمةُ بني مَرِينَ عليه، وفي أثناء ذلك قدَّر اللهُ بموتِه في هذه السنة المؤرَّخة، وقيل: في أوائل سنة سبع وخمسينَ وست مئة[1].

رَجْعُ الخبر:

وفي هذه السنة، وهي سنةُ ستٍّ وخمسين: بُويعَ أميرُ المسلمينَ وناصرُ الدِّين أبو يوسُفَ يعقوبُ[2] بن عبد الحقِّ وصَلَ اللهُ أيامَهم ونَصَر أعلامَهم.

فكانت بيعتُه أولًا برِباط تازَى الخاصّة والعامّة، وطاعت له أكثرُ البلاد الغربيّة وانقادت لحُكمِه جميعُ الـمَرِينيّة، فاستوزَرَ منهم شيخَ بني عليّ أبا زكريّا بنَ حازم وشيخَ بني عسكرٍ أبا زكريّا بنَ أبي مِنديل، وهما أولُ وُزراءِ هذه الدّولة وكُبرائها، وكبَّر منهم شيخَ كلِّ قَبِيل وكرَّمه وعظَّمه، فكلٌّ بذَلَ جِدَّه وجُهدَه حين قرَّبه وأكرَمَه وعظَّمه.

واستَكتَبَ أبا عبد الله بنَ القَرّاق في أولِ أمرِه، ثم استَكتبَ بعدَ ذلك جُملةً من الكُتّاب واستَوْزَر جُملةً من الوُزراء، وكذلك أولادُه الأُمراءُ الكُبراء.

وكان استيلاؤه على الحضرة الـمَرّاكُشيّة عاشرَ محرَّم من سنة ثمانٍ وستينَ وست مئة، فعَظُمت مملكتُه في البلاد الغربيّة وضَخُمت دولتُه السّعيدةُ الـمَرينيّة، إلى أن توفِّي بالجزيرة الخَضْراء وهو على قَدَم الجهاد بالبلاد الأندلسيّة في سنة خمس وثمانينَ وست مئة، فكانت مدةُ دولتِه ثمانيَ وعشرينَ سنة[3].

وفي سنة سبع وخمسينَ وست مئة: رحَل يعقوبُ بن عبد الله بن عبد الحقّ من بلاد عمِّه أبي يوسُفَ إلى جهة تامَسْنا برَسْم الاستيطانِ بها والسُّكْنى، وبرَسْم الـمَرعَى

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٤، والاستقصا ٣/ ١٩.

(٢) بقي إلى سنة ٦٨٥ حيث توفي المحرم منها (تاريخ الإسلام ١٥/ ٥٦٣).

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٤-٢٣٥.

والكَلا، وقد أضمَرَ التغلُّبَ على سَلَا، فعبَرَ الواديَ من مجازِ الرُّمّان، وذلك في إقبال الزّمان، واجتَمع عليه جُملةٌ كبيرة من رجالِه وخُدّامه، وبعضٌ من بني أعمامِه أولادِ بني عبد الحقِّ أعزَّهم اللهُ تعالى، وذلك بعدَ موت أبي عليّ عُمرَ ابن عمِّه أبي يحيى رحمَه اللهُ تعالى، فنزَلَ بمقرُبةٍ من غبولةَ بدوّارِه، وما زال يُحاولُ هنالك ما أضمَرَه في ليلِه ونهارِه، وكيف يكونُ دخولُه إلى رِباط الفتح من حينِ نزولِه هنالك واستقرارِه، إلى أنْ دخَل إليها واستَولَى بكَيْدٍ عليها، وذلك أنّ واليَها الساكنَ بقَصَبة رِباط الفتح، هو أبو عبد الله محمد بن أبي يَعْلَى الكوميُّ، كان قدَّمه على ولايتِها وجِبايتها المرتضَى، وأمره بالحَفْزِ عليها من طارقٍ يَطرُقُ أهلَها، أو حادثٍ يحدُثُ فيها من أهلِها، خوفًا من أن يُخاطِبوا الأميرَ أبا يوسُف ويَدخُلَها، فحفَزَها غايةَ الحَفْز، بالسُّمّار في الأسوار وبما أمكَنَه من الحِرْز، وعَمِل المعارِضَ على كلِّ باب من أبواب العُدوتَيْن المذكورتَيْن وجَعَل الرُّماةَ والرّجالَ يحرُسونَها، ولا ساعةً من ليلٍ أو نهارٍ يفارقونَها، فما أفادهم حَفْزُهم في نهارِهم، ولا حِرْزُهم ليلًا بسُمّارِهم.

ذكرُ فَتْح[1] رِباطِ الفتح ليعقوبَ بن عبد الله

وذلك لـمّا أرادَ اللهُ بفتح رِباط الفتح وعُدوتِها سَلَا، بعدَما ضَبطَها ورَبطَها ابنُ أبي يَعْلَى، أراد اللهُ بتعجيزِه وضعفِه، فطَرَقَها أبو عبد الرّحمن يعقوبُ بن عبد الله بن عبد الحقِّ في ليلةٍ منَ اللّيالي، في جُملة كبيرة من الخَيْل والرِّجال، فقَصَد إلى باب سَلَا معَ مَن كان معَه خيلًا ورَجْلًا، فقصَد بعضُ رجالِه على سَلالـمَ استعمَلوها إلى السُّور فمَلَكوهُ، وقصَدوا إلى بُرج الباب فمَن وجَدوا فيه أهلكوه، فمنهم من قُتل ومنهم من رَمَى بنفسِه في الأرض من السُّور، فانكسَر أو هلَكَ فكانوا بينَ قتيلٍ ومكسور، فملَكَ رجالُ يعقوبَ بن عبد الله البابَ المذكور، فكسَروا أقفالَه، ودخَل فيه خَيْلَه ورجالَه، فصَعِدوا على أعلاه ورفَعوا العَلام، وقام الضّجيجُ في البلد، وضَجّت الناسُ من كلِّ ناحية إلى البابِ فوجَدوا العلامَ عليه، فارتفعَ الإشكالُ وانقطع الكلام، وعاد كلُّ مَن وصَل إلى موضعِه يَبغي النّجاةَ برأسِه والاستسلام، لئلّا يصلَ الخيلُ إليهم حينَ يدخُلونَ

---

(١) سقطت من ق، ك، ب.

البلدَ عليهم، فقد كانوا كَسَروا أقفالَ البلد البَرّانيّ وبقي الدَّخْلانيُّ يحاولونَ كسرَه أو حلَّه، ففَرَّ النّاسُ من هنالك حين رأَوْا ذلك راجعِينَ إلى ديارِهم، واقتَحمَ أكثرُهم الجوازَ إلى العُدوة الأخرى مواضعِ قرارِهم، وتَركوا سلاحَهم وأثوابَهم وعبَروا الواديَ بالعَوْم، فأُخِذَت أسلابُهم، ودخَل رجالُ أبي عبدالرّحمن يعقوبَ بن عبد الله بن عبد الحقّ وغيرُهم في إثْرِهم، فسَلَبوا ونَهبوا في ليلِهم ذلك ونهارِهم، ثُم أمَرَ الأميرُ المذكور بالكفِّ عن الناس وعن أضرارِهم، فتهدَّنتِ الأحوالُ والأمور، وخَرج ابنُ أبي يَعْلَى في جَفْنٍ صغير من القَصَبة إلى أَزَمُّور، وملَكَ يعقوبُ بن عبد الله مدينتَيْ سَلَا، وضَبطَها لنفسِه مُضاهيًا لعمِّه، وحدَّثته نفسُه أمورًا عنه غائبة، وأحوالًا كلُّها كاذبةٌ خائبة على ما أصفُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة ثمانٍ وخمسينَ وست مئة: أراد يعقوبُ بن عبد الله أن يقومَ على عمِّه أبي يوسُفَ يعقوبَ بن عبد الحقّ ويُخالفَ في سَلَا عليه، وطَمِع أن يصيرَ مُلكُه فيما زَعَم[1] إليه، فهدَّن أهلَ سَلَا وأبدَى لهمُ اعتقادَه فيهم ووِدادَه، ونِفاقَه على عمِّه وعِنادَه، وضمَّ عليه عسكرًا من بني مَرِينَ وغيرِهم من أجنادِه، وكتَبَ إلى مَلِك قَشْتالةَ أن يبعَثَ له بمئتَيْن من الرُّوم، يركَبونَ ويَسيرونَ معَه ويستعينُ بهم فيما يَروم، ثُم إنه اتَّهم أشياخَ سَلَا أنهم خاطَبوا إلى عمِّه وكاتَبوه فخاف أنهم يُبايعونَ له ويقومونَ عليه، فطلَبَهم في الـمَيْز فجازوا إليه إلى رِباط الفتح فميَّزهم وأخَذ سِلاحَهم منهم وجوَّزهم، وعادوا إلى عُدوتِهم دونَ شيءٍ من السلاح، وكان تدبيرًا خاليًا من السَّدادِ والصلاح، معَ قضاءِ الله تعالى وقَدَرِه.

اختصارُ الخبر عن كائنةِ مدينة سَلَا الذي كُلُّ قلبٍ عن همِّها ما تَسلَّى ولا سَلَا[2]

وذلك لـمّا بعَثَ يعقوبُ بن عبد الله للنّصارى أهلَكَهم الله أنْ يصِلوا إليه برَسْم أن يكونوا أجنادَه، كان منتظِرًا إليهم ومعتمِدًا عليهم لينالَ بهم مقصودَه ومرادَه، ولـمّا وصَل إلى مَلِك قَشْتالةَ أهلكَه اللهُ كتابُ يعقوبَ بن عبد الله أدركَه الطَّمعُ في دخُول

(١) قوله: «فيما زعم» سقط من ق، ك، ب.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٥-٢٣٦، والاستقصا ٣/ ٢١.

كفَرتِه إليها واستيلائهم عليها، فاشتَغل بتعمير الأجفانِ في وادي إشبيلِيَة، ولا عَلِم أحدٌ من المسلمين ولا منَ الكافرينَ إلى حيثُ يتوجَّهونَ من البُلدان، فكتَبَ الفقيهُ أبو العبّاس العزَفيُّ[1] من سَبْتَةَ يعرِّفُ بخبر تلك العِمارة إلى كلِّ جهة من الـمَراسي ومكان، ويُحذِّر من غَدْرِهم ومكرِهم كلَّ إنسان، فمَن قدَّر ذلك وظهَرت له الدّلائل من أهل سَلَا والقبائل، خَرج منها قبلَ الكائنة بأيام قلائل، وهم قليلٌ من الناس، ومَن تأخَّر بالخروج ولا صَدَقَ الحال، وظنَّ أنه عيْنُ الـمُحال، قُتل أو أُسر لأمرٍ قُدِر ليس لأحدٍ عنه مَحِيدٌ ولا انتقال.

فلمّا كان في آخرِ شهر رمضانَ المعظَّم من هذه السنة ظهَرت في البحر قُرقورةٌ بعدَ قُرقورة[2]، فظَنَّ أهلُ سَلَا أنهم تُجّار، إلى أن وصَلوا شيئًا بعدَ شيء مِرارًا، واجتَمعت من

---

(١) هكذا في النسخ كافة، وقال ناشرو (م): «بل أبو القاسم ـ كما يأتي ـ أما أبو العباس فقد حَدّث عنه منصور بن خميس الأنمري (كذا) من رجال القرن السادس، وهو من شيوخ ابن الأبار، ويستبعد أن يكون قد أدرك هذا الحادث، وهو صاحب «الدرّ المنظم»».

قلنا: هكذا قالوا، وفي هذا القول جملة أخطاء، أولها: أن منصور بن خميس لا يُعرف بالأنمري، بل هو لخميّ من أهل المرية، قال ابن الأبار في ترجمته: «منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم اللخمي، من أهل المرية، يكنى أبا القاسم وأبا علي، وأبوه خميس يكنى أبا جمعة».

وثانيها: أن هذا الرجل لم يكن من شيوخ ابن الأبار، ولو كان كذلك لصرّح ابن الأبار في ترجمته بذلك.

وثالثها وهو الأهم: أن قولهم هذا قلب الأمر، فجعل الشيخ تلميذًا والتلميذ شيخًا، فأبو العباس العزفي هو الذي حدّث عن منصور بن خميس لا العكس، قال ابن الأبار في ترجمة منصور المذكور: «ورحل حاجًّا، فنزل الإسكندرية، وسمع منه أبو عبد الله بن عطية الداني سنة ست وتسعين وخمس مئة. وحدّث عنه في الإجازة أبو العباس العزفي وغيره» (التكملة ٢/ الترجمة ١٨٣٤ بتحقيقنا).

وهذا النص يشير إلى أن منصورًا المذكور توفي بعد سنة ٥٩٦هـ، وعادة ما يجيز في أواخر عمره، فمن الطبيعي أن يكون من حدّث عنه في الإجازة قد عاش إلى نهاية النصف الثاني من المئة السابعة وبعدها لأنه في الغالب يكون في سنّ الكهولة أو الشيخوخة.

(٢) في ق، ك، ب: «مرقورة» وليس بشيء، والصواب ما أثبتناه، والقُرقورة، بوزن عصفورة: السفينة، وجمعها قراقر، كما ترد عند المؤلف بعد قليل.

القَراقر اثنتا عشْرةَ ومركَبانِ اثنان وأساطيلُ وشَلالير[1]، إلى أنِ انتهَى عددُ الأجفانِ سبعةً وثلاثين، وكلُّهم مملوءٌ من الكَفرة النّصارى، فبقيَ الناسُ في أمرِهم حَيارى.

فلمّا كان يومُ الجُمُعة ثاني عيد الفِطر أظهَرَ العدوُّ ما أضمَر من الغَدْر، فدخَلتِ الأجفانُ الغَزْوانيّاتُ إلى الوادي، بعدَما امتَلأت بالرُّماة والبُغاة الأعادي، وكانت ناحيةُ الوادي ليس لها سُور، ولا يتأتّى لأحدٍ أن يكونَ فيها محصورًا، فهَبَط الكفَرةُ من أجفانِهم والمسلمونَ يُعاينونَهم بأعيُنِهم وأجفانِهم، حتّى صفَّفوا صفوفَهم، وجَمَّعوا جموعَهم، وكلُّهم مدَّرِعونَ بدروعِهم، والمسلمونَ مجتمعونَ غيرُ مسلَّحينَ ولا مدَّرِعين، مُستبسِلينَ للقضاءِ وقوفًا صُفوفًا صفوفًا، والنّصارى يزحَفونَ لهم وجموعُهم مرتَّبةٌ وصُفوفُهم، وقدَّموا أمامَهم رُماتَهم وطُغاتَهم مستعدِّينَ للقتال، وليس عندَ المسلمين شيءٌ من السّلاح ولا منَ النِّبال، لكنْ بعضُ أقوام اغتَنموا الشهادةَ فمات منهم أعداد، وآخَرونَ قاتَلوا بالقَصَب الـمُستجوَدة، وكان بها نحوُ عشرينَ فارسًا فقاتَلوا حتى قُتلوا رحمةُ الله عليهم بعدَما صَبَروا صبرًا عظيمًا، وفي أثناءِ ذلك تزاحَمت الخلائقُ في الخروج على الباب، فخرَجَ مَن خَرج منهم بالجَهْد العظيم، ومات في الزِّحام عددٌ لا يُحصيهم إلّا السميعُ العليم، والنّصارى معَ ذلك يَقتُلونَ مَن وقَف إليهم حتى دفَعوا دَفْعةً واحدةً عليهم ودخَلوا البلاد بعدَما قَـتَلوا خلقًا كثيرًا، وكان موقفًا جَسيمًا وأمرًا كبيرًا، ويعقوبُ بن عبد الله يَعضُّ يدَيْه على قَبيح ما جَرى، ويشاهدُ ما تسبَّب فيه فعلُه ويَرى، ولا يقدِرُ أن يَجوزَ إليهم، بل يَنظُرُهم من قَصَبته وقد حَلَّ بهم من القَتْل والأسر ما قُدِّر عليهم، فبقيَ يَذُوب تلهُّفًا، ويَعضُّ بنانَه ندمًا وتأسُّفًا، حين عايَنَ ما عايَنَه من البلاءِ الذي أحاطَ بأهل سَلا.

ولـمّا دخَل النّصارى إليها، واستَولَوْا بالغَدْر عليها، قَتلوا مَن وجَدوا من الرّجال، وأسَروا النّساءَ والأطفال، وحصَروهم في الجامع الكبير مأسورين، وفي نفوسِهم مقهورين، فكانوا يعبَثُون في النِّساء والأبكار، ويقتُلون الشّيوخَ والعجائزَ الكبار، فسَفَكوا الدّماء وهتكوا الأستار، وخَرَّبوا المساجدَ والدِّيار، وعَمَّروا بالتُّرّاس والقِسِيِّ الأسوار. وكتَبَ المرتضَى رحمَه اللهُ تعالى للفقيه أبي القاسم العزَفيِّ حين وقَع هذا الأمرُ الفَظيع

---

(١) في ق، ك، ب: «سلالير»، والشلالير مفردها شلّير، وهو نوع من الزوارق (دوزي: شلر).

والتدبيرُ السيِّئُ الشّنيع كتابًا يَشكرُه فيه على ما كان يُحذِّرُ من أمرِ النّصارى، ويسألُه أن يستشعرَ أمورَهم ليحذَر منها استشعارًا.

فصولٌ من الرِّسالة التي وجَّهها المرتضَى للفقيه أبي القاسم العزَفيِّ حين كائنةِ مدينة سَلَا

وإنّا كتبناهُ إليكم كتَبَ اللهُ لكم أحمدَ عاقبة وأجملَها وأكنفَ كَلاءةٍ واكلأَها، وأن تَعلَموا أنّا نعتدُّ بولائكمُ الخالص، ونحفَظُ ما لكم ولسَلَفِكم من السوابقِ والخَصائص، ونَشكُر نصائحَكم التي ما زِلتُم إيّاها تَبذُلون، وخِدمتكم التي تُوالونَ وتصِلون، ونستمدُّ منكم إلى العلم الذي أنتُم له مُخلِصون، والدِّين الذي عن سَنَنِه القويم لا تَعدِلون، واللهُ يتولّاكم بحِفظه وصَوْنِه، ويُجزِل حظَّكم من إنجادِه وعَوْنه.

وقد طَرَأ في مدينة سَلَا جَبَرها اللهُ سبحانه واستنقَذها ما قد اتّصل بكم مما كنتُم أبدًا منه تحذِّرون، وبه لعِلمِكم بالعدوِّ الكافر تُنذِرون، ولكنْ لم تزِد الأقدارُ لـمَن فيها إلّا انهمالًا في الإضاعة وإذهالًا لـمَن محل في أعمالِه الساعةَ بعدَ الساعة، حين نفَذَ المقدور، ووقَع المحذور، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله الذي تصيرُ إليه الأمور، واللهُ سبحانَه يُجري دينَه القيِّم من النَّصر والظَّفَر ما عوَّده، ويجمَعُ أيديَ عبادِه المؤمنينَ على من اتَّـخَذ إلـهًا غيرَه وعبدَه، وهو سبحانَه يُكافي سعيَكم على ما عرَّفتُم وحذَّرتُم لأهل السّواحل، وخوَّفتُم من فَجْأة العدوِّ الـمُخاتل، لِـما ظهَر منَ استعدادِه، ونبَّهتُم في ذلك أقصى مبالغة بنيّتِكم الصالحة الصريحة، ووفَّيتُم منه أوجبَ حقٍّ للمسلم على أخيه من النّصيحة، لكنْ يَنفُذُ حُكمُ الله تعالى فيما ثبَت في الكتُب مسطورًا، فلم يحذر التحذير محذورًا، وكان أمرُ الله قَدَرًا مقدورًا، وثوابُكم على الله سبحانَه فيما مِن ذلك تولَّيتُم، وقضَيتُم به حقَّ الإسلام وأدَّيتُم، وإنّا لَنَشكُر لكم ذلك، كما رأى اللهُ عزَّ وجَلّ فيه مَنابَكم وشَكَر إليه انتدابَكم، فما قصَّرتُم في عمَلٍ سَديد، ولا تأخَّرتُم في الجِدِّ والنُّصح عن شأوٍ بعيد، فعرِّفوا بكلِّ ما تتعرَّفونَ من إرادات الأعداءِ بعد، وطالِعوا مِن محاولاتِهم الذّميمةِ ما نتأهَّبُ لدَفْعِه بحول الله تعالى ونستعدّ، وهو سبحانَه يَتدارَكُ بمعهودِ لُطفِه ومُعتادِه، ويمُدُّ الإسلامَ وأهلَه بنَصْرِه وإنجادِه، ويعينُكم على أفضل ما أنتُم عليه من صَواب العملِ وسَدادِه بمنِّه. وكُتِب ثالثَ ذي القَعدة من عام ثمانيةٍ وخمسينَ وست مئة.

ذكرُ فتح سَلَا أَمّنها اللهُ وانتزاعِها من أيدي الرُّوم على يدِ أمير المسلمينَ أبي يوسُف رحمه الله[1]

وذلك أنه لـمّا بلَغَ الأميرَ المعظَّم أبا يوسُف خبرُ أهل سَلَا، واستيلاءُ النّصارى عليها، بادَرَ بعساكرِه إليها، فحاصَر الكفَرةَ فيها أعظمَ حصار، واجتَمع المسلمونَ عليها منَ البلاد الغربيّة[2] وما وَالاها منَ الأقطار، فكانوا يُقاتلونَهم باللّيل والنّهار، بالنِّبال والأحجار، ودام القتالُ مدةً من ثلاثةَ عشَرَ يومًا من شوّال، إلى أنْ خَرج منها الكُفّارُ بما حصَل في أيديهم من المسلمينَ الصِّغارِ والكبار، وبها ألفَوْه في المدينة منَ الأموال والأسبابِ والأمتِعة ما لا يحصُرُه حاصر ولا يصِفُه واصف، وذلك شيءٌ تَحارُ فيه الأفكارُ والأقوال.

وبطُول مقامِهم في تلك الأيام المذكورة، كان الطُّغاةُ الكفَرةُ يُطلِعونَ المسلمينَ لأجفانِهم، وما وجَدوا بالمدينة من أحوالهم وأموالهم، وحينَئذٍ أسرَعوا للفِرار، وتقَحَّموا لُـجَجَ البحار، ولو أقاموا فيها بعضَ الأيام لأخَذ المسلمونَ منهم بالثار، واقتَحموها بالدّخول عليهم وقَتلوهم ما بينَ الجُدُرات، ولكنّ الأمورَ تجري بحُكم الأقدار، ولكنْ هوَّن هذا الخَطْبَ الذي استنفَرَ الأحلام، وذاد عن الجفونِ لذيذَ المنام، خروجُ الطّاغية منها وعودتُها عن قريبٍ للإسلام، فعادَت للجُفون لذيذُ منامِها وغَمْضِها، وبعضُ الأشياء بالجُملة أهونُ من بعضِها، وملَكَ الأميرُ أبو يوسُف مدينتَيْ سَلَا ورِباطَ فتحِها، وعوَّد اللهُ سبحانه المسلمينَ عوائدَه الجميلة حين فتَحَها، وكان فتحًا ميسَّرًا بالإضافة لِـما كان يتوقَّعُ منَ استيطان عبَدةِ الأصنام بينَ ظهورِ الإسلام، ولو كان عامًا واحدًا من الأعوام.

وأمّا جَلِيّةُ أمرِها فإنّ العدوَّ أهلكَه اللهُ لـمّا كان قد نزَلَ بجزيرة قادِس كانت الأقوالُ تختلفُ في أيِّ موضع يقصِدُه، إلى أن كان منَ الأمر الفاجِع والحدَث الصّادع ما تقدَّم ذكرُه وخبرُه وأمرُه، وكان في ذلك ما احتَسَبهُ الأميرُ أبو يوسُف من مصالح المسلمينَ شُغلًا، واكتَنَف بحِراسة هذا الثّغر قولًا منه وفعلًا، فأجمَع من أخلاط الناس

---

(١) الاستقصا ٣/ ٢١، ٢٢.

(٢) سقطت من ق، ك، ب.

وأشتاتِ القبائل الـمَرِينيّة وغيرِها آلافًا من الأعداد يَستنهِضُهم للجهادِ بالجِدِّ الخالص في ذلك والاجتهاد، إلى أن مَنَّ الله تعالى بهذا الفَتْح للعباد، فسُرَّ المسلمونَ به في جميع البلاد، وبصُنع الله الذي لا كفايةَ لهم بشُكرِه، وأنِسوا بعنايته الدّافعة في صُدور العدوِّ ونَحْرِه، الرّادّةِ عليه عاقبةَ كيدِه ومكْرِه.

وذلك لـمّا رأى العدوُّ أهلكَه اللهُ تكاثُرَ المسلمينَ على المدينة المذكورة وتوارُدَهم عليها معَ الساعات وخلالَ الآناءِ والأوقات، ولا يَفتُرُ لهم ليلًا ونهارًا ورودٌ وإلمام، ولا يَمضِي زمَنٌ فَرْدٌ إلا وفئامٌ تتبَعُها فئام، أوقَعَ اللهُ تعالى الرُّعبَ في قلوبِهم، وكان طلوعُ عشائر المسلمينَ إذْنًا بهروبِهم، فأصبَحوا يومَ الأربعاء الرابعَ عشَرَ من شوّال المذكور وقد طهَّر اللهُ تعالى الأرضَ من إلحادِهم، ورَكِبوا لُـجّةَ البحرِ على أعوادِهم، وأمَرَ الله الرِّيح فلم تُساعدْهم، فصارتِ الأمواجُ تَسري بهم يمينًا وشِمالًا، وجَنوبًا وشَمالًا، ولانحفازِهم إلى الفِرار لم يتزوَّدوا كثيرًا من الماء، ولا قَدَّروا حُكمَ قاضي السماء، فطال مقامُهم في البحر ولا يُسيغونَ جُرعة، ولا يستطيعونَ إلى أهليهم رَجْعة، فصاروا يقصِدونَ السّواحل رجاءً في الظَّفَر بمَنْهَل يُعلِّل غُللَهم ويَبلُغُ نهلَهم وعَللَهم، فكلّما يَمَّموا جهةً تلقَّاهم المسلمونَ رُجّالًا وفُرسانًا يذودونَهم ذِيادَ البعير الضالّ، فيرجِعونَ وحُرَقُهم تتوهَّج، وغُللُهم تتأجَّج، بل إنّهم في بعض تلك المواطن قصَدوا فأقصَدَهم الحتفُ والحَيْف، وتقسَّمَهم الرُّمحُ والسَّيف، ففقَدوا عدّةَ رجال، وتَركوا دونَ مواردِ الماء جُملةَ حُماة وأبطال، ولقد وصَلت منهم قُرقورةٌ إلى جهة العرائش فرامُوا أخْذَ الماء فعجَزوا عنه، فحاولوا شراءَه ببعضِ مَن عندَهم من الأسرى فأُجيبوا إلى ذلك، وأُظهِر لهم الإسعافُ فيه هنالك، فاستُنقِذَ منَ أسرى المسلمينَ المذكورينَ ثلاثةٌ وخمسونَ شخصًا أكثرُهم نساءٌ وأطفال، وذكَروا أنّ طاغيتَهم القَشْتاليَّ عَزَم على تحريق رؤسائهم حَنَقًا عليهم لِـما أفتَوْه، وأسفًا على ما حصَل بأيديهم فأفلتُوه، ولذلك طلَبَ منهم جماعةٌ نحوَ عشرينَ شخصًا الأمانَ فأُعطوه ونَهَضوا إلى الأمير المعظَّم المجاهد أبي يوسُف بن عبد الحقّ ليركنوا ويَخدُموه.

وأخبرَ أبو الحَجّاج يوسُفُ ابن الأمين أنه وجَّه من ثِقاته إلى الأندَلس حينَ ذلك مَن وَثِق بنقلِه، واستندَ إلى فهمِه وعقلِه، ليتعرَّف حقيقةَ الأخبار هنالك، ويعرِّفَه بجَلِيّة

ذلك، فقال: إنّ الطاغيةَ أهلكَه اللهُ كان قد أعدَّ جموعًا وافرةَ العُدَد ظاهرةَ العدَد ليكونوا مددًا للكفَرة المستولِينَ على سَلَا، فعندَ وصُول نبإِ الفتح الذي سَدَّ دونَهم بابَ الرجاء، وضيَّق عليهم فَسيحَ الأرجاء، كاد العدوُّ تَفيضُ نفسُه، ويَطويه أسفًا رَمْسُه، فأقسَمَ أيْمانَ كُفرِه لَيُعاقِبَنَّ أشياعَه الخاسرةَ، ولَيَطبُخَنَّ مقدَّمهم جوانَ غَرْسيةَ على فَعلتِه الصادرة، فاتّصل ذلك بجوانَ المذكور ففرَّ في ثلاثة قَراقرَ إلى الأشبُونة فبقيَ مُقيمًا بها ولم يرجِعْ إلى قادِس حيث كانت تتجهَّزُ الأجفانُ المذكورة إلا نحوَ خمسة وعشرينَ جفنًا وسائرُها تفرَّق أيَّ تفريق، وتمزَّق شملُه خوفًا من الطاغية أهلكَه اللهُ أيَّ تمزيق.

وأُهبِط من أسرى المسلمينَ ثلاث مئة وثمانون شخصًا فَدَاهم المسلمونَ من أهل شَرِيش وغيرِهم طالبينَ الأجرَ من ربِّهم، إلى أن وصَلوا بعدَ ذلك إلى بلدِهم، وقيل: إنّ جُملةَ ما اجتَمع بإشبيلِيَةَ مِن أسرى أهل سَلَا نحوُ ثلاثة آلاف نَفْس بينَ ذَكرٍ وأُنثى صغيرٍ وكبير، أكثرُهم أطفال صغار وعجائزُ وشيوخ كبار.

وبعَثَ الأميرُ أبو يوسُفَ رحمَه اللهُ تعالى أبا بكرِ بنَ يَعْلَى في أواسط شهر ذي القَعْدة من العام المؤرَّخ برَسْم افتكاكِ الأسرى المذكورينَ، ففَكَّ اللهُ أسرَهم على يدَيْه وافتَدى أكثرَهم، وكان قد أُسِر في جُملتهم قاضي سَلَا أبو عليٍّ ابنُ عشَرة ففَداهُ الأميرُ أبو يوسُف في جملة مَن فَداهم، واستنقَذَهم من أيدي أعاديهم، وكلُّ مأسورٍ له أهلٌ أو مالٌ فُدِي مِن أسرِه ويَسَّر الله لهُ في أمرِه، وكلُّ فقيرٍ مُعسِرٍ سبَّب اللهُ في صَدَقاتِ المسلمين فافتَكَّ من الأسر، إذ ليس بعدَ العُسر إلّا اليُسر، وبقيَ عندَ الرُّوم آخرونَ مأسورينَ من أهل سَلَا المذكورين وآخرونَ مَتْلوفينَ لا يُعلَمُ لهم خبر، ولا وُقعَ لهم على أثَر، هل كانوا مقتولينَ أو محمولين، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله العليِّ العظيم.

ولـمّا دخَل الأميرُ المعظَّم أبو يوسُف إلى مدينة سَلَا بعدَما استَولَى عليها العدوُّ وخَرَّب ديارَها ومساجدَها أمَرَ ببناءِ سُورِها، وتجديدِ مساجدِها المعظَّمة ودُورِها، فأوّلُ ما شَرعَ من تلك الأمور في ابتداءِ بناءِ السُّور، فرفَع الحَجَر بيدِه يوصلُه إليه برَسْم البناءِ المذكور، وفعَلَ ذلك مِرارًا يبتغي الأجرَ والثوابَ عليه منَ الله سبحانَه، فعندَما عايَنَه جميعُ الطوائف الحاضِرينَ من وجوه بني مَرِين الزُّعماءِ إخوانِه، ومن أشتاتِ القبائل وأخلاطِ الناس، رفَعوا الأحجارَ على كواهِلهم من غير تأنٍّ في ذلك ولا اختلاس،

حتّى رفَعوا جميعَ ما كان منَ الحَجَر في المقابرِ والكدان، وحصَل ذلك كلُّه في بناءِ السُّور المذكور، وذلك في أيامٍ قلائل[1].

وحينَئذٍ تفرَّق من هنالك مَن حضَر من القبائل. ولقد بادَرَ إلى الأمير المعظَّم أبي يوسُف جماعةٌ من الصُّلَحاء حين سَمِعوا أنه رَفَع الحَجَرَ بيدِه إلى ذلك البناء، مُسرِعينَ إليه بالشُّكرِ والثناء، راغبينَ منه ألّا يفعلَ ذلك، وقالوا: إنّ السُّلطانَ لا يكونُ كذلك، فقال لهم: ما ابتغَيْتُ إلا الأجرَ والثوابَ هنالك، فدعَوْا له وانصَرفوا عنه شاكرينَ، وبالثناءِ عليه ذاكرين، فاجتَهد رحمَه اللهُ في كائنة سَلَا غايةَ الاجتهاد، وما زال يحدِّث نفسَه من هذه السنة المؤرَّخة بالغَزْو والجهاد، إلى أنْ بلَّغه اللهُ في ذلك أقصى المراد، فجاهَد في سبيل الله معَ إخوانِه وأولادِه الفُرسانِ الأنجاد، فأعزَّ الله به الدِّين، وأذلَّ به الكافرين، وتسَمَّى بأميرِ المسلمين، وبَلَغ القصْدَ والمراد، ومات على قَدَم الجهاد.

وقدَّم على مدينة سَلَا في هذه السَّنة المذكورة أبا عبد الله بنَ أحمد الفنراريَّ[2]، وأمَرَه أن يشتغلَ فيها بالبناءِ والتسديد، والإصلاح والتجديد، فامتثَل المذكورُ أمرَه الرَّشيد، فجدَّد وسدَّد وبَنى وشيَّد، فقد كان الكُفّارُ خَرَّبوا الدّيارَ وحَرّقوها بالنار، وأشعَلوا في كلِّ ما وجَدوه في ديارِ المدينة وأسواقها منَ الأثاث والأسباب والأمتِعة والأوعِية والفُرُش وغيرِ ذلك منَ السِّلع قُطنًا كان أو صُوفًا أو كَتّانًا ممّا لم يتأتَّ لهم حَمْلُه لسُرعةِ فِرارِهم وثِقَلِه، أشعَلوا فيه في كلِّ موضع النيران، فكانت تلتهبُ فيها بكلِّ مكان، فحرَّقوا ومزَّقوا ونَهَبوا وسَلَبوا، ثم فَرُّوا وهَرَبوا، وترَكوها حينَ خَرجوا منها خاليةً خاوية، والنّيرانُ تشتعلُ في أسواقِها ودُورِها، وبعضِ علاماتٍ مرفوعاتٍ على سورِها، وعَمِلوا تخيُّلاتٍ ما بين شراريفِ السُّور بداخِلها، وأقلَعوا في أجفانِهم باللّيل شيئًا بعدَ شيء فما عَلِم أحدٌ من الحاضرينَ هل كانت عامرةً أو خالية، حتى باعَ نفوسَهم من الله بعضُ الـمُطَّوِّعة وطَلَعوا بسَلاليمَ عَمِلوها إلى السُّور، وحينَئذٍ تبيَّنَتْ لهمُ الأمور. ودخَل الأميرُ أبو يوسُفَ رحمه اللهُ إليها في يوم الأربعاء الرابعَ عشَرَ لشوّال من عام ثمانيةٍ وخمسينَ وست مئة.

---

(١) الاسقصا ٣/ ٢٢.

(٢) في ق، ك، ب: «الفنزاري».

ووصَلتْ في شهر ذي القَعْدة من هذا العام إلى نَظَر شَرِيش مئةُ فارس برَسْم إخلاءِ موضع القَناطر وإخراج المسلمينَ منها ووصُولِ الطاغية إليها، وقد اعتَمدوها لسُكناهم، وعَدُّوها مَثْواهُم، وأُخلِيَت أيضًا ديارٌ بشَرِيش برَسْم الطاغية لِـما عزَم عليه من الإقامة بها توغُّلًا في ضلالِه، وإرصادًا لمواقع كيدِه واحتيالِه، وتجرُّدًا لِـما أظهَرَه ونطَقَت به شيعتُه من قَصْد ذلك الثَّغر في مستقبل حالِه، على ما يأتي إن شاء اللهُ تعالى.

وأولُ مَن بادَرَ بورودِه إلى الأمير أبي يوسُف بمدينة سَلَا في أشياخ قبائلِ الـمَصامدة وكُبَرائهم: شيخُ بني تامردا الصُّنْهاجيُّ أبو فارس عبدُ العزيز بن يبورك، فأقبَلَ إليه أبو يوسُف بغاية إقبالِه، حين ورَدَ عليه بخَيْلِه ورِجالِه، فأنْجَح اللهُ سعيَه الحميد، ورأيَه السَّديد، في مقاصدِه ومصادرِه ومواردِه، فوَلّاه أبو يوسُفَ المدينةَ المذكورةَ بعدَ هذه السنة المؤرَّخة، فاستقرَّ فيها بأولادِه وعِياله، وصَاهَرَ لطلحةَ وزيرِ السّلطان وابن خالِه، ووصَلَه بها بعضُ قبائله من إخوانِه وخُدّامِه، وعاد إلى المدينة المذكورة من أهلِها ومن غيرِها حين صَلَح حالُها وأمرُها. وقد كان الفقيهُ أبو القاسم العزَفيُّ رحمه الله يُحرِّضُ على التفقُّد لتلك الأشياءِ والتيقُّظ للأعداء، فلمّا وقَع ما وقَع كتَبَ المرتضَى له كتابًا بالشّكر.

وفي هذه السنة، في يوم الثّلاثاء الموفي عشرينَ من شهر محرَّم: أمَرَ أبو عبد الله الـمُستنصِرُ بالله صاحبُ تونُس بقَتْل الكاتب الجليل أبي عبد الله ابن الأبّار، ولا يُعلَمُ لأيِّ شيء كان ذلك، ثم نَدِم على قتلِه بعدَ ذلك[1].

وفي سنة تسع وخمسينَ وست مئة: كان مِن قضاءِ الله تعالى وقَدَرِه على أهل شَرِيش ما كان، من دخُول الرُّوم القَصَبةَ صُلحًا معَهم برَسْم السُّكْنى بها والاستيطان، ثم استَهوى الرُّومَ غَويُّهم والشّيطان، وأرادوا القيامَ فيها على المسلمين، فأخرَجوهم منها خاسِرين، واستعانوا عليهم بعَسْكر من بني مَرِين، حين كان جَوازُ محمد بن إدريسَ بن عبد الحقِّ في سنة اثنتين وستين.

وفي هذه السنة: كان بينَ الفقيه أبي القاسم العزَفيِّ وبينَ الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر شَنَآنٌ وفتنةٌ وعداوةٌ في القلوبِ متمكِّنة، فأمَرَ صاحبَ الأندَلس القائدَ ظافرًا أن يَخرُجَ

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٤١٨-٤١٩.

بالأجفان الغَزْوانيّة فيضيِّقَ على سَبْتَةَ ويُحاصِرَها، فاجتَمعت ونزَلَت بالجزيرة الخضراء، فكانوا يدخُلون مرسَى سَبْتَةَ مرةً بعدَ أخرى ويضيِّقونَ عليها ويقطَعونَ الـمَرافقَ الواصلةَ إليها، فأمَرَ الفقيهُ العزَفيُّ القائدَ أبا العبّاس الرنداحيَّ أن يَعمُرَ جميعَ أجفانِ سَبْتة كبارًا صِغارًا، فعَمَرها وخرَج بها إليهم، فكان الغالبَ عليه والظافرَ بها لديهم، فعكَّسهم ونكَّسهم وساقَهم إلى سَبْتة ولم تُفلِتْ منهم إلّا الأقلّ، وقُتل في جُملة مَن قُتل منهم القائدُ ظافر، وعلِّقت جثّتُه في البحر على حَجَر السُّودان وطِيف برأسِه سَبْتَةَ ثم عُلِّق، وبعدَ ذلك تهدَّنت الأحوال وسكَنَت الأقوال، ويُسمَّى هذا العامُ بسَبْتَةَ عامَ ظافر.

ومن أخبار العَرَب الداخِلينَ تحتَ طاعة الموحِّدين على الـجُملة من غير سنة معيَّنة

وذلك أنّ المرتضَى رحمه اللهُ تعالى قدَّم يعقوبَ بنَ جرمونَ أميرًا على قبائل سُفيانَ كلِّها ليقومَ بأمورِها قليلِها وجليلِها، وكان يُضاهيه ابنُ أخيه في العَقْد والحَلّ، فأمَرَ عليه بالقتل، ثم إنّ إخوةَ المقتول من أولادِ كانونَ أخذوا ثأرَهم بعدَ سنين، دخَلوا على عمِّهم وأسقَوْه كأسَ الـمَنُون، ورحَلوا إلى بلاد بني مَرين ودخَلوا تحتَ طاعتِهم وفي حُرمتِهم كما تقدَّم ذكرُه حين[1] وفاةِ السّعيد رحمه الله[2].

ولـمّا وصَل الخبرُ إلى المرتضَى رحمَه الله بقَتْل يعقوبَ بن جرمونَ المذكور، قدَّم وَلَدَه عبدَ الرّحمن على قبائل سُفيان، فاستَوْزَر يوسُفَ بن أورزج[3] ويعقوبَ بن عُلْوان، وكان المذكورُ يستخِفُّ بالأمور، ولـمّا نزَل في بعض الأيام على وادي تانسيفت بدُوّارِه خَرج يومًا منه متنزِّهًا على شاطئ الوادي، ليُبصرَ الرائحَ والغادي، فما استقرَّ به هنالك القَرار، إلّا وقافلةٌ قافلةٌ بجُملة من التُّجّار، فأمَرَ عليها بالنّهبِ والدّمار، فاستولَوْا على ما أبقَوْه من المال والأثقال، ولم يعبَأوا بمَن سكَت ولا مَن قال، وكان في حال سُكر هنالك، فلمّا أفاقَ من سُكرِه وفاتَ الأمرُ في ذلك، ورَأى أنّ الجُرأةَ عظيمة في قَطْع السُّبُل والمسالك،

---

(١) في ق، ك، ب: «في».

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠، والاستقصا ٢/ ١٧٣.

(٣) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠: «وازرج».

أخَذ في الحين في فِرارِه، ورحَل من هنالك بدُوّارِه، ونكَثَ عن الطاعة الموحِّديّة، ودخَل تحتَ الطاعة الـمَرينيّة، وخَسِر التُّجّارُ جميعَ أموالهم، ولا قُدِّر لهم في الوقت إلّا ببَسْط آمالِـهم[1].

ثم بعَثَ المرتضَى رحمه الله إلى عُبيدِ الله[2] بن جرمونَ، فوصَل معَ إخوانِه الجَرامية المعروفينَ بأولادِ مرية، وكانوا في نحو مئة فارس بينَ وَلَد وحفيدٍ يُعدُّون، بل بنيّفٍ عليها يزيدون، ولـمّا وصَلوا إلى الحضرة الـمَرّاكُشية قعَد لهمُ الخليفةُ في بعض الأيام، وقدَّم عليهم وعلى قبائل سُفيانَ عُبيدَ الله الـمَكْنيَّ بأبي زِمام تقديمَ إنعام وإكرام، لكنْ كان المذكورُ عُبيدُ الله غيرَ مُنَجَّذٍ[3] في الأمور، ولا في الرأي والتدبير، فعجَّل له بالتأخير وقدَّم بعدَه على سُفيانَ مسعودَ بنَ كانون، فصَلَحت الأحوالُ على يدَيْه، واستقامت الأمورُ الراجعةُ إليه[4].

ثم إنّ عواجَ بنَ هلال أحَدَ أُمراءِ عربِ الخُلَّط وعظيمَهم وزعيمَهم عاد إلى الحضرة الموحِّديّة وخَرج عن الدّولة الـمَرينيّة، فوفَدَ على الخليفة بعَسْكر كبير من إخوانِه، فأفاضَ عليهم جزيلَ إحسانِه، وأمَرَ أن يقامَ بحقِّهم وبإكرامِهم، فأُقيمَ بهم خيرَ قيام، وأُكرموا غايةَ الإكرام.

واتّصل خبرُ[5] كرامتِهم بعبدِ الرّحمن بن يعقوبَ المتقدِّم ذكرُه، فخاطَبَ يعتذرُ في أمرِه ويرغَبُ في العفوِ والصَّفح من الخليفة المرتضَى وأن يعودَ كما كان إلى خِدمتِه، فأُسعِف في مطلبِه وبُغيتِه، ووَفَد على الحضرة الـمَرّاكُشيّة في جماعةٍ من جُملته، فأُنزِل على عادته بدارِ الدالية، وأُعمِل الكلامُ فيما جرَى منه في الأيام الخالية، فعجَّل باستدعائه، ودخَل معَ وُزرائه، فعندَ خُلوِّه معَهم ثُقِفوا بدار الحُكماء، فحصَل في الشَّرَك الذي نَصَبَه له مَن نَصَبَه، عقوبةً منَ الله على ما تقدَّم من فعلِه في شأن مَن أكَل مالَه وغَصَبه، وكان

---

(1) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(2) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠: «عبد الله».

(3) المنجذ: المحنَّك المجرب.

(4) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(5) سقطت من ق، ك، ب.

عليُّ بن أبي علي الخُلَّطيُّ غار بوصُول عواج إلى الحضرة، فزَرَع فيه كلَّ قبيح عندَ الخليفة، وكان المذكورُ عند المرتضَى ثقةً وعَدْلًا يُرتضَى، فجدَّد الكلامَ في شأن عواج المذكور، وقال عنه: إنه ما وصَل للحضرة إلا بالخِداع للأمرِ والفجور، فأُمهِل ولا أُهمِل، بل أُكرِم وأُنزِل، حتّى حصَل عبدُ الرّحمن بن يعقوبَ في الشَّرَك فأمَّر عليه عليَّ ابن أبي عليٍّ الخُلَّطيَّ المذكورَ الذي كان معَه في الإمارة مشترِكًا، فقُتل وقُتل عبدُ الرّحمن معَ وزيرَيْه المذكورَيْن وحُزَّت رؤوسُهم أجمعين، وعُلِّقوا على باب دَكّالة، وبقيَ أميرُ سُفيانَ مسعودُ بن كانونَ بن جرمون، وأميرُ بني جابر إسماعيلُ بن يعقوبَ بن قَيْطون، وأميرُ الخُلَّط عليُّ بنُ أبي علي المذكور، فصَلَحت بهم في ذلك الوقت الأمور[1].

وفي هذه السنة: كانت هزيمةُ الموحِّدين معَ ابن وانودين في الموضع المعروف بأُمِّ الرجلين[2]، وذلك أنّ أميرَ المسلمينَ أبا يوسُف خَرج من حضرتِه متوجِّهًا إلى بلاد تامَسْنا برَسْم الرَّعي والكلإ والتهدينِ لمن هنالك من عَرَبٍ وغيرِهم، فبلَغَ الخبرُ المرتضَى بمَرّاكُش بوصُول عسكرِ بني مَرين إلى بلاد تامَسْنا، فأمَرَ في الحين بخروج العساكرِ الموحِّديّة والعربيّة والجُنْديّة، وقدَّم على الموحِّدينَ والمتجنِّدين أبا زكريّا يحيى بنَ وانودين، فرحَل بمحَلّتِه إلى مقرُبة من وادي أُمِّ ربيع، وهنالك اجتَمع الجَمْعان وأوقَع الحربَ الفريقان، ثم صَدَرتِ العساكرُ الـمَرينيّةُ إلى جهة الوادي المذكور، فطَمِع الموحِّدونَ في العلوِّ والظهور، فعجَّل ابنُ وانودينَ بالكَتْب بذلك، وما ظَهَر له من النَّصر هنالك. ثم بعدَ ذلك رجَعَت عساكرُ بني مَرين على عساكرِ الموحِّدين فهزَموهم أجمَعين وقَتلوا منهم خَلْقًا بموضع أُمِّ الرجلين، وعاد ابنُ وانودينَ معَ الموحِّدين إلى مَرّاكُش مفلُولينَ خاسِرين بعدَما كان المرتضَى رحمَه الله بكَتْبِه في غاية السُّرور، ولكنْ تحدُثُ من بعدِ الأمور أمور.

ولـمّا دخَل ابنُ وانودينَ على الخليفة قال: العفوَ يا أميرَ المؤمنين، لـمّا غدَر بنو جابر وانكَسَروا من ناحيتِهم انكسَر الناسُ بجُملتهم، وكان أولَ مَن بادرَ وفَرَّ إلى الـمَرينيِّين عليُّ بن أبي عليّ الخُلَّطيّ، ودخَل تحتَ طاعة المقام اليُوسُفيّ. ولـمّا وصَل ابنُ وانودين تفاوَضَ في أمرِ الهزيمة الخليفةُ معَ وُزرائه وأشياخ الموحِّدين، فأشار عليه ابنُ عَزّوز أن

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٠.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٣٧، والاستقصا ٢/ ١٧٥.

يَخرُج، وكان إفراجٌ قد أمَرَ به وأُخرِج. ثم إنّ ابنَ بَجيت قال: بئسَ الرأيُ يا سيّدَنا، بئسَ الرأيُ الذي أشار به عليكُم، وذكَر مِن أمرِ الخروج إليكم، فعَلِم أنّ قولَه قولُ محبٍّ خالص، وأمَرَ أن يُدخَل أفراكَ من المخالص، فأُدخِلت المضاربُ وأضرَبَ عن الحركة أيَّ إضراب، وأمَرَ بغَلْق أبواب مَرّاكُش ما عدا ثلاثةَ أبواب، وقامت في الناس هُوشةٌ وتشويشٌ، وكثُر القالُ والقيل، إلى أن وصَل الخبر بأنّ بني مَرِين صادرونَ إلى بلادِهم بالرّحيل.

وفي هذه السّنة، بعدَ انقضاءِ وَقْعة أُمِّ الرجلين: خَرَج عَسْكرٌ كبيرٌ من الموحِّدين معَ محمد بن عليٍّ بن آصلماطَ إلى بلاد السُّوس، وظَنُّه أنّ عليَّ بن يدّر في قبضتِه، وكان يحدِّث نفسَه بذلك ويَزعُم أنه يظفَرُ به عندَ لقائه له ورؤيتِه، وكانت حركتُه في زمَن الخريف وحركةُ أُمِّ الرجلين في زمَن المصيف، ولم يكن بينَهما إلّا أوانُ الحصاد، وإذا بالخبر وصَل للمرتضَى بالوَقْعة السُّوسيّة وعليِّ بن آصلماطَ ومَن كان معَه من الموحِّدين والأجناد، وقُتل في هذه الكائنة ابنُ آصلماطَ قائدُ العَسْكرِ المذكور المدَّعي بالشَّهامة في الأمور، فعَظُمت المصيبةُ على الموحِّدين بفسادِ محلّتَيْنِ اثنتَيْن، ووقيعتَيْنِ كبيرتَيْن في أقلَّ من شهرَيْن، فكان ذلك من علاماتِ الإدبار للدّولة الموحِّدية.

ومنَ الاتّفاق الغريب أنّ ابنَ آصلماطَ قال قبلَ موتِه بأمدٍ قريب: تُرى هل يَرى المصلوبُ مُنكَرًا ونكيرًا أم لا؟ وبعدَ أيام قلائلَ قُتل وصُلب، فما خالَفَ قولًا.

ولـمّا كان من قتل ابن آصلماط وهزيمة عَسْكرِه وظهور ابن يدّر عليهم ما كان، قَدَّم المرتضَى على بلادِ السُّوس أبا زيد بنَ بَخيت أحدَ وُزرائه وأجلدَ نُظرائه، وتوجَّه معَه قائدُ النَّصارى المعروفُ بذي اللُّبِّ بجَمْع وافر من الرُّوم إلى السُّوس، وكان كما وصَل منَ الأندَلس، وكان قائدٌ آخرُ قد تقدَّمه اسمُه غرسية بجَمْع آخَرَ من الرّوم، فوقَعت الحربُ بينَ عسكرِ الموحِّدين وعسكرِ ابن يدّرَ هنالك، إلى أنِ افترَقَ الجمعانِ بينَ قتالٍ كثير ومعاركَ، وكان القائدُ ذو اللُّبِّ الـمَخْزيُّ متكاسلًا فيما وقَع من الحرب بينَ يدَيْه ليس له نهضةٌ ولا نَجْدةٌ في ذلك إلّا يطلُب مُياومتَه جاريةً في كلِّ يوم عليه، ويَطغَى بكلامِه ومَلامِه إذا لم تصِلْ يومًا إليه، وكان لأبي زيد بن بَخيت أميرُ العسكر غيرُ سامع لأمرِه ولا عارفٍ بقدرِه، فكتَبَ بذلك كلِّه للخليفة وعرَّفه بحالِه ومقالِه، فأمَرَ في الحين بوصُولِه من السُّوس وانتقالِه، فكان مِن أمرِه ما أذكُرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة إحدى وستينَ وست مئة: كان مقتَلُ القائدِ ذي اللُّبِّ النَّصرانيِّ، وذلك أنه لـمّا أُمِرَ بالوصُول إلى الحضرة الـمَرّاكُشيّة نظَرَ المرتضَى رحمه اللهُ مَن يتولَّى قتلَه من أشياخ الدّولة الموحِّدية، فوقَع رأيُه على الشّيخ أبي زيد بن أبي زكريّا الجدميوي، فبعَثَ عنه وأمَرَه بقَتْل القائدِ المذكور إذا وصَل منَ السُّوس إلى تاجانرتَ مجتازًا عليه، وأمَرَ النَّصرانيَّ أن يدفَعَ إليه براءةً بالإنزال والإكرام إذا وصَل لموضع أبي زيد، فلمّا وصَل المذكورُ بالبراءةِ المذكورة، ووقَفَ عليها دبَّر وجْهَ الحِيلة على أحسن صُورة، وكان من القَدَر المحتوم في هذا الأمر المكتوم أنْ وصَل قائدُ الرّوم رمِدَ العَيْن، فطلَبَ منه أن يُنزِلَه في بعض الدُّور، فسهَّل اللهُ على أبي زيد المذكور ما كان يَبغي ويَروم، فأنزَلَه في دارِه عندَه، واشتَرط عليه أن يكونَ وحدَه، فما أمكَنَ إلّا أنْ دخَل معَ ستة من الرُّوم خَدَمتِه وبقيَ بالفَحْص جميعُ مـحَلّتِه، فقام بهم أبو زيد وسَقاهم وأكرَمَهم، فلمّا جَنّ اللّيل حَلّ بهمُ الويل، والقائدُ ساهرُ العين إلى أنْ جاءه الحَيْن، فدخَلت عليه سبعةٌ من العَبيد معدّون، ولقتلِه مستعدّون، فأخَذوهم واحدًا واحدًا، وقُتل مَن كان ساهرَ العَيْن منهم ومَن كان راقدًا، وأبو زيد المذكورُ معَ جماعة من إخوانِه وعَبيده خلفَ الباب ناظرين، ولـحَتْف الكفَرة منتظِرين، إلى أنْ تخَلَّص حالُهم ورُبطَت الحبالُ في أرجُلِهم وجُعلوا في قَعْر بئرٍ عميق.

وبعَثَ أبو زيد في الحين لجميع أهل نفيسَ أنْ يُصبِحوا عليه ويُقبِلوا بسِلاحِهم إليه، فأصبَحوا عليه كذلك، وكان قد جَمَع الساكنينَ هنالك، لئلّا يقَعَ بينَه وبينَ الكفَرة معارك، فلمّا أصبحَ دخَل عليه التُّرجُمانُ الحكيم فوجَد الجموعَ الواردةَ كالسَّحاب المتراكِم، فبادَرَ بسلامِه على أبي زَيْد وكلامِه، فنجَهَه أبو زيد وصاحَ عليه، وجَبَهَه بشَتْمِه إليه، وقال له: قد فعلتَ معَنا العار، حين جعلْتَنا أنزَلْنا القائدَ في الدار، فها هو قد هَرَب ولم نعلَمْ حيث استقرَّ به القَرار، فكيف يكونُ أمرُنا معَ الخليفة وحالُنا بسبب هذا الفِرار؟ فعاد التُّرجُمانُ إلى جماعتِه النّصارى الكُفّار فأعلَمَهم بهروبِ قائدِهم من الدار، فدخَل بعضُهم في السِّلاح وقام العَويلُ والصّياح، وأيقَنوا أنّ قائدَهم قد مات، وأنّ الأمرَ فيه قد فات، فأخَذوا في رحيلهم بصياحِهم وعَويلهم، ودعَوْا أهلَ تاكانرتَ للمرتضَى، فلمّا دخَلوا مَرّاكُش عَلِموا أنّ الأمرَ في قائدِهم قدِ انقضَى، وشكَرَ الخليفةُ لأبي زيد المذكور، على ما فعَل في تلك الأمور.

وفي هذه السنة: دخَل الرُّومُ أبادَهم اللهُ مدينةَ لَبْلة بعدَ حِصار عظيم وأمرٍ جَسيم، وكان صاحبُها ابنُ محفوظ لم يَدخُلْ في الصُّلح المنعقِد بينَ ابن الأحمر والرُّوم، بل قاطَعَ على نفسِه في العام بمالٍ معلوم، يُعطيه في بعض السِّنين، وفي بعضِها يجاهدُ في سبيل ربِّ العالَمين، معَ جماعته بزعامتِه وشهامتِه إلى أنْ حاصَره الرّومُ فيها في هذا العام، فلمّا اشتدَّ حالُه، وانقَطَعت آمالُه، أعطَى البلدَ للنَّصارى وأخرَج منها المسلمينَ أهلَها، ودخَلتِ الرُّومُ إليها، وقيل: بل كان ذلك في آخِر السّنة التي قبلَ هذه المؤرَّخة، ووصَل ابنُ محفوظ إلى المرتضَى معَ جماعتِه، فكان بمَرّاكُش يركَبُ معَهم فيها في جملة الأجناد، كأحدِ رُؤساءِ القُوّاد، إلى أنْ مات رحمَه اللهُ تعالى.

وفي سنة اثنتين وستينَ وست مئة: جاز الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ معَ أخيه عامر وجُملةٍ من بني مَرين الأكابر في نحوِ ثلاث مئة من الفُرسان الأنجاد برَسْم الغَزْو والجهاد، وكان قد بقيَ من أمدِ الصُّلح المنعقِد بينَ ابن الأحمر والرُّوم بقيّةُ هذه السَّنة، فقد كان عَقْدُه معهم في سنة ثلاث وأربعين إلى عشرينَ سنة.

وكان السببُ في هذا النِّفاق قبلَ تَمام أمدِ الصُّلح أنّ الأميرَ أبا عبد الله ابنَ الأحمر توجَّه إلى إشبيلِيَةَ برَسْم الاجتماع معَ أَذْفُونْشَ ليجدِّد معَه الصُّلح على ما يقَعُ الاتّفاقُ عليه، فلمّا وصَل ابنُ الأحمر إلى إشبيلِيَةَ نزَلَ بخارجِها بالصِّهريج الأحمر، وكان معَه خمسُ مئة فارس من الفُرسان الأنجاد والرؤساءِ والقُوّاد، فخَرج أَذْفُونْشُ إليه وحَلَف عليه أن يدخُلَ إليها، فدخَل ونزَل بالعباديّةِ منها، ودخَل معَه الرئيسانِ الزّعيمان: ابنا أشقيلولةَ أبو محمد وأبو إسحاقَ، ونزَلا معَه في ذلك الزِّقاق معَ مَن كان دخَل معَهم من الرِّجالِ والفرسان إلى ذلك المكان، وبقيَ سائرُهم حيث نُزولُهم الأوّل. وحينَ دخول ابن الأحمر ونزولِه، عَمِل النّصارى على الزِّقاق الذي نزَل فيه خَشَبًا مُسَمَّرةً حين دخولِه إليه وحصولِه، وكانوا عَمِلوها عليهم باللّيل فأصبحت مُسَمَّرةً على الدّروب تمنَعُ جوازَ الخَيْل، فلمّا اتّصل بالأمير المذكور ذلك الحال، خاف أن يتوغَّلَ في الأوحال، فدبَّر على نفسِه في الخُروج والارتحال، حينَ عايَنَ أسبابَ الحِيلة عليه والغَدْر إليه، فخَرج بجماعتِه، بما عُلِم من زعامتِه، وأمَرَ رجالَه أن يكسِروا ذلك الخشَب المعمولة، وخَرج فحصَل بمحَلّتِه معَ جماعتِه وبني أشقيلولة، وأمَرَ في الحين بالرحيل منصرِفًا إلى بلادِه معَ قُوّادِه وأجنادِه، ثم

خَرج أَذْفُونْش إليه وحَلَف أنه ما عُمِلت تلك الإطْرُنكاتُ[1] إلّا احتياطًا من النّصارى السُّرّاق عليه، فأظهَرَ له أنه صَدَّقه، وقد عَلِم الأمرَ وحقَّقه، وحصَل ما حصَل في النفوس، فما نفَعت أَيْمانُ الغَمُوس؟ فانصَرفَ عنه دونَ اتّفاقٍ ولا ارتباط، وبسبب ذلك وقَع في الأندَلس ما وقَع من النِّفاق.

وأخبَرني مَن حضَر ذلك الوقتَ بإشبيلِيَةَ المذكورة أنه ما كان فيها معَ أذْفُونْشَ من الفُرسان إلّا أقلُّ مما كان معَ ابن الأحمر هنالك أو قريبًا من ذلك، وحَلَف ابنُ الأحمر بأَيْمانِه حين ذلك، أنه لا يراهُ أبدًا ولا يَلقاه إلّا في قتالٍ أو جِلاد، فكان الأمرُ كذلك.

ولـمّا وصَل إلى مدينة ابن السَّليم، بقلبٍ مُنشرِح وصدرٍ سليم، فإنه كان عايَنَ هلاكَه ثم خَلَّصه اللهُ وسَلَّم، فأوصَى أهلَها وأهلَ تلك الجهات بالتحصُّن والإحاطة، وانصَرف مُجتازًا عليهم إلى غَرْناطة، فعَلِم المسلمونَ أنه انفَصَل من أذْفُونْش من غير اتّفاقٍ ولا ارتباط، فأخَذوا في التحصُّن على أنفسِهم والاحتياط، وأخرَج أهلُ شَرِيش مَن كان معَهم في القَصَبة ساكنين، فقد كانوا سكَنوا بها نحوًا من أربع سنين، وضَبَطوا مدينتَهم وقَصَبتَهم بقيّةَ هذه السنة، فكانوا بها هادِنين؛ لأنّهم كانوا بايَعوا ابنَ الأحمر ودخَلوا تحتَ طاعته، وكان اشتَرط على أذْفُونْشَ اللَّعين أنه من يدخُلْ تحتَ طاعتِه من بلادِ المسلمين يدخُلْ في صُلحِه، فكان بقيّةَ هذه السنة انصرامُه وتَمامُه.

وكان أيضًا أهلُ شرق الأندَلس صالَحوا الرُّومَ بمالٍ معلوم يدفعونَه لهم في كلِّ عام، وأعطَى أهلُ مُرْسِيَةَ قَصَبتَهم للرُّوم الذي هو قصرُهم، إلى أنْ وصَلَهم الرُّومُ الساكنونَ فيه بأذاهُم وضُرِّهم، فأخرَجوهم في هذه السّنة منه بالقتال لهم والحَصْر، وسمَّوه عندَهم قيمةَ القَصْر، فقاموا على النّصارى وضَيَّقوا بالحِصار عليهم، وحينَئذٍ أخرَجوهم بعدَما ألقَوا السِّلاحَ عليهم.

وكتَبَ أهلُ مُرْسِيَةَ إلى الأميرِ ابن الأحمر ببيعتِهم، فبعَثَ الرئيسَ أبا محمد ابنَ أشقيلولةَ إليهم واليًا عليهم فزحَفَ النّصارى إليها، ونزَلوا عليها، فبقي الرئيسُ فيها

---

(١) ذكرها دوزي في معجمه ١/ ١٥٣، فقال: «إطْرَنكة: ذكرها معجم فوك ولم يفسِّرها». قلنا: وهي مفسّرة في هذا النصّ المتقدم، وهي ما يعمل على الأزقة من الأخشاب المسمّرة لمنع الخيل من الجواز.

محصورًا، وفي نفسِه مقهورًا، فخَرج منها بخيلِه ورَجْلِه فِرارًا، فلم يجدْ أهلُ مُرْسِيةَ بعدَه حُماةً ولا أنصارًا، فضاقَتْ عليهم أحوالُهم، بما أصابَهم من العدوِّ ونالَهم، وطال عليهم حصارُهم وعَدِموا حُماتَهم وأنصارَهم، فأعطَوْا مُرْسِيَةَ للنّصارى وخرَجوا منها بأمانٍ إلى الرّشاقة، فسَكَنوا بها مدةً من عشَرة أعوام إلى أن كان مِن أمرِهم ما كان حين أخرَجوهم في سنة ثلاث وسبعين، وغدَروهم في الطريق أجمعين، وذلك بموضع يُعرَفُ بوركال، فسَبَوا النِّساءَ والأطفال، وقتَلوا جميعَ الرِّجال، وقد كانوا أخرَجوهم بالأمان دونَ سلاح، فتحكَّموا فيهم كيفَ شاءوا بالسُّيوف والرِّماح، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

ولما جازَ الأميرُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ وأخوه عامرٌ ومَن كان معَهم من الفُرسان الأنجاد، برَسْم الغَزْو كما ذكَرْنا والجهاد، كان الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر استَصرَخَهم يُرغِّبُهم في ذلك، فوصَلوا إليه فاستعدَّ لهم بظَريف ضِيافاتٍ وكرامات حين جَوازِهم، وأمَرَ لهم بكلِّ ما يحتاجونَ لِجهازِهم، ثم استَقرُّوا بعدَ ذلك بمالَقة بقيّةَ هذه السنة، وانتقَلوا إلى شَريش في السّنة التي بعدَها، حين اشتَعلت نارُ الحروب بعدَ خُمودِها واقتَدح زَنْدُها، فنالَتِ الغُزاةُ المذكورونَ في غزوِها وجهادِها مُناها وقَصْدَها، ودامت الحروبُ مدةً من ثلاثة أعوام من هذا العام، إلى أنْ عقَدَ الصُّلحَ ولدُ الأمير ابنِ الأحمر بعدَ ذلك على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

اختصارُ الخبر عن مقتَل أولادِ الأمير أبي يحيى وكيفيّةِ أمرِهم

وذلك أنّ هؤلاءِ الأُمراءَ: أبا مُطهَّر وأبا سالم وأبا حديد، كان قد وصَل معَهم إلى طَنْجةَ ثلاثُ مئة فارس من بني مَرينَ وغيرِهم، فخَرج إليهم صاحبُ طَنْجة ابنُ الأمين[1]، وحَلَف عليهم في الدّخول بأعظَم اليمين، فدخَلوا معَه، فأنزَلَهم بالقَصَبة وبالَغَ في إكرامِهم وبرِّهم، فطلَبوا دخولَ الحمّام فأجابهم، فلمّا حَلُّوا بالقَصَبة غَدَروا ابنَ الأمين وجَرَّعوه كأسَ الحِمام، وكان قد قام بحقِّهم خيرَ قيام، واعتنَى بهم وبرجالِـهم غايةَ الاعتناءِ التامّ، ودخَل بعضُهم إلى القَصَبة والآخَرونَ تفرَّقوا في البلد لقضاءِ حوائجِهم،

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤٦-٢٤٧، والاستقصا ٣/ ٣٤، ووقع فيهما: «ابن الأمير»، والدليل على صحة ما أثبتناه موافقته للسجعة التي بعده.

ثم إنّ رجالَ ابن الأمين المرتَّبينَ الذين كانوا تحتَ إحسانِه وإنعامِه اجتَمعوا أجمعين، ودخَلوا على مَن كان بالقَصَبة من بني مَرِين ورجالِـهم فقَتلوهم صَبْرًا وقَعَدوا بسِلاحِهم على أبوابِ القَصَبة واستدعَوْا من بقيَ منهم إلى القَصَبة، فظَنُّوا أنّ استدعاءهم كان برَسْم الطّعام والكرامة فيُقتَلونَ واحدًا بعدَ واحد إلى أنْ لم يبقَ منهم عَيْنٌ ولا أثَر، ولا مَن يُخبِرُ بخبر، إلّا أنّ شخصًا واحدًا ذُكِرَ أنه دخَل في سِرب وخَرج بعدَ أيام على شاطئ البحر، فسَلِم من الطَّعن والضّرب.

ولـمّا كان مِن قَتْل بني مَرِين وبني عبد الحقِّ ما كان، خاف أهلُ طَنْجةَ أن يُعاقبَهم السُّلطانُ أشدَّ عقاب، ويُوجِهم من القَتْل كلَّ باب، فخاطَبوا صاحبَ سَبْتَةَ أبا القاسم العزَفيَّ، وبعَثَ إليهم القطائعَ الغُزْوانيّةَ، وبعَث إليهم القائدَ أبا القاسم الرنداحيَّ وابنَ حمدان، فمَلَكوا طَنْجةَ وقَبَضوا على أولادِ ابن الأمين ورجالِـهم واستاقُوهم إلى سَبْتَةَ بأولادِهم وعِيالهم، ووَلِـيَ طَنْجةَ ابنُ حمدان من قِبَل الفقيه، واستقرَّ بقصَبتِها وأعطَى الحَفْزَ في أبوابِها، إلى أبي عبد الله ابن الغَمّاد، وبعَثَ إلى سَبْتَةَ بجماعة كبيرة من أعيان أهل طَنْجة، ورجَعَ حُكمَها إلى صاحب سَبْتَة.

ولـمّا كان هذا الحالُ الموصُوف والنبأُ المعروف، وصَل خبرُه إلى أميرِ المسلمين أبي يوسُف، فتحرَّك بعساكرِه إليها ونزَل بمحَلّتِه عليها، فقاتَلوه من أعلى السُّور[1]، فلم يَقدِرْ لهم بأمرٍ من الأمور[2].

ذكرُ مقابلة أميرِ المسلمينَ أبي يوسُف للموحِّدين ومقتلِ وَلَدِه عبد الله بالمخالص

وقيل: إنّ هذا كان في السنة الفارِطة.

ولـمّا تحرَّك أميرُ المسلمينَ رحمه الله من بلادِ الغَرْب إلى مَرّاكُش برَسْم حصارِها والتضييق عليها، نزَلَ بمحَلّاتِه بظاهرِها بمقرُبة من جبل إيجليز، وكان القتالُ بينَ بني مَرِين والموحِّدين بفحص المخالص، فانقَبَضت النفوسُ بمَرّاكُش وارتَعَدت الفرائص،

(١) في ق: «فقاتلوه على السور».

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤٧، والاستقصا ٣/ ٣٥.

وغَلَت الأسعار وعاد كاللّيلِ الحالك النّهار، وكانت الحربُ بينَهم تُوقِدُ نارَها وتجدِّدُ رسومَها، والقواضبُ والأسِنّةُ تومضُ بروقَها وتُطلِعُ نجومَها، فقدَّر اللهُ بوفاة عبد الله ابن أمير المسلمين، فحال ذلك بينَهم وبينَ الحروب، ووجَّه المرتضَى إثْرَ ذلك رسُولَه يُعزِّيه في ابنِه ويعزِّي في إخوته، واستَلْطفَهم واسترضاهم واستعطَفَهم ثم وافقَهم على مال معلوم يَصِلُهم في كلِّ عام، فرحَل أبو يوسُف رحمه الله ووقَعَ بينَهم التراضي والإنعام.

وفي سنة ثلاث وستينَ وست مئة: كان فِرارُ السيِّد أبي العُلى الملقَّب بأبي دَبّوس من مَرّاكُش، بقصدِ السّلطان أبي يوسُف وهو بحضرة فاس يطلُبُ منه أن يُعينَه على حصارِ مَرّاكُش، وعرَّفه أنه اتّفق على ذلك معَ جماعة من الناس، فعجِبَ الأميرُ أبو يوسُف من مقالِه واستخَفَّ قولَه واستحقَرَ أن يكون ذلك من فِعاله، ثم أعطاه خمسةَ آلاف دينار وطبولًا وعلامات، بعدَ أنْ عاهَدَه أن يكونَ في خِدمتِه وأن يقاسمَه ما يجِدُه من الأموال والذّخائر المثمَّنات، وانصَرف إلى مَرّاكُش[1].

ذكرُ فِرار أبي دَبّوس من مَرّاكُش الذي كان السببَ في دخوله إليها واستيلائه عليها وما كان من أمرِه وخروج المرتضَى له من قصرِه

كان السببَ في فِراره اهتضامُ جانبِه في أحواله، فمِن ذلك أنه منَعَ الجوازَ على الوُزراء بنعالِه، وكان ذا همّة عالية، فأمَرَ أن ينقُصَ منها على غير عوائده الجارية، فخَرج لبُحيرة يطى بأولاده وعياله، وقد ساءته جميعُ أحوالِه، فرفَعَ إلى المرتضَى يعرِّفُه بقلّة ذات يدِه تعريفًا، ويستأذنُه في تطهير أولادِه ببُحيرة يطى ليكونَ عليه الأمرُ خفيفًا، فأمَرَه بذلك وأمَرَ بالإحسان إليه والإنعام عليه، فعند خروجِه إلى البُحيرة المذكورة قطَعَ أولادَه من حينِه في ليلته، ونظَر لأهله وعشيرته، وقال: لـمّا بدا التحقير زالَ التوقير، والله لأذهبنَّ فارًّا بنفسي، خِيفةً على رأسي، فودَّعهم وخَرج معَ ابن عمِّه السيّد أبي موسى إلى فاس، وبها استقرَّ، فلمّا كان في غدِ تلك الليلة التي فرَّا فيها وعُدِم حضورُهما بالقَصَبة

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١، والاستقصا ٢/ ٢٥٦.

لم يوقَفْ على خبرِهما، بل عُلِم تحقيقُ الفِرار، ولم يُعلَمْ حيث استقرَّ بهما القَرار، فعندَ ذلك أمَرَ المرتضَى بثِقاف ديارِهما وأولادهما، وطُلب[1] كلُّ من تعلَّق بأذيالهما.

ولـمّا وصَل السيّدُ أبو العُلى إلى حضرة فاس انصَرف منها مقضيَّ المآرب، مرضيَّ الأغراض والمطالب، بعدَ عهود مؤكَّدة، وأيْمانٍ كما تقدَّم مردَّدة، وكتَبَ له أميرُ المسلمين أبو يوسُف إلى عليِّ بن أبي علي الخُلْطيِّ أن يُعينَه بكلِّ ما يحتاجُ إليه.

ولـمّا خَرج من فاس أبو دَبّوس نَشَر علاماتِه وضَرَب طبولَه، واجتَمعت عليه أوباشٌ عندَ قفوله، وتوجَّه معَهم بالعلاماتِ والطّبول، إلى حيث النزول، فضُربت له[2] هناك خبأة، وقياطين كأحد السّلاطين، ولـمّا علَّف قام في أوّل اللّيل ورحَل مجِدًّا في السَّير خوفًا أن يندَمَ الأميرُ على ما فَعَل معَه فيعقُبَ عليه بالغَدْر، ووصَل إلى عليّ الخُلْطي فأسعَدَ وأسعَف، وأقام عندَه بعضَ أيام ثم انصَرف، وتوجّه إلى مسعود بن جلداسنَ الهسكوريِّ فأعانَه، ولم يمنَعْ عنه إحسانَه، وكان فِرارُه من مَرّاكُش في العَشْر الوُسَط من شهر محرَّم من عام ثلاثة وستين، واستقرارُه بالجَبَل عند ابن جلداسنَ المذكور في أواخِر صَفَر من العام المذكور[3].

وفي هذه السنة: كان بالأندلس غلاءٌ مُفرِط أكثرُه بمالَقة، فكان فيها المأكولُ غال ونَيْلُه عويص، وبِيعت فيها الحاجةُ المثمَّنة بالثمن الرَّخيص، عصَم اللهُ من مثله بمنِّه.

وفي سنة أربع وستين وست مئة: تمكَّن السيِّدُ أبو العُلى بجَبَل هسكورةَ، وأخبارُ ظهورِه في كلِّ مشهد مذكورة، والناسُ ترِدُ عليه في كلِّ الأيام، فيَعِدُهم بالإحسان والإنعام، ولـمّا تحقَّق ذلك المرتضَى، تقلَّب كأنه على جَمْر الغَضا، واتّهم شيخَ عَرَب سُفيان مسعودَ بن كانون أنه ينقُضُ عهدَه ويَرتكبُ الطُّغيان، فأمَرَ باعتقالِه بعدَ أن رادَدَه فيه من رادَدَه فلم يسمَعْ من مقالِه، فبقيَ في السِّجن معتَقَلًا إلى أن دخَل أبو العُلى مَرّاكُش فأطلَقَه وكرَّمه ثم اقتضَى نظرُ المرتضَى أن يثقَفَ شيخَ بني جابر وقائدَ الرّوم، واتَّهم أنّ كلَّ واحد منهما يَرومُ الفِرار.

---

(١) الضبط من ق.

(٢) ليست في ق، ك، ب.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١، والاستقصا ٢/ ٢٥٦.

ولـمّا استقرَّ أبو العُلى بالجَبل معَ الهسكوريِّ ورَدَ عليه حبيبُ بن يوسُف الصّوديّ، فأعطاه ثلاثةً من الخَيل الجِياد، فقَبِله منه وشكَرَه على ذلك وأبدى له جميلَ الاعتقاد، وطاعت له في هذه السّنة هَزْرجةُ وجميعُ قبائل هسكورة، وأحوالُه تَلُوحُ سَنِيّةً مشكورة، ووصَلَه في هذه السَّنة من قِبَل عَزّوز بن يَبْروك هديّةٌ أيضًا، لكنّه لم يصلْ بنفسِه إليه ولا وَفَد عليه، بل من كان في خدمة الدّولة السَّنِية الـمَرينيّة، لكنّه لأجْل خروجِه عن مُبايعة المرتضَى وطاعتِه، أوجَبَ أن يُخاطِبَ هذا السيِّدَ ويُهاديَه ولم يدخلْ تحتَ مُبايعته. ووَفَد على السيِّد أبي العُلى في الجبل جماعةٌ من المساحة والموحِّدين وجمعٌ كبيرٌ من المتجنِّدين، فعَظُمت شوكتُه في الجَبل المذكور، وأصبح لديه جمعٌ مأمور، والمرتضَى في قصرِه عن أمرِه غافل والحَيْنُ عنه غيرُ متغافل، وهبّت عليه - نعوذُ بالله - ريحُ الإدبار، وأقبَلَت الفتوحُ على أبي العُلى بموافقة الأقدار، ومنَ المقادير أنّ المرتضَى لم يدَعْ بحضرته جُنديًّا إلا وجَّهه لرَجْراجةِ وحاحَة، فعَدِم في ذلك سَدادَه وصلاحَه، وثقِفَ كما تقدَّم شيوخَ العَرَب، فلم يتأتَّ له بلوغُ الأرب، ومرَّ جمعٌ كبيرٌ من عَرَب سُفيان، معَ شيخ من شيوخِهم الأعيان، وكذلك ابنُ قَيْطُون ثائر، معَ جَمْع كبير من بني جابر، وقَصَد جَبَلَ أبي دبّوس ليكونَ من أنصارِه وحُماتِه، ودخَل تحتَ طاعتِه، وكذلك جمْعٌ من الرُّوم أخَذوا له في الفِرار، معَ القائد زُنَّار[1]، فقَوِي أمرُ أبي دَبّوس بالجَبل وزاد، وظهورُه في كلِّ يوم يزداد[2]، والموحِّدونَ في كلِّ وقت يكتُبونَ إليه ويَقدُمونَ عليه، ويُخبرونَه من أحوال المرتضَى بالقليل والكثير، وأنّ سِلكَ مملكتِه نثير، ولقد قال له وزيرُه وصِهرُه أبو موسى بن عَزّوز: يا سيّدَنا رضيَ اللهُ عنكم، حضرتُكمُ المباركة خاليةٌ من الأجناد، والعدوُّ في الجبل قد ظهَرَ أمرُه وزاد، فابعَثوا لابن وانُودينَ وابن عَطّوش ليصِلا إلى الحضرة، فنَظَره بأقسَى نظرة، وقال له: لا تُدخِلْ نفسَك في شيءٍ من ذلك، إلّا أنْ كان وتُنفقُ عليهم من مالِك، فيصِلوا جميعًا من هنالك، فصَمَت أبو موسى الوزير، ثم قال لـمَن قال: ضَرَب اللهُ القِلّةَ بالزَّبَد، وكان أبو محمد بنُ زَجُّو[3] في قلقٍ عظيم من ذلك.

---

(١) الضبط من ق.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١.

(٣) الضبط من ق، ك. وقد اعتاد النسّاخ في مثل هذا أن يضعوا ألفًا بعد الواو، وليس بشيء.

ومن تدبيرِه أنه أمَرَ بقَتْل إسماعيلَ بن قَيْطون المسجُون، وقيل: بل مات مسمومًا، فأورَثَ في قلوب إخوته همومًا، فاغتاظَ لموتِه أخوه ثائر، وكان في جَمْع كبير من بني جابر، واغتاظ أيضًا عَلّوشُ بنُ كانون، وخاف أن يفُوتَ الأمرُ في أخيه مسعود المسجون، مثلَ ما فات في ابن قَيْطون.

ولـمّا استَوْفَت على أبي دَبّوسٍ العساكر، واجتَمعت عليه جميعُ الهساكر، طَمِع في فتح البلاد، وعَزَم على الضّرب والجِلاد، فقَصَد إلى جهة أغمات، فخَرج إليه من مَرّاكُش أبو زيد بنُ بجيت[1] برَسْم حراسة أغماتَ وتلك الجِهات، فانقَضّت عليه خيلُ أبي دَبّوس فهزَموه وقَتلوا مَن كان معه، فكان أولَ الفتح ودليلَ النُّجح، فقامت قيامةُ المرتضَى من أجلِ ذلك، ولكنْ إذا أراد اللهُ بالحَيْن، صُمَّت الأذُن وعَمِيت العين[2]. وكان بمَرّاكُشَ أقوامٌ يبحثونَ على الأخبار، ويكتبونَ المتزايِدات بالليل والنهار، والمرتضَى لا يسمَعُ قولَ قائل، ولا يعبأُ بتلك الدّلائل.

وخاطَبَ أبا دَبّوس شيخٌ من أشياخ الموحِّدين، وقال له: إنّ البلدَ خالٍ من المتجنِّدين، وحرَّضه على النهوض، وأن يعومَ في بحر العَزْم ويخوض، قبلَ أن تصلَها الأجناد، المتوجِّهونَ لغرامةِ البلاد، فحَلَف علُّوشٌ شيخُ عَرَب سُفيان ليَسبِقَنَّ إلى مرّاكُش وليَضرِبَنَّ برُمحِه في باب الشّريعة أحدِ أبوابِها، ويقاتلُ كلَّ مَن يَخرُج إليه من أربابِها.

فلمّا كان يومُ الجُمُعة الحادي والعشرينَ لشهر محرَّم وصَل علّوشُ بن كانونَ السُّفْيانيُّ المذكورُ معَ جماعة من العَرَب، برَسْم ما حَلَف عليه وله انتَدَب، والناسُ بمَرّاكُش في صلاة الجُمُعة، فقَصَد بابَ الشريعة وركَزَ فيه رمحَه، فقامت في البلد رَهْجةٌ وصَيْحة، فخَرج الناسُ من الجامع وطَلَعوا إلى السُّور، فعايَنوا عَلّوشًا المذكورَ وهو راجعٌ من الباب معَ أشياعِه، ولم يخرُجْ أحدٌ من البلد لاتّباعِه، وباتَ الناسُ في تلك الليلة خائفينَ مترقِّبين، ولِـما يَصدُرُ في أثناء ذلك متأهِّبين، فساءت حالُهم، وترادفت أوجالُهم، وأودَعوا بالقَيْساريّة أموالَهم، والمرتضَى غيرُ متأهِّب لحرب، ولا مفكِّر في طَعْن ولا ضَرْب، فلمّا كان يومُ السّبت بعدَه طلَعَ إلى القَصَبة أربابُ الدّولة على العادة،

(١) في تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١: «أبو يزيد بن بكيت» والجيم في بكيت جيم مصرية.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥١.

فخَرج إليهم على عادته وسألَهم عن تلك الخَيْل الـمُغِيرة إلى باب الشّريعة، فأخبَروه أنه عَلّوشٌ المذكور، فما أطال ساعةَ الجلوس، وقام بوجهٍ عَبُوس، بعدَ أن قال: تَخرُجِ المضاربُ في غدٍ وتَضرِبُ بحومةِ المصَلّى إن شاء اللهُ تعالى.

كيفيّةُ دخولِ أبي العُلى المدعوِّ بأبي دَبُّوس مدينةَ مَرّاكُش[1]

ولـمّا كان يومُ السّبت أقبَلَ إلى مَرّاكش بمَن معه من الحشود ووصَلَه من الجنود، فتوَّجه معهم قاصدًا إلى باب أغماتَ أحدِ أبوابها، فأمَرَ بتفقُّد الأسوار هل هي خاليةٌ من حُرّاسها ورُقّابِها؟ فتطلَّع أحدُهم على السُّور، فلم يجدْ شيئًا في تلك المسافة كلِّها إلى البابِ المذكور، فأعلَمَ الناسَ بذلك، وحينَئذٍ تعلَّقت بعضُ رجالٍ من هسكورةَ بالسُّور وطَلَعوا على الباب من هنالك، ثم هَبَطت جماعةٌ منهم إلى الباب فكسَروا قُفلَه، وهَدَموا السّتارةَ التي كانت حولَه، ودخَل أبو العُلى مَرّاكُشَ ونُصِبت الرايةُ عليه وأقبَلَتِ الحشودُ إليه، فما أوقَفَهم أحدٌ من أهل البلد، فبلَغَ الخبرُ المرتضَى فوجَّه وَلَدَه أبا عبد الله فركِبَ على جوادِه، وليس معَه أحدٌ من أجنادِه إلا نحوُ عشَرة من العبيدِ وفارسٌ واحد، فتوجَّه إلى باب الصّالحة فعايَنَ الخَيل وسمِعَ الطّبل، فولَّى نحوَ القَصَبة خائفًا وَجِلًا، وإن رأى غيرَ شيء ظنَّه رَجُلًا، وقد عايَنَ كثرةَ الرَّجْل والخَيْل، وترَكَهم يَميلونَ خلفَه مثلَ السَّيل، وذلك بمقرُبة من باب الصّالحة، فعايَنَ أحوالَ أبيه غيرَ ناجحةٍ ولا راجحة، ولـمّا وصَل إلى البُوَيْبة وجَد فيها ابنَ يعلو وأحدَ الوُزراء، فأخبره بما عايَنَ من دخول الأعداء، فسَقَط ابنُ يعلو إلى الأرض مَغْشيًّا عليه وفَرَّ راجلُه إلى أبي دَبّوس قاصدًا إليه، فأمَرَ السيّد أبو عبد الله بغَلْق البُوَيْبة وبابِ الطّبول، وأذِنَ لـمَن كان هنالك من الخُدّام بالدّخول، فدخَل معَه أبو زيد بنُ يعلو الكُوميُّ وأبو موسى بن عَزّوز الوزيران، وحضَر معَهما في الوقت أبو عبد الله المشرف ابن أبي البَرَكات وأبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ وابنُ عَبّاد الأندَلسيُّ وموسى الحافزُ الهرغيُّ والقائدُ سَعْدٌ الحاجب.

ولـمّا وصَل أبو العُلى معَ مَن كان معَه من الأجناد إلى البُوَيْبة وجَدها مُغلَقة، وحينَئذٍ حفَر بعضَ الرجال الواصِلينَ معَه في حَرَم الجامع الكبير إلى أساراج الأول

---

(١) ينظر تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٢، والاستقصا ٢/ ٢٥٧ فما بعدها.

وحَطُّوا[١] فيه وكسَروا قُفلَ باب[٢] البُوَيْبة، وحينَئذٍ دخَل أبو العُلى معَ بعض مَن كان معه، فعرَّفَ السيّدُ أبو عبد الله والدَه المرتضَى بما عايَنَ، وحينئذٍ حمَلَ ذلك على التصديق، فركِبَ جوادَه إلى باب الطّبول وعايَنَ ذلك بالتحقيق، وذلك من بين الأبواب، وهو راكبٌ على جوادِه، فقام اللّهبُ في فؤادِه، فطلَبَ الماءَ ليشربَ منه فأُتي بإناءٍ[٣] فشرب منه وشربَ أبو دَبّوس باقيه، فكان ذلك من أغرب الأشياء أنّ مَلِكَيْنِ شرِبا في ذلك الإناء من ذلك الماء، فلمّا عايَنَ ذلك الأمرَ المرتضَى، سَلَّم الأمرَ للقضا، وأمَرَ ابنَه عبدَ الله أن يصعَدَ على بُرج الباب، فصَعِد وصاحَ على كلِّ مَن كان فيه فأبرَقَ وأرعَد، وكان فيه عِلجٌ مسجون، فعايَنَه يتكلَّمُ معَ قائد الرّوم زنار، فاختَطَفه ورماه من أعلى البُرج فسقَطَ ميِّتًا.

ولـمّا رأى أبو دَبّوس سقوطَ العِلج إلى الأرض[٤] منَ البُرج قدَّر أنه معمورٌ بالرِّجال، فخافَ من الرَّمي عليه بالنِّبال، فتحوَّل من أمام بابِ الطّبول إلى حَوْمة باب الكُحول، فوجَده مفتوحًا؛ لأنّ أبا موسى ابنَ عزوز حينَ غُلِّقت الأبوابُ بقيَ في أساراج، فمِن خوفِه ووَجَلِه أمَرَ رجالَه أن يكسِروا قُفلَه فكسَروه وفَرَّ منه إلى جَبَلِه، فسُرَّ أبو العُلى من أجلِه، ووقَفَ أمامَه[٥] معَ قوم قلائلَ من خيلِه ورَجْلِه، وتفرَّقت عنه جموعُ هسكورةَ ودخَلوا القَيْساريّةَ ونَهبوها أيَّ انتهاب، واستَولَوا على جميع ما كان فيها من الأمتعة والأسباب، وأشعَلوا النارَ فيها وحرَّقوها، وسَلَبوا الحوائجَ من الدِّيار واستاقوها، وبقيَ أبو دَبُّوس في أساراج الأول يوم دخولِه من الظهر إلى بعدِ العَصْر، ثُم أمَرَ بفتح دار الأشراف ففُتح ونُقِبَ منها إلى القَصَبة، ودخَل الرِّجالُ إليها من تلك الأنقاب، وحصَلوا منها بأساراج القباب.

وكان المرتضَى رحمه الله أمَرَ بإطلاق غرسيا طالس من ثِقافِه فأُطلق وأُزيلت عنه الكُبول، وأعطاه حِصَانًا ودرقةً، فزاد ونقَص في كلامِه ولم يُفهَمْ عنه ما يقول، ثم اشتَدَّ

---

(١) في ق: «وحصلوا».

(٢) ليست في ق، ك، ب.

(٣) سقطت من ق، ك، ب.

(٤) شبه الجملة سقط من ق.

(٥) ليست في ق، ك، ب.

الأمرُ على المرتضَى فوجَد النَّصرانيَّ غُفْلةً وفَلْتةً، فكان أولَ من صَعِد بابَ الطُّبول فوجَد فيه أبا عبد الله بنَ زجو والنَّصرانيَّ القطلاني[1]، وبعدَ ذلك وصَلَهم المشرِفُ ابنُ أبي البَرَكات والكاتبُ التِّلِمْسانيّ، وفيه كان اجتماعُهم بعدَما خارَت طبائعُهم فطَلَبوا العفوَ من أبي العُلى فعَفَا عنهم وحَلّوا البابَ فبايعوه، ودخَل بعدَ صلاة العصر وبقيَ تلك الليلةَ لم يدخُل القصرَ حتى صَحَّ عندَه هروبُ صاحبِه وفِرارُه، وحينَئذٍ اطمأنَّ واستقرَّ به قرارُه.

كيفيّةُ فِرار المرتضَى من قصرِه، وما آلَ إليه أمرُه في آخرِ عمُرِه[2]

ولـمّا رأى المرتضَى أمورَه غيرَ ناجحة، توجَّه إلى بَنيّتِه التي سمّاها بالفاتحة، فقَصَد إلى بابِها المسمَّى بابَ النَّحل، فأمَرَ عليه بالحلّ، وكانت مفاتحُه عندَ وكيل القائد سَعْد الحاجب، وكان الوكيلُ غائبًا في الوقت، وكان سعدٌ المذكورُ يريدُ الرجوعَ عنه فوجَد العُذرَ بالمفاتح لأنْ يرجِعَ ويُحضِرَها فقُبِل ذلك منه، فانصَرف ولم يعُدْ إليه بعدَ ذلك، وبقيَ المرتضَى ساعةً كبيرة ينتظرُه، فلمّا صلّى المغربَ أمَرَ بكسرِ باب النَّحل وخَرج منه فارًّا بنفسِه، لا يَعلَمُ يومَه من أمسِه، وهو راكبٌ على جوادِه، ومعَه الوزيرانِ المذكوران وبعضُ أولادِه، فأخَذ في التدبير معَ وزيرَيْه والفِرار، إلى حيث يكونُ الاستقرار، فقال له أبو موسى ابنُ عَزّوز: عسى يا سيّدَنا يكونُ استقرارُك بالجبل عندَنا وفيه يقعُ التدبير ووجهُ العملِ، وذلك منه إليه أكبرُ الحِيَل؛ لأنه كان في اختيارِه، أن يصِلَ إلى جبلِه وأهلِه وديارِه، وكان بعضُ العَرَب قد نزَلوا بواونزارتَ، فأخَذ المرتضَى معَ أصحابِه على تانششت وتوجَّهوا إلى بلد كيك، وفي نصف اللّيل وصَلوه فاجتَمع معَ أبي بكرٍ بن ياللتان النيمغريّ وبعض إخوانِه، فحَمَلوه إلى موضع أبي موسى بن عَزّوز وأوصَلوه، فلمّا وصَل أبو موسى إلى قبيلِه وجَدَ ابنَه أبا سعيد قد سبَقَ إليهم وعرَّفَهم بالخبر قليلِه وكثيرِه، فقال له بعضُ قَبيلِه: قد كتَبْنا لأبي دَبُّوس بمبايعتِه والدّخول في طاعته، فكيف يقيمُ هذا عندَنا بعدَ ذلك؟ فامتَنع أبو موسى من الرّجوع إليه وبقيَ المرتضَى رحمه اللهُ واقفًا إلى أن تبيَّنَ له الأمرُ، فتنقّل هو وولداه والوزيرُ أبو يَعلى الكُوميُّ، فمَرّوا على دوّار عليٍّ بن زجدار

---

(١) هذه القاف في أصلها كاف أعجمية.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٥٢، والاستقصا ٢/ ٢٥٨.

الونجاسنيِّ الـمَرِينيّ، وكان قد وصَل برَسْم خِدمته، فلم يقضِ اللهُ له أن يَراه في سُلطانِه وحضرتِه، وكان المرتضَى قد أذِن له في الوصُول إليه والقدوم عليه، فأبَى اللهُ ذلك إلّا ما قَدَّم من فِرارِه، وأن يكونَ اجتماعُه معَه في دوّارِه.

فلمّا وصَل معَ أولادِه إليه، بالَغَ في الإكرام والإقبالِ عليه، وصار يَذكُرُه ويُصبِّرُه، فقال له المرتضَى: يا أبا الحَسَن، أرَدْنا أن تكونَ من أضيافِنا فكنّا نحن من أضيافك. فبَكَى ابنُ زكدار من كلامِه، وتفجَّع لأمرِه وحالِه، ورحَل معَه بجَمْعِه إلى جدميوة، وكان فيها وزيرُه أبو زيد الجدميوي، فبَعَث إليه المرتضَى أن يَصِلَه فمَنَعه ابنُ سَعد الله فتوجَّه إلى شفشاوة، وكان له بها جملةٌ كبيرةٌ من البِغال، فأعطاها لعليِّ بن زكدار، وكتَبَ إلى ابن وانُودين ليصِلَه بالأجناد من حاحَةَ والقُوّاد، فبقيَ ينتظرُه إلى أن قيل له: قد جاز، وإنّ ابنَ عَطّوش قد توجَّه أيضًا من رَجْراجةَ بمَن كان معَه من الأجناد.

ولـمّا بلَغَ إلى المرتضَى رحمه اللهُ خبرُ قُوّادِه، وأنهم توجَّهوا إلى مَرّاكُش، انقطَع أملُه وأملُ أولادِه، وبلَغَه أيضًا أنّ الكَتْبَ وصَل ابن زكدارَ من أبي دَبّوس بالتوكيد في الوصُول إليه، فخاف المرتضَى على نفسِه أن يُقبَضَ عليه فتوجَّه معَ أولادِه والوزير المذكور إلى مدينة آزَمُّور، وقَصَد إلى عبد العزيز بن عَطّوش الوالي من قِبَلِه عليها الذي فداه من بني مَرِينَ بمالٍ كثير، ومن أجل ذلك توجَّه إليها.

ولـمّا وصَل إلى مدينة آزَمُّور قصَدَ إلى قبر الشّيخ الصّالح المبارك أبي شُعَيْب نفَعَ اللهُ به برَسْم الدّعاءِ والتبرُّك، وعندَ فَراغِه من الدّعاء بعدَ صلاة المغرب قال: تنصرفوا[1] إلى باب آزَمُّور، وتُعرِّفوا بوصُولنا البوّابَ الذي في السُّور، ليعرِّفَ بذلك عبدَ العزيز المذكور، فقال له أبو زيد بن يعلو: يا سيّدَنا، عبدُكم أعلمُ منكم بعبد العزيز وقلّة دينِه وعَدَم وفائه، وعبدُكم يعرِفُ حالَه في قُبح أعمالِه الدَّنيئة وأفعالِه، فنخافُ يا سيّدَنا عليكم من قُبح فعلِه إليكم، فقال: حاشى لله أن يفعَلَ ذلك معَنا ونحن فدَيْناهُ بأموالِنا وقدَّمناه على بلادِنا، فلمّا سَمِع أبو زيد ذلك منه ودَّعه وانصَرف عنه وترَكَه منفرِدًا معَ أولادِه، وحيدًا من رعاياه وأجنادِه، فوصَل أولادُه إلى الباب المذكور، وكلَّمهم البوَّابُ

---

(١) كذا.

من أعلى السُّور، فقال له أحدُهم: تعرِّفُ أبا فارس بوصول سيّدِنا إليه، فتوجَّه البوّابُ ودخَل عليه، فعرَّفه بذلك الخبر وأنّ الخليفةَ له منتظِر، فبَعَث إلى أبي عبد الله بن القاسم من حينِه إليه، فوجَد البوّابَ قاعدًا بينَ يدَيْه، فأخبرَه أبو فارس بالقضيّة فأخَذا في التدبير، وبقِيَا متحيِّرَيْنِ في هذا الأمر الكبير، والمرتضَى رحمه الله خلفَ الباب ينتظرُ البوّابَ بالجواب إلى نصف اللّيل، فانقَطع أملُه وانفصَلَ صادرًا من هنالك، لا يَعلَمُ مسلكًا من تلك المسالك، فبقيَ يتخبَّطُ لا يَعلَمُ طريقًا، ولا يألَفُ خِلًّا ولا صَديقًا، وأمّا ابنُ عطّوش فلم يجدْ له حيلةً؛ لأنه قد كتَبَ معَ أشياخ صُنْهاجة البيعةَ لأبي دَبّوس وأنّهم منتظمونَ في حِزبه وجماعتِه.

وكان أبو دَبّوس قد أمَرَ بالبحث عليه في جميع طاعتِه، فوصَل الجوزهرُ إلى آزَمُّور، برَسْم البحث على المذكور، فلمّا أصبح صباحُ تلك اللّيلة التي وصَل فيها إليه، أَخْرَجَ في طلبِه جماعةً من الخَيْل والرِّجال للقَبْض عليه، فخَرج المذكورونَ والجوزهرُ معَهم وبعضُ أشياخ صُنْهاجةَ في طلبِه، فوجَدوه قد دخَل في غارٍ على شاطئ الوادي، خِيفةً أن يُبصرَه الرائحُ والغادي، وذلك بمقرُبة من الموضع المعروف بِوُرتوصوف، فقبَضوا عليه وأكبَلوه، وركَّبوه على زامل وحمّلوه، وركِبَ أولادُه على زواملَ معتقَلِينَ، وثَقَّفوهم في دُوَيْرة صغيرة بإزاءِ دار الوالي المذكور، فطلَبَ منَ الوالي أبو الحَسَن القُرطُبي الذي كان مشرِفًا بآزَمُّور أن يكونَ طعامُه من عنِده ما بقيَ هنالك مُثقَّفًا، فأُبيح له ذلك، وكتَبَ ابنُ عطّوش إلى أبي دَبّوس يعرِّفُه بثِقافِه ليأمُرَه بما يفعَلُ به وبأولادِه، فلمّا ورَدَ كتابُه عليه سُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، ولـمّا تحقّق أبو العُلى الواثقُ بالله ثِقافَ المرتضَى بآزَمُّور وكتَبَ له ابنُ عَطّوش بكيفيّة حالِه فيها واعتقالِه، أمَرَ وزيرَه أبا موسى أن يكتُبَ له يسألُه عن بيت مال المسلمين حيث هو ليُعلِمَه بذلك في جوابِه إليه.

فكتَبَ السيِّدُ أبو موسى عن أمر أبي العُلى الواثق بالله إلى أبي حفص المرتضَى بهذا النصّ:

اقتضَى نظَرُ سيّدِنا ومَولانا الخليفة الإمام الواثق بالله تعالى المعتمِد عليه أميرِ المؤمنينَ أبي العُلى ابن سيِّدِنا ومولانا الخليفة الإمام أبي عبد الله ابن سيِّدِنا أبي حَفْص ابن

سيّدِنا الخليفة عبد المؤمن أيّده اللهُ تعالى ونصَرَه وأعانه وظَفَّره، الوصُولَ إلى هنا برَسْم الاجتماع بكَ وسؤالِك عن المال الذي كان بيدِك بعدَ أن تعرَّف من طُرُق صحيحة كثْرتَه وأنه مالُ المسلمين، ولم تزَلْ أبدًا تنتمي إلى الزَّهادة وتتّصفُ بالوَرَع، ومَن يكونُ كذلك فلا يليقُ به كَنْزُ الذّهب ولا الفضّة حتى يدفِنَه في الأرض، وقد قال اللهُ تعالى في الذين يكنِزونَ الذّهبَ والفضّة ما قال، فإن كان ما بيدك مدفونًا فعرِّفْ حيث هو أو مودَعًا فعرِّفْ عندَ من هو، وإذا أقرَرْتَ بأحد هذَيْن الوجهَيْن يُرجى لك عفوُ سيّدِنا ومَولانا الخليفة أميرِ المؤمنين وإلا فلا تلُمْ إلّا نفسَك وأنت المسؤولُ عنها، وأنا الآنَ أرتقبُ جوابَك لنُطالِعَ به البابَ الكريم أسماهُ اللهُ تعالى. وكتَبَ عِمرانُ بن عبد الله ابن سيِّدِنا الخليفة.

فكتَبَ المرتضَى جوابَه بخطِّ يده: حفِظَكم اللهُ تعالى وأبقاكم رحمةً للرَّحِم، والله، وحقِّ هذا المقام، ما نُغادرُ ـ ولا نرضاهُ لحَشْري ونَشْري أن نُغادر ـ صغيرةً ولا كبيرة، فالذي كان في مواضعَ مختلفةٍ في بيوت وخزائنَ بل خزانةٍ واحدة وزَوْج صناديقَ والحُلى والقلائد متفرِّقة فلا أعرفُ ما وُجِدَ وما لم يوجَدْ وما تحتَ الأرض، اللهُ يعلَمُ أنّي ما دفَنتُه ولا أودعتُه، ونَعلَمُ ما يلزَمُ عندَ الله في ذلك، اللهمّ وقتَ وصُول الـمَرينيِّ كان الشيءُ كثيرًا حتى خَرج لـمّا وصَل الزعيم ابن سجن بمعرفة الخَدَمة كلِّهم واللهُ تعالى على ما نقولُ وكيل. وبفضلِكم يا أخي وبحقِّ الدم والرحِم، الإبقاءَ عليّ، واعمَلوا ما يُجازيكمُ اللهُ تعالى عليه إن شاء الله، والسلامُ يخصُّكم والرحمةُ والبركة.

وكتَبَ المرتضَى أيضًا في بطاقة مدرَجة معَ كتابِه: يا أخي حفِظَكم الله، عسَى بفضلكم تتلطَّفوا عندَ مقام الرحمة وغِيَاث الأرمة[1] رضي اللهُ تعالى عنه وأبقاه رحمةً لصِلة الأرحام وعزّةً للإسلام، في الذي وعدتُم من التأمين والأمان والإبقاء معَ الأصاغر والأحفاد بقيّةَ العمُر، فأخوكم شيخٌ ينتظرُ ما لا بدَّ منه وكثيرُ العِلَل، فبالله رحمةً وحنانًا وإشفاقًا فيما سألتُكم، فنضرَعُ لكم فيه بحُرمة مولانا المصطفى صَلّى اللهُ عليه وسلَّم تسليمًا، واللهُ سبحانَه يُبقي عليكم نِعمَه، ولا ينسى لكم هذه المكرُمة، ومولانا المقامُ الأرحمُ الأعطف، فقد عَمِل، فاللهُ تعالى يُجازيه بفضلِه ويُخلِّدُ مُلكَه آمينَ آمين.

---

(١) أي: الأصل والمنبت.

ولـمّا وقَف أبو العُلى الواثقُ بالله على كتابِه شَفِق وحَنَّ عليه، وبعَثَ السيّدَ أبا موسى عِمرانَ معَ أبي سِرحان بن كانون وجماعة من سُفيان برَسْم توصيله إليه وتمثيله بينَ يدَيْه، ثم بعدَ انفصالِـهم وقَعَ الرأيُ والتدبير في أن يُقتَلَ قبلَ وصولِه، فإنه لا يُعلَمُ ما يكونُ عند قُدومِه لحضرته على أجنادِه وخُدّامِه، أشار عليه بذلك السيّد أبو زيد الأعرج؛ لأنه قام في ذلك وقَعَد وانزعَج وحَرَج، فكتَبَ السيّدُ أبو العُلى إدريسُ براءةً بخطِّ يده إلى السيِّد أبي موسى المتوجِّه لإيصاله إليه وحَمْلِه ودَفَعَها لعمُرَ بن آصلماط السنون تتضمَّنُ قتلَ المرتضَى في أيِّ موضع يلقاه، فالتقاهُ بفرزغون، وثم جرَّعه كأسَ الـمَنُون. وكان رحمه اللهُ تعالى على بَغْل مكبولًا، وفي العماريّة محمولًا، وكذلك أولادُه مكبولينَ على الدوابّ، وكلٌّ واحد منهم بنِقاب.

ولـمّا وقَفَ السيّدُ عِمرانُ على الكتب الواصِل إليه أوقَف أبا سِرحان مسعودَ بن كانونَ عليه وأمَرَ الرِّجالَ أن يقفوا بالدابّة التي كان عليها المرتضَى هنالك بجانب، ودارت الخيلُ والرّجال عليه من كلِّ جهة بخِلال ما يُحفَرُ له القبر وينقضي فيه الأمر، وتقدَّم بأولادِه بعضُ الفُرسان من ذلك المكان، وقد تبيَّنَ لهم من حَتْف والدِهم وفَقْدِهم إياه حينَ أُخِّر عنهم كلَّ التِّبيان، ثم جُبِذ البغلُ بالمرتضَى رحمه الله إلى الموضع الذي قَدَّر اللهُ عليه بالموت فيه، فأُهبِط عن الدابّة وعايَنَ القبرَ الذي حُفِر له فقال للحاضِرين: هذا هو قبرُنا؟ فقيل له: نعم يا سيّدَنا، فقال: اترُكوني أُصلِّي ركعتين، فصَلاهُما خفيفتَيْن ثم تأهَّب للموت وقال للواصل إليه بالسيف: أتطوُّعٌ هذا منك أو أمرٌ أُمرتَ به؟ فقال له بالأمر، ثم استَشهدَ واستُشهِد وقضَى نحبَه رحمه الله، وقبرُه الآنَ مشهورٌ بفرزغون، فإنّا لله وإنا إليه راجِعون، ودُفن يومَ الثلاثاء الثاني والعشرين لصَفَر من العام المؤرَّخ بعد شهرٍ كامل من خروجِه من قصرِه، رحمه الله وعَفَا عنه برحمته.

وكان الخليفةُ المرتضَى رحمه الله يتَوقَّى شرَّ مِن اسمُه إدريس؛ لأنه كان في عِلمِهم أنّ دولتَهم على يدِ مِن اسمُه إدريسُ تنقرِضُ وتندرس، فلما وَلِي الخلافةَ إدريسُ الملقَّبُ بالمأمون قَتَل أشياخَ الموحِّدين وقطَع دعوتَهم وأزال اسمَ مهديِّهم من سِكّتِهم وخُطبتِهم، فقالوا: هذا هو إدريسُ المذكورُ الذي يَدرُسُ دعوةَ التوحيد، ثم أعاد الدّولةَ والدّعوةَ ولَدُه الرّشيد، فلما وَلِي الخلافةَ أبو حفص المرتضَى من بعدِ السّعيد، كان في أيام دولته

شخصٌ اسمُه إدريس من أولاد المنصور، يريدُ العلوَّ والظهور، فظَنَّ أنه هو إدريسُ المذكور، فقيل: إنه قتَله بالسُّم واللهُ أعلم بخَفِيّات الصُّدور، وأمّا إدريسُ هذا الملقَّبُ بأبي دَبّوس، فكان عندَه أبدًا محقورًا، فأراد اللهُ أن يُخرجَه على يدِه من قصرِه مفؤودًا مقهورًا، يَسري ليلَه ويختفي نهارَه، لا يَأوي إلى معمور، إلى أنْ غَلَبه القَدَرُ المقدور، فكان من أمرِه ما ذُكِر رحمه الله.

وكان رحمه اللهُ إمامًا عادلًا وملكًا فاضلًا، وفقيهًا عالـمًا، وبالسُّنة والكتاب حاكمًا، لم تُعلَمْ له صَبْوةٌ في صِباه ولا سَطْوةٌ تتَّقيها أعداه، بل كان يأخُذُهم بإرادتِه، فكم له فيهم من قتيلٍ في أيام دولته. وكان أديبًا عفيفًا شاعرًا ظريفًا، غيرَ أنّ شعرَه كان ضعيفًا. ووقَفتُ له على سِفْر مجلَّد من شعرِه بنَظْمِه ونثرِه، فمن ذلك قولُه في شهر ربيع [من الكامل]:

وافى ربيـــعٌ قـــد تعطَّـــر نفحُـــهُ	أذكـى مـن الـمِسك العتيـق نـسيما
بـولادة المختــار أحمــدَ قــد بَــدا	يزهــو بــه فَخْــرًا وحــاز عظـيما
بُـشرى بـشَهْرٍ فيــه مولــدُه الــذي	مــلأَ الزّمــانَ عــلاؤه تعظـيما
ضـاءت بـه شرقُ الـبلاد وغربُهـا	وتأنَّقـــت أرجاؤهـــا تنعــيما
فــاعتزَّ أمــرُ الله يــومَ طلوعِــهِ	وغَــدا بــه ديــنُ الإلــه قــويما
فـاعرِفْ لهـذا الـشهرِ حقًّـا قَـدْرَهُ	فلقــد غَــدا بـينَ الـشهور كـريما
شــهرٌ كــريمٌ جــاء فيــه محمــدٌ	صَــلّوا عليــه وسَــلِّموا تـسليما

ومن قوله في معنى الزهد [من المتقارب]:

ولـــمّا مــضَى العُمْــرُ إلا الأقــلّ	وحـــان لروحـــي فِـــراقُ الجــسَدْ
دعـــوتُ إلهـــيَ مـــستعطِفًا	ليُــصلحَ منّــي مــا قــد فَــسَدْ
ويُـــصلحَ نفـــسي وأخلاقَهــا	ويُــذهبَ عنهــا الرِّيــا والحــسَدْ
فــسُوقُ الرّيـــاءِ بهـــا نـــافقٌ	وسـوقُ العفـافِ بهـا قـد كـسَدْ

ومن قوله معتذرًا عن لقبِه [من الكامل]:

يَـدْعُونَ عبـدَك سـيّدي بالمرتـضَى | هيهـاتِ أيـن وأيـنَ منّـي المرتـضى
مـا لي عـلى مـا لقَّبـوه قـدرةٌ | إلا بـما أرجـوه منـكَ مـن الرِّضـا

ولـمّا رَدَّ ولدُ ابن الصَّقر على الخطيبِ في خُطبته وكذّبه حين فاهَ بعصمة المهديِّ، أراد المرتضَى رحمه الله أن يَسجُنَه ولا يقتُلَه على قولِه، فأبَى الأشياخُ والوُزراءُ إلا وقوعَ قتلِه إلى أن غَلَبوا عليه، فآل أمرُه إلى القتل خوفًا من أن يقولَ ذلك غيرُه، فأَمَروا عليه فقَتلوه ظُلمًا قبَّحهم الله. وكان يقومُ بليلةِ المولد خيرَ قيام ويُفيضُ فيه الخيرَ والإنعام، وكان أشار له بذلك الفقيهُ[1] أبو القاسم العزَفيّ؛ لأنه لـمّا ألَّف كتابَه «الدُّر المنظَّم في مولِد النبيِّ المعظَّم» بعَثَ به إليه وأشار بذلك الرأي عليه. وكان مُحِبًّا في مطالعة الكُتب وتواليفِها وتصانيفِها، فألّف له الفقيهُ[2] أبو محمد ابنُ القَطّان جُملةً من الكُتب الحَفيلة الجَليلة وأمدّه بالدّواوين العظيمة والخَيْراتِ الجليلة، فمنها: «كتابُ نَظْم الجُمان وواضح البيان فيما سَلَف من أخبار الزّمان»، و«كتابُ شفاءِ الغُلَل في أخبار الأنبياء والرُّسل»، و«كتابُ الأحكام لبيان آياتِه عليه السلام»، و«كتابُ المناجاة»، و«كتابُ المسموعاتِ»، فيه قصائدُ متخيَّرات فيما يخُصُّ بالمولد الكريم وشهر رجَبٍ وشعبانَ ورمضان، وغيرُ ذلك.

وكان رحمه الله غيرَ مُبخَّت في حركاته، يَخرُج للحركة من الحضرة بالعساكر الضَّخمة والأعداد الجَمّة، فما يسلَمُ فيها من بُوس ولا من يوم عَبُوس، ولا تحدُثُ عليه فيها حوادثُ وخطوبٌ كوارث حتى يَجفَلَ عسكرُه بالهروب من غيرِ قتال ولا حروب، وطولَ ثقافِه بآزمُّور يَرثي نفسَه ويَبكي على فَقْد إلفِه وطولِ محنتِه وغُربتِه، فمن ذلك ما قاله [من البسيط]:

قهـرُ المنيّـة تحـتَ الـتُّربِ أسـكنَني | وما أخذتُ مـن الـدنيا سـوى كفَـنِ
فيـا بُنـيَّ ويـا إلْفـي ويـا سَـكَني | تـالله لـو كـان لي حُكـمٌ عـلى زمـنِ
يومًا من الدّهرِ مـا فـارقتُكمْ أبـدا

(١) ليست في ق، ك، ب.

(٢) ليست في ق، ك، ب.

تـركتُهمْ بـين تـشتيتٍ ومجتمـعِ وبـينَ بـاكٍ مـن اللّـذات ممتنِـعِ

ونـسوةٌ بالفِنـا يبكـونَ مـن جَـزَعِ أُلبِست من بعدِ عُـريٍ أهـونَ الخِلـعِ

وما مددتُ لهـم يـومَ الـوداع يـدا

أنـا الغريـبُ بـأرضٍ ضـاقَ مـسلكُه مـعَ البنـينَ ولكـنْ كنـتُ أملِكُـهُ

مـا كـان ظنّـي صـغيرَ القـوم أترُكُـهُ في حُجـر مرضـعةٍ يحبـو فتمـسكُهُ

بالرَّغم منّي تركتُ المـالَ والولـدا

طمِعتُ في الرُّوح أن يبقى معي فأبَى لـمّا تحقَّـق أنّ الأمـرَ قـد وَجَبـا

ونـال صَرفُ زمـاني كـلَّ مـا طلبـا وصِرتُ مستوحشًا من جملـةِ الغُربـا

وعندَ قطع رجـائي لم أجـدْ أحـدا

عـينُ الزّمـانِ أصـابَتْني بنظرتِهـا وأذهبَـتْ عـزّتي في طـولِ مـدّتِها

عجِبت مـن بُطئهـا عنّـي وسُرعتِهـا وكيـف مـازَجَني تلـوينُ صِـبغتِها

في حينَ فارَقَ منّي روحي الجسَدا

وأمّا أولادُه فثقِفهم أبو دَبّوس طولَ مدّتِه إلى أن أخرَجَهم الأميرُ أبو يوسُف من ثِقافهم في عام ثمانية وستين إلا كبيرَهم أبا محمد عبدَ الله، فإنّ أبا دَبّوس قتلَه في السِّجن بمسَلّة أدخَلَها تحت إبطِه مات منها رحمه اللهُ تعالى، ولـمّا أخرَجَهم أبو يوسُفَ رحمه الله من السِّجن توجَّهوا إلى الأندَلس وحصَلوا عند الفُنْش بإشبيلِيَةَ أعوامًا عديدة، ثم انتَقلوا منها إلى غَرناطة وحصَلوا تحتَ طاعة أميرِها، وهم الآنَ بها في عافية بمُرتَّباتٍ شهريّة يقبِضونها في كلِّ شهر، وكبيرهم أبو عبد الله فيها معَهم. وأمّا أخوهم أبو زيد فوصَل من الأندَلس إلى السُّوس على حمارة، فسمَّته العوامُّ (أبو) حمارة، وذلك في عام أربعة وثمانين وست مئة، وهو الآنَ بقَيْد الحياة في جبل سكساوةَ يعيشُ منَ النَّسخ، وأخوه محمد بغَرناطة في وقتنا هذا، وهو عام اثني عشَرَ وسبع مئة.

ذكرُ خلافة الواثق بالله[1] أبي العُلى ومدّتِه وبعضِ الأخبار في أيام دولتِه

نسَبه: هو إدريسُ بن أبي عبد الله بن أبي حَفْص عُمرَ بن عبد المؤمن.

كُنْيته: أبو العُلى، شُهرتُه: أبو دَبّوس؛ لأنه كان ببلاد الأندَلس في الجهادِ وغيره لا يُفارقُ الدَّبُّوسَ فاشتُهر به، وتسَمَّى من أسماءِ الخُلفاء باسمَيْن في نَسَق: الواثق بالله والمعتمدِ عليه.

صفتُه: أزرقُ العينَيْن أشقرُ الرأس واللِّحية ساطعُ البياض مربوعُ القَدّ، وكان شجاعًا فارسًا عازمًا حازمًا.

أولادُه: جماعةٌ، منهم: عبدُ الواحد، بايَعَه بمَرّاكُش بعضُ القرابة والموحِّدين بعدَ موت أبيه.

إخوتُه: كانوا تسعةً وهو عاشرُهم، وهم المشهورونَ بالبَيَّاسِيِّين.

وُزراؤه: السيِّدُ أبو زيد عبدُ الرحمن ابن السيِّد أبي عِمران، وأخوه لأبيه السيّد أبو موسى عِمران بن أبي عِمران، والمتقرِّبونَ عندَه من أشياخ الموحِّدين: أبو محمد بنُ زجو وأبو زيد بن عبد الكريم، ومن الحضَر: أبو الحَسَن الـمَغِيليّ.

وكتَبَ له أبو الحَسَن الرُّعَيْنيُّ وأبو عبد الله التِّلِمْسانيُّ من كُتّاب الخلفاء قبلَه، وكتَبَ له غيرُهما.

مشرفُه: أبو عبد الله بنُ أبي البركات، كما كان معَ مَن تقدَّم قبلَه.

قاضيه: أبو إسحاقَ ابنُ القَشّاش.

وكانت دولتُه من حين استقرارِه بدار الخلافة مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى عامَيْنِ وأحَدَ عشَرَ شهرًا وثمانيةَ أيام أولُها يومُ السّبت الثاني والعشرين لشهر محرَّم مفتتَح خمس وستينَ على الرِّواية المتقدِّمة في دخول القَصْر على المرتضَى واستيلائه على مَرّاكُش، وآخِرُها يومُ الجُمُعة منسَلَخ شهر ذي الحجة من عام سبعة وستينَ وست مئة، وقيل:

---

(١) ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ١٥/ ١٥٣.

إنّ قتلَه كان في محرَّم من عام ثمانية وستّين، ومن الغريب أنّ فِرارَه من مَرّاكُش كان في محرَّم، وفَتْحَه لها في محرَّم، وقتلَه في محرَّم.

ولـمّا استقرَّ الواثقُ بحضرة مَرّاكُش وفَرَّ المرتضَى من باب فاتحِتِها اشتَمَلَ الناسُ على طاعته، وتوارَدوا من كلِّ مكان على حضرته، فرفَعَ عنهم الكُلَف والمحدَثات بالبوادي والحواضر، واقتَصَر على الحقوق الواجبة التي جَرى عليها قديمًا العملُ المتواتر، وذلك معَ تصرُّف القُوّاد، وكثرة الـمُؤَن للأجناد، وليس ببيت المال مالٌ ولا طعام، فاستَولَى عليه الاحتياجُ الشّديدُ والإعدام، إلّا صبابةً معروفةَ القَدْر قليلةَ الخَطَر، فاقتصَر على ذلك القَدْر اليسير، وأوسَعَ الأجنادَ العطاءَ للكبير والصّغير، وعفَا عن المجرِمين وصَفَح، وبذَلَ العطاءَ ومنَح، وأمَرَ بالقبض على بعض المشتغِلِينَ فأغرَمَهم، وقدَّم بعضَهم على الأشغال والأعمال وأكرَمَهم، وسرَّح الأبوابَ للداخل والخارج دونَ غُرْم شيءٍ منَ الأشياء لا في سلاع ولا في زَرْع ولا غيرِ ذلك ممّا كان يُغرَمُ قبلَ ذلك من مُدَد الأمراء، وكما أمَرَ برَفْع غُرم الأبواب، كذلك أمَرَ برَفْع الـمَعُونة في الرِّحاب، وأمَرَ بحَلِّ باب نفيس وباب المخزن وباب الفَتْح الذي دُخِلت منه مَرّاكُش، وهو بابُ أغماتَ، فسَمّاه بابَ الفتح لِـما فتَحَ منه مَرّاكُش، وعندَ دخوله إليها وحلولِه بها رفَع إليه بعضُ الكُتّاب والطلَبة أشعارًا بالتهنئة والاستعطاف، فمن قول أبي الحَسَن الرُّعَيْني [من الوافر]:

أســـيّدَنا ومولانـــا والاوْلى ... بنـــا وخليفـــةَ الــرّحمنِ فينـــا

وظـــلَّ الله مَـــن يَـــأوي إليـــهِ ... ينـــالُ أمانَـــهُ دُنيـــا ودينـــا

أتيتُـــكَ مُـــستغيثًا مـــستعينًا ... وشـــأنُك أن تُغيـــثَ وأن تُعينـــا

فإنّـــك رحمـــةُ الله التـــي قـــد ... تعارَفَهـــا جميـــعُ العالَـــمينا

ومـــا لي ملجـــأٌ إلّا إيـــادٍ ... تَعاهَـــدْنا بهـــا حينًـــا فحينـــا

إذا مـــا الخَطْـــبُ أعـــضَلَ منـــه داءٌ ... وكـــان الأمـــرُ يقطَـــعُ بي الوَتِينـــا

رجـــوتُ اللهَ عـــزَّ وجَـــلّ فيـــهِ ... وفـــضلَكَ يـــا أمـــيرَ المؤمنينـــا

وكان الواثقُ بالله يومَ فتح مَرّاكُش حينَ حُلَّ له بابُ الطُّبول، وبايَعَه كلُّ مَن كان فيه من الطّلبة والمشتغلينَ تَلقّاهم بالقَبول، وأولُ ما قَدَّم: الدّخولُ إلى المسجد الجامع

تيمُّنًا به وشُكرًا لله على جميل مواهبِه، فظَهر عليه فيه أثرُ الخُشوع، والتواضع لله والخُضوع، فلمّا قضى حقَّ الشُّكر لله خَرج من الجامع وركب ببابِه ودخَل القصرَ في ذلك اليوم بعدَ صلاة العصر، ووقَف هنالك لتهنئةِ الناس له ولَثْم يُمناه، وذلك ممّن حضَر في الوقتِ معَه والذين سرَّحَهم من السِّجن كمسعودِ بن كانونَ وغيرِه، وصَرَفَ الناسَ عشِيّةَ ذلك اليوم. وقيل: إنه لم يدخُل القصرَ تلك الليلة. ولـمّا كان في غدِ ذلك اليوم المذكور رَكِب بنفسِه ودارَ في البلد لرَدْع المفسِدينَ والمعتَدِين، وأمَرَ بضَرْب رِقاب شخصَيْنِ، فكفَّت أيدي التعدِّي عن الناس.

وبعَثَ إلى الأمير الأجَلّ أبي يوسُف أرسالَه، وشرَحَ له أحوالَه، وقيل: إنه بعَثَ له بشيءٍ ممّا تصيَّر في مِلْكِه، لأنه كان السببَ معَ قضاء الله تعالى في مُلكِه، وقيل: إنه لم يفِ بها وعَدَه، ولا بها عليه عاهَدَه، فتحرَّكَ إليه واستقرَّ ببلاد تامَسْنا، وكانت الـمُخاطَبات بينَهما كلَّ حين والـمُرادَدات.

وكان أيضًا بينَ الواثق بالله وبينَ ابن جلداسنَ وَحْشةٌ أوجَبت الحركةَ من مَرّاكُش لتحسيم ذلك كلِّه، فقَصَد إلى هسكورةَ على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي هذه السنةِ: تحرَّكَ الواثقُ بالله إلى هسكورة، كانت حركتُه يومَ الخميس الخامس لشعبانَ من العام المؤرَّخ، وكان نزولُه يومَ خروجِه من مَرّاكُش بالبُحيرة الشّهيرة بولحرب، فكان فَأْلًا له ذلك الموضعُ، فإنه لم يزَلْ طولَ مُدّتِه في هَوْل وحرب، فأقام به أيامًا ليُخلِّصَ أجنادَه من أزودتِهم ومُرتَّباتِهم، وكان الرّحيلُ من هذا المنزِل في الثانيَ عشَرَ لشعبانَ من السنة إلى الموضع المعروف بدار الرَّمّاك: من بلادِ هَيْلانة وبمقرُبة منه وادي أغمات، وكذلك وادي الزّات، وفيه ترتَّبَ نزولُ العَرب في مَرْج بإزاءِ المحَلّة على عادة الترتيب المعتاد، وفيه تخلَّصت أمورُ الأجناد من أُعطِياتِهم برَسْم الزاد.

وفي التاسعَ عشَرَ من شعبانَ المذكور نزَلت المحَلّةُ المنصورةُ بموضع تادّارت[1] معطاسة، وفيه: وصَل بعضُ أشياخ قبائل هسكورة، وكان الشّيخُ الصّالح أبو العبّاس حُمَيْديّ بن مخلوف الهسكوريُّ قد توجَّه إلى الأمير الأجَلّ أبي يوسُف رسولًا من قِبَل

(١) مجوّدة التقييد في ق، ك.

الخليفة الواثق بالله أبي العُلى في مطالبَ قد كان وصَل فيها قبلُ إليه وشَرَط عليه، ثُم وصَل حُمَيْديّ المذكور أيضًا في هذا المنزل من قِبَل الأمير أبي يوسُف، وعاد أيضًا إليه من هذا المنزل بما وقَع الاتّفاقُ عليه.

وفي هذا المنزل كان تقديمُ الواثق بالله لأبي موسى بن عَزّوز على بلادِ حاحَةَ لتغريم جِبايتِها والنّظر في أشغالِـها وأعمالِـها كما جَرَت عادتُه في ولايتها، وتوجَّه رسولًا من قِبَل الخليفة الواثق بالله: أبو فارس عبدُ العزيز بن عَطُّوش إلى أبي عثمانَ مسعودِ بن جلداسنَ الهسكوريِّ في مصالحَ ومُهمّات، ثم عاد من عندِه المذكورُ بأُمورٍ وأحوالٍ بلَّغها للخليفة مشافَهةً، وربّما كان في ذلك من مسعودٍ بعض العَتْب بالـمُناجَهة، فعَلِم منه بعضَ الحقِّ في كلامِه، وأضرَبَ عن مقالِه ومَلامِه، وترَكَه على حالِه مقِرًّا بالسَّمع والطّاعة في جبالِه، فقَنِع منه بذلك ولم يطمَعْ في نزولِه من هنالك.

ثم شاعَ الخبرُ بمحَلّة الواثق بالله بانفصالِ بني مَرِين وإجازتِهم واديَ أُمِّ ربيع[1]، وأنّهم قد خامَرَهم من الجزَع ما اقتَحموا بسببِه الواديَ المذكور، حتى هلَكَ فيه كثيرٌ من أموالِـهم، ورأَوْا أنّ النَّجاةَ بنفوسِهم نهايةُ بُغيتِهم وآمالِـهم، فسُرَّ بذلك الموحِّدونَ وأتباعُهم، وأشاع ذلك الخبرَ أشياعُهم، حتّى تملَّأت منه أسماعُهم، وليس الأمرُ واللهُ أعلمُ كذلك، وإنّما كان انفصالُ السُّلطان أبي يوسُف معَ بني مَرِين من هنالك، بعهودٍ ومَواثقَ وهديّة قَبِلَها من الواثق، فلم يتمَّ ذلك العهدُ المعهود، ولا العَقْدُ المعقود، إلى أن كان ما كان بينَهم من الضّرب والطِّعان، على ما سيأتي ذكرُ بعضِه مختصرًا إن شاء اللهُ تعالى.

وفي الخامس والعشرينَ لشعبانَ من السنة: انتَقَلت المحَلّةُ من تادّارتَ إلى الولجَةِ في الجهة الشّرقية منها.

وفيها: عاد الشّيخُ الصّالحُ المبارَك أبو العبّاس حُمَيْديٌّ المذكورُ بتصحيح الخبر بانصرافِ بني مَرِينَ إلى الغرب دونَ طَعْن ولا ضرب.

ولـمّا تواتَرت الأخبارُ بانصراف بني مَرِينَ إلى بلادِهم، وارتحالِـهم بأموالِـهم وأولادِهم، وصَل أبو فارس عبدُ العزيز بن عَطّوش من عند مسعود بن جلداسنَ بكلِّ

---

(١) الروض المعطار ٦٠٥.

خير، وأنه تحتَ السَّمع والطاعة، فاقتضَى نظَرُ الواثق أن يتنَحَّى عن بلاد هسكورةَ لئلا تلحقَها معَرّةُ العَرَب بانتسافِ زروعِها والاقتحام بالغارة عليها وأن يكونَ التوجُّهُ إلى جهة وادي الدّيل ثم إلى وادي تانسيفتَ ليكونَ بمقرُبة من مَرّاكُش.

وكان السببُ أيضًا في استعجال وصُول الواثق بالله إلى مقرُبة من حضرتِه ما ذُكِر له عن عبد العزيز بن السَّعيد، ممّا أوجَبَ حتفَه ومَنِيّتَه قبلَ أن يبلُغَ أمنيَّته.

ولـمّا نزَلَت المحَلّةُ بموضع تاونزرتَ بموضع من مواضع تانسيفت، شَرَع الواثقُ بالله في التجهيزِ من هنالك عسكرًا لتغريم الجِباية الحاحِيّة والركراكيّة، وشَرع في تجهيز العساكر الموحِّدية والعربيّة ليتحرَّكوا معَه إلى بلاد السُّوس لاستئصال شقيِّها وإبادة غَوِيِّها عليِّ بن يدر وإخوانِه، فأَصْرَفَ من هذا المنزل إلى دكّالةَ عَربَ سُفيان، ولم يُبقِ معهم إلّا شيخَهم أبا سِرحانَ في حِصّةٍ من إخوانِه، وتوجَّه الغيرُ برَسْم تجديدِ حركاتِهم، وبقيَ آخرونَ برَسْم أخْذ أُعطِياتِهم وبرَكاتهم.

ذكرُ القَبْض على ابن السَّعيد، وما جَرى عليه من الـخَطْب الشّديد

قال المؤلِّف: أخبرني بعضُ العارفينَ بأمرِه أنه لـمّا رأى ما تُصوِّر لأبي العُلى الواثق بالله من تصيير الخلافة إليه، وليس هُو من بني المنصور، أنه أحقُّ بها منه، ففَهِم بعضُ أصحابِه ذلك عنه، فهوَّنوا عليه الأمور، لينالوا معَه العلوَّ والظّهور، واستكْتَم ذلك الأمرَ من بعضِهم خِيفةً أن يظهرَ، كأبي الشَّرف عبد الرفيع، وكان عندَه أرفعَ من كلِّ رفيع، ومنَ ابن عبد القاهر، وكان عندَه كالطبيبِ الماهر، لعلمِه أنهما لا يوافقانِه على ذلك التدبير، ولا على ذلك الرأي الدَّبير، وممّن وافَقَ على ذلك ابنُ بجيت وابنُ جلداسنَ وغيرُهما، فبَعَث السيّدُ المذكور لابن جلداسن عليِّ بن منصور بتهليلٍ وبراءة بخطِّ يدِه تتضمَّنُ العهدَ والنِّجازَ في تلك الأمور، فتكلَّم ابنُ منصور معَ ابن عبد القاهر وأخبره بذلك، ولـمّا رأى منه عَدَمَ الموافقة وخافَ أن يُظهِرَ الأمر بادَرَ بإظهارِه، وعرَّف الواثقَ بالله بأمور السيِّد وأخبارِه، وكان عليُّ بن منصور عندَ الواثق صادقَ القول، فعندَ وصُوله إليه وقدومِه بمغطاسةَ عليه، عرَّفه بذلك إثْرَ سلامِه ودَفَع له التهليلَ والبراءة، وتبرَّأَ من تلك الأمور أتمَّ براءة.

وكتَمَ الواثقُ بالله ذلك الأمرَ عن وُزرائه وأربابِ دولتِه إلى أنْ وصَل تانسيفتَ بمقرُبة من حضرتِه، فخَرج إليه منها السيّدُ أبو زيد عبدُ الرحمن ابنُ السيِّد أبي عِمران، وكان واليَها وخليفتَه فيها، وهو ابنُ أُختِه وصِهرُه، فعرَّفه بحال السيِّد عبد العزيز ابن السّعيد وما كان من أمرِه، وأنه كان قد عَزَم على القيام بمَرّاكُش علينا، وأراد أن يقبضَ عليك ويعجِّل بالقتل إليك، وأنت غافلٌ عنه هنالك، ليس لك خبرٌ بذلك، فذَمَّه غايةَ الذّمّ، وأمَرَه أن يحتالَ عليه ويحصِّلَه حتى يأخُذَه بإقرارِه، ويقرِّرَ لديه ما أضمَرَ من أسرارِه، وحينَئذٍ يُكبِّلُه ويقتلُه.

وكان السيّدُ عبدُ العزيز ابنُ السّعيد لا يَخرُجُ من دارِه، بل يقعُد معَ إخوانِه، ورجالِه وأخدانِه، في رَحْبةِ أُسطُوانِه، فنظَرَ السيّدُ أبو زيد في شانِه، ودبَّر وجْهَ الحِيلة في أخْذِه من غيرِ أن يُعلِمَ أحدًا من إخوانِه، خِيفةً أن يشعُرَ المذكورُ ويفِرّ، ولا يُعلَمَ حيث يستقِرّ، فأخَذ السيّدُ ينظُرُ فيمَن يَكرُمُ عليه من وجوه الناس ومَن إذا توجَّه إليه استدعاه يَخرُجُ من حينِه إليه، وكان الشّيخُ الفقيهُ أبو العباس السَّقَطيُّ يَشتدُّ له في بيعِه وشراه، ويجتمعُ معَه في ذلك كلَّ وقت ويَراه، وكانت له عندَه شَهاداتٌ في مبيعات؛ لأنه كان اشتَغل ببيع أملاكِه، كأنه قد عَلِم بقُرب هلاكِه، فبعَثَ إليه السيّدُ أبو زيد الفقيهُ أبا العبّاس المذكور، ولم يَذكُر له شيئًا من تلك الأمور، إلا ليجتمعَ معَه في مَصالحِه وأمورِه، فتوجَّه إليه وبعَثَ عنه، فلمّا خَرج إليه السيّدُ من دارِه وقعَدَ معَه في رَحْبتِه، أقْبلَ أبو الحَسَن بنُ أبي يَعْلى، وهو وزيرُ السيِّد أبي زيد، فبادَرَ بالسّلام عليه وقال: يا سيّدَنا رضيَ اللهُ عنكم، السيّدُ أبو زيد بعَثَ عبدَكم إليكم وأكَّد عليكم في الوصُول إليه برَسْم الاجتماع معَكم فيما يَخُصُّه ويَخُصُّكم. فطلَبَ السيّدُ عبدُ العزيز أن يَدخُلَ إلى دارِه ليأخُذَ إحرامَه وعِمَّتَه ويَخرُجَ على العادة بهيئته، فقال له المذكور: يا سيّدَنا، هذا إحرامُ عبدِكم وعِمامتُه، فما قَبِل منه عُذْرًا حتّى قدَّمه أمامَه.

ولـمّا وصَل المذكورُ إلى السيِّد أبي زيد وهُو معَ بعض أشياخ الموحِّدين، قرَّر عليه ما فَعَل فأنْكَر، ولـمّا أخرَجَ إليه تهليلَه وبراءتَه، تغيَّر وتحيَّر ودَهِش وارتَهَش، ووقَع مَغْشيًّا عليه، فصحَّ الخبرُ المنسوبُ إليه، وأُدخِل في دُوَيْرة هنالك وقُتل كما قُتل ابنُ المرتضَى بمسَلّة كذلك، والصحيحُ أنه مات مسيَّفًا رحمه اللهُ تعالى.

اختصارُ الخبر عن حركة الواثق بالله إلى السُّوس

ولـمّا تخلَّصت أشغالُه من حضرته، رحَل من تانسيفتَ على عادتِه وهيئتِه، فحينَ وصُولِه إلى تامزَّاوْرت[1] نزَلَ بعسكرِه[2] وجماعتِه، وهنالك وصَل كتابُ الأمير أبي يحيى يَغْمراسنَ وهديّتُه معَ رُسُلِه، وشاع الخبرُ بطاعتِه ومبايعتِه، فعَمَّ السرور، وانشَرحتِ الصّدور، وقُدِّر أنه عُنوانُ الفتح ودليلُ النُّجح، وقالوا: الآنَ نَستظهرُ على بني مَرِين، ويَستتمُّ الصُّنعُ الجميلُ للخليفة والموحِّدين.

ولـمّا حضَرَ جميعُ الموحِّدين والعَرَب في أفراك بينَ يدَيْ خليفتِهم، قُرِئَ الكتابُ المذكورُ عليهم، وعَمَّت به الأفراح، وظهَرَ به الافتتاحُ والارتياح، وانطَلَقت الألسِنةُ بالدّعاءِ لله تعالى في أن يُشفَعَ هذا الفتحُ بمثلِه، ويُوالي للمقام الواثقيِّ ما عوَّده من عميم فضلِه. وأخَذ الناسُ في التهنئة له بجُملتهم، وضُرِبت الطّبولُ على ذلك.

ومِن هذا المنزلِ كان انفصالُ الشّيخ أبي زكريا بن وانُودين ليتوجَّه منه إلى بني واوزجيتَ الذين ببلاد السُّوس ليستنفرَهم ويَستدعيَهم للخِدمة والحَرَكة معَ المحَلّة في استقبالِ عليِّ بن يدرَ السُّوسي، ورحَلَت المحَلّةُ من هذا المنزل بعدَ ثلاثة أيام، وتَمادى الـمَسِيرُ إلى مسكروطن، وهو سَفْحُ الجبل وأولُ بسيطِ السُّوس، فارتاحت عندَ مُعاينتِه النفوس، وذهَب عنها ما كان قدِ استوَلَى عليها من الخَبال ومُلاقاةِ الأهوال، واستبشَروا بالخروج إلى هذا البسيطِ المذكور، وانتَشَروا فيه كأنّهم في يوم النّشور، وبه أهَلّ هلالُ شوّال فأقامَت المحَلّةُ غُرّتَه هنالك لأداءِ سُنن عيد الفطر، وتوجَّه قاضي المحَلّة وخطيبُها أبو يحيى ابنُ عبد الحقِّ في يوم العيد إلى موضع في آخِر السوق يَصلُح لمصَلّى الناس فيه.

فلمّا كان بُكرةُ اليوم المذكور، رُتِّبت الأمور، وحضَرت الكافّةُ من الخاصِّ والجُمهور، ووصَل الواثقُ بالله إلى قِبلة الـمُصلَّى، وكان دخولُه إليها من باب مصنوع من الحَجَر بإزاءِ المحراب، فتقدَّم الخطيبُ أبو يحيى، وربّما لم تجْرِ عادتُه بذلك فيما سَلَف، فأدرَكَه

---

(١) الضبط من ق، ك.

(٢) في ق، ك، ب: «هسكورة».

الخَجَل، وكبَّر أولًا ثم قرأ الفاتحةَ وسُورةً من المفصَّل، ثم كبَّر بعدَ القيام ونقصَتْه تكبيرة، ولـمّا فرَغَ من التكبير نَسِي فاتحةَ الكتاب وابتدأ بقراءة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، فلمّا فَرَغ من الصّلاة خرَجَ من المحراب يَخطُب، فجلس إلى الأرض ثم قام فخَطَب فأدرَكَه أيضًا وَهْم، وحُقَّ له، فإنّ العيونَ إليه ناظرة والناسُ مُنصِتونَ سامعون، فنَسِي أيضًا اسمَ الخليفة الأوّل عبدَ المؤمن وابتدأ بالخليفة أبي يعقوب، وربّما جَرى في أثناءِ هذا كلامٌ الإضرابُ عنه أولى. ولـمّا كمُلتِ الخُطبة وعاد الخليفةُ الواثقُ بالله إلى مـحَلِّه ومقصدِه من القُبّةِ الحمراء، دخَل الناسُ بالتهنئةِ بالعيد السّعيد، ثم دخَل إلى أفراج، وأُحضِرت أنواعٌ من الأطعمة للعَرَب وزَناتةَ والفَرَحُ ظاهر والسرورُ باهر.

ورحَلَت المحَلّةُ في الثاني من شوّالٍ إلى منزل بني باداس، وهم إخوةُ الشقيِّ ابن يدر، وهذا الموضعُ على وادي السُّوس، وهُو على ستّة أميال من حِصن تيوينوين. واتّسع الناسُ بهذا الوادي وسُرُّوا بطِيب هوائه وكثرة مائه، والتفاف أشجارِه، واتّساع أقطارِه، وألفَى الناسُ به زرعًا كثيرًا.

وأقامتِ المحَلّةُ بهذا المنزل الفَسيح الأرجاء المعتدِل الهواء ثلاثةَ أيام، ومنه نفَذَت الظهائرُ لقبائل جُزولةَ وغيرِها، وذلك نحوَ أربعينَ ظهيرًا، ومنها لبعض قبائل هذا البسيط، وإن كان به من الأُمم والطوائف ما لا يُحصيهم إلّا خالقُهم. وتضمَّنت الظهائرُ الإعلامَ بالعَزْم على الإقامة بالبلادِ والاستيطان بها، واستئصالِ شَقِيِّها ابن يدر، وتأمين أرجائها وإعادة أحوالِـها إلى أحسن معهود.

وفي السادس من شوّال: نزَلَت المحَلّةُ على بني تيزغت وأقامت به يومَ السّبت لإحكام الرأي بما فيه النُّجح، وكانت طائفةٌ من الوافدينَ أشارت بقَصْد تورغت، فإنها ذاتُ زَرْع وبمقرُبة من العدوِّ، وطائفةٌ أخرى أشارت بقَصْد تيزغتَ، فإنّ أكثرَ زَرْع هذا البسيط قدِ ارتفَع إلى حِصن بها، فاجتَمع الرأيُ واقتضَى النظَرُ قَصْدَ تيزغت[1] للاحتواءِ على زَرْعِها والاستيلاءِ على جميع ما فيها، فخوطبَ مشتغلُ جنفيسة بقَطْع الماءِ عن أهل تيزغت وتسريبِه إلى الجهة التي يكونُ حلولُ المحَلّة بها.

---

(١) من هنا إلى قوله: «وتسريبه» سقط كلّه من ق، ك، ب.

وفي الثامن من شوّال: رحَلت المحَلّةُ إلى بني مقر، وهو نصفُ المسافة من بني تارغتَ إلى تيزغت، وكان مرورُها على تارودانت الشهيرة ذاتِ الخَيْرات الكثيرة، لكنها استَولَى عليها الخَرابُ منَ ابن يدرَ حتى صيَّرَها كالقَفْر دَرْسًا وعَفاءً، فإنه كان منها شَجيَّ الصّدر، ولم يبقَ بها إلّا جامعُ الخُطبة في قَصَبة الحصن المذكور، وأمّا ما هُو خارجٌ عن الحصن فإنّ الدِّيارَ باقيةٌ على حالها والمنازلُ لم يتغيَّرْ شيءٌ من أشكالِـها، وجميعُ ذلك من الرَّبَض معمورٌ آهِل[1]، لم يَـخْلُ شيءٌ من ذلك إلّا في أيام قريبةِ التاريخ قلائل، وعايَنَت الناسُ من هذا الخَراب والمعتمِر منظرًا عجيبًا، وشاهَدَت وضعًا حَفيلًا وبلدًا خَصيبًا، وذلك أنّ ساقيةً كبيرةً ارتفَعت من وادي السُّوس إلى تارودانت وعليها العِمارةُ والسُّكنى والرِّياضات، وكلُّ دار بإزائها رِياض، وفيها من الأشجار أنواع، واتّصل هذا المجموعُ بعضُه ببعض في بسيطٍ معتدِل الهواء فسيح الأرجاء، واسع الطُّرُقات كثيرِ الخَيْرات، قدِ احتَوت تلك الرِّياضاتُ على أشجارٍ اختَلَفت ألوانُها وحدائقَ ملتفّة أغصانُها، وماء في تلك الأنهار يَنسابُ كأنه الكوثر، وناهيكَ من وادٍ ينعقدُ من مائه السُّكّر، قد صَفَا زُلالًا، وزَهَت به هذه البلادُ جَمالًا. وحديثُ هذا الوادي في خِصبِه أكثرُ من أن يُحصى، فإنه كلُّه روضةٌ رائقة وبهجةٌ فائقة، ومن عجائبِه أنه يَجري من الشّرق إلى الغرب، وليس في الأنهار مَن يَجري هكذا سواه، فنزَلَت المحَلَّةُ على هذا الوادي الغريبِ شأنُه العجيبِ أمرُه، فألفَى الناسُ زَرْعًا وخيرًا، واتّسعت بذلك أحوالُهم، وتجدَّدت باستقبال المسَرّاتِ آمالُهم.

وفي التاسع من شوّال: رحَلت المحَلّةُ منه إلى حِصن تيزغت، وهذا الحصنُ كان لصُنْهاجة تيزغت المذكور، فتغلَّب عليه ابنُ يدرَ وأخرَج أهلَه منه وأقطَعَه رَبيبَه وابنَ عمِّه حَمْدين، فاحتَشَد كلُّ مَن يليه من القبائل السُّوسية وأهلُ طالعة الوادي، وكلُّ مَن جاوَرَه من البوادي، وهذا الحصن من الحصون الشّهيرةِ الاتّساع وكثرةِ الوعرِ في مسالكِه والارتفاع، وذلك أنه حصنٌ في جَبَل، وهو من ثلاثة وجوهِه لا يُرام، والوجهُ الرابعُ فسيح إلا أنه فيه شَعْراءُ كثيفةٌ وله ستارة، وله بابٌ يقابِلُ بابَ الحِصن، وفيه قَصَبةٌ مرتفعة، وفي أسفل السَّفح الفسيح في الشَّعراءِ المذكورة خندق، وفيه حَفيرٌ كبير، وعلى الحفيرِ

---

(١) سقطت من ق.

حائطٌ ممتنع، ودونَ هذا ثلاثةُ ديارٍ منتظِمة متّصلةٌ بعضُها ببعض، وعليها سورٌ بشرافاتٍ في بعضها ودون هذه الدِّيار حائطٌ كبيرٌ دائر من جَبَل إلى جبل يَخرُج المقاتِلونَ الشقيُّونَ وراءَ هذا الحائط الذي يَلي الحِصن وأظهروا فيه قوّتَهم وعُدّتَهم وشوكتَهم، فاقتَحَم عليهم اللَّمَطيُّونَ وأخرَجوهم عن ذلك كلِّه وقَتلوا منهم جُملة، فانجلَوْا عن الدِّيار وتَركوها وما فيها من ماشية وزَرْع وأثاث ولـجَأوا إلى الخندق والحَفيرِ الذي بإزائه والحائطِ الذي عليه، وكلُّ ذلك في أسفل سَفْح الجَبَل الذي عليه الحِصن، فاحتوى الناسُ على أكثرِ ما في[1] تلك الدّيار، فلمّا كان بعدَ صلاة العصر، وأوانُ ارتقابِ النّصر، جلسَ الخليفةُ الواثقُ بالله بالقُبّة الحمراء، وحضَر لدَيْه شيخُ العَرَب أبو سِرحان وزَناتةُ ووجوهُ الأجناد، وضُربت الطّبولُ إشعارًا بالقتال، فلمّا أخَذ الناسُ في اجتماعِهم وشَرعوا في بروزِهم واحتفالِـهم، ركِبَ الواثقُ بالله ورُفِعت أعلامُه واجتَمعتِ الناسُ عليه، وقصَد الحِصنَ المذكور، وطاف عليه من جميع نواحيه بجيوشِه وعساكرِه، واشتدّ القتالُ في هذا العَشِيّ على الأشقياء، وعايَنوا ما هالَهم وراعَهم، واستمرَّ الحالُ على مُضايقتِهم إلى آخِر النّهار.

وفي العاشر من شوال: تأهَّب الناسُ للمناضلة والمقاتلة، وركِبَ الخليفةُ الواثقُ بالله فرسَه القِرطاسيَّ الغازيَ وقوتِلت الأشقياءُ على الخَنْدَق، واستمرّ الحالُ على قتالِـهم إلى الظهر، ثم وصَل آخرَ النّهار عبدُ الله بن محمد الجنفيسيُّ في جَمْع كبير من إخوانِه، واستبشَرَ الناسُ بقُدومِهم عليهم.

وفي الحاديَ عشَرَ من شوّال: أحسَّ الناسُ بِفرار بعض الأشقياء فاحتَرسُوهم طولَ ليلتِهم ولم يُفْلِتْ أحدٌ منهم، وجلسَ الواثقُ بالله بُكْرةَ اليوم المذكور، ثم ركِبَ الفرسَ الغازيَ ورُفعت الرايةُ، وتوجَّه إلى جهة الحِصن على عادته، فقوتلَ أشدَّ قتال، واستمرَّ القتالُ إلى الظُّهر، ثُم عاد إلى معسكرِه.

وفي الثانيَ عشَرَ منه: شَرع أيضًا في الحركة إليهم والنزول عليهم، ورأى أن تكونَ رايتُه بإزاءِ الحِصن من جهةِ غَرْبه، ونزولَ لَـمْطةَ برحائلِهم من جهة شَرْقه، ونزولَ المحَلّة معَ العَرَب في قِبلتِه، فركِب الواثقُ بالله ورتَّب أجنادَه على هذه الهيئة، فرأى الأشقياءُ

---

(١) سقطت من ق.

من عَزَماته ما هالَهم وعايَنوا من الجنودِ ما راعَهم، واستمرّتِ الحالُ على هذا الترتيبِ من بُكرةٍ إلى نصف النهار، ولم يركَنْ فيها إلى راحة، بل يتردَّدُ إلى الموضع الواحدِ مرّات، وبعدَ المحاولةِ في ترتيبِ النزول على الحِصن عاد إلى معسكرِه، واشتدَّ القتلُ على الحِصن والحصار، ورأى أهلُه أنه لا نَجاةَ لهم ولا فِرار، ولا إقامةَ بجهةٍ ولا استقرار، وصاروا لأُسودِ هذه الجيوش ثعالب، ولقد كانوا يظُنُّون باغترارِهم أنهم لا مناضلَ لهم ولا مُغالب، فلمّا كان معَ الزّوال زال عنهم سُرادقُ الحياة، وأيقَنوا بالـهَلَكة ولا نَجاة، فوجَّه حَمْدينُ زعيمُ الأشقياء إلى أبي الحَسَن بن زجدار نَصيحِ الدّولة الواثقيّة في أنْ يتلافَى قضيّتَه، ويُظهِرَ له توبتَه، وأنه يَخرُج على عهد، ويخدُمُ خدمةَ نُصح وجَدّ، وأنّ ابنَ يدرَ يعودُ إلى الطاعةِ وجميعُ البلاد السُّوسيّة ومَن والاها من أصنافِ القبائل القِبْليّة، فلمّا وصَل أبو الحَسَن بن زجدار أوضَح عُذرَه، وبيَّن كلامَه إلى الواثق بالله وأمرَه، فكان جوابُه: تُقبلُ توبتُه وتُقضَى رغبتُه، بشَرْط التعجيل في هذا اليوم المذكور على البَدِيه، بالتخلّي عن الحِصن وجميع ما فيه، فلمّا عاد إليه بذلك أبو الحَسَن المذكور، كان وقتُ العصر، فقُضِيَتْ صَلاتُه.

وكان القتالُ على هذا الحِصن عامًّا من كلِّ جهة، ولقِيَ الأشقياءُ منهم أمرًا شديدًا لا يُطاق، وأيقَنوا بالحال التي أذِنَت لهم بالـمَحاق، فانهزَم الأشقياءُ من جهة لَـمْطة، واشتدَّ القتالُ من كلِّ حَوْمة، واقتَحم الناسُ عليهم الحَفِيرَ والخندَقَ من كلِّ مكان، وكانت الهزيمةُ الشَّنعاء، وركِبَ الواثقُ بالله فرسَه الغازيَ ولم يقتضِ الحَزْمُ عندَه انتظارَ ركوبِ وُزرائه وخُدّامِه، ثم إنه أرسَل عِنانَ فرسِه مارًّا كالبَرْق الخاطف، قاصدًا نحوَ رحائلِ زَناتةَ وليس معَه فارسٌ ولا راجِل، وبعدَ حين تَدارَكَه الوُزراءُ والقَرابةُ والأجنادُ والخُدّامُ وغيرُهم، وهو قد لحِقَ بموضع زَناتة يحُضُّهم على أخْذِ الجبل الذي فيه الحِصن واقتحام خندقِه، فلمّا ارتقَى أولياءُ الأمر الجبلَ من كلِّ جهاتِه توقَّدَ نارُ الحَربِ الشديد، وصَبَرَ الأشقياءُ صبرًا ما عليه مَزيد، والحربُ تَطايرُ شَرارُها، وتَترامى في ميدانها أبطالُ الفرسانِ وسَرارُها[1]، فلمّا دَنا اللّيلُ وامتدَّ سُرادقُه انكشَف الحالُ عن هزيمة الأشقياء، ولَـجَأوا إلى الحصن، وكانوا في خارجِه بأموالِـهم وأولادِهم وعيالِـهم، فمات منهم في

---

(١) أي: أوسطها وأفضلها، كما في معجمات اللغة.

ذلك الوقتِ ما لا يُحاطُ بالحصرِ والإحصاء، من رجالٍ ونساء، وأولادٍ وبهائم، واستَولَى الناسُ على جميع ما كان بخارجِه.

ولـمّا كمُل الفتح، وأضاء بأنوارِه الدُّجى وكأنه الصُّبح، وبَدَت مَخايِلُ النُّجح، رتَّب المقامُ الواثقُ بالله على الحِصن من كلِّ جِهاته الأجنادَ لاحتراسِه واحتراسِ جميع ما فيه، ولـمّا كمُل هذا الترتيبُ على الحصن المذكور، وظهَرَ النُّجحُ في الأمور، عاد الواثقُ بالله إلى مَضاربِه والسَّعدُ يُسايرُه والنّصرُ يؤازرُه، فهنَّأه بعضُ الناس وأخَذوا بيدِه عند باب أفراج، وتَرادفَتِ البُشرى والابتهاج، بالبلاد السُّوسيّة التي حصَلت في سلكِ الانتظام بأهلِ الطاعة، واستَولَى الناسُ على ستارة الحِصن في هذه الليلة وعلى كلِّ مَن كان فيها وما فيها، ثم على الحصن، والأصواتُ من جميع الطوائف ترتفع، وكلُّ جهة من جهة القوم لا تردُّ يدًا ولا تمتنع، والضّجيجُ قد علا حتى لقد صُمَّت منه الأُذُنان.

فلمّا رأى الشّقيُّ حَمْدين أنّ المنايا قد كشَّرت عن أنيابِها، وعايَنَ ما لا طاقةَ له به من تمكُّن أسبابِها، دخَل دَخيلًا على ابن زجدارَ وهو معَ جماعة من إخوانِه ونسائه، وأُخِذت في جُملة المأسورينَ أُختُ عليِّ بن يدر. فلمّا أشرقَ نورُ الفجر في الثالثَ عشَرَ لشوّال جلسَ الواثقُ بالله في أُسطُوان أفراج، واستدعَى وُزراءه في تدبيرِ الأمور وإحكامِها، والنظرِ في مصالح الجمهورِ والتئامِها، وأمَرَ بالكَتْب بهذا الفتح إلى الحضرة، وركِبَ إلى الحضرة والفتحُ تَروقُ عليه أنوارُه، والنّصرُ قد ظَهَرت آثارُه، ورُفِعت الرايةُ في أعلاهُ وكان مركَزُها في دارِه، وأخَذ من الحصن بطُول اللّيل ما لا يُحيطُ به حصرٌ ولا تقدير، وقُتل ممّن كان فيه عددٌ كثير، وأكثرُ ذخائرِ هذا الحِصن تصيَّرت للمَرينيِّين، وحصَل في أيديهم حَمْدين، فكان سببًا لِـما استحوَذوا عليه وانفرَدوا به، وطلَبَ أبو الحَسَن بنُ زجدار بإحضار حَمْدين المأسورِ عندَه، فتأكَّدت رغبتُه في تتميم ما كان بدا من أمره من الفداء، فقد كان ارتَهن في أداءِ سبعينَ ألفَ دينار، فاقتضَى نظرُه أنْ أبقاه بيد أبي الحَسَن بن زجدار معتقَلًا مصفَّدًا في الحديدِ الثقيل، ورتَّب عليه ثقاةً من عَبيد المخزَن معَ حافظٍ من الموحِّدين، وأُخِذت أُختُ عليِّ بن يدر معتقَلةً مأسورة، وأُلفِي في الحِصن جماعةٌ من عَبِيده قُتلوا صبرًا، وعيَّن للإقامة في الحِصن أحدَ القَرابة لحياطته.

ورحَلت المحَلّةُ ضُحى يوم السّبت الرابعَ عشَرَ لشوّال، واستقرَّت في المنزل الأوّل.

وفي الخامسَ عشَرَ منه: كُتِبت الكُتُبُ بهذا الفتح إلى البلاد، وبهلاكِ أهل الضّلال والعناد، وفيه صَدَرت مخاطبةٌ لأبي سِرحان بن كانون والتوكيد عليه في حِراسة البلاد من فساد العَرَب.

وفي عاشرِ شوّال: وَدَّع أشياخُ الساقية الحمراءِ والوافدونَ من بني واوزجيتَ وغيرُهم وانصَرفوا بحِفاظِهم إلى بلادِهم.

وفي الحادي والعشرينَ: رحَلت المحَلّةُ من المنزل المتقدِّم ذكرُه إلى بني داودَ على وادي السُّوس.

وفيه: ورَدَ الخبرُ بوصُول أبي زكريّا بن وانُودين معَ الوفدِ الكبيرِ من بني واوزجيت، ورغِبَ في لقاءِ الوافِدين والاعتناءِ بهم لوفودِهم وقوّتِهم وكثرة أعدادِهم ومُثابرتِهم لعليٍّ بن يدر ونَيْلهم منه، فأقامتِ المحَلّةُ بهذا المنزل الثانيَ والعشرين منه، وخَرج للقائه كلُّ فريق من أنصارِ الدّعوة الواثقية. ووصَل الوافدونَ بجُملة من الأعلام الكبيرة والعُدَد الوافرة الكثيرة، ولقد كان في هذه العلامات ما زاد على ثلاثينَ ذاتِ ألوانٍ وصنائعَ مختلفة، ولا يرتابُ أنها من الذّخائر القديمة التي كانت بدارِ الموحِّدينَ فيما مضَى من السِّنين، ولـمّا قضَوْا فرضَ الاستسلام والسلام ورأَوا البقيّةَ التي سَمَحت لهم بها الأيام، انصَرفوا إلى منازلهم.

وفي الثالث والعشرينَ منه: نزَلت المحَلّةُ بمقرُبة من تارودانت، وركِبَ الواثقُ بالله إلى حِصن تارودانتَ الذي كان قاعدةَ البلاد السُّوسيّة ودارَ الوُلاة ومستقرَّ أمرِهم ومَأْوى كلِّ غريبٍ من التُّجار وغيرِهم.

ولـمّا كان انتزاءُ الشقيِّ ابن يدرَ إلى الفتنة لم يكنْ أهمَّ أمورِه إلا تخريبُ هذا الحصن؛ لأنه كان محلًّا لاستقرارِ الأجناد، ومنه كان استيلاءُ الوُلاة على تلك البلاد، فلمّا عصَفَت ريحُ ابن يدرَ في نِفاقه وشِقاقِه، لم يكنْ أملُه إلا هَدْمَ هذا الحصن الذي اتّخذه خلفاءُ الموحِّدين معقِلًا ومـحَلّا لوُلاتِهم ومنزِلًا، فأباد آثارَه، وزَلْزلَ قواعدَه وأزال أسوارَه واستأصَل جميعَه وهدَم ديارَه، ولم يتعرَّضْ إلى شيء مما جاوَرَه من الدِّيار والإملاك التي بخارجِه، فإنّها كانت مساكنَ الرّعية، وكلُّ من كان بهذه البلاد يُكابِرُه ويُعانِدُه لم يُبقِ له اسمًا، ولا لديارِه وأملاكِه رَسْمًا.

ولقد بُني هذا الحِصنُ مرّات، ووجِّه إليه الصُّنّاعُ من الحضرة، وعُمِلت عليه أبوابُ الحديد التي كانت بباب السَّرّاجِين من داخل مَرّاكُش، فمتى خَلا من الأجناد انتهَزَ ابنُ يدرَ الفُرصةَ إليه وحشَد القبائلَ عليه، حتى صار طَلَلًا دارِسًا، فطاف به الواثقُ بالله وبجميع جهاتِه كلِّها وساحاتِه، ووقَع التفاوُض في إعادتِه، والشروع في تجديدِ رسمِه وإقامتِه، ولو ساعَدَه الزّمان، لَوقعَ التدبيرُ في هذا الشان.

وفي السابع والعشرينَ من شوّال: بعَثَ الواثقُ بالله إلى مَرّاكُش عما يَحتاجُ إليه من آلة الحَرْب الذي لم يزَلْ عزمُه عليه قائمًا، وكان عَزْمُ مَن تقدَّمه عنه نائمًا.

وفي غُرّة ذي القَعْدة: رحَلت المحَلّةُ إلى حصن تيوينوينَ الظالم أهلُه، المتأصِّلُ على النِّفاق وضعُه، فلمّا انتهى الواثقُ إليه رَتَّب الجيوشَ عليه، وأهلُه مصِرُّونَ على النِّفاق مُعلِنونَ بالشِّقاق، قد أخَذوا أُهبتَهم وأعَدُّوا عُدّتَهم، وأظهَروا التعرُّضَ للقتال، وأبدَوْا صفحةَ المجاهرة بالعصيان، فاشتَغل الناسُ عن قتالِهم بطلب الماء وهو على ثمانية أميال، وبعدَ ذلك اشتَغلوا بحَفْر الآبار، وظَهَرت العيونُ بكلِّ مكان.

وفي الثاني منه: قوتلَ أهلُ الحصن قتالًا شديدًا من كلِّ جهة، وهو من الحصونِ المرتفعة المنيعة، وأصبح الأشقياءُ لـهَدْم ما يلي السُّور من هذا العريض توقِّيًا من الصعود عليهم منه.

وهذا الحصنُ شأنُه شهير، وأهلُه أُولو قوّة وأُولو بأسٍ شديد، فكم أعيَا الوُلاةَ داؤه، وأعوَزَ بهذا الطلب جُهدَ الإمكان دواؤه، وقد كان به من الخَلْق كثيرٌ من جميع البلدان، واجتَمع به كلُّ ثائر وسارق ومُتَمادٍ في الطُّغيان.

وقد كان حَمْدين المعتقَلُ تكلَّم مع بعض الناظِرينَ عليه من حراسة بأنه يستميلُ نفوسَ هؤلاءِ الأشقياء إلى الطاعة، وقَدَّر أنّ له أمرًا يَستبصِرونَ به ويرجِعونَ إليه، فأجابوه بالردِّ والطَّرِدِ والبُعد، إلا أنه وصَله عن شخص بعدَه أنه يجتمعُ معَ إخوانه ويُرادِدُهم، فعاد حمدينُ إلى حبسِه واعتقالِه.

وشاع الخبرُ في هذا اليوم بوصول عليِّ بن يدرَ إلى جهة المحَلّة، فركِبَ مسعودُ بن كانون معَ إخوانِه وأبو الحَسَن بن زجدارَ كذلك، وطلَبوا أثَرَ الأشقياء، وانقَضّوا عليهم كالعُقبانِ من جوِّ السماء.

وفي الثالث من ذي القَعْدة: وصَل كتابٌ من مَرّاكُش من قِبَل واليها السيِّد أبي زيد بجوابِ فتح، ووصَل معَه كتابُ أبي الحَسَن عليِّ بن أبي عليّ الخُلْطيِّ وبيعتُه للمقام الواثقيِّ الـمُعتمِديِّ ودخولُه في طاعته، فعَظُمتِ المسَرّة باجتماع الكلمة، وشَمِلت النُّعمى لأهل المحَلّة، وبقيَ الحِصنُ المذكور على حالِه من النِّفاق والاستعصاء، وشَرع الواثقُ في عمَل الـمَنْجَنيقات برَسْم الأشقياء.

وفي الخامس من شهر ذي القَعْدة: بعَثَ الواثقُ عن شيخ العَرَب ووجوهِهم، وعن أبي الحَسَن بن زجدارَ ووجوه مَن كان معَه من زَناتةَ ولَـمْطة وبني واوزجيت وغيرِهم، وأخَذ معَهم في التدبير في فَتْح الحِصن، وجلسَ الواثقُ بالله بالقُبّة الحمراء، وجلسَ الناسُ على أصنافِهم وطبقاتِهم، فلمّا استقرَّ بالناس مستقَرُّهم، قُرئ الكتابُ المتضمِّن بيعةَ أبي الحَسَن الخُلْطيّ وضُرِبت الطُّبولُ على ذلك.

وفي التاسع من شهر ذي قَعْدة: توجَّه الوافِدونَ ببيعة أبي الحَسَن المذكور وإخوانِه الخُلْط، وتوجَّه معهم أبو فارس بن الـمُعزّ الكفيفُ، إذ كان المقرَّب عندَ الواثق لفصاحتِه، فبعَثَه إليه برَسْم الاجتماع به وبجماعتِه.

وفي الثالث عشَرَ منه: تأهَّب الناسُ لقتال الأشقياء بما يجبُ من أُهبتِهم، ورَكِب الواثقُ بالله ورُفِعت الراية ورُمي حَجَرُ المنجَنيق، فجاء إلى الحِصن على تقديرٍ وتحقيق، وأهلُ الحصن على ضَلالِـهم لا يَرْعَوونَ ولا يَزدجِرون، كما قال الشاعر [من الوافر]:

لقــد نُــودوا فــما سَــمِعوا المنـادي	ولا أصـــغَوْا إلى داعـــي الرَّشـــادِ
وجــاءت نحــوَهم مــن كــلِّ أَوْبٍ	جيــوشٌ مــا تــمَلُّ مــن الطِّــرادِ
ولكـــنّ الـــضَّلال بهـــمْ تمـــادى	فلَجُّـــوا في العتـــوِّ وفي العنـــادِ

وفي شهر ذي حجّةٍ: حُفِرت مطمورةٌ لـمَبيت حَمْدين؛ لأنّ الخبرَ شاعَ أنّ أشياعَ عليِّ بن يدرَ عزَموا على انتهازِ الفُرصة في استنقاذِه ليلًا، وقد كان في كلِّ ليلة يَبيتُ في آلة من خشَب مسمَّرة على عُنقه وإحدى يدَيْه، مُضْجَعًا على جَنْب واحد إلى الصُّبح، زيادةً على تصفيدِه بالحديد الثقيل، وتبِيتُ عليه رجالٌ يحرُسونَه، فكان ذلك الخبرُ زيادةً في امتحانِه، نعوذُ بالله تعالى.

وفي عيد الأضحى: صَلّى بالناس أبو الحَسَن ابنُ قَطْرال، ثم خَطَب خُطبةً من إنشاءِ البديع بَهَرَ بسماعِها الألباب، وأتى من الفصاحة والبلاغة بالعَجَبِ العُجاب.

وفي الحادي والعشرين: وصَلت أرسالُ ابن يدرَ خاضعينَ قد غَلَب عليهم الاستيحاء، ورَغِبوا في إقالتهم والتجاوز عن شهوتهم، ونما خبرُهم إلى الواثق بالله فاستحضرهم وعتبهم، فوعدوا ببيعة ابن يدرَ وطاعته، وأنهم يعودونَ بذلك ويرجِعونَ إلى الحَقِّ والتمسُّك بدعوة التوحيد، فصُرفوا إلى صاحبِهم بما ذَكَروا من رغبتهم.

وفي التاسع والعشرينَ منه: وفَد على الواثق بالله خَلْقٌ كثيرٌ من المعقِل بأموالِـهم وعِيالِـهم، وخَرج أكثرُ العسكرِ للقائهم صُحبةَ الوزير أبي موسى، فلقِيَهم وقد رَتَّبوا مصافَّهم وقدَّموا فُرسانَهم بعلامات، ووراءَهم هوادجُ حسَّنوها بأنواع الثِّياب، ونساؤهم قد برَزْنَ فيها ظاهراتٍ غيرَ محتجِبات.

وفي أثناءِ توجُّه السيِّد أبي موسى لهذا اللقاء جلسَ الواثقُ بالله بالقُبّة الحمراء، إلى أن جاء الوافدونَ يَقدُمُهم في الصَّدرِ الأول منهم شيخُهم عبدُ المؤمن بنُ أبي الطيِّب، والسنُّ قد أزالَت رونقَه، وأطلَعَت كالصّباح مَفرِقَه، ولكنّه متجلِّد صَبُور، حنَّكته التجارِبُ في الدّهور. وتَلقَّاه الواثقُ بما سَرَّه وآنَسه، وبَسَط خاطرَه ونفسَه، وأعاد بعدَ الذهابِ حسَّه، ونزَّله في أقرب المواضع وأحظاها، وأشرفِ المنازل وأسناها، ثم استَدنَى الوافدينَ ووصَلوا بعلاماتهم وعددُها سبعةٌ من الحريرِ المختلفِ الألوان برشوم من ذهب، فقَضَوْا آمالَهم من السلام، وانصَرفوا إلى منازلهم في غاية الإكرام، وأخرَجَ المعتقَلينَ منَ اعتقالهم، وعايَنَهم إخوانُهم، ثم رُدُّوا إلى محبِسِهم ووُعدوا بتسريحِهم عندَ انفصال الصُّلحاءِ الذين تَطوَّقوا أمانةَ البيعة في أعناقِهم، وضُرِبت الطّبولُ إشعارًا بالإقبال عليهم، وأجزَلَ الإحسانَ إليهم، فعَمَّت الـمَسرّاتُ النفوسَ جميعًا، ومما قيل في ذلك [من البسيط]:

أهـلًا وسـهلًا وحيّـا اللهُ مَـن وفَـدا ... قومًـا أرادت بهـم أيـامُهمْ رُشُـدا

كـانوا كموسـى أتَـى نـارًا ليقبِسَها ... بأهلِـه فأصـاب النـارَ نـورُ هُـدى

شَدّوا الـمَطِيَّ وأَمّـوا طـائعينَ وقـد ... نالوا من الصَّفح أقصى غايةٍ ومـدى

وفي هذه السنة، وهي سنةُ خمس وستينَ وست مئة: صالَحَ الأميرُ أبو عبد الله ابنُ الأحمر ملكَ النَّصرانية أذْفُونْشَ على يدِ ولدِه الأمير أبي عبد الله، وقيل: إنّ الصُّلحَ انعقَد بينَهما على نحو أربعينَ مُسوَّرًا من بلاد المسلمين أعادها الله للإسلام، وقيل: إنّ أكثرَها بغَرْب الأندَلس، ومن جُملة تلك البلاد: مدينةُ شَرِيش والمدينةُ والقَلْعة وبَجِيرّا وغيرُ ذلك.

قال المؤلِّف سَمَح اللهُ له: أخبرني مَن أثقُ به من بني مَسْلَمةَ أنّ الفقيهَ أبا القاسم العزَفيَّ قال له عندَ خروجِه من شَرِيش أنّ جُملةَ ما أعطى ابنُ الأحمر للفُنْش من المُدن والحصون المسوَّرة بما احتَوت عليه من الأقاليم الواسعة، والأرجاءِ الفسيحةِ اليانعة، مئةٌ وخمسة، صحَّح ذلك عندي العزَفيُّ رحمه الله. وقيل: إنّ أكثرَها كان في شَرْق الأندَلس، وفي غربِها كان الأقل، أحَدُهم بلدُكم شَرِيش، وهذا شيءٌ تَعافُه القلوبُ والأسماع، وتضطربُ لفظاعتِه الأصقاع.

وقد رَثَى الأندَلُسَ كثيرٌ من الأدباء، فمن ذلك قولُ صالح بن شَرِيف من قصيدة[1] [من البسيط]:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ ... فلا يُغَرَّ بطيبِ العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما تدري لها دُوَلٌ ... من سرَّه زمنٌ ساءَتْه أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يَدومُ على حال لها شانُ
يمزِّق الدّهرُ حتمًا كلَّ سابغةٍ ... إذا نَبَت مَشْرَفيّاتٌ وخُرصانُ[2]
ويُنتضَى كلُّ سيف للفناءِ ولو ... كان ابنَ ذي يَزَنٍ والغمدَ غِمدانُ
أين الملوكُ ذوو التِّيجان من يمَنٍ ... وأين منهمْ أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شاده شدّادُ في إرمٍ ... وأين ما ساسَه في المُلك ساسانُ
فخلَّفوا عِبَرًا وأصبحوا خبرًا ... كما حَكى عن خيالِ الطَّرفِ وَسْنانُ

---

(١) شبه الجملة سقط من ق.

(٢) سقط هذا البيت من ق، ك، ب.

فجـــائعُ الـــدّهر أنـــواعٌ منوَّعـــةٌ ... وبعضُها فـوق بعـض وهْـي أشـجانُ
دَهَـى الجزيـرةَ خطـبٌ لا عـزاءَ لـهُ ... هـــوى لـــه أُحُـــدٌ وانــــهَدَّ ثهـــلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتُحنت ... حتـى خَلَـت منـه أقطـارٌ وبلـدانُ
فـسَلْ بَلَنْـسِيَةً مـا شـأنُ مُرْسِـيَةٍ ... وأيـــن قُرطبـــةٌ وأيـــن جَيّـــانُ
وأين حمصٌ ومـا تـحويه مـن نُـزَهٍ ... ونهرُهـا العَـذْبُ فيّـاضٌ ومـلآنُ[1]
قواعـدٌ كـنّ أركـانَ الـبلادِ ومـا ... عـسى البقـاءُ إذا لم تبـقَ أركـانُ
تَبكي الحنيفيّةَ البيـضاءُ مـن أسَـفٍ ... كـما بَـكَت لرسُـول الله أجفـانُ
علـى بيـوت مـن الإسـلام عاطلـةٍ ... كأنّهـا لم تكـنْ بالـذِّكر تـزدانُ
صارت كنائسَ قد صال الضَّلالُ بهـا ... فلـيس إلا نـواقيسٌ وصُـلبانُ

وفي الثامن والعشرين لمحرَّم: ركبَ الواثقُ بالله فرسَه القِرطاسيَّ وقد تأهَّب الناسُ للبروز وخَرجوا للقائه من الحضرة بالطُّبول، وتوجَّه إليه العَرَبُ من كلِّ مكان، فلِقيَهم بأحسنِ القَبول، وكَسَا جَمَلَ المصحف الكريم بما جَرت به العادةُ من الزِّينة الزَّيناء، ورُفعت الأعلامُ الصِّغار معَ جوانبِ الغشاءِ المحتوى عليه، وجُعلت قلائدُ من فضّة في عُنقِه قد أُعِدّت له، والبغلُ أيضًا كُسِيَ كذلك، وجُعل عليه من الزِّينة مثلُ ذلك، وتزَيَّا العَبيدُ الذين يخدُمونَ الجمَل والبَغْل بالثِّياب البِيض. وغُسِلت لهم أكمامُ الأوصال فحَبَسوها وتقَدَّموا بها أمامَه، فكانوا في غايةِ الجمال والاحتفال، وأولادُ الواثق بالله معَ حاشيتِهم وقَرابتِهم يَتْلونَه، والوُزراءُ وراءَهم في الساقة الكبرى التي فيها الأعلامُ السبعة الخِلافيّة وعلاماتُ قبائل الموحِّدين على العادة المعتادة، وكذلك سائرُ العلامات، وترتّب المشيُ على هذا الوضع المذكور، وكان التوجُّه إلى مَرّاكُش حرَسَها اللهُ تعالى على طريق القِبلة. وخَرج أهلُ مَرّاكُش لهذا البروز رجالًا ونساء، ولم يبقَ بها فارسٌ ولا راجِل إلّا خَرج. وكان لقاءُ السيِّد أبي زَيْد بالقَرابة والطلَبة وأهل الخِدمة ببابِ الكحول، وكان هذا

---

(١) هذا البيت تأخر في ق، ك، ب بعد بيتين.

اليومُ في هذه الدولة الواثِقيّة من أعظم الأيام احتفالًا وأحسَنِها جمالًا، والناسُ يُقبِلونَ بعضُهم على بعض، وكلٌّ يُصافحُ صِنفَه ويُهنِّيه بهذا القدوم السّعيد والإيابِ الحميد.

ولـمّا دخَل الواثقُ بالله مدينةَ مَرّاكُش، قصَدَ إلى الجامع تيمُّنًا به، وشكرًا لله تعالى على جميل مَواهبِه، وتجدَّد له الدّعاءُ بذلك، ورَكِب من باب الجامع إلى باب رياضِ الحِزب، ووقَف هنالك فهنّأه الحاضِرونَ ولثَموا يُمْنَاه، ودخَل إلى قصرِه وقد قَرَّت عيناه بما كان يتَمنّاه.

وكمُلت هذه الحركةُ السُّوسيّةُ التي كانت إثْرَ حركتِه الـهَسْكوريّة، ولم يكنْ فيهما معًا من كبيرِ معنًى يُذكَر، وإن كان فضلُه لا يُنكَر، غيرَ بعضِ التسكين والتّهدين، والقَبْض على الشقيِّ ابن حَمْدين.

وأمّا ابنُ جلداسنَ مسعودٌ فامتنَع في جبلِه، ونقَضَ العهود، وقطَع الـمُواصَلة، وما كان تقدَّم له منَ الـمُجاملة. وذُكر عنه أنه قال في جملةِ كلامِه، وسببِ مقاطعتِه ومَلامِه: كما نقَضَ الواثقُ لمِلك المغربِ عهدَه ولم يُنجزْ له وعدَه، فكيف أنا الذي قد رأى فيَّ عبدَه؟ وكان في ذلك، على ما قيل، كلامٌ له في هذا المعنى طويل، أضربتُ عنه خِيفةَ التطويل. وقيل: إنّ الواثقَ بالله كان بينَه وبينَ المقام اليُوسفيِّ عهودٌ مؤكَّدة، وأيمانٌ مردَّدة، فلم يفِ له إلّا بالبعض، وآثَرَ على الإبرام النَّقْض. فكانت بينَهما أنكاد، ودارَ بينَهما حربٌ وجِلاد، على ما يأتي.

ولبعض الطّلبة في الواثق بالله إثرَ حركتِه جُملةُ أشعارٍ بالتهنئة على تلك الحركة رَفَعوها إليه، فقُرئت بجُملتِها عليه، فأحسَنَ إليهم وأنعَمَ عليهم، ورَفَع له بعضُ خُدّامِه وهو بالسُّوس أبياتًا، وهي [من الكامل]:

قالـت لنـا الأيـامُ بعـدَ صُموتِـها	مَن ذا الـذي يَـرضى العُـلى والمنهَلا
يَحمي الـوَرى ويـذودُ عـن حُرُماتِـهِ	يَروي سيوفَ الهند مِـن بَـرْي الطُّـلا
مَـن همُّـه قـرْعُ العِـدا وصـلاحُ مـا	قـد كـان عـن نَـهْج السّدادِ تَحـوَّلا
مـن لا يَـرى يـصبو إلى دُنيـا ومـا	يَرنـو لزهرتِـها إذا مـا تُـجتلى
قُلنـا لهـا ذاك الإمـامُ الواثـقُ الـ	ـهادي أمـيرُ المـؤمنينَ أبـو العُـلى

ولـمّا استقرَّ الواثقُ بالله بحضرتِه الـمَرّاكُشيّة بعدَ حركتِه السُّوسيّة، بلَغَه الخبرُ أنّ أبا يوسُف توجَّه بعساكرِه لمحاربة يَغمراسَن، فبقيَ رسُولُه بمَرّاكُش حتى عاد أبو يوسُف إلى مدينة فاس. وبعَث الواثقُ هديّةً حفيلةً إلى أمير تِلِمْسان يَغمَراسَن بن زَيّان، فتوجَّه الفقيهُ أبو الحَسَن بنُ قَطْرالَ ببعضِها في البَرّ، وتوجَّه أبو عبد الله البكريُّ بأثقالِـها في البحر، دخَل من آسَفي وخَرج في هنين، وأخَذ أبو الحَسَن بن قَطْرال على طريق سِجِلماسَةَ معَ رسُول يَغْمَراسَن، وهو ابنُ أبي عثمان، معَ ابنِ أبي مديونٍ الونجاسنيّ. فوصَلوا إلى سِجِلْماسة، فوجَدوا بها عثمانَ بنَ يَغْمَراسَن، فبعَثَهم معَ بعض أشياخ المعقِل فوصَلوهم إلى تِلِمْسان، فوجَدوا بها أبا عامر بنَ يَغْمَراسَن، وأبوه قد توجَّه إلى جهة مِلْيانَةَ وغيرِها، وبها وصَلَه رَقّاصُ ابنِ قَطْرال بكَتْبِ أبي دَبّوس وبها وصَلَه من عندِه من هديّة، [فوصَلَه جوابُه لأبيه يأمُرُه][1] بإجراءِ كرامةِ أبي الحَسَن [وضيافتِه حتى تنقضيَ حركتُه من تلك البلاد][2] الشَّرقيّة ويعودَ إلى البلاد الغربيّة ليشغلَ بني مَرِين عن التوجُّه لجهة البلاد الـمَرّاكُشيّة. فبقيَ أبو الحَسَن ابنُ قَطْرال تحت كرامة يَغْمَراسَن مدةً من عام كامل وأشهُرٍ يعِدُه وعدًا بعدَ وَعْد، وهُو مع ذلك ييسِّرُ له خيولًا وغيرَ ذلك برَسْم الهديّة لأبي دَبّوس، وبنو مَرِين في أثناءِ ذلك قد توجَّهوا لحصارِ مَرّاكُش، وحَفُّوا بها، فخَرج إليهم الواثقُ بالله بجيوشِه، فكانت مُحارباتٌ ومقاتلاتٌ ومُواقفاتٌ ومُقابَلات أجْلَتْ عن هزيمة الواثق بالله وقتلِه، فبلَغهم بتِلِمْسانَ أنه قد مات مقتولًا، وتفرَّقت جيوشُه وعساكرُه، وانقَرضَت دولتُه، وانقَطَعت أوامرُه. فرجَع أبو الحَسَن ابنُ قَطْرال على طريق سِجِلْماسة، ومات في جهة بلاد دَرْعة رحمه اللهُ تعالى.

ولـمّا ظهَر للفقيه القاضي أبي إسحاقَ ابن القَشّاش اختلالُ الأمور والأحوال، وكثُرت فيه وفي غيرِه من بعض الناس الأقوال، رَفَع هذا الرَّفعَ للواثق بالله، فوقَّعَ له التوقيعَ بما أكتبُه بعدُ إن شاء اللهُ تعالى، نقلتُه من خطِّ وَلَدِه أبي عبد الله، والتوقيعُ عليه بخط أبي دَبّوس وهو: رضيَ اللهُ تعالى عن المقام الإماميِّ الواثقيِّ المعتمِديِّ، المؤيَّد المظفَّر

(١) ما بين الحاصرتين بياض في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

(٢) كذلك.

الأسعدِ المبارك، وأطال للمسلمينَ أيامَه، ونصَرَ ألوِيتَه الكريمةَ وأعلامَه. عبدُ نعمتِه ومملوكُ مِنّتِه إبراهيمُ بن أحمدَ الأَوْسيُّ يُسلِّمُ على المقام الإماميِّ أيّده اللهُ تعالى ويقبِّلُ اليدَيْن الكريمتَيْن المباركتَيْن، ويهنِّئُ العبدُ مولاه أعزّ اللهُ مقامَه بما سَنَاهُ له من البشائر المتناسقة، والفتوح المتلاحقة، والحمدُ لله، وهُو سبحانَه المسؤولُ أن يَشفَعَ هذا الصُّنعَ الجميلَ بأمثالِه، ويوزِعَ العامّةَ الشّكرَ على إنعامِه بذلك وإفضالِه.

ويعرِّفُ العبدُ مولاه أنه لم يزَلْ محبًّا في هذه الدّولة السعيدة من أول بَدْئها إلى حين كمالِـها وانتهائها، راغبًا إلى الله تعالى في تتميم أمرِها وموالاة نَصْرِها. فله الحمدُ سبحانَه على أنْ رحِمَ المسلمينَ بدولتِه السّعيدة، وأمْنَنَ عليهم بأيامِه الصّالحة السَّديدة. وإنّ المقامَ الإماميَّ الواثقيَّ صدَرَ عنه في أولِ الفتح المبارَك مِن تقديم العبد للنظَر في الخُطّة الشَّرعية والاعتناءِ بمعالم الدِّين ما تكفَّل به اللهُ تعالى لمقامِه المؤيَّد [عظيم][1] الأجر وجَزيل الذُّخر، فشَكر العبدُ اللهَ تعالى والمقامَ الكريم على هذه الالتفاتةِ الكريمة، وشَرَع في النظَر في هاتِه الخُطّة بعدَ أنْ أتَتْه عفوًا دونَ أن يتقدَّمَ له فيها رغبةٌ ولا طلب، واستخار العبدُ اللهَ وتوكَّل عليه... [2] والمسلمينَ نُصحًا واجتهادًا بمبلَغ قُدرتِه إلى أنْ بَلَغَت العبدَ عن بعض [الذين كانوا][3] في الـمُدَد السالفة خامِلينَ مهتضَمِين أمورٌ وأقاويلُ غيَّرت نفْسَ العبد وكدَّرت خاطرَه، [فتحمَّل العبدُ][4] ما بَلَغه عنهم وطَواه ولم يلتفتْ إليه، فلم يَزالوا بعدَ هذا مستمرِّينَ على عادتِهم طاعنينَ [في الخُطّة][5] متعرِّضينَ بالأقاويل حتى ضاقَ بهم ذَرْعُ العبد، وصاروا بحيث يتفقَّهونَ في الأحكام والنّوازل، وينظُرونَ في العقود التي بها تُقطَعُ الحقوقُ في مجالس الخِصام ويقدَحونَ فيها. فوجَبَ على العبد إنهاءُ هذا كلِّه إلى المقام الإماميِّ أيَّده اللهُ ونَصَرَه، والرغبةُ إلى الله تعالى وإليه في أن يكُفَّ

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في النسخ كافة، وما أثبتناه لعله هو الموافق للسياق.

(٢) فراغ قدر كلمتين.

(٣) فراغ في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

(٤) كذلك.

(٥) كذلك.

هؤلاءِ القوم ويدفَعَ ضررَ ألسنتِهم حتى يَعلَمَ جميعُهم أنّ للخُطة مَن يقيمُ رَوْنقَها ويعضُدُ المشتغلَ بها، أو الإنعامِ على العبد بصَرْفِه عنها وتأخيرِه [وإعفائه منها][1]، ففي ذلكُم لعِلَل العبد وأدوائه أكبرُ شفاء، إذْ فيها تكلَّموا به أمرٌ كبير وخَطْبٌ شنيع.

[ولو صَدَر شيءٌ من هذا يا سيِّدَنا عمّن له تخصُّصٌ بالفقه أو أدنى مُلابَسةٍ][2] للعلم لَسكتَ العبدُ عنه واحتَسَبه لله تعالى، [ولكنْ حرَّكَ العبدَ أنّ ذلك صَدَر عن قوم جَهَلةٍ أحداثٍ لم يَشُمُّوا قطُّ][3] رائحةَ العلم، فكيف أن يتعرَّضوا [للأحكام][4] التي هي ثمرةُ الفقه؟

وقد بَلَغ العبدُ من سنِّه نيِّفًا وثمانينَ سنة، والرغبةُ من المقام الواثقيِّ أن يأمُرَ العبدَ بأحدِ شيئَيْن: إمّا بصَرْفِه وإراحتِه بالإعفاء، وإمّا بنَصْرِه وشدِّ أزْرِه. وفي كريم علم [المقام][5] الكريم. إنّ الخليفةَ بوجوده يكونُ نظامُ العالَـم، والقاضي نائبٌ عنه في أهمِّ أمورِه، فإنْ لم يكن منهُ [نظَرٌ][6] وتطلُّع لأمورِه تعرَّض إليه مَن لا خَلاقَ له بمثل ما تعرَّض للعبد. ولـمَولانا رضيَ اللهُ عنه الفضلُ الأتمّ في النظَر فيما شَرَح له عبدُه، وقَطْع هذه العِلَل وحَسْم هذه الأدواءِ بما يقتضيه نظَرُه المبارَكُ العليُّ أيَّده الله. والعبدُ منتظِرٌ لتوقيع كريم بما يعتمدُ عليه بحَوْل الله تعالى. وهو سبحانَه يُديمُ علاءه، وينصُرُ لواءه، والسلامُ الأَتمُّ المبارَكُ العميم، يَخُصُّ المقامَ الكريم، ورحمةُ الله وبركاته.

فوقّع له بهذا التوقيع:

هذه جُرأةٌ كبيرةٌ علينا، واحتقارٌ مُفرِطٌ لجانبِنا، والكلامُ في هذه الخُطّة وفيمَن اختيرَ لها ليس بهيِّن، ولا يقَعُ فيه إلا مختلُّ العقل غالِطٌ في نفسِه وفينا، جاهلٌ قدرَه، متعدٍّ

---

(١) كذلك.

(٢) كذلك.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

(٥) فراغ في النسخ كافة، ولعل ما أثبتناه هو المقصود.

(٦) كذلك.

طورَه، والخُطّة أكبرُ من أن يَسلُك فيها أولو العلم والعقل هذا المسلكَ الصَّعب، فكيف بمَن سواهم؟! فيُبحَثُ عن المتكلِّم بهذا ويُعرِّفُ بهم فننظُرُ في قضيتِهم بما يظهرُ لنا إن شاء اللهُ تعالى.

ولـمّا قُتل أبو دَبّوس كما تقدَّم، تفرَّقت أجنادُه، فلم يصِلْ أحدٌ من الموحِّدين ولا من رجالِـهم إلى مدينة مَرّاكُش إلّا مَن وصَل إليها منهم... [1] ذلك. فلمّا وصَل إلى مَرّاكُش بعضُ أشياخ الموحِّدين ومَن وجَد السّبيلَ للوصُول إليها من المتجنِّدين، قدَّموا أميرًا على أنفسِهم أبا محمد عبدَ الواحد ابنَ أميرِهم أبي دَبّوس، وسمَّوه المعتصمَ بالله، وقَرَعوا الطّبولَ على مبايعتِه مدةً من خمسة أيام، وذلك إشغالًا للناس بخلالِ ما يدبِّرونَ لأنفسِهم في النّجاة برؤوسِهم.

وكان مقتَلُ أبي دَبّوس يومَ الأحد الثاني لمحرَّم مفتتَح عام ثمانية وستين وست مئة، ووجَّه أميرُ المسلمين أبو يوسُف وزيرَه أبا زكريّا بنَ حازم معَ بعض الفُرسان ليتشوَّفَ أخبارَ أهل مَرّاكُش... [2] بوادي تانسيفت ببيعتهم للسّلطان المؤيَّد أبي يوسُف، بَعثَها له قاضيهم [صُحبةَ][3] وَلَده أبي[4] عبد الله وصِهرِه تـمّام، وأبي عُمرَ حَجّاج، وأخبروا لأبي زكريّا بن حازم... [5] أبي دَبّوس إلى جبالهم بأولادِهم وعيالِـهم وبعض خيلِهم ورجالِـهم.

وخَرج الناسُ... [6] المنصورِ أبي يوسُف، فدخَلَها في يوم عاشوراءَ العاشر لمحرَّم من سنة ثمان وستينَ المؤرَّخة المذكورة[7].

---

(١) فراغ في النسخ قدر كلمة.

(٢) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٣) فراغ في النسخ، ولعل ما أثبتناه يوضح المعنى المراد.

(٤) في النسخ: «أبا»، ولا تستقيم لما سيأتي بعد، ومثله كثير في النسخ تجاوزنا عنه.

(٥) فراغ قدر ثلاث كلمات.

(٦) فراغ في النسخ قدر أربع كلمات.

(٧) فراغ في ق، ك، ب، والمثبت من ر٣.

وانقَضَت دولةُ بني عبد المؤمن ودرَسَت... [1] منارُها، فسبحانَ مَن لا يَبِيدُ مُلكُه، ولا يَفنَى دوامُه[2].......... [3]

في منامِه هذَيْن البيتَيْن فورِّخَ ذلك اليومُ[4]، فكان يومَ مقتلِ أبي دَبّوس الواثق [من مخلّع البسيط]:

مُلْكُ بني مؤمنٍ تولَّى — وكان عندَ السِّماكِ سمكُهْ
فاعتبِروا وانظُروا وقولوا — سبحانَ مَن لا يَبِيدُ مُلكُهْ[5][6]

---

(١) فراغ في النسخ قدر كلمتين.

(٢) إلى هنا انتهت نسخة ق.

(٣) فراغ في النسخ.

(٤) إلى هنا تنتهي نسخة ب وك، وما يأتي من ر٣.

(٥) كتب هذان البيتان في حاشية ر٣.

(٦) جاء في آخر نسخة ك: «انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم. وكان الفراغ منه بين صلاة الظهرين من يوم الاثنين الموفي عشرين... للشهر المبارك شعبان سنة خمس وستين وألف ومئة. والحمد لله ربِّ العالمين».
ملاحظة: كتبت ألف ومئة بالأرقام، وهناك طمس بعد لفظة عشرين. وكتب في آخر نسخة ق بخطّ مغاير لخطّها ما يأتي:
«الحمد لله وحده. استودع كاتبه هنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ. وكتبها بيده الفانية في الأول من رجب الفرد عام ١٢٢٦ عُبيد ربّه تعالى وأقل عبيده محمد المكي بن الحسن بن الحسين بن محمد بن محمد بن ناصر غفر الله ذنبه وستر عيبه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».
وجاء في آخر نسخة ر٣ ما يأتي:
«انتهى ما وجد من السفر الأخير من البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري رحمه الله، نحمد الله حمدًا كثيرًا، وصلى الله على نبيّه المبعوث بشيرًا ونذيرًا».

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



دار الغرب الإسلامي
تـونـس
لصاحبها: الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية بالفي - تونس – فاكس: 0021671396545 – خلوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 537/ 1000-10- 2013 تونس
التنضيد: المؤلف
الطباعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 3

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS